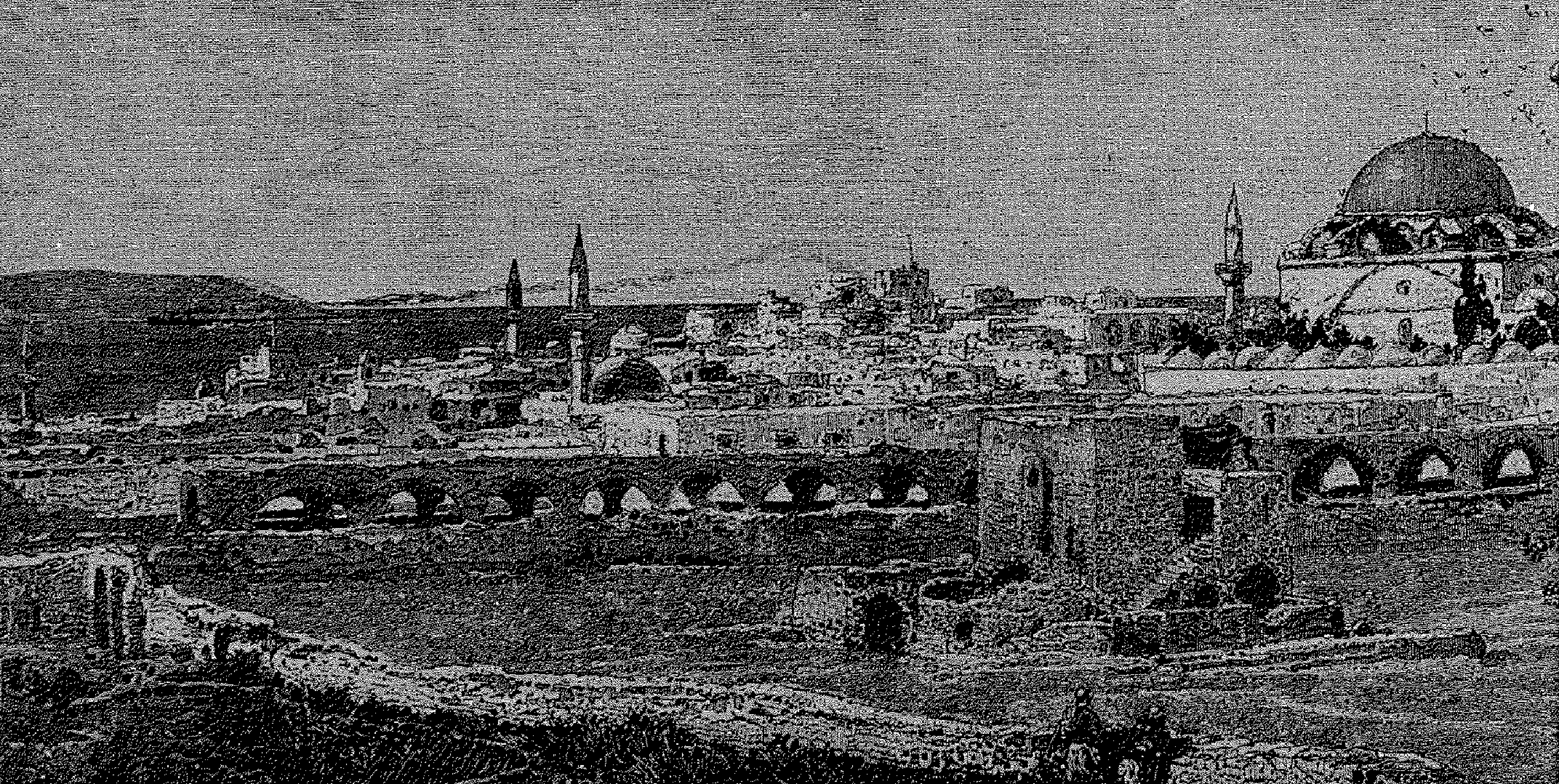
شؤون فلسطينية

١١

آب (اغسطس) ١٩٧٢



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ١٢ — آب (اغسطس) ١٩٧٢

دورية فكرية لمعـــالجة احداث القضية الفلسطينية وشـــؤونها المختلفة .
تصدر شهريا عن مركز الابحـــاث في منظمـــة التحرير الفلســـطينية .

سكرتير التحرير : ابراهيم العابد **متعهد التوزيع** : جبريل ديب .

هيئة التحرير : د. ابراهيم ابو لغد ، بلال الحسن ، احمد خليفة ، الحكم دروزة ، محمود درويش ، د. يوسف شبل ، د. نبيل شعث ، د. صادق العظم ، ناجي علوش ، حبيب قهوجي ، د. محمد المجذوب ، عبد الحفيظ محارب ، د. حنا ميخائيل ، هاني الهندي .

جميع الآراء الـــواردة تعبـــر عن وجهـــات نظر كاتبيهـــا ولا تعكـــس بالضرورة آراء المحررين ولا المســـتشـــارين ولا النـــاشرين .

العنوان : بنايـــة الدكتـــور راجي نصر ، شـــارع كولومبـــــاني (متفرع مـــن الســـــادات) ، راس بـــيروت ، بـــيروت ــ لبنـــــان ، ص. ب ١٦٩١ ، تلفـــون ٣٥١٢٦٠ ، برقيا مرأبحاث ، بـــيروت .

ثمـــن العـــــــدد (بريد جوي) : ٢١/٢ ل.ل. في لبنان وسائر الوطن العربي، ٤ ل.ل. في آسية وافريقية واوروبة ، ٦ ل.ل. في الاميركتين واوستralية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٣٠ ل.ل. في لبنان والوطن العربي، ٥٠ ل.ل. (١٦ دولارا اميركيا) في آسية وافريقية واوروبة، ٨٠ ل.ل. (٢٦ دولارا اميركيا) في الاميركتين واوستralية . (بريد عادي) ٤٠ ل.ل. (١٣ دولارا اميركيا) في سائر الدول الاجنبيـــة .

يعطى حسم ٥٠٪ (عدا البريد) على الاشتراكات للمقاتلين والعمال اذا جاءت الطلبات من خلال التنظيمات او النقابات او الاتحادات .

: الشهيد غسان كنفاني
ومسقط راسه عكا

المحتويات

شؤون فلســطينية

الدكتور انيس صايغ

شهدت الاوساط الفلسطينية (وخاصة في لبنان) في شهر يونيو عددا من المسائل التي أثارت نقاشات حادة ولم ينقسم الفرقاء حولها حسب تنظيماتهم ولا خلافاتهم الايديولوجية وانما كانت المواقف تنتج في معظم الاحيان عن قناعات ذاتية خاصة وتفسيرات اجتهادية. ومشاركة من « شؤون فلسطينية » لمعالجة هذه الامــور واعطاء رأي هادىء وهادف فيها ، طلبت من غسان كنفاني أن يكتب لها تعليقه حولها ، وكمحاولة منه للتهرب من تلبية الطلب — وكان ، كعادته ، غــارقا في ألف مسألة : اعلامية وتنظيمية وتحريرية وسياسية وتخطيطية — تساءل : ولم أنا بالذات ، وبين الكتاب الملتزمين العشرات من هم أكثر امتلاكا لاوقاتهم ؟ وكان الجواب : لانك ، مع هذا ، أنت الاكثر جرأة على معالجة هذه المسائل دون مراعاة الحساسيات التي لا معنى لها ودون الموقف من ادانة فعل مقبول عموما أو تبرير فعل مرفوض عموما . وكتب غسان المقال . وسلمه في وقت مبكر . وارسل الى المطبعة وأجريت عليه المراجعات التصحيحية الطباعية الخمس التي تقوم بها المجلة عادة . وفي صباح السبت ، الثامن من يوليو ، هيئت البروفه النهائية لترسل له ليتولى بنفسه المراجعة الاخيرة . وكان غسان ، في تلك اللحظة بالذات ، يتوج نضاله المشرف ويصل بعطاءاته لفلسطين ، وما أكثرها ، الى قمة التضحية .

أن يستشهد غسان كنفاني أمر طبيعي . فلقد استشهد في كل لحظة من سيرة نضاله من أجل البلد الذي أحب والذي خلد في أروع ما يكون التخليد (في الكتابة السياسية والادب والفن ، في السلوك ، في الالتزام) . وسيرة نضاله هي ، في الواقع ، حياته العملية كلها. ولقد طلب الاستشهاد بنفسه . ولقد عمل له . ولقد سعى اليه . وذلك لانه آمن به . آمن بأن العمل لفلسطين لا حدود له . وان المشاركة في حرب التحرير لا تكون من بعيد . وان الكتابة الثورية (وهي مهنته وهوايته وقناعته ولذته ومعاناته في آن واحد) لا معنى ولا أثر لها اذا لم تتجسد بالممارسة والسلوك اليومي . وان الثورة لا تتحمل المواقف الوسط ، ولا المهادنة ، ولا التأجيل ، ولا الاستراحــة ، وان الكلمة الثائرة لا تعرف المواربة ، ولا الدبلوماسية ، ولا التلفيق ، ولا الاصطناع .

كانت شؤون فلسطينية تعتز بغسان كنفاني رفيقا وزميلا : يكتب لها ، يشترك بندواتها ، يشير عليها ، يعلق على محتوياتها — وما أكثر ما كان يغضب لبعض محتوياتها ، وينتقد بقسوة (وبصدق وباخلاص) ، وما أكثر ما كان يثور على محرريها ، وعلى بعضهم بوجه خاص ، « سأغتالكم . سأكسر أقلامكم . سأخلص فلسطين من تحاملكم » . ثم يهدأ . ثم يكتب لنا ثانية . ويشترك معنا في تحرير العدد المقبل . ويقدم النصح من جديد . وبين الثورة الغاضبة والمشاركة جلسة بسيطة نكتشف خلالها ، هو ونحن ، أن لا خلاف بيننا ، وانه جزء لا يتجزأ من شؤون فلسطينية ، شاء أم أبى وشئنا أم أبينا .

وكسائر اجهزة الثورة الفلسطينية ، تخسر « شؤون فلسطينية » في غياب غسان كنفاني واحدا من أخلص وأقدر وأجرأ رجالاتها . ولكنها ، وبشكل خاص ، تخسر أيضا صوتا مشجعا ونبرة محذرة وقلما جبارا وقلبا واسعا ، وتخسر أخا .

حق الثورة علينا الا نبكي غسان . وحق غسان علينا أن نغبطه شرف الاستشهاد . انما الحقيقة القاسية والبشعة تبقى : لقد خسرنا هذا الرجل ، باخلاصه وقدرته وجرأته ، بصوته المشجع ونبرته المحذرة وقلمه الجبار وقلبه الواسع . وخسرنا الاخ . ولسوف نفتقده كثيرا . ولسوف نفتقده طويلا .

أنيس صايغ :
مناضل آخر يدفع ثمن الكلمة الحرة

أسرة تحرير « شؤون فلسطينية »
العاملون في مركز الابحاث

أنيس صايغ نفسه ، وبخط يده ، كتب افتتاحية « شؤون فلسطينية » عن شهيدنا البطل غسان كنفاني . وبعد أيام قليلة وقبل أن تصل كلماته الى المطبعة، كان هو نفسه يتعرض لحادث مماثل ، دفع فيه ضريبة الكلمة الحرة التي قالها وكتبها وأنشأها منظمة اعلامية ضخمة ، تخدم القضية الفلسطينية بالعلم والحقيقة ، بعد أن هزمت طويلا بالجهل والغموض .

واذا كان هذا الحادث الذي تعرض له الدكتور صايغ يملأنا جميعا — خاصة نحن الذين نعمل معه — بالالم والحزن ، الا اننا بالاضافة الى ذلك مليئون بشعور الفخر والاعتزاز . فان تتوجه اسرائيل الى رجالات الفكر الفلسطيني بمحاولات النسف والاغتيال ، فذلك يعني بالدرجة الاولى ان اسرائيل تخاف من الكلمة الحرة اكثر مما تخاف من الرصاصة ، ذلك ان الكلمة الحرة هي التي تصنع الرصاصة في النهاية ، وهي التي تحفر لها طريق المستقبل ، وهي التي تحميها وترعاها من أجل بناء وطن عادل لا اضطهاد فيه ولا تشريد ولا ارهاب .

ودور أنيس صايغ في بناء الكلمة الفلسطينية الحرة ، دور معروف . ولكن ما هو معروف منه لا يتعدى الكتاب الذي يصل الى كل قارىء ، وعلى امتداد رقعة واسعة من العالم ، حاملا الصورة الواقعية لاسرائيل الارهاب والتشريد ، والصورة الواقعية الاخرى لفلسطين الثورة والنضال . أما ما هو غير معروف عن دور أنيس صايغ ، والذي نعرفه نحن العاملين معه ، فهو ذلك التفاني الذي لا مثيل له في العمل الصامت الدؤوب ، والذي يبني ويبني ، في كل لحظة وفي كل ساعة ، من أجل عمل يصل الى يد كل مقاتل ، والى عقل كل مناضل ، والى مكتب كل اعلامي عربي وأجنبي ، ليتمكن من رؤية اسرائيل والقضية الفلسطينية من منظار واضح .

في هذا المجال ، كان أنيس صايغ ولا يزال ، انسانا لا يجارى . فهو دائما أول من يصل الى العمل ، وهو دائما آخر من يغادره . عقله يضج بالمشاريع ، ومشكلتنا معه دائما أن نصل الى نقطة التوازن بين طموحاته وامكانياتنا . ولكنه من خلال كل ذلك ، من خلال الكثير الذي انجزه ، ومن خلال الكثير الذي لا يزال يحلم بانجازه ، أقام مؤسسة علمية مكرسة لفلسطين ، يمكن القول بكل فخر أنها الاولى من نوعها حتى الآن . ويمكن القول بكل فخر أيضا ان الفضل الاول في بنائها يعود له .

ولانه كان كذلك استهدفه الارهاب الاسرائيلي . واذا كان هذا الارهاب لم يستطع النيل من حياته ، فهو بالتأكيد لن يستطيع النيل من ارادته . ومركز الابحاث الفلسطينية المستمر في عمله وانتاجه ، والحريص على متابعة النهج العلمي الذي بني عليه ، ينتظر تماثل الدكتور انيس صايغ للشفاء ، وينتظر عودته ليستمر في أداء رسالته .

وهذا الانتظار ليس في حقيقته رغبة منا فقط ، بل هو تجسيد لقناعة أنيس صايغ نفسها حين كتب عن غسان كنفاني يقول ان « سيرة نضاله هي في الواقع ، حياته العملية كلها . ولقد طلب الاستشهاد بنفسه . ولقد عمل له . ولقد سعى اليه . وذلك لانه آمن به . آمن بأن العمل لفلسطين لا حدود له » .

عرس الدم الفلسطيني

● لم تختلف نهاية غسان كنفاني عن بدايته الا بمدى ما تختلف مراحل تطور مأساة الانسان الفلسطيني . ولا تتصل نهاية غسان كنفاني ببدايته الا بمدى ما تتصل حلقات هذه المراحل . من هنا ، لا تكون هذه النهاية قفزة أو تحولا وانما هي تسلسل طبيعي بكل ما تحمله الكلمة من دقة وفجيعة .

ذلك ، لان غسان كنفاني الـذي هو رمز مكثف لالتحـام ما يحمله من وجوه التعبير والممارسة ، كان منسجما كل الانسجام مع نفسه التي هي قضيته ووطنه في آن واحد . وكان متطابقا مع ما يمثله من سلوك وكلمة . ومن هنا أيضا ، سيجد الدارسون صعوبة واضحة في محاولة تصنيف شخصيات غسان كنفاني ، لان فصل الواحدة عن الاخرى قد يؤدي الى عملية قتل . لان غسان كان واحدا لا يتجزأ مهما تعددت ظواهره ومظاهره التعبيرية . وهذه الحقيقة النادرة في تاريخ ممارسة الكتابة العربية الحديثة هي ، بحد ذاتها ، ما تعطي غسان كنفاني هذا الحجم الذي يفجر حياته القصيرة ويتجاوزها . انه شبيه بالينبوع الذي لا يتسع مجرى النهر لغزارة مياهه ، فيفيض جداول فرعية توهم الناظر اليها بأنها مختلفة . وهي ليست سوى أشكال متعددة لجوهر واحد .

عاش غسان كنفاني حياة قصيرة ، ولكنها عريضة كما يقولون . ولم يكن ابنا بارا لشعبه ووطنه بالمفهوم الاخلاقي للكلمة فحسب . ولكنه كان ابنا بارا لشعبه ووطنه بالمفهوم الابداعي للكلمة أيضا . ما اختار مصيره وبدايته ، ولكنه اختار الالتزام الابداعي بتطوير هذا المصير ، فكان من الرواد الاوائل للارهاص الوجداني والفكري بميلاد الشخصية الفلسطينية الجديدة . وهي الشخصية المقاومة . لم يجهض هذه النتيجة الحتمية بتكهنات مترفة . فقد رافق الشخصية الفلسطينية ــ وهي هو على السواء ــ منذ مرحلة التمزق الاولى ، الى مرحلة التشرد والضياع ، الى مرحلة الذل والابادة ، حتى مرحلة المقاومة والموت . لم تكن غربته شخصية ، فالتمزق الراهن ناتج عن تمزق آخر ــ هو تمزق الوطن . وهكذا توحد السعي نحو التئـام الشعب الفلسطيني مـع السعي نحو التئام الوطن . وكان غسان كنفاني ــ الفلسطيني حتى النخاع ــ مـن رواد الباحثين الاكثر أهمية عن تجميع ملامح هذه الهوية الفلسطينية التي أن تلتئم ما دامت لاجئة . من هنا ، يصبح التمرد على صيغة اللاجيء هو مفتاح امكانية العودة . كيف يكون هـذا التمرد ؟ الموت واقع لا ينجو منه الفلسطيني ، ولا يملك ازاءه اختيارا . ولكـن بوسعه ان يختار طريقته الخاصة في الموت . وهكذا عثر غسان كنفاني ــ الفلسطيني والفنان ــ علـى صيغة الفلسطيني المقاوم ، صاحب الماضي العريق في المقاومة ، ثـم تجسدت فكـرة المقاومة بالكائن البشري الذي يمارسها وهو الفدائي .

لم يكن غسان كنفاني صبورا ، فمن وصل ساحـة الموت لا يتحلى بالصبر . ان شراهة الحياة تجعله كالعاصفة .. مندفعا ومتفجرا على الدوام . ووصف المقاومة والفداء ليس صفة غسان . انخرط في الممارسة النضالية وسط شعبه ، وهنا ، أيضا حقق التطابـق الرائع بين حركتين أو بين ثوريتين ــ حركة مضمون الادب الثوري والممارسة الثورية . فكان نموذجا لتلاحم من طراز فريد . يتساءل النقاد والادباء عن دور الاديب ازاء كـل

محنة ، وكثيرا ما يطرح هذا التساؤل في المواسم المأساوية . ولكن مأساة غسان لم تكن موسمية . وتلك حقيقة بسيطة لا يعيها الجميع - ومن هنا ، لم يتساءل غسان عن دوره . لقد مارس دوره بهذا الزواج الخلاق بين الحلم وبين قبضة اليد ، بين الكلمة وبين الخطوة . ولم تكن نهايته طلاقا لصحبة العمر او قدر العمر ، وانما كانت حفلة زفاف دموي لذلك الزواج التاريخي الذي لم تتح لنا الايام العاصفة فرصة الاحتفال به . هكذا التحمت نقطة النهاية مع نقطة البداية لتشكل دائرة رمزية متوهجة لتاريخ غسان كنفاني ولتاريخ شعب فلسطين ولتاريخ الصراع . كل الناس لاحظوا التشابه الرمزي الجارح حتى البكاء بين مأساة البداية ومأساة النهاية .. بين جسد غسان وبين جسد الوطن .. بين طريقة تمزيق غسان وبين طريقة تمزيق شعب ووطن . وغسان كنفاني نفسه كان يلاحظ هذا التشابه قبل وصوله الى حد التطبيق . لقد وصلت رؤياه الى النهاية قبل أن يصل جسده .

من هنا ، تكون حياة غسان درسا لا رمزا فقط . ليس الدرس الذي ينتظره الاعداء — النهي عن المسيرة ونشر الفزع في القلوب . ولكنه الدرس الذي ينتظره الثوريون الحقيقيون — تعميق الاصرار على الاستمرار ، وتحرير الرغبة في الانتقام من معناها القديم واغناؤها بمزيد من الالتزام الثوري الخلاق بالوطن والثورة ، لان مقتل غسان لا يعادله مقتل عدو مهما كبر ، لا يعادله الا المثابرة على تحقيق احلامه واحلامنا التي نسفته . وهو درس لكل من يتعامل مع القلم الصادق ، لا الدرس الذي ينتظره الاعداء — تنصيب شبح اسرائيلي على عقل الكاتب ووجدانه . ولكنه الدرس الذي ينتظره الثوريون الحقيقيون — تحرير القلم من التردد ازاء النكسات ، وتحقيق الوحدة والتزاوج العميقين بين حركة الفكر والابداع وحركة الثورة . ان استشهاد أول كاتب فلسطيني منذ ما يزيد عن عشرين عاما لهو دليل ساطع على خطورة القلم في مسيرة الانسان الفلسطيني وعلى دوره الخلاق في المعركة من ناحية ، وهو دعوة للكتاب الى سد الفراغ الذي يتصور الاعداء أنهم قد خلقوه بغياب غسان كنفاني من ناحية أخرى .

لقد علمنا غسان دروسا كثيرة في الانسجام والصدق والاحتراق من أجل قضية قاتلة . وأول ما علمنا اياه هو أن الفلسطيني يفقد ذاته وحضوره الانساني في العالم والكون اذا كف عن أن يكون فلسطينيا . والفلسطينية ليست انتماء الوراثة والحنين الى أشياء ضائعة وانتظار الانبعاث العربي . الفلسطينية معناها ثورة ، وتغيير ، وتفجير ، وابداع . ان غسان درس سياسي وأدبي واخلاقي معا . لم تذهب لحظة من حياته سدى . كان ملحمتين : ملحمة شعب ، وملحمة ابداع . لا تعرف أين يبدأ غسان الثائر وأين يبدأ غسان المبدع . ذلك لان الثورة الحقيقية والابداع الحقيقي معادلة واحدة . الثورة ابداع . والابداع ثورة . لقد اختار الموت المبدع تعبيرا مأساويا حتميا عن انتمائه الى الحياة . ولكنه لم يتمكن من اختيار الارض التي يموت فيها . هذه هي مأساته ، وهذه هي مأساتنا جميعا . وتلك هي الغصة الباقية مهما بلغنا من سعادة الموت الحقيقي المختار .

هذه هي المأساة

وهذه هي الوصية ...

لان موت غسان كنفاني ليس موت كاتب أو مناضل فقط .

انه انفجار قضية ..

قضية شعب ..

وقضية وطن .

محمود درويش

آخر ما كتب غسان كنفاني

حول قضية ابو حميدو
وقضايا « التعامل » الاعلامي والثقافي مع العدو

في الفترة القريبة الماضية تفجرت احداث جزئية شغلت الكثير من الناس ، حول قضايا تتعلق بالمقاومة بالذات ، ولم تكن هذه الاحداث في حد ذاتها مهمة ، ولكنها كانت مناسبة لالقاء نظرة الى جذورها ، ومع ذلك فان مثل هذه النظرة لم تتح الى الآن ، ليس فقط لانغماس الكثير من المتناقشين في التفاصيل السطحية لهذه الاحداث ، ولكن أيضا بسبب التسارع المستمر للتطورات المحيطة بحركة المقاومة ، بحيث يندر أن تتاح الفرصة للقيام بامتحان عميق لحدث من الاحداث ، من جميع جوانبه ، قبل ان يطغى حدث جديد يشد الانتباه اليه ، ويغطي على ما عداه ، وهكذا .

لعل أبرز أحداث الفترة التي نتحدث عنها ، والتي تندرج في قائمة المواصفات التي أشرنا اليها ، هي مسألة « أبو حميدو » ، والضجة التي أثارتها الاتهامات التي وجهت اليه حول ما قيل عن قيامه باغتصاب فتاتين ، هما شقيقتان ، من بلدة حاصبيا مما دفع شقيقهما الى اطلاق الرصاص عليهما وقتلهما ، وردود فعل سكان البلدة الذين هبوا لغسل العار الذي لحق بهم ، ثم قرار محكمة الثورة القاضي بانزال حكم الاعدام بالفدائي « ابو حميدو » وذلك « كي يكون عبرة لغيره » ، على ان يجري تنفيذ هذا الحكم في ساحة البلدة ، وبقية القصة معروفة : فقد رفض سكان البلدة اعدام ابو حميدو ، وطالبوا بانسحاب الفدائيين من البلدة وجوارها ــ وقد انسحب الفدائيون فعلا ، وقصفتهم الطائرات الاسرائيلية ظهر اليوم التالي قبل أن يتمكنوا من مواقعهم الجديدة ، وتمويهها ، ولكن الطائرات الاسرائيلية قصفت ، أيضا ، شوارع البلدة ذاتها دون تمييز . وقيل فيما بعد ان « ابو حميدو » اصيب بجراح اثناء تعرض المنطقة للقصف ، ولعله كان واحدا من نزلاء السجن الذي تعمدت الطائرات الاسرائيلية ضربه .

وفي الوقت الذي كان حادث ابو حميدو ، وذيوله ، تشغل الجزء الاكبر من المناقشات المحتدمة في تلك الفترة ، كانت قضية أخرى تتفاعل على مستوى أقل حدة ، وهي قضية يمكن تلخيصها بـــ : حدود وضوابط العلاقات الاعلامية والثقافية عموما ، مع العدو الاسرائيلي . ففي تلك الفترة اخذ طالبان على عاتقهما امر الاشتراك في برنامج تلفزيوني بريطاني ، من قبرص ، قاما اثناءه بمناقشة مباشرة مع طالبين اسرائيليين حول قضية فلسطين . وفي الفترة نفسها أخذت قضية « فنلي » ، في كلية بيروت للبنات ، (وهو الاستاذ الذي تغاضى عن وجود مقطع في كتـــاب دراسي مقرر ، يبـــرر الاغتصاب الصهيوني) ، تتفاعل ، وتنتقل الى صفحات الصحف اليومية ، وتصل الى حد المطالبة بطرد الاستاذ المذكور . اما قضية وجود مرجع طبي اسرائيلي في مكتبة الجامعة الاميركية، فقد أخذت حيزا أقل من الاهتمام ، ومع ذلك فقد أدت الى طرح المسألة الاساسية في هذا النطاق .

ولا تشكل هذه القضايا الثلاث شيئا جديدا تماما ، فقد حدثت أمور تماثلها مرات عديدة خلال السنوات الماضية ، والواقع انه لا يمكن اكتشاف منطق معين للاسباب التي تؤدي الى ظهورها فجأة ، واحتدام النقاش حولها ، مرة بعد الاخرى ـــ وقد يحدث ذلك في فترة يكون فيها العدد الاسبوعي من « الاكسبرس » الفرنسية (مثلا) موجودا في كل مكان من بيروت ، ويخصص عدة صفحات لشتم عنصري وديني للعرب ، دون ان يقوم أحد ليس بمنع « الاكسبرس » او مناقشة موقفها ، ولكن حتى بعتاب مراسلها في بيروت ! وهذا ما كان يحدث فعلا في الفترة التي كان البروفسور فنلي معرضا لنقـــد شامل في صحافة بيروت !.

على ان المهم في هذه القضايا ، والاشكال المختلفة التي تظهر فيها بين الفينة والاخرى ، هو انه طوال الفترة الماضية لم يكن بالوسع التوصل الى مقاييس وقوانين فيما يتعلق بحدود وضوابط الصلة الاعلامية والثقافية عموما ، مع العدو ـــ وهكذا ظلت الامـــور خاضعة في معظم الاحيان لتقديرات شخصية ، وظلت الاحكام بشأنها هي الاخرى احكاما فردية ، ومزاجية في أحيان كثيرة .

لنحاول ، فيما يلي ، القاء نظرة على هاتين القضيتين : قضيـــة أبو حميدو ، وقضية النشاطات الاعلامية والثقافية للعدو ، وعلاقتنا بها ، على جميع المستويات .

قضية أبو حميدو

لا يمكن فهم هذه القضية دون تفكيكها الى عناصرها الاصلية ، والا ظلت بالنسبة لنا كتلة من الغموض ، ومن الانفعالات التي لا تفسر ، وبالتالي لا يمكن حلها . واني أرى انه كي يكون بوسعنا الاحاطة بهذه المسألة (وبالدرجة الاولى : بدلالاتها وجذورها) علينا تقسيمها الى ثلاثة أجزاء رئيسية : موقف الثورة ، اي ثورة ، مـــن الانتهاكات التي يرتكبهـــا عناصرها ـــ الاغتصاب وجرائم العرض ـــ علاقة المقاومة بالاهالي .

أ ـــ موقف الثورة من الانتهاكات التي يرتكبها أعضاؤها :

لا يجادل احد في أن الثورات عادة تطلب من عناصرها درجة عالية من الانضباط المسلكي، خصوصا ازاء تقاليد الجماهير في فترات الاحتكاك معها في عهود الكفاح المسلح . ويصل هذا الانضباط الى حد جعـــل الكثير من المفكرين ومؤرخي الثورات يعتقدون ان احد الاخطار الكبيرة التي تواجـــه الجيوش الثورية هي تحولها ، نتيجة للضبـــط الحديدي لمسلكيتها ، الى قوة محافظة في المستقبل . ويقول لنا جون ريد ، مثلا ، ان التعليمات التي حملها الجيش الاحمر معه حين اكتسح المقاطعات الاسلامية في الصين ابان الثورة كانت تطالب بمسلكية معينة وقاسية لا تكاد تصدق ، الى حد كانت معه تعليمات الرئيس مـــاو للجنود الصينيين تصل الى الطلب بأن لا يتلفظوا قط ، امام المسلمين ، بكلمة « كلب » او « خنزير » او « خمر » .

وليس استثنائيا على الاطلاق ان يقوم الجيش الثوري باعدام عنصر من عناصره اذا ما اغتصب فتاة ، وقد حدث ذلك مرات لا يحصيها العد ، بل ان الجيوش الثورية، في فترات احتدام حرب الشعب الوطنية ، تصدر احكاما بالاعدام على عناصر من صفوفها لاسباب تبدو أحيانا ، اذا ما نظر اليها من الخارج ، اقل شأنا من الاغتصاب .

ومن هنا فان الحكم باعدام فدائي اغتصب قروية هو من حيث المبدأ اجراء لا يمكن وصفه بأنه غريب أو انه استثنائي ، ولكن اصدار حكم من هذا النوع يجب أن يرتبط ، من بين أمور عديدة ، بأمرين اساسيين : **أولهما** : التحقيق بالامر وفق أصول علمية ، ذلك لان جريمة الاغتصاب هي واحدة من اعقد الحالات الجرمية ، خصوصا اذا ما نظر اليها من زاوية ثورية ، وليس من زاوية الانسياق في نسخ التقاليد بصورة آليـــة . (وسنرى

تفاصيل ذلك حين نصل الى بند الاغتصاب وجرائم العرض) . **وثانيهما** : ضرورة قياس حادث من هذا النوع وفق القوانين التي جرى تربية عناصر الجيش الثوري على اساسها: درجة الانضباط ، درجة التسيس ، والشروط المسلكية التي يعتمدها هذا الجيش ، والى آخر ما هنالك من قوانين ، ودون وجود مثل هذه القوانين الثورية اصلا في صلب التربية السياسية والعسكرية للقوات المسلحة ، فانه من غير المنطقي تطبيق تلك القوانين فقط عند حالات العقاب .

اذا عدنا الآن ونظرنا الى حادثة « ابو حميدو » من خلال هذين الشرطين ، وجدنا أن ما حدث يكاد يكون مهزلة ، وسنرى فيما بعد لماذا كان كذلك .

فمن الواضح أن « ابو حميدو » لم يغتصب الفتاتين ، ولا واحدة منهما — وان حالة التحرش التي حدثت ، على سذاجتها ، لم تكن حالة مبسطة (بمعنى ان ابو حميدو ليس هو الذي سببها جملة وتفصيلا) — وان الموضوع كله اخذ على اكثر اشكاله سذاجة وبساطة ، وجرى التحقق منه من خلال ردة فعل الشقيق الذي اغتال شقيقتيه دون مبرر، واعتبر سلوك الشقيق وكأنه برهان على خطأ شقيقتيه وجريمة ابو حميدو ، وهو اعتبار غير جائز بالطبيعة ، خصوصا حين تأخذ به ثورة تحكم على أحد عناصرها بالموت .

ولكن الامر الآخر ليس أقل أهمية ، وهو الامر الذي يلخصه السؤال التالي : هل نشأ « أبو حميدو » ، داخل قوات الثورة ، على درجة من التربية السياسية والنضالية ، والانضباط التنظيمي الحديدي ، موازية في منطقها وصرامتها لهذه الدرجة من العقاب التي نزلت به حين أخل بالسلوك المطلوب ؟

لقد ذكرنا في السطور السابقة ان الجيوش الثورية ، في فترات حرب الشعب الوطنية ، وعلى الاخص حين يكون الصراع المسلح محتدما ضد العدو وسط الجماهير ، تضع شروطا قاسية على مسلكية عناصرها ، وغالبا ما تسمح لنفسها بدرجة ليست قليلة من الانحناء أمام التقاليد السائدة حين لا تكون هذه التقاليد في السطر الاول من جدول التناقض الراهن — ولكن هذه الجيوش لا تفرض تلك الشروط كما تفرضها قوانين العقوبات العسكرية النظامية، ولا تفرض تلك الشروط من خلال منطق التخويف بالعقاب، ولا تفرضها من خلال سطوة الارهاب ، ولكنها تبنيها تدريجيا من خلال الوعي ، بحيث يصبح التزام المناضل الثوري بهذه القوانين المسلكية جزءا من واجباته النضالية ، لا الزام فيها ولا جزاء ، مستندة الى الوعي الثوري ، وقائمة على الانضباط التنظيمي ، ومستمدة من القناعات الذاتية العميقة .

عندها يصبح تحطيم هذه القوانين جريمة كبيرة ، تستحق تلك الدرجة من العقاب — وهذا بالذات ما يفسر منطق الثورة حين نجعل عقاب جريمة الاغتصاب الاعدام ، في حين ان القوانين المدنية العادية لا ترى في هذا العمل ما يستوجب عقابا لا يصل في أقصى الحالات الى أكثر من خمس سنوات من السجن . . ذلك لان الثورة تعتبر جريمة الاغتصاب جريمة سياسية ايضا .

من هنا ، فانه حتى لو ارتكب « ابو حميدو » جريمة اغتصاب فتاة من بنات الشعب ، فان الشروط الثورية تقتضي النظر الى هذه الجريمة — اذا ما أردنا اعتبارها جريمة سياسية ايضا — من خلال الوعي ، واذا نظرنا اليها من خلال وعي ابو حميدو ، صار لزاما علينا ان نضع نصب أعيننا امتحان أسلوب التربية السياسية في التنظيم الذي ينتمي اليه ، فاذا كانت التربية السياسية في ذلك التنظيم متقدمة ، وقائمة على التوعية والانضباط والمسلكية الثورية والعلاقة الحميمة مع الجماهير ؛ فان العقاب الذي ينزل بمرتكب الجرم ، عندها ، يكون غيره فيما لو كان التنظيم المشار اليه متسيبا ، وفاقدا لعناصر التثقيف السياسي والانضباطية المسلكية ، وغير مكترث بالجماهير أو مهتم بها .

ان نشاط اية « محكمة ثورية » ــ على وجه العموم ــ لدى ثورة من الثورات ، يجب ان يكون مستندا الى قوانين ، وهذه القوانين عادة تنبثق من النظــام الداخلي لتنظيم ما او حزب او جبهة ، ومن اللوائح التنظيمية الملحقة به ــ ومن المفهوم ان الانظمة الداخلية لحزب او لحركة او لجبهة هي انعكاس للايديولوجيا التي تسترشد بها ، وهذا يدلنــا ، بصورة مختصرة ، على الحيثيات الكامنة وراء منطق العقاب، في الثورة ــ هذا العقاب الذي يستند الى نظرة للانسان وللعالــم تختلف عن تلك التي تنتهجهــا الانظمة والدول الخاضعة لسيادة البورجوازية ، او الاقطاع ، او الواقعة تحت الاحتــلال . فالثورة لا تستطيع الا ان تربط مسألة العقاب بالوعي ــ ومن البديهي ان الوعي ، بالنسبة لعضو في تنظيم معين ، مرتبط ارتباطــا شديدا بالمسألة التنظيمية ، ويجب النظــر الى منطق العقاب من خلال ذلك كله .

ب ــ الاغتصاب وجرائم العرض :

كما هو واضح فان جريمة الاغتصاب ، في مجتمع مثل مجتمعنــا ، هي جريمة معقدة ، وتكاد تكون لكل واحدة منها شروط تختلــف عن الاخرى . انه من التكــرار التذكير بان مجتمعا متخلفا ، يضع حواجز قاسية بين الجنسين ، ولا يستطيع ان يقدم حلا منطقيا لمشكلة الكبت (خصوصا بعد انتهاء عادة الزواج المبكر) ، وفي الوقت نفسه يتسامح ازاء نشر الصور العارية ، والافلام الاباحية ، وترويج منطق « التحرر » الجنسي واخلاقياته على جميع المستويات ، والتحريض عــلى اعتباره منطــق المثل الاعلى المنشود ــ ان مجتمعا من هذا النوع لا يمكن ان تكون الجرائم الجنسية فيه ، بما في ذلك الاغتصاب ، احداثا بسيطة او احداثا يمكن الحكم عليها ببساطة . ويتوجب علينــا ان ندرك ان هذه « الجرائم » ، على مختلف مستوياتها ، هي افعال مركبة ومعقدة وتخضع كل واحدة منها الى شروط فريدة ، لا نستطيع الا ان ندرسها اذا اردنا ان تكون احكامنــا عليها دقيقة وغير جائرة .

والمشكلة هي انه مع ازدياد تعقيد واقع الجريمة الجنسية ، وحوافزها ونتائجها ، فان جرائم العرض ــ كرد تقليدي على جرائم الجنس ــ ما زالت تحتفظ بمنطقها القديم اياه ، وتوفر لها القوانين الرجعية ، وكذلك منطق الانظمة البورجوازيــة المتخلفة ، جوا من الحماية الكافية لضمان استمرارها : فهــذه الانظمة ، بالرغم من دورها المباشر وغــير المباشر ، في خلق مسرح الجريمة الجنسية ، فانها تهرع الى مساندة مجرمي العرض ، قتلة اخواتهم وزوجاتهم وبناتهم وامهاتهم وبنات عمومتهم ، بفرض عقاب شكلي ــ في حين انها تقف عاجزة عن تقديم اي حــل لحماية تلك الاخوات والزوجــات والامهات وتوفير استمرار الحياة لهن .

ان حادثة « ابو حميدو » هي نموذج لهذا المنطق غير المتزن الـذي خضع له الجو العام طيلة ايام الازمة :

● فقيام شقيق الفتاتين بقتلهما هو عمل لا مبرر لــه ، حتى في السياق التقليدي لمنطق جرائم العرض ، ومع ذلك فقد توفرت له الحماية على جميع مستويات المجتمع والدولة.

● وانصباب النقمة عــلى « ابو حميدو » ، حتى دون اثبــات ودون تحقيق ، ورغــم الصيحات الخافتة للاطباء الشرعيين ، جاء بمثابة الامعان في حماية قاتل شقيقتيه ، وهدر دم بريء .

● وانسياق الثورة الفلسطينية في هذا التيار جاء كثالثة الاثافي ! اذ ان الثورة ، امــام مشكلة من هذا النوع ، وامام الواقع المعقد للجرائم الجنسية وجرائم العرض كــانت مطالبة بوقفة جادة وعميقة ، حتى وان كلفتها هذه الوقفة ، مؤقتا ، هزة صعبة .

فليس الاغتصاب ، كما قلنا ، كلمة تقال . بل هي عمل يخضع لظروف محددة ولشروط معقدة : فما فهمه الشقيق بانه جريمة اغتصاب لم يكن كذلك ، وما فهمه المجتمع — قياسا على جريمة الشقيق — بانه « اغتصاب جماعي » ، لم يكن كذلك — وقد جاء قرار الاعدام الذي ابرمته الثورة وكأنه يوافق على ذلك الفهم المغلوط للحادث بدلا من انتهاز الفرصة لطرح مثل هذا الموضوع الخطير طرحا موضوعيا ، ومواجهة الخطأ بجراة ، ودعوة القوى الوطنية والتقدمية في لبنان لقول كلمتها .

د — علاقة المقاومة بالاهالي :

في المقاطع السابقة مس المقال نقاطا تبدو للوهلة الاولى وكأنها على غير علاقة مباشرة بموضوعنا ، نقاطا من نوع : دور الوعي السياسي عبر العملية التنظيمية في فرض منطق العقاب — والمأزق الجنسي وجرائم العرض في بلادنا — ودور القوى الرجعية في تهيئة مسرح الجريمة الجنسية وبعد ذلك المسارعة الى حماية القاتل — ومهمة التنظيم الثوري في صدم المجتمع المنساق في تيار الضلال والخطأ — ودور الثورة في النظر الى مسألة العلاقات بين الرجل والمراة نظرة علمية في مستوى التطورات التي نعيشها وعدم الخضوع للارهاب اللفظي الذي تمثله كلمات مثل اغتصاب ، وانتهاك ، وشرف ، وعرض ، حين تكون مفرغة من معانيها الانسانية — الانحناء احيانا امام بعض التقاليد ولكن ليس الانسياق في تيارها — وبعد ذلك دور القوى الوطنية والتقدمية في لبنان ازاء حادثة حاصبيا بالذات . على ان هذه النقاط هي في الحقيقة في صلب موضوعنا ، وتشكل اساسه ، واذا اردنا حقا فهم حادثة حاصبيا وقصة ابو حميدو ، فانها ، بالدرجة الاولى، حصيلة هذه النقاط مجتمعة . . ولو لم تكن كذلك لما وصل الامر الى هذه الدرجة ، ومن الواضح ان الخطأ الذي وقع في كل نقطة من هذه النقاط هو الذي جعل من هذا « الحادث العادي » ، حادثا سياسيا كبيرا .

ومع ذلك ، فان عشرات من مثل هذه الاحداث تقع كل يوم في كل بقعة من بقاع وطننا العربي ، والذين يواكبون حياة المقاومة والمقاومين ، يعرفون — وهذا ليس سرا — ان ما توهم كثيرون انه وقع في حاصبيا قد وقع فعلا ، وليس وهما ، في امكنة عديدة من البلاد العربية ، وان التنظيمات كانت تنظر في كل قضية من هذا النوع النظرة التي تتفق مع انظمتها وعلاقاتها الداخلية ، وتتخذ الاجراءات المناسبة ، وفي معظم الحالات كانت الامور تنحل قبل وصولها الى درجة التأزم .

سنكون في منتهى السذاجة لو اعتقدنا للحظة واحدة ، ان الالاف من الشبان الذين يشكلون الجسد الحي لحركة المقاومة ، والذي ينتسب معظمهم الى حركات وقوى كان لها نظرة سلبية الى مبادىء التثقيف السياسي والتربية التنظيمية ، هم جيش طاهر من القديسين الاتقياء الورعين ، وانه ينبغي علينا عدم توقع اي خلل او خطأ في مسلكياتهم — ولكن الصحيح هو ان هذه المجموعة من الاخطاء والانتهاكات ، في السنوات الماضية ، ومن خلال القياس النسبي ، كانت قليلة للغاية ، واقل ما يمكن توقعه .

ومع ذلك فانه — بالاجمال — لم تكن التنظيمات تتلكأ قط في اتخاذ اجراءات صارمة جدا احيانا ضد مرتكبي تلك الاخطاء او الانتهاكات ، ولا شك ان هذه الاجراءات كانت احيانا تخضع لتقديرات مبالغ في قسوتها او في ليونتها ، وانه في العادة كانت تشكو من عدم استنادها الى لوائح تنظيمية واضحة ، الا ان ذلك لم يكن يمنع من احتفاظ المقاومة بدرجة معينة من الانضباط ، ومن المنطق التفاهمي ، في علاقاتها مع الناس على مختلف المستويات . فلماذا انفجر الموقف في حاصبيا على هذه الصورة ؟

ان هذا السؤال يجب ان يعيدنا الى جذور المسألة ، وهي جذور تقع بلا شك ابعد من ابو حميدو ، وابعد من قرار محكمة الثورة . وعلينا ، توا ، أن نضع المسألة باختصار

وبوضوح : لقد اشار حادث حاصبيا الى خلل خطير في علاقة المقاومة بجماهير الجنوب ، وعبر عن انفجار لمأزق متقادم ، واوضح ان سلسلة المعالجـات الخاطئة للعلاقات مع الجماهير في جنوب لبنان قد دفعت بالتناقض الثانوي الى سطح الاحداث . . .

وهكذا فان ايقاف نظرتنا لحادث حاصبيا عند ابو حميدو ، هو بمثابة التزلج على قشرة المشكلة !

والذهاب الى جذر المشكلة هو الذي يفسر لماذا اخذ حادث حاصبيا كل هذا الحجم الذي لا مبرر له ، في حين ان احداثا مشابهة قد وقعت في امكنة مختلفة ، ولاقت حلولها نتيجة لمبادرات من المقاومة حينا ، او من ممثلي الاهالي حينا اخر .

وقد تراكمت الامور لفترة طويلة كي تصل الى ما وصلت اليه في حاصبيا ، ولعلنا نستطيع ان نلاحظ ان ذلك التراكم لم يكن تجميعا مبسطا لاحـداث يومية عادية ، ولكنه تركيب معقد لنتائج كانت تصب من خلال الممارسات التالية :

أ ــ ضعف العلاقة بين المقاومة الفلسطينية وبين الحركة الوطنية والديمقراطية في لبنان، هذا الضعف الـذي كان يلجأ احيانـا لاخفاء نفسه وراء مختلف صيغ « المسانـدات » الميكانيكية ، واحيانا اخرى وراء انشاء علاقات مخترة ووجاهات ، ولكن من حيث الجوهر ظلت المقاومة تعتبر نفسها وجودا طارئا وزائدا في الجنوب ، وليس جزءا لا يتجـزأ من تحرك وطني ديمقراطي شامـل ، مرتبطة به ارتباطا يوميا ، ومنظما من خـلال القوى الوطنية والتقدمية .

ب ــ عسكريتاريـا المقاومة ، التي اصرت عـلى طرح نفسها فقط من خـلال وجود وممارسات عسكرية ، مما ادى الى ترويج فهم خاطىء لمفهوم « القاعـدة العسكرية » ومفهوم « تنمية القـدرات القتالية » في الجنوب ، وتحويل هذه المفاهيم وغـيرها الى ممارسات تتناول حياة الجماهير من الخارج ، ولا تدخل في صلبها وتصبح جزءا من وعيها او من تحركها اليومي .

جـ ــ نتيجة لهذا الطابع العسكريتاري لوجود المقاومة في الجنوب ، فان كسل العمليات القتالية وضآلة حجمها وعددها وفعاليتها في الفترة الاخيرة ، قد افقد ذلك الوجود ــ في اعين قطاع كبير من الجماهير الجنوبية ــ قسما كبـيرا من مبرراته ، وتضاعفت كمية السلبية في النظـر اليه ، وتضاءلت الى الصفر كمية « التسامـح » او « التفهم » او « العقلانية » في معالجة الاخطاء الناجمة عن ذلك الوجود الذي فقد الكثير من مبرراته .

د ــ يضاف الى ذلك كله ان عدونا (وهو بدوره حالة مركبة من اطراف مختلفة ومتفاوتة الحجم) يعيش على مبادرات متحركة تعرف كيف تتسرب من خلال هذه الظروف ، وتعرف كيف توجه رياح حربها النفسية ، وغاراتها المعنوية ، وضغوطها العسكرية والسياسية ــ وقد نجح هذا العدو الى حد بعيد في ارهاب جماهير الجنوب وبناء حاجز من الخوف بينها وبين المقاومة ، وهو حاجز سببه الخشية من « عقـاب » اسرائيلي توجهه اجهزة مخابرات قديرة ومتسللة جيدا في الجنوب (قبل وبعد حـادث حاصبيا ، مثلا ، قـامت منظمتان باعدام جاسوسين كان الاسرائيليون قد نجحوا في تجنيدهما من داخل هـاتين المنظمتين ، وقد اعدم احد هذين الجاسوسين في ساحـة قرية صديقين ــ واثناء ازمة حاصبيا كان كثير من السكان الغاضبين مقتنعا تماما بصحة اشاعة مفادها ان ٢٥ فدائيا على الاقل قد تناوبوا اغتصاب الشقيقتين ــ ولم تكن هذه الشائعـة بعيدة عن نشاط مخابرات العدو) .

ومهما يكن فانه يتوجب علينا عدم المبالغة (كما يحدث عادة) باهمية هذا البند الاخير ، بحيث يعطى الاولوية ــ لانه من الواضح ان قدرات العدو هذه لم يكن من الميسور لها

ان تحقق النجاح الذي حققته لو كانت الثنرات في عـــلاقة المقاومة بالجماهير اللبنانية ، وفي تصورات المقاومة لطبيعة وجودها ومهامها في الجنوب ، اقل مما هي فعلا .

ان النتائج التي اخذت تتراكم تدريجيا ، كافرازات يومية لهذه الخطوط ، او لهذه القنوات الاربع ، قد تحولت الى طاقة نوعية وجدت اول الفرص السانحـــة لتعبر عن نفسها في حادثة ابو حميدو ، ولو لم يخطر على بال ذلك الشاب ، عصر ذلك اليوم ، ان يتحرش بفتاتين شاهدهما تتمشيان قرب المعسكر ، لكان انفجار حاصبيا ، او غيرها من القرى الجنوبية ، قد حدث ايضا ، وربما بعد يوم او اكثر ، عبر حادثة من هـــذا النوع او من نوع اخر .

ان هذا الحادث ، منظورا اليه من هذه الزوايـــا المجتمعة ، يشكل في جانبه الايجـــابي اشارة الى ضرورة الوقوف بجراة ، واعادة النظر بالتجربة ، وتصويبها ـــ وذلـــك من خلال توحيد موقف المقاومة حول خطة وهدف العمـــل في جنوب لبنان ، وبالتالي شكل ومدى العلاقة مع الجماهير الجنوبية ، والدور المركزي للقوى الوطنية والديمقراطية في لبنان ازاء هذه المهام .

انه من السخف تحميل الخطأ لـــ « ابو حميدو » ، واعتبار المسألة منتهية هنا ، وكذلك فانه من السخف توجيه اللوم لاهالي حاصبيا ، واعتبار المأزق مجرد افتعال لحالة غضب لا مبرر حقيقي لها ، وعلى نفس المستوى فانه من الضروري القول بانه لا دماء الشقيقتين البريئتين ، ولا دماء ابو حميدو ، ولا كـــل الاحكام الاخلاقية في العالم تستطيع ان تحـــل مشكلة من هذا النوع .

وقد يكون من المستحيل تجنب القيام باجراء آني ، او تكتيكي ، عنـــدما نواجه بمشكلة واقعية من هذا النوع ـــ هذا صحيح ، ولكن الخطأ الفظيع هو ان يكون ذلـــك الاجراء الآني او التكتيكي اجراء انفعاليا ، مقطوع الصلة بالفهم الصحيح للمشكلة ، وبالتالي فهو لا يكون الا مقدمة للوقوع ، بعد فترة وجيزة ، في فخ مشكلة مماثلة .

قضية العلاقات الاعلامية

تختلف طبيعة وابعاد هذه القضية اختلافا كليا عن طبيعة وابعـــاد المشكلة الاولى التي صارت تعرف باسم « مشكلة ابو حميدو » .

وكما قلنا فـــان الموقف العربي من قضايا العلاقات الاعـــلامية والتعليمية ، والشؤون الثقافية الاخرى ، مع العدو ، او مع مؤسســات تابعة له ، ما يزال الى الان خاضعـــا لاجتهادات شخصية وتقييمات ذاتية . ورغم ان هـــذا النوع من العلاقات اكثر تعقيدا وتشابكا من العلاقات التي تدخل في اختصاص قوانين ولوائح مكتب مقاطعة اسرائيل ، الا اننا نلاحظ ، بصورة اجمالية ، ان الموقف العام الـــذي تعتنقه الغالبية الساحقة من العرب الذين يطلب منهم « التحاور » الاعلامي مع اسرائيلي ، هو الرفض . ومع ذلك فان مكاتب المقاطعة نفسها تقع في اشكالات معقدة حين يطلب منها ان تصدر حكما على ممثل سينمائي ، او على موسيقي ، او على كاتب ـــ وغالبا ما تتعرض احكامها في هذا النطاق الى اختراق من هذه الدولة العربية او تلك ، في فترة ما او فترة اخرى ، رغم ان قوانين وقرارات مكاتب المقاطعة هي ـــ على وجه الاجمال ـــ مطاعة من قبل الـــدول الاعضاء في الجامعة .

ان هذه الملاحظات ضرورية للاشارة الى انه من الصعب للغاية ـــ او بالاحرى مستحيلـــ الزعم بانه بالامكان صياغة وصفة ، او قرار ، ينطبق على كل الحالات ، ومن الضروري اتباعه في كل زمان وفي كل مكان وعلى جميع المستويات . على انه يتعين علينا ان نسارع الى القول ان تحفظنا هذا لا يعني قط ان تظل الامور سائبة ، وان تظل المقاييس فردية

ومزاجية — بل على العكس تماما : فلانه من الصعب وضع صيغة لقرار يناسب كل الحالات فلا بد اذن من ايجاد جهة مخولة بتقدير الموقف في كل حالة من هذه الحالات ، واصدار القرار الذي تراه مناسبا .

ونحن ندرك ان مثل هذه الجهة — ومن البديهي ان تكون قيادة الاعلام الموحد في منظمة التحرير — سترتكب اخطاء في تقدير الموقف هذه المرة او تلك ، الا ان هذه الاخطاء تظل في نطاق معقول ، وهي افضل من حالة التسيب التي يمكن ان تنشأ في حال ترك الحبل على الغارب .

ان هذا الاجراء ينبع ببساطة من كوننا في حالة حرب مع اسرائيل ، وان هذه الحرب المحتدمة يسقط فيها شهداء كل يوم تقريبا ، وان اكثر من نصف شعبنا منفي ، ونصفه الاخر تحت قمع الاحتلال المباشر ، والالاف يرزحون بالسجون . ولو لم تكن درجة التناقض مع العدو بهذا المستوى من الحالة الصدامية المحتدمة ، المتمثلة بالكفاح المسلح ، لكانت الدعوة لانشاء مثل هذه الجهة المركزية لا مبرر لها .

ولكن ، وزيادة في محاولة الاقتراب من صورة اشمل ، لنأخذ احداثا مختلفة ، كل على حدة :

أ — التحاور بين طلاب اسرائيليين وطلاب فلسطينيين في تلفزيون لندن :

ان الطالبين الجامعيين الفلسطينيين (طالبة وطالب) اللذين ذهبا الى قبرص لمنازلة طالبين اسرائيليين حول المسألة الفلسطينية قد حققا في راي كثير من المشاهدين انتصارا ساحقا في المجادلة على الطالبين الاسرائيليين اللذين مثلا حالة من السطحية العاجزة . ولكن الذين شاهدوا البرنامج لاحظوا ايضا ان الاطار الذي قدمت فيه المجادلة كان اطارا يحمل على تأييد اسرائيل .

ان معظم الحالات التي جرت فيها مواجهات من هذا النوع في برامج اذاعية وتلفزيونية مختلفة في اوروبا واميركا كانت تنتهي لمصلحة الطرف العربي . وهذه النتيجة ليست غريبة ، وكل من يعرف شيئا عن وجهات النظر الاسرائيلية ، والفنون الاعلامية يعرف عادة كم هي هشة في حالات النقاش .

ومع ذلك فان السبب الذي يحملنا على الدعوة لرفض هذا النوع من الترف لم يكن قط الخوف من نتيجة المبارزة الكلامية ، او الخشية من « صلابة » الفهلويات الاسرائيلية القابلة للكسر بسهولة ، عند مواجهة فيها الحد الادنى من الموضوعية .

ان السبب الاول هو اننا في حالة حرب مع هذا العدو ، ومقاطعتنا له ليست نابعة من موقف وجداني ، ولكنها نابعة من طبيعة المواجهة التي نعيشها ضده ، وهذه المقاطعة هي في حد ذاتها وجهة نظر ، وموقف .

اننا ندرك بأن كسب الرأي العام العالمي — في هذه المرحلة على الاقل — لا يقدم فيها ولا يؤخر مثل هذه المبارزات الكلامية — وعلى العكس تماما ، فان اجهزة الاعلام البرجوازية تستخدم مثل تلك المبارزات للامعان في لعبتها التي تحقق لها في نهاية التحليل سطوة اشد على عقول جمهورها .

ان « بي بي سي » لندن ، التي ذهب بها « تسامحها » الى حد فتح الفرصة امام طالبين عربيين كي ينتصرا في مبارزة كلامية على طالبين اسرائيليين ، قبل حادث الهجوم على مطار اللد بـ ٢٤ ساعة فقط ، تعمدت طوال الاسبوعين اللاحقين رفض تمرير عبارة واحدة لمصلحة الفلسطينيين في كل نشراتها الاخبارية ، الى حد اضطرت معه الى تزوير واجتزاء تصريحات وبيانات فلسطينية كي تجندها في خدمة حملتها العنصرية .

ولدينا كل الحق للاعتقاد بان تلك المبارزة الكلامية قد خدمت بصورة لا مثيل لها هذا المنهج المنحاز ، ومن المؤكد ان مثل هذا العمل ليس نتيجة لمؤامرة شيطانية او تخطيط سري ، ولكنه نتاج منطقي للبنية السياسية والايديولوجية التي تحرك اجهزة اعلام من هذا الطراز .

اننا بصورة اجمالية ، ورغم كل تجاربنا ، لم نستوعب بعد مدى انحياز وسائل الاعلام البورجوازية للحركة الصهيونية التي تراها كجزء حيوي من منطقها وتطلعاتها — وحسن ظن الكثير منا بكمية وجدوى المظاهر الديمقراطية الحرة في وسائل الاعلام هذه ، وطابع « البرلمانية » و « الحوار » الذي تمنحه لنفسها هو في الواقع نتيجة لمدى تغلغل سطوة هذه الوسائل الاعلامية في عقول بعضنا .

انني أجرؤ على القول ، من خبرة مادية وواقعية ، ان هدر مئات الساعات مع الاف من الصحفيين والاذاعيين الاجانب ، خلال السنوات الماضية قد أدى الى نتائج تكاد لا تذكر — والشيء الوحيد الفعال هو حجم العمل المسلح والعمل السياسي في أرض المعركة ذاتها ، وليست هذه الملاحظة بعيدة عن موضوعنا ، اذ ان مقابلة كل صحافي وكل اذاعي هي في الواقع حلقة من الجدل العنيف ، هي — لو شئنا — شكل من أشكال المبارزات الكلامية . فالاحرى ان يقوم هؤلاء الاعلاميون بفتح مسرحهم امام تمثيلية بين طلبة عرب وطلبة اسرائيليين . فذلك مشهد ليس فقط عديم النفع ، ولكنه ضار بالنسبة لنا .

ان مقاطعة العدو ، ورفض حوار الاقتناع معه من خلال المبارزات الكلامية ، هو في حد ذاته موقف . هو وجهة نظر . هو شكل من اشكال الصدام .

ومع ذلك ، فان هذا الشكل الاعلامي (اي الحوار الكلامي مع العدو) هو شكل واحد فقط من بين عدد كبير من الاشكال الاعلامية التي يمكن لنا ان نستخدمها في الغرب ، شرط ان يظل هذا الاستخدام مشدودا الى الحقيقة الجوهرية التالية : ان تغيير ميزان القوى الاعلامي في الغرب لا يحدث الا في ميدان القتال .

اذا استوعبنا هذه الحقيقة استيعابا عميقا وجيدا ، صار بوسعنا معرفة ما هو أصح ازاء الاشكال الاعلامية المختلفة التي يتعين علينا انتهاجها : ان أي شبكة تلفزيونية ليست مستعدة لاعطاء اي فلسطيني ، في حال سكون الثورة ، دقيقة واحدة ليعبر فيها عن رأيه — ولكن هذه الشبكات ترغم ارغاما على فتح شبكاتها امام صوت المقاومة حين يصبح الحجم القتالي والسياسي لهذه المقاومة من الكبر بحيث يدخل ، او يمس ، الاطار اليومي لحياة الناس في الغرب . وعندها لا نعود بحاجة الى تقديم مشهد مسل من مشاهد المبارزات الكلامية ، مع عدونا المنصرف الى قتل شعبنا واستعباده ، امام اميركي او سويدي أو الماني يتعشى « الهوت — دوغ » امام شاشة التلفزيون ، ولا يختلف الامر عنده ان ذهب العرب الى الصحراء أو ذهبوا الى جهنم ، مهما كانت قدرة المجادل العربي على الحذلقة !

ان عملنا الاعلامي في الغرب يجب ان يستند على الاصدقاء ، على الحركة الثورية في البورجوازيات الغربية ، ولا يمكن ان يتكون رأي عام عالمي يقف الى جانبنا دون جهد هذه القوى اليسارية ، وتبنيها للقضية ، وبوسع هؤلاء الاصدقاء ان يقرروا عند ذلك ، على ضوء الواقع الذي يعيشونه في مكان معين وزمان معين ، الاشكال الافضل للمعركة الاعلامية .

ان الاعلام معركة — هكذا يقول لينين — وبالنسبة لنا فان معركتنا الاعلامية لا تحقق انتصارا اذا ما جرى خوضها من خلال المبارزة الكلامية مع العدو امام رأي عام في مجمله منحاز ، وعلى شبكات اذاعية وتلفزيونية تقف جوهريا ضد قضايانا .

ان الجلوس مع العدو ـــ حتى في استديو تلفزيوني ـــ هو خطأ اساسي في المعركـــة ، وكذلك فانه من الخطأ اعتبار هذه المسألة مسألة شكلية .

اننا في حالة حرب ، وهي بالنسبة للفلسطينيين على الاقل مسألة حياة او موت ، ولا بد من التزام جمهرة الشعب الفلسطيني بالشروط التي تستوجبهـــا حالة حرب من هـــذا الطراز .

ب : قضية البروفسور فنلي وقضية المرجع الطبي :

لعل الاستاذ المذكور قد ظلم في هذه الحملة ، اذ قيل منذ فترة طويلة انه صديق للعرب ، وان المقطع « الصهيوني » الذي ورد في كتاب كان قـــد اختاره كمقرر لصف من صفوف كلية بيروت للبنات ، لم يكن مقصودا . ومهما يكن الامر ، واذا كان انطباعي صحيحا ، فانني شعرت طـــوال تطورات هذه القضية ان المسألـــة مفتعلة ـــ ليس لان الاستاذ الاميركي المذكور صديق للعرب او ليس صديقا لهم ، ولكن لان المقطع الذي اثار كل تلك الضجة هو مقطع سخيف ، وان تدريسه يجري في صفوف عليا .

انني لا ارى سببا يمنع الصفوف العليا من الاطلاع على تفكـــير العدو ، بل لا ارى سببا يمنع من ان يكون هذا الاطلاع اجباريا . لو كان هذا المقطع ، او اي مرجع صهيوني ، قد جرى تدريسه خلسة في صف ابتدائي ، كشكل من اشكال غزو العقول البريئة العزلاء لاطفال غير قادرين على خوض جدل ضد ذلـــك الغزو ، فان الامر يصبح جريمة وطنية اذن .

ولكنني لا استطيع ان افهم كيف نتردد حتى الان في الاطلاع ، وفي السماح بالاطلاع ، على مصادر واشكال فكر العدو .

هل كان البروفسور فنلي « يهرّب » مادة ممنوعة الى عقول عزلاء ؟ انني لا اعتقد ذلك ، ولم اقتنع بحجج الذين حاولوا الايحـــاء بهذا . كل ما هنالك ان مقطعـــا كتبه مؤرخ متعصب ، نصف أعمى ، يشكو من سذاجة فكرية مفرطة ، قد جعل يمر من امام اعين طلبة من المفترض ان يكونوا متقدمين .

والشيء نفسه ـــ تقريبا ـــ يقال عن المرجع الطبي الموجود في مكتبة الجامعة الاميركية (والواقع ان مكتبة الجامعة الاميركية مليئة بالكتب التي تعكس فكرا صهيونيا واسرائيليا على صعيد الادب والاجتماع والاقتصاد) .

على أن ذلك كله يدل على شيء مهم ، يمكن التوصل اليه من خلال طرح التساؤل التالي: لماذا نخاف من مثل هذه الامور ؟ وهل من المفترض ان نلغي حقنا (وواجبنا) في الاطلاع على الانجازات الفكرية والعلمية لافراد العدو ، والاستفادة منها ايضا ؟

ان ما يكمن وراء هذا التساؤل هو قناعتنا بأن مناهج التربية والتعليم في بلادنا ليست في مستوى القـــدرة على معالجة هـــذا الموضوع جذريا ، ولو توفرت عنـــدنا القناعة بأن التنشئة الوطنية في مدارسنا مبنية على اسس علمية وراسخة وصحية وعصرية ، لمـــا كان المقطع الساذج في برنامج « فنلي » يخيفنا ، ولما كانت رؤيتنا لمرجع طبي من انتاج عالم اسرائيلي في مكتبة الجامعة تهز ثقتنا بقدرة طلابنا الجامعيين على معرفة الفارق بين هذا المرجع ، وبين استمرار معركة التحرر الوطني ضد العدو الاسرائيلي .

ان برنامجـــا للتنشئة الوطنية ، قائمـــا على البحوث العلمية والحقائـــق التاريخية ، والتحليلات السليمة ، يضع طلابنا وهم في صفوفهم الابتدائية والثانوية في صلب معارك أمتهم ومصالحها ، هو الذي يجعل معالجتنا لمثل هذه المواضيع تصبح معالجة صحيحة .

وفوق تأسيس وطني من هذا النوع يصبح من واجبنا ان نوفر لطلابنا في دراساتهم العليا كل شيء يحدث في اسرائيل ، صحافة وكتبا وانجازات .

وبالطبع ، فان تربية وطنية من هذا الطراز لن تمنع من وجود استاذ اجنبي منحاز ، ما زال مصرا على غسل يديه الملطختين بدمـاء الخطيئة اللاسامية بجلـود العرب ، او متعصب ديني محشو بالخرافات السياسية ـ وانـا اشك في وجود طريقة قادرة على استئصال مثل هذا النوع من البشر ـ الا انه من المؤكد عندئذ ان الضرر الذي يستطيع مثل هذا الاستاذ ، الاجنبي او العربي ، تسببيه للطلاب يكون محصورا ومحدودا وغير ذي أهمية .

ان التناقض الذي لا يحتاج الى شرح ، والذي نعيشه كل يوم فيما يتعلق بهذه المسألة ، يدل على الاساليب الشكلية التي تقوم بها معظم الانظمة العربية لمعالجة مشكلة مهمة من هذا الطراز ، وفي الوقت الذي تمتلىء فيه كل صحف الغرب ، تقريبا ، بامتداح اسرائيل وشتم العرب ، وتدخل الى معظم اسواقنا دون رقابة ، وتشكـل غزوا اعلاميا عنصريا مستمرا ويوميا ، نرى ان الحملة على كتب موضوعة بين ايدي جامعيين هي التي تثـير الجدل !

على انه يجب التأكيد على اننا حين نرفض الغاء حقنا (وواجبنا) في الاطلاع على انجازات العدو وفكره ، فاننا ـ مرة اخرى ـ لا ندعو الى التسيب باسم الحرية المزيفة ، أو فتح ابواب الغزو الاعلامي للعدو على مصراعيه ، او شد ازره بحربه النفسية ضد جماهيرنا ، وترك الحقن اليومية لفرض ثقافة الاستسلام والاستخذاء تنغرس في ادمغة شعبنا دون حساب . . كلا ، ان علينا ان نعي حالة الحرب التي نعيشها ، والاساليب التي يستخدمها العدو على جميـع المستويات ، والتصرف وفق القوانين التي تعطينا حق الـدفاع عن انفسنا وعن جماهيرنا ، وفي طليعة هذه الحقوق الحيلولة دون وصول سموم العدو الى عقول جماهيرنا ، واستخدام الوسائل الكفيلة ليس فقط ببنـاء مصفاة فعالة في هذا المجال ، بل ردع كل المحاولات الخبيثة التي لا تتعب من استخدام الحديث عن «الحريات» لفتح الباب امام حملات العدو .

ان جوهر الحـل الايجابي هو « ردكلة » الجماهير ـ تعميم ثقافة وطنية علمية ـ اي المضي بالثورة الى الامام بالدرجة الاولى .

ملاحظات اولية حول الايديولوجية الصهيونية من حيث نشأتها وأصولها المجتمعية

أ. ن. سعد

من الشائع تقديم الصهيونية وكأنها حركة قومية نشأت عفويا في اوساط جماهير اليهود في اوروبة الشرقية واجتاحت مخيلاتهم عند نهاية القرن الماضي فاندفعوا الى فلسطين لبناء كيان ذي مضمون مجتمعي تقدمي اشتراكي . والالتباس الذي رافق دراسة وفهم العقيدة الصهيونية عامة يعود لوجود تيار يساري اشتراكي داخل الحركة الصهيونية لعب دورا هاما في تثبيت نموها في فلسطين ومن ثم في اسرائيل . فرغم وضوح واقع نشأة الصهيونية ونموها تحت اجنحة الامبريالية البريطانية نهج زعماء الحركة الصهيونية وبشكل دائم في ابراز هذا الوجه التقدمي المزعوم لحركتهم . وكان لتصدي الصهيونية لبريطانية في أواخر الاربعينات ، او بالاحرى ، محاولة بريطانية الوقوف في وجه تزايد النمو الصهيوني في ظل الظروف المؤاتية لها في ذلك الحين ، اثر في الفهم الخاطىء لحقيقة القوى التي خلقت الحركة ورعت نموها ، علما بان النتيجة الرئيسية لاحداث تلك الفترة كانت استبدال الوجود البريطاني بالنفوذ الامبريالي الاميركي ، مما نم في الحقيقة عن تعميق روابط اسرائيل مع الامبريالية في الوقت الحاضر . ولم يكن للسقوط اللاحق للانظمة العربية الدائرة في فلك بريطانية — الامر الذي ادى الى مجابهة محدودة بين الامبريالية وأنظمة المساومة العربية التي جاءت في اعقاب ذلك في الخمسينات والستينات — سوى تأثير سطحي على فهم طبيعة المسألة الصهيونية . الا ان ظهور حركة شعبية في صفوف الجماهير الفلسطينية العربية وفي اوساط بعض المثقفين اليساريين الاسرائيليين معادية تماما للامبريالية والصهيونية هو ما اعاد طرح مسألة الصهيونية بالشكل الذي نشهده اليوم .

وهنا لا بد من الاشارة الى ان بعض دارسي الصهيونية الذين يعترفون بالتقاء سياسات اسرائيل مع مصالح الامبريالية يدعون ان هذا الالتقاء ظاهرة عرضية تنتج عن المتطلبات الفورية للدفاع عن اسرائيل بوجه التهديدات العربية لها ولا ينم عن انعكاس اساسي لطبيعة الصهيونية . ولكن نظرة نقدية في طبيعة الصهيونية حرية بان تبرز عنصر المغالطة الوارد في هذا الادعاء وبانه ليس سوى تعبير عن منهج تبريري في طرح المسألة . وستظهر هذه المقالة ان الصهيونية ، بتراثها الطويل في خدمة الامبريالية ، لم تلق تأييد الامبريالية لها نتيجة لاهداف الاخيرة في الهيمنة على منطقة الشرق الاوسط فحسب ، بل وأهم من ذلك ، ارتكز اهتمامها في ظرف الصراعات المجتمعية القائمة في اوروبة نفسها .

يظهر تحليل الظروف المجتمعية التي خرجت عنها الصهيونية ان التبني الامبريالي للحركة كان نتيجة حتمية لطبيعة الحركة نفسها مع ما كمن وراءه من تناسق مبدئي مع ايديولوجيتها . فالدوافع المجتمعية للمولين من وجهاء البورجوازية اليهودية الذين كانوا الاوائل في تبني الصهيونية لم تنطو عن اي تعلق خاص بالشعور « التوراتي » القومي

اليهودي قدر ما كانت انعكاسا لموقعهم المجتمعي ـ الطبقي . وفضلا عن ذلك ، فإن قراءة دقيقة للزعماء الصهيونيين الاوائل تظهر التكامل بين مختلف الاتجاهات في الحركة الصهيونية كما تظهر التقاء هذه الاتجاهات بدوافع المتمولين . فقد عكست كتابات هؤلاء منذ عهد باكر تشعبات المسألة الصهيونية وعواقبها كما تركت لنا الدلائل الواضحة على محتواها الايديولوجي . والعنصر الذي تتميز به كتاباتهم هو العداء للحركات الاشتراكية الثورية والقلق على اشتراك اعداد اليهود بشكل خاص في هذه الحركات . وقد جاء تبلور الصهيونية عمليا وفكريا انطلاقا من هذا الموقف الايديولوجي كما ان تبني الدول الامبريالية لها كان نتيجة لهذا الموقف .

نشأت الصهيونية عن ظروف القرن التاسع عشر في اوروبة . واغلبية اليهود في الغرب (اي باستثناء السفرديين) كانوا يقيمون آنذاك في اوروبة الشرقية ، وبشكل رئيسي في روسية القيصرية . وقد شكلت هذه المنطقة فيما بعد المصدر الرئيسي للمادة السكانية للصهيونية رغم انها لم تكن بالضرورة مصدر قيادتها وتمويلها . وتسلل الراسمالية الى هذه المنطقة والذي جاء تحت سيطرة رؤوس الاموال الاوروبية الغربية كان قد أدى الى ازاحة الاسس الاقتصادية للبلدان اليهودية التي غلب عليها الطابع التجاري المركنتيلي والحرفي الصغير الذي كان قائما في فترة ما قبل الرأسمالية . وتدمير الحرف الصغيرة والتجارة المحدودة والربا أدى الى قيام حركة هجرة واسعة أخذت بابعاد اليهود عن بلدانهم الى المدن الرأسمالية الآخذة في النمو . وتسلل الراسمالية بعد ذلك خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الى المناطق الريفية قام عنه تحرك سكاني شامل جاء بالفلاحين المسيحيين الى المراكز الصناعية مما زاد في تفاقم ظروف الازدحام والبطالة في المدن . والتغيرات الاقتصادية هذه والتي أدت الى تحول جماهير من الفلاحين والحرفيين الى البروليتارية في المدن ، وان شكلت الاساس المجتمعي لنشأة جذور الحركة البروليتارية بايديولوجيتها الاشتراكية الاممية ، فقد ظهرت عنها تحاملات وصراعات تعصبية بين اليهود وغير اليهود . وقام عنها كذلك سيل متزايد من الهجرة باتجاه اوروبة الغربية واميركة الشمالية شكل اليهود القسم الاكبر منه . ومأساة الجماهير اليهودية المسحوقة والتي انجرفت باتجاه الغرب هاربة من ظلم الاقطاعية القيصرية المنهارة ومن الرأسمالية الهزيلة التي جاءت لترثها شكلت ما عرف بالمسألة اليهودية .

ان اوائل من اثاروا « الحل » الصهيوني للمسألة لم يكونوا من اليهود بل من المسيحيين من مسؤولي الدول الاوروبية . وقد رأى فيه بعضهم تخليص اوروبة من « الساميين » ورأى فيه آخرون امكانية زرع نفوذهم بذلك في الشرق الاوسط والمناطق الاخرى المتنازع عليها بين الدول الاوروبية الاستعمارية . والديبلوماسي البريطاني لورانس اوليفانت ، وهو المسيحي المتحمس الذي بدت لزوجته رؤى خيالية عن « عودة » اليهود الى فلسطين لاعتناق المسيحية هناك ، كان من الاوائل بين فئة الصهيونيين المسيحيين . وكذلك كان ارنست لاهاران السكرتير الخاص لنابليون الثالث الذي دعا الى « اعادة » تشكيل الدولة اليهودية في فلسطين وذلك في كتاب وضعه عام ١٨٦٠ عندما كانت الحكومة الفرنسية تتحين فرص الصراع الطائفي بين الموارنة والدروز في لبنان للتدخل عسكريا بالبلاد . وبعد عدد من الصهيونيين المسيحيين ظهر كذلك عدد من المتنصرين ذوي الاصل اليهودي الذين رفعوا شعار الصهيونية بحماس . وافضل مثال على هذه الفئة كان بول فريدمان الذي طالما شغلته مسألة ابعاد اليهود الروس فقام بحملة على رأس شرذمة من المرتزقة لاحتلال الشاطىء الغربي من الجزيرة العربية ليعلن نفسه ملك اليهود هناك فانتهت مغامرته بالفشل والسخرية حين طردته الحامية العثمانية عن المنطقة .

عندما حان وقت اهتداء اليهود انفسهم للصهيونية جاء ذلك على أيدي كبار الاثرياء من

اعضاء البورجوازية اليهودية ولم تكن فلسطين مركز اهتمامهم . وكانت هذه الطبقة قد انصهرت في المجتمع البورجوازي في كافة بلدانها وخاصة في اوروبة الغربية والوسطى ولكن كذلك في اوروبة الشرقية . وقد بدت مظاهر هذا الانصهار في كافة المجالات اللغوية والثقافية والقومية والدينية كذلك اما عن طريق التنصر أو نشوء المذاهب « الاصلاحية » الجديدة . الا ان عملية الانصهار هذه باتت تواجه العوائق نظـــرا لنشوب موجـــات الاضطهاد المتتالية ضد اليهود واحداث التنكيل بهم . وكـــانت البورجوازية اليهوديـــة المنصهرة تعتبر قدوم المهاجرين اليهـــود الروس من البروليتاريين الفقـــراء سبب هذه الاحداث التي عكرت صفو وضعهم المنصهر في بلادهم . وقدوم موجات هؤلاء المهاجرين الى المدن الاوروبية اعتبر مسؤولا عن « انبعاث اللاسامية » كما ان هؤلاء المهاجريـــن القادمين من البلدان اليهودية شبه المنغلقة بدوا وكأنهم غـــير قادرين علـــى الاندماج . ومما اضاف الى قلق البورجوازية اليهودية هو ان عملية التحول الى البروليتارية التي اختبرتها افواج المهاجرين المتدفقة على المـــدن الصناعية غالبا مـــا دفعت بافرادهـــم ومجموعاتهم الى الاحزاب اليسارية والصراع البروليتاري الدائـــر في العواصم والمدن الاوروبية آنذاك . وهذه الظاهرة التي اقترن اسم البروليتاريين اليهود بها بدت وكأنها تلقي ظلال الشك على وطنية الطبقات البورجوازية المنصهرة وشكلت اسباب الارتباك والقلق لها . لذلك فقد جاء رد فعل هذه الطبقات في البحث عن الوسائل لتحويل نزوحهم المحتوم بعيدا عن المدن الاوروبية وتوجيهه خارج نطاق دول اوروبة وشمالي الاطلسي. وهذا ما كان دافع الاختبارات الصهيونية الاستيطانية الاولى وطابع ممارساتها العملية.

وقد اتخذ هذا المنطلق عمليا شكل تنظيم مشاريع التهجـــير والتوطين في مستعمـــرات زراعية في مناطق مختلفة من العالم . وهذه المشاريـــع الهادفة لابعـــاد الفقراء اليهود انشئت بتمويل من كبار اثرياء البورجوازية اليهودية في اوروبة الغربية . فالبارون دي هيرش وجمعية الاستعمـــار اليهودي التي انشأها قـــامت بتنظيم وتمويـــل الهجـــرة والاستيطان في الارجنتين . والبارون ادموند دي روتشيلد واخرون من افـــراد عائلته قاموا بتمويل الهجرة عن اوروبة الى فلسطين بشكـــل رئيسي حيث اقيمت مستوطنة زراعية صغيرة تحت رعايتهم . اما الاتحاد اليهودي العالمي ، والذي كـــان بالاساس جهازا يرعاه افراد البورجوازية اليهودية في فرنسة ، فكـــان يوفر الاموال لمسانـــدة المستوطنات اليهودية في عدد من البلدان . ولم يقصد من هذه المشاريع تحقيق الارباح لموليها بل اديرت باكلاف بالغة وابقي عليها طالما نجحت في استمالة افواج المهاجرين من البروليتاريين اليهود الفقراء . والهدف الرئيسي وراء « برامج الابعاد الخيري » هذه ، كما وصفها احدهم ، ارسال فقراء اليهود الى ابعد مكان ممكن بأقل كلفة ممكنة .

ان اول شرح للصهيونية كتبه يهودي ظهر في الكراس الذي وضعه ليو بنسكر عام ١٨٨١ تحت عنوان : **التحرر الذاتي** باللغة الالمانية . وبنسكر الذي كان مثالا لليهودي الوطني المنصهر من اعضاء البورجوازية اليهودية في روسية ارسل هذا الكراس نداء الى ابناء دينه وخاصة أثرياء البورجوازيين منهم في اوروبة الغربية دعا فيه الى توحيد مشاريع الاستيطان اليهودية وتركيزها في منطقة واحدة . ولتحقيق هذه الغاية دعا بنسكر الى تشكيل « هيئة ادارية يهودية » تقرر اولا على منطقة مناسبة لتوطين بضعة ملايين من اليهود ــ ويقترح منطقة ما في تركية الاسيوية او شمالي اميركة ــ وتعمل للحصول على موافقة القوى الاوروبية للمشروع وتباشر بعد ذلـــك بتنظيم الهجرة من خـــلال شركة مساهمة تنشئها لهذا الغرض . ورغم التحرر الذاتي الذي يدعيه الكراس بعنوانه لـــم يقتـــرح بنسكر نزوحه هو وافـــراد طبقته ، بل نزوح البروليتارية اليهوديـــة . فقال : « وستهدف الهيئة الادارية بشكل رئيسي وخاص الى ايجاد وطن آمن لا يمكن انتهاكه للفائض من اولئك اليهود الذين يعيشون كبروليتاريين في مختلف البلدان ويشكلون عبئا

على سكان البلاد الاصليين . لذلك يجب ان نتأكد من أبعاد الفائض من اليهود ، تلك الفضلة غير القادرة على الانصهار وتوفير المقام لها في مكان آخر » .

وهكذا فان أغلبية اليهود البالغــة بضعة ملايين نسمة من البروليتاريين بــدت لمثــل البورجوازية الرقيقة هذا وكأنها فائض وفضلة يجب ازالتها الى مكان اخر . وبازدراء واضح نجد بنسكر يتكلم في مكان اخر في كراسه عن البروليتاريــة اليهودية عــلى انها « عبء على نفسها وعلى الاخرين ستحضر المصير المشؤوم للشعب [اليهودي] بكامله » . والشعب اليهودي بكامله برأيه كان بالطبع البورجوازية . وواقع ما كان بنسكر يدعو اليه هو تحرير البورجوازية اليهودية مــن المشكلة التي فرضت عليها بفعــل وجود البروليتارية اليهودية واعمالها . فهو كان يكتب في أعقاب احداث أواخر السبعينات من القرن الماضي حين أظهر الصراع المجتمعي والاختمار الايديولوجي الذي رافقه ـــ وهي أحداث وصفها لينين على انها عهدت الى البروليتارية الروسية المهمة الاكثر ثورية من أي من المهمات التي واجهت البروليتارية في اي بلد آخر ـــ بداية انهيار النظام القيصري والبورجوازية الناهضة محاولة وراثته . ورغم ان بنسكر كان على علم ، كما يخبرنا في كراسه ، ان اثارة اللاسامية خلال هذه الاحداث جاء علــى أيدي الصحافة الروسية والتي كانت تمثل بمعظمها لسان حال البورجوازية الروسية ـــ هذا بالاضافة الى حملة اللاسامية التي اثارها النظام القيصري نفسه ـــ الا ان اهتمامه بموجة التنكيل باليهود التي اجتاحت روسيه عام ١٨٨١ عكس اهتمامات الطبقة التي انتمى اليها فاختار مخططا يقضي باجلاء البروليتاريين اليهود الى بلاد بعيدة ليخلو المكان للبورجوازيــة اليهودية للتنعم بالمظهر « المهذب والمثقف والوطني » المنصهر الذي اختاره لها .

لقد لقي مخطط بنسكر بعض الاهتمام مــن أعضاء البورجوازية اليهوديـــة ولكن بهذه الإيديولوجية لم يكن ليلقى الاندفاع لدى البروليتاريين اليهود الذين باتوا يرون مستقبل تحررهم الذاتي في الكفاح الثوري الاشتراكي المتصاعد . واصبح بنسكر مدير منظمة سميت « جمعية أحباء صهيون » قامت خلال فترة من الزمن بتنظيم هجرة بضعة آلاف يهودي عن طريق الاموال التي تبرع بها بعض اثرياء اليهــود في غربي أوروبه . وقد انهارت هذه الجمعية عام ١٨٩٠ نظرا للخسائر المالية التي منيت بها نتيجة المخاطرات المالية والمضاربات في شراء الاراضي التي مارسها ممثلوهـــا في فلسطين . ومع مضي الزمن ، وخاصة بعد قيام دولة اسرائيل ، بات بنسكر يعتبر رائدا للفكـــر القومي اليهودي . والواقع ان اي قومية طرحها بنسكر لتفنيد مقترحاته كانت قومية للآخرين . فقراءة دقيقة لكراسه تظهره يشير الى « نحن » عند التكلم عن تركيب الهيئة الادارية والشركة اليهودية التابعة لها التي حث على تعبئة العناصر اليهودية البارزة بها . اما عندما يتكلم عن سكان الوطن في المستقبل لاثبات حقهم بوطن خاص بهم نراه يشير اليهم « هم » . ومن هذه الناحية ، وبظهوره المبكر هذا ، فان شرح بنسكر يمثل اوضح تعبير ـــ لا تشوبه التعليلات التمويهية التي غلبت علــى الكتابات اللاحقة ـــ عــن النسخة الصهيونيةللقومية اليهودية : وهي عبارة عن قومية بعثت بها طبقة معينة لاستخدامها باقتصار على طبقة أخرى . وكان هذا بشكل عام المادة الايديولوجية لكافة الزعمـــاء الصهيونيين الذين جاؤوا بعد بنسكر .

سقطت مقترحات بنسكر في حالة اهمال نسبي حتى عام ١٨٩٥ حين اثارها الصحافي الفييني ثيودور هرتزل المقيم آنذاك في باريس في كراس كتبه بالالمانية تحت عنوان : **الدولة اليهودية** . ووردت هنا نفس الآراء التي عالجناها في كراس بنسكر ولكن بأسلوب أفاض بالزخرفة والتفصيل . ودعا هرتزل الى انشاء جمعية يهودية وشركة يهودية تابعة لها تسعيان لاعتراف الدول بها ولتنظيم الاستيطان في منطقة واحدة ـــ اقترحت فلسطين والارجنتين ـــ بحيث تتطور تدريجيا الى الدولة اليهودية . وباشاراته المستمرة

الى « منجزات رجال الاعمال ... وعجائب العلـــم الحديث » ، حاول هرتزل وضع مخططه بأفضل ضوء ممكن ، فكانت له وعود جذابة للجميع . لكبار المتمولين الذين سعى لنيل رعايتهم لمشروعه أمثال روتشيلد وهيرش ، وعد هرتزل ان يكون مشروعه اقل كلفة من مشاريعهم بل وان يؤدي الى الربح . ولهذا الغرض شرح هرتزل طريقته لتنظيم المهاجرين كعمال في المنطقة الجديدة على نسق عسكري باقامة نظام « معونات عن طريق العمل » وصفه على انه نوع من « الاعمال الشاقة قبل ارتكاب الجريمة » يؤمن النتائج الاكثر فعالية والاقل كلفة . وبهذا قال هرتزل ان الطبقات الفقيرة من يهود روسية ورومانية ستقوم بوضع الاساس الذي سيفتح الطريق للعمل فيما بعد في مجالات جديدة « لروح النجاح في المنشآت ... » التي يعرف بها اليهود . ولكبار البورجوازية اليهودية عامة وعد هرتزل بأن نزوح فقراء اليهود سيتيح لهم الفرصة للتنعم بثرائهم بسلام ولاقامة مآدبهم الفخمة دون الحاجة الى اسدال الستائر . اما ابناء الطبقـــة اليهودية الوسطى من « أولئك الرجال الطموحين » و « أولئك المفكرين محدودي القدرة العقلية » فقد وعد هرتزل للاعداد منهم بالمراكز كمسؤولـــين في الجمعية والشركـــة اليهوديتين في البلاد الجديدة . وذهاب هؤلاء كما قال سيمكن قيام هجرة داخلية تأتي بالمسيحيين الى المراكز الشاغرة نتيجة للهجرة المغادرة . وهكذا فاليهود المنصهرون وغير اليهود «سيتخلصون بذلك من المنافسة المزعجة وغير الممكن تجنبها من البروليتارية اليهودية » . وتصل وعود هرتزل هذه الى ذروتها عند نهاية الكراس حيث تظهر الطبيعة الحقيقية للدولة « اليهودية » التي نادى بها ونوعية العقلية التي كان يخاطبها . فهو يقول : « ان اليهود بعد أن يستوطنوا في دولتهم ، لن يبقى لهم أي أعداء، وبما ان الرخاء يضعفهم وينقص عددهم فانهم سيزولون كليا » !

لم يلق مخطط هرتزل الحماس الذي قد يكون توقعه له على أيدي المتمولين اليهود الذين توجه به اليهم . وان لاقى هذا المخطط اي رد فعل ايجابي في البداية فقد جاء ذلك ترحيبا لدى بعض اللاساميين مثل القس وليم هشلر الالماني المولود في جنوبي افريقيه والذي سبق وكان نشيطا في « الجمعية اللندنية لنشر المسيحية بين اليهود » . وعند سماعه بمخطط هرتزل هلل هشلر له ورحب به بحماس معتبرا اياه حركة نبوية . وقام هشلر فيما بعد بالتدبير لظهور هرتزل لدى دوق بادن والقيصر الالماني .

ثمة عنصر اضافي هام ورد في مخطط هرتزل كان من شأنه أن يلقى اهتماما خاصا لدى رجالات الحكومات الاوروبية : وهو الدور الذي أورده حول قدرة الصهيونية في اضعاف اشتراك اليهود في الاحزاب الاشتراكية . ولم يشر هرتزل الى هذا العنصر في كراس **الدولة اليهودية** الا بشكل غامض وغير مباشر الا انه عبر عنه بوضوح في مذكراته حين سجل رسالة بعث بها الى دوق بادن في ٢٦ نيسان (ابريل) ١٨٩٦ جاء فيها : « ولكن ستكون لحركتنا نتيجتان ــ وهذا أمر لم ألمح له سوى خطفيـــا في كراسي المقصود به للنقاش العلني ، وأود أن أوجه انتباه سموكم الملكي الى هاتين النتيجتين : دور الهجرة اليهودية المغادرة في اضعاف الاحزاب الثورية وضرب القوة المالية العالميـــة . واذا حظينا بالتأييد فلن تكون هذه مجرد كلمات متجرئة » .

والنقطة التي أوردها هرتزل حول كسر شوكة القوى المالية العالمية التي تمتع بها بعض المتمولين الذين كانت لهم آنذاك مضاربات مع البنك الالماني حول الاسواق العالمية بمن فيهم بعض كبار راسماليي اليهود لا يمكن أخذها على محمل الجد . فهرتزل كان يقحم نفسه هنا بشكل سطحي وساذج في الصراعات المالية القائمة والتي لم يمكن لحركته التأثير عليها بالشكل الذي ادعاه . وان كان اثرها بشيء فهو في قدرتها على تخليص المتمولين اليهود من عبء ارتباطهم اسميا بجماهير فقراء البروليتاريين الذين سعى مخطط هرتزل لتهجيرهم . والمرجح ان هذه النقطة في رسالة هرتزل جاءت بنصيحة صديقه

اللاسامي هشلر والذي يبدو (مذكرات ، ٢٦ ابريل ١٨٩٦) انه كان يتكلم اليه بطلاقة عن « الجشع اليهودي » . اما النقطة الاخرى حول دور الصهيونية في اضعاف الثورية فهي أكثر قابلية للتصديق وتظهر التلميحات التي تشير اليها في معظم ما لدينا من كتابات واقوال هرتزل . فهجرة البروليتاريين اليهود كان من شأنها ان تحرم الاحزاب الثورية من اتباعها ومؤيديها بين صفوفهم . والاحزاب الثورية كانت منذ أجل باكر موضوع قلق للدوق والقيصر الالماني كما كانت بالنسبة لكافة رجالات الحكومات الاوروبية الاخرى . وما تجدر ملاحظته هنا انه منذ هذا التاريخ الباكر عام ١٨٩٦ كان هرتـزل يدرك ان مسألة كهذه يجب الا تظهر في كراس مثل **الدولة اليهودية** موجه الى الرأي العام بل في مراسلات سرية . وفيما بعد حين وضعت القدرة الكامنة في الصهيونية على معاداة الاشتراكية موضع الاهتمام الفعلي عام ١٩١٧ احيطت هذه الدوافع بالسرية التامة .

من المرجح ان هذا العنصر هو ما مكن هرتزل في السنوات القادمة وخاصة بعد انشاء المنظمة الصهيونية عام ١٨٩٧ من كسب انتباه رجالات الحكومـات الاوروبية المختلفة الذين اجتمع بهم الواحد تلو الآخر في السنوات اللاحقة . (امـا في سعيه للظهور لدى الباب العالي فيبدو انه استخدم كوسيلة مناسبة للمزايدة على مختلف المتمولين الذين كانوا يتقدمون آنذاك بعروضهم لتوفير القروض للخزينة العثمانية) . وفي جولات هرتزل بين العواصم الاوروبية المختلفة واجتماعاته بمسؤوليها طرحت امكانية تحقيق التوطين اليهودي في مناطق عديدة امتدت من فلسطين وقبرص وسيناء والعراق الى الموزامبيق والكونغو واوغاندا . ولم تكن الدوائر الاوروبية الحاكمة لتعارض مبدئيا مخططا كهذا يؤدي الى تخليصهم من البروليتاريين اليهود . ولكن نظرا للمنافسة الحامية التي دارت بين الدول الاوروبية على مناطق القارات الاسيوية والافريقية والاميركية الجنوبية فان الاتفاق على منطقة تقتصر على الاستيطان اليهودي لم يمكن التوصل اليه.كما ان امكانية نشوب الكفاح الثوري الاشتراكي ، وان كان موضوع قلق دائم ، الا انه لم يصل الى مرحلة تهديد الانظمة المجتمعية القائمة في أوروبه حتى عام ١٩١٧ . وحتى ذلك الحين فقد كان لوعود هرتزل أن تبقى « مجرد كلمات متجرئة » . وواقع ان اتباع الصهيونية بين اليهود بقي ضعيفا لم يكن ليثبط من عزيمة هرتزل الذي حمل راية الصهيونية بحماس في حين أن اغلبية المثقفين كانوا يتجهون بازدياد الى الاحزاب الاشتراكية . وفي مذكراته ليوم ١٤ حزيران ١٨٩٥ كتب : « ان شبابنا بكامله ، كل اولئك الذين هم الان بين سني العشرين والثلاثين عاما ، سيتخلون عن ميولهم الاشتراكية الغامضة ويتجهون الي . وسيذهبون الى عائلاتهم والى العالم بمثابة مبشرين متجولين دون ان اضطر ان احثهم على ذلك » .

لم يكن من المحتمل أن تسير الجماهير اليهودية وراء هرتزل بالشكل الفوري الذي توقعه. فلم يكن في ايديولوجية حركته ما من شأنه أن يستميل عواطفهم البروليتارية . حتى وظهور اليسار الصهيوني بعد ذلك بقليل لم يغير الامور بشكل حتمي . ويبدو ان هرتزل نفسه كان يدرك الحاجة الى نظرية تجتذب الجماهير . وهذا واضح من عبارة وردت بهذا المعنى في روايته **الارض القديمة الجديدة** نعود الى ذكرها فيما بعـد . والنظرية المطلوبة ما لبثت ان ظهرت في كتابات ايديولوجيي اليسار الصهيوني وعلى راسهم دوف بير بوروشوف .

باستثناء مغازلة قصيرة له مع الحزب الاجتماعي الديموقراطي الروسي ، بدأ بوروشوف مهنته السياسية عام ١٩٠٥ كخطيب متجول (أو مبشر متجول لو ذكرنا عبارة هرتزل) لصالح المنظمة الصهيونية . وفي الخطب التي توجه بها الى العمال اليهود بشكل خاص، تقدم بوروشوف بشرح لنفس الاهداف التي كان قد رفعها كل من بنسكر وهرتزل الا انه فسرها على أساس ما سماه «نظرية مادية صرفة». وقد ضمن بوروشوف نظريته هذه

في مقالة كتبها آنذاك تحت عنوان : **حول المسألة القومية والصراع الطبقي** وهي مقالة وان تكلمت عن المجتمع الانساني عامة كان المقصود بها اسباغ قبولية التصديق على تباشيره الصهيونية . واستعمل بوروشوف مجموعة زاخرة من العبارات الماركسية في هذه المقالة ليقول انه في حال وجود قومية بلا أرض خاصة بها (واليهود يشكلون مثل هذه القومية على حد قوله) فتنشأ عن ذلك مشكلة قومية تعطل تطور الصراع الطبقي وينتج عنها تماسك قومي بين كافة الطبقات في تلك القوميـــة . ويتضمن ذلك الطبقة البروليتارية التي يصف بوروشوف قوميتها على انها ليست فقط قائمة بل وتشكل برأيه أصفى مظاهر القومية . والمغزى الايديولوجي لهذه النظرية والتي جاءت عقب الثورة البروليتارية الروسية عام ١٩٠٥ واضح للغاية : فالبروليتارية اليهودية ، وفق المبادىء المادية الصرفة ، يجب ان تخفف صراعها الطبقي الـــى جانب الاجزاء الاخرى مـــن البروليتارية الروسية وتتوجه مع الطبقات البورجوازية اليهودية الى هدف ايجاد الارض للامة ــ اي الى الصهيونية .

بعباراته الماركسية ادعى بوروشوف انه يطرح نوعا خاصا من الصهيونية . ففي عام ١٩٠٦ حين قام مع عدد من شركائه بانشاء حزب بوعالي صهيون (عمال صهيون) كتب مقالته **برنامجنا** ليشرح فيها ما سماه « الصهيونية البروليتارية » التي ادعاها لنفسه ولحزبه . وواضح من هذه المقالة بالذات كيف ان صهيونيته لم تختلف بجوهرها عن صهيونية سالفيه بنسكر وهرتزل . وان كان بنسكر قد عبر عن المسألة وكأنها نتيجة فائض من البروليتاريين يجب نقلهم الى مناطق أخرى فقد رآهـــا بوروشوف نتيجـــة « الفائض من الطاقة » لدى البروليتارية امل أن توجه نحو اتجاه آخر . قال في هذه المقالة : « ان حالة الاضطهاد القومي الشديد ... تولد طاقة ثورية قاهرة وروحا عالية من التضحية بالنفس.وهذا الحماس الثوري، والذي تعيقه تقاييد القاعدة الاستراتيجية، غالبا ما يتخذ اشكالا بشعة . ومرض الفائض من الطاقة هذا هو مأساة البروليتارية اليهودية وسبب آلامها . »

ان المركز المتقدم لبعض اليهود من البروليتاريين في الصراع المجتمعي ظهر لبوروشوف وكأنه مرض بشع . وهو دلالة واضحة عن المصدر المجتمعي لايديولوجيته ان الكفاح البروليتاري نفسه ، وليس الظلم الذي واجهه ، بدا وكأنه المأساة وسبب الآلام . ولا عجب فاهتمام بوروشوف الرئيسي تركز في الهدف الصهيوني لايجاد منطقة استيطان ، أو قاعدة استراتيجية كما ارتأى ان يسميها ، لتوطين جمـــاهير البروليتـــاريين اليهود خارج أوروبه وشمالي اميركه . وهذا هو الهدف الذي أمل بوروشوف ان تتحول انظار البروليتارية اليهودية اليه وان يبذل الفائض من طاقاتها لتحقيقه . وهذا جل ما شكل مغزى « الصهيونية البروليتارية » التي دعا بوروشوف اليها .

مثل بنسكر وهرتزل والمتمولين قبلهما تطلع بوروشوف الى تهجير الجماهير المفتقرة من يهود اوروبه الشرقية الذين كانوا في طور تحولهم الى البروليتارية . ويشكل هؤلاء برأيه « المصدر الرئيسي للمادة الانسانية لعملية اعادة التأهيل اليهودية » في المنطقة الجديدة في المستقبل . وهذه الجماهير المنجرفة عن البلدانيات اليهوديـــة التي فقدت أسسهـــا الاقتصادية واتجهت غربا الى المدن الاوروبية والاميركية يشير اليها مرارا في **برنامجنا** على انها « البورجوازية اليهودية الصغـــيرة المفتقرة » . ووجود مثـــل هذه الطبقة البورجوازية الصغيرة المفتقرة يشكل برأيه خطرا شديدا على الامن والنظام الضروريين للتطور الصحيح للراسمالية . والبحث عن حل لهذه المشكلة لا يتناول المتمولين اليهود وحكومات الدول « المتمدنة » فحسب بل ، كمـــا يقول ، « كـــل مـــن البورجوازيـــة والبروليتارية الثورية له اهتمام بالتساوي فيحل سلمي ومنظم ... للمشكلة اليهودية».

والحل السلمي لهذه المشكلة لا يأتي بزعم بوروشوف الا عن طريق تهجير جماهير اليهود من البورجوازية الصغيرة المفتقرة وأولئك الذين هم في طور التحول الى البروليتارية وتركيزهم السكاني في بلد غير متطور . ولهذا الغرض يميل بوروشوف الى تفضيل فلسطين نظرا للقدرة التجارية التي يوفرها موقعها الجغرافي للرأسمال اليهودي الصغير . وهناك برأيه ستقوم البورجوازية اليهودية كما تتمثل في المؤتمر الصهيوني (اي المنظمة الصهيونية التي أنشأها هرتزل ورفاقه) بتوجيه الهجرة في المستقبل وتنظيم الاستيطان وتنسيق تطوير البلاد واستغلال مواردها الطبيعية . وفي فلسطين لن يكون المخطط الصهيوني سلميا وبوروشوف يعلم ذلك اذ يقول : « ان اولئك الذين يعتقدون بأن تغييرا جذريا للحياة اليهودية كذلك الذي ينطوي عن الحل الاقليمي يمكن ان يحصل دون صراع مرير ودون قسوة وجور ودون تسبب الالم للابرياء والمذنبين على حد السواء فهم طوباويون . وثورات كهذه لا تكتب بالحبر بعبارات رنانة المسمع بل تكتب بالعرق والدموع والدم » .

وهكذا فقد دعا بوروشوف الى حل سلمي ومنظم للصراع بين البورجوازية والبروليتارية في أوروبه ليتقدم بحل شوفيني يدفع بالجماهير اليهودية الى صراع دموي ضد السكان الاصليين في فلسطين . وكما نعرف عما جاء من تطور الامور فيما بعد فان « الحل الثوري » الذي نادى به بوروشوف سبب القسوة والجور والالم للابرياء دون المذنبين .

وهذا المنطلق لايديولوجية بوروشوف الداعي لتحويل المفكرين والبروليتاريين اليهود عن الكفاح الاشتراكي الاممي يطبع معظم كتاباته،نذكر منها مقالة وضعها تحت عنوان **التطور الاقتصادي للشعب اليهودي** عام ١٩١٦ حين كان يقيم في نيويورك . وفي هذه المقالة أرسل بوروشوف تحليلا مطولا لتلك الارقام الاحصائية التي اختارها عن الاعمال التي يمتهنها اليهود في مختلف الدول الغربية ليبين ان « التركيب الاقتصادي المجتمعي للشعب اليهودي شاذ » وليتقدم بالحل الذي من شأنه تقويمه . وبغض النظر عن اسلوبها الاكاديمي فلا تمثل هذه المقالة اكثر من اعتذار تبريري لصغار الرأسماليين اليهود ونواح على ضعف منشآتهم الاقتصادية الصغيرة حيث يعمل معظم العمال اليهود . ويتجنب بوروشوف هنا ذكر كبار الرأسماليين اليهود الذين كانوا يسهمون في الكرتلات المالية المسيطرة على الاسواق العالمية ليستنتج ان المنشآت اليهودية بعيدة عن قطاعات الانتاج الاولية . ويختتم بوروشوف مقالته فيعلن انه بسبب هذا البعد عن اسس عملية الانتاج فان دور اليهود في الكفاح الاشتراكي الاممي سيكون « ضئيلا » وان الصهيونية هي الحل الوحيد « للحاجات الاقتصادية للشعب اليهودي » .

مع ظهور ايديولوجية بوروشوف وقيام حزب بوعالي صهيون الذي بني عليها ليصبح فيما بعد اساس اليسار الصهيوني اكتملت الصهيونية بشقيها التنظيميين . فالمنظمة الصهيونية كانت مؤهلة للتوجه الى المتمولين من اعضاء البورجوازية اليهودية لجمع الاموال اللازمة والى مسؤولي الحكومات الاوروبية للسعي وراء التأييد لمطالبها بمنطقة للتوطين . وبالعبارات اليسارية التي اتخذها عن بوروشوف توجه حزب بوعالي صهيون الى الطبقة العاملة اليهودية لحثها على اعتناق الصهيونية والهجرة الى فلسطين . ولكن رغم هذا الاكتمال الايديولوجي والتنظيمي فقد بقيت تبعية الصهيونية بين اليهود منحصرة في القلائل طوال فترة نشأتها حتى أواخر الحرب العالمية الاولى . ومنطلق الصهيونية المعادي للثورية والاشتراكية ـــ والذي انعكس كما رأينا في ازدراء بنسكر بالبروليتاريين اليهود وفي معاداة هرتزل لانتسابهم الى الاحزاب الثورية وفي تعليلات بوروشوف لصرفهم عن الكفاح البروليتاري الاممي ـــ أهل الصهيونية لاهتمام الحكومات الاوروبية بها . الا أن هذا الاهتمام لم يصل الى حد الالتزام حتى نشوب الكفاح المجتمعي في روسيه عام ١٩١٧ . وهي ظروف هذا الكفاح الذي أدى الى ظفر الثورة البروليتارية ما دفع بالدول

الاوروبية الى تبني الصهيونية باصدار اعلان بلفور البريطاني (او وعد بلفور كما سمي بالاوساط العربية) آنذاك .

شكل اعلان بلفور البريطاني البداية الحاسمة للتطورات التي اجتاحت حياة السكان الأصليين في فلسطين وحياة اليهود في مختلف أنحاء العالم خلال الخمسين سنة الماضية. وقد اصدرت وزارة الخارجية البريطانية هذا الاعلان مباشرة بعد قيام الثورة البولشفية في روسيه . الا أن الارتباط بين هذين الحدثين والذي يشير اليه التقارب الزمني قد أغفل حتى الآن في كافة ما كتب حول الموضوع . ولا شك ان السرية التي اكتنفت سياسة البلدان الغربية في هذا الصدد آنذاك كانت السبب الرئيسي لهذا الاغفال. الا ان المفاهيم الخاطئة للايديولوجية الصهيونية التي طالما ادعت التقدمية لنفسها قد تضافرت مع هذه السرية لتغطي أهم الدوافع لتي أدت ببريطانيه الى اصدار الاعلان عام ١٩١٧ .

ان دوافع بريطانية في هذا الصدد قد شكلت موضوع نقاش طويل صدرت حوله مطبوعات وكتب ومنشورات كثيرة الا ان هذه التغطية الواسعة للموضوع لم تقف على اهم عوامله بل ، بالواقع ، زادت في غموضها . وهناك تفسيران يطرحهما كافة الكتاب حول المسألة : الاول يدعي ان الاعلان أصدرته بريطانيه كجزء من المنافسة الاعلامية التي قامت ابان الحرب العالمية الاولى بين دول الحلفاء والدول المركزية للتأثير على الرأي العام في الولايات المتحدة أملا بأن اثره على اليهود هناك قد يسهم في تسهيل دخول الولايات المتحدة في الحرب الى جانب الحلفاء . والتفسير الثاني يقول أن بريطانيه بتبنيها للصهيونية كانت تأمل بتأمين فلسطين لنفسها سابقة بذلك حلفاءها ، وخاصة فرنسه ، الذين كانت لهم نوايا ومطالب خاصة فيما يتعلق بفلسطين . ولكن حكما بتوقيت الاعلان لا يمكن القبول بأي من هذين التفسيرين : فعند اصدار الاعلان كانت الولايات المتحدة قد دخلت الحرب الى جانب الحلفاء منذ سبعة اشهر ومسألة مستقبل فلسطين أجل البت فيها عمدا في بريطانيه ، كما سنرى ، على ان يتم الاتفاق عليها بين دول الحلفاء عند انتهاء الحرب . اما المنافسة الاعلامية التي قامت للتأثير على اليهود فقد بعثت خلال العامين الاولين للحرب ولم تركز على الصهيونية بل على معاملة اليهود على أيدي السلطات القيصرية في روسيه فتناولت تبادل اتهامات المانيه بهذا الصدد تقابلها تطمينات من جانب الحلفاء دفاعا عن سمعة حليفتهم القيصرية . وفيما يتعلق بفلسطين لم تكن بريطانيه الدولة الوحيدة التي تبنت الصهيونية فقد كانت جميع دول الحلفاء موافقة على ذلك وخرجت كل منها باعلان لصالح الصهيونية يحاكي اعلان بلفور . اما وضع فلسطين بعد الحرب تحت حكم بريطانيه فلم يكن نتيجة تبنيها للصهيونية قدر ما كان نتيجة احتلال البلاد على أيدي قواتها الزاحفة من مصر — هذا بالاضافة الى القوات العربية التي آزرتها .

رغم عدم مطابقتهما لواقع الاحداث يلقى هذان التفسيران ، بتركيزهما على التنافس فيما بين الدول الاوروبية ، رواجا لدى معظم الكتاب في الموضوع . والكتاب الصهيونيون يجهدون لربط الاعلان بموقف الولايات المتحدة من الحرب وبالمجهود المشترك لانتصار الحلفاء محاولة منهم لتوفير ما يبدو لهم مناخا ايجابيا لتبني بريطانيه للصهيونية . وغالبا ما يرافق هذه الرواية تفاصيل اضافية — مما يزيد في الواقع في عدم قبولية تصديقها — تفسر اصدار الاعلان بالقدرة والحذاقة الديبلوماسيتين لدى الزعماء الصهيونيين ، أمثال حاييم وايزمان ، الذين يقال انهم نجحوا في اقناع الدول الغربية وحتى خداعها في التوصل الى تبني قضيتهم . والواقع ان الدول الغربية هي التي ارتأت في الصهيونية وزعامتها أداة مناسبة لتحقيق مآرب معاداة الثورية ، الامر الذي شكل المنطلق الايديولوجي المنبثق عن مصالح طبقية مشتركة بين البورجوازية اليهودية والبورجوازية المسيحية من رجالات هذه الدول .

ان تحليل سياسات الدول الاوروبية آنذاك بالتركيز على التنافس فيما بينها يغفل أمرا اساسيا اتصف به تاريخ الدول الاوروبية بوضوح طوال المائة والخمسين سنة الماضية: المعارضة المشتركة التي مارستها جميع هذه الدول ضد الاشتراكية والثورة . فالخوف من الثوريين والاشتراكيين والكراهية لهما كانا منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وخاصة بعد انتفاضات عام ١٨٤٨ في العواصم الاوروبية ، الصفة الوحيدة التي اتصفت بها جميع الدوائر الحاكمة في اوروبة . ولم تكن هذه الصفة المشتركة خافية على الاشتراكيين اذ تصدرت العبارات التالية مقدمة **البيان الشيوعي** : « هناك شبح يجول في اوروبة — هو شبح الشيوعية . وقد اتحدت كل قوى اوروبة العجوز في حلف مقدس لملاحقته والتضييق عليه: من البابا والقيصر الى مترنيخ وغيزو ، ومن الراديكاليين في فرنسه الى رجال الشرطة في المانية » . وموقف العداء المشترك للاشتراكية شكل مظهرا هاما لسياسات جميع الحكومات الاوروبية ووصل الى اوجه ابان الحرب العالمية الاولى حين ادى تفتت الحلف المقدس الى الجزع من ظفر الاشتراكية . ففي عام ١٩١٤ ، عندما كان ادوار غراي وزير خارجية بريطانية يحاول اقناع السفير النمساوي بمعارضته للحرب التي بات من غير الممكن تفاديها عشية نشوب القتال ، قال له : « ان الحرب اكبر خطوة الى الاشتراكية كان من الممكن اتخاذها » .

وكان انطلاقا من هذا الموقف المعادي للاشتراكية والثورة ان جاء تبني البلدان الغربية للصهيونية في ظروف تصاعد النضال الثوري في روسية ابان الحرب . وتركز الاهتمام الاساسي في الصهيونية في هذا الوقت بالذات في قدرتها على صرف اهتمام اليهود عن مشاركتهم وتأييدهم للكفاح الثوري وتوجيهه الى الاهداف الصهيونية في فلسطين . والارتفاع النسبي في انتماء اعداد اليهود الى الاحزاب الاشتراكية ، مع ما رافقه من رواج الخرافة الاوروبية القائلة ان الاشتراكية من اختراع اليهود ، اضف الى ذلك منطلق الصهيونية المعادي لهذا المظهر ، جعل الصهيونية موضع اهتمام الحكومات الاوروبية القلقة على تطور الاحداث الروسية . فبتبنيها للصهيونية عن طريق اصدار اعلان يؤيد اهدافها ، كانت حكومات الحلفاء تأمل بحرمان الثورة من التأييد الذي يمكن ان تحظى به بين الجماهير اليهودية ولتحد بذلك من تقدمها ليس فقط في روسية بل بين اوساط الطبقات العاملة في الدول الغربية الاخرى .

توجهت انظار الحكومات الغربية الى الصهيونية لاول مرة بشكل جدي في ظروف الاحداث المعادية للنظام القيصري في روسيه عند بداية عام ١٩١٧ والتي أدت الى ثورة آذار (مارس) التي اطاحت بالحكم القيصري فاثارت قلق الحكومات المتحالفة مع روسيه في الحرب . وعقدت عند بداية شباط (فبراير) لقاءآت شبه رسمية بين ممثلي الحكومة البريطانية وبعض الصهيونيين المقيمين في بريطانيه . كما عقد في لندن آنذاك اجتماع بين الصهيوني الروسي ناحوم سوكولوف والوزير الفرنسي للشؤون الشرقية جورج بيكو الذي أظهر بوضوح ان اهتمامه بالصهيونية ارتكز على الدور الذي قد تقوم به هذه الحركة في التأثير على يهود بولنده حيث بات موضوع تأييدهم للاحزاب الثورية والاشتراكية موضوع قلق لحكومات الحلفاء . ولا شك ان قيام ثورة اذار (مارس) ضاعف هذا القلق الا ان قيام الحكومة المؤقتة والتي اصطبغت بصابغ بورجوازي ليبرالي اعطى متنفسا للحكومات المتحالفة مع روسية . فالنظام الجديد ابدى استعداده للاستمرار في الحرب التي ورثها عن النظام السابق كما تضمن بين اعضاء حكومته عددا من الرأسماليين . وفي فرنسة فضلت الدوائر الحاكمة ان ترى الحدث الروسي على انه ثورة حماس وطنية من شأنها تحسين اوضاع روسية ومساهمتها في الحرب . وكذلك الامر بالنسبة لحكومة الولايات المتحدة التي دخلت الحرب الى جانب الحلفاء بعد ذلك بقليل وباشرت باقامة المفاوضات مع النظام الروسي الجديد لتوفير القروض المالية له .

ونتيجة لهذه التطورات اخذت حكومات الحلفاء تركز اهتمامها في تأمين استقرار النظام والحؤول دون سقوطه على ايـدي المعارضة التي بـدأت تنمو بين قطاعـات العمال والجنود . واستمرت اتصالاتها مع الصهيونيين اهتماما بخدمات الذين بينهم من اصل روسي ممن كانوا على اتصال بالحالة في روسية املا بان تسهم في تأمين استقرار الحالة هناك . الا ان عودة الاستقرار الى روسيه ـ وان كان استقرارا سطحيا ـ ادى الى تأجيل البت بمسألة الصهيونية مرارا ولـم يتم القرار عليها نهائيـا حتى ثورة اكتوبر البولشفية التي اطاحت بالحكومة المؤقتة .

جاء اول تهديد جدي للحكومة المؤقتة في روسية بعد مدة قصيرة من قيامها . ففي النصف الثاني من نيسان (ابريل) قامت موجات من التظاهرات ضد الحكومة وخطتها الحربية اتصفت بتمرد بعض الحاميات ورفضها الانصياع لاوامر الحكومة كما قامت مظاهـرة كبيرة في العاصمة بتروغراد جاءت بعشرات الالاف من العمـال والجنود الى الشوارع يطالبون بوضع حد للحرب وبعزل البورجوازيين عن الحكومة . وهذه الاحـداث التي بدأت تقرب جماهير العمال والجنود الى الحزب البولشفي شكلت موضوع قلق لحكومات الحلفاء . وفي بريطانية حث عـدد من المسؤولين الحكومة على اصدار اعـلان لصالح الصهيونية للتأثير على اليهود ولصرفهم عن الصراع المجتمعي القائم . وعلى اثر ذلك في ٢٤ نيسان (ابريل) بعث مكتب العلاقات الخارجية البريطـانية رسالة من لنـدن الى السفير البريطاني بوكانان في بتروغراد ورد فيهـا : « ثمة نصائح تقـول لنا ان افضل وسيلة للرد على الدعاية اليهودية السلمية والاشتراكية في روسية هو ان نتقدم بتشجيع محدد للاماني القومية اليهودية في فلسطين . ومسألة الصهيونية مليئة بالتعقيدات ولكن سأكون شاكرا لو علمت رأيكم عما اذا كان اصدار اعلان من الحلفاء يعطف على الاماني القومية اليهودية سيساعد فيما يتعلق بالحالة الداخلية والخارجية في روسية » .

جاء جواب بوكانان في ٢٧ نيسان (ابريل) بالنفي . وحذر السفير من اثـارة الموضوع قائلا ان الحماس للصهيونية بين اليهـود في روسية ليس قويا وان الـدعاية السلمية اقتصرت على الذين ينتمون الى اقصى اليسار . وربما عكست اعتراضات بوكانـان موقف النظام القائم في روسية والذي ، وان لم يعارض الصهيونية ، كان يفضل ان يربط نفسه فيما يتعلق باليهود بحزب «البند» المعادي للصهيونية والذي فاق عدد اتباعه بكثير عدد الصهيونيين . وهذا الحزب الذي نادى بالقومية الثقافية اليهودية مطالبا بالاستقلال الذاتي لليهود في روسية كان ، مع باقي الاحزاب اليسارية المساومة قد وضع ثقله وراء الحكومة المؤقتة . اما عدد اليهود في الحزب البولشفي (أي اقصى اليسار كما وصفه بوكانان) لم يكن ضخما الا ان عـددا لا يستهان به من اليهود كـان في الحزب وبرز في قياداته كما ان تأثير البلاشفة بين اوساط الطبقة العاملة من اليهود بات ينمو باستمرار .

أجل البت بموضوع الاعلان ، ربما أخذا بنصيحة بوكانان ، الا انه لـم يتم التخلي عنه كليا . وكان واضحا لدى حكومات الحلفاء ان مركز الحكومة الروسية المؤقتة لـم يكن قويا وجهدت هذه الحكومة للاستفادة من الصهيونيين بكافة الوسائل لتقوية وضع النظام الروسي . كما كان ضروريا القيام بمجهودات لتقوية موقف الصهيونيين بين اليهود في البلدان الحليفة . ففي الولايات المتحدة كان الصهيونيون قلة تعارضهم كافة المنظمـات اليهودية بما في ذلك اللجنة اليهودية الامبركية ، الا انهم كانوا ذوي قدر من النفوذ بقيادة لويس براندايس الذي كان قاضي محكمة العدل العليا آنذاك . وكذلـك الامر بالنسبة لفرنسة حيث واجهت اقلية الصهيونيين معارضة الاتحاد اليهودي الفرنسي . امـا في بريطانيه فقد واجه الصهيونيون عداء اكثرية اليهود في البلاد بعضهم من اعيان اليهود مثل ادمون مونتاغو الذي كان عضوا في الوزارة .

في اذار (مارس) ١٩١٧ دعي الصهيوني ناحوم سوكولوف المقيم آنذاك في لندن لزيارة باريس بتشجيع من مارك سايكس المسؤول البريطـاني عن الشؤون الشرقية وزميله الفرنسي جورج بيكو . ولا شك ان اختيار سوكولوف الروسي لهـذه الزيارة (وليس حاييم وايزمان البريطاني) كان يهدف الى اسبـاغ نكهة يهودية « عالمية » على الزيارة والى ربطها بالدعاية التي قصد بها في روسية . وفي فرنسة تعاون سوكولوف مع المتمول اليهودي ادمون دي روتشيلد لنيل تأييد للصهيونية من المنظمات اليهودية القائمة وخاصة الاتحاد اليهودي العالمي . كما اقيمت له لقاءات مـع الرسميين الفرنسيين سميت فيما بعد في المصادر الصهيونية على انها « مفاوضات » عقدت باسم الصهيونيين مع جورج بيكو . وتقول لنا هذه المصادر ان مارك سايكس البريطاني كان راضيا جدا عـن هذه المفاوضات . وقد ظهرت فعلا نتائج هذه المفاوضات ـــ ممـا يشير الى اهدافها ـــ في رسالة بعثت يوم ٤ حزيران (يونيو) من المسؤول الفرنسي بول كـامبون الى السفير الفرنسي في بتروغراد ورد فيها ان الحكومة الفرنسية تؤيـد المشروع الصهيوني الذي قيـل ان سوكولوف أمن التأييد له في لندن وروما وواشنطن . واستمرت الرسالة في القول : « انه من المؤكد ان نفوذ الصهيونيين يمكن ويجب استخدامه في روسية لصالح الحلفاء ولدعم القوى التي تحاول الحكومة المؤقتة (الروسية) الاعتماد عليها . ونفوذ المسيو سوكولوف سيستعمل في هذا المضمار ... »

كان سوكولوف قد قام بزيارة الى روما بتشجيـع من سايكس وبيكو واجتمـع ببعض مسؤولي الحكومة الايطالية والفاتيكـان ليؤمن التأييد للصهيونية هنـاك . ولـم يزر سوكولوف واشنطن ، الا ان الحكومة الاميركية كـانت فعلا موافقة عـلى اهمية تبني الصهيونية من حيث فائدتها بالنسبة للوضع في روسية رغم ترددها فيما يتعلق بمستقبل فلسطين . وواقـع ان اهتمام الولايات المتحـدة تركز في فائدتها بالنسبة للظروف في روسية واضح من رسالة وجهت فيمـا بعد من وزارة الخـارجية الاميركية الى مكتب العلاقات الخارجية البريطانية . وهذه الرسالة التي جاءت في ٢٨ كانون الاول (ديسمبر) ـــ أي بعد اصدار اعلان بلفور ـــ صادقت على الاعلان البريطاني فيما يتعلق بفائدته في روسية وفي نفس الوقت حذرت من تفسيره كموافقة اميركية على اقامة محمية بريطانية على « المناطق التركية » في فلسطين . وقالت الرسالة فيما قالت : « ولكنه امر هـام جدا ابقاء علاقات جيدة وودية مع الصهيونيين وتأمـل الولايات المتحـدة ان يبذل تأثير اليهود من اجل المصلحة في روسية » .

كان هذا بعد اصدار الاعلان ـــ اي بعد سقوط الحكومة المؤقتة . وقبل ذلك بقي اهتمام حكومات الحلفاء يرتكز على تقوية النظام الروسي القائم . ويبدو ان الصهيونيين كانوا على استعداد لاسداء خدماتهم لهذه الحكومات في هذا المضمار . وفيما كان سوكولوف يتجـول في فرنسة وايطالية كان وايزمان يتجـول في بريطانية ساعيا لتقويـة موقف الصهيونيين في أوساط يهود البلاد . ونعلم من سوكولوف في كتابه ، **تاريخ الصهيونية** ان وايزمان كان يتكلم عن الحالة في روسية في جولاته الدعائية لصالح الصهيونية . فقد قال في كلمة القاها الى مؤتمر الاتحاد الصهيوني البريطاني في ٢٠ ايار (مايو) ١٩١٧: «ان مصير الحركة الصهيونية يعتمد الى حد بعيد على استقرار الاوضاع في ذلك الجزء مـن العالم.وسيكون عملا مشرفا ولا شك للمنظمة الصهيونية في مختلف انحاء العالم وخاصة لاصدقائنا في روسية ان يساهموا بكامل قدرتهم من اجل استقرار الاوضاع في روسية ».

ان اهتمام وايزمان بالاستقرار في روسية في وقت كانت تتصاعد فيه الثورة البروليتارية هو دلالة واضحة على المنطلق الايديولوجي الذي رفعه وايزمان مع الاخرين من شركائه الصهيونيين . ومما تجدر ملاحظته هنا ان وايزمان الذي قام فيما بعد بدور الدبلوماسي الاول للصهيونية في اتصالاته بين لنـدن وواشنطن الى ان نصب اول رئيس للـدولة

الصهيونية بعد قيامها ، كان يعي ان مصير الصهيونيــة يعتمد على ظــروف الصراع المجتمعي في روسية . ويبدو ان الصهيونيين كانوا على استعداد آنذاك لوضع انفسهم في خدمة ضرب الثورة . وفي مقالة كتبها هـــايمن لومر تحت عنوان « الــدور الرجعي للصهيونية » ظهرت في مجلة **الشؤون السياسية** الاميركيــة في عددها الصادر في تموز ١٩٧٠ تكلم المؤلف عن الخدمات العملية التي وفرهـــا الصهيونيون للــدوائر الأميركية الحاكمة حين وفروا المعلومات الدقيقة من خلال عملائهــم في روسية عن تطور الوضع هناك مـــا بين ثورتي آذار (مارس) وتشرين الاول (اكتوبر) . ولا شك ان اعمـــال الصهيونيين اغدقت عليهم استحسان الدول المعنية . اما مسألة اصدار الاعلان لصالح الصهيونية بقيت معلقة رهن تطور الاحداث في روسية .

ان القوى التي اعتمدت عليها الحكومة المؤقتة في روسيه ظلت هزيلة بوجه تعالي كفاح الطبقات العاملة ضدها . وبدا ذلك واضحا في منتصف حزيران (يونيو) عند انعقاد اول مؤتمر للسوفييات وما تبعه من ضجة واسعة حول المظاهرة غـــير المرخصة التي نادت اليها اللجنة المركزية البولشفية في بتروغراد ليوم ٢٣ حـــزيران (يونيو) . ورغـــم ان المظاهرة الغيت ، الا ان الاحداث التي سبقت موعدها اظهرت ضعف الحكومة واثارت خوف الديبلوماسيين الغربيين . واعيدت اثارة موضوع الاعـــلان لصالح الصهيونية في هذا الوقت حين قام رونالد غراهـــام احد اعيان مكتب الشؤون الخارجية البريطـــانية باصدار مذكـــرة في ٢٣ حزيران (يونيو) حث فيهـــا على اصدار بيـــان علني لتأييـــد الصهيونية . وكان هذا المسؤول البريطاني واضحا جدا في كلامه عن النتائج السياسية التي كان يأمل احرازها من هذا البيان . فقال : « يجب علينـــا اذا تأمين كافة الفوائد السياسية التي يمكن احرازها من علاقتنا بالصهيونية ولا شك ان هذه الفوائد ستكون ضخمة وخاصة في روسية حيث الطريقة الوحيدة للوصول الى البروليتاريين اليهود هي من خلال الصهيونية . . . »

وهكذا بدا للمسؤولين البريطانيين ان الصهيونية هي الوسيلة الوحيدة لصرف اهتمـــام البروليتاريين اليهود عن الكفاح الاشتراكي في ظروف الحرب . فاعـــلان رسمي تصدره دول الحلفاء اعتبر اداة من شأنهـــا تقوية الصهيونيين وتحسين قبوليـــة تصديقهم بين صفوف الجماهير اليهودية . وبدا لهم الامر ذو خطورة خـــاصة وان ازمة الحكومة في روسية بدأت تزداد سوءا . ففي اوائل تموز (يوليو) حدثت عدة اشتباكات في شوارع بتروغراد بين مؤيدي الحكومة المتحمسين للحرب وجماهير العمال الذين بدوا وكأنهم على استعداد لبدء هجومهم على الحكومة . وفي الجبهة بدأ افـــراد الجنود ومجموعات منهم تتذمر وتتمرد . ومن انكلترة بعث بعميل بريطاني اسمه غولدبرغ الى روسية للاتصال بالصهيونيين كما باشر سوكولوف بالتوجه الى روسيه من اجـــل « البحث في الوسائل للقيام بالدعاية الفعالة » بين اليهود هناك . وفي نفس الوقت ، « طلب » من الصهيونيين البريطانيين بقيادة روتشيلد وو ايزمان اعداد مشروع اعلان يتقدمون به الى وزارة الحرب البريطانية . وبدا وكأن الاعلان على وشك الصدور ، الا ان تغير مجرى الاحداث أدى الى تأجيل الاعلان الى اجل غير محدد .

ففي النصف الثاني من تموز (يوليو) تمكن النظام الروسي من تحسين اوضاعه . وتمكن اسكندر كيرنسكي باتباعه موقفا وسطا بين الاحزاب المساومة (المنشفيـــك والثوريين الاجتماعيين) من جهة والرأسماليين الذين تطلعوا الى الجنرالات امثال كورنيلوف بافواج الكوساك الموالية لـــه من جهة ثانية من تحقيق قدر من الاستقـــرار والقوة للحكومة . وباشرت بعد ذلك الحكومة بضرب العمـــال والجنود المتمردين وتفريق صفوف الحزب البولشفي . ويبدو ان موضوع الاعلان في بريطانية اهمل لمدة شهر ونيف على اثر ذلك.

بالاضافة الى استتباب الامور في روسية فقد كانت هناك الاعتبارات العسكرية الهامة

المتعلقة بوضع الجبهة العسكرية في منطقة شرقي المتوسط والتي استطلبت تأجيل اصدار اي اعلان لصالح الصهيونية نظرا لعداء العرب الواضح لهذه الحركة . فقوات الشريف حسين وحلفاؤه الموالون لبريطانية كانت تقـوم في هذه الاثناء بحملاتها العسكرية ضد القوات العثمانية ـــ الالمانية في فلسطين واحرزت هـذه القوات انتصارا هامـا في ٦ تموز (يوليو) على القوات التركية واستولت على العقبة . وباشرت بعد ذلـك بالسير الى المناطق شمالي العقبة في فلسطين والاطراف الاخرى من سورية فاتحة البلاد بذلك للقوات البريطانية المرابضة في سيناء على اهبة الاستعداد للسير عـلى فلسطين . وفي ٢٠ آب (اغسطس) وصلت برقيـة من المسؤول البريطـاني كريستوفر سايكس في القاهرة يحذر فيها من اصدار اي اعلان آنذاك قائلا : « انه من الافضل الامتناع عن اي تصريحات علنية في الوقت الحـاضر . . . تؤيـد الصهيونية في فلسطين ضد مصالـح المسلمين المقيمين في البلاد ، مما قد يعطي العرب سببا اضافيا للاستياء » .

لم يغب موضوع الاعلان طويلا عن جدول اعمـال الوزارة البريطانية . فصراع القوى الذي بات ينشب بين كيرنسكي وكورنيلوف مما اعاد البلاشفة الى وسط مسرح الاحداث، ربمـا كان السبب في اعادة اثارة المسألة ، وربمـا كان ذلك تلبية لاصرار الصهيونيين البريطانيين وعـلى رأسهم وايزمان الذي كان طـوال هذه الفترة يسأل المسؤولين في بريطانية والولايات المتحدة عن اسباب تأجيل البت بالموضوع . وعقدت جلسة لوزارة الحرب البريطانية في ٣ ايلول (سبتمبر) تناولت موضوع الاعلان ويبدو ان المسألة لـم تؤخذ بكامل الجدية اذ ان كلا من رئيس الوزارة لويد جورج ووزير الخارجية آرثر بلفور كان غائبا عن هذه الجلسة . وواجـه محبذو الصهيونية في هـذه الجلسة اعتراضات ادوين مونتاغو وزير الـدولة للشؤون الهندية ـــ وكـان العضو اليهودي الوحيـد في الوزارة ـــ فعارض فكرة الاعلان وحذر منها باعتبارها حركة تنطوي على الاساءة الى وطنية اليهود البريطـانيين . كمـا حذر من ارتباطاتها بالاجانب (الروس) والاعـداء (الالمان) . وبهذه الاعتراضات وبغياب كبيري المسؤولين لم تؤد هذه الجلسة الى قرار محدد بشأن الاعلان .

عند اواخـر ايلول (سبتمبر) قامت تحركات جماهيريـة واسعـة في روسية دفعت بالبلاشفة الى قيادة مجالس السوفيات تلاه ازدياد في النشاط من اجل اصدار الاعلان البريطاني لصالح الصهيونية . ان صراع القوى الذي كـان قد انفجر داخـل النظام الروسي أدى الى التباعد الحتمي بين الراسماليين والبروليتاريين مما أدى الى انعزال الاحزاب المساومة عن العمال لصالح الحزب البولشفي . وحاز الحزب البولشفي على الاكثريـة عند اواخر ايلـول (سبتمبر) في مجالس السوفيات والمحميات في كـل من بتروغراد وموسكو . وتضاعف ولاء البروليتاريين للحزب البولشفي في كافة انحاء البلاد وقد أخذت اخبار موقفه المعادي للحرب تتسرب الى مجموعات الجيش على الجبهة .

وعقد اجتماع لوزارة الحرب في لندن نظر في مسألة الاعلان يوم ٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٧ . وكان كـل من لويد جورج وبلفور موجودا الا ان هـذه الجلسة انتهت مثـل سابقتها بعدم اتخاذ قرار نهائي في المسألة . ومونتاغو لم يعارض فكرة الاعلان كليا في هذه الجلسة بل تقدم باقتراحات لتعديل شكله . اما بلفور فقد وجه انتباه الموجودين الى بيان يعبر عن تأييد الحكومة الفرنسية للصهيونية (رسالة من كامبون الى سوكولوف) واشار الى موقف حكومة الولايات المتحدة الراضي عن الصهيونية . ورغـم ذلك فقد انتهت الجلسة بقرار يقضي استشارة الرئيس الاميركي وبعثت اليه رسالة تضمنت نص مشروع الاعلان .

جاء جواب الرئيس الاميركي يوم ١٣ تشرين الاول (اكتوبر) موافقا على اصدار الاعلان،

الا ان الحكومة البريطانية لم تكن مستعدة للعمل بذلك فورا . فالقوات البريطانية كانت قد باشرت زحفها باتجاه غزة في فلسطين والحالة في روسية لم تكن قد وصلت بعد الى نقطة الانفجار. وارجىء موضوع الاعلان، على ان عضوا في الوزارة ، اللورد كيرزون، كان يعد مذكرة حول الموضوع. واستمر هذا التأجيل حتى ٢٦ تشرين الاول (اكتوبر) حين خرج كيرزون بمذكرته ليقول ان توفير الظروف لاقامة وطن قومي لليهود سيكون صعبا في بلد كفلسطين لا تكفي مواردها سكانها الاصليين . ولم تكن اعتراضات كيرزون امرا جديدا للوزارة التي كانت دون شك على علم بهذه المعضلة منذ البداية الا انها ، على اي حال ، اسهمت في تأجيل الاعلان . ولكن بعد هذا الموعد يبدو ان المسألة لم تعد تتحمل التأجيل .

فخلال هذه الايام الحاسمة قام سوفيات بتروغراد بأغلبية البولشفية بتشكيل « اللجنة الثورية العسكرية » لحد سلطة الحكومة في نقل الحاميـــات من العاصمة واليها . ولا شك ان تشكيل هذه اللجنة التي قدر لها ان تنفذ الانتفاضة الثورية بعد بضعة ايام بقيادة اليهودي الروسي ليون تروتسكي بدا تهديـــدا واضحا لسلطـــة الحكومة . وصادقت اللجنة التنفيذية لمجلس سوفيات العمال في بتروغراد على تشكيل اللجنة يوم ٢٥ تشرين الاول (اكتوبر) . وباشرت قيادة الحزب البولشفي بعد ذلك باعداد الترتيبات النهائية للانتفاضة .

يـــوم ٣١ تشرين الاول (اكتوبر) اجتمعت وزارة الحرب البريطـــانية للتقرير نهائيا في موضوع الاعلان . وحرص خلال هذا الاجتماع على تجنب كافة المشكلات التي كانت قد ظهرت سابقا بشأن الصهيونية . وبمـــا ان مونتاغو كان غائبا عـــن هـــذه الجلسة ، امتنع كيرزون عن ذكر الاعتراضات التي كان قد اوردها في مذكرته . وبهذا كان بوسع وزير الخارجية بلفور ان يعلن « ان الجميع متفقون ... على الرغبة باصدار اعـــلان لصالح الاماني القومية اليهودية الان » . ولم يكن بلفور على استعـــداد لاثارة اي من التعقيدات التي قد تنشأ عن الاعلان . اما موضوع مستقبل فلسطين فقد آثر تأجيـــل البت فيه فتكلم بشكل موجز وعام عن اقامة « نوع من محمية بريطـــانية او اميركية او اخرى » على البلاد . اما عن هدف اصدار الاعلان ، فقصر بلفور كلامه على فائدتـــه الاعلامية والدعائية لدى اليهود مشيرا بشكل خاص الى يهود روسية والولايات المتحدة ثم الى اليهود في كافة البلدان الاخرى . ففي الولايات المتحدة كان تأييد السكان اليهود ، الذين سبق وابتهجوا وتظاهروا لثورة آذار (مارس) ، لتصاعد الثورة البروليتارية في روسية موضوع قلق لحكومة الولايات المتحدة وحليفاتها . كما ان نشاط الاشتراكيين في نيويورك والذي بدأ يتعالى بشكل خاص في صيف ١٩١٧ كان غالبا ما يبرز فيه افراد من اليهود الاميركيين من اصل روسي . ولكن الاهمية الاولى للمسألة كانت تتعلق بتأثيرها في روسية . فاليهود كانوا يقيمون بمعظمهم في الاجـــزاء الغربية والغربية الجنوبية من الدولة حيث تأييد الثورة لو نما لكان من شأنه ان يوفر للثورة مكتسبات لا يستهان بها . والحكومات الغربية كانت دون شك تدرك خطورة ذلك خاصة وان اليهود في هذه المناطق كانوا يشكلون حلقة وصل سكانية تربطهم مع الجاليات اليهوديـــة في اوروبة الوسطى والتحول الثوري بينهم كان من شأنه ان يوفر وصلة للامتداد الثوري باتجـــاه الغرب . وقياسا بالاحداث آنذاك ، فانطـــلاق الصراع المجتمعي في اوروبة الوسطى وحتى في غربي اوروبة لم يكن غير ممكن ومتوقع . فعندما دعا لينين حزبه الى الثورة ركز اهتماما كبيرا على امكانية انطلاق الكفاح الثوري الاشتراكي في البلدان الغربية .

نقل قرار اصدار الاعلان بعـــد يومين من جلسة الوزارة التي تبنته (اي في ٢ تشريـــن الثاني — نوفمبر وهو الموعد المتبـــع في الاوساط العربية لاحياء ذكـــرى الاعلان) الى المتمول اليهودي الصهيوني جيمس روتشيلد في رسالة تضمنت نص الاعلان . كما ابلغ

آخرون من صهيونيي بريطانيه بينهم حاييم وايزمان بنبأ القرار . الا ان الحكومة آثرت ابقاء القرار سريا وقتئذ وارجأت اصدار الاعلان . فقد كانت القوات البريطانية خلال هذه الايام ترابض عند حصون مدينة غزة وتقوم بعمليات لاحتلالها ، مما دعا الى ابقاء القرار سريا حتى لا يؤدي تسرب اخباره الى السكان العرب في فلسطين الى قيام مقاومة اضافية لدخول القوات البريطانية الى البلاد . وربما كانت الحكومة البريطانية ما زالت تأمل حتى هذا الموعد انقلاب الاوضاع مجددا في روسية لصالح حكومة كيرنسكي . ولذلك لم يصدر الاعلان علنيا حتى بعد وصول انباء سقوط الحكومة في بتروغراد في التاسع من تشرين الاول (نوفمبر) . وصدر الاعلان في ذلك اليوم اخيرا وظهر في الصحف البريطانية الى جانب اخبار اليومين السابقين في العاصمة الروسية : القوات الثورية كانت قد احتلت المباني الحكومية الرئيسية واطاحت بالحكومة وهرب كيرنسكي من المدينة وانتقلت السلطة الى مجالس السوفيات . وهكذا فقد نالت الصهيونية الاعتراف الذي طالما سعت اليه في نفس اليوم الذي ولدت فيه اول دولة اشتراكية . وقد جاء نص الاعلان كما يلي : « ان حكومة جلالته تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين وستبذل قصارى جهدها لتسهيل تحقيق هذا الغرض ، على ان يفهم جليا انه لن يؤتى بعمل ما من شأنه ان يضر الحقوق المدنية والدينية للسكان غير اليهود في فلسطين والحقوق والوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في اي بلد اخر » .

وفيما تضمن القسم الاول من الاعلان ما ترتب على تبني الصهيونية ، حاول القسم الثاني منه تغطية التناقضات التي كمنت فيه . فالحقوق المدنية للسكان العرب الاصليين لم يمكن توفيقها مع مشروع اقامة وطن للاخرين في بلادهم . كما ان الحقوق والوضع السياسي لليهود في مختلف بلدانهم لم يمكن الحفاظ عليه في وثيقة دعتهم لاعتناق القومية اليهودية ــ الصهيونية في فلسطين .وتدمير الحياة اليهودية في اوروبه الوسطى واوروبه الشرقية على ايدي النازية في اوائل الاربعينات لم يكن غير مرتبط بتلك الصورة لليهود كـ « غرباء » التي اسبغتها الصهيونية على يهود اوروبة في اوطانهم . واستئصال اكثر من مليون عربي فلسطيني من بلادهم في اواخر الاربعينات لتوفير المقام للدولة اليهودية الناشئة تعود اصولها الى تحركات الطبقات البورجوازية وحكوماتها (بمن في ذلك اليهود في اعضائها) لضرب امتداد ثورية واشتراكية البروليتارية الاوروبية بمن فيها البروليتارية اليهودية في اوروبة الشرقية . وقد اشار لينين في دراسته **الامبريالية : اعلى مراحل الرأسمالية** عام ١٩١٦ الى مجاهرة بعض رجالات الدوائر الحاكمة في اوروبة بفوائد الامبريالية لحل المشكلات الطبقية الداخلية بما في ذلك من امتصاص نقمة الطبقات العاملة بتهجير الفائض من السكان . وان كان هذا المنطلق مظهرا اتصفت به كافة حركات الامتداد الامبريالي الغربي الى قارات افريقية وآسية واميركة اللاتينية عامة فقد انطبق هذا المظهر على الصهيونية بشكل خاص . فقد نشأت هذه الحركة على ايدي البورجوازيين اليهود ضمن ظروف تصاعد الصراع الطبقي الاشتراكي بين صفوف البروليتاريين اليهود ونالت هذه الحركة تبني الدول الغربية لها وسط انطلاق وانتصار الثورة الاشتراكية الاولى .

لم يمض وقت طويل على اصدار الاعلان الا وكانت الطائرات البريطانية تحلق فوق التجمعات اليهودية في مدن وقرى اوروبة الشرقية وتقذف بملايين المنشورات تحمل تصريحات شبه نبوية تعلن لليهود ان « الابواب فتحت اخيرا لعودتهم الى وطنهم التوراتي بعد الفي سنة من التشتت » . ولا حاجة للقول ان هذه المنشورات لم تذكر الحقوق المدنية للسكان الاصليين ولم تتناول الحقوق والوضع السياسي لليهود في اوطانهم . فتحت البلاغة بالشعارات النبوية كمنت دوافع مجتمعية تقضي بصرف ابناء

الطبقـــات الفقيرة من اليهود عن الصراعات الطبقية في مجتمعاتهم والدفع بهم الى صراع قومي شوفيني للتسلط على وطن الاخرين .

في ٩ شباط (فبراير) ١٩١٨ اصدرت الحكـــومة الفرنسية بيانا يصادق على الاعـــلان البريطاني ويؤيد مشروع تشجيع الصهيونية واهدافها في فلسطين . وفي ٩ ايار (مايو) ١٩١٨ اعلنت الحكومة الايطالية عن تأييدها للصهيونية في رسالة موجهة الى سوكولوف. وفي ٣١ آب (اغسطس) ١٩١٨ صادقت الحكومة الاميركية على الاعلان البريطاني في بيان سلم الى الحاخام الاميركي ستيفن وايز .

ان قلق حكومات الحلفـــاء لسقوط حليفتهم الروسية لصالـــح ثوريين امميين يناهضون الحرب الامبريالية ويدعون الى تماسك بين الطبقات البروليتارية لكافة الامم كان السبب المباشر لتبني الصهيونية على ايدي هذه الحكومات . وان كان هناك اي تردد عند انتهاء الحرب عن التمسك بهذا التعهد للصهيونيين فان صمود الثورة في روسية وتصاعدها في هنغارية والمانية وبلاد اوروبية اخرى خلال عام ١٩١٨ ازال اي تردد كان قائما . وقد صدق المفكر السياسي ثورستين فبلن حين قال عام ١٩٢٢ ان كـــلا من اتفاقية فرساي ومنظمة عصبة الامم قد تم الاتفاق عليهما بين القوى الاوروبية بطريقة لا يمكن ان تخدم سوى هدف واحـــد : ضرب روسية السوفياتية . وفي هـــذا المضمار حظي الصهيونيون بانتباه كبير في محادثات فرساي كما ضمن اعلان بلفور في نص الانتداب لعصبة الامم . وعندما اصبح التدخل العسكري المباشر الاسلوب الذي اتبعته الـــدول الغربية لضرب الثورة الروسية ابقي على الصهيونية وشجعت بشتى الوسائل لتسهم في تحقيق الهدف المشترك .

ان كنا قد عالجنا بهذا الاسهاب تفاصيل احداث عام ١٩١٧ في روسية ورد فعل الحكومات الغربية عليها فذلك لنوضح ان العداء للكفاح الثوري في اوروبة ــ وبشكل خاص فيمـــا يتعلق باشتراك اعداد اليهود في هذا الكفاح ــ كان الدافع الاســـاسي لاصدار اعـــلان بلفور آنذاك والتمسك به فيما بعد . والعداء لاشتراكية وثورية اعداد من البروليتاريين اليهود كان شعورا مشتركا حمله الصهيونيون من بورجوازيي الدول الغربية وزملائهـــم الطبقيين من غير اليهود في حكومات هذه الدول . ويبدو هذا الواقـــع بأكثر قـــدر من الوضوح في سجل اجتماع عقد يوم ٢٤ حـــزيران (يونيو) ١٩١٩ بين لويس براندايس زعيم الصهيونيين في الولايات المتحدة والذي كان يشغل مركز قاضي المحكمـــة العليا في اميركة آنذاك ووزير الخارجية البريطانية آرثر بلفور الذي اقترن اسمه باسم الاعلان . ولاهميته في اظهار تفكير هذين المسؤولين في كبريي الدول الغربية وفي اظهار الصهيونية التي اشتركا في اعتناقها يستحق سجل هذا الاجتماع ايراده بشكـــل مطول : « أعرب السيد بلفور عن ارتياحه الكبير لقدوم القاضي براندايس الى اوروبة . وقال ان المشكلة اليهودية (والتي لا تشكل مسألة فلسطين سوى جزء صغير ولكن هام منها) هي برأيه مسألة تفوق تعقيداتها اي مسألة اخرى تواجه رجال السياسة في اوروبة . . . وقال ان المشكلة تتعقد بالطبع بسبب الظاهرة الغريبة ان اليهود لا يشتركون في الحركات الثورية فحسب بل وفي الواقع هم الان في قيادة هذه الحركات الى حد كبير . وقال ان شخصا موثوقا به اخبره منـــذ ايام ان لينين ايضا مـــن جهة امـــه يهودي . واجاب القـــاضي براندايس ان لديه جميع الدلائل للاعتقاد ان الامر ليس كذلك وان لينين روسي علـــى الجهتين من الطبقة العليا . واستمر بالقول ان هذه المسألة ثانوية على كل حال وان كل ما قاله السيد بلفور صحيحا . وهو يعتقد ان كل يهودي مفكر ومثالي وان المشكلة هي في توجيه هذه الصفات . ثم سرد قصة توصله هو الى الصهيونية وانه توصل اليها كليا كاميركي اذ كانت حياته خالية من الاتصالات والتقاليد اليهودية . وكأميركي فقد جابهته حالة الاعداد الهائلة من اليهود وخاصة اليهود الروس الـــذين يتدفقون الى الولايـــات

المتحدة سنويا . الى ان وقعت يداه على منشور عن الصهيونية مما ادى به الى دراسة المشكلة اليهودية والاقتناع ان الصهيونية هي الحل . فنفس الرجال وذوو نفس صفات الذين ينتمون الان الى الحركات الثورية سيجدون سبلا بناءة (وفي الولايات المتحدة فعلا يجدون هذه السبل) للتعبير ، ولتقديم المساهمة الايجابية للحضارة . وعندهـا قاطعه السيد بلفور للتعبير عـن موافقته مضيفا : وهـذه هي الاسباب بالطبع التي تجعلـك وتجعلني صهيونيين متحمسين » . وهكذا فقد كانت الرغبة في دفع اليهـود في « سبل بناءة » بعيدين عن الاحزاب الثورية ما جعل كلا من بلفور المسيحي وبرانديس اليهودي المنصهر صهيونيين متحمسين . فالتدفق المستمر من المهاجرين اليهود القادمين من شرقي اوروبة الى اوروبة الغربية والولايات المتحدة لم يمكن حده الا بتحويل سيل الهجرة الى فلسطين . وانضواء هؤلاء المهاجرين ، مثـل حال ابناء ديانتهـم في شرقي اوروبة ، في الاحزاب الثورية لم يمكن ردعه الا بدفعهم وراء حركة قومية تلهيهم عن المصالح الطبقية وتحولهم الى خدمة مصالح الامبريالية . وان نعلم ان برانديس توصل الى الصهيونية كأميركي وليس كيهودي — وهو الـذي كان مسؤولا ذا شأن في الـدوائر الاميركيـة الحاكمة — فـذلك ينطبق عليه قـدر ما انطبق على بلفور المسيحي الـذي توصل الى صهيونيته بكونه مسؤولا في الحكومة البريطانية . اما عن تأكيدات برانديس ان اليهود في الولايات المتحدة باتوا يجدون سبلا بناءة للتعبير ، فكاتب سيرته يخبرنـا انه قال بعد مصادقة الرئيس الاميركي على اعلان بلفور « ان العداء للصهيونية اصبح يعتبر شبيها بالخيانة » . ولم تمض سنوات قليلة على تبني الدول الغربية للصهيونية ، الا وفرضت الصهيونية ، بتشجيع من هذه الدول باجهزة الاعلام التي في حوزتها ، على كافة السكان اليهود في اوروبة الغربية وشمالي اميركة . وحتى يومنا هذا ، فان يكون احدهم يهوديا ومعاديا للصهيونية في نفس الوقت ما زال يوصم بالخيانة في هذه البلدان .

وان اصطبغت هذه المقالة نتيجة سردها للتفاصيل الدبلوماسية التي دارت حول احداث عام ١٩١٧ في روسيه بصابغ التحليل التآمري ، فذلك لان المسألة التي نحن بصددها احيطت بالسرية واتخذت شكل التآمرية . فمنذ مطلع عهد الصهيونية حين كتب هرتزل عن دور الصهيونية في اضعاف الاحزاب الثورية ، امتنع مؤسس الصهيونية ، كما رأينا، عن اثارة هذا الموضوع في كراس موجه الى الرأي العام وآثر ان يذكرها في رسالة سرية . وتشارك الصهيونيون ورجالات الدول الغربية الذين أيدوهم في الابقاء على سرية هذا الدور للصهيونية حتى الان . فمنذ اصدار الاعلان كان المسؤولون البريطانيون وعلى رأسهم ونستن تشرشل قد باشروا بارسال التصريحات المختلفة لتفسير تبنيهم للصهيونية مختلقين الروايات عن دوافع اصدار الاعلان ومتجنبين دائما ذكر الدافـع الاساسي . كما جهد الزعماء الصهيونيون بعد ذلك وعلى رأسهم حاييم وايزمان لاختلاق الاسباب والدوافع التي أحرزت لهم النجاح في نيل تأييد الدول الغربيـة للصهيونية فأصدروا المقالات الكثيرة والمنشورات الكثيفة لاحاطة الموضوع بأكثر قدر من التعقيد والغموض . ولا عجب في ذلك ، ففي الدعوة لتحقيق هجرة اليهود من اوروبة الشرقية الى فلسطين ، ادعت الاحزاب الصهيونية وخاصة احزاب اليسار منها ان برنامجها في فلسطين برنامج تقدمي ثوري يهدف الى اقامة المجتمع الاشتراكي الافضـل لليهود في فلسطين . وقـد نجحت الصهيونية الى حد بعيد في هذا الخداع في فلسطين خاصة وان سلطات الانتداب البريطانية وافقت على غض النظر عن الشعارات الاشتراكية والماركسية التي رفعتها أحزاب اليسار الصهيوني في حين صبت كامل سطوتها لضرب الحزب الشيوعي الذي ضم العرب واليهود معا في صفوف اعضائه . وبهـذا تمكنت الصهيونية خلال حربهـا لاجلاء سكان البلاد الاصليين من عمال وفلاحين في فلسطين في الاربعينات من نيل تأييد الرأي العام التقدمي الاشتراكي في الغرب عن طريق ادعائها بأن صراعها كان مـع الاقطاعيين العرب الذين تسلطوا على خيرات البلاد . ومنذ ذلك التاريخ حتى اليوم ،

واليساريون الغربيون منهمكون في تسطير المقالات النظرية لمعرفة ما اذا كانت الصهيونية متكافئة مع الاشتراكية ام لا . وكان هذا المنهج التبريري المصدر الايديولوجي الحاسم الذي كان يغذي شوفينية زعماء الصهيونية تحت ستار الزعم بأنهم اشتراكيون ومكنهم من احكام قبضتهم على الجماهير اليهودية في فلسطين ، ومن توجيه هذه الجماهير لتنفيذ المهمة الصهيونية باستبعاد الجماهير العربية الفلسطينية وطردها عن البلاد . وعلى نفس المنوال ، ولكن على نطاق أقل حسما ، ساهم هذا المنهج في استبقاء نوع من الثقة بزعماء الطبقات البورجوازية العربية التقليدية وبتظاهرهم بمناهضة الصهيونية في الوقت الذي كانوا يتواطأون مع حلفائها الامبرياليين ، عن طريق التأكيد ، من خلال تمسك بريء مزعوم لهم بالتقاليد والديانة ، بأن الصهيونية والشيوعية اسمان لمسمى واحد . وما غفلت الجماهير الفلسطينية عن ادراكه آنذاك هو ان الصهيونية نمت وترعرعت كأداة لمناهضة الاشتراكية والشيوعية .

* * *

كان للايديولوجية الصهيونية كما تبلورت عن ظروف الصراع المجتمعي في أوروبه الاثر الاساسي في تحديد هوية المؤسسات التي نفذت عملية التوطين الصهيونية في فلسطين . ولا يسعنا المضي في معالجة الاصول المجتمعية للايديولوجية الصهيونية دون التطرق ، ولو بشكل مقتضب وأولي ، الى الطريقة التي ترجمت هذه الايديولوجية نفسها في الممارسات العملية لتحقيق وتوطيد الكيان الصهيوني في البلاد . وسيتضح من خلال عرضنا الوجيز لهذه المسألة ان الاتجاهات المختلفة في الصهيونية عملت هنا أيضا بشكل متكامل من أجل تحقيق الهدف الواحد . وكنا قد أظهرنا الدور الذي وضعت من أجله تعليلات اليسار الصهيوني بالعبارات الماركسية لصرف اليهود عن الكفاح الثوري في الغرب . وكذلك كان الامر في فلسطين حيث استخدمت الشعارات الاشتراكية لليسار الصهيوني لتبرير اقامة مؤسسات ذات مظاهر شبه اشتراكية تقوم بالدور الشوفيني الذي استطلبه المخطط الصهيوني بما في ذلك عزل الطبقة العاملة العربية في المجالات الاقتصادية في البلاد . ولتوضيح هذا الدور الفريد الذي نفذ تحت غطاء الشعارات اليسارية لا بد من العودة الى بوروشوف .

ان بعض المحللين الذين عالجوا كتابات بوروشوف بشكل عام قد ربطوا ايديولوجيته بالسعي لتحويل اليهود من وضعهم في الطبقات الوسطى في أوروبه الى « شعب منتج » يعمل في قطاعات الانتاج الاولية في فلسطين. وربما كان هذا بالفعل أحد أوجه تفكير بوروشوف الا انه لم يشكل الوجه الاهم لمنطلقه الايديولوجي كما انه لم ينتم اليه بشكل خاص . فالانطباعات القائلة ان اليهود « شعب طفيلي » يتطلب بعثه المجتمعي العودة الى الاسس الزراعية والصناعية لعملية الانتاج كانت شائعة منذ امد بعيد في أوروبه بين اليهود وغير اليهود على حد سواء. واصبحت هذه الفكرة من الاوجه الرئيسية للايديولوجية الصهيونية . والواقع ان المتمولين من كبار البورجوازيين اليهود ، وليس اليسار الصهيوني بأي شكل خاص ، هم من بعثوا هذا العنصر من الايديولوجية الصهيونية حين فسروا مشاريعهم « الخيرية » لتوطين اليهود في مستعمرات زراعية خارج أوروبه على انها وسيلة لاثبات قدرة العمل في الانتاج عند اليهود . وحين تقدم هرتزل بمخططه المليء بالوعود للجميع في اجتماع له مع البارون دي هيرش ، جاء جواب البارون كما يلي : « لا اريد رفع المستوى العام البتة . فجميع مشكلاتنا تأتي نتيجة رغبة اليهود في التسلق الى المراكز العالية أكثر مما يجب . فلدينا مفكرون أكثر مما يجب . . . اما عن خططي في الارجنتين . . . فبعد بضع سنوات جيدة سيمكنني ان اظهر للعالم ان اليهود ايضا يمكنهم ان يصبحوا مزارعين جيدين . »

ولهرتزل الذي سجل هذا الحديث في مذكراته ليوم ٢ حزيران (يونيو) ١٨٩٥ بدا هذا

الصيرفي المليونير بكلامه هذا وكأنه اشتراكي . ومع مضي الزمن فان هذه الفكرة القائلة بوضع اليهود في العمل الانتاجي ارتبطت « بالصهيونية ـ الاشتراكية » لاحزاب اليسار الصهيوني التي تفرعت عن حزب بوعالي صهيون الذي انشأه بوروشوف والتي تشكل العامود الفقري للمؤسسات الحاكمة في دولة اسرائيل اليوم .

ان واقع الالتقاء الجازم بين ايديولوجية اليسار الصهيوني والمصالح الطبقية والاهداف المجتمعية لمتمولي البورجوازية اليهودية موضوع تذهب في تمويهه كافة الكتابات الصهيونية . فيذهب الكثيرون في مدح وتمجيد مثالية الاستعمار الصهيوني كما جاء بعد نشوء اليسار وفصله كليا عن المخططات الاولية التي قام بها المتمولون . والدليل الذي يبرزه هؤلاء في هذا المضمار هو شعار « العمل الذاتي » الذي رفعه اليسار الصهيوني . ورغم المثالية التي اعتنقت بهذا الشعار ، الا ان الهدف الرئيسي منه كان استثناء العمال من السكان الاصليين لحصر العمل في المهاجرين اليهود في كافة المشاريع والاراضي التي جاءت تحت ملكية الصهيونيين في فلسطين . وفي الواقع فان هذه الممارسة كانت قد بدأت في مشاريع الاستيطان الاولى التي نظمها المتمولون . فالمشاريع التي رعاها هؤلاء لم يقصد بها استغلال العمال الاصليين في البلاد لجني الارباح بل اقيمت خصيصا لتحقيق مجالات الاستيعاب الاقتصادي لاكبر عدد ممكن من الفقراء اليهود الذين شجعت هجرتهم خارج أوروبه . ولم يتوقع ممولو هذه المشاريع والقائمون علـى ادارتها تحقيق هذا المأرب الا من خلال استثناء العمال من سكان البلاد الاصليين . وهكذا فان ازاحة الطبقة العاملة الاصلية بدأت منذ البداية قبل نشوء اليسار الصهيوني وقبل رفع شعار « العمل الذاتي » . وهذا ما أدى الى قيام مقاومة مباشرة لهذه المشاريع بين السكان الاصليين في كل من الارجنتين وفلسطين منذ بدايتها في أوائل الثمانينات من القرن الماضي . وفي تلك الحالات التي قام بها ممثلو البارونات ، ان كان ذلك في الارجنتين او في فلسطين ، بترويج ممتلكاتهم الخاصة عن طريق المضاربة بالعمالة بتوظيف السكان الاصليين بأجور مؤاتية (أو عن طريق المضاربة بشراء وبيع الاراضي) فكانوا يطردون من مراكزهم ويستبدلون بآخرين اكثر وفاء الى البارونات واهدافهم .

وان كانت المقاطعة العملية للسكان الاصليين في قيد الممارسة منذ البداية، الا ان النظرية التي كان من شأنها تعليل هذه الممارسة لم تكن موجودة . وفي كراس **الدولة اليهودية** تكلم هرتزل عن اقامة اجهزة عمالية شبه عسكرية تنتمي الى الجمعية اليهودية وشركتها في المستقبل تقوم بنقل افواج العمال المهاجرين من مكان الى الاخر وفق الطلب مما يؤمن عزل السكان الاصليين والحؤول دون عملهم في المنشآت والممتلكات اليهودية . ويبدو ان هذا الترتيب لم يكن كافيا لهرتزل اذ عاد وأشار الى الحاجة الى نظرية تعلل هذه الممارسة حين كتب روايته **البلاد القديمة الجديدة** عام ١٩٠٢ . وفي هذه الرواية التي فصلت رؤيته لمستقبل الدولة اليهودية بشكل مضيء ، جعل هرتزل احد اشخاص الرواية في فلسطين يعلن : « ان غريزة الجماهير يجب ارضاؤها. ويجب ايجاد نظرية ترضي المصالح المباشرة للجماهير او على الاقل لما تتخيله الجماهير على انه لمصلحتها المباشرة . ولذلك فان شعارا ضد الغرباء يجب رفعه . وغير اليهود لا يجب قبولهم في الجمعية [اليهودية] . » لا شك ان هرتزل كان يسجل بهذا ما كان آنذاك موضوع نقاش دائم يدور بين مسؤولي التوطين في فلسطين عندما قام بزيارة البلاد عام ١٨٩٨ . والنظرية المطلوبة جاءت في شكل نظرية « الصهيونية البروليتارية » التي ادعاها بوروشوف لحزبه والشعـار المطلوب جاء بشكل شعار « العمل الذاتي » والذي اكتمـل تعليله على أيدي الاحزاب المتفرعة عن بوعالي صهيون في فلسطين حين ادعت هذه الاحزاب ان مقاطعة العمال العرب مسألة تتطلبها ضرورة الحؤول دون استغلال العمل المأجور والرخيص للسكان الاصليين . ووصلت هذه التعليلات الى اعلى مراحل تظاهرها اليساري حين أنشئت

المستوطنات التي نظم فيها العمال على انهم اعضاء ووفرت لهم تكاليف المأكل والمسكن والملبس مقابل عملهم دون اجور ورفعت لهذه المستوطنات شعارات العداء للعمل المأجور كليا . وهذه المستوطنات التي اقترن اسمها لسبب ما فيما بعد بالاشتراكية والشيوعية، وهي الكيبوتزات التي انطوت كما يشير اسمها في العبرية (جماعة) على مجموعات العمال المهاجرين الذين نقلوا الى اماكن تواجد العمل وخاصة في الزراعة حيث باتت الاجهزة الاكثر تأهيلا للازاحة الاقتصادية للسكان الاصليين . كما انشأت « كتائب عمال » للعمل في البناء تنقل جماعيا بأسلوب شبه عسكري كذلك الذي نادى هرتزل الى انشائه حسب توفر عقود مشاريع البناء وتطورت هذه الكتائب العمالية الى انشاء الهستدروت فيما بعد على ان تعمل كشركة مقاولة تحت اسم « الاتحاد العام للعمال اليهود في فلسطين » . وبالنظرية والشعارات المرائية هذه وبالتنظيمات العمالية التي نشأت منها بنت اليسار الصهيوني الاطار الافضل لتحقيق اغراض الصهيونية الداخلية في فلسطين في حين استمرت المنظمة الصهيونية بالقيام بالاعمال الخارجية في أوروبه من حيث جمع الاموال والاتصال بمسؤولي الدول الاوروبية .

نظرا لهذه الخصائص ، ورغم الادعاءات اليسارية ، يمكننا القول دون تردد ان احزاب اليسار الصهيوني بأجهزتها العمالية ومنشآتها الاقتصادية ، بما في ذلك شركات المقاولة في بناء المساكن والطرقات التي أنشأتها منذ أوائل أيام قدومها الى فلسطين ، لعبت ذلك الدور الذي كان بنسكر وهرتزل قد توقعاه للشركة اليهودية . وبعد فـرض الادارة الاستعمارية البريطانية على البلاد ، لعبت مؤسسات هذه الاحزاب الدور الرئيسي في ازاحة الطبقة العاملة العربية فاتحة بذلك البلاد للمنشآت الصهيونية . والكيبوتزات اقتلعت الفلاحين العرب اقتصاديا بطريقة اوتوماتيكية بفعل ممارستها معارضة العمل المأجور في نفس الوقت الذي وفرت فيه أرخص الشروط وأكثرها فعالية من حيث تمويل البورجوازية اليهودية والمنظمة الصهيونية لعملية التوطين . والهستدروت ثبت أقدام الصهيونية اقتصاديا في البلاد بفعل العقود الذي وفرته لاجهزة المقاولة التي في حوزته كل من حكومة الانتداب والمنظمة الصهيونية ، مما أدى الى ازاحة العمال العرب في المدن عن قطاعات هامة من الاقتصاد المديني في البلاد . وفي نفس الوقت مكنت اجهزة العمل شبه النقابية التي امتلكها من اقامة حاجز فاصل بين الطبقة العاملة العربية والطبقة العاملة من اليهود . وبهذا وضعت أجهزة اليسار الصهيوني الاسس الاقتصادية والسياسية للازاحة السكانية التي ادت الى اجلاء معظم السكان العرب عن البلاد خلال عامي ١٩٤٧ — ١٩٤٨ .

بعد ذلك ومنذ اقامة دولة اسرائيل فقدت مؤسسات اليسار الصهيوني دورها الفريد هذا في ازاحة السكان الاصليين وتتطورت الى أجهزة اقتصادية بحتة تتحكم في قسم واسع من الاجهزة الاقتصادية للمؤسسة الحاكمة في اسرائيل . وتخلى الكيبوتز عن معارضته للعمل المأجور فأصبح اعضاؤه طبقة مرتاحة من المناظرين على العمال المأجورين في اراضيه ومصانعه ومعظمهم الان من بقايا السكان العرب الاصليين ومن المهاجرين الجدد من يهود البلدان العربية . والهستدروت تخلى عن أي مظهر نقابي كان يمارسه فأصبح الاداة الرئيسية لاستغلال عمال الانتاج في منشآته ، ومعظمهم من اليهود العرب ، كما بات يوفر للمؤسسة الحاكمة ، بهيكل اتحاد النقابات الذي يدعيه ، اداة لكبح الطبقة العاملة الاسرائيلية يعارض مطالبها من حيث الاجور ويكسر اي اضرابات قـد تقوم بها مجموعاتها في نفس الوقت الذي يشكل هيكله العمالي النقابي المزعوم مظلة يعمل بظلها الرأسماليون المحليون تحت اشراف وسيطرة الرأسمال الاحتكاري الامبريالي . واخيرا ، وفيما تعبأ جماهير الطبقة العاملة الاسرائيلية وراء سياسات دولتها في منطقة غريبة ومعادية ، يعيش الفلسطينيون العرب اهـل البلاد اما تحت الاحتلال أو في المنفى

خارج بلادهم . وما هذه التطورات كلها الا نتيجة نهائية لرغبة البورجوازية اليهودية في نقل جماهير الفقراء من البروليتاريين اليهود خارج اوروبه وبلـــدان شمالي الاطلسي .

* * *

في مقالة صدرت حديثا بعنوان **فلسطين واليهود** عالج ايلي لوبل باقتناع دوافع المتمولين اليهود في أوائل عهد الصهيونية . كما أظهر المؤلف التقاء أهداف الزعماء الصهيونيين الاوائل مع دوافع اللاساميين في أوروبه وخاصة من مسؤولـــي روسيه القيصرية . واستطاع المؤلف أن يحدد كذلك « الدور الذي لا يحسد عليه » الذي توقع من المهاجرين اليهود ان يقوموا به في فلسطين . الا ان لوبل في تحليله للاصول المجتمعية للايديولوجية الصهيونية الصق تمييزا مبالغا فيه بين منطلق مشاريع المتمولين الاستيطانية ومخططات هرتزل وبوروشوف .

يقدم لوبل الصهيونية على انها حركة ذات ميول ايديولوجية مختلفة تطابق الانتماءات الطبقية المختلفة للبناء المجتمعي لليهود في أوروبه . فمنطلق المتمولين أمثال روتشيلد وصهيونيتهـــم « الخيرية » يربطه لوبل بأيديولوجية البورجوازية اليهودية الكبرى . في حين يماثل هرتزل وصهيونيته « السياسية » بالبورجوازية اليهودية الوسطى . امـــا بوروشوف فيبدو له على انه متكلم بلسان البورجوازية اليهودية الصغرى وأجزاء من البروليتارية اليهودية في شرقي أوروبه . وبهذا التصنيف يضع لوبل ثقلا على الاختلاف بين هذه المنطلقات الثلاثة معتبرا اياها انعكاسات أيديولوجية لفروق طبقية قائمة وبذلك يغض النظر عن التكامل الحتمي بين هذه الاتجاهات . ولا شك ان صهيونية كل مـــن هرتزل وبوروشوف جاءت عمليا في خدمة البورجوازية الكبرى وأهدافها الاساسية .

عندما كتب هرتزل كراس الدولة اليهودية لم يوجهه الى البورجوازية اليهودية الوسطى التي يقال انه انتمى اليها بل اصدره بمثابة نداء الى المتمولين سعيـــا وراء رعايتهـــم لمشروعه . والواقع ان الكراس كتب على ان يصدر في البداية تحت عنوان : **الدولة اليهودية : نداء الى عائلة روتشيلد** . وفضلا عن ذلك فان هرتزل نفسه كان يعلم كما يخبرنا في مذكراته بأنه لا فرق اساسي بين منطلق روتشيلد « الصهيوني الخـــيري » ومنطلقه «السياسي».فحين أجتمع به في ١٨تموز (يوليو)عام ١٨٩٦ قال له:«ان المستوطنة دولة صغيرة والدولة مستوطنة كبيرة ، انت تريد بناء دولة صغيرة وانا اريد مستوطنة كبيرة » . وروتشيلد لم يعارض هذا الكلام من حيث المبدأ فجاء جوابه بالمثل القائل : « ان العيون لا يجب ان تكون اكبر من المعدة » . ولا شك ان روتشيلد كانت له المعدة الكبرى . كانت لعائلته في هذا الوقت مصالح وقوى مالية في الخزائن الاوروبية المختلفة وفي الخزينتين العثمانية والروسية القيصرية. ومعظم بضعة الاف المهاجر اليهودي الذين استوطنوا في فلسطين قبل عام ١٩١٧ كانـــوا يعيشون في المستوطنات التي مولهـــا روتشيلد . كما ان عائلة روتشيلد كانت تبرز في الكرتلات المالية الاحتكارية التي كانت تتزاحم آنذاك فيما بينها لاقتسام الموارد الاقتصادية الرئيسية في العالم . ولذلك فقد كانت تحركاتهم موقع اهتمام وانظار مختلف الحكومات الاوروبية والحكومة العثمانية . وأول حضور حظي به هرتزل لدى القيصر الالماني كان القصد الرئيسي منه معرفة « ما اذا كان روتشيلد وراء هذا » (اما اللقاء الثاني والذي تم في فلسطين فكان الغرض منه تأمين ذكر « وفد يهودي » قابله القيصر في البيان الرسمي عن زيارته العثمانية آنذاك). ولم يكن لروتشيلد تلك الحرية في الكلام عن « دولة » يهودية التي كانت لهرتزل في كراسه الذي شرح فيه مشروعه الذي بدا له « كحلم عظيم ... امتلك افكاره لايام ... فأقلقه وسكر من نشوته » . ولا شك ان روتشيلد كان قد رأى الكثيرين من المفكرين متوسطي القدرة كبيري الاعين الذين أتوا اليه بمقترحاتهم « الجديدة » لاقامة مشاريع اكبر واكثر نجاحا . ولم يكن افراد عائلة روتشيلد مبتهجين لفكرة هرتزل في تأسيس المبارزة في

الدولة اليهودية في المستقبل كما لم يكونوا متحمسين لفكرة الحرس الخاص الذي ارتأى هرتزل ان يرافقه هناك . وكذلك فان الاخوان هيرش لم يتحمسوا لهرتزل حين قرر ان يحثهم على بناء « متحف لوفر هناك » .

ان القول بأن منطلق هرتزل السياسي يشكل اتجاها مختلفا عن منطلق المتمولين لا يمكن قبوله . ففيما بعد ، حين قام هرتزل وشركاؤه بتشكيل المنظمة الصهيونية ، وجدوا هم كذلـــك انه من الضروري تقليـــل طلاقة شعاراتهم وبـــاتوا يتكلمون عن « الموطن » او « الملجأ » بدل « الدولة » . وعند نهاية العقد الاول من القرن الحالي، بعد وفاة هرتزل، وجدوا انفسهم يعبرون عن صهيونيتهم بعبارات ثقافية . وفي عام ١٩١٧ حين جاء الوقت للنظر السياسي الجدي في الصهيونية لم يكن افراد عائلة روتشيلد معارضين : فاليهم وجه قرار اعلان بلفور فور تبنيه في بريطانية .

واكثر أهمية من ذلك خطأ لوبل في اعتبار بوروشوف ممثلا للبورجوازية الصغيرة واجزاء من البروليتارية اليهودية في شرقي أوروبه : فمن الصعب التأمل كيف ان نداءه الـــى انجماهير اليهودية لحثها على التخلي عن كفاحها البروليتاري الامـــي لصالح صراع استعماري شوفيني يمكن تفسيره على انه تمثيل لايديولوجيتها . وواقع ان بوروشوف رأى تلك «الطبقة غير المتجانسة» من افراد البورجوازية الصغيرة المفتقرة والبروليتاريين المنخرطين في الهجرة على انها ستشكل المادة السكانية للمشروع الصهيوني لم يجعله متكلما بلسانها بقدر ما ان مخطط البارون دي هيرش لتوطينها وتشغيلها في الزراعة في الارجنتين لم يجعله ممثلا لمصالحها. وحقا ان بوروشوف كان يتوجه بدعوته بشكل خاص الى هذه الطبقة ــ وهذا ما يفسر غنى كتاباته بالعبارات الماركسية ــ الا انه كان يتوجه اليها بالبرنامج الذي اختارته البورجوازية الكبرى لها . وواقع ان بوروشوف لم يعتبـــر الماركسية اكثر من عبارات رنانة واضح من خطاب القاه في سبتمبر عام ١٩١٧ عند عودته الى روسيه بعد ثورة آذار (مارس) حين ارتأى ان يعلـــن ان تطور الاحداث والظروف الجديدة تتطلب « منا ان تصبح عباراتنا أكثر غناء وليونة » .

وان بدا التصنيف الايديولوجي الطبقي ضروريا ، فاي مكان تتركه وصفة لوبل لتلك الاحزاب الاشتراكية المساومة من الاحزاب والجماعات القومية اليهودية ، مثل البند ، التي سعت لتحقيق الاستقلال الذاتي لليهود في بلادهـــم في شرقي أوروبه ؟ والحزب الاجتماعي الديموقراطي اليهودي (البند) كان يطالب ويدعي بحقوق خاصة مـــن حيث التنظيم والتعبئة بين اليهود في روسيه على اساس مطالبه بالاستقـــلال « القومي ــ الثقافي » لليهود . وقد عارض لينين البند والاحزاب التي شاكلته في ادعاءاتها بالنسبة للقوميات الاخرى مصرا على ان الكفاح البروليتاري يجب تنظيمه على اساس اقليمي بغض النظر عن التفريقات القومية . وفي **ملاحظات حاسمة حول المسالة القومية** الذي كتبه عام ١٩٠٢ تهجم لينين على ايديولوجيي البند وربط ادعاءاتهم « الثقافية ــ القومية » بايديولوجية الحاخامات والبورجوازية اليهودية . اما الصهيونية فقد حذر لينين مـــن رجعيتها وارتباطها بدوافع ومصالح البورجوازية اليهودية الكبرى في عدة مناسبات . وفي **اسكرا** في ٢٢ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٠٣ ندد لينين بالصهيونية وفضحها على انها حركة تناقض مصالح البروليتارية اليهودية . وتحليل لينين يمكن ان يخدم كمثال هـــام بالنسبة لفلسطين والمناطق التي تجاورها حيث الشوفينية الطائفية طالما اطعمت ونمت على اساس التفريقات الدينية واللغوية ومهام تخطيها تتطلب انطلاقا اقليميا للكفاح الشعبي .

وهناك تحليل مجتمعي آخر يجدر ذكره ظهر في مقالة صدرت لصادق جلال العظم تحت عنوان **نحو فهم أفضل للفكرة الصهيونية** (في مجلة **مواقف** ، العدد الخامس ، السنة

الاولى ، تموز — آب ١٩٦٩) . دحض المؤلف في هذا المقال التعليلات الدينية والاخلاقية والتآمرية والحقوقية التي اصطبغت بها معظم الكتابات العربية حول الصهيونية واظهر كيف ان الاساليب الخطابية التي غلبت عليها لم تفد بشيء سوى تمويـــه الفهم العـــام للمسألة . وقد حث المؤلف على تناول الموضوع بأسلوب ايديولوجي — مجتمعي يضع الصهيونية « في اطار الظروف التاريخية والقوى الطبقية والبيئة الاجتماعية التي نشأت في كنفها الحركة وتطورت ونمت بفعلها » . ولكن رغم أسلوبها الصحيح فقد فشلت هذه المقالة من حيث استنتاجاتها عن الاصول المجتمعية للفكرة الصهيونية . فقد رأى المؤلف الصهيونية على انها الحركة القومية للبورجوازية اليهودية — والبورجوازية المتوسطة والصغيرة منها بشكل خاص — في سعيها عن سوق وطنية خاصة بها . وهذه النظرة لم تنطبق على الصهيونية قدر ما انطبقت على الحركات القومية اليهوديـــة التي طالبت بالاستقلال الذاتي لليهود في أوروبه الشرقية . ويقول المؤلف : « وبما انه لم يكن بالامكان توفير مثل هذه السوق الوطنية اليهودية في أوروبه اتجهت الانظار الى الخارج (يوغنده ، الارجنتين ، فلسطين) ... » وبهذا أغفل المؤلف واقع ان الاستيطان في الارجنتين وفلسطين كان قد جاء تنظيمه وتمويله ليس على أيدي البورجوازية المتوسطة والصغيرة في سعيها وراء اسواقها الخاصة بها بل وبشكل مباشر على أيدي كبار المتمولين من وجهاء البورجوازية اليهودية الكبرى (والتي كانت تسهم في التحكم المالي الاحتكاري على الاسواق العالمية) لتحقيـــق تهجير البروليتـــاريين اليهود عن أوروبه وبلدان شمالـــي الاطلسي . وبهذا فقد قصر المؤلف دور البورجوازية اليهودية الكبرى على انهـــا مسألة عرضية انعكست في « العطف على الحركة ومساعدتها ودعمها في المال » حين كانت بالواقع العامود الفقري للحركة ودافعها الرئيسي منحيث نشأتها ونموها وايديولوجيتها. وقد أغفل المؤلف بذلك النقطة الاساسية وهي ان الصهيونية كانت وما تزال في غربي أوروبه وشمالي اميركه تعيش على أيدي أولئك الذين يحثون ويساعدون ويمولون هجرة الاخرين من اليهود دون ان يكون لهم ادنى اهتمام بالهجرة انفسهم . لاحظ اليـــوم الصرخات المتعالية : « دعوا اليهود السوفيات يهاجرون » يطلقها اليهود المنصهرون والقانعون بمقامهم في الولايات المتحدة .

ان التحليل المجتمعي المعروف أكثر من غيره للصهيونية وهو الذي طرحه ابراهام ليون في كتابه الذي طبع بالفرنسية عام ١٩٤٦ تحت عنوان : **المسألة اليهودية ، تحليل ماركسي** ، قد أسهم قبل لوبل والعظم في تهافت المفهوم العام للصهيونية . دحض ليون التفسيرات المثالية القائلة بأن التاريخ اليهودي عبارة عن قرون طويلة من المنفى الجبري واظهر خطأ النظرة القائلة بالانحدار العرقي الصافي لليهود عن الفلسطينيين القدماء . وبدأ ليون الجزء الصغير في كتابه عن الصهيونية بعرض نشوئها لدى بنسكر ، روتشيلد وهرتزل. الا انه راح يستنتج ان الصهيونية « ايديولوجية البورجوازية اليهودية الصغرى المختنقة بين الاقطاعية في طور دمارها والرأسمالية في طور تفسخها » . وان تكون طبقة صغار المتاجرين والمرابين والحرفيين اليهود التي عايشت الطور الاقطـــاعي قد بـــدأت تتفتت في عهد الرأسمالية لصالح الرأسمالية الناهضة في المدن فذلك صحيح . كما ان تحولها الى طبقة بروليتارية معدومة وانجرافها الى المدن لتواجه رأسمالية متأزمة فذلك يعكس بصدق الحالة في شرقي اوروبة بشكل خاص . بل بالواقع ان هذا ما كان مادة المسألة اليهودية كما سبق وقلنا . الا ان معادلة هذا التطور نفسه بالصهيونية أمر خاطىء . وحقا ان اعدادا كبيرة من الجمـــاهير اليهوديـــة المفتقرة في اوروبة الشرقية سعت لحل معضلتها عن طريق الهجرة . الا ان مـــدن الدول الرأسمالية المتقدمة في بلدان شمالي الاطلسي بشكل خاص كانت هدف هذه الهجرة وليس فلسطين . وفضلا عن ذلـــك فان هذه الظروف المجتمعية بالذات هي التي دفعت باعداد هـــذه الطبقة الى الثورية حين

اسهمت عناصرها خلال عملية تحولها الى البروليتارية في الاحزاب الاشتراكية بشكل خاص . والنقطة التي نعرضها هنا هو ان الاشتراكية الامية هي الايديولوجية التي رفعتها اعداد البورجوازية اليهودية الصغيرة المنزاحة الى البروليتارية الى جانب اعداد البروليتاريين اليهود (والى جانب البروليتاريات الاوروبية عامة) ليس في شرقي اوروبة فحسب بل وكذلك في مدن اوروبة الغربية واميركة الشمالية التي اتجهوا اليها . وانتماء اعداد اليهود الى الاحزاب الثورية بشكل خاص هو ما دفع البورجوازية اليهودية الكبرى الى بعث الصهيونية تحت اجنحتها ثم أيدها شركاؤهـا الطبقيون من مسؤولي الدول الاوروبية (وخاصة في بريطانية ثم الولايات المتحدة) الى تبني الحركة وتقويتها . وبذلك فقد جاءت الصهيونية كرد فعل البورجوازية الكبرى على ثورية البروليتارية اليهودية فكانت النقيض الجدلي لها وهدفت الى تمويه التناقضات الطبقية عن طريق تهجير البروليتاريين اليهود خارج اوروبة . وهذا ما يفسر لماذا لم يأت تبني الدول الامبريالية للصهيونية حتى تعالي الصراع الطبقي الاوروبي عام ١٩١٧ وخاصة نظرا لظفر الثورة البروليتارية في روسية آنذاك . وان كان الاتجاه الحتمي للصهيونية الى فلسطين (وليس الى الارجنتين او اوغانده) فذلك لان العنصر المثالي المناسب والمتمثل بأسطورة الاصل الفلسطيني المرتبط بالديانة اليهودية كان العنصر الوحيد المؤهل للتوجه الى البورجوازية الصغيرة وتوجيهها بطابعها الديني المحافظ في شرقي اوروبة وتعبئتها برضى الحاخامات وراء مشروع التهجير او الاجلاء الجماعي الذي ارادته البورجوازية الكبرى لها وللبروليتارية اليهودية بشكل أخص .

ان الاتجاهات المختلفة داخل الصهيونية لا تشكل اكثر من تحريفات ثانوية على ايديولوجية المتمولين من اعيان البورجوازية اليهودية الكبرى التي نشأت الحركة برعايتها . ولا شك ان هرتزل وبوروشوف كانا ينتميان شخصيا الى فئات أصغر من البورجوازية اليهودية ، الا ان ذلك انعكس في اسلوب وليس مادة ايديولوجيتهما . فكلاهما كان على اتفاق مع البورجوازية الكبرى على هدف التهجير والاجلاء الرئيسي كما عكست كتاباتهما القلق على انضواء البروليتاريين اليهود وراء رايات الثورية . وعدا عن ذلك فقد جاءت العناصر الجديدة في مخططاتهما بتركيز كل منهما بطريقته على الفرص التي يوفرها المخطط الصهيوني لبعض اعضاء الطبقات الوسطى اليهودية . وقد وعدهم هرتزل بالمراكز كمسؤولين في الجمعية اليهودية وفي شركة الاستيطان في دولة المستقبل في حين سعى بوروشوف الى الفرص التجارية والمواردية لرأسمالهم الصغير . ولكن في كل من هاتين الحالتين كانت مشاريع الاستيطان التي اقامها المتمولون قد شكلت السابقة . فالبارونات كانوا قد وظفوا الممثلين عنهم في المستوطنات من ابناء الطبقات الوسطى كما فتحت مشاريعهم الفرص التجارية على مستوى صغير لصغار المتعهدين اليهود الذين رافقوا المهاجرين كمسؤولين عن الاستيطان او تبعوهم سعيا وراء الفرص. ورغم ذلك فقد اسبغ اسلوبا هرتزل وبوروشوف صفتين محددتين على الصهيونية ومع مرور الزمن باتا يعتبران الاتجاهين الرئيسيين في الحركة . فالمنظمة الصهيونية التي انشأها هرتزل سميت لسبب ما « الاتجاه البورجوازي » في الصهيونية وتطورت عنها احزاب اليمين الصهيوني (الصهيونيون اللبراليون والصهيونيون العموميون وحزب حيروت الذي ورث الصهيونيين التحريفيين) والوكالة اليهودية . وحزب بوعالي صهيون الذي انشأه بوروشوف اعتبر الاتجاه « العمالي » في الصهيونية وتطور فيما بعد الى أحزاب اليسار الصهيوني (ماباي ومابام واحدوت هعافودا) والهستدروت . وطوال تاريخ الصهيونية فقد بقي اليسار الصهيوني ومؤسساته تحت سيطرة الموارد المالية ليمين الصهيونية المتمثل في المنظمة الصهيونية واجهزتها المالية التي كانت تحظى بتبرعات البورجوازية اليهودية في الغرب . اما اليسار الصهيوني بمؤسساته التابعة

للكيبوتزات والهستدروت فقام بدور البناء الداخلي للوجود الصهيوني اقتصاديا وسكانيا وعسكريا في البلاد . ويتعايش هذان الاتجاهان في اسرائيل باتفاق كامل كما كانت الحال طوال عهدهما منذ البداية . واحزاب اليسار الصهيوني قد اخذت في تخفيض اطلاق شعاراتها اليسارية والاشتراكية مراضاة للمظهر الليبرالي الذي تسعى اليه الامبريالية لاسرائيل . والاحزاب الصهيونية جميعها من يسارية ويمينية تحافظ على مواقعها في المؤسسات الحاكمة بفضل الوظائف التي توفرها كل منها لاتباعها في المنشآت الاقتصادية الصهيونية التي تمتلكها وتديرها بتمويل من التبرعات التي تجمعها المنظمة الصهيونية والوكالة اليهودية واجهزتها الاعلامية في الخارج ومن المساعدات الامبريالية التي ترد على اسرائيل . وفيما تستمر اوضاع البلاد في حالة جمود سياسي تحت اشراف هذه الاحزاب ، فان دولة اسرائيل تميل بازدياد الى الاعتماد على المساعدات الخارجية . وهذه المساعدات التي كانت تأتي بمعظمها في السابق من الاجهزة الصهيونية العالمية ، قد اصبحت بعد عام ١٩٤٨ تأتي بشكل مباشر او غير مباشر (برنامج مارشال تحت غطاء التعويضات الالمانية) من الدول الامبريالية وعلى رأسها الولايات المتحدة . ومقابل هذه الهبات فقد حول سكان اسرائيل السكان اليهود في البلاد الى قاعدة عسكرية لحماية مصالح الامبريالية في المنطقة وفي اجزاء اخرى من آسية وافريقية .



لقد مضى حوالي قرن على كتابة بنسكر لكراسه ويبدو ان البورجوازية اليهودية في الغرب لم تعد تشكو من الفائض من البروليتاريين . ولم يكن ذلك نتيجة الهجرة الى فلسطين حيث لم يتعد عدد المهاجرين المليون نسمة . (واكثر من نصف السكان اليهود حاليا في فلسطين البالغ عددهم حوالي ثلاثة ملايين نسمة من اليهود الشرقيين ومعظمهم من البلدان العربية الذين يشكلون الان اكثرية عمال الانتاج في الدولة الاسرائيلية) . وقد لاقى بضعة ملايين يهودي معظمهم من الطبقات البروليتارية دمارهم على ايدي النازية خلال الحرب العالمية الثانية في مناطق اوروبة الوسطى واوروبة الشرقية التي وقعت تحت الاحتلال النازي .

كما مضى اكثر من خمسين عاما على الثورة البولشفية واصدار اعلان بلفور ويبدو ان الصهيونية قد نجحت الى حد بعيد في تحقيق الاهداف التي تبنتها الدول الامبريالية للقيام بها . فقد حققت الصهيونية قدرا واسعا في تعبئة يهود العالم وخاصة يهود البلدان الغربية في اوروبة واميركة وراء اهدافها مما صرفهم عن الحركات الثورية دون ان يؤدي بهم بالضرورة الى الهجرة الى فلسطين . وصورة اليهود في طليعة الصراعات الاشتراكية قد اختفت في هذه البلدان الا من التهم المنعزلة التي ترسلها بقايا بعض الفئات الفاشستية في الغرب . وقد استبدلت هذه الصورة بالصورة التي تسبغها الصهيونية على اليهود وسكان اسرائيل منهم بشكل خاص على انهم صفوف متراصة في قاعدة عسكرية عدوانية تخدم مصالح الامبريالية . واي تحد لهذه الصورة لن يأتي الا بقيام حركة جماهيرية بين سكان اسرائيل اليهود تناهض الصهيونية والامبريالية ووليدتيهما دولة اسرائيل . وامكانية قيام مثل هذه الحركة تعتمد الى حد بعيد على توجهات حركة التحرر العربية وحركة المقاومة الفلسطينية بشكل خاص .

الوطن... بين الذاكرة والحقيبة

محمود درويش

فصل اخر من كتاب عن تجربة محمود درويش الاسرائيلية ، ينشر تباعا في « شؤون فلسطينية »

[١]

● ما هو الوطن ؟

الخريطة ليست اجابة . وشهادة الميلاد صارت تختلف . لم يواجه أحد هذا السؤال كما تواجهه أنت . منذ الان والى ان تموت ، أو تتوب ، أو تخون . قناعتك لا تكفي ، لانها لا تغير ولا تفجر ولان التيه كبـــير . ليست الصحراء اكبر من الزنزانة دائما . ومـــا هو الوطن ؟ ليس سؤالا تجيب عنه وتمضي . حياتك وقضيتك معا . وقبل ذلك وبعد ذلك — هو هويتك . من أبسط الامور ان تقول : وطني .. حيث ولدت . وقد عدت الى مكان ولادتك ولم تجد شيئا . فماذا يعني ذلك ؟. ومن أبسط الامور أن تقول أيضا : وطني .. حيث أموت . ولكنك قد تموت في أي مكان ، وقد تموت على حدود مكانين . فماذا يعني ذلك ؟ وبعد قليل .. سيصبح السؤال أصعب . لماذا هاجرت .. لـــماذا هاجرت ؟ منذ عشرين عاما وأنت تسأل : لـــماذا هاجروا ؟ ليست الهجرة الغاء للوطن . ولكنها تحويل المسألة الى سؤال . لا تؤرخ الان . حين تفعل ذلك تخرج من الماضي . والمطلوب هو أن تحاسب الماضي . لا تؤرخ الا جراحك . لا تؤرخ الا غربتـــك . أنت هنا .. هنا . حيث ولدت ، وحيث يأخذك الشوق الى الموت . وما هو الوطن ؟ ولكنك جزء من كل ، والكل غائب ، ومعروض للابادة . ولماذا صرت تخشى القول : ان الوطن هو المكـــان الذي عاش فيه أجدادي ؟. لانك ترفض ذريعة أعدائك . هكذا يقولون .

— ماذا تعلمت في المدرسة .

● سلام على العصفور العائد من بلاد الشمس الى نافذتي في المنفى . أخبرني أيهـــا العصفور عن حال أهلي واجدادي .

— والاغنية السابقة ؟

● الغوها .

— ماذا كانت تقول الاغنية التي الغوها ؟

— عليك مني السلام
يـــا أرض اجدادي
ففيك طاب المقام
وطاب انشادي .

لا فارق كبير بين الاغنيتين ، غير الفارق بين الحنين القادم من بعيد والحنين الطالع من قريب . كلتا الاغنيتين تعلن الحب للارض ذاتها . وكلتاهما تحدد مفهوم الوطن بالانتماء الى الاجداد . الاولى — لشاعر يهودي يعيش في روسيا . ما رأى فلسطين وما شمها . والثانية — لشاعر عربي يعيش في فلسطين ما رأى المنفى وما سمع به . بعد قليل ، تغلبت الاغنية الاولى على الثانية ، وصار الشاعر الثاني يغني الحنين البعيد . وصار الفتيان العرب الباقون في بلادهم محرومين من التغني بقصيدة شاعرهم . وصار طريقهم الى المستقبل مرهونا باتقان اغاني الشاعر اليهودي الذي كان يقيم في روسيا . والمعلم العربي الذي يجرؤ على تلقين أغنية حب الوطن مطرود من العمل بتهمة التحريض على دولة اسرائيل وبتهمة اللاسامية . ثم كبرنا قليلا ، فعلمونا ملاحم ذلك الشاعر الصعبة ، ولم نأخذ من المتنبي الا « فيك الخصام وأنت الخصم والحكم » .

هم الخصوم والحكام ..

وهم الذين يحددون لنا « ما هو الوطن » ؟

نخرج مع موسى من مصر هاربا من الاضطهاد . تضرب البحر بعصا . ينشق البحر . يمر بنو اسرائيل ، ثم يلتهم البحر أعداءهم . تبقى في صحراء سيناء اربعين عاما . تتصالح مع الرب . وتعود ..

هم الخصوم والحكام .

وهم الذين يحددون لنا « ما هو الوطن » .

جلس تيودور هرتسل وفكر بمصير شعبه المضطهد . الف الفكرة الصهيونية التي هي الطريق الوحيد الى أرض الخلاص الوحيد .. لن يحقق اليهود ذواتهم ولن يقدروا على القيام بتنفيذ الرسالة التاريخية للبعث اليهودي الا بالعودة الى وطن الاجداد .. الى فلسطين .

وحين تسأل المدرس عن مصير الشعب العربي الفلسطيني وعن وطنه ، يهمس في اذنك أن تكف عن المخاطرة وعن التطاول على قدسية التاريخ . ولكن ، حين يكون المدرس يهوديا يترجم لك ما قاله حاييم وايزمن في مجلس السلام في باريس عام ١٩١٩ : « ان أرض اسرائيل يجب أن تكون يهودية كما أن انجلترا انجليزية » . وحين تلح عليه بالسؤال عن مصير العرب الفلسطينيين يطمئنك الى ان وايزمن قد أضاف : « ان الصهيونيين لن يدخلوا أرض اسرائيل كالغزاة . لن يطردوا أحدا » .
لن يطردوا أحدا ...

[٢]

لا تسأل أستاذ التاريخ . لقمة عيشه يأخذها من الاكاذيب . وكلما ابتعد التاريخ ، عادة، كلما اقتربت الكذبة من البراءة ، وقل اذاها . واستاذ التاريخ هذا يعرفك جيدا . على بعد خمس دقائق من المدرسة يخرج شارع من عكا الى الشرق في اتجاه صفد . وفور خروجك من عكا تبدأ غابة زيتون صغيرة تحيط برابية مطلة على سهل منبسط أخضر . على هذه الرابية ، ولدت قبل قليل . ما زالت طفولتك قريبة من كل شيء .. من الرابية ومن السهل ومن الشارع الاسود ومن طلقات الرصاص الاولى . ليس صحيحا ان الاطفال ، دائما ، يخافون القمر . لولا القمر ، ليلتها ، لفقدوك الى الابد ، واستبدلوك بشيء اخر ، كما فعلت أم من جيفا ليلة غاب القمر . هجم الرصاص والرعب على منزلها فتناولت شيئا حسبته طفلها وقفزت الى اقرب زورق . في البحر الذاهب الى عكا اكتشفت أن الطفل وسادة . ومن يومها ، أصيبت بالجنون . كم طفل تحول الى وسادة . وكم

وسادة تحولت الى طفـل . وما هو الوطن ؟ وطن الام طفلهـا ووطن الطفـل امه . « والفلسطينيون باعوا اراضيهم وهاجـروا » ـ هكذا يقول الاصدقاء والاعداء علـى السواء . الموت ليس استشهادا حين يكون بالمجان . ودير ياسين لم تكن دعاية عربية كما يقول البعض الان . ان تطلب من شعب أعزل أن يموت ليس تحديدا صحيحا لمفهوم الوطن . ليست هذه حربا ولا كفاحا . هذه مجزرة . والذين يقولون الان ان الفلسطينيين باعوا وطنهم كانوا يعتبرون البقاء في الوطن خيانة . وكـانوا يعتبرون الحرب نزهـة والرحيل رحلة .

وليلتها ، لم تفهم شيئا ، سألت أباك ، فنهاك عن السؤال لانك صغير . وضعوك في قرية مجاورة . وذهبوا لتحرير القرية . مجموعة من الفلاحين المسلحين الذين لا يفهمون في السياسة والحرب ، أخذوا بنادقهم وفؤوسهم ، وراحوا يذودون عن قهوتهم التي لم تبرد وعن عجينهم الذي لم يخمر . مات منهم من مات ، وانتصروا . وجـدوا شاي أعدائهم ساخنا وطعامهم جاهزا . رقصوا وغنوا وذهبوا الى القرى المجاورة ليأخذوا زوجاتهم واطفالهم . وليكملوا الحصاد . كانت البيادر مليئة بالغلال . وحين عادوا ، كانت القرية قد سلمت الى العدو . القرية أطلال والغلال رماد . لقد أحرقوها ونسفوها . وأستاذ التاريخ ينبئك بأنهـم لم يطردوا أحدا . وفي جنوب لبنان تصبح لاجئـا تأكل من وكالة الغوث ، وتنتظر العودة . وفي جنوب لبنان تعرف ، للمرة الاولى ، ما هو الوطن . هو هذا الشيء الضائع . هو هذه العودة المنتظرة . وحين تعود بعد عام او عامين الى ذلك الشيء الضائع تكتشف أنك أصبحت ضائعا .

لا تخبر أحدا أنك كنت في لبنان .

اين كنت اذن .

في مضارب البدو شمال فلسطين .

بعد قليل ، تصبح كلمة فلسطين ممنوعة . اسمها اسرائيل الذي حمله موسى بعدما شق البحر بعصاه .

ـ وماذا لو قلت اني جئت من لبنان .

ـ لانك عدت متسللا والدنيا تغيرت . لن نحصل على بطاقة هوية . واذا جاء البوليس الى البلد وعرف قصتنا فسيأخذنا الى الحدود ويرمينا . وستعرف بعد شهور أن آلاف المتسللين قد طردت بهذه الطريقة . تأتي الشاحنات الى ساحة القرية ، وينتشر البوليس بحثا عن البضائع المهربة . البضائع المهربة هي انت وأنا وهو وهي . كـل من فر من الموت وعاد . يملأون الشاحنات ويعصبون العيون ، وفي الليل تجد نفسك في منطقة لا جهات لها ، لان الظلام بلا جهات . والقمر لا يخيف الاطفال . من بين الـذين طردوهم زوج خالتك الذي لم تعد جثته ، ولعله بدون جثة . لا تعرف قاتله : الجيش ، أم قطاع الطرق ، أم الذئاب . في كل اسبوع جنـازة في القرية . الفلاحون يعثرون على جثة هنا وجثة هناك من هؤلاء المتسللين الذين أكلتهم البراري والبـرد والرصاص . وأستاذ التاريخ يقول لك ان اليهود لن يطردوا احدا . . . وحين تسأله : كيف تكون اسرائيـل يهودية كما تكون انجلترا انجليزية دون أن يطردوا العرب ، ينهـاك عن الاسئلة ويقول لك : التاريخ تاريخ ، والسياسة سياسة . وعلى بعد خمس دقائـق من هذه القرية ، يخرج شارع من عكا الى صفد . هذا الشارع ، بالنسبة اليك ، ليس طريقا ولكنه حدود تفصل أرض غربتك ولجوئك عن أرض وطنك . الجانب الجنوبي من الشارع أرض أبيك وجدك يستثمرها مهاجرون جـاءوا من اليمن . في اللحظة التي وصلوا فيها الى أرضك حددوا مصيرهـم ومصير أبنائهم . وفي الوقت ذاتـه حددوا مصيرك . في اللحظة التي صاروا فيها مواطنين صرت أنت لاجئا . اذا وطأت قدماك هذه الارض ـ أرضك ساقوك

الى المحكمة ، ومن المحكمة الى المنفى . وحين تناقشهم يتهمونك بالعدوان حينا وبالخيال حينا آخر . وهنا ، تفهم للمرة الثانية ما هو الوطن ؟ هو الشوق الى الموت من أجل أن تعيد الحق والارض . ليس الوطن أرضا . ولكنه الارض والحق معا . الحق معك ، والارض معهم . وحين امتلكوا الارض بالقوة صاروا يتحدثون في الحق المكتسب . كان حقهم تاريخا وذكريات . وصار أرضا وقوة . وانت بلا قوة — فقدت التاريخ والارض والحق .

[٣]

« اسمع .. يأتي المهاجرون ، ويأخذون هذه الارض ، وتصير جميلة .

« نفتح حانوتا ، ونبني مدرسة ، وكنيسا . وستكون هنا أحزاب ، وسنتناقش على عدة أمور . سنحرث الحقول ونزرعها ونحصدها . وتحيا خزعة العبرية ! ومن سيتصور ان خربة خزعة كانت هنا . طردناهم وورثناهم . جئنا ، اطلقنا النار ، حرقنا ، نسفنا ، ونفينا » .

ليس هذا كلاما عربيا . انها صرخة ضمير نادرة أطلقها أديب اسرائيلي قبل أكثر من عشرين سنة . تعطي تحديدا دقيقا لحقيقة مفهوم الوطن . ترد على التاريخ وعلى استاذ التاريخ . هكذا قام الوطن الاسرائيلي : لا بالحق ، ولا بالتاريخ ، ولا بالهرب من الإضطهاد . بالعنف وحده : طردناهم وورثناهم . أحرقنا ونسفنا ونفيناهم . ولكن انصرخة نادرة وسط ضجيج الدعاية والاكاذيب . وحين تسير ، معهم ، بالمنطق حتى منتهاه يعترفون . ولكنهم يختتمون المناقشة بهذا التقرير الدائم : لا مفر . وينتظرون الزمن كي يحول الاعتداء الى حق يعتاد عليه الناس .

وليست خربة خزعة هي المكان الوحيد . فلسطين كلها ترجمت على هذا النحو . أن الاسرائيلي يسكن بيتا مسكونا بالاشباح ، ولكن انصرافه الى البرهنة على جدارته بالوطن وعلى صد كل ما يعيق انتماءه يجعله أصم ويحرر ضميره من التساؤل عن بضاعة الطريقة التي تشكلت بها ذاته . ومع مرور الايام ، تنكمش صورة العربي وتذوب . كانت عبئا على الضمير ، ثم تحولت الى ديكور طبيعة ثم استقرت على صورة عدو لا بد من ابادته ، ولا حق لها بالوطن .. لا حق على الاطلاق .

خلال الحرب الاخيرة ، فوجيء كثير من الجنود الاسرائيليين بأن الفلسطينيين يحملون ذاكرة . وبأنهم يتذكرون وطنا ضاع . وأكثر ما فاجأهم هو أن الاطفال الذين ولدوا بعد ضياع الوطن ما زالوا متعلقين بهذا الوطن . وروى جندي اسرائيلي انه حين دخل أحد مخيمات اللاجئين وجد ان السكان لا يزالون يعيشون بالطريقة ذاتها التي كانوا يعيشون بها في قريتهم السابقة . انهم موزعون وفقا لما كانوا عليه . القرية ذاتها والشارع ذاته . وقد أهتاج الجندي .

لماذا ؟

— كنت عاجزا عن الفهم . لقد مرت تسع عشرة سنة ومـا زالوا يقولون : نحن من بئر السبع !.

وقال لي جندي شاعر انه لم يشعر بأنه غريب في فلسطين يوما واحدا في حياته الا حين دخل احدى القرى العربية في الضفة الغربية بعد الحرب الاخيرة . كان في الزي العسكري . ورأى طفلة في الشارع تنظر اليه نظرة جعلته يشعر بالزلزال . من عيون الطفلة التي لا يستطيع شرح نظراتها أدرك انه محتل . لم يخف الجندي دهشته من

رفض عيون الطفلة . قال : هـــذه الطفلة . . من أين جاءت بالذاكرة ؟ ومن علمها ان لها وطنا . . من علمها !.

صراع بين ذاكرتين . .

الذاكرة اليهودية تشكل احدى الدعاوي الاساسية لادعاء الحق على فلسطين . ولكنها عاجزة عن الاعتراف بحق الاخرين في التمتع بحاسة الذكريـــات . والاسرائيلي يرفض التعايش مع الذاكرة الفلسطينية ، ويرفض الاعتراف بهذه الذاكرة . على الرغم من أن أحد شعاراتهم القومية شعار « لن ننسى » . ومن قضايا التعليم الاسرائيلي الاساسية والاولى في سلم الاولويات الصهيونية هي ابقاء الوعي العام في حـــالة من التذكر الدائم كنقطة استقطاب للمشاعر الوطنية ، كانوا يقولون دائما : « لتنسني يميني اذا نسيتـــك يا اورشليم » . وبعد الكارثة التي تعرض لها يهـــود اوروبا على أيـــدي النازية أصبح الشعار الاساسي عندهـــم : « لن ننسى . . ولن نغفر » . وفي كـــل عـــام ، يحيي الاسرائيليون ذكرى ضحاياهم . تتعطل كل مرافق الحياة في اسرائيل . وفي اسرائيل ، متاحف خاصة وتعليم خاص وبرامج خاصة لتذكـــير الجيل الجديد بالكارثة . وفي كتاب « الاسرائيليون » لعزريا ايلون فصل خاص عن هذا الموضوع ، يقول فيه : « ان احياء ذكرى الكارثة تقر ، في نظر الجيل الصاعد ، احـــدى فرضيات الصهيونية الكلاسيكية ، وهي أن اليهودي بـــدون وطن سيبقى خرقة انسان وفريسة للحيوانـــات الشريرة » . ويعترف الكاتب بأن السياسة الاسرائيلية تستغل الكارثة لاغراض ابتزازية .

ان الثقافة الاسرائيلية تلح على اشباع المواطنين بذكريات كارثة أوربا لتعميق احساسهم بغربتهم وعزلتهم عن العالم . ويشكـــل هذا الاحساس عنصرا جوهريا في بنية النفسية والمـــزاج الاسرائيليين . ومن هنا ، تكون تنمية الـــذاكرة الاسرائيلية مكرسة لغـــرض سياسي محدد : الالحاح على الاسرائيلي بأنه دائم التعرض للابـــادة ، وان العودة الى « ارض اسرائيل » والصمود فيها هو الامان التاريخي والسيـــاسي الوحيد ، ولتعميق الدعوى الصهيونية على فلسطين .

ليس من واجب اليهودي ، وحده ، الا ينسى مذابح النازية . كل الناس الذين لم تمت ضمائرهم ، وكل أصدقاء الحرية يشاركون ضحايا النازية احياء الذكـــرى واستخلاص العبرة . وخاصة عندما يتكرر التشابه التاريخي بين النازية وبين حركـــات عنصرية في عالمنا اليوم . ومهما بلغت درجة العداء الاسرائيلي ـــ العربي ، فليس من حق اي عربي أن يشعر بأن عدو عدوه صديقه ، لان النازية عدوة كل الشعوب .

هذا شيء .

ولكن تمادي اسرائيل في تفريغ احقادها على شعب اخر . . هو شيء اخر . فالجريمة لا تعوض بالجريمة . وان يطالب الفلسطينيون وسائر العرب بدفع ثمن جرائم لم يرتكبوها لا يمكن ان يكون تعويضا عن الكارثـــة . ان الاسرائيلي يباهي الدنيا بأنه رائـــد اللجوء والغربة في التاريخ ، حتى اصبحت هذه الصفة ميزة وامتيازا . ولكن من يملك حـــاسة اللجوء والغربة أصبح عاجزا كل العجز عن ادراك هذه الحاسة لدى الاخرين . وليس من القسوة ان نقول ان سلوك الاسرائيليين الصهيونيين ضد شعب فلسطين الاصلي هو تطبيق متشابه للممارسة النازية ضد اليهود انفسهم . وليس من القسوة ايضا أن نقول ان سلوك الاسرائيليين والحركة الصهيونية في علاقاتها الدولية يوحي بملاحظة انها تتاجر بدم الضحايا اليهودية . بالمال والعتاد اللذين تأخذهما ثمنا لضحايـــا النازية تقتل شعبا اخر . ومن هنا ، ليس من القسوة ايضا القول ان الطريقة التي تحيي بها اسرائيل ذكرى ضحايا النازية توحي بملاحظـــة النفاق والابتزاز ، وبأنها مدينة لقاتـــل ابناء شعبهـــا

وجزارهم . لان الهدف السياسي من اشباع الاسرائيلي بحس الكارثة مكرس لاشباعه ، في الوقت ذاته ، بالحاجة الى الانتقام لا من قاتله . . بل من ضحية اخرى هي الشعب الفلسطيني . ان الصهيوني الوقح لا يخجل من الاعتزاز بأن فقدان ستة ملايين يهودي — اذا صح الرقم — قد أعطاه وطنا !..

[٤]

لا يعترفون بحقك . . ولا يعترفون بذاكرتك .

ذهبت الى مركز الشرطة في الرابعة بعد الظهر . واعلنت انك موجود . قال صديقك : تعال الى مغامرة . ان اقتحام الجمال مغامرة حقا . الى الجنوب من حيفا — على الشارع المحاذي للبحر الابيض ، تشعل سيجارتك في الريح ولا تطفئها الا في جرحك المفتوح . تنحرف السيارة الى الشمال قليلا فتجد نفسك في كنز . على المدخل لافتة بالعبرية تقول « هنا عين هود » . اسم القرية عين حوض ولكن حرف الضاد يستعصي على الترجمة . يسقط الوطن ، ولا يسقط حرف . وما هي عين حوض ؟. بيوت عربية متروكة من الخارج كما تركها أصحابها . كل بيت يختبىء في غابة ويستقل عن العالم ، في واد يحمل ثلاث هضاب وطريقا صغيرا الى البحر . السكان الاصليون نقلوا الى قمة أحد التلال المطلة على جرحهم المفتوح في الوادي . لماذا هذه السادية ؟ يرون الى بيوتهم وسكانها الجدد والى أرضهم التريكة ولا يقوون على زيارة العشب والحجارة . وأكثر من ذلك لا يعترفون بذاكرتهم .

لصديقي صديق رسام اسرائيلي يقيم في هذه القرية . أصر على أن يحتفظ بالبيت العربي القديم على حاله . « ديكور جميل يذكرني بالشرق » . هكذا قال الرسام الذي روى لنا قصة فراره من النازية . سألناه عن علاقته بالارض التي يسكنها الان . فأجاب بأنه يحبها . ذكرناه بأن مجرد حاجته الى ديكور عربي ليربطه بالشرق يلغي أصالة ارتباطه بهذه الارض . ويعطيه صفة السائح . قال : ليس لي مفر . ثم دلنا على التشابه التاريخي بين العرب واليهود . ان صفة اللجوء تجمع بينهما . والان ، يشترك كل واحد منهما في تشكيل بنية الاخر . قلنا : ان ما يجمعهما هو ، في الوقت ذاته ، نقطة الصراع بينهما . لقد تخلصت من اللجوء والتشرد لتدفع الطرف الآخر الى نقطة الدائرة ذاتها . وهكذا تكون المعادلة متناقضة . حين تجد نفسك تلغيني من وجودي . وحين اتمسك بوجودي تتحول العلاقة ما بيني وبينك الى صراع . لا لاني أعترض على خلاصك وعلى احتمال المشاركة في الوجود والارض ، ولكن لاني أعترض على الغائي الناجم عن الطريقة التي تمارس بها وجودك .

لا تنتهي المناقشة في مثل هذه الحالات ، لان الاعتراف بالحق نفي . فعلى بعد خطوات منا يجلس أهل القرية الاصليون وينظرون . . وليست صهيونية عربية — كما يدعون — أن يتمسك العربي بذاكرته عقدين من الزمن . ان طرح الذاكرة الصهيونية في ادعاء الحق هو ضعف اسرائيلي أكثر من كونه ذريعة . فالاحتكام الى الذاكرة يبطل الدهشة الاسرائيلية من تمسك الفلسطيني بذكريات طازجة . ان الذي أباح لنفسه أن يذرف الدموع على ألفي سنة لا يستطيع اتهام من يبكي منذ عشرين سنة فقط بالوقوع في الوهم. واحتكار البكاء — اذا جاز التعبير — ليس صفة قومية تدعو للاعتزاز . وفي الخامس عشر من أيار — وفي ساعة محددة في الصباح — تنطلق صفارات الانذار في كل أنحاء اسرائيل لتعلن الوقوف حدادا على الذين سقطوا في « حرب التحرير » . السائر يتسمر أينما كان . والسيارات تقف . والاعمال والماكنات تتوقف اعلانا للحداد الذي يسبق

الاحتفالات والفرح . وماذا يفعل العربي ؟ يبكي في القلب او ينفجر من الضغط . ان اعلان ميلاد اسرائيل هو في الوقت ذاته اعلان وفاة الامل الفلسطيني . هذه اللحظة ، اذن ، هي الزمن الفاصل بين حالتين . ولكنك ممنوع من التذكر والذكرى . تكون محاربة الذاكرة الفلسطينية ، اذن ، هدفا صهيونيا ومطلبا قوميا من الدرجة الاولى . لا . ليست صهيونية عربية أن تذكر اغتيال وطنك . وفي هذه اللحظة ـــ المفارقة تلتقـــي دموع الاضداد . أنت تبكي على وطن ضاع . وهم يبكون على من ضاعوا بحثا عن وطن ولد. تقف في الشارع الذي يلتهمك وتلتهم الغيظ والقهر . ما هو الوطن ؟ أن تحتفظ بذاكرتك ـــ هذا هو الوطن . ان أحزانهم كثيرة . كل أعيادهم حزينة . ولكنه حزن الذكريات البعيدة التي تجعل الفرح الراهن في حجم الكون . في الليل يرقصون بجنون ، يقبلون على الحياة بجنون . لماذا تطالبهم بأن يفهموك . كنت تقول دائما : ليتني أكتب مقالا واحدا دفاعا عنهم . . وأموت . لا يبدو أن النفط العربي سيتيح لك تحقيق هذه الامنية الخبيثة . ان احزان المنتصرين نفاق وخداع ، وليست دليل رقي بقدر ما هي دليل نقص . لقد حملوا احزان التاريخ وأفرغوها بك أنت . وأنت مطالب بألا تحزن . ممنوع من الحزن يـــا عربي !. . هم يحيون ذكرى الحجارة والمومسات وأبطال العدوان ، ويحيون ذكرى ضحاياهم الحقيقية ، وأنت ممنوع من احياء ذكرى أحد أو شيء . أكثر من ذلك : يدعونك للاشتراك في احتفالات انتصارهم عليك . واذا رفضت عوقبت . لم يسمحوا لك باحياء ذكرى ضحايا كفرقاسم . ان ضحاياهم ـــ كل ضحاياهم سقطـــوا بأيدي سواك . وضحاياك ـــ كل ضحاياك سقطوا بأيديهم . حين تأتي ذكرى كفرقاسم يحاصرون القرية والمقبرة ، ويمنعون الناس من الدخول ، لان الحزن ممنوع . وأكثر من ذلك : يصادرون مزيدا من الاراضي في الجليل . . يترجمون الجليل من جديد بمدينة يهودية « كرمئيل » . يتظاهر سكان ثلاث قرى عربية سلبت أراضيهم . يحاصرون . يعتقلـــون ، وتنتصر « كرمئيل » . ويختارون يوم الاحتفال بتدشينها في يوم ذكرى كفرقاسم بالذات . لا استفزازا ولا سادية ولا استهتارا . بل مظاهرة قدرة على القهر . هؤلاء هم اللاجئون ينهون لجوءهم بخلق لاجئين . فماذا يعني قولك ـــ يا صديقي الرسام ـــ ان تشابه اللجوء يجمعنا ؟ لا شيء . . لا شيء الا الابتزاز . اللاجئون الذين شردتهم النازية وجدوا وطنا لهم في فلسطين . واللاجئون الذين شردتهم الصهيونية . . أين يقيمون . . أين ؟ .

[٥]

ذلك الطفل الذي أسلمه رحم امه الى الارض ، وأسلمته الشرطة الى المنفى ، وأعاده الحنين الى أرض مفترسة ، لم يدرك انه مطالب بفلسفة الاشياء ، ولم يدرك أن الرياضة الفكرية معيار لجدارة الانتماء أو الانتماء بلا جدارة . لماذا تكون قدرتك علـــى تحديد « ما هو وطنك » ؟ برهانا على شرعية انتمائك الى هذا الوطن . الوطن الحقيقي هو الذي لا يعرف ولا يبرهن . أما الوطن الذي يخرج من معادلة كيماوية أو يخرج من معهد نظري فهو ليس وطنا . ان احساسك بالحاجة الى البرهنة على تاريخ صخرة وقدرتك على اختراع البرهان لا يعطيك أولوية الانتماء على من يعرف ميعاد المطر من رائحة الصخرة . فتلك الصخرة ، بالنسبة اليك ، اجتهاد فكري . وهي ، بالنسبة لصاحبها ، سقف وجدار . والصخرة لا تكون صخرة اذا كانت قابلة للانتقال في زي تمثال تحمله في حقيبتك وتخرجه حجة في المحاضرات . الصخرة تكون صخرة حين تجاورك يا صديقي الباحث عن تمثال ليكون هوية . وماذا تقول لي ايضا ؟ كانت صحراء هذه البلاد ! لا تذهب بعيدا في الاكذوبة . فلسطين لم تكن صحراء في يوم من الايام . لا يحق لك ان تحاسبني على الجدارة . فلست محاميا للرمل أو الحدائق . ما جئت لتدافع عن حق

الرمل في الماء ولا عن حق الشجـــر في الخضرة . لو كانت بلادي كذلك لما اغـــرتك باحتلالي .. وحرقي .. وطردي . ولم نبلغ ، حتى الآن ، مرحلة الوقوف أمام دائرة الطباشير لاننا لم نحتكم . ومن هو القاضي ؟ أنت !. كيف تكون الخصم والحكم في آن معا الا اذا كنت حبيبي . وعلاقتي بك ليست علاقة حب . كنت تدعي علاقة القربى والدم والان تدعي حق الجدارة للانتصار في محكمة دائرة الطباشير . أنت ترسم الدائرة حينا وتمحوها حينا آخر . فأنت لا تعترف بوجودي وتلغي علاقتي بهذا الوطن ، وتقول انها علاقة طارئة قابلة للزوال . وبأية وسائل برهنت ؟. بالعنف وحده ، بالقوة وحدها . هكذا الدنيا .. ذريعة القوي ، دائما ، اقوى . بالقوة وحدها حددت شكل علاقتك بوطني ، وشكل علاقتي بهذه العلاقة .

« العرب موجودون في فلسطين في علاقة « أنا وهو » .

« أما اليهود ، فموجودون في فلسطين في علاقة « أنا وأنت » .

هذا صوت الفيلسوف الصهيوني ـ الوجودي مارتين بوبر .

يقول : ان الانسان يرتبط بما حوله عن طريقين : طريق « أنا وهو » وطريق « أنا وأنت» . علاقة « أنا وهو » توجد في المكان والزمان وتخضع لقانون السببية . وفي هذه العلاقة لا تظهر الحرية ، بل الضرورة . أما علاقة « أنا وأنت » فتوجد خارج الزمان والمكان وهي مستقلة عن قانون السببية ، وتظهر هنا الحرية لا الضرورة . على هذا الاساس ، يكون الوجود غير الحقيقي للانسان عندما يوجد في علاقة « أنا وهو » . والدين اليهودي هو الدين الحقيقي الوحيد القائم على أساس علاقة « أنا وأنت » . ولان اليهود متمسكون بهذا الدين الحقيقي ، فان الشعب اليهودي هو الشعب المختار . وبناء على ذلك ، فان دولة اسرائيل يجب أن تقوم في فلسطين . فان علاقة اليهود بفلسطين ليست كعلاقة العرب بها ، لان العرب موجودون في فلسطين بعلاقة « أنا وهو » ولذا من السهل قطع هذه العلاقةومن الممكن نقلهم الى أمكنة أخرى ..

هكذا تحسم الفلسفة الصهيونية المغرقة في العنصرية مسألة علاقتك بفلسطين . انت غير حقيقي وقابل للالغاء ، لانك لا تعتنق الدين اليهودي الذي يشكل الحقيقة الوحيدة في الوجود .

ولكن أديبا اسرائيليا آخر أكثر اقترابا بالحياة والواقع يحرق علاقة الحرية القائمة بين اليهود وفلسطين حين تصل هذه العلاقة الى مستوى التطبيق العملي ، وتخلق حالة نادرة من حالات الاحساس بالاثم ، فالايديولوجية غالبا ما تبدو نظيفة لاصحابها وهي مجردة ، وحين تترجم الى ممارسة تأخذ شكل الجريمة . في قصته التي أثارت جدلا يصور ابراهام يهوشع حالة من حالات ارتطام « براءة » الايديولوجية الصهيونية مـــع الواقع الذي خلق جريمة بحق شعب آخر . لقد الصق النقاد الصهيونيون بالكاتب تهمة التخريب والدعوة الى الانتحار ، والتماثل المازوكي مع العدو . القصة تدور في حرش من أحراش « الكيرن كايميت » موّلته مجموعة من اليهود الذين يعيشون خارج اسرائيل، وأقيم على انقاض قرية عربية . بطل القصة طالب اسرائيلي لا اسم له ، يبحث عـــن العزلة ليتسنى له كتابة أطروحته عن الحملة الصليبية . وقد اقترح عليه موظف عجوز ومثالي مسؤول عن الاحراش أن يعمل حارسا للحرش من خطر الحرائق. يحمل الطالب كتبه وأوراقه وينصرف الى الحرش المعزول ، لا يربطه بالعالم الخارجي الا منظار وجهاز تليفون يتصل بمركز اطفاء . ليس صدفة أن يختار الكاتب مسرحا لقصته حرشا أقامته الكيرن كايميت على أنقاض قرية عربية ، فحرش الكيرن كايميت الذي يرمز الى تحقيق

الحلم الصهيوني قائم على أنقاض القرية العربية التي ترمز الى مأساة الشعب العربي الفلسطيني الناتجة عن تحقيق الحلم الصهيوني . وليس صدفة أيضا ان يكون موضوع اطروحة الطالب «الحروب الصليبية » التي تحمل شيئا من التشابه التاريخي بين الماضي والحاضر .

لم يكن الطالب الاسرائيلي وحيدا في الغابة أو الحرش . هناك فلاح عربي سابق قطعوا لسانه في الحرب « نحن أم هم ، هذا لا يغير شيئا » وقد بقي العربي مع أنقاض قريته يعمل عاملا في الغابة ومعه طفلة صغيرة . الثلاثة يقيمون في مكان واحد ، بلا مبالاة في البداية ثم بتوتر متصاعد — على خلفية أشجار السرو الصغيرة ولافتات تحمل أسماء المتبرعين اليهود المحترمين « لويس شفارتس من شيكاغو » ، « ملك بوروندي » ، وفود رسمية ، سياح ، وزوار . يشعر الطالب بأن مشيتهم الاحتفالية في الغابة تشبه قافلة من الصليبيين . تقول احدى الزائرات : نريد أن نسأله سؤالا بسيطا . نريد أن يبت في الامر . أين تقع بالضبط القرية العربية المشار اليها على الخارطة ؟ من المفروض أن توجد هنا في المنطقة قرية عربية مهجورة . ينظر اليهم الطالب — الحارس بدهشة . قرية ؟ كلا . لا توجد هنا قرية . الخارطة على خطأ .

كان الطالب ، في البداية ، يقضي الليل والنهار بحثا عن علامات حريق في الغابة . يجرب صفارة الانذار . يراقب حركات العربي ويشك في أنه يعد عملية انتقام . ثم يتضح تدريجيا أن الطالب — الحارس يريد أن تندلع النار في الغابة . لقد حاول ذلك بالنفط الذي أحضره العربي لهذا الغرض . ولكن المحاولة تفشل . ومنذ تلك اللحظة أصبحت علاقتهما وثيقة . الطالب يحدث العربي الشيخ عن تاريخ الحملات الصليبية . والعربي الابكم يصدر أصواتا وحشية ويجيب بحركات يديه . « يريد القول ان بيته هنا وقريته هنا . وقد أخفوا كل شيء ودفنوه في الغابة الكبيرة » .

عندما يشعل العربي النار في الغابة ، يشتعل الطالب حماسا وسعادة . ويشاركه العملية . انه لا يطلب النجدة . سواه استصرخ رجال المطافىء ، ولكـــن بعد فوات الاوان . ومع الفجر يسير بطل القصة على آثار الحريق . ورويدا رويدا تظهر خلال الدخان والضباب القرية العربية الصغيرة ، « تولد من جديد كالرسم التجريدي وككل ماض زال » . . . يقول عزريا ألون صاحب « الاسرائيليون » : من الواضح ان الغابة ترمز الى المجتمع الاسرائيلي الجديد الذي قام على أنقاض مجتمع آخر . ويقول المؤلف في حديث صحفي ان قصته ليست ايديولوجية ولكنها وصف وضع قائم في البلاد ، حيث أقيم شيء على أنقاض شيء آخر . ثمة احساس بالاثم .

تجد بعض النماذج من تجلي الاحساس بالاثم في الادب العبري الحديث لدى تنـــاول موضوع بناء المجتمع الاسرائيلي والصراع على وطن واحد بين الاسرائيليين والعرب . ولكنه احساس بالاثم صادر عن الثقة بالنفس . انه نوع من أنواع اعترافات القوي في حالة مزج انساني . يمزج قوته وانتصاره بشيء من مسحوق الليبرالية والانسانية بعد فوات الاوان وانتهاء المذبحة . ولكنه ليس في أي حال من الاحوال تعبيرا عن توبة أو ندم . انه شديد الشبه بمحاورات القاتل الداخلية بعد اتمام العملية . فالاديب الامريكي مثلا يصور مأساة الهنود الحمر ويبدي بعض العطف عليهم .

يستغرب كاتب اسرائيلي غياب ظاهرة حساب النفس والاحساس بالاثم لدى الطرف العربي . وهذا الاستغراب ، بحد ذاته ، دليل على الرغبة في عقد المساواة بين القاتل والضحية . يطالبهما بالجلوس والبكاء على التعاسة المشتركة : تعاسة المنتصر الذي كسب وطنا ولم يسلم من ارتكاب الظلم ، وتعاسة المهزوم الذي خسر وطنا ويطلب عدالة المعاملة ممن أخذ وطنه . كيف يحاسب العربي نفسه ؟ وكيف يشعر بالاثم ؟ ان هذه

المحاسبة لا تؤدي الى نقطة التقاء ولا تخدم مصلحة الاسرائيلي ، بل تؤدي الى التفكير بادارة الصراع بطريقة افضل تكفل اعادة الوطن . ولماذا يشعر العربي بالاثم ؟ اذا شعر بالاثم ، فانه يشعر به تجاه نفسه وتجاه وطنه لا تجـاه الذي هزمه واحتل وطنـه ونفسيته .

. . . .

لن تسأل بعد الآن عن معنى الوطن ..

الخارطة ليست اجابة ، لانها شديدة الشبه بالرسم التجريدي . وقبر جدك ليس اجابة لان غابة صغيرة كفيلة بأن تخفيه . وأن تبقى بجوار الصخرة ــ ليست أيضا اجابة كافية لان اغترابك ليس شيئا ماديا فقط . لم يحتلوا الارض والعمل فحسب . لقد احتلوا النفسية والمزاج والصلة ما بينك وبين الوطن حتى صرت تتساءل عن معنى هذا الوطن. تشغلك همومك اليومية وصراعك من أجل الحياة عن الاحساس بحقيقة أنك محتل . مواطن من الدرجة الثانية ؟ ليس هذا السؤال . لن تكون قضيتـك ديموقراطية ولا انسانية . وليس عذابك الشخصي ناجما عن سلوك شخصي . « اهدأ ــ تسلم » ليست نصيحة بريئة . هي دعوة لنفض يديك من تراب الوطن الذي لا تجد له اسما . سحبوا الارض من تحت قدميك فاختبأت تحت جلدك . عذبوك ، فلم تعترف الا بمزيد من الحب المجنون لاسباب عذابك . لا التهديد من الداخل يمحو انتماءك ولا الوعود من الخارج تعطيك الامان . تحمل صليبك وتمضي الى ميعاد انتحارك . ولا تقـول « نعم » . والاغتراب الذي يأتيك من كل الايام يتحول الى هدنة مع الريح تحت صرير السلاسل. في السجن تعانقك الحرية . وفي السجن تمتلىء بالوطن أيضا . الصراع هو الاجابة ، اذا صارعت انتميت . والوطن هو الصراع . بين الذاكرة والحقيبة لا حل سوى الصراع . الحق ــ والحرية ــ والانتماء ــ والجدارة لا تعلن الا بالصراع . لم يكتفوا بالاستيلاء على كل شيء . يريدون ان يستولوا أيضا على انتمائك لتكون الواقعة بينك وبين الوطن. ليصير الوطن هو العبء والقيد والالم . ولكنك لن تجد الحرية خارج هذا القيد ، ولن تجد الراحة بعيدا عن هذا العبء ، ولن تجد الفرح خارج هذا الالم . الوطن في ذاكرتك وفي خلايا جسمك يشتبك مع الوطن في قبضات أيديهم وحقائبهم العائدة .

اسرائيل والحركة الصهيونية
في منظار بن غوريون وغولدمان

الدكتور اسعد رزوق

من الملاحظ في معظم الكتابات الصهيونية والاسرائيلية حول موضوع العلاقة بين اسرائيل والحركة الصهيونية ان الحديث عن هذه العلاقة يتعمد النظر اليها من زاوية الصلات، القائمة منها والمرغوبة على سبيل ادعاء التمثيل، بين دولة اسرائيل من جهة و« الشتات اليهودي » في العالم، من جهة ثانية(١). فالحركة الصهيونية ظهرت رسميا فوق مسرح العالم على صورة « المنظمة الصهيونية » بتركيبها الداخلي المعروف واجهزتها الادارية والتنفيذية، الى جانب مؤسساتها المالية العاملة في حقل الاستعمار الاستيطاني. والمنظمة الصهيونية العالمية جعلت غرضها السياسي والمحوري في اقامة الدولة اليهودية بفلسطين. بينما جاء تحديدها في مطلع قانونها الاساسي لينص على اعتبارها تلك الهيئة التي «تضم جميع اليهود الذين يقبلون بالبرنامج الصهيوني ويدفعون رسوم الشاقل ». حتى ان الشعار الذي أطلقه مؤسس الصهيونية السياسية، ورفعته المنظمة العالمية منذ ١٨٩٨، كان ينادي بضرورة « غزو الجماعات اليهودية » (Kibbush Hakehillot) واجتذابها الى حظيرة الصهيونية.

ولدى اعلان قيام الدولة اليهودية بفلسطين عام ١٩٤٨ اصبح لزاما على المنظمة الصهيونية، بعد تحقيق الهدف السياسي وحيال التصميم على بقائها واستمرارها في ميدان العمل والنشاط، ان تعيد النظر في وظائفها ومهماتها. فالاوضاع المتغيرة تتطلب اليها في ظل وجود الدولة ان تخرج على الملأ ببرنامج جديد للمرحلة التالية من تاريخها. وهذا البرنامج الجديد أقره المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرون (صيف ١٩٥١) بعد انقضاء اكثر من ٣ سنوات على قيام اسرائيل. فتحددت مهمات الصهيونية الثلاث في « برنامج القدس » على النحو الآتي : « توطيد دعائم دولة اسرائيل، وتجميع المنفيين في أرض اسرائيل، وتنمية وحدة الشعب اليهودي ». ثم جرى ادماج هذه المهمات في نصوص الدستور الجديد للمنظمة الصهيونية العالمية (١٩٦٠).

ومن الواضح ان المهمات التي يحددها « برنامج القدس » تنيط بالمنظمة الصهيونية العالمية دورا مزدوجا، وعلى الصعيدين : الاسرائيلي في ظل الدولة، والخارجي بين يهود العالم. فالمنظمة الصهيونية مارست نشاطاتها في حقول السياسة والهجرة والاستيطان من خلال الاجهزة والدوائر التابعة للوكالة اليهودية ابان الانتداب البريطاني على فلسطين. والوضع القانوني العام للوكالة اليهودية، بموجب صك الانتداب الذي اقرته عصبة الامم، ينبغي له ان ينتهي مفعوله مع نهاية الانتداب البريطاني واعلان قيام الدولة اليهودية بفلسطين. غير ان الوكالة اليهودية — المنظمة الصهيونية لم تبادر الى إكتساب الصفة القانونية في ظل دولة اسرائيل الا بعد مرور أربعة أعوام على قيام الدولة. والقانون الأساسي الذي اقره الكنيست في ٢٤ تشرين الثاني

(نوفمبر) ، ١٩٥٢ ، جـاء بمثابـة التغطيـة الشرعيـة لوضع قائم على صعيـد الواقـع العملي . ثم كان التصـديق النهـائي على علاقـة المنظمـة بالدولـة في الاتفاقيـة التي وقعهـا الطرفان بتاريخ ٢٦ تمـوز (يوليو) ، ١٩٥٤ ، وهـي الاتفاقية المعروفة بـ « الميثاق » (Amanah) بين حكومة اسرائيل واللجنة التنفيذيـة الصهيونية . والميثاق يؤكد من جديد على مضمون القانون الاساسي ويشتمل على تفاصيل المهمات الموكولة الى اللجنة التنفيذية الصهيونية ـ الوكالة اليهودية .

هذا الاجراء القانوني لا يعني بأن المنظمة الصهيونية ارتأت ايقاف نشاطاتها غداة قيام الدولة بانتظار حصولها على « الشخصية القانونية » ، بل يستفاد من المصادر الصهيونية والاسرائيلية ان الهيئات المسؤولة داخل الحركة بادرت قبل اعلان قيام الدولة الى اقتسام حقول النشاط ومجالات العمل بين دوائر الوكالة وادارات الحكومـة العتيدة . وهذا الاقتسام هو ما جرى التعارف عليه بـ « مبدأ الفصل بين الوظائف » (Hafrada) . اذ تحددت بموجبه تلك الوظائف التي تحتفظ بها دوائر الوكالة اليهودية ـ المنظمة الصهيونية في ظل الدولة ، على النحو الآتي : الهجرة الى اسرائيل ، واستيعـاب المهاجرين ، والاستيطان الزراعي في اسرائيل ، بالاضافة الى ممارسة النشاطات الثقافية والتنظيمية بين يهود العالم . بينما تؤكد المصادر الرسمية الصهيونية ان كافة الوظائف الاخـرى انتقلت الى اشراف الدولة وأصبحت خاضعة لسيطرتها(٢) .

ازاء هذه الخلفية يمكننا النظر الى العلاقة العضوية بين دولـة اسرائيل والمنظمـة الصهيونية العالمية في اطار المفاهيم التي تضمنها « القـانون الاساسي » (Status Law) عام ١٩٥٢ . ومما تجدر ملاحظته ان المصادر الرسمية ، من صهيونية واسرائيلية ، ترى في بنود القانون المذكور ما يتجاوز تحديد العلاقة بين الدولة والمنظمة . فهي تعتبرهـا بمثابة الاعلان الذي يسلط الاضواء على ناحيتين اساسيتين : الناحية الاولى عن علاقة الدولة بيهود العالم ككل ، والثانية تتعلق بتحديد « الرسالة اليهودية للدولة » . والابعاد الثلاثة تتجلى بوضوح من خلال البنود الاربعة الاولى في « قانـون الوضع الشرعي » للمنظمة الصهيونية العالمية ، حيث اعلنت هذه البنود ما يلي : **أولا** ، ان دولة اسرائيل تعتبر نفسها صنيعة الشعب اليهودي كله . وتمشيا مع قوانينها ، فان ابواب الدولة مفتوحة بوجه كل يهودي يرغب في الهجرة اليها . **ثانيا** ، منذ تأسيسها لخمسين عامـا خلت ، وقفت المنظمة الصهيونية العالمية على رأس حركة الشعب اليهودي ، وتزعمت جهوده الرامية الى تحقيق رؤيا الاجيال في العودة الى وطنـه . وتحملت المنظمة ، بمساعدة أوساط وهيئات يهودية اخرى ، العبء الاكبر من المسؤولية في انشاء دولة اسرائيل . **ثالثا** ، ان المنظمة الصهيونية العالمية ، وهي ايضا الوكالة اليهودية لفلسطين ، سوف تتعاطى ـ كما في السابق ـ بشؤون الهجرة ، وتشرف على مشاريع استيعاب المهاجرين وتوطينهم في الدولة . **رابعا** ، تعترف دولة اسرائيل بالمنظمة الصهيونية العالمية على انها الوكالة المصرح بها لكي تتابع العمل في دولة اسرائيـل لاجل تطوير البـلاد واستعمارها ، ولاستيعاب المهاجرين اليهود من الشتات ، بالاضافة الى تنسيق النشاطات في اسرائيل للمؤسسات والجمعيات اليهودية العاملة في هذه الحقول(٣) .

فلو اعتبرنا ما تقدم اعلاه بمثابة الاطار النظري ـ المزود بالشكليات القانونية ـ للعلاقة القائمة بين اسرائيل والحركة الصهيونية ، لجاز لنا التساؤل عن طبيعة هـذه العلاقة ومداها العيني في مجال التطبيق العملي . ومن المعروف ان الصيـاغة القانونية لارتباط الطرفين تمت بعد مضي اكثر من عامين على انشاء « مجلس التنسيق » ، في ايار (مايو) ١٩٥٠ ، لكي يقوم بالاشراف على تنسيق النشاطـات في كافة المجـالات المشتركة بين حكومة اسرائيـل واللجنة التنفيذية الصهيونية . لكن المصادر الرسمية الصهيونية مـا برحت تؤكد لنا بان الامور ليست على خير ما يرام بالنسبة للممارسة والتطبيق العملي .

فقد جاء تحت مادة « اسرائيل والشتات » في **موسوعة الصهيونيـة واسرائيل** ما يلي نصه : « بيد ان هذا الترتيب لم يعمل ، على صعيد الممارسة التطبيقية ، بذلك القدر من السهولة التي جرى تصورها في كل من قانون الوضع الشرعي واتفاقية الميثاق . فاللجنة التنفيذية الصهيونية لم تحصل دوما على الاعتراف والاعتبار الذي حسبته واجب الاداء للحركة الصهيونية . والسبب في ذلك يرجع بصورة جزئية ، على الاقـل ، الى النظرة التي اتخذها رئيس الحكومة بن غوريون بوضع الصهيونية والهجرة الى اسرائيل علـى قدم المساواة ، وعدم احلال صهيونية الشتات في منزلة رفيعة من التقدير والجدارة »(٤). ثم مضت الموسوعة الى القول بأن الصهيوني العريق بن غوريون ذهب الى حدود أبعد من ذلك في موقفه المناوىء من الحركة الصهيونية . فقد وصل بـه الامر الى حد مقارنة المنظمة الصهيونية العالمية بـ « السقالة » التي كان لزومها رهنا فقط بكون البناء لا يزال قيد التشييد او في طور الانشاء . أما الان ، وقد ارتفع صرح الدولة ، فـلا حاجة هناك الى بقاء الحركة الصهيونية !

ولكي نتحاشى الفهم الخاطىء للاراء والاحكام المنسوبة الى بن غوريون بشأن الحـركة الصهيونية في ظل الدولة ، ينبغي لنا ايراد العناصر الرئيسية في موقفه الـذي تضمنته شتى التصريحات ابان وجوده على رأس حكومة اسرائيل ، بالاضافة الى كتاباته العديدة حول هذا الموضوع . ثم ننتقل الى عرض الاتجاه الثاني الذي يمثله ناحوم غولدمان على صعيد العلاقة بين الدولـة والمنظمة . وسوف يتضح لنا من خلال اجـراء المقارنة بين الاتجـاهين أو الموقفين ان الطبيعة العضوية للعلاقة القائمة بين اسرائيـل والحركـة الصهيونية لا تتأثر الى درجة كبـيرة بمثل هذه المواقف والاراء ، كمـا انه يتعذر على أصحاب كل اتجاه صهيوني الحفاظ على موقف يتسم بمقدار كاف من التماسك والاطراد، او المضي الى حد استخلاص النتائج المترتبة عن مقدماتهم الاولى . فالاراء التي يعلنهـا بن غوريون تتوخى احراج الحركة الصهيونية من خلال التشديد على سلطة الدولة ، لكي تدفعها الى تقديم المزيد واثبات الجدارة والاستحقاق بواسطة تدبير الهجرة الى اسرائيل وتلبية حاجات الدولة اليهودية على صعيد الموارد المالية والطاقات البشرية .

بن غوريون وسلطة الدولة

ترجع تصريحات بن غوريون حول العلاقة بين الحركة الصهيونية والدولة الى فترة باكرة نسبيا من قيام اسرائيـل . ففي اواسط تشرين الثاني (نوفمبر) ، ١٩٤٩ أدلى رئيـس الحكومة الاسرائيلية بتصريح مفاده ان وظيفة الحركة الصهيونية تحت حكـم الانتداب البريطاني كانت تقوم عـلى « تكوين سياسة حكومة فلسطين — بقدر اخلاص الدولـة المنتدبـة لصك الانتداب وتقيدهـا بالتزاماتها الدولية والعمل على تشجيـع الهجـرة والاستيطان » . ثم اعترف رئيس اللجنة التنفيذية الاسبق بأن الوكالة اليهودية كانت الى درجة معينة بمثابة « دولة ضمن دولـة ، وحكومة داخـل الحكومة »(٥). وانتهى بن غوريون الى التأكيد بأن هذا الوضع « لن يسمح ببقائه في ظل دولة اسرائيل » ، مثلما أطلق التحذير من مغبة الانقياد وراء تصورين خـاطئين . التصور الاول يزعم بأنه مع قيام الدولة أصبحت الحركة الصهيونية وصناديق الاموال التابعة لها من الامور المماتة والتي فقدت أهميتها وتجاوزتها الاحداث . والتصور الثاني الذي حذر منه بن غوريون هو الاعتقاد بان « الحركة الصهيونية ، بالرغم من قيام الدولة ، سوف تستمر في ممارسة وظائفها وكأن الدولة غير قائمة بالفعل » .

وفي الخامس عشر من ايار (مايو) ، ١٩٥٠ — قبل بضعة اسابيع من صدور « قانـون العودة » — كان رئيس الحكومة يدلي ببيان أمام الكنيست حول انشاء مجلس التنسيق بين حكومة اسرائيل واللجنة التنفيذية الصهيونية ، مؤكدا فيه ان « الاجتماعات التمهيدية التي عقدها الطرفان أظهرت بانه لا توجد عوائق في سبيل التعاون الوثيق والمخلص » .

أما السبب الكامن وراء هذا التناغـم المسبق فهو : « لان اهـداف حكومة اسرائيـل وأغراضها ، من جهة ، وأهداف الحركة الصهيونية وأغراضهـا ، من الجهة الاخرى ، ليست متعارضة ، بل هي ، على العكس من ذلك ، متطابقة الى درجة كبيرة »(٦).

ولدى تقديمه مشروع قانون « الوضع الشرعي » للمنظمة الصهيونية في الكنيست (أيار ، ١٩٥٢) نجد بن غوريون قد انتقل الى مزيد من التخصيص في تعيين الدور المطلوب الى الحركة الصهيونية ان تمارسه في ظل وجود الدولة ، وبين يهود العالم بالـذات . فهو يشير الى عدم استطاعة الدولة الاسرائيلية على « التدخل في شؤون الحيـاة الداخلية للجماعات اليهودية بالخارج » ، اذ يتعذر على اسرائيـل القيام بتوجيه هذه الجماعات والتقدم منها بمطاليب . والدولة — على حد قوله — ملزمة بالعمـل مثل سائر الدول ، بينما قدرتها خارج حدودها تبقى محصورة ومقيدة . هذا لا يعني بالطبع ان بن غوريون ينوي بالفعل ترك يهود العالم وشأنهم ، أو الاقلاع عن التدخل في حياتهم . بل هو يريد الوصول ، عبر تقليصه المتعمد لنطاق السلطـات التي تلتزم بها أعمال الـدولة ، الى « توسيط » الحركة الصهيونية بين اسرائيل ويهود العالم . وفي ذلك يقول : « انها المنظمة الصهيونية ، والقائمة على أساس الارتباط الطوعي والنشاط الاختيـاري ، التي تقدر على تحقيق ما يتعدى سلطة الدولة وصلاحياتها . وهـذه هي الحسنة التي تمتاز بها المنظمة الصهيونية على الدولة »(٧).

ان رئيس حكومة اسرائيـل لا يمارس سياسة التقشف الصهيوني الا لكي ينتقـل من التحفظ الظاهر الى التوريط الصريح . فالحسنة التي يميز بها المنظمة على الدولة تتيح له مجال تكليف الحركة الصهيونية بالمهمات التي تتجـاوز سلطة اسرائيل وصلاحياتها كدولة . والمنظمة الصهيونية لا تعدو كونها أداة بيد الدولة ، تعمل في خدمتها ، لا سيما في المجالات الخارجة عن نطاق السيادة والسلطان . انها امتداد للدولة في الخـارج ، وتقوم على تنفيذ رغباتها وتلبية حاجاتها . وبناء عليه ، يقول بن غوريون : « فان المنظمة الصهيونية لم تفقد جدواها مع انشاء الدولة . بل على العكس تماما ، فقد ازداد حجم مسؤوليتها وكبرت رسالتها الى درجـة لا تحصى » . فما هي عـلاقة الدولة بالحركة الصهيونية ، اذن ؟ يجيب رئيس حكومة اسرائيـل على سؤال من هذا القبيـل بايراد التعميم التالي : « الدولة والحركة الصهيونية تكملان بعضهما بعضا ، فالواحدة منهما تحتـاج الى الاخرى . وهما تستطيعان ، ويجب عليهمـا ، بواسطة تضافر الجهود المشتركة ، تحريك الشعب اليهودي لاجل تحقيق المثال الاعلى لخلاصه »(٨).

ويؤخذ من الكتـاب السنوي لحكومة اسرائيـل (١٩٥٣ — ٥٤) ان رئيس الوزراء في تقديمه لقانون « الوضع الشرعي » أمـام الكنيست وصف هذا القانون بأنه يتبوأ منزلة الصدارة بين القوانين الاساسية لدولة اسرائيل . فهو « يكمـل قانون العودة » لجهة تحديد الصفة الصهيونية للدولة . واذا كان قانون العودة قد « ارسى الحق لكل شخص يهودي في الاستيطان داخل اسرائيل » — يتابع بن غوريون مقارناته — فان « القانون الجديد » عمد بدوره الى « ارساء الرباط بين دولة اسرائيل والشعب اليهودي كله » . ثم يضيف بن غوريون الى مفهـوم « الشعب اليهودي » ما يلي : « ومؤسسـاته المخولة الصلاحيات في شؤون الهجرة الى اسرائيل والاستيطان فيها »(٩).

الى هنـا يتصف موقف بن غوريون بالصراحة في تحديـد العلاقة العضوية بين الحركة الصهيونية ودولة اسرائيـل . فالمنظمة الصهيونية العالمية تقـوم بدور الاداة التنفيذية لسياسة اسرائيـل في اوساط يهود العالم ، والحديث عن المشاركـة وتضافر الجهود والحاجة المتبادلة لا يقصد من ورائه سوى توجيه تلك الاداة نحو حقل النشاط المطلوب وتسخيرها لخدمة أغراض الدولة وتلبية حاجاتها . لكن انخفاض الهجـرة اليهودية الى اسرائيل في اوائل الخمسينات واشتداد الازمة المالية من جـراء التدهور الذي أصاب

العلاقات الاميركية ــ الاسرائيلية في خريف ١٩٥٣ ــ حيث لجأت أوساط نظارة الخارجية الاميركية الى التهديد بقطع المساعدات او تجميدها؟ ــ ربما دفعا بن غوريون الى التشدد في موقفه من الحركة الصهيونية ومطالبتها بتقديم المزيد . ومن ضمن هذا الاطار سوف نعرض للاراء التي اوردها بن غوريون حينذاك في مقاله الطويل بعنوان «البقاء اليهودي» والذي استغرق خمسين صفحة من الكتاب السنوي لحكومة اسرائيل (١٩٥٣ ــ ٥٤) .

الصهيونية هي الهجرة الى اسرائيل

اراد بن غوريون في مقاله المشار اليه أن يعرب عن خيبة أمله للاخفاق الذي مني بـه قانون العودة والاحباط الذي أصاب الامال المعقودة على مفعول هذا القانون . فأخذ على الصهيونية في ظل الدولة ما يلي : « عندما فتحت أبواب الوطن على مصراعيها ووصلت الموجة الاولى في عملية تجميع المنفيين ، تبين ان الصهيونية والهجرة الى اسرائيل لم تعد الواحدة منهما مترابطة داخليا بالاخرى على الاطلاق . فالصهيونية لا تنطوي علـى اي التزام بالهجرة الى اسرائيل ، والهجرة لا تتدفق على البلد لاسباب ترجع الى الايديولوجية الصهيونية »(١٠) .

ويستفاد من تلميحات رئيس الحكومة الاسرائيلية ان اليهود الذين هاجروا من الولايات المتحدة وكندا الى اسرائيل خلال السنوات الخمس الممتدة من ١٩٤٨ الى ١٩٥٣ لا يتجاوز عددهم ما مجموعه ١٫٨٠٩ اشخاص . هـذا العدد الضئيل لا يتكافأ مع قوة الحركـة الصهيونية عدديا في اميركا الشمالية . والشواقل التي جرى بيعها وتوزيعها من ١٩٤٩ الى ١٩٥١ ، وكان نصيب الولايات المتحدة ٧٠٪ بالمائة من مجموعهـا ، تشير ايضا الى انعدام التكافؤ بين القوة العددية والاقبال الصهيوني . لذا يرى بن غوريون ان (بوصلة) الحركة الصهيونية قد انحرفت عن الاتجاه المنشود وطرأ عليها التبدل الجذري . فيقول عنها ما يلي : « وكذلك الحركة الصهيونية تغيرت كليا . فهي لم تعد تتطلع صوب الهدف المقرر لها طيلة سنواتها الخمسين الاولى . ان بوصلة الحركة لم تعد تؤشر نحو القطب المغناطيسي التـاريخي : العودة الى صهيون . والفصل بـين الهجرة الى اسـرائيل والصهيونية أوجد فراغا خطيرا . وان لم يتم ملء هذا الفراغ بنوع من المحتوى الجديد والمضمون الايجابي ، فهو سوف يؤدي الى انهيار الحركة »(١١) .

ان رئيس حكومة اسرائيـل لا يقرع ناقوس الخطر على الصهيونية الا لحمل المزيد من الصهيونيين في بلدان الغرب على المجيء الى اسرائيـل والاستيطان فيها . ومما تجدر ملاحظته ان الصهيوني العتيق بن غوريون يناشد الصهيونيين خارج اسرائيـل « النظر الى هذه الحقيقة بوضوح واستجلاء مضامينها الكاملة . فالحقائق التاريخية يجب الا تثير الاستياء والاستنكار او الغضب » . فالحقيقة التي يعلنهـا للتاريخ هي التالية : « منذ انشاء الدولة كان على الصهيونية ان تواجه امتحانا عسيرا ، لا بل أعلى امتحان . ولم تنجح فيه . لانه عندما أعطي الخيار بين المجيء الى اسرائيل او البقاء في المنفى ، اختارت الجماهير الصهيونية ــ كما اختار زعماؤها على حد سواء ــ البقاء حيث هي . وجرى توضيح الامر بصورة جلية تماما : بان الصهيونية في الصيغة التي اتخذتهـا منذ انشاء الدولة لا تعني الهجرة الى اسرائيل ولا تتطلب اي توحدن شخصي مع بنائي صهيون . هكذا هي الصهيونية في اميركـا وانجلترا وجنوب افريقيـا ومعظم بلـدان اوروبـا الغربية »(١٢) .

ومع ادراك بن غوريون للفارق الاساسي بين الصهيونية الاوروبيـة (التي يدعوهـا بـ «صهيونية الانعتاق الذاتي») والصهيونية الاميركية (ويسميها بن غوريون دون تردد « صهيونية التبرع والاحسان ») فانه يفضل الاولى على الثانية لانها تجمع في نظره بين « الخلاص الشخصي والفداء القومي » ان ما يزعج رئيس حكومة اسرائيل هو «الفراق»

الذي يطالعه بين عنصري الصهيونية والهجرة : « فالقادرون الجدد لم يكونوا صهيونيين، والصهيونيون لم يأتوا » . وهنا يستشهد بن غوريون بيهود اليمن والعراق ، الذين « جاؤوا دون معرفة بالصهيونية » ، لكنه يعترف بنقيض حجته عندما يقول بأن يهود العراق ، مثلا « تركوا البلاد التي سكنوها منذ السبي البابلي . فلم يرجعوا على عهد الملك قورش الفارسي » . ويتجاهل عن عمد دور الصهيونية في تهجير اليهود العراقيين عبر قبرص الى اسرائيل .

وأخيرا ، يصل بن غوريون الى ضالته المنشودة اذ يعبر عن الخيبة التي تعتريه ، فيقول: « ظهرت الدولة الى حيز الوجود ، لكنها لم تعثر على الامة التي كانت تنتظر ظهورها . طيلة قرون عديدة والشعب اليهودي يطلب في صلواته : هل تكون لنا دولة ؟ ولم يخطر ببال احد منهم هذا السؤال المخيف : هل سيكون من شعب هناك للدولة عندما تظهر الى حيز الوجود ؟ »(١٣). هذا ما يدعوه بن غوريون بـ « مسألة المسائل كلها » ! ثم يلتفت الى الحركة الصهيونية مؤكدا بان اسرائيل منحتها ذلك الوضع القانوني الخاص لتعزيز مركزها ومكانتها على الصعيدين الداخلي والخارجي . هذا مع العلم بان « جميع النشاطات التي تمارسها المنظمة الصهيونية (أو الوكالة اليهودية) داخل اراضي اسرائيل يمكن للحكومة ان تقوم على تنفيذها بنفسها . وربما بمزيد من الفعالية ودون التكرار والازدواجية » .

وصاحب هذا التحدي الموجه الى الحركة التي تعتبر اسرائيل بمثابة صنيعتها يصل به الامر الى حد النكران للفضل الصهيوني في انشاء الدولة اليهودية . فهو يزعم ، مثلا ، بان الحقيقة هي « ان الدولة ليست وليدة الحركة الصهيونية وحدها ودون سواها . الدولة هي صنيعة الشعب اليهودي عبر العصور ، وليست فقط من صنع منظمة ظهرت الى حيز الوجود منذ خمسين او سبعين عاما » . والمساعدات المالية يقدمها اليهود بصفة كونهم يهودا ، فلا ميزة للصهيونيين عن غيرهم . كما ان الدولة الان لم تعد بحاجة الى « وكالة يهودية » للتوسط بينها وبين يهود العالم . والهجرة اليهودية الى فلسطين لم تبدأ مع النشاطات الاستيطانية للمنظمة الصهيونية ، بل تقدمت عليها في الزمان .

لكن السؤال الذي يتبادر الى الذهن على الفور : هل يريد بن غوريون قطع العلاقات القائمة بين اسرائيل والحركة الصهيونية والاستغناء عن خدمات المنظمة العالمية في شتى الحقول والمجالات ؟ والجواب هو طبعا بالنفي القاطع . ان رئيس الحكومة لا يريد للحركة الصهيونية في ظل الدولة ان تجعل استمرارها قيد الوجود مرهونا بمجرد « الاعتماد على رصيد انجازاتها الماضية » . فالدولة تقوم على تنفيذ المنجزات اياها ، وعلى نطاق اوسع بكثير ! والمطلوب ، اذن ، هو تحميل الحركة الصهيونية لواء رسالة جديدة : « ان الحركة الصهيونية سوف تستمر قيد الوجود اذا هي قامت على تنفيذ رسالة ما لن يأخذها الاخرون على عاتقهم ، ومتى فرضت هذه الرسالة واجبا شخصيا على كل واحد من أعضائها بمفرده »(١٤).

المهمة الراهنة للمنظمة الصهيونية ، بنظر رئيس حكومة اسرائيل ، تنحصر في نشر التربية اليهودية بين ابناء الجيل الطالع من يهود العالم . غير ان هذه التربية العبرية ــ كما يؤكد بن غوريون ــ ليست بمثابة البديل للامور الاخرى : مثل « تجميع المنفيين أو النشاط السياسي والاقتصادي لصالح الدولة » . وليست بالتالي « بديلا عن اعداد الرواد وتدريبهم » . انها وسيلة من أجل الغاية التالية : تجميع اليهود في اسرائيل والاسهام الفعلي في محاولة « تصفية الشتات اليهودي » وتنمية الروح الريادية بين الشبيبة اليهودية .

وهكذا ينتهي بن غوريون من حملته الاحراجية الى اعادة الاعتبار للحركة الصهيونية

والاقرار بفضلها على دولة اسرائيل ، وتعيين دورها بالنسبة ليهــود العالم . ويعــود الى تقرير امور واقعة ، اذ يقول : « التربية العبرية وحدها لن تستنفد المضمون الكامل للصهيونية ، حتى بعد ان يعفي الصهيونيون انفسهم من واجب الهجرة الى اسرائيل . يجب على الحركة الصهيونية ان تتزعم كل نشاط يهودي محلي ، وطنيا كان أم عالميــا ، متى استطاع هذا النشاط ان يسهم في تقوية مركز اليهود والدفاع عن شرفهم وحقوقهم. ويترتب على الحركة الصهيونية بنوع خاص ان تتصدر كل نشاط موجه نحو توطيد دعائم دولة اسرائيل ، وتقوية استقلالها الاقتصادي وتعزيز أمنها السياسي والعسكــري ، والتعجيل في عملية تجميع المنفيين ... يجب عليها ان تقوم بتشجيع السياحة ، ورعاية توظيف الرساميل ، والاشراف على ايفاد التلامذة والطلاب الى معاهد اسرائيل التربوية، بالاضافة الى تقديم المساعدة الفعالة في تنمية حركــة الريادة والاعتناء بهجرة المهنيين والعلماء والخبراء الى اسرائيل »(١٥).

بذلك نعود الى النقطة التي بدأنا منها ، فتكمل الدائرة سيرهــا حتى يستقيم دورانها . والحركة الصهيونية في انتقادات بن غوريون ، كمــا في توقعاته ومرتجاه ، لا تخرج عن كونها الاداة التنفيذية لمخططات اسرائيل وحاجاتها بين يهود العالم . بيد ان ما يطلبه منها رئيس الحكومة الاسرائيلية هو تقديم المزيد بحجة الانسجام مع نفسها ، و « التهويل » عليها بغية تطويعها والتغلب على اتجاهات التردد والتحفظ والتريث بين صفوفها .

غولدمان : ميثاق الشراكة

ان ما أغفل ذكــره بن غوريون تكشفه لنا كتابات ناحوم غولدمــان ، لا سيما في اعقاب اقصاء رئيس المؤتمــر اليهودي العالمي عن رئاسة المنظمة الصهيونية العالمية ، وهو المنصب الذي شغله طيلة اثني عشر عامــا (من ١٩٥٦ الى ١٩٦٨) . والنواحي التي تستأثر باهتمام غولدمان يمكنهــا القاء مزيد من الضوء على علاقة اسرائيــل بالحركة الصهيونية .

يقول ناحوم غولدمان في مذكراته ما يلي : « لدى إعلان قيام دولة اسرائيل ومجيء دافيد بن غوريون على رأس حكومتها ، جرى حرمــان المنظمة الصهيونية من كــل نفوذ في السياسة الاسرائيلية »(١٦). ثم يغمز من قناة بن غوريون عندما يستطرد في الحديث عن اقتصار صنع السياسة على المواطنين في عصر الدول ذات السيادة . ويؤكــد لقرائه ان دولة اسرائيل سارعت الى تطبيق مبدأ السيادة وحرصت اشد الحرص على امتيازاتها وصلاحياتها . أما تفسير هذا التعلق بالسيادة فيرجعه غولدمــان الى أمرين : مبالغة اليشوف في تمجيد الدولة ، وشخصية بن غوريون التي لا تطيق اي تدخل .

ونعرف من مذكرات غولدمان انه كــان من بين القلائــل الذين نادوا بعــدم الفصل في السلطات والصلاحيات بين حكومة اسرائيل والمنظمة الصهيونية العالمية . فهو يبرر هذه المناداة على اساس الوضع الخاص للدولة اليهودية ، ثم يعرض وجهة نظره على النحو الاتي : « مع انني لم اطالب أبدا ، كما فعل العديد من زملائي ، باعطاء اللجنة التنفيذية الصهيونية صوتا في تقرير السياسة الاسرائيلية ، فمــا زلت اعتقد بان الاصرار عــلى السيادة المطلقة لاسرائيــل ، رغم ما يكتنفه من ضرورة شكليــة ، لا يتصف بشيء من الحكمة عندما يتم تطبيقه على السياسة العملية »(١٧).

وغولدمــان لا ينتقد على سبيل الانتقاد فحسب ، بل يريــد انتزاع دور نافــذ للحركة الصهيونية ولما يقع تحت سيطرتها من يهود العالم . فهو ينظر الى المسألــة من زاوية مقابلة ليكتشف عما يلي : « ان اسرائيل ما كانت لتوجد ابدا ولا هي تستطيع البقاء على قيد الحياة ، لولا الدعم الاجماعي المتين الذي تتلقاه من يهود العالم ــ وهذا على الاقل في الظرف الحالي »(١٨). وهذا الدعم لا يتخذ شكل التأييد السياسي في الخارج لــدولة

اسرائيل فحسب ، بل يتجاوز ذلك الى تقديم المساعدات الاقتصادية والعسكرية للدولة اليهودية « في معركتها ضد العرب » . بيد ان غولدمان يتخوف من نتائج الوضع التالي : « عندما يقال لملايين اليهود : يجب ان تقفوا بجانب اسرائيل في السراء والضراء ، انما لا يحق لكم ابداء الرأي والتدخل في شؤون الدولة » . وهنا يبرز محور الخلاف بين زعامة الحركة الصهيونية التي مثلها غولدمان وبين رئاسة الحكومة الاسرائيلية في شخص بن غوريون . غولدمان يطالب بالمشاركة بين المركز الاسرائيلي والاطراف اليهودية في الخارج — من خلال المنظمة الصهيونية واجهزتها . وهو على أتم استعداد للاعتراف بـ « الفرع الاسرائيلي على انه الشريك الاكبر قدراً » ، (Senior Partner) .

يقول غولدمان ذلك في معرض حديثه عن الموقف المتصلب الذي وقفه بن غوريون من الحرية الصهيونية ، اذ سرعان ما تبنى رئيس حكومة اسرائيل « الموقف الايديولوجي القائل بان الصهيونية ، حيال وجود الوطن الان ، لا يسعها ان تمثل شيئا سوى الهجره الفردية الى اسرائيل . وبما ان معظم الصهيونيين ، والزعماء من جملتهم ، لم يذهبوا الى اسرائيل ، فقد بدأ (بن غوريون) في شن حملة ضد المنظمة الصهيونية متهما اياها بخيانة برنامجها الذاتي ، وبانها عديمة الجدوى ، لا بل نسب اليها ممارسة التأثير المضر »(١٩) .

يبين غولدمان في مذكراته للقارىء ان الخلاف دار حول انتهاج « طرق اخرى لتنظيم الشعب اليهودي بقصد التعاون مع اسرائيل » . فهو يكرر الموقف الذي طالعنا به بن غوريون في مقاله المتقدم ذكره ، عندما ينسب الى رئيس الحكومة في احدى مناقشات المجلس الصهيوني العام موقفا من هذا القبيل : « نحن ، المواطنين في اسرائيل ، سوف نعكف على بناء الدولة . وانتم اليهود في الشتات ، يمكنكم تقديم المساعدات فحسب » . بينما يأتي رد غولدمان على هذا التحدي انطلاقا من نظرته الى العلاقة المتبادلة بين المركز الاسرائيلي والاطراف اليهودية في العالم . فهو يقول مخاطبا بن غوريون : « ان خلق دولة اسرائيل بنوع ثقافتها الذي لم يسبق له مثيل يجب ان يكون ، باعتباره أعظم منجزات التاريخ اليهودي ، مهمة مشتركة بين فرعي الشعب بحيث يشارك كلاهما في الحقوق والمسؤوليات بالتساوي . ومع ذلك ، أنا على أتم استعداد للاعتراف بالفرع الاسرائيلي في منزلة الشريك الأكبر مقاما »(٢٠) .

والسؤال الذي يطالعنا من خلال هذا التفاوت الصهيوني في تحديد صيغة المشاركة بين الدولة والحركة الصهيونية . يتصل بمدى انعكاس الخلافات في الرأي على طبيعة العلاقة العضوية بين اسرائيل والمنظمة الصهيونية العالمية . ان مخالفة رئيس المنظمة لرئيس الحكومة في الرأي لم تقف حائلا دون تلبية الحاجات الاسرائيلية و « تطويع » النفوذ الصهيوني بين يهود العالم للعمل في خدمة اسرائيل . فهو يخالف بن غوريون ، مثلا ، رأيه في سياسة اسرائيل الخارجية . لكنه لا يتردد لحظة واحدة في ضمان تأييد اليهود الاميركيين لهذه السياسة . وفي ذلك يعترف غولدمان بمنتهى الصراحة قائلا : « رغم موقفي المخالف ، فقد اعتبرت من الطبيعي ان واجبي يقضي بتأمين التأييد من جانب اليهود الاميركيين للسياسة الاسرائيلية . ولم يؤنبني ضميري على هذا الامر ، لانه لو تنصلت المنظمات اليهودية الكبرى في اميركا رسميا من سياسة اسرائيل ، فمن المؤكد ان هذا التنصل ما كان لينطوي على أية فائدة ، بل ينتج عنه الضرر لاسرائيل فحسب . لقد بدا لي انه من الضروري الوقوف بجانب اسرائيل في وضعها المحفوف بالمخاطر ، وفي الوقت نفسه التأثير على سياستها الخارجية »(٢١) .

فهل استطاع غولدمان طيلة رئاسته للمنظمة الصهيونية ان يؤثر على سياسة اسرائيل؟ ان مذكراته ملأى بالتنصل من المسؤولية عن السياسة الاسرائيلية ، وهو ينسب النفوذ الضئيل الذي مارسه على السياسة الخارجية بحكم رئاسته للمنظمة الصهيونية العالمية

الى « عدم استعدادي للقبول بمنصب ديلوماسي » . والرجل الذي تولى رئاسة المنظمة قبل بضعة شهور من العدوان الثلاثي على سيناء (١٩٥٦) ، لا يجد ما يقوله في مذكراته اللاحقة سوى الاقرار بأن : « هذا الموقف اصبح الحفاظ عليه في منتهى الصعوبة بالنسبة لي في الاسابيع التي تلت حملة سيناء . ولم يقم بن غوريون على ابلاغي بالامر مقدما — وأنا لا اقصد بذلك تقريعا او انتقادا . لكني منذ البداية بالذات اعتبرت هذه الحملة غلطة »(٢٢) .

ومع ذلك استمر ناحوم غولدمان على رأس المنظمة الصهيونية العالمية طيلة اثني عشر عاما . فالخلاف مع بن غوريون لم يصل الى نقطة اللارجوع ، ولم يمنع رئيس المنظمة من « أداء واجبه » في الحصول على التغطية اللازمة بين يهود امبركا لتأييد سياسة الدولة اليهودية . وسوف نتناول في القسم الاخير عينات من مواقف غولدمان التي تسهم في ايضاح الجوانب الهامة من علاقة المنظمة بالدولة .

الاعتماد من طرف واحد

ان الفكرة التي تستأثر باهتمام غولدمان هي في كيفية العثور على طريقة — « لا توجد لها سابقة » — بغية اشراك يهود العالم في تحمل المسؤولية عن مستقبل اسرائيل ومصيرها . فهو يعترف على صفحات مذكراته بانه سعى منذ انشاء الدولة لحمل الاخرين على القبول بتلك الفكرة . لكن المحاولة باءت بالفشل ، على ما يبدو حتى الان . فما هي محاولة غولدمان . يخبرنا الزعيم الصهيوني عنها بقوله : « لو تسنى لي ان افعل ما أريد ، لجرت محاولة منذ البداية لربط اسرائيل مع السكان اليهود في جميع البلدان الاخرى بواسطة تركيب محدد ، ولتزويد اليهودية المنظمة على الاقل بصوت استشاري في شؤون اسرائيل الحيوية »(٢٣) .

ان هذه الامنية لم تتحقق بسبب اصرار بن غوريون على سيادة الدولة وممارسة سلطاتها الكاملة . لكن المنظمة الصهيونية العالمية حصلت على « مركز ممتاز » بالنسبة لعلاقتها مع الدولة ، ونالت « الحق المشروع » في العمل داخل اسرائيل . وغولدمان نفسه يؤكد لنا ما يلي : « مع ذلك ، نجحت في حمل الاحزاب السياسية ، ومن جملتها حزب بن غوريون « الماباي » ، على القبول بأفكاري . وبعد مفاوضات طويلة اثر الكنيست قانون الوضع الشرعي للحركة الصهيونية ، وعلى أساس هذا القانون تم التوقيع على اتفاقية مهيبة — « الامانة » — (الميثاق) بين الحكومة الاسرائيلية واللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية »(٢٤) .

هذه الاتفاقية التي سميت بـ « الامانة » (Amanah) أو « الميثاق » تنطوي على مدلولات دينية . وما يعنينا من أمرها الان هو البيان الذي ادلى به غولدمان أمام المجلس الصهيوني العام بعد مرور ١٢ عاما على وضع الميثاق موضع التنفيذ . قال رئيس المنظمة الصهيونية عام ١٩٦٦ ما يلي : « دخلنا طرفا في ميثاق ، ونحن نقوم بتأدية العديد من المهمات التي تؤديها الحكومات في بلدان اخرى . وبناء عليه ، فالميثاق يعكس وضعا غير سوي . لكن وضع دولة اسرائيل ما زال غير سوي ، واكثرية الشعب اليهودي ما زالت تقيم خارج حدود الدولة . وهناك حاجة الى حركة تجلب الالاف وعشرات الالاف من اليهود الى الدولة . هذا كان السبب لتوقيع الميثاق . وفي الوقت نفسه ، من الواضح ان الاستيطان والاستيعاب والهجرة — كل ذلك لا يمكن تنفيذه الا بالتعاون مع الدولة »(٢٥) . فالعلاقة القائمة بين الدولة وأداتها التنفيذية في الخارج لم تتأثر على صعيد الانجازات وتقديم الدعم بمختلف اشكاله . وغولدمان لا يجد مناصا من الاقرار « بالنتائج النافعة » التي اسفرت عنها علاقة المنظمة الصهيونية بدولة اسرائيل . فهو يقول عن نتائج الدور الذي أعطي للمنظمة منذ البداية ، وجاء الميثاق ليسبغ عليه « الصفة القانونية » فقط ،

ما مفاده : « تمكنت المنظمة الصهيونية العالمية او الوكـالة اليهودية ، بالتعاون مـع الحكومة ، من جلب ما يزيد على مليون ونصف المليون من المهاجرين الى اسرائيل ، ومن استيعاب معظم هؤلاء ، وانشاء مئات المستوطنات الجديدة ، والمشاركة في مجالات كثيرة من تنمية البلاد بواسطة الاموال المجباة لصالح اسرائيل في كافة بلدان العالم »(٢٦).

ويخبرنا غولدمان في مذكراته ان المساعـدات التي تلقتها اسرائيل عن طريق الحركـة الصهيونية هي مساعدات سياسية واقتصادية وعسكريـة . على الصعيد السياسي توفر للدولة اليهودية هـذا الشرط : « قيام الملايين من اليهود في سائر انحـاء العالم بممارسة كل ما استطاعوا امتلاكه من النفوذ والضغوط الاقتصادية » . ويمثل غولدمان على ذلك بقوله : « انه لمن النفاق او خداع الذات ان ننكر على النفوذ السياسي لستة ملايين من اليهود الاميركيين دورا بارزا يلعبونه في تقرير السياسة الخـارجية الأميركية بالنسبة لكل من اسرائيل والعرب »(٢٧).

وليس النفوذ السياسي هو وحده مصدر التطلع الاسرائيلي الى يهود العالم عبر أجهزة المنظمة الصهيونية ومؤسساتها . فالدولة تعتمد اقتصاديا على المساعدات المالية التي تجمعها حملات الجباية الصهيونية . لقد اعتمدت على ذلك منذ قيامهـا ، وسوف يظل اعتمادها قائما في المستقبل . وغولدمان يشدد على الدور الاقتصادي ليهود العالم في مد اسرائيل بأسباب البقاء ، مؤكدا بانه « لولا الدعم المالي الضخم الذي تلقته اسرائيل من الخارج ، وبلغ في مجموعه على مدى السنين ٣١/٢ الف مليون دولار ، لكـانت الدولة قد انهارت تحت أعباء مضاعفة سكانها أربع مرات خلال عقدين من السنين ، وادخال مليون ونصف المليون من المهاجـرين المعدمين ، هـذا بالاضافة الى تغطية النفقـات العائدة لميزانيتها الهائلة في التسلح . . . ومن الواضح ان اسرائيل لن تستطيع ، على مدى عقود قادمة ، الاستغناء عن المساعدات الاقتصادية من يهود العالم »(٢٨).

فهل كان بن غوريون يريد بالفعل ان يستغني عن خدمات الحركـة الصهيونية ؟ وهـل تستطيع اسرائيل الاستغناء عن المنظمة العالمية كأداة لتنفيذ احتياجاتها وتغطية سياستها وتوفير أسباب الدعم على كافة المستويات ؟ ان العلاقة العضوية بين المركز والاداة ، او بين الـدولة والمنظمة الصهيونية ، ليست وليـدة الشكليات التي جـاءت القوانين والمواثيق لانقاذ مظاهرهـا . ولا خلاف في الرأي بين غولدمـان وبن غوريون من حيث جوهر العلاقة ونتائجهـا على الصعيد العملي وفي ميزان الواقـع العيني . ان رئيس حكومة اسرائيل السابق يطالب بالمـزيد ، ويتستر وراء مفهومه للشعب اليهودي لكي يتسنى له احراج الحركة الصهيونية وتطويعها في خدمة اغراض الدولة .

وناحوم غولدمان ، الرئيس السابـق للمنظمة الصهيونية العالمية ، يخاطبه بلغته التي يفهمها عندما يقول : « ان الحفاظ على اسرائيل لا يتم الا من خـلال اعتبارها الصنيعة الاجماعية للشعب اليهودي بأسره . فالاسرائيليون هم جيش الجبهة الامامية ، واليهود الذين يعيشون خارج اسرائيل ، في الشتات ، هم قوات الاحتياط الكبرى . واذا ما قدر لهذه القوات الاحتياطية ان تتخلى عن اسرائيـل في يوم من الايـام ، فاني لا أرى ثمة مستقبل لهذه البلاد »(٢٩).

فالحركة الصهيونية لا تزال ، بعد مرور ثلاثة ارباع القرن على تأسيسها وفي ظل ربـع قرن من وجود الدولة اليهودية بفلسطين ، تعمل جادة للاستئثار بنصيب أوفر من تأييد يهود العالم وتجيير هذا التأييد لمصلحة اسرائيل . والشعار الذي رفعه مؤسس الحركة عن « غزو الجماعات اليهودية » واجتذابهـا الى حظيرة المنظمة مـا زال رائد الحركة الصهيونية العالمية في تسيير اعمالها ونشاطاتها لخدمة المركز الاستيطاني الذي تجسده اسرائيل .

الحواشي

١ ــ انظر على سبيل المثال مقالة « اسرائيل والشتات » في الموسوعة التالية :
Encyclopedia of Zionism and Israel, Ed. Raphael Patai (New York: Herzl Press, Mc Graw Hill, 1971), pp. 580-583.

٢ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٥٨٣ .

٣ ــ راجع النص الكامل لقانون « الوضع الشرعي » (Status Law) الذي أقره الكنيست بتاريخ ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٢ .

٤ ــ أنظر « موسوعة الصهيونية واسرائيل » ، **المصدر السابق** ، ص ٥٨٣ .

٥ ــ *Jewish Agency Digest of Press and Events*, (November 18, 1949).

٦ ــ راجع التقارير المرفوعة من اللجنة التنفيذية لكل من المنظمة الصهيونية والوكالة اليهودية الى المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرين (القدس، ١٩٥١) الترجمة الانجليزية للتقارير ، ص ٢١٨.

٧ ــ انظر : *Jewish Agency Digest*, (May 16, 1952).

٨ ــ **المصدر نفسه** .

٩ ــ راجع State of Israel, *Government Year-Book*, 5714 (1953-4), Government Printer, Nov. 1953, p. 57.

١٠ ــ انظر مقالة بن غوريون في **المصدر نفسه** ، ص ٣٢ ("Jewish Survival")

١١ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٣٣ .

١٢ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٣٦ .

١٣ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٣٨ .

١٤ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٤٦ .

١٥ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٤٨ .

١٦ ــ انظر الطبعة البريطانية لمذكرات غولدمان:
Memories, The Autobiography of Nahum Goldmann. Trans. by Helen Sebba, (London: Weidenfeld and Nicolson, 1970), p. 295.

وسوف تشير الى هذا المصدر بـ « مذكرات غولدمان » منذ الان فصاعدا .

١٧ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٢٩٦ .

١٨ ــ **المصدر نفسه** .

١٩ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٣١٩ .

٢٠ ــ **المصدر نفسه** .

٢١ ــ **المصدر نفسه** ، ٢٩٨ .

٢٢ ــ **المصدر نفسه** .

٢٣ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٣١٨ .

٢٤ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٣١٩ .

٢٥ ــ انظر المناقشات في دورة انعقاد المجلس الصهيوني العام ، من ١١ الى ١٨ كانون الثاني (يناير) ، ١٩٦٦ ، ص ١٩٣ ــ ١٩٤ .

٢٦ ــ **مذكرات غولدمان** ، **المصدر السابق** ، ص ٣١٩ .

٢٧ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٣١٤ .

٢٨ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٣١٤ .

٢٩ ــ راجع نص المقابلة التي أجرتها مجلة « دير شبيغل » الالمانية مع الدكتور ناحوم غولدمان :
Der Spiegel, Nr. 53, 28/21/1970.

على ضوء لقاء مع الفيلسوف الفرنسي :
ســـارتر والمسألة الفلسطينية

داود تلحمي

كان اول لقاء لي بسارتر في اواخر ١٩٦٥ ، والاخير في مطلع ١٩٧٢ . في المـــرة الاولى كان اللقاء بصدد التحضير لعدد خاص من **مجلته** « الازمنة الحديثة » حــــول المشكلة الفلسطينية (الذي لم يصدر الا في اول حزيران ١٩٦٧ : وكانت صدفة غريبة ساعدت على رواجه) . والمرة الاخيرة ، كانت لتسجيـــل مواقفه الحاليـــة **لمجلتنــا** « شؤون فلسطينية » . وبين اللقائين ست سنوات ونيف حملت معها احـــداثا غيرت الكثير من المفاهيم . فالمقاومة الفلسطينية اكدت للعالم وجود الشعب الفلسطيني واستمرار رفضه للاغتصاب وتصميمه على النضال والتضحية ، واسرائيل « الحمل الوديع المحاط بذئاب جائعة » أصبحت تحتل من الاراضي العربية مساحة تزيد عن اربعة اضعاف ما احتلته في ١٩٤٨ . هذا على ارض المعركة (أي موضوعيا) ، أما ذاتيا ، فقد قـــام سارتر في مطلع ١٩٦٧ بزيارة مصر وقطاع غزة والارض المحتلة ، والتقى بالعديد من المثقفين وغير المثقفين واصحاب المسؤولية واللامسؤولين (يوضح هو نفسه ذلك في اللقاء الاخير) . ثم اصدر عدده الخاص من ألف صفحة الذي احتوى على اكثر من اربعين مقالة لعـــرب واسرائيليين بالاضافة الى مقالة مكسيم رودنسون الشهيرة ووثائق اخرى . والتقى بعد ذلك بممثلين عن المقاومة وبأنصارها في فرنسا ، وتابع اخبارها . وهو الآن اذا مطلع على المشكلة التي قال في عام ١٩٦٥ بتواضع انه يكاد يجهلها وان احدى فوائد العــــدد الخاص مساعدته على رؤيتها بشكل اوضح .

وسارتر ليس بحاجة الى تقديم فهو الفيلسوف الاديب الذي **رفض** جائزة نوبل ، وسار مع الطلبة في انتفاضة ايار ١٩٦٨ ويقف اليوم مع التنظيمات الماوية في عملها العنيف ضد النظام في فرنسا . وهو لا ينفك عن الكتابة في ميادين الفلسفة والرواية والقصة والبحث التاريخي والسياسي . ولسنا هنا بصدد تقييم هذا النتاج والحكم على مواقفه السياسية بشكل عام ، فموضوعنا اكثر تحديدا . الا أنه من الضروري التأكيد على بعض النقاط قبل الدخول في صلب الموضوع :

اولا : ان اسهام سارتر في اغناء الادب والفلسفة العالميين بشكل وافر امر لا مجـــال للنقاش فيه ، واطلاعه وثقافته في هذين المجالين لا جدال فيهما « بدأت حياتي كما لا بد انها ستنتهي : بين الكتب » (كتاب « الكلمات » ص ٣٧) .

ثانيا : على الصعيد السياسي ، اتخذ جان بول سارتر منذ شبابه (كما يروي في كتاب « قضايا منهجية » ص ٢٦ وما يليها) موقفا يساريا عـــاما ضد الاضطهـــاد والقمع ، وتبلور ذلك فيما بعد في مواقفه من حركات التحرر العالمية (وخاصة الحركة الجزائرية

وثم الفيتنامية) وفي الدعم الادبي الذي وفره لها متعرضا احيانا لارهاب الاوساط اليمينية (كما حدث له مع التيارات الاستعمارية ومنظمة الجيش السري في اخر سنوات حرب التحرير الجزائرية) . وهو الآن يترأس المحكمة الدولية التي اسسها برتراند راسل للبحث في جرائم الحرب الامريكية في فيتنام ، ويساهم في الدفاع عن الاسرى في ايران ودول امريكا اللاتينية وغيرها . كما يعرب عن تضامنه مع حركات التمرد العنيفة ضد الاستغلال الراسمالي في فرنسا نفسها ، ومع العمال الاجانب — والعرب منهم بالذات — في مواجهتهم للعنصرية .

ثالثا : كل ذلك لا يمنع بالطبع ان بعض مواقفه السياسية وغير السياسية قابلة للنقاش (سواء بالنسبة لمواقفه الفرنسية او العالمية وبالذات فيما يخصنا لموقفه من القضية الفلسطينية) . وللتذكير ، وقف سارتر مثلا ضد التدخل السوفياتي في المجر عام ١٩٥٦ وفي تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ ، واتخذ مؤخرا موقفا نقديا من الحكم في كوبا على اثر اعتقال بعض الادباء ، كما اتهم الحزب الشيوعي الفرنسي باجهاض انتفاضة أيار ١٩٦٨ ، ويقف الآن مدافعا عن المنظمات الماوية — كما ذكرنا — . كل هذه المواقف ومثلها جزء من رؤية فلسفية عامة سنقوم بطرحها باختصار .

رابعا : على الصعيد الفلسفي اذا ، اقترن اسم سارتر بالوجودية . وهذا التعبير يحمل لاذهان الكثيرين صورة مشوهة لمفاهيم اقرب الى البوهيمية والهيبية ، وسارتر أبعد ما يكون فكرا وممارسة عن هذه الصورة . وللتوضيح ، نذكر ان المدرسة الوجودية التي اوجدها الفيلسوف الدانماركي كيركغارد في النصف الاول من القرن الماضي تؤكد بشكل مختصر على اهمية الحياة الفردية تجاه المحاولات الرامية الى اغراق الفرد في نظام فلسفي شامل ومجرد (مدرسة هيغل بشكل خاص) .

الا أن الوجودية اليوم (وممثليها في المانيا وفرنسا بالذات) تقف على ارضيات مختلفة انطلاقا من الاعتبار العام الذي ذكرنا . فالالماني ياسبرز ينطلق من « مأساة الفرد » الذي يتنازعه واقعه المادي وطموحه الروحاني ليلجأ للدين . بينما يقف سارتر موقفا اقرب الى الماركسية . ويهمنا ان نوضح هنا نظرة سارتر في الموضوع منطلقين من تحليله في كتاب « قضايا منهجية » (دار نشر غاليمار ، باريس) .

يقول سارتر في فصل « الماركسية والوجودية » ان ليس هناك فلسفة وانما فلسفات أي ان كل حقبة مميزة تعطي فلسفة معبرة عن الحركة العامة للمجتمع (ص ٧) . ومن القرن السابع عشر وحتى العشرين لم تتبلور هناك الا فلسفات ثلاث يشير لها سارتر باسماء روادها : فالاولى هي « فترة » ديكارت ولوك والثانية « فترة » كانت وهيغل والثالثة فترة ماركس (ص ١٢) . « فالماركسية اذا هي فلسفة عصرنا : ولا يمكن تجاوزها لان الظروف التي اوجدتها لم يجر تجاوزها بعد » . وهي لم تشخ ، بل بالعكس ما زالت شابة ، في طفولتها تقريبا (ص ٤٤) . ويشير سارتر لتأكيد رأيه الى « ان الحجج ضد الماركسية ليست ، كما لاحظت مرارا ، الا تجديدا ظاهريا لافكار ما قبل الماركسية » (ص ١٢) .

« لماذا اذا بقيت الوجودية (مدرسة سارتر دون المدارس الاخرى كمدرسة ياسبرز التي يعتبرها سارتر رجوعا الى الوراء) مستقلة ؟ لماذا لم تحل نفسها في الماركسية ؟ » (ص ٣١) . ذلك لان « الماركسية توقفت : ولانها فلسفة ارادت تغيير العالم . . . لانها تريد ان تكون **عملية** ولانها فعلا كذلك ، حدث فيها شرخ حقيقي بين النظرية من جهة والممارسة من جهة اخرى . » (ص ٣٢) . ويحلل سارتر تاريخ الاتحاد السوفياتي والحركة الشيوعية على ضوء هذه الرؤية ويخرج بالاستنتاج ان « الفصل بين النظرية والممارسة كانت نتيجته تحويل هذه الى **تجريبية** بدون مبدأ ، وتلك الى **معرفة** مجردة

ومتحجرة » . ولا يعفي سارتر التروتسكيين من النقد في هذا الصدد ، لان معارضتهم للحركة الشيوعية تنطلق من نفس الاسلوب اللاتحليلي للأحداث الملموسة ، بل تستعمل الاحداث لتأكيد المفاهيم النظرية (ص ٣٤) . «فاليوم ، تقع التجربة الاجتماعية والتاريخية خارج المعرفة . فالمفاهيم البرجوازية لا تتجدد وتهترىء بسرعة ، وما يبقى منها تنقصه الاسس : فالمكتسبات الحقيقية لعلم الاجتماع الامريكي لا تستطيع تغطية ضعفه النظري . فبعد انطلاق صاروخي ، توقف علم النفس عن التطور » . (ص ٤١) . « وفي وجه هذا الجهل المزدوج ، استطاعت الوجودية ان تنبعث وتستمر لانها تؤكد واقع الانسان . . . فالوجودية والماركسية تعملان في اتجاه واحد ، لكن الثانية احتوت الانسان في الفكرة بينما تبحث الاولى عنه حيثما كان ، في عمله ، في منزله او في الشارع » . (ص ٤٢) .

هذا باختصار شديد وعمومية موقف سارتر الفلسفي السياسي حاليا . وليس من شك ان كلمات قليلة كهذه لا تكفي لايفاء نظرة سارتر **وتطورها** عبر السنين حقها . الا انها تشكل اطارا نستطيع ان ننظر منه بشكل اوضح الى مواقف سارتر السياسية وبالذات لموقفه في قضية فلسطين (ونكرر اننا لسنا هنا بصدد الحكم على مواقف سارتر العامة وتقييم دورها الموضوعي ايجابا أو سلبا) .

هذه الرؤية العامة انعكست اذا في مواقف سارتر السياسية ، وبشكل واضح في نظرته للمشكلة اليهودية . ففي كتابه عن الموضوع (« المسألة اليهودية » دار غاليمار) ، اوضح سارتر موقفه كالتالي : اللاسامي ينظر الى اليهودي كانسان ذي خصائص شكلية واخلاقية محددة ، « والديموقراطي » من جانب آخر يدافع عن وجهة النظر الدمجية (أي ان اليهودي انسان كالآخرين وليس له خصائص مميزة) ، والاثنان برأي سارتر مخطئان ، فهو يرى ان انصاف اليهودي لن يكون الا بالاعتراف بحقه ليس فقط في العيش في بلد نشأته او اختياره وانما بحقه في التميز والاحتفاظ بخصائصه وشخصيته . وينهي كتابه بعبارته الشهيرة : « طالما وجد يهودي لا يمارس كافة حقوقه ، فلن يكون هناك انسان حر في فرنسا . ولن يكون هناك فرنسي آمن ، اذا وجد في فرنسا او في العالم يهودي يخشى على حياته » .

هذه المواقف تعكس حرص سارتر على الدفاع عن حرية اختيار الفرد لهويته ومصيره في موضوع محدد (التزم سارتر منذ فترة طويلة في الدفاع عن وجهة نظره فيه) . والكتاب (الذي صدر قبل خلق دولة اسرائيل) يظهر مدى حساسية سارتر للمشكلة اليهودية التي يعتبرها مشكلته كفرنسي واوروبي ، ومدى تأثيرها على مواقفه اللاحقة في المسألة الفلسطينية . وقد اكد ذلك في كل المناسبات التي التقى فيها بطرف فلسطيني أو عربي. وليس من الصعب فهم اسباب هذه الحساسية ، فالى جانب الموقف الفلسفي ، كانت المشكلة اليهودية بالنسبة لسارتر مشكلة ملموسة ، فقد عاش الاحتلال الالماني ، والتفرقة العنصرية والاضطهاد ضد اليهود ، ورأى العديد من معارفه اليهود يسيرون نحو معسكرات الاعتقال النازية . وبين معاونيه والمقربين منه — حتى الان — عدد من الفرنسيين اليهود .

وهذا يفسر رد فعل سارتر حين زار اسرائيل في آذار ١٩٦٧ . فهو لم ير في السكان (الذين بنوا دولتهم على حساب شعب فلسطين بوسائل لا تختلف من حيث الكيف عن الاساليب النازية نفسها) الا يهود معسكرات الاعتقال ويهود الغيتو والاضطهاد اللاسامي . ففي مؤتمر صحفي عقده في تل ابيب في ٣٠ آذار ١٩٦٧ قال : « ان اسرائيل هي البلد الوحيد في العالم الذي نستطيع نعت الانسان فيه بأنه يهودي دون ان نكون لاساميين . عندما يقال عن استاذ جامعي عندنا انه يهودي ، لا استطيع الا ان افكر ان

القائل ضد اليهود . . . اما هنا فاننا نقابل يهودا بشرا . وفي اسرائيل ، لم يجر تحريركم فقط ، وانما تحريرنا ايضا . واذا استطاع الرجل الاسرائيلي الجديد ، اليهودي الجديد ان يتطور في سلام ويعي كافة تناقضاته ويتحملها ثم يتجاوزها بعمله ، فسيكون — وهو الان — من اغنى الرجال في التاريخ » . (لوموند ١٩٦٧/٣/٣١) .

هذا الموقف ، الذي جعل مراسل لوموند الاسرائيلي يقرب بين وجهة نظر سارتر وهرتزل في الموضوع (وهذا ما عمل سارتر على نفيه فيما بعد بشكل غـير مباشر — لوموند ١٩٦٧/٤/٨) ، لا يعطي الصورة كلها عن موقف سارتر . هناك الجانب الاخر : فسارتر ورفيقته سيمون دو بوفوار كانا قد زارا قبل ذلك مصر وقطاع غزة ، وفي نهاية زيارتهما ، صرح سارتر بأن حديثه مع اللاجئين في القطاع اكد له مدى تصميمهم على العودة الى بلدهم . وكان قد قال قبل ذلك في جامعة القاهرة « ان الفلسطينيين لهم حق قومي في العودة الى الارض التي غادروها في حرب ١٩٤٧ — ١٩٤٨ » (لوموند ١٩٦٧/٣/١٥) . وأعاد طرح رأيه في اسرائيل . فبعد ان قال في اجتماع مع ييغال ألون « ان حق اسرائيل في البقاء يجب ان يكون نقطة انطلاق اي حل للمشكلة الفلسطينية » (لوموند ٣/٢١/ ١٩٦٧) طالب في مؤتمره الصحفي في ٣/٣٠ بالاعتراف بحق العودة للاجئين وانتقـد اسرائيل لتزمتها في هذا الموضوع (لوموند ٦٧/٣/٣١) .

هذا التناقض يعيه سارتر بالطبع ويعترف به ، هو الذي يعيش « النزاع اليهودي العربي كمأساة شخصية » (العدد الخاص من « الازمنة الحديثة » ص ٩) . ففي مقدمة العدد التي كتبها اسبوعا واحدا قبل العدوان الاسرائيلي ، أعاد سارتر طرح تمزقه في مواجهة الصراع ، هو الذي من خلال اكتشافه لمشكلة اليهودي اثناء الحرب العالمية الاخيرة لا يستطيع التصور « بأن مجموعة يهودية ، أنى كانت ، ومهما كانت ، معرضة من جديد لمثل هذه المآسي » وهو الذي من خلال دفاعه عن الجزائريين اثناء حرب التحرير أدرك « الاخوة التي تربطنا بالعرب . . . الذين كانوا يقاتلون من أجلنا بقدر ما قاتلوا لانفسهم » (نفس المصدر ص ١٠) .

وفي جو مشحون ، غذته اجهزة الاعلام (او التجهيل) الصهيونية بصـور « الدولة الصغيرة المسالمة المحاطة بمئة مليون حاقد متعطش للدم » ، وقع سارتر على عريضة (قبل الحرب بأيام) لصالح اسرائيل تنفي « امبرياليتها » وطبيعتها العدوانية . ثم جاءت الحرب ، وفتحت أعين الكثيرين ، وصمت سارتر . ولم يعبر منذ ذلك الحين عن مواقفه في الصراع الا نادرا .

واليوم أين يقف جان بول سارتر ؟

سارتر يتكلم

في بداية اللقاء ، أكد سارتر على تعاطفه مع **الفلسطينيين** (استعمل هذا التعبير عدة مرات بعد ذلك) : « ان عواطفي الى جانبكم » ، معيدا الى الاذهان تعاطفه مع حرب التحرير الجزائرية ومشاركته الحالية في النضال ضد العنصرية التي يعاني منها العمال العرب في فرنسا .

وكان أول استفسار لي حول تقييمه لتطور معـرفة الفرنسيين والغرب بالمشكلـة الفلسطينية ١٩٦٧ ، اي منذ زيارته الاخيرة للشرق الاوسط ، وصدور العدد الخاص من الازمنة الحديثة . وجاء رده تسجيلا لما رآه خلال زيارته ، وما يراه اليوم بعد خمس سنوات من الاحتلال الاسرائيلي الاخير . فأشار الى البؤس الذي وجده في مخيمات غزة والى المشاكل التي يعاني منها العرب في اسرائيل . فتحدث باسهاب عن انطباعاته هنا وهناك منتقدا تصرفات وتصريحات بعض « الوجهاء » الفلسطينيين الذين قابلهم في غزة،

ومعبرا عن أمله بمستقبل شباب المخيمات من جهة ، وموضحا من جهة اخرى لجذور التفرقة الاقتصادية والعنصرية في اسرائيل . واضاف في حديثه عن الشق الاخير ، ان الاقلية العربية غالبا ما تقوم بالاعمال الشاقة كالبناء وتعبيد الطرق تماما كعمال دول المغرب العربي في فرنسا ، ورغما عن انها تتلقى نفس المعاشات كاليهود العاملين في الميادين نفسها ، الا ان المسؤوليات العائلية وتعدد الاطفال تخلق تفرقة في الواقع بين حالة العامل العربي والعامل اليهودي . وتظهر آثار هذه التفرقة في ميدان التعليم حيث تنخفض النسب بين العرب واليهود مع ارتفاع مستوى التعليم . وانتقد سياسة اسرائيل في مصادرة اراضي الفلاحين العرب ، كما أشار الى بعض التصرفات العنصرية التي يواجهها العرب خاصة من قبل اليهود الشرقيين (لاسباب تاريخية اجتماعية) ، ولكنه اكد ان هناك بعض العناصر ، وخاصة في يسار المابام — تدافع بشدة وشجاعة عن المساواة بين العرب واليهود . (وهو يشير هنا في الغالب الى الاقلية في هذا الحزب التي تحفظت تجاه دخول الحزب في التآلف الحكومي) .

وانتقل الى الكلام عن حرب ١٩٦٧ وما أثارته من العواطف في فرنسا خاصة عند الذين عاشوا الاحتلال النازي وما رافقه من المواقف اللاسامية عند الفرنسيين انفسهم ، كما اشار الى بعض التصريحات العربية آنذاك (وخاصة « تصريح الشقيري » على حد تعبيره ، والذي احدث ضجة كبيرة في فرنسا) . واضاف ان السنوات الاخيرة اظهرت بشكل واضح الطبيعة التوسعية للسياسة الاسرائيلية ، « رغم تطلع الشعب الاسرائيلي الى السلام » . وهنا يكمن التطور الاساسي في نظرة اليسار نحو اسرائيل . وانتهى الى الحكم « برجعية الحزب الحاكم وغالبية حزب المابام » وضعف اليسار الاسرائيلي المقاوم لهذه السياسة .

وفي معرض الحديث عن موقفه ، وردا على استفسار حول رأيه في برنامج « فلسطين الديموقراطية » الذي تطرحه المنظمات الفدائية ، كرر المفكر الفرنسي تعاطفه مع الجانب الفلسطيني واعترافه « بسيادة الفلسطينيين » . الا انه قرن هذا الاعتراف بالاقرار « بسيادة اسرائيل » (استعمل كلمة souveraineté في الحالتين) . وتجنبا للخوض في تفاصيل تحقيق هذا الموقف « المبدأي » ، أشار سارتر الى انه موقف « مفكر » intellectuel وليس موقف « رجل سياسة » اي انه يطرح المبادىء التي يرى ضرورة توفرها في أي حل ، دون التنبؤ بالشكل الملموس الذي ستعطيه في الواقع .

وهنا أعاد الى الاذهان موقفا معروفا حول رؤيته لطبيعة اسرائيل . فباعتقاده ان اسرائيل ليست استعمارا بالمعنى المتعارف عليه ، لان الاستعمار يحتل البلد ويستغل السكان ليجني منهم الربح ومن أرضهم المواد الاولية ، وليس هذا الحال حسب تقديره ، في حالة خلق اسرائيل التي أتت نتيجة عملية هجرة واستيطان كانت دارجة في اوروبا في القرون الماضية ، ولم تكن تحمل طابعا سلبيا في أذهان المعنيين آنذاك . كما اكد عدم تقبله للشعار الذي يطرح اسرائيل على انها « رأس حربة للامبريالية » ، ذلك انه يرى ان علاقة اسرائيل ليست مباشرة بالامبريالية وانما بيهود الدول الامبريالية (وخاصة يهود اميركا) الذين تعتمد عليهم الى حد كبير في مصادرها الاقتصادية وفي الضغط على سياسة الدول الامبريالية . وهو يعتبر ان هذه العلاقة (التي لها أسس عاطفية لا يدينها) أدت بالاشكال التي اتخذتها الى تحولات رجعية داخل اسرائيل (اتساع القطاع الخاص على حساب القطاع العام ، تضاؤل عدد الكيبوتزات) والى مواقف متعاطفة مع الامبريالية على الصعيد الخارجي (وهو يشير هنا الى مواقف الحكومة الاسرائيلية بالنسبة لقضايا التحرر وخاصة قضية فيتنام ، والى المواقف التي تعبر عنها الصحف الاسرائيلية وغالبية الرأي العام الاسرائيلي في نفس الاتجاه) .

ورغم عدم اتفاقه مع رؤية اسرائيل « كرأس حربة او جسر للامبريالية » ، فهو لا يسعه

الا ان يفهم جذور الرؤية العربية أمام السياسة الاسرائيلية التي اتخذت مثلا عام ١٩٥٦ موقف تحالف سافر مع الامبرياليتين البريطانية والفرنسية ، والتي تصـــر اليوم على الاحتفاظ بجزء كبير من الاراضي العربية المحتلة في حزيران ١٩٦٧ . فاسرائيل اذا حسب رؤيته تتبع سياسة رجعية توسعية ، الا انها لا تشكل رغما عن ذلـــك ، رأس جسر للامبريالية الامريكية .

هذا ، والعلاقة مع امريكا ، على حد تعبيره ، ليست مقتصرة في المنطقة على اسرائيل فهناك دول عربية لها ارتباطات وثيقة بالامبريالية ، بينما تقمع دول عربية اخرى أية حركات شعبية فيها (ووقفت اثناء مجازر ايلول ١٩٧٠ موقف المتفرج غير المستاء من الحد من نشاط الفدائيين) .

ويخلص سارتر الى القول بأن الحل في رايه سيكون ضمن اطار اشتراكي يشمل المنطقة وفي لقاء البروليتاريا من كافة الشعوب في معركة واحدة .

وفي محاولة للعودة الى طبيعة اسرائيل ، وضعت أمامه الطرح التالي : « منذ سنوات ، صدر في فرنسا كتاب عن صحفي اسرائيلي بعنوان ذي مغزى : (اسرائيل في خطــر السلام) . ومن عامين تقريبا صرح نائب ديغولي في معرض تبريره لصفقة الاسلحة مع ليبيا ان « الذي يهدد اسرائيـــل ليست الجيوش الحديثة وانمـــا رجال العصابـــات الفلسطينية » (لوموند ١٤/١/١٩٧٠) . من كل هذا نستطيع الخروج بالرؤية التالية : ان ما يتهدد اسرائيل (كدولة صهيونية وليس كمجموعة انسانية) خطران ــ السلام (أي ، بمفهوم الكاتب الاسرائيلي ، احتداد التناقضات الداخلية) وحرب العصابات او بالاحرى حرب الشعب . وبشكل ادق فهذان وجهان لخطر واحد هو الثورة في المنطقة سواء على الصعيد العربي او في اسرائيل نفسها . والاستنتاج المنطقي هو ان الحكام الصهاينة لهم مصلحة في منع اي تحول ثوري في المنطقة باللجوء بين حين وآخر الى حرب خاطفة . » فأبدى سارتر موافقته بشكل عام على هذا الطرح ، الا انه لا يأخذ ــ برأيه ــ بعين الاعتبار احد الجوانب الاساسية في الحسابات الاسرائيلية وهو أهمية الخسائر البشرية . واضاف « لو حدثت مواجهة جديدة بين اسرائيل ومصر ، فان اسرائيـــل ستكسب مرة اخرى بلا شك ولكن بصعوبة اكبر . واذا افترضنا ان على دولة اسرائيل أن تواجه كل خمس او عشر سنوات حربا جديدة ، مهما قصرت مدتها ، فسيأتي وقت ، لن تتمكن فيه من الانتصار » . فهو يرى اذا انه « من مصلحتهم ومن وجهة نظرهم ان يتخلوا عن سياستهم الحالية التي هي سياسة حرب ، وينتهجوا مـــن اجل استمرار وجودهم ، سياسة سلمية » .

ولكنه موافق على « ان الحكام يريدون ان يبقى الاسرائيليون في حـــالة تعبئة عامة . وهكذا فهم يستطيعون الضغط عليهم بالاشارة الى العدو الخارجي لتغطيـــة البنيـــة الحقيقية للمجتمع الاسرائيلي » . « الا ان عددا من الاضرابات الهامة كاضراب عمال ميناء حيفا ، تظهر انهم ليسوا مغررين تماما . فرغما عن حالة الحرب ، استمر العمال في اضرابهم مما أحرج الهستدروت التي لم تدرك كيف تتصرف، وحقق الاضراب في النهاية أهدافه . وهذا يظهر على ان العمال ، رغم محاولات الحكام للابقاء على جو التهديد بالحرب بدأوا يدركون » . وهذا ما يعتبره سارتر أحد مصادر « الامل » بالنسبة له . « الا ان معظم هؤلاء العمال ، للاسف ، من أصل شرقي أو افريقي . وبحكم تواجدهم السابق في دول غير نامية اقتصاديا ، فان وعيهم الطبقي لم يكن متطورا . ولكن اذا بقي أبناؤهم ضمن البروليتاريا ، فسيشكل هؤلاء حينذاك بروليتاريا حقيقية » . واكد سارتر ثانية في نهاية تعليقه على الموضوع انه يعتقد « ان هناك امكانيات بناء علاقات جديدة بين هذه البروليتاريا التي تتحول الى بروليتاريا حقيقية والفلسطينيين » . ويرى اذا انه « في هذا المجال يمكننا البحث عن التحالفات » .

وكان الاستفسار الاخير حول العنصرية التي يمارسها قسم كبير من الفرنسيين تجاه العرب (والجزائريين منهم بشكل خاص) ومدى تأثيرها على الموقف المتعاطف مع اسرائيل (حتى من قبل المجموعات اللاسامية التي ترى في تجمع اليهود في مكان آخر تحقيقا لامانيها) . وجاء رد سارتر تحليلا لمشكلة العنصرية التي تشكل احدى آفات المجتمع الفرنسي الحالي واحدى القضايا التي يركز عليها اليسار الفرنسي في نضاله ضد الرأسمالية . فقال « هناك سببان لتصاعد العنصرية ضد العرب في فرنسا ، هناك أولا الحرب التي خسروها في الجزائر ، وبعض الفرنسيين ليسوا على استعداد لنسيانها . وهذا ما يفسر منطقهم : طالما اننا انهزمنا على أيدي العرب ، فاذا هزم الاسرائيليون العرب فنحن المنتصرون . وهناك ثانيا سياسة الحكم في التهجير التي تجلب الى فرنسا عددا من المهاجرين (من شمال افريقيا بشكل خاص) أكثر مما تستطيع اسكانه وتوفير الطعام له بشكل معقول . فيتكدس معظم المهاجرين في مناطق سكنية غير صحية (وهي مدن التنك bidonville) على مقربة من المناطق التي يعيش فيها عدد من الجنود القدماء والمستوطنين العائدين من الجزائر (pieds noirs) او المتعاطفين معهم ، مما يخلق جوا كريها من الصدمات المستمرة » .

ويضيف سارتر بأن « جذور هذا العداء تعود كذلك الى الفكر الاستعماري الذي يكرس تميز عنصر على آخر كمبرر للعملية الاستعمارية » ولهذا يرى « بأن الحل لن يكون الا سياسيا » اي بالقضاء على جذور العنصرية .

وأعرب عن اتفاقه مع اعتبار العنصرية ضد العرب مادة أحسن استغلالها دعاة الصهيونية . رغم ان العنصرية ضد اليهود كانت وما زالت موجودة (ويروي سارتر حادثة الفرنسي اليهودي الذي هنأه احدهم بانتصار « بلده » بعد حرب الايام الستة ، علما بأن بلده فرنسا وليست اسرائيل) . فهناك الكثيرون يعتبرون اليهود كأجانب جاؤوا الى أوروبا وهم في الواقع ينتمون الى بلد آخر . لكن العنصرية ضد العرب ، أكثر انتشارا من العنصرية ضد اليهود ، ذلك ان هؤلاء قلما يعيشون في الاحياء الشعبية ويعملون في المصانع ، مما يجعل اتصالهم أقل بالاوساط الواسعة . وهذا ما سهل مهمة أنصار اسرائيل .

وأعاد سارتر في الختام التأكيد على تعاطفه مع الفلسطينيين وأمله بحل عادل للمشكلة .

أين يقف اذا جان بول سارتر ؟

مرة اخرى ، علينا ان نتفادى الاحكام الاجمالية والاحادية الجانب . فالرؤية التبسيطية التي تقسم الاشياء الى أبيض وأسود والمواقف الى مؤيد ومعاد هي في النهاية رؤية مضللة ومناقضة للمنهج العلمي في التحليل . فسارتر ليس مناضلا في صفوف الثورة الفلسطينية ولا جنديا من جنود الحركة الصهيونية . موقفه نابع ، كما ذكرنا ، من منطلقه العام وذاتيته (التي هي ، على حد تعبيره ، ذات جذور تاريخية وموضوعية) . من هنا ، يمكننا أن نخرج بالاستنتاجات التالية :

١ — ان سارتر ليس مؤيدا للصهيونية بمفهومها الايديولوجي المتعارف عليه . في بعض تصريحاته الاخيرة ، اشار الى ضرورة التخلي عنها ، لمصلحة اليهود انفسهم ، لانها اصبحت الان تلعب دورا رجعيا وفي بعض الدول تحمل بذور عودة اللاسامية (مجلة نيو اوتلوك الاسرائيلية — آذار ١٩٦٩) . وهو في الوقت نفسه ليس معاديا لها بشكل مبدئي ، ويعتبر انها في ميادين محددة وفي ظروف معينة لعبت دورا ايجابيا بالنسبة لليهود (نفس المصدر) . بالنسبة لاسرائيل ، موقفه الآن نقدي أكثر من أي وقت مضى، الا انه يرى امكانيات تطور ذاتي من الداخل ، وهنا تكمن نقطة الخلاف الرئيسية بين رؤياه ومنطلقات المقاومة الفلسطينية بكافة فصائلها ، التي لا ترى في التناقضات الداخلية

الاسرائيلية عنصرا **اساسيا** في الصراع الدائر الآن في المنطقة بين قوى الثورة والثورة المضـــادة .

٢ ــ من هنا نخرج الى القول ان سارتر يقف من الثورة الفلسطينية موقفا لا هو عدائي ولا مؤيد بشكل مطلق . فهو من جهة متعاطف مع الشعب الفلسطيني المشرد تعاطفه مع شعوب العالم الثالث التي تواجه الاضطهاد ، ومن جهة اخرى لا يتفق كليا مع الاهداف المعلنة للثورة الفلسطينية (فحين تولى منذ اشهر ادارة صحيفـــة « قضية الشعب » الماوية التي كانت تتعرض لقمع السلطات الفرنسية ، اشار في تبريره لهذه الخطوة انه في الوقت الذي يتضامن فيه مع المتعرضين للقمع فهو لا يتفق معهم في كل مواقفهم وبالذات بالنسبة للشرق الاوسط . وهذه الصحيفة ، والتنظيم السياسي المعبرة عنه يقفان موقف التأييد المطلق للمقاومة) .

٣ ــ ولا يسعنا في النهاية الا أن نسجل تطلعنا الى تفهم أكبر لمنطلقات ثورتنا مـــن قبل الفيلسوف والمفكر (أو « الايديولوجي » على حد تعبيره) الذي وقف بشكل عام الى جانب قضايا التحرر والثورة في العالم ، على أمل ان يساعد في ذلك توضيح مواقف المقاومة بالنسبة للمشكلة اليهودية (وقد اظهرت لقاءاته السابقة مع بعض ممثلي المقاومة اهمية مثل هذا التوضيح) .

مسؤولية بريطانيا في حرمان الشعب الفلسطيني من تقرير مصيره

الدكتور عبداللطيف الطيباوي

استخلصت مادة هذا المقال ، الذي وضعته بالاصل في اللغة الانجليزية ، من الوثائق المحفوظة في « مكتب السجلات العامة » في لندن ، وهو يشتمل على الاوراق السرية لوزارة الخارجية ورئاسة الوزارة البريطانية ، والتي لم يفرج عنها الا منذ عهد قريب . وكذلك ، استخلصت من وثائق هذا المكتب مادة الفصول (٨ ــ ١٠) من كتابي : « تاريخ سوريا المعاصر بما فيها لبنان وفلسطين » (دار ماكميلان للنشر ، عام ١٩٦٩) ، كما اعتمدت على هذا المصدر ذاته في اعداد دراسة ستصدر قريبا حول « العلاقات العربية ــ البريطانية (١٩١٤ ــ ١٩٦١) مع تركيز خاص على فلسطين » . وارجو ان يكون هذا المقال والكتاب حول تاريخ سوريا المعاصر حافزا للباحثين والاساتذة العرب للاستفادة من هذا الكنز الدفين من الوثائق ، الزاخر بالمعلومات . ولا يفوت المرء ان يلاحظ ان هنالك العديد من الباحثين الامريكيين والاسرائيليين ينكبون على دراسة هذه الوثائق منقبين بين ركامها عما يتعلق بموضوع فلسطين ، بينما لا يكاد يوجد احد من الباحثين العرب يفعل ذلك .

[١]

كان عام ١٩١٧ عاما حاسما في تاريخ الحرب العالمية الاولى : ففي ذلك العام ، دخلت الولايات المتحدة الحرب الى جانب الحلفاء ، بينما انسحبت منها روسيا القيصرية نتيجة اشتعال الثورة البلشفية . وقد ساهم كلا هذين الحدثين في وضع نهاية سريعة لهذه الحرب وتفتح آمال عامة باقرار تسوية سلمية على أساس برنامج الرئيس الاميركي ويلسون « النقاط الاربع عشرة » ، كما حمل دخول اميركا الحرب وخروج روسيا منها في ثناياه سوء تفاهم عظيم بين العرب من جهة وبين كل من بريطانيا وفرنسا من جهة أخرى . فقد بادر حكام روسيا الجدد الى فضح اسرار اتفاقية سايكس ــ بيكو التي تقاسمت ، بمقتضاها ، بريطانيا وفرنسا الولايات العربية من ممتلكات الامبراطورية العثمانية وجعلتاها ضمن مناطق نفوذهما المباشر وغير المباشر ، اذ أحدث فضح أسرار هذه الاتفاقية فجيعة كبرى بين العرب الذين انتعشت مطامحهم لنيل استقلالهم الوطني اثر اعلان الرئيس الاميركي مبادءه الليبرالية ، كما ساهمت أفكار الرئيس ويلسون في تشذيب مخططات بريطانيا وفرنسا الاستعمارية ، وهما اللتان قبلتا ، على مضض ، مبداي « حق تقرير المصير » و « موافقة المحكوم » عند النظر في بت اوضاع المناطق المستخلصة من العدو .

لقد بات معروفا ، على نطاق واسع الان ، انه حالما بدأت الحرب العظمى الاولى سعت روسيا القيصرية الى اقرار كل من حليفتيها ، بريطانيا وفرنسا ، لمطالبها بضم استانبول ومضيقي الدردنيل والبوسفور الى ممتلكاتها . وعندما تمت الموافقة على ذلك سعت فرنسا لدى روسيا ، ونالت اعترافها بالمطامع الفرنسية في سوريا ، بيد ان روسيا أبدت بعض التحفظات بخصوص فلسطين بداعي أهميتها الدينية الخاصة . وكانت فرنسا قد تلقت ، حتى قبل الحرب ، تطمينات من بريطانيا بعدم اكتراثها بسوريا بكاملها طالما ظلت هذه جزءاً من الامبراطورية العثمانية . ولكن عندما دخلت الامبراطورية العثمانية الحرب ضد بريطانيا وفرنسا وروسيا ، وعندما حظيت روسيا باعتـراف حليفتيها ، رسميا ، بمطالبها الاقليمية في استانبول ومضيقي الدردنيل والبوسفور ، فاتحت فرنسا بريطانيـا في أمر تحديد وتعيـين مصالح كـل من الحلفاء في الولايـات الاسيوية للامبراطورية العثمانية . وكان جواب بريطانيا ، بهذا الصدد ، انه ، مع ملاحظة أن « التطلعات الاقليمية » لم تتبلور بعد ، قررت الحكومة البريطانية انه : « عندما ينحسر سلطان تركيا عن استانبول والمضائق ، لا بد أن تتشكـل ، لصالح الاسلام ، وحدة سياسية اسلامية مستقلة في مكان آخر ، وسيكون مقرها ، بطبيعة الحال ، الاماكن المقدسة ، وتضم الجزيرة العربية ، ولكن لا بد وأن نتفق على ما ينبغي ان تضمه الى جانب ذلك » .

كان هذا في شهر آذار (مارس) ١٩١٥ . ومن المهم ملاحظة تاريخ ودلالة هذه السياسة البريطانية التي سبقت في تاريخها مراسلات مكماهون في وقت لاحق من العام ١٩١٥ ، والمفاوضات التي توجت باتفاقية سايكس ـــ بيكو في العام ١٩١٦ ، ووعد بلفور في العام ١٩١٧ . لقد كانت تراود الحكومة البريطانية ، بادىء ذي بدء ، آخذة بعين الاعتبار المشاعر الاسلامية في الهند وغيرها من انحاء الامبراطورية البريطانية ، فكرة انشاء « وحدة سياسية اسلامية مستقلة » غير تركية تتمركز حول مكة والمدينة (وربما القدس أيضا) ، وتسيطر على مناطق تشمل ، فيما تشمله ، الجزيرة العربية على اقل تقدير . واذا استبدلت ، في بيان الحكومة البريطانية المشار اليه ، كلمة « اسلامية » بكلمـة « عربية » خرجت بصورة محددة لنوع الاستقلال السياسي الذي كان يرومه شريف مكة ، باسم العرب ، في تموز (يوليو) ١٩١٥ . والفرق الوحيد بين الحالتين هو ان شريف مكة كان اكثر دقة وتحديدا فيما يتعلق بالحدود الاقليمية ؛ ولكن لم تكن الحكومة البريطانية قد فرغت بعد من البت في هذه القضية .

[٢]

فلماذا ، اذن ، بدت مقترحات الشريف حسين بعد قرابة اربعة شهور أقل توافقا مع مخطط السياسة البريطانية المذكور آنفا ؟ لقد كانت مقترحات الشريف حسين قومية ، وليست دينية ، في مادتها ومبناها ، وتنطوي في ثناياها على احتمال اقـل في أن تخلق مصاعب بالنسبة لمستقبل الخلافة ومطالب السلطان العثماني بها ، اذ ، كما تبين فيما بعد ، عند اعلان « الثورة العربية » في حزيران (يونيو) ١٩١٦ تعاطف مسلمو الهند مع السلطان بصفته الخليفة الشرعي ، واعتبروا الثورة خروجا على الوحدة الاسلامية . بيد ان هذا لم يكن السبب الرئيسي للتحول الذي طرأ علـى السياسة البريطانيـة ، وازدواجية نظرة بريطانيا الى غايات « الثورة العربية » . لقد انصب اهتمام بريطانيا الاساسي في نظرتها « للثورة العربية » كعنصر من عناصر المجهود الحربي ضد تركيا . ان ما أفسد فرص تحقيق تفاهم عربي ـــ بريطاني دائم ، وأحبط بالتالي تحقيق أماني العرب في الاستقلال ، وعرّض ديارهم لسيطرة بريطانية او فرنسية ، حلت محـل السيطرة التركية ، كان مجموعة مترابطة من العناصر التي ، عندما نتمعن فيها بعد انقضاء هذا الزمن الطويل ، ندرك أنه ما من قوة على الارض ، في ذلك الوقت ، كانت

قادرة على الوقوف أمامها . وهذه المجموعة المترابطة من العناصر هي مطامع فرنسا ، والمصالح الامبراطورية البريطانية ، والمطامع الصهيونية ، وخليط من الرومنطيقية والرياء لدى السياسيين البريطانيين النافذين .

وتظهر القراءة الدقيقة لمراسلات مكماهون ان مطالب فرنسا في سوريا كانت وراء التحفظ البريطاني الرئيسي حول الحدود الاقليمية التي وردت في مقترحات الشريف حسين ، اذ سرعان ما تبين ان فرنسا قد طالبت بأن تشمل منطقة نفوذها سوريا الجغرافية بكاملها بما فيها لبنان وفلسطين . ولكن بريطانيا التي كانت تتحمل ، عندئذ ، العبء الرئيسي في محاربة تركيا في العراق وجنوب سوريا ، كما كانت لديهـا بعض المخططات للاحتفاظ بوضع خاص في العراق ، سرعان ما تحولت عن موقف اللامبالاة وعدم الاكتراث الى الرغبة العارمة في تأمين منفذ الى خليج عكا على البحر المتوسط وممر أرضي اليه .

وكان لكل من روسيا وفرنسا مصالح دينية وثقافية في فلسطين . وهذه الوقائع والمطالب الشاذة هي علة البنود الشاذة لاتفاقية سايكس ــ بيكو التي قضت ، بعد اشباع مطالب روسيا الاقليمية في جهة أخرى من تركيا ، بتقسيم الولايات العربية في العراق وسوريا الكبرى بين بريطانيا وفرنسا وأبقت فلسطين جانبا لنظام دولي يقام فيها بعد اجـراء مشاورات بشأنه بين الحلفاء وشريف مكة . ويدل هذا البند الاخـير على أن المصالح الدينية المسيحية والاسلامية وحدهما اعتبرتا جديرتين بالبحث .

وقد اصطدمت تطلعات الصهيونيين بعنصرين ، على الاقل ، من عناصر تركيبة المصالح هذه ، وهما المصالح العربية والفرنسية ، الى جانب المصالح الروسية قبل الثورة . وقد كان الصهيونيون على درجة كبيرة من الدهاء عندما سعوا الى التحالف مع أقل هذه العناصر المتصارعة تشددا وهم البريطانيون ، فاتجهوا ، بناء على ذلك ، الى التحالف مع المصالح الامبراطورية البريطانية التي كانت فلسطين تسيل لعابها كقاعدة ضرورية لحماية قناة السويس والدفاع عنها . وقد كان الصهيونيون يدركون أنهم يواجهون ، في مسعاهم للحصول على اعتراف بريطاني بانشاء وطن يهودي او دولة يهودية في فلسطين، معارضة شديدة ومنافسين أقوياء ، ولكنهم جازفوا بتجاهل هذه جميعها . وكانت أعظم مقامرة أقدموا عليها هي تجاهلهم الصارخ لواقع الاشياء ، بغض النظر عما تقرره الدول العظمى مجتمعة أو منفردة ، وهو أن الغالبية الساحقة من سكان فلسطين هم مـن العرب المسيحيين والمسلمين الذين تغور جذورهم الدينية والثقافية والقومية عميقا في تربة البلاد ، وعلى مدى قرون عديدة ليس منذ الفتح العربي فحسب ، بل قبله بزمن بعيد .

ولسنا هنا في معرض سرد الملابسات التي جعلت الصهيونيين يفلحون ، رغم كل هذه الظروف والأوضاع المناقضة لجوهر تطلعاتهم ، في اقناع كبار الساسة البريطانيين بمزايا التحالف البريطاني ــ الصهيوني . ونكتفي في هذه العجالة بالقـول انه اثر نجـاح الصهيونيين في كسب رئيس الوزراء لويد جورج ووزير الخارجية بلفور الى جانبهم أطلقت يدا السير مارك سايكس ، الرومنطيقي الساخر وأحد واضعي اتفاقية سايكس ــ بيكو ، في اجراء الترتيبات لوضع فكرة الصهيونيين وخطتهم موضع التطبيق . وقد أشار عليه لويد جورج نفسه ان يعمل نحو « فلسطين بريطانية » ، وأن يقوم بالتوفيق بين مآرب الصهيونيين وتطلعات كل من فرنسا والفاتيكان .

[٣]

عندما أصدرت الحكومة البريطانية ، في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ ، وعد بلفور الشهير والذي يعرب عن عطفها على فكرة تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين كان نصف البلاد ما زال في ظل السيادة العثمانية **واقعيا وقانونيا** . وكذلك ، ان وعـد

مكماهون للعرب في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٥ ، وان لم يتضمن جهارا فلسطين بكاملها ، فانه لم يستبعدها استثناء ، وفي الاتفاق الذي تم في عام ١٩١٦ بين روسيا وبريطانيا وفرنسا أبقيت فلسطين جانبا لاقامة نظام دولي فيها بعد التشاور مع شريف مكة . وفي ضوء هذه الظروف والاحوال ، كان اعلان بريطانيا عن تحبيذها لانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين خطأ سياسيا وأخلاقيا فاضحا ، اذ أنها أغفلت اغفالا تاما أن تأخذ في الحسبان أمر سكان فلسطين العرب أو استشارة أي من زعمائهم ، ناهيك عن حليفها المخلص شريف مكة .

كان اللورد كرزون وحده بين المسؤولين البريطانيين آنئذ، وهو نائب الملك في الهند سابقا والوزير البارز في وزارة الحرب ، الذي توقف بعض الوقت عند المضامين والمغازي التي ينطوي عليها وعد بلفور ، مبينا اثناء جلسة مناقشته في الوزارة البريطانية أن في اعطاء هذا الوعد افتئاتا على حقوق ومصالح اسلامية وعربية أساسية . فقد قال حسبما ورد في سجل وقائع الاجتماع الذي جرى في ١٩١٧/١٠/٤ : « كيف يعقل ان يقترح التخلص من اغلبية السكان الحاليين المسلمين واحلال يهود محلهم ؟ وهو يرى أن تأمين حقوق مدنية ودينية متساوية لليهود المقيمين في فلسطين سياسة افضل من العمل على اعادة اليهود الى فلسطين على نطاق واسع ، وهو أمر يعتبره من مظاهر المثالية العاطفية التي ينبغي الا يكون لحكومة صاحب الجلالة شأن بها من قريب أو بعيد » .

وقد بلور كرزون وجهة نظره في مذكرة قدمها الى الوزارة ومؤرخة في ١٩١٧/١٠/٢٦ ، أوضح فيها بجلاء المكانة التي تحتلها مدينة القدس في دنيا الاسلام والمسيحية ، ويشير الى المشكلة الانسانية التي ينطوي عليها وعد بلفور اذ يقول : « يوجد هنالك ما يزيد على نصف مليون من العرب السوريين ... وقد استوطنوا هم وأجدادهم البلاد منذ قرابة ١٥٠٠ عام ، وهم أصحاب الارض التي يتقاسم ملكيتها الملاكون الفرديون والمجتمعات القروية ، ولن يرضى هؤلاء بمصادرة أراضيهم وانتزاعها منهم لتسليمها للمهاجرين اليهود ، او ان يكونوا مجرد حطابين وسقائين لهم » .

وفي اجتماع الوزارة البريطانية بتاريخ ٣١ تشرين الاول أوضح بلفور نفسه ما يفهمه من التعبير « وطن قومي يهودي » : يعني شكلا من اشكال الحماية البريطانية او الاميركية او غيرهما « تتوفر لليهود في ظلها مرافق وتسهيلات كافية تتيح لهم بناء مقومات خلاصهم الذاتي فيرسون بالمؤسسات التربوية والزراعية والصناعية قواعد مركز حقيقي للثقافة القومية وموئلا للحياة القومية . وهو لا ينطوي بالضرورة على تأسيس دولة يهودية مستقلة في أمد قريب ، اذ يتوقف هذا الامر على التطور التدريجي وفقا لسنة التطور السياسي المعهودة » .

لا ريب ان بلفور كان يتمتع بالقدرة على عرض الامور بوضوح ، ولكنه كان ايضا مبرزا في طمس الحقائق وتشويهها بشكل فاضح . ففي اجتماع مجلس الوزراء في ١٠/٤/ ١٩١٧ ادعى ، ضمن ما ادعاه ، ان الرئيس الامريكي آنذاك ، ودرو ويلسون ، كان يحبذ اصدار وعد بريطاني يعلن العطف على التطلعات الصهيونية . وفي الاجتماع ذاته تصدى اليهودي ادوين مونتاغو وزير الدولة لشؤون الهند لبلفور واظهر ما في ادعائه ذاك من مخاتلة وتناقض ، اذ بين ، مستشهدا بالكولونيل هاوس ، أن الرئيس الامريكي ويلسون كان ، عندئذ ، يعارض اصدار مثل هذا الوعد .

وقد تكون أفظع مغالطات بلفور وتشويهاته للحقائق تأكيده بأن غالبية اليهود في روسيا يؤيدون التطلعات الصهيونية متجاهلا ، بذلك ، تجاهلا تاما نصيحة السفير البريطاني في روسيا الذي طلب منه أن يبدي رأيه فيما اذا كان الوعد المقترح سيساعد قضية الحلفاء ، فكان جوابه انه « يشك شكا بالغا » في ذلك ، لانه « لا يوجد بين اليهود في

روسيا حماس كبير للصهيونية خصوصا منذ الاطاحة بالنظام القديم (القيصري) » .
لقد آثر بلفور اهمال نصيحة موفده ومندوبه أنخاص في مسرح الاحداث وقبول تأكيدات الصهيونيين الذين يعيشون في لندن على بعد آلاف الاميال من يهود روسيا . وقد وصف ادوين مونتاغو هؤلاء الصهيونيين بأنهم من اليهود المولودين في الخارج ، وهم الوحيدون الذين يدعون الى انشاء وطن قومي يهودي .

وبالطريقة ذاتها بالغ بلفور كثيرا في اظهار العطف الفرنسي على التطلعات الصهيونية كما أثار مخاوف زملائه الوزراء من احتمال قيام المانيا بأخذ زمام المبادرة من الحلفاء باصدارها وعدا بالتعاطف مع التطلعات الصهيونية ، وصور لهم أن اصدار وعد بريطاني سيكون له وقع حسن لدى اليهود في الولايات المتحدة. ولم يقل أبدا اية كلمة عن العرب، وتجاهل ملاحظات اللورد كرزون ، ولم يحاول مطلقا أن يجيب على أسئلته . وقلما كان وزير خارجية بريطاني متعاميا الى هذا الحد عن الجانب الاخر من قضية هامة .

[٤]

لقد أوصد بلفور ومساعدوه في وزارة الخارجية منافذ عقولهم الى واقع الاشياء وعميت بصيرتهم بحيث أنهم أثناء مداولاتهم بشأن تقرير مصير فلسطين ظلوا على اتصال وثيق بالصهيونيين ، ولكنهم رفضوا ، بعناد واصرار ، أن يأخذوا بالاعتبار الاحتجاجات التي قدمها المسلمون المقيمون في لندن (لقد حالت ظروف الحـــرب دون الاستماع الى رأي العرب الذين يعنيهم الامر لان معظمهم كانوا يقيمون في مناطق العدو) . ففي حزيران ١٩١٧ ألقى مرمادوك بيكثول ، الذي اشتهر فيما بعد بترجمته للقرآن ، محاضرة في قاعة كاكستون نشرتها ، فيما بعد ، الجمعية الاسلامية المركزية في لندن في كراس بعنوان « المصالح الاسلامية في فلسطين » ، والغرض من هذه المحاضرة كما قال صاحبها هو ازالة الجهل الخطير المتفشي ، عندئذ ، في بريطانيا ليس بين عامة الناس فحسب بل حتى بين الوزراء ، بشأن ما ينطوي عليه تطبيق الخطة المقترحة « بانشاء دولة يهودية في فلسطين في ظل سيادة احدى الدول المسيحية » من مضامين ومخاطر . واشتملت تلك المحاضرة على عرض واف لمكانة فلسطين والقدس في الاسلام وفي التاريخ العربي . وقد قدم نص هذه المحاضرة المطبوعة في كراس الى وزارة الخارجية البريطانية كاحتجاج اسلامي ، واطلـــع عليها كبار المسؤولـــين في وزارة الخارجية ثـــم بلفور نفســـه . أما ملاحظات السير مارك سايكس عندما اطلع على المحاضرة فتكشف الكثير من النوايا المبيتة ، فعندما لم يجد في نص المحاضرة ما يعيب هاجم صاحبها من الزاوية السياسية دامغا اياه بأنه موال لتركيا ، وهي تهمة سيئة في ذلك الوقت وان تكن قد فقدت معناها الان . وكانت هذه التهمة كافية لاهمال النصيحة الهادئـــة التي محضها للحكومـــة البريطانية ، وهي ان فلسطين مقدسة لدى أتباع الديانات الثلاث : اليهودية والمسيحية والاسلام ، وأن من الخطأ الاهتمام بمصالح الديانتين الاوليين فقط وتجاهل الثالثة .
وعادت الجالية الاسلامية في لندن الى الهجوم من جديد ، فبعد خمسة أيام من اصدار « وعد بلفور » قدمت احتجاجا الى وزير الداخلية البريطاني وطالبت بضمانات بشأن المسجد الاقصى وغيره من الاماكن الاسلامية المقدسة . ولكن ، في هذه المرة ، لم يعتبر السير مارك سايكس الموقعين على الاحتجاج مجرد موالين لتركيا فحسب ، بل «عملاء» لتركيا وحض بقوة على تجاهل احتجاجهم ، وكذلك لم تكن أسعد مصيرا من هذه رسالة الاحتجاج التي وجهها « السيد أمير علي » من مجلس شورى الملك في بريطانيا بتاريخ ١٠/١١/١٩١٧ الى اللورد هاردينج الوكيل الدائم لوزارة الخارجيـــة ومندوب الملك السابق في الهند . وقد رغب السيد أمير علي أن يسترعي انتباه بلفور الى واقع أن « فلسطين هي في نظر المسلمين أرض مقدسة دون أدنى شك ، وان مدينة القدس لا

ينوقها قدسية وطهارة عندهم سوى مكة والمدينة » وبين أن من « الغبن والاجحاف » بالاسلام وضع أحد « أقدس أقداسه » تحت السيطرة اليهودية .

ولكن لب الامر ولبابه انه لا بلفور ولا أي من مساعديه كان يجهـل الحقائق وواقع الاشياء ، ان لم يكن عن اي طريق آخر ، فبفضل الوقائع الناصعة التي وضعها تحت انظارهم اللورد كرزون ، سواء كان ذلك على الصعيد الديني او الصعيد القومي . ولكن بلفور آثر أن يضرب بالوقائع كلها عرض الحائط . وبمساندة رئيس الوزراء لويد جورج ومباركته سار بهذه السياسة الى النهاية الى أن أثيرت رسميا في مجلس الوزراء . ولم يؤخذ العرب بأي حسبان سوى اتخاذ الاحتياطات لاخراس مـا قد يصدر عنهم مـن احتجاجات . ويتضح هذا من برقية أرسلت مع نص وعد بلفور في يوم صدوره الى الجنرال وينغيت المندوب السامي البريطاني في القاهرة حيث جاء فيها : « ينبغي عليك ان تراقب تعليقات الصحف مراقبة شديدة حتى لا تستثار الحساسيات العربية » . فلا عجب اذن ان اكتفت أوسع الصحف العربية انتشارا ، آنذاك ، وهي جريدة « المقطم » التي كانت تصدر في القاهرة والمعروفة بموالاتها لبريطانيا بمجرد نشر نص وعد بلفور على هيئة برقية صحفية وردت من مكتب وكالة رويتر في لندن بتاريخ ٩ تشرين الثاني .

[٥]

كان اصدار وعد بلفور ايذانا بانتهاء المرحلة الاولى من اقرار الظلم والاجحاف سياسة رسمية لبريطانيا . ولكي تضع بريطانيا هذه السياسة موضع التطبيق كان عليها انتظار انجاز عدد من المهمات منها : استكمال احتلال فلسطين ، والحاق الهزيمة بتركيا بصورة تامة ، ومراجعة بنود اتفاقية سايكس ــ بيكو واعادة النظر في بعضها ، واضفاء صفة الشرعية من ناحية القانون الدولي على موقف بريطانيا ، والتفاوض مع فرنسا للتنازل عن مطالبها في فلسطين ، وضمان تعيين بريطانيا دولة منتدبة على فلسطين .

وقد تم انجاز هذه المهمات جميعا قبل حلول شهر تموز ١٩٢٠ عندما جرى تعيين السير هربرت صموئيل السياسي البريطاني الصهيوني مندوبا ساميا في القدس ، وقد أوكلت اليه ، بموجب انتداب من عصبة الامم ، مهمة تنفيذ سياسة انشاء وطن قومي يهودي في فلسطين . ولا حاجة بنا الى القول انه قد جرى الاقدام على اتخـاذ هذه الخطوات الخطيرة دون موافقة ، او حتى ، في بعض الحالات ، دون علم سكان فلسطين العرب . وقد أخذت بريطانيا علما بعدم رضى شريف مكة الذي كانت بريطانيا قد اعترفت به ملكا على الحجاز .

وقد ظن ، في أول الامر ، ان البيان الانكليزي ــ الفرنسي الصادر في ١٩١٨/١١/٨ هو بيان للسياسة البريطانية موجه له ، بيد ان انتهاء الحرب مع تركيا بسرعة ، وانتشار التململ وعدم الرضى على نطاق واسع بين السكان العرب في المناطـق التي احتلهـا البريطانيون والقوات الحليفة لهم حولت هذا البيان الى نداء عام مشترك من الحكومتين الانكليزية والفرنسية . لقد استهدف هذا النداء العـام المشترك تخفيف وقع اتفاقية سايكس ــ بيكو على العرب ، وتهدئة خواطر « القوى الديموقراطية » في معسكـر الحلفاء ، وبصورة خاصة ، الانسجام تدر الامكان مع نقاط الرئيس الامريكي ويلسون الاربع عشرة . وقد سبق اعلان هذا البيـان العام المشترك كثـير من الاخذ والرد الدبلوماسي . فقد اقترحت فرنسا ان لا يقتصر تطبيق هذا النداء على سوريا والعراق فقط ، بل أن يكون تطبيقه عاما وشاملا . ولكن اللورد روبرت سيسيل ساعد بلفور الايمن في المسالة الصهيونية رفض الاقتراح الفرنسي لانه « سيكون من العسير التوفيق بينه وبين سياستنا المعلنة (كذا !) في فلسطين » . لقد أيقن الفرنسيون الان بما ارتابوا بشأنه طوال الوقت ، وهو أن بريطانيا كانت تريد الاستئثار بفلسطين متخذة مـن

التطلعات والاماني الصهيونية ذريعة وغطاء لمطامعها . وكان اول تلميح رسمي بنوايا بريطانيا السعي الى بسط سلطانها السياسي على فلسطين وحرمان غالبيـة سكانها العرب من حق تقرير المصير ومن الحكم الذاتي لتسهيل مهمة تأسيس وطن قومي يهودي فيها . ورغم ان النداء الانكليزي ـ الفرنسي المشترك قد عمم رسميا في فلسطين ، فانه لم يكن بوسع الحكام العسكريين البريطانيين في فلسطين جلاء أمر هو غامض في ذاته . فكتب كبير الضباط السياسيين في فلسطين الى وزارة الخارجية طالبا توضيح مضمونه وجلاء مراميه . وكان جواب وزارة الخارجية حلقة أخرى في سلسلة سياسة الازدواجية والخداع ، اذ أبلغته وزارة الخارجية أن فلسطين مستثناة من مضمون هذا النداء العام، وان هذا هو « لمعلوماته الخاصة » .

لقد بان الغرض من سياسة المواربة والمراوغة وانكشف أمرها . ففي الاسبوع الاول من شهر كانون الاول (ديسمبر) ، أي بعد أقل من شهر من اصدار البيان العام ، عقد رئيس الوزراء البريطاني صفقة سرية مع رئيس الوزراء الفرنسي كليمنصو غيرت بمقتضاها بنود اتفاقية سايكس ـ بيكو فأطلقت يد بريطانيا في فلسطين مقابل اطلاق يد فرنسا في بقية سوريا . وقد تغافل المسؤولون البريطانيون تغافلا تاما عن مسألة التشاور مع شريف مكة بهذا الصدد ، كما ورد في النص الاصلي للاتفاقية .

وفي تلك الاثناء كانت فلسطين تفور بالقلق والاضطراب ، رغم مـا فرضته السلطات العسكرية من حظر للنشاطات السياسية . وجدير بالذكر ان الملفات البريطانية تشتمل على توثيق وتسجيل للاحتجاجات العربية أفضل من أي مصدر آخر عرفته ، ولهذه السجلات قيمة كبيرة جدا بحيث انها تستحق دراسة خاصة . لقد كان بوسع السلطات العسكرية البريطانية ان تقيد وتضيق حجم عمليات الاحتجاج ، ولكنه لم يكن بوسعها ان تحجب الوقائع عن مرجعها في لندن . وقد أثارت موجة الاحتجاج الكبيرة هذه مخاوف انصار القضية الصهيونية في وزارة الخارجية البريطانية بحيث ان السير مارك سايكس سعى عن طريق التهديد المبطن للامير فيصل ، الذي كان عندئذ في زيارة رسمية للندن ، لكي يستخدم « نفوذه » لاخماد حملة الاحتجاج والمعارضة ضد الخطط الصهيونية .

[٦]

وكانت آخر خطوات بريطانيا للقبض على خناق فلسطين فوزها بالانتداب عليها وتضمينها بنود الانتداب ليس وعد بلفور فحسب بل بنودا مفصلة حول تطبيقه وتنفيذه ايضا . وقبل ان يقر مؤتمر السلام في باريس هذه الاجراءات ارسل لجنة مستقلة للتحقيق الى سوريا، ووجدت هذه اللجنة أن عرب فلسطين يرفضون البرنامج الصهيوني وأي انتداب بريطاني يلتزم بتنفيذه . وقد خشي بلفور من نتيجة هذا التحقيق ، فاعترض على شمول فلسطين في التحقيق وبين في مذكرة قدمها الى رئيس وزرائه لويد جورج انه بالنسبة الى فلسطين « نرفض محقين وعن سابق اصرار قبول تطبيق مبدأ حق تقرير المصير » .

وأثناء صياغة بنود الانتداب كان المسؤولون في وزارة الخارجية البريطانية يعملون بتعاون وثيق مع الصهيونيين ، ولكنهم لم يستشيروا حتى مرة واحدة أية سلطة عربية، فلسطينية كانت أو غيرها . وهذا مناقض لروح ونص المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الامم التي تضمنت ان تطوير مناطق الانتداب وتأمين الخير لها هو « أمانة مقدسة في عنق الحضارة » ، وأنه عند اختيار الدولة المنتدبة التي مهمتها تقديم المشورة الادارية يجب ان « توضع في المقام الاول » رغبات سكان منطقة الانتداب . ونتيجة لهذه المؤامرة الانكليزية ـ الصهيونية جاءت بنود الانتداب على فلسطين مختلفة عما هي عليه لسوريا ولبنان والعراق ، فهذه البلدان اعتبرت بمثابة بلدان مستقلة بحاجة الى مساعدة دولة منتدبة لعدد من السنين. اما فلسطين ، فقد أوكل أمر «ادارتها» الى بريطانيا دون اي تلميح او اشارة الى منحها

الاستقلال في المستقبل ، وذلك ، دون أدنى ريب ، نتيجةً حرمانها من حق تقرير المصير وفرض سياسة انشاء وطن قومي يهودي فيها . هذا ، وقد ذهبت احتجاجات العرب الى مؤتمر السلام في باريس والى عصبة الأمم ادراج الرياح .

وكان الناطق العربي الوحيد الذي له شأن وسلطة فيصل بن الحسين الذي قدم احتجاجاته بالحاح . وقد نفض اولا يديه ، في رسالة رسمية الى الحكومة البريطانية ، من مزاعم الصهيونيين بأنه « أقر » لهم بسياسة انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين . وقال في رسالته : « ان كل ما اعترفت به هو ان أؤمن حقوق اليهود في تلك البلاد بالقدر الذي أؤمن به حقوق السكان العرب المحليين » . وجلب الانتباه الى معارضة سكان عرب فلسطين القوية ، واكد وجهة النظر العربية بأن فلسطين هي ضمن المناطق التي وعدت بريطانيا بمنحها الاستقلال وعبر عن ثقته بأن ذلك الوعد البريطاني لا يلغيه وعد لاحق للصهيونيين . واضاف أن والده (الشريف حسين) مخول ، حتى بمقتضى اتفاقية سايكس — بيكو ، أن يؤخذ رأيه بصدد مستقبل فلسطين . ولكنه ، ومما يثير الدهشة ، لم يشر الى الرسالة البريطانية الى والده التي تلقاها بواسطة « هوغارت » والتي جعلت الوعد لليهود خاضعا لحرية عرب فلسطين السياسية والاقتصادية . وختم فيصل رسالته قائلا : اذا ما أمكن الابقاء على وحدة سوريا وفلسطين « فبوسعنا ان نتوصل الى حل يؤمن مصالح جميع من يهمهم الامر » .

لقد كان الامر بكامله اشبه بحوار الطرشان . فقد كانت بريطانيا مصممة على فصل فلسطين عن سوريا ، واتفقت مع فرنسا على ذلك . وكذلك فان زبائنها الصهيونيين كانوا غير راغبين في ان يكونوا تحت حكم أمير عربي ، حتى وان كانت سلطته اسمية ، في حين كان متاحا لهم حاكم من جنسهم وان تنكر بزي مندوب سام بريطاني . ومن جهة أخرى ، لم تكن فرنسا مرتاحة حتى لذلك القدر الضئيل من الاستقلال الذي كان فيصل يتمتع به في دمشق . لقد كان كل من مؤتمر السلام في باريس وعصبة الامم المتحدة تحت سيطرة بريطانيا وفرنسا فيما يتعلق بشؤون الشرق الادنى العربي ، ولذلك كان فيصل والعرب يواجهون خصوما جبارين ، وكان حالهم في هذا أشبه بحال المتظلم ، في الحكاية، الذي تبين له ان المتهم هو نفسه القاضي الذي قدمت الشكوى له !

[٧]

لقد التزمت الحكومة البريطانية جانب العناد ، بصورة غير معهودة ، وضربت عرض الحائط بتحذيرات رجالها وممثليها في مسرح الاحداث . ففي ١٨ كانون الثاني (يناير) ١٩١٩ أرسل الجنرال غيلبرت كلايتون كبير الضباط السياسيين لدى قائد القوات البريطانية العام في سوريا وفلسطين برقية الى وزارة الخارجية بأن وضع نصوص اتفاقية سايكس — بيكو والسياسة الصهيونية موضع التطبيق « سيتطلب ، دون شك ، الاحتفاظ بجيش احتلال فعال لمدة سنوات كثيرة قادمة » . لقد أثبتت هذه النبوءة صدقها طوال مدة الانتداب على فلسطين ، كما أثبتت صدقها حتى بعد انتهاء الانتداب الذي استبدل الاحتلال البريطاني باحتلال اسرائيلي .

لقد مضت السلطات البريطانية قدما في تنفيذ السياسة التي استحدثتها في العام ١٩١٧ دون هوادة وفي وجه معارضة عربية شديدة باللجوء الى القوة القاهرة العمياء . وقد رفضت الحكومات البريطانية المتعاقبة حتى مجرد احتمال معاودة النظر في سياستها . ومن المفيد أن ندرج هنا اثنين من ردود الفعل البريطانية المبكرة تجاه الاحتجاجات العربية . فأما رد الفعل الاول ، فقد جاء على هيئة بيان رسمي أصدره هربرت صموئيل بعد وقت قصير من تسلمه منصب المندوب السامي في القدس في محاولة لتثبيط عزائم العرب والقضاء على أي بصيص أمل لديهم باحتمال اعادة النظر في السياسة البريطانية

اذ جاء فيه : « لم يطرأ ، **ولن يطرأ** ، أي تغيير على سياسة حكومة صاحب الجلالة » .
اما رد الفعل الثاني فقد سجله احد كبار المسؤولين في وزارة الخارجية البريطانية على هيئة شرح وتذييل لاستلام طلب « انشاء حكومة تمثيلية تكون مسؤولة أمام جمعية تشريعية منتخبة» من المؤتمر العربي الفلسطيني الاول، اذ جاء في ذلك التذييل : « لا اظن اننا بحاجة الى ان نعير هذا الطلب أي اهتمام،حتى ولا مجرد ارسال اشعار بالاستلام» .
مرة واحدة فقط في خلال ٣٠ عاما اعترفت حكومة بريطانية بامكانية اعادة النظر في سياستها . ففي عام ١٩٣٩ ، وبعد ثورة عربية مسلحة دامت ثلاث سنوات ، اقترحت الحكومة البريطانية أقامة حكومة تمثيلية بعد انقضاء فترة انتقالية مدتها عشر سنوات . وبغض النظر عن الاعتبارات الاخرى ، كان طول الفترة الانتقالية المغالى فيه غلطة كبيرة ، وقد ساهم كل من معارضة الصهيونيين لهذا الاقتراح ، وتردد العرب في قبوله ، ثم اشتعال الحرب العالمية الثانية ، الى تخلي بريطانيا عن هذه السياسة . وقبل ان تنفض الحكومة البريطانية يديها من المسؤولية وتحيل القضية الفلسطينية الى منظمة الامم المتحدة في العام ١٩٤٧ ، كان قد اتضح بجلاء انه لم يكن هنالك انصاف للاغلبية العربية . فطوال ثلاثين سنة عمدت القوات البريطانية الى اكراه الاغلبية على قبول تأسيس واستمرار نمو الوطن القومي اليهودي الى أن أصبح اليهود ، الذين كان عددهم لا يتجاوز ٨ ٪ من السكان في العام ١٩١٧ ، يشكلون ثلث مجموع السكان ، ورفضت السلطات البريطانية ، رفضا باتا ، طوال الوقت ، الاستجابة الى طلب انشاء حكومة تمثيلية .

فاذا كان بالامكان اكراه الاغلبية ، **دون حق أو انصاف** ، واجبارها قسرا لصالح الاقلية، فلماذا لم يتيسر اكراه هذه الاقلية ، **بحق وانصاف** ، لقبول حكم الاغلبية ؟ ان التمعن في ما ينطوي عليه هذا السؤال من دلالات هو تعقيب حزين ومؤسف على العدالة البريطانية . ان نكران حق تقرير المصير على عرب فلسطين مدى ثلاثين عاما هو دون ادنى شك علة خسارتهم أرض آبائهم وأجدادهم وسقوطهم في حمأة وضعهم الراهن المفجع .

الفكر الصهيوني في شعر بياليك

الدكتور عبد الوهاب المسيري
ورشاد الشامي

يعد الشاعر اليهودي الروسي حييم نحمان بياليك* (١٨٧٣ ــ ١٩٣٤) من أكبر شعراء ادب عصر الاحياء القومي اليهودي قاطبة . وقد ولد بياليك لابوين فقيرين عام ١٨٧٣ في قرية روسية بالقرب من زيتومير . وحينما توفي ابوه وهو لا يزال في السابعة ارسل بياليك ليعيش مع جده المتدين المتزمت . وفي هذه الفترة من حياته تلقى بياليك تعليمه الديني ، وقرأ كثيرا من الكتب الدينية (التي يشير اليها في قصائده) ولكنه قرأ في الوقت ذاته عديدا من كتب دعاة « الهسكلاه » مما سبب له صراعا فكريا لم يتمكن من حسمه طيلة حياته . وحينما بلغ بياليك السابعة عشرة من عمره التحق بأكاديمية فولوزحين الدينية حيث بقي لمدة ثمانية عشر شهرا وهناك بدأ في الكتابة الادبية والتحق بجماعة « أحباء صهيون » . وحينما تخرج بياليك عام ١٨٩١ ذهب الى اودسا التي كانت آنذاك مركزا للبحث الثقافي الروسي اليهودي . وقد شجعه المفكر الصهيوني احادهعام على الكتابة وساعده على نشر قصائده الاولى . وبعد ان اشتغل بعض الوقت في الاعمال التجارية التي باء معظمها بالفشل ، اضطر بياليك للاشتغال بتدريس اللغة العبرية للصغار . وقد هاجر بياليك من روسيا السوفييتية عام ١٩٢١ ومكث لمدة ثلاث سنوات في برلين ، هاجر بعدها الى تل ابيب حيث دفن بعد موته عام ١٩٣٤ .

وقد ساهم بياليك في احياء اللغة العبرية عن طريق تحرير المجلات وتصنيف المعاجم العبرية وترجمة روائع الادب العالمي وكتابة الشعر .

ويمكننا أن نقسم قصائد بياليك الصهيونية الى اربعة اقسام تناولت الابعاد الاربعة التي دارت في اطارها ارهاصات حركة الفكر الصهيوني في مستهل القرن العشرين وهي : ١) فكرة العودة الى الارض والطبيعة ، ٢) فكرة المسيح المخلص ، ٣) فكرة نبذ الهسكلاه أو بالتحديد نبذ الاندماج في الشعوب ، ٤) موقفه من التراث اليهودي .

١) **فكرة العودة الى الارض والطبيعة** : لقد كانت العودة الى الارض ــ ارض فلسطين ــ هي الركيزة الرئيسية لفكرة « محبة صهيون » والتي عبر عنها بياليك في عدد من القصائد . وقد كانت اولى قصائده التي تحمل هذه الروح هي قصيدة « الى العصفور » التي كتبها عام ١٨٩١ . في هذه القصيدة يستخدم بياليك العصفور كرمز يخاطب من خلاله رموز الارض المقدسة ، ويطلب منه ان يخبره عن امجاد الارض القديمة ويبثه اشواقه الى هذه الارض :

---

* المصدر الذي استقينا منه هذه المعلومات عن حياة بياليك هو كتاب ارثر هرتزبرج **الفكرة الصهيونية** (نيويورك ، ١٩٥٩) ص ٢٧٨ ، اما النصوص الشعرية التي سنعرض لها بالتحليل في هذا المقال فقد قام الاستاذ رشاد الشامي بترجمتها عن العبرية .

تحية دائئة لعودتك أيها العصفور الجميل
من البلاد الحارة الى نافذتي ،
كم اشتاقت نفسي الى صوتك العذب
أتحمل لي السلام من اخوتي في صهيون ،
من اخوتي البعيدين القريبين ؟
يا أيها السعداء أتعلمون انني أعاني ،
نعم أعاني من الآلام .

وارتباط الشاعر بالارض ارتباط رومانسي حالم لا جذور له الا في وجدانه وذاته ولعل هذا هو السر في استخدامه لرموز مستقاة من الطبيعة ليس لها أية ابعاد اجتماعية أو تاريخية . ثم يسأل الشاعر العصفور عن حال كل ما تشتمل عليه الارض المقدسة من رموز ذات دلالات دينية لليهود :

أتحمل لي السلام من فاكهة البلاد
ومن السهل ، ومن الوادي ، ومن قمم الجبال ؟
كيف حال نهر الاردن ومياهه الصافية ؟
كيف حال كل الجبال وكل التلال ؟

والخلفية الطبيعية التي يصفها الشاعر في قصيدته تتصف بالعمومية فهو يسأل عن « كل الجبال وكل التلال » لانه ليس له علاقة مباشرة ومحسوسة وشخصية بهذه الطبيعة ، بل هي علاقة ذهنية مستقاة من الكتب الدينية والادبية اليهودية (وليقارن القارىء عمومية اللغة والصورة عند بياليك « نهر الاردن ومياهه الصافية » بخصوصيتها ومحسوسيتها البالغة في شعر محمود درويش « لن يصب النيل في الفولغا/ولا الكونغو ولا الاردن في نهر الفرات / كل نهر وله نبع ... ومجرى ... وحياة ») . والخلفية الطبيعية العامة هي خلفية الانعتاق من التاريخ اليهودي ومن المنفى بل ومن كل الآلام الانسانية . انها خلفية تمكن الذات اليهودية أن تطرح كل اعبائها التاريخية جانبا لتنطلق مثل العصفور نحو البعث الجديد .

والعودة للطبيعة وللارض التي سيكتب لذاته الانبعاث فيها تظهر بوضوح وجلاء في قصيدة « في الحقل » التي يعبر فيها الشاعر عن حرقة شوقه للتحرر والانطلاق باندماجه في الطبيعة الطلقة . فهو يعبر عن شوقه الى الحياة البسيطة في القرية نادبا حظه الذي لم يمكنه ان يكون بين اخوانه الذين حققوا حلمهم فغدوا يحيون من ثمار فلاحة الارض في ارض اسرائيل .

ويستهل الشاعر قصيدته هذه بالتعبير عن انه وجد خلاصه وحريته في **الانطلاق** في الحقول التي **لا تحدها الاسوار** والتي **يخيم** عليها الامان ويباركها الرب ، وذلك لان مشاعره تنجذب اليها وسيل تفكيره مشدود نحوها :

هربت اليوم الى الحقل من حزني خائر القوى
هربت الى حيث تهفو مشاعري وتتدفق افكاري .

ثم يبدأ في التجاوب مع الحقل ومناجاته **والاختباء** بين سنابل القمح **والاصغاء** الى **صمت** الغابة مستمعا الى اسرارها التي ينبس بها ورق الاشجار :

آتي بين **القمح واختبىء** ،
واغرق بين سنابله **واندفع** مع سيقانه الوفيرة ،
وانجرف مع **فيضان امواجها** ،
وأصغي لصمت الغاب واسمع اسرار الدغل ،

وفي هدوء يترامى الى أذني همس الاشجار
فأسمع سر حديث اوراقهــا .

ان معجم بياليك يتكون من مجموعة من الكلمات الرومانسية ذات الدلالة الواضحة مثل: ينطلق ، لا تحدها الاسوار ، هربت ، اندفع ، انجرف مع فيضان امواجها ، اختبىء ، اغرق ، اصغي لصمت . وهي كلمات ان دلت على شيء فهي تدل على رغبة الشاعر الدفينة في أن يلقي بذاته في احضان مطلق ما (الامـــة ، العمل اليـــدوي ، التوراة ، المسيح المخلص) مطلق لا علاقة له بوجوده اليهودي المحسوس في المنفى وذلك حتـــى يتسنى له ان يذيب كل همومه اليهودية ويصبح في براءة الاطفال وفي طهر الموتى .

وفي نفس القصيدة يستمر بياليك في استخدام الصور التي تعبر عن رغبته في « العودة » الى كل غير تاريخي يستوعب الذات الفردية فيتحدث عن الارض بنغمة حانية رامزا لها برمز الامومة راجيا اياها ان ترضعه من ثديها لان نفسه ظامئة اليها :

أغمر وجهي وأهوي على الارض الندية
وأسألها ذارفا الدمع فوق صدرها :
اماه : أيتها الارض الرحبة الكبـــيرة
تولي لي ، لم لا تخرجي ثديك لـــي
فأنا ايضا لي روح فقيرة متشبهة .

« أغمر وجهي » ، « وأهوي على الارض » هما استمرار لمعجم بياليك الهروبي وهما صورتان فيهما تعبير عن الرغبة في الانطلاق ولكنه انطلاق يشبه الموت الى حد كبير ولذلك فهو يهوي ويهوي على الارض الرحبة الكبيرة ، رحابة مطلقة تذكرنا برحابة القبر الذي يوجد خارج الزمان .

وبياليك مثل كل الشعراء الرومانسيين يذهب الى الطبيعة ليبثها همومه وليصب في قوالبها أفكاره . ولذلك حينما تهب الريح فجأة وترتعد السنابل ذعرا ، وتتطاير الغلال في الهواء مثل نعجات القطيع المذعور يفاجأ الشاعر بان حركة الطبيعة تشابه الى حد كبير حركة عقله وفكره . فسنابل القمح تركض مسرعة « الى حيث **ترحل** الغيوم » « الى حيث يشرق النهار **وتهرب** السحب » « الى حيث **تحمل الاحلام** نفوسنا » .

وينهي الشاعر قصيدته بتأكيد شوقه الى ان يكون مثل من سبقوه من اخوانه الى الهجرة ويختم القصيدة بأن يرسم صورة للمستعمرين الصهاينة في فلسطين يعيشون في وئام مع الطبيعة وعناصرها :

اخوتي العاملون في بيت أمـــي
الذين قد يرفعون أصواتهم في هذه اللحظة ،
من أعلى جبل أو تل ،
مجيبين على تحيتي المرسلة اليهم .

ان عمومية وصف بياليك للطبيعة تصل الى الذروة في تحيته المرسلة الى « أعلى جبل أو تل » ، اي جبل او اي تل ، يتصادف ويكون أعلى من زملائه . والصهيوني بياليك لا يملك الا ان يرسل هذه التحية الباهتة العامة ، لان علاقته بهذه الارض علاقة واهية ، علاقة بفكرة واهية ، علاقة بفكرة وليس بواقع معاش . اين هذا من شعر درويش الذي يمور بتفاصيل حبه المباشر لفلسطين التي يعرفها والتي عاش فيها، حب يصل به الى درجة تجعله يشعر بمذاق « ملح الخبز واللحن / وطعم الارض .. والوطن » ان درويش يعرف اسم فلسطين وعينيها ووشمها واحلامها وهمومها ومنديلها وقدميها وجسمها وكلماتها وصمتها وصوتها وميلادها وموتها ولذلك فهو لا يرسل تحيته أبدا « الى أعلى جبل أو تل » .

٢) **فكرة المسيح المخلص** : واذا كانت الطبيعة في شعر بياليك هي استعارة يستخدمها لوصف المطلق المجرد الذي يتخطى التاريخ ، ففكرة المسيح المخلص هي الاسطورة الدينية اليهودية التي يستخدمها ليعبر عن نفس الموقف . واذا كان ثمة اختلاف هام بينهما فهو يتلخص في ان استعارة الطبيعة تعبر عن الرغبة في الهرب الى مطلق غير يهودي يحرر الشاعر من ذاته اليهودية المنفية ، اما اسطورة المخلص فهو المطلق اليهودي الخالص الذي يساعد الشاعر على تحقيق الغرض ذاته عن طريق الذوبان في الامة التي تعيش في ارض الميعاد .

وقد عبر بياليك عن المسيانية في شعره بصور متعددة الوجوه ، وحينما كان يعبر عن فكرة المسيح المخلص فانه كان يقصد الخلاص من عبودية المنفى واعداد مملكة اسرائيل بالاضافة الى انه أبرز واكد ان الخلاص الكوني والانساني العام هو رهن بمجيء المسيح وتحقيق مثاليات الشعب اليهودي وان اساس المهمة التاريخية لليهود عبر كل الاجيال هو السعي لتحقيق الخلاص . وبما انه ليس هناك مغزى للتاريخ بدون حياة شعب اسرائيل ، فكذلك ليس هناك اي مغزى لاي مثالية معلنة للخلاص لا تضع في حسبانها أولا وقبل كل شيء خلاص شعب اسرائيل . وقد عبر بياليك عن هذه الرغبة في الخلاص بصورة مباشرة وصريحة في قصيدته « اثار المسيح » . وهذه القصيدة يستهلها الشاعر بالتعبير عن فقدان الامل في الخلاص لتأخر المسيح في المجيء :

لم يأت المسيح بعد ولم يقترب يوم خلاصنا ،
ولم يسحب كبش الضان بعد على قمة جبل الزيتون
لقد نفد الدرهم الاخير من جيبنا ،
ونفدت انفاسنا وصرنا جميعا امواتا .
لقد تحققت كل النبوءات
التي نطق بها الحكماء وتنبأ بها الانبياء .
هل تحدثوا بالباطل وبثوا الاكاذيب
والا فلم اذن تأخر قدوم المسيح !

وفي نفس القصيدة يواصل الشاعر النغمة اليائسة مشيرا الى الامل الذي غزا كل القلوب والاستعدادات من اجل يوم الخلاص بين كل الناس من مفكرين ورجال دين واناس عاديين وسفهاء . ولكنه في النهاية ينتابه اليأس من كل هذه الاستعدادات ومن قدوم أمل الخلاص مجسما في المسيح . وفي قصيدة « الى الهاجادا » (والهاجادا هو كتاب صلوات يهودي) يستعرض الشاعر المصائب التي حلت باليهود وكيف ان القيثارة كانت تواسيهم في محنتهم وتخفف عنهم عبء ما يعانون ، ولكن هذه القيثارة انتهى عهدها ومضى زمانها ولم يعد لها وجود وحلت بدلا منها « الهاجادا » التي تحكي عن روح البطولة اليهودية :

ومنذ ذلك الحين حتى اليوم
لا ملك في اسرائيل — لا ملك ولا قيثارة ولا عود ،
وافلتت الاصوات التي صدرت من اوتار القيثارة
وكانت الهاجادا .
ومنذ ذلك الحين حتى اليوم ......
وأنا أنوح بالاحزان
واتخذ من الهاجادا قيثارة لي .

وفي أحلى أحلامه في الصيف ، حتى في شكوكه وتخبطاته التي تصل الى الاعماق ، ولدى احساسه بانحدار شعبه ، ومع النوازع العاصفة التي جعلت ثقته وايمانه بالعصر

ينهاران ، حتى في تلك اللحظة كان الشاعر يشتاق الى يوم الخلاص « الى يوم العتق ». ان هذا الشوق هو كل مناه ، وهو « شمسه » التي تمنحه الاضواء في الايام الحالكة المظلمة ، في ايام حياة الكلاب المشبعة بالخزي والفاقة .

وظهور المسيح لن يتحقق الا في نهاية التاريخ والزمن اذ ان ظهوره هو في الواقع اللحظة التي سيحل فيها الزمان المطلق محل الزمان التاريخي ، وبظهوره يصل التاريخ نهايته . اذ أن التاريخ يحمل معنى التطور والتغيير والتعديل ، أما المسيح المخلص فهو ثابت لا يتحول . والمسيح لن يظهر الا اذا بلغ الفساد ذروته وبلغت تناقضات التاريخ منتهاها ، ووصل استشهاد الامة اليهودية من أجل مثلها مداه . وان المعاناة المستمرة ستكون السبب في دفع النهاية في تقريب يوم الخلاص . ولكن ولادة المطلق من النسبي ، واللاتاريخي الثابت من التاريخي المتغير ليست ولادة سهلة ، ولذا فاننا نجد ان الشاعر يستخدم صورة « النار المحرقة » بدلا من « الشمس المضيئة » لوصف ظهور المسيح :

من جبال الظلام سوف ينحت اللهب
وسوف تضيء وتتلألأ روحنا المقدسة .

وفي قصيدة « رسالة صغيرة » يصف الشاعر المسيح بأنه مثل « العمود الناري » (وهذه صورة مستقاة من العهد القديم الذي كان يعرفه الشاعر جيدا) . وفي قصيدة « موتى الصحراء الاخيرين » يستخدم الشاعر استعارة النار المحرقة المخربة مرة اخرى . يصف بياليك في القصيدة القائد العسكري للنبي موسى « يشوع بن نون » الذي يقف على قمة التل وصوته يهدر في مواجهة جيشه من اليهود وهو يستعد لغزو ارض كنعان ... والشاعر يرى ان المنفى اليهودي الحالي مثل الصحراء التي تاه فيها اليهود وماتوا ولذا فهو يدعو الجيل اليهودي الى الاستيقاظ والى رفض حياته ويطلب منه ان يمتثل صوت « يشوع بن نون » ويسير الى ارض الآباء لاعداد مملكة بيت داود كسابق عهدها :

صوته يخرج كالسهم مليئا بالقوة والطاقة
وكلمته **تخترق كالشعلة** ، **كالنار** ،
حتى الصحراء المخيفة ، الصحراء الخالية
تردد وراءه : « قم يا اسرائيل ، قم أيها المسكين » .

وفي قصيدته الشهيرة « حقا ان الشعب لعشب » يستخدم بياليك صورة اخرى لوصف ظهور المسيح : صورة النفير ، وهي صورة مرتبطة في اللاوعي الجماعي بنهاية الايام والنفير مثل النار المحرقة ينم عن العنف الذي لا بد وأن يصاحب التحول من الواقع التاريخي اليهودي المغرق في العفن حيث يرقص اليهود حول العجل الذهبي الى الواقع المثالي المفرط في المثالية واقع البعث القومي الجديد :

ورقة ذابلة في شجرة ، زبد متصاعد من موجة ،
كرم عفن ، هل يحييه الندى ؟
هل ينفخ النفير وترفع الراية
ليستيقظ الميت أو يهتز ؟

وان لم يأت المسيح بنفسه يجب على اليهودي ان ينفض عن نفسه غبار السلبية . وبلغة تنم عن العنف الحتمي الذي يصاحب محاولة فرض الرؤية المثالية على الواقع المتغير ، يطالب بياليك اليهودي بأن يضرب على القلوب وأن ينقذ الشرارات من داخله ، وان يضيء كل ظلماتها . وفي قصيدة « مع الشمس » يقول :

ان بحثتم عن ضياء الشمس بلا جدوى ،
فامضوا واخلقوه **من العدم** .

من الرخام اقطعوه ومن الصخور انحتوه
ومن زوايا قلبكم اجذبــوه .

ان مسيح بياليك المخلص لا يختلف كثيرا عن مسيح الروايات اليهودية الاسطورية ، وان كان المسيح المخلص التقليدي مجرد فكرة أخلاقية أو حلم بالعصر الذهبي ، فان مسيح الصهاينة هو فكرة مثالية تحولت الى برنامج سياسي يحاول ان يفرض نفسه على الزمان والتاريخ حتى وان أدى ذلك الى الدمار والخراب والنابالم .

وقد يبدو لاول وهلة ان صور « العودة » الرومانسية المتمثلة في كلمات مثل « الاختباء » و« الغرق » و« الاصغاء للصمت » و« الرضاعة مـــن ثدي الارض الرحبة الكبيرة » متناقضة مع صور الانطلاق والتدمير والخلق من العدم والمتمثلة في كلمات مثل « النار » « والنفير » « وقطع الرخام » (والافعى فيما بعد) . ولكن التناقض في صميمه سطحي لان الصور في مجموعها تعبر عن رغبة في عدم مواجهة المحسوس التاريخي ان كان عن طريق الانسحاب منه او تدميره كلية .

٣) **نبذ الاندماج في الشعوب** : في عام ١٩٠٥ كانت روح الحرية تكتسح روسيا وقد جرفت معها أكثر الشباب اليهود من الرجال والنساء وقد أعطى هؤلاء طاقتهم لقضية تحرير روسيا من الحكم القيصري ولم يلتفتوا بالمرة الى الدعـــوة العنصرية الى « القوميـــة اليهودية » التي كانت في مضمونها انفصالا عن جوهر الارتباط بالوطن الذي يعيشون فيه . وهال بياليك ما يحدث ، وهو الصهيوني الذي لا يمارس أي احساس بالولاء او الحب نحو الانسانية ، فانطلق يحذر اليهود بلغة قبلية متعصبة من قصاص الرب الذي سوف يحل بهم لانهم أعطوا احسن ما لديهم للثقافات الاجنبية ورهنوا أرواحهم كالوديعة لدى الآخرين ، وشيدوا أبنية روحية وعقلية لكل شعب على الارض ثم أغرقوا فيها أرواح أطفالهم :

زرعتم دمعتكم المقدسة في كل المياه ،
ونظمتم من خيوط النور شعرا خادعا ،
وافضتم روحكم على كل رخام اجنبـــي .

ان علاقة اليهودي بالثقافة العالمية ــ حسب تصور بياليك ــ هي مثل علاقته بالجوييم(أي الاغيار)، علاقة تنطوي على الشك والخوف ، يلعب فيها اليهودي دور الشهيد والضحية، يعطي ولا يأخذ شيئا ، كأن الثقافة اليهودية استحدثت من العدم ونمت في أثير لا تاريخي. ثم يستطرد بياليك في نفس القصيدة قصيدة « حقا ان هذا قصاص الرب » فيصف كيف تقترب النسور الشابة من النور وتترك العش القديم وحينما تنمو اجنحتها تطير عاليا الى النور رأسا ، بينما لا يبقى أي شعاع يمكنهم أن يعيدوه الى « خيمة يعقوب الخاوية » :

وكلما كبر من ابنائكم نسر وأصبح له جناح
ترسلونه من عشه الى الابد .
وما ان يحلق في الاعالي متعطشا للشمس ومقتدرا
لا يدع النور ينزل اليكم ،
وما ان يجتاز السحاب بجناحيه ويشق طريقه للاشعة
لا يجعل الاشعة تهبط اليكم .
وهناك بعيدا على قمة الصخور يصرخ
ويصل صدى صوته اليكم ،
وتجلسون متكدرين ومكتئبين :
في الخارج مطر دائم وفي القلوب رماد وتراب ،
وعيونكم مأوى لذباب الموت الذي على نوافذكم
ومأوى للعناكب التي في الزوايا الخربة .

ان الصهيوني بياليك يرى حتى في عالم الثقافات العالمية الانسانية امتدادا لاستقطاب الفكر الصهيوني : « في الخارج الانساني » « مطر دائم » اما في « القلب » اليهودي الشهير « فرماد وتراب » . ان القيم الاخلاقية والانسانية لا تهمه على الاطلاق ان لم تأت له هو اليهودي بنتائج عملية مباشرة :

اذا كان ثمة عدالة في العالم — فلتظهر في التو واللحظة ،
ولكن اذا ظهرت العدالـة ،
بعد ان يكون قد زال اثري من تحت السماء
فليقتلع كرسيها من جذوره .

وفي عام ١٩٠٦ عام المعاناة الكبيرة ليهود روسيا ، حيث قامت ضدهم بعض المذابح في معمعة الثورة الروسية ، كتب بياليك قصيدة أخرى فجر فيها غضبه المتجمع علـى المنصهرين من اليهود الذين ذهبوا ضحية قضية ليست هي قضيتهم ، ولم يحققوا بما قدموه أي أمل من آمال بني دينهم . وقد عبر بياليك في هذه القصيدة المعنونة « نادوا الافاعي » عن عمق الاحتضار الروحي ، واستخدم اللازمة المتنوعة والتي تحمل نفس الفكرة . ففي المقطع الاول من القصيدة تكون اللازمة :

نادوا الافاعي لتنقل غضبكم الى أقاصي الارض .

وفي المقطع الثاني تصبح اللازمة :

نادوا النسور لتحمل صرختكم الى كبد السماء .

ويختتم القصيدة باللازمة التالية :

نادوا الغيوم لتحمل حزنكم الى ارجاء البحار .

وفي الجزء الاول من القصيدة يصور بياليك حالة اليهود في المنفى وحياتهم الخالية الخاوية التي يعانون فيها شتى أنواع الهوان وهو ذلك الهوان الذي يراه من خلال احتجاجه على انصهار هؤلاء اليهود في مجتمعاتهم ، ويرى ان الموت في هذه الحالة أحسن بالنسبة لهم ، لانهم لا يقدمون شيئا لقضية البعث القومي اليهودي :

وتتعب اعينكم من التحديق الى اجواز الفضاء والارض
حيث لا شيء من أجلكم يحيي المهجة والعين
وحيث بخلت يد الرب وتغاضت عيناه
عن ان تبعث هناك غيمة أو طرفة من ريح
وذبلت حياتكم في البين من القحط والجفاف
وتمنيتم الموت لانفسكم وصرختم من ألم حياتكم .

وفي الجزء الثاني يعبر عن سخطه الشديد للتخاذل الذي يبديه اليهود ولعدم تجاوبهم مع الحركة القومية اليهودية ولانجرافهم في تيار الحركات الاخرى ويتوعدهم بالمصير السيىء:

وبسطتم اكفكم للحب وتلهفت عيونكم للمطر
ولكن سحب البركة ستمر ، وكما جاءت ستمضي ،
وصلاة اخيرة ذابلة كاللعنة تتردد على شفاهكم
وتمنيتم الموت لانفسكم واستهنتم بهول حياتكم .

لان حب اليهودي يجب الا يكون الا ليهودي مثله نجد أن رب الامة القومي لا يرسل المطر أو البركات الى اليهود المندمجين في القوميات الاخرى .

٤) **بياليك والتراث اليهودي** : لا يملك قارىء أدب بياليك الا أن يلاحظ عمق التناقض في موقفه من التقاليد وعظم تخبطاته النفسية بين كونه رجل النهضة القومية العلمانية من

جهة وكونه في نفس الوقت رجل التراث اليهودي من جهة أخرى . وهذا التناقض في شعر بياليك يتضح في العديد من قصائده . ففي قصيدة « ان شئت أن تعلم » يتحدث عن الدين باعتباره مصدر القوة والبأس لدى اليهودي ويؤكد ان « بيت همدراش » (البيت التوراتي القديم الذي كان مصلى ومنتجعا للعلم الديني ، وكان بمثابة البؤرة التي حفظت التراث الروحي للشعب اليهودي على مر الايام جيلا بعد جيل لكل من طلب التعمق في الدين) ، اذ كان الشباب يتوفرون فيه على استطلاع صفحات التلمــود بياض أيامهم وسواد لياليهم ، وقد حافظوا بانكبابهم هذا على فتيل الحياة الروحية للشعب واستمدوا مــن معينهم التاريخي قوة الحياة . وهذه المعاني تؤكدها الابيات على النحو التالي :

ان شئت ان تعلــم
من أي نبع استمد اخوتك المقتولون
ايام بؤسهم ، قوتهم وبأسهــم ،
وكيف ساروا نحو الموت باسمــين
وكيــف قدموا اعنــاقهم
لكل سكين وكــل مقصلــة
وصعدوا لكل موقــد ومحرقة
وماتوا جميعا ميتة القديسين هاتفين « الرب واحد » ...
فسر الى « بيت همدراش » القاهر للدهور ...
وسترى بعض يهود واجمــين
وجوههم معروقة معقودة الجبين
هم يهود المهجر الذين يحملون نيره الثقيــل
يحاولون ان ينسوا عذابهم
في صفحة بالية من صحف التلمود ،
يحاولون ان ينسوا املاقهــم
في قصص قديمة يروونهــا ،
ويطردون همومهم بلحن مزمور يرتلونه .

ونلاحظ في هذه القصيدة نفس التيار الاساس في شعر بياليك (وفي الفكــر الصهيوني عامة) « تيار العودة » الى المطلق . والمطلق هنا هو الماضي متمثلا في بيت همدراش . ونفس هذا التيار يتضح جليا في قصيدة « الى الهاجادا » التي يعبر فيها الشاعر عــن تمسكه بمثل الحياة اليهودية التقليدية متمثلة في « الهاجادا » التي تحكي عن روح البطولة لدى اليهود عبر العصور والتي ما زالت تحف بها الانغام الحزينة لمنشدي بابل :

فيكم يا صفحات التلمود فيكم أيتها الاوراق البالية
اساطير بديعة وقديمة .
وفي أيام جنوني حينما اتأمل المحزونــين
تجد نفسي فيكــم السلــوى .

وفي قصيدة « على عتبة بيت همدراش » التي كتبها عام ١٨٩٤ نجد بياليك وقد وقف على عتبة « بيت همدراش » الذي يستخدمه كرمز للحياة اليهودية الدينية عبر العصور لان المثالية اليهودية تصل الى ذروتها بدراسة التوراة ــ ويحاول بث أحزانه فيه ولكنه يجده خاليا خاويا ، ويصف الشاعر الدمار الذي يسود بيت اسرائيل حيث تخيم العناكب على السقف والسطح محطم والاعمدة التي تسند القبة متهاوية والحوائط متشققة ... انه انهيار روحي حل « ببيت همدراش » ، تماما كما حل بنفس الشاعر ذاته في نفس الوقت:

نسيج العنكبوت يتمايل على سقفك
وافراخ الغربان تتصايح على سقفك المزق

يا جـدران « بيت همدراش » ،
يا حوائط المحراب يا ملاذ الروح القوية
ويا ملجـأ الشعب الابـدي .
لم تقفون هكذا صامتين وكالبائسين ؟
ها أنذا عائد الآن من الوادي النكـد
هربت لأقول لكم ان الضربات قد زادت
وأننا حاربنا كالابطال ولكننا ضربنا من الخلف ،
انني يتيم بلا رعاية ومحتاج لرعايتكم
وسأعود اليكم مرة أخرى مسكينا وخجلا ومهزوما .
ومرة أخرى « يا بيت همدراش »
اقف على بابك ذليلا كالفقير وخاويا مثلك ،
أأبكي على خرابك أم أبكي على خرابي ؟
أم على كليهما معا أبكي وانــوح ؟

(وليلاحظ القارىء مرة أخرى تكرر الكلمات الادبية رغم تغير الموضوع : « السلوى » « الملاذ » « الملجأ » « عائد » « هربت » « تقيم بلا رعاية ») . ثم يشير الشاعر الى ان كثيرين قد تركوا عشهم بحثا عن حقول أوسع آملين في العثور على السعادة هناك . ويرى الشاعر ان النصر لم يكن حليفهم ، فقد تحطم بعضهم وظل البعض الاخر هائما في مساكن غريبة ، ولا شك انه يقصد بذلك الاتجاه لدى كثير مـن شباب اليهود نحـو « الهسكلاه » وتخليهم عن مثل الدين اليهودي البالية :

وفي الحقول ما زال كثيرون تائهين
هل سيموتون ميتة الصالحين أم سيجدون الراحة
في حياة الطالحين وسينسونك الى الابد ؟

وبعد هذا الصراع وتلك الحيرة والتخبط الواضح بين الخواء الذي يستشعره بارتمائه في احضان الملاذ الروحي اليهودي وبين الروابط الوثيقة التي ما زالت تربطه بهذه الرموز الآخذة في التداعي والانهيار ، يحاول الشاعر تأكيد تمسكه بالبقية الباقية مـن الايمان والحفاظ عليها :

لقد تغلب علي عدوي ، وخلفني مجردا
ولكنني انقذت الهي فانقذني الهي .
لن تنهاري يا خيمة الرب وسأعيد بناءك
وسأحيي الجدران من اكوام ترابك
جف العشب وذبل الزهر ولكن الرب سيبقى الى الابد .

وفي قصيدة « وحدي » التي كتبها في يوليو ١٩٠٢ يعبر الشاعر عن آلام «الروح المقدسة» رمز الروح اليهودية التي تئن مثله في حسرة بينما الجميع قد تخلوا عنها . ومع انه يحس بكل جوارحه بآلام « الروح المقدسة » فانه يذوب شوقا الى ذلك العالم الساحر عالم « الهسكلاه » ولكن روابطه بعالم التقاليد تجعل الفراق عسيرا فتبقى نفسه مجزأة بين العاملين :

كلهم حملتهم الريح ، كلهم جرفهم النــور
وترنم صباح حياتهم بنشيد جديد
وأنا فرخ وديع في القلب والمهجـة
تحت اجنحة الروح المقــدسة ،
وحـــدي أنـــا بقيـــت
وبقيت مثلي وحدها الروح المقدسة .

وقد بكتني بهدوء وانحنت علـــي
كانما يحرسني جناحها المهيض هامسا الي
جميعهم مضت بهم اجنحـــة الرياح
جميعهـــم طاروا
ووحـــدي قـــد بقيـــت .

وفي هذه القصيدة يتضح تماما تأثير كتب الهسكلاه التي كانت تؤثر فيه باطراد وتجعله يشعر بالغثيان حينما يقرب الكتب الدينية حسبما يعبر عن ذلك في خطاب سيرته الذاتية الى يوسف كلاوزنر : « لقد أصبحت الكتب الدينية بالنسبة لي مقززة كالوجبة الثقيلة ، وقد حاولت ببقايا قواي أن أصمد على كرسي ولكن وهنت مثابرتي يوما بعد يوم » . ونحن نجد بياليك في الحالة النفسية الرافضة لمثل الدين اليهودي وتراثه في قصيدته «أمام دولاب الكتب» (١٩١٠) . وفي هذه القصيدة يسترجع الشاعر الايام الغابرة حينما كانت الكتب الباهتة والصفراء هي كل ما يعرفه . وكان يظل يمعن النظر فيها ليل نهار لدرجة ان جزءا من روحه كان ينغمس في مضمونها ولكنه بعد سنوات من التيه في العالم الكبير ، عالم المعرفة والثقافة ، يقف مرة أخرى أمام الدولاب حيث الاوراق الثمينة ــ مرتبة فيه ويحاول أن يستعيد صلته بها ولكنه يشعر ان مفتاح عالمه القديم قد ضاع وان لغـــة الاسرار مع هذه الكتب قد فقدت . ويدخل الشك قلبه في أنه ربما يكون التمسك بروح الماضي شيئا لا طائل منه وانه اضاعة للوقت فيما لا منفعة من ورائه وان كنوز الماضي لا يمكن ان تثريه ، واخيرا يعرب عن حيرته وشكه لانه فقد القدرة على فهم لغة الاسرار الخاصة بهذه الكتب :

ألم أدرك شبابي معكم انتم فقـــط
وكنتم لي كالحديقة في حر يوم الصيـــف
وكنتم لرأسي كالوسادة في ليالي الشتاء
وتعلمت ان احفظ في اوراقكم تذكار روحي
وأن أضمن سطوركم احلامي المقدسة .
وانا الآن بعد مرور وقت طويل
بعد ما صرت معقد النفس ، مقطب الجبين .
ها هي دورة حياتي تعيدني وتضعني امامكم ثانية
أيتهـــا الكتب المكنـــوزة في الدولاب
ويا نازحات من لافوف وسلفتيا وامستردام وفرانكفورت*
يا عجائز الكتب انني انظر فيك ولا أعرفك ،
ومن بين حروفك لم تعد تنظر الى أعماق نفسي
الأعين اليقظة ، تلك الاعين الحزينة لشيوخ غابرين
ولم أعد اسمع هناك همس شفاههم
ينسل من قبور نسيت ولم تعد تزار
وانت يا كواكب السماء يا حب روحي
ويا فاهمـــة مكنونات قلبـــي
ما بالـــك صامتة ، صامتـــة ؟
أحقا لم يعد لدى جفنك الذهبي قـــول
أو اشارة خفية تقولينها لي ولقلبـــي ؟
أم أن هناك الكثير وأنا الذي نسيت لغتك

---

* مدن اوروبية كانت فيها مراكز يهودية هامة وقد طبعت بها كتب دينية يهودية ذات قيمة .

ولم أعد أسمع بعد لفتـك ، لغـة الاسرار

أجيبي يا كواكب السماء ، فانني حزين؟!

وهذه الحالة من الصراع الذي تعلوه نغمة الرفض للتراث اليهودي والتي تعبر عن التحلل الروحي اليهودي يعبر عنها بياليك بصورة رمزية من خلال خلفية الثورة الروسية عام ١٩٠٥ في قصيدته الكبيرة « سفر النيران » :

« ... وفتحت عيني على سعتهما محدقا في السماء ، ورفعت رأسي وأنا منحدر هابط الى النهر ، وفجأة اذا بصوت ماء وضجة واستحمام يتناهى الي كأنه تيار بلور ويرن في اذني كرنين قيثارة . ونظرت فذهلت : هنالك في الجدول قبالتي رأيت شبح فتاة تستحم يلمع صفاء بشرتها فأراه من خلال العتمة فيسكرني ... وكدت اندفع اليها اندفاع النمر ، لكن صورة الشيخ القديس لمعت امامي — فخنقت شهوتي وأنـا أزأر كالليث ثم اختفيت وراء صخرة ورحت اتلصص من مكاني على الجسد الرائع ، اكلت بعيني لحم الفتاة العاري الابيض وحملقت نفسي في ترجرج نهديها البكرين ، وضممت قبضتي وألقيتها في الهواء لا اعرف في وجه من : في وجه السماء التي تبلوني أم في وجه الشيطان الذي يتحداني — واذا بقبضتي تقع على نتوء الصخرة كأنها المطرقة فنفتتها بينما راحت قدماي تطحن احجار الحصى ... ولما فارقني سكري احاطني ظلام رهيب فخفت من نفسي خوفا شديدا . فزعت من الفراغ ومن كفة المقلاع ، وشاهدت نفسي فاذا بها سوداء بيضاء معا ، وقد اختلط فيها النور بالظلام . ورأيت قلبي فاذا هو جحر لافعوان وعش لنسر ... »

وهنا نجد بياليك يرمز للهسكلاه وللانفتاح على عالم الثقافة الاوسع الارحب الذي أطل عليه من عتمة الحياة الدينية المتعصبة بالفتاة العارية ، ويحاول ان يبين مدى الصراع الذي اجتاحه حينما حاول الاقتراب منها ، وتحديه للشيخ القديس الذي يرمز به لقيم الدين المتحجرة متمثلا اياه في صورة جده العجوز التقي الورع الذي طالما شدد عليه في هذه الناحية . (ويمكننا القول ان دولة اسرائيل هي الشيخ القديس محاولا السير مثل الفتاة العارية ، او الفتاة ذات النهدين البكرين تحاول التحدث بنبرات الشيخ القديس . اليست هي دولة الانبياء المحاربين والقديسين الذين يلبسون الكاكي ؟)

ان عالم بياليك يظل عالما مغلقا بالنسبة لنا لان الشاعر لا يوجه الدعوة لنا كبشر للتعاطف معه وأحزانه ، فثنائية الرؤية اليهودية والصهيونية الحادة تصدنا وتمنعنا ولذا تظل الرموز والطلاسم مجرد اشارات لافكار مجردة ، ليس لها معنى أو عمق انساني، وكذلك تظل الصراعات الحادة بين القديم والجديد ، بين العلماني والغيبي ، بين الدين والقومية، صراعات غريبة علينا لانها تدور في صدر شاعر فصل نفسه عن بقية البشر . ومن الملاحظ ان الشاعر عالم كل العلم بأن الصراعات التي يواجهها لا يمكن حسمها لانه غارق في الاساطير اليهودية التي يعرف أنها ماتت ولكنه لا يملك ان يعلن موتها بل انه يتحسر من أجلها ويبكي ويدافع عنها بعدوانية وشراسة . ولعل هذه الشراسة في الدفاع تفسر استخدامه لصور النار والنفير والعناكب والافاعي وهي صور تدل على ان الشاعر يفكر في الموت أكثر من تفكيره في الحياة ، أو يفكر في حياة مبنية على رؤية صميمها الموت .

دراسة حول الاتجاهات السياسية لدى بعض وحدات الميليشيا الفلسطينية

باسم سرحان

كلف مركز الابحاث باحثين في العلوم السياسية باعداد دراسة ميدانية عـن بعض ظواهر التهيئة السياسية والعضوية لاعضاء الميليشيا في المنظمات الفدائية في مخيم عين الحلوة . وقد تمكن الباحثان من القيام بهذه الدراسة مع أعضاء الميليشيا في منظمتين فدائيتين في المخيم هما الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وطلائع حرب التحرير الشعبية (الصاعقة) . كما شمل البحث مجموعة من شباب المخيم الذين لم ينضموا الى اي تنظيم للميليشيا بهدف استعمال هذه المجموعة كمجموعة مقارنة مع مجموعتي الميليشيا لمعرفة تاثير التنظيم على فكر الفرد السياسي وعلى نظرته الى عدة أمـور سياسية واجتماعية . وقد تم البحث في صيف عام ١٩٧١ . وسيقدم الباحثان بحثا متكاملا لمركز الابحاث عـن هذه الدراسـة . وقد طلب المركز من الاخ باسم سرحان ان يدرس النتائج الاولية لهذه الدراسة من وجهة نظر سوسيولوجية وان يستخلص المؤشرات التي تدل على التغير في المجتمع الفلسطيني . اما مدى التغير وطبيعته واتجاهاته فان الباحثين الاصليين سيعالجان ذلك في دراستهما المقبلة .

قبل الانتقال الى معالجة موضوع البحث أرى ضرورة اعطاء تعريف للميليشيا الشعبية وكلمة موجزة عن تاريخ ميليشيا حركة المقاومة الفلسطينيـة : الميليشيا الشعبية هي تنظيم شبه عسكري يتألف من المدنيين الذين لا يستطيعون التفرغ للقتال او الثورة نظرا لمسؤولياتهم العائلية او لارتباطهم بالدراسة او العمل . هذا التنظيم يضم عادة الرجال والنساء من مختلف الاعمار ، ويؤدي دورا هاما في حروب التحرير ، والدفاع عن مكاسب الثورة ، ويشكل درعا واقيا يحمي ظهر الثورة . ودور الميليشيا الشعبية لا يقتصر على الجانب العسكري ، انما يمتد بنفس الدرجة الى الجانب السياسي . فالمفروض في أفراد الميليشيا ان يكونوا عناصر سياسيـة تعبىء الجماهير وتشرح فكـر الثورة وتخـدم جماهيرها .

انشىء أول تنظيم للميليشيا الشعبية الفلسطينية في الاردن عام ١٩٦٨ ، بعد معركة الكرامة وبعد التدفق الجماهيري الهائل للالتحاق بصفوف الثورة . ثم انشىء تنظيم آخر للميليشيا الفلسطينية في لبنان في اواخر عام ١٩٦٩ . وقد لعب تنظيم الميليشيا في الاردن دورا اساسيا وكبيرا في الدفاع عن الثورة والجماهير ضد هجمات النظـام الهاشمي العميل . وكان مقدرا لتنظيم الميليشيا أن يلعب دورا تعبويا سياسيا هاما في اوساط الجماهير الفلسطينية ، وفي مجال توعية الجماهير وتثويرها لولا ضرب الكفاح المسلح في الاردن . اما الميليشيا الشعبية في لبنان ، فقد دافعت عن الجماهير الفلسطينية في اكثر من مناسبة ، وهي ما تزال الدرع الواقي للمخيمات . كما انها تلعب دورا سياسيا هاما

في اوساط الجماهير الفلسطينية . ومن المفروض ان توجه جهود الميليشيا اكثر فأكثر لخدمة الجماهير ومساعدتها في حل مشاكلها الحياتية اليومية ، وخاصة في مجال التثقيف والتعليم .

بعد مراجعة الاسئلة التي تضمنتها الدراسة كان لي تعليقان عليها هما : أ) الامور العديدة التي شملتها الدراسة ، مما يوحي بأن هدف الدراسة كان استكشافيا واستطلاعيا اكثر منه دراسة او اختبار فرضيات معينة . ب) عانت بعض الاسئلة من عدم الدقة في صياغتها بحيث لم يكن من الممكن لهذه الاسئلة قياس الموضوع المطلوب بالتحديد .

وقد عمدت الى أستخلاص بعض النتائج الاحصائية الاولية لاجابات عناصر الميليشيا على الاسئلة المطروحة والتوصل الى بعض الاستنتاجات التي أرى من المفيد ان تنشر على القارىء العربي . وقد استطعت ان استخلص من هذه النتائج اربعة جوانب رئيسية تتعلق بالنواحي الفكرية السياسية والنواحي التنظيمية لعناصر الميليشيا ، نوردها فيما يلي : ١ ــ دراسة الفكر السياسي للميليشيا ، او بكلام اخر مواقف الميليشيا من قضايا سياسية اساسية تتعلق بمسيرة الثورة الفلسطينية ، يجري طرحها خارج الثورة وداخلها . ٢ ــ دراسة مدى رسوخ الروح العشائرية في علاقات افراد الميليشيا ببعضهم وبالاخرين . ومعرفة ما اذا كانت الثورة قد استبدلت هذه العلاقات بعلاقات ثورية . ٣ ــ دراسة دور الميليشيا الشعبية التابعة لحركة المقاومة ، والعلاقات التنظيمية داخل الميليشيا . ٤ ــ دراسة العلاقة بين ميليشيا التنظيمات المختلفة .

سيقتصر تحليلي على النقطتين الاولى والثانية لانهما امور تهم القارىء المهتم بالقضية الفلسطينية اكثر من النقطتين الثالثة والرابعة . اما تحليل الجزء المتعلق بالنقطتين الثالثة والرابعة من البحث فسيقدم الى مركز الابحاث لتوزيعه توزيعا محدودا .

ولا يمكن اعتبار الدراسة الحالية دراسة حول « الميليشيا التابعة لحركة المقاومة في لبنان » ، انما هي دراسة حول « مجموعة من ميليشيا التنظيمات في مخيم واحد » . فالدراسة لم تشمل ميليشيا فتح ، وهي الفصيل الرئيسي في ميليشيا حركة المقاومة ، كما انها لم تشمل ميليشيا قوات التحرير الشعبية ، والجبهة الشعبية الديمقراطية ، والجبهة الشعبية القيادة العامة ، وجبهة التحرير العربية . وبالتالي لا يمكن **اطلاقا** التعميم على اساس نتائج هذه الدراسة . وتبقى قيمة الدراسة في انها اول بحث ميداني حول جزء من الميليشيا الشعبية يزودنا بمعلومات جمعت بأسلوب علمي وبشكل منتظم . وهي بالتالي تشكل مرجعا اوليا لدراسة علمية اكثر دقة وشمولا حول تنظيم الميليشيا الشعبية التابع لحركة المقاومة الفلسطينية .

تحليل للنتائج الاولية

ينقسم التحليل الى قسمين رئيسيين : القسم الاول يحلل الفكر السياسي لمجموعة الميليشيا التي شملها البحث ، من خلال تحليل مواقفها من مسائل سياسية مصيرية تتعلق بالثورة الفلسطينية ويدور حولها جدل كثير داخل الساحة الفلسطينية وخارجها . ويحلل القسم الثاني مدى رسوخ العلاقات العشائرية (او العائلية ــ الشخصية) في اوساط الميليشيا الشعبية . هنا يمكن وجود افتراضية تقول بأن العشائرية تتحكم في علاقات افراد الميليشيا بعضهم ببعض وبالاخرين .

قبل ان ننتقل الى تحليل كل قسم بالتفصيل ، نرى ضرورة اعطاء صورة عن توزيع افراد المجموعة التي شملتها الدراسة حول عاملي السن والمهنة : تتراوح أعمار افراد المجموعة بين ١٦ عاما و ٥٥ عاما . لكن ٩٥٪ منهم يقعون في فئة العمر ١٦ ــ ٣٥

عاما . (راجع الجدول رقم ١) . ومهنيـــا ، ينتمي نصف افراد المجموعـــة تقريبا الى العمال (٤٧،٦ ٪) ، وربعهم من الطـــلاب (٢٣،٨ ٪) ، وخمسـهم تقريبا من المدرسين (١٩،٥ ٪) . هذه الفئات الثلاث تشكل الاغلبية الساحقة من عناصر الميليشيا . (راجع الجدول رقم ٢) .

الجدول رقم ١

فئة العمر	العدد	النسبة المئوية
١٦ — ٢٠	١٣	١٩،٥
٢١ — ٢٥	١٩	٢٦،٨
٢٦ — ٣٠	١٦	٢٣،٨
٣١ — ٣٥	١٦	٢٣،٨
٣٦ — ٤٠	١	١،٤
٤١ — ٤٥	—	—
٤٦ — ٥٠	١	١،٤
٥١ وما فوق	١	١،٤
المجموع	٦٧	٩٩،١

الجدول رقم ٢

المهنة	العدد	النسبة المئوية
عامل غير مهني	١٥	٢٢،٣
عامل مهني	١٧	٢٥،٣
طالب	١٦	٢٣،٨
مدرس	١٣	١٩،٥
موظف	٤	٥،٩
صيدلي ، طبيب ، مهندس	١	١،٤
لا يعمل	١	١،٤
المجموع	٦٧	٩٩،٦

القسم الاول : الفكر السياسي للميليشيا : يمكن فهم الفكر السياسي لافراد الميليشيا من خـــلال مواقفهم من قضايا سياسية معينة وارائهـــم في قضايا اخـــرى . وقد برزت في الاجابات مواقف وأراء الميليشيا من القضايا التالية : ١ — الثورة الفلسطينية : هدفها ، قيادتها ، دورها عربيا ، الثورة والايدولوجية ، بعدها العربي ، بعدها العالمي ، علاقتها بالانظمة العربية ، اولويات المعركة ، وأعداؤها . ٢ — حل المشكلة الفلسطينية (الحل السلمي بشكل خاص) . ٣ — دور اسرائيل في المنطقة . ٤ — حرب التحرير الشعبية . ٥ — مستقبل الدولة بعد التحرير .

القسم الثاني : العلاقات العشائرية في اوساط الميليشيا .

تحليل القسم الاول من الدراسة :

هدف الثورة : سألت الدراسة السؤال التالي حول هدف الثورة : « الثورة الفلسطينية هدفها تحرير فلسطين فقط » . قال (٦٧ ٪) من افراد المجموعة انهم لا يوافقون على

هذه الجملة ، بينما قال ٢٦،٨٪ منهم انها جملــة صحيحة ، ولم يعط ٤،٤٪ جوابــا . ثم انتقلت الى محاولة معرفة اهــداف الثورة (او اهــداف الشعب الفلسطيني الثائر) بواسطة السؤال التالي : « هدفنا كشعب فلسطيني ثائر : ــ ازالة اسرائيل ــ ازالــة آثار عدوان ١٩٦٧ ــ ازالة اسرائيل والانظمة العــربية الرجعية ــ ازالــة اسرائيــل والانظمة العربية الرجعية وضرب المصالح الامبريالية في البلاد العربية ــ ازالة اسرائيل والانظمة الرجعية العربية ومحاربة الامبريالية في المنطقة العربية ومساندة ثورة التحرر في العالم » . قال ٦٤،١ ٪ من افراد المجموعة ان هدف الشعب الفلسطيني الثائر هو ازالة اسرائيل والانظمة العربية الرجعية ومحاربة الامبريالية في المنطقة العربية ومساندة ثورة التحرر في العالم . وقال ٢٠،٨ ٪ ان هدفه هو ازالة اسرائيــل فقط . وقــال ٨،٩ ٪ ان هدفه هو ازالة اسرائيل والانظمة العربية الرجعية وضرب المصالح الامبريالية في البلاد العربية . بينما قال ٥،٩٪ ان هدفه ازالة اسرائيل والانظمة العربية الرجعية. ولم يقل اي فرد ان هدف الشعب الفلسطيني هو ازالة آثار عدوان ١٩٦٧ .

قيادة الثورة : سألت الدراسة سؤالين حول قيــادة الثورة او من يقود الثورة همــا : « يجب ان تكون قيادة الثورة بيد الكادحــين فقط » . و « يجب ان تكون قيــادة الثورة الفلسطينية بيد : أ) الكادحين فقط . ب) المثقفين ابناء الكادحين والكادحين . ج) مثقفين مخلصين لديهم كفاءة من اي طبقة كانت . د) لا مانع اذا كــانت القيادة بيــد اطباء او مهندسين او تجار اذا كانوا مخلصين ولديهم الكفاءة . هـ) اي شخص فلسطيني تتوفر فيه الكفاءة .

لقد انقسم افراد الميليشيا الى مجموعتين متساويتين تقريبا حول السؤال « أ » ، اذ قال ٤٩،٢ ان قيادة الثورة يجب ان تكون بيد الكادحين فقط ، بينما قال ٤١،٧٪ منهم انها لا يجب ان تكون بيد الكادحين فقط، ولم يعط ٨،٩٪ جوابا على السؤال. وبالنسبة للسؤال الثاني ، قال ٤١،٧٪ من افراد المجموعة ان قيادة الثورة يجــب ان تكون بيد المثقفين ابناء الكادحين والكادحين ، وقال ٢٣،٨ ٪ انها يجب ان تكون بيــد اي فلسطيني تتوفر فيه الكفاءة والاخلاص ، وقال ١٦،٤ ٪ انها يجب ان تكون بيد مثقفين مخلصين من أي طبقة كانت ، وقال ١٤،٩٪ انها يجب ان تكون بيد الكادحين فقط . قــال ١،٤٪ انه لا مانع اذا كانت القيادة بيد مهندسين واطباء وتجــار مخلصين ولديهم كفــاءة ، ولم يعط ١،٤٪ جوابا . لقد رجحت الكفة لصالح الذين يؤيدون وجود الطبقة الكادحة وأبنائهــا المثقفين في قيادة الثورة على الذين يريدون القيــادة لاي فلسطيني مخلص وكفوء بغض النظر عن طبقته ، اذ بلغت نسبة الفئة الاولى ٥٧٪ ونسبة الفئة الثانية ٤٠٪ .

الثورة والايديولوجية : سئلت ثلاثة اسئلة حول الايديولوجية والثورة الفلسطينية، الاول حول ضرورة وجود خط ايدولوجي للثورة ، والثاني حول ضرورة اتباع الخط الماركسي ــ اللينيني ، والثالث حول ضرورة اتباع خط عقائدي اشتراكي .

قال ٧٣،٣٪ من افراد الميليشيا انه من الضروري ان يكون هناك خط ايدولوجي محدد للثورة الفلسطينية كي تسير عليه ، بينما قال ١٤،٩٪ ان وجود الخط الايدولوجي ليس ضروريا للثورة . ولم يعط ١١،٩٪ جوابا . قال ٥٣،٧٪ من افــراد الميليشيا ان الخط الماركسي اللينيني هو الخط السليم الذي يجب ان تسير عليه الثورة الفلسطينية ، بينما قال ٣٤،٣٪ منهم ان ذلك الكلام ليس صحيحــا . ولم يعط ١١،٩٪ منهم جوابا . امــا حول الخط الاشتراكي ، فقد قال ٦٧ ٪ من افراد الميليشيا ان الثورة الفلسطينية يجب ان تلتزم بعقيدة حزبية واحدة تسير على الخط الاشتراكي . وقال ٢٠،٨٪ ان هذا الكلام ليس صحيحا ولم يعط ١١،٩٪ جوابا .

دور الثورة عربيا : اهتم الباحث بمعرفة جانب واحد من دور الثورة الفلسطينية عربيا ،

وهو دور النواة في ثورة عربية شاملة ضد الاستعمار . قال ٨٨ ٪ من افراد الميليشيا انهم يوافقون على كون الثورة الفلسطينية نواة ثورة عربية شاملـــة ضد الاستعمار ، بينما قال ٨،٩٪ انهم لا يوافقون على ذلك الدور . ولم يعط ٢،٩٪ جوابا .

البعد العربي للثورة : هناك سؤالان حول البعد العربي للثورة . الاول يحدد اذا كـــان للشعب العربي حق المشاركة فيها ، والسؤال الثاني يحـــدد مستوى او درجة هـــذه المشاركة . السؤالان هما : « معركة فلسطين يجب ان يشتـــرك فيها : الفلسطينيون وحدهم ، الفلسطينيون والشعب العربي ، كـــل قوى التحرر والثورة في العالم ، كـــل هؤلاء » . و « ما هو برأيك الدور الذي يجب ان يلعبه الشعب العربي في المعركة : ان يشارك فعليا في المعركة ، ان يقدم الدعم المالي والمعنوي للفدائيين ، ان يحمي الفدائيين اذا تعرضت لهم السلطات العربية ، ليس له أي دور في المعركة » .

يعتقـــد ١،٤٪ فقط من افراد الميليشيا ان معركة فلسطـــين يجب ان يشتـــرك فيهـــا الفلسطينيون وحدهم . ويعتقد ٢٩،٨٪ انها معركة مقصورة على الفلسطينيين والشعب العربي ، بينما يعتقد ٦٥،٧٪ انها معركة يجب ان يشارك فيها الفلسطينيون والشعب العربي وكل قوى التحرر والثورة في العالم . ولم يعط ٢،٩٪ جوابا .

البعد العالمي للثورة : وضع الباحث الجملة التالية « الثورة الفلسطينية جزء من الثورة العالمية ضد الامبريالية » . قال ٨٨،٠٪ من افراد الميليشيا ان هـــذه الجملة صحيحة وانهم يوافقون على هذا الكـــلام . بينما قال ٥،٩ ٪ انهـــم لا يوافقون على كون الثورة الفلسطينية جزءا من الثورة العالمية ضد الامبريالية . ولم يعط ٥،٩ ٪ جوابا . هذه النتائج تتطابق مع اعتقاد ٦٥،٧٪ من افراد الميليشيا ان كـــل قوى التحرر والثورة في العالم يجب ان تشترك في معركة تحرير فلسطين .

علاقة الثورة بالانظمة العربية : عالجت الدراسة موضوع علاقـــة الثورة الفلسطينيـــة بالانظمة العربية من ثلاثة جوانب : اولا ، هل تثق الثورة بأي نظام عربي ام لا . ثانيا ، مستوى العلاقة بين الثورة والانظمة . ثالثا ، الموقف الـــذي يجب ان تقفه الثورة من الانظمة التي تعارض الثورة . سأل الباحث سؤالين حول الثقة بـــين الثورة والانظمة العربية هما : « يجب على المنظمات الفدائية ان لا تثق بأي دولة عربية تقدمية كانت ام رجعية » . و « هل يجب ان تثق المنظمات الفدائية بدعم : أ) الـــدول العربية التقدمية فقط . ب) كل الدول العربية . ج) ولا دولة عربية ؟ » .

قال ٤٦،٢ ٪ من افراد الميليشيا ان على المنظمـــات الفدائية الا تثق بأي دولة عربية تقدمية كانت ام رجعية ، بينمـــا قال ٤١،٧٪ منهم ان هذا الكـــلام خاطىء ولا يوافقون عليه . ولـــم يعط ١١،٩٪ جوابا . وحول السؤال الثاني ، قـــال ٤٧،٧٪ من افـــراد المجموعة ان على المنظمات الفدائية ان تثق بدعم الدول العربية التقدمية فقط ، وقـــال ١٧،٩٪ منهم ان عليها ان تثق بكل الدول العربية ، بينما قـــال ٣١،٣٪ منهم ان عليها الا تثق بدعم اي دولة عربية ، ولم يعط ٢،٩٪ جوابا .

سأل الباحث السؤالين التاليين حول مستوى العلاقة التي يجب ان تقوم بين التنظيمات الفدائية والانظمة العربية التقدمية (وكان المفروض فيه أن يسأل حول مستوى العلاقة مع الانظمة العربية الرجعية ايضا لكي تكتمل الصورة) : « يجب عـــلى فصائل الثورة الفلسطينيـــة ان تقبل المساعدة المـــالية والعسكرية من الـــدول العربية التقدمية » . و « يجب علي الثورة الفلسطينية ان تستمع الى النصائح والارشادات التي توجهها لها الدول العربية التقدمية مثل سوريا » .

وافق ٧٤،٦٪ من افراد المجموعـــة ان تقبل التنظيمـــات الفدائية المساعـــدة المـــالية والعسكرية من الدول العربية التقدمية . وعارض ١٣،٤٪ تلك المساعدات . ولم يعط

١١،٩٪ جوابا . وقال ٤٦،٢٪ من افراد المجموعة انه لا يتوجب على الثورة الفلسطينية ان تستمع الى النصائح والارشادات التي توجهها لها الـــدول العربية التقدمية مثـــل سوريا . بينما قال ٣٢،٨٪ منهم ان عليها ان تستمع الى تلك النصائح والارشادات . ولم يعط ٢٠،٨ ٪ منهم جوابا .

حول الموقف الذي يجب ان تقفه الثورة من الانظمة العربية التي تعارض الثورة ، سأل الباحث السؤال التالي : « يجب على المنظمات الفدائية ان : ــ لا تتصادم مع الانظمة العربية ــ ان تحاول القضاء على الانظمة العربية التي تقاوم العمل الفدائي الفلسطيني في اراضيها ــ ان تتصادق مع الدول العربية التقدمية مثل سوريا ومصر وتحـــاول قلب نظام الحكم في الانظمة العربية الرجعية والمجيء بسلطة تؤيد العمل الفدائي » . ويعتقد ٤٩،٢٪ من افراد المجموعة ان الموقف الافضل للمقاومـــة هو ان تتصادق مع الـــدول العربية التقدمية وتحاول قلب نظام الحكم في الانظمـــة العربية الرجعية والمجيء بسلطة تؤيد العمل الفدائي . بينما يرى ٣٧،٣٪ منهم ان على المقاومة ان تحاول القضاء على الانظمة العربية التي تقاوم العمل الفدائي الفلسطيني في اراضيهـــا (نلاحظ ان الموقف الثاني ليس سوى جزء من الموقف الاول وامتداد له) . ويعتقد ١٠،٤ ٪ منهم ان على المقاومة الا تصطدم بالانظمة العربية . ولم يعط ٢،٩٪ جوابا .

اولويات المعركة : سأل الباحث سؤالين حول اولويات المعركة همـــا : « يجب ان نركز جهودنا الان في المعركة على : ــ اسرائيل ــ اسرائيل والدول العربية الرجعية ــ الدول العربية الرجعية ــ اسرائيل والرجعية العربية والمصالـــح الامبريالية » . و « نظـــرا لقوتهم المحدودة ، يجب على الفدائيين ان يوجهوا جهودهـــم لمحاربة : اسرائيل فقط ، اسرائيل والدول العربية الرجعية في نفس الوقت ــ اسرائيل والدول العربية الرجعية وضرب المصالح الامبريالية في البلاد العربية » . وتعتقد الاغلبية (٧١،٦٪) من افراد المجموعة ان علينا ان نركز جهودنا في المعركة على اسرائيل والرجعية العربية والمصالح الامبريالية . ويعتقد ١٧،٩٪ منهم ان علينا ان نحارب اسرائيل والدول العربية الرجعية في نفس الوقت . ويعتقد ١٠،٤٪ منهم فقط ان علينا ان نركز جهودنـــا على محـــاربة اسرائيل لوحدها .

اعداء الثورة : سأل الباحث السؤال التالي حول اعداء الثورة الفلسطينية : « ان عدونا هو : اليهود ــ اسرائيـــل ــ الصهيونية ــ الامبريالية واسرائيـــل والرجعية العـــربية والصهيونية ــ الدول العربية الرجعية واسرائيل » . تعتقد الاغلبية الساحقة (٩١،٠٪) من افراد المجموعة ان عدونا هو الامبريالية واسرائيل والرجعية العربية والصهيونية . ويعتقد ٤،٤٪ منهم انها الدول العربية الرجعية واسرائيل فقط . بينمـــا يعتقد ٢،٩٪ منهم انها الصهيونية فقط . ولم يعط ١،٤٪ جوابا .

استنتاج : حول مفهوم مجموعة الميليشيا السياسي للثورة الفلسطينية :

المفهوم السياسي لجماعة ما هو المفهوم الذي يأخـــذ به ويتفق عليه معظم افراد تلـــك الجماعة . لذلك فان المفهوم الحالي الذي نستنتجه من دراسة مجموعة الميليشيا في مخيم عين الحلوة هو مفهوم اغلبية عناصر هذه المجموعة . ولا بـــد من الاشارة قبل عـــرض مفهوم هذه المجموعة الى ان عناصر فئتين منها ينتمون الى منظمتين فدائيتين يساريتين ، وبالتالي فمن المتوقع ان يكون المفهوم السياسي للمجموعة يساريـــا اكثر منه قوميا او اقليميا ضيقا .

تعتقد هذه المجموعة ان هـــدف الثورة الفلسطينية ليس تحرير فلسطين ، بـــل تحرير فلسطين وازالـــة الانظمة العربية الرجعية ومحـــاربة الامبريالية في المنطقة العـــربية ومساندة ثورة التحرر في العالم . كما تعتقد المجموعة ان قيادة الثورة يجب ان تكون في

يد الكادحين والمثقفين ابناء الكادحين . غير ان هناك فئة قوية في المجموعة تعتقد بان لكل فلسطيني مخلص وكفؤ الحق في قيادة الثورة مهما كانت طبقته . وتعتقد هذه المجموعة انه لا بد من وجود خط ايديولوجي محدد للثورة الفلسطينيـــة كي تسير عليه ، وتريد ان يكون هذا الخط خطا اشتراكيا . كما ان هذه المجموعة تؤمن بان الثورة الفلسطينية هي نواة لثورة عربية شاملة ضد الاستعمار .

تعتقد هذه المجموعة ايضا ان الثورة الفلسطينية جزء من الثورة العالمية ضد الامبريالية، وبالتالي فهي ترى ان القوى التي يجب ان تشارك في تحرير فلسطين هي : الفلسطينيون انفسهم ، الشعب العربي ، وكل قوى التحرر في العالم .

يبدو ان هناك هوة ثقة بين افراد هذه المجموعة من الميليشيـــا وبين الانظمة العربية اذ تعتقد فئة قوية من هذه المجموعة ان على التنظيمات الفدائية الا تثق بأي نظـــام عربي سواء كان تقدميا او رجعيا . اما الهوة بين هذه المجموعـــة والانظمة العربية الرجعية فكبيرة جدا ، خاصة وان افراد هذه المجموعة يدعـــون الى محاربة الانظمة الرجعية واسقاطها لانها تعارض العمل الفدائي .

لا يرى افراد هذه المجموعة ان هنـــاك اولويات في معركـــة تحرير فلسطين نركز عليها جهودنا ثم ننتقل لغيرها . فهم يحددون اعداء الثورة باسرائيل والدول العربية الرجعية والامبريالية والصهيونية . هؤلاء الاعداء بالنسبة لهذه المجموعة يشكلون عدوا واحـــدا وبالتالي لا مجال هناك لمحاربة احدهم وترك الاخرين لما بعد . لذلـــك ، ورغم معرفتهم لقوة الثورة المحدودة ، يعتقد افراد هـــذه المجموعة ان على الثورة ان تحارب اسرائيل والدول العربية الرجعية والمصالح الامبريالية في البلاد العربية في آن واحد .

هذا هو الفكر السياسي لمجموعـــة الميليشيا الذي اظهرته النتائـــج الاولية للدراسة . وصفاته المميزة انه فكر ثوري ، وانه يعكس خطا واضحـــا متماسكا ، ويدل على درجة عالية من الوعي السياسي عند اصحابه . اما اذا نظرنا الى داخـــل مجموعة الميليشيا التي شملتها الدراسة فنجد ان المنتمين الى تنظيم كالجبهة الشعبية او الصاعقة يتلقون تثقيفا وتوجيها سياسيا يخلق بينهم تجانسا في الفكر السياسي والمواقف السياسية اكثر مما هو الحال بالنسبة للمستقلين الذين لا يجمعون على موقف معين والذين تسود بينهم تيارات واتجاهات مختلفة ، رغم ان هذه التيارات والاتجاهـــات لا تخرج عن الاطـــار الوطني .

وتظهر صحة هذا الكلام من خلال مقارنة مجموعة الجبهة الشعبية مع مجموعة المستقلين حول عدة امور منها : وجود اجماع تام عند اعضاء الجبهة الشعبية حـــول هدف الثورة الفلسطينية (اي انه ليس تحرير فلسطين فقط) بينما يظهر الانشقاق في وسط المستقلين اذ يعتقد ٣٥٪ منهم ان هـــدف الثورة هو تحرير فلسطين فقط ، مقابـــل ٦٥٪ منهم لا يوافقون على هذا الكلام . وهناك ايضا اجماع تام عند افـــراد الجبهة الشعبية علـــى ضرورة واهمية العمليات الخارجية مثل ضرب مستودعات البترول في الدول العربية او خطف الطائرات ، بينما نجد انشقاقا متكافئا (٥٠٪) عند المستقلين حول هذا الموضوع. والامر نفسه صحيح بالنسبة لقيادة الثورة اذ يجمع افراد الجبهة الشعبية على وجوب كونها بيد الكادحين فقط ، بينما يتخذ ثلثا المستقلين فقط الموقف نفسه . ويظهر اجمـــاع المجموعة الموجهة سياسيا حول موضوع ضرورة اتباع الخط الماركسي اللينيني ، بينما ينقسم المستقلـــون الى مجموعتين احداهمـــا تؤلف ٦٥٪ والاخرى ٣٥٪ . النقطـــة الاساسية التي يمكن استنتاجها من هذه الملاحظات هي ضرورة التنظيم السياسي لاية ثورة وضرورة التثقيف والتوجيه السياسي لعناصر الثورة حول خط الثورة واهدافها لكي يزول اي شك او تردد حول الخط والاهداف مما يفسح المجال امام التراجـــع عنها او

تحويلها وهو ما يحصل عادة لمجموعـــات المستقلين ولا يمكن ان يحصل لمجموعة منظمة وموجهة سياسيا ضمن اطار او مفهوم موحد .

٢ ــ **موقف الميليشيا من حل المشكلة الفلسطينية (الحـــل السلمي)** : تناولت الدراسة موضوع الحل السلمي بدقة . فقد سألت اولا عن امكانية التوصل الى حل سلمي لقضية فلسطين . ثم سألت عن امكانية التوصل الى حل سلمي يرضي العرب واسرائيل . ثم سألت عن عدالة الحل السلمي الذي قبلت به الدول العـــربية حتى الان . ثم سألت عن امكانات واسباب نجاح او فشل مشروع روجرز . ثم سألت عن الامر الوحيـــد الذي يعتقد افراد الميليشيا انه يشكل حلا لقضية فلسطين .

حول امكانيـــة التوصل الى حل سلمي لقضية فلسطين قالت الاغلبية (٧٩٫١ ٪) من افراد المجموعة انه لا يمكن التوصل الى حـــل سلمي لقضية فلسطين . بينما قـــال ١٦٫٤ ٪ منهم انه يمكن التوصل الى حل لقضية فلسطين . ولم يعط ٤٫٤ ٪ منهم جوابا . وحول امكانية التوصل الى حل سلمي يرضي العرب واسرائيل ، تعتقد الاغلبية الساحقة من افراد المجموعة (٩٧٫١ ٪) انه لا يمكن التوصل الى حل كهذا . ولم يقل أي واحد بامكانية التوصل الى هكذا حل . اما النسبة المتبقية ٢٫٩ ٪ فلم تعط جوابا . وحول عدالة الحل الذي قبلت به الدول العربية ، تعتقد الاغلبية الساحقة (٨٩٫٥ ٪) انه حل غير عادل ابدا . ويعتقـــد ٧٫٤ ٪ انه يمكن ان يكون حلا عـــادلا اذا اجريت عليه بعض التعديلات . ولم يعط ٢٫٩ ٪ جوابا . وحول امكانات واسباب نجاح او فشل مشروع روجرز ، يعتقد ٥٢٫٢ ٪ من افراد المجموعة انه سيفشل نتيجة مقاومة الفلسطينيين له . ويعتقد ٢٣٫٨ ٪ منهم ، في المقابل ، انه سينجح اذا قبله الفدائيون . بينما يعتقد ١٧٫٩ ٪ انه سيفشل لان اسرائيل لن تطبقه . ويعتقد شخص واحد فقط (١٫٤ ٪) ان المشروع سينجح لان الدول الكبرى وبعض الدول العربية وافقت عليه . ولم يعط ٤٫٤ ٪ جوابا . اما حول المخرج الذي يعتقد افراد المجموعة انه يشكل الحل الوحيد للقضية الفلسطينية، فقد توزع افراد المجموعة كالتالي : الاغلبية الساحقة (٩١٫٢ ٪) منهم يعتقدون ان الحل الوحيد هو حرب تحرير شعبية تشترك فيها الجيوش العربية والفدائيون. ويعتقد ٥٫٩ ٪ منهم ان الحل الوحيد هو حرب نظامية خاطفة تقوم بهـــا الجيوش العربية وحدهـــا . ويعتقد ٢٫٩ ٪ منهم ان الحل الوحيد هو حرب تحرير شعبية يقوم بها العمـــل الفدائي وحـــده .

استنتاج : يعتقد معظم افـــراد مجموعة الميليشيا التي شملتهـــا الدراسة انه لا يمكن التوصل الى حل سلمي للقضية الفلسطينية ، ناهيك عن التوصل الى حل يرضي العرب واسرائيل . ويعتقد هؤلاء ان الحل السلمي الذي قبلت به بعض الدول العربية هو حل غير عادل اطلاقا . كما يعتقدون انه سيفشل اساسا لان الفلسطينيين يقاومونه ، ثم لان اسرائيل لن تطبقه . ويعتقد بعضهم (٢٣٫٨ ٪) ان الامل الوحيد في نجاح هذا الحل هو قبول الفدائيين له .

٣ ــ **دور اسرائيل في المنطقة** : سأل الباحث سؤالين حـــول دور اسرائيـــل في المنطقة العربية هما : «اسرائيل اداة استعمارية ينفذ بها الاستعمار اغراضه في الوطن العربي». و « اسرائيل ليست اداة استعمارية ولكنها قوة مستعمرة التقت مصالحها مع مصالـــح الـــدول الاستعمارية الكبرى » . قال ٨٣٫٥ ٪ من افـــراد المجموعة انهم يوافقون على الجملة القائلة بأن اسرائيـــل اداة استعمارية ينفذ بها الاستعمـــار اغراضه في الوطن العربي . بينما قال ٧٫٤ ٪ منهم انهم لا يوافقون على هذا الكلام . ولم يعط ٨٫٩ ٪ جوابا. وقال ٦١٫١ ٪ منهم ان اسرائيـــل ليست اداة استعمارية لكنهـــا قوة مستعمرة التقت مصالحها مع مصالح الـــدول الاستعمارية الكبرى . بينمـــا قال ٢٦٫٨ ٪ منهم انهم لا يوافقون على هذه الجملة . ولم يعط ١١٫٩ ٪ جوابا .

استنتاج : قد يبدو ان هناك تناقضات بين الذين قالوا ان اسرائيل اداة استعمارية (٨٣،٥٪) ثم عاد بعضهم (٦١،١٪) وقال انها ليست اداة استعمارية انما هي قوة مستعمرة التقت مصالحها مع مصالح الدول الاستعمارية الكبرى . لكن في الواقع ان هذه الفئة المشتركة تود ان تقول ان اسرائيل هي الامران معا : اداة استعمارية وقوة مستعمرة (وهذا هو البديل الثالث الذي كان يتوجب على الباحث طرحه) . تبقى هناك فئتان : الاولى (٧،٤٪) تعتقد ان اسرائيل ليست اداة استعمارية انما قوة مستعمرة . والثانية (٢٦،٨٪) تعتقد ان اسرائيل ليست قوة مستعمرة انما اداة استعمارية فقط .

٤ ــ **حرب التحرير الشعبية** : عمدت الدراسة الى معرفة الرؤية عند افراد الميليشيا عن حرب التحرير الشعبية كتصورهم مثلا للرقعة الجغرافية التي ستشملها هذه الحرب ، والطبقات او الفئات التي ستشترك في هذه الحرب . تعتقد الاغلبية الساحقة (٩١،٢٪) من افراد المجموعة ان فلسطين لا يمكن ان تتحرر الا اذا شملت حرب التحرير الشعبية كل المناطق العربية المحيطة باسرائيل بما فيها سوريا ومصر والاردن والعراق . ويعتقد ٢،٩٪ منهم ان هذا الشرط ليس ضروريا لتحرير فلسطين . ولم يعط ٥،٩٪ جوابا . وحول من يشترك في الحرب الشعبية ، فان معظم افراد المجموعة (٦٨،٨٪) يعتقدون ان كل طبقات الشعب الفلسطيني يجب ان تشترك في حرب التحرير الشعبية ، بينما يعتقد ٢٢،٣٪ منهم ان العمال والمثقفين هم الذين يجب ان يشتركوا في تلك الحرب . ويحصر ٥،٩٪ منهم حرب التحرير الشعبية بالطبقات الكادحة . ولم يعط ٢،٩٪ جوابا.

استنتاج : يعتقد معظم افراد المجموعة التي شملها البحث ان حرب التحرير الشعبية هي الطريق الوحيد لتحرير فلسطين ، وأن هذه الحرب يجب ان تمتد لتشمل كل دول « الطوق » او الدول العربية المحيطة بأسرائيل ، وان على كل طبقات وفئات الشعب ان تشارك في هذه الحرب .

مستقبل الدولة بعد التحرير : لقياس تصور افراد الميليشيا لمستقبل فلسطين بعد التحرير ، سأل الباحث السؤال التالي : « اذا تم تحرير فلسطين يجب ان تقوم فيها : ــ دولة ديمقراطية يعيش فيها العرب من مسلمين ومسيحيين ويهود ــ دولة ديمقراطية يعيش فيها المسلمون والمسيحيون العرب واليهود من الاصل العربي والاوروبي ــ دولة لا يسمح لليهود مهما كان اصلهم من العيش فيها ــ دولة عربية على ان تكون القدس مفتوحة لكل الناس من مختلف الاديان » .

قال معظم افراد المجموعة (٦٤،١٪) انه اذا تم تحرير فلسطين فهم يريدون ان تقوم فيها دولة ديمقراطية يعيش فيها العرب من مسلمين ومسيحيين ويهود . وقال ٢٥،٣٪ منهم انهم يريدون ان تقوم فيها دولة عربية على ان تكون القدس مفتوحة لكل الناس من مختلف الاديان . وقال ٧،٤٪ منهم انهم يريدون دولة ديمقراطية يعيش فيها العرب المسلمون والمسيحيون واليهود من الاصل العربي والاوروبي . وقال ٢،٩٪ منهم فقط انهم يريدون دولة لا يسمح لليهود مهما كان أصلهم من العيش فيها .

استنتاج : معظم افراد المجموعة يريدون دولة عربية ديمقراطية في فلسطين بعد التحرير.

دور الميليشيا الشعبية : هناك اعتقاد منتشر في اوساط الناس بأن دور الميليشيا هو حراسة المخيمات فقط (اي دور عسكري صرف) . لذلك سأل الباحث افراد الميليشيا اذا كانوا يوافقون على الاعتقاد الشائع : « دور عنصر الميليشيا هو الدفاع عن المخيم فقط » . قال معظم افراد المجموعة (٧٦،١٪) ان هذه جملة خاطئة ، بينما قال ١١،٩٪ منهم انها جملة صحيحة . ولم يعط ١١،٩ ٪ منهم جوابا . وبعد ذلك عدد الباحث ادوارا ليرى أي منها يختار افراد الميليشيا وهذه الادوار هي : الصاق البيانات ، الحراسة ، ونشر فكر المنظمة بين الجماهير . قال ٥٩،٧ ٪ من افراد المجموعة انهم سيختارون

نشر فكر المنظمة بين الجماهير ، بينما قال ١٦،٤ ٪ منهم انهم سيختارون الحراسة . لم يختر أي واحد الصاق البيانات . وقال ١٧،٩ ٪ انهم لا يعرفون ماذا سيختارون . ولم يعط ٥،٩ ٪ منهم جوابا .

استنتاج : يعتقد معظم افـــراد الميليشيا ان دورهـــم الاساسي هو نشر فكر منظماتهم السياسي بين الجماهير ، وان دورهم الاخر هو حراسة المخيمات والـــدفاع عنها . ان تصورهم لدورهم هو كونه دورا ذا شقين سياسي وعسكري .

تحليل القسم الثاني

مدى رسوخ العشائرية في علاقات افراد الميليشيا ببعضهم بعضا وبالآخرين :

العشـائرية نمط من العلاقات الانسانية يركز على التصاق الفرد بعائلته او جماعته الى حد يجعله يتقبل ويدافع عن كل ما تقوله عائلته او جماعته سواء كان صحيحا او خاطئا. كما ان هذا الارتباط بالعائلة او الجماعة (او التنظيم او الحزب على مستوى اخر) يحد من تفكير الفرد ويجعله غير قادر على تخطي او مخالفة تفكير الجماعة . اخيرا ، تخلق العشائرية في نفس الفرد زخما عاطفيا يبرز بقوة في حال وجود اي خلاف بين جماعته وجماعة اخرى . وفي الاوقات العادية تطبع هذه العاطفة القوية علاقات افراد المجموعة نفسها بعضهم ببعض . العلاقات العشائرية تجعل الجماعة او العائلة او التنظيم محور حياة الفرد ومرجعه في كل الامور ، بحيث تمنعه من تخطيها والتعاطف مع سلطة مركزية لا شخصية كالدولة او القضاء ، او في هذه الحالة الكفاح المسلح .

سأل الباحث بضعة اسئلة حول مستوى الولاء عند عناصر الميليشيـــا أهو ولاء للمنظمة الفدائية او للعائلة او للقرية او للمخيم ككل او للثورة الفلسطينية تعتبر مؤشرات جيدة لمدى رسوخ الروح العشائرية في نفوس افراد الميليشيا وتأثيرها على علاقاتهم الشخصية والتنظيمية . وهذه الاسئلة هي : ١ ــ « لو حصل خلاف بين أحد اقربائك وأحد عناصر الميليشيا في منظمة تنتمي اليها او تؤيدها ولم تستطع ان تعرف من هو المذنب وكلاهمـــا طلب منك المساعدة فماذا تفعـــل ؟ » . ٢ ــ « اذا حصل خلاف بين عنصر ميليشيا وشخص اخر لا ينتمي الى اية منظمة فدائية ، فالى من تعتقد يجب ان ترفع القضية لحل الخلاف ؟ » . ٣ ــ « اذا حصل خلاف بين اثنين من عناصر الميليشيا وطلب حق التدخل كل من المنظمتين الفدائيتين اللتين ينتميان اليهما وافراد عائلة كل منهما ، فمن تعتقد له حق التدخل ؟ » ٤ ــ « اذا وقعت في ضائقة مالية فمن اين تطلب المساعدة : ــ الاقرباء، الكفاح المسلح ــ المنظمة الفدائية التي انتمي اليها ــ الاصدقاء » . ٥ ــ « اذا الم بــك مرض ولم تملك نقودا للمعالجة ، فمن اين ترغب في طلب المساعدة : ــ المنظمة الفدائية التي انتمي اليها ــ افراد عائلتي او اقربائي ــ اصدقائي » . ٦ ــ « يجـــب على عضو الميليشيا ان : ــ يدافع عن وجود المنظمة الفدائية التي ينتمي اليهـــا فقط ــ عن المخيم بكامله ــ عن اي مخيم للشعب الفلسطيني اذا احتاج الامر الى ذلك » .

١ ــ قال معظم افراد المجموعة (٥٩،٧ ٪) انهم سيطلبون تدخل اقربائهم والمنظمة التي ينتمي اليها عنصر الميليشيا ، اذا حصل خلاف بين احد اقربائهم واحد عناصر منظمتهم . وقال ٢٦،٨ ٪ منهم انهم سيطلبون تدخل منظمتهم فقط. وقال ٧،٤ ٪ منهم انهم سيطلبون تدخل اقربائهم فقط . وقال شخص واحد فقط (١،٤ ٪) انه سيدافع عن قريبه . ولـــم يعط (٤،٤ ٪) جوابا .

٣ ــ قال معظم افراد المجموعة (٦٤،١ ٪) انه اذا حصل اي خلاف بين عنصر ميليشيا وشخص اخر لا ينتمي الى اية منظمة فدائيـــة فان القضية يجب ان ترفع الى الكفـــاح المسلح لحل الخلاف . بينما قال (١٩،٥ ٪) انها يجب ان ترفع الى المنظمة التي ينتمي

اليها عنصر الميليشيا . وقال (١١،٩٪) انها يجب ان ترفع لعائلة او اقرباء كل من عنصر الميليشيا والشخص الاخر . قال شخص واحد (١،٤٪) ان القضية يجب ان ترفع الى وجهاء المخيم . ولم يعط (٢،٩٪) جوابا .

٣ ــ قال معظم افراد المجموعة (٥٨،٢٪) انه اذا حصل خــلاف بين اثنين من عناصر الميليشيا وطلب حق التدخل كل من المنظمتين الفدائيتين اللتين ينتميان اليها وافراد عائلة كل منهما فان الحق في التدخل يكون للمنظمتين فقط . بينما قال (٥،٩٪) ان حق التدخل يكون للعائلتين فقط . وقال ٣٥،٨٪ ان حق التدخل يكون للمنظمتين والعائلتين معا .

٤ ــ قال نصف افراد المجموعة ٥٠،٧٪ انهم اذا وقعوا في ضائقــة مالية سيطلبــون المساعدة من اصدقائهم ، بينما قال ٢٥،٣٪ انهم سيطلبونها من اقربائهم. وقال ١٤،٩٪ انهم سيطلبونها من المنظمة التي ينتمون اليها . وقال ٤،٤٪ انهم سيطلبونها من الكفاح المسلح . ولم يعط ٤،٤٪ جوابا .

٥ ــ قال ٣٤،٣ ٪ من افراد المجموعة انهم اذا مرضوا ســيطلبون نقودا للمعالجة من المنظمة الفدائية التي ينتمون اليها ، بينما قال ٢٦،٨٪ انهم سيطلبونهــا من عائلتهم او اقربائهم . وقال ١٩،٥٪ انهم سيطلبونها من اصدقائهم . ولم يعط ١٧،٩٪ جوابا .

٦ ــ قالت الاغلبية الساحقة (٨٨،٣٪) من افراد المجموعة ان على عضو الميليشيا ان يدافع عن اي مخيم للشعب الفلسطيني اذا احتاج الامر لذلك . وقال ٤،٤٪ ان علــى عضو الميليشيا ان يدافع عن المخيم بكامله . ولم يقل اي فرد ان على عضو الميليشيا ان يدافع عن وجود المنظمة الفدائية التي ينتمي اليها فقط . ولم يعط ٧،٣٪ جوابا .

استنتاج :

يبدو ان معظم افراد مجموعــة الميليشيــا التي شملتها الدراسة قد تخطــوا الولاءات العشائرية في مجال الخلافات الشخصية بين اقرباء لهم وزملاء في التنظيم ، او بين زميل في التنظيم وشخص من خارج التنظيم . فهم يدعون ، في هذا المجال ، الى رفع القضية الى الكفاح المسلح للبت فيها ، او يقصرون حق التدخل على المنظمات الفدائية . لكنهم لا يبادروا الى اخذ القضية بأيديهم ، ولا يعطوا عائلتهم اولوية التدخل او يحصروا حق التدخل بها . لكن ما زال للعائلة مكانة تلي مكانة السلطة اللاشخصية الجديدة . كمــا تخطى افراد هذه المجموعة العشائرية بمفهومها الجغرافي الضيق فلم يقل اي منهم ان واجبه هو الدفاع عن وجود منظمته فقط ، بينما قال معظمهم ان واجبه الدفاع عن اي مخيم فلسطيني يحتاج الى حماية . غير ان العائلة والصديق ما زالا يحتلان المكانة الاولى كمرجع لحاجات الفرد الشخصية ، كالنقود او العلاج . وهذا امر مفهوم لان التنظيم لا يستطيع ان يكون البديل في مجال تلبية الحاجات الشخصية لافراده .

هناك نقطة يجب ان ننبه اليها . فقد بدا ان معظم افراد المجموعة قد تخطوا العلاقــات الشخصية والعشائرية وذلك بتطلعهم الى السلطة الجديدة والى تنظيمهم العسكري ــ السياسي . لكن نخشى ان تكون العلاقات داخل التنظيــم والسلطة الجديدة علاقات شخصية ، فيكون كل من التطور الذي حدث عندئذ هو استبــدال العائلة بالتنظيم دون تخطي العلاقات الشخصية . وجلاء هذه النقطة يحتاج الى دراسة طبيعة العلاقات داخل التنظيم والكفاح المسلح .

المسألة الفلسطينية في الادب العربي الحديث

صالح ج. الطعمة

ان قضية فلسطين لا تجاريها اية قضية أخرى كمصدر للمواضيع الادبية في الادب العربي الحديث . وطيلة ما ينيف على خمسين عاما ، أي منذ صدور تصريح بلفور عام ١٩١٧ ، استأثرت فلسطين بانتباه عدد متزايد من الشعراء والمسرحيين والروائيين والنقاد الادبيين وغيرهم من الكتاب(١) . لكن المرء يفتش عبثا عن محاولات غربية جدية تهدف الى دراسة هذا المظهر في الادب العربي . حتى ان تلك المختارات او الترجمات القليلة ، والتي اختارها واعدها الباحثون البريطانيون والاميركيون عن الاعمال الادبية العربية خلال العشرين سنة الماضية ، يبدو عليها التملص الكلي تقريبا من القصائد والقصص والمسرحيات المتصلة بالمسألة الفلسطينية(٢) . وهي بذلك لا تقصر عن تحقيق نظرة متزنة الى الادب العربي الحديث فحسب ، بل تفشل في تطوير تبصر لعقل الشعب العربي وروحه ، من خلال تصدي هذا الشعب للتغلب على واحدة من اكبر مشكلاته الحديثة . فالقيمة العائدة لمثل هذا المنحى الادبي ليست بحاجة الى مزيد من التوكيد . ومع ذلك ، ما فتىء الكثيرون من دارسي العالم العربي يشعرون برغبة تدفعهم لالتماس الشيء الذي صار مألوفا : في دراسة الادب العربي كأداة نحو فهم افضل للعالم الذي يعكسه هذا الادب . ولفترة حديثة العهد فقط شعر احد كبار المستشرقين الايطاليين — اومبرتو ريتزيتانو — بالحاجة الى التشديد على هذه النقطة . حيث قال : « ليس باستطاعة اي عمل من اعمال البحث في التاريخ القديم والحديث للشعوب العربية ، ولا أية دراسة عن السياسة الغربية في الشرق الادنى ، ادعاء الشمول والاستنفاد فيما لو أهمل مؤلفها معرفة روح هذه الشعوب ، وتغافل عن الحدود والنواحي المتصلة بما يدعى « وجدان الجماهير » — هذا الوجدان الذي يحاول الكتاب تقديمه لنا من خلال رواياتهم وقصائدهم ومسرحياتهم . ان هذا النتاج الادبي هو المعين الحقيقي والثمين للتاريخ »(٣) .

ودراسة الادب العربي الذي يدور حول النزاع الفلسطيني تتكشف عن عدد من الخصائص أو الاتجاهات العامة . فمن زاوية الانواع الادبية ، يتقدم عليها الشعر باعتباره الوسيط الاوسع انتشارا . ليس لان الشعر كان على مدى قرون طويلة بمثابة النوع الادبي الاول في العربية فحسب ، بل ولانه يمثل الاداة الاشد فعالية للوصول الى جمهور أوسع ولايقاظ الرأي العام أو تكوينه . وكما قال الناقد الفلسطيني جبرا ابراهيم جبرا : « يمكن ادانة الشعر باعتباره لعبة ضعيفة للغاية أمام البنادق ، لكنه في الواقع الفعلي غالبا ما كان يضاهي الديناميت من حيث الجودة . لقد أعطى الاتجاه لغضب وآلام أمة بأسرها . وقام على بلورة المواقف السياسية في سطور معبرة حفظها الشيب والشبان ، لكي تزيد في صلابة المقاومة الشعبية وتزودها بالشعارات الحماسية »(٤) . لذا ليس هناك ما يبعث على الدهشة في الملاحظة بأن الكثير من هذا الشعر هو خطابي

* وضع هذا البحث ، في الاصل ، باللغة الانجليزية . ويرغب كاتبه الاعراب عن تقديره لجامعة انديانا التي قدمت له منحة اتاحت له القيام بدراسة عامة للادب العربي الحديث .

ونضالي او تعليمي، وانه يتناول موضوعات تبدو للذوق الغربي مفرطة في طابعها العملي بحيث لا تصلح كمضمون مشروع للشعر . أما الانواع الادبيـــة الاخرى ، مثل الادب القصصي أو المسرحي، فقد لعبت حتى الان دورا ثانويا في ابراز الموضوعات الفلسطينية. ويمكن تفسير ذلك بالرجوع الى عدد من الاسباب ، منها ان هذين النوعين مستحدثان في العربية وما برحا في مرحلة النمو والتطور . بناء عليه ، فان رد الفعل الصادر عـــن الروائيين وكتاب القصة القصيرة والكتاب المسرحيين ازاء المشكلة يبدأ متأخرا ، وربما ليس قبل الاربعينات . بينما أخذ الشعر في تناولها منذ فترة باكرة يرجع عهدها الى سنة ١٩١٧ .

وفيما يتصل بالتمثيل القطري لدى الادب ذي التوجه الفلسطيني ، لقد شارك الادباء من جميع البلدان العربية بدرجات متنوعة . لكن البلدان المتورطـــة اشد التورط هي ، بالاضافة الى فلسطين ، البلدان التالية : سوريا ولبنان والعراق ومصر . وتوحي دراسة صدرت مؤخرا بالعربية حول فلسطين في الشعر العربي (١٩١٧ ــ ١٩٥٥) بأنه خلال الفترة السابقة لقيام اسرائيل استأثرت سوريا بالنصيب الاكبر من النتاج الادبي ، يليها لبنان والعراق ، وثم مصر . أما الفترة اللاحقة لقيام اسرائيل ، فيبدو أن العراق يحتل المقدمة فيها، ثم تليه سوريا ومصر ولبنان(٥). ورغم التساؤلات التي قد يثيرها المرء حول المقاييس التي تستند اليها هذه الاستنتاجات ، فانه ليس بعيدا عـــن المألوف ان تكون البلدان المحاذية لمسرح النزاع هي الاكثر انشغالا به عما عداها . والى جانب الدور الذي لعبته الدول العربية ، فان الكتاب الاميركيين من أصل عربي ، في كل من الولايات المتحدة وأميركا الجنوبية ، أسهموا في نمو هذا الادب ، وان يكن الدور الذي قام به فريق أميركا الشمالية دورا ثانويا لدى مقارنته بدورهم في اميركا الجنوبية . من الولايات المتحدة تأتينا أصوات أمين الريحاني (١٨٧٦ ــ ١٩٤٠) وايليا ابو ماضي ، الشاعر والصحافي الكبير (١٨٩٤ ــ ١٩٥٧) . لكن أميركا الجنوبية تزودنا بآثار ما ينيف على عشرة من الادباء الراسخين ، من الذين مارسوا الكتابة بنشاط حتى الوقت الحاضر .

فلو نظرنا الى هذا الادب من الزاوية الدينية أو الايديولوجية ، لتبادر الى ملاحظتنا ان جميع الظلال تتمثل فيه . والحق يقال انه ليس هناك من قضية أخرى نالت مثل ذلك الاهتمام الجامع ، فتخطت الحدود السياسية أو الدينيـــة : فالمسيحيون والمسلمون والدروز ، واليهود في بعض الاحيان ، والعروبيون والاشتراكيون والشيوعيون وغيرهم ، قد استجابوا للمأساة في أعمالهم الادبية بصوت واحد تقريبا في ادانة الظلم الذي اعتبروه مقترفا بحق العرب . ولكي يتسنى تقديم نظرة شاملة لهذا الادب ، من المستحسن أن تجري دراسة خط تطوره على مرحلتين : المرحلة السابقة لقيام اسرائيل ، والمرحلة اللاحقة .

[١]

تتميز الفترة الاولى بعدد من الموضوعات والبواعث التي تعكس استجابة الكتاب العرب للاخطار الخارجية ، واكتشافهم المؤلم للآفات التي تشل مجتمعهم ، بالاضافة الى رؤيا مأساوية للنكبات التي كان من المقدر حدوثها مع انشاء اسرائيل وعقب قيامها . ومن بين هذه الموضوعات تأتي في الطليعة الفكرة القائلة بأن تصريح بلفور الذي يعد باقامة وطن قومي يهودي في فلسطين،كذلك السياسات الغربية حيال الاماني العربية المتطلعة صوب كيان مستقل وموحد ، كلاهما يمثل اخلالا بالوعود السابقة ونكرانا للمعروف وجحودا . فالشاعر العربي في استطراده حول هذا الموضوع يستحضر صور الحملات الصليبية لكي يوحي بأن الغرب يقتفي خطوات الصليبيـــين في لقائه الجـــديد مع الشرق العـــربي والاسلامي . ويمكن الاستشهاد بثلاثة شعراء ، من سوريا ولبنان والعراق ، لتبيان هذا الموضوع في مرحلته الباكرة . ان خيرالدين الزركلي (١٨٩٣ ــ) ، وهو شاعر

سوري وبحاثة بارز في مراجع التاريخ العربي — الاسلامي ومصادره ، كان من بين الاوائل الذين عبروا عن شعورهم بالخيبة ونقمتهم ضد سياسة التفرقة والانقسام التي تسير عليها كل من بريطانيا وفرنسا . ففي قصيدة له كتبها عام ١٩١٩ ، نجده يتحسر على لامبالاة العرب التي تبدت بينما كان « الوطن السوري » يقتطع الى أجزاء وكيانات: لبنان وسورية وفلسطين . وهو يسعى ، من خلال استحضاره لامجادهم الماضية ، الى أن يخلف لديهم الانطباع بالحاجة الملحة الى الاتيان بعمل بطولي جديد . ان الزركلي يردد أصداء روح القصيدة التقليدية (المعلقة الجاهلية) لكي يلتمس في البداية تلك الجذور التاريخية العربية للارض كمقدمة لرفضه المزاعم الغربية في ادعاء أي جزء من وطنه . ثم يتحدث عن محاولة شعبه لصيانة حقوقهم عن طريق المفاوضات السلمية على أمل اهتداء الغرب — الذي ترمز اليه الشراهة — الى جادة الرشاد . ويلجأ اخيرا الى أسلوب شعري قديم هو قسم اليمين ، حيث يقسم بأنه لو غادر المعتدون وطنه ، فان شعبه سوف ينظر الى بادرتهم بعين الود والصداقة . اما اذا استمروا في عدوانهم ، فالسيف هو الحد الفاصل في ثورة عربية متجددة(٦) .

ان وديع البستاني (١٨٨٦ — ١٩٥٤) ، المسيحي اللبناني الذي انضم الى الادارة البريطانية في فلسطين عام ١٩١٧ ، اعترته الصدمة لدى وصوله اذ راى مكتبا للوكالة اليهودية ، مما حمله على النظر الى ذلك المكتب كعلامة تنذر بالشؤم . فقد عبر عن مشاعره في قصيدة خاطب فيها البريطانيين مذكرا اياهم بقوله :

فتحنا لكم صدرا مددنا لكم يدا وإني لاخشى ان تديروا لنا ظهرا

ثم يتحدث عن هوة سحيقة تزداد عمقا بين شعبه والبريطانيين ، ويطلق تحذيره لرؤية « الوطن القومي يعلو بناؤه » . ان سوء ظنه بالسياسة البريطانية وارتيابه بالاطماع الصهيونية هي موضوعات استمرت تتخلل شعره طيلة ما يزيد على ثلاثين عاما. وديوانه الذي يحمل عنوان « فلسطينيات » (١٩٤٦) هو خير شاهد على ذلك(٧) .

ويحاول الموضوع الثاني أن يدلل على كون المعارضة ليست موجهة ضد اليهود او ضد الهجرة المحدودة ، بل هي موجهة بالاحرى ضد فرض حل أوروبي وأجنبي يضير بحقوق الاكثرية في فلسطين . فباستطاعة المرء ان يذكر أمثلة عديدة لا تبرهن على هذه النظرة فحسب ، بل تبين الاحترام للتراث الديني اليهودي . وقبل شهرين من صدور تصريح بلفور قام أمين الريحاني ، وهو شخصية مسيحية بارزة في أوساط الجالية العربية — الاميركية بمدينة نيويورك ، بنشر مقالة في احدى المجلات الدورية الاميركية تحت عنوان « البلاد المقدسة : من يمتلكها ويحتفظ بها »(٨)، حيث كرر النقطة ذاتها . ان الريحاني رفض الصهيونية باعتبارها غير عملية ومشحونة بالاخطار ، لكي يتراءى له كحل مثالي : قومية سورية تشمل جميع العناصر الدينية في البلاد السورية بأكملها . فهو يقول : « اليهود السوريون والمسيحيون السوريون والمحمديون السوريون سوف يكونوا جميعا مواطنين لبلاد واحدة ، لبلاد تبقى موحدة وغير قابلة للتجزئة ، ومما يرتجى لها ان تتمتع في القريب العاجل ببركات حكم ليبرالي وعادل ، حيث كل أمرىء . . . يشارك بالتساوي في الحقوق الدينية والسياسية نفسها ، وينعم بالمساواة اياها في الحرية والحماية »(٩). وفي العام ١٩٢٠ ، عندما كان المناخ السياسي في فلسطين متوترا ، قام الشاعر العراقي الكبير معروف الرصافي (١٨٧٣ — ١٩٤٥) بتوجيه قصيدة الى هربرت صموئيل ، المندوب السامي اليهودي ، مشددا فيها على صلات القربى بين العرب واليهود ، لكنه حذر أيضا من انتهاك الحقوق العربية(١٠). أما أحمد شوقي (١٨٦٨ — ١٩٣٢)، الشاعر العربي الوحيد الذي جرى تتويجه اميرا للشعراء ، فانه يعتز في قصيدة وطنية له يعظم بها مصر بحقيقة كون التراب المصري قد باركه موسى الذي اجترح معجزة العصا . وفي مناسبة أخرى يأتي شوقي من جديد على ذكر موسى في معرض تغنيه بنهر النيل . والحق

ان شوقي ذهب الى ابعد من ذلك ، فعمد ابان وجوده في المنفى الى التوحيد بين ذاته وبين موسى ، جاعلا مصر مقام أم موسى(١١).

من هذه الامثلة وغيرها يتضح ان الادب العربي الحديث في مرحلته الباكرة لا يتكشف عن صورة مناوئة لليهود(١٢). لكن هذا الادب بدوره ، مع زوال التشديد على الهوية الدينية لليهود أنفسهم وانغماسها التدريجي في خضم الصهيونية ، سرعان ما أخذ في تطوير صورة جديدة لليهود ، تقوم على انتقادهم بشدة والارتياب بأمرهم ، ليس بصفتهم ينتمون الى ديانة ، بل في كونهم دعاة يروجون لارتكاب ظلم سياسي .

ومما تجدر ملاحظته ان الشخصيات اليهودية غير الصهيونية في رواية آرثر كوستلر « لصوص في الليل » (١٩٤٦) تقدم صورة لا تختلف كثيرا عن النقطة الواردة أعلاه . فالرواية ، مثلا ، ترسم صورة لاحد اليهود الارثوذكسيين بفلسطين جاعلة اياه يقول ما يلي : « على أيام الاتراك القديمة كان بضعة الاف من اليهود في البلاد ينعمون بالتساهل من جانب المسلمين ، فيما عدا بعض الحوادث الطفيفة من حين الى اخر ، وهي غير جديرة بالذكر . أما الان ، ولدى مجيء الصهيونيين ومجاهرتهم بدولة عبرية ، فقد صار العرب يناصبونهم العداء »(١٣). ويمكن قول الشيء ذاته عن شخصية أخرى تقدمها رواية كوستلر لاستاذ في الجامعة العبرية ، اذ يشعر هذا الاستاذ انه لولا وجود المتطرفين على الجانبين ، « لاستطاع كل من العرب واليهود ان يعيشوا سعداء جنبا الى جنب ، كما عاشوا منذ الف سنة في اسبانيا » ثم يرد الكلام التالي على لسان الاستاذ : « المتعصبون الشبان عندنا يريدون اكثرية يهودية . ما هذا الكلام ؟ استفزاز . ما هي الاعداد ؟ ما هي الكميات ؟ الروح هي التي تدخل في الحساب . يجب علينا الدخول بروح المودة والتفاهم على اصدقائنا العرب . فاليهود يمقتون العنف . انها رسالتنا التاريخية »(١٤).

والموضوع الثالث الذي جرى التشديد عليه باستمرار هو الحرمة الدينية لمدينة القدس . هذا النوع من الاستهواء يستمد دعامته من مكانة القدس المحورية في التفكير الديني الاسلامي . بينما لا يسمح المجال هنا سوى ببعض التلميحات القصيرة . فالقدس تمثل تاريخيا « اولى القبلتين » ، أي المكان الاول الذي اتجهت صوبه انظار المسلمين الاوائل ابان تأدية الصلاة . وهي تمثل ، بنظر المسلم المؤمن عن حق ، تلك البقعة المقدسة التي زارها النبي محمد في ليلة اسرائه وانطلق منها في صعوده الى السماء . ونتيجة لذلك لا يتقدم عليها في مجال التقديس سوى توأم مكة والمدينة (القدس هي ثالث الحرمين) . كما يجري اعتبارها ، فضلا عن ذلك كله ، بمثابة « عرصة القيامة » ومشهد يوم الدينونة(١٥). ان الشاعر العربي ، في تناوله لبعض من هذه الموضوعات ، غالبا ما يلمح الى الصليبيين لكي يوحي بأن الغرب يسير على طريق مماثلة في اللقاء الجديد مع الشرق العربي الاسلامي ، ومن هنا كان الاستحضار الحتمي لشخص صلاح الدين ، الذي انتصر على الصليبيين عام ١١٨٧ . لقد جيء على ذكر هذا البطل المعظم قبل ظهور النزاع الفلسطيني ، لكن التواتر الذي يستحضر به اسمه جعل من صلاح الدين موضوعا أدبيا بارزا عبر استمرار الادباء العرب في تصوير المأزق الحاضر وفي تفتيشهم عن منقذ جديد أو حل للازمة(١٦).

رابعا ، وبالاضافة الى هذه الموضوعات الخارجية ، جرى التعريض مرارا وتكرارا بمختلف العلات والامراض الداخلية التي تراوحت بين أنانية الملاكين في بيع أراضيهم من العدو وبين الانقسام الذي أعاق الكثير من مسيرة المقاومة العربية . فالشاعر الفلسطيني ابراهيم طوقان (١٩٠٥ — ١٩٤١) كرس العديد من قصائده لهذه الموضوعات ، وأجرى في بعض تلك القصائد مقارنة بين المنجزات التي حققتها

المستوطنون اليهود وبين الاعمال الهدامة التي صدرت عن الاحزاب العربية من خلال انغماسها في الخلافات التافهة والتناحر الاناني .

وأخيرا ، حيال ادراكه لقيام « العدو » على التنفيذ الهادىء لخطة مرسومة بعناية فائقة بغية احتلال فلسطين ، وفي ازدياد وعيه للنقص الذي يعتري رد شعبه على التحدي ، وجد الشاعر العربي نفسه عالقة بين عالمين متصارعين : عالم من التفاؤل القائم على احساسه بعدالة قضيته ، وعالم الواقع العاجز عن تحقيق تفاؤله ، نظرا لما يعتريه من فساد وانانية ، وللقيم البالية التي تسوده . فهو يبدو ، من جهة ، مدفوعا بروح العزيمة المصممة على الصمود بوجه العدوان الاجنبي الجديد ، يحركه ايمان صوفي بالنصر النهائي لقضيته في فلسطين . ومن جهة ثانية ، تجتاحه رؤيا نبوئية ومحزنة لاقتراب حدوث النكبة . ان الشعراء الفلسطينيين وغير الفلسطينيين على السواء كانوا ذا أثر في استنباط رؤيا مأساوية للتطورات المنتظرة . فالجواهري ، وربما كان اكبر الشعراء الاحياء من المدرسة التقليدية ، وغالبا ما اشتهر بأبياته التنبوئية ، تنبأ بضياع فلسطين منذ ما ينيف على ثلاثين عاما(١٧). لكن بما ان الشاعر الفلسطيني امتاز عن غيره من الشعراء العرب بالعيش الفعلي وسط الاحداث الجارية في بلده ومعاناة هذه الاحداث ، فان هذه الرؤيا المأساوية تتحول لديه الى هاجس يستحوذ على نفسه والى سمة تميز شعره . فالشاعر عبد الرحيم محمود (توفي ١٩٤٨) القى قصيدة أمام الامير سعود بن عبد العزيز أثناء زيارة هذا الاخير لفلسطين عام ١٩٣٥ ، وتصور فيها احتمال ضياع المسجد الاقصى(١٨). فقال مخاطبا الزائر :

المسجد الاقصى أجئت تزوره ... أم جئت من قبل الضياع تودعه ؟
وغدا وما أدناه لا يبقى سوى ... دمع لنا يهمى وسن نقرعه

ان هذا الشاعر المؤمن بتضحية الذات في سبيل قضيته القومية لاقى حتفه عام ١٩٤٨ في معركة دارت رحاها بالقرب من القدس . وكأننا به قد وفى بالقسم المتجسد في قصيدته « الشهيد » والتي يبدأ مطلعها كالآتي(١٩):

سأحمل روحي على راحتي ... والقي بها في مهاوي الردى
فاما حياة تسر الصديق ... واما ممات يغيظ العدا

أما طوقان فقد وضع أمام أبصار بني وطنه رؤيا عن يوم أسود ، يوشك وقوعه لتضيع معه أرض الوطن . وقصيدته الاستهزائية بعنوان « أنتم » ، والتي يخاطب بها زعماء فلسطين ، ربما كانت خير تعبير عن مرارته وخوفه من المستقبل(٢٠). فهو يقول :

انتم المخلصون للوطنية ... انتم الحاملون عبء القضية
انتم العاملون من غير قول ... بارك الله في الزنود القوية
وبيان منكم يعادل « جيشا » ... بمعدات زحفه الحربية
و « اجتماع » منكم يرد علينا ... غابر المجد من فتوح أمية
وخلاص البلاد صار على الابوا ... ب وجاءت اعياده الوردية
ما جحدنا أفضالكم غير انا ... لم تزل في نفوسنا امنية
في يدينا بقية من بلاد ... فاستريحوا كي لا تطير البقية

وكطريق للخروج من هذا المأزق لم يكن أمام الشاعر من بديل سوى الالتفات صوب القوة المادية . ان عبثية الحجج والمفاوضات أو البيانات قد تبرهنت بما لا يرقى اليه الشك . وما تستدعيه الحاجة الان هو الاعمال البطولية ، ولا سيما تلك البطولات التي يجسدها كل من أبطال الماضي وقدوات الحاضر في الاستشهاد . كما برزت ، بالاضافة الى الشخصيات المعينة كأمثلة للبطولة ، صورة الشهيد كما رسمها عبد الرحيم محمود ، وصورة الفدائيين التي رسمها طوقان في فترة باكرة ترجع الى سنة ١٩٣٠(٢١).

عقب خلق اسرائيل ونتائجه المأساوية ، اخذ ينبوع الموضوعات الفلسطينية بالطفح ، ولا سيما بالنسبة لتلك الموضوعات التي لم تستخرج تماما من منابعها . ولم تجر متابعة الموضوعات السابقة بأسلوب مكثف فحسب ، بل اخذت تتبدى قضايا جديدة وأفكار جديدة ورموز جديدة في الادب خلال العشرين سنه الاخيرة . فالرؤيا النبوئية عن خسارة فلسطين للعدو ليست الان رؤيا ، بل هي واقع . هناك حوالي المليون من الفلسطينيين، ومن بينهم اولئك الكتاب أصحاب النبوءات ، يجدون انفسهم لاجئين في بلاد عديدة . ولقد كان من الحتمي ان يتكرس الكثير من الادب الجديد لموضوعات من طراز استعادة الفردوس المفقود ، ومصير اللاجئين والعذابات الجسدية والعاطفية والروحية التي تتخلل حياة العرب المقيمين في اسرائيل . ان هذه الموضوعات واخرى متصلة بها تنعكس في أعمال الكتاب العرب عموما أو يجري تناولها في تلك الاعمال . ومع ذلك ، فانه يستحسن ولوجها من ثلاث وجهات نظر مختلفة ، كما يلي : موضوعات النفي والتشرد الفلسطيني ، وموضوعات العرب في اسرائيل ، والعرب غير الفلسطينيين . تتميز كل مجموعة من هذه الموضوعات بنبرة سائدة ، هي على التوالي : التوق والمقاومة والنقد الذاتي .

— أ —

يشدد أدب المنفى بطبيعة الحال على حس من الاغتراب وشعور عميق بالحنين . وكما الح عبد اللطيف الطيباوي في مقالته عن « رؤى العودة »(٢٢) (١٩٦٣) ، فان العاطفة العربية الحاضرة لا تقل في زخمها وشدتها عن المشاعر التي يعرب عنها ناظم المزامير اذ يرنم قائلا : « ان نسيتك يا اورشليم تنس يميني ليلتصق لساني بحنكي ان لم اذكرك ، ان لم أفضل اورشليم على أعظم فرحي »(٢٣). (المزمور ١٣٧ : ٥ — ٦).

ثمة قصائد لا تحصى ، وكثير من القصص القصيرة والروايات والمسرحيات التي تعمد باستمرار الى ابراز صور الماضي وذكرياته التي ما زالت نضرة وحية . كما تصف في الوقت نفسه آلام اللاجئين وعذاباتهم . ولكي امثل على هذا الموضوع ، سوف أشير باختصار الى آثار عدد من الكتاب البارزين . ان محمود الحوت — وهو من مواليد يافا ، وتلقى تعليمه في الجامعة الاميركية في بيروت — كان من بين الاوائل في تكريس قصيدة طويلة بعنوان « المهزلة العربية » (بغداد ، ١٩٥١) لتجربته الجديدة كـ «عربي فلسطيني ضائع في بلاد أخرى » . تتألف هذه القصيدة من ٢٨ مقطعا في ثمانية أسطر للمقطع الواحد ، وتشمل عددا من الموضوعات التي تتراوح بين شجاعة الفلسطينيين في الدفاع عن وطنهم بمفردهم وبين الوصف الساخر لـ « الدول العربية الجبارة وعددها سبع دول » في محاولتها الرامية الى انقاذ فلسطين . لكن القصيدة تتميز على الاخص برؤيا الشاعر الحنينية والزاخرة لبلدته الام — يافا — وفردوسه المفقود . وعلى غرار شعراء اخرين من قبله ، أو من بعده ، يكرر الحوت وضع فلسطين على قدم المساواة مع جنة الله . ففي هذا الصدد يردد الكتاب العرب الفلسطينيون صدى أحاسيس أعرب عنها اوائل المستوطنين اليهود بفلسطين . ان يشوع بارزيلاي (١٨٥٥ — ١٩١٨) ، مثلا ، ينقل عنه القول التالي : « انني عاجز عن وصف الاشجار في أرض اسرائيل ، وكيف لي ان اتحدث عن جمال اشجار النخيل ، واشجار الزيتون والتين . . . اذا كانت الجنة تشبه اريحا ، فانها حتما رائعة الجمال(٢٤) » .

واذا كان بارزيلاي واخرون من ابناء جيله قد حركهم مناخ توارتي على الشعور البديلي بجمال البلاد المصطنع ، فان الشعراء العرب يتملكهم جمال بلادهم الطبيعي ، وتستحوذ عليهم ذكراها الحية في نفوسهم ، كما يزخرون بوفرة من التجارب الحقيقية لمناظرها

الطبيعية . من هنا نتبين تلك الشدة المضاعفة التي تطالعنا في اسقاطهم لفلسطين باعتبارها فردوسا مفقودا . ان معين بسيسو في مجموعته الاخيرة ، **فلسطين في القلب** (١٩٦٥) ، يزودنا بتنويعات على الموضوع ذاته . فهو يصدر المجموعة مستشهدا بالبيت التالي للشاعر التركي ناظم حكمت :

« وضع الشاعر في الجنة
فصرخ قائلا :
آه يا وطني ... »

ثم يوجز حنينه للوطن في قصيدة قصيرة تنتهي بالابيات التالية :

« يا وطني ، من لي
من لي
وبجرعة برق من سحبك
وبكسرة رعد ؟
لو جمعوا كل الانهار بكاسي
لصرخت ، والقيت بنفسي ،
من عطشي لعيونك في الشمس »(٢٥)

وفي قصيدة مؤثرة أخرى بعنوان « قصيدة الى الاسلاك الشائكة » يعبر هذا الشاعر عن توق الى التضحية ، فيقول :

« لو قدر يا وطني
أن القاك
كالارض البكر المولودة
من قبلة زلزال ،
كشراع قد تاه
وعاد به الاعصار ،
لسقطت على سيفك
يتمزق قلبي
من قبلة سيفك ، واراك »(٢٦).

ان قصة اللاجيء الذي يتقبل الموت أو يسعى اليه ثمنا يدفعه لقاء رؤية أرضه تسردها أعمال مختلفة . لكن قصيدة فدوى طوقان هي واحدة من أفضل القصائد التي تمثل على ذلك خير تمثيل . هذه الشاعرة من نابلس ، ولها مجموعات عديدة ، نذكر منها « وحدي مع الايام » (١٩٥٢) و « وجدتها » (١٩٥٩) . أما قصيدتها «نداء الارض» فانها تصف عجز اللاجيء عن القبول بمصير التائه الذي يلازمه العار في بلاد اجنبية ، وتصور تصميمه على العودة مهما كان الثمن . ثم نرى اللاجيء متابعا سيره كمن يمشي اثناء الحلم . فيحقق قسمه بالعودة الى أرضه ، لكي يسمع للمرة الاخيرة أصوات طلقات نارية تمزق سكون الليل(٢٧).

وتتناول شاعرة اخرى ، هي سلمى الجيوسي ، في ديوانها **« العودة من النبع الحالم »** (١٩٦٠) ، موضوع العودة التي لا يتم تحقيقها الا عبر عملية طويلة ومضنية من الخلاص . ان قصيدتها التي تحمل عنوان تنتهي بنغمة يسودها الامل وتندمج فيها صورة الشهداء الذين تباركوا بنداء الخلاص وشمس الامل التي تشع بنورها الساطع فوق مسيرتهم الطويلة والصخرية(٢٨). والشاعر اللاجيء في غزة ، هارون هاشم رشيد، أصدر على الاقل ستة دواوين شعرية : « مع الغرباء » (١٩٥٤) ، و « عودة الغرباء » (١٩٥٦) ، و « غزة في خط النار » (١٩٥٧) ، و « أرض الثورات » (١٩٥٩) ، و « حتى

يعود شعبنا » (١٩٦٦) ، بالاضافة الى مجموعته الصادرة في أعقاب ١٩٦٧ بعنوان « سفينة الغضب » (بدون تاريخ) . تدور هذه المجموعات كلها تقريبا — ويسودها النغم المحارب — حول الفكرة القائلة بأن اللاجئين لن يتمكنوا من استرجاع حياة ذات معنى الا من خلال اتحادهم مع ارض الوطن . ومن هنا ينبع ايمانه بحتمية العودة(٢٩). وفي قصيدة له عنوانها « مسافرون » يصف عذاب اللاجئين الباحثين عبثا عن حياة جديدة خارج ارضهم بمزيج من النغم المحزن والنصح التحذيري(٣٠). فاللاجيء يطالعنا من خلال تتابع سريع للمشاهد وهو يتصارع مع القرار الصعب والذي لا مفر منه ، بترك مخيمه وشأنه والتطلع في أحلامه صوب أرض اكثر وعدا . ويقضي أبواه المسنان وزوجته وأطفاله الابرياء سواد ليلهم بالنواح على رحيله الوشيك ، ثم يحتشد الجميع قبل طلوع الفجر لوداعه في محطة القطار ، التي يصفها الشاعر بمثابة رصيف للدموع . وبعد مغادرة القطار ، تجد الاسرة نفسها في حالة من الذهول ، فتعاني أثناء الليل من « قسوة الصمت » الذي يستحوذ على « مخيمها الجريح » . أما اللاجيء المرتحل ، فيجد نفسه الان في مكان ما من ارض غريبة ، تطارده خطيئته بلا هوادة ، دون ان يعثر على مكافأة سوى التجوال أو يسمع شيئا غير كلمة الازدراء « لاجيء » ! وتتفجر رسائله الى عائلته بالشوق والحزن ، بينما يأخذ الاطفال التائقون في تعذيب أمهم بأسئلتهم الملحاحة عن اخبار عودته . وأخيرا ، كأن هذا العذاب كله لا يكفي ، يضفي الشاعر من عنده على اللاجيء احساسا بالاثم مذكرا اياه بأنه في الاقدام على الرحيل ، قد خان دوره كمدافع عن وطنه .

ان من بين الرموز التوكيدية التي يستخدمها هارون هاشم رشيد وغيره من الشعراء للدلالة على مقصدهم في العودة هو « مفتاح البيت » الذي يحمله اللاجئون معهم اثناء تجوالهم في المنفى . وفي قصيدة مكرسة كليا لهذا الموضوع(٣١) يكتسب المفتاح هالة من القداسة ويصبح هدفا للتبجيل والعبادة .

هذا التعلق اياه بالمفتاح يوجد ايضا في شعر محمود درويش ، الذي يعبر في احدى قصائده : « خلف الاسلاك »(٣٢)، عن توقه للاحتفاظ بمفاتيحه حتى الموت ، وبالاسلوب التالي :

« أحج اليك يا حيفا
وانفض عن مصابيحي
غبار الليل والزمن
فما زالت مفاتيحي
معي . في الجيب والعينين والكفن » .

ومن الرموز الملهمة الاخرى التي أخذت تزداد تكرارا في الادب العربي المعاصر بشكل عام ، رموز مستقاة من المصادر التوراتية . فالصلب هو الرمز الغالب ، بيد انه يجري استحضار رموز أخرى مثل قايين وهابيل وأيوب . ثمة قصيدة حديثة العهد كتبها الشبعاوي من غزة بعنوان « فلسطين » ، وهي تتناول المأساة بطريقة حادة الذكاء دون اية اشارة الى الحاضر . انها تحكي ، من خلال مقاطعها الثلاثة والمكرسة على التوالي لكل من المسيح وهابيل وأيوب ، قصة التضحية والذنب والانتصار النهائي للمستعبدين (بفتح الباء)(٣٣).

— ب —

اذا كان أدب المنفى يشغله هاجس رئيسي هو الاوضاع المؤلمة التي بات عليها الفلسطينيون ، وموضوع العودة بنوع خاص ، فان أدب المقاومة الذي كتبه عرب الارض المحتلة قد أولى اهتمامه في الدرجة الاولى للحفاظ على الهوية الفلسطينية العربية . واذا كان الادب الاول يمتاز على العموم بتلك الروح من الانتحاب او

الحماس المحارب والمرتفع ، فان الثاني يتسم على الغالب بنغمة يسودها الايحاء والهدوء والامل . بيد ان أدب المنفى استجاب على الفور للوضع الجديد ، بينما انتظر ادب المقاومة ما يزيد على عشر سنوات قبل ان يتمكن من اثبات وجوده . هذا التباطؤ يمكن تفسيره بالرجوع الى عدد من العوامل ، ومن جملتها الحقيقة بأن جميع الكتاب الفلسطينيين تقريبا كانوا قد تركوا البلد . والاهم من ذلك هو المناخ السياسي الذي وجده العرب تحت الاحتلال مناوئا لنشاطاتهم الادبية . ففي مرحلة متأخرة تعود الى ١٩٥٨ أشارت كاتبة عربية ، هي نجوى فرح ، لدى مراجعتها لمجموعة شعرية في المجلة الاسرائيلية « نيو اوتلوك » الى هذا المناخ بقولها : « ان الكاتب العربي عليه أن يحوم حول الموضوع ويكتم الجزء الاعظم من قصته ، فكأنه يعتمد على فطنة القارىء ومقدرته في الاستيعاب » . ثم استشهدت من الكتاب موضوع المراجعة بعدة أسطر توحي بذلك المناخ :

« عبد أنا » ولا استطيع التمتع بحريتي
لان هناك ماساة فظيعة تجعلني اتلعثم ،
هناك جريمة تمت بدقة متناهية
انا لا استطيع الكلام ، ولساني عاجز عن النطق »(٣٤).

ومع ان الصوت العربي أصبح أقل عرضة للاسكات والقمع في أواخر الخمسينات ، فلا نشهد الا خلال الستينات فقط انتفاضة من الاثار الادبية التي جرى تكريس المقدار الاكبر منها لتناول محنة العرب داخل اسرائيل . فالناقد الاسرائيلي شموئيل موريه (المولود في بغداد) كتب في مقالة له عن « النهضة الادبية العربية في أسرائيل » (١٩٦٧) ليقول بأن الاسرائيليين بذلوا الجهود لاقناع الشعراء العرب بمعالجة قضايا أوسع ، مثل القضايا التي تواجه الاقلية العربية ، بدلا من موضوعات الحب التي سيطرت على أعمالهم الباكرة . ومن البادي انه يتذمر ، لا سيما حين يستطرد لابداء الملاحظة بأن هذه الجهود « أسفرت عن نجاح زائد للغاية . فاليوم يكاد لا يوجد أي حدث تنقله الصحف الا ويتحول هذا الحدث موضوعا لقصيدة » . كما يبدو ان هذه الظاهرة تعرضت للنقد من جانب شاعر عربي في اسرائيل ، هو راشد حسين ، الذي يستشهد بقوله التالي : « أنا لا أنكر على شعرائنا كتابة الشعر السياسي ، لكن هذا لا يعني القول ان كل شيء يكتبونه يجب أن يكون سياسيا . ومعظم شعرائنا اليوم في اسرائيل ينتظرون وقوع الاحداث المؤسفة او السياسية لكي يقوموا بنظم قصيدة عنها »(٢٥) . لكن انتقادات من هذا القبيل تتجاهل دون مبرر حقيقة كون هؤلاء الشعراء لا يحتاجون الى الاحداث المأسوية كي يكتبوا عنها ، اذ يعيشون تلك الاحداث ويحسونها يوميا . وكونهم لا يختلفون ، في رؤياهم المكثفة للمأساة ، عن غيرهم من الكتاب أمثال الشاعر الاسرائيلي اسحق لامدان (١٩٠٠ – ١٩٥٤) الذي يعتنق الفكرة الاتية : « انه لمن الاجرام انشاد الاغنيات التافهة أو الكتابة عن الطبيعة والصداقة أو الحب ، بينما شعبه يتعرض للذبح »(٢٦) . واذا كان الشعراء العرب في اسرائيل « يلتقطون » الاحداث او الحوادث أو الاخبار ، فذلك لانهم يجدون فيها وسيلة أدبية او اداة فنية لعرض قضيتهم . هناك مثالان حديثان للتدليل على استخدام الشاعر للاحداث بغية تصوير مأزقه الحرج : قصيدة موجهة الى افريقي من روديسيا ، والاخرى الى الشاعر السوفياتي يفتوشنكو ، صاحب قصيدة « بابي يار » . ففي القصيدة الاولى يجد الشاعر ، لدى سماعه بأن رئيس حكومة روديسيا – ايان سميث – قد أعلن انه لن يسمح للافريقيين بتسلم الحكم طالما هو على قيد الحياة ، مأساة انسانية لا تختلف عن مأساته . مما يحركه لكتابة قصيدة تتمازج فيها صورة الافريقي الروديسي بصورة العربي في اسرائيل(٢٧) . والمثال الثاني يحاول تذكير الشاعر السوفياتي الذي كتب عن

مذبحة « بابي يار » بأن هناك مثيلات لها تنتشر فوق رقعة وطنـــه ، مثل دير ياسين وكفر قاسم وغيرها من أماكن الذكرى المحزنة(٣٨).

من بين الدعاة البارزين في أدب المقاومة نجد امثال : محمود درويش (١٩٤١ —) وسميح القاسم (١٩٣٩ —) وتوفيق زيـــاد (١٩٣٢ —) . ان هؤلاء الشعراء الشبان الثلاثة اصدروا ما يزيد على عشر مجموعات شعرية خلال فترة قصيرة نسبيا . ولاجل تبيان الروح التي تتجلى لديهم فان ملاحظاتي سوف ترتكز بشكل رئيسي على آثار محمود درويش ، وهي تشمل ما يلي : **« عصافير بلا أجنحة »** (١٩٦٠) ، **« أوراق الزيتون »** (١٩٦٤) ، **« عاشق من فلسطين »** (١٩٦٦) ، **« آخر الليل نهار »** (١٩٦٧) ، **« يوميات جرح فلسطيني »** (١٩٦٩) ، و **« حبيبتي تنهض من نومهـــا »** (١٩٦٩) .

والموضوع الاول الذي يسترعي انتباهنا على الفور عند قراءتنا لهذا الادب هو اعتزاز بالعروبة وحب متفان لهوية الوطن الفلسطينية . فالشاعر يخشى على هويته القومية من الضياع ، كما تقض مضجعه مختلف أشكال التمييز ضد شعبه ، ولذا يجد نفسه مرغما على التعبير عن اعتزازه بعروبته — دون غطرسة أو الطعن في الشخصية القومية لاخصامه . ان موقفه هو موقف الدفاع تقريبا ، ويخلو عادة من الشوفينية. ومن بـــين القصائد التي تعكس هذا الشـــعور قصيدة « بطاقة هوية » التي تصف حياة عامل عربي واحاسيسه اذ يعمل في محجر (مقلع للحجارة) ويتهدده خطـــر البطالة ، فيأخذ بالحديث في لغة بسيطة ومباشرة عن شعوره بالاعتزاز والتحدي(٣٩). والقصيدة الطويلة « عاشق من فلسطين » — لدرويش ايضا — تبين ايمانا رومانسيا بالروح الفلسطينية التي تتغلغل في كل موقع وحركة من مواقع الوطن وحركاته(٤٠). ثانيا ، رغم ان هذا الادب يزخر بأمثلة عن الوحشية والالم وغيرها من الاعراض السلبية، فانه نادرا ما يؤدي الى اليأس والاستسلام أو يسفر عن نظرة عبثية . بل على العكس من ذلك ، فهو تفاؤلي يزخر بالامل والتحدي . هذا ما تمثله قصيدة درويش « تموز والافعى » خير تمثيل . ونحن نرى في هذه القصيدة خيبة امل بعودة اله الربيع البابلي دون الخصب الموعود . لكنها لا تخلو من ايمان بالتوق الابدي . واذا كان هذا الادب يتكشف من حين الى آخر عن شعور بالاستسلام — كما في « نشيد بنات طروادة » — فهو ذلك النوع من الاستسلام الذي يدعو الى العمل ، بأسلوب بارع الذكاء :

« وداعا يا ليالي الطهر
يا أسوار طروادة
خرجنا من مخابينا
الى أعراس غازينا
لنرقص فوق موت رجال طروادة
سبايا نحن ، نعطيهم بكارتنا
وما شاؤوا!
لانهم أشـــداء
ونرقد في مضاجع قاتلي ابطال طروادة
وداعا يا ليالي الطهر والاحلام
يا ذكرى احبتنا
سبايا نحن منذ اليوم
من آثار طرواده ! »

ان روح التحدي تبدو غير مكبوحة الجماح أحيانا ، وربما عانت من جراء افراطها — كما يتضح ذلك من قصيدة توفيق زياد « أهون الف مرة »(٤١):

أهون ألف مرة !
أن تدخلوا الفيل بثقب ابره
وأن تصيدوا السمك المشوي ..
في المجرة
أهون ألف مرة !
أن تطفئوا الشمس ، وأن
تحبسوا الرياح
أن تشربوا البحر ، وأن ..
تنطقوا التمساح
أهون ألف مرة ..
من أن تميتوا ، باضطهادكم ،
وميض فكره
وتحرفونا ، عن طريقنا الذي اخترناه
قيد شعره !!

لكنه ينجح على الاقل في الدلالة على درجة الاذلال والاضطهاد الذي يحسه العرب أو يعانون منه في اسرائيل .

وأخيرا ، هناك توقع بهيج للموت ، وهاجس ديني صوفي بالصلب على انه الامل الوحيد لخلاص الشاعر وشعبه . لذا فان السجون والقيود والتعذيب التي تتكرر صورتها في هذا الادب لا تبدو وكأنها عاجزة عن اخماد روح الشاعر فحسب، بل في الاحرى هي ذات تأثير في تصعيد ايمانه وتجديده بانتصار قضيته . ولكي يبقي على قوته الروحية وكبريائه وتحديه وايمانه ، يلجأ الشاعر الى عدد متزايد من الوسائل أو الرموز ، ومن جملتها الرموز المستقاة من مناظر الطبيعة والاحداث الماضية في التاريخ العربي الاسلامي ، بالاضافة الى التلميحات لمجموعة من الابطال والاساطير ، والقضايا المنتصرة لدى أمم أخرى في التاريخ القديم والحديث ، والى صلب المسيح ، فوق كل شيء .

فالصخور والجبل ، وجذور الاشجار المختلفة من الزيتون والتين الى النخيل ، كلها توحي للشاعر بصور تؤكد على صلته العميقة الجذور والتي يتعذر انقطاعها مع التراب في وطنه ، وعلى انتصار هذا الوطن . وكما أعلن درويش بنفسه ، فان الشجرة بنظر الشاعر تنتصب كرمز لاستمرارية الحياة والامل والصمود والوجود الاصلي في البلد . لذا نراه نتيجة لذلك يسقط وطنه على صورة شجرة النخيل ، هذه الشجرة التي لا تنحني أمام العاصفة ولا تعبأ بضربات فأس الحطابين ، وتقبع بمنأى عن وحوش الصحـــراء والغابة . أو نجده يذكر أمه الا تيأس اذا طواه الموت ، لان جذور شجرة التين الممتدة في تلابيب الصخور سوف تنبت أغصانا جديدة الى الابد . ففي قصيدة بعنوان « مطر » تنقلب سفينة نوح ، وهي رمز للخلاص ، الى رمز للموت ، لانها تعني الاقتلاع من الجذور ، وسلامة الشاعر لا يمكن الحفاظ عليها الا فوق التراب الذي يمد جذوره بالغذاء(٤٢).

الجبل والبحر يجري استخدامهما بمثابة رموز متغايرة . فالاول يرمز الى التصميم على البقاء وللحياة ، اما الثاني فهو رمز للموت او بؤس التجوال . وفي قصيدة عنوانها « في انتظار العائدين » يضع درويش نفسه مكان ابن عوليس الذي ينتظر فوق الجبل عودة التائهين :

وانا ابن عوليس الذي انتظر البريد من الشمال
ناداه بحار ، ولكن لم يسافر .
لجم المراكب ، وانتهى اعلى الجبال .

يا صخرة صلى عليها والدي لتصون ثائر
أنا لن أبيعك باللآلي
أنا لن أسافر ..
لن أسافر ..
لن أسافر(٤٣) !

ان الامثلة الدالة على استخدام الصليب هي كثيرة العدد لكي نستشهد بها . والسطور التالية المأخوذة من قصائد ثلاث(٤٤) تقوم مقام الدليل على التكرار المتواصل لهذا الرمز.

١ ــ قال المغني

المغني على صليب الالم
جرحه ساطع كنجم
قال للناس حوله
كل شيء .. سوى الندم
هكذا مت واقفا
واقفا مت كالشجر !
هكذا يصبح الصليب
منبرا .. أو عصا نغم
ومساميره .. وتر !

٢ ــ شهيد الاغنية

ما كنت أول حامل اكليل شوك
لاقول للسمراء : ابكي
يا من أحبك ، مثل ايماني ،
ولا سمك في فمي المغموس
بالعطش المعفر بالغبار
طعم النبيذ اذا تعتق في الجرار
ما كنت أول حامل اكليل شوك
لاقول : ابكي !
فعسى صليبي صهوة
والشوك فوق جبيني المنقوش
بالدم والندى
اكليل غار !
وعساي آخر من يقول :
أنا تشهيت الردى !

٣ ــ جواب

سدوا علي النور في زنزانة
فتوهجت في القلب ..
شمس مشاعل
كتبوا على الجدران رقم بطاقتي
فنما على الجدران
مرج سنابل
والفاتحون على سطوح منازلي
لم يفتحوا الا وعود زلازلي

فاذا احترقت على صليب عبادتي
ساعود قديسا بزي مقاتل .

— ج —

لدى انتقالنا الى رد فعل الكتاب العرب من غير الفلسطينيين ، نلاحظ انهم أولوا المقدار نفسه من الاهتمام لمأساة الفلسطينيين ، ولا سيما قضية اللاجئين . ومن بين الشعراء البارزين ، في المدرسة الجديدة من الشعر الحر ، والذين تصدوا لهذه المحنة في شعرهم، يطالعنا الشاعران العراقيان بدر شاكر السياب (١٩٢٦ — ١٩٦٤) وعبدالوهاب البياتي (١٩٢٨ —) . ان صور الوحشية التي تعرض لها النازحون لا تتبدى في الشعر العربي الحديث على ذلك المقدار من القوة مثلما تتبدى في قصيدة السياب التي عنوانها « قافلة الضياع »(٤٥). فهي قصيدة طويلة نسبيا ، بيد ان السطور التي اخترناها ادناه من أجزائها المختلفة كفيلة على ما أعتقد بأن توحي للقارىء بالجو العاطفي المكثف الذي يصعده الشاعر في القصيدة :

أرأيت قافلة الضياع ؟ أما رأيت النازحين ؟
الحاملين على الكواهل ، من مجاعات السنين
آثام كل الخاطئين
النازفين بلا دماء
السائرين الى الوراء
كي يدفنوا « هابيل » وهو على الصليب ركام طين ؟
— « قابيل » ، أين أخوك ؟ أين أخوك ؟
جمعت السماء
آمادها لتصيح . كورت النجوم الى نداء :
« قابيل ، أين أخوك ؟ »
— ايرقد في خيام اللاجئين
السل يوهن ساعديه ، وجئته انا بالدواء
والجوع لعنة آدم الاولى وارث الهالكين

. . .

النار تتبعنا ، كأن مدى اللصوص وكل قطاع الطريق
يلهثن فيها بالوباء ، كأن ألسنة الكلاب
تلتز منها كالمبارد وهي تحفر في جدار النور باب
تتصبب الظلماء كالطوفان منه ، فلا تراب
ليعاد منه الخلق ، وانجرف المسيح مع العباب
كان المسيح بجنبه الدامي ومئزره العتيق
يسد ما حفرته السنة الكلاب
فاجتاحه الطوفان : حتى ليس ينزف منه جنب أو جبين
الا دجى كالطين تبنى منه دور اللاجئين

. . .

النار تصهل من ورائي والقذائف لا تنام
عيونها وأبي على ظهري ، وفي رحمي جنين
عريان دون فم ولا بصر تكور في الظلام
في بركة الدم وهو يفرك انفه بيد . وكالجرس الصغير
يرن ملء دمي صداه — تكاد تومض كل روحي بالسلام
حتى اكاد أراه في غبش الدماء المستنير

عريان دون فم كالفقر ما يكون : بلا عظام
وبلا أب ، وبدون حيفا دون ذكرى — كالظلام !

. . .

بين الكهوف وبين حيفا من ظلام ألف عام أو يزيد
بين الكهوف وبين أمس هناك بئر لا قرار
لها ، كهاوية الجحيم تلز فاها دون نار
تتعلق الاجداث فيها كالجلامد في جدار .

والبياتي ، في المقابل ، يميل الى تقديم رؤيا رعوية للعودة في أمثلة عديدة من شعره ، ولا سيما في ديوانه : **المجد للاطفال والزيتون** (١٩٥٤) — كما تبين الابيات التالية :

وكان معركة تدور
بيني وبين الموت في صمت واصرار حزين :
أنا لن أموت
ما دام في مصباح ليل اللاجئين
زيت ونار ، عبر مقبرة الحدود
حيث الخيام الباليات
كانها في الريح ، لافتة ، تشير
الى طريق العودة ، الدامي ، القريب

. . .

الليل تطرده قناديل العيون
عيونكم ، يا اخوتي المتناثرين الجائعين
تحت النجوم .
وكان حلمت بانني بالورد افرش والدموع
طريقكم .
وكان يسوع
معكم يعود الى (الجليل)
بلا صليب(٤٦).

ان أبرز ناحية في هذا الادب هي تقييمه الذاتي وانتقاديته . وهنالك مزيد من الاعمال الادبية التي تتوجه صوب الداخل ، بحثا عن المصدر الجواني لمأساة الهزيمة العربية . فالشاعر العربي في أميركا الجنوبية ، موسى حداد ، ذهب في نقده الذاتي الى حد تبرئة بلفور أو اسرائيل من كافة المسؤوليات. والكاتب المسرحي العراقي ، خالد الشواف(٤٧)، يحاول في مسرحيته **الاسوار** (١٩٥٦) اقامة التوازن بين كفتـي الاسباب الداخلية والخارجية للهزيمة ، مع ان الجانب الداخلي يحظى بتشديد أكثر . المسرحية تاريخية وبابلية في اطارها العام لكنها معاصرة وعربية من حيث الروح ، وهي تحاول ارجاع سبب الهزيمة الى الفســاد والخيانة التي استشرت في البــلاط . اما علي أحمد باكثير ، فانه لا يجـد شـيئا يوازي خطيئة العرب سـوى قصة اوديب . ولذا فهو يكيف المأساة الاغريقيــة الكلاسـيكية لتصوير الخطيئة التي اقترفها العرب في فلسطين . ففي مســرحيته **مأســاة أوديب**(٤٨) (الصـادرة عـام ١٩٤٩ ؟) يقـاد البطـل الاغريقي الذي يرمز الى العربي نحــو هزيمتــه المؤقتة مــن خــلال تحديه للكاهن الاعلى ، وهــذا الاخير يمثل العــدو الخارجي الى حــد ما ، كما يمثـل المؤسسات الاقطاعية والدينيــة الفاســدة . وعندما يخرج اوديب في النهــاية منتصرا ، ويحلله الشعب من مسؤولية الجريمة التي ارتكبها عن غير عمد ضد أبيــه ، فانه يعمد الى تخليص طيبة من المجاعة والوباء بمصادرة ثراء الهيكل وتوزيع الاراضي على الشعب .

ويوسف السباعي ، الضابط السابق في الجيش المصري ومن أغزر الروائيين انتاجا ، يسلط الضوء على عدد من النواحي السلبية في الحرب العربية — الاسرائيلية عام ١٩٤٨ . ان روايته **طريق العودة** (القاهرة ، ١٩٥٨) تدور بمقدار كبير حول حياة بطل رومانسي يقرر الالتحاق بالجيش في الجبهة، ليس بدافع الوطنية بل تحدوه رغبة شخصية في الهروب من فشله بالقاهرة ، وفي الحصول على راتب افضل . وعلاوة على ذلك ، فالرواية تقدم ادانة للعهد البائد لمسؤوليته عن الهزيمة بسبب فضائح الاسلحة الفاسدة. وتشير شخصية رئيسية في رواية جبرا ابراهيم جبرا — الصادرة بالانجليزية تحت عنوان « صيادون في شارع ضيق » (لندن ، ١٩٦٠) — الى « الكذب والخداع يمنة ويسرى » باعتباره سببا رئيسيا وراء الهزيمة . فيضع المؤلف على لسان هذه الشخصية الروائية الكلام التالي :

« المآثر التي صنعناها في سبيل فلسطين ! كلها تلاشت وانجرفت مع النفايات . الكذب والخداع يمنة ويسرى ، في الداخل والخارج ... صحفنا تجد في فلسطين مصدرا زاخرا بالمواد لملء اعمدتها . يا له من تكرار ممل ، يعوزه الاطلاع ، ويغلب عليه التهور واللفظ الطنان . والناس سئمت ذلك . لكن كيف لنا ان نبرهن لهم عن وطنيتنا ؟ »(٤٩).

ان هذا الاتجاه المتطلع نحو الداخل يصبح اكثر بروزا في أعقاب حرب ١٩٦٧ . فالشاعر السوري نزار قباني ، وهو ديبلوماسي سابق وسيد الشعر الايروسي ، يقدم لنا أقسى ادانة وربما كانت أعنفها للكيفية التي يمارس بها الاسلام ولفساد النظم السياسية وخيانة الادباء لرسالتهم . ومن بين قصائده الاخيرة تطالعنا قصيدة « الاستجواب » وقصيدة « الممثلون » (١٩٦٩)(٥٠) بتعبير عن ضيق ذرعه بكافة أسباب اللامبالاة والجمود والهزيمة . ففي القصيدة الاولى يتم مقتل الامام باعتباره رمزا للقدرية والاستسلام ، ويجري الدفاع عن القاتل من خلال الشهادة التي يدلي بها حول عبثية الركون الى الامام وخداع الاعتماد عليه . ان قاتل الامام يشعر بأنه قتل « كل الطفيليات في حديقة الاسلام» اذ قتل الامام ، وكل الذين يستريحون على ارصفة الاحلام . اما القصيدة الثانية فتعكس خيبة امل الشاعر من جراء الحقيقة القائمة بأنه رغم الهزيمة المدوخة في حزيران ١٩٦٧، فان العقلية نفسها والممثلين اياهم والموقف ذاته — وهي التي ادت الى الهزيمة — ما زالت سائدة . والمقاطع المختارة ادناه تبين لنا ايقاع القصيدة :

حين يصير الحرف في مدينة
حشيشة ..
يمنعها القانون ..
ويصبح التفكير كالبغاء .. واللواط ..
والافيون ..
جريمة يطالها القانون ..
حين يصير الناس في مدينة
ضفادعا مفقوءة العيون
فلا يثورون ولا يشكون ..
ولا يغنون ولا يبكون
ولا يموتون ولا يحيون
تحترق الغابات ، والاطفال ، والازهار
تحترق الثمار ..
ويصبح الانسان في موطنه
اذل من صرصار ...

حرب حزيران انتهت ..

وحالنا — والحمد لله — على أحسن ما يكون
كتابنا .. على رصيف الفكر عاطلون
من مطبخ السلطان يأكلون
بسيفه الطويل يضربون
كتابنـا ..
ما مارسوا التفكير من قرون
لم يقتلوا
لم يصلبوا
لم يقفوا على حدود الموت والجنون
كتابنا ..
يحيون في اجازة ..
وخارج التاريخ يسكنون
احترق المسرح من أركانه
ولم يمت — بعد — الممثلون ..

مع استمرار هذه العملية المؤلمة من تفحص الذات ، تنمو قائمة العلات المكتشفة على صعيد الافراد او المؤسسات . فالانانية والكذب ، وانعدام الانضباط الجماعي او العمل كمجموعة ، وهاجس الكلام وافلاس النظام السياسي والقيم البالية — كل هذه تغدو بشكل متزايد هدفا للتصوير الادبي . ومن بين أفضل الروايات التي عالجت المشكلة الفلسطينية وهاجمت امراض المجتمع وعلاته بأسلوب اكثر اتساقا نذكر الروايتين اللتين وضعهما حليم بركات ، الكاتب الشاب ، وهما : **ستة ايام** (١٩٦١) و**عودة الطائر الى البحر** (١٩٦٩)(٥١).

تتميز رؤيا بركات بتوتر مستمر بين الواقع والوهم ، وبرفض للقيم السائدة والتقاليد والمؤسسات ، كما تتسم ببحث عن شيء يتعذر الوصول اليه انطلاقا من مأزقه . ان شخصياته تميل ، على غرار خالقها ، نحو تلقي القيم الثقافية الغربية وفي الوقت نفسه صوب خيبة الامل بتلك القيم . والاشخاص الغربيون ، من تاريخيين واسطوريين ، غالبا ما يبرزون في حوارهم أو مونولوجهم ويؤدون وظيفة كمصدر للقوة يضيف الشدة الى مشاعرهم أو يزودهم بوسائل لاستيعاب وضعهم . فرواية **ستة أيام** تقدم لنا ما جرى وصفه برؤيا نبوئية لحرب الايام الستة في حزيران ١٩٦٧ .ورواية **عودة الطائر الى البحر** تكشف الاحاسيس والافكار الجوانية لدى الشخصيات في معايشتها لاحداث حرب ١٩٦٧ . الرواية الاولى هي قصة بلدة عربية صغيرة — يسردها المؤلف على صورة المفكرة بمدى ستة ايام — ابان صراعها مع انذار موجه من العدو : اما الاستسلام أو التدمير عن بكرة ابيها . ولدى اعطائها مهلة من ستة أيام لكي تتخذ قرارها ، تنتهي البلدة الى القبول بموقف البطل : اما الموت أو النصر . ويبدو عليها انها عقدت العزم للدفاع عن نفسها . ان سهيل هو مثقف يعاني الاغتراب النفسي ، والتمزق بين حبه لشعبه واشمئزازه من عالمهم ، بين توقعه للهزيمة التي يوشك وقوعها والرغبة في توريث الخلف « اسطورة من التحدي والبطولة والاستشهاد » علها توحي لهم برفع مستوى وجودهم . والبلدة التي يصفها المؤلف ، مثل معظم بلدان العالم العربي ، هي فسيفساء من الخوف والجهل والفقر والمنافسات والفوضى والجشع ، الى جانب واجهة غربية ، عصرية وانما غير مندمجة . ففي عدد من الاحداث والمحاورات نجده يشدد على النقطة بان شعبه اخفق في مواجهته مع عدوه من الخارج ، لانه تجاهل اعداءه من الداخل لمدة طويلة . والتراث الذي تلقاه هذا الشعب يأوي اولئك الأعداء الداخليين . أما الحل الاساسي فيكون برفض الامور المفروضة من فوق واحترام حق كل فرد من الناس في تقرير مصيره

وفي مواجهة امراض المجتمع بدون خوف او تردد . وعبر منظور بطل الرواية في المقـام الاول تتبدى أنماط للسلوك وعقليات يصعب التوفيق بينها عندما تقبل البلدة بالتحدي : فتاة ترتدي البنطال بقرب أمراة محجبة ، وفتاة مثقفة لا تتعاطـف مع بلدتها وتغلق على نفسها في البيت لكي تستمع الى الموسيقى الغربية ، وعم البطل في تقواه ليس لديه مـا يقدمه سوى الصلاة بينما يقوم العدو بتخريب البلدة ولا يتوانى عن نحر زوجته الحبلى . والجشع الذي يظهر على أفراد يبيعون ممتلكاتهم لكي يتسنى لهـم الهرب ، والسائقون الذين يحملون الناس الى مكان أمين لقاء أجور خيالية ، والفورات السلبية او العبثية من الاستجابات العاطفية ، وخيانة مواطن خداع يهرب بالاموال المجموعة لاجل الدفاع ثـم يفشي خطة البلدة الى العدو قبل الموعد المحدد ، واخيرا الطريقة التي يباغت بها العدو المدافعين عن البلدة وهم على غير استعداد ، وقبل وصول التعزيزات المنتظـرة . ان القصة تنتهي بخاتمة مستبقة ، انما ليس بدون مرحلتين وثيقتي الصلة من مراحل المقاومة البطولية : المرحلة الاولى عن رفقاء سهيل المقاتلين والـذين ظلوا حتى الموت مخلصين لمثلهم العليا ، ورفض سهيل في ان يقبل الواقع كما هو وأن يهـرب منه أو ان يبوح بسر مهمته للعدو لدى اعتقاله وتعرضه للتعذيب . هاتان المرحلتان من البطولة هما النتيجة الحاصلة من ارادة فردية ، وليس عن روح جماعية في القتال . فالبلدة تحولت الان الى رماد وركام ـــ كما يقول الآسر للبطل ـــ لكن البطل يوحي بان الرماد سوف يسمد الارض ويخصبها . ويرد الاسر بقولـه : « سوف نستغلها » . بينما يأتيه الجواب الاخـير من سهيل دون تراجع : « لكن ذلك لن يدوم طويلا » .

ان هاجس بركات في الاسقاط القاتم لبيئة بطله الاجتماعية يصل الى درجة مفرطة . ومع ذلك فهو يحدث اثرا مفيـدا اذ يلفت انتباه قارئه الى الامراض الاساسية التي تفتـك بالمجتمع العربي ، مشددا على الحاجة الملحة الى تقييم جديد ومخلص ، ليس فقط لتلك الامراض بل وايضا للطريقة التي عولجت بها . ان أحـد البواعث التي يستخدمهـا في وصف المعضلة العربية هو باعث غربي : عن الهولندي الطائر . ففي رواية سهيل عن اليوم الاول ترد الاشارة الى موت الهولندي الطائر ، لدى عثوره على المراة المخلصة التي تضحي بنفسها من أجله ، والى الفكرة القائلة بان شعبه يمضي في ابحاره ، على غـرار الهولندي ، من دون حيلة . هذا الباعث يتحول الى موضوع رئيسي في رواية بركـات الاخيرة : **عودة الطائر الى البحر** . وهنا ايضا يجـد رمزي في اليـوم الاول من الحرب متوازيات بين بلاده والاسطورة الغربية . ان بلاده تشبه الهولندي الطائر ، الذي يتحتم عليه الابحار عشوائيا في بحار الخوف والرعب والجهل . ويبدو ان وصولها الى شاطىء للامان هو ضرب من المحال . فالبحارة غـير كفوئين ، ولم يلقوا الموت او يعثروا على الشاطىء ، بل يواجهون الحرب الان ، بعد انهاك قواهم اكثر من السابق نتيجة التجوال المتواصل . فلا يبقى هناك سوى الغضب : ليتمردوا بوجه الشياطين والالهة (وهذه ترمز الى الدول الغربية) المسؤولة عن محنتهم ، مهما كانت العواقب . والبطل يشعر ان بلاده يرفضها الموت بقدر ما ترفضها الحياة ، وانها سفينة بلا دفة او ربان . أشد ما يؤلمه : رؤية ابناء بلاده يخدعون انفسهم بدفـة غير موجودة ، لكـن وطنه ليس بدون غضب . هنا يكمن مستقبله ، رغم ان الامه سوف تستمر الى حين عثوره عـلى منقذ ، وهذا المنقذ سوف يبقى مخلصا للوطن حتى الموت . ان رمزي لا يبحث عن قائد يفرض قراره على شعبه ويصهرهم في قالب معين ، ثم يخدعهم ويعمـل على تهدئة المؤسسات البالية . بل هو يريد قائدا يشع بريقه ويتحدى . ويوحي الى الشعب بالتفكير والاحساس والبحث والتخاطب في حرية مع انفسهم ومع قادتهم .

تقع الرواية ذاتها في ثلاثـة اقسام . فالقسم الاول عنوانه « العتبة » ، والقسم الثالث يحمل عنوان « أيام عديدة من الغبار » . وهذان القسمان هما في مرتبة ثانوية نسبيا

ويغطيان الفترة الممتدة من ١١ الى ٢٠ حزيران ، ١٩٦٧ . أما القسم الاوسط ، والرئيسي ، فعنوانه « أمواج الاصوات والريح الجنوبية » ، ويجري تقسيمه الى ستة أيام لكل يوم منها عنوان يوحي بموضوع رئيسي أو حالة رئيسية . هذه العناوين الستة هي كما يلي : (١) رعد في أصوات الأطفال (٢) الهولندي الطائر يعود الى البحر ، (٣) الموت حقل ، (٤) مرة اخرى يختن يعقوب الفلسطينيين فيتهدم المسرح ، (٥) ولن تكون للموت سيطرة ، و (٦) سيول في الشوارع والنمل يدب في شرايين القلب .

ينتقل القسم الاول بكل من رمزي والمراة الأميركية باميلا ، التي تمثل صوت الغرب المتعاطف والمتفهم ، وغيرهما من الاختصاصيين والاطباء العرب الى الاردن . وهناك يحيط بهم عالم مهزوم ومرتعب ، فيجري رمزي حوارا قصيرا مع باميلا ويتكشف هذا الحوار عن عمق الصراع العنيف في داخله :ـ

« يقول رمزي لباميلا : العرب يعبرون المطهر مع دانتي .

ــ ما هي خطاياهم ؟

ــ كثيرة . اهمها الجهل .

ــ قد تكون الحرب مطهر العرب .

ــ ترى يصلون الى الفردوس الارضي

ــ تقول الاسطورة ان الذي يدخل المطهر لا بد لا يصل الى الفردوس الارضي . المطهر رحلة امل .

يتساءل رمزي : ترى هذه الحرب كانت بدء رحلة نحو الامل ؟

ــ اعتقد ... مرحلة لا بد منها . سيجتازونها ، على ما اعتقد » .

ان الحزن في أعماقه وفقدان ايمانه يجري التدليل عليهما عبر حوار متخيل يدور بين رمزي وبين رأسين حجريين يتساندان فوق قمة الجبل المطل على وادي الاردن :

« الراس الاول يساله : من اين جئت .

رمزي : جلبت جسدي من شاطىء عربي . عبثا اخبرك من انا .

اسمي غير معروف حتى اكاد انساه انا نفسي واشك في انني موجود . نفيت وانا صغير

ــ وماذا جرى للانهر الكبيرة ؟

ــ نضبت .

ــ في روما كنا ناكل من ثمارها

ــ ماتت الثمار وماتت روما

ويتساءل الراس الثاني بتعجب : روما ماتت ؟.

ــ منذ احتلها المسيحيون

ــ انت مسلم !

ــ لا . انا رافض ومرفوض . لست مؤمنا ، لكني لست ملحدا .

ــ انت شيوعي ؟

ــ لا ، ولكني لست راسماليا .

...

ــ ماذا انت ، اذن ؟

ــ لست جزءا من اي شيء . الذي اعرفه عن نفسي انني رافض ومرفوض » .

ان رمزي ، رغم فقدانه لايمانه ، يبدو مصمما على عبور المطهر وثمة بارقة أمل تلوح أمامه . وفضلا عن ذلك ، فان القسم الاول يحاول ، من خلال الارتجاع الفني في الزمن ، التقاط الخراب الذي أحدثته الحرب والمستشفيات المزدحمة بالوجوه التي احرقتها النابالم ، والمدارس الغاصة باللاجئين وغير ذلك من مظاهر الرعب . وينتهي هذا القسم

تاركا البطل في حالة من الذهول والقلق ، اذ لا يجد أحدا يتعمــد في نهر الاردن ، سوى الرصاص وحده . فترتفع موســيقى معزوفة « هاندل » المســيا بنهاية جديدة من « هلليلويا للرصاص يتعمد في نهر الاردن » .

والقسم الرئيسي من الرواية يغطي جذور المشكلة عن تصميم العرب عــلى استعادة حقوقهم المسلوبة في فلسطين ومختلف القضايا او العوامل المتصلة بهذا الامر . لقد اصبح رمزي الان استاذا جامعيا ، وعاش فلسطينيا في المنفى طيلة عشرين عاما ، فراح يتعجب ازاء الخطر الجديد عما اذا كانت قصة منفاه سوف تشارف نهايتها . ورغم انه مأخوذ بالحس الطاغي من الثقة المفرطة ، فهو يشعر بأن واقعه لا يبرر ذلك . وعبر حواره مع ذاته واحاديثه مع الاخرين يتقدم تدريجيا بالموضوع بأن بلاده متخلفة ومقطعة الاوصال ، يعوزها التخطيط ، كما تعوزها رؤيا واقعية الى المستقبل . فيهاجم اسطورة الوحدة بين العرب ، مشيرا الى كون العرب يعيشون كــل ضمن قوقعته ، ومنفصــلا عن الاخر . لا التعاون الحقيقي ولا التنسيق الصحيح موجود بين العرب ، على صعيد الــدول أو الجماعات أو الافراد . حتى الخبراء فانهم من الفرديين في سعيهم ، وتعوزهم روح العمل التضامني . الثورات التي تعتبر تطورا ايجابيا اخفقت ، بنظر البطل ، في احداث تغييرات جذرية . ثم يلتفت الى الدور الذي قام به في الازمة الحاضرة كل من الطلاب والاساتذة والمثقفين على العموم ، فيجدهم رمزي على غير استعداد كليا ، وغير قادرين على الاتيان بعمل ما ، فيما عدا قتل وقتهم مثل سائر افراد الشعب ، بقراءة الصحف والاستماع الى الاذاعات ومشاهدة التلفزيون ، أو استنضاب حيويتهم في فورات انفعالية غير مجدية ، انهم يستحقون الملامة جزئيا ، لكن المدارس والجامعات والحكومــات هي المسؤولة في المقام الاول ، لانها فشلت في اعداد هؤلاء المثقفين لمثل هــذه الازمة ، بحؤولها دونهم والمشاركة الحرة في تحويل مجتمعهم وتغييره ــ كما فشلوا هم في اســتخدام طاقاتهم المخزونة على النحو الصحيح . ويتذكر وجود الالاف من الخبراء والتقنيين والاختصاصيين الذين يشلون عن العمل بطريقة ما أو غيرها : الاضطهاد ، الوضع في مكان غير ملائم ، انعدام التشجيع أو الحوافز .

أما النقطة الاخرى الهامة في هذا التقييم الناقد للذات فهي تتصل بالتقدير غــير الواقعي الذي يقدره العربي للقوى العاملة او الفاعلة في مجتمعه أو غيره من المجتمعات ، والعالم الخادع والوهمي الذي يسهم في تكوينه أو يقع ضحية له . ويتصاعد هذا الامر جدا حين يستمع رمزي الى الروايات المبالغ فيها عن الحرب والى أخبار الجيوش العربية الزاحفة في أراضي العدو . بينما كانت الهزيمة العربية مقررة أو متوقعة منذ اليوم الاول للحرب. ومع ان رمزي يبدو اكثر اهتماما بأخطاء المجتمع العربي وآفاته ، فانه لا يحلل الغرب من المسؤولية في خلق اسرائيل وايجاد مشكلة النازحين ، كمــا يلقي عليه تبعة التقدير غير الواقعي لتصميم العرب على استعادة حقوقهم المسلوبة ، فالغرب والصهيونيون كلاهما يعاني من جراء عدد من الاساطير او الافتراضات الخاطئة : بان العرب سوف يتخلون عن كفاحهم ، وبانه حالما يتم ارغام النازحين على الاستيطان في مكان اخر ، سوف يزول التوتر ، وأنه كلما تكررت هزيمة العرب عسكريا ، كلما ازداد استعدادهم للتسوية . ان هذه الافتراضات ليست خاطئة فحسب بنظر البطل ، بل سوف تولد ردا أشد تعلقا بالنضال والقتال . ولذا فلا عجب هناك انه يرى الفدائيين ، في أعقاب الحرب ، بمثابة بارقة الامل الوحيدة التي تعيد الى العربي كــرامته ، وايمانه بالمستقبــل . ومن قبيل السخرية ، ان رمزي المتوجه نحو الغرب يختار الاعتماد الى حد كبــير على الاصوات الغربية للاعراب عن غضبه ضد الغرب ــ وللتعبير عن ايمانه بالنصر النهائي لشعبه . ويبدو ان ت. س. اليوت والهولندي الطائر ودانتي واناشيد حركــة المطالبة بالحقوق المدنية في اميركا (لا سيما انشودة « سوف نحرز الغلبة ») ، والاهم من ذلك كله : ديلان

طوماس في قصيدته « ولن تكون للموت سيطرة » ــ تعكس المــزاج النفسي للعرب في الهزيمة والتحدي .

ان بركات ، من خلال هذا الاسلوب ، يبدو عليه الايحاء بان شعبه ليس مناوئا للغرب في الصميم ،وانه حالما تزول اسباب التوتر ، سوف يرجع الحوار أكثر ايجابية بين العرب والغرب .

وختاما ، ثمة مقدار واسع من الادب والشعر والروايات والمسرحيات ، برز كاستجابة للرد على النزاع الفلسطيني . يمكن انتقاد الكثير من هذا الادب لكونه خطابيا أو ينطوي على التكرار في اللغة والمواضيع والاساليب . لكن الكاتب العربي نجح من خلال هــذا الادب في تقديم روح شعبه وفي الكشف عن أعماق بحثه المحزن عن الحل . وهو يستحق التقدير لثلاث خصائص ايجابية على الاقل : رؤياه النبوئية للاحداث كما جاءت في سياق تطورها ، وروحه وايمانه الذي يأبى التراجع والخضوع ، واخــيرا ، الحدة والشجاعة المتزايدة التي يهاجم بها اخطاء شعبه ونقاط ضعفه .

---

١ ــ ان القاء نظرة خاطفــة على بضعة عناوين لدراسات صدرت مؤخــرا يشير الى غلبــة الموضوعــات الفلسطينية والاهتمام العلمي المتزايد بالموضوع

Naseer Aruri and Edmond Ghareeb, *Enemy of the Sun: Poetry of Palestinian Resistance* (Washington, D.C.: 1970).

ــ ناصر الدين الاسد ــ **الشعر الحديث في فلسطين والاردن** (القاهرة ، ١٩٦١) .

ــ صالح الاشتر ــ **في شعر النكبة** (دمشق ، ١٩٦٠) .

ــ غسان كنفاني ــ **أدب المقاومة في فلسطين المحتلة** : ١٩٤٨ ــ ١٩٦٦ (بيروت ، ١٩٦٦) . وانظر مقالة كنفاني بعنوان « أدب المقاومة في فلسطين المحتلة » ، في

Afro-Asian Writings 1 (Nos. 2-3, Summer 1968). pp. 65-79.

ــ يوسف الخطيب (محرر) ــ **ديوان الوطن المحتل** (دمشق ، ١٩٦٨) .

— Shmuel Moreh, "The Arab Literary Revival in Israel", *Ariel* 2(1962)14-27.

— Emile Nakhleh, "Wells of Bitterness A Survey of Israeli-Arab Political Poetry", *The Arab World* 16 (No. 2, Feb. 1970), 30-36.

ــ م. ح. الصغير ــ **فلسطين في الشعر النجفي المعاصر** : ١٩٢٨ ــ ١٩٦٨ (بيروت ، ١٩٦٨) .

ــ كامل السوافيري ــ **الشعر العربي الحديث في ماساة فلسطين** : ١٩١٧ ــ ١٩٥٥، (القاهرة، ١٩٦٣).

A. L. Tibawi, "Vision of the Return: The Palestine Arab Refugees in Arabic Poetry and Art", *Middle East Journal* 17 (1963) 507-526.

ــ عبد الرحمن ياغي ــ **حياة الادب الفلسطيني من أول النهضة الى النكبة** (بيروت ، ١٩٦٨) .

ــ **دراسات في شعر الارض المحتلة** (القاهرة ، ١٩٦٩) .

٢ ــ انظر على سبيل المثال ما يلي :

Arthur Arberry, *Modern Arabic Poetry* (London: 1950).

— *Arabic Poetry: A Primer for Students*, (London: 1965).

James A. Bellamy and al (ed.) — *Contemporary Arabic Readers: IV Short Story* (Ann Arbor: University of Michigan, 1963), & *V Modern Arabic Poetry* (1966).

William M. Brinner & Mounah Khouri, — *Advanced Arabic Readers*, Vol. I, (Berkeley: University of California, 1961).

James Kritzeck, — *Modern Islamic Literature from 1800 to the Present*, (New York, 1970).

وفي جميع هذه الاعمال لا نعثر سوى على مادتين تعالجان موضوع النازحين الفلسطينيين ، هما قصة قصيرة وقصيدة . انظر : Bellamy's IV, Part I, pp. 52-60. V, Part I, pp. 88-90.

٣ ــ راجع مقالة اومبرتو زيتزيانو عن « ردود الفعل تجاه التأثيرات السياسية الغربية ــ مسرحيات علي أحمد باكثير » في المجموعة التالية :

Historians of the Middle East, (ed.) Bernard Lewis and P. M. Halt (London: 1962), p. 442.

٤ ــ جبرا ابراهيم جبرا : « المتمردون والملتزمون والاخرون : انتقالات في الشعر العربي الحديث اليوم »

(مقالة منشورة بالانجليزية في مجلة **ميدل ايست فورم**، العدد ١ ، ١٩٦٧ (ص ٢٠) .
٥ — السوافيري — **المصدر السابق** ، ص ٢٤٦ — ٣٥٥ و ٦٢٧ — ٦٣١ .
٦ — بالنسبة لقصيدة الزركلي انظر : سامي الدهان — **الشعر الحديث في الاقليم السوري** (القاهرة ، ١٩٦٠) ص ١٥٩ — ١٦٠ .
٧ — انظر ديوان **الفلسطينيات** (بيروت ، ١٩٤٦) ، ص ٨٢ . والى جانب نشاطاته الادبية ، كان وديع البستاني كثير النشاط في ميدان السياسة الفلسطينية ، لا سيما خلال العشرينات . حتى ان أحد المراسلين البريطانيين قد اعتبره في فترة باكرة تعود الى ١٩٢٣ بمثابة « شاب غوغائي ، كثير النشاط وسريع الاثارة ، يحظى بتساهل المسلمين . ومن المحتمل ان يصبح خطيراً ، لكنه لا يبدو من الاشخاص البنائين على الاطلاق». راجع ما يلي : Philip Graves — *Palestine, The Land of Three Faiths* (London: 1923), p. 111.
وللاطلاع على ملاحظة غير مستحبة بشأن دوره في « اتفاقية بيسان » عام ١٩٢٣ ، انظر :
Chaim Weizmann — *Trial and Error* (New York: 1949), pp. 275-76.
٨ — انظر *The Bookman*, 46 (1917/18) 7 - 14.
٩ — **المصدر نفسه** ، ص ١٢ .
١٠ — انظر ديوانه ، الطبعة السابعة (القاهرة ، ١٩٦٣) ص ٤٢٩ — ٤٣٠ .
١١ — أحمد شوقي — **الشوقيات** ، ج ٢ ، (القاهرة ، ١٩٦٤ ؟) . ص ٧١ و ١٠٤ على التوالي .
١٢ — هناك أمثلة اخرى يعكس فيها الشعراء أو القادة العرب رؤيا انسانية للعلاقة بين المسيحيين والمسلمين واليهود . منها مثال الشاعر المصري الكبير حافظ ابراهيم (١٨٧١ — ١٩٣٢) الذي يتصور عالماً تسوده المساواة ويضم المسيحيين واليهود والمسلمين — كما تدل على ذلك قصيدته « تحية الشام » ، التي القاها في بيروت عام ١٩٢٩ . انظر **ديوان حافظ** ، ج ١ ، الطبعة السادسة (القاهرة ، ١٩٥٤) ، ص ٩٤—٩٥ . والملك فيصل الاول (ملك سوريا والعراق) ناشد في خطاب القاه بمدينة حلب (١١ تشرين الثاني — نوفمبر — ١٩١٨) وحدة العرب بغض النظر عن اديانهم ، بقوله : « أن من يسعى لبذر الشقاق بين المسلمين والمسيحيين واليهود ليس بعربي » . انظر عزيزة مريدن — **القومية والانسانية في شعر المهجر الجنوبي** (القاهرة ، ١٩٦٦) ص ٢٧١ .
١٣ — Arthur Koestler — *Thieves in the Night : Chronicls of an Experiment,* (New York: 1946), p. 208.
١٤ — **المصدر نفسه** ، ص ٢١٣ — ٢١٨ .
١٥ — فيما يتعلق بمكانة القدس في الاسلام ، انظر ما يلي :
Charles D. Mathews — *Palestine — Muhammedan Holy Land,*(New Haven Yale University Press, 1949).
Heribert Busse — "The Sanctity of Jerusalem in Islam", *Judaism* 17 (1968), 441 - 468.
١٦ — للاطلاع على عرض موجز لمكانة صلاح الدين في الشعر العربي الحديث ، أنظر مقالة المؤلف : « صلاح الدين الايوبي في الشعر العربي المعاصر » ، مجلة **الاداب** ، السنة الثامنة عشر (العدد ١١ ، تشرين الثاني ، ١٩٧٠) ١٧ — ٢٢ ، ٧٢ — ٧٨ .
١٧ — السوافيري ، **المصدر السابق** ، ص ٢٧٢ — ٢٧٣ .
١٨ — **المصدر نفسه** ، ص ٢١٣ .
١٩ — **المصدر نفسه** ، ص ٢٢٣ .
٢٠ — طوقان — **ديوان ابراهيم** (بيروت ، ١٩٥٥) ص ٨٠ .
٢١ — **المصدر نفسه** ، ص ٦٥ — ٦٦ .
٢٢ — الطيباوي ، **المصدر السابق** ، ص ٥٠٨ .
٢٣ — **المصدر نفسه** ، ص ٥١٣ .
٢٤ — Reuben Wallenrod, — *The Literature of Modern Israel,* (New York: 1956), p. 10.
٢٥ — معين بسيسو — **فلسطين في القلب** (بيروت ، ١٩٦٥) .
٢٦ — **المصدر نفسه** ، ص ٢٣ — ٢٤ .

٢٧ ـ الطيباوي ـ **المصدر السابق** ، ص ٥١٧ ـ ٥١٩ .

٢٨ ـ **المصدر نفسه** ، ص ٥١٨ .

٢٩ ـ هارون هاشم رشيد : **سفينة الغضب** (الكويت ، بدون تاريخ) ، ص ٣٠ ـ ٣١ . والمجموعات الاخرى هي : **مع الغرباء** (القاهرة ، ١٩٥٤) ، **عودة الغرباء** (بيروت ، ١٩٥٦) ، **غزة في خط النار** (بيروت ، ١٩٥٧)، **ارض الثورات** (بيروت ، ١٩٥٩) و **حتى يعود شعبنا** (بيروت ، ١٩٦٦) .

٣٠ ـ رشيد ـ **حتى يعود شعبنا** ، ص ٣٧ ـ ٤٢ .

٣١ ـ **المصدر نفسه** ، ص ١١٩ ـ ١٢١ .

٣٢ ـ محمود درويش . « خلف الاسلاك » ، مجلة **الجديد** ١٣ (العددان ٤ ـ ٥ ، ١٩٦٦) ص ٨ ـ ٩ .

٣٣ ـ عبد الكريم الشبعاوي ، مقالة « فلسطين » في مجلة :
The Arab World **14 (Nos. 5-6, May - June 1968), p. 12.**

٣٤ ـ Najwah Farah, — "A Poet of Galilee: Songs from Galilee by Jamal Kawar," *New Outlook* 1 (No. 11, June 1958), pp. 48-49.

٣٥ ـ موريه ، **المصدر السابق** ، ص ٢٣ .

٣٦ ـ Wallenrod **المصدر السابق** ، ص ٦٩ ـ ٧٠ .

٣٧ ـ هايل عساقلة ـ « انت مني » ـ **الجديد** ١٥ (كانون الاول ، ١٩٦٨) ص ٢٤ .

٣٨ ـ سميح القاسم ـ **دمعي على كفي** (بيروت ، بدون تاريخ) ، ص ١٥٩ ـ ١٦٧ .

٣٩ ـ انظر ترجمته في عروري ـ **المصدر السابق** ، ص ٢ ـ ٤ .

٤٠ ـ درويش ـ **عاشق من فلسطين** (بيروت ، ١٩٦٨) ص ٥ ـ ١٥ ، وانظر ايضا مقالة صالح ج. الطعمة:
"A Lover from Palestine : A Poetic Vision of Palestine's Tragedy," *The AMARA Newsletter* (Boston: The American Arabic Association) 2 (No. 1, January, 1969), pp. 12-16. و عروري ، **المصدر السابق** ، ص ١٥ ـ ١٩ .

٤١ ـ سلافه الحجاوي : **شعر المقاومة في فلسطين المحتلة** ـ بالانجليزية (بغداد ، ١٩٦٨) ، ص ١٦ ـ ١٨.

٤٢ ـ درويش ـ **عاشق من فلسطين** ، ص ٦٤ ـ ٦٥ .

٤٣ ـ **المصدر نفسه** . وانظر مقالة الطعمة : « أبعاد التحـدي في شعر محمود درويش » ، مجلة **مواقف** ، السنة الثانية ـ عدد ٧ (كانون الثاني ـ شباط ، ١٩٧٠) ص ٢٢٢ ـ ٢٣٢ ولا سيما ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

٤٤ ـ **عاشق من فلسطين** ، الصفحـات التالية ١٨ ـ ١٩ ، ٤٠ ـ ٤١ . وانظـر درويش ـ **اخر الليـل** (دمشق ، ١٩٦٨) ص ١١١ ـ ١١٣ .

٤٥ ـ بدر شاكر السياب ـ **انشودة المطر** (بيروت ، ١٩٦٠) ص ٥٩ ـ ٦٥ .

٤٦ ـ عبد الوهاب البياتي ـ **المجد للاطفال والزيتون** (بيروت ، ١٩٥٤) ، ص ٧ ـ ٨ و ١٣ .

٤٧ ـ خالد الشواف ـ **الاسوار** (بيروت ، ١٩٥٦) .

٤٨ ـ علي أحمد باكثير ـ **مأساة اوديب** (القاهرة ، ١٩٤٩ ؟) وانظر رسالة الدكتوراه التي أعدها ابراهيم حماده وموضوعها : ***Treatments of Sophodes' Oedipus : The King in Contemporary French and Egyptian Drama,*** **Ph. D. Thesis, Bloomington: Indiana University, 1968, pp. 128-170 esp. 163-164.**

وبالنسبة لاعمال باكثير الاخرى ذات الصلة بالموضوع ، انظر ريتزيتانو ، **المصدر السابق** ، ص ٤٤٢ ـ ٤٤٨ .

٤٩ ـ Jabra I. Jabra, — *Hunters in a Narrow Street,* (London: 1960), p.27.

٥٠ ـ نزار قباني ـ **الاستجواب والمثلون** ، مجلة **مواقف** ـ السنة الاولى ، العدد الاول (تشرين الاول ، تشرين الثاني ، ١٩٦٨) ص ٤١ ـ ٥٠ .

٥١ ـ ومن المحاولات الاخرى التي تستحق اهتماما خاصا روايات ثلاث للكاتب الفلسطيني غسان كنفاني : **رجـال تحت الشمس** (بيروت ، ١٩٦٣) ، **ماتبقى لكم** (بيروت ، ١٩٦٦) ، **عـائد الى حيفـا** (بيروت ، ١٩٧٠ ؟) .

للاطلاع على معالجة مقتضبة للرواية الاولى وعلى صيغة مختلفة بعض الاختلاف لبحثي عن حليم بركـات ، انظر مقالتي: "Socio Political Themes in the Contemporary Arabic Novel: 1950-1970".
وسوف تظهر في الكتاب التالي :
Cultural Nationalism and the Modern Writer, ed. by H. Ernest Lewold Knoxville: (The University of Tennessee Press).

أزمة الحزب الشيوعي السوري والقضية الفلسطينية
دراسة مقارنة مع بعض الاحزاب الشيوعية العربية

اسامة الغزي

احتلت القضية الفلسطينية ، بأبعادها الجديدة التي اكتسبتها بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، مكانة مركزية في أزمة الحزب الشيوعي السوري الفكرية والسياسية . وبلغت هذه الازمة ذروتها في أوائل نيسان الماضي ، عندما أذاع الامين العام للحزب ، خالد بكداش ، بيانا علنيا ، اتهم فيه « كتلة » داخل الحزب ، بالعمل على « تبديل سياسة الحزب في كل الميادين الفكرية والسياسية والتنظيمية » وبأنها « تخلت عن النظرة الطبقية والموقف الاممي للحزب الشيوعي من القضايا القومية ... ففي **القضية الفلسطينية** ، عارض أفراد الكتلة افكار النضال من اجل ازالة آثار العدوان الاسرائيلي وتحرير الاراضي المحتلة وضمان حق الشعب العربي الفلسطيني في العودة الى وطنه وتقرير مصيره على ارضه ، وتبنوا عوضا عنها شعارات متطرفة »(١). بعد اربع وعشرين ساعة من بيان الامين العام ، أذاعت « الكتلة » التي عناها في بيانه بيانا مماثلا ردت فيه على اتهاماته ، واعتبرت عمله « بادرة انشقاقية خطيرة عرضت وحدة الحزب للخطر »(٢). وقد وقع البيان الاخير اكثرية اعضاء المكتب السياسي للحزب (٥ من اصل ٧) ، وبذلك تكون ازمة الحزب الشيوعي السوري ، قد خرجت الى العلن رسميا ، لاول مرة في تاريخه الطويل الذي يقارب نصف قرن .

وبالرغم من أنه لم يرد في أي من البيانين سوى اشارات عامة حول القضية الفلسطينية ، فان الرجوع الى وثائق الحزب ، وبخاصة الى الكلمات التي القيت في مجلسه الوطني العام المنعقد في أواخر العام الماضي ١٩٧١ ، يبين بجلاء أن القضية الفلسطينية ، في جميع ابعادها الجديدة التي اكتسبتها بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، قد كانت محورا مركزيا من محاور الخلاف الفكري داخل الحزب . فمن بين القضايا الفكرية المطروحة في المجلس الوطني العام المذكور ، احتلت قضية عدوان حزيران وتقييمها ، وقضية الوجود الاسرائيلي وتحليله ، وقضية الحل السياسي والحل العسكري وحرب التحرير الشعبية والموقف من نضال حركة المقاومة وظاهرة العمل الفدائي ككل ، معظم مناقشات هذا المجلس ، وحول هذه القضايا كانت المواقع الفكرية ، والمواقف السياسية ، أكثر ما تكون تمركزا وتباعدا ، بين الفريقين المتنازعين داخل الحزب .

المرحلة الجديدة بعد هزيمة حزيران

لقد بات واضحا اليوم ، اكثر من أي وقت مضى ، أسباب هذه الظاهرة بحد ذاتها . فبعد مضي خمس سنوات ونيف على هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، تتأكد ، بالوقائع والاحداث ، عمق الاثار التي ولدتها وما زالت تولدها الهزيمة في بنى الحياة العربية كلها ، مما يؤكد التحليل القائل بأن ما حدث في حزيران ١٩٦٧ لم يكن مجرد هزيمة عسكرية منيت بها الجيوش العربية فقط ، كما لم يكن ، بنفس الوقت ، هزيمة نهائية لحركة التحرير الوطني العربية . ان الوقائع والاحداث ، تؤكد ان هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، كانت نقطة انعطاف حاسمة ، سقطت فيها مرحلة كاملة ، وبدأت مرحلة جديدة في تاريخ كفاحنا الوطني التحرري ضد الحلف الامبريالي — الصهيوني — الرجعي .

أولا : طرحت الهزيمة أبعادا جديدة للقضية الفلسطينية ، فلم تعد مجرد قضية مليون من

النازحين ، المشردين في المخيمات في ضواحي المدن العربية الكبرى فقط ، كما لم تعد قضية سياسية، روتينية ميتة، في أروقة الامم المتحدة، من الجمعية العامة الى وكالة الغوث الى مجلس الامن الدولي. فعلى الصعيد العربي أضحت قضية فلسطين **قضية المصير العربي كله** ، ليس فقط لان اسرائيل ، مدعومة من الامبريالية الامريكية ، قد احتلت اراضي ثلاث دول عربية جديدة ، بالاضافة الى فلسطين كلها ، بل لما ينطوي عليه هذا العمل من معان ، ولما يترتب عليه من نتائج ، تؤكد دور اسرائيل كرأس حربة للامبريالية العالمية ذات المصالح الثابتة في المنطقة العربية ، والمهيأة دائما لقمع حركة التحرر الوطني العربية، ولتطويع المنطقة كلها سياسيا واقتصاديا لخدمة أهداف ومصالح الاحتكارات الرأسمالية في البلدان العربية، بالاضافة الى المطامع التوسعية للرأسمالية الصهيونية فيها.

ثانيا : اكدت الهزيمة ، التي جاءت على شكل هجمة امبريالية — صهيونية مشتركة ، أن القضية الفلسطينية هي **واجهة الصدام** في عملية الصراع بين حركة التحرر العربية وبين أعدائها الامبرياليين والرجعيين ، وان عملية الصراع هذه ، تزداد احتداما وحدة كلما ازدادت مصالح الامبريالية توسعا ، وكلما ازدادت الحركة الوطنية صلابة والتحاما بحركة التحرر العالمي لشعوب البلدان المتخلفة كلها وبسائر قوى التحرر في العالم .

ثالثا : وعلى الصعيد الذاتي ، أفرزت الهزيمة **حركة سياسية جديدة** في الواقع العربي ، هي حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة ، التي مثلت الرد الطبيعي المباشر على الهجمة الامبريالية الشرسة ، والتي استقطبت حركة الكفاح الوطني العربية في المرحلة الجديدة ، يؤكد ذلك الالتفاف الجماهيري الواسع ، العربي والفلسطيني ، حول هذه الحركة المسلحة ، منذ نشوئها .

كان طبيعيا ، بعد كل هذا ، ان تطرح المرحلة الجديدة ، أمام حركة التحرر الوطني العربية ، **مهمات جديدة** ، وأن تفرض عليها ، **عملية مراجعة فكرية وسياسية شاملة** ، تتناول فيما تتناول ، القضية المركزية في النضال العربي ، قضية فلسطين في أبعادها الجديدة . وقد استلزم كل ذلك ، اعادة النظر في تحليل طبيعة الوجود الاسرائيلي في قلب المنطقة العربية ، وفي طبيعة ارتباطه بالسياسة الامبريالية العالمية ومصالحها الاقتصادية ، وفي الحل الثوري للقضية الفلسطينية، وفي أساليب العمل الجديدة ، وفي الموقف من حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة .

تلك هي ، باختصار ، الاثار والنتائج الاساسية لحرب حزيران ، الفكرية والسياسية ، التي فرضت نفسها على كافة المؤسسات السياسية العربية القائمة ، ومن ضمنها الحزب الشيوعي السوري. وهذا هو تفسير الظاهرة الجديدة ، ظاهرة حجم القضية الفلسطينية في الحياة السياسية العربية بعد عام ١٩٦٧ .

بالنسبة للاحزاب الشيوعية العربية ، هناك عامل آخر له خصوصية معينة ، كان عليها ان تواجهه في المرحلة الجديدة ، فقد أفرزت حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة ، **قيادات برجوازية صغيرة ذات أفق وطني عام ، وقيادات برجوازية صغيرة ذات أفق ماركسي لينيني** ، والقيادات الاخيرة ساهمت الى حد بعيد ، بما طرحته من خطوط سياسية جديدة ، بتعميق وتأصيل عملية المراجعة في صفوف بعض الاحزاب الشيوعية العربية ، وباحتدام الازمة في صفوف بعضها الاخر .

اذا ، لم يكن الحزب الشيوعي السوري هو الحزب الشيوعي العربي الوحيد الذي فرضت عليه الظروف الجديدة عملية المراجعة لخطوطه الفكرية والسياسية ، وان كان هو الحزب الوحيد الذي تأخرت فيه عملية المراجعة الى اليوم . لقد واجهت الاحزاب الشيوعية العربية ، في السودان والعراق ولبنان ، والاردن والمغرب ، مثل هذه المراجعة ، في مراحل مختلفة بعد ٥ حزيران ، وانتهت الى نتائج هامة ، عدلت كثيرا من خطوطها الفكرية والسياسية والتنظيمية ، تعديلا جوهريا.

لذلك قبل التعرض بالتفصيل لازمة الحزب الشيوعي السوري والقضية الفلسطينية ، سنعرض بايجاز ، للخطوط الكبرى في عملية المراجعة التي قامت بها الاحزاب الشيوعية في كل من السودان والعراق ولبنان .

موقف الحزب الشيوعي السوداني : قام الحزب الشيوعي السوداني ، بأول عملية مراجعة فكرية وسياسية ، بعد هزيمة حزيران عام ١٩٦٧ . فبعد خمسة أشهر من وقوع العدوان ، عقد الحزب المذكور مؤتمره الرابع ، تحت ضغط والحاح الظروف الجديدة ، وبالتجاوب معها . صدر عن

هذا المؤتمر تقرير عام ، شامل ، تناول في جزء منه قضية الوجود الاسرائيلي من الاساس . تبنى الحزب التحليل الجديد القائل بأن اسرائيل قاعدة استعمارية وأداة في يد الامبريالية لضرب الثورة العربية التحررية منذ قرار التقسيم حتى الان : « لقد استخدمت اسرائيل عام ١٩٤٨ لوقف المد الثوري الذي أعقب الحرب العالمية الثانية ، واستخدمت عام ١٩٥٦ لضرب مصر بعد تأميم قناة السويس ، واستخدمت عام ١٩٦٧ بعد فشل الردة الرجعية السياسية لوقف حركة التغيير الاجتماعي »(٣).

ويلاحظ الحزب أنه رغم الوضوح السياسي في فهم دور اسرائيل ، فان **غموضا فكريا** قد اكتنف هذه القضية ، وينطلق في محاولته جلاء هذا الغموض بالدعوة الى اعادة النظر من قرار التقسيم عام ١٩٤٧ ، وبالعودة لتحليل الاساس الذي قامت عليه دولة اسرائيل : « ان مشكلة اليهود لم تنشأ في فلسطين ولا في العالم العربي ولكنها نشأت في أوروبا مع نشأة الرأسمالية ، وتفاقمت بتفاقم الحياة في المجتمعات الاوروبية الرأسمالية »(٤).

كان الحزب الشيوعي السوداني أول حزب شيوعي عربي ، يطرح المسألة اليهودية وفق أسس التحليل الماركسية ، باعتبارها وليدة أزمة البرجوازية اليهودية في فترة النهوض الرأسمالية في العالم . وفي التزاوج الذي حصل بين الرأسمالية اليهودية والرأسمالية الاحتكارية العالمية ، من أجل اقامة دولة صهيونية ـ امبريالية في فلسطين . ومن المهم ملاحظة نقطة أساسية في موقف الحزب الشيوعي السوداني من « مسألة القومية اليهودية » ، فبعد ان يحدد الحزب مقومات القومية التاريخية والاجتماعية المتمثلة في الارض والحياة الاقتصادية المشتركة والتاريخ المشترك واللغة الواحدة والطابع النفسي والثقافة واللغة ، يتساءل : « هل يمكن الزعم بأن فلسطين هي الارض التي نشأت عليها تلك العناصر ، وخلقت قومية يهودية في يوم ما ؟ »(٥)، ويصل الى الجواب التالي : « ليس هناك في تاريخ اليهود ما يثبت ان اليهود فيما بعد صاروا قومية مميزة في ارض فلسطين او غيرها »(٦). ويرد على الزعم القائل بأن اكتساب دولة اسرائيل ارض فلسطين سيكمل عناصر الامة اليهودية ، بأنه مناف للعلم ، ويعزل الارض كعنصر من عناصر تكوين الامة عن العوامل الاخرى من اجتماعية وتاريخية ، ويستشهد على ذلك بمقالة لينين « خوف التمثل القومي » التي جاء فيها « ان اليهود المقيمين في العالم المتمدن لا يشكلون أمة فقد تمثلوا أكثر من غيرهم كما يقول كاوتسكي وبادير ، كذلك لا يشكل اليهود القاطنون في روسيا وغاليسيا أمة ، فليسوا في هذين البلدين سوى فئة مغلقة ومعزولة . وهذا هو الرأي الثابت الذي يقول به أولئك الذين يعرفون التاريخ اليهودي يقين المعرفة » . وحول مسألة الامة اليهودية في الاصل ، يرى الحزب أن عهد تكون الامم قد انتهى بعد انهيار النظام الاقطاعي وانتصار الرأسمالية على النطاق العالمي ، بالاضافة **الى ان اليهود لا يشكلون أمة** ، لانعدام اي سمات مشتركة تجمع بينهم ، فهم يقيمون في أنحاء مختلفة من العالم ، ومشكلتهم مرتبطة بمشكلة الامم التي يعيشون بينها، وتحررهم مرتبط بتحرر تلك الامم سواء من القهر القومي او الطبقي ، وهنا ايضا يستشهد التقرير بمقالة لينين المذكورة : « ان الذين يستطيعون وحدهم دون غيرهم أن يقيموا الدنيا ويقعدوها ضد **التمثل** ، انما هم اولئك اليهود الرجعيون التافهون، الضيقو الافق الذين يريدون ان يرجعوا عجلة التاريخ الى الوراء » . ويخلص الحزب من كل ذلك الى **ان قيام دولة اسرائيل لم يحل مشكلة اليهود**، بل ربما سعرها أكثر ، **فهناك تمييز عنصري** داخل اسرائيل ، بين اليهود القادمين من المجتمعات الاوربية واليهود القادمين من المجتمعات الاسيوية والافريقية المتخلفة ، وبينهم وبين اليهود القادمين من المجتمعات العربية ، سببه وأساسه هو « نفس المفهوم الرجعي العنصري الذي عارض في السابق ذوبان اليهود في مجتمعاتهم المختلفة التي كانوا يعيشون فيها في الماضي ، لان نفس المفاهيم تعوق اليوم الذوبان داخل اسرائيل »(٧).

وللحزب الشيوعي السوداني رأي واضح في **حل المشكلة الفلسطينية** ومشكلة وجود اسرائيل فوق الارض العربية . فهو يتبنى موقف قيام **الدولة العربية الديمقراطية** فوق أرض فلسطين ، فهذا وحده يصحح الموقف الشاذ الذي نشأ منذ عام ١٩٤٨ : « داخل هذه الدولة الفلسطينية العربية سيجد المواطنون الاصليون ، عربا وأقلية يهودية حقوقهم الكاملة »(٨). ويرى بأن هذه الدولة بكامل حقوقها المشروعة في السيادة تستطيع أن تصفي آثار الاضطهاد الصهيوني الاستعماري وفي مقدمتها مشكلة اللاجئين العرب ، ومشكلة الهجرة

اليهودية ، » اذ على أساس التحديد الواضح لما هو المواطن الفلسطيني تجري اعادة تسكين اللاجئين ، وتحفظ الحقوق الوطنية لليهود الفلسطينيين ، اما المهاجرون من الجنسيات الاخرى فالدولة العربية الفلسطينية هي التي تحدد مصيرهم »(٩). وهذا الموقف نابع من قناعة ثابتة لدى الحزب بأن امكانية التغيير الاجتماعي داخل اسرائيل ، ليست الا **وهما** لا يأخذ بعين الاعتبار الظروف الخاصة التي أدت لقيام دولة اسرائيل ، وهي افتقادها السمات الاساسية للدولة الوطنية. فهي قد قامت على أساس الاغتصاب المسلح ، وليست لها حدود معينة ، وتبني سياستها على اساس التوسع . بالاضافة الى ان بنية اسرائيل الاجتماعية غير الثابتة ، نتيجة التوسع من جهة والهجرة المستمرة والهجرة المضادة من جهة اخرى، وبنيتها الاقتصادية القائمة على اقتصاد غير منتج ، أساسه الخدمات والبناء والتمويل الخارجي ، يجعل منها مجرد « جيش احتلال قائم مستعد في اي وقت »(١٠).

لذلك كله ، فان الحديث عن التغيير الاجتماعي داخل اسرائيل ، حديث ينافي علم الثورة ، وان الشعارات الزائفة التي تزعم امكانية تغيير اشتراكي في الوطن القومي لبني اسرائيل « ليست الا شعارا للمصالح الرجعية والصهيونية »(١١).

وفي اطار تصور الحزب الشيوعي السوداني لحل المشكلة الفلسطينية عن طريق اقامة دولة عربية ديمقراطية فوق أرض فلسطين ، يدعو الحزب القوى الاشتراكية الى **اعادة النظر في قرار ١٩٤٧** المتعلق بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود ، لان « **الافتراضات** التي بررت التقسيم واعتبرته حلا لتحقيق التعايش السلمي بين الاقليات اليهودية والعرب في فلسطين قد اثبتت التجربة خطأها »(١٢).

ويدعو الحزب اخيرا الى موقف موحد للحركة الاشتراكية العربية والعالمية ، في مواجهة حقيقة اسرائيل ، والى « فك عزلة قوة عالمية ضخمة كان يمكن كسبها لصالح الحركة الثورية العربية ومطلب الشعوب العربية العادل في **ازالة الوجود الاسرائيلي الطفيلي** »(١٣).

موقف الحزب الشيوعي العراقي «القيادة المركزية»:

احتلت القضية الفلسطينية ، في مختلف مراحل تطورها ، مكانة هامة في التاريخ السياسي للحزب الشيوعي العراقي . غير أن التطور الهام الذي حدث داخل الحزب جاء في أعقاب هزيمة حزيران. ففي أيلول من عام ١٩٦٧ ، أي بعد الهزيمة بثلاثة اشهر ، واجه الحزب أزمة حاسمة انتهت بانشقاقه . وتقيم « القيادة المركزية » ، وهو الاسم الذي اتخذه أحد طرفي الانشقاق ، الازمة بأنها : « انتفاضة اقترنت بالعمل من اجل تصحيح خط الحزب من المسألة الفلسطينية»(١٤)، وميز هذا الفريق موقفه بوضوح من قضية الوجود الاسرائيلي والحركة الصهيونية والمقاومة الفلسطينية . فالصهيونية ليست الا « حركة توسعية قائمة على ايديولوجية فاشية ، وأداة في يد الامبريالية »(١٥). ودولة اسرائيل ليست الا « تحقيقا لاغراض المخطط الامبريالي — الصهيوني » في خلق منطقة احتلال دائم مدججة بالسلاح لمجابهة الحركة التحررية التقدمية العربية ، ولتثبيت وتوسيع المصالح الاستعمارية ، وهي بحكم طبيعتها وتركيبها الاقتصادي وتبعيتها للاحتكارات العالمية وخصوصا الاميركية ليست الا « جزءا من النظام الامبريالي العالمي ، وشريكة ثانوية للدول الامبريالية »(١٦) في خططها الموجهة ضد الحركات التحررية الثورية وضد القوى الاشتراكية في العالم . لذلك فان القضية الفلسطينية — قضية الوجود الاسرائيلي — هي « قضية فلسطينية وقضية عربية في آن واحد »(١٧). ولن تستطيع البلدان العربية ضمان استقلالها الحقيقي ولا تحقيق وحدتها الثورية مع بقاء الكيان الاسرائيلي . وتعتبر القيادة المركزية أن أهم ردود الفعل على هزيمة حزيران عام ١٩٦٧ هو **ظهور وتطور حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة** ، والتزمت تجاهها بالموقف العملي التالي :
١ — تقديم جميع اشكال العون المادي — السلاح والمال — ، ٢ — تعزيز الروابط الكفاحية بين القوى التقدمية والمنظمات الفدائية والمساهمة الفعلية في الكفاح المسلح الذي تشنه على الارض الفلسطينية المغتصبة(١٨).

اما عن البرنامج لحل القضية الفلسطينية ، فقد تبنت « القيادة المركزية » موقف **ازالة كيان دولة اسرائيل وتشكيل دولة فلسطين الديمقراطية الثورية** ، التي ترفض التمييز العنصري والديني ، وتضمن المساواة للجميع ما عدا الطغمة الصهيونية المسيطرة ، وتحرم هجرة اليهود الى فلسطين تحريما نهائيا وقاطعا ، وتسهل عودة اليهود الذين

يرغبون في الرجوع الى أوطانهم الاصلية « فبذلك وحده يمكن تصفية بؤرة الاستنزاز والعدوان من الاساس »(١٩).

موقف الحزب الشيوعــي اللبناني : بعد حرب حزيران بأكثر من عام ، في تموز عام ١٩٦٨ ، عقد الحزب الشيوعي اللبناني مؤتمره الثاني. ويمكن القول بأن هذا المؤتمر شكل تحـولا أساسيا في منطلقات الحزب الفكرية ومواقفه السياسية تجاه القضية الفلسطينية . فلأول مرة يحدد الحـزب بوضـوح معنى اسرائيل كجزء من حركة الامبريالية العالمية ، قامت على اغتصاب الارض العربية ، بهدف تقسيم العالم العربي واعاقة حركة الوحدة العربية ، « ان اسرائيل اليوم هي الهراوة التي تلوح بها الامبريالية وتستخدمها ضد الانظمة التقدمية العربية »(٢٠). واتخذ الحزب من حركة المقاومة موقفا مبدئيا في اعتبارها « حـركة ثورية لشعب اغتصبت أرضه وكامل حقوقه في وطنه ، تشارك فيها كل القوى الوطنيـــة والتقدمية بمن فيهـــم الشيوعيين »(٢١).

وتصور الحزب في تلك الفترة ، دور العمل الفدائي اذا تطور واتسع ـ وهو يتطور ويتسع بسرعة فائقة ـ بأن من شأنه « ان يضعف مواقع الرجعية والصهيونية والامبريالية ، ويدفع الحركة الوطنية نحو **نهوض** جديد يشتد فيه النضال لازالـــة آثار النكسة ولتحقيق منجزات جديدة في طريق التحرر السياسي والاقتصادي والاجتماعي الكامل للبلدان العربية »(٢٢).

وكذلك شكل المؤتمر تحولا اساسيا في تصور الحزب لحل القضية الفلسطينية ، بالاعتراف الكامل بحق العرب الفلسطينيين الــذي لا ينازع في أرضهم ووطنهم ، ورفض الامر الواقع « فان وجود اليهود في فلسطين اليوم لا يمكن ان ينال من حق عرب فلسطين الطبيعي والتاريخي في وطنهم »(٢٣).

وفي أوائل عام ١٩٧١ ، عقد الحزب مؤتمره الثالث، وأقر برنامجا سياسيا تناول في جزء منه عـدوان حزيران والقضية الفلسطينية ، وقد أعاد فيـــه الحزب تثبيت خطوطه الاساسية السابقة ، **وعدل بعض الخطوط الاخرى ، وخاصة فيما يتعلق بموقفه من حركة المقاومة** ، وتقييمه لدورهـــا : يلاحظ الحزب ، ان حركة المقاومة قد جوبهت منذ نشوئها، بحقد وحشي ، من قبل الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية ، واستخدمت جميع الاساليب للتضييق عليها وضربها وتصفيتها ، غير انه يرى ان حركة المقاومة الفلسطينية « **بالطبيعة الطبقية** البرجوازية الصغيرة لقياداتها » قد ظلت « اسيرة الشعارات العامة » وبدون « برنامج مرحلي موحد » وبدون « أسس صحيحة لعلاقاتها بالجماهير العربية والقوى التقدمية العربية » و« بالانظمة العربية » وان « سلسلة من الاخطاء الاستراتيجية والتكتيكية هي التي قادت الـى عزلتها وساعدت علـــى ضربها »(٢٤). والحزب الشيوعي اللبناني قد عمل على « دعم المقاومة بكـل الوسائل السياسية والمعنوية والمادية والبشرية » بما في ذلك «المشاركة في عملياتها المسلحة » . وركز نضالاته مع القوى التقدمية الاخرى من اجل « حماية المقاومة في وجه التآمر الرجعي ومحاولات التصفية التي تعرضت لها »(٢٥). ويعلن الحزب انه قد عارض بشدة « المواقف الخاطئة الانتهازية اليمينية واليسارية » في هذه الحركة والتي كانت تلتقي على « الفصل بينها وبين حركة التحرر الوطني العربية » سواء بالنظر اليها بمعزل عن المحتوى الاساسي المعادي للامبريالية والتقدمي ، الذي يميز حركة التحرر الوطني العربية في مرحلتها الراهنة ، ام بمحاولة تحميلها « اكثر مما تستطيع ان تحمل ، وجعلها بصورة اعتباطية ، **طليعة** لحركة التحرر العربي ككل ، وأحيانا **بديلا** عن هذه الحركة »(٢٦). ويعتبر الحزب ان الشيوعيين **مسؤولــون** « عن عـدم تأديتهم واجبهم منذ البداية في لعب دور اكثـر فعالية في حركة المقاومة مما كان من شأنه ان يزيد في قوتها ويخفف من أخطائها وثغراتها »(٢٧). ويرى الحزب ان العلاقة التي كانت يجب ان تسود بين المقاومة الفلسطينية وبين الحركة الوطنية والتقدمية داخل كل بلد عربي بما في ذلك الحركة الوطنية والتقدمية في لبنان ، تتجسد في « رفض ومقاومة كل محاولات عزل المقاومة عن هذه الحركة او محاولات احلال المقاومة محل الحركة الشعبية والتقدمية في الداخل وجعل هذه الاخيرة تابعة الاولى »(٢٨).

اما موقف الحـزب الاستراتيجـي من القضيـة الفلسطينية فهو في « ارتباط **الحل النهائي للقضية الفلسطينية** بمجمل التطورات اللاحقة لحركة التحرر الوطني العربية ، وان استعادة الحقوق القومية للشعب العربي الفلسطيني ، رهن **بتغيير جذري** في ميزان القوى لصالح حركة التحرر الوطني العربية، وان مثل هذا التغيير ، يمكن للاشتراكية وحدها ان توصل اليه في ظروف عصرنا وفي الوضع الملموس

لبلداننا العربية »(٢٩).

وقد تبنى الحزب موقفا من قرار مجلس الامن ، يتلخص في **تأييد القرار** ، لما تضمنه من « نص صريح يقضي بعدم القبول بضم الاراضي بالقوة ، ولكون تطبيقه ، في ظروف نسبة القوى في المنطقة ، يساعد على تخطي النكسة »(٣٠). ويذهب الحزب الى حد **ادانة** مواقف بعض اجنحة حركة التحرر الوطني العربية « برفض الحل السياسي جملة وتفصيلا » ويتهمها « بالعمل على ايجاد تعارض مصطنع بين النضال على الصعيد السياسي والنضال على الصعيد العسكري »(٣١).

الحزب الشيوعي السوري والقضية الفلسطينية : حتى حزيران عام ١٩٧٠ ، وهي الذكرى الثالثة لهزيمة عام ١٩٦٧ ، كان حوار التغيير والتطور الفكري والسياسي تجاه القضية الفلسطينية ما زال يجري داخل صفوف الحزب . ولم يطرأ اي تغيير في سياسة الحزب العلنية . فالمؤتمر الثالث الذي عقده الحزب في صيف عام ١٩٦٩ كان بداية التفاعل داخل صفوفه ، وقد خرج المؤتمر المذكور بمشروع برنامج سياسي ، لم يطرح على قواعد الحزب الا في صيف عام ١٩٧٠ .

جاء مشروع البرنامج ببوادر التغيير والتطور في موقف الحزب الشيوعي السوري ، فقد تناول القضية الفلسطينية في جزء أساسي منه ، وطرح لاول مرة خطوطا جديدة تجاه القضية ، اذ اعتبر اسرائيل عدوا امبرياليا — صهيونيا اغتصب حق الشعب العربي في أرضه ووطنه ، وأقر بحق الشعب العربي الفلسطيني في تحرير وطنه المغتصب من الاستعمار والصهيونية وحقه في العودة الى وطنه وتقرير مصيره على ارضه وبناء دولته بالشكل الذي يريده ، اما الموقف الذي اتخذه الحزب من المقاومة كما عبر عنه مشروع البرنامج ، فهو اعتبار نضال الشعب العربي الفلسطيني نضالا تحرريا عادلا يشكل جزءا لا يتجزأ من حركة التحرر الوطني العربية وبالتالي من الحركة الثورية العالمية ، لذلك فان الجماهير العربية عموما ، وقواها التقدمية خصوصا ، مدعوة ليس لتقديم المزيد من الدعم المادي والمعنوي لحركة المقاومة فحسب ، بل انها « مدعوة ايضا لبذل المزيد من المساهمة والمشاركة العملية في هذا العمل الوطني والقومي الكبير . فالاحتلال الاسرائيلي للاراضي العربية يمس مصالح الشعوب العربية بمجموعها».

اما عن موقفه الجديد من حل القضية الفلسطينية فقد تبنى الحزب موقف « **تصفية الصهيونية ومؤسساتها العدوانية التوسعية** فذلك هو وحده الكفيل بتمكين الشعب العربي الفلسطيني من تحقيق اهدافه»(٣٢). وللشعب العربي الفلسطيني ملء الحق في استخدام مختلف اساليب واشكال النضال من أجل تحقيق هذه الاهداف بما في ذلك الكفاح المسلح.

أثار هذا الموقف ردود فعل كبيرة في قواعد الحزب وكوادره القيادية ، ورغم انه أقر بالاجماع ، من قبل لجنة تمثل فيها الطرفان المتنازعان اليوم ، باستثناء تحفظ واحد لا يتعلق بالقضية الفلسطينية مباشرة ، فان جذور الخلاف في الحزب يمكن ردها الى هذا المشروع .

لقد أصبح مشروع البرنامج مركز الحوار بين اطراف النزاع في الحزب ، الذي استمر في التصاعد الى حد هدد وحدة الحزب ، مما دعاه الى عقد مجلس وطني عام في نهاية عام ١٩٧١ ، وفي مناقشات هذا المجلس تبين أن هناك تيارين متمايزين واضحين حول أغلب القضايا التي تناولها مشروع البرنامج ومن ضمنها القضية الفلسطينية . وقبل استعراض مناقشات المجلس المذكور حول القضية الفلسطينية نريد أن نسجل الملاحظات الضرورية التالية :

١ — جاءت مناقشات المجلس الوطني، بعد الاحداث الهامة التي طرأت على صعيد المنطقة ، والقضية الفلسطينية ، وتحديدا بعد طرح مشروع روجرز وبعد مجزرة أيلول ١٩٧٠ ، وتصفيات جرش ١٩٧١.

٢ — مع أن مشروع البرنامج العتيد كان محور المناقشات في المجلس ، فقد تجاوز كل من الفريقين المواقف المطروحة في هذا البرنامج الى مواقف أكثر وضوحا وبلورة تجاه كافة جوانب القضية الفلسطينية . ٣ — كان من المفترض ان ينهي المجلس الوطني الخلافات داخل الحزب ، أو أن يجمدها على أقل تقدير ، ولكنه في الحقيقة فجرها.

٤ — بات واضحا اكثر ، أن هناك فريقين مستقلين متماسكين في الحزب ، فريق يقوده الامين العام نفسه ، وفريق آخر يقوده اغلبية اعضاء المكتب السياسي ، لذلك فاننا سنعرض لازمة الحزب ، من خلال عرض مواقف وآراء الفريقين تحت تسمية فريق الامين العام وفريق المكتب السياسي .

موقف الامين العام : لم يرد في كلمة الامين العام أمام المجلس الوطني الموسع تحليل مباشر لطبيعة الصهيونية، ولا لدور اسرائيل وارتباطها بالامبريالية

العالمية ، ذلك رغم الموقف الواضح الذي ورد في مشروع البرنامج حول هذه النقاط . غير انه ورد في هذه الكلمة تحديدات واضحة للموقف من حل القضية الفلسطينية ، والموقف من العمل الفدائي ، يمكن بالاستناد اليها فهم موقف الامين العام من مجمل القضية الفلسطينية . يرى الامين العام ان المهمة الكبرى الرئيسية المطروحة الان هي « ازالة آثار العدوان الاسرائيلي الاستعماري في حزيران ١٩٦٧ وتحرير الاراضي العربية التي احتلت نتيجة لهذا العدوان »(٣٣) وذلك يتم « عن طريق النضال في سبيل حل سياسي عادل على اساس قرار مجلس الامن في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٧ ، لان القرار يقضي اول ما يقضي بانسحاب القوات الاسرائيلية من الاراضي العربية المحتلة » . ويلاحظ الامين العام أن اسلوب النضال هذا « ليس بالشيء القليل » لانه يعتبر المناخ الدولي في صالح العرب. ويستكمل الامين العام رأيه حول انجاز المهمة الكبرى الرئيسية ، **ازالة آثار العدوان** ، فينادي بالاضافة الى النضال السياسي من اجل حل عادل عن طريق قرار مجلس الامن ، بضرورة **رفع القدرة القتالية للقوات العربية** ، ويرى ان رفع القدرة القتالية وحده بمعزل عن الحل السياسي مضر ويترك مجالا للدعاية الاستعمارية الصهيونية الزاعمة بأن رفع القدرة القتالية العربية غايته محو اسرائيل كدولة ورمي اليهود في البحر . ويبرر الامين اخذه بهذا الحل بأنه « هو الحل الذي نأخذ به الاتحاد السوفييتي مدعوما من مصر ومن دول عربية اخرى »(٣٤).

ويتهم الامين العام الذين يهاجمون قرار مجلس الامن ويرفعون شعار تحرير فلسطين كلها عوضا عن شعار ازالة آثار العدوان ، بأنهم **قوميون تقدميون**، وانهم أخذوا يعيدون النظر في موقفهم . لذلك يستطرد بأنه « لا يمكن لحزبنا أن يتخذ المواقف التي أخذت الحركات القومية التقدمية نفسها تتخلى عنها وتنتقل الى مواقف أكثر واقعية لا تدع مجالا للاستغلال ضد الشعب العربي من قبل الدعاية الاستعمارية الصهيونية » . وفي معرض تحديد رأيه من **حل قضية فلسطين** ، ينتقد منذ البداية فكرة العودة الى الوضع الذي كان قائما في فلسطين قبل عام ١٩٤٧ ، ويتهم مرة اخرى ان هذه هي افكار القوى التقدمية ، وانها « ستؤدي بالنتيجة الى شعار ازالة دولة اسرائيل » ، وهو شعار « غير صحيح وغير واقعي وليس له اي أساس طبقي »(٣٥)، ويتهم ايضا الذين يطالبون بشعار تحرير فلسطين انما يساعدون شاؤوا أم أبوا الجهات الاستعمارية التي تعمل لرفع الامور الى حرب عالمية ثالثة .

ويخلص من كل ذلك الى ان الطريق لحل القضية الفلسطينية هو النضال في سبيل حق الشعب العربي الفلسطيني في العودة الى وطنه وتقرير مصيره على ارضه ، **وهذا شعار يكفي الان** ، ولا يرى ضرورة لوضع صيغة تفصيلية لحل القضية الفلسطينية لان ذلك شيء صعب : « من الصعب اليوم تحديد الاشكال الواقعية التي سيأخذها حق تقرير المصير والمراحل الملموسة التي سيمر فيها لان ذلك يتوقف على عوامل كثيرة يتوقف على ميزان القوى في المنطقة وفي العالم »(٣٦).

ويرد على المطالبين بموقف استراتيجي من القضية الفلسطينية بأن « شعار الحق في العودة وتقرير المصير هو شعار استراتيجي كبير »(٣٧) وان تحقيقه يحتاج بالاضافة الى التغييرات العميقة في ميزان القوى بين الاشتراكية والرأسمالية العالمية، والتغييرات العميقة في البنية السياسية والاجتماعية في المنطقة ، **الى تغييرات في اسرائيل نفسها** .

ما هي التغييرات التي يتصور الامين العام للحزب الشيوعي السوري حدوثها داخل اسرائيل ؟ والتي يعتبرها احدى الضرورات لتحقيق شعار العودة وتقرير المصير ؟ يورد الامين العام في كلمته المشار اليها ، المثال التالي ، لايضاح هذه القضية : « لقد ذهبنا وفدا الى بلغاريا لتمثيل حزبنا في المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي البلغاري الشقيق. وخلال وجودنا اقترح رفاقنا الطلاب تنظيم لقاء مع الطلاب العرب الذين يدرسون هناك . وفعلا جرى اللقاء وكان مفتوحا للجميع وحضره اكثر من خمسماية طالب عربي من مختلف البلدان العربية ومن مختلف الاحزاب والاتجاهات . وكان لقاء ناجحا ، ألقيت فيه حسب طلب الرفاق تقريرا عن سياسة حزبنا في سوريا وكذلك مواقفه من مختلف القضايا العربية . ثم فتح باب الاسئلة وجاءنا ما يقرب من خمسين سؤالا جرت الاجابة عليها جميعا وكان بينها السؤال التالي : اذا وصل الحزب الشيوعي الاسرائيلي الى الحكم فماذا يكون موقفكم من اسرائيل ؟ وقد أثار هذا السؤال أخذا وردا بين الرفاق الطلاب المسؤولين القاعدين على منصة

الاجتماع واقترح بعضهم تجاهل السؤال وعدم الاجابة عليه. ولكننا رأينا في النهاية ان من الواجب الاجابة عليه وايضاح موقف حزبنا المبدئي . وكان الجواب الذي ألقيته كما يلي : اذا وصل الحزب الشيوعي الاسرائيلي الى الحكم انحلت المشكلة ، لان معنى ذلك هو أولا : انه تم القضاء على سلطة البرجوازية اليهودية الكبرى وكبار ملاكي الاراضي اليهود ، ثانيا : انقطعت السلسلة التي تجمع بين اسرائيل وبين الصهيونيـــة العالمية والامبرياليـــة العالمية . ولا يبقى هناك سيطرة استعمارية ولا صهيونية ولا عدوان وينفتح المجال لعودة الشعب العربي الفلسطيني الى وطنه وتقرير مصيره بنفسه وتبقى القضية بين كادحين عرب وكادحين يهود ومن الواضح أنهم في ظل الاشتراكية يمكن ان يتفقوا بسهولة على كل شيء بما في ذلك التسمية نفسها. هكذا كان الجواب وقد استقبلته القاعة بالتصفيق. ودلالة ذلك أن جماهير الشعب العربي والشباب العربي اصبحوا واعين ولا يؤخذون بالمزاودات والكلام المتطرف فالحياة نفسها ووعيهم وتجاربهم تدلهم على الطريق . »

يكتفي الامين العام بهذا المثال لتوضيح رأيه حول هذه القضية الهامة ، ويرد على منتقديه بأن شعار حق تقرير المصير يحتاج الى تحديد وتوضيح للخروج من دائرة العموميات بقولـــه « المهم في القضايا القومية هو اتخاذ الموقف المبدئي الصحيح ، واذا كان يبدو في مرحلة معينة انه غير عملي فالمهم انه صحيح ، وسوف يبين التطور نفسه كيفية تطبيقه عمليا . »

وحول الموقف من العمل الفدائي وحركة المقاومة يرى الامين العام ان « من الطبيعي الواضح ان من الواجب تأييد حـــركة المقاومة الفلسطينيـــة والدخول فيها والعمل لتقويتها والسعي لتوجيهها في الاتجاه الصحيح » . ويوضح ما هو هذا الاتجاه الصحيح ، « أي أن تكون حربتها موجهة بشكل اساسي رئيسي ضد المحتلين الاسرائيليين وقواتهم ». ومع هذا يورد تحفظا أساسيا بأنه لا ينبغي تأييد جميع أشكال حركة المقاومة ، بل ينبغي النضال « لتوجيهها في الاتجاه المفيد والضروري والصحيح » ودون أن يوضح ما هي اشكال حركة المقاومة التي يؤيدها فقط ، وما هو الاتجاه المفيد والضروري والصحيح الذي ينبغي النضال من أجله في حركة المقاومة ، يكتفي الامين العام بالتعقيب : « حتى المنظمات الفدائية تنتقد اليوم العديد من مواقفها السياسية وشعاراتها وأساليب عملها . فكيف يمكن ان نقول نحن الشيوعيين بتأييد جميع شعارات وأشكال واساليب نضال حركة المقاومة الفلسطينية».

موقف المكتـب السياسـي : يعلــن المكتـب السياسي عــن تمسكه بقــرارات المؤتمر الثالث وبالنقــاط الــواردة فـــي مشروع البرنامـــج ، الا أنه يدعو الى اعادة النظـــر ببعض المواقف المتعلقة بالقضية الفلسطينيـــة ، وخاصة حـــول الموقف من الحل السياسي وجدوى قرار مجلس الامن : « تجري الان مناقشات حول جدوى ومدى فائدة قرار مجلس الامن وامكانية وطريق تحقيقه ». ويرى هذا الفريق بأن هذه القضية « من اكثر القضايا تعقيدا من بين جميع مهمات حركة التحرر الوطني العربية »(٣٨).

وينطلق هذا الفريق في تحديد مواقعه السياسية من مواقف فكرية مبدئية في نظرته للوجود الاسرائيلي ودوره ومعناه . فهو يرى ان اسرائيل دولة عدوانية عنصرية صهيونية ، بل هي قاعدة الامبريالية في منطقتنا ، وتعمل للتوسع على حساب الاراضي العربية ، وقد نشأت وتكونت في الاصل بدعم من الامبريالية العالمية وعلى اساس القتل والاغتصاب وتصفية الشعب العربي الفلسطيني(٣٩).

ويستنكر المكتب السياسي ، في معرض مناقشه الطرف الاخر ، محاولة تبرير الوجود الاسرائيلي « لا يجوز اطلاقا ايجاد اي تبرير لوجود اسرائيل أو الدفاع عنها ، حتى ولو بشكل غير مباشر او غير مقصود ، لان ذلك ليس في مصلحة الحزب ولا في مصلحة حركة التحرر الوطني والحركة الثورية العالمية . ان تبرير وجود اسرائيل ليس مهمتنا ، وليس مهمة الشيوعيين والقوى الوطنية التقدمية ، وانما هو مهمة الامبريالية والصهيونية »(٤٠).

ويذهب هذا الفريق في رده على الامين العام ، بصورة غير مباشرة ، حول احتمالات التغيير من داخل اسرائيل ، بأن ذلك مستحيل ، لان اسرائيل ستبقى أداة في يد الامبرياليـــة ، وهي لا تملك مستقبلها كدولة مستقلة ، وعندما تكف عن كونها أداة تلعب دور الدركي في قمع حركة التحـــرر العربية ، « ستقتضي عليها الامبريالية الاميركية نفسها »(٤١).

ويتابع رده على فريق الامين العام ، مشككا في

واقعية شعار حق تقرير المصير ، فينفي في البداية اعتراضه على مبدئية الشعار ، ولكنه يتساءل « بصراحة هل هو شعار واقعي ؟ » وهل يصلح بديلا لشعار التحرير . ويعود الى الفترة التاريخية التي صيغ فيها هذا الشعار ليميزها عن الفترة الراهنة ، فيرى ان شعار مبدأ تقرير المصير قد صيغ من أجل تحقيق انشاء الدول الوطنية المستقلة للشعوب الواقعة تحت نير الاستعمار ، بعد انفصالها عن الدول الامبريالية ، ومن اجل تعبئة الجماهير والشعوب والامم المظلومة ضد الامم الظالمة ، ولكن « ما من أحد الان ، لا عربيا ولا دوليا ، الا ويفهم أن الاقتصار على طرح شعار تقرير المصير بالنسبة للشعب الفلسطيني انما يتضمن بصورة جوهرية ، الاعتراض بدولة اسرائيل »(٤٢). لان اسرائيل نفسها هي التي « ستسمح لان يعطى الشعب العربي الفلسطيني امكانية تحقيق هذا المبدأ » . وينطلق من هذه النقطة الهامة ليحذر من مخاطر تبني مثل هذا الموقف من حل القضية الفلسطينية لانه « يعرض الحزب للعزلة الجماهيرية » .

اما عن موقف الامين العام حول امكانية حدوث التغيير من داخل اسرائيل ، واثر ذلك على المساعدة في حل القضية ، فيرى هذا الفريق انه وان كان ذلك مشروعا من الناحية المبدئية ، الا أنه غير واقعي ، لان مستقبل الحركة الثورية في اسرائيل مرتبط « بعمق الضربات التي توجهها حركة التحرر العربية الى العسكرية العدوانية الاسرائيلية » . ثم ، من ناحية اخرى يتساءل « أيحق للشعب العربي الفلسطيني ولحركة التحرر الوطني العربية أن تقعد منتظرة نعيم تلك التغييرات ! »(٤٣). ويرد ايضا على موقف الامين العام في انكاره الصفة المبدئية والطبقة لشعار ازالة دولة اسرائيل ، بأن ازالة اسرائيل هو في النتيجة ليس ضد الشعب اليهودي والجماهير اليهودية ، بل على العكس سيكون لمصلحة الجماهير اليهودية، ويدعم هذا الموقف بتحليل لدور الدولة في المفهوم الماركسي ، ولخصوصية بناء الدولة في اسرائيل ، من حيث منشئها ومن حيث علاقتها بالشعب ، واخيرا في العلاقات الطبقية داخلها .

فمن الناحية النظرية ، يرى بأنه من الممكن عند البحث في التركيب السكاني والطبقي لشعب معين، أن يجري تقسيمه الى عمال وفلاحين وبرجوازية كبيرة وصغيرة الخ ... ولكن من الناحية السياسية ، **يجب النظر الى المحصلة السياسية لنشاط هذا الشعب** وهل هي « ايجابية أم سلبية »، لانه اذا كانت هذه المحصلة ايجابية ، يمكن القول ان هذا الشعب يلعب دورا ايجابيا ، وان كانت سلبية فيمكن القول أن هذا الشعب يلعب دورا سلبيا ، ويرى أن هذا الاسلوب في التقييم يصح اجراؤه على شعب كامل كما يصح اجراؤه على طبقة معينة ، ويستشهد على ذلك برأي ماركس في الطبقة العاملة الانكليزية « لقد سارت في ذيل الاتجاهات اليمينية ردحا من الزمن ، بالرغم من وجود عناصر اشتراكية — ديمقراطية وتجمعات غير يمينية » ولذا فان وجود عناصر وقوى وطبقات تقدمية لا يكفي لوحده لتقييم شعب من الشعوب من الناحية السياسية « ان تقييم شعب من الشعوب أو أمة من الامم من الناحية السياسة ، يعتمد بالدرجة الاولى على النهج السياسي الداخلي والخارجي الذي تنتهجه دولة هذا الشعب »(٤٤). وان دولة اسرائيل — بحكم تركيبها الخاص — ليست من حيث المنشأ والتكون والدور الذي تلعبه في الشرق الاوسط شبيهة بأي دولة من دول العالم ، فهي قد نشأت على العدوان ، وتكونت من اناس لا يجمعهم غير الدين والصهيونية ، وتمدهم الامبريالية بكل اسباب الحياة ووسائل العدوان ، وهي تلعب دور **« الدركي والسمسار الدولي »** لصالح الامبريالية في الشرق العربي وفي افريقيا .

ويعزو هذا الفريق — الاستنتاجات الخاطئة — حول الدولة والشعب في اسرائيل ، الى « خلط بعض الرفاق » بين مفهوم الدولة ومفهوم الشعب ، وان من يخلط بين هذين المفهومين هو الذي « يحمل الشعب اليهودي باسرائيل جريمة دولته »(٤٥).

وحول حركة المقاومة ، يرى المكتب السياسي ان الثورة الفلسطينية هي حركة تحرر وطني وليست حركة لاجئين فلسطينيين ، لان جوهر حركة التحرر لاي شعب يكمن في انشاء دولة مستقلة فوق ارضه، وان ارض الشعب الفلسطيني ودولته هي فلسطين التي اغتصبتها الحركة الصهيونية بغزواتها الاستيطانية . لذلك فان العمل الفدائي ، هو التجسيد الثوري المسلح لحركة التحرر الفلسطينية — بالاضافة لكونه عنصرا اساسيا وهاما في قضية النضال لازالة آثار العدوان — ويصرح فريق المكتب السياسي بأن احدى النواقص الكبرى في

حركة المقاومة هو ان الشعب العربي لم يساهم بصورة عملية وجدية في هذه الحركة ، فكادت الحركة تقتصر على الشعب الفلسطيني ، بالرغم من ان اراضي دول عربية ثلاث قد احتلت في حزيران ١٩٦٧ ، واراضي دول اخرى مهددة بالاحتلال .

ويلاحظ هذا الفريق ان انتقاد ممارسات بعض المنظمات الفدائية الفلسطينية قد اتخذ في الحزب الشيوعي السوري « **طابع التجريح والتفخيت بالعمل الفدائي ككل**»(٤٦) ويرى ان بعض الممارسات السياسية الخاطئة الطبيعية ، في حركة تخطو أولى خطواتها ، لا تبرر مثل هذا الموقف ، خاصة وان **الانتقاد** وطبيعته ودوره مرتبطان بدور وموقع الحركة المنتقدة (بالفتح) من قضية النضال ضد الامبريالية والصهيونية . وبما ان الحركة الفدائية قوة حليفة لجموع القوى الثورية في الوطن العربي، وتلعب بصورة جوهرية وعامة دورا ايجابيا في العملية الثورية الوطنية والقومية للشعب العربي، فانه ينبغي عند التعرض الى بعض نواقصها، التأكيد اولا على **الجوهر الايجابي** لهذه الحركة . ويضيف منتقدا دور الحزب في العمل الفدائي المسلح ، « وبالنسبة لنا نحن الشيوعيون السوريون الذين ليس لنا الان في منظمة الانصار الا رفيق واحد فقط ينبغي ان نكون متواضعين بدرجة غير محدودة عند التحدث عن نواقص العمل الفدائي »(٤٧). وبدلا عن ذلك يرى ان الانتقاد الاساسي يجب ان يوجه الى الحزب نفسه لان احدى النواقص التي عانى منها العمل الفدائي هو « **حضورنا الضئيل والمتأخر** » . ويرى اخيرا ان ابشع انواع الانتقاد هو ذلك الذي يقوم حين تكون الحركة الفدائية تتعرض لامتحان رهيب كما هو الحال في مجزرة أيلول ، ويؤكد الحقيقة النضالية ، في ان مجزرة ايلول لم تسببها النواقص التي كانت تعانيها الحركة الفدائية . بل المؤامرات التي حاكتها الامبريالية والصهيونية واسرائيل والرجعية العربية . ويتساءل بهذه المناسبة عن ماهية المساعدات التي يقدمها الحزب — السياسية والمعنوية والمادية — للحركة الفدائية وفصائلها في محنتها الراهنة ؟ ويجيب على سؤاله **لا شيء ابدا**، غير اللامبالاة .

مما لا شك فيه ، ان الاحزاب الشيوعية العربية، ومن ضمنها الحزب الشيوعي السوري ، قد واجهت مرحلة حاسمة بعد ٥ حزيران ١٩٦٧ ، وان القضية الفلسطينية قد شكلت جانبا اساسيا من جوانب هذه المرحلة . ومما لا شك فيه ، ايضا ، ان ردود الفعل ، نتيجة لهذه المواجهة ، لم تكن متطابقة دائما ، بالرغم من السمات الاساسية التي تجمع بينها ، وهذه الظاهرة لها اسبابها الموضوعية والذاتية ، الكامنة في البنية الطبقية لهذه الاحزاب، وفي تفاوتها من حزب لاخر ، وفي تاريخ الكفاح الوطني لكل حزب في البلد الذي يعمل فيه ، وفي موقفه من المسألة القومية وتحليله لها .

واخيرا ، فان طرحنا لاراء ومواقف الحزب الشيوعي السوري من القضية الفلسطينية ، كان ضمن اطار قناعتنا بأن اطلاع الجماهير العربية ، وطبقتها العاملة وسائر قواها الثورية ، على الحوار الدائر ، هو عملية ثورية تساهم في مساعدة الحزب على تجاوز ازمته ودفعها الى ذروتها الثورية . ان الموقف الداعي الى ابقاء الخلاف داخل صفوف الحزب واخفاء مضمونه عن الجماهير ليس مفيدا على الاطلاق ، بل يشكل خطرا كبيرا على اي امل في التغيير ، او في الخطو الى الامام باتجاه بلورة قضايا المرحلة ، خاصة وان الاحزاب الشيوعية العربية فصيل اساسي من فصائل حركة التحرر الوطني العربية .

---

١ — بيان خالد بكداش ، ٣ نيسان ١٩٧٢ .
٢ — بيان المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوري ، ٥ نيسان ١٩٧٢ .
٣ — **الماركسية وقضايا الثورة السودانية** ص ٥٦ — نص التقرير العام المجاز في المؤتمر الرابع في الحزب الشيوعي السوداني اكتوبر ١٩٦٧ — دار الفكر الاشتراكي ، الخرطوم ، فبراير ١٩٦٨ .
٤ — **المصدر نفسه** ، ص ٥٦ .
٥ — **المصدر نفسه** ، ص ٥٨ .
٦ — **المصدر نفسه** ، ص ٥٨ .
٧ — **المصدر نفسه** ، ص ٦٠ .
٨ — **المصدر نفسه** ، ص ٦٣ .
٩ — **المصدر نفسه** ، ص ٦٣ .
١٠ — **المصدر نفسه** ، ص ٦١ .
١١ — **المصدر نفسه** ، ص ٦١ .

١٢ — **المصدر نفسه** ، ص ٦٢ .
١٣ — **المصدر نفسه** ، ص ٦٢ .
١٤ — **الحزب الشيوعي العراقي والمسألة الفلسطينية « القيادة المركزية »** ص ٥٦ . ١٩٧١ ، من منشورات الحزب .
١٥ — **الحزب الشيوعي العراقي والمسألة الفلسطينية** ، بيان تشرين الاول ١٩٦٨ .
١٦ — **المصدر نفسه** .
١٧ — **المصدر نفسه** .
١٨ — **المصدر نفسه** .
١٩ — **المصدر نفسه** .
١٠ — **نضال الحزب الشيوعي اللبناني من خلال وثائقه** — الجزء الاول ، ص ٤٣ .
٢١ — **المصدر نفسه** ، ص ٤٤ .
٢٢ — كريم مروه ، العمل الفدائي جزء علم من حركة النضال العربي ضد الامبريالية والصهيونية ، مجلة **الطريق** — العدد ١٠ — ١١ تشرين الثاني — كانون الاول ١٩٦٨ .
٢٣ — **نضال الحزب الشيوعي اللبناني** ، ص ٤٤ .
٢٤ — **الشيوعيون اللبنانيون ومهمات المرحلة المقبلة** ، ص ١٤٩ — منشورات الحزب الشيوعي اللبناني .
٢٥ — **المصدر نفسه** ، ص ١٤٩ .
٢٦ — **المصدر نفسه** ، ص ١٤٩ .
٢٧ — **المصدر نفسه** ، ص ١٤٩ .
٢٨ — **المصدر نفسه** ، ص ١٥٠ .
٢٩ — **المصدر نفسه** ، ص ١٥١ .
٣٠ — **المصدر نفسه** ، ١٤١ .
٣١ — **المصدر نفسه** ، ص ١٤١ .
٣٢ — **مشروع البرنامج السياسي للحزب الشيوعي السوري** ، ص ٤٩ .
٣٣ — كلمة الامين العام للحزب الشيوعي السوري (خالد بكداش) امام المجلس الوطني العام للحزب المنعقد في تشرين الثاني عام ١٩٧١ .
٣٤ — **المصدر نفسه** .
٣٥ — **المصدر نفسه** .
٣٦ — **المصدر نفسه** .
٣٧ — **المصدر نفسه** .
٣٨ — مداخلة بدر الطويل امام المجلس الوطني العام ١٩٧١ .
٣٩ — كلمة ظهير عبد الصمد (عضو المكتب السياسي) امام المجلس الوطني العام ١٩٧١ .
٤٠ — **المصدر نفسه** .
٤١ — مداخلة بدر الطويل .
٤٢ — **المصدر نفسه** .
٤٣ — **المصدر نفسه** .
٤٤ — **المصدر نفسه** .
٤٥ — **المصدر نفسه** .
٤٦ — **المصدر نفسه** .
٤٧ — **المصدر نفسه** .

تقـــرير :
اوضاع العمال العرب في الارض المحتلة بعد العام ١٩٦٧ واضطهادهم

عبدالله الصفدي

اعتمد هذا التقرير اعتمادا مباشرا على مذكرة وضعهـــا الكاتب ، بتكليف من مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية ، وقدمها الاتحاد العام لعمال فلسطين الى مؤتمر العمل الدولي في جنيف .

يهدف هذا التقرير الى اعطاء صورة عامة واولية عن الاضطهاد المباشر الذي مارسته اسرائيل ضد العمال العرب ، ولاوضاعهم واستغلال الرأسمالية الاسرائيلية لهم في الاراضي المحتلة بعد عام ١٩٦٧ . كما يحاول رصد أهداف السياسة الاسرائيليـــة وتحديد الخطوط العريضة للاطار الذي تعمل ضمنه هذه السياسة في التعامل مع العمال العرب . واعتمادا على هذا الرصد يمكننا القول ان اسرائيل: أ ــ قامت بتشغيل العمال العرب على نطاق واسع لهدف محض استغلالي ألا وهو الاستفادة من رخص قوة عملهم ، ب ــ عملت على تشغيل عمال المناطق المحتلة لانها وجدت في ذلك طريقة ملائمة تساعدها « على امتصاص النقمة والتوتر ضـــد الاحتلال وبالتالي عزل حركة المقاومة عن مجموع السكان »، جـ ــ تعمل على تنمية شروط موضوعية لضم الاراضي المحتلة في المستقبل اذا ما سمحت لها الظروف ، فهي باستخدامها سكان المناطق المحتلة كعمال تحاول تفريغ القرى من الفلاحين وتربط اقتصاد هذه المناطق بعجلة الاقتصاد الاسرائيلي ، د ــ تستغل اوضاع العمل العربي هـــذا لدعم قدرة تحركها العسكري .

القمع الاسرائيلي ضد العمال

قام العمال العرب بعد وقوعهم تحت نير الاحتلال في عام ١٩٦٧ ، وكبقية ابناء الشعب الفلسطيني ، بمقاومة قوات الاحتلال الصهيونية . وقد قامت اسرائيل بقمع جميع حركات احتجاجهم السياسية وعمليات المقاومة ، كما قامت بايقاع « العقاب القاسي والسريع » بالمشاركين في تنظيمها أو بالذين قدموا المساعدة لمن قاموا بها ، بالاضافة الـــى « معاقبة » حتى أولئك الذين لم يقوموا « بأعمال شغب». ولكن استضعافهم واضطهادهم لم يكن أمرا مستغربا . وقد استخدمت السلطات الاسرائيلية أساليب مختلفة في عمليات القمع هذه تراوحت بين الاعتقال والقتل مرورا بالتعذيب ونسف البيوت وشتى اشكال التفرقة . ونورد فيما يلي أمثلة عن بعض هذه الحوادث كما روتها وسائل الاعـــلام الاسرائيلية ، مرفقة أيضا بجدول صغير بأسماء بعض النقابيين الذين اعتقلوا او أبعدوا الى الضفة الشرقية لاشتراكهم بمقاومة الاحتلال أو لانتمائهم لحركة المقاومة . فقد نشرت صحيفة دافار بتاريخ ١٩٦٩/٢/١١ نبأ طرد سبعة من الشبان العرب الذين « ساهموا بتنظيـــم وادارة الاضطرابات الطلابية » الى الاردن عن طريق جسر « دامية » ، ومن بين هؤلاء ، سمير نايف ابو شرف ، البالغ من العمر ١٨ عاما ، ويعمل نجارا في نابلس . وقد اعتقل اثناء اشتراكه بالتظاهرة ، كما قذف بالحجارة سيارة تابعة لقوات الامن الاسرائيلية . ومن بين المبعدين كذلك ، محمد طالب محمود ، البالغ من العمر ٢٢ عاما ، ويعمل خياطا في نابلس . وقد اعتقل أيضا اثناء اشتراكه بالتظاهرة ، كما قذف بالحجارة سيارة عسكرية اسرائيلية . وفي تاريخ

١٩٦٦/٦/١٠ نشرت الصحيفة ذاتها انه صدرت أوامر بطرد تسعة من المحرضين العرب من الضفة الغربية لنهر الاردن ، موقعة باسم وزير الدفاع موشي دايان ، ومن بين هؤلاء المبعدين ، زكريا حمدان البالغ من العمر ٢٧ عاما ، ويشغل منصب سكرتير نقابة العمال في نابلس ، وقد اتهم بعدم تشغيل عمال من وراء « الخط الاخضر » .

وبتاريخ ١٩٦٩/٥/٢٢ ، ذكرت صحيفة دافار أيضا، أنه صدر عن المحكمة العسكرية في نابلس الحكم بالسجن المؤبد ضد سائق سيارة من نابلس ، وذلك لنقله قاذف قنبلة ألقيت على مبنى الحاكم العسكري في المدينة في شهر تشرين الثاني عام ١٩٦٨ .

وبتاريخ ١٩٦٩/٥/٧ ، قالت صحيفة دافار ، أنه تم في نابلس اعتقال نعمة الشربيني ، البالغة من العمر ٢١ عاما ، وهي شقيقة سكرتير رابطة العمال في قضاء نابلس الذي تم اعتقاله قبل اسبوعين من ذلك التاريخ بتهمة ايواء شابة تدعى سلوى (رشيدة عبيدو) والمتهمة بوضع مادة متفجرة في « السوبرسال » في القدس .

وبتاريخ ١٩٦٩/٤/٢٠ ، ذكرت صحيفة هآرتس ، بأن اثنين من سكان الضفة الغربية قتلا في نهاية الاسبوع باطلاق النار عليهما من قبل اشخاص مجهولين . « ويقول اهالي الضفة الغربية بأن القتل يعود لاسباب سياسية » . وأحد هذين القتيلين هو ابراهيم سعيد المصري ، البالغ من العمر ١٩ عاما ويعمل في مصنع نسيج ، وقد قتل اثناء ذهابه الى بيته .

وبتاريخ ١٩٦٩/٥/١ ذكرت صحيفة يديعوت احرنوت ، أنه في يوم ١٩٦٩/٤/٣٠ قتل شاب من نابلس رميا بالرصاص عندما لم يذعن لنداءات رجال حرس الحدود ودعوتهم اياه بالتوقف . وقد وقع الحادث في احد احياء نابلس القديمة في حوالي الساعة الثامنة والنصف ليلا ، والشاب هو أحمد تنزع ، ويعمل في قسم التنظيفات في بلدية نابلس، ويبلغ من العمر الثامنة والعشرين . وقد ادعت الصحيفة بانه كان مخمورا حين قتل .

وبتاريخ ١٩٦٧/١٢/٣١ ، ذكرت صحيفة هآرتس ، (نقلا عن نشرة « امراكا » ، عدد ابريل ١٩٦٩ ، ص ٩) ، انه حدث بعض الهرج ، استعملت فيه لغة الشتائم ، بين صفوف بعض الباحثين عن عمل من سكان رفح ومن بعض اللاجئين ، والذين كانوا يقفون امام مكتب العمل المحلي في رفح . وقد قام جنود الحراسة الاسرائيليين باطلاق النار عليهم مما أدى الى اصابة احد المجتمعين اصابة خطيرة فقد على اثرها الحياة .

وبتاريخ ١٩٧٠/١٢/٢ ، ذكرت صحيفة معاريف ، بأن قوات الامن الاسرائيلية قامت بنسف ثلاثة بيوت في غور الاردن « لقيام اصحابها بتقديم العون للفدائيين » . واصحاب هذه البيوت هم من العمال الزراعيين الذين يعملون في مزارع المدعو حسن الخطيب .

ونقدم على الصفحة التالية جدولا بأسماء بعض النقابيين الذين اعتقلوا أو أبعدوا الى الضفة الشرقية للاردن ، وكانت التهم الموجهة اليهم هي الاشتراك في مقاومة الاحتلال او التعاون مع الفدائيين .

استغلال العمال : على الرغم من وجود معارضة اسرائيلية في باديء الامر ، وبعد الاحتلال مباشرة، بالسماح للعرب من سكان المناطق المحتلة بالعمل في اسرائيل « خشية تلويث العمل العبري » ، وكامتداد لسياسة « يهودية العمل » التي نفذتها الحركة الصهيونية أيام الانتداب البريطاني ، فقد انتصر الرأي الداعي لسياسة «الدمج الاقتصادي»، وسمح للعمال العرب من المناطق المحتلة العمل داخل اسرائيل منذ أواخر عام ١٩٦٨ بالنسبة لاهالي الضفة الغربية ، ومنذ نيسان ١٩٦٩ بالنسبة لاهالي غزة . واشترطت السلطات الاسرائيلية عند سماحها بذلك « سلسلة من الاجراءات ، من بينها أن يتم تشغيل العمال العرب بواسطة مكاتب العمل التابعة للهستدروت ووفقا لقوانين العمل المعمول بها في اسرائيل ، وهذا يعني ان تتساوى معاشاتهم مع معاشات العمال الاسرائيليين ، وأن يتم الدفع بواسطة مكتب العمل ، وأن يأتي العمال العرب الى أماكن عملهم ويعودون الى أماكن سكناهم برحلات منظمة »[١]. وفي الظاهر ، تبدو هذه الاجراءات وكأنها تتسم بالانصاف ، ولكن عند تفحصنا لها على ضوء الواقع نرى أنها في الحقيقة عملية نهب منظمة للعمال العرب . فبالنسبة لاجور العمال العرب مقارنة بأجور العمال في اسرائيل ، نكتشف ان هناك مفارقة كبرى في هذا المجال على صعيدين ، الاول على صعيد مقارنة أجور العمال الاسرائيليين بأجور العمال العرب من المناطق المحتلة الذين يعملون في اسرائيل ، والثاني على

جدول باسماء بعض النقابيين من العمال الذين اعتقلوا او ابعدوا من قبل السلطات الاسرائيلية

الاسم	العمر	المركز النقابي	العمل	تاريخ الاعتقال او الابعاد
محمود محمد شربيني	٣٢	امين سر نقابة عمال المطابع	عامل مطبعة	أيار ١٩٦٩
زكريا خليل حمدان	٢٨	امين سر فرع الاتحاد بنابلس	متفرغ للعمل النقابي	١٩٦٩/٦/٥
نعيم قبلاني	٢٢	عضو اداري لنقابة عمال الخياطة	خياط	١٩٦٩/٦/١
ميشيل سنداحه	٣٧	سكرتير نقابة شركة الكهرباء	محاسب	١٩٦٩/٦/١٠
يعقوب غراح	٢٢	سكرتير نقابة الخياطين	خياط	١٩٦٩/٦/٣
محمد جاد الله	٤٥	سكرتير نقابة الفنادق	عامل فنادق	١٩٦٩/٦/١٠
أحمد نبيل التمري	٢٣	عضو الهيئة الادارية لنقابة المصارف بالقدس	مراقب بنك	١٩٦٩/٦/١
حسن دندليس	٢٤	عضو نقابة المطابع	عامل مطبعة	١٩٦٩/٦/١
عايش فايز نعمان	؟	عضو هيئة ادارية لنقابة صناعات الجلود	عامل أحذية	١٩٦٩/٧/١

صعيد مقارنة أجور العمال الذين يعملون في اسرائيل بأجور العمال العرب في المناطق المحتلة ذاتها. فلكي تحافظ السلطات على المبدأ الذي أقرته بشأن مساواة اجور العمال العرب من المناطق المحتلة الذين يعملون في اسرائيل بأجور الاسرائيليين، قامت بانشاء صندوق خاص ، « حيث تحول اليه الحسومات التي تخصم من العامل العربي والتي تشابه الحسومات التي تخصم من العامل الاسرائيلي (باستثناء ضريبة الدخل وضريبة التأمين الوطني) ، وذلك لانفاق هذه المبالغ على مشاريع الانعاش في المناطق المحتلة »(٢). ويبلغ مقدار هذه الحسومات حوالي ٤٠ ٪ من أجر العامل الاصلي، « تعود الى العامل الاسرائيلي في نهاية المطاف على شكل أيام عطل مدفوعة واجازات مرضية، وعلاوات للاولاد وتعويضات وتقاعد ، بينما لا يعود شيء من هذه الامور الى العامل العربي ، الذي يدفع له فقط عن يوم عمله . واكثر من ذلك تحسم من معاش العامل العربي اجور النقل الى مكان عمله . وهذا يعني ، حتى لو افترضنا صحة كلام تقرير السلطات الاسرائيلية بالنسبة للاجور ، ان أجر العامل العربي في واقع الامر أقل بكثير من أجر العامل الاسرائيلي، وليس مساويا له كما تدعي سلطات الاحتلال »(٣). ولكي تتضح الصورة بشكل أوضح ، نورد على سبيل المثال نسبة الحسومات على أجر العامل الزراعي العربي الذي يعمل في اسرائيل ، وذلك كما ورد في مذكرة الرابطة الاسرائيلية للحقوق الانسانية والمدنية(٤). تقول المذكرة : « ان اجر العامل العربي في الاراضي المحتلة ، الذي يستخدم في اسرائيل ، يخفض تخفيضا مريعا بواسطة اجراءات ادارية . فأجر العامل العربي والعامل الاسرائيلي هو ذاته اسميا ، غير ان العرب لا يتلقون اجورهم مباشرة بل من خلال الحاكم العسكري للمنطقة التي يعيشون فيها ، فيقوم هذا بحسم ما يربو على نصف الاجر ... فالاجر الاسمي للعامل الزراعي في اسرائيل هو ١٥،٧٥ ليرة اسرائيلية يحسم منها ٤،٥٥ ليرة اسرائيلية للضمان الاجتماعي والتأمين الصحي ، و٢،٢٠ ليرة للنقل ثم يحسم ٢،٢٠ ليرة اسرائيلية للتنظيم . بذلك يصبح الاجر الفعلي للعامل العربي ٧،٢٥ ليرة اسرائيلية فقط في اليوم الواحد ، وهو لا يتمتع بأي شكل بالتأمين الصحي والضمانات الاجتماعية».

وفيما يتعلق بأجر العامل العربي المستخدم في المناطق المحتلة ذاتها ، فهناك فارق كبير في اجره اذا ما قورن بأجر العامل الذي يعمل داخل اسرائيل ، بحيث يصل هذا الفارق الى حوالي النصف . فمتوسط أجر العامل الصافي في المناطق المحتلة بعد ١٩٦٧ يتراوح بين ٦ الى ٧ ليرات يوميا ، بينما تتضارب الارقام بشأن متوسط اجر العامل من المناطق المحتلة الذي يعمل في اسرائيل. فقد ذكر وزير العمل الاسرائيلي في مقابلة أجرتها معه صحيفة دافار بتاريخ ١٩٧١/٦/١٨، ان متوسط أجر العامل العربي من المناطق يبلغ ١٦ ليرة

اسرائيلية يوميا ، قبل الحسومات على ما يبدو ، بينما تذكر معظم الدراسات والاحصاءات ان متوسط أجره الصافي يتراوح بين ١٠ — ١٢ ليرة اسرائيلية يوميا .

علاقات وأوضاع العمل : والى جانب هذا العمل المنظم عن طريق مكاتب العمل ، وهروبا من عملية النهب المنظمة هذه ، يوجد هناك أمام العامل العربي طريقان آخران للعمل في اسرائيل عن طريق العمل غير المنظم . الاول يتم بواسطة المتعهدين العرب ، حيث يتعرض العمال لنهب من معاشاتهم من قبل المتعهد ، والثاني يعتمد علـى المبادرة الفردية ، أي العمل دون الالتجاء الى مكتب العمل وبدون الحصول على تصاريح عمل ، مما يجعل هذه الفئة من العمال تعاني مـن وطأة الخوف مـن السلطات(٥).

يتعرض هؤلاء العمال الذين يعملون عن طريق العمل غير المنظم ، الى استغلال شديد ، حيث أنهم لا يعملون بشكل قانوني رازحين تحت طائلة العقاب. فبدلا من الذهاب الى مكاتب العمل ، يلجأ بعض العمال الى المتعهدين العرب الذين يؤمنون لهـم العمل مقابل مبلغ معين ، بعد ان يتفق هؤلاء المتعهدون مـع صاحب المشـروع او المـزارع الاسرائيلي ، او يقوم العمال بالاتفاق مباشرة مع الاسرائيلي صاحب العمل الذي يأتي اليهم في قراهم. ويتلقى هؤلاء العمال أجورا ضئيلة ، لانهم يدفعون حصة كبيرة منها قد تصل الى النصف الى المتعهد العربي الذي توسط لتشغيلهم . « كما انهم يبيتون تحت ظروف سيئة جدا ، ويستغلون أيضا من قبل الاشخاص الذين يؤمنون لهم المبيت ، وعندما يلقى القبض عليهم يتعرضون للجزاء »(٦). وتذكر صحيفة معاريف الاسرائيلية (١٩٧١/٧/٢١) في تحقيق عن هذه الفئة من العمال ، أن معظم هؤلاء العمال ، والذين يبلغ عددهم حسب تقدير المصادر الرسمية حوالي ٦ آلاف عامل ، هم من الصغار الذين لم يتجاوزوا سن الخامسة عشرة . وورد في التحقيق على لسان أحد المسؤولين عن مكافحة هذا النوع من العمل من قبل الدوائر الاسرائيلية ان هؤلاء الاولاد يشتغلون في المزارع الاسرائيلية من الصباح حتى المساء مقابل ٤ — ٥ ليرات اسرائيلية يوميا ، تدفع في معظم الاحيان لاولياء أمورهم عن طريق المتعهد ، وفي بعض الاحيان لا تدفع نقدا ، وانما بشكل حساب عند بقال القرية . وتصل احيانا أرباح المتعهدين او « الريسين » الذين يعمل هؤلاء العمال بواسطتهم ، من ٤٠٠ — ٥٠٠ ليرة اسرائيلية يوميا .

على الرغم من معـرفة السلطات الاسرائيلية المسؤولة بهذه الاوضاع «اللاشرعية» الاستغلالية ، فانها لا تعمل على التصدي لها وايقافها بشكل جدي ، وانما تتغاضى عنها . فقد ذكرت صحيفة هآرتس بتاريخ ١٩٦٩/٥/١ ، بأن اسحق غوندك ، مساعد وزير العمل الاسرائيلي ، صرح بتاريخ ١٩٦٩/٤/٣٠ بأنه « بالامكان منع تشغيل العمال بصورة غير نظامية ، الا أن الامر مرتبط بمصاعب جمة ، وأنه يجب ان ينظر لهذا الامر نظرة ايجابية لا سلبية » . والنظرة الايجابية هي كما تراها السلطات الاسرائيلية وكما يتفـق مع مصالـح الرأسمالية الاسرائيلية . فنمو فئة من المستغلين العرب تحت الحماية الاسرائيلية سوف يربطهم بسلطة الاحتلال — مشكلين « ركائز اجتماعية » لهذا الاحتلال — ويكون ايضا عامـل فرقة بين السكان . كذلك فان ابقاء هـذه الحالة مـن « لاشرعية » العمل سيبقي هؤلاء العمال تحت رحمة الرأسمالية الاسرائيلية ، مسخرين دوما لخدمة أهداف الاقتصاد الاسرائيلي الذي يستفيد من رخص هذه الايدي العاملة ، مهددين بالابعاد في أي وقت يتعرض فيه الوضع الاقتصادي لاية هزات .

لقد أدى هذا الوضع (العمل بواسطة المتعهدين والعمل الفردي وتغاضي السلطات عن ذلك) الى خلق نوع من « أسواق العمل » — تشبه الى حد كبير « أسواق النخاسة » — في بعض الاماكن الهامة التي تحتاج للايدي العاملة بكثرة . ففي بعض هذه الاماكن خلق نوع من « أسواق العبيد العصرية » ، نذكر منها على سبيل المثال ، سوقا يقع في الرملة بالقرب من البلدية،وآخر يقع في حديقة في شارع « يافت » في يافا ، وثالث قرب «الساعة» في بتاح تكفا(٧). وفي هذه الاسواق يتجمع العمال بانتظار المتعهدين او اصحاب العمل ، الذين يأتون لاختيار عمال يقومون بأعمال تخصهم . ويصف تحقيق عن تلك الاسواق في ملحق هآرتس بتاريخ ١٩٧١/١١/٢٦ ، ما يجري في سوق العمال في يافا بالاتي : « يفتح سوق العمل طيلة النهار ، وتعقد فيه الصفقات بشكل علنـي ، حيث يأتي متعهدون ، ومساعدو متعهدين ، ومواطنون عاديون يملكون بضاعة ويرغبون في نقلها او حديقة ويودون

الاعتناء بها ، ويختارون لهم عاملا ، حسب الشكل، وحسب العضلات ، وحسب السن ، ويشبه ذلك الى حد كبير اسواق النخاسة في كاتو ، في القرن التاسع عشر » . وكثيرا ما يحدث بعد أن تتم عملية « الشراء » هذه ، تنافس بين المتعهدين « لخطف » العمال عن طريق الاغراءات ، فيترك العامل المتعهد الاول أمام اغراءات المتعهد الجديد(٨).

ظروف المعيشة السيئة : يعيش العمال العرب من الاراضي المحتلة الذين يعملون في اسرائيل ويبيتون هناك بالقرب من اماكن عملهم ، في ظروف سيئة للغاية . فنظرا لبعد أماكن عملهم عن أماكن سكناهم ، يضطر بعض العمال وخاصة العمال العرب من قطاع غزة ، الى المبيت في اسرائيل ، والعيش هناك لفترة معينة تحت اقسى الظروف . وتذكر مذكرة الرابطة الاسرائيلية للحقوق الانسانية والمدنية بتاريخ ١٩٧٠/٦/٨ ، بأن معظم المصانع في اسرائيل أنشأت معسكرات مغلقة يعيش فيها العمال الفلسطينيون من الاراضي المحتلة وخاصة من قطاع غزة ، رجالا ونساء في خيام وأكواخ لمدد طويلة .

ويذكر تحقيق نشرته صحيفة معاريف بتاريخ ٢١/٧/ ١٩٧١ ، بأن معظم العمال العرب من قطاع غزة يبيتون في شروط سيئة جدا ، اذ يتكدس بين الـ ٤٠ ــ ٥٠ منهم في حظائر الماشية و«البراكيات» القريبة من الرملة ، وينامون على الارض مقابل ليرة اسرائيلية لليلة الواحدة ــ بانتظار طلوع النهار للسفر الى أماكن عملهم . ولا يقومون بزيارة أهاليهم الا مرة واحدة أو مرتين كل شهرين . وتقول صحيفة هآرتس بتاريخ ١٩٦٩/٧/١١ أن هناك آلافا من العمال العرب من قطاع غزة ومن الضفة الغربية العاملين في اسرائيل في مناطق دان والساحل يعودون يوميا للنوم في قرى المثلث الاسرائيلي . ويشكو هؤلاء العمال من ظروف السكن الصعب جدا ، ويقول هؤلاء بأنهم يبيتون في بيوت قديمة وفي مخازن و« عرائش » في الخلاء بجانب زرائب البقر.

أهداف السياسية الاسرائيلية : اعتمدت اسرائيل في الاراضي المحتلة بعد عام ١٩٦٧ ، سياسة ذات جانبين يرتبطان مباشرة بأوضاع العمل العربي : جانب اقتصادي وآخر سياسي ، يتلخصان بتسخير قوة العمل العربية لخدمة الاقتصاد الاسرائيلي من ناحية ، وخلق ظروف سياسية مؤاتية لخدمة مصالح وأهداف اسرائيل الآنية والبعيدة من ناحية ثانية.

ففيما يتعلق بالجانب الاقتصادي ، فان رخص الايدي العاملة العربية شكل حافزا للرأسمالية الاسرائيلية لاستغلالها على أوسع نطاق ، ودفعها الى استخدام قوة العمل هذه والاستفادة منها في العديد من المجالات الاقتصادية . وفيما يتعلق بالجانب السياسي ، ترى اسرائيل في استخدام وتشغيل العمال العرب وسيلة مناسبة للقضاء على حركة المقاومة وعزلها عن الجماهير ، بالاضافة الى أنها باتباعها سياسة دمج اقتصاد المناطق المحتلة باقتصادها ــ اي بتحويلها للبنية الاقتصادية للاراضي المحتلة وربطها بعملية الاقتصاد الاسرائيلي ــ انما تقوم بذلك تمهيدا لضم هذه الاراضي رسميا اليها اذا ما سمحت الظروف بذلك ، أو لاخضاعها منذ الان لاهداف تنميتها الاقتصادية ومن ثم الهيمنة عليها في المستقبل ، هذا الى جانب ما يوفر لها استخدام العمال العرب من دعم لاقتصادها وبالتالي زيادة لقدرة تحركها العسكري .

ــ الجانب الاقتصادي : يصل عدد العمال العرب من الاراضي المحتلة الذين يعملون في اسرائيل الى ما يربو على ٤٠ ألف عامل(٩). ومن أجل استفادة أكبر من القوى العاملة العربية ، واستغلال هذه الايدي العاملة لصالح الاقتصاد الاسرائيلي ، قام بعض الاسرائيليين باستثمار عدد من المشاريع في المناطق المحتلة ، وافتتحت مراكز للتدريب المهني لتغطية حاجة هذه المصانع . فقد لجأ بعض أصحاب المشروعات الاسرائيلية الى تحويل جزء من استثماراتهم الى المناطق المحتلة نظرا لرخص الايدي العاملة ، وقاموا بالتعاقد مع صناعات ومشاريع محلية لانتاج منتوجات لحساب الاقتصاد الاسرائيلي . وقد بلغ عدد المشاريع العاملة لحساب مشروعات اسرائيلية في المناطق المحتلة في عام ١٩٧٠ ، ٦٥ مشروعا . وتذكر صحيفة معاريف بتاريخ ١٩٧١/٢/٢٥ ، أن هذه المشاريع انتجت للصناعة الاسرائيلية عام ١٩٦٩ بما قيمته ٩٠٠ الف ليرة اسرائيلية ، وارتفع هذا الرقم عام ١٩٧٠ ليصل الى ٢٤٩ مليون ليرة . كما أن « حاجة أصحاب العمل الاسرائيليين الى أصحاب المهن » وحسب « متطلبات السوق » دفعت مكاتب العمل لاقامة مراكز للتدريب المهني لتخريج عمال يتمتعون بالمهارة الفنية ، متذرعة بالحاجة الى تحسين وضع السكان وتأمين مستقبل آلاف الشباب . وقد كشف تحقيق نشرته صحيفة دافار بتاريخ ١٩٧٢/١/١٩ ،

عن الهدف الاستغلالي لهذه المراكز ، اذ ورد فيه أنه تم عام ١٩٧١ تدريب أكثر من ١٣٠٠ شخص في مراكز التدريب بقطاع غزة في المجالات المتعددة لقطاع البناء (تبليط ، صنع قوالب خشبية ... الخ) الذي هو في حاجة ماسة لايد عاملة في اسرائيل ، « وحسب عدد المشتركين في الدورات المختلفة يمكن معرفة المهن المطلوبة في الاقتصاد الاسرائيلي » .

الى جانب هذا ، قامت اسرائيل بتنفيذ خطة لتفريغ مخيمات اللاجئين في قطاع غزة ونقلت بين ١٠٠ — ١٥٠ ألف لاجيء الى أماكن أخرى في الضفة الغربية والعريش ، مستهدفة تسخيرهم لخدمة اقتصادها عن طريق استغلال رخص قوة عملهم ، وساعية في الاساس القضاء على حركة المقاومة وتحقيق غايات سياسية أخرى سنأتي على ذكرها . « فهؤلاء اللاجئون الذين سينتقلون الى الضفــة ، سوف يشكلون تجمعا حيويا من الطاقة البشرية ، وذلك للعمل بمشاريع انتاج في اسرائيل وفي بناء أماكن « سكنهم الجديدة » ، بما في ذلك مشاريع صناعية في ضواحي أماكن سكنهم . فبسبب بعد المسافة بين القطاع ووسط البلاد لا يوجد مجال لاستغلال تجمع الطاقة البشرية في القطاع (٢٣٠ الف لاجيء) لتشغيلهم في الاقتصاد الاسرائيلي ، مقابل أجــر ملائم ، وفقط وضع هذه الطاقة البشرية في أماكن قريبة من مراكز العمل في البلاد يمكن أن يكون حلا للقضية »(١٠).

عند تفحص هذه الاجراءات (الاستثمارات ، مراكز التدريب المهني ، نقل اللاجئين) ، يتضح أنها تترك آثارا تخريبية على اقتصاد الاراضي المحتلة كما أنها تلحــق ضررا أكبر بهــذا الاقتصاد في المستقبل . فالاقتصاد الاسرائيلي الان بحاجة لايد عاملة ، وذلك نتيجة للتوسع الكبير الذي شهده في سنوات ما بعد الحرب ، والذي نجم عن الانفاق الكبير على الاغراض العسكرية بما في ذلك توسيع الصناعات الحربية ، وعن الانفاق على عمليات البناء لاستيعاب المهاجرين الجدد الذين تدفقوا الى اسرائيل بعد الحرب(١١). وقد أدى هذا الانفاق ، الى نقص في الايدي العاملة ، مما دفع الــى الاستعانة بأيد عاملة عربية من المناطق المحتلة . وأصبح تشغيل العمال العرب في اسرائيل يتم الان بعد تدريبهم في مجالات تناسب « حاجة السوق » ليكونوا مؤهلين « فنيا » ، ويحصلون اسميا على نفس أجر العامل الاسرائيلي (بينما يحصلون على هامشات أقل بعد الحسومات ، كما بينا سابقا) ، وفي الوقت نفسه فان القطاع العربي لا يستطيع المنافسة في الاجر فيؤدي ذلك الى « تدفق » العمال للعمل في اسرائيل مما يلحق ضررا باقتصاد المناطق المحتلة ويعرقل نمــوه ، ويؤدي الى استفــادة الاقتصاد الاسرائيلي على حسابه . ان النتيجة المترتبة على ذلك هي قيام مجتمع اسرائيلي متطور ، يعتمد على قوة عمل عربية رخيصة ، والى جانبه قطاع اقتصادي عربي متخلف . وهنا يبرز سؤال اجتماعي — سياسي يتعلق بمستقبل هؤلاء العمال ، حيث الجانب الاكثر خطورة في عمل اسرائيل هذا . والسؤال هو : ماذا سيحدث لهؤلاء العمال اذا نتج انخفاض في النشاط الاقتصادي الاسرائيلي ، خاصة بعد ربطهم بعجلــة الاقتصاد الاسرائيلي واستغلال الرأسمالية الاسرائيلية لهم لصالح هذا الاقتصاد ؟ والجواب على ذلك هو « ان عشرات الآلاف من العمال سيعودون الى أماكن سكناهم»(١٢) ليواجهوا بوضع اقتصادي متدهــور . والتقارير الواردة من الاراضي المحتلة تشير الى أن الفرعين الاساسيين اللذين لحق بهما أكبر ضرر حتى الان من جراء العمل العربي في اسرائيل ، هما الزراعة والبناء .

الجانب السياسي : ان حاجة العمال العرب الى العمل لتأمين الحد الادنى لمعيشتهم ، جعل اسرائيل تستعمل الاغراءات المادية وتستغل أوضاعهــم الفقيرة ، عن طريق تشغيلهم في مجالات اقتصادية معينة وزيادة أجورهم مقارنــة بالسابق « ورفع مستوى معيشتهم » ، لتستطيع تحقيق الاهداف السياسية المتعددة التي تتوخاها من وراء ذلك . ونضع فيما يلي بعض المعلومــات والاحصاءات المتوفرة والمتصلة بهذا الموضوع مع الاشارة الى بعض التحليلات والتصريحات الاسرائيلية التي تبين أهداف هذه السياسة .

انخفضت نسبة البطالة في العام السابق (١٩٧١) في الضفة الغربية المحتلة الى أقل من ٣ ٪ ، وفي قطاع غزة الى أقل من ٥ ٪ ، بينما كانت قــد وصلت هذه النسبة عــام ١٩٦٨ الى حوالــي ، ١٧ ٪(١٣). « وقد ارتفع مستــوى المعيشة في المناطق المحتلة خلال عامي ١٩٧٠ و١٩٧١ بنسبة ١٥ ٪ سنويا ... كما زاد أجر العمال خلال عام ١٩٧٠ بنسبة ١٨ ٪ في الضفة الغربية المحتلة وبنسبة ١٦ ٪ في قطاع غزة . وقد كان معدل الكسب

اليومي خلال عام ١٩٧٠ ، ٧٦٩ ليرة اسرائيلية ، بينما تقل هذه الارقام بنسبة ٧٠ ٪ لعمال الضفة الغربية و١١٠ ٪ لعمال قطاع غزة »(١٤).

وفيما يتعلق بتوزيع قطاعات العمل ، يقوم العمال العرب بالاعمال التي تحتاج الى جهود شاقة مثل أعمال البناء ، التي أضحت تعتمد أساسا على العمال العــرب ، كما يستخدمون في المشاريع الفرعية في مجال الصناعة ، ولا يسمح لهم بالعمل في المشاريع الصناعيــة الكبرى او الاساسيــة لاعتبارات اقتصاديــة وأمنية(١٥). ففرع البنــاء يستوعب اكبر نسبة من هؤلاء العاملين ، يليــه قطاع الصناعة ، فالزراعــة ومن ثم المجــالات الاخرى . وعلى سبيل المثال ، واستنادا الى تقرير وزارة العمل ، كان يعمل في اسرائيل في أيلول ١٩٧١ ، ٣٤٧٤٠ عاملا عربيا من المناطق المحتلة ، حوالي ٦٠ ٪ منهم يعملون في مشاريع البناء ، و٤٣٠٠ في الزراعة ، و٧٦٠٠ في الصناعــة ، و٢٥٠٠ في مجال الخدمات(١٦).

يبدو ظاهريا أن هدف هذه السياسة الاسرائيلية هو تنمية اقتصادية اجتماعية وعامة في المناطق المحتلة ، لكن في الحقيقة « كان هدف هذا النشاط لرفع مستوى الحياة ومستوى الخدمات ، ولخلق ظروف مريحة والتوصل بالسكان الى وضع ، حيث يرفضون بأنفسهم نشاط المخربين ويضعون حدا في الوقت ذاته لجو التخريب والارهاب ، التي تحاول المنظمات المعادية فرضه »(١٧). وقد كان المسؤولون الاسرائيليون يربطون دائما بين انخفاض العمليات الفدائية وعدد القتلى في الاراضي المحتلة من جهة ، وبين تحسين الاوضاع « والركض وراء النقود » من جهة ثانية . « فعدم وجود البطالة قد قضى على مصدر خطير للتوتر »(١٨)، والانخفاض الذي طرأ على عدد القتلى سنة ١٩٧٠ ، حسب « ما تقوله المصادر الامنية (الاسرائيلية) الموثوقة ، لم يحدث بطريقة الصدفة ، وانما يعود سبب ذلك الى توفر الاشغال ، حيث تأكد من جديد الفرضية القائلة ، أنه اذا ما توفــر لعرب « المناطق » الاكل ، فانهم لا يعملون في الامور التخريبية وأعمال التجسس . واذا ما منحــوا الفرص لتحسين أوضاعهم أو مستوى معيشتهم ، فانهم لن يسرعوا في التعاون مع الجهات المتطــرفة سواء كان في الضفة الغربية أو خارجها »(١٩).

الى جانب هذا ، هناك ظاهرة سياسية خطيرة نتيجة السماح للعرب بالعمل في اسرائيل ، تتصل باهمال الفلاحين العرب لاراضيهم من أجل العمل في مشاريع اسرائيلية . ان الظاهرة الخطيرة في هذا الموضوع هي ترك هؤلاء المزارعين لاراضيهم واقتلاعهم منها وتفريغ القرى من سكانها للعمل كعمال زراعيين أو غير زراعيين في مناطق اخرى ، بالاضافة الى ما ستلحقه التقلبات الاقتصادية في المستقبل من انهيار في القطاع الزراعي في المناطق المحتلة ، الذي هو عصب اقتصادها . ان لعملية التفريغ هذه مغزى وانعكاسا سياسيا في المستقبل، حيث أن ترك هؤلاء الفلاحين لقراهم سيؤدي الى التقليل من ارتباطهم بأراضيهم وتمسكهم بهــا ، وهذا ما يسهل على اسرائيل الاستيلاء على القرى التي تشكل أهمية بالنسبة اليها وزرع مستوطنات صهيونية جديدة مكانها . وتأتي المشاريع الاسرائيلية المختلفة المتعلقة بمستقبل الاراضي العربية المحتلة، وعلى رأسها مشروع ايغال آلون ، لتكشف وتكمل خطة اسرائيل . فقد أخذت اسرائيل منذ أن أقرت الشروع في تنفيذ الجزء العملي من مشروع آلون في شباط ١٩٦٩ ، تتمركز في الاراضي المحتلة بشكل يمكنها مع مرور الوقت من ضمها اليها . وقــد استولت على أراض واسعة في غور الاردن وأقامت مستعمرات في مرتفعات الجولان السورية ، وقامت بتفريغ مخيمات اللاجئين في قطاع غزة ونقلتهم الى أماكن أخرى في العريش والضفة الغربية ، متوخية بالاضافة الى الاهداف الاخرى التي ذكرناها سابقا، « ترتيب الاوضاع » منذ الان لضمها في المستقبل. كما تعمل اسرائيل الآن على انشاء مدينتين مجاورتين لمدينتي أريحا والخليل ، لتكميل مشروع آلون هذا. ان هذه الصورة « لخارطة اسرائيل الجديدة » ، برهان واضح لخطتها في توسيع حدودها . ولكن حيث انه « وفقا للمعطيات الراهنة ، ليس في امكان اسرائيل عمليا تكوين وتعزيز أكثرية ديمغرافية يهودية في الضفة الغربية »(٢٠)، فان حزام الامن هذا الذي تقيمه اسرائيل الآن ، هو تمهيد لخطوة الضم في المستقبل ، عندما يصبح لديها العدد الكافي من السكان بعد جلبها لمستوطنين جدد من الخارج. ولكي تكتمل الصورة بشكل أوضح يجب ربط ذلك بعملية تفريغ القرى التي تحدثنا عنها ، عن طريق تشغيل سكانها خارج قراهم ، وبعملية تحويل البنية الاقتصادية للاراضي المحتلة وربطها بعجلة الاقتصاد الاسرائيلي . فالخطتــان تسيران في اتجاهــين متوازيين تكمل احداهما الاخرى .

قبل الختام لا بد من الاشارة الى نقطة هامة ترتبط بقدرة التحرك العسكري الاسرائيلي **Military Mobilization** وعلاقة ذلك باستغلال العمل العربي وتسخيره لخدمة التحرك العسكري هذا . فاسرائيل تقوم أيام الحرب بتعبئة جيش « من حوالي ٣٠٠ ألف مقاتل ، أي نحـــو ٣٠ ٪ من قوة العمــل فيها »[21]. ويأتي ربط العمال العرب بالاقتصاد الاسرائيلي ليخدم اسرائيل وقت الحرب ، بحيث يتيح للاداة العسكرية الاسرائيلية الضاربة قدرة أكثر على التحرك والضرب ، ولكي يخفف من أزمة النقص في اليد العاملة بسبب الخدمة العسكرية في الاوقات الاخرى ، كما يقدم خدمة جلى في مجال البناء لاستيعاب أعداد أكثر من المستوطنين الجدد الذين سيساهمون في دعم القوة العسكرية ايضا .

فالعمال العرب سيقومون بالعمل في شتى المجالات الاقتصادية — عدا المشاريع الصناعية الكبيرة او الاساسية — ليحلوا محل العمال اليهود الذين سيذهبون للخدمة العسكرية او للحرب ، فيقومون بتعويض جزء من نسبة قوة العمل التي ستخرج من نطاق الانتاج خلال فترة الحرب ، ويقللون من تأثير ترك هؤلاء العمال للمصانع على الانتاج . بمعنى آخر ، ان ذلك سيزيد من قدرة التحرك العسكري الاسرائيلي ، كما يمكن اسرائيل من المحافظة على تفوقها العسكري . وهكذا فان العامل العربي في اسرائيل لا يستغل من الرأسمالية الاسرائيلية فحسب ، بل أن نتاج عمله يستخدم لدعم قوة غاصبة حتى تستمر في استعباده واستغلاله .

---

١ — عبد الحفيظ محارب ، **شؤون فلسطينية** ، عدد ٧ ، ص ٢٦٤ .
٢ — وزارة الدفاع الاسرائيلية ، **ثلاث سنوات من الحكم العسكري ، ١٩٦٧ — ١٩٧٠** ، ١٩٧٠ ، ص ١٥ .
٣ — أحمد خليفة ، **مذكرة مقدمة الى المؤتمر الرابع لاتحاد عمال فلسطين** ، مركز الابحاث الفلسطينية .
٤ — مذكرة الرابطة الاسرائيلية للحقوق الانسانية والمدنية — تل أبيب والمنشورة في **شؤون فلسطينية** ، عدد ١ ، ص ٢٢٧ ، مقدمة الى الامم المتحدة وعصبة حقوق الانسان ، ٦/٨/١٩٧٠ .
٥ — عبد الحفيظ محارب ، **المصدر السابق** .
٦ — احمد خليفة ، **المصدر السابق** .
٧ — عبدالحفيظ محارب ، **المصدر السابق** .
٨ — **المصدر السابق** .
٩ — **صوت اسرائيل** ، ٢/٤/١٩٧٢ ، الساعة ٢٣،٠٠ (من تصريح لوزير العمل الاسرائيلي).
١٠ — **معاريف** ١/٤/١٩٧١ .
١١ — أحمد خليفة ، **المصدر السابق** .
١٢ — **دافار** ٢/٩/١٩٧١ .
١٣ — ***The Israel Economist***, June, 1971.
١٤ — **نفس المصدر** .
١٥ — أحمد خليفة ، **المصدر السابق** .
١٦ — ***The Israel Economist***, Oct. 1971.
١٧ — **دافار** ، ١٠/١/١٩٧٢ .
١٨ — **جويش ابزرفر** ، ٣/١٢/١٩٧١ .
١٩ — **معاريف** ١٣/١/١٩٧١ .
٢٠ — أحمد خليفة ، **شؤون فلسطينية** ، عدد ٩ ، ص ٢٦٣ .
٢١ — **يوسف صايغ** ، « استنزاف » اسرائيل نتيجة الصراع العسكري ، **شؤون فلسطينية** ، عدد ٤ ، ص ٦١ .

الصهيونية في خمسة وسبعين عاما

ندوة

ادارها وحررها

الدكتور صادق جلال العظم

في مثل هذا الوقت قبل ثلاثة ارباع القـرن (أي في اغسطس ١٨٩٧) عقد المؤتمر الصهيوني الاول ، في مدينة بازل السويسرية ، الذي جسد الدعوة الصهيونية ، وكانت حتى ذلك الحين مجرد كتابات متناثرة وافكار متقطعة ، في مؤسسة رسمية ، تعمل على الاصعدة السياسية والدبلوماسية والمالية والثقافية والاجتماعية وحتى العسكرية ، وفي حركة منظمة لها أهدافها المحددة ، المرحلية والبعيدة ، ولها أساليبها ووسائلها ومشاريعها ولجانها ورجالها . ففي ذلك المؤتمر ، وحسبما اعترف هرتزل صاحب فكرة المؤتمر وزعيمه ، وضع الاساس العملي لدولة اسرائيل .

وقد دعت « شؤون فلسطينية » احد عشر مفكرا عربيا للنظر في الصهيونية كما تبدو لهم الان بعد مسيرتها الفتاكة ثلاثة ارباع القرن ، في ندوة امتدت ثماني ساعات ، تناولوا الموضوع خلالها من زوايا مختلفة باختلاف تخصصاتهم ومعتقداتهم . ويسر شؤون فلسطينية ان تنشر الندوة بنصها الكامل .

المشتركون في الندوة :

الدكتور ابراهيم ابو لغد : استاذ العلوم السياسية في جامعة نورث وسترن (الولايات المتحدة) .

الاستاذ ألبير فرحات : عضو اللجنة المركزية في الحزب الشيوعي اللبناني ومن مفكري الحزب .

الاستاذ الياس سعد : من باحثي قسم الدراسات الاسرائيلية في مركز الابحاث .

الدكتور الياس شوفاني : استاذ التاريخ في جامعة ماريلاند (الولايات المتحدة) .

الاستاذ الياس مرقص : المؤلف والمفكر السوري .

الاستاذ جبران مجدلاني : الكاتب والمفكر اللبناني .

الدكتور صادق جلال العظم : مستشار قسم الدراسات الاسرائيلية في مركز الابحاث .

الدكتور فايز صايغ : مستشار وفد الكويت في الامم المتحدة ومؤسس مركز الابحاث .

الاستاذ فؤاد قازان : عضو الحزب الشيوعي اللبناني ومؤرخ معروف .

الدكتور هشام شرابي : استاذ التاريخ في جامعة جورج تاون (الولايات المتحدة) .

الدكتور وليد خدوري : مدير الابحاث في مؤسسة الدراسات الفلسطينية .

صادق جلال العظم : باسم مركز الابحاث و« شؤون فلسطينية » ارحب بكم جميعا في هذه الندوة . هدفنا هو الدخول في مناقشة حول الحركة الصهيونية بمناسبة مرور ٧٥ سنة على انطلاقتها بصورة رسمية . أما الموضوعات التي سنتناولها فيمكن تلخيصها بما يلي : ١) المسألة اليهودية باعتبارها الخلفية التاريخية للحركة الصهيونية ، ٢) طبيعة الحركة الصهيونية في مناخها الاوروبي وارتباطاتها الدولية ، ٣) التأثيرات التي انتجها نجاح الحركة وقيام اسرائيل محليا وعالميا . وسيقدم كل من الدكتور فايز صايغ والاستاذ الياس سعد والاستاذ وليد خدوري وجهة نظر عامة تتناول جانبا من جوانب الموضوع لتشكل كلها الاساس الذي سينطلق منه النقاش ويدور حوله . وبما أنني انوي المشاركة في النقاش ايضا، ضمن حدود مسؤولياتي في ادارة الندوة طبعا ، سأبدأ بادلاء رأي مختصر حول المسألة اليهودية باعتبارها قضية هامة من القضايا المرتبطة عضويا بالحركة الصهيونية .

من المعروف ان الحركة الصهيونية قد ارتبطت ارتباطا وثيقا بالمسألة اليهودية في اوروبا الحديثة وطرحت نفسها على أنها الحل الحقيقي والعصري لهذه المسألة . هنا اريد ان اطرح موضوعة معينة حول ما اعتقد بأنه الاساس التاريخي المادي للمسألة اليهودية لان التفسيرات الشائعة والمتداولة قد شددت دوما على قضايا مثل العنصرية والشوفينية بأنواعها ، العداء الديني التاريخي ، السيطرة المالية اليهودية ، الى غير ذلك من التفسيرات المرونة . الا ان الامر الذي اريد التشديد عليه هو أن كل هذه الظواهر هي في الواقع اعراض تبحث عن تفسير تاريخي ومادي أعمق لها وليست أسبابا اولية يمكن ان تفسر لنا الواقع التاريخي الكامن خلف بروز المسألة اليهودية . ومن اجل ايضاح ما أعنيه والتمثيل عليه لن الجأ ، في هذه المناسبة ، الى التحليلات المجردة بل الىّ عمل أدبي مشهور جدا اعتقد أنه التقط، بصورة واقعية وملموسة وتصويرية ، الواقعة الجوهرية الكامنة خلف تجليات المسألة اليهودية واعراضها وذلك طبعا على طريقة الشاعر والاديب في اقتناص حقيقة تاريخية والتعبير عنها بصدق ودقة بحيث تغنينا عن التحليلات المعقدة والمطولة . واعني بذلك مسرحية شكسبير « تاجر البندقية » . اذا دققنا في حقيقة الصراع القائم داخل المسرحية بين انطونيو التاجر المسيحي الثري الواسع النفوذ وبين المرابي اليهودي شايلوك اعتقد اننا سنفهم شيئا مهما جدا حول أصول المسألة اليهودية وجذورها . يوضح شكسبير بكل بساطة وقوة ان الصراع بين هاتين الشخصيتين الرمزيتين ليس في حقيقته صراعا دينيا او عنصريا او ما شابه ذلك مما هو شائع . هذا واضح من قول شايلوك في مقطع شهير من المسرحية :

« اليس لليهودي عينان ؟ اليس لليهودي يدان واعضاء وجسم وحواس ومودات وشهوات ؟ اليس غذاؤه مما يتغذى به النصراني ؟ اليست الالة التي تجرح احدهما تجرح الاخر ؟ اليس العلاج الذي يشفي ذاك يشفي هذا ؟ اليس الشتاء والصيف واحدا لكليهما ؟ السنا اذا وخزتمونا ننزف دما ، واذا دغدغتمونا نضحك ، واذا سقيتمونا السم نموت ، واذا آذيتمونا ننتقم ؟ فنحن نشبهكم بهذا كما نشبهكم بكل ما سواه . أما جزاء اليهودي الذي يضر بمسيحي ان يثار منه ؟ اذن فلليهودي وقد ائتسى بأسوة النصارى ان يثار منهم ان اضروا به . ساعاملكم بمثل الشدة التي تعاملونني بها او أزيد . »

انطونيو تاجر كبير في جمهورية البندقية التي تسيطر على حياتها البورجوازية التجارية الصاعدة في عصر توسع التبادل التجاري والرحلات الى العالم الجديد. انطونيو يعرف هذه الحقيقة كل المعرفة وهو مستعد للتضحية بنفسه من أجل استمرارها ومن اجل حماية المصالح التجارية التي يمثلها . لذلك نجده يحث الدوق للاسراع باصدار الحكم باقتطاع كمية من لحمه لان عدم تنفيذ العقد بينه وبين شايلوك يشكل ، على حد قول انطونيو ، « خطرا على مدينة كالبندقية قوام ثروتها تجارتها مع الامم الاخرى » . اجواء انطونيو هي اجواء اية قوة اجتماعية صاعدة تنظر بثقة وانفتاح وتفاؤل الى مستقبلها ، مطمئنة ، على المدى الابعد ، الى مصير اندفاعها ونتائجه . تصارع اعداءها وهي واثقة من أنها ستدمرهم في النهاية . لقد أرسل انطونيو سفنه المحملة بالبضائع الى جهات الارض الاربع في مغامرة محسوبة او كما يقول « ان ثروتي جميعها تحت رحمة المحيط » ، وهو على قدر من التفاؤل والاطمئنان والثقة بالنفس يسمح له باقتراض المال من شايلوك — على اساس عقد

غريب — من أجل مساعدة صديقه الذي يريد التودد من بورشيا الغانية الثرية ووارثة الجاه الكبير .

من ناحية اخرى شايلوك مراب من مخلفات العصور الوسطى كان يمثل في يوم من الايام عنصرا هاما يعيش في مسامات مجتمع الاقطاع والاقتصاد الطبيعي (على حد وصف ماركس) بسبب تخصصه في التعامل بالرأسمال السائل . ولكنه تحول في الوقت الحاضر الى عقبة في وجه البورجوازية التجارية الجديدة التي تعمل بحكم مسارها الطبيعي على تدميره واستئصاله لصالح أساليبها الجديدة في انتاج الثروة وتعمل للحلول محله بحيث يتم اخضاع الرأسمال الربوي الى مصالح الرأسمال التجاري الجديد . اي ما يسميه ماركس في المجلد الثالث من «رأس المال» «بمطلب اخضاع الرأسمال الربوي ووسائل الانتاج القابلة للتسليف عامة الى نمط الانتاج الرأسمالي »(١). ولا تتم مثل هذه العملية بطبيعة الحال ، الا عبر صراع اجتماعي واقتصادي مرير تنتصر فيه فئات وتذهب ضحيته فئات اخرى ومن هنا مأساة شايلوك ودماره في نهاية المسرحية. ومن هنا بروز المسألة اليهودية . يقول ماركس في وصفه لهذه الظاهرة في المجلد الثالث من « رأس المال » ما يلي : « لقد نشأت مؤسسات التسليف في القرنين الثاني عشر والرابع عشر في البندقية وجنوا من حاجة التجارة البحرية وتجارة الجملة المرتبطة بها الى تحرير انفسهما من سيطرة الربا المتخلف ومن احتكار السوق المالي ... وينبغي الا ننسى ان التجار الذين أنشأوا هذه المؤسسات كانوا مواطنين بارزين في هذه الدول وكانوا مهتمين بتحرير حكوماتهم بقدر اهتمامهم بتحرير أنفسهم من مطالب المرابين بالاضافة الى ممارسة سيطرة أشد واضمن على الدولة »(٢).

لذلك نجد أن اجواء شايلوك تتسم بالانقباض والضيق والتدهور ، بالشك والخبث والتكتم ، وبالتمسك بما هو كائن في محاولة من قبل من يدافع عن نفسه ووجوده واستمراره من موقع الضعيف والخاسر والمضطر لذلك الى اللجوء الى الحيلة والخبث والاساليب الملتوية في مواجهة القوى العاتية التي يستشعر أنها ستجرفه . ان طبيعة الصراع بين القوى الاقتصادية والاجتماعية التي يمثلها انطونيو (الرأسمالية النامية) من ناحية والتي يمثلها شايلوك (الرأسمال الربوي الذي احتكره اليهود لفترة طويلة) من ناحية اخرى واضحة في مسرحية شكسبير وهي كامنة خلف كل مظاهر الكراهية والاحتقار والرغبة في الانتقام التي تطبع العلاقة بين الشخصيتين في المسرحية .

يفسر شايلوك بغضبه لغريمه بقوله ان انطونيو « جاهل أبله ، يقرض المال بلا ربح ، ويسقط قيمة النقد في البندقية . لئن اخذت بتلابيبه يوما لقد شفيت حزازاتي القديمة منه . هو يبغض امتنا المقدسة ويسخر — حتى في المصفق الذي يجتمع فيه التجار عادة — مني ومن معاملاتي ومن ارباحي المحللة التي ينعتها بالربوية . لعنت عشيرتي ان كنت غافرا له هذه الذنوب . »

في الواقع لقد طلب انطونيو القرض لاسباب تافهة لا تدل في الواقع الا على تدني نوعية المناسبة التي يضطر فيها مثل هذا التاجر الصاعد لخدمات خصمه المحتقر والمنبوذ في الاوساط المالية الجديدة، كما يدل قبول انطونيو رهن قطعة من لحمه مقابل المال على حقيقة نظرة طبقته الى خصمه وما يمثله من مصالح سائرة في طريق الاندثار ، بالاضافة الى ثقته اللامحدودة بانتصار تجارته وارباحه في المستقبل .

عندما طلب انطونيو المبلغ من شايلوك أكد شكسبير مرة اخرى طبيعة الصراع بينهما وحقيقته بقوله على لسان المرابي مخاطبا التاجر : « يا سنيور انطونيو طالما صادفتني في مصفق الريالتو فسخرت من اعمالي المالية ومن مراباتي ، فلم اقابل ذلك الا برفع الكتفين ، وجميل الصبر لان الالم هو احدى الافات التي خصت بها امتنا . وطالما نعتني بالكافر، أو الكلب الكلب (بفتح الكاف وكسر اللام) ، وبصقت على عباءتي التي يعرف منها الناس يهوديتي ، كأنك تعيبني لاستعمالي ما هو ملكي . أما الان فيظهر انك في حاجة الي : « شايلوك نريد منك نقودا » من يقول لي هذا ؟ انت يا من ينفث في لحيتي لعابه ، ويطردني من حضرته ركلا ، كما يطرد الكلب الغريب من عتبة البيت . تطلب مني مالا ! فيم ينبغي ان اجيب ؟ أيحرز الكلب نقودا ؟ أيعقل ان كلبا يقرض ثلاثة الاف دوقي ؟ ام يتعين علي ان أخر الى الذقن ، وان ارد عليك بصوت خافت ، وقلب خاشع : « يا مولاي الجميل ! يوم الاربعاء المنصرم بصقت

١ — الطبعة الانكليزية ، دار التقدم ، موسكو، ص ٥٩١ .

٢ — المرجع السابق ، ص ٥٨٨ .

في وجهي ، ويوما قبله طردتني ضربا برجليك ، ويوما قبله دعوتني بكلب ، فقياما مني بحق تلك المكارم كلها سأقرضك نقودا » ؟!.

وقد أشار ماركس بدقة الى هذا الصراع الشرس بين الرأسمالية الناهضة والرأسمال الربوي الموروث من العصور السابقة في المجلد الثالث من « رأس المال » بقوله : « ان هذه المعركة العنيفة ضد الربا ، وهذا الاصرار على اخضاع الرأسمال الربوي للرأسمال الصناعي، هو النذير بالمؤسسات العضوية التي تضع شروط الانتاج الرأسمالي في النظام المصرفي الحديث . ان هذا النظام ينزع من الرأسمال الربوي احتكاره عن طريق تركيز كل الاحتياط المالي العاطل وقذفه في السوق المالية من جهة ، وتحديد احتكار المعدن الثمين نفسه بواسطة خلق التسليفات المصرفية من جهة اخرى »(٣).

ان نتيجة المعركة العنيفة التي أشار اليها ماركس معروفة جيدا ورمزت لها مسرحية شكسبير بالدمار التام تقريبا الذي لحق بشايلوك ليس بخسارته ثروته ووظيفته الاجتماعية كمراب فقط بل ايضا بفقدانه ابنته التي فرت مع حبيبها المسيحي لورنزو .

بديهي أن مسرحية شكسبير لا يمكن ان تكون مصدرا للتأريخ لبروز المسألة اليهودية في العصور الحديثة وفي حقبة صعود الرأسمالية ، الا ان التجاهل السائد للوقائع التاريخية والصراعات الاجتماعية التي صورها شكسبير في « تاجر البندقية » على طريقته يعني أن فهمنا للمسألة اليهودية سيبقى **مثاليا طوباويا ومشوها** ، مما يعني بالتالي انه سيتعذر علينا ايضا فهم بعض النواحي الهامة ، على أقل تعديل ، من الحركة الصهيونية فهما علميا دقيقا يمكن أن يرتكز عليه النضال الثوري ضدها .

فايز صايغ : سوف أبحث في كلمتي ، بصورة عامة وقد تكون مبسطة ، في اوجه الصلة ومواطن الشبه والاختلاف بين الحركة الصهيونية من جهة وبين بعض المفاهيم والمبادىء التي كانت تعصف في مكان قيام الصهيونية وزمانه (اي في اوروبا في اواخر القرن التاسع عشر) من جهة اخرى . اي اوجه الصلة — شبها واختلافا — بين الحركة الصهيونية، كحل قيل أنه الحل الوحيد « للمسألة اليهودية »، وبين حركات اوروبية عاصرت قيامها ، واهمها الحركة القومية وحركة الاستعمار الاستيطاني والحركة الامبريالية .

وعلينا ، بادىء ذي بدء ، ان نشير الى الصلة القائمة بين الحركة الصهيونية والمسألة اليهودية، كقاعدة لفهم الصلة القائمة بين الصهيونية والمفاهيم والحركات الاوروبية التي قامت الصهيونية ضمن اطارها والتي اقتربت منها واختلفت عنها في الوقت عينه . تميزت المسألة اليهودية اواخر القرن ١٩ بعودتها الى الظهور من جديد بعد أن كانت قد غابت عن الساحة بشكل عام منذ مطلع ذلك القرن ، اذ بعد قيام حركات التحرر والعلمنة كان هناك اتجاه نحو تغطية المسألة اليهودية وعدم ظهورها الى ان جاء الربع الاخير من القرن فبرزت هذه المسألة من جديد وبحلة جديدة . ووجد بعض اليهود أجوبة مختلفة لها لانها طرحت نفسها عليهم من جديد وبعنف جديد . فوجد بعضهم حلا لها في **الاندماج والذوبان** ، اي في المزيد من القضاء على ما يميز **اليهودي** عن غيره في المجتمع الذي يعيش فيه . وقال هذا النفر انه فقط بالاندماج والذوبان يمكن للمسألة اليهودية ان تزول نهائيا . وذهب اخرون الى حل سموه حل **النزوح** . أي : عندما تنتفض الاوساط التي يقيم اليهود بينها ضدهم ، وتنشأ لاسامية جديدة في مجتمع ما ، فما على يهود ذلك المجتمع الا ان ينزحوا الى مجتمع اخر لا يكون فيه للاسامية مكان . وذهب نفر آخر الى **التمرد** ، فكانوا يعتقدون أنه بمجاراة الحركات الثورية بل والفوضوية القائمة في ذلك الوقت في اوروبا ومساندتها يمكن لليهود ان يضعوا ثقلهم مع تلك الحركات الرامية الى تحطيم المجتمع وكافة تركيباته ، حتى يقضوا على ذلك المجتمع الذي تقوم ضمن اطاره اللاسامية . جاءت الصهيونية رفضا لهذه الحلول الثلاثة كلها . وكانت رفضا يقوم على الاعتقاد بأن اللاسامية ليست امرا عارضا وليست امرا زائلا يمكن ان يتصور الانسان زواله بشكل نهائي ، بل على أنها عنصر ثابت لا يمكن أن يختفي الا باختفاء أسبابه . وأسبابه ، في تقييم الصهيونية للمسألة اليهودية ، هي كون اليهودي وحده يحيا حياة غير طبيعية في خضم مجتمعات لها حياة طبيعية . واذن فلا حل نهائي للمسألة اليهودية الا قيام دولة خاصة باليهود .

٣ — المرجع السابق ، ص. ٥٩٠ .

(ونستطرد هذا لنشير الى ان هـدف الحركة الصهيونية لم يكن خلق دولة يهودية بل اقـامة دولة لليهود . وهذا التمييز كان يؤكد عليه هرتزل دائما . فالمقصود ليس بناء دولة يهودية الطـابع وانما هو بناء دولة اهلها يهود ، مواطنوها يهود). بعبارة اخرى ، عن طريق انشاء دولة اليهود ، وبهذه الطريقة فقط ، يصبح وضع اليهود وضعا طبيعيا ، فتزول اللاسامية زوالا نهائيا من تاريخ الانسانية . باعتقادي ان هذا هو محور الحركة الصهيونية : خلق وانشاء وتدعيم واستدامة دولة لليهود ، يكون قيامها الحل النهائي للمسألـة اليهودية .

ولكن عند التفتيش على وسائل خلق هذه الدولة، غرفت الحركة الصهيونية مـن جعبـة المفاهيم والحركات التي كانت سائدة في اوروبا في ذلك الوقت ، وهي ، بصورة خاصة ، الحركـة القومية وحركة الاستعمار الاستيطاني والحركـة الامبريالية . وكان هناك لقاء وتمايز اساسي بين الحركة الصهيونية وبين كل من هـذه المفاهيم الثلاثة .

فبالنسبة **للقومية** ، لم تكن المعطيات الموضوعية للحركة القومية في اوروبا متوافرة في الوضـع اليهودي . فالحركات القومية كانت تقوم علـى أساس وجود مجتمعات متراصة ، جماعات متعايشة معا من البشر ، بينها روابط اساسية (ولعـل اهمها الرابطة اللغوية) تجعلها تشعر بذاتيـة خاصة . ووجود هذه المجتمعات دون ان تتمتـع بحكم ذاتي او دون ان يكون اطار الكيان السياسي الذي كانت تعيش فيه مساويا لاطار الكيـان الديموغرافي الذي كانت تنتسب اليـه ، جعـل الحركة القومية تعصف بالكيانات السياسية القائمة في اوروبا وتحطم جدرانها كي تعيد تركيبها من جديد على أساس يتلاءم مع التوزيع البشري القومـي للناس في اوروبا . فحين كانت الدولة الواحـدة تضم اكثر من قومية واحدة ، كانت الحركة القومية تسعى الى تمزيق هذه الدولة الى دول ، وحين كان المجتمع القومي الواحد يعيش في اكثر من دولة واحدة ، كانت الحركة القومية تسعى الى توحيد هذه المجتمعات معا في اطار دولة واحدة : أي اعادة تركيب جدران الكيانات السياسية بحيث يكون جدار كل كيان سياسي هو ايضا جدار كيان اجتماعي ذي رابطة قومية واحدة . أما اليهود فلم يتوفر لهم هذا الظرف الموضوعي ، بل كـانوا موزعين كأقليات في مجتمعات عدة ، ولم يكن في وسعهم، اذن، خلق دولة اليهود، لا عن طريق تمزيق وحدة دولة قائمة ذات قوميات متعددة ولا عن طريق خلق دولة جديدة بربط الاجزاء المتاخمة لدول متعددة معا . نتيجة لذلك حين استفادت الحركة الصهيونية من الحركة القومية ، كحافز لها على تأسيس دولة لليهود ، فقد وجدت نفسها فـي الوقت عينه في ظرف موضوعي يختلف عن الاوضاع التي أدت في اوروبا الى قيام الحركة القوميـة والى نجاحها في اعادة توزيع الكيانات السياسية من جديد .

اذا لم يكن بالامكان خلق دولة اليهود عن طريق تمزيق دولة قائمة او ترقيع اجزاء من عدة دول لجعلها دولة واحدة ، فلا بد من مخرج لايجاد دولة اليهود عن طريق هجرتهم ، هجرة هادفة ، من جميع الاماكن التي يقطنون فيها الى مكان جديد يجتمعون كلهم على أرضـه حيث ينشئون لانفسهم دولة قائمة بذاتها . وهذا ، بالطبع ، يعيد الى الذاكرة حركة الهجرة الاوروبية منذ مطلـع العصر الحديث واستعمارها استعمارا استيطانيا للعالم الجديد المكتشف حديثا سواء في الاميركتين او في اوستراليا ونيوزيلنده .

الاستعمار الاستيطاني اذن رشح نفسه كمخـرج لايجاد الاسلوب المناسب لخلق دولة اليهود . الا ان الاستعمار الاستيطاني كان قد استنفد نفسه عندما ظهرت الحركة الصهيونية ولم يعد هنـاك عالم جديد فارغ يمكن لليهود ان يهاجروا اليه ، بحيث يجدونه خاليا او شبه خال من البشر ، فيستوطنوه ويقيموا دولتهم فيه . فما كان عليهم الا ان يفعلوا ما كان الاستعمـار الاستيطاني الاوروبي المعاصر يفعله ، واقصد بذلك تواجـد الاستعمار الاستيطاني في اواخر القرن ١٩ في جنوب افريقيا وشرقها والى حد ما في شمالها . اي لن تكون مهاجرة اليهود الى بقعة جديدة مـن العالم حديثة الاكتشاف ، بل الى بقعة قديمة مأهولة بالسكان حيث يعيشون كما يعيش المستوطنـون الاوروبيون كما في شمال افريقيا والى حد ابعـد في جنوبها . الا ان الحركة الصهيونية شاءت ان توفق بين طبيعة الاستعمار الاستيطاني الكلاسيكي وامكانات الاستعمار الاستيطاني المعاصر . فهـي اختارت بقعة على غرار اختيـار الاستعمـار

الاستيطاني المعاصر ، بقعة من العالم القديم وليس من العالم المكتشف حديثا ولكنها ارادت ان يكون استيطانها في تلك البقعة على غرار الاستيطان الكلاسيكي أي ليس استيطانا مختلطا ، يعيش فيه المستوطن الجديد المهاجر الى جانب السكان الاصليين ويستغلهم ويسيطر عليهم ويبقيهم معه من اجل الايدي العاملة الرخيصة وما الى ذلك، وانما على أساس الاستعمار الاستيطاني الكلاسيكي القائم على التخلص من أبناء المنطقة المرغوب السيطرة عليها وابعادهم عنها ، اما بالقضاء عليهم قضاء نهائيا كما حدث في استراليا وفي نيوزيلندا او بابعادهم الى منطقة اخرى كما حدث فيما بعد في فلسطين . اذن اختارت الصهيونية من الاستعمار الاستيطاني الاسلوب الذي يناسبها ، موفقة بذلك بين بعض مظاهر الاستعمار الاستيطاني الكلاسيكي وبعض مظاهر الاستعمار الاستيطاني المعاصر .

أما بالنسبة **للحركة الامبريالية** التي كانت قد ظهرت بزخم جديد في الربع الاخير من القرن ١٩ بعد دخول عناصر جديدة عليها ، وبعد سيطرتها على بقاع جديدة من العالم القديم ، فقد اكتشفت الصهيونية ما كانت قد اكتشفته كل حركة استعمارية استيطانية في الماضي ، اي انها لا تستطيع ان تذهب الى البقعة المختارة التي تريد ان تستوطن فيها وتحل في ارضها الا في حمى دولة امبريالية قائمة . هنا يبرز الاختلاف مرة اخرى بين الوضع اليهودي وبين الاوضاع الاوروبية الاخرى . فالمهاجرون الاوروبيون الذين ذهبوا الى مختلف بقاع العالم لينشئوا دولا جديدة لهم ، كانت لهم دولهم الاصلية التي كانت تعطي شركاتهم الاستعمارية براءات الاستعمار وتعطيهم الحماية الاولية الى أن يستقروا ثم تفيد منهم بعد استقرارهم ، فيكونون لصالحها الامبريالية مطية وأداة ، وتكون هي لهم حامية ومساعدة . ولكن اليهود لم تكن لهم دولتهم — القاعدة التي يمكن ان تحمي مشروعهم الاستيطاني . فلهذا كان لا بد من ان يعرضوا خدماتهم على أية دولة امبريالية لها مطامع في المنطقة التي اختارتها الصهيونية للاستيطان . ونذكر جميعنا ، ولا ريب ، نشاط هرتزل في سنوات السعي للحصول على دعم دولة امبريالية تقدم للحركة الصهيونية براءة الاستعمار وتعطيها الحماية والسند ، لقاء خدمات عرضها عليهم : فقد ذهب الى روسيا وذهب الى المانيا وفاوض بريطانيا وفاوض البرتغال وايطاليا وتركيا والبابا.فاوض الجميع وعرض على كل منهم خدمات المجتمع اليهودي العتيد في المنطقة المختارة، لقاء تقديم خدمات الامبراطورية التي يتحدث معها هرتزل لحماية الهجرة الصهيونية والدولة الصهيونية المقبلة .

اذن فمنذ البدء كانت للصهيونية ، وهي حركة ترمي الى اقامة دولة اليهود كي تحل المسألة اليهودية حلا نهائيا ، صلة بالقومية هي صلة الافادة ، هي صلة النسج على منوال القومية رغم وعي الصهيونية للفارق بين الوضع اليهودي واوضاع القوميات الاخرى . كانت كذلك تنسج على منوال الاستعمار الاستيطاني في ظل اوضاع جديدة وضمن اطار اوضاع يهودية تجعل لهذا الاستعمار ظرفا خاصا ومتميزا ، وكانت تسعى الى الربط بين المستعمرة الاستيطانية اليهودية العتيدة في الشرق الاوسط وبين أية حركة امبريالية لها مطامع في هذه المنطقة ، والتي قد تجد في اليهود المستقرين او الذين سيستقرون فيها خير أداة لخدمتها ، لقاء ان تكون هذه الدولة مستعدة لحماية استقرارهم وحماية استعمارهم في المنطقة .

يجب ان نذكر الفوارق الاساسية التي كانت تفصل بين الحركة الصهيونية من جهة وبين هذه الحركات الثلاث من جهة أخرى ، فوق ما ذكرته حتى الان . **بالنسبة للقومية** : ان خلق دولة اليهود فيما بعد ، لم يجر على الطريقة التي كان يتوقعها آباء الحركة الصهيونية ومؤسسوها . لم ينزح جميع يهود العالم الى دولة اليهود ليشكلوا دولة عادية في فلسطين وبجوار فلسطين ، فنشأ من جراء ذلك مفهوم جديد للقومية لا تتعرف عليه القومية الكلاسيكية ، مفهوم الرابطة بين دولة اليهود كمركز الكيان القومي لليهود في العالم وبين مراكز تشتت اليهود والهيئات اليهودية الباقية في بقاع أخرى من العالم ، التي تدين بولائها الاول ليس للدول التي هي مواطنة فيها ، وانما لدولة المركز اليهودي ، لدولة اسرائيل . وتطالب العقيدة الصهيونية اليوم بقبول الصلة الخاصة التي تقوم بين اسرائيل ويهود العالم والامتيازات التي تتمتع بها اسرائيل لدى يهود العالم ، والواجبات التي على يهود العالم اداؤها نحو اسرائيل والتي تتناقض مع مفهوم القومية ومفهوم المواطنية في عالم تركب القومية جدران كياناته السياسية .

وبالنسبة للاستعمار الاستيطاني : يوجد فارق

اساسي بين الحركة الصهيونية وبين الحركات القومية الكلاسيكية من حيث نشاطها الاستعماري الاستيطاني (عدا عن الفوارق التي أشرت اليها من حيث الزمان والمكان وطبيعة الاستيطان) لا بد من الاشارة اليها . كان الاستعمار الاستيطاني في شكليه الكلاسيكي والجديد ، في أواخر القرن التاسع عشر ، يأخذ طابع التوزع ، اي هجرة الافراد والجماعات من مجتمع قائم الى مستعمرة او اكثر بغية استيطانهم فيها ، في حين ان الاستعمار الاستيطاني الصهيوني أخذ صورة التجمع — تجمع اليهود الواردين من مجتمعات متعددة (كان آخر احصاء لها يبين انها تتعدى المائة مجتمع ، هاجر منها اليهود) في مجتمع واحد ، هو مجتمعهم الاستعماري الاستيطاني الجديد . فبدلا من أن تتألف الصورة من مجتمع اصلي يتوزع أهلوه في مستعمرات عديدة ، نجد في حالة الحركة الصهيونية مستعمرة واحدة ، تصبح هي المجتمع الرئيسي ، ومجتمعات اصلية متعددة تنطلق منها الهجرة اليهودية في فترات متعاقبة باتجاه المجتمع المستعمر حديثا . أما بالنسبة للامبريالية وصلتها باسرائيل ، فأؤكد مرة أخرى على ما ذكرته ، وهو أن كل حركة استعمارية كان لها القاعدة الامبريالية التي انطلقت منها وكانت مستعدة لحمايتها منذ البدء . أما الصهيونية فكان عليها ان تفتش على من تخدم كي يخدمها . وهذا أمر لازمها منذ قيامها حتى الان . الذبذبة بين مخدوم ومخدوم يكون كل منهما هو أيضا لها خادما — هذا في هذه المرحلة وذاك في تلك المرحلة . فمن بريطانيا في مطلع الاستقرار الصهيوني المكثف في فلسطين بعد وعد بلفور ، الى بريطانيا واميركا في اواخر عهد الانتداب ، والى اميركا في الوقت الحاضر . ومرت فترة ناغشت فيها الحركة الصهيونية فرنسا . وفي حرب ١٩٥٦ مثلا كانت العلاقة المعروفة بين بريطانيا وفرنسا والحركة الصهيونية . وقد يأتي يوم يكون فيه مرشحون امبرياليون آخرون للقيام بهذا الدور. المبدأ الثالث هو ان الصهيونية موجودة وهي في حاجة الى عون من الخارج (وان تكون هذه الحاجة في تقلص كلما ازدادت القوى الذاتية للحركة الصهيونية في مكان استقرارها) . هي في حاجة دائما الى دعم وتأييد من الخارج ، فهي مستعدة الى تقديم الخدمات لاي مصدر خارجي يقدم لها الحماية والمساعدة المطلوبين .

أريد أن أخلص من هذه الملاحظات البسيطة والمبسطة ، حول صلات القربى والاختلاف ، بين الحركة الصهيونية وبين الحركات الاوروبية الثلاث التي ذكرتها ، الى القول بأن هناك ، في نظري ، خطأين ساريين اليوم : الاول هو الذي تروج له الصهيونية ، وهو القول بأن الحركة الصهيونية ليست سوى قومية طبيعية عادية ، بل انها أعرق حركة قومية ، كما قال المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون وكما تردد أوساط الدعاية الصهيونية منذ ذلك الحين ، أي ان الصهيونية هي حركة تحرر قومي للشعب اليهودي ، بل هي اقدم حركة تحرر قومي في التاريخ اطلاقا . من جهة ثانية هناك خطأ آخر ، أخشى ان يكون متفشيا لدى بعضنا ، وهو اعتبار الصهيونية على أنها ليست سوى امتداد لحركات امبريالية خارجية ، او انها ليست سوى ظل لمصالح وارادات امبريالية خارجة ، فاذا زال الاصل زال الظل . مما قد يعني انه ليس للصهيونية (اسرائيل) كيان ذاتي ، وليس لها مصالح ذاتية وارادة ذاتية وأهداف ذاتية ، وليس لها قوة ذاتية . هذا الخطأ النظري ينقلب آخر الامر الى خطأ استراتيجي في مواجهتنا للحركة الصهيونية.فعلى الرغم من كل ما شاهدناه وكل ما نعترف به من الصلة الحميمة بين الامبريالية العالمية (هذه تارة وتلك اخرى) وبين الصهيونية ، على الرغم من ذلك يجب ان نتأكد أن الكيانين متمايزان منفصلان ، اذ للصهيونية كيانها وأهدافها القائمة بذاتها ، وارادتها ، ومصالحها ، ولها أيضا قوتها الذاتية ، وللحركة الامبريالية التي تتعاون معها اليوم وغدا او تعاونت معها بالامس أهدافها وارادتها وقوتها القائمة بذاتها . ومن الخطأ أن نعتبر ان الصهيونية ليست سوى امتداد او ظل أو أداة : بل الحقيقة ان لها كيانا ذاتيا يستفيد من، ويسخر، ويفيد، ويخدم ويخدم ، من قبل حركات امبريالية خارجية ، ولكن غرضه الاساسي هو خدمة الهدف الصهيوني والمصالح الصهيونية .

الياس سعد : بما ان موضوع الندوة هو « الصهيونية بعد ٧٥ سنة » ، اود ان اتقدم ببعض الملاحظات الملخصة كي تكون بمثابة تقييم لنتائج الصهيونية وعواقبها بالنسبة للاوضاع التي تأثرت بها وأثرت عليها . وربما من المفيد اجراء هذا التقييم على مستويات ثلاثة : أولا ، نتائجها وعواقبها بالنسبة لليهود في كافة البلدان او المناطق التي تواجدوا فيها . ثانيا ، تأثيراتها على مجاري

الاحداث الرئيسية عالميا خلال هذه الحقبة من الزمن . ثالثا ، تأثيراتها وعواقبها على المستوى العربي بشقيه الاساسيين في هـذا المضمار : الفلسطيني الخاص والعربي العام .

١) يهوديا : هل حلت الصهيونية المشكلة اليهودية؟ (بما في ذلك طرح موجز للمدلول المجتمعي للمسألة اليهودية) . ويلي ذلك سؤال آخر هو : هل شكلت الصهيونية بحد ذاتها مشكلة جديدة اعقبت المشكلة الاولى ، وفي هذا المضمار تثار عادة مسألة الولاء المزدوج .

ان المشكلة اليهودية قيل وكتب عنها الكثير وبدأ الكلام عنها في أواسط القرن الماضي رغم ان لها صلات بتطورات سبقت ذلك التاريخ . وفي هذا المعنى الاخير يمكن الاخذ بالمثل الذي اعطاه الدكتور العظم عن **تاجر البندقية** من حيث العلاقة بين المرابي اليهودي والتاجر الرأسمالي الناهض ، وبنمو الرأسمالية تطور المرابي الـى الصيرفي المتمثل بأمثال المتمولين روتشيلد وهيرش اليهوديين . والتاجر النـاهض تطور الـى رجـل الدولـة والبورجوازية الاوروبية الحديثة . واعتقد ان هذا المثل ذو علاقة بالموضوع الا انه لا يكفي ما لم نفسر الى أين أدت هذه العلاقة في وصف وضع المتمول مثل روتشيلد ورجل الدولة البورجوازية التي كان روتشيلد عضوا فيها ويؤثر على مجرى سياساتها وتعترف هي به . وفي هـذا الصدد يمكن ذكر مثال آخر عن مسألة الربا والتاجر ، قصة خليفة الصياد في ألف ليلة وليلة حيث يصطاد خليفة قردا يقول له انه سيغير له حظه السيء ويستبدله بحظ المرابي اليهودي الناجح في المدينة . ويتضح بعد ذلك ان حظ خليفة الصياد لا يتغير الا بعد ان يتعرف على الخليفة هارون الرشيد وبعد ذلك يصبح ثريا . ونحن نعلم بالطبع ان اليهود اصبحوا مع توسع الامبراطورية العربية في الغرب يشكلون نقطة الوصل على حافة الامبراطورية ويقومون بأعمال التجارة بين الغرب والشرق . لكن ما يهمنا بشكل خاص من هذا الموضوع تطورات منتصف القرن الماضي بحد ذاته حين كانت اللاسامية تظهر بالدوام بالاشارة الى دور المراباة والصيرفـة ومن ثـم الرأسمال الذي قيل ان اليهود يشكلون المثال الافضل على من يقوم به . فمثلا ، عندما كتب كارل ماركس ملاحظاته عن المسألة اليهودية عام ١٨٤٤ قال ان اليهودي يتمثل برجل المال وعليه فلن يتحرر اليهودي الا بتحرر المجتمع الاوروبي من رجل المال . وقال ايضا في هذا المضمار ان المجتمع الاوروبي المسيحي نفسه قد تبنى ايديولوجية رجل المال لذلك فان تحرر اليهودي مثل تحرر المسيحي لن يأتي الا بالتحرر من رجل المال — اي مـن الرأسمالية . بعد ملاحظات ماركس هذه بحوالي نصف قرن ، كتب كارل كاوتسكي مقالة عن المسألة اليهودية أشار فيها الى تطور جديد نتج عنه تباعد بين بروليتارية يهودية ناهضة وطبقة رأسماليـة يهودية قائمة واستنتج ان الوضع الخاص لليهود بذلك قد اندثر . بعد خمسين سنة ايضا كتب ابراهام ليون دراسته التي قال فيها ان المسألة اليهودية نتاج تفتت طبقة المراباة اليهودية شبه الرأسمالية مع نهوض الرأسمالية . ولكن ما أود ان اوجه النظر اليه هنا هو ان المسألة التي ظهرت في البداية ، في ايام ماركس مثلا ، على انهـا مسألة العداء للرأسمالية المتمثلة برجال المـال اليهود ، اصبحت عند اواخر القرن الماضي واوائل القرن الحالي تظهر في العداء للاشتراكية التي أصبح يبدو للعالم الغربي ان اليهود قوادها .

ان المنطلق الاولي للبورجوازية اليهودية في اوروبه كان منطلق الانصهار . وفي حين ان الانصهار في اوروبه الغربية كان ممكنا اذ ان اليهود هناك كانوا قلة فدخلوا الطبقة البورجوازية عامة وانصهروا في المجتمع البورجوازي الاوروبي ، ففي اوروبـه الشرقية لم يتم ذلك ولم يكتمل الانصهار . والمنطلق الاول للبورجوازية اليهـودية في اوروبه الشرقية تمثل بما سمي حركة الهسكلاه ، او التحرر كما يشار اليها في المصادر اليهوديـة والصهيونيـة خاصة . لكن هذه الحركة كانت بمثابة اللاسامية اليهودية التي طالبت بالتخلي عن كافة التقاليد اليهودية والتنكر لهـا لصالح تبنـي المنطلـق البورجوازي الليبرالي الغربي . وبعد فشل هذه الحركة — وفشل الليبرالية البورجوازية في اوروبه الشرقية عامة — ظهرت الحركة الصهيونية كبديل لها . وافضل دليل على اللاسامية في الصهيونية هو هرتزل نفسه الذي انتهـى في كراس **الدولة اليهودية** الى القـول ان اليهود سيندثرون فـي المستقبل ويختفون في الدولة اليهودية نهائيـا . وفشل الانصهار في اوروبه الشرقية رافقه انسياب اعداد اليهود في الهجرة باتجاه غربي اوروبه . وقوبل ذلك بمنطلق التهجير الخيري علـى يـد الرأسماليين اليهود وعلى رأسهم روتشيلد وهيرش

وذلك بابعاد البروليتاريين اليهود عن اوروبه الى اي مكان ممكن ، الارجنتين وغيرها ، لصرفهم كذلك عن الانضمام الى الاحزاب الثورية . ومن هنا نرى ان هرتزل عندما التقى بالمسؤولين الغربيين امثال دوق بادن والكونت اولمبرغ والامير بيولوف وزير الخارجية الالمانية والقيصر الالماني نفسه ، كان دائما يكرر ويردد قوله ان حركته (اي الصهيونية) ستقوم على اضعاف الحركات الثورية بتهجيرها « الفائض » من البروليتاريين اليهود . وفي الواقع، لم يتم تبني الدول الغربية للصهيونية حتى عـام ١٩١٧ عند نجاح الثورة البولشفية في روسـيه واصدار اعلان بلفور (وعد بلفور) جاء بعد ذلك بيوم واحد . وهناك مراسلات حول الموضوع ذكرت بعضها في مقالة ستنشر في عدد اغسطس من شؤون فلسطينية [العدد الحالي] .

بعد اصدار وعد بلفور اتسعت تبعية الصهيونية فنتج عن ذلك تكريس النظرة الصهيونية اللاسامية التي صنفت اليهود على انهم غرباء . وبالطبع عمليا انطبق هذا التصنيف بمعظمه على اليهود من الطبقات الفقيرة والطبقات الوسطى الى حد ما . وباتساع الصهيونية خرجت مسألة الولاء المزدوج الى حيز الوجود ، ولكنها لم تنشأ بمعزل عن الفوارق المجتمعية . ففي مناطق الجمهوريات السوفياتية المتنازع عليها آنذاك بين الاشتراكية والقيصرية مثلا ، بات ينظر الى الكثيرين من اليهود على انهم غرباء عن المنطقة واعتبر بعضهم انفسهم غرباء بمجرد ارتباطهم الاسمي بالصهيونية. وخلال الثلاثينات اصبـح الولاء المزدوج يهـدد وجـود اليهود — وخاصة في المناطق التي وقعت اما تحت التأثير او الاحتلال النـازي — وبشكل خـاص البروليتاريين منهم والمشتركين في الاحزاب الثورية، بما في ذلك تهديدهم بالتصفية الجسدية على ايدي النازية . وقد تمت تصفية بضعة ملايين ، لا نعرف العدد الحقيقي ، ويبدو ان الصهيونيين الذين كانوا على علم بهذه الاحداث الفظيعة ، لم يكونوا على تعارض مع السلطات النازية بل ، كما نعلم من كتابات بن هيخت وحنة ارندت ، وافقوا علـى التغاضي عنها ومن ثم الاسهام فيها مقابل تعاون النازية في تأمين تهجير العناصر الفتية وصاحبة رؤوس الاموال من اليهود الى فلسطين آنذاك . وفي الوقت الحاضر ، يتكلم الكثيرون امثال ليلينتال والمر برغر وكاتب عربي معروف اسمه مهدي في الولايات المتحدة عن الولاء المزدوج لدى اليهود نتيجـة للصهيونيــة فـي الغرب . ولكن لا يوجد عمليـا أي أساس للقول بهذا الولاء المزدوج في الغـرب نظـرا لان الصهيونيين هنـاك يؤيدون سياسة الدولة التي يقيمون فيها . وفي الولايات المتحدة مثلا ، فان رابطة الدفـاع اليهودية في مظاهراتها ترفع العلم الاميركي الى جانب العلم الاسرائيلي فتظهر بذلك ولاء مضاعفا وليس ولاء مزدوجا . اما بين اليهود الشرقيين ، وفي البلدان العربية بشكل خاص ، فقد نشأ الولاء المزدوج بوضوح وذلك نظرا لفشل الحركة القومية العربية في ادخال يهود البلاد العربية تحت لواء القومية العربية فنتج عن ذلك تهجير جماعي جاء بأكثرية اليهود العرب الى اسرائيل بحيث باتوا يشكلون حوالي ٦٠ ٪ من السكان اليهود حاليا في اسرائيل. ومما تجدر ملاحظته ان في اسرائيل نفسها ، نتيجة لهذه الهجرة والتمييز الذي واجهها ضد الشرقيين ، قد نشأ نوع من الولاء المزدوج لدى اليهود العرب في تأرجحهم الثقافي (والمصلحي على المدى البعيد) بين اليهودية صهيونيا والعربية . وافضل مثال على هذا الولاء المزدوج ما اعلنه احد المرشحين الشرقيين في الانتخابات البلدية في بئر السبع عام ١٩٦١ في حملته الانتخابية ضد منافسه الغربي حين قال : « انا جئت من منطقة غير نامية وبلد غير نام . منطقة وبلد اعطيا العالم رسالتي المسيح ومحمد . أما هم ، ابناء برنشتين ورابينوفتش فقد جاءوا من مناطق وبلاد نامية ، مناطق وبلاد اعطت العالم القيصر نيكولاس وهتلر » !

ملخص الكلام عـن نتائج وعواقب الصهيونيـة يهوديا :

١ — تم نقل حوالي مليون يهودي اوروبي معظمهم من شرقي اوروبه الى فلسطين .

٢ — التصفية جسديا لبضعة ملايين يهودي في أوروبه الوسطى والشرقية خلال الحرب العالمية الثانية .

٣ — تعبئة سياسية شبه نامة لليهود في الغرب وراء الصهيونية دون قيام اي هجرة تذكر .

٤ — تعبئة سياسية سطحية لليهود الشرقيـين وراء الصهيونية ولكن تم نتيجتها هجرة شبه تامة .

٢) عالميا : تمثل التطور الرئيسي في العالم خلال القرن الماضي في الصراع الطبقي العالمي او مـا يمكن الاشارة اليـه بالصراع بين الاشتراكيـة

والرأسمالية الذي بدأ بالانتفاضات الاوروبية عام ١٨٤٨ واتخذ طابعا اولويا خاصا بعد قيام الثورة البولشفية عام ١٩١٧ . والسؤال الذي ينبغي طرحه في هذا المضمار : ما كان موقف الصهيونية ودورها من هذا الصراع العالمي بين الرأسمالية والاشتراكية ؟ والاجابة على هذا السؤال صريحة وبسيطة : لقد اسهمت الصهيونية في ضرب الاشتراكية لصالح الرأسمالية وقد بدا ذلك واضحا في اصدار اعلان بلفور لصالح الصهيونية عشية ظفر الثورة الاشتراكية الاولى في روسيه . وقبل ذلك ، فاتنا نعلم من مؤرخي عائلة روثتشايلد وعائلة هيرش المولتين للصهيونية انه كان للاسرتين دور بارز في توفير الاموال والقروض للحكومات لضرب الثورات الاوروبية المتتالية واكبر مثال على ذلك ضرب كومونة باريس عام ١٨٧١ بمساعدة اموال عائلة روثتشايلد. أما بعد ١٩١٧ ، فبقيت الصهيونية تناهض الاشتراكية بداية بتحريضاتها الدعاوية خلال العشرينات في ظروف حرب التدخل العسكري في الاتحاد السوفياتي على أيدي جيوش الدول الغربية . واستمر هذا الدور حتى اليوم ، مـا دامت المنظمات الصهيونية الامريكية تقوم بالتظاهرات الواحدة تلو الاخرى ضد الاتحاد السوفياتي مطالبة بتهجير اليهود السوفيات ومـن دون ان يكـون للمتظاهرين انفسهم اي اهتمـام بالهجرة الـى فلسطين — مع ما تنطوي عليه شعارات هذه التظاهرات من لصق تهمة اللاسامية بالاشتراكيين واليساريين عامة .

ان الحركة الصهيونية تمثل في المقام الاول حركة فريدة من نوعها تختلف عـن الحركات القومية الاخرى . وتتمثل هذه الهوية الفريدة بالعناصر التالية : اولا ، انها نشأت لدى المسيحيين قبل ان يعتنقها اليهود . ومن الضرورة التأكيد هنا على هذه الحقيقة مع العلم انهم يقولون ان من مؤسسي الصهيونية موسى هس الذي كتب كتابه بعنوان **روما والقدس** عام ١٨٦٠ . ولكن في الواقع ان كتاب هس ليس فيه شيء عن الصهيونية او القومية اليهودية او « العودة الى فلسطين » سوى بضع صفحات اقتطعها من كتاب دعا الى « اعادة بناء الامة اليهودية » نشره عام ١٨٦٠ ارنست لاهاران ، السكرتير الخاص لنابليون الثالث . أما الكاتب الصهيوني اليهودي الاول ، ليو بنسكر ، فقد نشر كراسه عام ١٨٨١ ليدعو بكل وضوح الى « تهجير الفائض من البروليتاريين اليهود » معتبرا اياهم سبب المشاكل للبورجوازية اليهودية . العنصر الفريد الثاني في منطلق الصهيونية ، هو ان قيادة وتمويل الحركة لم يأت على أيـدي هؤلاء الذين يريدون الهجرة انفسهم بل على ايدي اولئك الذين أرادوا تهجير الاخرين كي يبقوا هم في بلادهم . وكان الهدف بالطبع تهجير البروليتاريين اليهود وليس كل اليهود وكان هرتزل يؤكد على ذلك مرارا في مقابلاته مع المسؤولين النمساويين والالمانيين والروس . والعنصر الثالث في هـوية الحركة الصهيونية الفريدة انعكس في سعيها الاول الى التهجير الى اي مكان ممكن خارج أوروبه ، في الارجنتين وافريقيه وفلسطين ... الخ . ولا حاجة للقول ان هذا عنصر يختلف عن كافة الحركات القومية الاخرى . ان العنصر الفريد الاخير وربما الاهم هو نشوء الصهيونية على أيدي البورجوازية اليهودية ضمن ظروف محاربتها للثورية الاشتراكية، خاصة وانه كان يبدو للكثيرين آنذاك ان اليهود يشتركون في الاحزاب الاشتراكية اكثر مـن اي عناصر اخرى . والعنصر الاخير هذا كان العامل الحاسم في تحقيق تأييد كافة الدول البورجوازية الغربية للصهيونية وتبنيها لها منذ عـام ١٩١٧ حتى الان .

ونظرا لهذا المنطلق الفريد والعناصر الاخرى المتعلقة به في هوية الصهيونية ، لعبت الصهيونية دورا رجعيا فعليا في الصراع الطبقي العالمي لصالح الردة الرأسمالية الامبريالية ضد الاشتراكية ابتداء من دورها في مكافحة واضعاف الثورة الروسية بعد نشأتها عام ١٩١٧ ومنها الى دور مماثل في ثورتي المانيه وهنغاريه عام ١٩١٨ بما في ذلك تحويل الشباب من البروليتاريين اليهود عن الاشتراكية في البلدان الغربية كافة وعلى رأسها الولايات المتحدة التي غالبا ما حملت صحفها كتابات في عام ١٩١٧ تتكلم عن اشتراك اليهود في الاحزاب الاشتراكية . واستخدمت الصهيونية مع ما توفر لديها من مزاعم مثالية عن القومية اليهودية وميراثها التاريخي ، لصرف اليهود عن الاشتراكية الى اهداف اقامة الدولة اليهودية . وبتفاعله مع مبدأ التهجير ، فقد خدمت الصهيونية الرأسمالية في مرحلة الامبريالية ليس فقط في ردع الثورة في أوروبه بل وكذلك في الاسهام بالامتداد الامبريالي الى منطقـة الشرق الاوسط والدفاع عن مواقعها الحالية في المنطقة وفي مناطق مختلفة اخرى مـن آسيه وافريقيـه الجنوبيـة بشكل خـاص ، ممـا يقودنا الـى

تقييم ابعاد الصهيونية في المنطقة العربية .

٣) **عربيا** : من البديهي في هذا المجال ان التطور الرئيسي خلال العقود الماضية ارتكز في حركة التحرر العربية وتصدي قوى الامبريالية لها . وللنظر في دور الصهيونية في هذا المضمار يجدر بنا الابتداء بعواقبها بالنسبة للشعب الفلسطيني . تحت الادعاء بمحاربة الاقطاعية العربية (هذا مع العلم ان الحاج امين الحسيني الذي يشار الى امثاله على انهم الاقطاعية العربية الفلسطينية قد عينه في مركزه هربرت صاموئيل ، الصهيوني اليهودي والمندوب البريطاني الاول واظهره من خلفوه بمظهر قائد الحركة الوطنية) تمكنت الصهيونية من التصدي لانتفاضات العمال والفلاحين المتتالية (التي لم يكن لها اي علاقة بالحسيني) وفرضت تسلطها على البلاد . وتحت الغطاء البريطاني تمكنت الصهيونية من تحقيق الازاحة الاقتصادية الحاسمة للعمال والفلاحين العرب في فترة ١٩١٩ — ١٩٣٥ وثبتت أقدامها في اقتصاد البلاد . وبالتعاون مع القوات البريطانية التي عملت على انشاء الجيش اليهودي الصهيوني عام ١٩٣٧ بقيادة الجنرال وينغايت تمت التصفية السياسية لقدرات الشعب الفلسطيني خلال اعوام الثورة الكبرى ١٩٣٦ — ١٩٣٩ . والازاحة السكانية التي تمت في عامي ١٩٤٧ — ١٩٤٨ لم تكن سوى النتائج المترتبة على التصفية السياسية هذه . وبعد ذلك عملت اجهزة العنف الاسرائيلية العسكرية بشكل مكنها من ان تفرض على الحكومات العربية دور تقييد أي تحرك سياسي عسكري يقوم به الشعب الفلسطيني — الامر الذي تستثنى منه فترة « النكسة » ١٩٦٧ — ١٩٦٩ والذي انتهى بالاعتراف بالنكبة واعادة فرض هذا الدور في تقييد المقاومة الفلسطينية وضربها على ايدي الحكومات العربية عام ١٩٧٠ .

اذا نظرنا الى الدور الذي تلعبه الصهيونية على المستوى العربي العام نجد ان الصهيونية واسرائيل لهما دور في ضرب حركة التقدم العربية وهو أمر عالجته جميع الاقوال والكتابات حول الموضوع . لذلك أود أن أبدأ بالاشارة الى حادثة حصلت عام ١٩٥٣ وهي مسألة لافون التي كانت بمثابة خروج على القاعدة تستثنى من كافة سياسات الصهيونية واسرائيل على مر السنين الماضية . ويشار الى مسألة لافون عادة كمثال على العلاقات العسكرية — المدنية في اسرائيل . ولكن في الواقع ، هي في المقام الاول مثال على طبيعة العلاقات الاميركية الاسرائيلية او بالاحرى على نوعية ارتباط اسرائيل بالامبريالية. بدأت هذه الحادثة عندما قام شخص في الدوائر الاسرائيلية الحاكمة (لم يعرف المصدر الحقيقي) باعطاء الاوامر لضرب بعض الاماكن الاميركية (بينها المركز الثقافي الاميركي) في القاهرة من اجل خلق التوتر في العلاقات الاميركية — المصرية آنذاك والحؤول دون علاقات جيدة بين حكومة مصر آنذاك والحكومة الاميركية كي لا يؤدي ذلك الى اضعاف التزام الولايات المتحدة باسرائيل . ويبدو من التطورات بعد ذلك ان هذه الحادثة شكلت الازمة الرئيسية في حياة اسرائيل السياسية منذ ذلك الحين وقد استمرت في الظهور والاختفاء الى ان تمت ازاحة بن غوريون عن رئاسة الوزارة بسببها عام ١٩٦٣ . ان التخبط الوحيد في التركيب السياسي لاسرائيل منذ نشأتها قد ارتبط بهذا الحادث الذي تجرأت فيه بعض الجهات الاسرائيلية (التي حرصت على التنصل منه فيما بعد) على المس بالمصالح الاميركية في بلد معين يظهر نوعية العلاقة بين اسرائيل والولايات المتحدة ومدى استقلاليتها عنها. وما دامت اسرائيل تسير على خطى تفيد مصالح الامبريالية فتأييد الامبريالية لها مضمون . وهذه كانت حال الصهيونية والامبريالية منذ نشأتها حتى الان وقد تكرست هذه العلاقة بشكل حاسم منذ قيام دولة اسرائيل . وقد ادى عدوان « السويس » عام ١٩٥٦ الى توثيق الارتباط بالامبريالية نظرا لفتح مجال الملاحة لاسرائيل آنذاك تجاه الشرق من ايلات ومن ثم توجهاتها الى عدد من البلدان الافريقية والاسيوية في خدمة الامبريالية منذ ذلك الحين . ووصل الارتباط الى أوجه عام ١٩٦٧ حين تحركت اسرائيل ضمن ظروف داخلية اقتصادية صعبة فهزمت جيوش الدول العربية وتوسعت على حسابها فحلت مشكلاتها الاقتصادية الداخلية في الوقت نفسه الذي حققت فيه ضرب حركة التحرر العربية الجزئية التي كانت تعمق شروشها في منطقة شبه الجزيرة العربية قبيل الاستقلال في عدن وبوجود القوات المصرية المناهضة للامام في شمالي اليمن ، مما ادى الى قطع الطريق على حركة التحرر هناك ومهد الطريق لتسلط الانظمة الرجعية في الاقطار العربية كافة كان امتنان الدوائر الاميركية الحاكمة كبيرا لتحرك اسرائيل نذكر دلالة عليه كلام احد مسؤولي وزارة الخارجية الاميركية

بعد حرب ١٩٦٧ مباشرة حين قال : « ان اسرائيل قد حققت للولايات المتحدة في الشرق الاوسط بالمقارنة الى الاموال والمجهودات المستثمرة فيها اكثر من جميع حليفاتنا وصديقاتنا حول العالم منذ الحرب العالمية الثانية حتى الان . ففي الشرق الاقصى لا يمكننا الحصول على مساعدة احد من حليفاتنا في فيتنام . اما هنا (أي في الشرق الاوسط) فقد انتصر الاسرائيليون بمفردهم فأخرجونا من ورطة وخدموا مصالحنا ومصالحهم في وقت واحد » .

ان امتنان الدوائر الامريكية الحاكمة والارتباط المصلحي بدولة اسرائيل ينعكسان في توفير الهبات والقروض الهائلة لاسرائيل ولا مجال لتغير هذا الوضع ما دام طابع اسرائيل يخدم المصالح الامبريالية . وبالاضافة الى تعبئة يهود العالم باسم الصهيونية لصالح الرأسمالية الامبريالية ضد الاشتراكية ، هناك التعبئة الاسرائيلية نفسها التي تقدمها الصهيونية مقابل الهبات الامريكية بحيث اصبحت اسرائيل قاعدة عسكرية بالنسبة للامبريالية تخدم مصالحها في المناطق المجاورة . ولا شك ان هناك الاستغلال الامبريالي المباشر للموارد الاسرائيلية الا أن ذلك عنصر ثانوي بالمقياس الى الدور الرئيسي والاول في وضع اسرائيل كقاعدة عسكرية . وأفضل مثال على ذلك ما سمعته في واشنطن ان المزهرية التي توضع فيها الزهور في غرفة الاستقبال في السفارة الاسرائيلية في واشنطن هي على شكل قنبلة يدوية . وهناك ايضا، مسابقات دايان وآلون في اصدار البيانات والكتب عن دورهما في اقامة وقيادة الجيش الاسرائيلي . الا ان العلاقة الاقتصادية الاستغلالية بين الامبريالية واسرائيل والتي تتمثل في تسلط الرأسمال الاحتكاري الامبريالي على الاقتصاد المحلي قد تؤدي في المدى البعيد الى تحرك سياسي لدى الطبقة العاملة الاسرائيلية ضد الاستغلال المباشر لها على يد الرأسمال الامبريالي . لكن هذا التطور لا يمكن ان يأتي الا بالتفاعل مع حركة التحرر العربية ومن المرجح انه سيتناول اليهود الشرقيين في صفوفه الاولى نتيجة لموقعهم البروليتاري في اعمال الانتاج في اسرائيل . ولا شك ان تحركا كهذا سيكون له دور هام في التأثير على مجرى ما يسمى الصراع العربي الاسرائيلي في الشرق الاوسط .

وليد خدوري : الملاحظات التي سأبديها تتعلق بالعلاقات الصهيونية الاسرائيلية من بعد ١٩٤٨ وبالاخص من بعد ١٩٦٧ ، وستتركز في القضايا السياسية والتنظيمية وليس الفكرية . اما وجهة النظر التي أود أن أطرحها في هذا المجال فهي ان الصهيونية كحركة سياسية وكمنظمة دولية آخذة في الاضمحلال . لقد بدأت صلاحياتها تتقلص وكذلك أعمالها التي أصبحت تقتصر ، خارج اسرائيل ، على اعمال التثقيف للجاليات اليهودية وخدمة السياسة الاسرائيلية المرحلية . وبالمقابل اخذت اسرائيل تلعب الدور الرئيسي والمركزي بالنسبة ليهود العالم بدلا من الحركة الصهيونية . وسأحاول أن أبين هذا من خلال العلاقات منذ ١٩٤٨ .

بعد عام ١٩٤٨ مباشرة برز هذا الاتجاه ، خاصة في مؤتمر القدس المنعقد عام ١٩٥١ حيث وضعت اسرائيل حدا لاي تدخل من قبل الحركة الصهيونية خارج اسرائيل في السياسة الاسرائيلية وفي المنظمات والاجهزة الاسرائيلية . وقامت اسرائيل بصورة تدريجية ومنتظمة باستيعاب مهام وتنظيمات الحركة الصهيونية في الخارج حيث سخرتها ، خاصة في الولايات المتحدة واوروبه ، لخدمة سياستها المرحلية الداخلية والخارجية . كانت حاجة اسرائيل بعد ٤٨ كالاتي : أولا الابقاء على التنظيمات السياسية والاجتماعية للجاليات اليهودية في الخارج لخدمة الاهداف السياسية المرحلية لدولة اسرائيل وللتبشير بمركزية دولة اسرائيل ومبادىء الشعب الواحد في الخارج . وبالنسبة للحركة الصهيونية اعتمدت في السابق وهي لا تزال تعتمد على قاعدتين رئيسيتين : أولا جذب المهاجرين الى اسرائيل ، وثانيا : رفض المنفى . معركة الصهيونية في هذا المجال طويلة الامد وتعتمد في نجاحها ، اذا أردنا تقييمها ، على عدة أمور . أولا : امكانها توحيد الشعب اليهودي وان تكون هي الممثل الوحيد والناطق الرسمي باسم اليهود في الخارج . ثانيا : بناء دولة اسرائيل وتقويتها ، وثالثا : الابقاء على اليهود في الخارج كجاليات وكشعب غير منصهر في المجتمعات التي يعيش فيها . الذي استطاعت الحركة الصهيونية تحقيقه بعد ١٩٤٨ في هذا المجال هو أولا : اقامة الدولة اليهودية ، دولة ذات سيادة . ثانيا : احياء الثقافة اليهودية والعبرية. ثالثا : الدفاع الذاتي . وما تبقى للحركة الصهيونية كي تقوم به بعد ٤٨ هو الاستمرار في توحيد الشعب اليهودي في الخارج والتأكد من عدم تواجد منظمات اخرى تنافسها في هذا المجال ، نشر الثقافة

الصهيونية واليهودية في الخارج بين الجاليات اليهودية ، منع الاندماج والانصهار في المجتمعات التي يعيشون فيها ، وربط الجالية والشعب اليهودي باسرائيل . كذلك الامر بالنسبة للهجرة والاستيطان وتقوية اسرائيل .

يتلخص الذي حدث بالفعل منذ ٤٨ بين اسرائيل والحركة الصهيونية بما يلي : أولا : طرحت عدة اسئلة في مؤتمر ١٩٥١ ومؤتمر ١٩٧٢ . السؤال الاول : ما هي المهام السياسية الاساسية للحركة الصهيونية بعد قيام دولة اسرائيل ؟ المطلوب من المنظمات الصهيونية في الخارج هو ان تقوم بالدفاع بالترجمة والشرح والعمل من اجل سياسة اسرائيل، ولكن ما هي علاقتها بالسياسة الاسرائيلية نفسها ؟ ما هو نفوذها على السياسة الاسرائيلية نفسها ؟ هذا السؤال مطروح منذ قيام الدولة ولم يجب عليه حتى الان . ثانيا : هناك سؤال أدبي يطرحه الاسرائيليون على الصهيونيين في الخارج : هل هناك صهيونية خارج اسرائيل ؟ طبعا هذا السؤال طرحه بن غوريون منذ أوائل قيام الدولة وطرحه مؤخرا الاتحاد العالمي للطلبة اليهود في المؤتمر الاخير عندما قامت الضجة حول هل يصح ان يرجع مندوب للمؤتمر الصهيوني بعد أربع سنوات اذا كان لا يقيم في اسرائيل ؟ فالسؤال هو اذا كنت صهيونيا يجب ان ترجع واذا لم ترجع فأنت لست صهيونيا . وأحدث هذا ضجة كبيرة بين اسرائيل ويهود الولايات المتحدة والتنظيمات الصهيونية في اميركا بصورة خاصة . نقطة اخرى هي ان ولاء اليهود في الخارج اصبح يتأثر بشكل شبه مباشر بالتطورات في اسرائيل وليس في المنظمة الصهيونيةالعالمية أو الاتحادات الصهيونية . فأحداث معينة ، مثلا الحروب أو المشاكل الاجتماعية في اسرائيل ، تؤثر على الفكر السياسي وعلى الولاء السياسي وعلى الهجرة او ما شابه ذلك . بالنسبة لليهود في الخارج اصبحت الامور التي تحدث في اسرائيل تؤثر بصورة غير مباشرة ، عن طريق التلفزيون والاذاعة والدعاوة ، على اليهود في الخارج ولا دخل للحركة الصهيونية في ذلك اي في العلاقة بينهم وبين اسرائيل . كل هذه الامور تطرح سؤالا وهو السؤال الذي يطرحه دائما ناحوم جولدمان : هل ينبغي على الحركة الصهيونية ان تكيف نفسها بالنسبة للجاليات في الخارج وأن تأخذ بنظر الاعتبار التيارات المحلية والواقع المحلي بالنسبة لليهود بدلا من اعتبار مركزية اسرائيل هي الاساس ؟ جماعة الدولة الاسرائيلية وجماعة الوكالة اليهودية والمساندون لهم يقولون العكس . الاعتبار الرئيسي والاساسي هو مركزية اسرائيل وسياسة اسرائيل المرحلية والمنهج الاسرائيلي وليس الوضع في الخارج . طبعا هناك القاعدة المشتركة بين الاثنين وهي حركة عودة اليهودي الى فلسطين . فهذه الاستراتيجية ليست مطروحة للنقاش . يجري النقاش حول كيفية تحقيق ذلك . هذا هو الخلاف الاساسي والرئيسي بين الفكر الموجود في المنظمة الصهيونية وبين الصهاينة في الخارج من جهة وبين المسيطرين الان على الوضع في الداخل من جهة اخرى . لنأخذ هذه الامور بصورة مباشرة . كيف تطورت بعد ١٩٦٧ خاصة . في المؤتمر الصهيوني لعام ١٩٦٨ يتكلمون في برنامج القدس عن مركزية اسرائيل بالنسبة للشعب اليهودي عامة ، وفي مؤتمر ١٩٧٢ يتكلمون في القرارات ليس عن مركزية اسرائيل للشعب اليهودي عامة بل ايضا عن حياة الفرد اليهودي ، وهذا الاتجاه متمم للسياسة التي يدعون لها . طرح موضوع برنامج القدس في مؤتمر ٦٨ والانتخابات التي جرت على اساسه . برنامج القدس يدعو ، كبرنامج مشترك ، الى ان يستطيع أي فرد يهودي في العالم أو أي مؤسسة يهودية اذا وافقت عليه ان تصبح عضوا في الحركة الصهيونية وتكون عضوا مع الاحزاب . كذلك ان احد قرارات مؤتمر ٦٨ هو العودة الى انتخاب اعضاء الوفود الى المؤتمرات . وكانت كذلك سابقا ، قبل الحرب العالمية الثانية ، ولم تحدث على هذا النحو الا مؤخرا . بهذه الطريقة استطاعت الجاليات والمؤسسات اليهودية المسؤولة عن التبرع والمسؤولة عن الثقافة أن تدخل الى الحركة الصهيونية والى المؤتمر الصهيوني دون أن يكونوا أعضاء في أحزاب صهيونية . وبهذه الطريقة استطاعت اسرائيل أو الوكالة اليهودية ان تمتد حول المنظمات اليهودية وتدخل اعضاء جددا لها فيها . شيء اخر نشير اليه هو انشاء الوكالة اليهودية الموسعة الشبيهة بالتي اعلن عنها في عام ١٩٢٩ . والذي حدث فعلا هو أن مندوبي الجاليات والمسؤولين عن التبرعات حصلوا على ٥٠٪ من مقاعد الوكالة اليهودية الموسعة بينما كانت في السابق مقتصرة على الحركات والاتحادات الصهيونية . موضوع اخر مهم هو الهجرة . وهو موضوع اساسي بالنسبة للحركة الصهيونية خاصة

بعد ١٩٦٧ حيث اصبحت الهجرة مسألة بمستوى الامن ، واحتلت نفس المقام والاهمية . وتسلمت اسرائيل العملية بكاملهـا ولم تترك للحركة الصهيونية أي مجال للعمل في هـذا الاطار ، الا القليل . قسمت اسرائيل والوكالة اليهودية مواقع الهجرة الى ثلاثة اقسام : أولا بلاد الضيق كما يسمونها وهي الاتحاد السوفياتي والكتلة الاشتراكية والدول العربية ، ثانيا ما يسمونه بلاد العالم الحر ، وثالثا البلاد التي يعيش فيها اليهود بهدوء ولكن من المحتمل ان يهاجروا منها مستقبلا لتوقعهم حدوث مشاكل ، يعنون بذلك امريكا اللاتينية بصورة خاصة . بالنسبة الى بلاد الضيق فقط لعبت الحركة الصهيونية ، أي المنظمة الصهيونية والمؤسسات الصهيونية ، دورا ولكنه كان دورا مساندا لا اكثر ولا أقل لان اسرائيل نفسها تسلمت العملية ، وقامت مؤسسات يهودية وغير يهودية ومؤسسات دولية بالضغط على الاتحاد السوفياتي للسماح بهجرة اليهود من هناك . والمؤسسات الصهيونية هي جزء من المؤسسات المتعددة التي تقوم بهـذا العمل بالنسبة للدول الاوروبية والولايات المتحدة وجنوب افريقيا ، والـذي تقـوم به المنظمـات الصهيونية هناك لا يتعدى مجال الثقافة . المبعوثون من الوكالة اليهودية او من اسرائيل نفسها هـم الذين يقومون بالاتصالات وهم يشكلون الكـادر المتفرغ والمباشر للاتصال مع الجاليات ومع اصحاب المهن الحرة لتهجيرهم الى اسرائيل ولا علاقة للحركة الصهيونية في تنظيم هذا الموضوع . وفي دول امريكا اللاتينية يشكو اليهود كثيرا في تقاريرهم وفي خطبهم من فقدان اتصالهم مع الحركة الصهيونية ومن كونهم لا يسمعون صوتها الا بمناسبات جمع الاموال . اضافة الى ذلك لقد هيأت اسرائيل بنفسها اطارات العمل في تلك البلدان لاستقطاب المهاجرين دون اي ذكر للحركة الصهيونية ، فالمؤسسات الاقتصادية والمؤسسات العلمية كيفت نفسها للمهاجر الجديد وهو مهاجر المهن الحرة . واعتقد ان هذا الامر معروف ولا حاجة للدخول به خاصة موضوع الجامعات والمؤسسات الصناعة المتقدمة .

موضوع آخر لا علاقة للحركة الصهيونية به وتسيطر عليه اسرائيل هو الاستيطان . بعد ١٩٦٧ اقيمت في اسرائيل ٥١ مستوطنة ومن المتوقع في السنوات الاربع القادمة اقامة حوالي ٣٠ مستوطنة اخرى وهذا العدد من المستوطنات شبيه بتكاثرها في الخمسينات عندما كانت موجة الهجرة كبيرة عندئذ ولا علاقة للحركة الصهيونية من قريب او من بعيد بهذا الامر . أقامت اسرائيل وزارة استيعاب في ١٩٦٩ ، وتقوم الوكالة اليهودية باستلامهم كما تقوم الكيبوتسات في داخل اسرائيل بذلك . اي ابعدوا الحركة الصهيونية عن الاستيطان . وبالنسبة للشباب طرح كلام كثير خاصة في مؤتمر ٦٨ ، عن دور الشباب في الحركة الصهيونية لان معظم الاعضاء في مؤتمر ٦٤ و ٦٨ كانوا من الرعيل القديم ما قبل ٤٨ وزاد عددهم في مؤتمر ٧٢ بحوالي ٤٠٪ من المندوبين من الوجوه الجديدة ، ٢٠٪ كانوا من الاعضاء الشباب وحوالي ٥٣ مقعدا من ١٦٣ ذهبت للشباب . وفي الحقيقة ان الشباب لم يطرحوا أي بدائل جديدة ولم يقوموا بأي حركة فكرية جديدة ضمن الاطار الصهيوني . هناك حركات فكرية جديدة داخل صفوف الشباب في الولايات المتحدة ولكنها محدودة ولم تمثل في المنظمة الصهيونية العالمية . الشيء الوحيد والرئيسي الذي قدمه الشباب داخل الحركة الصهيونية داخل مؤتمر عراد في صيف ١٩٧٠ هو الموافقة على قرار حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني . هذا هو الشيء الوحيد الذي طرحوه منذ ٦٨ بالرغم عن الضجة التي خلقوها . حاولت أن اذكر في هذا المجال أن اسرائيل حاولت تدريجيا ان تخلق لنفسها وسائل الاتصال المباشر مع اليهود ومع المنظمات في الخارج . الزعماء الذين ندعوهم بالصهاينة في الخارج ليسوا جميعا أعضاء في الحركة الصهيونية. الزعيم الكبير في الولايات المتحدة الان مثلا ماكس فيشر لم ينتم الى الحركة الصهيونية . اتصاله مباشر مع اسرائيل متخطيا الحركة الصهيونية . والشيء نفسه يقال بالنسبة الى غيره من المسؤولين في انكلترا والدول الاوروبية الاخرى . هذه النقطة يجب أخذها بعين الاعتبار في التخطيط للمستقبل وفي العمل .

العظم : أعتقد ان هـذا الرصد الذي قدمه الدكتور خدوري لعلاقات الحركة الصهيونية العالمية بدولة اسرائيل والمسار الذي مشت عليه يقدم لنا معلومات مهمة ، وقوله بأن اضمحلال الصهيونية كحركة لصالح اسرائيل التي اخذت هي تقوم بكافة الادوار يطرح السؤال النوعي ، فيما اذا كان هناك عملية استبدال تاريخي لما يسمى بالحركة الصهيونية بما يمكن تسميته بالقومية الاسرائيلية كشيء متميز من الصهيونية كحركة عالمية وعن

اليهود الذين وجدوا ملاذا لهم في الصهيونية . اعتقد اننا امام سؤال هام يجب مواجهته بشجاعة لانه يوجد في الفكر السياسي العربي الكثير من التردد والتخوف من مواجهة هذا الواقع التاريخي الذي يتطور تحت أنوفنا . لقد لاحظت ترددا كبيرا من قبل الدكتور فايز صايغ في تصنيف الحركة الصهيونية في عداد الحركات القومية في اوروبا ، ولكن اذا لم تكن الصهيونية حركة قومية (بالاضافة الى كونها حركة استعمارية استيطانية الخ ...) فماذا تكون اذن ؟ وبقيت هذه النقطة غامضة في سياق الحديث .

ومن ناحية اخرى ارجو ان تتطور الندوة باتجاه لا يقتصر على اضاءة الخلفية التاريخية للحركة الصهيونية ، كما فعلنا في حديثنا حتى الان ، وتقديم تحليل لها مضاد للصورة التي تطرحها عن نفسها ويطرحها عنها الاستعمار .

المطلوب ايضا هو تحليل لطبيعة الحركة الصهيونية بعد أن تجسدت في دولة اسرائيل ، وعلى سبيل المثال اشار الدكتور خدوري في بعض ملاحظاته الى احتلال اسرائيل مركز الثقل حاليا في كل النشاط الصهيوني . ان هذا التحليل مهم بالنسبة للنضال الراهن ضد دولة اسرائيل . لذلك ارجو ان يتحول النقاش تدريجيا بهذا الاتجاه . الان اريد ان اسأل الزملاء اذا كان لدى اي منهم تعليق يريد ان يدلي به حول موضوع الندوة قبل الدخول في مناقشة الاراء التي طرحت او الرد عليها .

ابراهيم ابو لغد : اعتقد ان الندوة اثارت موضوعات مهمة عن الحركة الصهيونية ولكن اود أن الفت النظر الى انه في مثل هذه المناقشات علينا ان نعي الدافع الحقيقي او الدوافع الحقيقية لموضوع الندوة . في تصوري ان لمثل هذه الندوة على الاقل بعدين : البعد الاول هو البعد العلمي لموضوع النقاش ، يعني هل نرغب في أن نفهم الحركة الصهيونية كحركة اجتماعية وسياسية بغض النظر عن ارتباطها بالصراع العربي الاسرائيلي ، وبغض النظر عن واقعها في المجتمع العربي ؟ اما البعد الثاني فهو الارتباط العملي لهذا الفهم بواقع الصراع . فاذا اردنا أن نفهم الحركة الصهيونية كحركة اجتماعية سياسية اوروبية علينا ان ندخل في موضوعات المجتمع الاوروبي الذي نشأت فيه هذه الحركة وعلينا أن نناقش ، ما افترضنا بأنه من المسلمات سواء من المنظور العربي او من المنظور الصهيوني . واذا اردنا البعد الثاني علينا ان نطور استراتيجية محددة لمواجهة هذه الحركة كما نفهمها نحن .

اعتقد شخصيا أن الفصل بين هذين البعدين ممكن لعلماء الاجتماع وعلماء السياسة في اوروبة اذ بامكانهم أن يناقشوا الحركة الصهيونية ضمن الحركات القومية الاوروبية وان يميزوها بخصائص معينة تختلف عن القومية الايرلندية او القومية الروسية وهكذا ، بدون ان يكون لهذا الفهم اي ارتباط بالصراع العالمي المعاصر ، كذلك يمكن لمجتمع عربي يهتم بالواقع العملي لهذه الحركة ان يناقشها من ناحية تطبيقاتها السياسية لمفاهيمها كما تنعكس هذه التطبيقات في واقع المجتمع السياسي سواء سياسة المجتمع الصهيوني في فلسطين قبل نشوء اسرائيل او بعد نشوئها .

بالنسبة الينا ، اعتقد أن الربط بين العلم والسياسة لا بد منه ، فنحن لا نجري في هذه الندوة وراء مجرد فهم الحركة الصهيونية كحركة اجتماعية في المجتمع الاوروبي بل نريد ان نصل من هذا الفهم الى نتائج عملية بامكانها ان تسهم في تصحيح السياسة العربية وتطوير الاستراتيجية العربية في مواجهة اسرائيل الصهيونية .

خطر في بالي اثناء النقاش اننا افترضنا وجود بعض المسلمات واشرنا في الاحاديث المختلفة الى وجود شيء اسمه « المسألة اليهودية » ، نحن نسلم بذلك والصهيونية تسلم بذلك ويكاد المجتمع العالمي ان يسلم بذلك . ولكن علينا في الواقع ان نسأل عن حقيقة هذه المسألة ، هل هناك شيء اسمه المسألة اليهودية ؟ اذا عدنا الى التاريخ تشير المسألة اليهودية الى اطار اجتماعي زمني معين ، فاذا افترضنا ان اليهودية دين فمعنى ذلك ان المسألة اليهودية مرتبطة بالتنظيم العالمي الذي يرتكز على الاديان ، ان هناك طوائف معينة متميزة من ناحية انتمائها الديني فاذا اردنا ان نسلم بوجود المسألة اليهودية ، علينا ان نتصور ان هناك قضية دينية متعلقة بطائفة من الطوائف التي يتشكل منها المجتمع الذي نشأت فيه . لكن في حديثنا العام نكاد ننسى ان « المسألة اليهودية » هي موضوع نشأ في فترة تاريخية معينة في اوروبة ، في مجتمع متغير لم يكن آنذاك مجتمعا مسيحيا ، بل كان مجتمعا قوميا ومع ذلك اثيرت هذه المشكلة الدينية الشكل أو هذه المسألة . وبتصوري لم يكن هناك

مشكلة يهودية في الوطن العربي سواء في القرن التاسع عشر او في اوائل القرن العشرين ، ولم يكن هنالك مسألة يهودية في المجتمع الهندي ولم يكن هناك مسألة يهودية في افريقيا . واننا نفترض ان هناك مسألة يهودية وهي بحاجة الى دراسة عالمية من منظور عالمي ، اعتقد أن هذا خطأ أصيل ، ربما تكون قد اوجدته الحركة الصهيونية وربما تعاون معها بقية العلماء الاوروبيين فأشاروا هذا الموضوع على انه مشكلة « عالمية » لا بد وان تعالج عالميا . والصحيح هو أنه كان هناك مشاكل او مسائل الاقليات القومية ، والدينية ، واللغوية في مجتمع اوروبي قبل مبدأي العلمانية والقومية كأسس للمواطنة الصحيحة .

وموضوع المسألة اليهودية،بغض النظر عن من طرح هذا الموضوع ، مرتبط بوجود « اليهودية » ووجود « الامة » اليهودية التي شكلت الركيزة الاساسية للحركة الصهيونية.بمعنى آخر ان الحركة الصهيونية نشأت كحل من الحلول المختلفة لمعالجة مشكلة تواجد «الامة» اليهودية في مكان غير الذي تواجدت فيه . علينا ان نناقش هذا الافتراض الاصلي في الحركة الصهيونية والذي يصر على ان هنالك شيئا اسمه « الامة » اليهودية والذي يفترض ان لهذه الامة المقومات الرئيسية للامم الاخرى ما عدا البقعة الجغرافية . وعلينا في هذه الحالة ان نناقش تلك الروابط التي تجمع بين اليهودي الامركي واليهودي الافريقي ، او بين اليهودي الروسي واليهودي العربي . في نظري ان الصهيونية نجحت في ايهام الكثيرين من الناس بوحدة هذه « الامة » . ولكن هذا لا يعني انه يتوجب علينا ان نسلم بوجود هذه الروابط « القومية » بل علينا ان نتقصى الاسباب الحقيقية التي أدت بالصهيونية الى استغلال روابط معينة بين فئات من الاوروبيين لتحقيق اهدافها السياسية والجغرافية . كذلك لو نظرنا ، كما ذكر الدكتور فايز أو كما اشار المؤرخون ، الى الحركة الصهيونية نجد انها اجابة علمانية لمشكلة تواجد بعض الناس في اوروبه عاصروا التغير الذي حدث في اوروبة نفسها ، لكنهم في اجابتهم على هذه المشكلة ارتكزوا الى الركيزة اليهودية. فبأمكاني ان أقول ان هنالك شيئا من المفارقة **anachronism** في التسمية ذاتها ، اذ ان الحركة الصهيونية هي الاجابة في اطار مجتمع علماني اوروبي كما ارادت الجماعة التي توهمت هذه الحركة ان تعطي اجابة علمانية كالاجابة التي قدمها المجتمع الالماني مثلا ، في اطار التمزق الالماني او في اطار تفرقة المجتمع الايطالي والمجتمعات الاوروبية الاخرى . يبدو لي ان هذا البعد النظري مهم جدا لانه بامكان هذا التحليل ان يؤدي بنا الى تحليل اخر من حيث الولاء الطبقي للجماعات التي ايدت الحركات الصهيونية . والغرض من هذا ، بالاضافة الى الرغبة العلمية في تفهم هذه الحركة ، اننا نريد ان تنظر الى الحركة الصهيونية من منظار اكثر تعقيدا من الذي جرينا وراءه ، سابقا وحديثا .

بالنسبة للحركة الصهيونية لدينا نظرة مبسطة : عندنا مشكلة والاجابة عليها سهلة ، فأما ان تكون حركة تآمرية لاقصاء بعض الطبقات في مجتمع بورجوازي معرض لثورات ، واما ان تكون رد فعل لرفض البورجوازية الاوروبية الخ ... كل هذه الاجابات في نظري اجابات مبسطة وينتج عن هذه الاجابات المبسطة استراتيجيات مبسطة لمواجهتها. لو نظرنا الى الحركة الصهيونية بأنها حركة معقدة تستند الى الدين تارة ، والى القومية تارة اخرى والى الصراع الطبقي والى الاضطهاد ، والى الكبت وهي بآن واحد متعددة الالسن متعددة المفاهيم وهي نفسها غير واضحة في ركائزها وفي مفاهيمها وفي سياساتها . تتطلب هذه الحقائق مواجهتها باستراتيجية معقدة، اذ بدل ان نفترض ان هناك مجتمعا يتكلم بلسان واحد ويمارس سياسة واحدة وبالتالي يجابه بسياسة واحدة ثابتة ، كان علينا ان نفترض ان هناك فئات صهيونية كثيرة تتكلم بمنطق يخالف المنطق الاخر ، تتبنى سياسات متغيرة ومعقدة ، وبالتالي وجب علينا مواجهتها بسياسات تساويها بالتغير والتكيف والتعقيد . هذا من النواحي النظرية ، اما من الناحية العملية فقد اراد الدكتور فايز صايغ ان يميز الاستيطان الصهيوني في فلسطين وكأنه نتج عن بصر صهيوني أوروبي معاصر لحركات استيطان اخرى ، واعتقد ان في هذا الكثير من الصحة . ولكن في آن واحد لو نظرنا الى ممارسات الحركات الصهيونية في فلسطين نستجد ان الحركة الصهيونية نفسها لم تكن واضحة بالنسبة لما تريد اقامته في هذا المجتمع سواء من الناحية السياسية او الاقتصادية او الاجتماعية اي شكل المجتمع الذي تريد ان تحققه ، وارتباط هذا المجتمع بالفئات التي تؤيده عالميا سواء الفئات

اليهودية او الفئات الاوروبية الاخرى . في نظري ان هذا الموضوع الطويل المدى ، موضوع نمط الاستيطان الصهيوني في المجتمع القائم ، تبدل كثيرا منذ قيام المجتمع الصهيوني وبداية الهجرة الصهيونية والاستيطان الصهيوني . وهذا التغير مرتبط اصلا بالمفاهيم الصهيونية المعقدة غير الواضحة بالنسبة الى الصهيونية كفرق متعددة ، ومرتبط كذلك بالسياسة التي واجهتها الجماعات الصهيونية في فلسطين . في كثير من الاحيان نفترض ان الحركة الصهيونية لها خطة معينة ولها طريق معينة لا تحيد عنها . الواقع ان هذه الحركة كغيرها من الحركات الاجتماعية لها افكار عامة عريضة ربما تناقض نفسها بين اليمين واليسار والوسط وغيره ولكن هذه المفاهيم تتفاعل يوميا مع المجتمعات التي تواجهها هذه الحركة . فعندما تكيف الحركة مفاهيمها بالنسبة الى مجتمع اوروبي تتأثر هذه المفاهيم ، وعندما تواجه العربي في فلسطين تتغير هذه المفاهيم وبالتالي ممارسات الحركة الصهيونية. في الواقع اذا افترضنا اصلا ان هذه المفاهيم ثابتة ولا تتغير وان الممارسات الصهيونية تعكس هذه المفاهيم ، يترتب على ذلك نتيجة خطيرة ، وهي نتيجة واقعية بالنسبة الى الحوادث العربية ، تتلخص بأننا نسير وراء هذه الخطوط العريضة دون أن نعي تأثيرنا العملي في هذه المفاهيم وامكانية التأثير عليها وتعديل ممارساتها . يعني لو افترضنا اننا اتبعنا في مواجهتنا للصهيونية سياسة بديلة للسياسة العربية الفلسطينية اثناء فترة الانتداب ، أو سياسة مختلفة عما اتبعته الدول العربية بعد قيام دولة اسرائيل هل كان ممكنا ان نجبر الصهيونية على تعديل ممارستها ؟ باخذنا موضوعات محددة ، هل كان لدينا بدائل معينة كان بامكاننا اتباعها لاحباط الصهيونية ؟ ولو اتبعنا بدائل اخرى هل كان ممكنا لنمط الاستيطان ان يكون غير الذي حصل ؟

في تصوري ، النتيجة العملية ، او النتائج العملية والانجازات الحقيقية للحركة الصهيونية في المجتمع الفلسطيني وفي مواجهة المجتمع العربي كانت نتيجة للمفاهيم الصهيونية نفسها وللتغيرات التي حدثت في المجتمع الاوروبي ، وللتغيرات التي رافقت الحركات الصهيونية المختلفة بالاضافة الى مواجهتها مع الواقع العربي في فلسطين . ومن الخطأ بالنسبة لنا ان نهمل اهمية التفاعل بين الحركة الصهيونية مع المجتمع الفلسطيني والمجتمع العربي ، وبين التفاعل الذي يجري حاليا بين اسرائيل والدول العربية وذاك الذي اشار اليه الدكتور خدوري ، بين الحركة الصهيونية وبين اسرائيل وبين الحركة الصهيونية واسرائيل من جهة والمجتمعات الاوروبية من جهة اخرى .

العظم : أعتقد اولا انه لا خلاف مع د. ابو لغد بأن هدف فهمنا للحركة الصهيونية ليس مجرد العلم بالمعنى التجريدي بل الارتباط بالنضال العملي . ثانيا عندما نتكلم عن المسألة اليهودية يبدو لي انه مفهوم ضمنا ان هذا الكلام يتناول مسألة في مكان معين وفي زمان معين وفي حقبة تاريخية معينة وليس المعنى هو المسألة اليهودية في افريقيا او الهند . اعتقد ان هذا الشيء متفق عليه من قبل الجميع .

فؤاد قازان : ليس من شك في ان هذه الندوة مفيدة جدا في حاضرها وفي مستقبلها لجموع الحركة التحررية العربية وبصورة خاصة للحركة الثورية الفلسطينية كجزء هام من الحركة العربية العامة . ويود المرء لو ان الدكاترة المحترمين تكلموا عن دور ظاهرة اجتماعية اثرت الى حد كبير في ايجاد المسألة التي سميت في اوروبة بالمسألة اليهودية وتأثيرها في القرون الوسطى على اليهود ، وهي الصراع ما بين اليهودية وبين المسيحية وتزعم المسيحية المتمثلة انذاك بالبابوية ، تزعمها الصراع المعادي لليهود ومنعهم من أن يتملكوا الارض والسماح لهم بأن يتاجروا بالمال . ولهذا السبب لم تخلق جذور قوية في اوروبة لعملية دمج اليهود تاريخيا بالجماهير غير اليهودية الاوروبية الاصل . لقد أخذوا اتجاه الاتجار بالمال ولهذا السبب تطورت الرأسمالية اليهودية لدرجة اصبحت جزءا لا يتجزأ من مجموع حركة الرأسمال . اما بالنسبة لمسألة الاستيطان التي أثارها الدكتور صايغ ، وهي قضية هامة ، فأعتقد ان الصهيونية لم تكن تقصد عن طريق الاستعمار الاستيطاني حلا للقضية اليهودية على الاطلاق ، هذا في رأيي . ولم تقصد الامبريالية التي ساعدت الصهيونية والتي هي كانت تدربها ، لم تقصد ايجاد حل للقضية اليهودية وذلك لسبب بسيط هو انه لا يمكن في اي وجه من الوجوه ان تستوعب فلسطين بحدودها التي نعرفها جماهير اليهود في العالم البالغ عددهم ١٤ او ١٣ مليونا .

الامر المهم كان خلق ركيزة ، ولا سيما بعد اكتشاف البترول وبعد ان صرح بلفور بوعده المشؤوم ، خلق ركيزة في المنطقة لانه كان معروفا عند

الامبريالية في أوائل القرن العشرين ان العرب سيتحركون ، ومنذ ذلك الحين كان الامبرياليون يعملون بكل جهدهم لايجاد نقطة ارتكاز او رقبة جسر هنا . ولهذا السبب أفلا يمكن القول ان الصهيونية ، بعد ان اقامت دولتها بفضل الامبريالية ، هي امتداد للامبريالية الغربية ولا يمكن لاسرائيل ان تكون مستقلة طالما ان النظام فيها هو نظام طبقي . عندما يلغى النظام الطبقي في اسرائيل تبطل اسرائيل من ان تكون اسرائيل . اما بالنسبة لمسألة المفاهيم التي تتغير ، مفاهيم الصهيونية بالنسبة الى البلاد العربية واوروبة والهند ، فاعتقد ان الشكل يتغير اما الجوهر فلا.

الير فرحات : اود ان ادلي ببعض الملاحظات على المداخلة القيمة التي تقدم بها الدكتور فايز الصايغ عن اوجه الصلة والشبه ومواطن الاختلاف بين الحركة الصهيونية وبين جميع الحركات القومية والاستعمار الاستيطاني والامبريالي . قال الدكتور صايغ ان الصهيونية استفادت من هذه الظواهر الثلاث ، وفيما يتعلق بالظاهرة الاخيرة اي الامبريالية أكد انالصهيونية استفادت منها وأفادت. وبودي التأكيد على أمرين : اولا التمييز بين هذه المصادر الثلاثة التي استفادت منها الصهيونية كي تقيم كيانها على ارض فلسطين ، اي ان المسألة التي اطرحها هي اي من هذه العناصر الثلاثة كان العنصر الحاسم ؟ ثانيا قضية العلاقة بين اسرائيل والامبريالية ومدى تبعية اسرائيل للامبريالية . أرى انه من الضروري الجواب على المسألة الاولى اي مسألة معرفة المصدر الاساسي والحاسم الذي استفادت منه الصهيونية ، وكان في أساس قيام الاقتصاد الصهيوني في فلسطين وذلك كي لا نكتفي بدراسة مورفولوجية ، بوضع ظاهرات الى جانب بعضها دون التأكيد على الاهم بينها . ان موقفي هذا ينطلق من هاجس عملي هو ضرورة الامساك بالحلقة الرئيسية وتوجيه النضال بصورة رئيسية ايضا نحو هذه الحلقة ، وبالتالي اني اجيب على السؤال واقول ان العنصر الحاسم في قيام الكيان الصهيوني كان الامبريالية . طبعا قال الدكتور فايز صايغ بان الصهيونية مستعدة لان تغير سيدا بسيد وان ثمة مرشحين امبرياليين اخرين يمكن ان تلجأ اليهم ، ولكن ارى انه يجب عدم الاكتفاء بهذا التحليل . يجب ان نربط هذا التحليل بالواقع كما في تغيره . واذا قمنا بهذا فلا بد لنا من القول بأن طاقة اسرائيل على التكيف محدودة ، محدودة لاسباب اذ ان اسرائيل غير مستعدة لخدمة اية امبريالية كانت بصورة عامة . انها مستعدة لان تربط مصيرها بالامبريالية الاقوى اي بالامبريالية التي لها مصالح قوية بالوطن العربي وفي الشرق الاوسط . وارى ايضا ان التذكير بهذه الناحية ضروري لان هناك كثيرين في العالم الخارجي ما زالوا يعتقدون بان قادة اسرائيل يستندون اليوم الى الامبريالية الامركية لانهم لا يستطيعوا ان يسلكوا سلوكا اخر ، في حين ان الحقيقة هي العكس تماما ، أي ان الحركة الصهيونية ربطت مصيرها بالامبريالية منذ نشأتها في عهد الاستعمار وتقسيم العالم بين الامبراطوريات الاستعمارية ، ثم ربطت مصيرها بالامبريالية الامركية على وجه التحديد لانها اقوى الامبرياليات الموجودة ولانها اكثر الامبرياليات رسوخا من حيث مصالحها الاقتصادية في هذه المنطقة . طبعا توجد المسألة الاخرى وهي تحديد طبيعة العلاقة ومدى التبعية والاستقلال بين اسرائيل والامبريالية . انا موافق تماما على قول الدكتور صايغ بأنه لا يجب النظر الى الصهيونية بوصفها مجرد ظل أو امتداد للامبريالية ، اذ يوجد استقلال نسبي في علاقتهما . ولكنني اقول انه من الضروري ان لا نكتفي بالنظر الى هذه الظاهرة المتنافية اي ظاهرة التبعية والاستقلال النسبي في آن واحد ، بدون ان نحدد ضمن هذا التناقض ايضا العامل الرئيسي والحاسم وهو ، على ما اعتقد ، عامل التبعية . من الضروري التأكيد على ذلك بسبب هواجس عملية وهواجس مستقبلية لانه اذا عرفنا انه الى جانب الاستقلال النسبي توجد التبعية للامبريالية وان التبعية هي العامل الحاسم فأنه بامكاننا تركيز نضالنا ونشاطنا ضمن مفهوم واقعي وصحيح . طبعا اني لا اقصد بذلك القول أن ازالة الكيان الصهيوني يعني انطفاء اخر شعلة من شعل الامبريالية من على وجه البسيطة ، ولكن اقول وأؤكد على الصلة الوثيقة بين القضاء على الكيان الصهيوني والقضاء على الامبريالية ولا سيما القضاء على النفوذ الامبريالي في المنطقة. ما شئت ان اوكد عليه هو ضرورة التشديد على العناصر الحاسمة في اي قضية معقدة وعدم الاكتفاء بتحليل الظواهر ، مهما كان التحليل صحيحا وواقعيا ، بدون ان نعطي في نتائج هذا التحليل الاهمية للعناصر الاهم .

صايغ : حتى الان جرت ثلاث مداخلات تخللت كلا منها بعض التعليقات على شيء مما ورد في

كلمتي الاولى . ولا بد لي من الاختصار كثيرا كي استطيع ان اعلق على التعليقات الثلاثة في مدة عشر دقائق . ابدأ بكلمة الدكتور ابو لغد بانكاره ان تكون الصهيونية كلها تتكلم بلسان واحد او أنها كانت دائما واضحة فيما تريده . تعليقا على هذا أقول انه بالنسبة الى القضية التي تهمنا مباشرة اكثر من اية قضية سواها (اي الصلة بين المستوطن الصهيوني والشعب الفلسطيني) ، اعتقد ان الصهيونية كانت بالفعل تتكلم منذ نشأتها بلسان واحد وكانت دائما واضحة فيما تريده . وبفضل مرونتها وبفضل نهجها الذي يكيف الاهداف المرحلية وفق الاوضاع القائمة دون التنازل عن الغرض النهائي الذي يظل ثابتا طول الوقت ، استطاعت الصهيونية ان تكيف تصرفاتها للوصول الى الغرض الاساسي الذي كان وظل واحدا . كان لدى القيادة الصهيونية منذ قيامها قرار واضح وأكيد بأنه **لا مكان في فلسطين للمستوطن اليهودي الصهيوني وللفلسطيني في آن واحد** . بكلمة اخرى: امام نمطين من الاستعمار الاستيطاني ، النمط الكلاسيكي الذي كان المستوطن الاوروبي يزيح فيه من الطريق بشكل او باخر القاطن الاصلي ، من جهة ، ونمط اواخر القرن التاسع عشر وهو نمط الاستيطان المختلط الذي يقيم فيه الابيض الى جانب الساكن الاصلي ويستثمره ويستخدمه ويسيطر عليه مع بقائه في الاقلية ، من جهة ثانية، بين هذين النهجين اختارت الصهيونية منذ البدء الاستعمار الخاص ، اي الاستغناء عن القاطنين الاصليين في الوطن المرغوب الاستيطان فيه وطردهم منه . فمنذ ان بدأ هرتزل يفكر باقامة دولة اليهود كتب في مذكراته (وذلك في ١٢ حزيران عام ١٨٩٥، في المجلد الاول من الطبعة الانكليزية لمذكرات هرتزل ، الصفحة ٨٨) ثم كرر ذلك عدة مرات : « اننا عندما نستولي على البلد سوف نزيح سكانه عبر الحدود » . منذ ان كان هرتزل ينادي بذلك ، ومنذ ان كان وايزمان يقول : « نريد ان نجعل من فلسطين بلدا يهوديا بمقدار ما انكلترا انكليزية واميركة اميركية وفرنسة فرنسية ، منذ ذلك الحين، والغرض الاساسي هو عدم الاختلاط مع السكان الاصليين القاطنين ، وانما اقصاؤهم والاستغناء عنهم . وقد اثر هذا في اسلوب التعامل مع العرب . والفت نظر الجميع الى مذكرات بن غوريون حول ما قام به عام ١٩٠٧ عندما جاء الى الشجرة ، ونجد ذلك في كتابه ***Rebirth and Destiny of Israel*** حيث يقول في الفصل الثاني انه وجد المهاجرين اليهود القدامى ، أي مهاجري الفوج الاول منذ عام ١٨٨٢ يتعايشون مع العرب ويستخدمون العرب عمالا ومزارعين وحراسا لمستعمراتهم ، فكان لا بد له من ان يحرض على طرد العمال العرب وطرد الحراس العرب وطرد المزارعين العرب كي تكون كل مستعمرة يهودية مهما كان عددها ضئيلا معتمدة على كل فرد من افرادها في عمليات الحراسة والزراعة ، اي كي تكون كل مستعمرة مجتمعا يهوديا مستقلا قائما بذاته . نأتي أيضا الى ذكر روبين الذي كان رئيس دائرة الاستعمار في الوكالة اليهودية . عندما قدم الى المؤتمر الصهيوني الثالث عشر ، بعد فترة اشرافه على تطبيق الخطة الاستعمارية قال ان استراتجيتنا كانت نابعة من غرضنا الاساسي وهو خلق مجتمع لليهود لا يعتمد على مواطنين اخرين . هذا المجتمع لم نستطع خلقه دفعة واحدة . لذلك كان علينا ان نبدأ بكل مستعمرة على حدة وان نجعلها يهودية خالصة كي تكون قادرين على الاستقلال الذاتي حتى لا نكون تحت رحمة العامل العربي او المزارع العربي الخ في كل ازمة . لهذا نجد حتى في صفوف الحركات العمالية اليهودية مفارقة بين المبادىء من جهة وبين عقيدتهاالصهيونية التي كانت تخلق الحزازات بين العامل العربي والعامل اليهودي ، اذ انها بدلا من ان تقدمعقيدتها العمالية كانت تقدم قوميتها الصهيونية . ولا انسى ما قاله بن غوريون عندما عاد من اول زيارة قام بها الى افريقيا الجنوبية عام ١٩٦٦ ، ونجد ذلك في تصريح ادلى به الى «جيروزاليم بوست» في حزيران عام ١٩٦٩ حيث ذكر في تلك المقابلة انه قال لرئيس وزراء افريقيا الجنوبية ان مشاكلكم مع الملونين والسود والاسيويين هي من صنعكم ، فلو فعلتم في البدء بالسكان الاصليين ما فعلناه نحن منذ البدء بالعرب لما كانت الاقلية بيضاء والاكثرية ملونة وسوداء اليوم . ليس لدي شك على الاطلاق من مطالعاتي للادبيات الصهيونية انه منذ البدء كان الخيار المطروح هو بين الاستيطان الخالص وبين الاستيطان المختلط وان الصهيونية اختارت النموذج الاول ، اي الاستيطان الخالص ، منذ البدء . اي انها رفضت فكرة التعايش بين اليهودي الصهيوني وبين الفلسطيني العربي ، لان ذلك يتناقض مع قيام دولة لليهود في فلسطين .

هذا بالنسبة لتعليقي على كلمة الدكتور ابو لغد .

اما بالنسبة لقول الاستاذ تازان انه لم تكن الصهيونية تقصد ولا الامبريالية قد تصدت يوما من الايام حل المسألة اليهودية عن طريق الاستيطان في فلسطين : قد يكون هذا القول صحيحا بالنسبة للامبريالية التي تعاونت مع الصهيونية ولكنه ليس صحيحا بالنسبة الى الصهيونية نفسها . هناك تحالفات على مدى تاريخ الصهيونية بين الفريق الصهيوني من جهة وهذه الامبريالية او تلك من جهة اخرى . وفي كل تحالف ، لكل فريق هدفه ومصالحه واسباب دخوله في هذا التحالف . ولم يخطر ببالي يوما من الايام ان الامبراطورية البريطانية سنة ١٩١٧ قدمت وعد بلفور لتحل المسألة اليهودية ، وانما هي قدمت وعد بلفور لتخدم المصالح الامبريالية البريطانية . واميركة اليوم تقدم العون الى اسرائيل كي تستفيد المصالح الامبريالية الاميركية . اما الصهيونية فمنذ البدء كان غرضها الاساسي حل ما اعتقدت هي انه مسألة يهودية حلا نهائيا عن طريق خلق دولة اليهود . اما قول السيد تازان بان فلسطين لا تكفي لاستيطان جميع اليهود فمردود لان عبارة فلسطين منذ الاساس كانت عبارة مطاطة في المفهوم الصهيوني وخاضعة للتوسيع . قال هرتزل لوزير خارجية المانيا ذات يوم : « فلسطيننا تقع ضمن تلك الحدود التي يقتضيها عدد المستوطنين في فلسطين . فكلما ازداد عدد المستوطنين اتسعت تلك الحدود » . اما القول بانه ليس للصهيونية كيان ذاتي خاص وعندما يتغير التركيب الطبقي في اسرائيل تنتهي الصهيونية ، فهو قول يتغاضى عن المشكلة الفلسطينية تغاضيا كاملا ، فهب ان اسرائيل اصبحت دولة اشتراكية بكل معنى الكلمة غدا ، وهب انه ازيلت منها الطبقات والنزاعات الطبقية ، وهب انها جارت في سياستها الخارجية سياسة الاتحاد السوفياتي والكتلة الاشتراكية . فهل كل هذا يحل بالنسبة للفلسطيني المشرد مشكلة تشريده ، او هل هذا يجعل المجتمع الاسرائيلي اليهودي مجتمعا اقل غرابة عن المجتمع العربي الذي زرع نفسه في وسطه مما هو الآن ؟ انا اعتقد ان هذا القول يتناسى الطبيعة الاستعمارية الاستيطانية الاجلائية للحركة الصهيونية تناسيا تاما ، ويتناسى مصير الشعب الفلسطيني وحقوقه الانسانية والقومية في وطنه .

والآن آتي الى كلمة الاستاذ فرحات ، وارد على سؤاليه الاساسيين ، أي من هذه العناصر الثلاثة، القومية والاستعمار الاستيطاني والامبريالي ، كان هو الحاسم ؟ أقول ان **القومية** كانت هي العنصر الحاسم من حيث انها لعبت دور الحافز لليهود ليشتركوا بالحركة الصهيونية وكذلك دور المبرر لحمل الشعوب الاخرى على تأييد اقامة دولة صهيونية لليهود . وكان **الاستعمار الاستيطاني** العنصر الحاسم من حيث كان هو النهج الذي انتهجته الحركة الصهيونية في تحقيق ذاتها . **والامبريالية** كانت هي العنصر الحاسم من حيث انها مكنت الصهيونية من ارساء قواعدها في فلسطين . فأي هو العنصر الحاسم يتوقف على السؤال : من اي زاوية تنظر الى الحسم ؟ من الزاوية العملية لا ريب ان الامبريالية كانت هي العنصر الحاسم ، ولكن من ناحية حمل اليهود على الالتفاف حول الحركة الصهيونية اعتقد ان القومية كانت ذلك ، اي أن النموذج القومي كان هو العنصر الحاسم بهذا المعنى . اما من حيث نهج الاستيطان الصهيوني وطريقته فقد كان الاستعمار الاستيطاني هو العنصر الحاسم . اما على الصعيد العملي فلا ريب في أن الامبريالية كانت هي العنصر الحاسم .

لذلك فاذا عدنا الى تمييز الدكتور ابو لغد ، وبحثنا فقط من ناحية اكاديمية ، استطعنا ان نضع هذه العناصر الثلاثة على مستوى واحد ونقول من هذه الزاوية كان هذا العنصر هو الحاسم ومن تلك الزاوية كان ذلك العنصر . اما اذا نظرنا الى الموضوع كملتزمين بتحرير فلسطين فلا ريب بأنه يجب ان نؤكد بأن الامبريالية كانت هي العنصر الحاسم الذي مكن الصهيونية من ارساء قواعدها في فلسطين . اما بالنسبة الى السؤال الثاني من سؤالي السيد فرحات ، حول العلاقة وصيغتها بين الصهيونية في فلسطين وبين الامبريالية ، وحول مدى تبعية اسرائيل للامبريالية من جهة ومدى استخدامها للامبريالية من جهة اخرى ، فقد اكد الاستاذ فرحات ، واجاريه في ذلك ، ان وجود استقلال نسبي يجب ان لا يعمينا عن التبعية ، وهذا كان متضمنا فيما قلته . ولكني اريد ان أؤكد نقطتين : **اولا : كلما نمت القوة الذاتية للاستيطان الصهيوني كلما خفت حدة او درجة اعتمادها على تبعية اجنبية . ان الصهيونية ستظل تعتمد على التبعية الاجنبية ، ولكن اعتمادها اليوم سنة ١٩٧٢ هو غير اعتمادها سنة ١٩١٧ . ان بريطانيا قالت لا في ١٩١٧ لما جاء مهاجرون يهود الى**

فلسطين . أما اليوم ، فتستطيع بريطانيه وفرنسه واميركة وروسيا والصين ان تقول جميعها معـا لاسرائيل لا ، واذا كان الموضوع الذي يدور عليه رفض هذه الدول حيويا بالنسبة لاسرائيـل فانها ستقاوم بقوتها الذاتية وستعارض وستستعمـل كل اساليب ضغطها كي لا تصبح هذه المسألة خلافا دائما بينها وبين مصادر عونها ومصادر استفادتها.

ثانيا : هناك المرونة الاسرائيلية . يجب الا ننسى انها تدرك الاختلاف النسبي او الجانبي في المصالح بينها وبين الامبريالية التي تتعاون معها ، ولكنها عندما تقضي المصلحة ان تتغاضى عن هذا الاختلاف في سبيل مصلحة اعلى ، هـي استمرار العون الامبريالي ، فانها تتغاضى عن الاختلاف — وهي قادرة على ذلك . ولكن عندما يكون هناك أمر حساس وحيوي لا تستطيع ان تتغاضى عنـه فانها تغامر بعدائها للامبريالية هذه بينما تفتش عن امبريالية اخرى تحل محلها . واورد مثلا علـى ذلك اعتماد الصهيونية على بريطانيا طوال عهـد الانتداب ولكن لما جاء الكتاب الابيض سنة ١٩٣٩ ووجدت أن قبولها بالكتاب الابيض سينهي العملية الصهيونية انهاء كاملا لم تجد مفرا من محاربـة بريطانيا بعد أن بدأت تفتش في اميركه عن بديل أقوى من بريطانيا وبديل يمكن ان يكون اكثر تجانسا مع اغراضها مما وصلت اليه بريطانيا .

الياس مرقص : نفسيا ، اعتقد ان الكلمـات والتعليقات الممتازة التي جاءت من قبـل الاساتذة فايز صايغ وابراهيم ابو لغد والبير فرحات هي كلمات تغنيني عن الكلام . ولكن اريد ان اؤكد اولا انني اعتقد بوجود جوهر مشترك بينهـا وان الخلافات الممكنة في هذا المجال هي خلافات صغيرة ومحدودة . واريد ان اضيف اولا انه بالنسبـة الى تأكيد اولية الامبريالية هذا أمر لا شك فيه ولكن يجب ان نفهم مفهوم الامبريالية ليس فقـط على اساس تصور للجوهر او للهيكل الاقتصادي الامبريالي ولمرحلة الرأسمالية الاحتكارية بل يجب ان تطرح بشكل رئيسي في صيغة اوسع وعلى أسـاس مفهوم العـالم الامبريالي الواقـع ، العالم الامبريالي الذي لا يماثل كل التماثل مـع نهوض الاسلوب الأمبريالي او الاسلوب الراسمالي، وبهذا المعنى فان العالم الامبريالي قائم اساسا وجوهريا ليس فقط على سيطرة طبقة على طبقـة داخل بلد واحد او قطر واحد او امة واحدة وانما هو قائم ايضا وبشكل شديد على اساس سيطرة قطر وهيمنته على قطر وأمة على أمة وشعب على شعب ، وأضيف ، وعرق على عرق وجهة جغرافية على جهة جغرافية في الكرة الارضية وطائفة على طائفة وهكذا دواليك الى ما لا نهاية في العالم وفي الواقع — في عالم الواقع الجغرافي غير المحدود .

واحب ان الفت النظر الى قصة اوري افنيري ومشروع الاستيطان الصهيوني في فلسطين في حوالي سنة ١٨٤٠ وهي القصة الواضحة في كتابه وخصوصا في كتاب الاب حجار الاخير « اوروبا ومصائر الشرق الادنى » حيث كتب بالمرستون الى سفيره في الاستانة بأن عليه تشـجيع مشـروع الاستيطان اليهودي في فلسطين كي يكون ذلك هو الحائل والضمانة ضد عودة محمد علي باشا الى سورية او عودة احد خلفائه الى سورية . اي اريد ان اقول ان المسألة اليهودية والمسألـة الصهيونية وقبل تأسيس الحركة الصهيونية رسميا بما يزيد عن خمسين سنة ، ارتبطتا ليس فقـط بالاستعمـار والصـهيونية وانمـا ارتبطتا بالموقف الاستعماري من الوطن العربي ومن القضية العربية في اطار وقضية الوحدة العربية في اطار العالـم الواقعي لذلك الزمان ولعصرنا ايضا .

تعليقا على النقاش الذي دار بين الدكتور ابو لغد والدكتور فايز صايغ يبدو لي شخصيا ، رغـم انهما اكثر اطلاعا مني بكثير على المذكرات والوثائق، ان هناك فترة في تاريخ الصهيونية الاول ، فـي تاريخها الرسمي ، كـان لهـا بعض الحسم في الامر وهي الفترة الممتدة بين سنة ١٩٠٠ وسـنة ١٩١٠ حيث انتصر شعار العمل اليهودي الذي عنى أن الصهيونية العمالية انتصرت على بقايـا تصورات انصار روتشايلد . وكانت المشكلة موضع الاهتمام هي الاستعمار الاستيطاني من نوع الجزائر او أشد ، من نوع افريقيا الجنوبية او اقـامة امة يهودية كاملة في فلسطين . واحب أن اقول ماذا اقصد بأمة يهودية كاملـة في فلسطـين . أمة يهودية في فلسطين بالمعنى الاقتصادي ، أي امة يهودية تجمع كل الطبقات . يكون هناك عـمال بورجوازية يهودية طبقات وسطى يهودية وطبقـة عمال يهود .

وانتصر هذا الموقف العملي والنظري انتصـارا كاملا ونهائيا انذاك والنتيجة هي اننا نجد اليوم ان عدد العمال العرب في اطار اسلوب الانتاج الاسرائيلي او الاقتصاد الاسرائيلي اقل من عدد

العمال الاجانب في الاقتصاد الفرنسي) اقل من نسبة العمال الاجانب في الاقتصاد في فرنسا او اقل من نسبة العمال الاجانب في الاقتصاد الالماني . نحن العرب درجنا على أن تتجنب مصطلح الامة اليهودية . وكرهنا لهذا المصطلح او لهذا المفهوم نبع من عدة اعتبارات ، الاعتبار الاول اننا نعلم انه عندما قامت الحركة الصهيونية كان اليهود ربما لا يتمتعون بخمسة بالمائة او بعشرة بالمائة من الخصائص الكاملة التي تؤلف أمة .

ثانيا : نحن العرب واقعون في مشكلة قومية ونضال قومي ضد الاستعمار ومن أجل الوحدة العربية وضد هؤلاء الصهيونيين الذين يحاربوننا . ولكن في رأيي ان كرهنا لمصطلح الامة اليهودية يتضمن وجها سلبيا آخر اذ أننا من جهة نكاد نعطي صفة الامة صفة الاطلاق ، وثانيا نقوم بعملية تقديس دينية ميتافيزية لكلمة امة . هذا الامر في مفهومي الشخصي لم يرد في جوهر الماركسية او عند لينين او عند انجلس . اننا نذكر ان انجلس وماركس ولينين قد شجبوا وميزوا بين شعوب رجعية وهي بعض شعوب يوغوسلافية التي كانت في سنة ١٨٤٨ مخافر امامية للقيصرية الروسية ضد الديمقراطية الاوروبية ، وبين الشعوب الثورية او الشعوب التقدمية . وهذا أمر أثار نقاشا طويلا في الحركة الماركسية آنذاك وفي زمن لينين. وأنا شخصيا أفهمه بالمعنى التالي : لا يمكن لنا او لاي مفهوم علمي ان يقيم علاقة مساواة بين الامم لان علاقات المساواة بين الامم هي نوع آخر من العدمية القومية. وهي مفهوم برودوني ، مفهوم فوضوي باكونيني ، ولكنه ليس بمفهوم ماركسي . في كل مرحلة تاريخية يمكن ان يكون هناك أمم تقدمية وأمم رجعية ويمكن ان تنشب حروب ، حروب تتضمن ابادات كثيرة بين هذين النوعين من الامم . لذلك أريد ان اقول اخيرا انه يجب ان نستخدم مصطلح الامة اليهودية في ضوء الواقع الراهن وثانيا يجب ان نفهم الوضع الامبريالي العالمي والانقسام الى أمم .

الياس شوفاني : عندي بعض الملاحظات القصيرة حول نهج التحليل بالنسبة الى معرفة اصول الصهيونية ومن ثم تطورها الى قيام دولة اسرائيل والوضع الحالي فيها مما يساعد في وضع استراتيجية او وضع خط معين لمقاومة هذه الدولة الموجودة في داخل وطننا . لا بد ان يكون خط التحليل شموليا ، اعني بالشمولي انه يجب ان يأخذ بعين الاعتبار جميع الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الموجودة في حركة معينة. اقصد بهذا ما قدمه الاستاذ صادق العظم عن رواية شكسبير ، بالنسبة للمرابي اليهودي والتاجر البندقي . اذا نحن اخذنا قسما صغيرا من المجتمع اليهودي وكانت الصهيونية مثل اليهودية بالنسبة لكثرة المرابين ، واعتمدنا هذا كمنطلق لتحليلنا للصهيونية نكون اعتبرنا كل اليهود كما لو كانوا مرابين ، وهذا كلام صحيح جزئيا اذ كان قسم منهم من المرابين وكان قسم اخر من أصحاب الصناعات الصغيرة ، تجارا صغارا ، نجارين ، حدادين وما الى ذلك . بالاضافة الى هذا في هذه الفترة التي نتكلم عنها ، القرنين السابع عشر والثامن عشر ، كان للتجار اليهود دور كبير في التجارة بين المدن الايطالية وبين الشرق الاوسط ، في زمن ظاهر العمر وفي زمن الجزار باشا . اذا قلنا ان كل اليهود مرابون وليس لهم ضلع في التجارة العالمية فهذا كلام يحتاج الى بعض الدراسات حتى نستطيع ان نخرج منها بنتيجة . النقطة الثانية التي تكلم عنها الاستاذ الياس سعد حول وجود البروليتارية اليهودية ، فاذا كان هذا ما حدث عند القيادة الصهيونية فكيف نستطيع ان نفسر هجرة هذه القيادة نفسها مع البروليتارية ، يعني القيادات الصهيونية قبل وايزمان وبن غوريون التي تطوعت وهاجرت بنفسها ؟ اذا كان الهدف هو تهجير البروليتارية وبقاء القيادة مع الرأسمالية الاوروبية فكيف نعلل انهم هم انفسهم هاجروا ؟ اقول ان التحليل يجب ان يكون شموليا وان نأخذ بعين الاعتبار اكثر من منطلق واكثر من زاوية. كما يجب ان يكون التحليل مرتبطا ببرنامج تحليلي معين اما من منطلق رأسمالي غربي تفصيلي او منطلق ماركسي طبقي مرتبط بمكان وزمان وظروف معينة. وارى أن هذه النقطة مرتبطة بما أثاره الاستاذ صايغ بالنسبة الى التفريق بين الاستعمار الكلاسيكي والاستعمار الحديث وهو بالفعل تفريق نظري اكثر مما هو حقيقي واقعي. يعني حسب رأيي لا ارى الفرق بين أن يعزل اليهود قسما بسيطا من المنطقة العربية يستوطنونه كاملا بينما يمارسون استغلالا اقتصاديا لكل المنطقة الباقية ، والشيء الواضح هو ان اسرائيل لا يمكن ان تضمن بقاءها كما يتوجب هدفها الحقيقي ، الا اذا استغلت اقتصاديا وسياسيا وتسلطت عسكريا على المنطقة

كاملة فالتمييز الذي قدمه الدكتور صايغ ليس الا تمييزا صغيرا ولا يؤدي بنا الى حل المشكلة بصورة جذرية . الملاحظة الاخرى عن كلمة الاستاذ صايغ حول مسألة الفارق الذي يمكن ان يأتي به قيام الاشتراكية في اسرائيل هي ان هذا الكلام سليم في الوقت الحاضر . مثلا احد الاشتراكيين الاسرائيليين يتكلم عن انعدام امكانية عيش العرب واليهود في فلسطين وعن انه لا بد من الابقاء على الدولة اليهودية كما هي وانه لا توجد اية امكانية لاعادة العرب في الوقت الحاضر الى اسرائيل . الذي اراه هو ان مسار الحركة الصهيونية والسياسة الاسرائيلية كان لا بد من اتباعه ما دامت اسرائيل تسير وراء الهدف الاساسي التي وضعته لنفسها ، يعني ما دامت تريد دولة يهودية صرفة في فلسطين كان لا بد من انتهاج السياسة التي انتهجتها الصهيونية في العلاقات مع الامبريالية، وفي العلاقات الطبقية الموجودة بينهم . اذن ان مشكلة النظر الى سياسة اسرائيل من خلال دراسة ما كتب قبل قرن لا تؤدي بنا الى أية نتيجة . لا بد من ان ندرس الاوضاع الموجودة فيها حاليا . وهنا اريد أن استعرض ما قاله الاستاذ صادق العظم عن تطور القومية الاسرائيلية المحلية التي لها مصالح مختلفة عن مصالح اليهود في اميركة ومصالح اليهود في بريطانيا وعن مصالح اليهود في روسية اي أصبح لاسرائيل مصالح تؤدي بها الى سياسات معينة تجاه الوضع الموضوعي الذي يحيط بها في العالم الغربي . انا لا استبعد ما قاله العظم في مجلة « شؤون فلسطينية »* حول قيام استعمار اسرائيلي لمصلحة اسرائيل ذاتيا خاصة اذا كان الوضع ... في اميركه قد تغير نتيجة لظروف محلية . وعلى كل فهناك ظاهرة بروز قومية اسرائيلية مختلفة عن الصهيونية . هنا انتقل الى كلمة الاستاذ وليد خدوري التي اظهرت ان علاقة اسرائيل بعد عام ١٩٦٧ باميركا تعزز ما ذكر عن تطور القومية الاسرائيلية واستقلال اسرائيل عن الحركة الصهيونية ومحاولتها التخلص من الوسيط الصهيوني الذي يحاول في اميركا ان يخدم مصالحه عن طريق تقديم خدمات اسرائيلية للامبريالية . اي تحاول اسرائيل ان تتخلص من هذا الوضع . في كلمة صريحة قالها رابين قبل اسبوعين سببت ضجة كبيرة ضده في واشنطن ذكر ان هناك حكومة اسرائيل من جهة وحكومة امريكا من جهة اخرى ولا يوجد اي مكان لليهود في الوسط ، واستمر في قوله بأنه في السابق كانت السفارة الاسرائيلية لا تشكل الا فرعا من الوكالة اليهودية في واشنطن اما الان فالوكالة اليهودية هي فرع من السفارة . هناك ايضا التدخل الاسرائيلي الذي لا يراعي الاعراف الدبلوماسية المتبعة اي القفز فوق الاعتبارات الدبلوماسية بين الدول المختلفة واتصال الحكومة الاسرائيلية رأسا ومباشرة بالمواطنين الاميركيين بدون اتباع الطرق التي تفرضها الاعراف الدبلوماسية للاتصال بهذه الجماهير ، اي عن طريق حكوماتها . كل هذا يعطينا رؤية واضحة ، في نظري ، بأن اسرائيل صارت تتجه في الخط الذي وضعه بن غوريون قبل عدد من السنين وهو التخلص من المنظمة الصهيونية وتسلم كافة الامور التي كانت تقوم بها الصهيونية سابقا مع ابقاء الصهيونيين كتنظيمات محلية يمكن الاستفادة منها تنظيميا للوصول الى الاهداف . ولكن على اساس الا تكون المنظمة الصهيونية هي الوسيط . لذلك اعتقد ان وجود اسرائيل كركيزة وامتداد للامبريالية العالمية هو شيء ظاهري ومؤقت فاذا عاشت اسرائيل الى الان على هذا النحو فهذا لا يعني ان الامور لن تتغير . اذ لا بد من اخذ الامور في موقع وفي زمان معينين مهما كان الموجود قبل خمسين سنة مثلا . اذا كنا نريد الكلام عن الاستعمار وعن حماية قناة السويس ليس من الضروري استعمال اسرائيل لهذا الغرض بعد مئة سنة وكونها في الوقت الحاضر ركيزة من هذا النوع لا يعني انها ستكون ذلك الى الابد .

من ناحية ثانية اذا كان هذا النهج التحليلي يوصلنا الى تحليل المجتمع الاسرائيلي على أساس طبقي ومعرفة الطبقات التي وضعت السياسة الاسرائيلية الحالية فلا يمكننا بأي شكل من الاشكال ان نقول ان جميع اليهود في اسرائيل عملاء استعمار ونقول ان جميعهم عملاء امبرياليين ، لا بد ان هناك طبقة معينة لها مصلحة معاكسة . وهناك طبعا مجموعات كبيرة ، من خلال وعي سياسي معين ، تتبع هذه السياسات للدولة ، وعلينا القيام بتحليل لنعرف من هم أصحاب المصلحة في انتهاج هذه السياسات واقامة هذه الارتباطات ، عندئذ يمكننا شق المجتمع من

* « اسرائيل والتسوية السياسية » عدد ٤ ، أيلول ١٩٧١ .

خلال اتباع استراتيجيات داخلية وخارجية بحيث نصل في يوم من الايام الى حل القضية المسماة بالقضية الفلسطينية .

العظم : لي تعليق صغير على بعض ما قاله الدكتور شوفاني ، واشكره لانه أدخل النقاش في بعض الموضوعات الراهنة . بالنسبة لما ذكرته عن موضوع الصراع بين الرأسمال الربوي والرأسمال التجاري الجديد لم يكن الا محاولة بسيطة ، في حدود الفسحة المتاحة ، للاشارة الى المشكلة بصورة رمزية بغية التمثيل على الطريقة او المنهج الصائب لفهم المسألة اليهودية من خلال اثر ادبي معين . لا خلاف حول ما قاله شوفاني بالنسبة لموضوع التجارة وعمل اليهود بها اذ ان ماركس قال ان الرأسمال التجاري هو الاخ التوأم للرأسمال الربوي وهما الرأسمال الذي لا غيره من رأسمال في مرحلة المجتمع الاقطاعي . وكان اليهود طبعا يقومون بالعمل التجاري كما كانوا يقومون بالعمل التربوي . ومع البروز البطيء للطبقات الوسطى المحلية المسيحية بدأ هذا الصراع الذي اعتقد بالنتيجة انه ادى الى خلق ما يسمى بالمسألة اليهودية . بالنسبة الى ما ذكره الاستاذ الياس مرقص حول تعبير الامة اليهودية ، طبعا المسألة ليست مسألة تخوف من استخدام التعبير او عدم استخدامه ، القضية هي اذا ما كان هناك اسس موضوعية للكلام عن الامة اليهودية ، وحتى الان كان هناك اجماع تقريبا، وخاصة في اوساط الكتاب والمفكرين والمناضلين الماركسيين والبلاشفة ، ضد فكرة وجود الامة اليهودية . ولكن على ضوء طرح ما قاله الدكتور شوفاني حول القومية الاسرائيلية الا ينبغي علينا الان ان نتخلص من الخوف من استخدام تعبير الامة الاسرائيلية ، باعتبار انها ان لم تكن قد تكونت او تطورت بصورة كاملة بعد فهي بالتأكيد وعلى ما يبدو ، في طور التكوين ، واكتسبت الكثير من الملامح التي تشكل هذا النوع من القوميات او الامم . اذا اخذنا هذا الواقع الموضوعي بعين الاعتبار اعتقد بأنه سيفرض علينا استراتيجية من نوع اخر في العمل والنضال ضد المجتمع الاسرائيلي والقومية الاسرائيلية عما ساد حتى الان ، خاصة في صفوف الحركة الوطنية الفلسطينية التي بقيت تنظر الى يهود اسرائيل كجماعة دينية اكثر منهم كجماعة اخذت تكتسب خصائص القومية وخصائص الامة . طبعا حروب اسرائيل عززت هذا الاتجاه وواضح انها حاربت على اساس هذا المنطق القومي ونجحت . واعتقد ان هذه مسألة راهنة مهمة وجديرة بكل انتباه ومناقشة . نقطة اخرى حول ما ذكره الدكتور فايز صايغ . ان ما قاله الدكتور حول كون الاستعمار الصهيوني من النوع الخالص والنقي صحيح ، الا انه امامنا الان مسألة راهنة ومرتبطة بما قلناه عن تشكل ما نسميه بالقومية الاسرائيلية. اعني بذلك ان اسرائيل قد دخلت الان مرحلة الاستعمار الذي سماه الدكتور بالاستعمار المختلط، اي بعد عام ١٩٦٧ بدأت ملامح التنوع الاخر من الاستعمار تظهر في سلوك اسرائيل . الاستعمار على الطريقة الكلاسيكية حيث يوجد شعب واقع تحت الاحتلال وخاضع لكل الاستغلالات والاغراءات التي يوفرها الاستعمار . استغلال مفضوح وخفي للجماهير الواسعة واغراءات للشرائح الاجتماعية العليا .

طبعا في خمس السنوات الاخيرة تطور الاحتلال الاسرائيلي وتعمق ولا يبدو في الافق حتى الان اية دلالة الى ان هذا الاتجاه سيتوقف او ينقطع فجأة. بل بالعكس كل المؤشرات تبين ان هذا الاتجاه سيستمر لفترة ما في المستقبل المنظور . هذا موضوع اخر اعتقد بأنه جدير بالمناقشة لان له طابعا ملحا ويفرض نوعية الاستراتيجية التي على القوى الوطنية العربية والفلسطينية ان تتبعها من أجل مواجهة هذه الوقائع القائمة .

هشام شرابي : اريد أن اذكر ثلاث نقاط ، نقطة منهجية ونقطتين تتناولان شؤونا ايديولوجية . من الناحية المنهجية ان ما ذكره الدكتور ابو لغد بالنسبة الى نتائج التفكير والبحث في موضوع مثل الموضوع المطروح امامنا الان اساسي جدا ، خاصة من الناحية العملية . فاذا كنا نحن نلعب دور المؤرخين والباحثين الكلاسيكيين وبالاسلوب المدرسي التجريدي فهذا يعني شيئا معينا . أما اذا كنا نفكر تاريخيا وبامور تتعلق بمحنتنا القومية ومجابهتنا لاسرائيل فهذا شيء اخر تماما . ان الفرق المنهجي بين الاسلوبين هو أكثر من مجرد الاهتمام بالنتائج العملية او النظرية . ومن حسن الحظ أننا بدأنا نلاحظ في الفترة الاخيرة انتقالا في الحركة التحررية من الفكر الفلسطيني والعربي الملتزم بنظرة قومية حضارية الى نظرة جدلية تاريخية . لم ينضج الانتقال هذا حتى الان ، أي الانتقال من

الموقف المثالي المدرسي التجريدي الذي تثقفنا عليه كلنا والذي يحمله مجتمعنا بثقافته ، الى الفكر النقدي والفكر الجدلي الذي يجابه الواقع بصيغ الواقع ليس لتفهمه فقط بل لتغييره ايضا . ارجو أن تكون هذه النقطة واضحة . ومن المؤلم طبعا ان نكون جالسين هنا نتباحث بتاريخ ونيات عدونا في الوقت الذي يقوم هو بقتل شعبنا في الجنوب في لبنان حيث تم رفع الاعلام البيضاء. هذه هي الناحية الموضوعية ، اما من الناحية الذاتية فلا يوجد مهرب من ضرورة تعميق الفهم وتغيير الوعي بالتثقيف الذاتي الذي نمارسه ونعمل له في هذه الندوة وامثالها . لذلك اعتبر ان هذه الندوة بالرغم من الالم الذاتي الذي ذكرته ، هي خطوة جيدة كثيرا . النقطتان المتعلقتان بالناحية الايديولوجية هما اولا ان الصهيونية كما بدا من الكلام الذي سمعناه الان ومما كان الدكتور العظم قد ذكره في مقالة سابقة له* ترتكز في ايديولوجيتها وواقعيتها وسياساتها وتنظيمها على أساس طبقي . وهذا يعني ان اسرائيل اليوم هيمنت وسيطرت على الواقع بسياسات تمثل مصالح وطبقات معينة وهي بالتالي موضوعيا ضد مصالح وطبقات معينة اخرى. موضوعيا وبالتحليل الاخير ان وجود النظام الصهيوني الحاضر في اسرائيل هو ضد مصلحة العمال والفقراء والمسحوقين بينها . لكننا نرى اليوم ان التناقض الطبقي والعنصري الموجود في المجتمع الاسرائيلي ، ليس تناقضا اساسيا ابدا، بل بالعكس انه يضمحل في مقابل التناقض الذي يخلقه النظام الحاضر ضد حركةالتحرير الفلسطينية والعربية . هذا هو السؤال الاساسي في نظري عند بحث الايديولوجية والصهيونية ضمن هذا الاطار .

ما هي المتطلبات التاريخية الراهنة اليوم التي يمكن لحركة التحرير الفلسطينية والعربية ، في تصورها ، التي يمكن ان تسجلها بواسطة التناقضات الداخلية في اسرائيل ، وبالتالي ان تعمل على انشاء جبهة او تحرك تشترك فيه الفئات المسحوقة في اسرائيل بحيث تشارك في المستقبل في تصفية هذا التركيب الفوقي الذي يستغلها . يعني ان نشترك في زحزحة النظام والحكم والقيادة القائمة في اسرائيل التي هي ضد مصلحتها . أما النقطة الثانية فمرتبطة بالنقطة الاولى : طالما ان الايديولوجية المسيطرة في اسرائيل هي الصهيونية لا يمكن لاي ايديولوجية اخرى ان تأخذ مكانها او أن تهيمن ، بمعنى انه مهما قويت المتسبن ومهما قوي اليسار طالما بقي التركيب الصهيوني قائما ومتمثلا بتجسيدات من المؤسسات والتركيبات والسياسات والقيادات القائمة لا يمكن اطلاقا قيام ايديولوجية البروليتاريا مثلا . اي الايديولوجية التي يمكن لحركة التحرير العربي الفلسطيني ان تتفاهم معها . اما العامل الموضوعي الواقعي فهو العامل الاساسي في استمرار الهيمنة الصهيونية وايديولوجيتها وليس العامل الذاتي . وذلك بمعنى ان السيطرة الصهيونية مصدرها شيئان : نجاحها كسياسة وكنظام ، وفشل المقاومة من قبل الثورة الفلسطينية وحركة التحرير العربية في ضربها كنظام وسياسة ، اي عجز المقاومة وحركة التحرير العربي عن تقديم البديل النظري والعملي لهذا النظام .

ابو لغد : أريد ان ادلي ببعض التعليقات حول ما دار سابقا من نقاش وما اشار اليه الدكتور شرابي اخيرا . اعتقد ان في مثل هذه الجلسة علينا ان نتجنب شيئا اساسيا وهو الا نقاضي الحركة الصهيونية من منبر اجنبي . فما ورد في وثائق صهيونية معينة نستطيع ان نناقضه بوثائق اخرى كما أشار الى ذلك الدكتور شوفاني. اذ من المعلوم ان هرتزل ناقض نفسه في المذكرات وفي كتاباته . وجابوتنسكي وهو من كبار قادة الصهيونية ناقض الحركة الصهيونية في شهادته امام اللجنة الملكية في سنة ١٩٣٦ بالتصور الذي تدمه للمجتمع الذي تبغي الحركة اقامته في المنطقة العربية اذ أنه قبل بمبدأ وجود اقلية عربية قومية ولكنه لم يحدد طبيعة العلاقة التي ستنشأ بين هذه الاقلية القومية العربية والمجتمع اليهودي .

أود أن ألفت النظر مرة اخرى بأنه اذا بسطنا مفاهيم الحركة الصهيونية وأنظمتها ، فاننا سنقع في نفس الاخطاء التي ارتكبناها سابقا . فموضوع، مثل موضوع « الامة اليهودية » الذي اعتقد انه موضوع حيوي ، لا بد لنا من أن نناقشه من زوايا عديدة . اذ ان الحركة الصهيونية افترضت وجودا حقيقيا لهذه «الامة» وافترضت ان لها مقومات معينة ، الا ان الحركة الصهيونية نجحت

---

* « نحو فهم افضل للفكرة الصهيونية » في **دراسات يسارية حول القضية الفلسطينية** ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧١ .

عبر نصف قرن من خلـق مجتمع جديد يتمثـل باسرائيل وبأمة اسرائيلية وعلينا اذن ان نسأل عن طبيعة ارتباط الامة الاسرائيلية « بالامة » اليهودية التي افترضت الصهيونيـة وجودهـا والعلاقات السائدة بين الحركة الصهيونية و« الامة » اليهودية من جهة اخرى ، وعلينا كذلك ان نعرف كيف يتصور الفرد الاسرائيلي علاقته بمن يصطلح على انـه فرد في الامة اليهودية ، وهل هذا التصور هو التصور نفسه الذي بدا لهرتسل مثلا ؟ وهل حدث تغيرملحوظ في علاقات افراد الامة اليهودية بالمواطنين الاخرين في المجتمعات التي ينتمون اليها نتيجـة لوجود الامة الاسرائيلية ؟ وان صح الافتراض القائل بأن هنالك امة اسرائيلية و« امة يهودية » علينا اذن ان ندرك كيفية تأثير الامة الاسرائيلية في اليهود الذين ينتمون الى مجتمعات وجنسيات عديدة وكيف يحرك المجتمع الاسرائيلي وبالتالي الحكومة الاسرائيلية هؤلاء اليهود بالاضافة الى الصهيونيين منهم ، وكيف تنجح الحكومة الاسرائيلية في تسـخير الصـهيوني واليهـودي ، في خدمة مصـالح الدولة الاسرائيـليـة التي ربما تتناقض احيـانـا مع مصالح الـدول التي ينتمي اليها هؤلاء الافـراد ، وعلينـا كذلك ان نتسـاءل عـن امكانيـة تـأثـير الحـركة الصـهيونية ، وتـأثير اليهـود الذين لا ينتمـون الى الصهيونية سـياسـيا او تنظيميـا في المجتمع الاسرائيلي وسياسة اسرائيل .

فاذا درسنا الفرق في طريقة العمل بين الحـركة الصهيونية كحركة فكرية اجتماعية سياسية لهـا اهداف معينة وبين طـريقة عمل المجتمع الذي اقامته — اسرائيل — نجد ان العنـاصر الرئيسية التي ارتكزت عليها الصهيونية في تحريك افـراد « الامة » اليهودية تتلخص في الدين والتنظيـم اليهودي والثقافة اليهودية بالاضافة الى الاضطهاد والتخوف اليهودي من الابادة سواء عن طـريق الدمج او عن طريق الذبح . هل الالتفاف اليهودي المعاصر حول اسرائيل وعطفه عليها وفي بعـض الاحيان انتماؤه اليها نابع مـن الدوافع القديمة نفسها بالرغم من ان الواقع الاجتماعي والسياسي العالمي قد تغير ؟ او بعبارة اخرى ما هي الدوافع الحقيقية التي تحفز المواطن اليهودي الاميركي ، ولا نقول الاميركي الصهيوني ان يساعد اسرائيل ويدعمها ويؤثر في السياسة الاميركية لصالحها ؟ هل يدعمها خوفا من الذوبان او من الذبح ؟ او هل يدعمها نتيجة لدوافع اكثر ايجابية ؟ وينطبق السؤال على اليهودي في امريكا اللاتينية واليهودي في جنوب افريقية وغيرها من البلدان . اعتقد ان هنالك عوامل ودوافع جديدة نتجت عن قيام مجتمع اسرائيلي له مقوماته الخاصة وله اساليب عمل وتأثير خاصة لا بد لنا من ادراكها . وفي تصوري هذا الموضوع بمنتهى الحيوية، أي موضوع الارتباط بين المجتمع الاسرائيلي والحكومة الاسرائيلية من جهة والحركة الصهيونية التي بدأت تضعف في مفعولها من جهة ثانية ، خاصة بالمقارنة مع الايام عندما كانت الحركة الصهيونية هي في القيادة والان اصبحت الحكومة الاسرائيلية هي في مركز القيادة وتقوم بتوجيه الشعب اليهودي الى هدف معين . الحركة الصهيونية ، كحركة سياسية ، كما اشار وليد خدوري اصبحت اداة بيد الحكومة الاسرائيلية. ويجب علينا ان لا نكتفي بالاشارة الى الحـركة الصهيونية كتنظيم سياسي يساعد اسرائيل دون ان نلتفت الىاليهود الذين لا يؤمنون بالحركة الصهيونية كحركة سياسية ومـع ذلك يدعمـون السياسـة الاسرائيلية .

في تصوري لقد اصبح موضوع الحركة الصهيونية حاليا اكثر تعقيدا وفي المواجهة التي نحن فيها علينا ان نعي ، كما قال الدكتور شوفاني ، وكما تبين في هذه الاحاديث كلهـا ، ان هناك تناقضـات اساسية في المجتمع الاسرائيلي ذاته ، تناقضات اساسية بين المجتمـع الاسرائيلي والحـركـة الصهيونية ككل — تناقضات بين المجتمع الاسرائيلي والفئات اليهودية ، وهذا يتطلب من حركة التحرير العربي وحركة التحرير الفلسطيني ، والسياسات العربية عامة ان تعرف كيف تستفيد مـن هذه التناقضات اذا فهمت حقيقتها . ولكن يكاد يكون من المستحيل الاستفادة منها اذا قبلنا في بساطـة ووضوح الاهداف الرئيسية للحركة الصهيونية وفي تحليلنا علينا ان نضع الحركة الصهيونية المعاصرة كحركة عالمية اجتماعية او سياسية او اقتصادية في حجمها الحقيقي بدل حسبانها العدو الرئيسي الذي نواجهه . علينا ان نعي الخطر الحقيقي للمجتمع الاسرائيلي ذاتـه الذي بدأ يستخدم الحركـة الصهيونية كأداة له ولاغراضه ولمصالحه في المنطقة العربية .

العظم : للينين كلمـة تفيـد بأنه مهمـا كـان النظام القديم عفنا ومهترئا فانه لن يسقط بنفسه

ما لم يدفعه احد او يقوم باسقاطه . ان ما حدث عربيا بالنسبة للتناقضات الموضوعية داخل المجتمع الاسرائيلي هو نوم حركة التحرر العربي على الحرير بالنسبة لهذا الموضوع معتمدة على وجود هذه التناقضات وكأنها وحدها وبصورة ميكانيكية وبدون أي جهد ستفتت المجتمع الاسرائيلي وتدمره، أي طغت نظرة عفوية في هذه المسألة بررت عدم وجود اي جهد كبير من قبل حركة التحرر العربي باتجاه العمل على اساس استراتيجية مدروسة للاستفادة من هذه التناقضات وتسخيرها من اجل خلق الظروف المؤاتية لعملية اسقاط النظام . للاسف ادى اقرار وجود التناقضات ، بالنهاية ، الى نوع من التراخي في حركة التحرر العربية بدلا من ان يتحول الى حافز للاستفادة منها بحجة ان التناقضات ستتكفل بكل شيء لان الاستعمار سائر الى الدمار على كل حال .

فرحات : اثار الدكتور وليد خدوري قضية هامة فعلا يجب اعطاؤها ما تستحقه من الاهتمام . واذا كنت أعبر تماما عن وجهة نظره فقد أشار الى نشوء بوادر يمكن الاستناد اليها من اجل القول ببداية نشوء امة او قومية اسرائيلية ، وقد تحدث عدد من الاخوان عن الموضوع وربطوا بينه وبين موضوع استقلالية اسرائيل او المزيد من استقلالية اسرائيل في علاقتها مع الامبريالية العالمية . طبعا أنا موافق مع الاخ الاستاذ الياس مرقص على القول اننا عندما نتحدث عن القومية او عن الامة يجب أن نحدد هذين المفهومين ونميزهما عن المفاهيم المثالية او التقديسية وان ننظر اليهما نظـرة واقعية . ولكنني اقول انه حتى لو صح نظـريا وتاريخيا انه بامكان المجتمع الاسرائيلي الحالي ان يتحول الى قومية اسرائيلية ، يجب ان لا يغيب عن ذهننا ان هذه القومية تبقى قومية ظالمة ، كما ان هذه القومية ليست الامة اليهودية التي تحدث عنها الصهيونيون وبالتالي يبقى تحليل البلاشفة حول عدم وجود امة يهودية صحيحا . اعود الى موضوع العلاقة بين اسرائيل والامبريالية العالمية . طبعا تحدثت عن التبعية في العلاقة ومن الممكن ان يكون استخدام تعبير التبعية قد ادى الى بعض الالتباس، على كل حال المهم في الموضوع هو قضية الارتباط بين اسرائيل والامبريالية العالمية . وهنا اعود لاقول انه بالرغم عن جميع هذه المظاهر ، مثل الظاهرة التي تحدث عنها الدكتور خدوري ، فان ارتباط اسرائيل بالامبريالية هو المرشح للازدياد .

من الممكن للتبعية ان تخف بالمعنى الذي ذكر ولكن بمعنى آخر فان ارتباط اسرائيل بالامبريالية العالمية سيزداد . وهنا لا استطيع ان اوافق على ما قاله الدكتور فايز صائغ حين اكد على ان هذه التبعية ممكن ان تتضاءل اذا نمت القوة الذاتية لاسرائيل وان درجة اعتمادها على التبعية الاجنبية تخف كلما زادت العناصر التي بالاستناد اليها تستطيع اسرائيل ان تقاوم اكثر على اساس قوتها الذاتية . اريد ان اميز مفهوم التبعية عن مفهوم الارتباط . الارتباط هو المفهوم الاشمل والتبعية ليست الا مظهرا من المظاهر العامة للمفهوم الاشمل أي الارتباط . فاذن انطلاقا من هذا التحليل أعتقد انه يجب ان نأخذ ظاهرة ازدياد قوة اسرائيل الذاتية ضمن اطارها الواقعي. يعني اذا تصورنا وجودثلاثة اقانيم او مثلث تشكل زاوية منه اسرائيل ، وزاوية ثانية الامبريالية ، وزاويته الثالثة هي حركة التحرر العربية يجب ان نعطي تحليلنا بالاستناد الى هذه الزوايا الثلاث وهي متحركة . ولكن عندما ننظر الى الامر على اساس ان قوة اسرائيل الذاتية تزداد وان قوة الامبريالية باقية على ما هي عليه وان حركة التحرر الوطنية باقية ايضا على ما هي عليه فعندها يمكن ان نصل الى نتيجة هي ان ازدياد قوة اسرائيل الذاتية ستؤدي الى تقليل او فـك ارتباطها بالامبريالية . ولكن اذا نظرنا الى الواقع كما هو وجدنا ان الامبريالية العالمية كمجمـوع تتضاءل قوتها . واذا نظرنا الى حركة التحـرر الوطني فانها ليست ساكنة بل متحركة وتزداد قوتها تاريخيا . كل ذلك يدفع الاوساط الصهيونية في اسرائيل الى زيادة ارتباطها بالامبريالية الذي لا يمنع وجود اختلاف بينهما . وطبعا هذا لا ينفي المرونة الاسرائيلية . اريد ان اختم كلامي بتعليق على ما جاء على لسان الاخ الياس مرقص . اعتقد انه لا يعني تماما ما قاله واذا كان يعنيه فسيكون ذلك فعلا شيئا غريبا . اعني عندما قال انه يجب النظر الى مفهوم الامبريالية ليس فقط على اساس التصور الاقتصادي بل بصيغة اوسع وعلى اساس ان النظام الامبريالي ليس متماثلا كل التماثل مع الاسلوب الرأسمالي . قال ان العالم الامبريالي قائم اساسا وجوهرا على سيطرة طبقة على طبقة ولكنه قائم ايضا وبشكل شديد على اساس سيطرة قطر على قطر وامة على امة وشعب على شعب وعرق على عرق وجهة جغرافية على جهة جغرافية وطائفة دينية على طائفة دينية الى ما لا نهاية كما

ورد في كلامه . وما لا نهاية هذه يمكن ان تعني ايضا سيطرة فرد على فرد . هنا يجب ان نتفق على مفاهيم محددة ، فاذا اعطينا الامبريالية هذا المفهوم الواسع وجعلناها مطاطة الى هذا الحد فانني اتساءل اين هي الامبريالية ؟ على كل حال عندما تحدثت عن الامبريالية واتحدث عنها الان لا اعني تصورا اقتصاديا فقط . طبعا ان لهذا الاساس الاقتصادي انعكاساته السياسية والفكرية والايديولوجية . ولكن يجب ان نتفق على الاقل على ان الامبريالية هي المرتبطة بالرأسمالية وانها أعلى مرحلة من مراحل الرأسمالية والا فاننا نكون لا نعرف طبيعة العدو الذي نحارب والذي نناضل ضده ، والشيء الاهم يمكن ان يكون اننا لا نعرف عندئذ ان هذا العدو بطبيعتـــه مصيره الزوال تاريخيا .

مسعد : أعتقد ان نقاشنا حتى الان كان وافيا بتغطية العناصر التي شاكلت بهـــا الصهيونيـــة الحركات القومية والرأسمالية والامبريالية وتأثيرات الاخيرة عليها ، الا انها لم تف بتغطية الامور التي اختلفت بها الصهيونية عن كافة الحركات الاخرى . أبدأ ملاحظتي بالرجوع الى كلمة الدكتور ابو لغد التي قال فيها ان الصهيونية لها ابعاد معقدة تستوجب التصدي لها بايديولوجية معقدة . والواقع ان للصهيونية فعلا هذه الابعاد ، الا ان طبيعة دراسة التاريخ وتحليله تكمن في تقصي العموميات التي من شأنها أن توضح المسائل وتحل تعقيداتها. وانني اوافق الاستاذ فرحات في هذا المجال على قوله بوجوب الوقوف على العنصر الاساسي الذي ادى الى قيام الصهيونية وتحقيق مخططها في فلسطين — وهذا العنصر هو عنصر الامبريالية التي اضاف الدكتور صايغ انها كانت السبب الموضوعي لنجاح الصهيونية يرافقها السبب الذاتي المتمثل بالقومية اليهودية . اما عن قول الدكتور صايغ ان للصهيونية قدرة على تغيير سيد بسيد واعطائه المثل على ذلك في تغييرها لسيدها البريطاني بسيدها الامريكي منذ أوائل القرن الحالي حتى منتصفه ، فذلك لا يشكل دلالة على ليونـــة الحركة لدى الصهيونية وجل ما هو انه انعكاس لتغير سيادة وقيادة الامبريالية على النطاق العالمي وانتقالها من أيدي بريطانية الى الولايات المتحـــدة خلال هـــذه الفترة . وبكلام آخر ، فان الصهيونية لم يكن لها سوى سيد واحد تمثل بالامبريالية بمعناها العالمي الاوسع . وما يجدر ذكره في هذا المجال هو ان تسلط الامبريالية الامركية على الصهيونية بدأ منذ العشرينات‍حين بدأت تأتي معظم المعونات المالية للصهيونية من المصادر اليهودية في الولايات المتحدة. اما بالنسبة للامبريالية بمعناها الاوسع فينبغي تمييز عنصرين رئيسيين ، طبعا ، في تطورها : ان الامبريالية وليدة ظروف تأزم الرأسمالية في اوروبه كان أحد شقيها الذهاب بالرأسمـــال والتوسع الاقتصادي الى ما وراء البحار في حين ان الشق الثاني انعكس في سعيها للابعاد السكاني لقطاعات من الطبقات البروليتارية في أوروبه . وبهذا المنطلق المزدوج فقط يمكننا فهم كلام المسؤولين الاوروبيين عند اوائل القرن الحالي عن فوائد الامبريالية في حل المشاكل الاجتماعية او — بتعبيرنا نحن — اثرها في فك زخم الصراعات الطبقية . وكانت للصهيونية فوائد في كلتا الحالتين : اولا ، في التوصل الى خلق ركيزة في الشرق الاوسط ولا سيما بعد اكتشاف البترول كمـــا قال السيد قازان . وثانيا ، في التخلص من الفائض من البروليتاريين اليهود الذين تكلم عن ابعادهم بوضوح كل من هرتزل وبنسكر وكافة الزعماء الصهيونيين آنذاك .

من المناسب هنا أن أعود الى احدى انعكاسات الهوية الفريدة للحركة الصهيونية ، وهي التي تمثلت في مفهوم الاستعمـــار الخالص واستثنـــاء السكان الاصليين من العمل وطردهم اخيرا من البلاد ، الامر الذي اختلفت فيه الصهيونية عن جميـــع الحركات الاستعمارية الاخرى التي نهجت على استخدام السكان الاصليين واستغلالهم . وقد كان الدكتور صايغ هو الذي ركز على طابع الاستعمار الخالص للصهيونية ، فأود أن أسأله : ما كان الدافع لهذا الاستعمار الخالص واستثناء السكان الاصليين ان لم يكن لخلق المجال لفئة سكانية سعيا لابعادها عن اوروبه وزرعها في مكان آخر ؟ وارجو ان يتطرق الدكتور صايغ الى الاجابة على هذا السؤال فيما بعد . أما الاستاذ مرقص فقد أثار مسألة لها علاقة بهذا الموضوع وهي شعار العمل اليهودي وقيام العمالية اليهودية خلال العقد الاول من القرن الحالي . والواقع ان الاستعمار اليهودي منذ بدايته على ايدي البارون روتشيـــلد والمسؤولين عـــن مستوطناته كان يسعى دائمـــا للحؤول دون توظيف العمال العرب واستخدامهم في مستوطناته رغم انـــه لم تتوفر لديه الهيئـــة التنظيمية والعقائدية التي من شأنها ان تعد العدة لعملية استبعاد السكان الاصليين حتى مجيء ما

يسمى باليسار الصهيوني الذي رفع شعار العمل اليهودي الخالص وشعار العمل الذاتي وحتى شعار معارضة العمل المأجور كليا في حال بعض المستوطنات . وتمكنت الصهيونية بهذه الهيئات والشعارات ان تتجنب استخدام العمل العربي اتوماتيكيا مما وفر لها المجال لابعاد الطبقة العاملة المحلية على اقتصاد البلاد .

اخيرا ، لا يسعني اختتام هذه الملاحظات دون التطرق الى مسألة استقلالية اسرائيل عن الامبريالية . وربما تكون مسألة استقلالية اسرائيل عن المنظمة الصهيونية العالمية التي اثارها الدكتور وليد خدوري لها علاقة بالموضوع . واننا فعلا نشهد الان نزعة نحو قيام قومية اسرائيلية خاصة بالسكان اليهود في فلسطين بمعزل عن القومية الصهيونية او القومية اليهودية التي تضوي ولاء اليهود في البلدان المختلفة . ونجد بوادر مثل هذه القومية عند عضو البرلمان الاسرائيلي أوري افنيري الذي كتب كتابه **اسرائيل بدون صهيونيين** واعتبر فيه ان الصهيونية عند نشوئها كانت حركة ثورية تخطاها التاريخ الان واصبحت عثرة جامدة وبالية (anachronistic) ونجد هذا المنطق نفسه عند آخرين مثل ابا ايبان في بعض تصريحاته التي يحاول فيها التنصل من الواقع الاستعماري للصهيونية لصالح هوية او فكرة اسرائيلية خالصة. وهناك دلالات تشير الى ان ثمة اساسا مجتمعيا اقتصاديا ربما يؤدي الى تبلور مثل هذه القومية بدأت بوادره خلال الثلاثينات حين أتت الهجرة آنذاك الى فلسطين بعدد لا يستهان به من حاملي الراسمال ونشأت عنها طبقة بورجوازية يديشية فلسطينية كانت بمثابة الاساس لقيام قومية اسرائيلية محلية . ومن الممكن ان تؤدي هذه التطورات الاخيرة الى اثبات وتدعيم استقلالية اسرائيل عن الامبريالية العالمية . ولكن نظرا لان ارقام المساعدات الاميركية التي تأتي الى اسرائيل هي في ازدياد ، لا يمكننا ان نتكلم عن الاستقلالية المطلقة او النسبية دون اخذ هذا العنصر الاقتصادي الحاسم بعين الاعتبار . كما ان الكلام عن الاستقلالية العسكرية ليس واردا طالما ان اسرائيل في حالة اعتماد شبه تام على المعسكر الامبريالي كمصدر للاسلحة . اما الكلام عن الاستقلالية الجزئية فذلك يعتمد على امكانيات تطور بورجوازية اسرائيلية محلية قوية من شأنها ان تقود الاقتصاد المحلي وتسهم في السيطرة عليه بشكل يوازي السيطرة المالية الامبريالية الاحتكارية . وأعتقادي هو ان هذه الامكانية مستبعدة جدا . لذلك فكلام الدكتور صادق العظم في مقالة صدرت مؤخرا له ، وذكرت في النقاش ، عن امكانية قيام اسرائيل ذاتها بدور امبريالي لصالحها الخاص في اسواق المنطقة العربية في حال التوصل الى حل سلمي ، هو نوع من الترف ، طالما لا تتواجد في اسرائيل الطبقة البورجوازية الرأسمالية القادرة على قيادة مثل هذه « الامبريالية » المحلية . فالاقتصاد الاسرائيلي المحلي مرتبط ومبني على الهستدروت الذي تقتصر نشاطاته على البناء والصناعات المتعلقة بالبناء . وهذا النوع من الاقتصاد لا يمكن ان تبنى عليه علاقات امبريالية لصالحه الخاص مع العلم انه ربما يقوم بدور الوسيط لصالح الامبريالية العالمية . وعلى كل حال ، ان الكلام عن استقلالية اسرائيل عن الامبريالية أمر مستبعد جدا واعتقد ، كما قال الاستاذ فرحات ، ان حالة الارتباط ، او بالاحرى حالة التبعية التي ينم عنها هذا الارتباط بزعامة الامبريالية العالمية المتمثلة في الرأسمالية الاميركية، ستشهد ازديادا واتساعا في المستقبل . هذا مع الاخذ بعين الاعتبار ان امكانيات التهديد لظروف هذه التبعية قد تنشأ عن التناقض الحتمي بين الطبقة العاملة الاسرائيلية والرأسمالية الامبريالية العالمية .

مرقص : أشكر الاخوان على ملاحظاتهم القيمة وأحب أن أطمئنهم وان أوضح ما قد يكون لبس عليهم . الاستاذ البير فرحات كرر احدى الجمل التي قلتها حرفيا وبأمانة مطلقة بما فيها كلمة « الى ما لا نهاية » وانطلق منها الى القول « وهل اضيف ايضا سيطرة فرد على فرد » وتساءل ماذا يصبح مفهومنا ، او مفهومنا العميق عن الامبريالية ، مفهومنا النظري العلمي . اني أحب أن أسجل للاستاذ فرحات بأني بالضبط استعملت عدة مصطلحات متتالية ما عدا مصطلح سيطرة فرد على فرد . قلت سيطرة طبقة على طبقة سيطرة أمة على أمة وعرق على عرق وطائفة على طائفة وجهة جغرافية على جهة جغرافية اخرى الى ما لا نهاية — كلمة الى ما لا نهاية تعني بالضبط اننا لا نستطيع ان نصل الى جرد كامل للواقع حتى لو كنا لينين + انشتاين . الجرد الكامل مستحيل ولكنه اشتراطنا الادبي على صعيد العلم والمعرفة وعلى صعيد العمل المسلح بالعلم والمعرفة ، انه

اشتراط نتوجه اليه دون أن نبلغه ابدا . امـــا المصطلحات والافكار التي أوردتها والامور التي أشرت اليها : سيطرة أمة على أمة ، وطائفة على طائفة وجهة جغرافية على جهة جغرافية وعرق على عرق ألم يجدها الاستاذ فرحات عند لينين ؟ ان منطلقي في التحليل بسيط جداً. انني اقيم تمايزا بين المجتمع كنموذج ، بين مفهوم المجتمع كنموذج ومفهوم الواقع العالمي او العالم الواقعي كمفهوم شخص عياني في الواقع . المصطلح الاول نجده عند ماركس في كتاب رأس المال حيث حلل الاسلوب المجرد للنظام الرأسمالي ، الاسلوب الرأسمالي المجرد القائم على طبقتين اثنتين هما البورجوازية والطبقة العاملة . بعد ثلاثين سنة انطلق لينين من ذلك وطبقه واقعيا على الواقع الروسي فاكتشف اولا او استعاد اولا الطبقات الاخرى وبقايـــا التشكيلات الاجتماعية السابقـــــة ضد التيـــار الاقتصادي الاول . ثانيا استوعب ايضا سيطرة الاقليات على اقليات او سيطـــرة اكثريات على أقلية ، سيطرة القوميات ، اي المسألة القومية . واستعاد ايضا بشكل من الاشكال وبشكل عام وبنفس المصطلحات . استخدم مصطلحات جغرافية وهي لا تعني جغرافية مجردة عن البشر لانه لا يوجد جغرافيا مجردة عن البشر . ولينين قال مثلا في وصيته او في كتابه الاخير قال الشرق والغرب مصطلحات ، وهذا ما تصدته مثلا بالمصطلحات الجغرافية واعطى لينين مدلولا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وبشريا للشرق والغرب فوصف الشرق بأنه قومي اي أمامه مهام قومية تحفزه للنضال ووصفه بأنه ثوري بينما وصف الغرب بنفس المقطع بأنه الامبريالي والمضاد للثورة . وبنفس الوقت قال الشرق متخلف بربري والغرب الامبريالي هو المتقدم والمتمدن الخ ، هذا ما تصدته من هذه الناحية ، وأريد ان انوه اني شخصيا أؤمن بتزايد الارتباط بين اسرائيل والامبريالية ولكنني ، بالضبط، ولاني أؤمن بتزايد هذا الترابط أسوق المصطلحات التي استعملتها . جوابا على الاخ صادق العظم ، الذي قال ان هناك اجماعا ضد فكرة وجود أمة يهودية في الاوساط الماركسية . بالضبط ، النقطة التي أثرتها باديء ذي بدء هي مسألة المصطلح ، وقطعا كما قال الاستاذ فرحات ان هناك الحلول البلشفية للمسألة اليهودية وهي جوهريا واساسا الحلول الصحيحة في نظري ، مفاهيمهم وتفنيدهم الكامل الدقيق لمفهوم الامة اليهودية . لكن احب

أن أشير الى ان لينين في سنة ١٩١٤ وبعد أن كان قد فند واستمر في تفنيد مفهوم الامة اليهودية تفنيدا كاملا واقول مطلقا، في سنة ١٩١٤ وفي كتابه الشهير « ملاحظات نقدية عن المسألة القومية » ذكر الامة اليهودية المعذبة في العـــالم ، الاكثر عذابا في العالم ، وفي نفس هذا الكتاب قدم مواقف كحلول عملية لمشكلة اليهود في روسيا والعالم حيث انه ذكر في تأكيد الحل القائم عـــلى اساس الارض والاقتصاد وذكر امكانية اقامة دوائر قومية تكون نقطة توجه لافراد اقلية معينة او جماعة معينة منتشرين في كل روسيه او ربما منتشرين في كـــل العالم . واني لا أرى اية نوعية قومية او اية جماعة من هذا النوع منتشرة هكذا سوى اليهود . واعتقد ان لينين قصد بكلامه هذا في كتابه «ملاحظات نقدية عن المسألة القومية » . بالطبع حين اقول أمة يهودية اسرائيلية ، أريد ان اضيف ، كامة معادية للعرب وللثورة العالمية . هذا ما اريد ان اقوله رغم وجود افراد وربما جماعات داخل المجتمع الاسرائيلي هم مخالفون لذلك ، يعني اريد ان ندرك ان العدو ، ان هذا العدو الخاص كخصوصية هو اكثر من طبقة ، هو مجموع ، المجموع بالمعنى الاقتصادي ، التحليل الاقتصادي من الممكن ان نعطيه او نلقي عليه صفة أمة بهذا المعنى . بتعبير آخر ان بالمرستون وتشرتشل وترومن ونيكسون قد ارادوا بالنتيجة هذا ولم يريدوا طبقة يهودية فوق طبقة عربية فلسطينية في فلسطين ، أرادوا مجموع الطبقات مع الاجلاء ، ارادوا ما سميته أمة . ومن هذا احب ان انتقل الى مسألة مدعوة دائما بالمسألة اليهودية . اعتقد ، شخصيا ، في تصور ماركسي صحيح يجب أن ننطلق مـــن مبدأ عدم مساواة اليهود كجماعة ولنسمها دينية او قومية مهما اختلفنا على التسمية يجب ان ننطلق من عدم مساواة اليهود كجماعة من حيث الدور التاريخي . في مختلف الادوار التاريخية بالطبع يمكن ان نقول ليس هناك شيء يجوز تسميته جماعة يهودية لها نزوع سياسي معين او موقف معين . اعتقد ان هذا هروب لا ينبغي ان نسير فيه . اعتقد شخصيا ان الدور الاقتصادي للمرابي اليهودي والدور المادي للايديولوجيا اليهودية والتوراتية او التلمودية البشعة اللاانسانية كان خلال التاريخ خلال قرون دورا تقدميا لانه كان دورا تخريبيا تدميريا لبنى سابقة ودورا فاعلا في آلية التقدم التاريخي وهي الالية التي أفضت الى اقامة المجتمع الرأسمالي ،

النظام الرأسمالي والنظام الرأسمالي العالمي وهو اول نظام في التاريخ عالمي فعلا وبشتى المعاني . كان الصهيونيون اليهود والمفكرون التقدميون اليهود في القرن التاسع عشر بلا شك فئة من اليهود ولكن من الصعب ان نغطي تماما صنتهم اليهودية التي يمكن ان نعتبرها في ذلك الظرف ايجابية تماما ، انشطارا عن المجتمع القائم ، انشطارا عن جماعتهم اليهودية ، انشطارا عن المجتمع الرأسمالي واندفاعا في حركات تحررية وثورية متنوعة وهو دور تقدمي وايجابي جدا رغم ما يكتنفه في بعض الحالات من نزوع اطلاقي ومثالي ويساراوي قد يخرب الحركة التي ممكن ان تنتصر ، واعتقد انه في كثير من البلدان استمر هذا الدور الى فترة قريبة . ولكن أريد ان اقول انه يبدو لي ان دور اليهود كجماعة هو اليوم في الاطار العالمي الراهن الاقتصادي والسياسي والايديولوجي والاعلامي غير ما كان عليه قبل مائة سنة او قبل ثلاثين سنة او في زمن المانيا النازية مثلا وبالتالي حين نتحدث عن المسألة اليهودية ايها الاخوان ، ولكي ترتبط بعملنا وبمنظورنا المقبل ، احب ان نفهم المسألة اليهودية ايضا ومسألة موقع اليهود كجماعة ، ودور اليهود كجماعة في الوقت الحاضر وفي المستقبل ، في اطار آلية وسياسة الامبريالية العالمية وما هي الاحتمالات المقبلة لهذه النقطة ؟ بالنسبة الى اسرائيل ، وتعليقا على كلام الاخ شوفاني وموقفنا من قضية التناقضات داخل المجتمع الاسرائيلي ، اعتقد ان هذه قضية هامة جدا واريد شخصيا ان اقول انه يجب ان نتوجه الى الشعب الموجود في اسرائيل بلغة واضحة لا لبس فيها . نقطة اولى ، بعض التقدميين اليهود يطالبوننا في كتبهم بأن نعترف بوجود امة يهودية اسرائيلية او الاعتراف بحقوق اليهود الاسرائيليين ، اعتقد انه يجب ان نواجههم بالنقاط التالية : (١) نسجل ان الامة اليهودية رغم بعض الافراد وبعض الجماعات ضمن اليهودية الاسرائيلية مؤيدة من غالبية اليهود في العالم مرتبطة واقعيا وماديا وفكريا ونفسيا بالامبريالية وهي كأمة او شبه أمة معادية للعرب وللثورة العربية . (٢) بحكم ما تريده اسرائيل وما تريده الصهيونية وما تريده الامبريالية وما يعملونه منذ ٧٠ سنة حتى اليوم وفي الفترة الاخيرة ، بحكم هذا الموضوع الذي ينتصب أمامنا وليس بحكم ارادتنا الذاتية والاخلاقية وبحكم الموضوع الواقعي ، لا مكان في فلسطين ولا مكان في المنطقة العربية لامتين ذات سيادة ولا مكان لسيادتين قوميتين في الوطن العربي القومي ومشرق هذا الوطن للعرب . (٣) بعد ذلك نقترح حلولا لمشكلة اليهود في فلسطين والذين قدموا الى فلسطين ، حلولا يمكن ان تكون افضل وشديدة التساهل ومنفتحة ، على ان تبقى خاضعة للمبدأ الثابت الذي تقدم ، لا سيادتين لامتين في وطن العرب القومي ويجب ان نثبت هذه النقطة : حقوق ثقافية ، مصالح ثقافية ، مصالح دينية ، مصالح قومية ، حقوق قومية ، اما الوطن والسيادة في الوطن فهي للامة العربية صاحبة هذا الوطن . (٤) نتوجه في نهاية ذلك ببند خامس الى شعبنا وبصوت مرتفع نقول انه اول موقف لنا هو لا نستطيع ان نخادع شعبنا حول المستقبل بتفاؤل سلامي كاذب وهو خارج عن ارادتنا أصلا ، لان هناك طرفا اول في التناقض هو اميركه واسرائيل والامبريالية والصهيونية والتركيب الامبريالي العالمي ونحن الطرف الثاني . ولا نخادع شعبنا ونقول له ان المستقبل بحكم العدو نفسه هو مستقبل ضامن جدا مستقبل حروب متعددة ، حروب طاحنة وانه نجد ان واجبنا هو تسليح شعبنا بهذا المنظور ، وهنا احب ان اثير منظورين اثنين متكاملين ومتعارضين ، منظور يميني متفائل بالسلام وانا أحبه اكثر ومنظور يساري يندفع نحو التحرير اندفاعا واقول ان هذين الموقفين لهما فلسفة مشتركة هي الالتراتودية او المثالية او الارادية ، فلاعب الشطرنج يتصور انه يلعب مع زميله وهو يلعب مع جهة اخرى تفكر وتفكر وتدرس ولها غايات ولها اهداف .

العظم : ربما كان أفضل طريق للعودة الى النقاش هو التقاط بعض النقاط التي توقفنا عندها. أولا مسألة اثارها الزميل الياس سعد حول مدى استقلالية اسرائيل عن الامبريالية وقيامها بدور مستقل . طبعا ، ان الكلام عن استقلالية اسرائيل وقيامها بدور امبريالي مستقل وخاص بها هو كلام نسبي ، اي علينا ان نأخذ هذه الظواهر بصورة نسبية لان ذلك لا يعني بأن اسرائيل يمكن ان تنفصل عن النظام الامبريالي عامة بل يعني انها ستقوم بدور اكبر في خدمة مصالح نامية مرتبطة بها مباشرة وبوجودها المتميز في المنطقة ، وهي طبعا مصالح ذات طابع استعماري ، هذا بالاضافة الى الوظيفة التي تكلمنا عنها وهي كونها الاداة الاستعمارية المعروفة . بعبارة اخرى ماذا يمنع

قيام اسرائيل كبرى حتى ضمن الحدود الحالية ، عدد سكانها ٥ ملايين انسان مندمجة بالنظام الامبريالي العام وتلعب في الوقت نفسه دورا استعماريا مستقلا وخاصا بها في المنطقة العربية . ستمارس الاستغلال لصالح النظام الامبريالي العام وبنفس الوقت لصالحها هي كدولة كبرى في الشرق الاوسط . النظام الامبريالي يمكن ان يوزع المهمات على هذا الشكل وهناك أمثلة عديدة على ذلك . نحن نتكلم عن استقلالية اسرائيل بهذا المعنى وليس بالمعنى المطلق . سؤال آخر بقي معلقا وجهه الياس سعد الى الدكتور صايغ وهو لماذا اتخذ الاستعمار الصهيوني الطابع الخالص ولم يأخذ طابع الاستعمار المعروف كما في الجزائر او افريقيه ؟ ربما يريد الدكتور صايغ التعليق على السؤال . اعتقد شخصيا ان من الدلائل التي توجهنا في الاتجاه الصحيح في الاجابة على هذا السؤال الادراك ان الحركة الصهيونية قامت ببناء الدولة وبعملية الاستعمار في وقت واحد بخلاف الحركات القومية الاخرى التي قامت اولا ببناء الدولة القومية البورجوازية الحديثة ومن ثم اتجهت نحو الاستعمار ، اي اولا جاء الاستغلال الداخلي ومن بعده جاء الامتداد الى الخارج والاستغلال الخارجي . بعد بناء الدولة القومية البورجوازية كان لا يمكن للاستعمار الا ان يأخذ طابع تشكيل طبقة مستغلة في البلد الواقع تحت الاستعمار حيث يتم استغلال اهل البلد الاصليين. بالمقابل نجد ان الذي حدث في الحركة الصهيونية هو مرافقة العملية الاستعمارية لعملية بناء الدولة . اي تم بناء الدولة اليهودية البورجوازية الحديثة على أساس العملية الاستعمارية خارج اوروبا . مما يعني طبعا انه اذا كان سيكون هناك ثمة بناء لمثل هذه الدولة بكافة طبقاتها ، كما ذكر الاستاذ الياس مرقص ، فلا بد اذن من عملية اجلائية ، لا بد من ارض فارغة او شبه فارغة . من ناحية اخرى يجب الا نهمل وعي الحركة الصهيونية للتركيب الاجتماعي لليهود في اوروبة ، وهي مسألة معروفة ، حيث كانوا يتركزون في قطاعات الانتاج الوسطى ويفتقرون الى العنصر الفلاحي والبروليتاري الصناعي واذا كانت الحركة الصهيونية تريد ، من خلال العمل الاستعماري ، بناء دولة بورجوازية حديثة فلا بد طبعا من العمل الهادف والمتعمد لانشاء هذه الطبقات وهذا يتطلب بدوره العملية الاجلائية . هنا اترك المجال للدكتور صايغ كي يعلق على الموضوع .

صايغ : الواقع اني فهمت كلام الاستاذ سعد على خلاف ما فهمتموه ، فهمته على انه سؤال يجيب بنفسه على نفسه ، اذ قال الاستاذ سعد انه اذا لم يكن غرض الصهيونية هو نقل اليهود البروليتاريين من اوروبة الى فلسطين فلماذا اذا كان غرضهم خلق استعمار خالص هناك . يعني ان الجواب كان متضمنا في السؤال . وجوابي هو ان الغرض الصهيوني كان دوما خلق دولة لليهود — هذا هو المرتكز الاساسي في أي فهم للصهيونية في نظري . واذ شئت ان تخلق دولة لليهود فانك لا تستطيع ان تفعل ذلك من اقلية يهودية في مجتمع مكتظ بالسكان غير اليهود بل لا بد من اقصاء السكان غير اليهود اثناء نقل اليهود الى هذه الارض كي تحول طبيعتها من أرض غير يهودية الى أرض ملأى بالسكان اليهود فتصبح قاعدة لدولة اليهود . اما تفسير النوايا الكامنة وراء اسباب ارادة خلق الدولة اليهودية فلكل منا رأيه حول الحافز والدافع لخلقها . لا اعتقد شخصيا ان نقل طبقة يهودية معينة من اوروبه الى الشرق الاوسط كان الحافز الرئيسي وراء فكرة خلق دولة اليهود ، ولكن مهما كان تفسيرنا لهذا الحافز فالنتيجة هي واحدة . فاذا شئت ان تخلق دولة لليهود في ارض ملأى بالسكان غير اليهود فلا بد لك من أن تقصي السكان غير اليهود لا ان تستوطن بينهم وتتعايش معهم وتخلق مجتمعا مختلطا ، يهوديا وغير يهودي ، في الوقت نفسه .

واحب الان ان اردد ما قلته عن الاستعمار الاستيطاني لانه أثار اكثر من سؤال من الاستاذ سعد كما اثار تعليقات من الدكتور شوفاني ومن مدير الندوة أيضا . واريد بكل اختصار ان اقول ان تأسيس مجتمع يهودي خالص كشرط لخلق دولة يهود كان دوما هو الغرض الصهيوني الاول ، لكن هذا لا ينفي ان للصهيونية ايضا مطامح امبريالية لذاتها ، اي أنها تطمح بالسيطرة على العالم العربي والاقتصاديات العربية ، ولكن كي تسيطر الصهيونية على الاقتصاديات العربية لمصلحتها او لمصلحة الامبريالية العالمية لا بد من أن تكون هناك كتلة يهودية متراصة هي نواة هذه الامبراطورية . هذه النواة هي دولة اليهود. اذن لا بد اولا من الاستعمار الخالص في فلسطين كي تنطلق منه بعد ذلك الى الامبريالية الاسرائيلية

أن كان لحسابها الخاص او لحساب الامبريالية العالمية في العالم العربي بأسره ، اما ما هو ثابت الان في المناطق المحتلة ، مما اشير اليه على انه استعمار مختلط وليس استعمارا استيطانيا صافيا ، فلعله مسألة مرحلية في الوقت الحاضر ، ولا ننسى ان بعض المناطق المحتلة قد اخليت من سكانها (واقصد بذلك الجولان) توطئة لدمجها وضمها نهائيا وقانونيا ورسميا الى الدولة الصهيونية ، وبعضها كان أساسا خاليا من السكان (مثل سيناء) وبعضها جرت محاولات لاخلائه من السكان غير اليهود (مثل القدس التي ضمت رسميا الى اسرائيل) . بقيت المشكلة في غزة وفي الضفة الغربية . وهنا نلاحظ ان عدم نجاح اسرائيل في اجلاء السكان اثناء حرب ١٩٦٧ ، كما حدث عام ١٩٤٨ ، كان العقبة الرئيسية التي وقفت في وجه السلطات الاسرائيلية وخلقت ازمة لواضعي السياسة الاسرائيلية ، ازمة تحدثت عنها في ندوة لمركز الابحاث في السابق ، فيما دعيته التناقض بين الشهية للارض عند الحركة الصهيونية التوسعية وشهية النقاء العنصري النابعة من صميم الصهيونية . واعتقد ان العقل الاسرائيلي لا يزال في مرحلة محاولة التوفيق بين هاتين الشهيتين للحصول على اكبر مساحة ممكنة من الارض المحتلة مع اقل عدد ممكن من السكان غير اليهود كي يتم التوسع الجغرافي دون أن يكون هناك اي تخل عن فكرة النقاء العنصري الملازم للحركة الصهيونية .

فرحات : باعتقادي انه بامكاننا ان نضيف الى موضوع رفض الاستعمار الاستيطاني الصهيوني الاختلاط بالسكان المحليين العامل الاتي : وهو الفارق النوعي بين السكان الذين كانوا موجودين في فلسطين وسكان جنوبي افريقية مثلا او استراليا او حتى الجزائر عندما دخلها الاستعمار الاستيطاني الفرنسي . كانت المجتمعات في استراليا وفي جنوبي افريقية وحتى في الجزائر انذاك مجتمعات عشائرية قبلية ولم تكن قد نمت فيها بعد بورجوازية محلية ، في حين ان الوضع في فلسطين وفي العالم العربي كان على غير ذلك لان القومية العربية كانت بدأت بالنهوض منذ اواخر القرن التاسع عشر وبدأت تنمو ايضا بورجوازية محلية في فلسطين . لذلك كان من الطبيعي الا تحتمل البورجوازية اليهودية النامية البقاء الى جانب هذه البورجوازية المحلية النامية ، لم تكن تحتمل البقاء الى جانب حركة التحرير الوطني . وعلى هذا الاساس ، أعتقد انه بامكاننا ان ندرك بصورة افضل شيئين : لماذا كان الخيار الاساسي عند الصهيونية هو اخلاء الارض من سكانها وكيف تمت الظاهرة الجديدة التي ألمح اليها الاستاذ الياس سعد وهي ابقاء قسم من السكان بحيث اصبحت الصهيونية تحتمل وجودهم وتمارس استعمارا جديدا .

العظم : استشعرت سابقا ان هناك رغبة في مناقشة نقاط حول الحركة الصهيونية كما تتجسد حاليا في دولة اسرائيل ، باعتبار ان مناقشة هذا الموضوع له علاقة مباشرة بمنهج عمل الحركة التحريرية المضادة للصهيونية .

شرابي : فيما يتعلق بالمستقبل نحن الان في وضع بالنسبة لاسرائيل نجد فيه ان المقاومة الفلسطينية وحدها في العالم العربي موجودة في مواجهة الخطر ، وهذا يشبه تماما ما حدث في اوائل الخمسينات ، يعني نحن الان قد دخلنا ، بين سنوات ١٩٦٧ و١٩٧٢ ، في فترة توقف امام اسرائيل لما كان ينتظر ان يصبح ثورة يوما ما . والان رجعنا الى وضع لم يعد فيه بامكان المقاومة العمل في الدول المحيطة من العقبة الى الناقورة . وصلنا بالفعل الى هذا الحد بالنسبة للعمليات الفعلية . ورجعت اسرائيل الى السياسة الانتقامية لفرض ارادتها على الدول المحيطة بها . علينا ان نقدم وصفا لماهية الخطر ، وهو أننا ، رجعنا على صعيد العمل عشرين سنة الى الوراء اما على صعيد الفكر فقد تقدمنا تقدما لا بأس به خصوصا في الاعمال المهمة التي قامت بها هذه المؤسسة ومؤسسات اخرى . اما من حيث التنظيم والعمل على مستويات جماهيرية فوضعنا الان يشبه ما كنا عليه في اوائل الخمسينات .

مرقص : تعليقا على كلام الاستاذ شرابي اريد ان أقول ان السؤال الاول الذي يجب ان يطرح ومن قبل الاستاذ شرابي بالذات هو هل يعتقد بان المقاومة الفلسطينية كانت في تصور ١٩٦٧ و١٩٦٨ المحور والقوة القادرة بواسطة العمل الفدائي ان تسير ، ولو بعمل طويل ، نحو ازالة الكيان الصهيوني ، او نحو اخراج المحتلين الاسرائيليين من الاراضي التي احتلوها بعد سنة ١٩٦٧ . واذا كان هذا هو الامل والمنظور الذي غلب على الغالبية في سنة ١٩٦٧ وسنة ١٩٦٨ كان الشيء الاول الذي يجب علينا ان نفعله في

هذا المضمار وبصوت واحد وبنقاش جريء وربما حاد هو تقييم هذه النقطة والاجابة عليها . هل كنا على حق ام هل كنا على خطأ . احب ان اقول اكثر من ذلك طبعا حول المؤسسة التي تفضلت ومنحتنا ومنحتني شخصيا ثقة سأفخر بها دوما بدعوتي الى هذه الندوة ، لا اعتقد ان مركز الابحاث كان هو وغالبية اخواننا في المقاومة الفلسطينية على نفس محور واحد في تقييم النقطة التي اعتقد انني اثرتها تعليقا على كلام الاخ شرابي ، طبعا هذه المؤسسة فيها عناصر مختلفة ولكن لم ار في كتابات اي اخ من الاخوان ، مثلا الدكتور فايز صايغ الذي قرأت له كتابا منذ اربع سنوات ، بأنه يعتقد ان المقاومة الفلسطينية تستطيع ان تحقق شيئا فعليا ايجابيا من خلال العمل الفدائي فقط . ولكن فهمت انذاك ان النقطة الجوهرية بالنسبة الى المقاومة يجب ان يكون فعلها العربي ، تأثيرها الايجابي في الجماهير العربية وفي الدول العربية وفي الاقطار العربية ، بفضل وعي صحيح تاريخيا ودقيق على الصعيد المرحلي والتكتيكي والاستراتيجي .

شرابي : هذا بلا شك سؤال اساسي . عندما ننظر الى السنوات القريبة الماضية وخاصة ٦٩ — ٧٠ وقبل حملة ايلول معظمنا كان يعتقد ان المقاومة الفلسطينية هي رأس الرمح في القتال من أجل تحرك عربي شامل، يعني من أجل حركة تحرير عربية ، وتحريك الجماهير العربية ، لا ادري اذا كنا نفكر ان الفلسطينيين ، كحركة مقاومة، كان باستطاعتهم لوحدهم ان يحرروا فلسطين ام لا . لا اظن اننا درسنا هذه الاسئلة وقتها وفكرنا فيها بما فيه الكفاية . ولكن بلا شك كانت المشاعر ، كما كان الفكر ، مرتبطة بالحركة الفلسطينية وبحركات التحرر العربية وكأنها شيء موجود . طبعا حدثت ائتلافات عديدة ، تم التعبير عنها بصيغ متعددة من قبل حركة المقاومة مثل القول أن الثورة « فلسطينية الوجه عربية العمق » او ما شابه ذلك وهي صيغ صحيحة . الا انني اريد ان اذكر نقطة واحدة على ضوء ما قلته لو قلنا انه بعد اربعة أشهر سيحدث لنا ، اي للمقاومة ، في لبنان ما حدث لنا في البلدان الثلاثة المحيطة بارضنا المحتلة يعني ذلك ان الزمان قد عفى على كل تحركاتنا بصورة كاملة او شبه كاملة اي منع المقاومة كجماعات مسلحة وكتنظيم مستقل وكحركة ثورية وتوقيفها كليا . كيف يمكن لهذه الحركة أن تخلق ثغرة تدخل منها الى الجماهير العربية ؟ بكلام اخر مقدرة الفلسطينيين على أن يلعبوا دورهم موجودة فاذن يجب أن يكون هناك حركة فلسطينية تسعى ، اي حركة تحرير فلسطينية متحركة . اخيرا من الواضح للجميع انه نتيجة للحصار المضروب على الحركة الفلسطينية نجد انه لم يعد هناك تفاعل بالجماهير العربية من جهة وامتداد واسع للرجعية العربية والقوى المضادة للثورة من جهة اخرى .

العظم : لا أدري لماذا افترض الاستاذ الياس مرقص ان الكتاب في مركز الابحاث يجب ان يكونوا كلهم على نفس محور واحد في تقييم المقاومة وامكاناتها ، ويبدو لي ان كلامه هذا جاء في معرض اللوم اكثر منه في معرض اي شيء اخر . الموضوع يهمنا بطبيعة الحال لان الجميع في المركز يتكلمون في الاساس من موقع وطني اولي وبديهي وبعد ذلك تختلف الاجتهادات وهذا شيء مطلوب . أما بالنسبة الى السؤال الرئيسي الذي طرحه الاستاذ مرقص لا اعتقد انه حتى اغلى غلاة الفتحاويين قد قالوا جديا في يوم من الايام ان حركتهم وحدها، او حركة التحرر الفلسطينية بمفردها ، ستنجح في اجلاء العدوان الاسرائيلي عن الاراضي المحتلة هذا اذا لم نذكر تحرير فلسطين نفسها . اعتقد ان افتراض مرقص بأن المقاومة قد تبنت هذا الموقف على أنه رأيها المدروس وعملت على أساس انه يشكل استراتيجيتها الصحيحة فيه الكثير من التجني على حركة المقاومة الفلسطينية . ان التعبيرات العابرة عن الموقف الذي أشار اليه الاستاذ مرقص ورفضه عن حق لم تكن موقفا مدروسا من قبل المقاومة بقدر ما كانت طفرات جاءت في ساعات اليأس من الوضع العربي العام وتخاذله .

شوفاني : تقبلت معظم المنظمات منطق الدولة الديمقراطية في فلسطين ولا توجد أية فكرة باجلاء اليهود منها . منطق الدولة الديمقراطية لا يتطلب طرد اليهود من فلسطين بل تغيير الوعي السياسي لليهود فيها بحيث يتنازلون عن الصهيونية وبالتالي عن فكرة الدولة اليهودية في فلسطين . قبل سيادة هذا المنطق كان منطلق الطرف الاخر هو انه حتى تستطيع دولة اسرائيل الاستمرار والعيش كدولة يهودية لا بد من تواجد ظروف معينة بالعالم العربي المحيط بها . فاذا غيرنا الواقع المحيط

باسرائيل بحيث يمنعها من الوصول الى متطلباتها بالشكل الذي هي تريده لا بد ، في فترة من الفترات او بعد وقت طويل او قصير ، للاسرائيلي ان يسأل نفسه ما هو الداعي لاستمرار المقاومة العربية لوجودي . يعني القصد هو خلق وعي جديد بين اليهود يساعدهم على التخلص من الكيان الصهيوني ومن كيانهم المرتبط بالامبريالية . ان فكرة التحرر في فلسطين عندما نفهمها على أساس منطق الدولة الديمقراطية تختلف عن فكرة التحرر كما طرحها ماو او كما كانت مطروحة في الجزائر اي على أساس قذف المستعمر خارج الوطن . المطلوب هنا هو تغيير كيانه السياسي . صحيح أن التنفيذ كان صعبا للغاية لان الوعي السياسي للجماهير المرتبطة بالثورة فرض على قوات الثورة تنازلات الى حد معين ، أي تنازلا مؤقتا عن الموقف الثوري وقبول منطق جماهير الثورة في البداية من أجل رفع مستوى وعيها . ولكن كل من كان له اتصال بالثورة الفلسطينية من قريب او بعيد كان متأكدا ان المقاومة لن تقدر بمفردها ان تستأصل الامبريالية من هذه المنطقة او من الجزيرة العربية او من اسرائيل ، الهدف هو خلق الظروف الموضوعية التي تمنع اسرائيل من وسائل الحياة .

أ. س. : كنت آمل ان نستمر في معالجة موضوع الصهيونية بحد ذاتها ، قبل أن نصل الى موضوع الثورة الفلسطينية ومهماتها بحيث تأتي هذه الاخيرة في نهاية الندوة . ولا اعتقد اننا انتهينا جديا من تقييم الصهيونية الا ان تطرق الدكتور شوفاني الى قضية الدولة الديموقراطية في المستقبل يمكن ان يخدم في اعادة النقاش الى الموضوع الذي نحن بصدده اليوم — اي الى مفهومنا للصهيونية. ولا يتصل هذا الموضوع بالصهيونية من حيث علاقته بمستقبل مصير اليهود في مرحلة ما بعد التحرير — اي في الدولة الديموقراطية — فحسب، بل وكذلك له صلة وثيقة بطبيعة التطلعات الى المجهودات التي ينبغي بذلها على طريق التحرير . ولا بد هنا من العودة الى العلاقة بين النظرية والعمل ، او العلاقة بين البحث العلمي والتوجه العملي التي سبق واثارها الدكتور ابو لغد في ملاحظة له سابقة . ومن البديهي في هذا المجال ان الادراك المتكامل والنابع عن البحث لا يمكن فصله عن طبيعة التطلعات الايديولوجية والتي بدورها ، في طابعها الذاتي ، تسهم في تحديد الواقع العلمي . وسأحاول ان اوضح قولي هذا بالاشارة الى منطلقين رئيسيين في فهم او مفهوم الصهيونية في الاوساط العربية : الاول هو الذي يرى باستقلالية الصهيونية واسرائيل عن الامبريالية وتلازمه في بعض الاحيان النظرة القائلة بتوسعية اسرائيل ومن ثم خطورتها لكافة الشعوب العربية . والثاني هو الذي يتمسك بالنظرة القائلة بالارتباط العضوي بين الصهيونية والامبريالية وتبعيتها لها منذ نشوئها ضمن الظروف الغربية حتى سيطرتها على فلسطين ومن ثم دورها الحالي في خدمة مواقع الامبريالية في المنطقة .

ان المفهوم القائل باستقلالية اسرائيل يعود الى الليبراليين الاكاديميين العرب ، بمعظمهم من افراد الطبقة البورجوازية شبه الكبيرة العربية ، ممن أدى بهم هذا المفهوم الى الدعوة للتوجه الى البلدان الغربية لتغيير وجهة نظرها تجاه الكيان الصهيوني لصالح العرب . ووجد هذا المفهوم ترجمته على النطاق العملي في الحملات الاعلامية التي وجهت الى الغرب بغية التأثير على ما بات يسمى « الرأي العام العالمي » وعلى هذا فقد باتت المسألة تبدو بالنسبة للكثيرين وكأنها مسألة تنافس وتسابق بين اسرائيل والعرب لنيل تأييد الدول الغربية . وعلى هذا فقد أدى خطأ النظرة القائلة باستقلالية اسرائيل الى بذل مجهودات كبيرة توجهت اعلاميا الى الرأي العام الامبريالي الغربي لصرفه عن تأييده «الاعمى» لاسرائيل، فلم تجد هذه المجهودات اي صدى الا في اوساط اليسار في الغرب . ولم تكن هذه الحملات بالطبع لتؤثر على سياسة الدول الامبريالية التي تتعدى دوافع دعمها لاسرائيل مسألة العطف الاعمى ، الى مسألة المصالح المترابطة والتي تنعكس في تبعية اسرائيل المباشرة للامبريالية .

أما المفهوم القائل بتوسعية اسرائيل فيعود في المرتبة الاولى الى الطبقة البورجوازية الصغيرة التي ترددت عن تحديد كامل سبل التهديد الذي تمثله اسرائيل للشعوب العربية ، فتترجم مفهومها عمليا في اقتصار توجهاتها الاعلامية محليا على ترديد الكلام بأساليب البلاغة المختلفة عن « نوايا اسرائيل التوسعية » . وبغض النظر عما فيها من انكار لحقوق ضحايا التوسعات السابقة لاسرائيل (١٩٤٧ — ١٩٤٨ — ١٩٤٩) والتي لا حاجة للنظر في بواطن النيات لادراكها ، فقد نجم عن هذه النظرة حصر تهديد اسرائيل للشعوب العربية

الاكسترا فلسطينية في امكانية توسعها في المستقبل على حسابها . وهكذا فما زال حاملو هذا المفهوم يرسلون الاقوال عن نوايا اسرائيل « من النيل الى الفرات » ويدرجون الدلائل على ذلك من الكتابات الصهيونية الاولى . وفي رأيي ان هذا المفهوم كان خاطئا وسلبيا . ولا يعني ذلك ان اسرائيل لا تتوسع ولن تتوسع ، بل يعني انه لا يمكننا الاخذ بجدية الكتابات الصهيونية الاولى في القرن الثامن عشر مثل اقوال هرتزل عن حدود دولته ، ان لشيء ، فلأن هرتزل لم يكن يعرف شيئا عن فلسطين الا ما رآه في خريطة كانت بحوزة احد معارفه القس هشلر ، مما يعني ان قوله عن حدود الدولة لا يمكن اخذه بعين الجدية التي غالبا ما اخذ بها في الكتابات العربية . ولكن بغض النظر عن ذلك ، فان النظرة التي تنحصر في القول بالتوسعية ، نجم عنها انطباع لدى السامع العربي العادي بحيث لم يعد يرى اي تهديد لموقعه ومصالحه الا من وجهة النظر التوسعية ، مما يفسر سلبية التعبئة الثورية للمقاومة العربية المسلحة الا في اوساط من ينال منهم التوسع مباشرة .

لو حاولنا حصر او تحديد المعضلات الاساسية التي واجهت الثورة الفلسطينية وادت الى فشلها النسبي في المرحلة الراهنة ، لاستطعنا توضيح عنصرين هامين هما : اولا ، الفشل في تحقيق التعبئة العربية خارج الساحة الفلسطينية وتحقيق التفافها جماهيريا حول الثورة . ثانيا ، الفشل في السعي، او حتى التفكير بالسعي الجدي ، لتعبئة عناصر من الطبقة العاملة الاسرائيلية لصالح الثورة . وهاتان المعضلتان يمكن اعادتهما الى الالتباس في المفهوم العام والسائد حول الصهيونية في الاوساط العربية .

من هنا اهمية النظرة الواضحة والمتكاملة للصهيونية من حيث ظروف نشأتها في الغرب وعواقبها ونتائجها في المنطقة العربية . فتحديد واقع تبعية الصهيونية واسرائيل للامبريالية ، تاريخيا من حيث دورها كأداة في ضرب الثورية في الغرب وحاليا في معاداتها لاي تحركات تقدمية تحررية في المنطقة العربية ، يشكل ضرورة تلازم تحديد الممارسة العملية في التصدي للحركة الصهيونية ودولة اسرائيل وليدتها . واذا نشأت الصهيونية عن ظروف الصراعات المجتمعية الغربية كقسم من جهود الرأسمالية العالمية (الامبريالية) لضرب الثورة وصرف البروليتاريين اليهود عنها باجلائهم الى فلسطين ، وهذه هي النظرة التي طرحتها في ملاحظتي الاولى ، فيشكل هذا المفهوم لدينا اذن ، اساسا للتوجه الى الطبقة العاملة الاسرائيلية في سبيل التصدي الى احدى نقطتي الضعف الاساسيتين التي تواجههما الحركة الوطنية الفلسطينية في سعيها لتحقيق الحل الديموقراطي الاشتراكي الثوري للمشكلة الصهيونية . كما أن توضيح واقع تبعية الصهيونية واسرائيل الى الامبريالية وعملها في خدمتها ، ومن ثم التهديد اليومي المستمر والمباشر الذي تمثله اسرائيل لمصالح الفرد العربي اينما وجد (من شمالي سورية الى العراق الى ما هنالك) ولتحركات مجموعات جماهيره نحو التحرر ، ليس فقط من حيث توسعيتها ، بل بمجرد وجودها كقاعدة استعمارية اداة في يد الامبريالية ، فان ذلك من شأنه ان يشكل أساسا للتوجه الواضح نحو الجماهير العربية لتعبئتها وتخطي نقطة الضعف الثانية التي واجهتها الحركة الوطنية الفلسطينية.

العظم : هناك ارتباط واضح بين ما قاله الدكتور الياس شوفاني حول فكرة تغيير الوعي في اسرائيل وما قاله الزميل الياس سعد حول التفسير الصحيح والواضح للصهيونية باعتبارها اداة من ادوات تغيير الوعي، لكن اعتقد ان التفسير وحده لا يكفي ، يعني التفسير وحده لم يكن قادرا في يوم من الايام على تغيير الكثير الا في الاوساط الفكرية او الثقافية الضيقة . في النهاية ان تغيير الوعي ، ان كان بالنسبة للرأي العام العالمي او بالنسبة لاسرائيل ، رهن بنمو الثورة العربية وقدراتها الكفاحية وبالتضحيات التي تقدمها والانجازات التي تحققها . اذا نمت الحركة الثورية العربية حقا وكبرت ستضطر اسرائيل للتدخل لضربها باعتبارها احد الخطوط الدفاعية للامبريالية ضد الثورة الاشتراكية في المنطقة . التفسير وحده لن يؤدي الى النتائج المطلوبة مما لم تفرض حركة الثورة في المنطقة نفسها عن طريق الكفاح لن يتأثر وعي اية قطاعات جماهيرية هامة ان كان على الصعيد العالمي او الصعيد الاسرائيلي. وواضح ان لا العالم ولا اسرائيل ولا الدول الكبرى نظروا الينا نظرة اكثر جدية مما فعلوا في الفترة التي صعدت فيها حركة المقاومة . لقد تمكنت المقاومة في فترة قصيرة من أن تؤثر على الرأي العام العالمي وحتى على الرأي العام الاسرائيلي

بما لم تستطع ان تغطه جميع البعثات الدبلوماسية والمؤتمرات الدولية وممثلي الدول العربية والجامعة العربية على مدى ربع قرن من العمل الدعائي والتفسيري والتوضيحي . نقطة اخرى حول مسألة تغيير الوعي في اسرائيل مرتبطة بشيء قاله الاستاذ الياس مرقص قبلا عن بعض الثوريين الاسرائيليين الذين يطالبوننا بالاعتراف بحقوق الشعب الاسرائيلي واجاب على مطلبهم بقوله بأنه يجب ان نكون واضحين بأن الامة الاسرائيلية ، او الامة اليهودية الاسرائيلية كما سماها ، مرتبطة بالامبريالية ومعادية لحركة التحرر العربية وحركة التحرر العالمية . هذا الرد ليس الا تحصيل حاصل لان الثوريين الاسرائيليين ، اذا كانوا ثوريين حقا ، يقرون بهذا الواقع الذي يشدد عليه مرقص والا لما كان قد سماهم بالثوريين اصلا . انهم يقرون بأن اسرائيل الصهيونية ، والطغمة الحاكمة فيها ، تضطهد الشعب الفلسطيني وهي دولة مستعمرة ومحتلة الى آخر ذلك مما قاله . ان الاقرار بواقع كون اسرائيل تشكل امة مرتبطة بالامبريالية ومعادية لحركة التحرر المحلية والعالمية من قبل الثوريين كافة لا يعني ، بالمنظور الاستراتيجي البعيد والمنظور الثوري البعيد ، ان نتهرب من مواجهة مسألة الحقوق التي يثيرها الثوريون في اسرائيل . اذا اتفقنا على أن يهود اسرائيل يشكلون او هم في طريقهم الى تشكيل أمة او قومية ، كما قال الاستاذ الياس مرقص ، فلا بد من الاستنتاج بأن طابع الحقوق المتوجب الاقرار بها ، على المدى الاستراتيجي ، للشعب الاسرائيلي هو طابع الحقوق القومية ، وهذا الاقرار هو جزء من النضال الايديولوجي التحرري في الوقت الحاضر .

سعد : لسوء الحظ ، لاحظت ان الدكتور صادق العظم تنحى عن السؤال الذي أثرته — هذا مع العلم انه كان يتكلم وكأنه يجيب على سؤالي . ان المسألة التي أثرتها لا علاقة لها بعقد المؤتمرات الدولية ، وفي الواقع انني سبق وقلت ان المؤتمرات الدولية او التوجهات الى الرأي العام العالمي لم تكن مفيدة . كما ان المسألة التي أثرتها لا تعني انني ارفض اهمية الصراع نفسه في تحديد المفهوم . السؤال يتعلق بفشل الثورة الفلسطينية سياسيا على نطاقين اساسيين والجميع يعرف ذلك ويعلم مدى التضحيات التي نجمت عن ذلك . الفشل الاول كان في التوجه لتعبئة الجماهير العربية الواسعة خارج النطاق الفلسطيني والثاني في التوجه الى الفئات والطبقات الاسرائيلية الكادحة . واعتقد انه سيكون لهاتين المسألتين الاثر الاهم في المستقبل وأود أن يتوجه انتباه المشتركين في هذه الندوة الى كيفية التصدي لهما .

مرقص : احب ان اقول ، انطلاقا من تعليق على كلمة الدكتور الياس شوفاني انني شخصيا لم اتحدث حتى الان عن مسألة الدولة الديمقراطية الفلسطينية ولا حتى تلميحا . وفي نظري القضية الحاسمة ليست هنا ، القضية الاصلية للخطأ ، للانحراف ليست هنا ، او بالاحرى هي هنا جزئيا ولكن بشكل معكوس ، ففي نظري ان المناقشات التي جرت في أوساط المثقفين والمنظمات الفلسطينية والمجلات العربية قبل اربع سنوات او ثلاث سنوات حول موضوع مستقبل فلسطين والدولة الديمقراطية الفلسطينية وعدم رمي اليهود بالبحر وتدمير الدولة الصهيونية بالمعنى اللينيني للدولة كما في كتاب « الدولة والثورة » والمقصود هنا الاخ صادق العظم ، هذه المناقشات التي قامت والتي انقسم عليها المناقشون الى هذين ألم يكن لها ارضية مشتركة ، فهي تفترض وكأننا في مد هائل وكأننا نتقدم الان ، يعني منذ ثلاث سنين ، نحو تحرير فلسطين ذاتها وانه علينا ان نشرع لمستقبل فلسطين الديمقراطية . جوابي على هذا السؤال ايها الاخ شرابي ، جوابي الشخصي ، لانني لم افهم جوابك بشكل محدد — فهمته اولا بشكل ثم فهمته بشكل آخر ، هو نعم ولا يمكن ان نقول لا . كانت هناك أرضية مشتركة هي نفس وطني ثوري جموحي ولكنه خاطىء ايها الاخوان خطأ الاندفاع الى الامام بدون حساب ، استراتيجية لا تعرف مصطلح هجوم ودفاع لا تتساءل أهجوم أم مرحلة دفاع لانها أصلا مؤمنة كأيديولوجيا ولكن لا — تؤاخذنني على الكلمة — شاطحة ، مؤمنة عفويا بأننا في هجوم . وهذه النقطة التي أثارها الدكتور شوفاني وبعض الاخوان تعيدنا الى النقطة الرئيسية التي بقينا حتى الان ، وقبل كلمة الدكتور فايز الاخيرة، بعيدين عنها، وهي مسألة هل نحن الان ، اي في سنة ١٩٦٨ في مرحلة يجوز أو كان يجوز ان نسميها مرحلة تحرير فلسطين وازالة الكيان الصهيوني ، الدولة الصهيونية ، سواء كمرحلة تكتيكية او حتى كمرحلة استراتيجية ام ان تحرير فلسطين هو بالضبط الهدف . اما الهدف الاخير الذي أفضل ان ادخله لا في التكتيك ولا في الاستراتيجية بل افضل ان ادخله في مستوى ثالث ادعوه شخصيا المنظور التاريخي .

وليست عواطفي فقط بل ايضا وعيي وبشكل مطلق هو مع المقاومة الفلسطينية ، في رأيي انا المقاومة لن تموت ، لانني لم أتفاءل فوق اللازم منذ اربع سنوات وأعتقد ان تشاؤمي الان أقل من تشاؤم الكثيرين غيري . اعتقد ان المقاومة الفلسطينية تستطيع ان تصحح ويجب ان تصحح . وتأكيدا او تحديدا لكلمة الاخ صادق العظم اريد ان أقول نعم ، تمكنت المقاومة من ان تقدم خلال فترة قصيرة ما لم يحقق من قبل على يد احد وما قدمته ألخصه كشيء ايجابي وأرجو أن يكون ثابتا فعلها في عقل قسم كبير من الرأي العام العالمي بين مفهوم فلسطين ومفهوم اسرائيل ، ألغت المقاومة هذا الترادف وقلبته الى تناقض في باريس وفي مدن اخرى من العالم ، وهذا شيء ممتاز ، وهذا تلاف لنقص سابق حتى على صعيدنا العربي . من هذا الكلام لا يجوز ان يفهم بأنني ضد تمايز حركة التحرر الفلسطينية ، او ضد طليعة حركة التحرر الفلسطينية عندما تكون صحيحة وواعية ودقيقة تحسب المراحل بدقة . لكن ايضا تعليقا على كلمة الاخ صادق العظم ان المقاومة تمكنت ان تقدم خلال فترة قصيرة ما لم يتحقق على يد غيرها . أريد ان اقول يجب ان نحرز الفترات القصيرة ، من الافضل ان يكون هناك بناء متدرج وغير قصير ابدا ، طويل وأقل سهولة من طريقتنا السابق ومن عملنا السابق واثبت وأرسخ لمدة خمسين سنة ولمدة مئة سنة . في كلمة الاخ صادق العظم حين رد على كلامي اعتقد انه نسي في كلمتي الاخيرة النقطة التي اعتبرها الاهم ألا وهي قضية السيادتين . لا يجوز قيام سيادتين او أمتين كل منهما ذات سيادة . كذلك النقاط الاخرى وأهمها النقطة الاولى الاساسية وهي واقع الصراع ، مستقبلة سبعين سنة تخللتها بعض الحروب الجزئية في الماضي ، سبعين سنة قادمة سيكون فيها حروب أكثر دموية بعشرات المرات ومن الممكن تماما ان تكون اسرائيل هي الطرف المبادر بطريقة من الطرق في هذه الحرب المقبلة . واريد ان اؤكد على طلب الاخ الدكتور فايز صايغ وبصفتي غير فلسطيني اريد ان استنجد بكم لكي اعلم ما هي قناعاتكم ايها الاخوان الفلسطينيون المثقفون الثوريون الوطنيون، هل فشلت أم لم تفشل المقاومة بشكل جوهري ؟ طبعا دائما هناك عدة وجوه للقضية ولكن بشكل جوهري وحاسم هل فشلت ام لم تفشل الثورة الفلسطينية فلسطينيا ؟ بتعبير آخر هل حساب البيدر جاء مطابقا لحساب الحقل ؟ انا اسأل عن التصور الصائب في عقول الاخوان الذين قالوا والاخوان الذين كتبوا ، الاخ صادق وخصم الاخ صادق وخصم الخصم وهكذا دواليك ، ترى هل كان نفس تصورهم الاساسي ؟ لسنا في موضوع نصوص وتدقيق ، لكني أتساءل الان بعيدا عن النصوص يا اخوان عن التصور الجوهري للاخوان الذين أحبهم وأحترمهم وأقدرهم ، ماذا كان تصورهم قبل اربع سنوات وهل حساب البيدر جاء مطابقا لحساب الحقل ؟ يا اخوان مبدأ ماركس ، مبدأ المادية التاريخية يمكنني ان اقول هو كما يلي : في رأس المال ، تستطيع نحلة ، أسوأ نحلة ان تصنع خلية لا يستطيعها أفضل مهندس معماري ، ولكن أسوأ وأضعف انسان له ميزة وتفوق على النحلة انه يضع الصورة في رأسه ، يعني في ذاته قبل أن ينفذها في الموضوع الخارجي . وكل علة وجود الفكر هي هذا الاستنباط ، هذا الانعكاس الذي هو ايضا استنباط وبالتالي هذه الصورة التي كانت في رأس الانسان المهندس الفلسطيني اي القائد والمثقف الفلسطيني الذي أكاد ان اقول ، ولكنها كلمة بشعة ، انه ركب موجة ١٩٦٧ — ١٩٦٨ . هل هذه الصورة ، هذا التوقع ، هذا الاستنباط الذاتي الذي كان في رأسه ، هل اخرج الى الموضوع ام انه حصل العكس تماما ؟ اين حساب البيدر من حساب الحقل ؟ في بداية الندوة جاءتنا دعوة من فتح لمناقشة موضوع ما العمل ؟ يا اخوان انا شخصيا على استعداد ، رغم اي شيء ، ان ابقى يومين وثلاثة ايام واكثر وان نتناقش لكي نجيب على السؤال ما العمل ؟ على ان يكون جوابنا منطلقا من تقييم محدد للمرحلة السابقة ، في ضوء حساب البيدر وحساب الحقل.

أ. أ. ل. : اذا سمح لي الاخوان بأن اوجه احتجاجا رقيقا اليهم وليس الى أي شخص بالذات. اعتقد اننا في هذه الجلسة ابتعدنا قليلا او كثيرا عن الموضوع الذي اجتمعنا من أجله اذ لم ندع الى هذا الاجتماع لمناقشة الثورة الفلسطينية مباشرة او لتقييم انجازاتها او فشلها . لقد دعينا الى هذه الجلسة لنناقش الحركة الصهيونية وتطورها وتقييمها واذا بنا نشطح شطحة اخرى ، يجوز الى موضوع اقرب الى عواطفنا من الموضوع المطروح ولهذا من السهل على أي شخص أن يستدرجنا الى موضوع الثورة الفلسطينية . ولهذا

أقترح على مجلة « شؤون فلسطينية » ، رغم رغبتي في مناقشة ما قيل عن الثورة الفلسطينية في هذه الجلسة ، أنه اذا أردنا أن نناقش موضوع الثورة الفلسطينية او الاسئلة حولها ان تنظم جلسة خاصة لمناقشة موضوع الثورة الفلسطينية . في ما تبقى من الوقت اقترح ثانية بأن نعالج الموضوع الرئيسي الذي أتينا من اجله وهو الحركة الصهيونية واحلامها وكيف تحققت ان تحققت وكيف تغيرت هذه الاحلام على ضوء القوة الاسرائيلية وتطورها . واذا كانت هذه التطورات مرتبطة من قريب او من بعيد بالثورة الفلسطينية لا اجد مانعا من الاشارة الى ذلك لانني اعتقد بأن الحركة الصهيونية والدولة الاسرائيلية تتأثران وتتفاعلان مع المواجهة الفلسطينية والعربية ولا شك بأن للثورة وللبدائل التي طرحتها هذه الثورة أثرا فعالا في التكيف الصهيوني سواء على الصعيد الفكري او على الصعيد العملي ولهذا ارجو من الاخوان اذا سمحوا ان نعود الى الموضوع الرئيسي .

شرابي : اريد ان اقول شيئين : الدكتور ابو لغد هو الذي قال في مطلع الندوة انه اذا كان لمناقشتنا اية قيمة فانها تكمن في النتائج العملية . ثانيا ان المشكلة الاساسية التي تحكم حياتنا ومصيرنا تغلق عليها الباب . السؤال طرحه الاستاذ صايغ وهو السؤال الاساسي الذي اثير بعد أيلول ١٩٧٠ ، وهو ما زال يثار ويقضي عليه حتى الان ، طيب ، لماذا فشلت هذه الثورة ؟ ألا يجب علينا الجواب على هذا النوع من الاسئلة ؟

ابو لغد : يجب على «شؤون فلسطينية» ان تدعونا لمناقشة هذا الموضوع . موضوع اليوم هو الحركة الصهيونية وعلينا انننناقش «ذا الموضوع وننتهي منه وهو مهم بالنسبة لاستراتيجية معينة ، اذا فهمنا طبيعة هذه الحركة وتطوراتها . الموضوع الذي أتينا من أجله ليس الثورة الفلسطينية .

العظم : أعتقد بأنه يجب العودة ، في الواقع ، الى الموضوع الاساسي الذي اجتمعنا من اجله . لكن الاشارات التي جاءت حول المقاومة الفلسطينية لم تكن كلها شاطحة بل كانت مرتبطة بسياق المواجهة العربية الاسرائيلية . اعتقد ان كلام الدكتور ابو لغد هو من قبيل التخوف ، التخوف من ان نشطح اكثر بكثير في هذا الاتجاه ونبتعد اكثر مما يجب عن موضوع تقييم الحركة الصهيونية .

شوفاني : اعتقد اننا لنرجع ونلخص الكلام عن انجازات اسرائيل نحتاج الى يوم كامل . ان العالم العربي كله لا يملك الارادة على التحرك في الاطار الدولي . الصهيونية في فلسطين وفي تحركاتها السياسية وارتباطها مع الامبريالية ومع القوى الرجعية في العالم العربي منعتنا من التحرك ومن امكانية التفكير في ارادة موحدة . يعني الشلل الموجود في العالم العربي حاليا هو نتيجة لانجازات اسرائيل .

سعد : سأحاول العودة الى موضوع اسرائيل والتطورات الاخيرة على ان يكون ذلك ضمن ملاحظة اضافية أود أن أبديها حول موضوع فشل الثورة . ولا بد من القول هنا ان الفشل كان نسبيا لـه ارتباطاته بالظروف الموضوعية الحالية دون ان يعني ذلك فشلا في المدى البعيد خاصة وان الظروف الموضوعية لن تكون بالضرورة هي نفسها في المستقبل . لقد قلت في الملاحظتين السابقتين ان الفشل كان في التعبئة عربيا والتوجه اسرائيليا ، وبالطبع فان المسؤولية لهذا الفشل تعود على الثورة الفلسطينية وهويتها الاساسية . أي بمعنى آخر ، انني اوافق الدكتور صايغ قوله بأن الفشل كان فشلا فلسطينيا مما يستطلب النظر في الثورة الفلسطينية نفسها . انما الثورة الفلسطينية لم تكن هويتها ، نظرا لظروفها ، مجتمعية صرفة ، بل واجهتها ضرورة اثبات الهوية الفلسطينية بعد طمس وغياب طويل منذ عام ١٩٤٨ او ربما قبل ذلك منذ اجهاض ثورة ١٩٣٦ . والواقع ، فان هذا الاثبات للهوية الفلسطينية كان صلب ايديولوجية حركة فتح ، وقد انتقدته الفئات الاخرى على انه ادى الى التمييز بين أردني وفلسطيني ... الخ. الا ان هذه الفئات ايضا كانت قد قالت بضرورة اسماع الصوت الفلسطيني واثبات وجوده . وقد نجحت الثورة الفلسطينية فعلا في اثبات الهوية الفلسطينية الامر الذي لا بد منه في التصدي للصهيونية واسرائيل . الا انها فشلت في الانطلاق من المهمة الوطنية الصرفة للثورة وتصعيدها الى بعدها المجتمعي الاوسع . ولعل اهم أسباب هذا الفشل في هذا المضمار ، هو التردد الذي انعكس في القول الذي طرحته فتح بأن الايديولوجية او الاستراتيجية لا ضرورة لتحديدها ، اذ انها تتبلور مع تطور الصراع . وفي الوقت نفسه فان الاستناد العفوي الى الايديولوجية البولشفية — او بالاحرى الى ماركس ولينين بالذات — ورفع شعاراتها دون

انتهاج هذه الايديولوجية وتطويرها لتحليل الظروف المجتمعية المحلية والحالية بوضوح كان عامل الضعف في اليسار الفلسطيني واليسار العربي عامة حتى الان .

اما بالنسبة للتطورات الاخيرة المتعلقة باسرائيل والصهيونية ، فانها ترتكز في النزعة او الميل نحو نشوء قومية اسرائيلية بمعزل عن القومية اليهودية التي تزعمها الصهيونية لنفسها . ولا شك ان نجاح تبلور قومية اسرائيلية متميزة عن الصهيونية ، من شأنه ان يكون له تأثير حاسم على تطورات النزاع في المستقبل كما انه قد يسهم في تحسين امكانية بقاء الكيان الاسرائيلي . وهناك من يقولون ان قومية اسرائيلية كهذه هي قائمة حاليا ، الا ان المناخ والكيان السائد في اسرائيل هو مناخ الصهيونية — أي بمعنى الارتباط بالصهيونية العالمية ومن ثمة ارتباط الاسرائيليين صهيونيا بيهود العالم . واذا اخذنا بعين الاعتبار نوعية التلاحم بين الصهيونية والامبريالية ، يصبح واضحا ان طبيعة الصراع في الوضع الحالي والمستقبل القريب تتحدد على اساس الصراع ضد الرأسمالية العالمية والامبريالية العالمية . وعلى ذلك فلا يمكن ولا ينبغي اعتبار مسألة تحرير فلسطين على انها الهدف ، اذ ليست سوى جزء من تحرر منطقة الشرق الاوسط عامة . وفي الواقع ، فان وضع هدف تحرير فلسطين ، بمعزل عن التحرر المجتمعي في المنطقة كلها ، موضع التركيز المطلق ومركز الانظار الوحيد قد يشكل ذاتيا سبب عذر للجماهير العربية التي لم ينل منها التوسع الاسرائيلي بعد ، تستعمله القيادات البورجوازية العربية لصرف مبادرات الجماهير عن تحررها المجتمعي تحت غطاء وابل شعارات المزايدات القومية او الدينية الفارغة .

شوفاني : يمكن اني فهمت الكلام الذي جرى بصورة خاطئة ان الثورة الفلسطينية نجحت في خلق الكيان الفلسطيني وتم قبول ذلك عالميا باعتباره أحد أهداف الثورة الفلسطينية . لكن اعتقد ان الدافع الاساسي ، وخاصة الدافع الفتحاوي في جعل الساحة الفلسطينية الساحة الاساسية للصراع نابع ، في نظري ، من تحليل لا يمكننا ان نستغني عنه هو ان العالم العربي في الوقت الحاضر سواء أردنا ام ابينا يعيش في فترة تاريخية تهيمن فيها الايديولوجية القومية الحضارية . بالرغم من ان السوريين يقولون ان الحدود بين سوريه ولبنان هي حدود استعمارية وان الحدود بيننا وبين الاردن هي ايضا من صنع الاستعمار الا انه لا يمكننا ان نتجاهل الاقليمية الموجودة في العالم العربي حاليا. لقد أصبح للجماهير السورية بوعيها السياسي ارتباط بسوريه وللجماهير اللبنانية ارتباط خاص بلبنان كذلك الامر بالنسبة للجماهير الاردنية . عندما نقول اننا والشعب الاردني شعب واحد نحن نتبنى هدفا وليس منطلقا ، لانه اذا بدانا بوضع الهدف مكان المنطلق انقلبت علينا الامور بشكل يجعلنا نعمل بصورة عشوائية . اذن انطلاق العمل من الساحة الفلسطينية كان نابعا من تحليل يقول ان العالم العربي يعيش في الوقت الحاضر فترة من تاريخ حياته تتحكم فيه القومية الحضارية وليس بامكان الانسان الفلسطيني او الحركة الفلسطينية ان تبدأ بصراع طبقي او صراع عقائدي في عالم عربي هذا هو الوعي السياسي السائد فيه ، اذ هناك مسألة بسيطة السوري يقول لنا خربتم بلادكم وجئتم تخربون بلادنا ارجعوا الى بلدكم . فكان لا بد من ان تنطلق الثورة الفلسطينية من مصلحة الجماهير التي لها علاقة او لها مصلحة في نضالها ، يعني كان لا بد للحركة الفلسطينية من ان تجيب على متطلبات الشعب الفلسطيني ، وبما ان هذا الشعب يتحمل مثل كل الشعوب العربية أذى الامبريالية والرجعية بالاضافة الى كونه مشردا كان من الطبيعي ان يكون في الطليعة بسبب تأزم وضعه . وكان لا بد للحركة التي تقوده من ان تطرح مبادىء وايديولوجيات تجيب على متطلباته . هذا لا يعني ان الحركة الفلسطينية ستستمر الى الابد كحركة فلسطينية ، ليس هناك تناقض بين فلسطيني وعربي ، يعني هو عربي لانه فلسطيني . المهم في القضية هو الهدف النهائي للمرحلة ، وكما ذكرت فتح مشيرة الى ان المرحلة الفلسطينية ستتغير بالنهاية الى عربية في قولها ان الثورة الفلسطينية عربية العمق . اما اسباب الفشل فهي باعتقادي معروفة. ان ما قاله الاستاذ سعد حول فشل المفهوم الفلسطيني في الصراع هو تعميم خاطىء على ما اعتقد . كل واحد منا يعلم ان بين الفلسطينيين توجد مجموعات مختلفة في الساحة من الاخوان المسلمين الى الماركسيين واليساريين ، فكيف نتكلم عن المفهوم الفلسطيني للصراع . هذا تعميم لا يمت الى الواقع بصلة . هناك جماعة تريد دولة اسلامية وهناك يساريون يريدون تحولا اشتراكيا . لا يوجد

ثمة شيء اسمه مفهوم فلسطيني للصراع . هناك تركيز على الساحة الفلسطينية وانا اقول التركيز على الساحة الفلسطينية من منطلق ماركسي وهو بالفعل المنطلق الاساسي ، المنطلق الذي نأخذ فيه بالاعتبار الواقع التاريخي والبعد السياسي القائم في الفترة التي ننطلق منها نحو الهدف الذي نعمل له في المستقبل . اما بالنسبة الى الوضع الاسرائيلي اعتقد ان التطور الداخلي هو اهم شيء في الوقت الحاضر ، في المدة الاخيرة رأيت بعض المقالات حول الموضوع ولا شك ان هناك تطورا في الاقتصاد الاسرائيلي الذي بدا وكأنه اقتصاد اشتراكي من خلال مؤسسات اشتراكية مثل الكيبوتس ، والهستدروت هو الشكل الذي لا بد ان تكون عليه بورجوازية الدولة . الا ان الرأسمال الفردي يتجه نحو الازدياد في الاقتصاد الاسرائيلي، مثلا شركات البناء تسير كلها في هذا الاتجاه مع هذا التطور في الاقتصاد . لقد اخذ يحل اقتصاد رأسمالي محل الاقتصاد الذي كان يبدو انه اشتراكي في السابق . هناك تطور اجتماعي يوازي هذا التطور الاقتصادي ، يتكلم عنه الاسرائيليون انفسهم . بروفسور تاريخ في الجامعة العبرية يقول ان مجتمعهم يتطور بدون اية نظرية، وهذا شيء طبيعي فاذا كان هناك تغير اقتصادي خاصة في العلاقات الانتاجية فلا بد ان يتبع ذلك تطور اجتماعي . واذا استمر الوضع على حاله فما الذي نتوقعه في المستقبل القريب حول سياسة اسرائيل ؟ مثل اية سياسة انها مرتبطة بالاقتصاد. والذي تفعله اسرائيل لا بد ان يخدم التطورات الطبقية الجارية في داخلها . هذا التركيز ضروري حتى نفهم ما هي تحركات اسرائيل في المستقبل . اعتقد ان شركات اسرائيل في المستقبل ستسعى لدخول الاوبيك ... لانه اذا اطلعنا على تطورات البترول في اسرائيل نجد لديهم ما يمكن ان يدخل عليهم خمسماية مليون دولار بعد سنوات . وتقوم اسرائيل ببناء اسطول من ناقلات البترول كما انها تبني الانابيب ومصفاتين تنشىء صناعة بتروكيمائية ، ويتم الان توظيف رؤوس اموال بكميات كبيرة في هذا المجال ، من الناحية السياسية لاسرائيل علاقات مع اميركة ، كلنا نعرفها ، ومع ايران ومع اثيوبيا ، كل هذه الامور تدل على ان اسرائيل عندها الامكانية للدخول كعضو في نادي البترول وعندها المساندون الذين يدعمون طلبها في الدخول الى اوبيك . من جهة اخرى هناك محاولة من قبل اسرائيل لتخطي المنظمة الصهيونية والوصول الى اتفاق رأسا مع الحكومة الاميركية وشخصيات يهودية لها علاقة ببعض شركات صناعة الاسلحة وهي شخصيات غير صهيونية بالمعنى الضيق للعبارة . على هذا الاساس ان ارتباط اسرائيل بالامبريالية ، يعني انها مرتبطة بالسياسة الاميركية بغض النظر عما اذا كان نيكسون او غيره في الرئاسة . ولكن اسرائيل تفضل سياسة امبريالية نشطة . ولكننا نجد ان اليهود في الشاطيء الشرقي من الولايات المتحدة والذين كانوا عماد الحركة الليبرالية وضد الحرب في فيتنام وما الى ذلك ، كانوا يساندون ماكغفرن لانه وعد بالانسحاب من فيتنام . ولكن العلاقة مع اسرائيل تبقى شيئا آخر ، لان لاسرائيل تحليلا آخر اذ انها تعرف ان استمرار الدعم الاميركي لها على ما هو في الوقت الحاضر يتوقف على انتهاج سياسة استعمارية نشطة ليس فقط في الشرق الاوسط بل في كل العالم ، من هنا اختيار اسرائيل مساندة نيكسون .

العظم : بدا لي مع بداية كلام الدكتور شوفاني اننا سننجر مرة اخرى مع عواطفنا ونناقش موضوع الثورة الفلسطينية الا ان الدكتور شوفاني اعطانا وصفا للاقتصاد الاسرائيلي واتجاهات تطوره وصلاته باميركه ، ويبدو من كلامه ان مستقبل الاقتصاد الاسرائيلي ، في المدى المتوسط على أقل تعديل ، يتجه نحو الازدهار .

ابو لغد : تعقيبا على كلام الدكتور شوفاني ، اني اشاركه في تشخيصه لما يحدث في المجتمع الاسرائيلي . واود اضافة بعض التعليقات البسيطة على ما قاله بالنسبة لتأثير اسرائيل الفكري والسياسي والتوجيه الاجتماعي بالجماعات الموالية لها نظرا لمتطلباتها السياسية المستقبلية . اعتقد ان الضجة التي اثيرت مؤخرا حول تصريحات رابين ، رغم انها حديثة الا اننا نجد في الواقع ان ما قاله السفير كان قد قال مثيله تماما في الفترة التي كنت موجودا فيها مع شوفاني في ايفانستون في اكتوبر سنة ١٩٧٠ ، حيث انعقد مؤتمر الخريجين الجامعيين العرب وحيث كان الطلبة الاسرائيليون يعقدون مؤتمرهم القومي في اميركة في نفس الركن . وقد القى رابين خطابا جوهريا في اجتماع الطلبة الاسرائيليين دعا فيه الى تأييد القوى التي سماها هو القوى المحافظة الاميركية والتي نسميها نحن احيانا بالرجعية ، واعطى تحليلا يكاد يكون

علميا حول دوافع اسرائيل السياسية في دعم الفئة والجري ورائها ، على اساس تشخيص اسرائيل لطبيعة المعركة السياسية المقبلة والتي اعتبرهـا معركة عالمية . وقال ان اسرائيل مرتبطة عضويا باميركه في هذا العالم ، فاذا استمر الخط المحافظ في السيطرة على الحكم الاميركي كـانت اسرائيل اكثر اطمئنانا بالنسبة لامنها . وفي نفس الكلمـة أضاف بأن القوى التي كانت ترتكز اليها الحركة الصهيونيـة سابقا هي مراكز القوى في الحـزب الديمقراطي ، ومعنى ذلك ان التناقض القائم حاليا في المجتمع الاميركي، وعلى المدى القريب، سيكون تناقضا بين القوى التقدمية التي كانت في ذلـك الوقت متمثلة باليسار الجديد واعتقد رابين بأن هذا التيار سيقوى لكن ليس بالشكل الذي كان يقوله اليسار الجديد ، وبين الفئات المحافظة بحيث لا بد ان تتفتت مراكز القوى الاميركية التي كانت مرتبطة بالحزب الديمقراطي ويندمج القسم الاكبر منهـا في القوى المحافظة وتذهب في اتجاه الحزب الجمهوري القائم . واضاف بـان القوى التقدمية الاميركيـة معادية لاسرائيل وان نمو هذه القوى لا بد وان يضعف دعم اميركا لاسرائيل . ولهذا دعا رابـين الطلبة الاسرائيليين واليهود الاميركان ، الذين كانوا متواجدين في هذا المؤتمر ، الى تأييد نيكسون على المستوى القومي والى تأييـد اشخاص من مذهب معين من امثال جولدواتر المعروف برجعيتـه مما صـدم بعض المستمعين نظرا لانهم اعتادوا علـى محاولات الحركـة الصهيونية الحصول على تأييد عالمي والتوجه الى كافة الفئات التي اصطلح على تسميتها بالليبرالية . كما كانت الحركة الصهيونية في معظم الحالات في مقدمة الحركات التي اطلق عليها اسم « الحركات الليبرالية » مثل حركة اعطاء المزيد من الحقوق المدنية للسود ، مسألة تكافؤ الفرص للمواطنين ، وكل الامور التي كان يعتقد المجتمع الاميركي بأنها من خصائص الجماعة الليبرالية . لقد كانت الحركة الصهيونية والفئات اليهودية بشكل عام دائما تؤيد هذه الحركات الليبرالية . اما الذي يحدث حاليا على الصعيد الاميركي فهو ان مصالح اسرائيل ، وانا الان لا أتكلم عن الصهيونية وانما عن اسرائيل ، بدأت تتصرف وكأن العون سياتيها في الاعوام المقبلة من القـوى الاكثر محافظة علـى الصعيدين العالمي والاميركي وبالتالي فقد بـدأت تمارس ضغوطها على الفئات الصهيونية واليهودية في اميركه وغيرها لكي يحولوا وجهـات نظرهم وانتماءاتهـم من الفئات الليبرالية التقليدية الـى الفئات الرجعية . واعتقد شخصيا بان هذا التطور جوهري في طبيعة العلاقات والتوجهات بين الحركة الصهيونية وبين اسرائيل من جهة وبين الفئـات اليهودية الموالية لهما من جهة اخرى .

مرقص : يا اخوان ، حبذا لو استطيع ان اعلم اذا كان هناك في كلمات الاخوان الياس سعد وشوفاني والدكتور ابو لغد ، اذا كان هناك ، في النتيجة ، اجابة على السؤال الذي طرحه الدكتور فايز صايغ والذي طرحتـه أنا ايضا حـول فشل الثـورة الفلسطينية . عندما تحدث الدكتور ابو لغد وطلب العودة الى الموضوع كتبت على ورقتي فورا انني استجيب لدعوة الدكتور ابراهيم فعلا . كما قال الدكتور ابو لغد المواضيع مترابطة ، الصنوان مترابطان ، الصهيونية واسرائيل والامبريالية من جهة والثورة العربيـة والعرب كشعب من جهـة ثانية . هناك تناقض وهو نوع من الترابط . ولكن فعلا كما قال الدكتور ابو لغـد لقد دعينا لمناقشة الموضـوع الاول اي الى موضـوع الصهيونيـة واسرائيل ومـا حققته الصهيونية بالنسبـة الى المسألة اليهودية ولتطور السياسة العالمية ، اما الموضوع الثاني موضوع حركة التحرر الفلسطيني والمقاومة الفلسطينية والعرب فهو فعلا يحتاج الى جلسة اخرى وربما الى جلسات كثيرة ، ولكن حين استمعت الى كلمات الاخوين الياس سعد والياس شوفاني شعرت وكأنهما تطرقا الى الاسئلة التي طرحت واجابا على هذه الاسئلة وفي رأيي ان اجوبتهما غير كافية ، فكلمة فشل التي وردت لا تكفي لا سيما وانها وردت اصلا في كلامي حين قلت ان ليس هناك فشل مطلق ، واعتقد ايضا اني قلت ان هناك عدة مستويات للنجاح في امر ويمكن ان يكون فشلا على مستوى اخر . استطيع ان أقول مثلا ان المقاومة نجحت في امور كثيرة ولكنها فشلت في المستوى الحاسم والاكثر حسما ، ولقد جـرى حديث عن الماركسية في فلسطين والمنطلق الماركسي واحب ان اقول يا ترى هل علينا ان نعتقد ان هناك خطا ماركسيا ممكنا في هذا الموضوع دون الاجابة على الاسئلة التي طرحت من قبل الدكتور فايـز صايغ ومن قبلي ، ومسألة مطابقة حساب البيدر على حساب الحقل . بالطبع يا اخوان ارجو واحب ان اؤكد من جديد انني استجيب كليا لدعوة الدكتور ابراهيم ابو لغد والكلام الذي قاله حول الولايات المتحدة والاحزاب ، واحب ان اضيف اليه ، عودة

الى موضوعنا الاصلي ، تساؤلي السابق : اليس علينا ان ننظر الى مفهوم المسألة اليهودية في المستقبل كموقع لليهود ، وكدور ليهود ، كدور سياسي لليهود كجماعة او كدور غالب في هذه الجماعة ؟ ان نعلم مثلا ان الشكل الماضي السابق مباشرة لمرحلتنا التاريخية العالمية الراهنة كان هو انفجار المسألة اليهودية في شكل عنصري ، نازية رهيبة ، كانت بالطبع جزءا لا يتجزأ من خط النازية واستعبادها لامم اوروبية ولشعوب اوروبه ، ضربها للثورة البروليتارية واستعبادها لشعوب العالم ايضا . ترى هل يحمل لنا الوقت الحاضر والمستقبل القريب والبعيد نتيجة تغير كثيرا من الظروف ؟ هل يحمل انفجارا للمسألة اليهودية في شكل اخر ومعاكس ، اي مثلا في شكل انفجار شعور قومي فرنسي او وطني فرنسي ضد الصهيونية باعتبار الصهيونية جزءا في فرنسه من التسلط الاميركي المتزايد على فرنسه بواسطة الاقتصاد وخصوصا بواسطة الاعلام والفكر والثقافة وغير ذلك من الامور ؟ اعتقد شخصيا ان هذا الامر قد يكون اهم من مسألة الولايات المتحدة الاميركية. ما هو مستقبل المسألة اليهودية والمسألة الصهيونية في فرنسه نفسها ؟ اذا كنا طبعا نعتقد بأن هناك احتمالا ان يحمل المستقبل بعض الصدام بين فرنسه والسيطرة الاميركية او بين اوروبه الغربية والسيطرة الاميركية ماذا يكون في هذه الحالة موقع المسألة اليهودية ؟ الا يمكن ان تتخذ شكلا جديدا تماما معاكسا للشكل الذي اخذته ما قبل ٣٠ سنة أي شكل مناهضة للصهيونية تلعب دورا فاعلا وعميقا في جمهور شعبي واسع وليس في قطاع طلابي مثلا . بالاضافة الى القضايا التي طرحها الدكتور ابراهيم ابو لغد والدكتور شوفاني والاستاذ الياس سعد احب ان اطرح هذه الامور ايضا على بساط البحث .

جبران مجدلاني : آسف لتأخري عن المشاركة منذ البداية في الندوة وأسفي ناتج ايضا عن كوني لم استمع الى كل الاراء كي اتجنب التكرار او الخوض في قضايا ربما بحثت في السابق . سانطلق من نقطة بدأها الدكتور ابو لغد واعتقد انها اساسية في اية معالجة جدية للقضية الصهيونية . اعتقد ان التناقض العضوي بين النظرية الصهيونية والفكر الثوري او حتى التقدمي بمفهومه الصحيح لم يبرز في الواقع لعدة اسباب : اولا الوضع العربي ، وثانيا وضع اليهود في العالم قبل قيام دولة اسرائيل . فالسيطرة الاقطاعية الرجعية على مختلف الاقطار العربية عندما انطرحت القضية الصهيونية في ذلك الوقت خلقت انطباعا في الاوساط نصف التقدمية في العالم وحتى في الاوساط اليسارية أن معركة اليهود المتمثلين في الحركة الصهيونية انما هي جزء من معركة التقدم في وجه التخلف الذي كانت تجسده الانظمة العربية . ومن جهة ثانية هناك وضع الاقليات في العالم والمعالجات الجزئية له في السابق والاضطهاد الخاص الذي تعرض له اليهود ساعدت كلها في تكوين نوع من الالتباس بين مشكلات اليهود كمجموعات وبين الفكر الصهيوني . لكن حرب ١٩٦٧ ، بنظري ، بلورت تحولا في المفاهيم وان لم تكن الحرب هي منطلق هذا التحول لان الخضات والانتفاضات التي قامت في الاقطار العربية ، مهما كان تقييمنا لها ، لفتت النظر الى ان في العالم العربي نزعات تقدمية وان كان التعبير عنها في بعض الاحيان سيئا او جزئيا وابتدأت الاوساط التقدمية تنظر الى المجموعة العربية بنوع من الاهتمام سعيا لفهم ما هي ابعاد هذه الانتفاضات. في الواقع ان التقارب الذي حصل بين بعض الانظمة العربية والمعسكر الاشتراكي ساعد ايضا في فتح الاعين على الامكانات الموجودة في الاقطار العربية . ان الرجعية العربية دائما حاولت ان تربط بين الحركة الصهيونية واليسار العالمي كما في تركيزها على عدد اليهود في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي وبنوع خاص عند اندلاع ثورة اكتوبر او على الانتماء الديني لبعض الزعماء في الحركات اليسارية او شبه اليسارية في البلدان الغربية . لكن الحقيقة هي ان الحركة الصهيونية، من حيث هي تفكير ، لا بد ان تصل في الممارسة الى موقف منسجم مع نظريتها . ولذلك كان لا بد ، بفضل التحركات التي حدثت في الوطن العربي ، وبفضل انتفاضة المقاومة الفلسطينية ، من ان يبدأ التجانس بين النظرية الصهيونية وبين واقع انتمائها فأصبحت جزءا واقعيا من المعسكر الامبريالي الرأسمالي . وعندما برز التحول ، اولا في اوساط الاحزاب الشيوعية في العالم ثم في الاوساط اليسارية من خارج هذه الاحزاب ، باتجاه تقارب هذه الاوساط مع الحركة العربية ومع الامال المعلقة على الانتفاضات العربية اخذت الحركة الصهيونية تلتصق اكثر فأكثر وبصورة علنية تماما باليمين العالمي، اذا استطعنا ان نسميه كذلك.وانا كنت دائما اتساءل عند مراجعتي الصحافة الفرنسية

كيف بدأ يبرز التحول في تفكير الصهيونيين من الذين كانوا يركبون موجة اليسار في اوروبه . بدأ هذا التحول يبرز اكثر فأكثر بعد حرب ١٩٦٧ فكان هناك مفكرون صهيونيون في فرنسه ، مثلا ، من الذين وقفوا مع حرب التحرير في الجزائر او من الذين وقفوا في البداية مع الحرب التحريرية في الهند الصينية ثم اخذوا يتحولون تدريجيا الى الوقوف في مواقع معاكسة حتى بالنسبة لحرب التحرير في فيتنام وبدأوا يصبون كل غضبهم على المعسكر الاشتراكي . بنظري ان السبب الرئيسي الذي جعلهم يصبون غضبهم على المعسكر الاشتراكي وعلى الاتحاد السوفياتي كان شعورهم ببداية التحول الذي بدأ يظهر في هذا المعسكر ازاء القضايا العربية ومنطلقهم الاول والاخير كان الانتماء النظري للقضية الصهيونية . ومن خلال انتمائهم هذا كانوا يكيفون مواقفهم الاخرى . فعندما بدأ يتحول اليسار الحقيقي عن اسرائيل وبدأ يأخذ مواقف سلبية منها تزداد حدتها مع الوقت بدأ جميع مفكري الصهيونية ، من الذين توزعوا على عدة مناطق وعلى عدة جبهات ، يتجمعون في الصف المحافظ ، في الصف المغالي في المحافظة . وسأقدم مثلا على ذلك جان جاك سرفان شرايبر الذي كان في السابق وعندما بدأ نشاطه الصحفي من اكثر المتحمسين لجبهة التحرير الجزائرية . كتب هذا الصحافي مقالا بعد الهجوم الاخير لثوار فيتنام شبه فيه الدبابات والمدفعية الفيتنامية بدبابات ومدفعية القوات الالمانية النازية . اعطي هذا المثل ، وقد يكون فيه شيء من المبالغة اذا اردنا تعميمه ، للتدليل فقط على التحول الفكري والسياسي في الاوساط المرتبطة بالحركة الصهيونية في العالم . لذلك من الطبيعي جدا ان يؤيد الصهيونيون الحزب الجمهوري على حساب الحزب الديمقراطي لان في التخطيط الصهيوني المركز قائمة على مستوى العالم وليس على مستوى منطقتنا فقط. فكل ضعف للمعسكر الرأسمالي الامبريالي هو ضعف بالنتيجة للحركة الصهيونية نفسها . واذا كان مرشح الرئاسة الاميركية ماكغفرن يرفض الاصوات المؤيدة للعرب في كل خطاباته وهو بعيد جدا ، موضوعيا ، عن اليسار ولا احد مقتنع بيساريته ، الا انه يمثل الرأسمالية اللاهجومية ، رأسمالية الحوار اذا شئتم ، رأسمالية الابقاء على امكانية التنازل . ولذلك فهو من حيث انه لا يمثل التيار الهجومي في الاخطبوط الرأسمالي ، يشكل ، موضوعيا ، خطرا على الحركة الصهيونية . كذلك كان لا بد ان تقف الحركة الصهيونية مع القوى الهاجمة في الصف الرأسمالي . لذلك لا اعتقد ان هناك تناقضا بين موقف السفير الاسرائيلي في الولايات المتحدة وموقف الصهيونيين هناك لان قيادة الحركة الصهيونية انتقلت الى اسرائيل ولم تعد كما كانت قبل قيام دولتها او كما كانت بعد قيامها بسنوات قليلة . لم تعد القيادة في الخارج بل اصبحت في داخل اسرائيل ، والموقف الذي تقفه اسرائيل من احد كبار دعاة الصهيونية في العالم ناحوم جولدمان وابتعاده تدريجيا عن القيادة يعطينا صورة عن انتقال مركز الثقل الى اسرائيل نفسها. موقف اسرائيل هو المعبر عن المصالح الحقيقية للحركة الصهيونية. وصراحة انا لا اعتقد بأن هناك تناقضا في هذا الوضع حتى وان برزت بعض المقالات في بعض الصحف من قبل يهود اميركيين بمعنى مخالف فذلك قد يكون نتيجة التخوف الذي عبر عنه الاستاذ الياس مرقص ، التخوف من ردة فعل شوفينية تجاه اليهود في العالم . فلا بد اذن من أن يقف بعض اليهود المعروفين بانتمائهم الديني الى اليهودية ضد الموقف العلني السافر من قبل دولة اسرائيل بالنسبة لمعركة داخلية في الولايات المتحدة. ومن ظواهر هذا الارتباط التدريجي العلني بين الحركة الصهيونية والحركة المحافظة بروز التناقض بين اليهود والسود في الولايات المتحدة . كذلك لقد تابعنا في السنتين الاخيرتين التناقض الحاد الذي برز بين الاساتذة السود ، خاصة معلمي المدارس في نيويورك ، وبين اليهود اذ ان اليهود هم مالكو المساكن في مناطق الاكثرية السوداء في هذه الولاية . ولاسباب اخرى انتشرت كذلك مواقف الحركة الصهيونية من القضايا الافريقية بشكل عام وواضح جدا . فالعلاقات الاساسية التي تقوم بين اسرائيل والاقطار الافريقية واقعة مع جنوب افريقيه اولا ، حيث توجد جاليات يهودية كبيرة هي جزء لا يتجزأ من النظام العنصري في جنوبي افريقيه . ومع روديسيا ثانيا ومع اثيوبيا ثالثا . ويمكن ان يضاف اليها بعض البلدان الافريقية المرتبطة ارتباطا وثيقا بالغرب كشاطىء العاج وغيرها . احببت ان اذكر ، على سبيل المثال ، بعض الاقطار التي تعطي صورة حية عن هذا الانتماء . فنحن اليوم في الواقع نشهد تحول اليسار الحقيقي في العالم ازاء القضية الصهيونية. اعتقد ان استراتيجية الصهيونية ستتركز ازاء هذه

الظاهرة الجديدة على جبهتين : الجبهة الاولى هي الخط المحافظ في الولايات المتحدة الامريكية لا الاوساط الليبرالية التي ستعتبرها الحركة الصهيونية خطرة على المعسكر الرأسمالي في المدى البعيد . الجبهة الثانية يمكن ان نطلق عليها ، بشكل عام ، اسم الديمقراطية الاشتراكية في اوروبه الغربية . في الولايات المتحدة سيكون التركيز الاساسي ، في نظري ، على المحافظين . اما في اوروبه الغربية فسيكون على الحركات الديمقراطية الاشتراكية وليس على القوى المحافظة ، لان القوى المحافظة في اوروبه معرضة لردة فعل شوفينية بوجه السيطرة الامريكية وهي مهيأة اكثر من الحركة الوسطية ، التي تسمي نفسها الحركة الديمقراطية الاشتراكية ، للوقوف احيانا بوجه الضغط الامريكي المتزايد والتسلط الامريكي المتزايد في اوروبه . ولذلك نجد في الوقت الحاضر ان اكثر المتحمسين لاسرائيل في فرنسه ليس اليمين التقليدي ، بل الحزب الاشتراكي ، بزعامة «ميتران» وسابقا غي موليه ، وحركة الوسط ، كما تسمي نفسها ، والتي تضم عددا من الاحزاب . وفي بريطانيا ايضا نجد ان قوة تأثير الصهيونية في حزب العمال وخاصة في الاوساط اليمينية للحزب أقوى من تأثيرها في اوساط حزب المحافظين لان لبريطانيا بقايا من المصالح في منطقتنا تريد ان تحافظ عليها ، الرأسمال البريطاني يود ان يناور للمحافظة على مصالحه . اني اعتقد ان المجابهة ، اي مجابهة الحركة الصهيونية من قبلنا ، تكون اولا في التركيز على العالم الثالث الذي يشترك معنا في مصيبة واحدة ازاء السيطرة الرأسمالية الغربية التي تتزعمها الولايات المتحدة الامريكية ، وثانيا على الانتماء الجدي الجبهوي الى الحركة اليسارية الحقيقية في اوروبه الغربية ضد الوسط وضد القوى التقليدية طبعا .

العظم : كان بودي لو كان الاستاذ جبران موجودا معنا منذ البداية ليقدم مطالعاته المتازةحول الموضوع . وارى ان في ما قاله نقاطا تتصل بأمور مر ذكرها معنا مثل مدى حدود العلاقة بين اسرائيل والحركة الصهيونية العالمية والجاليات اليهودية في الخارج وخاصة في امريكا . اعتقد ان رغبة اسرائيل في دعم نيكسون في وجه الاتجاه التقليدي للجالية اليهودية في الولايات المتحدة بالتصويت للحزب الديمقراطي بصورة عامة ، سوف يخلق تناقضات جانبية وجزئية في صفوف الاقلية اليهودية الامريكية ويؤثر الى حد ما على علاقاتها باسرائيل . الا انه لا يجوز ابدا تضخيم حجم هذه التناقضات او اعطائها اية اهمية لا تستحق في التفكير السياسي العربي .

ابو لغد : عندي تعليق بسيط واستيضاح موجه للسيد جبران . التعليق لمجرد التوكيد على هذا الخط الطويل المدى في التأثير الاسرائيلي على نشوء فئة محافظة في الولايات المتحدة . اعتقد ان هذا الخط توضح في اواخر عهد الرئيس جونسون . اواخر ٦٥ — ٦٨ كان هناك ظاهرة غريبة هي ان الحركة المعادية للحرب الفيتنامية في اميركه — وهي حركة تقدمية — في فترتها الاولى كانت تشمل اعدادا كبيرة من اليهود والصهيونيين وفي وقت محدد ، على ما اعتقد في يناير ١٩٦٦ ، نشرت الصحف الامريكية ان الرئيس جونسون قابل أبا أيبان وطلب اليه التوسط لدى الفئات الصهيونية المسيطرة على الجاليات الصهيونية في اميركه لكي تخفف من نشاطها المعادي للتدخل العسكري الامريكي في فيتنام ، ونتيجة لهذا الاستعطاف يظهر ان الحكومة الاسرائيلية اتخذت من الخط ما يكفيها لتغير وجهة نظر القادة الصهيونيين الذين قاموا بحملات تبشيرية بين الجاليات اليهودية تدعوهم للتنحي عن الموقف السابق الذي من شأنه ان يؤثر في مصالح اسرائيل الذاتية . واذا قارنا بين الفئات المناهضة للحرب الفيتنامية في تلك الفترة وبين الفترات المعاصرة نجد ان اليهود والصهيونيين الان لا وجود لهم في الحركة بالشكل التنظيمي الطليعي الذي كانوا يتمتعون به سابقا . هذا لمجرد التوكيد على الاثر السياسي الاسرائيلي في تقوية الخط المحافظ او الرجعي لدى الفئات اليهودية او الصهيونية في المجتمع الامريكي. وهذا يبرز مرة اخرى الفرق بين التأثير الصهيوني في العهود السابقة الذي ادى الى الانتماء الى الليبرالية وبين التأثير الاسرائيلي المعاصر الذي يؤدي الى انتماء الفئات اليهودية الى القوى المحافظة او الرجعية . لكن السؤال الذي اريد ان اوجهه الى السيد جبران وانا متأكد الى حد ما من الاجابة النظرية ، ينبع مما بدا لي في سرد كلامه ويتعلق بتحديد الفرق بين اليهودية وبين الصهيونية من حيث الانتماء الشخصي . فعندما نتكلم عن شخص ما هل نجد لدينا معايير معينة نستعملها لقياس صهيونيته ؟ أم نحن نقع في الخطأ من حيث لا نشعر ونحاول ان نهرب من وصف فلان بأنه

يهودي ونصفه بأنه صهيوني ؟ انا متأكد أننا نميز في اذهاننا بين الفئات اليهودية المنتمية الى الدين اليهودي والى ثقافة معينة يمكن تجاوزا ان نسميها يهودية وبين الحركة الصهيونية الملتزمة بخط سياسي معين ومنطلق من منطلقات معينة الخ. لكن يبدو لي انه في حديثنا نخرج احيانا عن هذه الطريق ، فاذا اردنا ان نستشهد بانسان ما ونقول انه صهيوني هل استعملنا في الواقع المقاييس العملية الدقيقة التي تمكنا ان نقول ان فلان من الناس ، سواء كان في فرنسه او في اميركه ، شرايبر او محرر جريدة الواشنطن بوست او غيرها مثلا ، هو في الواقع صهيوني ملتزم بخط الحركة على طول منذ نشأته السياسية او بعد فترة معينة من تكونه السياسي ام اننا نستعمل التسمية للتغطية لهذا التصور للفئات اليهودية وكأنها كلها فئة واحدة ملتزمة بالخط الصهيوني ؟

مجدلاني: عندما ذكرت جان جاك سرفان شرايبر قلت انه صهيوني . هو في الواقع من اصل يهودي ومتنصر ولكن هذه القضية ليست مهمة . الواقع اشكر الدكتور ابو لغد لانه مكنني من ان اتمم حديثي لان هناك بعض النقاط التي اردت ذكرها في سياق حديثي ولم افعل .من جملة الاشياء التي تلفت النظر في التكتيك الصهيوني وجود عدد من اليهود من حيث الانتماء الديني او الاجتماعي ، الاكثرية منهم غير مؤمنة بالدين اصلا ، ولكنهم محسوبون في المجتمعات التي يعيشون فيها على انهم يهود . فاليساريون من اليهود ينعتون بأنهم اعداء للصهيونية وهناك تعبير اصبح شائعا في الاوساط الصهيونية The Anti-Semitic Jews هو « اليهود المعادون للسامية » لان انتماءهم اليساري هو انتماؤهم الاول والاخير ولا يعانون اي تناقض او تمزق في شخصيتهم . بينما هناك مجموعة من اليهود الذين تربوا على التقاليد الليبرالية بسبب وضعهم كأقليات وبحكم كونهم معرضين للاضطهاد فانهم اذ يفتشون عن الحركات التي تضع حدا لاضطهاد هذه الاقليات ، انما يفعلون ذلك كنتيجة للحاجة لا كتعبير لاختيار نظري شامل . لذلك نجد ان نسبة مئوية كبيرة من اليهود اعتنقت المبادىء التي تخلصهم من وضعهم كأقليات ، وهذا هو موقف طبيعي ومشروع . في الحقيقة عندما اتكلم شخصيا عن الصهيونيين لا اعني فقط اليهود الصهيونيين بل ايضا المسيحيين الصهيونيين والمسلمين الصهيونيين وهذا ليس تجاوزا للواقع مطلقا . وهناك تمييز اخر داخل صفوف الصهيونيين ، الصهيونيون ممن اسميهم بالصهيونيين المتشددين او الصريحين في صهيونيتهم ، والصهيونيون الذين يجبنون عن الافصاح عن حقيقة انتمائهم والذين يعتقدون انهم صهيونيون اذكياء . اضرب مثلا على ذلك بمجلة فرنسية اخرى غير الاكسبرس التابعة لسرفان شرايبر وهي مجلة « النوفيل اوبزرفتور » ، رئيس تحريرها كان سابقا محررا في الاكسبرس وهو جان دانيال ، المنحدر من عائلة يهودية من الجزائر حيث ولد . بالفعل تعبر هذه المجلة عن التيار « اليساري » ، اذا استطعنا ان نعتبر ان هناك يسارا ، في الحركة الصهيونية ، اذ ان عطف المجلة يذهب الى مجموعة المابام وما شابهها من الحركات في داخل اسرائيل . ولكن حتى هذه المجلة التي تدعي ان الاكسبرس يمينية وانها هي المجلة اليسارية تركز كل اهتمامها على مهاجمة الاتحاد السوفياتي وعلى كل ما يجري في المعسكر الاشتراكي . الصحف اليمينية في اوروبة تحاول ان تحفظ نوعا من مظهر الموضوعية في معالجتها لقضايا المعسكر الاشتراكي بينما نجد ان النوفيل اوبزرفاتور ، التي تتكلم من وقت الى اخر عن وحشية حروب الولايات المتحدة وفظاعة استغلال الرأسمالية الاميركي لثروات اميركا اللاتينية، عندما تتكلم عن المعسكر الاشتراكي تركز دوما على اظهار السلبيات وعلى نفي الايجابيات . ونلاحظ في الواقع ان هذه الجرائد التي تدعي اليسارية تصنف الانظمة ، حسب ما لاحظته شخصيا ، من خلال مواقفها من القضية العربية والصراع مع اسرائيل. نأخذ على سبيل المثال يوغندا . عندما جرى الانقلاب في يوغندا ضد الدكتور « أوبوتي » لم تستطع هذه الصحافة التي تدعي اليسارية تأييد عيدي أمين لان حركته عسكرية ولكنها اظهرت مساوىء الحكم السابق بشكل يجعل اي قارىء ينجرف الى تأييد عيدي امين وعندما جاء التحول المسرحي في سياسة عيدي امين نحو اسرائيل ، الذي لعبت في انجازه الجنيهات الليبية دورا لا يستهان به ، بدأت نفس هذه الصحف بالعودة الى تاريخ سلالة عيدي امين ومن حوله لاظهار كل السلبيات في حكمه واظهاره بمظهر الانسان الذي لا يوثق به الى اخر ذلك من الامثلة . فمن متابعة كتابات هؤلاء وتحليلاتهم ومواقفهم عبر سنوات عديدة توصلت الى هذا الاستنتاج . اي ان الموقف من اي نظام مرتبط

بموقف هذا النظام من اسرائيل . بالنسبة للولايات المتحدة اعتقد ان المعركة الاساسية ضدها هي معركة خارجية وليست داخلية اي ان معركتنا معها يجب ان تتركز على تحطيم مصالحها وسلطتها في العالم كله ، طبعا على قدر استطاعتنا وحيث ما تطال يدنا ابتداء بأقطارنا نحن. بالاضافة الى ذلك وعلى الصعيد الداخلي اعتقد ان الانسجام الوحيد الذي يمكن ان يقوم بيننا وبين اية فئة داخل امريكا ينحصر في الفئات المضطهدة. طبعا قد يحدث انشقاق في الحزب الديمقراطي ولكن ليس هذا هو المهم وليس هو البديل الذي يرد الى الذهن . الفئات المضطهدة في الولايات المتحدة اكانت الاقليات السوداء او الاقليات المكسيكية او البورتوركية الخ او الفئات المضطهدة اقتصاديا هي المرجع الطبيعي الوحيد لنا في الظروف الراهنة فيما عدا افراد يلتقون مع الحركة التحررية بسبب تخطيهم لاوضاعهم الشخصية الموروثة . اقول ايضا ان المعسكر الاشتراكي ، وان لم يقف من القضايا العربية الموقف المطلق الذي نرغب فيه ، هو مركز التوجه ، اذ اعتقد ان قضيتنا هي من النوع الذي تتداخل فيها الامور بشكل يجعل من الصعب على القوى الخارجية الكبرى ان تتبنى موقفنا الى الحد الذي نرغب فيه بالرغم من ان العلاقة مع المعسكر الاشتراكي هي علاقة لقاء استراتيجي حقيقي مع وجود نقاط اختلاف عديدة . الا ان المعسكر الاشتراكي ، بالرغم عن تناقضاته الداخلية ، هو قوة من الضروري تعميق الصلة بها وتعميق العلاقة معها . من خلال هذا التفاعل نستطيع ان نطور موقف المعسكر الاشتراكي او على الاقل ان نطور موقف عدة اقطار من اقطاره وان نفتح اكثر من طريق في داخله .

سعد : ان تطرق النقاش الى موضوع ارتداد الجماعات اليهودية عن الليبرالية الى المواقف المحافظة مؤخرا في الغرب والدور الذي لعبته الصهيونية في ذلك ، يعود بي الى اطروحتي الرئيسية : وهي ان الصهيونية نشأت ضمن ظروف مشابهة لهذه التي نحن بصددها وكان الدافع لنشوئها ، الدور الذي أهلت الصهيونية للعبه في التأثير على مثل هذه الظروف . ان الظروف التي نحن بصددها نشأت ، كما يعلم الجميع ، باتساع موجة المعارضة للحرب الفيتنامية مما أدى الى بروز اليسار الجديد وانتشار مناخ الراديكالية في اوساط الشباب والطلاب بداية باواسط الستينات.

وقد انضمت اعداد من الشباب اليهود في الغرب الى الحركات الراديكالية ، فهب الصهيونيون للحد من ذلك بجميع السبل وقاموا بمحاولات جدية فعلية ورسمية من خلال اجهزة المؤسسة الصهيونية في الغرب لصرف اليهود عن الراديكالية وحتى عن الليبرالية مما يفسر هذا الارتداد الذي شهدناه الى المحافظة . وكل من له اضطلاع بأوضاع الجامعات في الولايات المتحدة يعلم ان الصهيونيين قد قاموا بمبادرة مباشرة منهم باقامة منظمات ما يسمى « الراديكالية ــ الصهيونية » كي تعمل بتمويل مباشر من الحركة الصهيونية على امتصاص مبادرات الشباب والطلاب وصرفها عن اليسار الجديد . وفي الواقع ، فان هذه الظروف نفسها ، ظروف بروز الراديكالية والاشتراكية ، الثورية في الاوساط اليهودية عند نهاية القرن الماضي واوائل القرن الحالي هي التي ادت الى ظهور الصهيونية ونموها على ايدي البورجوازية اليهودية ، وبتمويل منها ، لصرف اليهود عن الحركات الثورية . ولو عدنا الى المؤتمر الصهيوني الاول عام ١٨٩٧ ، وهو الذي عقدت هذه الندوة بمناسبة مرور ٧٥ سنة على تأسيسه ، لوجدنا ، وفق ما كتبه هرتزل عن المؤتمر ، ان الاطار الوحيد الذي تشكل عن المؤتمر هي لجنة العمل التي ضمت عددا من الصحفيين بمن فيهم هرتزل. اما السكرتير العام لهذه اللجنة، وهو الوحيد الذي خصص له معاش مقابل عمله لصالح الصهيونية ، فكان اسمه بيرنباوم يدعي انه اشتراكي ويعمل في اوساط الطلاب اليهود في فيينه لصرفهم عن الاشتراكية بتوجيههم الى الصهيونية . وبهذا نرى ان هرتزل عندما كان يلتقي بالمسؤولين الالمان بعد ذلك ، كان دائما يردد على مسمعهم قوله « اننا نجحنا في صرف الطلاب اليهود في جامعة فيينه عن الاشتراكية » . وكذلك نرى انه بعيد اجهاض الثورة الروسية عام ١٩٠٥ ، بدأ بير بوروشوف ، مؤسس اليسار الصهيوني والعمالية الصهيونية ، عمله كخطيب متجول بتمويل من المنظمة الصهيونية . وفي الواقع ، فان أي فترة بعد ذلك شهدت فيها انطلاقة راديكالية في الغرب قابلها تنشيط الصهيونية ، وتنشيط اليسار الصهيوني بشكل خاص ، لصرف اليهود عن الراديكالية ومن ثمة عن اليسار الحقيقي . وعلى هذا ، فان التطورات الاخيرة في الولايات المتحدة وغربي اوروبه لا تشكل تطورا جديدا بل هي استمرار لتراث تاريخي طويل بالنسبة للصهيونية.

قازان : ان ما قاله السيد الياس سعد صحيح ، فيما يتعلق بالرؤساء الصهيونيين او اليهود في اوروبه في اواخر القرن الماضي ، واعتقد ان التفسير العلمي لهذا التحول ينبع من تحول ضمني، تحول في محتوى تطور الرأسمالية ، من رأسمالية المزاحمة الحرة ، عندما لم تكن قد استنفذت كل امكاناتها التقدمية بعد ، الى الدخول في مرحلة الامبريالية ، المرحلة التي خلقت في اوروبه تراكما انتاجيا ، ولم تكن السوق الاوروبية كافية لابتلاع التراكم الانتاجي لذلك تحولت البورجوازية من بورجوازية المزاحمة الحرة الى البورجوازية الامبريالية . وباعتبار ان الصهيونية فرع عضوي من مجموع كلي اسمه البورجوازية الاوروبية فهي في نفسها بعد ان كانت تقدمية الى حد ما اصبحت رجعية . اعتقد ان هذا التفسير يعني ان كلهم صاروا رجعيين بالنتيجة . وفيما يتعلق بالتحولات التي طرأت على بعض الشخصيات الديمقراطية التي كانت تدعي أنها يسارية ، كما ذكر الاستاذ جبران مجدلاني ، فالملاحظ في كلمته انه ذكر بان منذ عشر سنوات بدأت الحركة العربية تنظر الى المعسكر الاشتراكي بجدية عندما تم كسر احتكار السلاح الخ ... وبدأت هذه الشخصيات والجماعات تنظر الى اميركه بل تنظر الى كل ما هو رجعي مع انهم كانوا يعتبرون انفسهم يساريين . لقد فضح هؤلاء « اليساريون » انفسهم بأنفسهم ، عندما بدأت الحركة العربية تأخذ اتجاها يساريا مع قدوم البورجوازية الصغيرة . ويجب ان نأخذ بعين الاعتبار ان الصهيونيين كان عندهم رصيد في اوروبه . انا عشت في فرنسه فترة طويلة ، وكان الصهيونيون يقولون نحن نريد بناء دولة عصرية في البلاد العربية نريد تمدين العرب لكن عندما بدأ العرب بالتحرر من الاقطاعية والى حد ما من الرأسمالية الاجنبية والرأسمالية الداخلية المرتبطة بالرأسمال الاجنبي انقلبوا وكأنهم اكتشفوا الحلقة المفقودة ، اذ انه ظهر بأن العرب ليسوا بحاجة الى من يمدنهم .

صايغ : في هذا النقاش تكلمنا عن بعض الامور المتعلقة بموضوع هذه الندوة وسجلنا بعض الملاحظات حول التطورات الاخيرة في اسرائيل وفي الحركة الصهيونية وتساءلنا عما ينبغي علينا فعله لمجابهة هذه التطورات . ولقد تحدث بعضنا عن التطورات الاقتصادية والاجتماعية في اسرائيل وتحدث البعض الاخر عن تطور العلاقات بين اسرائيل والحركة الصهيونية والعلاقة بين اسرائيل واليهودية العالمية . واعتقد ان هناك تطورا اخر في الحركة الصهيونية وفي اسرائيل لا بد لنا من تسجيله والتساؤل عما نستطيع ان نفعله لوقفه او على الاقل التساؤل عن مغزاه ومعناه . فمن المعروف ان الهجرة هي العماد الاول في نجاح الصهيونية . كل نجاح اخر يبقى ثانويا ان لم تنجح الصهيونية في استقطاب اعداد متزايدة من اليهود ونقلهم الى فلسطين ليكونوا القاعدة البشرية للاستيطان فيها . وبعد حرب الـ ١٩٦٧ عادت الهجرة الى ما كانت عليه في السابق بعد ان كانت قد خفت كثيرا قبل الحرب بقليل . وفي العام الماضي وفي هذا العام برزت ظاهرة جديدة وغريبة تتعلق بالهجرة ، هي سماح الاتحاد السوفياتي لاعداد ضخمة من مواطنيه اليهود بالهجرة الى اسرائيل. فما هو تفسيرنا لهذه الظاهرة على ضوء الرابطة بين اسرائيل والامبريالية من جهة والتحالف بين الدول الاشتراكية والقضية العربية من جهة اخرى؟ وبسبب هذا التحالف : هل نستطيع ان نفعل شيئا لوقف هذا المد البشري الزاحف من الاتحاد السوفياتي ومن الكتلة الاشتراكية الى اسرائيل ليزيدها قوة بشرية تشكل خطرا على القضية العربية ؟

قازان : فيما يتعلق بالهجرة من الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي ، صحيح هناك هجرة ، ولكن اما أن السوفيات صادقون او غير صادقين فيما يقولونه وانا اعتقد انهم صادقون في تفسيراتهم ولا يسمحون للانتليجنسيا والمهندسين بترك البلد ، يسمحون فقط للكبار في السن وليس للشبان الذين يمكن أن يدخلوا في الجيش الاسرائيلي هذا ما اعتقده .

شوفاني : اريد ان انضم الى الدكتور صايغ . بالفعل الحالة تدعو للاستغراب من سياسة الاتحاد السوفياتي الاخيرة . واعارض الاستاذ قازان ان الذين يهاجرون الى اسرائيل هم من المسنين فقط . بالواقع من النقاشات حول موقفهم في المجتمع الاسرائيلي فهمنا ان قسما من الذين هاجروا هم اساتذة جامعات واختصاصيون ومهندسون . اريد ان اضيف الى كلمة الدكتور صايغ ان هجرة اليهود السوفيات الى اسرائيل تأتي في وقت تغيرت فيه طبيعة الكلام الصهيوني عن

دوافع الهجرة . في الماضي كانت الصهيونية تدعو الى الهجرة على اساس مصلحة الفرد اليهودي وتقول له بأنه يستطيع ان يعيش في الدولة اليهودية أحسن حياة وان يمارس حياته اليهودية وطاقاته اليهودية كما ليس في اي مكان آخر . أما اليوم فنجد أن غولدا مائير تصرح بأن اسرائيل بحاجة الى المزيد من اليهود حتى تحافظ على الدولة . اذن أصبح المنطق مختلفا ولم تعد مصلحة اليهودي الشخصية هي المأخوذة بعين الاعتبار من قبل غولدا مائير عندما تدعوه للهجرة وانما مصلحة الحفاظ على الدولة . اذا كان المنطلق في الدعوة للهجرة هو تقوية الدولة ، ما هو تفسير الاتحاد السوفياتي لسماحه بالهجرة في هذه الفترة بالذات ؟ اي فترة حاجة المؤسسة الاسرائيلية للمزيد من المهاجرين اليهود من اجل تقوية الدولة .

ابو لغد : اعتقد ان السؤال المطروح مهم جدا ، ولكن علينا ان ندقق به وذلك بالمعنى التالي : هل من حق اي انسان في اي بلد من البلدان ترك وطنه ان هو اراد ذلك ؟ من الناحية النظرية لاي مواطن سوفياتي الحق في الخروج من البلد وعلى الاتحاد السوفياتي ، دستوريا ، ان يحترم هذا الحق . هذه قوانين تضمنها الامور الدستورية السوفياتية ، وللانسان الحق في ان يحيا حياته في هذا الوطن وله الحق ايضا في مغادرته. السؤال اذن بالنسبة لليهود السوفيات او لغير اليهود السوفيات هو هل لهم الحق في أن يغادروا الاتحاد السوفياتي الى أي بلد اخر يختارونه وهناك من يختار اميركة او انكلترا ونحن لا نتساءل لماذا سمح الاتحاد السوفياتي لهجرة هؤلاء الناس الى اميركه وغيرها ولكننا نطرح السؤال عندما تؤثر الهجرة على تطور الصراع العربي الاسرائيلي . اعتقد ان السؤال الاصلي هو هل للمواطن السوفياتي الحق في مغادرة الاتحاد السوفياتي ؟ تصوري هو أن له الحق ، والاتحاد السوفياتي له مطلق الحرية أيضا في تطبيق الدستور والسماح لكل مواطن سوفياتي بمغادرة البلاد . من ناحية اخرى علينا ان نوضح على الصعيد العملي ان الاتحاد السوفياتي تعرض لضغوط كبيرة كي يسمح بهذه الهجرة مع العلم بأنها ستتوجه الى اسرائيل . ان في الموضوع الذي اثير سابقا حول مدى تأثير اسرائيل في توجيه السياسة العالمية او تأثير الحركة الصهيونية في السياسة العالمية ، بعض التفسير لظاهرة الهجرة من الاتحاد السوفياتي . هناك حملة عالمية ضد الاتحاد السوفياتي الذي يعتبر نفسه كدولة، انه يمثل الحرية في اقصى مداها ، وكنموذج في ممارسة الحقوق الشرعية للمواطنين الى اخر هذه التصورات التي يقدمها الاتحاد السوفياتي . ان الحركة الصهيونية وليس اسرائيل تصدت الى هذا الموضوع . ان الحركة الصهيونية عبأت الرأي العام العالمي — علينا هنا ان ندرك التخصص في المهمات التي يجب على الصهيونية كحركة او اسرائيل كدولة أن تؤديها — وعبأت الحكومات الموالية للامبريالية العالمية لكي تظهر الاتحاد السوفياتي بمظهر الدولة المتعنتة التي تحرم الناس من حرياتهم . حملة متواصلة على مدى السنين اعتقد انها ترجع الى أقل من سنة ١٩٦٤ ، وانا متابع هذه الحملة باستمرار في الدعايات التبشيرية والحملات الاعلامية والصحفية الخ فاذا اعتبرنا الاتحاد السوفياتي بأنه دولة بالاضافة الى كونه دولة عقائدية اي انه دولة بين دول العالم المحترمة فلا بد له من أن يجاري ما تمنحه دولة رأسمالية استعمارية مثل اميركة التي لا تمانع بهجرة اي شخص من على ارضها الى أي بلد يختاره . وجريا على التقليد العالمي والعرف الدولي الاتحاد السوفياتي مطالب ، دوليا، بأن يمارس نفس الموقف بغض النظر عن المصالح الانية التي يمكن ان تكون قد ارتبطت بتنفيذ هذه السياسة في هذا الوقت .

العظم : تعقيبا على ما قاله الدكتور ابو لغد لا شك انه من حق الاتحاد السوفياتي ان يسمح لمواطنيه بأن يتركوا البلد ولكن الواجب الذي يقع على العرب هو ان يجعلوا استمرار هذه الهجرة حلما مزعجا جدا لكل من يأتي الى اسرائيل وعندئذ فقط لن يكون هناك هجرة الى اسرائيل . اللوم يقع علينا وليس على غيرنا عندما نواجه الحقيقة عندما تتمكن قوة المقاومة العربية من أن تجعل الهجرة الى اسرائيل مسألة محفوفة بالمخاطر وتجعل مستقبل المهاجر غير مضمون ، لن يهاجر عندئذ لا السوفياتي ولا غير السوفياتي .

قازان : الكلام الذي قاله الدكتور وجيه جدا كلام الدكتور صادق ، ولكل انسان حق في ان يجيب صحيح ان الاتحاد السوفياتي لا يستطيع ان يمنع المواطن دستوريا من الخروج من بلده . ومن جهة ثانية يجب ان نمحص تماما المصادر

التي نستقي منها معلوماتنا ، هل هي مصادر امبريالية ؟ هل هي مصادر صهيونية ؟ ام انها مصادر موضوعية موثوقة يمكن الائتمان اليها؟ هناك اشياء كثيرة نأخذها في بعض الاوقات من الدعاية . كذلك اعتقد انه كما قال الدكتور ابو لغد هناك حملة عالمية على الاتحاد السوفياتي . وعلى كل حال الاتحاد السوفياتي ليس بحاجة لفؤاد قازان كي يدافع عنه وعن وجهة نظره . انا افضل ان اصدق الاتحاد السوفياتي في قضية الهجرة بدلا من ان اصدق الدعايات الصهيونية التي يمكن بكل بساطة ان نقع تحت تأثيرها .

العظم : ذكر الان احد الزملاء ان الدول العربية سمحت لـ ٩٧٪ من يهودها بأن يهاجروا الى اسرائيل ، الفت نظركم الى هذه النقطة .

فرحات : في الواقع انا موافق بصورة عامة على ما قاله الدكتور ابو لغد ولكن احب ان اسأل الدكتور صايغ ما هي الارقام التي استند اليها لكي يتحدث عن سماح الاتحاد السوفياتي « لاعداد ضخمة من اليهود بالمهاجرة الى اسرائيل » ؟ لان أعداد اليهود الذين هاجروا من الاتحاد السوفياتي الى اسرائيل ليس ضخما اذا ما قيس بعدد اليهود الموجودين في الاتحاد السوفياتي وخصوصا بعدد اليهود الذين هاجروا من البلدان العربية الى اسرائيل . على ان القضية الرئيسية هي هل هناك فعلا هذا « المد البشري الزاحف » ، على حد وصف الدكتور صايغ ، ليزيد اسرائيل خطرا على حركة التحرر العربية ؟ السؤال الرئيسي هو سياسة الاتحاد السوفياتي وما علاقة هذه الهجرة بسياسته تجاه حركة التحرر العربية ؟ اعتقد ان الصورة الاساسية للعلاقة بين الاتحاد السوفياتي وبين حركة التحرر الوطني العربية بما فيها حركة التحرر الوطني للشعب الفلسطيني هي علاقة تحالف ونضال ضد الامبريالية .

صايغ : اولا بالنسبة الى بعض الارقام : انها ليست اسرائيلية او امبريالية . انها الارقام التي ادلى بها مندوب سوفياتي في هيئة دولية حيث قال ان في عام ١٩٧١ زاد عدد اليهود الذين هاجروا من الاتحاد السوفياتي وذهبوا الى اسرائيل عن ثلاثة عشر الفا . هذا رقم سوفياتي وليس رقما امبرياليا او رقما صهيونيا او رقما صادرا عن أية ناحية اخرى . اما اذا كان هذا العدد ضخما أم لا ، فهذا موضوع نسبي . وانا شخصيا اعتقد ان اضافة ثلاثة عشر الف انسان الى مجموع البشر الموجودين في اسرائيل ، في وقت تعاني فيه الثورة الفلسطينية ما تعاني ، وفي وقت العلاقة العربية الاسرائيلية هي على ما هي عليه ، انما هي تعزيز لقوى اسرائيل تجاه الدول العربية . وحتى لو كان جميع هؤلاء — كما قيل — المسنين الذين لا يستطيعون ان يقوموا بأي عمل عسكري مباشر ، وهذا أمر مشكوك فيه ، فهم على الاقل من الذين يستطيعون ان يسهموا في المجالات الاخرى ويوفروا بعض القوى البشرية القادرة على حمل السلاح ضدنا . هذا التمييز اذن لا يمس أساس المشكلة التي أثرتها . هل هو تبرير للسياسة السوفياتية او دفاع عنها ؟ لا ادري .

من ناحية اخرى ان سماح الدول العربية في حقب ماضية بهجرة اليهود جاء على أيدي حكومات عربية نحن جميعا حول هذه المائدة اول من يتهمها بالرجعية وبعدم التجاوب مع المصالح الشعبية . فاذا كنا سنبرر عمل الاتحاد السوفياتي بقولنا انه لا يختلف عن عمل الانظمة العربية الرجعية فهذا تبرير اعتقد ان الاتحاد السوفياتي سيكون اول من يتبرأ منه واول من لا يرضاه لنفسه .

بقي التفسير الدستوري الذي قدمه الدكتور ابو لغد . انا اعلم ان الدستور السوفياتي يكرس حق كل مواطن في الهجرة . ولكني اعلم ان الممارسة السوفياتية كانت شيئا والدستور والنصوص الدستورية شيئا اخر . وحتى فيما يتعلق باليهود ، الذين ينطبق عليهم النص الدستوري نفسه في ١٩٧١ كما في ١٩٧٠ ، كان هناك قحط في هجرتهم سنة ١٩٧٠ وفيض مفاجىء سنة ١٩٧١ . اذن فلا بد ان يكون هناك اعتبار سياسي وليس مجرد التقيد باعتبار دستوري وراء هذا التبدل .

بقي الشيء الوحيد الذي ذكر مما قد يكون فيه شيء من القدرة على تغيير السلوك السوفياتي وهو الضغط الاعلامي الدولي الذي تعرض له الاتحاد السوفياتي وصمد امامه سنة بعد سنة الى ان وصل حدا في أوائل عام ١٩٧١ اقتضى تبديلا من قبل الاتحاد السوفياتي . اذا كان هذا هو التفسير فانا بالطبع اقدر ان الاتحاد السوفياتي دولة لها مصالح متعددة ولها ارتباطات متعددة وليس همها الوحيد مناصرتنا في القضية الفلسطينية . وافهم هذا التبدل السياسي على

اساس انه تفضيل لتجنب الضغط الدولي ضد الاتحاد السوفياتي على الاستمرار في مماشاة القضية العربية فيما يتعلق بهذه المسألة بالذات . ولكن يظل السؤال يدور في ذهني : لماذا اختار الاتحاد السوفياتي هذا الظرف بالذات للسماح بهذه الهجرة الجماعية ؟ وكيف وفق بين ذلك وبين الحلف القائم بين الكتلة الشرقية وحركة التحرر العربي فيما يتعلق بالنزاع العربي الاسرائيلي .

سعد : الحقيقة ان الهجرة من الاتحاد السوفياتي تناولت اعدادا كبيرة وتناولت الشباب ايضا وهذا امر اعتقد ان المصادر جميعها، بما فيها الصور الفوتوغرافية ، تشهد عليه . ولكن معالجة المسألة قانونيا بالاشارة الى دستور الاتحاد السوفياتيلا تفي ، اذ ان الاتحاد السوفياتي خلال العقدين الماضيين منع الهجرة في فترات معينة وسمح بها في فترات اخرى . والعامل الاساسي في المضمار هو الضغوط التي تبذل للتأثير على موقفه من الهجرة . فهناك الضغوط الغربية، وخاصة ضغوط الصهيونية العالمية مع ما يمكنها من تعبئته لصالحها من قطاعات الرأي العام الغربي ، يقابلها الضغوط المعاكسة — اي الضغوط العربية والتي انحصرت حتى الان في الضغوط المباشرة من حكومات البلدان العربية . ولو نظرنا في السنوات القليلة الاخيرة ، لوجدنا ان الاتحاد السوفياتي لم يرضخ للضغوط الغربية بأي قدر يذكر ، رغم التظاهرات المستمرة ضده في الغرب ، الا خلال عام ١٩٧١ . وربما اعطي صورة مبسطة جدا ، الا ان سياسة الحكومات العربية خلال ذلك العام وقبله مباشرة ، بما في ذلك القضاء على الحزب الشيوعي السوداني والخلافات بين حكومة مصر والاتحاد السوفياتي وتهجمات حكومات عربية اخرى عليه ، قد تكون هي الاسباب التي جعلت الاتحاد السوفياتي يرضخ للضغوط الغربية ويسمح بالهجرة بالشكل الذي شهدناه .

قازان : اشكر الدكتور صايغ على صراحته وسأكون صريحا معه لان بالصراحة نصل الى نقطة معينة نتفق عليها . اكيد يوجد مندوب سوفياتي صرح ان ١٣ الف يهودي أتوا الى اسرائيل من الاتحاد السوفياتي وأنا لا استغرب ذلك ، لكن المندوب السوفياتي لم يحدد بالضبط مهن الـ ١٣ الف مهاجر والدكتور صايغ يشك في انهم كانوا كلهم من المسنين ، ويمكن ان يكونوا شبابا، ولو كانوا مسنين فأنهم يستطيعون ان يحلوا محل الشباب كما قال . لا اعتقد ان الكهل يستطيع ان يحل محل الشاب ، ولا الشاب يحل محل الكهل ولكن هناك شيئا يمكن ان نصل اليه بالنتيجة هو معرفة الحقيقة . واذا اردنا ان نعرف الحقيقة لا احد يمنع مركز الابحاث مثلا من أن يبحث هذا الموضوع مع السوفيات انفسهم وان يدقق معهم في صحة وما ينشر من المعلومات .

العظم : اعتقد ان النقطة التي يريد الوصول اليها الدكتور صايغ هي التشديد على وجود دافع سياسي وراء سلوك الاتحاد السوفياتي والمسألة ليست مسألة ارقام . والدافع السياسي ليس بعيدا كل هذا البعد عن الادراك الواضح . فالاتحاد السوفياتي في النهاية هو حليف استراتيجي لحركة التحرر العربي وليس من الضروري ان تتطابق اهداف الحلفاء مئة بالمئة وفي كل الامور ، ان هدف حركة التحرر الفلسطيني وحركة التحرر العربية هو تدمير الكيان الصهيوني ، تدمير الدولة الاسرائيلية ، ولن اناقش الان اذا كان هذا التدمير على طريقة لينين او على طريقة الاستاذ الياس مرقص ، بينما يعترف الاتحاد السوفياتي بدولة اسرائيل وبشرعية استمرارها وهو ضد احتلالها لمناطق اثار العدوان . هذا سبب سياسي يفسر بوضوح سلوك الاتحاد السوفياتي بالنسبة لموضوع الهجرة . من ناحية اخرى الاتحاد السوفياتي يلتزم بموضوع الحل السياسي للصراع العربي الاسرائيلي وهو لا يمكن ان يكون ملكيا اكثر من الملك لان مصر والدول العربية ايضا ملتزمة بخط الحل السياسي للصراع وبسياسته . فاذا اخذنا بعين الاعتبار ان الاستراتيجية الموضوعة من الطرف العربي — السوفياتي بالنسبة لمستقبل الصراع تهدف ، في التحليل الاخير ، الى تحقيق التسوية السلمية ومجرد تصفية اثار العدوان فما هو وجه الغرابة في سماح الاتحاد السوفياتي لليهود الراغبين بالهجرة الى اسرائيل ؟

من ناحية اخرى لو كانت حركة التحرر العربي في موقع قوة افضل وفي موقع كفاح افضل وشكلت حليفا منتصرا للاتحاد السوفياتي وليس عبئا عليه لتمكنت من أن تؤثر على السياسة السوفياتية وغير السوفياتية لصالح اهدافها الكبرى . العبرة

ليست في أن يمنع الاتحاد السوفياتي الهجرة الى اسرائيل بل في ان يحسب كل من يفكر بالهجرة اليها الف حساب قبل قدومه بسبب عنف المقاومة العربية وبطشها . بعبارة اخرى حركة التحرر العربي والفلسطيني تبرر تقصيرها وعجزها بلوم حليفها الاكبر تماما كما حدث بعد هزيمة ١٩٦٧ .

مرقص : انطلاقا من التفاتة كريمة من الاخ صادق عن « لينين او الياس مرقص » لا بد ان انطلق من انني في كلامي غير الكامل ، لانه مداخلة عشر دقائق لا خمس ساعات ، يمكن للانسان ان يكمل كلمته ، اعلن ان منطلقي هو بالضبط سيكون وكان اللينينية . ولا اريد ان انوه بأن الذين كانوا يتصورون ان مواقفي معاكسة للينين كانوا اكثر في الماضي مما هم الان . لي منطلق ثان في كلامي اريد ان اؤكده ايضا هو منطلق مباشر ، منطلق السنوات الخمس السابقة . اعتقد ان بعض الاخوان يعلمون انني اتهمت بحق وانا التزم بهذا الاتهام انني كنت ولا ازال ، وآسف ان اقول ذلك في مركز الابحاث الفلسطيني ، كنت ولا ازال مؤيدا للحل السياسي على الصعيد التكتيكي . وكنت ولا ازال في الخط الذي اتهمت به وهو خط السوفيات وعبد الناصر بل عندي بعض الشعور بأنني كنت ولا ازال في هذا الخط وفي خلاف بسيط عند هذه النقطة مع الاخوين الكريمين فؤاد قازان والبير فرحات . ومع ذلك احب ان اضيف ان مسألة الهجرة مسألة لا يجوز المرور بها على اساس موضوع الحقوق الدستورية والعرف ومسألة الفرد لانها بالنتيجة مسألة تتعلق بديناميكية المنطقة ، صراع المنطقة وديناميكية العالم ولا يجوز ان تتسلط علينا مسألة تهويش الصحافة العربية الدجالة والعالمية الدجالة . بل يجب أن ننظر الى هذه القضية وان ندرسها دراسة واسعة ومتعمقة . احب أن اذكر بحادثة بسيطة ايها الاخوان ، في سنة ١٩٥٧ اتى من بولونيا الى اسرائيل عدد من اليهود اكبر عدة مرات من الـ ١٢ الف اذا صح هذا الرقم . وفي سنة ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ كانت السياسة العربية او سياسة مصر وسوريا وغيرهما لا تلتفت الى هذه القضية على أساس الحلف الضروري واللازم مع الاتحاد السوفياتي ، بعد تأميم قناة السويس الخ في سنة ١٩٥٩ وفي جو التهويش ومكافحة الشيوعية والالحاد وغير ذلك حملت جريدة الاخبار ، جريدة مصطفى وعلي امين ، قضية هذه الهجرة التي حدثت قبل سنتين على اكتافها ورفعتها . ولعلنا نذكر ذلك الشيء ولعلنا جميعا ، او لعل بعضنا ، على الاقل لعل جميعنا الذين كانوا آنذاك على خلافاتهم ينتسبون الى هوية ماركسية لينينية او الى لافتة لينينية ماركسية مشتركة ، ولعلنا جميعا كنا ضد هذا الكلام ورفضناه رفضا كاملا ونبذناه . ثم في سنة ١٩٦٧ صدرت في صحف بولونيا ومجلاتها حول هذا الموضوع ، موضوع هجرة ١٩٥٧ ليهود بولونيا الى اسرائيل ، صدرت ارقام وتصنيفات وتوزيعات وصفتها في احد كتبي السابقة في هامش ، في شرح هامشي هو كتاب « الماركسية والشرق » وكان بينهم على ما اذكر مئات المهندسين والمهندسين الزراعيين وعدد من الاطباء وعدد من ضباط الاركان وعدد من قادة الاستخبارات العسكرية وبروفسوران من معهد الماركسية اللينينية التابع للجنة المركزية لحزب العمال البولوني الموحد جاؤوا الى اسرائيل . وما ان وصلوا حتى تولى هذان الاستاذان عملية نقل المعلومات من جمهور المهاجرين اليهود البولونيين الى المخابرات المركزية الاميركية مباشرة وبدون المرور بوساطة او بجسر اسرائيل والمخابرات الاسرائيلية . لعلهم بالغوا في هذه الاتهامات ولكن الحقيقة هكذا . ونستطيع ان نقول ان هذه الهجرة كانت قوة اضافية في الاحداث اللاحقة . بالطبع اعتقد أنه بدلا من أن يأتي الى اسرائيل سبعون الف يهودي بولوني لو خرج من اسرائيل مئة الف او ثلاثمائة الف يهودي بولوني وروماني وغير ذلك وعادوا الى بولونيا لكانت النتيجة ان الكارثة العربية هي هي . ولكن هذا لا ينفي ان هذه القضية لعبت دورا في حينها . لا استطيع ان اقول انه لولا محاسبة النفس ، ولا استطيع ان اكرر ، كما تكرر سابقا وكما نكرر جميعا ، ان مواقفنا بمعنى المواقف العربية لانه لا يوجد شيء اسمه حقيقة مواقف عربية واحدة ، ويوجد انقسام رهيب في المجتمع العربي وفي السياسة العربية لا يوجد انقسام فقط بين بروليتارية وكادحين ورجعيين موالين للاستعمار ورأسماليين وغير ذلك هناك انقسام على الخطوط، على الفهم . بينما تدعي القوى التقدمية وبينما يدعي الماركسيون انفسهم وغير ذلك الخطوط متضاربة متناقضة وهذا الامر اذا يجب أن نتجنبه. قال الاستاذ صادق العظم ان هناك حلفا بين العرب والسوفيات وانه ليس هناك تطابق كامل بين الحليفين وهذا طبيعي وهذا شيء اكيد. الاتحاد

السوفياتي يؤيد شرعية استمرار اسرائيل وانا لا أؤيد . الاتحاد السوفياتي يؤيد الحل السياسي وتنفيذ قرار مجلس الامن ويتهم الولايات المتحدة الاميركية والامبريالية الاميركية بأنها دجالة كذابة ولا تريد تنفيذ هذا الحل السلمي او قرار مجلس الامن . الاتحاد السوفياتي يقول بقرار مجلس الامن وانا اؤيد هذا . ولكن هنا بالضبط اريد ان أطرح تساؤلا صغيرا : ما دام الاتحاد السوفياتي يريد هذا الحل السلمي ، الذي اعتقد ان احتمال تحققه كان في ايام ما قبل عامين كان واحدا بالمئة واحتمال تحققه الان هو واحد بالمليون ، ولكن ما دام الاتحاد السوفياتي تبنى قرار مجلس الامن ترى الا نخاف من هجرة يهودية واسعة من الاتحاد السوفياتي في حال تحقق هذا الاحتمال بتنفيذ قرار مجلس الامن وهو ربما من اهم العوامل التي تقوي في الجمهور العربي ، وربما تعلمون ولست أنا اعلم انه عامل جدي في تخوف المقاومة الفلسطينية ، في تخوف العرب ، في تخوف الجميع من هذه القضية . لانه اذا كان تنفيذ قرار مجلس الامن سوف يأتي بنتيجة هي مجيء مائتي الف يهودي مهاجر مثلا من الاتحاد السوفياتي فان هذه النتيجة في نظري اكبر بكثير من كل قصص السلام والمرور والاعتراف او ربع الاعتراف او ما شابه ذلك لان الحروب ممنوعة بين العرب المجاورين لاسرائيل وبين اسرائيل وذلك بحكم اسرائيل وطبيعتها ذاتها . طبعا انا شخصيا لا اعتقد بأن هجرة يهودية واسعة ستعقد قرار مجلس الامن اذا نفذ ، واصلا لا اعتقد ان احتمال تنفيذ هذا القرار يتجاوز الواحد بالمئة ، لكن اعتقد انه عامل جدي في تخوف العرب وعامل جدي في انشطار عربي بين نظرية ثوروية لا تقبل وترفض وغير ذلك وبين واقع عملي معاكس تماما ، وربما في بعض الحالات اختلاف وانشطار بين ما نكتب في المقالات وما نقوله شفويا او ما نقوله في ندوة ذات قيمة وبين ما نقوله في المقهى حين نكون ثلاثة أشخاص .

المعظم : يبدو لي انه ينبغي علينا الاتجاه نحو انهاء الندوة ما لم يكن لدى احد الزملاء شيء حيوي يريد أن يتفضل به .

فرحات : ردا على قول الدكتور فايز صايغ لقد اقترحت طرح السؤال بالصيغة الاتية : استنادا الى ماذا قال الدكتور فايز صايغ انه توجد ، أولا، هجرة ضخمة من الاتحاد السوفياتي الى اسرائيل وثانيا ، فيما اذا كانت هذه الهجرة التي حصلت عام ١٩٧٠ — ٧١ وقال انها تشكل خطرا على حركة التحرر الوطني العربي هي في خطر جسيم حقا باعتبار انه تحدث عن مد بشري ساحق الخ ... انا قلت اذا كان بالامكان ان يحدد ضخامة هذا العدد من المهاجرين بالنسبة الى عاملين الاول هو عدد اليهود الاجمالي في الاتحاد السوفياتي والثاني حجم الهجرة التي جرت من البلدان العربية . هذا الذي تقدم به الدكتور فايز صايغ بقوله انه لا يجوز تبرير موقف الاتحاد السوفياتي بالاستناد الى ما فعلته حكومات اقطاعية عربية وكأنه يريد القول بأني كنت أريد ان أبرر موقف الاتحاد السوفياتي بالقياس الى موقف حكومات رجعية عربية . واكرر هنا ان اشارتي الى حجم الهجرة من البلدان العربية الى اسرائيل كانت في نطاق التساؤل عن حجم الهجرة التي جرت في ١٩٧٠ و١٩٧١ بالنسبة الى حجم عدد اليهود الاجمالي في الاتحاد السوفياتي وفي اسرائيل . بالواقع انا لست بحاجة الى تبرير سماح الاتحاد السوفياتي لليهود بالهجرة لعدة اسباب اولا ، وهو سبب بسيط ، انني بصفتي شيوعي لبناني غير موافق على هجرة اي يهودي الى اسرائيل من أي بلد كان . كما ان الشيوعيين السوفيات وسائر الاوساط الاجتماعية السوفياتية تبذل كل ما في وسعها للوقوف بوجه الدعاية الصهيونية الداعية الى هجرة اليهود . ولكن تبقى القضية الرئيسية هي قضية اعادة الاعتبار للحقيقة في هذا الموضوع . الارقام التي استند اليها الدكتور فايز صايغ هي أرقام السنة الاخيرة سنة ١٩٧١ ، هل يجوز الاستناد اليها والانطلاق من هذه الهجرة التي حصلت في ظروف معينة عام ١٩٧١ لكي نقول او لكي نوحي بأن ثمة موقفا سوفياتيا ثابتا في هذا الموضوع ! اذا عدنا الى الماضي نرى ان حجم الهجرة كان يتراوح بين الصفر والرقم الاقصى الذي وصلته سنة ١٩٧١ . اما ما اريد ان اقوله فهو ضرورة معالجة هذه القضية بموضوعية وبروح علمية . لا أريد أن ادافع عن الاتحاد السوفياتي لان سياسته بغير حاجة الى دفاع ، سياسته المبدئية في دعم قوى التحرر العربية ، لكن الذي ارجوه هو ان نناقش هذه القضية بكل موضوعية وبكل روح علمية وبالاستناد الى مجمل قضية الهجرة من الاتحاد السوفياتي وليس على ارقام سنة معينة .

صايغ : عبارة رد الاعتبـــار للحقيقة هي التـــي تدعوني الى ممارسـة حق الرد . ان ارقام سنة ١٩٧١ لها اهميتها لان الهجرة اليهودية السـوفياتية الى اسرائيل كانت شبه متوقفة قبل عام ١٩٧١ ثم انفجر الخزان دفعة واحدة حيث جاء ثلاثة عشر ألف مهاجر في تلك السنة ، وجميع الادلة تشير الى ان ارقام ١٩٧٢ ستكون على الاقل مساوية لارقام ١٩٧١ ان لم تكن اكبـر منها . هذا هو الذي يعطي هجرة ١٩٧١ مغزى سياسيا معينا ، وهذا ما جعلني اتسـاءل عن هذا المغزى السياسي وكيفية مواجهتنا له . أما القول بأني اخذت سنة ١٩٧١ بمعزل عن السنوات السابقة فهو مردود لانه لم تكن هناك محاولة من قبلي لان اقول بأن ارقام ١٩٧١ هي ثلاثة عشر ألف مهاجر فاذن في ٢٠ سنة جاء من الاتحاد السوفياتي ٢٦٠ ألف مهاجر ! أنا لم احاول ان اعطي ارقام سنة ١٩٧١ لادلل على انه كانت هناك هجرة متواصلة طوال المدة السابقة سنة ١٩٧١ . لقد بدأت الهجرة في سنة ١٩٧١ ، وسنة ١٩٧٢ ايضا فيها هجرة ، مما يدل على ان هناك تبدلا اساسيا في موقف السوفيات من مسألة الهجرة ، الامر الذي لا بد وان يكون له مغزى سياسي فلنفتش عن هذا المغزى ولنفتش عن طريقة لمجابهته .

العظـم : باسم مركـز الابحـاث و« شـؤون فلسطينية » اشكركم جميعا على المساهمة في انجاح هذه الندوة .

مراجعـــات

اديب ديمتري ، الماركسية والدولة الصهيونية ، (بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٧١) .

منذ هزيمة حزيران ١٩٦٧ ظهرت عدة كتب ماركسية (أو ذات طابع ماركسي) هدفها اعادة النظر في بعض جوانب النزاع العربي — الاسرائيلي والمسألة اليهودية والحركة الصهيونية على ضوء المنهج المادي التاريخي في التحليل وفي فهم الاحداث التاريخية . كذلك تمت اعادة اكتشاف عدد من الكتابات الماركسية والشيوعية العربية القديمة التي عالجت موضوع الصراع العربي الصهيوني والقضية الفلسطينية عامة قبل قيام دولة اسرائيل، وجرى تمحيص ما ورد فيها من تحليلات وتوقعات واقتراحات . كان كل ذلك ضروريا لان الموقف الاممي من الصراع العربي الصهيوني قد ارتبط في الاذهان ، بالنسبة للعرب ، بمجرد موافقة الاتحاد السوفياتي على قرار التقسيم عام ١٩٤٧ وردود الفعل السلبية الشديدة التي اثارها هذا التصرف في اوساط الجماهير العربية والتيارات الوطنية العاملة ضمن صفوفها . لذلك قام عدد من الكتاب الماركسيين في الفترة الاخيرة بفتح ملف هذه القضية لتبيان ما للحركة الشيوعية منذ بداياتها من مواقف صريحة وقوية في مقاومة الصهيونية ومعاداتها وادانتها كحركة رجعية وشوفينية مرتبطة بمصالح الدول الامبريالية . ويقع كتاب اديب ديمتري « الماركسية والدولة الصهيونية » ضمن هذا الخط ويطمح الى خدمة هذا الهدف . يثير المؤلف في مطلع كتابه مسألة مهمة جدا تتلخص في التضارب القائم بين موقف الحركة الشيوعية الكلاسيكي والمستمر في ادانة الصهيونية ورفضها من ناحية ، وبين السياسة الحاضرة للدول الاشتراكية (باستثناء الصين طبعا) والاحزاب الشيوعية التي تقر بشرعية وجود دولة اسرائيل منطلقة من الاعتراف بالامر الواقع من ناحية ثانية . الا ان المشكلة في كتاب اديب ديمتري هو انه يثير عددا من القضايا الجوهرية على النحو المذكور بدون ان يقدم للقارىء اية اجوبة معمقة تتخطى العموميات المتداولة حولها ، مما يترك القارىء بشعور بالخيبة بسبب الفارق بين اهمية القضية المثارة من جهة وهزال الاجوبة وسطحية التحليلات المقدمة من جهة اخرى . في الواقع يستعيض المؤلف في كثير من الاحيان عن التحليل الدقيق بسرد مطول لمعلومات عادية ومعروفة حول الصراع العربي الصهيوني مأخوذة عن منشورات متداولة مثل كتاب ليون « المفهوم المادي للمسألة اليهودية » وكتاب « دولة اسرائيل » للكاتبة السوفياتية جالينا نيكيتينا الذي ترجم الى العربية في مصر ، وكتاب يوري ايفانوف « احذروا الصهيونية » ، ومجلد «من الفكر الصهيوني المعاصر » الصادر عن مركز الابحاث . اي بدلا من ان يستخلص المؤلف العبرة الاساسية من نتائج هذه الابحاث والكتب ويبني عليها تحليله ، وفقا لمتطلبات الموضوع الذي يعالجه ، (باعتبار ان العمل العلمي تراكمي) نجده يكرر بصورة مطولة ما جاء فيها من وقائع وآراء وسرد للاحداث . مثال اخر على قضية هامة جدا يثيرها الكتاب ولكنه يعجز عن معالجتها على المستوى المطلوب تتلخص فيما اذا كانت دولة رأسمالية مرتبطة بالاحتكارات الامبريالية مثل اسرائيل قادرة على التحول داخليا ، من خلال الصراعات الاجتماعية والطبقية ، الى دولة مرتبطة بالسياسة المعادية للامبريالية وبالحركة الثورية العالمية في المستقبل (ص ١٠٠ — ١٠١). ان الجواب البديهي الذي يتبادر الى الاذهان هو بالنفي ولكن لا يمكننا الاستناد طويلا الى البداهة في مثل هذه القضايا الحيوية ولا بد من تحليل دقيق ومطول ندعم به جوابنا . وبدلا من ان يقدم لنا اديب ديمتري محاولة للدخول في مثل هذا التحليل يعود الى سرد مجموعة من الوقائع التاريخية المعروفة مثل : « كان عدد اليهود في فلسطين عند

صدور وعد بلفور سنة ١٩١٧ يشكلون ٧٪ من مجموع السكان والعرب ٩٣٪ يملكون ٩٧٦٥٪ من الارض . وعندما حصلت بريطانيا على الانتداب سنة ١٩٢٣ كان عدد اليهود يمثل ١٢٦٩٪ من مجموع السكان . وسنة ١٩٣١ اصبح عدد اليهود يمثل ١٨٪ الخ ... » (ص ١٠٣ — ١٠٤) . ويستمر المؤلف في هذا السرد معتمدا على كتاب « دولة اسرائيل » الذي مر ذكره معتبرا في ذلك اجابة على التساؤل الهام الذي اثاره وطرحه . اما بالنسبة للمسألة الاولى التي اثارها حول التضارب بين الموقف المعروف للحركة الاشتراكية من الصهيونية والسياسات الحاضرة للدول والاحزاب الشيوعية بازاء شرعية الوجود الاسرائيلي فيعتبر المؤلف ان معالجتها تتم بالعودة الى جذور المسألة اليهودية والحركة الصهيونية بهدف تعريتها أمام الدول والاحزاب الاشتراكية وتبيان الموقف الاممي الاصيل منها . لذلك يعود أديب ديمتري في الفصل الاول الى مناقشة جذور المسألة اليهودية على أساس ما يعتبره المنهج المادي الجدلي في فهم الموضوع . الا انه ينطلق من فرضية غامضة ، على ما يبدو لي ، عندما يعترف بوجود ثمة شيء اسمه « المسألة اليهودية » في كل العصور التاريخية المعروفة قديما وحديثا (ص ٢٢) ، في حين انه يجب ان نميز بوضوح بين استمرار وجود الشعب اليهودي في عصر الدولة الرومانية وعصور الاقطاع مثلا كواقع تاريخي يشكل جزءا من وجود اقليات متعددة داخل هذا النوع من الدول والمجتمعات وبين تحول هذا الوجود الى « مشكلة » أو « مسألة » بالمعنى الذي نفهمه حاليا .

ان ما اصطلحنا على تسميته « بالمسألة اليهودية » بمعناها الراهن هي ظاهرة اقتصادية — اجتماعية حديثة في الاساس ولدها ببطء تطور النظام الرأسمالي . كما ان مصطلح « المسألة اليهودية » بالذات ذو منشأ اوروبي حديث مما يشير الى ان تحول وجود اليهود في اوروبا الى « مسألة » متميزة نوعيا عن السابق تتطلب معالجة خاصة ضمن ظروف مرحلة تاريخية معينة (لها حدودها الزمنية والمكانية الواضحة نسبيا) ولا يجوز اسقاطها تعسفا على كل عصور التاريخ . قد لا يخالفني اديب ديمتري في هذا الرأي بعد طرحه بوضوح الا ان اسلوبه في فهم المسألة اليهودية على أساس امتدادها عبر كل عصور التاريخ بنفس المعنى يؤدي ضمنا الى طمس الوقائع التي ذكرتها والى التكريس الضمني للمنهج السائد في دراسة هذه الظاهرة : اي تجريدها عن ظروفها الموضوعية واقتلاعها من بيئتها التاريخية ومن ثم اسقاطها على مجرى التاريخ منذ البداية حتى اليوم للبرهنة على وجود جوهر ثابت « للمسألة اليهودية » يبقى هو هو عبر التحولات التاريخية التي تؤثر على المظاهر والاعراض فقط وليس على الجوهر الدائم نفسه . وبالتأكيد فان اديب ديمتري — كماركسي — يرفض هذه الرؤيا المثالية للتاريخ .

بعد عرض سريع لبعض التعاليم اليهودية الصهيونية المعروفة يرد عليها المؤلف بمراجعة سريعة لتاريخ القبائل العبرية القديم وبتلخيص سريع ايضا لاراء ليون حول تاريخ اليهود في العصر الوسيط والحديث . وعندما يصل الى مرحلة الثورة الفرنسية الكبرى يبالغ في اشادته بالحلول التي طرحتها البورجوازية الثورية في تلك الفترة للقضايا الاجتماعية بما فيها مشكلة اليهود الاوروبية . يقول مثلا ان البورجوازية الثورية في تلك الفترة نادت بالحرية وانكرت الفروق بين البشر بسبب الاصل أو الدين او الجنس ودعت الى تأسيس النظم السياسية على أساس العدل . مما ادى به الى القول ان اليهود دخلوا بذلك في فترة جديدة من حياتهم حيث تفتح لهم المجتمع الاوروبي ليضمهم « ولم يعد في الحقيقة ثمة فارق بين التاجر او المصرفي اليهودي او الكاثوليكي أو البروتستانتي. وقررت ثورات انجلترا والولايات المتحدة وفرنسا مساواة الاديان امام القانون » (ص ٤١) . اعتقد ان هذه النظرة الى الموضوع مغرقة في تبسيطيتها ، لانه ليس صحيحا ان المجتمع الاوروبي تفتح ليهضم اليهود (كما برهنت على ذلك الاحداث اللاحقة) وليس صحيحا انه « لم يعد في الحقيقة ثمة فارق بين التاجر او المصرفي اليهودي او الكاثوليكي او البروتستانتي » في المجتمع الرأسمالي الطبقي . ان مجرد اعلان الثورات البورجوازية عن انكار الفروق بين البشر لا يعني انه لم يعد ثمة فارق على ارض الواقع بين التاجر اليهودي او الكاثوليكي او البروتستانتي . واديب ديمتري ، كمفكر ماركسي ، يعرف قبل غيره الى اي حد كانت المساواة التي اعلنتها الثورات البورجوازية ذات طابع قانوني وحقوقي وشكلي — اذ ان المساواة بين الاديان امام القانون لم تكن تعني ان المواطن البروتستانتي في فرنسا الكاثوليكية قد اصبح بالفعل

وحقا في موقع المساواة ، أمام المجتمع واجهزة الدولة الخ ... مع المواطن الفرنسي الكاثوليكي. في الواقع هنا تكمن بذور الفشل والعجز التي حملتها الثورات البورجوازية (بالرغم عن التقدم التاريخي الكبير الذي مثلته) في حل المسألة اليهودية على المدى البعيد ، كما يشير الى ذلك المؤلف نفسه . عندما دخلت الرأسمالية الاوروبية مراحلها الاحتكارية والامبريالية اتضح هذا العجز وبرزت حركة العداء للسامية حتى وصلت الى ذروتها في النازية والفاشية . وهنا يشير المؤلف الى كون الحركة الصهيونية ظاهرة ملازمة للعداء للسامية وكونها الوجه الاخر لنفس العملة باعتبار ان كلا الحركتين يخدم في الواقع نفس الهدف بالرغم عن التناقض الظاهري بينهما (ص ٤٢) . ومع ان تفاعل الصهيونية بحركات العداء للسامية جدير بالمعالجة الدقيقة باعتبار ان الوقوف على المنطق الداخلي الذي يربطهما وعلى الآلية التي تحكمت بتفاعلهما هو موضوع بمنتهى الاهمية الا ان اديب ديمتري لا يتعدى في معالجته للمسألة مجرد الاشارة الى تلازم الظاهرتين وكونهما تخدمان هدفا واحدا، واعتبر ذلك كافيا . اما بالنسبة لمناقشة المؤلف للموقف الماركسي من المسألة اليهودية والحلول التي كانت مطروحة لها فانها لا تتعدى مجرد العرض التبسيطي المسطح لاراء لينين في الصهيونية وشجبه لشعارات الاحزاب اليهودية البورجوازية والاحزاب اليهودية المتمركسة مثل البوند ، ورفضه القاطع لفكرة « الامة اليهودية » باعتبارها فكرة خاطئة ورجعية من الاساس . ويستعرض المؤلف بنفس الطريقة آراء ستالين في الموضوع ووجهات نظر ماركس كما وردت في كتابه المبكر عن المسألة اليهودية .

يتطرق المؤلف في الفصل الخامس الى قضية في منتهى الاهمية ليس فقط بالنسبة للمواقف الراهنة للدول والاحزاب الاشتراكية من اسرائيل بل ايضا بالنسبة للقوى الثورية العربية والفلسطينية المكافحة في الوقت الحاضر ضد الامبريالية والصهيونية ، وخاصة بالنسبة لبرامجها المستقبلة واهدافها الاستراتيجية .

يطرح اديب ديمتري القضية كما يلي : « فالاحزاب الشيوعية ، والاشتراكية الثورية التقدمية ، والدول ، وغالبية الرأي العام التقدمي ، يرفض فكرة وجود امة يهودية عبر التاريخ ، او على نطاق العالم ، ولا ينظر الى اليهود اكثر من مواطنين في مختلف البلدان ، كما يرفض كون اسرائيل اليوم امتدادا لاسرائيل القديمة . ولكنها ترى وجود امة اسرائيلية او قومية اسرائيلية وجدت او في طريقها الى التكوين ، ومن حقها تقرير المصير ، كما هو من حق الشعب العربي ... » (ص ١٧٠) .

بعبارة اخرى المسألة التي لم يعد بالامكان التغاضي عنها او الانزلاق فوقها بواسطة العبارات العامة والشعارات الغامضة هي اذا ما كان يهود اسرائيل يشكلون قومية جديدة في طور التكوين (المعنى هنا القومية الاسرائيلية وليس القومية اليهودية التي كانت تهدف الى تحقيقها الحركة الصهيونية) أم انهم ليسوا سوى تجمع ديني لا يحمل اي صفة من صفات المجتمعات القومية المعروفة ؟ وبالرغم عن أهمية السؤال بالنسبة لارتباطه بنوعية البرامج الكفاحية البعيدة المدى التي على القوى الثورية العربية والفلسطينية ان تضعها لا نجد اي تطرق صريح وجاد الى هذا الموضوع في الفكر الثوري السائد . ان كل ما نجده هو تلميحات بلغة التمتمة اللعينة (على حد تعبير لينين) واشارات خجولة ومتعثرة الى هذه القضية الحيوية . ومن حسنات كتاب اديب ديمتري انه ، على اقل تعديل يطرح المشكلة بوضوح ودقة امام الفكر الثوري الاشتراكي العربي الراهن . الا ان المؤلف بدلا من ان يدخل مباشرة في صلب الموضوع ليقدم لنا اجابته الصريحة المدعمة بتحليل دقيق يلجأ الى الاسلوب الاسهل وهو العودة الى الاستعراض المسطح لما قاله كل من لينين وستالين حول المسألة القومية وما يقوله بعض علماء الاجتماع في اسرائيل حول الموضوع نفسه وما يقوله أوري افنيري الخ . اي مرة اخرى نقع في الاسلوب السردي التكراري لاقوال الغير الذي اعتاد عليه الفكر العربي في عصور الانحطاط. بعد هذا الاستعراض الذي لا لزوم له يعود اديب ديمتري الى النقطة التي انطلق منها اي الى « حقيقة وجود الامة والوجود القومي في اسرائيل وهل هناك فعلا قومية في طريق النشأة او في طور التكوين ؟ » (ص ١٩٢) . بعبارة اخرى ما زلنا في مكاننا (بعد حوالي ١٨ صفحة من العرض) لان المادة التي تم عرضها لم توجه بصورة تجعلنا أقدر على معالجة السؤال الاساسي الذي اثاره المؤلف ولم توظف ، بصورة عضوية ، في سبيل الوصول الى اجابة تحليلية دقيقة وصحيحة .

يقر المؤلف بأن فكرة وجود امة اسرائيلية جديدة في طريقها الى التكوين من المهاجرين والمستوطنين الذين وفدوا الى البلاد واضحة ولا اعتراض عليها من حيث المبدأ بصيغته العامة (ص ١٩٤) . كما يذكر ان هذا التكوين ليس بدعا في التاريخ ، فقد تكونت العديد من الامم الحديثة من النازحين والمهاجرين من كل بقاع الارض ومن مختلف الجنسيات واللغات مثل الولايات المتحدة الاميركية وكندا واوستراليا ... « وليس هناك ما يمنع بالطبع من حيث المبدأ ، من ان يحدث في اسرائيل مثلما حدث في غيرها بعد ان توفرت لها كل مقومات تكوين الامم ، وهي الارض المشتركة واللغة المشتركة بل وقد يكون التكوين النفسي والثقافة والمصالح المادية الواحدة » (ص ١٩٤) . ولكن من ناحية اخرى ، يشدد المؤلف ان واقعا اخر يفرض نفسه هو كون الوجود الاسرائيلي على ارض فلسطين جزء لا يتجزأ عن حركة الاستعمار الاستيطاني الاوروبي وانتماء الصهيونية الى الحركات القومية الرجعية الاوروبية الامبريالية « التي صنعت منذ اواخر القرن التاسع عشر كل مجتمعات المستوطنين العنصريين ، مجتمعات سيسيل رودس وامثاله » ليخلص الى نتيجة تقول ان « هذه القومية لا تؤيد بل تشجب ، لا تنمى بل تصفى » (ص ١٩٧ ، ١٩٨) . ويجد اديب ديمتري ان المخرج السليم من المأزق هو الحل الذي تقدمت به حركة المقاومة بدعوتها الى اقامة « الدولة الفلسطينية الديمقراطية للجميع كبديل عن الدولة العنصرية » باعتبار ان هذا الحل وحده « يخدم المصالح الحقيقية للشعبين العربي والاسرائيلي ولا يهدد في شيء مصالح اليهود الفلسطينيين ، لان تهديم اساس البنيان العنصري لا يعني بحال المساس بحقوق الشعب ذاته بل يعني فحسب الاطاحة بالنظام والطبقات ذات المصلحة في بقاء مثل النظام العنصري العدواني » (ص ١٦٥ — ١٦٦) . ان النقطة الهامة التي اهمل المؤلف مناقشتها هي كون التفسير السائد والمنتشر لشعار الدولة الفلسطينية الديمقراطية لا يأخذ بعين الاعتبار المسألة القومية اصلا وينظر الى سكان فلسطين كتجمعات دينية مسيحية ويهودية ومسلمة فحسب .

ولكن يبدو من اللغة التي يستعملها المؤلف ، ومن بعض العبارات التي وردت في كتابه انه اكثر ميلا الى اعتبار اليهود الاسرائيليين قومية في طور التكوين وان اقامة الدولة الفلسطينية الديمقراطية لا بد من ان يأخذ بعين الاعتبار الخصائص القومية الاسرائيلية . على سبيل المثال يصف المؤلف هذه الدولة بأنها « علمانية ديمقراطية متعددة الاديان والاجناس والقوميات » (ص ٢٠١) . الا ان اعترافه بوجود القومية الاسرائيلية على هذا النحو يتعارض مع تلميحه السابق الى تصفية هذه القومية ، مما يبين مرة اخرى مدى التعثر الذي ما زال الفكر العربي الثوري يعاني منه بالنسبة لمعالجة هذه القضية الهامة على اسس واضحة ومنتظمة ومنسجمة مع نفسها . كذلك ان مقارنة أديب ديمتري الوجود الاسرائيلي « بمجتمعات المستوطنين العنصريين مجتمعات سيسيل رودس وامثاله » تعوزها الدقة لان استعمار سيسيل رودس خلق طبقة علوية من المستعمرين الاوروبيين التي تسيطر على سكان البلاد الاصليين وتستغلهم بشتى الوسائل كما تستغل موارد بلادهم ، بينما خلق الاستعمار الصهيوني الاجلائي مجتمعا اسرائيليا متكاملا بطبقاته الاجتماعية المعروفة ودولته القومية الحديثة بكافة مؤسساتها وادواتها، من هنا يصبح تشبيه اديب ديمتري لنمو القومية الاسرائيلية بعملية استعمار كندا واستراليا اقرب الى الواقع التاريخي من تشبيهه الاخر لها بالمستعمرين الاوروبيين على طريقة سيسيل رودس والجزائر مثلا مع فارق هام جدا هو ان الشعب الفلسطيني ما زال يناضل لاستعادة حقوقه القومية في أرضه التي اجلي عنها . لا شك ان كتاب اديب ديمتري قد قدم شيئا هاما بطرحه السؤال الجوهري حول القومية الاسرائيلية بهذه الصورة الصريحة والمفتوحة ، هذا بالرغم عن بعض اوجه القصور الكامنة في اجابته ومعالجته للموضوع .

ص. ج. ع.

Raafat Chambour, La responsabilité de l'Occident devant le danger de guerre, (Edition Méditérrannéenes, Montreux, 1970).

يعبر هذا الكتاب ، عبر سياقه العام ومن خلال المشاريع والافكار الكثيرة التي يوردها ويطرحها ، عن اهتمامات جدية وصادقة من أجل بناء عالم أفضل يسوده السلام العادل وتختفي منه مآسي الحروب والعنف والدمار . ان مؤلف هذا الكتاب يبدو وكأنه انسان شغوف بالسلام حتى الغرق في أقصى انواع المثالية السياسية . وكما نعلم فان المثالية في السياسة ، وان كانت تعبر عن أماني وتطلعات كل البشر فانها تظل عاجزة عن ان تلتصق بالواقع وبالتالي فان كل معالجتها لمشاكل السياسة تظل أسيرة الفكر المجرد الخالص . نقول هذا لان هذا الكتاب لم يستطع في معالجته للقضايا السياسية التي طرحها الا أن يضيع أحيانا في بحر من المثالية وذلك بالرغم من المام المؤلف بماهية السياسة وبحدودها وواقعيتها . وقد يكون من المفيد ان نبدأ بعرض موجز لاهم ما تعرض له المؤلف في هذا الكتاب قبل ان نعمد الى تقييمه ، خاصة في الجزء الذي يتكلم فيه عن القضية الفلسطينية وارتباطها بمسألة السلام العالمي .

بالرغم من ان المؤلف قد قسم كتابه الى ستة اجزاء مميزة فاننا لا يمكننا الاخذ بهذا التقسيم في معرض دراستنا لما جاء فيه وذلك لان هناك تداخلا قويا بين هذه الاجزاء الى درجة يصح معها ان نقول ان هذا التقسيم ليس سوى تقسيما منهجيا . ففي الجزء الاول مثلا نجد دراسة قصيرة مدعمة بالوثائق عن السياسة الاوروبية في المنظمات الدولية بالاضافة الى تعداد لمشاريع السلام عبر التاريخ. وهذان كما نرى موضوعان متمايزان وان كانا مكملين لبعضهما بعضا . ويحذرنا المؤلف في بداية هذا الجزء من عواقب نسيان الماضي ويدعونا بالحاح الى الاستفادة من عبر التاريخ . كل هذا يظهر لنا وبكثير من الدقة والتحليل العوامل الثابتة في السياسة الاوروبية ويبين لنا الدوافع الكامنة وراءها بالاضافة الى حدودها وحجمها وفعاليتها ومناطق نفوذها وامتداداتها وموازين قواها . ثم ينفذ من هذا كله ليشدد على كون السلام محورا اساسيا في هذه السياسة فيحدثنا عن الخطوط العريضة لبعض مشاريع السلام الشهيرة وبشكل مشروع سولي من اجل « السلام الدائم والوحدة الاوروبية » ومشروع سينيه الجديد من اجل « السلام العام وحرية التجارة للجميع » وكذلك مشروع بنتهام واخيرا لا آخرا مشروع امانويل كنط من اجل السلام الدائم .

اما في الجزء الثاني فيحدثنا عن السياسة الاوروبية الخارجية (اي سياسة دول اوروبا بينها من جهة وسياستها تجاه العالم « غير المتمدن » من جهة ثانية) . فيظهر لنا المحاور التي كانت تتجاذب الدول الاوروبية آنذاك والتي أدت الى نشوب الحرب العالمية الثانية . ولهذا الجزء اهمية خاصة في دراسة التصرفات السياسية الاوروبية التي تتجاذب السياسة الاوروبية الان .

اما الجزء الثالث فهو عبارة عن ملف وثائقي هام عن القضية الفلسطينية . وهو ، وان لم يأت بجديد في هذا المضمار الا انه يعتبر ملفا جامعا ومنظما لاهم المراحل التي مرت بها القضية الفلسطينية منذ أقدم التاريخ حتى يومنا هذا . كما انه يلقي أضواء كاشفة على حقيقة الارتباط العضوي بين الصهيونية وبين الاستعمار بالاضافة الى دراسته لظاهرة الصهيونية بحد ذاتها وبعدها عن الدين اليهودي رغم كل ادعاء . وأهم القضايا التي توقف عندها هي : الصهيونية والتوسع الاستعماري ، دور بريطانيا (وعد بلفور ، مسؤوليتها كدولة كبرى) ، مسؤولية عصبة الامم ، مسؤولية الامم المتحدة . بالاضافة الى دور اسرائيل كعنصر معاد للسلام وللطبيعة في المنطقة . وقد اظهر المؤلف هذا من خلال تقديمه للائحة بالادانات الحازمة التي صدرت عن مجلس الامن ضد اسرائيل وذلك منذ انشائها وحتى اليوم . وينتهي هذا الجزء بتحليل لمشروع روجرز الاخير ومضامينه وأبعاده وكيف انتهى . كل هذا ليقول لنا ان على العرب ان ينشدوا السلام بأي ثمن ولكن ليس أي سلام وبأي ثمن بل السلام العادل الذي هو وحده بامكانه ان يدوم وان يستمر .

وفي الجزء الرابع يشدد المؤلف على مسؤولية الغرب في صيانة السلام — أي غرب ؟ يبدو هنا ان المقصود هو أوروبا أولا وأخيرا باعتبارها ذات تاريخ سياسي عريق وذات تراث دبلوماسي يؤهلها للقيام بمثل هذا الدور . وفي هذا الجزء تحليل للسياسة الاوروبية والدولية في اطار الامم المتحدة

ولمفهوم السلام وتطوره من يالطا الى سان فرنسيسكو .

بعد هذا كله نصل الى الجزء الخامس وهو بيت القصيد وفيه يقدم لنا المؤلف مشروعا للتعاون الدولي من اجل سلام عالمي وهو مشروع يقوم على مبادىء المساواة والاخاء والحرية وهي كما نرى مبادىء مستوحاة من شعارات الثورة الفرنسية . كما أنه ينادي بالغاء معظم المؤسسات السياسية الحالية لتقوم مكانها منظمات على مستوى عالمي تتميز بالاختصاص والانسجام والعمل نحو الافضل . وهذا أيضا ينطبق على الاحزاب السياسية التي يجب ان تحل محلها منظمات متخصصة حسب ظروف كل أمة أو تجمع بشري . وهذه المنظمات هي : صناعية — انتاجية ، مالية ، مصرفية ، منظمات عمل ، زراعية ، دفاع وطني ، اصلاحات عامة. وبعد ذلك يوضح المؤلف بايجاز الصيغة العملية لتطبيق هذا المشروع . وفي الجزء السادس يشدد الكتاب على ان العمل العاجل والضروري والملح هو قبل كل شيء ابعاد خطر الحرب وجعل السلام شيئا طبيعيا وشرعيا في العالم وذلك ضمن مؤسسات وقوانين وأنظمة . وهذا العمل ، كما يشير عنوان الكتاب ، يقع بالدرجة الاولى على عاتق الغرب . وينتهي الكتاب بنداء ملح من المؤلف يشير فيه الى أن : « على العالم أما أن يختار الاستمرار في الوضع الحالي واما التطلع الى مستقبل أفضل من شروطه الاساسية ان يكون قائما على الحرية الوطنية والتخلي عن روح الحرب . ومن أجل هذا يجب القيام بمجهودات هائلة وبتضحيات جلى من أجل جعل السلام حالة طبيعية » . ثم يقول : « لقد كرست هذا الكتاب للاجيال المقبلة التي ستقدر مشاريعي من اجل السلام وكذلك ايضا لجيلنا الحالي الذي يمكن ان يستفيد منها ليحمي نفسه من خطر الحرب . انني اقدم هذا الكتاب الى المفكرين والمثقفين الذين يدركون مثلي أن الفكر السليم هو اقوى من السلاح » .

ان هذا العرض السريع لاهم محتويات الكتاب قد أظهر ولا شك أنه عبارة عن دراسة اكاديمية قانونية تريد أن تكون فوق الايديولوجيات وفوق الصراعات السياسية ولكنها في الحقيقة تعبر عن ايديولوجية مثالية تدعي العلمية والموضوعية وهي في حقيقتها ايديولوجية بعض الاوساط الحقوقية المتأثرة بالولايات المتحدة الاميركية والمؤمنة بأنها كانت في يوم من الايام دولة مسالمة متنزهة عن كل مصلحة مادية وتريد اقامة مجتمع عالمي قائم على اساس العدالة والحق والمساواة . والملاحظة التي يمكن ان توجه الى هذا النوع من الدراسات هي أنه ليس المهم اعطاء مشاريع عقلانية مثالية من اجل احلال السلام بقدر ما ينبغي الالتصاق بالواقع — الذي هو في الحقيقة العقلانية الوحيدة المقبولة — ودراسة ما اذا كانت هذه المشاريع قابلة للتحقيق . ان مشاريع السلام كثيرة وادراج الحكومات والمنظمات العالمية تكاد تمتلىء بها ، الا أنها لا يمكن أن تترجم الى واقع محسوس الا اذا تحول ميزان القوى في العالم الى صالح قوى التحرر . ان الافكار لا يمكن ان تقود العالم وتسيره مهما كانت هذه الافكار سديدة وصائبة ومعقولة . وحده الصراع والتناقض يقود العالم. ان مشروع السيد رأفت شنبور من اجل احلال سلام عادل يعبر ولا شك عن انسانية معذبة في داخله تتوق الى السلام والى عالم أفضل . الا ان طريق العالم الافضل — عالم السلام — لا تحدده وتخلقه الافكار المثالية بل تطور الصراع لصالح قوى التقدم والتحرر . ذلك ان قوى الاستغلال لا يمكن ان تتخلى سلميا عن مصالحها وعن استغلالها لمجرد خدمة الانسانية المعذبة . ان ما يهمها هو « انسانيتها » هي لا الانسانية كما يفهمها ويريدها السيد شنبور . ولعل سوء الفهم أو الخطأ الكبير في هذا الكتاب يكمن هنا اذ في حين ان المؤلف يؤمن بالانسانية وبمبادىء الحق والعدالة والاخاء فاننا نجد ان الواقع هو عكس ذلك تماما . فهذه المبادىء والشعارات لا تمت الى العالم السياسي الواقعي بصلة بل هي مجرد عموميات فلسفية ولاهوتية تعبر عن مواقف مثالية مسبقة .

ان كتاب السيد شنبور يجوز ان يسمى كتاب قانون دولي او فلسفة سياسية او فكر سياسي ولكنه على كل حال ، وبكل تأكيد ، ليس كتابا سياسيا .

ماجد نعمة

فلاديمير ب. لوتسكي ، **تاريخ الاقطار العربية الحديث** ،
(اكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي) ،
ترجمة د. عفيفة البستاني (موسكو ، دار التقدم ، ١٩٧١).

يعتبر كتاب المؤرخ المستشرق لوتسكي (١٩٠٦ — ١٩٦٢) من المؤلفات الهامة القليلة التي تتناول التأريخ الحديث للاقطار العربية (مصر ، فلسطين، سوريا ، العراق ، الجزيرة العربية ، السودان واقطار شمال افريقيا) على « نطاق تاريخي واسع » ، مستعرضا الحوادث الرئيسية في التاريخ العربي السياسي ، ولاشتماله على عرض لاستعمار الاقطار العربية ، حيث يعير « اهتمام كبير لتأريخ قضايا العرب الداخلية والاصلاحات ونشوء الشعور الوطني وكذلك حركة التحرر الوطنية » . وتأتي اهمية الكتاب من ناحيتين رئيسيتين ، فهو كما اوردت مقدمته ، « اول تجربة في الادب الروسي والسوفياتي تستعرض بصورة منتظمة تأريخ العرب في العصر الحديث » . وهو من ناحية ثانية ، يقدم مساهمة جدية تستدعيها ضرورات اعادة كتابة التاريخ العربي بأفق علمي ، وهو وان كان لا يسد هذه الحاجة ولا يكفيها ، الا انه يؤكد ضرورة طرحها كمهمة ، في المدى الراهن والمستقبل القريب ، على عاتق المثقفين الثوريين العرب .

من مقدمة الكتاب نعلم ان لوتسكي نهض بمهمة تدوين التاريخ العربي منذ الثلاثينات (١٩٣٦) . وقد قدمها في سلسلة محاضراته الجامعية التي ألقاها في معهد موسكو للدراسات الشرقية وفي جامعة موسكو وغيرهما من معاهد الدراسات العالية السوفييتية . وكان اول من قدم مثل هذه المادة « كفرع مستقل قائم بذاته » ونشر قسم من هذه المحاضرات كفصول متفرقة في كتاب « التاريخ الحديث للاقطار المستعمرة والتابعة » وقد أخذت مادة هذا المؤلف من سلسلة لمحاضرات القاها لوتسكي فيجامعة موسكو فيما بين ١٩٤٩ — ١٩٥٣، كما جمعت من مسوداته واوراقه الخاصة ومن مدونات الطلبة المخطوطة ، لذا جاءت مشوبة بالنقص ومتضمنة على فجوات عديدة بصدد بعض الاقطار العربية ، وقد سدت هذه الفجوات من مساهمات كتاب آخرين (لاندا ، سميلانسكايا ولازاريف) . وقام بتحريره ايفانوف ، كما اشرف على طباعته بصيغته النهائية . اي ان هذا الكتاب جاء حصيلة اسهام طويل من المؤرخ لوتسكي وجهود كتاب آخرين ، وتضمن سبعة وعشرين فصلا ، بالاضافة الى مقدمة ايفانوف ، وتثبيته بأسماء الاعلام والمواقع الجغرافية وثلاث خرائط تاريخية . ويربو عدد صفحاته على الخمسمائة صفحة .

ان كل ما يتصل بأوضاع فلسطين في الحقبة التاريخية التي يتصدى لها لوتسكي (القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين) موزع في انحاء الكتاب ، متسلسلة على فترات تاريخية وعلى صلة بما يقع في هذا القطر او ذاك من الاقطار العربية المجاورة . وقد عمد المؤلف الى تقديم لوحة اقتصادية واجتماعية وسياسية لمجمل التطورات التاريخية منذ بداية الفتح العثماني كانت بمثابة الخلفية التاريخية الشاملة للحقبة المعاصرة من تاريخنا . فيلاحظ انه منذ مستهل القرن السادس عشر وخلال مدة تتجاوز المئة عام بقليل (١٥١٤ — ١٦٣٨) خضعت جميع الارض العربية تقريبا للسيطرة العثمانية وشكلت جزءا شاسعا منها (باستثناء مراكش واواسط الجزيرة العربية وعمان) . وهو يرى ان الذي استهوى الفاتحين في الاقطار العربية هو « فرض الاستغلال الاقطاعي على الجماهير الشعبية العربية ، ثم موقع البلدان العربية الملائم على طرق التجارة العالمية ». ويشير وهو يستعرض الاوضاع الاجتماعية في الاقطار العربية انالعثمانيين ابقوا على الاوضاع الاجتماعية السابقة لدى الشعوب العربية منذ فتحهم للبلاد ، حيث بقيت الارض والسلطة كالسابق في أيدي الاقطاعيين المحليين . ويلقي لوتسكي بعض الضوء على اشكال ملكية الارض وطبيعتها . اما بالنسبة للتجارة ، فان الكاتب يلاحظ ان الحكم العثماني صادف فترة انتعاش في التجارة العالمية الناشئة عن تقدم الصناعة الاوروبية ، التي وجدت بدورها في الامبراطورية سوقا واسعة لها. ويلاحظ لوتسكي ضعف تطور التجارة الداخلية ، كما هو الحال بالنسبة للصناعة ايضا ، فقد كانت الصناعات ذات طابع حرفي مبنية علىالعمل اليدويوالتنظيمالطائفي. كما لم يكن هناك حد فاصل بين الاعمال الحرفية والزراعة . ويشير لوتسكي الى ان « التركيب الاجتماعي للمدن العربية يدل على ان نسبة كبيرة

من السكان لم تكن منتجة » . كما يرى أن « النظام الاقطاعي العثماني قد أعاق تطور المدن العربية ». وفي أواخر القرن السابع عشر دخلت الامبراطورية أزمة خطيرة جدا فقد تدهور الاقتصاد ودب الفساد في أجهزة الدولة وخرجت الاقاليم عن طاعة الحكومة المركزية ، وفقد الجيش المتفسخ قدرته القتالية ، وانحطت الثقافة . ويقول لوتسكي ان هذه الازمة الداخلية « كانت نذيرا بالتدهور الذي أخذ يدب في كافة انحائها منذ القرن الثامن عشر » . فقد أفضت الانفصالية الاقطاعية والنزاعات الى انحلال الدولة العثمانية المترامية الاطراف ، التي لم يكن نشوؤها نتيجة للتطور الاقتصادي ، وانما كنتيجة للاحتياجات العسكرية للنظام الاقطاعي العثماني في مجرى حروب استهدفت السلب والنهب . وهو يلاحظ ان نشوءها كان كسائر دول اوروبا الشرقية ذوات القوميات المتعددة في اطار التشكيلة الاجتماعية الاقطاعية قبل تكون الامم فيها وقبل القضاء على التفتت الاقطاعي ، لهذا فان توحيد الشعوب المختلفة والتي لها مستويات حضارية متباينة بصورة مفتعلة في دولة واسعة ، محاولة ليس من شأنهـا ان تعيش طويلا . وهكذا فقد اودت التناقضات بين التركيبة الاقطاعية للمجتمع بميوله المتنافرة والشكل المركزي للحكم الى اضعاف الامبراطورية ، وقد ادى هذا الاستعباد التركي الاقطاعي الى قيام العديد من الانتفاضات الشعبية ضد الامبراطورية وهي الانتفاضات التي كانت تجليا للتناقض الطبقي الاساسي بين الاقطاعيين والفلاحين، وكما كانت ، من جهة اخرى ، انعكاسا للتناقض القومي بين المستعبدين والشعوب المستعبدة . ويقسم لوتسكي هذه الانتفاضات الى نوعين : حركات شعبية موجهة ضد الاقطاع في تركيا نفسها وتلاقي بنفس الوقت سندا لها من قبل الشعوب المضطهدة ، وقد اصطبغت هذه الحركات بصبغة طبقية في معظم الاحيان ، ومن جهة اخرى ، حركات الشعوب المضطهدة الخاضعة للحكم العثماني ولها طابع الحركات التحررية الوطنية . ويرى لوتسكي ان هذه الانتفاضات المتعددة والنزاعات الاقطاعية قد أفضت الى اضعاف الامبراطوريـة فسادت الفوضى في أرجاء ممتلكات الباب العالي ، وهزت هذه الحركات الشعبية والانتفاضات الجماهيرية العربية واليونانية والكردية والارمنية والسلافيـة الاركان المتداعية من الامبراطورية وعجلت بانهيارها. ويشرع لوتسكي بدءا من الفصل الثاني بتناول ١

تاريخ كل قطر عربي على حدة خلال فترة محددة ، او هو يتناول مجموعة البلدان التي تشكل وضعا جغرافيا متجاورا ، كالشرق العربي ، او سورية الطبيعية او الجزيرة العربية .. الخ . ونجد تاريخ فلسطين خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين موزع على فصول أربعة هي : الفصل الرابع ، الثامن ، التاسع ، والرابع والعشرون، ويعود لوتسكي ليتناول فلسطين مع بقية الاقطار العربية بشكل عام في الفصل الختامي لفترة الحرب العالمية الاولى .

وبصدد حملة نابليون على سورية وفلسطين ، يرى لوتسكي ان الاطماع الفرنسية بالمنطقة كانت ضمن برامج وحسابات نابليون البعيدة المدى ، بحكم وقوع المنطقة في شبكة المطامع السياسية الدولية ، فقام نابليون بحملته الشهيرة على سورية (١٧٩٩) ، الا أن تقديراته كانت خاطئة ولم تستطع جيوشه ان تترك آثارا عميقة في سوريـة ولم يستطـع الفرنسيون تجاوز عكا . وكانوا قد احتلوا فلسطين فقط فاكتفوا بسواحلها وبسهل مرج ابن عامـر واستقاموا فيها لثلاثة اشهر فقط ، غادروا بعدها البلاد . ويلاحظ لوتسكي ، كيف ان احمد باشا الجزار والي عكا قد استعاد سطوته وامتدت ، بما عزاه لنفسه من شرف الانتصار على نابليون ، وكيف سعى الى وضع سورية برمتها تحت سلطته. ويلاحظ ايضا ان وفاة الجزار ١٨٠٤ كان من شأنها ان تزيد الفوضى الاقطاعية في البلاد ، لانحلال قبضته الحديدية ، غير ان سليمان باشا قائد جيش الجزار في عكا استطاع بعـد نزاعات استمرت أشهرا أن يحكم جنوب سورية مدة خمس عشرة سنة (١٨٠٤ — ١٨١٩) . وقد شهدت فترة حكم سليمان باشا لاضطرابات وحروب الباشاوات ضد الوهابيين ، وكذلك ضد الباشاوات المجاورين من عكا وطرابلس وحلب ، كما استولى ، من جهة أخرى ، على السلطة في يافا شخص يدعى محمد آغا كانت الجماهير تلقبه بأبي النبوت .

ويتحدث لوتسكي عن تذمر الجماهير في سوريـة وفلسطين في العقد الثاني من القرن التاسع عشر ، من أعمال السلطان التركي محمود الثاني والتي اتصفت بالاصلاحية ، حيث اتهم بالارتداد والخيانة من الجماهير المتدينة ، وقد زاد من نقمة الجماهير وسخطها وقوع عبء نفقات تنفيذ الاصلاحات على عاتق الحرفيين وصغار التجار بشكـل خاص ،

فانخفضت الاجــور وارتفعت الضرائب ، فوصم ايديولوجيو الحرفيين (الشيوخ) السلطان بالعار والترف والفساد ودعوا الــى التمسك بآداب التقشف والاحتفاظ بالفضائل القديمـــة وبأدوات الانتاج القديمة . كما حدثت عام ١٨٢٥ انتفاضات في القدس وبيت لحم ونابلس ، اذ رفض السكان دفع الضرائب . واندلعت عام ١٨٣٠ انتفاضة اخرى في نابلس ، وقد سهلت هــذه التمردات والانتفاضات العفوية ، مضافا اليهــا السخط السائد ، عمل قوات محمد علي التي اقتحمت حدود سورية وفلسطين عام ١٨٣١ بترحيب من السكان . يلاحظ لوتسكي ان سورية وفلسطين كانت محط مطامح محمد علي « اذ لم يكن من المستطاع تحقيق خططه لتشكيل دولة عربية كبيرة دون حيازته على هذين البلدين اللذين صانا مصر من الهجوم مــن الشرق ووقفا كحاجز ضد الخطر التركي » . وقد اتخذ محمد علي كذريعة لتحقيق مطامحه ، هرب ستة آلاف فلاح مصري من التجنيد ، ولجوءهم الى حماية والي عكا ، فبدأ محمد علي عملياته الحربية ضد والي عكا فقط وجهز حملته التي كانت اعلانا عن تمرده على السلطان العثماني ، فقد أدت هذه الحملة الى نشوب حرب تركية مصرية كبيرة انتهت بابرام معاهدة صلح كان من نتائجها ان عين محمد علي حاكما على فلسطين وسورية وكيليكيا . ويتطرق لوتسكي الى اصلاحات ابراهيم (ابن محمد علي) في سورية وفلسطين ، فيرى ان ابراهيم قد سعى في فلسطين ، كمــا في سورية ، الى القضاء على الانفصالية الاقطاعيـــة والى تحديد الحقوق السياسية التي يتمتع بها الولاة الاقطاعيون المنفردون ، واستعاض عن السادة الاقطاعيين غير المطيعين الى السلطة المركزية بآخرين يخضعون له كلية . وهكذا اعتمد ابراهيم في كفاحه ضــد الاقطاعيين العصاة في منطقة نابلس على شيوخ عبد الهادي وخاض بمساعدتهم نضاله ضد الشيوخ الاخرين . وقام ابراهيم باصلاحات ادارية وقضائية وتعليمية هامة .

ويتحدث لوتسكي عن الاستياء والانتفاضات التي قامت في وجه ابراهيم في فلسطين وسورية فيلاحظ ان على الرغم « ان اصلاحات ابراهيم كانت قد ضمنت نمو القوى المنتجة بدرجة ما وحسنت وضع التجار والحرفيين والفلاحين الا انها اثارت استياء خطيرا في سورية » . ففي فلسطــين قامت أول انتفاضة فلاحية كبيرة ضد التجنيد شملت فلسطين كلها تقريبا وكان ذلك عام ١٨٣٤ . وقد ابيدت الحملة المصرية التي أرسلت لتنكل بالفلاحين ، وحاصر الثوار ابراهيم نفسه في القدس وجاءت لمعونته امدادات عسكرية مصرية كان على رأسها محمد علي لقمع الانتفاضة . وقد تتابعت على اثر ذلك الانتفاضات في سورية ولبنان وظهرت خلافات جديدة بين محمد علي والباب العالي مهدت لتدخل الدول الكبرى وظهــور ما يسمى بــ « المسألة الشرقية » ، اذ انفتح الباب على مصراعيه امام الدول الكبرى وخاصة الانجليز ، وازداد تغلغل الرأسمال الاجنبي ، وهكذا اعتبر هذا العهد فاتحة للاستعمار الاوروبي للبلدان العربية وعهد تبعيتها اقتصاديا .

ويرى لوتسكي ان نشاط الارساليات الدينية كان طريقا آخر من طرق التغلغل الاجنبي في الشرق العربي ، حيث فتح المبشرون المدارس والمؤسسات في سوريه وفلسطين . وكانت هذه المؤسسات تدار من قبل الفاتيكان وتحظى باسناد فعال من قبل فرنسا . وفي عام ١٨٤٦ بعث البابا نظام بطريكية القدس اللاتينية الذي كان قائما في وقت من الاوقات في عهد الصليبيين . وفي عام ١٨٤٩ أنشأت روسيا في القدس ارسالية دينية روسية لتعزيز نفوذها بين السكان الارثوذكس من شبه جزيرة البلقان . اما انكلترا فقد أقدمت على مخاطرتين في آن واحد . اذ ساندت البروتستانت وخطط المستعمرين الالمان في فلسطين ، وانشأت في القدس اسقفية انكليزية — بروسية (١٨٤١) . ومن جهة اخرى شجعت خطط الاستعمار اليهودي وبدأت تلهم مختلف انواع المشاريع الصهيونية . ويقول لوتسكي « وفي منتصف القرن التاسع عشر كان عدد السكان اليهود ضئيلا جدا في فلسطين ، ولا يكاد يبلغ ١١ ألف نسمة . وكان الكثيرون منهم زوارا نزحوا الى هناك لاغراض دينية . وفيما يتعلق بالازمة الشرقية (١٨٣٩ — ١٨٤١) فان الانجليز اخرجوا من محفوظاتهم خطط نابليون بشأن انشاء دولة يهودية في فلسطين . وفي عام ١٨٣٨ قدم اللورد شافتسبري ، وبعده القنصل البريطاني في القدس جيمس فن ، جملة من المشاريع لاسكان اليهود في فلسطين وانشاء دولة يهودية فيها تحت الحماية البريطانية . فحظيت هذه الخطط بعطف من قبل بالمرستون ، الذي رأى فيها ضمانا لامن مواصلات الامبراطورية ، كما لقيت سندا من قبل مونتفيوري ، الصيرفي اليهودي — الانجليزي الذي يمت بصلــة قربى الى اســرة

روتشيلد . وقد قام مونتفيوري بزيارة الشرق بضع مرات وانه ابتاع عام ١٨٥٥ بستان برتقال بالقرب من يافا ، الا أنه لم يستطع استمالة أي مستوطن يهودي .. » ويلاحظ ان هذا المشروع من اقدم المحاولات الحديثة للتوطين اليهودي في فلسطين .

واخيرا يتحدث لوتسكي في الفصل الختامي عن الحرب العالمية الاولى ، كحرب امبريالية تستهدف اعادة اقتسام العالم ومناطق النفوذ وكيف استخدم الطرفان المتحاربان الاراضي العربية ومواردها والمواصلات ، كما وضعت الطاقة البشرية في غير مصلحة الشعوب العربية التي هي بدورها معادية الطرفين المتحاربين . كما يتناول تفاصيل عن المفاوضات السرية لاقتسام البلدان العربية ودور روسيا القيصرية فيها . وبصدد فلسطين يتحدث لوتسكي عن العمليات العسكرية التي قامت بها القوات البريطانية على اراضيها ضد الاتراك ، وحول وعد بلفور والمطامع الصهيونية في البلاد ، يلاحظ لوتسكي ان رغم المساندة البريطانية» «ورغم حياد السلطات التركية العطوفة » ورغم التبرعات السخية والاعتمادات المالية الصهيونية المختلفة لم يحصل الصهاينة في غضون الثلاثين عاما التي سبقت الحرب العالمية الاولى على اية نتائج ملموسة ويقول « ولم يكن في فلسطين في عشية الحرب الا ٤٣ قرية يهودية بلغ عدد سكانها ١٣ ألف معمر ، وخلال الاعوام ١٨٨٢ — ١٩١٤ ، دخل البلاد حوالي ٤٥ الف مهاجر ، وفي عام ١٩١٤ لم يكد يبلغ سكان فلسطين اليهود ٩٠ الف شخص». ويلاحظ لوتسكي الترابط المصلحي بين المستعمرين الانجليز والصهيونية في انشاء وطن قومي لليهود ، كما يشير الى سخط الشعوب العربية على بريطانيا على اثر نشر وعد بلفور ، وعلى اثر نشر حكومة روسيا السوفييتية للمعاهدات السرية الخاصة باقتسام الامبراطورية العثمانية ومن ضمنها اتفاقية سايكس — بيكو .

ملاحظات ختامية : على الرغم من ان كتاب لوتسكي هو من الكتب القليلة النادرة التي تصدت لكتابة تاريخنا العربي الحديث بروح التحليل العلمي ، الا ان الكتاب لم يحافظ على هذا النهج كلية ، فهو يهبط احيانا الى مستوى السرد التاريخي المحض . ولعل من المهم ان ننوه بالفصل الثالث المتعلق بمصر تحت حكم محمد علي ، الذي هو من اجمل الفصول واكثرها جذالة وخصوبة . وكذلك الفصل الاول الذي اعطى خلفية شاملة لاوضاع الوطن العربي عشية الاحتلال العثماني واثناءه .

وثمة عيب آخر يشمل الكتاب عموما هو خلوه من الاسناد والمراجع والمصادر التي اعتمدها في المادة التاريخية . وربما كان صدور الكتاب وتحريره بعد وفاة مؤلفه هو المسؤول عن هذا النقص .

واخيرا ، ان صدور كتاب لوتسكي الهام يدفعنا الى الاشارة الى ظهور عدد من الدراسات التاريخية الماركسية حول تاريخ المنطقة ، في وقت نحن احوج ما نكون لفهم طبيعة تطورات منطقتنا العربية ، كما هو الحال مع كتاب الباحث التركي ديفيتسيوغلو « النموذج الاقتصادي للعهد العثماني في القرنين الرابع عشر والخامس عشر » ودراسة دومينيك شيفاليه « اسباب الاضطرابات الفلاحية في كسروان عام ١٨٥٨ » وكتابات فؤاد قازان حول « الاقطاعية ومراحل تطورها في عهد دولة المماليك » ودراسة الباحثة الروسية سميليانسكايا حول الحركة المناوئة للاقطاع في لبنان خلال القرن التاسع عشر . ولا يفوتنا ان نشير ان للوتسكي نفسه مقالة هامة عن فلسطين نشرت في مجلة « مشاكل زراعية » السوفيتية (الجزء الرابع ، المجلد ٣/٤ سنة ١٩٣٣) تحت عنوان « الامبريالية الانجليزية وثورة تشرين الاول في فلسطين » . وقد ترجمها رياض يونس ونشرتها مجلة « دراسات عربية » ضمن كتاب خاص صدر في تموز ١٩٧١ باسم « المقاومة الفلسطينية : الواقع والتوقعات » . ان حدود هذه الدراسات العميقة والمشبعة بالروح العلمية تحفزنا هنا الى مطالبة دور النشر العربية وبوجه خاص مركز الابحاث الفلسطيني الى ايلاء المؤلفات التاريخية المتصلة بالمنطقة العربية وفلسطين اهمية خاصة . ففي مقدمة ايفانوف لكتاب لوتسكي اشارات متعددة الى بعض الكتب التي صدرت بالروسية او بلغات سوفييتية تتصل بتاريخ فلسطين والمنطقة ، وهي الكتب التي يمكن ان تكون حافزا لتعاون مثمر بين مركز الابحاث ودور النشر السوفييتية لايصال هذه المؤلفات الى العربية .

هاني حوراني

Walter Zander, **Israel and the Holy Places of Christendom.** (Weidenfeld and Nicholson, London, 1972).

الدعاية والاعلام والابحاث العلمية كلمات ثلاث لبضاعة واحدة تباع لزبائن مختلفين . ومن يريد الحصول على فكرة عن هذا التطابق يستطيع ان يجد بغيته في الكتاب الذي نحن بصدده ، بل واكثر من ذلك . من يريد من الاعلاميين العرب تلقي بضعة دروس في اسرار مهنته يستطيع هو ايضا ان يجد دروسه في هذا الكتاب . ولو قدر لي ان اترجمه فلن اتردد في اضافة عنوان فرعي له « كيف تصبح رجل اعلام في سبعة ايام » .

مؤلف هذا الكتاب المفيد ولتر زاندر ، يهودي هرب الى انكلترا من الاضطهاد النازي وكرس حياته للكتابة هنا . وتناولت كتاباته احوال اليهود في الاتحاد السوفيتي والنزاع العربي الاسرائيلي . وبعد ان وقعت الاماكن المقدسة تحت الحكم الاسرائيلي ، وجه انظاره اليها . وكتابه هذا « اسرائيل والاماكن المقدسة المسيحية » هو حصيلة ذلك البحث .

السر في اعتباري هذا الكتاب درة من درر الاعلام هو الطريقة التي استدرجني فيها المؤلف بحيث لم افق الى حقيقة النقد الذي دفعه لي حتى النصف الثاني من الكتاب . وفيه يستعرض زاندر قصة المسيحية وكنائسها في الديار المقدسة منذ اول نشأتها ويعرج الى دخولها تحت حكم العرب ويثبت في متون الكتاب عهد عمر بن الخطاب الى المسيحيين مع بعض الحذوفات منه ، ومن ذلك تعهد المسلمين للمسيحيين بعدم السماح لليهود بدخول القدس . ويثني زاندر على رعاية المسلمين، العرب والاتراك، للاماكن المسيحية ويشير في الاخير الى وقوعها تحت الحكم الاردني الهاشمي وكيف دحضت الحكومة الاردنية مخاوف العالم ازاء مصير الكنائس فاثبتت هي الاخرى قابليتها على رعايتها وحرصها على ازدهارها . كلام معقول يزيد من عدالته استشهاد المؤلف بشتى الوثائق والحجج في تأييده . ثم يخلص الى النتيجة التالية : ان كل حكومة حكمت فلسطين وجدت من صالحها وواجبها رعاية الكنائس المسيحية . واذا كان المسلمون قد اضطلعوا بالمهمة ، فلم لا يستطيع اليهود الاسرائيليون القيام بنفس الشيء ؟ ويعود زاندر الى انصافه فيعترف بأن أمام اسرائيل عقبات جسيمة في ادارتها لكنائس فلسطين ، من ذلك انه لم يسبق لليهود قط ان تولوا مسؤولية كنيسة مسيحية ليتمتعوا بخبرة وتقاليد كافية . ومن ذلك ايضا ان اليهود لا يؤمنون بقدسية المسيح والسيدة العذراء كما يفعل المسلمون لينظروا الى الموضوع بشيء من الورع الروحي . واخيرا لا يوجد بين اليهود مسيحيون كما يوجد بين العرب ليتولوا المسؤولية وينيروا الطريق للحكومة . ومع ذلك ، يقول المؤلف ، ان البداية التي بدأت بها اسرائيل هي بداية موفقة تبشر بالخير بالنسبة لهذه الكنائس .

ويتناول زاندر الشهور الاولى من الادارة الاسرائيلية فيورد لنا نص التعليمات التي اصدرتها الشرطة الاسرائيلية الى المواطنين في ضرورةاحترام قدسية هذه الاماكن ... الخ . وهذه من الهفوات الاعلامية القليلة في الكتاب . فحيثما احتاج شعب الى اوامر من الشرطة بالاحترام ، اقرأ على الشعب والاحترام السلام . والحقيقة ان حوادث الاعتداء على حرمة الكنائس لم تعد خافية على احد واضطر زاندر الى الاشارة الى بعض منها فذكر احتجاج السلطة الكنسية السوفيتية على الاعتداءات المختلفة التي تعرضت لها كنائسها في فلسطين المحتلة . وعلق الكاتب على المذكرة الشديدة بقوله ان الحوادث كانت طفيفة ومن عمل الغوغاء والاولاد . واشار ايضا الى سرقة التاج الذهبي من رأس السيدة العذراء فأعرب عن اعجابه بالشرطة الاسرائيلية التي استطاعت ان تلقي القبض على السارق الاسرائيلي الذي لم يستطع مقاومة الذهب حتى عندما يكون على رأس مريم العذراء . وعلى كل ، يقول المؤلف ، ما اكثر ما حدث مثل هذه الحوادث في التاريخ . لم نلوم الحكم الاسرائيلي على حرق المسجد الاقصى ؟ الم تشب النار في كنيسة القيامة عام ١٨٠٨ ؟ ولم نلوم شابا اسرائيليا على سرقة تاج السيدة العذراء ، الم ينهب راهب مسيحي النجمة الفضية من كنيسة بيت لحم اثناء معركة بين الارثوذكس واللاتين ؟ ونحن هنا طبعا امام ركن من الاعلام الصهيوني يقوم على تجسيم عيوب الاخرين وتسويد وجه البشرية الى الحد الذي تصبح فيه الشمطاء الاسرائيلية بدر الدجى .

ومن هذا الركن ايضا يتوصل زاندر الى رايه القائل بان الخطر الذي احاط ويحيط الكنائس الفلسطينية هو ليس فيمن يحكمها وانما فيمن يتبعها ، ليس في المسلمين او اليهود وانما في المسيحيين انفسهم . ويريد بذلك النزاع الطويل بين اللاتين والارثوذكس. ويستشهد هنا بوقائع مختلفة عن توقف اصلاح هذه الكنائس او ترميمها او تطويرها او تزويقها بسبب هذا النزاع . ويذهب الى اكثر من ذلك فيروي كيف تحولت مذابح هذه الكنائس الى مذابح حقيقية اقتتل فيها الرهبان والقسس بالشموع والشمعدانات بل وبالصلبان ايضا . ويعطي المؤلف جزءا كبيرا من كتابه لتاريخ هذا النزاع ويزودنا فيه بثروة نادرة من المعلومات والوثائق ولكن دون ان يلمس في سرده الوتر النابض لهذا الخلاف . سبب النزاع عند ولتر زاندر مرجعه اختلاف في المدرسة الفلسفية لليونان وايطاليا . وهو سبب يتطلب سببا . النزاع للسيطرة على شرقي البحر المتوسط والطريق الى اسيا وغير ذلك من الاعتبارات الاقتصادية السياسية امور لم تخطر على بال المؤلف مع الاسف . ويستطرد زاندر في ذكر المحاولات المختلفة التي جرت للتوفيق بين الطرفين وتوحيد الكنيسة المسيحية ويفرد صحائف طويلة للوثائق المتعلقة بالموضوع وينتهي بالاشادة بمحاولة البابا حاليا لتحقيق هذا التفاهم . وهكذا وبهذه السهولة تصبح مشكلة الاماكن المقدسة مشكلة تتعلق بتوحيد الكنيسة المسيحية ولا علاقة لاسرائيل او حكمها بالموضوع .

وبعد ان يستميح القارىء عذرا في تركه جانبا مسألة التوسع الاسرائيلي وضم المنطقة الى اسرائيل ، يخلص الى البديل المقترح للحكم الاسرائيلي ، الا وهو وضع الاماكن المقدسة تحت ادارة دولية (المشروع الذي يلح عليه الفاتيكان). ويعمد زاندر الى رد فكرة التدويل لعدة اسباب منها سبب لا جدال في طرافته . هيئة الامم المتحدة ليست اهلا للتصرف بالاماكن المقدسة المسيحية لان اكثر اعضائها غير مسيحيين . ولكنها كانت اهلا لهذا التصرف عندما قسمت فلسطين في ١٩٤٨ لان اكثر اعضائها كانوا مسيحيين عندئذ . وطبعا وبالتبعية يمكننا ان نقول انها لا ولن تصبح اهلا للتصرف في القدس لان اكثر اعضائها لن يكونوا من اليهود . ولم كل هذه الضوضاء ، يقول المؤلف . فلسطين لا تعني كثيرا للمسيحيين . الم يقل القديس غريغوري ان الله يوم القيامة لن يسال عباده ما اذا كانوا قد حجوا الى القدس ام لا ؟ الحج ركن من الاسلام واليهودية ولكنه ليس كذلك بالنسبة للمسيحية . وعندما غزا نابليون فلسطين توجه الى عكا وترك القدس وراءه . ولكن ولتر زاندر ليس كاتبا اعلاميا عربيا ليكتفي بهذا الجانب ويسدل الستار على الجانب الاخر فمضى ليستشهد بالقديس جيروم الذي قضى الثلاثين سنة الاخيرة من حياته في الديار المقدسة مؤمنا بان الوقوف حيث وقف المسيح جزء من العبادة .

ومن الافكار الغريبة التي يسوقها زاندر اعتقاده بان موسكو ستصبح في المستقبل روما الثالثة بالنسبة للكنيسة ويستشهد بالاهتمام الذي يوليه الاتحاد السوفيتي للكنائس والممتلكات الدينية الروسية الموجودة في الاراضي المقدسة في الايام الاخيرة . ومن يدري ، أفليست هذه ارض المعجزات ؟ ام هي يا ترى نقطة اعلامية اخرى تعذر علي فهمها ؟

وينتهي الكتاب بستة ملاحق لمذكرات ونصوص مختلفة تتعلق بالاماكن المقدسة المسيحية ومكانتها بين المسيحيين والنزاع حولها ومن ذلك الفرمان العثماني لعام ١٨٥٢ وقرارات حكومة الانتداب — كل هذا بالاضافة الى الاقتباسات الطويلة التي يوردها المؤلف في صلب الكتاب الى حد ممل احيانا ومشوش احيانا اخرى . ويصبح هذا المنحى مضيعة بالفعل عندما يكون الاقتباس من احد الملاحق المثبتة في اخر الكتاب على اي حال . ولكن هذه العيوب قد تبدو ابشع من حقيقتها بالنسبة للناقد الذي يراكض عقارب الساعة ، في حين سيجد الباحثون في الموضوع والمتفرغون له طعاما سمينا في المعلومات القيمة التي يسوقها المستر زاندر في عرض كلامه . والاكثر من ذلك ان مثل هؤلاء القراء هم الجمهور الذي فكر فيه عند كتابته كتابه . براعة زاندر الاعلامية تتجلى في استعماله وتسخيره للمعلومات والنصوص للوصول الى نتيجته المرسومة مقدما . ومن ابرع استعمالاته الاعتماد على النصوص العربية وتصريحات الحكومة الاردنية ومذكراتها في الرد على التدخل الدولي في مصير الاماكن المقدسة وتثبيت اهلية الحاكم الفعلي في التصرف والادارة . الحاكم الفعلي كان الملك عبد الله . الحاكم الفعلي الان غولدا مئير . ويحك ايها التاريخ ، ما اظلمك .

خالد القشطيني

أحمد الشقيري، من القمة الى الهزيمة،
(دار العودة، بيروت، ١٩٧١).

الكتاب يؤرخ لجانب من التاريخ الفلسطيني والعربي المعاصر بقلم رجل شارك، مهما كان حجم المشاركة والاراء المختلفة فيها، في صنع احداث هذا الجانب من التاريخ. ومع ادراكنا ان الكتاب، لانه في صيغه مذكرات، جاء ذاتي النظرة يتناول الاحداث من حيث علاقتها بالذات التي تدونها، فان قيمته تنبع من ان احمد الشقيري في كتابه هذا دون سجلا دقيقا [هل نقول يوميا ؟] للاحداث التي سبقت بقليل ورافقت نشوء منظمة التحرير الفلسطينية والاعتراف العربي بها خلال الفترة من اواخر عام ١٩٦٣ الى اواسط عام ١٩٦٥. المذكرات تتحدث اذن عن بعث الكيان الفلسطيني ممثلا بـ م.ت.ف، غير ان السؤال الذي يلح على قارىء المذكرات هو من بنى هذا الكيان ؟ فاذا كانت المنظمة قد «ولدت على فراش مؤتمر القمة العربية» فالى من هي تنتسب ؟ من ابواها ؟

ان مؤتمر القمة العربية لم يخول الشقيري اطلاقا انشاء كيان فلسطيني، فقد قرر المؤتمر ان «يستمر السيد احمد الشقيري ممثل فلسطين لدى جامعة الدول العربية في اتصالاته بالدول الاعضاء والشعب الفلسطيني بغية الوصول الى اقامة القواعد السليمة لتنظيم الشعب الفلسطيني وتمكينه من القيام بدوره في تحرير وطنه وتقرير مصيره» (ص ٥٠)، والشقيري نفسه يقول «كانت مهمتي في الواقع الاتصال والدرس ومن ثم تقديم تقرير الى مؤتمر القمة الثاني في شهر اغسطس ١٩٦٤» (ص ٦١) ومؤتمر القمة الثاني لم ينعقد الا وكانت م.ت.ف. قد ظهرت الى الوجود في أيار (مايو) ١٩٦٤. اما جامعة الدول العربية فهي لم تأخذ مرة مسألة الكيان الفلسطيني مأخذ الجد. وأول مرة ورد هذا الموضوع رسميا في الجامعة كان في اذار (مارس) ١٩٥٩ عندما اتخذ مجلسها قرارا «باعادة تنظيم الشعب الفلسطيني وابراز كيانه شعبا موحدا». اما كيفية ابراز هذا الكيان، اختصاصاته، محتواه، شكله، علاقاته فلم تبحث مرة. واذا كانت هذه هي المواقف الجماعية للدول العربية فان موقف كل منها منفردة لم يختلف عما اسلفنا. فقراءة «المذكرات» تعطي انطباعا واحدا بأن ما من دولة عربية، باستثناء واحدة كانت «متحمسة» لابراز الكيان الفلسطيني. والاستثناء الذي اشرنا اليه هو موقف مصر فقد «كانت ج.ع.م. راغبة في انشاء الكيان اليوم قبل الغد». غير ان الشقيري وخلال الكتاب كله لا يشير الى سبب هذه الرغبة. حتى انه في اكثر من مكان يشككنا في هذه الرغبة: فبعد ان كلفه مؤتمر القمة الاول بالاتصال بالدول العربية والشعب الفلسطيني لتنظيم هذا الشعب «عدت الى منزلي وانا في حيرة من أمري من موقف القاهرة من الكيان الفلسطيني، فلم تلاق جولتي الطويلة المضنية في الوطن العربي اي صدى في صحفها واذاعاتها ولو حتى من ناحية اخبارية» (ص ٩٢). وحتى قبل ذلك، قبل ان يكلف من القمة العربية بهذه المهمة، اي عندما اختارته الجامعة العربية ممثلا لفلسطين لديها (ايلول سبتمبر ١٩٦٣) والقى خطابا دعا فيه الى الكيان الفلسطيني «اهتمت الصحافة (بذلك الخطاب) خارج القاهرة اهتماما بالغا واهملته صحف القاهرة اهمالا ظاهرا» (ص ١٨) وكان تعليقه على ذلك «الاهمال» «سأمضي في الطريق (طريق انشاء الكيان) وليكن موقف القاهرة ما يكون، فان الزمن سيكشف كل شيء» (ص ١٩).

مرة اخرى، اذا كانت هذه هي مواقف الدول العربية من الكيان الفلسطيني فمن الذي بناه اذن؟ هل كان بعث الكيان حلما في بال الشقيري «استغل» وظيفته ممثلا لفلسطين في الجامعة العربية لتجسيده واقعا وكان قرار القمة العربية الآنف الذكر رخصته في ذلك ؟ الشقيري يقول ان «موضوع الكيان كان مثار اهتمام الرأي العام الفلسطيني والعربي لاربع سنوات مضت» (ص ٣٧)، ولكن ما دور الشقيري نفسه في تحويل ذلك الاهتمام الى حقيقة مجسدة ؟ ان الصفحات الثلاثمائة التي يتألف منها الكتاب تشير بوضوح الى ان الشقيري راوده حلم الكيان الفلسطيني منذ وقت مبكر. وفي شهر تموز (يوليو) ١٩٦٢ حاول تجسيد هذا الحلم عندما عرض على لجنة خبراء منبثقة عن جامعة الدول العربية وكان وقتها ممثلا للمملكة العربية السعودية «مشروعا للكيان الفلسطيني يقوم على اساس الدعوة لمجلس وطني يمثل التجمعات الفلسطينية، تنبثق عنه جبهة وطنية لقيادة الشعب الفلسطيني، تكون لها اختصاصات عسكرية وسياسية وتنظيمية

واعلامية ومالية ، وتحدد صلتها بالجامعة العربية» (ص ٥٩ ، ٦٠) وهو مشروع يكاد لا يختلف في خطوطه العريضة عن مشروع منظمة التحرير الفلسطينية . فهل نستطيع ان نحكم اذن ان هذا الرجل هو مهندس الكيان الفلسطيني وبانيه ؟ ان تأكيد هذا الحكم ، او نفيه ، يحتاج الى برهان غير « المذكرات » التي بين ايدينا . هذا صحيح باطلاق ولكن يظل صحيحا ايضا ان اية دراسة جادة لموضوع انشاء الكيان الفلسطيني وكيف تم ، لم تظهر بعد . وجميع تلك الادبيات واخص منها تلك التي اعتبرت انشاء منظمة التحرير الفلسطينية خطة قامت بها الدول العربية لتطويق العمل الفلسطيني المستقل واحتوائه [مع ملاحظة ان المنظمة قامت قبل اعلان بدء العمل الفدائي باكثر من نصف سنة] جميع تلك الادبيات تفتقر الى أسلوب التوثيق التاريخي ، وتنطلق في مجملها من منطلقات تحليلية صرفة .

وكلمة اخيرة ، اني اعتبر هذه « المذكرات » دعوة لكل من عايش تلك الفترة واسهم بجهد في صنع احداثها ، الى ان يسهم في تأريخها . فهي واحدة من اخطر مراحل العمل الفلسطيني ، والعربي كذلك ، تحتاج الى جهد ، ربما جماعي ، لاستجلاء حقائقها . فهل يأخذ مركز الابحاث على عاتقه مهمة ان يكون بؤرة استقطاب لجهود تعد بمثل هذا الانجاز ؟

عصام سخنيني

الموت الكبير — شعر سميح القاسم
(دار الآداب ، بيروت ، ١٩٧٢)

مجموعة جديدة لشاعر من شعراء الارض المحتلة عرف بغزارة انتاجه ، وهو سميح القاسم الذي اعتاد القراء والنقاد ان يضعوه في الدرجة الثانية بعد محمود درويش ، حيث انتشر اسمهما سوية على اعقاب هزيمة حزيران عام ١٩٦٧ ، وحيث عرفا معا بتلك الغنائية الغضة الدائبة البحث عن جديد في الرؤيا الشعرية ، وبتلك الروحية الشابة المتحركة النزاعة الى رسم حدود واضحة وتقاسيم بارزة لحركتهما الشعرية داخل الارض المحتلة ، ولحركة الشعر المقاوم بشكل عام . ولكن الاستقلال الشعري الواضح لكل منهما لم يمنعهما من هذه المجانسة ، حتى اليوم ، بالرغم من الفارق الكبير — من حيث التجربة الفنية للقصيدة — بينهما ، ففي الخطوة الاولى التي عرف فيها محمود درويش غنائيا شغافا ، بحرف سميح القاسم بغنائيته المباشرة الجارحة ، وفي الخطوات التالية التي ذهب فيها درويش الى الاعمق حيث الرؤيا الغنائية ، والدرامية داخل القصيدة ، ذهب القاسم هو الاخر حيث الخطابة الغنائية ، والدرامية خارج القصيدة، لا داخلها . ان الفاصل الفني بينهما كبير وعميق. ولعل ذلك يفسر خلو شعر محمود درويش من اية شكلية خارجية كتعدد الابطال ، او الحوار او الاصوات ، في حين التجأ سميح القاسم في معظم شعره وخاصة المتأخر منه الى المسرحية الشعرية، والى التشكيل الخارجي والاهتمام بتقديم الشخوص والحوار والاصوات . في « الموت الكبير » مجموعة سميح القاسم الاخيرة وهي مجموعة ضخمة قياسا لمجموعاته السابقة ، تجد اتجاهات الشاعر هذه . فما هي مباشرة ، وحادة في مباشرتها أحيان كثيرة. ولقد تساءلها الشاعر ان تكون كذلك لتمثل — في رأيه — اسلوبا خاصا من اساليب الواقعية الثورية ولتكون قادرة على ان تصله بالجماهير صلة مباشرة وسريعة وحميمة . ولعل من ابرز مظاهر هذه المباشرة الغنائية استيحاء الشاعر المتصل من لغة الشارع ولهجة الناس البسطاء ، ليتمكن من خلق هاجس شعري وسيط ، فهو يستعمل لغة وسطا بين العامية والفصحى احيانا ، دون ان يتورط باخطاء واسفاف العامية ، او فخفخة

وكبرياء الفصحى ، وهو احيانا اخرى يضمن في قصائده مقاطع كاملة من الشعر الشعبي ، مثلا كان او اغنية ، وليس امر هذا التضمين بجديد على الشعر الفلسطيني عامة وشعر الارض المحتلة خاصة ، فلقد شاع فيه حتى اصبح خاصة من خواصه .

ان شواهد اللغة الوسطية كثيرة في المجموعة . ففي قصيدة « الدم الصهيل » يكتب الشاعر هذه المخاطبة :

يا رائحا للشام
سلم على الحبيب
وقل له يا زين
أنت له الطبيب !
...
يا راحلا لمصر
بس لي ترى الضريح
...
رح يا هوا مرسال
واخبط على الابواب
وخبر الاحباب :
دم المغني سال ! (ص ١٥)

وهذا الاستيحاء لا يقتصر على اللغة فحسب بل هو ينسحب على بناء هذه المقاطع حيث كتبت كما هو واضح بوزن غنائي معروف في الفولكلور الفلسطيني ، الذي اشتهر منه الموال والاهزوجة والترنيمات التي ترد عادة على لسان الاطفال ، أو على لسان الامهات :

يا قمر القميرة
يا رائع الغيمات
على السما بتديره
يا خاطف البنات (ص ٧٢)

أما ما يتصل بتضمين المقاطع العامية فيقتصر عادة على القصائد التي تتضمن قصة ، او شهادة واقعية ، كما في « خديجة تنتظر حبيبها العائد بالمهر » حيث تأتي التضمينة « منلوجا » يكشف عن الصوت الاخر للقصيدة ، او نغمة ذات دفق اعلى يرتفع بالقصيدة الى درجة من العاطفة ، جديدة ، كما في قصيدة « هبني قدرة الشهداء » :

لاني موقن الا مفر من الردى العالي
أطل على المشارف ضاحكا
واقول موالي :

على ماله
أخذنا القرد يا دنيا
وراح المال يا دنيا
وظل القرد
على حاله (ص ٥٤)

او في قصيدة « طانيوس شاهين » حيث يخاطب الشاعر الارزة :

جدة الخضرة يا ارزة كوني
نعش اشباح القلاع
اشعلي النار على كل الجبال
واسمعي صوت مناديك
وهبي يا ضياع
لبنان يا لبنان
ما عاد بدها صبر
شعل معي النيران
عيشة بشر .. او قبر (ص ١٠٥)

ومن مظاهر تلك المباشرة الغنائية والواقعية الثورية ، البارزة اتساع اللغة الشعرية وطابعها السردي وخلوها من التركيز والايماء والاضاءة ، ولا اريد ان اسجل هنا خلافا مع الشاعر فمعرض الخلاف لا يحتمله مكان للتعريف و[illegible]اجعة كهذا المكان ، ولكني اقف في حدود ابراز المظاهر الشعرية ، بالرغم من انني مقتنع بان هذا الطابع السردي غير المركز هو الذي يقف وراء غزارة انتاج الشاعر ، وهو الذي يؤدي في رأيي الى هذا التشابه — لا الاتصال — بين قصائد الشاعر جميعها حتى لتعتبرها قصيدة واحدة طويلة كثيرة التكرار . فانت لتقرأ احيانا في قصيدة واحدة اكثر القصائد ، دون ان تتشكى ، لان قصائد سميح تحتفظ الى جانب ذلك بالطرافة والتوتر وتعدد الاصوات والاشكال ، ولكنك دون شك لا تستغرق فيها عميقا ، شأنك أمام قصائد محمود درويش الاخيرة .

الى جانب ذلك يبرز في مجموعة سميح الاخيرة اهتمامه بالتشكيل الخارجي ، ولقد سبق ان اشرت الى ان هذا التشكيل تطوير لنزعة المباشرة الغنائية ، فاكثر القصائد تحفل بأصوات متعددة ولكن تلك الاصوات تبقى محدودها بذاتها لا تختلط مع بعضها لتشكل دراميا داخليا ، بل هي مستقلة تتوجه الى الاخر وتنتظر بدورها الاخر صامتة ، شأنها شأن المسرحية النثرية، ففي قصيدة «السنبلة وشوكة التندول » على سبيل المثال ، حوار بينهما

تطالب فيه السنبلة شوكة القندول ان لا تقتلهـا ولكن الشوكة تأبى لان القتل مهنتها ، وتأتي في النهاية النار لتنهيهما معا ... الخ وكما في قصيدة « حيث صار الموت عادة » .

كما ان للشاعر سميح اهتماما ما زال ، في تلك المقاطع الغنائية الصغيرة التي تشبه التوقيعات ، والتي اختفت او كادت من شعر محمود درويش ، فهي لم تعد تغني في ضربتها الواحدة ما تملك ان تغنيه القصيدة الحديثة بضرباتها الداخلية العديدة. ما الذي تستطيــع ان تعطيـه عشرات من هـذه القصائد ــ المقاطع ، المتشابهة :

ان مت ظمآنا
فلا تبخل على سواي
يا قطر :
العازف بعض الناي (ص ٢٠١)
...
اعيش بالدين وبالتقسيط ،
أموت يا مولاي
ومن ثقوب الناي
النفط أنفاسي ، وللقصائد التحنيط (ص ١٩٠)
...
وطني محتقن في
فما حبر يسيل
عند اقدام القتيل ؟ (ص ١٦٥)

ان الطرافة الشعرية التي تتسم بها قصائد سميح القاسم ، والتي تأخذ لها وجوها كأن تكون قصيدة في بيت واحد كقصيدة « ضيق » التي يقول فيها « لحاكـم التفتيش اشكـو ! » (ص ٢٠٨) او قصيدة متضمنة فاصلا نثريا صحفيا كما في قصيدة « الجواد الابيض يصهل على التل »» او السخرية التي لا تخلو من مرارة الخيبة وخاصة في قصائده القصيرة كقصيدة « لا مفر » .. و « محـــاولة لتركيب صورة قديمة ممزقة » و « الزبانية والسفير الساذج » .. الخ ، اقول ان تلـك الطـرافة الشعرية ، والخطابية اذا كانت القصيدة بصوت الشاعر ، او استخدام الشخوص ، والحكاية .. كلها لازمة مـــن لوازم المباشرة الغنائيـــة لدى سميح القاسم ، التي تشكل جوهر تجربته الفنية.

ان هذه الملاحظات التي تعرضت فيها لتجربة سميح الفنية فقط دون مضـامينه ورؤياه للانسان والعالم، انما جاءت بمقتضى حال ما هو معروف عن شعـــر الارض المحتلة ، فمواضيعه معروفة وكذلك رؤياه، خاصة عند سميح وزملائه ــ باستثنـــاء محمـــود درويش حيث استطاع ان يفسر قدرا هاما مـــن تجربته . واذا ما لاحظنا لدى محمود درويش في دراستنا عن مجموعته « أحبك او لا احبك » ، ان « الحصار » كان يشكل محورا هاما في رؤياه لذاته وللعالم ، فان « الحزن » لـدى سميح القاســـم هو هذا المحور ، فما من قصيدة تطالعها الا وتجد الحزن ينبوعا لا ينتهي وموردا لا ينضب ، وقد يأخذ هذا الحزن شكل الدموع تارة او شكل الموت تارة أخرى ، الموت الذي يدمر والذي يجدد ، والدموع التي تغلق ابواب الملكة والتي تفتحها (ص ٨) .

« فمن الحزن امتشق الحالمون حرابا ، وامتشقوا زهرة الفرح (ص ٢٨) وها هو الشاعر يقابـــل الثائر في « ردهة الحزن » ذلك الثائر الذي « أخذ الحكمة عن كتب الحزن » (ص ٩٩) . والذي يقول في مكان اخر .

الف شكر
بلغ الحزن بنا ســن الرجولة
وعلينا ان نقاتل » (ص ١١٦)

والموت ذاته يأخذ هذا الشكل ليكون ينبوعا للحياة، فكثيرا ما يصرخ الشاعر متفجرا هوذا الموت
جوادي الابيض الصاهل في كل الجهات
هوذا الموت (ص ٢٦)

وهو يلتقي به « بين انقاض حـــزيران ليتداخلا ، ويشتعلا ويضيئا » (ص ٨٦) ... الخ . وليس غريبا ان يكون الموت ينبوعا للحياة ، ولطالما شغلت هذه المعادلة الحية الشعراء ، فسقطوهـــا بين الحكايات والاساطير ليعيدوا على ضوء الرؤيا الحديثة حقيقة الموت والانبعات الخالدة .

فوزي كريم

Charles Dobzynski, **Le miroir d'un peuple. Anthologie de la poèsie yidich 1870-1970.** (Paris, Gallimard, 1971).

هذا الكتاب : مرآة شعب او مئة عام (١٨٧٠ — ١٩٧٠) من الشعر اليهودي باللغة اليديشية ، رغم مظهره الادبي المحض ، اذن المحايد ، هو في الواقع كتاب صهيوني لخدمـة غرض صهيوني : اضطهاد اليهود في أوربا الشرقية حاليا ، لكنه يخدم هدفه على جبهة الادب لا على جبهة السياسة. ففي الوقت الذي كانت فيه الحكومة الاسرائيلية بين ٦٧ — ١٩٧٠ تهدم منازل الفلسطينيين في الارض المحتلة وتصادر أملاكهم وتعتقلهم اعتباطيا وتمر عليهم مياسيم التعذيب في الزنزانات المغلقة وتعتقل شعراء الارض المحتلة وتفرض عليهم الاقامة الجبرية ، كانت ، ومن ورائها الجوقة الصهيونية العالمية تثير مـن جديد قضية اضطهاد اليهـود الشرقيين عامة والمثقفين منهم خاصة كتغطية بارعة لاصوات المضطهدين الفلسطينيين داخل وطنهـم المحتل وخارجه . في هذا الوقت بالذات اصـدر المؤلف والشاعر الفرنسي الصهيوني اليسـاري الشهير شارل دوبزنسكي هذا الكتاب الذي اعترف هو نفسه بأنه لم يكن على جدول اعماله الادبية. فقد كان مشغولا باصدار ديوانه الجديد وباعادة النظر في ترجمته لديوان ناظم حكمت . الا أنه ، على حد زعمه ، « أحس بصوت مـن الاعماق الداخلية هو صوت ذلك الهاجس الذي لازمني منذ طفولتي : عذاب يهود الشتات المرير وانعكاساته في شعر الغربة » .

كتب المترجم مقدمة طويلة عن اللغة اليديشية يبدو فيها التحيز ذو الطابع الرومنطيقي بارزا جـاء فيها : « اللغة هي بالنسبة الى كل شعب معطى تجريبي ، ووسط طبيعي تماما مثل الهواء الذي يتنفس والنور الذي يرى . اما بالنسبة لليهودي فاللغة شيء آخر مختلف تماما : اللغة هي وسيلة اليهودي لتأكيد قوميته وشخصيته الثقافية المتميزة في بحران الشتات . اللغة بالنسبة لليهودي هي في نفس الوقت ثمرة واداة النضال اليومي من اجل البقاء على قيد الحياة » . وهنا نلمس اسطورة الشعب المختار جلية . الشعب الذي هو فوق قوانين التاريخ ، الشعب الذي ثبت رغم ارادة التاريخ . فاذا كانت اللغة هي بالنسبة لكل شعوب الارض تعبيرا تلقائيا عـن الحياة الاجتماعيـة والنفسية ، فهي بالنسبة لليهودي تعبير عن قوميته « الفولاذية » التي لم تمت بعد ألفي عام من الحل والترحال !

كانت الحركة الصهيونية تقول ان اليهودية هي وسيلة للحفاظ على القوميـة اليهودية . امـا دوبزنسكي فقد اضاف جوادا آخر هو اللغة ، التي يعالجها كشاعر افسدته الصهيونية : « اني قادم من محيط لا شطآن له ، محيط اعماقه من اخاديد القرون ومن ذكرى الالم والامل المتجددين على مر الايام ، محيط ملحمة الزمن الذي صاغ التماثل القومي بين الشعب اليهودي ولغته » .

يستغرب القارىء لهذا الكتاب الشعري وجـود عشرات الصفحات التاريخية عن مذابح اليهود في المانيا النازية وروسيا الستالينية وحديثا طويلا مملا عن اضطهاد المثقفين اليهود في اوربا الشرقية. لكن استغرابه يزول عندما يصل الى مسك الختام : « ليس أمام اليهودي المضطهد الا ان يعود الى وطن الميعاد » أي ان يعود الى فلسطين المحتلة ليضطهد شعبا آخر ومثقفين آخرين ليس أمامهم أمام الاضطهاد الصهيوني لهم في عقر دارهم الا الهجرة او بالاصح التهجير او التـردد بين السجن والاقامة الجبرية وابتلاع اطنان الاهانات يوميا . معظم قصائد الشعراء الاربعة والثمانين التـي يضمها هذا الكتـاب قصائد ملتزمة بالقضيـة الصهيونية باستثناء عدد قليل من القصائد . لان « البرج العاجي لا يعرفه ولا يعترف به الذين ضرب التاريخ حولهم حصارا » على حد قول احد الشعراء اليهود في الديوان . وما احـرى ان يكون هذا الشعار هو شعار الشعراء الفلسطينيين لانهم اليوم هم الذين ضرب التاريخ عليهم حصارا .

فهل لهذا السبب نجد ان معظم قصائد الديـوان حزينة لا تدور الا حول الاغتراب الروحي لليهود ؟ من الواضح ان المترجم تعمد اختيار هذا النوع من الشعر ليجعل مأساة اليهود ، الذين تحولوا مـن شعب مظلوم في اوروبا الى شعب ظالم في فلسطين، وكما قال ماركس : « ان شعبا يضطهد شعبا ليس شعبا حرا » ، حاضرة في وعي وضمائر القـراء الغربيين كما لو كانت ما زالت حية ، كما لو وقعت بالامس ، وكما لو كـان القارىء الغربي المثقـل « بعقدة الذنب » ما زال مدعوا لان يبحث لها عن

مخرج انساني ، عفوا صهيوني . المترجم لا يكتم هدفه فهو يعترف بصفاقة : « اردت من هذه المرآة ان تكون شهادة شعرية ، تمزق قلب القارىء ، على حياة ونضال واحلام وتطلعات وفرح والام شعب طال ليله وعذابه » . هذه الكلمات كانت تكون اكثر صدقا لو كتبت تقديما لاحدى دواوين محمود درويش ، توفيق زياد او سميح القاسم او اي شاعر من شعراء الشعب الفلسطيني «الذي طال ليله وعذابه » .

من ١٨٧٠ — ١٩٧٠ عرف الشعب اليهودي باللغة اليديشية ازدهارا عجيبا . فلقد حطم شعراؤه الصمت الذي حاولت البرجوازية الاوروبية في القرن التاسع عشر ان تضربه حول مأساة اليهود . لقد حول الشعراء اليهود الكلمة الشعرية الى سلاح للدفاع عن قضيته ورفضوا ان يجعلوها لعبة للتسلية والامتاع . وفي خلال قرن واحد ظهرت عشرات المدارس الشعرية اليهودية ابتداء من الشعر الخطابي المباشر الى الشعر الرمزي والايحائي . لكن ما تميزت به كل هذه المدارس المتنوعة ، بل المتناقضة ، هي انها كانت كلها ملتزمة بقضية شعب . ان ما حققه الشعر اليهودي اليديشي في قرن لم تستطع ان تحققه اداب اخرى خلال بضعة قرون . وللشعراء الفلسطينيين والعرب في ذلك درس بليغ .

يضع المؤلف في رأس الصفحة الاولى للكتاب أبياتا للشاعر اسحاق لايبوش قال عنها بأنها تلخص المثل الاعلى للشعر اليديشي خلال قرن ، وهذا المثل الاعلى هو « العدالة والاخوة الانسانية » :
«قطرات الدم المزوجة بقطرات الدمع لا تذهب هدرا ،
بريق العيون المغروزة فيها الحراب لا ينطفي عبثا »
اصدق قصائد المجموعة هي قصائد الشعراء البروليتاريين مثل موريس فانجنسكي وروزن فيلد وافرون رايزن . انهم يحكون فصول المأساة بما يشبه الهمس ، لا مأساة كل يهودي ولا مأساة البروليتاريا اليهودية وحسب بل مأساة كل البروليتاريين في كل البلدان ويحلمون بعالم جديد لا ينتهي فيه الم العامل اليهودي فحسب ، بل ألم كل عامل في كل مكان . يقول موريس فانجنسكي :

ايها العامل اليهودي في مجاهل سيبريا كفاك عذابا
ايها العامل من كل الاجناس في كل سيبريات العالم
ثر على العذاب .
ايها العمال ارحموا الحجارة تحت مطارقكم
واقسوا على رؤوس ظالميكم
ليس اليهودي هو الذي يتعذب
ان الانسان هو الذي يتعذب
مأساتنا هي مأساة الانسانية
يا معذبو الارض ثقوا
ضعوا حدا للمأساة

تغلب على اغلب قصائد الديوان النبرة الملحمية التي نجدها عند شعراء الارض المحتلة . ونجد شبها عجيبا بين قصيدة حييم نحمان بيالك (مدينة المذبحة) حيث استعمل الشاعر نبرة الكتاب المقدس وضمن بعض اياته في بعض ابياته وبين قصيدة توفيق زياد (كفر قاسم) .

يقول بيالك :
شعبي أجتث كالعشب
لكن العشب المقتلع من جذوره يحيا ...
لا تنتظر بعد الان
خذ نفسك بعيدا
اهرب الى الذين ما زالوا على قيد الحياة
فاليوم يوم الصيام
علقهم في الهيكل
اكتب على جدرانه تاريخ قتلهم
وضع معهم
في بحر أجاج من الدموع ... ملحا
على الهيكل
اكتبوا اسماء قتلانا

ان المرء يتذكر عفوا وهو يقرأ هذه القصيدة توفيق زياد وهو ينوح في اباء و : « على جذع زيتونة » يكتب قصة امواته في كفر قاسم . اما لاينفسكي فان شعره مؤثر جدا . لقد اختزن الالم في سريرته وعاشه في اعمق اعماق وجدانه . فاكتسب شعره بالرمزية التي يكتب بها تأملاته حول مصير اليهودي في القرن التاسع عشر ومصير الانسان المستضعف والفلاحين الذين انتزعت املاكهم من اجل تحقيق التراكم البربري ، طابعا انسانيا شاملا .

الى جانب هؤلاء الشعراء البروليتاريين والانسانيين نجد شعراء صهيونيين مباشرين وتافهين يستغرب المرء وجودهم في عالم الشعر امثال ايلشومن ، فوجلير ، وافرون سوتكفير واخرون ممن يبدأون رحلتهم من سيبيريا ليحطوا رحالهم في القدس . وتمر قافلتهم بمحارق النازية وغابات حرب الانصار

وبمدن محترقة ورجال بلا وجوه ونساء ضارعات تحت أقدام الجلاد واطفال يتأوهون من التعذيب. اما في « ارض اسرائيل » فكل هذه الرؤى الجهنمية تتلاشى بقدرة قادر لتصبح ذكرى ... بعيدة :

في ارض السلام
ارض اسرائيل
لن نعذب حتى الذين عذبونا.

ويضيف المترجم : « لعل الذين يدعمون المقاومة الفلسطينية في فرنسا لا يعلمون ان المخربين لا يحكم عليهم بالاعدام وان اسرائيل ترد على زارعي الموت ودعاة تدميرها بطلب الحق في الحياة!» الرد على هذا الديوان ليس مجديا بمقال او بكتاب بقدر ما يكون بترجمة « مختارات من الشعر الفلسطيني خلال عشرين عاما » ونشرها باللغات الاجنبية في الغرب وبتعاون شعراء وكتاب غربيين من انصار الحق الفلسطيني وعددهم ليس بالقليل. لقد اصدر الشاعر الفلسطيني محمود صبح المقيم في أسبانيا سلسلة من شعر شعراء الارض المحتلة باللغة الاسبانية لاقت اقبال القراء الاسبانيين المشجع. كما ترجم الشاعر المغربي عبد اللطيف اللعبي المعتقل حاليا في المغرب مختارات من الشعر الفلسطيني باللغة الفرنسية.

وفي موسكو صدر ديوان محمود درويش. لكن كل هذه المبادرات والجهود المشكورة ما زالت تحتاج الى تنسيق وتعميق وتعاون مع الادباء والشعراء التقدميين في الغرب. لان اشتراكهم هو الذي يجعل هذا الشعر الفلسطيني ليس ضيفا ثقيلا على لغة وذوق وعادات القاري الغربي. فمتى نفكر بالرد المجدي على الدعاية الصهيونية المتعددة الاشكال والواجهات والجبهات ؟

فاضل عباس هادي

تقارير اسرائيلية

الصناعات الفوسفاتية والمعدنية والتعدينية في فلسطين المحتلة وأثرها في خدمة الاطماع الصهيونية

الدكتور فلاح سعيد جبر

الفوسفات والصخور الفوسفاتية مادة حيوية وركيزة أساسية من ركائز صناعة الاسمدة الكيمياوية في العالم . وأهم استعمالاته لزيادة غلة الارض الزراعية وللمساعدة في الاسراع في اصلاح الاراضي البور وجعلها اراض زراعية . وبهذا فان الصناعات الفوسفاتية لها فوائد عدة . فهي تشكل مراكز صناعية في مناجم التعدين ومراكز التحسين ومراكز التسويق والتصنيع لذلك تشكل دخلا قوميا معينا يتغاير تبعا للطاقة الانتاجية ولكلفة الانتاج . وهي بنفس الوقت ومن خلال تصنيعها كأسمدة تشكل موردا آخر اما على شكل تصديرها كمواد مصنعة أو استهلاكها في الداخل لزيادة غلة الارض الزراعية ولاستصلاح المزيد من الاراضي وهذا ايضا يشكل موردا ماليا دائما وركيزة اقتصادية متينة . والصناعة الفوسفاتية في فلسطين المحتلة تمثل للكيان الصهيوني ما ذكرناه سابقا صناعيا وزراعيا واقتصاديا .

ان ثرواتنا المعدنية العربية المستغلة حاليا لم تستغل مطلقا ولا خطط لها أن تكون سلاحا من أسلحتنا الاقتصادية في معاركنا المصيرية التي تخوضها جماهيرنا الان . واذا كان الاستعمار والصهيونية والتخلف قد دفعنا للابتعاد عن انتهاج خطة علمية اقتصادية لاستثمار ثرواتنا وتصنيعها ومن ثم خلق صناعة عربية تعتمد الخامات العربية، فان الغاية من ذلك كانت ولا شك مجرد بقائنا مصدرا للخامات الرخيصة وسوقا جيدة لبضائع الدول المستغلة . والفوسفات العربي يمكن أن يؤدي دورا مهما في خدمة قضايانا المصيرية وعلى رأسها قضية المصير العربي في فلسطين العرب . ويتطرق بحثنا هذا وبايجاز الى الصناعة الفوسفاتية في فلسطين المحتلة معتمدا على نشرات الامم المتحدة ذات العلاقة ومجلات الفوسفات والبوتاس (اعداد ١٩٦٢ — ١٩٧٠) واصدارات المؤسسات العربية .

عرفت فلسطين صناعة الاسمدة الفوسفاتية منذ أمد بعيد . فقبل النكبة عام ١٩٤٨ كانت شركة الاسمدة الكيمياوية تنتج السماد الفوسفاتي اعتمادا على خامات مناجم الرصيفة في الاردن . وبعد عام ١٩٤٨ واقامة اسرائيل من قبل الامبريالية العالمية أدركت السلطات هناك أهمية استغلال الفوسفات من نواح اقتصادية وعسكرية . ادركت السلطات أهمية وجود الفوسفات وكانت الدلائل الجيولوجية تشير الى وجود ترسبات فوسفاتية في منطقة أورون ومنطقة وادي ايفا في عراد . وبعد دراسات جيولوجية واثبات احتياطي الخامات الفوسفاتية التي من الممكن استغلالها اقتصاديا باشرت شركة النقب للفوسفات استخراج وتسويق الفوسفات عام ١٩٥٢ . وطورت السلطات هناك معامل الاسمدة في منطقة حيفا حيث تولت هذه المهمة شركة الاسمدة والكيمياويات الاسرائيلية . ومنذ ذلك الوقت واسرائيل تولي هذه الصناعة عناية خاصة فأجرت العديد من الدراسات لايجاد مناطق جديدة تحوي خامات فوسفاتية ، وكذلك اهتمت السلطات هناك بايجاد التسهيلات وتقديم المعونات الكثيرة لهذه الصناعة ، فأنشأت الطرق واستثمرت لذلك ملايين الدولارات وأخذت العديد من القروض من البنك الدولي ، كما حدث عام ١٩٦٢ حيث قدم البنك الدولي (٢٢) مليون دولار مساهمة في انشاء طرق كلفتها الكلية (٤٦) مليون دولار ، وكان هذا لتحسين طرق مواصلات نقل الفوسفات والبوتاس الاسرائيلي ، خاصة بعد اكتشاف ترسبات ضخمة من الفوسفات في منطقة عراد حيث

اكتشفت خامات فوسفاتية تبلغ نسبة خامس اوكسيد الفوسفور فيها ٢٩٪ واحتياطيها المثبت يزيد على (٢٢) مليون طن (الترسبات الواقعة شمال شرق ديمونة على طريق بئر السبع وسدوم) . ومع مطلع الستينات كان قد أعلن عن اكتشاف ترسبات فوسفاتية في مناطق جبل الهور ، عين ياهف ، هيمشار ، ووادي حيون .

وكنتيجة للتطور الكبير الذي طرأ على الصناعات الفوسفاتية في العالم ولمواجهة المنافسة في الاسواق العالمية ، اندمجت شركة الاسمدة والكيمياويات الاسرائيلية وشركة النقب للفوسفات بشركة واحدة سميت شركة الفوسفات والكيمياويات ، وكان ذلك عام ١٩٦٢ . وخلال ثلاث سنوات من العمل بعد ذلك استثمرت الشركة الجديدة (٢٠) مليون دولار لايجاد تسهيلات وزيادة المكننة في مشاريع حامض الفوسفوريك ومعامل السوبر فوسفات الثلاثي ولتطوير افران الحرق الذاتي ولانتاج بلاستيك غير قابل للحرق ومواد كيمياوية اخرى لتحل محل الجيلاتين الحيواني . وحصلت اسرائيل في نفس الفترة على قرض من بنك الاستيراد والتصدير الامريكي لاستيراد الافران الجديدة وادواتها الاحتياطية . وخططت الشركة الاسرائيلية في أول أيام عملها لانتاج خامات محسنة من الفوسفات تحوي على ٣٨٫٥٪ من خامس اوكسيد الفوسفور وانتاج السوبر فوسفات الثلاثي بطاقة انتاجية تصل الى (١٠) الاف طن سنويا .

ولما كانت تطلعات اسرائيل لدعم اقتصادها تقضي بزيادة صادراتها من الفوسفات (خامات ومواد مصنعة) ولم يكن بمقدورها عمل ذلك منفردة دعت عدة شركات عالمية لاستثمار الفوسفات المكتشف في مناطق عين ياهف ، هيمشار وجبل الهور ، ورسا العطاء على شركة اليومينيا الامريكية (تتعامل على مستوى عالمي في تسويق الاسمدة الزراعية والاطعمة الحيوانية) . وبعد دراسة استطلاعية للمناطق الفوسفاتية المذكورة اختارت شركة اليومينيا منطقتين فقط من المناطق الثلاث وهما منطقة عين ياهف ومنطقة هيمشار وترك أمر استثمار الترسبات الفوسفاتية في المنطقة الثالثة وذلك لبعدها عن طرق المواصلات ولاسباب جيولوجية وفنية اخرى . وبعد ان تم الاتفاق على استثمار المنطقتين من قبل الشركة الامريكية اسست شركة امريكية اسرائيلية مشتركة باسم الشركة الامريكية الاسرائيلية للفوسفات . اول اعمال هذه الشركة كان اجراء تحر جيولوجي تفصيلي اثبت من جرائه وجود ترسبات فوسفاتية اقتصادية الاستغلال في مناطق عين راشيل — مرزابا — شيزان — كركشة — كركشتون — ومناطق زيفرون . ونتيجة للتحريات الجيولوجية عثر على احتياطي اكبر من المعلن في السابق وبنوعية افضل.وقدر الاحتياطي الاجمالي للمنطقة بما يزيد على المئة مليون طن ونسبة خامس اوكسيد الفوسفور كمعدل لهذه الترسبات قدر بـ ٢٦٪ . كذلك اثبتت الشركة الامريكية وجود احتياطي قدر بـ (٣٠) مليون طن بالقرب من منطقة عين ياهف ونسبة احتوائه من خامس اوكسيد الفوسفور تبلغ ٢٤٪ وهذه المنطقة تقع على بعد (٣٠) كيلومترا شرق مرزابا في وادي عربة .

منطقة العمل الاستثماري الاول كانت عين ياهف التي تقع على بعد (٤٠) كيلومترا جنوب غرب سدوم في وادي عربة وبنفس الوقت فان المنطقة تقع على الطريق الرئيسي الواصل بين سدوم وحيفا . ولم يباشر بالاستثمار الفعلي في المنطقة الا بعد اكمال انشاء طريق معبد (٢٧ قدما) أفتتح خصيصا لهذه الغاية . وبعد بدء الاعمال في هذه المنطقة انشىء طريق معبد يربط بين سدوم وتل الشوكة الذي ساعد على نقل الخامات الى ميناء أشدود . أما منطقة هيمشار التي تقع على الطريق الرئيسي بين بئر السبع وايلات فلقد بوشر باستثمار ترسباتها الفوسفاتية بعد ربطها بطريق معبد بمنطقة عين ياهف وكان ذلك عام ١٩٦٥ . ولاحتياجات عمليات التحسين والتركيز للخامات الفوسفاتية الى كميات كبيرة من المياه باشرت مؤسسة الهندسة المائية الاسرائيلية دراسات هيدرولوجية ثبت بعدها وجود عشرة ملايين متر مكعب من الماء كاحتياطي سنوي في منطقة عين ياهف ونصف مليون متر مكعب من الماء سنويا في منطقة هيمشار يمكن توفرها من وادي بارن الذي يبعد (٨) كيلو مترات عن موقع الترسبات الفوسفاتية في المنطقة .

وباشرت هذه الشركة أعمالها بانتاج خامات فوسفاتية محسنة نسبة خامس اوكسيد الفوسفور فيها تتراوح بين ٣١ الى ٣٢٪ وبطاقة انتاجية تصل الى ربع المليون من الاطنان سنويا وللاعوام الاربعة الاولى وكان هذا برنامج العمل الاولي للشركة ولكن بعد اثبات وجود احتياطي كبير للفوسفات في المنطقة

خططت الشركة لانتاج مليون طن من الخامات في مدى السنوات الاربع الاولى من بدء العمل . واضافة لذلك فلقد قررت انتاج خامات محسنة تصل نسبة خامس اوكسيد الفوسفور فيها الى ٣٨٪ وذلك باستعمال طريقة الحرق الذاتي بواسطة افران خاصة .

وكانت نتائج التحاليل الكيمياوية للفوسفات المحسن السوق والمنتج من قبل الشركة كما يلي ، والرقم الاول للفوسفات المحسن العادي والرقم الثاني للفوسفات المحسن بطريقة الحرق الذاتي : خامس اوكسيد الفوسفور ٣٢٫٦٪ ، ٣٥٫٩٪ . اوكسيد الكالسيوم ٥٣٫٢٪ ، ٥٣٫٧٪ . اكاسيد الحديد والالمنيوم ٠٫٤١٪ ، ٠٫٤١٪ . اكاسيد السليكا ٠٫٥٠٪ ، ٠٫٥٥٪ . الفلورين ٣٫٢٪ ، ٢٫٥٪ . ثاني اوكسيد الكربون ٧٫١٪ ، ٣٫٣٪ . اكاسيد الصوديوم والبوتاسيوم ٠٫٥٪ ، ٠٫٠٣٪ . الفناديوم ٠٫٠١٪ ، ٠٫٠١٪ .

وفي مطلع عام ١٩٦٥ جرت مباحثات بين شركتين امريكيتين (سويفت وكارل م. ليوبورودس) لانشاء معمل للشركة الامريكية الاسرائيلية لانتاج الفوسفات المركز بالحرق الذاتي بمعدل نصف مليون طن في السنة . أما بالنسبة للتحريات الجيولوجية التي اجراها جيولوجيو السلطة الاسرائيلية فلقد اسفرت على العثور على ترسبات ضخمة من الفوسفات في منطقة زيفا ايفا في صحراء النقب بين بئر السبع وسدوم وقدر الاحتياطي في المنطقة بـ (١٠٥) ملايين طن (سمك الطبقات الرسوبية الفوسفاتية في المنطقة يتراوح بين متر وخمسة امتار في المعدل) . ولقد أولت السلطات الاسرائيلية عناية خاصة لتصنيع الخامات داخل فلسطين المحتلة فأعيد فلوريد الهيدروجين في معامل شركة الكيمياويات والفوسفات في حيفا عام ١٩٦٥ بعد ان كان انتاجها قبل هذا التاريخ غير اقتصادي وبلغت قيمة صادرات اسرائيل من هذه المادة في أول عام من بدء الانتاج حوالي (٦٠) الف دولار. كذلك انتجت المعامل الاسرائيلية المنتجة لحامض الفوسفوريك مواد كيمياوية هي سلفايت الكالسيوم، لاستغلالها للاستهلاك المحلي . وأعدت العديد من الدراسات العلمية المتعلقة بتطوير الصناعة الفوسفاتية هناك ، فأوجدت طريقة جديدة لزيادة تركيز وتحسين الخامات الفوسفاتية قبل ارسالها للتصنيع وذلك باستعمال سلفايت الامونيوم ، لان الكالسيت في الصخور الفوسفاتية يزيد من استهلاك الاحماض خلال عملية انتاج السوبر فوسفات ، لذلك يفاعل الكالسيت مع سلفايت الامونيوم في درجة حرارة عالية (٤٠٠ الى ٦٠٠ درجة مئوية). ونتيجة لذلك كان استهلاك الحامض مع معاملته بالصخور المستخرجة من مناجم اورون (٢٤٪ خامس اوكسيد الفوسفور) ٨ — ١٣ غراما من حامض الكبريتيك لكل (١٠٠) غرام من الخامات وبدون ذلك كان يستهلك (٧٦) غراما من حامض الكبريتيك لكل (١٠٠) غرام من الخامات الفوسفاتية .

وفي خطة التنمية التي اعدتها اسرائيل للفترة بين ١٩٦٦ — ١٩٧١ رصدت الحكومة (٦٠) مليون دولار لاستثمارها في المشاريع الكيمياوية ، خصصت ٧٥٪ منها لتطوير المشاريع الصناعية الفوسفاتية في حيفا وفي منطقة عراد . ففي حيفا تقضي الخطة بانشاء شركة الكرمل الكيمياوية التي تنتج حامض الفوسفوريك ونترات البوتاسيوم (وضعت خطة العمل من قبل هيئة خاصة من وزارة الاقتصاد الاسرائيلية) . ومنح هذا المشروع عشرة ملايين دولار كمساعدة من الحكومة الاسرائيلية وأقيمت منشآت هذه الشركة بالقرب من مصفاة البترول في حيفا ويكلف المشروع (١٢٫٣) مليون دولار . وبنفس الوقت قدمت مصفاة البترول في حيفا مساهمة في رأس المال لتطوير المنشآت المقامة تبلغ اربعة ملايين دولار . وتأمل الحكومة الاسرائيلية ان تحصل على المزيد من القروض الخارجية لتطوير هذا المشروع من المصادر الخارجية المهتمة بشراء منتجات هذه المعامل . وفي نهاية عام ١٩٦٥ اقترحت اللجنة الوزارية المشكلة في وزارة الاقتصاد الاسرائيلية اقامة مشروع برأس مال ضخم لانتاج حامض الفوسفوريك في منطقة عراد ورصد مبدئيا للمشروع (٣٦٫٧) مليون دولار من الاموال المخصصة للمشاريع الكيمياوية في خطة التنمية للفترة بين ١٩٦٦ — ١٩٧١ . والمشروع هذا يقام باشراف مباشر من قبل الحكومة الاسرائيلية بمعاونة شركة ماديرا الامريكية . وتقدم المؤسسة الامريكية هذه مبلغ (١٤) مليون دولار مساهمة منها في هذا المشروع (تم التوقيع على هذه الاتفاقية بين شركة ماديرا والمؤسسة الكيمياوية في حيفا) ومقابل الاربعة عشر مليون دولار التي دفعتها شركة ماديرا قدمت المؤسسة الاسرائيلية اربعة عشر مليون دولار

أخرى . وساهمت الحكومة الاسرائيلية بمبلغ (٢٠) مليون دولار اخرى قدمتها كقرض لهذا المشروع . اضافة لذلك تعهدت الحكومة بتجهيز المياه لهـذا المشروع واقامة واصلاح طرق المواصلات في المنطقة واقامة خطوط سكة حديد جديدة كـل ذلك بمـا مجموعه (٥) ملايين دولار . ومخطط لهذا المشروع انتاج (١٦٥) الف طن من حامض الفوسـفوريـك و (٤٠) ألف طن من فوسفات الكالسيوم (سنويا). ولانتاج حامض الفوسفوريك اقترح له بادىء الامر طريقتان لصنعه اما بواسطة حامض الكبريتيـك (في هذه الحالة سيستورد الكبريت اما من طريق ايلات او عن طريق اشدود) . الطريقة الاخـرى المقترحة (المكتشفة في فلسطين المحتلة) باستعمال حامض الفوسفوريك.وفي هذه الحالة يصنع اعتمادا على كلوريدات المنغنسيوم المستخرجة من البحـر الميـت حسب المراحـل التالية : ١ ــ فصـل المغنسيوم من كلوريد المنغنسيوم المستخرج مـن البحر الميت . ٢ ــ صنع حامض الهيدروكلوريك من الكلوريدات المتبقية . ٣ ــ خلط هذا الحامـض بالخامات الفوسفاتية لصنع حامض الفوسفوريك . ومن ناحية اقتصادية فان المشروع الثاني يكلـف (٤٣) مليون دولار، اما باستعمال حامض الكبريتيك فسيكلف المشروع (٣٠،٤٣) دولار ولذلك اختيرت الطريقة الاولى (طريقة حـامض الكبرتيك) . والدراسات جارية لتطوير الطريقة الثانية . وتباشر السلطات الاسرائيلية الان اقامة مشروع بكلفـة (٩) ملايين دولار لانتاج الاسمـدة الفوسفاتيـة والخامات المحسنة ومكان هذا المشروع هو مينـاء اسدود على البحر الابيض المتوسط . وطاقة هذا المشروع الانتاجية تبلغ (١٠٠) الـف طن مـن الاسمدة و (٤٦) الف طن من الفوسفات المحسن الجاهز للتسويق .

وطورت اسرائيل المؤسسات المسؤولة عن التصدير فأوجدت هذه العديد من الاسواق الخارجية سواء كان ذلك في الدول الاشتراكية او الدول العربيـة وتضاعف تصدير اسرائيل خلال فترة قليلة من الزمن وتواصل الان هذه المؤسسات سعيها لتصدير مـا مقداره مليون طن في العام ولهذه الغاية اقامـت عدة خزانات في بعض الموانىء الاوروبية لتسهيل عملية التسويق وتنوي اقامة امثال هذه الخزانات في بعض الموانىء الاسيوية نفسها . ان معدل نمو الصناعة الفوسفاتية في فلسطين المحتلة يسـير بشـارع كبير وتشكل هذه الصناعة حجر زاوية في الاقتصاد الصناعي الاسرائيلي .

استثمار وتصنيع الفوسفات في فلسطين المحتلة

تنهج اليوم غالبية الاقطار النامية والمتطورة اسلوب التخطيط العلمي كأساس لبناء اقتصاد متين كأسلوب لبلوغ غاية بأقصر وقت وبأقل مخاطر . والتخطيط العلمي للدول كل متكامل يجب ان يراعى فيه كـل صغيرة وكبيرة ، ومن كل النواحي صناعيا وزارعيا، وقصر التخطيط علـى ناحية معينة مهمـا كـانت ايجابياتها في المراحل الاولى فان سلبياتها فيما بعد تقضي على كل الايجابيات السابقة . ومنذ ان خلق الاستعمار اسرائيل في فلسطيننا ادركت ان انتهاج أسلوب التخطيط العلمي هـو الاسلوب الوحيـد للوصول الى غاياتها . وغايات اسرائيل معروفـة لدى الجميع يمكن تلخيصها فيما يلي : اولا ــ بناء اقتصاد اسرائيلي يعتمد بصورة مباشرة على المواد التي من الممكن توفرها في الاراضي المحتلة ، بعد ان ايقنت اسرائيل ان اعتمادها على الموارد الخارجية لن يدوم طويلا . ثانيا ــ اغراء يهود العالم للهجرة الى فلسطين ليزيد كادرها العلمي بازدياد الطاقة البشرية (ومنذ زمن اعلنت عن عزمها لتهجير اربعة ملايين يهودي لاسكانهـم في صحـراء النقب) . ثالثا ــ اعمار النقب ليستوعب المهاجرين الجدد . رابعا ــ خلق مستعمرات استيطانية داخل فلسطين المحتلة وخاصة في المناطق غير كثيفة السكـان ، ليتم توزيع السكان على طول رقعة الارض المحتلة على شكل مستعمرات لها اغراض عسكرية (دفاعية وهجومية) ومراكز تموين واغـراض اقتصادية . خامسا ــ ايجاد ضمانات لاصحاب رؤوس الاموال الخارجية او للبنوك الدولية لاخذ قروض لاستغلالها داخل الارض المحتلة . سادسا ــ ايجاد صناعات تعتمد على الخامات المتواجدة ، كمواد اولية وأن تكون لهـذه الصناعـات سوقا رائجـة داخليـة وخارجية . سابعا ــ توسيع رقعة الارض الزراعية وزيادة غلة وحدة الارض الزراعية لتزيد صادراتها وتقلل من استيراداتها .

وبدراسة مستفيضة لكل الموارد في فلسطين أيقنت السلطات هناك ان الفوسفات واستثماره وتصنيعه خدمة لكـل اغراضهـا المدرجـة مسبقا بـل ان الفوسفات سيكون حجر زاوية لها في خلق صناعات تعتمد على الفوسفات بصورة رئيسية وزيادة لها في الدخل وخدمة لكل اغراضها وكما يلي :

اولا : بناء اقتصاد متين يعتمد الموارد الطبيعية المتواجدة كأساس : ان وضع خطة لتصنيع وتطوير اي بلد يجب ان تبنى على اسس علمية تراعي ظروف البلد وما يحويه من معادن وخامات قابلة للتصنيع واراضي زراعية ومصادر للطاقة . وفلسطين البلد الزراعي لا يملك العديد من المعادن والخامات اقتصادية الاستثمار وكل ما يملكه النحاس (مناجم تيمناع) جنوب النقب ، البوتاس (جنوب البحر الميت) ، الاملاح (المستخرجة من الشواطىء) الفوسفات المنتشر في مناطق عدة (اورون — هيمشار — عين ياهف — جبل الهور ووادي حبون) وبعض مصادر الطاقة (نفط وغاز طبيعي) . وبدأت صادرات اسرائيل من النحاس منذ عام ١٩٥٩ وكانت طاقتها الانتاجية للسنوات الخمس الاولى تقدر بـ (٦١٠٠) طن سنويا ، وعام ١٩٦٤ ارتفع انتاجها الى (٩٠٠٠) طن في السنة ، وجرى العمل على تطوير مناجم النحاس ومحاولة استغلال اكبر للخامات المتواجدة (دخل اسرائيل من تصدير النحاس وصل الى (١١) مليون دولار في العام) . أما البوتاس فبلغت صادرات اسرائيل منه في العام (١٩٦٨) (٣٢٨٠٢٥) طنا ، ويجري التخطيط لزيادة الانتاج ليصل في السنة الى (٦٠٠) الف طن . وبمقدور اسرائيل زيادة طاقتها الانتاجية من البوتاس لتصل الى (١٢٢) مليون طن . ودخل اسرائيل من تصدير البوتاس عام ١٩٦٨ بلغ (١٠٤٦) مليون دولار . وانتاج اسرائيل من النفط عام ١٩٦٨ بلغ ١١٤/٦١٤ مليون طن استهلكت اسرائيل القسم الاكبر منه ، اما بالنسبة للفوسفات فلقد بلغت قيمة صادرات اسرائيل منخاماته المحسنة (١٠) ملايين دولار عام ١٩٦٨ . اضافة الى انتاج الاسمدة الكيمياوية واستعمالاته الاخرى .

وهكذا نجد ان على اسرائيل ان تخطط لتصنيع الفوسفات اولا لتوفر سوقا عالمية تستوعب الانتاج. وثانيا لحاجتها الى الاسمدة الفوسفاتية في الداخل ولان الفوسفات والبوتاس اضافة للنتروجين هما عماد صناعة الاسمدة الكيمياوية في العالم كله . لذلك فان التخطيط لتطوير اي من هذه الصناعات هو تطوير للصناعات الاخرى . أما بالنسبة لباقي المعادن المتواجدة فاحتياطي النحاس قليل نسبيا . اضافة الى اقامة معامل تعتمد على الخدمات النحاسية غير اقتصادية ما لم تعتمد طاقة انتاجية كبيرة لا يمكن توفرها من مناجم تيمناع النحاسية . لذلك يشكل الفوسفات حجر زاوية في بناء الاقتصاد الاسرائيلي .

ثانيا — اغراء يهود العالم للهجرة الى فلسطين وايجاد مجالات عمل جديدة للايدي العاملة العاطلة عن العمل : ان ايجاد مجالات عمل واسعة مضمونة وبشروط معاشية جيدة يدفع العديد من اليهود في العالم للنزوح الى فلسطين . واقامة الصناعات الفوسفاتية ابتداء من استخراج الخامات من المناجم — تركيزها — نقلها الى مراكز التصدير او الاستهلاك — تصنيعها في المعامل وطرحها في الاسواق كمواد مصنعة . كل هذه العمليات تحتاج الى العديد من الايدي العاملة ، فمنجم جبل اونك في الجزائر في بداية عمله كان يستوعب (٦٠٠) شخص ما بين عامل وفني ومهندس وجيولوجي واداري . وعليه فان الصناعات الفوسفاتية لما تحتاجه من كوادر فنية وعلمية بامكانها استيعاب العديد من هذه الايدي وبالتالي بامكان السلطات الاسرائيلية اغراء العديد من الايدي العاملة اليهودية خارج فلسطين المحتلة للنزوح الى «أرض الميعاد» حيث ينتظرهم عمل معد لهم .

ثالثا — اعمار النقب : ان نظرة لخريطة المعادن في فلسطين تبرز حقيقة واضحة ان غالبية المعادن المكتشفة وخاصة الفوسفات تقع في مناطق الجنوب (صحراء النقب) وكانت اسرائيل قد اعلنت عن عزمها لاسكان (٤) ملايين يهودي في النقب . ولكي تفعل ذلك فلا بد لها ان تخلق حضارة في تلك الربوع وان تمدها بخطوط مواصلات حديثة وان تنشىء المدن والقرى للتشجيع على الهجرة . وكانت الترسبات الفوسفاتية عاملا مهما في ذلك فبالقرب من المنجم هناك دور اللهو ، المستشفيات ، المدن الصناعية ... الخ . ولتصدير هذه المنتجات الفوسفاتية لا بد من ايجاد طرق مواصلات حديثة تحتاج الى محطات وسط الطريق والى انشاء مراكز ادامة وغيرها . كل هذا معناه نقل الحضارة واعمار منطقة ولو بصورة جزئية تكون كالنواة ليتجمع حولها العديد من السكان وتغري العديد للنزوح اليها طلبا للعمل او السكنى بالقرب من ذويهم.وهكذا خدم الفوسفات هذه الناحية الحيوية كبداية لاعمار النقب ليستوعب الملايين الاربعة المزمع تهجيرهم الى فلسطين المحتلة .

رابعا — خلق مستعمرات استيطانية داخل فلسطين المحتلة وخاصة في المناطق غير كثيفة السكان :

تعاني اسرائيل مشكلة التوزيع غير المتكافىء للسكان مما يسبب لاسرائيل مشاكل اجتماعية (زيادة التطور والحضارة في اماكن الكثافة الكبيرة للسكان بعكس المناطق قليلة الكثافة) . ومن ناحية عسكرية كذلك فان تجمع السكان في مناطق معينة وقلتهم في مناطق اخرى يخلق متاعب كبيرة من ناحية استراتيجية ، اضافة الى ان التوزيع غير المتكافىء للسكان يخلق تمايزا طبقيا وحضاريا . وكثافة السكان الان في فلسطين المحتلة كالتالي في الكيلومتر المربع الواحد : منطقة تل ابيب ٤٥٦٣،٢ ، منطقة حيفا ٤٨٩،٦ ، منطقة النقب ١٨،٣ . والمنطقة الجنوبية او منطقة النقب تغطي مساحة ١٤٤١٠،٧ كم ٢ من مساحة الارض الفلسطينية المغتصبة منذ عام ١٩٤٨ وحتى عام ١٩٦٧ وتشكل اكثر من نصف مساحة الارض المحتلة منذ ذلك الوقت اضافة الى ان عدد المستعمرات الصهيونية في تلك المنطقة قليل نسبيا وبالمقارنة مع مناطق الوسط والشمال .

كان للعثور على الترسبات الفوسفاتية في المنطقة الجنوبية العامل المهم في دفع الصهاينة الى استيطانها وانشاء مجمعات سكنية استيطانية بالقرب من المدن الصناعية الهامة او المناجم الجاري العمل فيها . اضافة الى ذلك ، فان طرق المواصلات التي تربط بين هذه المناجم ومراكز التسويق او الاستهلاك لها عامل مهم في خلق مجمعات سكنية على امتداد هذا الطريق كانشاء محطات او اماكن تصليح وادامة للسيارات وغيرها. وكل هذه المجمعات والمستعمرات وفي هذه المنطقة بالذات معناه ايجاد خط دفاع قوي لاسرائيل وبنفس الوقت خط هجوم ومراكز تموين لقواتها المقاتلة . وهكذا خدم الفوسفات ايضا مصالح اسرائيل التوسعية العسكرية .

خامسا — جلب اكبر كمية من رؤوس الاموال من الخارج : منذ ان خلقت اسرائيل عام ١٩٤٨ وهي تعتمد على المعونات الخارجية في تسيير اقتصادها وبناء الصناعات المتواجدة فيها ، ولكن اسرائيل أيقنت ان تدفق هذه الاموال لن يستمر طويلا ولا بد لها من طلب الترويض كي تبني اقتصادها وتطور مشاريعها . ومن البديهي ان غالبية اصحاب رؤوس الاموال والبنك الدولي يقدموا القروض للمشاريع الانتاجية وليس للمشاريع الاستهلاكية . واثبات احتياطي لخامات المعدن له سوق رائجة (الفوسفات) يعتبر بحد ذاته ضمانة هذه الاموال . وهكذا فعلت اسرائيل وحصلت على القروض من البنك الدولي ومن الشركات الامريكية لاستثمار الترسبات الفوسفاتية في منطقة هيمشار ومنطقة عين ياهف حيث وجدت كميات كبيرة من احتياطي الفوسفات ذي النوعية الجيدة . وهكذا اسهم الفوسفات في خدمة الاغراض الاسرائيلية وكان وسيلة لشق العديد من طرق المواصلات وجلب العديد من رؤوس الاموال لاستثمارها هناك .

سادسا — ايجاد صناعات تعتمد المواد الاولية المتواجدة : الصناعات المثبتة اقتصاديا هي الصناعات التي تعتمد على المواد الاولية داخل البلد اضافة لكون انتاجها سهل التسويق في داخل البلد وخارجه اما الصناعات القلقة اقتصاديا فهي تلك التي اعتمدت الخامات الاولية من الخارج في الدرجة الاولى حيث تتأثر لنشوء اي ازمة دولية تعرقل طرق المواصلات . وخامات الفوسفات داخل فلسطين المحتلة تشكل العمود الفقري للصناعات الفوسفاتية . اضافة الى ان هذه الصناعات لها سوق دائمة داخل وخارج الارض المحتلة (وكما تثبت الاحصائيات العلمية) لهذا كانت الصناعات الفوسفاتية حجر الاساس لاقامة صناعة الاسمدة الكيمياوية اضافة الى البوتاس ، وهكذا ساهم الفوسفات بخلق صناعة داخل اسرائيل تعتمد الموارد الموجودة داخل البلاد وبدون ان تتعرض للتعطيل ، وهذا بدوره يدعم اقتصاد اسرائيل . فالفوسفات المسوق خاما كان ام موادا مصنعة معناه دخلا ثابتا لاسرائيل ومعناه منعا لاستيراد الاسمدة المشابهة من الخارج وهو ايضا زيادة في دعم اقتصاد اسرائيل .

سابعا — توسيع رقعة الارض الزراعية وزيادة غلة وحدة الارض الزراعية : ان اعمار الاراضي غير الصالحة للزراعة تحتاج الى مشاريع للري وتجهيز كميات من المياه اضافة الى استعمال الاسمدة الكيمياوية . تقوم اسرائيل الان بعدة دراسات لمعرفة امكانية استغلال المياه الجوفية في النقب لاستغلاله هناك . وتجري كذلك العديد من الدراسات والابحاث لتحلية مياه البحر للغاية نفسها والفوسفات مع البوتاس هما العامل المساعد على اصلاح الاراضي ومن ثم زيادة رقعة الارض الزراعية . اضافة الى ذلك فان زيادة غلة الارض الزراعية تحتاج الى استعمال الاسمدة الكيمياوية.

وهذه حقيقة اثبتها العديد من التجارب العلمية وتطبق حاليا في انحاء المعمورة . وهكذا يساهم الفوسفات في زيادة غلة الارض وتوسيع رقعة الارض الزراعية وهذا ما ترجوه اسرائيل لتخلق المجال لتهجير اربعة ملايين يهودي الى الاراضي الجديدة في النقب وفي المناطق الاخرى .

ان كل ما أسلفناه وعته اسرائيل والتزمت به وتحاول جاهدة الان لتطبيقه بصورة كاملة . فأقامت العديد من الدراسات العلمية والفنية لتجد طريقة لصنع حامض الفوسفوريك بدون الاعتماد على الكبريت . ونجحت بايجاد طريقة باستعمال حامض الهيدروكلوريك التي تستطيع ان تصنعه بكميات هائلة اعتمادا على المصادر الاولية من البحر الميت . وحامض الفوسفوريك هو عماد صناعة الاسمدة الفوسفاتية وقد استعملت هذه الطريقة للمرة الاولى في مختبرات حيفا حيث تعامل الان الصخور الفوسفاتية بحامض الهيدروكلوريك بدلا من حامض الكبريتيك ، وتحاول اسرائيل الان تطوير هذه الطريقة بحيث تكون اقتصادية الاستعمال لتطبيقها على نطاق واسع .

وعودة الى العالم العربي ، نرى انه حقق تقدما ملموسا في حقل الصناعات الفوسفاتية . وتحتل الان الدول العربية المصدرة للفوسفات مجتمعة المركز الاول الذي لا ينافس في تصدير وانتاج الخامات الفوسفاتية الحسنة . ولكن هل استطاعت هذه الاقطار منفردة او مجتمعة ان تقضي على صادرات اسرائيل من هذه الخامات او على الاقل أن تحد من انتاجها ؟ الذي نراه العكس اذ ان نمو هذه الصناعة في اسرائيل يسير اضعاف مضاعفة معدل نمو هذه الصناعة في العالم العربي . اذ ان اسرائيل في عام واحد استطاعت مضاعفة انتاجها وتسويقه كاملا الى الاسواق العالمية . ان التخطيط العلمي المبني على الاسس الصحيحة من الدراسات والاحصائيات العلمية هو الاسلوب الوحيد الذي يصل بالعالم العربي الى غاياته اقتصاديا وسياسيا وعسكريا . والتركيز على ناحية معينة على حساب النواحي الاخرى سيأتي بالقريب العاجل بالمردودات العكسية . فعالمنا العربي اشبه بمخزن كبير للبترول والغاز وسوقا رائجة لكافة انواع البضائع . البترول لا غنى عنه للاقطار المتقدمة والسوق لتصريف البضائع لا غنى عنها للدول المصدرة اذ ان السوق العربية تعتبر من أهم الاسواق المستهلكة في العالم . وهكذا اراد لنا الاستعمار التركيز الكلي على عائدات النفط وترك باقي الثروات،فلا صناعة تقام واستيراد متزايد عاما بعد اخر . ومنذ فترة ونحن نسمع عن مشروع البوتاس في الاردن تارة في التخطيط واخرى في الاعداد ومرة اخرى للتخطيط ثم للاعداد وهكذا دواليك . واسرائيل تستثمر وتصدر البوتاس ونحن لا زلنا نفكر باستثمار البوتاس في الاردن .

وعودة الان الى الفوسفات ، فلقد عرفنا ما يمثله لاسرائيل وواجبنا القضاء على هذه الصناعة واحلال الفوسفات العربي محل الفوسفات الاسرائيلي في الاسواق العالمية : يصدر العالم العربي ٣٨٪ من صادرات الفوسفات وتشكل صادرات العالم العربي المورد للعديد من المعامل الاوروبية المستوردة من اسرائيل فوسفاتها . والعالم العربي يصدر الى تلك الدول اكثر من ٧٠٪ من استيراداتها من البترول. والعالم العربي فوق كل هذا اكبر مستورد لبضائع هذه الاقطار . ومع ذلك لم تجر اي محاولة لاحلال الفوسفات العربي محل الفوسفات الاسرائيلي رغم انه ينافس هذه الاقطار في اسواقها العالمية ، ومن اهم البلاد المستوردة من اسرائيل خاماتها الفوسفاتية المحسنة الدول التالية : المانيا الغربية ، ايطاليا ، اسبانيا ، بريطانيا ، الدول الاشتراكية . فالمانيا الغربية رغم استيرادها من اسرائيل كمية من الفوسفات المحسن تشكل الاقطار العربية التالية اكبر مورد لها (المغرب ، تونس والجزائر) . أما ايطاليا فانها تستورد غالبية احتياجاتها من الفوسفات من المغرب والاردن وتونس ومع ذلك تستورد من اسرائيل واسبانيا (تستورد من المغرب ، تونس ، والجزائر) وبريطانيا (تستورد من المغرب وتونس) . اما الاقطار الاشتراكية فهي كذلك تستورد كميات لا بأس بها من الفوسفات الاسرائيلي وكميات ضخمة من الفوسفات العربي . لذلك فعلى الدول المصدرة للفوسفات من عالمنا العربي ان تتكاتف لمحاولة الضغط على الدول المستوردة لمنع استيراداتها من اسرائيل . اذ ان القضاء على الصناعة الفوسفاتية في اسرائيل بعد ان رصدت لها الحكومة الاسرائيلية الاموال الطائلة حتى انها في الاونة الاخيرة أوجدت لها في احدى الموانىء الهولندية (روتردام) مستودعات ضخمة لخزن الخامات المحسنة ليجري تسويقها الى دول اوروبا وبصورة مباشرة وبعد ان اخذت العديد من القروض من العديد من الدول

وخاصة امريكا . ان خنق هذه الصناعة ومحاربتها معناه القضاء على صناعة تتطور تطورا سريعـــا وان تركت على ما هي عليــه. الان وبدون تدخل وضغط من الدول العربية فانها ستزدهر وستنمو وتحقق الاهداف التي ترجوها اسرائيل . اضافـــة الى كل ذلك ومن منطلق اقتصادي بحت ، فـــان نمو الصناعة الفوسفاتية في اسرائيـــل هو علـــى حساب صناعة الفوسفات العربي . لذلك فـــان القضاء على هذه الصناعة بالضغط على الاسواق المستوردة (خامات ومواد مصنعة فوسفاتية مـــن فلسطين المحتلة) هو واجب وطني وقومي ولصالح الاقتصاد العـــربي اولا واخـــيرا اذا عرفنـــا ان الجمهورية العربية السورية والعراق والسعودية وباقي الاقطار العربية المنتجة اما ستبدأ الانتـــاج للخامـــات الفوســـفاتية واما ستزيد من طاقتهـــا الانتاجية . وهذا يعني ان اية منافسة لاي من هذه الاقطار وبدون التقائها جميعا لما فيه مصلحة الامة، سيكون لصالح اسرائيل التي تخطط لزيادة انتاجها ومضاعفته وفعلا وفي مطلع هـــذا العام (١٩٦٩) فلقـــد زادت صـــادرات اسرائيـــل في حين نقصـــت صادرات باقي الاقطار العربية . لذلك يجب ان يخلق مجلس تنسيقي للدول العربية المنتجة او التي في طريقها للانتـــاج يخطط لكي يجـــري تسويـــق الفوسفات العربي بتناسق تـــام ، زيادة في انتاج العالم العربي وخنقا للفوسفات الاسرائيلي . ولا بد للسوق العربية المشتركة للفوسفات من الظهور. وبهذا نجعل من الفوســـفـــات سلاحا من اسلحـــة معركتنا المصيرية .

الصناعات المعدنية والتعدينية في اسرائيل

منذ عـــام ١٩٤٨ بدأت التحريـــات الجيولوجيـــة الاستطلاعية الاسرائيلية في فلسطـــين بحثا عـــن الخامات المعدنية الفلسطينية مستعينة اسرائيل على تنفيذ هذا المشروع على الخدمات الاجنبية ، وعلى الخبرات الصهيونية التي هاجرت الى فلسطين ، ومع ما اسفرت عنه هذه الابحاث عرف ان فلسطين تملك امكانيات معدنية جيدة في تربتها ، فبالاضافة الى ما تحويه مياه البحر الميت والصخور المحيطة بها من املاح متعددة الانواع اكتشف الفوسفات في اورون ومنطقة مراد ، عين ياهف ، وادي حيون وغيرها من المناطق واكتشف النحاس جنوبي النقب في منطقة تيمناع . واكتشف الحديد في جبل المنارة ووادي باران وهمكاتش هاكـــودال . والاملاح في عتليت ، وجبل سدوم وفي ايلات ، ورمال الزجاج في تيمناع وهميكاتش هاكودال ، والبترول بالقرب من عسقلان ، والغاز الطبيعي بالقرب من البحر الميت وفي النقب وغيرها من المواد المعدنية في مناطق مختلفة من فلسطين .

الصناعات التعدينيـــة النحاسية : مـــع بدايـــة الخمسينات اكتشفت خامات نحاسية في منطقة تيمناع الواقعة جنوبي فلسطين بالقرب من خليج العقبة . وكانت الخامات متوسطة الجودة اذ معدل احتوائها من عنصر النحـــاس يصل الـــى ١،٢ ٪ وبدأت اسرائيل في استثمار ترسبات تيمناع بطاقة انتاجية تصل الى (١٥٠٠) طن يوميا من الخام الا ان ارتفاع اسعار النحاس في العالم وشحة مصادره الاولية الطبيعية شجع اسرائيـــل على مضاعفـــة الانتاج واقامة دراسات وتحريات جيولوجية بحثا عن احتياطي نحاسي اخر ، وهكذا ، وبعد ان كان معدل انتاج اسرائيل من النحـــاس لا يزيد علـــى (٦١٠٠) طن سنويا كمعدل للاعـــوام ١٩٥٩ — ١٩٦٤ ارتفع هذا الانتاج عام ١٩٦٨ فوصل الى (٩٠٠٠) طن . ونتيجة للتحريات عثر على بعد ٢ كلم عن موقع الترسبات الاولى ترسبات نحاسية خاماتها اجود نوعية اذ يصل معدل احتوائها على عنصر النحاس الى ١،٦ ٪ واحتياطيهـــا يقـــدر بـ (١١) مليون طن ، وعليه زادت الطاقة الانتاجية اليومية لمناجم تيمناع الى (٣٤٠٠) طن يوميا من الخامات النحاسية . وفي محاولة لتطوير مناجـــم النحاس في فلسطين المحتلة فلقد وقعت اسرائيـــل عقدا مع اربع شركات المانيـــة لهـــذه الغاية . وبموجب الخطة الجديدة سيتم حفر مناجم يصـــل عمقها الى ٣٥٥ م يعدن خام النحاس منهـــا على مستويين في آن واحد ، ومن اجل تحقيق زيـــادة الانتاج والعثور على احتياطي آخر رصدت اسرائيل مبلغ عشرين مليون ليرة اسرائيلية صرفت منها عام ١٩٦٨/٦٧ ستة ملايـــين ليرة اسرائيلية لاجـــراء حفريات ودراســـات جيولوجيـــة وباقي المشروع يتضمن مكننة المناجم وايجاد وسائل نقل وتحميـــل حديثة اضافة الى ايجاد مراكـــز سكنية للعمـــال والمهندسين هناك الواصل تعدادهم الى (١١٠٠) عامل وفني ومهندس . وتتولى مؤسسة خاصة في حيفا اعداد الكوادر الفنية اللازمة لتشغيل هـــذا المشروع ودفعه قدما نحو التطور . يصل انتـــاج اسرائيل حاليا من عنصر النحاس الى ما يزيد على العشرين الف طن سنويا تصدر نصفهـــا كخامات

وتصنع الباقي وعليه فلقد بلغ قيمة ما صدرته اسرائيل من النحاس عام ١٩٧٠ كمواد اولية (٢٠) مليون دولار . ونظرا لاهمية الصناعات النحاسية ولارتفاع اسعارها العالمية ، ولوجود اسواق دائمة لها ، فلقد وعت اسرائيل هذه الحقيقة ، وعليه فقد قدمت مساعدة بمبلغ اربعة ملايين ليرة اسرائيلية الى مؤسسة مناجم تيمناع لتتملك الاخيرة معامل زيون للاسلاك النحاسية في تل ابيب ، وبهذا لن تصبح تيمناع فقط مصدرة للنحاس الخام بل ستصبح مصنعة ومصدرة للصناعات النحاسية اضافة الى انها ستجهز معملين اسرائيليين باحتياجاتهما من النحاس .

الصناعات التعدينية الفوسفاتية : في بداية المقال نوهنا الى اهمية الصناعات الفوسفاتية لاسرائيل ، وهنا نود الاشارة الى ما وصلت اليه هذه الصناعة من تطور ، ومدى ما تقدمه الحكومة الاسرائيلية من معونات لتطوير الابحاث الفوسفاتية والصناعات الفوسفاتية في فلسطين المحتلة .

يزيد انتاج اسرائيل الان من الفوسفات المحسن على المليون طن بعد ان كان لا يزيد على النصف مليون طن عام ١٩٦٧ ، ويصل حاليا انتاج اسرائيل الى (١٦٥) مليون طن تزيد قيمتها الاجمالية على (١٥) مليون دولار . غالبية انتاج اسرائيل يأتي من اورون وماكتيش في النقب . وتأتي هذه الزيادة في الانتاج نتيجة تطوير وسائل تركيز الخامات الفوسفاتية وتحسين تكنولوجية الاستخراج اذ طورت اسرائيل في منطقة عراد عملية الحرق الذاتي ووسائل التركيز الاخرى مما ادى الى تنوع الانتاج الفوسفاتي هناك . فاسرائيل تبيع الان انواعا متعددة من الخامات الفوسفاتية المحسنة منها النوع الحاوي على ٣٥٪ من خامس اوكسيد الفوسفور ، ونوع — اخر يحوي ٣٢،٥٪ واخر يحوي ٣١٪ وغيرها من الانواع وحسب حاجات المستهلكين .

واسرائيل ، بعكس الدول العربية المنتجة للفوسفات ، تصنع قسما كبيرا من انتاجها ، فهي تصدر (٨٠٠) الف طن سنويا من مجموع انتاجها وتصنع الباقي كأسمدة فوسفاتية ومواد فوسفاتية اخرى .

أهم ميناء في اسرائيل لتصدير الفوسفات هو ميناء اسدود على البحر الابيض المتوسط حيث لا يزيد بعده على (١٥٠) كلم عن مراكز استخراج الفوسفات في النقب . ولتسهيل عمليات النقل حسنت اسرائيل ميناء اسدود وهو حاليا يستقبل سفنا تزيد حمولتها على (٣٠) الف طن ، وجهز الميناء بالات اوتوماتيكية ميكانيكية للتحميل حيث تصل طاقة التحميل حاليا الى (٨٠٠) طن متري في الساعة ، وتنوي اسرائيل ايجاد مخازن ضخمة في الميناء لخزن ما يصل اليه من خامات فوسفاتية وبوتاسية محسنة .

ونتيجة للابحاث التكنولوجية الجارية في المؤسسات العلمية في حيفا اكتشفت اسرائيل طريقة جديدة لاستخلاص الفوسفات المركز من خاماته باستعمال حامض الهيدروكلوريك بدلا من حامض الكبريتيك ، وهذه الطريقة تسمح بانتاج فوسفات محسن للغاية يستعمل للعديد من الاغراض الصناعية ولقد حصلت كل من المكسيك والبرازيل واسبانيا واليابان على حق استعمال هذه الطريقة الحديثة في صناعاتها الفوسفاتية اضافة الى ان اسرائيل تستعمل نفس الطريقة في منطقة عراد .

ولتسهيل تسويق الخامات الفوسفاتية المحسنة الاسرائيلية فلقد اتخذت اسرائيل لنفسها مخازن في موانىء مشهورة اولها كان ميناء روتردام في هولندا ، وهي الان في صدد انشاء مخازن اخرى في مينائين اخرين في المتوسط اضافة الى سعيها لايجاد مركز لها في احدى موانىء جنوب شرقي اسيا ، وعليه فلقد اوجدت اسرائيل لنفسها اسواقا فوسفاتية جديدة في امريكا اللاتينية وامريكا الوسطى . وتولي الحكومة الاسرائيلية اهمية بالغة لتطوير هذه الصناعة ، ولذلك تجري وزارة المالية بين حين واخر محادثات مع الشركات الاسرائيلية ذات العلاقة لزيادة وتحسين انتاجها الفوسفاتي .

الصناعات التعدينية البوتاسية : البحر الميت بما يحويه من أملاح بوتاسية وغيرها يعتبر من اكبر المخازن الاحتياطية العالمية لهذه المادة ، ولا يقتصر وجود أملاح البوتاسيوم والبرومين على مياه البحر الميت ، بل توجد خامات لهذه الاملاح في الاندفاعات الصخرية في منطقة البحر الميت . وتملك اسرائيل حاليا احواض تبخير تصل مساحتها الكلية الى (٢٥) ألف هكتار مما يعطي اسرائيل طاقة انتاجية كلية تصل الى (١،٢) مليون طن سنويا . الا ان انتاج اسرائيل الحالي لا يتعدى المليون طن سنويا . أن انتاج اسرائيل من البوتاس ومبيعاتها العالمية منه في ازدياد مستمر لحين كانت مبيعاتها من البوتاس

عام ١٩٦٨/١٩٦٧ (٢٣٨٠٢٥) طنا بقيمة (١٠٠٦) مليون دولار من انتاج اجمالي بلغ (٤٩٥٩٠٩) اطنان ارتفع الانتاج الاجمالي والمبيعات الاجمالية في عام ١٩٦٨/١٩٦٩ فبلغ انتاج اسرائيل من البوتاس (٦٠٢٢٦٢) طنا بالرغم من الهبوط في الاسعار العالمية للبوتاس والذي وصل ذلك العام ١٧٪ واستمرت الزيادة في الانتاج في الاعوام التالية حيث بلغ انتاج اسرائيل الاجمالي (٦٠٥٠٦٣) طنا عام ١٩٧٠ . اما فيما يتعلق بواردات اسرائيل في تصدير الاملاح بصورة عامة تزيد حاليا على (٨٠) مليون دولار سنويا .

ولقد اهتمت اسرائيل بتطوير صناعة الاملاح البوتاسية ، ولذلك رصدت مبلغ (٣٥٥٥) مليون ليرة اسرائيلية لهذا المشروع والذي يعتبر المرحلة الثالثة من مراحل استثمار املاح البحر الميت . وانشأت في ديمونه محطة تعبئة اتوماتيكية حديثة وحسنت وسائل النقل وطرقه بين سدوم وميناء اسدود فقلت بذلك تكاليف النقل ، وتقوم حاليا شركة بركلس العاملة مع المؤسسة الاسرائيلية لاستغلال ثروات البحر الميت لتحسين وتطوير المنتجات البوتاسية اضافة الى ان اسرائيل تجري العديد من الدراسات الفيزياوية والكيمياوية لانتاج بوتاس شديد النقاوة .

اما فيما يتعلق بانتاج البرومين المستخرج ايضا من البحر الميت وبالرغم من تأثر موقف اسرائيل (بعد عدوانها الحزيراني على الدول العربية) التسويقي في دول اوروبا الشرقية ، الا ان صادراتها لا زالت سجل ارقاما جيدة . فلقد سوقت عام ١٩٦٨/٦٧ من البرومين ما قيمته (٨٦٠) الف دولار ومن البروميد وبروميد البوتاس ١٣ مليون دولار ووصل انتاجها حاليا من البرومين الى ما يزيد على (١٢) الف طن سنويا بقيمة تزيد على (١٥) مليون دولار .

الصناعات البترولية : اعمال التحريات الجيولوجية من البترول لم تنقطع نسبيا منذ قيام اسرائيل داخل الاراضي العربية التي احتلت . وتستغل حاليا اسرائيل حقول البترول في حيلتس — بدور وكوخف بالقرب من عسقلان. وانتاج اسرائيل من البترول وبعد أن وصل عام ١٩٦٨ الى (١١٤٦١٤) طنا متريا بدأ بالهبوط حيث سجل مجموع انتاجها عام ١٩٦٩ ما لا يزيد على (٩٩) ألف طن. وانخفضت هذه الكمية عام ١٩٧٠ بمعدل ٢٢٪ حيث وصل الانتاج الى (٧٦٧٣٤ طنا) . أما فيما يتعلق باستثمار الغاز الطبيعي من الحقول المكتشفة في النقب والمستثمرة من قبل شركة البترول الاسرائيلية فان قسما كبيرا من انتاجها يستهلك في داخل اسرائيل ، ويزيد استهلاك معامل سدوم وديمونه وباقي المعامل الاسرائيلية الاخرى على (١٢٦) الف طن من الغازات السائلة سنويا .

اضافة الى البترول والغاز السائل وفيما يتعلق بمؤسسة البتروكيمياويات الاسرائيلية في حيفا والتي أنشئت عام ١٩٦٢ فان انتاجها من الاثيلين والبوليثلين والكاربون الاسود يسجل ارتفاعا ملحوظا . ففي عام ١٩٦٨ وصل انتاجها من الاثيلين ما مقداره (٢٢٥٠٠) طن وانتجت نفس الكمية عام ١٩٦٩ وانخفض انتاجها من هذه المادة عام ١٩٧٠ حيث بلغ (٢٠) الف طن فقط . اما انتاج المؤسسة من البوليثلين فانه في تأرجح فحين وصل الانتاج عام ١٩٦٨ الى ما يزيد على (١٨٥٥) الف طن انخفض عام ١٩٦٩ الى (١٦) ألف طن ثم ارتفع عام ١٩٧٠ الى (١٦٥٥) ألف طن . أما انتاجها من الكاربون الاسود فانه لم يتعد (١٢) الف طن سنويا خلال الاعوام الماضية .

وتجدر الاشارة في مضمار الحديث عن الصناعات البترولية في اسرائيل الى ان خط انابيب نقل البترول الواصل بين ايلات وعسقلان والذي بدأ العمل فيه عام ١٩٧٠ والقادر على نقل (٢٠) مليون طن سنويا نقل عام ١٩٧٠ فقط (١١) مليون طن ولكن العمل جار الى تحسين هذا الشريان البترولي لتصل قدرته النقلية الى ٢٦ مليون طن في السنة .

صناعة صقل الماس : تعتبر صناعة صقل الماس وتصنيعه من الصناعات المهمة في اسرائيل نسبة لعدد العاملين فيها في اسرائيل الان (٤٥٠) مؤسسة عاملة في هذا المضمار يعمل لديها ما يزيد على (١١) ألف موظف من ذوي العلاقة ومدخولات اسرائيل من هذه الصناعة سنويا يزيد على المئتي مليون دولار وعلى سبيل المثال فقد كانت مدخولاتها من صناعة صقل الماس لاعوام ١٩٦٨ — ١٩٦٩ — ١٩٧٠ حوالي ٢٠٠ مليون دولار — ٢١٦ مليون دولار و ٢٠٢ مليون دولار على التوالي . ولهذه الصناعة سوق رائجة في العالم حيث تستورد كل من الولايات المتحدة الامريكية — بلجيكا — سويسره — هونج كونج — اليابان والمانيا الغربية

كميات لا بأس بها سنويا من احتياجاتها من الماس من اسرائيل .

الصناعات الاخرى : العديد من الصناعات الاسرائيلية الاخرى تقوم على استغلال الثروات الفلسطينية المعدنية . منها صناعة السمنت المعتمدة على قلع الصخور الكلسية . واسرائيل بمشاريعها الصناعية تولي هذه الصناعة عناية خاصة ، وانتاج اسرائيل من الاسمنت يزيد الان على (١٤٤) مليون طن سنويا. ونتيجة لاحتياجات اسرائيل المتزايدة من هذه المادة فلقد رصدت مبلغ (٦٠) مليون ليرة اسرائيلية لتزيد طاقتها الانتاجية من الاسمنت الى مليوني طن سنويا . اما استخراج وتصدير الاملاح من ايلات ، البحر الميت ، جبل سدوم ومن منطقة عثليت فانها في ازدياد مستمر . ومقالع الرخام العاملة في كل من كريات شمونه — تيمناع — ايلات ومناطق اخرى تشكل مراكز عمل وتصنيع في تلك المناطق ، هذا بالاضافة الى العديد من الصناعات الاخرى المعتمدة على المواد المعدنية الفلسطينية .

خلاصة

ان الانتاج المنجمي والصناعات الكيمياوية والمعدنية المعتمدة على المصادر الاولية المعدنية الفلسطينية تمثل ركنا اساسيا في الاقتصاد الاسرائيلي . فلقد بلغت قيمة انتاج المناجم عام ١٩٧٠ ما يزيد على (١٨٠) مليون ليرة اسرائيلية صدرت منها اسرائيل بما قيمته (٤٢) مليون دولار وصنعت الباقي . أما قيمة ما انتجته معاملها الكيمياوية في نفس العام واعتمادا على الخامات المستخرجة فلقد بلغت (١٠٨٠) مليون ليرة اسرائيلية صدرت منها ما قيمته (٤٧) مليون دولار . اضافة الى هذا فان قسما كبيرا جدا من المؤسسات الصهيونية قامت وانشئت من اجل تطوير وتحسين طرق استخراج وتركيز المعادن وتصنيعها ، وان المجموع الكمي لعدد العاملين في هذه الصناعات يشكل جزءا كبيرا من الكادر الفني العلمي الاسرائيلي .

والحكومة الاسرائيلية تدرك اهمية هذه الصناعة ولذلك تسعى وباستمرار للتنسيق بين المؤسسات العاملة في مضمار استخراج وتصنيع المعادن ولذلك ساهمت في ان تلتقي اكبر الشركات والمؤسسات الصهيونية قبل عامين للتنسيق بينها وزيادة وتحسين انتاجها وهذه المؤسسات هي شركة البحر الميت — شركة الفوسفات والكيمياويات — المؤسسة الاسرائيلية للبتروكيمياويات — مصفاة البترول في حيفا — شركة حيفا الكيمياوية ومؤسسة عراد الكيمياوية الصناعية ، ونتيجة للتشجيع المستمر والعناية التي توليها الجهات الاسرائيلية للعلماء فلقد اسفرت نتائج ابحاثهم لايجاد طريقة لانتاج (٥٠٠) طن من خامس اوكسيد الفوسفور يوميا في منطقة عراد وطوروا طريقة للبحث عن اليورانيوم تستعمل الان وعلى نطاق واسع في التحري عن معادن اليورانيوم في افريقيا . ولكن ، وبالرغم من كل ما اسلفناه ، يبقى الكادر العلمي العربي والتنسيق الاقتصادي العربي فيما لو وجهوا الوجهة الصحيحة والعلمية ووضعت كافة طاقاتهم وما يمكن ان يقدموا في خدمة الثورة الى تحطيم هذا الصرح من الكيان الاقتصادي الاسرائيلي ، وان كان للعلماء الصهاينة دور في الحفاظ على اسرائيل فان للعلماء العرب دورا في خدمة الثورة الفلسطينية القادرة على توجيه ضربات موجعة الى كيان اسرائيل .

صناعة الاسلحة في اسرائيل

الدكتور يوسف شبل

موضوع تطور صناعة الاسلحة في اسرائيل خصوصا في السنوات الثلاث الاخيرة يكتسب اهمية متزايدة لسببين رئيسيين : الاول ازدياد حجم نفقات التسلح عاما بعد عام رغم توقف اطلاق النار على الجبهات العربية والثاني وجود دلائل قوية على ان صناعة الاسلحة مرشحة لان تكون من الصناعات الرئيسية التي يعتمد عليها الاقتصاد الاسرائيلي في ايام الحرب والسلم معا . اي ان اسرائيل بدات تسير على نفس السياسة التي سارت عليها بلدان عديدة مثل الولايات المتحدة الامريكية وفرنسا والمانيا الغربية والاتحاد السوفياتي وبلجيكا حيث اصبح قطاع التسلح جزءا اصيلا من الصناعة وبالتالي من حيث كونها المصادر الرئيسية للسلاح في العالم . وقبل ان نعرض للقارىء مدى التطور الذي وصلت اليه صناعة الاسلحة في اسرائيل نؤكد ما سبق ان اوضحناه في دراسات سابقة حول اعباء نفقات الدفاع من حيث انها تساهم في زيادة دورة الدخل وفي تنشيط الحياة الاقتصادية في كثير من الاحيان . فليس صحيحا ان الانفاق العسكري يشكل دوما تهديدا للموارد الاقتصادية اذ ان ذلك يعتمد على نوع وحجم وهدف هذا الانفاق . وهنالك بنود عديدة في ميزانية الدفاع تساهم في تنشيط الحياة الاقتصادية وفي زيادة مستويات العمالة والانتاج في الاقتصاد (راجع الفصل الاول حول اقتصاديات التسلح من كتاب يوسف شبل ، **اعباء الحرب على الاقتصاد الاسرائيلي** ، نشر مركز الابحاث الفلسطيني في بيروت ١٩٧٠) .

قبل حرب حزيران من عام ١٩٦٧ كانت صناعة الاسلحة في اسرائيل لا تزال في مراحلها الاولى . فقد كانت تقتصر على انتاج الذخيرة لمختلف قطاعات واسلحة الجيش الاسرائيلي وعلى انتاج الاسلحة الاتوماتيكية الصغيرة خصوصا رشاشات « عوزي » والتي استطاعت اسرائيل تصدير اعداد كبيرة منها الى الخارج . وكانت السلطات الاسرائيلية تحاول تطوير طائرات للتدريب غير ان ارتفاع تكاليف انتاجها وعدم تأكدها من قدرتها على بيع هذه الطائرات بكميات كبيرة لتغطية كثافة الاستثمار الضرورية قد ادى الى التوقف عن السير في هذا الطريق . والمعروف ان هنالك دائرة كبيرة في وزارة الدفاع الاسرائيلية يطلق عليها اسم « دائرة تطوير الاسلحة » مهمتها الرئيسية تطوير الاسلحة التي يستعملها الجيش الاسرائيلي بشكل يخدم الاهداف العسكرية لاسرائيل ويتلاءم مع الطبيعة الطبوغرافية للمنطقة التي تشكل ميدان الاحتكاك العسكري مع الدول العربية المجاورة . وتشرف هذه الدائرة على انتاج السلاح والذخيرة في كافة المصانع الحربية الاسرائيلية كما انها تقوم بوضع التصاميم الضرورية للانتاج وبمهمة الاتصال بمصانع الانتاج الحربي في كافة انحاء العالم . وبعد حرب الخامس من حزيران وعلى اثر ارتفاع مخصصات الدفاع والتسلح بشكل كبير بدأت السلطات الاسرائيلية تتجه نحو تكثيف انتاجها وتنويعه . ولكي يأخذ القارىء فكرة سريعة عن حجم نفقات الدفاع نورد فيما يلي نسبة نفقات الدفاع الى حجم الناتج القومي في عام ١٩٧١ كما ورد في نشرة المعهد البريطاني للدراسات الاستراتيجية عن الميزانيات العسكرية لدول العالم : الولايات المتحدة : ٦،٨٪ ، الاتحاد السوفياتي : ٨،٥٪ ، المانيا الغربية : ٣،٥٪ ، فرنسا : ٤،٤ ٪ ، اسرائيل : ٢٥،١٪ ، جمهورية مصر العربية : ١٣،٢٪ .

واذا ما أخذنا نسبة النفقات المشار اليها الى عدد السكان نجد انها تصل الى (٤٠٠) دولار في اسرائيل بالمقارنة الى (٣٩٣) دولارا في الولايات المتحدة و (١٠٠) دولار في انجلتره و (٢٥) دولارا في مصر . وهكذا فان كلا المؤشرين يؤكد ضخامة نفقات الدفاع والتسلح في اسرائيل ويوضح الظروف الاقتصادية التي شجعت قيام صناعة اسلحة متطورة في اسرائيل . ففي تصريح ادلى به المتيد « لافي » المدير العام لوزارة الدفاع الاسرائيلية الى جريدة دافار بتاريخ ١٩٧١/٧/١١ جاء فيه ان الانتاج الحربي في اسرائيل قد ازداد اربعة اضعاف عما كان عليه قبل حرب حزيران . فقد وصل الى حوالي (٣٧٠) مليون دولار اي ما يوازي ١،٣ بليون ليرة اسرائيلية بالمقارنة الى (٨٥) مليون دولار في مطلع عام ١٩٦٧ . واكد لافي ان اسرائيل قد رسمت خطة لتنمية الصناعة المذكورة بحيث يصل انتاجها الى ٢،٦ بليون في عام ١٩٧٥ . وقد مكنت هذه الزيادة الكبيرة في الانتاج

السلطات الاسرائيلية من رفع قيمة صادراتها من الاسلحة الى الخارج بحيث وصلت الى (٥٠) مليون دولار في عام ١٩٧١ ومن المنتظر ان ترتفع الى (١٥٠) مليون دولار في عام ١٩٧٥ . واضاف « لافي » ان الوضع العسكري والسياسي في المنطقة هو الذي شجع الحكومة الاسرائيلية على اقامة صناعة عسكرية متطورة . واضاف لافي الى ذلك تأكيدا بأن وزارة الدفاع قررت زيادة مشترياتها من السلع والخدمات المنتجة محليا بمقدار (٣٠٠) مليون ليرة اسرائيلية سنويا خلال الخمس سنوات القادمة بحيث تصل الى (٢٨) بليون ليرة اسرائيلية في عام ١٩٧٥ مما سيؤدي الى خفض الواردات العسكرية والامنية من (٦٠٠) مليون دولار حاليا الى مبلغ (٤٠٠) مليون دولار ١٩٧٥ .

وهكذا يتضح ان اثر الصناعة العسكرية المتطورة يمكن ان يمتد في اتجاهين في وقت واحد. فهو يزيد من حجم النشاط الاقتصادي داخليا وما يوفره ذلك من ارتفاع في توظيف اليد العاملة ، كما انه يخفف من العبء الذي يرزح تحت الميزان التجاري عن طريق تقليص حجم الواردات واستبدالها بانتاج محلي . وكلا الاثرين مرغوب ومنشود ويشكل جزءا من اهداف السياسة الاقتصادية في الوقت الراهن. وقد ادى ارتفاع نفقات التسلح الى زيادة الطلب على السلع والخدمات المدنية واصبحت هنالك مؤسسات صناعية عديدة هدفها وانتاجها الرئيسي يذهب الى قطاع التسلح والى الصناعة العسكرية المتطورة . وكما جاء في التقرير الحكومي السنوي لعام ١٩٧٠ فان اربعة اخماس احتياجات اسرائيل العسكرية تنتج الان محليا .

على ان وصول اسرائيل الى هذه الدرجة من الاكتفاء لا يعني ان اسرائيل قد وصلت الى حد بحيث لم تعتمد على استيراد حاجياتها من الاسلحة الثقيلة . فلا زالت اسرائيل في حاجة ماسة الى استيراد ما تحتاجه من طائرات الفانتوم وسكاي هوك وكذلك الدبابات الثقيلة ومدافع الميدان البعيدة المدى وغيرها من الاجهزة الالكترونية الدقيقة التي تنتجها مصانع السلاح في الولايات المتحدة . وجميعها اسلحة متطورة ومكلفة وفي غير المعقول أن يستطيع بلد مثل اسرائيل ان يتمكن من انتاجها في المستقبل القريب . لذلك ستظل اسرائيل تستورد هذه الاسلحة من الخارج وهذا يفسر قول مدير عام وزارة الدفاع بان استيراد اسرائيل سيظل في حدود (٤٠٠) مليون دولار في ١٩٧٥ .

وفيما يلي عرض موجز لاهم المنجزات التي تمت او التي هي في طور الاكمال بالنسبة لصناعة الاسلحة : ١) بدأت اسرائيل انتاج دبابة متوسطة الحجم اطلقت عليها اسم « تسابار » وهي مخصصة لحرب الصحراء وتبلغ حمولتها (٤٠) طنا وتحمل مدفعا من عيار (١٠٥) مليمترات . ٢) بدأ انتاج صواريخ من طراز « جريكو » حيث يبلغ مداها حوالي (٥٠٠) كيلومتر وثمن الصاروخ الواحد حوالي (١٢٥) مليون دولار . وقد تقرر انتاج (٤ — ٦) صواريخ شهريا . وكان هذا المصنع في فرنسا قبل عام ١٩٦٧ ثم تقرر نقله الى اسرائيل لكي يكون تحت مراقبة السلطات الاسرائيلية مباشرة . ٣) كما بدأت المصانع الحربية الاسرائيلية في تصدير كمية من صواريخ بحر — بحر من طراز « غابريال » . ويعتبر هذا الصاروخ بعيد المدى ويحمل رأسا حربيا يزن حوالي (٣٠٠) رطل . وتؤكد السلطات الاسرائيلية ان دولا عديدة طلبت تزويدها بهذا السلاح وان مجموع قيمة هذه الطلبات وصل الى مبلغ (٣٨) مليون دولار . ٤) ذكرت صحيفة « الهيرالد تريبيون » في عددها الصادر بتاريخ ١٥ ايلول من عام ١٩٧١ ان اسرائيل قد انتهت من وضع التصاميم الضرورية لانتاج طائرة نفاثة — مقاتلة محركها امريكي الصنع وهيكلها اسرائيلي الصنع .وتقول الصحيفة ان هذه الطائرة قريبة الشبه بالميراج . ٥) وهذا يعني ان صناعة التجميع ستزدهر اكثر .

وكانت الحكومة الاسرائيلية قد بدأت في بيع طائرة عسكرية من طراز « عربة » تستطيع الاقلاع والهبوط في مناطق وعرة وعلى امتداد مسافة ١٢٠ — ١٥٠ مترا . وتستطيع هذه الطائرة ان تحمل (٢٠) جنديا باسلحتهم الكاملة او ما حمولته طنين من الذخيرة . ويمكن استخدامها كمركز قيادة طائر تستطيع الهبوط في ساحة المعارك . وتؤكد السلطات الاسرائيلية انها تلقت حتى نهاية عام ١٩٧١ ما مجموعه ٨٢ طلبا لشراء هذه الطائرة معظمها من دول افريقية . غير ان الانباء الصحفية اللاحقة ذكرت ان اسرائيل تجد صعوبة في تسويق هذه الطائرة بسبب بعض الحوادث التي حصلت لها اثناء عمليات التجربة وكان اخرها في معرض باريس الجوي .

ومن ناحية اخرى زعمت السلطات الاسرائيلية انها بدأت في صناعة قذائف الكاتيوشا السوفياتية الصنع من عيار ٢٤ مليمتـرا والتي يمكن اطلاقها مـن سيارات صنعت كمنصات اطلاق على مدى ١١ كيلو مترا و٦،٥ كيلومتر . ويبدو ان الهدف من انتاج هذه القذائف هو استعمالها في مهاجمة القواعـد الفدائية وقرى الحدود المتاخمة للحدود الاسرائيلية وفي نشاطات تخريبية داخل البلاد العربية .

والان بعد عرضنا بايجاز لاهم التطورات التي حدثت في صناعة الاسلحة في اسرائيل، فان السؤال المطروح هو الاتي : ما هي الذيول العسكرية والاقتصادية المترتبة على نمو صناعة الاسلحة في اسرائيل ؟

اولا : ان اسرائيل قد حققت قدرا كبيرا من الاكتفاء الذاتي فيما يتعلق بحاجتها من الذخيرة والاسلحة الخفيفة وانها بالتالي ستخفـف من حدة اعتمادها على مصادر التسلح الخارجيـة بالنسبة للاسلحة الخفيفة مثل الرشاشات والمدفعية وبعض الصواريخ القصيرة المدى . وهذا يتيح لها مجالا اوسع في أية حرب قد تقع في المستقبل .

ثانيا : انها قد نجحت جزئيا في جعل الاقتصـاد الاسرائيلي معتـادا على وجود قطـاع عسكري ودفاعي كبير الحجم دون ان يشكل ذلك عبئا ثقيلا على منجزات واهداف الاقتصاد المذكور . وقد تم ذلك عن طريق ايجاد قاعدة واسعة للتبادل التجاري بين القطاع الخاص وبين قطاع الدفاع والتسلح . واذا ما نجحت السلطات الاسرائيليـة في جعـل صناعة الاسلحة صناعة تصديرية ذات شأن فـان عملية احتواء الذيول السلبية لعملية التسلح تكون قد قطعت شوطا بعيدا . وهذا يعني ان اسرائيل تستطيع ان تعيش في حالة اللاحرب واللاسلم مدة طويلة مع وجود اقل خسائر ممكنة .

ثالثا : اذا ما قدر لصناعة الاسلحة ان تصبح من الصناعات الرئيسية في اسرائيل فان ذلك سيؤدي الى ايجاد طبقة صناعية مستفيدة من بقاء الحالة الراهنة على ما هي عليه الان . وستكتسب هذه الطبقة مع مرور الزمن ثقلا سياسيا يجعلها قادرة على الضغط على الحكومة الاسرائيلية لابقاء الحالة الراهنة كما هي او حتى دفع الحكومة الاسرائيلية نحو مزيد من التطرف والعدوان على الدول العربية.

رابعا : تنظر اسرائيل الى السوق الافريقية على انها المجـال الحيوي لتصدير انتاجها من السلع الحربية . وبالفعل فان معظم طلبات التسلح جاءت من دول افريقية . وهذا سيؤدي حتما الى توثيق العلاقات الافريقية الاسرائيليـة والى مزيد مـن التسلل الاسرائيلي الى هذه البلدان . واسرائيل مضطرة الى بذل جهود كبيرة في هذا السبيل نظرا لكثافة الاستثمار الذي تتطلبـه صناعة الاسلحة وضيق السوق المحلي وغيرها من العوامل التقنية والاقتصادية التي تتطلب توفر حد ادنى من الانتاج سنويا لتغطية الجزء الاكبر مـن النفقات الثابتة والنفقات المتغيرة .

خامسا : لا شك ان اسرائيل تهدف الى احداث آثار نفسية معينة عند الشعب العربي عندما تنشر بين الحـين والاخر معلومـات عن زيادة انتاجها الحربي وعن نجاحهـا في تصميم وتطوير اسلحة جديدة . فهي تريد اعلام جيرانها بأنها وصلت الى درجة من المناعة العسكرية والتقدم العلمي تجعل اي محاولة لتغيير الوضع الراهن عسكريا عملية غير محمودة العواقب ، يضاف الى ذلك انها تريد ان تظهر بوجه حضاري ذا مستوى رفيع عندما تضع نفسها بين الدول المنتجة للسلاح مثل الولايـات المتحدة والاتحاد السوفياتي وبريطانيا .

على ضوء ما تقدم يمكن القول بان تطـور صناعة الاسلحة في اسرائيل في السنوات الاربع الماضية سواء من ناحية الكيف او من ناحية الكم يعتبر نقطة تحول خطيرة بالنسبة لكل من الاقتصاد الاسرائيلي وللبلدان العربية على حـد سواء . فهي تمثـل بالنسبة للاقتصاد الاسرائيلي عملية تكيف لامتصاص نفقات الدفاع التي تتزايد عاما بعد عام وجعلها اكثر انتاجية عن طريق جعلها احد مصادر دورة الدخل والعمالة في البلاد ، في حين انها تمثـل بالنسبة للبلدان العربية تحديا جديدا يزيد من قدرة العدو العسكرية ويخفف من حـدة اعتماده على مصادر التسلح في الخارج . والواقع ان بعض البلـدان العربية قادر على تطوير صناعة الاسلحة لديـه خصوصا تلك التي وصلت الصناعة فيها الى مرحلة متقدمة من التقنية والتي تملك مقدرات بشرية قادرة على مجابهة مثل هذه الصناعة وتعقيداتها . واذا كانت مبادىء التخصص في الانتاج لا تشجع انتاج الاسلحة محليا على نطاق واسع فـان ضرورات الامن والواقع العسكـري الراهن يجعل تطويـر صناعة الاسلحة في بعض البلدان العربية اكثر من ضروري .

الارشيف في اسرائيل

ا. م.

سبق لشؤون فلسطينية ان نشرت بحثا عن الوثائق الصهيونية والاسرائيلية للدكتور نادر العطار (عدد ٨ في ١٩٧٢/٤/١) . وهي تنشر في هذا العدد تقريرا لمراسل زار الارض المحتلة عند انعقاد « مؤتمر الارشيف » في القدس في سبتمبر ١٩٧٠ واطلع على دور الوثائق واهتمامات سلطات العدو بها . وقد كتب لنا المعلومات التالية :

الارشيف الاسرائيلي ، شأنه شأن دولة اسرائيل ذاتها ، حديث العهد . غير ان الارشيف الاسرائيلي يحاول ان يكون شاملا لتاريخ اليهود في جميع البلدان ، كما يحاول ان يغطي تاريخ فلسطين في شتى العصور . ولذلك ، يحاول القائمون عليه أن يجمعوا أية وثائق تتعلق بهاتين الناحيتين دون ان يولوا أصل هذه الوثائق ومصادرها وأهميتها الارشيفية التدقيق المعهود في دوائر الارشيف الاوروبية العريقة . هذا ، ولم يقتصر قانون الارشيف الاسرائيلي الصادر في عام ١٩٥٥ على تعريف مهمة ارشيف الدولة واختصاصاته ، بل اعطاه صلاحية الاستحواذ على اية وثائق او مواد هي في حوزة الافراد او الهيئات الخاصة .

ويوجد في اسرائيل الان سبعة عشر من مستودعات الارشيف التي تعتبر جزءا من الارشيف العام وواقعة تحت الاشراف العام لارشيف الدولة . ومن هذه أربعة مستودعات ارشيف رئيسية تشتمل على الوثائق والمواد التي تتعلق بشتى جوانب تاريخ اليهود واسرائيل ، وهي : ارشيف الدولة ، والارشيف العسكري ، الارشيف الصهيوني المركزي ، والارشيف المركزي لتاريخ الشعب اليهودي . ويوجد الارشيف العسكري في مدينة تل أبيب ، أما مستودعات الارشيف الثلاثة الاخرى فسوف تحفظ في مجمع واحد عندما تتوفر الاموال لبناء مثل هذا المجمع ، ولكنها ، عندئذ ، ستظل مستقلة اداريا ، وقد كان الدكتور بين الى عهد قريب ، مدير كل من ارشيف الدولة ، والارشيف الصهيوني المركزي . اما ارشيف « يادفاشيم » فيتتبع تاريخ اليهود ابتداء من عام ١٩٣٨ ، بيد انه يتداخل مع محفوظات الارشيف المركزي لتاريخ الشعب اليهودي لانها لا يضعان حدا فاصلا لاختصاص كل منهما .

ارشيف الدولة : في القدس — هاكيريا . هو الارشيف المركزي لدولة اسرائيل ، كما انه مستودع المحفوظات من سجلات الحكومات السابقة التي تعاقبت على حكم فلسطين قبل قيام دولة اسرائيل. والجهة الحكومية المسؤولة عن أرشيف الدولة هي مكتب رئيسة الوزراء ، كما ان مقر أرشيف الدولة هو في الطابق الارضي من مبنى مكتب رئيسة الوزراء . ويشرف على هذا الارشيف حاكم ارشيف الدولة ويعاونه في ذلك مجلس الارشيف الاعلى . ويتألف مجلس الارشيف الاعلى من ٢٠ ممثلا للارشيف العام والبلدي وعشرين ممثلا للوزارات والهيئات العامة والاحزاب السياسية . ومن مهام مجلس الارشيف الاعلى أنه يجب أن يعتمد ويقر جميع لوائح الارشيف وتنظيماته الادارية قبل أن تقترن بموافقة رئيسة الوزراء ، كما أنه المسؤول عن وضع القواعد المنظمة لاصول الاطلاع على محفوظات الارشيف او اجراء اية تعديلات عليها .

ان محتويات ارشيف الدولة للفترة السابقة لعام ١٩٤٨ غير متكاملة ، فالسجلات الادارية الوحيدة الباقية من فترة الحكم التركي هي سجلات السكان لاغراض جمع الضرائب ولشؤون الخدمة العسكرية، وبعض سجلات ادارة منطقة القدس وسجلات دائرة الكاتب العدل . اما سجلات حكومة الانتداب البريطاني فمعظمها اما نقل الى بريطانية أو أتلف في عام ١٩٤٨ ، ولم يبق منها سوى سجلات مكتب كبير الامناء (والتي يتوفر لها دليل مطبوع لفترة السنوات ١٩١٨ — ١٩٢٥) ، وسجلات مركز تموين الشرق الاوسط خلال الحرب العالمية الثانية، وكلاهما موضوعان تحت تصرف الباحثين . ويسعى ارشيف الدولة الى استكمال مقتنياته بالحصول على صور ميكروفيلم للوثائق والسجلات الناقصة ، ووضع اليد على الاوراق الخاصة . وقد وضعت مع الجهات المختصة ترتيبات مشروع لتصوير ملفات مكتب شؤون المستعمرات البريطاني المتعلقة بفلسطين بالميكروفيلم . ومن جهة اخرى ، ان اهم

مجموعة من الاوراق الخاصة هي أوراق الفيكونت صموئيل المتعلقة بفلسطين (وتوجد بقيتها في مكتب سجلات مجلس اللوردات) ، وهناك دليل مطبوع حول هذه الاوراق . ويحتوي ارشيف الدولة كذلك على جزء من سجلات القنصلية الالمانية في القدس للفترة ١٨٤٠ — ١٩٣٩ ، وقد باعت السلطات الالمانية هذه السجلات لاسرائيل في عام ١٩٥٤ كأوراق نفاية ، وقام ارشيف الدولة في اسرائيل بحفظ ما يلزم حفظه منها ، كما يحتوي ارشيف الدولة في اسرائيل على بعض سجلات الهيئة العربية العليا التي تركتها وراءها في عام ١٩٤٨ ، وحيث ان هذه السجلات ذات صبغة شخصية في مجملها فهي مقفلة وغير متيسرة للباحثين .

وارشيف الدولة هو المستودع الرسمي لجميع سجلات الحكومة المركزية بما فيها الوكالات والهيئات المؤقتة التي سبقت في تشكيلها اعلان قيام دولة اسرائيل ، وكذلك سجلات مكتب رئيس الدولة والكنيست والمحاكم ما عدا سجلات الجيش الاسرائيلي ، ويترتب على هذا الامر ان مهمة أرشيف الدولة لا تقتصر على مجرد حفظ السجلات التاريخية ، بل تشمل كذلك الاشراف على أمور التسجيل واساليب وقواعد حفظ السجلات في الوزارات وضبطها ، وبالتالي لقد أصبح ارشيف الدولة بمثابة هيئة ادارة السجلات في الحكومة الاسرائيلية . وكذلك ، فان ارشيف الدولة مسؤول عن نشر البيليوغرافيا السنوية لمطبوعات الحكومة الاسرائيلية ، وان يكون أيضا بمثابة مكتبة المراجع المركزية لعموم المطبوعات الحكومية ، ومثل هذه المطبوعات توضع تحت تصرف الباحثين والدارسين منذ لحظة استلامها وايداعها في أرشيف الدولة الا اذا صدر حظر رسمي يمنع ذلك .

والقواعد التي يسير عليها ارشيف الدولة في رفع الحظر عن الوثائق المحفوظة فيه ووضعها تحت تصرف الباحثين والدارسين هي على الوجه التالي : السجلات الادارية بعد انقضاء عشرين عاما على تاريخ تسجيلها ، والسجلات السياسية في أية وزارة من الوزارات بعد انقضاء ثلاثين سنة ، اما السجلات التي تتعلق بأمن الدولة فبعد انقضاء خمسين سنة عليها ، وأيضا الملفات الشخصية بعد انقضاء خمسين سنة عليها . هذا ويمكن اقفال السجلات وابقاؤها بعيدة عن متناول الباحثين والدارسين لمدد أطول مما ورد أعلاه اذا ما اقتضت ذلك مصلحة الدولة او مصلحة المواطنين المعنيين بها وذلك بالاتفاق مع مجلس الارشيف الاعلى .

الارشيف العسكري : في تل ابيب — غفعتايم (٥٠ شارع جابوتنسكي) .

يحتوي الارشيف العسكري على جميع السجلات التاريخية للجيش الاسرائيلي ، كما ان الارشيف العسكري مسؤول عن ادارة سجلات الجيش وحفظ جميع الملفات شبه الجارية . ويعتبر الارشيف العسكري جزءا من وزارة الدفاع ، كما أنه ، من حيث المبدأ ، خاضع لاشراف ارشيف الدولة ، وان كانا لا يرتبطان بتسلسل اداري مباشر . أما القواعد التي يتبعها في الافراج عن الوثائق ووضعها في متناول الباحثين والدارسين فهي مماثلة للقواعد المعمول بها في ارشيف الدولة .

يحتوي الارشيف العسكري على مجموعات السجلات التالية : ١ — سجلات التشكيلات شبه العسكرية قبل عام ١٩٤٨ ، بما فيها سجلات الهاغاناه والبالماخ . ٢ — سجلات الجيش الاسرائيلي . ٣ — صور وافلام تتعلق بالبندين السابقين (١و٢)، وكذلك بالجيشين البريطاني والتركي. ٤— مجموعات من الاوراق الخاصة . ٥ — مجموعات من التسجيلات الصوتية على أشرطة ، وهذه تتضمن تسجيلات تاريخية وأخرى عصرية ، فعلى سبيل المثال يجري الان تنفيذ مشروع خاص لتسجيل ذكريات القادة العسكريين في حرب عام ١٩٤٨ ، كما تم تسجيل مجموعة كبيرة من المقابلات الشخصية مع عدد كبير ممن خاضوا حرب حزيران بعيد انتهاء القتال بقليل .

الارشيف الصهيوني المركزي : في القدس — شارع ابن غفيرول رقم ١ .

الارشيف الصهيوني المركزي هو أقدم مستودعات الارشيف الاسرائيلية . وقد تأسس بادىء ذي بدء في مدينة برلين في عام ١٩١٩ ، ومن ثم نقل الى القدس خلال سنتي ١٩٣٣ — ١٩٣٤ . وتتكون محتوياته بصورة أساسية من أرشيف المنظمة الصهيونية العالمية ، وهو يتولى استملاك السجلات الجارية وغربلة محتوياتها وحفظها ، كما أن الارشيف الصهيوني المركزي هو الجهة التي تقوم بجمع سجلات عموم المنظمات والهيئات الصهيونية في شتى أنحاء العالم ، وكذلك جمع وحفظ ما تصدره الحركة الصهيونية من مطبوعات ونشرات دورية ونشرات آنية . وتقتصر محتوياته على فترة

زمنية محددة ومقفلةهيثلاثون عاما(١٩١٩ـ١٩٤٨).

لقد نشر الارشيف الصهيوني المركزي ، منذ عهد قريب ، دليلا موجزا لمقتنياته ، وسأدرج هنا المجموعات الرئيسية من هذه المقتنيات مكتفيا بقدر ضئيل من التوضيحات والشروح : ١ ـ سجلات ووثائق المكاتب المركزية لكل من المنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية لفلسطين في الخارج ، وأيضا سجلات مكاتب مقرات المنظمة الصهيونية العالمية المتتابعة ابتداء من عام ١٨٩٧ في كل من فينا ، وكولون ، وبرلين ، ولندن ، ونيويورك وجنيف على التوالي ، وكذلك سجلات المكاتب الفرعية للمنظمة الصهيونية العالمية والمنظمات والهيئات المتفرعة منها في شتى أنحاء العالم . ٢ ـ سجلات الجالية اليهودية في فلسطين ، وسجلات الجالية اليهودية القديمة والمستوطنين اليهود في فلسطين ابتداء من عام ١٨٣٠ وقبل بدء مرحلة الاستيطان الصهيوني . ٣ ـ سجلات الهيئات الصهيونية غير الرسمية وغيرها من المنظمات والهيئات القومية اليهودية ابتداء من عام ١٩٠٥ . ٤ ـ الاوراق والملفات الخاصة بما فيها أوراق ثيودور هيرتسل .

ويقوم الارشيف الصهيوني المركزي ، كذلك ، بجمع الصور والافلام السينمائية وأشرطة التسجيلات الصوتية المتعلقة بالحركة الصهيونية في فلسطين ، ومن ثم في اسرائيل ، وكذلك الاستيطان اليهودي فيها . كما يقوم الارشيف الصهيوني المركزي بجمع صور ميكروفيلم للوثائق المتعلقة بالحركة الصهيونية والموجودة في مستودعات الارشيف القومي في كل من الولايات المتحدة الامريكية ، وفرنسا ، والنمسا ، والمانيا ، وكذلك في مكتب السجلات العامة في لندن.

الارشيف المركزي لتاريخ الشعب اليهودي : وهو ما كان يدعى سابقا : « الارشيف اليهودي التاريخي العام » . في الجامعة العبرية ـ بناية سبرنتسك في القدس . المدير : الدكتور دانيال كوهين .

كانت نواة « الارشيف المركزي لتاريخ الشعب اليهودي » مجموعة خاصة من الوثائق والسجلات أهديت في عام ١٩٤٤ للجمعية التاريخية في اسرائيل وأودعت في الجامعة العبرية . وفي عام ١٩٦٨ وضع لهذا الارشيف نظام جديد وأصبح له مجلس ادارة يضم حاكم ارشيف الدولة وممثلين للحكومة الاسرائيلية والوكالة اليهودية والاكاديمية الاسرائيلية والجامعات في اسرائيل . والغرض من انشاء هذا الارشيف هو جمع الوثائق والسجلات والمواد المتعلقة بتاريخ اليهود في « ديار الشتات » .

تنقسم مجموعة مقتنيات الارشيف المركزي لتاريخ الشعب اليهودي الى فئتين : فهي اما مواد يهودية أو مواد عن اليهود . وغرض هذا الارشيف هو جمع وحفظ مجموعة كاملة ، قدر الامكان ، من المواد عن تاريخ اليهود في «ديار الشتات». ونظرا لضخامة حجم المهمة التي يضطلع بها هذا الارشيف، وعدم كفاية المبالغ المرصودة له ، قياسا على ذلك، يولي القائمون على أمر هذا الارشيف مسألة جمع المعلومات عن محتويات السجلات المتعلقة بيهود الشتات في مختلف مستودعات الارشيف والمكتبات ومراكز التوثيق في شتى بلدان العالم العناية نفسها التي يولونها لمسألة جمع هذه السجلات وشرائها والاحتفاظ بها ، ومن أهم مآثر هذا الارشيف مجموعة كتب الدليل التي يعدها عن سجلات ومراجع ووثائق التاريخ اليهودي الموجودة في مستودعات الارشيف الاوروبية . وقد نشر هذا الارشيف دليلا موجزا ، ولكنه مفيد ، للمقتنيات المحفوظة فيه . وفيما يلي نبذة موجزة عنها :

أ ـ **سجلات الجاليات اليهودية في بعض البلدان** : كان هم الارشيف المركزي لتاريخ الشعب اليهودي ، اثر انتهاء الحرب العالمية الثانية ، هو التنقيب عن سجلات الجاليات اليهودية التي افنيت في اوروبا واستملاكها ، وقد كان النازيون قد وضعوا أيديهم على كثير من هذه السجلات . وتضم المقتنيات المحفوظة في الارشيف المركزي لتاريخ الشعب اليهودي ، حاليا ، سجلات الجالية اليهودية في فينا (١٨١٢ ـ ١٩٤٤) ، وبعض سجلات المعاهد المركزية لليهود الالمان (١٨٥٤ ـ ١٩٣٨) ، وجزءا من سجلات الارشيف العام لليهود الالمان ، وسجلات الجالية اليهودية في برلين (١٧٢٦ ـ ١٩٣٨) ، وسجلات الجاليات اليهودية في بافاريا وقد زودهم بها أرشيف الدولة البافاري، وسجلات الجالية اليهودية في همبورغ (نصفها من الوثائق الاصلية ، والنصف الاخر مصورة على ميكروفيلم) وذلك خلال الفترة ١٦٤١ ـ ١٩٤٢ ، وسجلات الجالية اليهودية في دانتزيغ ١٨٣٦ ـ ١٩٣٨ . وكذلك يقوم الارشيف المركزي بجمع سجلات الجاليات اليهودية القائمة حاليا سواء بالحصول على الوثائق والسجلات والاوراق الاصلية اذا سمحت الجالية نفسها بذلك او

بتصويرها على ميكروفيلم . وعلى سبيل المثال يضم الارشيف المركزي سجلات الجاليات اليهودية القائمة حاليا في ايطاليا والبيرو واليونان وفرنسا ونيويورك.

ب ـ **مقتنيات الارشيف المركزي المصورة بالميكروفيلم** : وتضم هذه علاوة على النسخ المتوفرة من سجلات الجاليات اليهودية القائمة حاليا نسخ ميكروفيلم لسجلات مكتب السجلات العامة في لندن، ولارشيف الدولة في كل من النمسا ، والدانمارك ، وبولندا ، ومدريد ومحفوظات ارشيفات المانية .

ج ـ **الاوراق الخاصة والمجموعات الاخرى** : وتضم هذه نسخ ميكروفيلم لسجل الرايخ الالماني لانساب اليهود الالمان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

أرشيف يادفاشيم : في القدس ـ هارهازيكارون .

تم تشكيل هيئة تخليد ذكرى الشهداء والابطال بموجب قانون أصدره الكنيست في عام ١٩٥٣ ، ومهمة هذه الهيئة ، بصورة أساسية ، هي أن تعمل على تخليد اليهود الذين أبادهم النازيون أو الذين شاركوا في مقاومة النازيين . وقد أقامت هذه الهيئة ، لهذا الغرض ، معرضا وعددا من قاعات التخليد . وقد انصبت مجهودات الإرشيف والمكتبة ، بصورة أساسية ، حتى الان على أعمال التخليد والمشروعات المتخصصة ، لا سيما ما يتعلق منها بالترميم . وفي الوقت الحاضر ، يخرج الزائر ليادفاشيم بانطباع ان الامور فيه ليست على ما يرام ، خصوصا اذا قورن بالارشيف المركزي لتاريخ الشعب اليهودي ، اذ يبدو انه لا يوجد بين هيئة الموظفين فيه أي مؤرخ او أي خبير متخصص في تنسيق الارشيف ، كما أنه يتعذر على المرء ان يحصل على معلومات تشفي غليله حول مقتنيات هذه المؤسسة وخططها للمستقبل . ويبدو ان المسؤولين الاسرائيليين على علم بهذا الوضع ، وليس من المحتمل ان تتوفر لنا صورة واضحة عن مقتنيات « يادفاشيم » قبل ان ينشر دليل المقتنيات الذي يقوم الدكتور بوير باعداده .

تبين لي أن معظم مقتنيات يادفاشيم هي نسخ عن السجلات والوثائق الاصلية مصورة على ميكروفيلم، وكذلك لم يتسن لهم الحصول الا على نزر يسير من المواد من بلدان اوروبا الشرقية ، وانه لا تتوفر في يادفاشيم مجموعات بأهمية سجلات روزنبرغ او تمينيستريوم الموجودة في « معهد ييفو للبحث حول شؤون اليهود في نيويورك » أو المجموعات المحفوظة في « مركز الوثائق اليهودية » في باريس .

أ ـ **السجلات الالمانية** : وهي تضم سجلات وزارة الخارجية الالمانية المتعلقة بالشؤون اليهودية ، وسجلات الحزب النازي في منطقة فينا ، وسجلات الحزب النازي حول فلسطين ، وسجلات معسكرات الابادة في داخاو ، وأوشفيتز ، وتريزياتشتادت .

ب ـ **السجلات الايطالية** : وهي تضم نسخ ميكروفيلم عن السجلات المتعلقة باليهود في ارشيف وزارة الخارجية الايطالية ، وسجلات الارشيف المركزي في وزارة الداخلية الايطالية ، وسجلات الجالية اليهودية في روما .

ج ـ سجلات الجماعات اليهودية في بولندا وهولندا وفرنسا واسكندنافيا .

د ـ سجلات محاكمات النازيين والفاشيين بما فيها المحاكمات العسكرية الايطالية ومحاكمات الحلفاء العسكرية ، ومحاكمة مانشتاين (نصف وقائع المحاكمات) ، ومحاكمة أيخمان (السجل الرسمي محفوظ في مستودع أرشيف الدولة) . وكذلك تشمل هذه السجلات نسخا عن المطالعات والاحكام في محاكمات جرائم الحرب في المانيا الغربية ، وقصاصات صحف عن محاكمات جرائم الحرب التي جرت في بلدان أوروبا الشرقية .

هـ ـ أشرطة تسجيلات صوتية لحوالي عشرين ألف مقابلة شخصية مع من نجوا من معسكرات الابادة النازية .

دليل احوال اليهود خلال الحرب العالمية الثانية :

في عام ١٩٦٥ نشر الدكتور جاكوب روبنسون والدكتور شاؤول عيش بتكليف من الجامعة العبرية ومؤسسة يادفاشيم « دليل المواد غير المنشورة من عينات فترة الابادة الجماعية » . ولكن الدكتور شاؤول عيش ما لبث أن توفي في حادث بعد عامين ، فتولى مشروع هذا الدليل بدلا عنه الدكتور يهودا بوير من الجامعة العبرية . وسينشر هذا الدليل تباعا في أجزاء منسقة حسب البلدان مبتدئا بمستودعات الارشيف في اسرائيل ، وسيغطي الجزء الاول منه جميع مستودعات الارشيف الصغيرة ومجموعات الاوراق والوثائق الخاصة في اسرائيل، اما الجزء الثاني منه فسيخصص لمقتنيات « يادفاشيم » .

شهريات

(١) المقاومة الفلسطينية

واجهت حركة المقاومة الفلسطينية خلال شهر حزيران ضغوطا متواصلة عليها في الساحة اللبنانية أبرزت أزمة في العلاقات بينها وبين السلطة ، قادت في النهاية ، وعبر محادثات سرية ، الى الاعلان عن تجميد نشاط العمل الفدائي من لبنان ، وحتى نفهم طبيعة هذه الازمة ، وطبيعة التراجع الفلسطيني الذي تم ، لا بد من القاء نظرة سريعة على الوضع في المرحلة السابقة ، والتغيرات التي طرأت عليه .

في المرحلة السابقة ، وتحديدا منذ بداية عام ١٩٦٨ وحتى منتصف عام ١٩٧٠ ، استطاع العمل الفدائي أن يبلور لنفسه صورة متكاملة ومتعددة الجوانب . ففي داخل الارض المحتلة استطاعت حركة المقاومة ان تتواجد وأن تنمو باستمرار ، بل وأن تخترق جدار الصمت الاسرائيلي الرافض أن يعترف بها ، لتصل الى قرار اسرائيلي بأن المقاومة الفلسطينية « استطاعت ان تفرض نفسها على الخارطة السياسية للشرق الاوسط » . وفي داخل الاردن تفزت حركة المقاومة من كونها مجموعات مقاتلة متواجدة في الاغوار عام ١٩٦٨ ، الى كونها قوة سياسية اولى في البلد تتنازع النفوذ مع الحكم الاردني ، وتخوض معه سلسلة من الاصطدامات دفاعا عن وجودها وعن حق الشعب في حمل السلاح .

وأدى هذان العاملان اللذان بلورا قوة المقاومة الذاتية ، الى اكتسابها لتأييد جماهيري عربي واسع ، بحيث اصبح لحركة المقاومة نفوذ يحسب حسابه داخل كل بلد عربي ، فرض نفسه على مواقف كثير من الحكومات دافعا اياها عن قناعة أو عن مسايرة الى تقديم اشكال متنوعة من الدعم لحركة المقاومة .

ولا نستطيع ان ننكر ان سياسة الاستنزاف التي كانت منطلق سياسة دول المواجهة كانت بدورها عاملا هاما من العوامل التي حددت اطار الدعم العربي الرسمي لحركة المقاومة . فمن خلال سياسة الاستنزاف كان وجود حركة المقاومة واستمرارها ونموها عنصرا مطلوبا بالحاح من قبل الحكومات العربية .

ضمن هذا الاطار العام ، الذي نمت فيه قوة حركة المقاومة الذاتية ، كما نمت فيه علاقات الدعم العربي الشعبي والرسمي ، استطاعت حركة المقاومة ان تواجه بنجاح قضيتين أساسيتين : استطاعت اولا ان تنطلق لاكتساب مواقع قوة جديدة ، وخاصة في لبنان ، بعد ان واجهت بنجاح ازمتين متلاحقتين في شهري نيسان وتشرين من عام ١٩٦٩ ، نتج عنهما توقيع « اتفاق القاهرة » الذي اعترف بشرعية العمل الفدائي المنطلق من لبنان . واستطاعت ثانيا أن تصمد أمام تكتيك اسرائيل الاساسي في مواجهة العمل الفدائي المنطلق من الحدود العربية . هذا التكتيك الذي يعتمد على أن الرد على العمل الفدائي الفلسطيني انما يكون في البلاد العربية نفسها ، معتمدا على ان ضعف القوة العربية الذاتية سوف يقودها ، اتقاء للضربات الاسرائيلية المتلاحقة ، الى الضغط على العمل الفدائي وتطويقه وضربه .

لقد صمدت حركة المقاومة امام هذا التكتيك الاسرائيلي في الاردن ، ولم تؤد غارات اسرائيل المتلاحقة على منطقة الاغوار الا الى مزيد من النمو في صفوفها . كما صمدت امام هذا التكتيك في لبنان . ولعل معركة العرقوب الاخيرة في شباط الماضي ، والتي استمرت اربعة أيام كاملة ، تصلح نموذجا لهذا الصمود ، ليس بمعناه العسكري فقط ، بل بما اسفر عنه ايضا من نمو للثقة بين الجماهير وحركة المقاومة ، اضعف الى حد ما ،

حملة القوى المضادة ، التي كانت تسعى باستمرار لايجاد شرخ عميق في العلاقة بين المقاومة وبين جماهير جنوب لبنان .

ولكن هذه العوامل التي ذكرناها ، والتي شكلت اطار صورة الصمود الفلسطيني تعرضت لهزات متعددة غيرت في طبيعة ميزان القوى . فأمام تصاعد حدة الصراع بين حركة المقاومة والنظام الاردني قامت الرجعية الاردنية بتحضير مجزرة أيلول ، والتي اسفرت مع نتائجها عن انهاء الوجود العلني لحركة المقاومة في الاردن ، ففقدت بذلك موقع القوة الاساسي الذي كانت تحمي من خلاله مواقع القوة الاخرى التي تملكها . وانعكس ذلك مباشرة على الوضع في الضفة الغربية ، اذ استطاعت اسرائيل أن تندفع بسرعة لوضع مخططاتها الرامية الى ابراز شخصيات محلية متعاونة معها ، على انها الشخصيات الممثلة للشعب الفلسطيني . وذلك من خلال الانتخابات البلدية ، بينما لم تكن تجرؤ هذه الشخصيات في السابق على ابراز مواقفها في ظل قوة العمل الفدائي وقدرته على الوصول اليها. وفيما يتعلق بقطاع غزة ، فان هدوء الجبهة الاردنية بعد ضرب العمل الفدائي ، أتاح للسلطة الاسرائيلية ان تتفرغ لوضع مخطط شامل لضرب المقاومة هناك ، حسب اعتراف التقرير العسكري السنوي الاسرائيلي لعام ١٩٧١ . ونتج من هذه الامور كلها ضعف واضح في القوة الذاتية الفلسطينية .

وجنبا الى جنب ، مع هذه التغيرات الفلسطينية الداخلية ، اقدمت دول المواجهة العربية على ايقاف سياسة حرب الاستنزاف، من خلال موافقتها على مبادرة روجرز الامريكية في تموز ١٩٧٠ ، وعلى ضوء توقف هذه السياسة ، لم تعد الانظمة العربية حريصة على دور حركة المقاومة العسكري، ولم تعد بالتالي حريصة على ان تبقى هذه القوة في نفس مستواها السابق .

ولم تكن اسرائيل بعيدة عن ادراك هذا التغير في الصورة العامة للوضع الفلسطيني ، وانعكاساتها على المواقف العربية منها ، فتابعت تنفيذ تكتيكها السابق لضرب العمل الفدائي ، على أساس الضغط العسكري المتواصل على الحكومات العربية . وبما ان التواجد الفدائي الاساسي بعد مجزرة الاردن قد تركز في لبنان ، فقد تم تركيز الجهد العسكري الاسرائيلي عليه ، ومنذ ان بدأت التهديدات الاسرائيلية تتوالى على لبنان ، انبرى أكثر من فريق سياسي لبناني ليطالب بالغاء اتفاق القاهرة ، تجنبا للاعتداءات الاسرائيلية !! وحين تمت هذه الاعتداءات اعتمدت مع آثارها التدميرية والنفسية ، اداة لتبرير الرضوخ للضغط الاسرائيلي ، فكان ان وجدت حركة المقاومة نفسها أمام موقفين : الموافقة على الغاء اتفاق القاهرة وهو تراجع لا تستطيع الاقدام عليه لانه يعني خسارتها لكل شيء في لبنان . او الاصطدام مع السلطة اللبنانية ، وهو ما لا تريده في ظل الظروف الفلسطينية والعربية التي اشرنا اليها . وبين هذين الموقفين اختارت القيادة الفلسطينية تجميد العمل الفدائي المنطلق من جنوب لبنان . هذا الاختيار الذي يعبر تعبيرا صادقا عن نوع توازن القوى القائم ، خاصة اذا ما قورن بتوازن القوى الذي كان قائما في عام ١٩٦٩ ، وفي داخل الساحة اللبنانية بالذات .

ضمن هذا الاطار العام يمكن ان نفهم التطورات الاخيرة التي واجهها العمل الفدائي في لبنان . ومن خلال هذا الاطار يمكن ان نستعرض ما تم من أحداث .

الموقف اللبناني — المرحلة الاولى :

منذ عملية مطار اللد الاخيرة التي قام بها ثلاثة من الفدائيين اليابانيين بتنسيق مع الجبهة الشعبية ، توالت التهديدات الاسرائيلية على لبنان . والتي أخذت احيانا شكل التهديد بالتصريحات السياسية، وأخذت في أحيان اخرى شكل التهديد بظهور القوات العسكرية البرية والجوية والبحرية امام الحدود اللبنانية وداخل اجوائها ومياهها الاقليمية . وتحت وطأة هذه التهديدات ، طالب النائب ريمون اده في البرلمان اللبناني يوم ١٣ حزيران بالغاء اتفاق القاهرة قائلا ان « اتفاق القاهرة ليس من مصلحة لبنان ، ولا من مصلحة العمل الفدائي ، لانه اعطى حجة لاسرائيل في مجلس الامن لتبرر اي اعتداء على لبنان » . ثم تابع ريمون اده حملته من خلال الصحف فأعلن في حديث لجريدة النهار نشر يوم ١٥ حزيران قال فيه ان « الغاء اتفاق القاهرة لا يغير شيئا من وجود الفدائيين في لبنان، ولا يمكن منع دخول الفدائيين الى لبنان وذلك بسبب امتداد حدودنا مع سوريا ، وعندما يوجد عندنا ٣٠٠ الف لاجيء فلسطيني بسبب اسرائيل فلا يستغرب قيام فدائيين . فهم كل يوم يفكرون

باستعادة ارضهم السليبة ، وهذا حقهم » .
وعلى الصعيد الرسمي — النيابي نفسه — رفض السيد صائب سلام رئيس الوزراء ان يدلي بـأي تصريح حول مواقـف ريمون اده مكتفيا بالقـول « سننصرف الى العمل والبناء » . امـا رشيد كرامي (المعارضة النيابية) فقد علق قائلا « ان اطماع اسرائيل في لبنان ثابتة وقائمة ، سواء قبل عقد اتفاق القاهرة ام بعد عقده » ، ورد اده على كرامي قائلا « انني اتفق مع الرئيس كرامي فيمـا ذهب اليه ، غير انني اختلف معه في نقطة واحدة هي انني اعتقد ان هذا الاتفاق يشكل حجة ضدنا في مجال القانون الدولي ، وتغطية قـد تستعملها اسرائيل لتبرير عدوانها علـى لبنان . واحب ان أوضح انني ما طالبت قط باخراج الفدائيين من لبنان ...ان مطالبتي بالغاء اتفاق القاهرة ... تستهدف تجريد اسرائيل من التذرع بوجود هذا الاتفـاق لتغطية اعتداءاتها على لبنان » .

وما يجب توضيحه هنا ان السيد ريمون اده عارض اتفاق القاهرة منذ اليوم الاول لتوقيعه ، وطـالب اكثر من مرة بالغائه ، ولذلك فان موقفه الجديد لا يثير الدهشة من حيث المبدأ بل من حيث التوقيت فقـط . وبالرغم من أن ريمـون اده يركز عـلى « القانون الدولي » لتبرير مطالبته بالغاء اتفـاق القاهرة ، الا ان هذا التركيز ليس اكثر من حجة للتبرير ، يصب في نتيجة منطقية واحدة هي الغاء العمل الفدائي في لبنان ، اذ يصبح من السهـل تماما ضرب العمل الفدائي حين يلغى اتفاق القاهرة باعتبار ان اتفاق القاهرة يمثـل اعترافا قانونيـا بشرعية العمل الفدائي في لبنان .

حادث حاصبيا : وفي الوقت الذي كانت تتوالى فيه التهديدات الاسرائيلية، وتتواتر انباء المطالبة بالغاء اتفاق القاهرة انفجر الوضع في « حاصبيا » بجنوب لبنان نتيجة لحادث عادي انتهى بمأساة . فحسب رواية رجال الامـن فقد ذهبت فتاتان من اهالـي البلدة برفقة احد الفدائيين للانضمام الى منظمـة فتح . وقد قام مسؤول فتح باعادتهما فورا الـى ذويهما بحضور الدرك ، ولكن شقيقهما استاء من الحادث وقام بقتلهما . وادت هذه الصدمة المؤلمة الى هيـاج في حاصبيا تجمع على أثره الاهـالي وتظاهـروا واطلقوا العيارات الناريـة واعلنوا الاضراب (١٧ حـزيران) ، ثم طالبوا بابعـاد الفدائيين عن القرية (١٨ حزيران) . وفي محاولة لتهدئة الوضع اصدرت « محكمة الثورة » قـرارا موقعا من قبل السيد ياسر عرفات بالذات يقضي باعدام الفدائي الـذي رافق الفتاتين في ساحـة حاصبيا « ليكون عبرة لسواه وللتأكيد علـى ان الثورة لا تتساهل مع مشوهي سمعتها » . وكانت ردود الفعل على هذا القرار كما يلي :

— رفض أهالي البلدة ، بوعي كبير ، الموافقة على اعدام الفدائي ، واتصلوا بقادة الفدائيين وحاولوا اقناعهم بذلك ، والعمل على تهدئة الوضع بحكمة وروية .

— عارضت الدولة اعدام الفدائي من قبل الفدائيين لانها هي المسؤولة عن محاكمته وليس اي جهـة أخرى ، وطلبت تسليمه لسلطات الامن ، معتبرة ان ما اقدم عليه لا يستوجب الاعدام .

— ظهر عدم ارتياح ملحوظ في الاوساط الفلسطينية لحيثيات قرار الاعـدام التي ركزت على مخالفـة الفدائيين للتقاليد الاخلاقية والدينية ، معتبرة ان هذا الموقف رضوخ للتقاليد الاخلاقية التي تجعـل « العرض أهم من الارض » وليس ثورة عليها . ونتيجة لكل ذلك لم يعدم الفدائي في حاصبيا ، ولا زال معتقلا حتى الان .

وقد برز هذا الحادث في حاصبيا على انه موجـه أساسا ضد وجود العمل الفدائي وعملت كثير من الصحف على ابراز هـذا الجانب من الموضوع ، ولكن افضل تصوير لموقف اهـل حاصبيا عبر عنه الناطق بلسان الوجهاء والشيوخ فيها حين قـال في ١٩ حزيران « ان المصاب الاليم .... لم تتخذ منه البلدة ذريعة ضد العمل الفدائي الشريف ككل. وهي كانت ولا زالت نصيرا للعمل الفدائي .... وهي تحيي العمل الفدائي وتحيي قـواده .... وتضع امامهم الحقائق الاتية : ١ — وجود قواعد للفدائيين في المنطقة الزراعية لا يخلو من الخطر . ٢ — وجود قواعد في المنطقة السكنية لا يخلو من الخطر » .

وبذلك ينحصر موقف اهل حاصبيـا في أن يتمركز الفدائيون خارج البلدة فقط ، ولا ينزلق الى رفض وجود العمل الفدائي في المنطقة ، رغم الجو الحاد الذي اثير واستغل بهذا الاتجاه .

التهديد والاعتداء : وقد لوحظ انه في جو هـذه الازمة بالذات بادرت اسرائيل الى تصعيد تهديداتها للبنان ، في محاولة مكشوفة منها لاستغلال الحادث

الى ابعد حد ، فأعلن دايان يوم ١٨ حزيران ، اي في اليوم الثاني لحادث حاصبيا ، ان لبنان « اصبح أحد أهم مراكز العداء العربي لاسرائيل .... اذ تحول الى مركز للنشاط الارهابي الفلسطيني » . وقالت صحيفة يديعوت احرونوت في نفس اليوم « ان الفدائيين الذين غادروا قواعدهم في جنوب لبنان بعد حادث اللد !! بدأوا يعودون اليه عندما رأوا ان اسرائيل لم تقم بأي عملية انتقامية » . ثم اعلنت اسرائيل يوم ٢٠ حزيران ان الفدائيين استأنفوا نشاطهم من الاراضي اللبنانية ، فقصفوا سيارة ركاب سياحية في منطقة جبل الشيخ ، وزرعوا لغما اصطدم به جنديان اسرائيليان في نفس المنطقة . وقال المعلق الاسرائيلي لاذاعة اسرائيل ان هذين الحادثين يشكلان « تطورا خطيرا » وحمل لبنان مسؤولية ذلك . وارفقت اسرائيل هذا التهديد للبنان بتقديم مذكرة احتجاج الى مجلس الامن . ولم تكن كل هذه التهديدات الا تمهيدا للاعتداء على لبنان . ففي ٢١ حزيران تعرضت حاصبيا بالذات لاعنف اعتداء اسرائيلي شهده جنوب لبنان، تركز بشكل خاص على المدنيين ، واسفر عن اكثر من ٥٠ قتيلا و ٧٥ جريحا بالاضافة الى التدمير الواسع الذي اصاب البلدة . ثم تعرض لبنان لاعتداء اخر يوم ٢٣ حزيران حيث قصفت بالمدفعية مناطق مرجعيون ودبين ومجدل سلم ، ثم اغارت الطائرات على دير العشائر حيث قتل حوالي ٤٠ شخصا ودمر عدد كبير من منازل البلدة .

وفي الساعات الاولى للعدوان على لبنان ، خطفت اسرائيل ٥ ضباط سوريين كبار مع ضابط لبناني كان يرافقهم عند بلدة رامية ، اثناء زيارة تفقدية للمنطقة . والضباط هم (اللواء ادهم علواني من فرع العمليات في رئاسة الاركان العامة — العقيد رضوان علوش والعقيد نذير جراح من فرع العمليات — العقيد رفيق الشوربجي والعقيد وليد رباطي من دائرة استخبارات السلاح الجوي — النقيب اللبناني جوزيف ابو ناصيف) ، وقتل في هذا الحادث جنود الحراسة اللبنانية الاربعة .

الموقف اللبناني — المرحلة الثانية :

ما أن بدأ العدوان الاسرائيلي على لبنان حتى عاد حديث « اتفاق القاهرة » الى البروز بشكل حاد ، وأصبحت وجهة نظر ريمون اده التي قوبلت بالتحفظ من بعض الاوساط الحكومية في البداية ، منطقا شائعا لدى اكثر من جهة رسمية . فمنذ ٢١ حزيران ، اي منذ اليوم الاول للعدوان عقدت اجتماعات متعددة : اجتماعات بين رئيس الوزراء والمقاومة ، واجتماعات لمجلس الدفاع اللبناني بحضور رئيس الجمهورية ، واجتماعات للكتل البرلمانية المختلفة ، واجتماعات عربية (عمر السقاف) مع المسؤولين اللبنانيين .

وكان مجرى الحوار في هذه الاجتماعات ، الموقف من اتفاق القاهرة ، والموقف من الوجود الفدائي في لبنان . بين فريق يدعو لالغاء الاتفاق ، وفريق يدعو لاعادة النظر فيه واستبداله باتفاق اخر ، وفريق يعارض ويحذر من نتائج التعرض لاتفاق القاهرة . والى جانب هذه المواقف الاساسية ، برزت مواقف اخرى تدعو للتنسيق بين الجيش والفدائيين او تدعو لاخلاء قرى الجنوب منهم (ريمون اده) وذلك لان مبرر وجودهم حسب قوله قد انتفى اذ اقامت اسرائيل خطا مكهربا على طول الحدود يمنع الفدائيين من العبور الى اسرائيل ، وفي نفس الوقت فان استعمال الصواريخ من وراء الحدود ممنوع حسب اتفاق القاهرة . بالاضافة الى مواقف اخرى ترى عرض القضية على الجامعة العربية ، او ايفاد بعثة وزارية الى العواصم العربية لشرح الوضع .

وقد أبلغت المقاومة رسميا بالموقف اللبناني هذا في اجتماع عقد يوم ٢٢ حزيران بين صائب سلام وياسر عرفات عرض فيه سلام موضوع العمل الفدائي « وما يجره من نتائج خطرة على لبنان » ، بينما عرض عرفات وجهة نظر مضادة تقول « ان اطماع اسرائيل في لبنان ليست جديدة ، واعتداءاتها ليست ردة فعل على اعمال الفدائيين » . وعلقت نشرة (وفا) على الجو السائد قائلة ان المقاومة ترفض كل حديث عن الغاء اتفاق القاهرة او تعديله « بحجج واهية وبذرائع مرفوضة من اساسها » . ثم ابلغت المقاومة مرة اخرى بالموقف اللبناني بحضور وساطة سعودية . ففي يوم ٢٣ حزيران اجتمع صائب سلام وعمر السقاف وياسر عرفات . وقد مهد لهذا الاجتماع السيد عمر السقاف نفسه، ووصفته الصحف بأنه سيكون اجتماعا حاسما ، اذ يقوم السقاف بوضع صيغة جديدة لتنظيم العلاقات بين الجانبين ، وقد انتهت هذه الاجتماعات حسب رواية الصحف الى النتائج التالية : ١ — رفض الفدائيون الغاء اتفاق القاهرة أو استبداله باتفاق اخر . ٢ — رفض الفدائيون

الانسحاب الكلي او الجزئي من جنوب لبنان . ٣ ــ وافق الفدائيون على تجميد العمل العسكري مؤقتا من لبنان . ٤ ــ وافق الفدائيون على الانسحاب من المناطق السكنية والمناطق الزراعية الى مناطق أخرى لتخفيف اضرار القصف الاسرائيلي علـى السكان المدنيين في المستقبل .

ومن الملفت للنظر ان صحيفة معاريف الاسرائيلية قالت يوم ٢٢ حزيران « ان الهجوم الاسرائيلي على لبنان ستكـون له نتائج حاسمة علـى الصعيـد السياسي اكثر منه علـى الصعيد العسكري » . وطلب لبنـان بالغاء اتفاق القاهـرة هو جوهـر الموضوع « السياسي » المختلف عليـه ، وهو بالـذات الموضوع الـذي تريد اسرائيل البت به بصورة حاسمة ، ولذلك فان ابسط وصف للموقف اللبناني في الاجتماعـات انه مثل رضوخا كامـلا للضغط الاسرائيلي ، ساعد الرفض الفلسطيني على ابقائه في نقطة التوازن .

ولكن هذه الصورة التي عرضـناها للموقف اللبناني اقتصرت على الموقف الرسمي ، بينما كان هنــاك بالمقابل موقف اخر عبرت عنه القـوى الوطنيـة والتقدمية . ففي ٢٣ حزيران عقد النائب عبد المجيد الرافعي مؤتمرا صحفيا اعلن فيه رفض كل المحاولات لالغاء اتفاق القاهرة « كمرحلة اولى من أجل تصفية العمل الفدائي في لبنـان » . ورد في مؤتمره على موقف ريمون اده قائلا انه يريد رأس المقاومة بعد الغاء اتفاق القاهرة . وان المطلوب بدلا من ذلك : ١ ــ تعزيز الـدفاع الوطني ٢ ــ تعزيز الدفاع الذاتي لابناء الجنوب ٣ ــ تنفيـذ مشـاريع انعاش الجنوب .

وعقدت الاحزاب اللبنانية اكثر من اجتماع لبحث الموقف واصدرت يوم ٢٤ حـزيران بيانا مشتركـا هاجمت فيه الرجعية اللبنانية « التي تشـن حملـة مسعورة مؤداها ان الوجود الفدائي على ارض لبنان هو سبب الاعتداءات الاسرائيلية » . وقيل ان الاحزاب عرضت على حركة المقاومة بالتفصيل الخطـة العملية التي تراهـا لمواجهة الوضــع الناشيء ، سواء على صعيـد مواجهة الحملـة السياسية المضادة للعمل الفدائي ، او على صعيد تمتين العلاقات بين الفدائيين والسكان في قـرى الجنوب .

وبحصيلة هذا الوضع كله ، تكون حركة المقاومة قد واجهت ازمة حادة في لبنان اجبرت فيهـا على القيام بتراجع محـدود فرضته في الظرف الراهن حصيلة توازن القوى الفلسطينية والعربية . ولذلك فان مناقشة هذا التراجع بحثا عن موقع فلسطيني أقوى لا يمكن ان تكون مجدية الا اذا قامت باعادة نظر شاملة لمجمل اتجاهات المسيرة التي اوصلت توازن القوى الى صورتهـا الراهنة . وباعــادة النظر الشـاملة هذه ، سيتأكد بدون شك أن الكثير من المسلمات قد اصبح بحاجة الى مسلمات بديلة .

بلال الحسن

(٢) القضية الفلسطينية عربيا

تشهد الساحة العربية في هذه الايام مسلسلا جديدا من مسلسلات تصفية حركة المقاومة . واذا كان المسرح الرئيسي هو أرض لبنان ، فان المسرحية التصفوية هي مسرحية عربية الوجه واليد واللسان . والمسرحية الحالية ليست مسرحية مبتكرة . انها تكرار لمسرحيات سابقة . وهذا ما يجعل الجمهور عارفا بكل خفاياها ، حتى ما يدور في الكواليس .

الموضوع الاساسي للمسرحية معروف بالطبع ، انه حسب اللغة الرسمية المستعملة : التنسيق بين المقاومة والانظمة المعنية . وهو حسب ما تردده الصحافة السلطانية : عودة المقاومة الى السرية ، لتكون أقدر على مواجهة العدو ، ولتجعل العدو أعجز عن ملاحقتها وضربها .

فما الذي يعنيه هذا كله ؟ ماذا يعني التنسيق من وجهة النظر الرسمية في لبنان مثلا ؟ وما الذي تعنيه العودة الى السرية ؟ ولماذا تهلل اوساط معينة للتنسيق والسرية .

ان الاجابة على هذه الاسئلة ضرورية وهامة ، لانها تكشف ما وراء الاكمة . ومع أننا تعرضنا لهذه القضايا في هذه الزاوية مرارا ، فان العودة اليها لازمة ، لانها القضايا المطروحة سياسيا وصحافيا وفي المناقشات العامة ، في هذه الايام ، ولان الطرح غطاء لاستمرار عملية التصفية .

التنسيق : عادت الدعوات المحمومة الى التنسيق بين لبنان الرسمي والمقاومة الفلسطينية ، بعد الاعتداءات الاسرائيلية على جنوب لبنان . وقد لخصت احدى المجلات القضية كما يلي : « لقد قام جماعة الجبهة الشعبية — احمد جبريل — باطلاق قذيفتي بازوكا على مستعمرة اسرائيلية ، فتحركت الطائرات الاسرائيلية مستغلة الفرصة ، وكان ما كان من قتل وتدمير وخطف ، وشهداء بلغوا المائة قتيل ، وجرحى تجاوزوا المائتين على اقرب تقدير ... » (الجديد ، رقم ٢٩١ ، ٧٢/٧/٧) . وهكذا بدأ الحديث عن التنسيق ، وبدأت الدوائر الرسمية تطالب باجتماعات يتم الاتفاق فيها على التنسيق . ففي اي الظروف تمت هذه الاجتماعات ؟ لقد تمت هذه الاجتماعات في ظل الظروف التالية : **اولا** : كان العدو الصهيوني يهدد باحتلال جنوب لبنان . وكان يقوم بعمليات ارهاب وتقتيل وحشية (حاصبيا ، دير العشائر الخ) . **ثانيا** : كان هناك ، من ينادي بالغاء اتفاق القاهرة . وعلى رأس هؤلاء العميد ريمون اده (البلاغ ٧٢/٦/١٩، العدد ٢٤) . لقد حاول العميد ان يظهر اتفاق القاهرة على انه « الخطأ اللبناني » او « السبب اللبناني » تجاه اسرائيل . ولقد ايدت بعض الاوساط هذه الدعوة ووصل الامر بأحدى المجلات ان تقول : « فالدعوة الى الغاء اتفاق (القاهرة) باركته جميع الاطراف العربية ، واعتبرته بمثابة الحل الممكن لتنسيق العلاقات بين السلطات اللبنانية والفدائيين » (الجديد ، ٢٨٩ ، ٧٢/٦/٢٣) . **ثالثا** : كان هناك من يصرح علنا ، بأن استمرار انطلاق العمل الفدائي من جنوب لبنان ، سيقود الى احتلال جنوب لبنان ، بينما لا يملك الفدائيون قدرة على رد هذا الاحتلال . وبينما تقف الدول العربية متفرجة . وكان يجري التركيز في هذا المجال على اشعار المقاومة الفلسطينية بأنها ستكون مسؤولة عن ضياع جنوب لبنان اذا استمرت . وكان هنالك من لا ينسى يقول : ان وجودكم في جنوب لبنان لن يحرر فلسطين ، وسيقود الى سقوط الجنوب في قبضة الاحتلال الصهيوني . **رابعا** : وانطلقت اصوات مختلفة في هذا الوقت عينه ، تطالب العمل الفدائي بالعودة الى السرية ، اي بالغاء وجوده (الاهرام، ٧/٢ احمد بهاء الدين ، الاخبار ٧/١ احسان عبد القدوس ، المحرر ٧/٢ ابراهيم مرعي) . **خامسا** : وحاولت اوساط معينة ان تخلق جوا شعبيا معاديا للمقاومة ، فاستغلت حادثة حاصبيا ، واخذت تحرض بخبث من اجل استنفار قطاع من الجماهير ضد المقاومة . **سادسا** : وكان هناك من يصرخ بأعلى صوته في هذا الوقت بالذات ، معلنا ان العرب غير قادرين على عمل شيء ، لان الولايات المتحدة قد رمت بكل ثقلها وراء دولة الاحتلال الصهيوني ، ولان الدول العربية غير موحدة ، وغير قادرة على مواجهة التحدي الامبريالي الصهيوني . وفي هذا الجو تمت اجتماعات التنسيق . وطبيعي ان يكون معنى التنسيق في مثل هذه الحالة أن تكيف ارادة المقاومة مع خطة الانظمة . وما دام النظام اللبناني عاجزا وغير قادر على المجابهة ،

فان التنسيق سيعني ان تتكيف المقاومة معه . وهكذا كان على الفدائيين ان يدفعوا « ثمن الرضوخ العربي لاعتداءات اسرائيل » (البلاغ العدد ٢٦ ، ٧٢/٧/٣) .

لقد كان الهدف الاساسي لاعتداءات دولة الاحتلال على لبنان ان يلغى اتفاق القاهرة ، وان تقوم الدولة في لبنان بتصفية المقاومة ، كما فعل الاردن. هذا ما ردده المسؤولون في دولة الاحتلال مرارا . وقد استجابت حكومة لبنان لمطالب دولة الاحتلال فطرحت وجود المقاومة على بساط البحث .

وصحيح ان لبنان هذه المرة لم يطالب بانهاء « الوجود المقاوم » ، ولكنه طالب بالتنسيق الذي يعني : « أين يتمركز الفدائيون ... كيف يعملون ... ما هي المناطق التي يتواجدون فيها ... ما هي عقوبات من يخرق الاوامر ... » (الجديد ، العدد ٢٩١ ، ٧٢/٧/٧) . وهذا التنسيق هو المطلوب في هذه المرحلة ، لانه يستهدف خلق : « المقاومة المشروعة » التي من اولى مسؤولياتها الوحدة فيما بينها وتوثيق الصلة مع الاهل في الضفة الغربية المحتلة وتحقيق الانسجام الاكبر مع العمل العربي الموحد ... » (الجديد ، العدد ٢٨٧ ، ٧٢/٦/٩) .

وهذا التنسيق الاكبر مع العمل العربي الموحد هو العلة . لماذا ؟ لان العمل العربي الموحد يعني الان الاتفاق على عدم القتال ، الاتفاق على تجميد الارادة الفلسطينية المقاتلة . وهنا يكمن المقتل في التنسيق . فالتنسيق ليس خطوة لتوحيد الجهود على طريق القتال والتحرير ، بل خطوة على طريق تطويق المقاومة ومحاصرتها . انها خطوة من اجل خلق « المقاومة المشروعة » .

ويجب ان يكون واضحا ان هذه الخطوة املاها عاملان سلبيان ، اولهما : الضغط الاسرائيلي المادي والمعنوي من اجل تصفية الوجود المقاوم . وثانيهما : العجز اللبناني الرسمي عن المواجهة . ولذلك لم يكن غريبا ان يتم الاتفاق على ما تم عليه (المحافظة على اتفاقية القاهرة ، ايقاف عمليات الحدود ، تقليص الوجود الفدائي في الجنوب) . ولكن الاتفاق الجديد ، وان كان قد تم ضمن اتفاق القاهرة ، فانه يستهدف انهاء المقاومة التي عقدت اتفاق القاهرة . لان اتفاق القاهرة كرس شرعية الوجود المقاوم في لبنان ، على انه وجود ثوري مستقل ، قادر على ان يثبت وجوده ، اما الاتفاق الجديد فيحاول ان يحد من حرية حركته . مع أن حرية الحركة هي الهدف الاساسي للوجود في جنوب لبنان .

ولبنان يبرر هذا كله ، يبرره بعجزه الذاتي ، ويبرره بالمخططات التوسعية الاسرائيلية . ولبنان لديه حجة ، « وحجة قوية ، وهي ان العمل الفدائي بعد ان تجمدت الجبهات العربية لم يعد أمامه سوى لبنان ، ولبنان فقط ، فهل من المعقول ان يصبح الجنوب اللبناني هو الخط الساخن الوحيد على جبهات القتال العربية ؟ » (الجديد ، العدد ٢٩١ ، ٧٢/٧/٧) .

أما المقاومة فان لديها مبرراتها ايضا ، وهذه المبررات لا تختلف كثيرا عن المبررات اللبنانية . وهذه المبررات هي ١ — العجز الذاتي ٢ — هجمة التصفية الامبريالية الاسرائيلية الرجعية الشرسة ٣ — ركود الجبهات العربية. ولهذا وجدت المقاومة نفسها مضطرة للتراجع خطوتين الى الوراء ، دون ان يكون هنالك امل واضح بخطوة واحدة الى الامام ، ضمن الظروف الحالية .

والصراع الدائر الان بين المقاومة والانظمة يتلخص فيما يلي : هل تصبح المقاومة ارادة المنطقة العربية ام انها ستتكيف مع وضع المنطقة ؟ هل تصبح عامل تغيير للاوضاع العربية القائمة ام انها ستتكيف مع الاوضاع القائمة ، وسترضى بدور هامشي في كنفها ، هو أشبه ما يكون بدور الهيئة العربية العليا بعد سنة ١٩٤٩ ، مع اختلاف الظروف والادوار ؟

هذا هو الصراع الدائر الان . وعلى المقاومة ان تختار طريقها بوعي ، ذلك أنها أمام خيارين لا ثالث لهما . فاما ان تتحد مع الجماهير العربية ، وتمثل ارادتها المقاتلة ، او ان تتعايش مع الواقع وتخون تضحياتها .

والاتفاق الذي تم الوصول اليه في لبنان ليس حلا ، انه « اتفاق سيبقى معرضا دائما لازمة اخرى قد تنتهي بالصدام بدلا من الاتفاق ... » (الاخبار ٧٢/٧/١) . ذلك ان القوى المصممة على التصفية سوف تدفع نحو ازمة اخرى . وستكون المقاومة مطالبة بخطوتين اخريين الى الوراء او القتال دفاعا على وجودها . ولن تعوز دولة الاحتلال المبررات للقيام بهجمات اخرى ، ولن تعوز لبنان الرسمي المبررات للمطالبة بتنازلات اخرى .

السرية : عاد التركيز من جديد على قضية عودة العمل الفدائي الى السرية بعد الهجمات الاسرائيلية الاخيرة على لبنان . والدعوة الى العودة الى السرية ليست جديدة ، فقد تحدثنا عنها مرارا ايضا في هذا الباب . ومن الضروري ان نشير الى أنها دعوة رافقت عمليات تصفية المقاومة بعد ايلول . ولقد جرى التركيز عليها كثيرا خلال محادثات جدة .

وتعود القضية اليوم الىواجهة الصحف والمجلات. ولكن عودتها اليوم تحمل طابعها الجديد . ذلك أن هذه الدعوة كانت فيما سبق من عمل الرجعية العربية . الاقلام الرجعية والدوائر الرجعية هي التي تبنت الدعوة الى العودة السرية فيما مضى . اما اليوم فان الدعوة قد حظيت بمؤيدين جدد. ومن هؤلاء المؤيدين الجدد كتاب مثل احسان عبد القدوس واحمد بهاءالدين وابراهيم مرعي (ذكرنا المراجع سابقا) .

ويقتضي اتساع رقعة الداعين الى العودة الى السرية ان نعود الى مناقشتها مجددا . ان نناقش ما الذي تعنيه السرية بالنسبة لهؤلاء ، ولماذا يطرحون العودة الى السرية الخ .

يقول احسان عبد القدوس : « اما العمل الفدائي فلا يمكن ان يقوم ، بل لا يمكن ان يحقق اهدافه، الا اذا كان قائما على تنظيمات سرية ، لا يعرف أحد أين توجد ، ولا من أين تنطلق ، (الاخبار ٧٢/٧/١) .

ويقول احمد بهاء الدين : « ان اهم شرط للمقاومة في العالم كله هو : الاختفاء تحت الارض . وقد كان من الاخطاء الاساسية في حركة المقاومة منذ البداية أنها ، ربما من باب حسن الظن بالظروف، كانت علنية ، ظاهرة ، جسدها مكشوف كله ، واتخذت شكلا اقرب الى الجيوش النظامية منها الى الحركات الفدائية والمقاومة . في حين ان هذا الوجود (تحت الارض) مرحلة طويلة لا بد منها في حياة حركة التحرير ، ولا تتطور الى الوجود الظاهر والكثيف الا بعد زمن طويل ... » (الاهرام ٧٢/٧/٢) .

ويقول ابراهيم مرعي : « نطالب المقاومة باعادة تنظيم نفسها بالعودة الى السرية على الارض العربية وخارجها ، وبذلك تتحول الى قوة تعجز اسرائيل عن ملاحقتها ، او التحريض على ضربها خصوصا اذا انحصرت العمليات الفدائية داخل الارض المحتلة ، وبنسبة كبيرة » (المحرر ٧/٤/ ٧٢) .

ولا بد لنا هنا من ان نبين الحقائق التالية : اولا : ان الاراء المطروحة حول السرية والعلنية لم تجيء نتيجةاستقرار لتجارب الثورات ولواقعثورتنا، بل جاءت تحت ضغط مشكلة الابتزاز الاسرائيلي ، وعجزنا عن مواجهته . وما دامت دولة الاحتلال تتذرع بالوجود المقاوم في تبرير اعتداءاتها ، فلماذا لا يكون الحل في العودة الى السرية . ولكن عن اية سرية يتحدثون ؟ وما هو العمل الذي يجب ان يصبح سريا ؟ وهل على المقاومة ان تقصر نشاطها على العمل السري فقط . هذا ما نرى التركيز قائما عليه في هذه الايام . ثانيا : صحيح ان اهم شرط للمقاومة هو الاختفاء تحت الارض ، ولكن الصحيح أيضا ، وهذا ما تعلمنا اياه الثورة في الصين وفيانتام وكورية وكوبا ويوغسلافيا الخ ان المقاومة هي مزاوجة العمل السري والعلني ، الشرعي وشبه الشرعي وغير الشرعي ، وان المقاومة هي عمليات عسكرية وعمل سياسي جماهيري ، وهي تتخذ اشكالا مختلفة من الوجود حسب الظروف التي تعيشها . فوجودها في مناطق سيطرة العدو ، غيره في المناطق المحررة او المناطق شبه المحررة . ثالثا : أن علنية الوجود ليست نقيضا لسرية العمل ، وان العمل السري تمكن ممارسته مع علنية الوجود . كما ان علنية الوجود ليست شرا كلها ، ولا هي ظاهرة منحرفة . انها ظاهرة طبيعية ، ومرحلة متقدمة من مراحل العمل الثوري وانجاز من انجازاته ، لا يجوز التنازل عنها أبدا ، ولا بد من الدفاع عنها دفاعا بطوليا .

لنأت بعد هذا كله الى الواقع الفلسطيني . لقد عاش الشعب الفلسطيني سنوات من المذلة والاضطهاد ، بعد النكبة . ثم حدثت الانطلاقة سنة ١٩٦٥ . بدأ العمل سريا ، وظل كذلك حتى معركة الكرامة في ٦٨/٣/٢١ . ومنذ ذلك التاريخ بدأ العمل يحقق سيطرة في المخيمات والمدن والقرى ، وأخذ يبرز قوة منظمة مسلحة . ومن هنا فرض وجوده العسكري : قواعد تمتد من العقبة في جنوب الاردن الى الناقورة في جنوب لبنان ، وفرض وجوده السياسي من خلال تنظيماته الشعبية في القرى والمدن . هذا خارج الارض المحتلة ، اما داخل الارض المحتلة فقد نما الوجود السياسي والعسكري

للمقاومة ، حتى أصبح وجودا شبه علني في قطاع غزة . في مرحلة من المراحل . وكان الاتون من غزة يقولون : « غزة يحكمها الاسرائيليون في النهار والفدائيون في الليل » .

ولكن هذا الوجود العسكري السياسي تعرض لهجمة تصفية شرسة ، وكانت هذه الهجمة تتلخص في التالي :

آ — خارج الارض المحتلة :

دولة الاحتلال تقوم بعملية على ثلاثة محاور : الاول : قصف مستمر ومركز لقواعد المقاومة . الثاني : قصف واعتداءات على السكان في مناطق الحدود لاخراج السمكة من الماء . الثالث : الضغط المستمر على الحكومات العربية من اجل دفعها الى تصفية المقاومة .

القوى المضادة للثورة وعلى رأسها النظام الهاشمي العميل : تقوم بعملية ذات ثلاثة محاور : الاول : محاولة الفصل ما بين المقاومة والسكان بمختلف الوسائل (نعرات اقليمية ، التشكيك بقدرات المقاومة وامكانياتها ، استغلال الاخطاء الخ) . الثاني : محاولة انهاء الوجود السياسي للمقاومة بتصفية وجودها في المدن والقرى والمخيمات ، بحجة ان المقاومة يجب ان تتجه الى الداخل . الثالث : محاولة تصفية الوجود السياسي والعسكري للمقاومة بواسطة المعارك الدموية .

ب : داخل الارض المحتلة :

تقوم دولة الاحتلال بعملية ذات محاور متعددة : الاول : يتجه الى قمع كل القوى المنظمة والمقاتلة قمعا وحشيا بربريا . الثاني : يتجه الى «تهدئة» قطاعات واسعة من السكان باستخدام اسلوبي الترهيب والترغيب استخداما ذكيا ومرنا . الثالث : خلق حقائق راهنة في الاراضي المحتلة اهمها التعايش السياسي والاقتصادي والاجتماعي ما بين دولة الاحتلال والسكان العرب تحت الاحتلال ، وما بين دولة الاحتلال والدول العربية .

ولقد استطاعت قوى التصفية بمثل هذه الهجمات الشرسة ان توجه ضربات قاصمة الى وجود المقاومة في الاردن ، وان تربك وجودها في غزة والارض المحتلة . وهي الان تلاحق وجودها في سورية ولبنان .

فما هو الحل ؟ هل يكون بالعودة الى السرية فقط ؟ يبدو ان الذين يتحدثون عن العودة الى السرية يتجاهلون ما يلي :

اولا : ان العودة الى السرية تعني العودة الى السرية خارج الارض المحتلة ، وفي سورية ولبنان بالضبط ، لان وجود المقاومة العلني متجسد فيهما. ولان المقاومة داخل الارض المحتلة ليست علنية . فماذا تعني العودة الى السرية هنا ؟ تعني : آ — حل القوات الموجودة ، وهي قوات تبلغ الالاف من حيث العدد ، او ضمها الى الجيوش النظامية . ب — انهاء السيطرة على المخيمات ، وحل الميليشيا الشعبية واقفال المكاتب والمؤسسات والمنظمات الشعبية .

هذا ما تعنيه العودة الى السرية ظاهريا ، ولكن ما نعنيه واقعيا هو : آ — حل القوى المنظمة والمسلحة ، الممثلة لارادة القتال ، والمتحدية لكل القرارات الاستسلامية ولكل الواقع الاستسلامي. ب — حرمان الجماهير الفلسطينية من طليعتها المنظمة والمسلحة ، مهما كانت عيوبها ، واخضاع الجماهير الفلسطينية الى الواقع الاستسلامي في المنطقة .

ذلك ان وجود المقاومة خارج الارض المحتلة لا يستهدف اشراك الجماهير الفلسطينية في القتال ضد دولة الاحتلال فحسب ، ولا يستهدف تكوين قواعد ارتكاز للعمل في الداخل فقط ، انه يستهدف ايضا مقاومة الواقع الاستسلامي العربي. والذين يدعون الى التعايش ما بين الواقع العربي والمقاومة يتجاهلون هذه الحقيقة ، ويتجاهلون ان المقاومة قامت لتكون عامل تثوير في المنطقة . وان دورها لا يقتصر على أن تكون صوتا في الامم المتحدة والمنابر الدولية ، ضمن خط الانظمة العربية ، ولا أن تكون مجموعات كوماندوس ومجموعات استطلاع للجيوش العربية تعمل ضمن استراتيجيتها . ان دورها السياسي والعسكري هو دور الطليعة الممثلة لارادة القتال والتحرير ، المثورة للجماهير العربية ، الموحدة لقواها الوطنية من أجل خوض المعركة المصيرية الحاسمة .

ثانيا : ان العودة الى السرية لا تمنع دولة الاحتلال من ممارسة سياسة العدوان والتوسع . وهنالك امثلة عديدة تؤكد هذه الحقيقة . ومن هذه الامثلة : آ — اعتداءات دولة الاحتلال على

الضفة الغربية من الاردن ، في السنوات ١٩٥٠ — ١٩٥٤ ، بسبب قيام جماعات سرية بالتخريب داخل الارض المحتلة . ب — ردود دولة الاحتلال الانتقامية على اعمال الفدائيين في السنوات ٥٥ و٥٦ . ولقد كانت هذه المجموعات مجموعات سرية جدا ، ولم يكن لديها مراكز علنية . ولقد تبنت اسرائيل ، كما يقول دايان « سياسة انتقام » او ، لنكن اكثر دقة ، سياسة رد عسكري (لان هذه السياسة لا تأخذ الشكل ذاته الذي تتخذه هجمات الفدائيين على المدنيين) . فبعد موجة من اعمال القتل التي يقوم بها الفدائيون ، تقطع وحدة من الجيش الاسرائيلي الحدود ، وتضرب هدفا عسكريا — معسكرا للجيش او قلعة للبوليس — في المنطقة العربية التي جاءت منها جماعة الارهاب . ان الغرض من هذه السياسة كان ان نري العرب ، انه في الوقت الذي قد لا تكون فيه اسرائيل قادرة على حماية حياة كل سائق جرار يحرث حقلا قرب الحدود ، او منع لغم طريق وعرة الى قرية من قرى المهاجرين ، فان البلد المسؤول عن المخربين سوف لا يكون آمنا مطمئنا . وعندما تقوم قوة اسرائيلية بعملية داخل الاراضي العربية دون أن يكون الجيش المحلي قادرا على أن يجابهها مجابهة جدية ، فان الفشل العسكري العربي يتكشف واضحا لشعبهم . وهكذا ، فبدلا من ان ترفع اعمال الفدائيين مكانة الانظمة العربية تكون نتيجتها النهائية ان تهز الثقة الشعبية فيهم وفي قواتهم المسلحة »[1]. ج — منذ انطلاق الثورة في اول يناير سنة ١٩٦٥ ، وحتى معركة الكرامة كانت الثورة تمارس عملا سريا ، ومع ذلك قامت دولة الاحتلال بعدد من الاعتداءات على الاراضي العربية . انطلاقا من المنطق الذي اوردناه سابقا. وكانت دولة الاحتلال تبتز الدول العربية كما تبتزها حاليا . ولم يكن يفيد لبنان مثلا ان يصرح رسميا : « انه لم يحصل اي « تسلل » من لبنان الى اسرائيل ، وان السلطات اللبنانية تؤكد عدم صحة المزاعم الاسرائيلية بهذا الشأن » . كما لم يكن يفيد لبنان ان تعلم وزارة الخارجية اللبنانية : « الدبلوماسيين الغربيين عن التدابير الصارمة التي اتخذتها السلطات اللبنانية لتمنع دخول الحدود الجنوبية الا باذن عسكري خاص ، وان عددا من المشتبه بأمرهم احتجزوا لاجراء التحقيق معهم »[2].

وقد اعلن اشكول ، بعد ايام من انطلاق الثورة الفلسطينية ان اسرائيل « لن تتحمل » ازدياد تدهور الوضع على « حدودها » مع سورية والاردن[3]. كما اعلن بيغال الون وزير العمل الاسرائيلي ، « في خطاب القاه في حفلة تكريم الجنود الذين قاموا بالعدوان الاخير على الاردن » ، ونشر يوم ٦٥/٦/١٤ « ان سبب الحملة يعود الى ان السلطات الاسرائيلية قدمت للاردن قائمة بأسماء اعضاء منظمة فتح ، ولكن الاردن لم يتخذ أي اجراء للتحقيق مع اصحابها »[4]. ولقد صرح احد العاملين في منظمة التحرير في اوائل حزيران سنة ١٩٦٥ بما يلي : ان « العمل التخريبي » الذي تقوم به منظمة العاصفة في اسرائيل « ان لم يضر القضية فانه لا يفيدها » . والحرب « يلزمها تخطيط ودراسة وتمرين واستعداد كامل » ولان اسرائيل « اذا استثيرت فقد تضرب ضربات كبيرة على حدود البلاد العربية التي تكون غير مستعدة لرد الهجوم »[5].

وهكذا نجد ان اعتداءات دولة الاحتلال واحدة حين يكون العمل سريا ، او حين يكون وجود المقاومة علنيا في البلاد العربية . ذلك ان دولة الاحتلال ستظل تعتبر المشكلة خارجية ، وستظل تتجه باعتداءاتها الى الخارج ، الى اليوم الذي تصبح فيه الانظمة العربية اجهزة أمن فعالة لمصلحة العدو ، تلاحق « المخربين » وتسحق جذورهم ، وتعمل حسب ما تخطط لها المخابرات في دولة الاحتلال .

ما دام الامر كذلك فما الذي تهدف اليه الدعوة الى السرية ؟

انها تهدف اولا واساسا الى انهاء الوجود الشعبي للثورة والقضاء على مؤسساتها ومنظماتها ونزع

---

1 — General Dayan: *Diary of the Sinai Campaign*, 1956, p. 11-16, 25.

٢ — مركز الابحاث : **اليوميات الفلسطينية** ، ١٩٦٥/٨/٣ ، ص ٦٤ .

٣ — مركز الابحاث : **المرجع السابق** ، ص ١٢، يوم ٦٥/١/٦ .

٤ — **المرجع السابق** ، ص ٢٨٥ ، يوم ٦/١٤/ ٦٥ .

٥ — **المرجع السابق** ، ص ٢٦٤ ، يوم ٦/٣/ ٦٥ .

اسلحتها ، من اجل تأكيد السيطرة الرسمية ومنع تفاعل الثورة مع الجماهير الفلسطينية والعربية ، والحيلولة دون امتداد لهيب الثورة في المنطقة . ولهذا يصاحب الدعوة الى العودة الى السرية الحديث ، لا عن التنسيق مع الانظمة العربية فحسب ، بل :

١ـ الفصل ما بين منظمة التحرير والعمل الفدائي. فالعمل الفدائي سري ، ومنظمة التحرير منظمة رسمية تتعامل مع الانظمة . العمل الفدائي داخل الارض المحتلة فقط ، ومنظمة التحرير خارج الارض المحتلة .

٢ ـ الفصل بين العمل الفدائي والشعب الفلسطيني . ان : « كيان الشعب الفلسطيني يجب ان يبقى دائما كيانا كاملا ، تشترك كل الدول العربية في تحمل مسؤوليته ، وفتح ابوابها لافراده ... هذا الشعب يجب ان يبقى له كيان كامل منفصل عن العمل الفدائي ، حتى لو كان شعبا بلا ارض ، فكل ارض هو فيها ارضه الى ان يسترد ارض فلسطين ... » (الاخبار ٧٢/٧/١) .

٣ ـ الفصل ما بين الداخل والخارج ، ما بين العمل في الداخل والعمل في الخارج . العمل في الداخل هو عمل الفدائيين اما العمل على الحدود ، ومنها ، فهو عمل الجيوش النظامية .

ان هذه « العوازل » الثلاثة توضح موضوع العودة الى السرية كله . وتفضح اهدافه واغراضه . ان المطلوب ، كما هو واضح ، ان يصبح العمل الفدائي سريا على الشعب الفلسطيني فقط ، وان يصبح علنيا على الانظمة العربية كلها ، علنيا من خلال منظمة التحرير ، المكونة لتكون جهازا فلسطينيا لدى الانظمة العربية ، ينفذ اوامر قسم فلسطين في كل جهاز من اجهزة المخابرات العربية، وعلنيا من خلال سياسة التنسيق التي تحدد أماكن وجود الفدائيين وتدريبهم وتحدد طرق انتقالهم الى الداخل . ولعل ما طلبه النظام الهاشمي في مباحثات جدة اوضح واكثر تحديدا من ان يختلف عليه . انه نموذج لمتطلبات التنسيق مع الانظمة العربية .

وهذا لن يتحقق الا اذا تم الفصل بين العمل الرسمي : منظمة التحرير ، والعمل الشعبي : المنظمات الشعبية ، بين العمل السياسي : وجود التنظيم في المخيمات والمدن والقرى والعمل العسكري: وجود المعسكرات والمقاتلين والميليشيا . كما انه لن يتحقق الا اذا تم الفصل بين قواعد الثورة ، بين كل المناضلين والمقاتلين وبين جماهير الشعب الفلسطيني . ولكي تكتمل حلقات الحصار لا بد من الفصل بين الداخل والخارج . الخارج منطقة سيطرة الانظمة ، والفلسطينيون فيه جزء من الجماهير العربية ، انهم مواطنون عرب حيث حلوا. اما الداخل فلجيش الاحتلال وللفدائيين . ولكن الانظمة ترفض ان يكون الفلسطينيون مواطنين : وهم يعاملون معاملة الاغراب المنبوذين ، ومعاملة المجرمين المطلوبين ، فلا يسمح لهم بالسفر مثلا الا بعد «طلوع الروح» . ان وثائق المقاومة سمحت لبعضهم بفرصة الحركة ، كما أن معارك المقاومة وفرت لبعضهم حق العمل ، كما حدث في لبنان . لكنهم ما زالوا لا يعاملون معاملة المواطنين ، حتى في الاردن حيث هم الاغلبية .

لماذا تبرز هذه الدعوة في هذه الايام ؟ . ان ذلك مرتبط بموضوع التصفية . والمشروع الاميركي الذي أعلنت بعض الصحف عنه حول استيعاب الفلسطينيين مشروع وارد . وهو من اساليب التصفية الاميركية . فليس كافيا ان تصفى المقاومة الموجودة ، يجب تصفية روح المقاومة . وهذا يتم بأسلوبين : الاول : يتمثل في سحق ارادة القتال وضرب التنظيمات الموجودة والثاني : يتمثل في تصفية جذور المشكلة ، وهي فقدان الوطن . وتصفية جذور المشكلة لا تكون الا بتكييف الشعب الفلسطيني مع الاحتلال في الداخل ومع «التشرد» في الخارج . وهذا يعني ان يرضى الفلسطيني بأن يصبح مواطنا في ظل الاحتلال ومواطنا في الشتات. وليس مستبعدا ان تتحول هذه الاقتراحات التي نسمعها اليوم الى مشاريع في القريب ، ومع استمرار عملية التصفية الشرسة ضد المقاومة .

لقد كانت القوة النسبية للمقاومة ناتجة عن العلاقة التي حققتها بين المقاتلين وجماهير الشعب الفلسطيني ، بين العمل السياسي والعسكري ، بين الداخل والخارج . واذا كنا نحس اليوم بضرورة الارتقاء بمستوى هذه العلاقة ، بلورتها ، تصليب الاسس التي تقوم عليها ، فان القوى المضادة تعمل من اجل الفصل والعزل .

لقد كانت معركة التصفية في الاردن ٧٠/٩/١٧ ـ ٧١/٧/١٧ من اجل غايتين : هما انهاء الخارج والداخل . وما زالت معركة التصفية مستمرة ،

للغرضين عينهما . وحين سقط الاردن في يد النظام الهاشمي تعقد موضوع الاتصال مع الداخل ، وتفرغت دولة الاحتلال لسحق غـزة ولسحـق الحركة الوطنية كلها . والمطلوب الان ان «تؤردن» المنطقة العربية كلها ، حتى يموت العمل الثوري في الداخل .

والعمل الثوري في الداخل لن يستطيع الحياة ، بدون العمل الثوري في الخارج ، بدون مراكز الامداد والتموين والتدريب ، وبدون حركة ثورية قادرة على استنهاض الجماهير وتحريك هممها في الداخل والخارج ، لـدى الشعب الفلسطيني والجماهير العربية .

وهذا يعني ان منظمة تحرير مرتبطة بالانظمة ، ومنفصلة عن العمل الثوري ، ستكون عاجزة عن استنهاض همة متبرع بقرشين ، لا استنهاض همة مقاتل ، يقدم دمه وحياته . كمـا ان قوات الكوماندوز والاستطلاع المرتبطـة بالمخـابرات العربية ، قد تستطيع تجنيد عدد محدود مـن الناس ، ولكنها لن تستطيع خلق حركـة وطنية ثوريـة .

ولهذا يكون الحديث عن العمل في الداخل في الوقت الذي يصفى فيه العمل في الخارج حديث خرافة ، وحديث خداع . والذين ينادون به اما متآمرون او مضللون ، ولا ثالث بينهم .

بعد هذا كله هليعني ما ذكرناه اننا ندافع عن وجود المقاومة في الخارج بقضه وقضيضه ؟ بالطبع لا ذلك أن المقاومة مطالبة الان بما يلي :

اولا : اعادة بناء تنظيمها ومؤسساتها علـى أسس تجعلها اكثر كفاءة واكثر فعالية ، واكثـر قدرة على اداء مهماتها . ثانيا : المحافظة علـى المنجزات التي حققها العمل الثوري الفلسطيني ، ومنها منظمة التحرير ، والقوات والميليشيـا والمنظمات الشعبية وكل الحقوق الاخرى المرتبطة بها . وتنقية هذه المنجزات من النقائص والعيوب بتثويرها وتطويرها لتكون قادرة على تقديم مساهمات أكبر في حماية القضية الفلسطينية من التصفية ، وفي تصعيد النضال الفلسطيني من اجل التحرير الكامل . ثالثا : تثوير العلاقات مع الجمـاهير الفلسطينية ، وبناء علاقات ثورية مـع الجماهير العربية والقوى الوطنية العربية . رابعا : تصعيد كل أشكال النضال والقتال ضد العدو الصهيوني في الارض المحتلة ، وضد النظام الهاشمي العميل، وضد كـل اشكال التصفية النظرية والعملية .

والمقاومة ، اذا لم تهتم بهذا كله ، ستجرع كأس التصفية كله . ان الغول الاميركي — الصهيوني على الابواب والنوافذ ، والمطبلون له كثر ، أما الذين يحاولون اشغال الجماهير عن عودته فانهم يخلقون المعارك الوهمية ، ويذرون الرماد فـي العيون . وفي هذا الوقت الذي يطبق فيها الغول الاميركي — الصهيوني على الرقاب يزداد دور العملاء العرب خطرا ، ويزداد خوف الخائفين وتردد المترددين . وتسقط الاقنعة عـن وجـوه الانتهازيين وأدعياء الوطنية .

ناجي علوش

(٣) القضية الفلسطينية دوليا

طغت على العلاقات الدولية في الفترة الاخيرة سلسلة من اللقاءات والاجتماعات والاتفاقات الدراماتيكية بين دول متعادية منذ فترة طويلة مما اشاع اجواء واسعة لصالح تسوية النزاعات عن طريق المفاوضات والحلول الوسط — او على اقل تعديل للاعلان عن نيات الاطراف المعنية تسوية خصوماتها سلميا وعزمها اتخاذ بعض الخطوات الاولية للسير على هذا الطريق. ومن العوامل الرئيسية التي خلقت هذه الاجواء دوليا اجتماع القمة الامريكي — السوفياتي الذي تم مؤخرا ، ورحلة الرئيس نيكسون الى الصين بعد طرد زمرة تشان كاي تشك من هيئة الامم ومجلس الامن ، الاتفاقية التي عقدت حول مدينة برلين والمسألة الالمانية ، الاتفاق الذي تم التوصل اليه في مؤتمر القمة الذي انعقد اخيرا بين انديرا غاندي وعلي بوتو . يضاف الى ذلك الاعلان عن عودة الولايات المتحدة الى مائدة المفاوضات مع الثوار الفيتناميين في باريس واعلان كل من حكومتي كوريا الديمقراطية والجنوبية النية على العمل من اجل توحيد البلاد سلميا ، وهو الاعلان الذي جاء بعد مفاوضات سرية جرت بين الحكومتين . لكن من الملاحظ ان سير الاجواء الدولية بهذا الاتجاه لم يترك اية آثار مباشرة بعد على النزاع العربي الاسرائيلي وعلى الجمود الذي ما زال يسيطر عليه منذ فترة غير قصيرة . الا اننا لا نستبعد ، من جهة اخرى ، ان تبدأ ضغوطات هذا الجو بممارسة فعلها على النزاع في منطقتنا عن طريق حث الطرف العربي خاصة القبول نهائيا بالمفاوضات مع العدو الاسرائيلي من اجل تحقيق تسوية سلمية للنزاع اقتداء بما حدث في حالات النزاع الاخرى المذكورة . ان الجو الدولي مهيأ لممارسة مثل هذه الضغوط على الطرف العربي وقد بدأت بعض البوادر الاولية لهذا الاتجاه بالظهور . هذا ما يلوح في المستقبل القريب وعلى القوى الثورية الفلسطينية والعربية ان تتنبه للموجة القادمة والآخذة في التكون ، واعداد نفسها لمقاومتها وصدها باكبر قدر ممكن من القوة . اذن حتى اشعار آخر ، وربما في القريب العاجل ، اوضاع النزاع العربي الاسرائيلي باقية على جمودها الذي تعودناه منذ فترة . وربما كان اول تشخيص للوضع الدولي المتعلق بالنزاع ما جاء في تصريح مسؤول في البيت الابيض في ٨ تموز ١٩٧٢ الذي قال « ان الولايات المتحدة لا تتوقع استئناف القتال او تحقيق اية خطوة دراماتيكية نحو السلام في الشرق الاوسط في المستقبل القريب » . وعلل المسؤول كلامه بالقول « ان هناك دليلا كبيرا على ان اسرائيل والدول العربية مرتاحة الى استمرار وقف اطلاق النار الحالي ... ولا يبدو ان هناك اي دليل على تحركات حادة من قبل اي من الجانبين المعنيين مباشرة لاجراء مفاوضات تؤدي الى تسوية دائمة ». كذلك رفض هذا المسؤول الامريكي ان يعطي اية تقديرات متفائلة حول « امكانية تحقيق سلام دائم في الشرق الاوسط في المستقبل القريب » . بعبارة اخرى ان حالة اللاسلم واللاحرب مرشحة للاستمرار لفترة اخرى وبالتأكيد حتى انتهاء انتخابات الرئاسة الامريكية في الخريف المقبل . ومما يعزز دقة هذا التشخيص الامريكي تصريح لتشارلز يوست ، مندوب الولايات المتحدة السابق في هيئة الامم ، صدر بعد زيارته الاخيرة للقاهرة وتل ابيب حيث قال « بأنه متشائم بالنسبة لامكانات تسوية النزاع في الشرق الاوسط سلميا » .

وجدير بالملاحظة هنا ان جوزيف سيسكو قد عاد الى نبش مقترحات امريكية قديمة حول تسوية النزاع العربي الاسرائيلي ، وكان ذلك في مقابلة اجراها معه مندوب « النهار » في اول تموز ١٩٧٢ . فبعد ان شدد سيسكو على اهمية الحفاظ على وقف اطلاق النار عاد الى طرح فكرة فتح قناة السويس على اساس انسحاب اسرائيلي جزئي من سيناء (مشروع التسوية الجزئية) ، وفكرة محادثات فندق ولدورف استوريا (او « محادثات الكثب » حسب التعبير الدبلوماسي الامريكي) ، كذلك عاد سيسكو الى التأكيد على التزام حكومة بلاده بالموقف الاسرائيلي القائل بأن الدول الكبرى لا يمكن ان تفرض التسوية على اطراف النزاع ، ليستخلص من ذلك ضرورة دخول الجانب العربي في المفاوضات مع اسرائيل من اجل التوصل الى تسوية نهائية في المنطقة لان قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ « ليس اتفاق سلام بحد ذاته . والمطلوب هو التسهيل على الطرفين

الوصول الى تسوية عن طريق المفاوضات استنادا الى قرار مجلس الامن » . واعترف سيسكو صراحة انه « كلما طال الاحتلال ازدادت على اسرائيل صعوبة الانسحاب » . وذكر مندوب النهار ان هناك اعتقادا يسود الاوساط الامريكية — التي تعتبر نفسها محبة للبنان — ان لبنان ما زال قادرا على الضغط على المنظمات الفدائية للحد من نشاطها العسكري والسياسي والاعلامي ، وذلك لمنع اسرائيل من ايجاد اي مبرر تسعى اليه في الاعتداء على لبنان او احتلال جنوبه ، وبالتالي تهديد أمنه واستقراره .

ربما كان اهم حدث على صعيد النشاط الامريكي مؤخرا هو قيام وليام روجرز بزيارة مفاجئة لكل من صنعاء والبحرين والكويت في الاسبوع الاول من شهر تموز . فبعد قيام الحكومة العراقية بتأميم شركة نفط العراق ، مسددة بذلك اول ضربة جدية للمصالح الامبريالية في المنطقة العربية بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، اخذت الدبلوماسية الامريكية تتحرك بسرعة من اجل تعزيز مواقعها ومناطق نفوذها في الشرق الاوسط وخاصة في منطقة الخليج . وكانت اول خطوة بارزة على هذا الطريق صدور بيان رسمي في اول تموز في صنعاء أعلن قرار الجمهورية العربية اليمنية والولايات المتحدة استئناف العلاقات الدبلوماسية التي كانت قد قطعت سنة ١٩٦٧ . ولم يمض على صدور البيان ساعات الا وكان روجرز قد وصل في زيارة رسمية الى صنعاء حيث أعلن انه سيبحث مع كبار المسؤولين مسألة توفير مساعدات امريكية للاقتصاد اليمني في ميادين شق الطرق ومشاريع المياه ومكافحة سوء التغذية . كذلك اعرب روجرز عن تقديره للترحيب الحار الذي لقيه في صنعاء وعن أمله في أن تستأنف الدول العربية الاخرى العلاقات مع الولايات المتحدة . بعبارة اخرى ان تجديد العلاقات يعني عودة اليمن رسميا الى العمل وفقا لبرامج المساعدات الخارجية الامريكية والى مشاريع استثمار الاموال الامريكية في البلد. وقد قال روجرز ان بلاده مهتمة « بحركة انماء اليمن ومساعدته صحيا وتعليميا وغذائيا » .

لا شك ان زيارة روجرز للبحرين لم تكن مسألة عابرة ومقتصرة على البروتوكول ، بل كانت على قدر كبير من الاهمية بسبب ارتباطها المباشر بالقاعدة البحرية التي ورثتها امريكا عن بريطانيا في البحرين . وقد اكد روجرز في تصريحاته ان حكومته متمسكة بالاتفاق الذي عقد بين البلدين لاستخدام القاعدة من قبل القوات البحرية الامريكية . يضاف الى ذلك اهتمام امريكا المباشر بتعزيز نفوذها في المنطقة البترولية لمواجهة التأثيرات الوطنية لمعاهدة الصداقة السوفياتية العراقية ولخطوات الحكومة العراقية على صعيد تأميم النفط في البلاد . على سبيل المثال وردت انباء من مصادر مطلعة ان القضايا الاساسية التي ناقشها روجرز اثناء زيارته للكويت شملت المواضيع التالية : (١) الوضع في الخليج من زاوية امكانات تزايد النفوذ السوفياتي في المنطقة بعد توقيع معاهدة الصداقة السوفياتية — العراقية ، مع التشديد على كون الكويت نفسها ضد كل نفوذ « اجنبي » في الخليج . (٢) « الوضع في اليمن الجنوبية » . (٣) تطورات ازمة الشرق الاوسط .

يبدو واضحا ان هدف زيارة روجرز المباشر ليس النزاع العربي الاسرائيلي وانما العمل على اتمام عملية « ملء الفراغ » الذي ولده انسحاب بريطانيا من منطقة الخليج وتمتين المواقع الامريكية الرئيسية لضمان استمرار السيطرة الغربية على استخراج البترول ونقله باعتبار ان نفط الخليج ما زال يشكل مصدرا من مصادر الطاقة الاساسية في الدول الغربية . وقد اشار روجرز بصراحة الى هذه النقطة في تصريحاته اثناء وجوده في الكويت حيث قال ان محادثاته في هذه الزيارة كانت « ناجحة وفي غاية الاهمية » وان سبب زيارته الاساسي هو ايمانه « بأهمية الخليج بالنسبة الى صنع السلام في هذه المنطقة » مما يدعو بلاده للمشاركة بصورة فعالة « في محاولة حل المشاكل التي خلقها خروج البريطانيين من المنطقة » .

اما بالنسبة للنزاع العربي — الاسرائيلي فقد دعا روجرز الى ضرورة اجراء مفاوضات مباشرة بين الطرفين لانهاء حالة النزاع وحث العرب على التنبه الى ان « هناك فرقاء اخرين في العالم اضطروا الان الى التقارب واجراء محادثات مباشرة » . كذلك اكد ان سياسة بلاده في المنطقة لن تتغير اذا اعيد انتخاب نيكسون . قال « ان سياستنا ستستمر كما كانت من قبل من دون تغيير ، مع العلم اننا نتطلع الى تطورات من شأنها حل ازمة الشرق الاوسط » . لكن الحكومة الكويتية اعلنت

انها ابلغت روجرز معارضتها للمفاوضات ولسياسة بلاده المنحازة لاسرائيل بشكل كامل .

بعد صنعاء أعلنت الحكومة السودانية عن عزمها اعادة العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة وبالمقابل تعهدت امريكا بتقديم مساعدات قدرها ١٨ مليون دولار من اجل تعمير جنوب السودان واعادة اسكان اللاجئين الذين شردتهم الحرب الاهلية في جنوب البلاد . وجدير بالملاحظة هنا ان الكونغرس الامريكي قد وافق على تقديم مبلغ ٨٥ مليون دولار الى اسرائيل من أجل مساعدتها على اعادة اسكان اليهود المهاجرين من الاتحاد السوفياتي .

على صعيد نشاط الاتحاد السوفياتي في قضية الشرق الاوسط فقد تلخصت التطورات ، بصورة رئيسية ، بزيارتين قام بهما كل من وزير الحربية المصري (في النصف الاول من شهر حزيران) والرئيس السوري حافظ الاسد (في الاسبوع الاول من شهر تموز) للاتحاد السوفياتي . كان هدف زيارة الفريق صادق مواصلة المحادثات التي كان قد أجراها الماريشال غريشكو (وزير الدفاع السوفياتي) اثناء زيارته للقاهرة في شهر أيار الماضي والمتعلقة بالتعاون العسكري بين البلدين . وقد اعتبر الفريق صادق زيارته « مهمة وناجحة »، خاصة بعد أن شهد مناورات تكتيكية مهمة اشتركت فيها اسلحة مختلفة من القوات السوفياتية المسلحة . كما شهد مناورة بحرية وتدريبات انزال مشاة الاسطول السوفياتي في بالطا ، وتفقد قاعدة سيباستوبول البحرية قبل عودته الى مصر . وقد اجرى الفريق صادق محادثات واسعة مع الماريشال غريشكو وكبار القادة العسكريين السوفيات تناولت عددا كبيرا من المسائل العسكرية التي تهم البلدين . كما التقى مع بريجنيف وسلمه رسالة من الرئيس السادات وتلقى رسالة جوابية من الزعيم السوفياتي ليحملها الى الرئيس المصري . وقد لاحظ المراقبون ان الصحافة السوفياتية أبدت اهتماما كبيرا بزيارة وزير الحربية المصري ولكن التشديد كان باستمرار على قضية الوصول الى تسوية سلمية للنزاع في المنطقة ، باعتبار ان « عنصر الوقت في مصلحة العرب لان الاستعمار اليوم لم يعد قويا الى درجة تمكنه من ان يفرض ارادته على الشعوب العربية ، كما انه تجري الان تحركات في الشرق الاوسط قد تكون حاسمة بالنسبة الى اقامة سلام عادل ووطيد في المنطقة » .

اما زيارة الرئيس الاسد فقد جاءت في اعقاب العدوان الكبير الذي قامت به اسرائيل ضد لبنان (في ٢١ حزيران) وتمكنت على اثره من اختطاف خمسة من كبار الضباط السوريين كانوا يقومون بزيارة للجيش اللبناني في الجنوب . وتمت زيارة الرئيس الاسد بناء على دعوة من الهيئات السوفياتية الثلاث : اللجنة المركزية للحزب والحكومة وهيئة رئاسة السوفيات الاعلى . وذكرت مصادر مطلعة ان المواضيع الرئيسية التي يفترض ان المباحثات قد تركزت حولها قد شملت : (١) التعاون الثنائي العسكري بين البلدين وتعزيز قدرات سوريا الدفاعية في وجه النشاط الشرس الذي اخذت تبديه اسرائيل على جبهتها الشمالية . (٢) التعاون الثنائي بين البلدين في المجالات الاقتصادية والتجارية والسياسية . (٣) قضية الضباط الخمسة المخطوفين من زاوية ما يمكن ان تحصل عليه اسرائيل من معلومات حول التعاون السوري — السوفياتي .

وبالنسبة « لازمة الشرق الاوسط » فقد شدد البيان المشترك الذي صدر عند انتهاء الزيارة على ضرورة اقامة « سلام عادل ومتين في الشرق الاوسط » على اساس « الانسحاب العاجل وغير المشروط لجميع القوات الاسرائيلية من كل الاراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧ » و« تأمين الحقوق والمصالح المشروعة للشعب العربي الفلسطيني » . وأعلن البيان المشترك تأييد البلدين لحركة المقاومة الفلسطينية . ومع أن البيان لم يأت على ذكر قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ الا ان محتوياته اكدت من جديد التفسير السوفياتي — المصري لمسألة احلال السلام في المنطقة على اساس تصفية آثار العدوان عن طريق جهود الاتحاد السوفياتي الدولية من ناحية ودعمه الدول العربية المعنية في جهودها من اجل تحقيق هذه الغاية من ناحية اخرى . وعلى اثر الزيارة التي قام بها الماريشال تيتو الى موسكو صدر بيان مشترك كان فيه التفاتة بنفس المعنى الى أزمة الشرق الاوسط وتسويتها ولكن مع الذكر الصريح لقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ باعتباره الاساس الذي لا يمكن لاية تسوية سياسية في المنطقة الا ان تستند اليه، واهمال كل اشارة الى حركة المقاومة. وفيما يلي الفقرة المتعلقة بمنطقتنا في البيان المشترك اليوغوسلافي —السوفياتي : « يقف الجانبان في حزم الى جانب تلبية المطالب العادلة للدول العربية التي

تعمل على ازالة آثار العدوان الاسرائيلي واحقاق الحقوق المشروعة للشعب العربي الفلسطيني ، ويعتقدان ان التسوية السلمية في الشرق الاوسط التي يجب تحقيقها على اساس التنفيذ المتواصل لقرار مجلس الامن الصادر في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٧ وقرار الجمعية العمومية للامم المتحدة الصادر في ١٣ كانون الاول ١٩٧١ من شأنها ان تساهم في احلال السلام في هذه المنطقة ، كما من شأنها ان تهيىء الظروف لتحقيق التدابير الرامية الى الانفراج العسكري في المنطقة كلها والى تحويل المتوسط الى بحر للسلام والتعاون الودي . ويساند الاتحاد السوفياتي ويوغوسلافيا طموح البلدان العربية وجهودها الرامية الى حل الازمة بالوسائل السلمية وتصميمها على توطيد وتعزيز قدرتها الاقتصادية والعسكرية للدفاع عن حقوقها المشروعة ومصالحها الوطنية » .

على صعيد آخر تجددت الانباء الصحفية ، في الفترة الاخيرة ، حول امكانية استئناف العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفياتي واسرائيل . على سبيل المثال جاء في نبأ صدر عن لندن ، منسوب الى مصادر سوفياتية هناك ، ان الاتحاد السوفياتي سيجري قريبا اتصالات مع اسرائيل لاستئناف العلاقات بين البلدين وان بعض الدول العربية قد أبلغت ذلك . ويذكر النبأ انه بالرغم عن ان الاتحاد السوفياتي ما زال على خلاف كبير مع اسرائيل بصدد حل ازمة الشرق الاوسط الا انه اصبح من الضروري اعادة العلاقات الدبلوماسية لان ذلك سيساعد في زيادة التأثير السوفياتي على سياسة اسرائيل المقبلة .

كذلك عادت الانباء الصحفية تتواتر حول هجرة اليهود من الاتحاد السوفياتي الى اسرائيل . فقد ترددت اخبار منسوبة الى مصادر سوفياتية مطلعة تقول بأن عدد المهاجرين اليهود الى اسرائيل سيزداد في السنوات المقبلة . كما نقلت وكالة الصحافة الفرنسية عن مصدر مطلع في موسكو بأن السلطات السوفياتية سمحت لنحو ٢٦٠٠ يهودي بالهجرة الى اسرائيل في أيار الماضي وهذه أعلى نسبة وصلت اليها معدلات الهجرة منذ بداية هذا العام . وجاء في نبأ آخر ، منسوب ايضا الى مصادر سوفياتية في موسكو ، بأن عدد اليهود السوفيات الذين سمحت لهم السلطات بالهجرة الى اسرائيل بلغ في حزيران ٣٥٠٠ شخص وهو رقم قياسي بالنسبة لمعدلات الهجرة السابقة التي بلغت ٢٦٠٠ شخص في أيار ١٩٧١ ، وحوالي ٣٠٠٠ في كانون الاول ١٩٧١ . وذكر النبأ المعلومات والاستنتاجات التالية حول موضوع الهجرة (ونحن نسجلها على علاتها بسبب حساسية الموضوع من ناحية واهميته الكبيرة بالنسبة لحركة التحرر العربية والفلسطينية من ناحية اخرى) : « وصل عدد اليهود الذين غادروا الاتحاد السوفياتي منذ مطلع السنة للاقامة في اسرائيل الى نحو ١٦ ألف شخص. واذا استمرت السلطات في منح ٢٥٠٠ تأشيرة خروج شهريا فسيكون في استطاعة ٣٠ ألف يهودي الذهاب الى اسرائيل خلال هذا العام . غادر ٩٠٠ يهودي الاتحاد السوفياتي في ١٩٧٠ الى اسرائيل بينما حصل ١٥ الفا على تراخيص بالسفر في العام الماضي . سكان جورجيا الذين كانوا يمثلون ٨٠ ٪ من المهاجرين في ١٩٧١ لم يعودوا يمثلون اكثر من ٢٠ ٪ حاليا . حصل للمرة الاولى يهود مينسك (روسيا البيضاء) ودوشامبر (تادجيكستان) على تصاريح للهجرة الى اسرائيل خلال هذا العام . وتفيد بعض الانباء ان عددا كبيرا من يهود دوشامبر،حيث تعد الجالية اليهودية كبيرة نوعا ما، يرغبون في مغادرة الاتحاد السوفياتي الى اسرائيل. لا تزال هجرة يهود مينسك ولينتغراد وموسكو ودوشامبر محدودة اذ يأتي معظم المهاجرين من مولدافيا واوكرانيا وجمهورية البلطيق » .

بالنسبة للموقف الاوروبي الغربي من مسألة النزاع العربي — الاسرائيلي لم تطرأ اية تطورات جديدة. وكان الموضوع الذي شغل بعض الاوساط الاوروبية مؤخرا هو عزم منظمة التحرير فتح مكتب لها في لندن واعلان ممثل المنظمة هناك ، السيد سعيد حمامي — في رسالة نشرها في « التايمس » اللندنية بأنه يأمل في ان يتمكن ياسر عرفات من زيارة هذا المكتب . وقد أثارت اسرائيل والدوائر الصهيونية ضجة كبيرة حول الموضوع واخذت تضغط على الحكومة البريطانية كي تتدخل لمنع فتح اي مكتب للمنظمة . اما موقف السلطات البريطانية ، حتى هذه الساعة ، فقد تلخص بالقول بأنه لاية منظمة الحرية في فتح مكتب لها في البلاد شرط ان تتقيد في اعمالها بالقانون البريطاني ولا تخرج عنه. كما نفت هذه السلطات ان يكون ياسر عرفات قد تقدم بطلب تأشيرة دخول لزيارة بريطانيا . أما أبا ايبان فقد ذهب الى ابعد حدود الصفاقة حين

طالب الحكومة البريطانية بتغيير قوانينها السائدة اذا كانت هذه القوانين تسمح لمنظمة التحرير بفتح مكتب لها في لندن . وفي هولندا برز طرف آخر في الحملة الاوروبية — الصهيونية ضد مكاتب المنظمة اذ دعا اريك بلومفيلد ، وهو احد الاعضاء البارزين في المجلس الاوروبي ورئيس لجنته السياسية ، الى العمل من اجل فرض حظر على نشاط المنظمة في أوروبا لان « نشاطها يهدد سلامة الطيران المدني » . كما قال ان اللجنة التي يرئسها تعتزم مطالبة الدول الاعضاء في المجلس بفرض حظر على مكاتب المنظمة لانها ، على حد زعمه ، تشكل « قواعد لاعمال التخريب والهجمات على الطيران المدني » .

وترددت انباء صحفية مصدرها باريس بأن الامين العام لهيئة الامم المتحدة سيقوم ، في المستقبل غير البعيد ، بمسعى شخصي جديد وحاسم — بمشاركة الوسيط الدولي يارينغ — للتوصل الى حل سياسي جديد في الشرق الاوسط يقبل به الطرفان (وخاصة اسرائيل) على اساس قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ . وذكرت هذه الانباء ان الخطوط العريضة للمسعى الجديد تتلخص في ايجاد نظام دولي للقدس يكون مقبولا من الفريقين وتجريد الضفة الغربية المحتلة وغزة من السلاح مع اعادة هذه الاراضي الى الفلسطينيين ومنحهم حق الرجوع اليها واكتساب الجنسية الفلسطينية . وواضح ان محتوى هذه الانباء لا يتعدى الافكار القديمة التي طرحت مرارا في الساحة سابقا بغية تصفية القضية الفلسطينية وقد واجهتها حركة التحرر الفلسطينية بالرفض القاطع . ما كنا تطرقنا الى ذكر هذه الانباء الصحفية لولا انها رافقت تطورات مفاجئة نوعا ما على صعيد مهمة يارينغ . ففي مؤتمر القمة الافريقي الذي انعقد في الرباط في نهاية الاسبوع الثاني من حزيران صرح الامين العام لهيئة الامم (الذي حضر افتتاح المؤتمر) ان « مهمة الوسيط الدولي قد وصلت الى طريق مسدودة تماما » ولذلك فانه « لا يرى أملا في استئنافها في الوقت الحاضر لان الاطراف المعنية ليست متفقة فيما بينها » . الا انه قبل مرور ثلاثة اسابيع على هذا التصريح الجازم في لهجته كان فالدهايم ينتقل الى جنيف لمقابلة يارينغ ليبحث معه في امكانات احياء مهمته . وابلغ الامين العام لهيئة الامم مؤتمرا صحفيا بأنه « يعتقد بأن دور يارينغ ما زال مهما » وان « هناك احتمالا في احراز بعض التقدم في الشرق الاوسط » . ولم تتوفر اية تفسيرات لهذا الانقلاب السريع والمفاجىء في تقييم فالدهايم لمهمة يارينغ وامكانات احراز التقدم في الشرق الاوسط . وبعد المقابلة مع يارينغ صرح فالدهايم انه ينوي الاجتماع بالوسيط مرة اخرى ليبحث معه « في عدد من الجوانب الجديدة بالنسبة للنزاع العربي الاسرائيلي » كما قال « اننا نحاول التحرك الى الامام ونحاول احياء مهمة يارينغ . ومن المهم جدا استئناف المحادثات اذا كان الفرقاء المعنيون مستعدين لها » . ولم يعرف اي شيء حتى الان حول « الجوانب الجديدة » في النزاع التي تكلم عنها فالدهايم وتفاعل على أساسها . لم تتوفر الا اشارة واحدة ، مقتضبة جدا ، حول العوامل التي يمكن ان تكون وراء تحرك فالدهايم السريع باتجاه احياء مهمة يارينغ بعد ان كان قد أعلن يأسه منها عند افتتاح مؤتمر القمة الافريقي . وقد جاءت هذه الاشارة في تصريح لناطق بلسان هيئة الامم عقب الاجتماع الذي عقده فالدهايم مع يارينغ حيث قال « ان تبادلا شاملا للاراء حول أزمة الشرق الاوسط قد تم بين الامين العام والوسيط الدولي حيث اطلع فالدهايم الوسيط على نتائج اجتماعاته الاخيرة بوزيري خارجية اسرائيل ومصر » . اما نتائج الاجتماعات هذه فلم يعرف عنها اي شيء حتى الان . وفي العاشر من تموز أعلن فالدهايم رسميا استئناف يارينغ لمهمته في الشرق الاوسط . كما قال في تصريحه « قررنا مواصلة جهودنا بحثا عن حل لازمة الشرق الاوسط ، وسيواصل يارينغ مهمته في اطار الامكانات المتاحة له . سنحاول تحقيق بعض التقدم وان كنا لا نعرف سلفا ماذا ستكون النتيجة . ان الوضع ليس مؤاتيا جدا ولكن من واجبنا ان نستمر » . كما اضاف « ان مهمة يارينغ صعبة ونجاحها سيتوقف على موقف الدول المعنية » .

اما مجلس الامن فقد انعقد ، بطلب من لبنان (واسرائيل أيضا) ، على اثر الاعتداءات الاسرائيلية الواسعة على حاصبيا ودير العشائر (٢١ و٢٢ حزيران) واختطاف القوات الاسرائيلية المهاجمة خمسة من كبار الضباط السوريين الذين كانوا يقومون بزيارة للبنان ، هذا بالاضافة الى ضابط لبناني كان يرافقهم . وقد طالب مندوب لبنان ، مدعوما من قبل مندوبي الدول المؤيدة

للقضية العربية (الصين والاتحاد السوفياتي) ، باتخاذ اجراءات دولية حازمة ضد اسرائيل واطلاق سراح الضباط المخطوفين فورا . وبطبيعة الحال وقف المندوب الامريكي الى جانب اسرائيل بينمـا قامت الكتلة الاوروبية الغربية بزعامـة فرنسا بمحاولة لصياغة مشروع قرار « معتدل » يرضي لبنان (والجانب العربي الرسمي) ويحفظ له ماء الوجه من جهة ولا يغضب امريكا الى درجة تدعوها لممارسة حق الفيتو من جهة اخرى . وبعد عدة اجتماعات تبنى المجلس باكثرية ١٣ صوتا ، مـع امتناع الولايات المتحدة وبناما عن التصويت ، مشروع القرار الاوروبـي الذي قدمته فرنسـا وبريطانيا وبلجيكا . وكان أهم ما جاء في القرار :

(١) مطالبة اسرائيل التقيد بدقة بقرارات مجلس الامن السابقة التي دعتها الى التخلي عن كـل خرق لسيادة لبنان وسلامته الاقليمية وعن كل عمل عسكري ضد اراضيه .

(٢) التنديد بأعمال العنف الاخيرة وبالهجمات المتكررة للقوات الاسرائيلية على اراضي لبنـان وسكانه باعتبارها تشكل خرقا لميثاق الامم المتحدة .

(٣) الاعراب عن رغبة المجلس في ان تتخـذ اسرائيل الاجراءات المناسبة للافراج فورا وفي اقصر مهلة عن جميع العسكريين ورجال الامـن السوريين واللبنانيين الذين اختطفتهم القـوات الاسرائيلية المسلحة من الاراضي اللبنانية .

(٤) يجتمع مجلس الامن مجددا لدرس الخطوات المناسبة التي ينبغي اتخـاذها في حال فشـل الاجراءات المذكورة في ان تؤدي الى الافراج عن المخطوفين او في حال اخفاق اسرائيل التقيد بالقرار الحالي .

وقد اعتبر المندوب الامريكي قرار مجلس الامن « غير متوازن » لانه لم يأت عـلى ذكر تواجـد الفدائيين على الارض اللبنانية واتفاقية القاهرة التي اخذت تتذرع بها اسرائيل في هجماتها الاخيرة على لبنان . وغني عن القول ان اسرائيل رفضت قرار المجلس واعلنت انها لن تفرج عن الضباط المخطوفين الا على اساس عملية شاملة لتبادل اسرى الحرب مع مصر وسوريا ، بالرغم عن ان قرار المجلس لم يعتبر هؤلاء الضباط اسرى حرب على الاطلاق .

في ١٢ حزيران انعقد مؤتمر القمة الافريقي في الرباط بحضور رؤساء ووزراء خارجية ٤٠ دولة افريقية لاجراء محادثات سرية حول مواضيع شتى من بينها القضاء على الاستعمار في القارة الافريقية والنزاع في الشرق الاوسط . وكان مـن الملاحظ غيـاب الرئيسين السادات والقذافي عن المؤتمر . ويبدو ان الرئيس المصري لم يحضر المؤتمر تضامنا مـع الرئيـس القـذافي المعـادي للنظـام الملكي في المغرب كما هـو معروف . وحضر جلسة افتتاح المؤتمر الامين العام لهيئة الامم . وبالنسبة للنزاع العـربي – الاسرائيلي قدم الرئيس الموريتاني ، مختار ولد داده (رئيس المنظمة السابق) ، تقريرا عن بعثة « حكماء افريقيا » التي حاولت التوسط في العام الماضي لتسوية النزاع في المنطقة . وقد جاء في التقرير ان فشل البعثة في مهمتها يعود الى رفض اسرائيل لاية تسوية سلمية نتيجة لمعارضتها الشديدة « لاي شيء يمكن ان يؤدي الى سحب قواتها من الاراضي المحتلة » . وفي ختام المؤتمر اتخذ الزعماء الافريقيون قرارا يندد باحتلال اسرائيل للاراضي العربية وتعهدوا بتقديم كل مساعدة لمصر، كما دعوا الدول الاعضاء في الامم المتحدة الى الامتناع عن تأييد اسرائيل بالسلاح والمعنويات .

ص.ج.ع.

(٤) المناطق المحتلة

برزت في الآونة الاخيرة على سطح الاحداث في المناطق المحتلة عدة موضوعات ، تتمثل في تحركات وزير الدفاع موشيه ديان ومشروع بيرس حول اقامة اتحاد فدرالي اسرائيلي فلسطيني ، وخرائط « السلام » الاسرائيلية ، وتعويضات القدس ورفح ، والصراع بين اجنحة الزعامة التقليدية .

تحركات ديان : بعد مرور خمسة اعوام على الاحتلال الاسرائيلي ، اخذت ملامح السياسة الاسرائيلية تشكل مؤشرا واضحا لاتجاه المخططات الاسرائيلية الرامية الى تكريس الاحتلال واستدامته .

ان الشخصية الواضحة والمنسجمة مع نفسها ، والتي تملك يدا طولى في بلورة السياسة الاسرائيلية تجاه المناطق المحتلة تكمن في شخصية وزير الدفاع موشيه ديان الذي يعمل من خلال وجهة النظر القائلة بأن السلام بعيد الاحتمال وانه ينبغي على اسرائيل ان تعتبر نفسها حكومة دائمة في المناطق المحتلة ، وان تقيم وقائع جديدة في هذه المناطق ، مع السعي لخلق صيغة « للتعايش المشترك » مع العرب .

لقد استمد ديان من واقع مرور خمسة اعوام على الاحتلال دون ان يكون هنالك سلام ، نشاطا وايمانا بوجهة نظره ، ويستدل ذلك من تحركاته ونشاطاته خلال الشهر الذي اعقب مرور الذكرى الخامسة لحرب حزيران ، ففي هذه المدة اخذ يقوم بنشاط محموم على صعيدين : الصعيد الاسرائيلي والصعيد العربي . بالنسبة للصعيد الاسرائيلي يحاول ديان اقناع الجمهور الاسرائيلي بسياسة الدمج والتخلص من سياسة العمل العبري « ان الجواب الوحيد للنزاع هو التعايش مع العرب ، ان نعيش معا مع العرب الموجودين بين صفوفنا... علينا أن نحولهم من لاجئين يعيشون على مخصصات السمن والارز الى أناس يعملون ، علينا ان نؤدي بهم الى وضع يمكنهم من العيش بشرف ، اننا لسنا بعيدين عن ذلك ، فخلال الاعوام الخمسة الماضية عملنا بما فيه الكثير ، ولكن ينبغي بذل المزيد من العمل . ان الصرخة المطالبة بالعمل العبري تصم آذاني لانها تعني عدم توفير عمل للعرب » (معاريف ٧٢/٦/١٩) . وفيما يتعلق بالجانب العربي (المناطق المحتلة) فقد اخذ ديان يغرس في أذهان سامعيه نوايا اسرائيل الحقيقية . ففي اجتماع عقده وجهاء الخليل قدم ديان مشروعا فريدا من نوعه» دعا فيه وجهاء المدينة الى التخطيط بالاشتراك مع حكومة اسرائيل لمشروعي تنمية، الاول مدته خمس سنوات ، والثاني عشر سنوات ، وقال ديان مندفعا بوجهة نظره التي اثبتت صحتها الاعوام الخمسة الماضية « لو انه اقترح على رجالات الخليل سنة ١٩٦٧ ان يعدوا مخططا لستة اشهر لظنوا انه يهزأ ، بيد انه يدعوهم الى النظر الى اقواله بجد ». (دافار ٧٢/٦/٥) . وقد حرص ديان خلال الفترة الاخيرة اثناء اجتماعه برؤساء البلديات على ان يظهر سياسته بشكل واضح ، ففي اجتماع عقده مع المجلس البلدي لمدينة البيرة قال ديان : « نحن عملنا سوية خلال الخمس سنوات الماضية بصورة ايجابية ، ولمصلحة السكان ، وأمامنا ٥٠ سنة اخرى للعمل والبحث والجدل بصورة موضوعية » . ومن الجدير بالذكر ان رئيس بلدية البيرة عبد الجواد قد دهش من الجملة الصريحة لديان فتساءل مقاطعا وزير الدفاع: « خمسون سنة ؟ » فأجابه ديان : « نعم عمري ٥٧ سنة وانا لا اريد ان اعيش اكثر من ٥٠ سنة اخرى » .

الى جانب ذلك اخذ ديان يعمل لتقليص النفوذ الاردني في الضفة الغربية ، وقد عبر عن ذلك في تصريحين له : الاول اثناء اجتماعه بأعضاء بلدية رام الله في ٧٢/٦/١٢ حيث قال : « نحن نرفض بشدة ان تحصل بلديات الضفة الغربية على هبات من الحكومة الاردنية ، لانهم في عمان لا يدفعون أموالا بدون مقابل ، والمقابل هنا اعطاء التوجيهات والتعليمات لهذه البلديات في المستقبل ... ان الحكومة الاسرائيلية هي المسؤولة عن ادارة الضفة الغربية وليس حكومة عمان » . والثاني اثناء اجتماعه بأعضاء بلدية البيرة حين قال: « بالاشتراك مع وزير العمل قد تم وضع مشروع قانون سيقدم الى الحكومة قريبا ، يقضي بموجبه مساواة العمال العرب في المناطق المحتلة باخوانهم العمال في اسرائيل بالاجرة والخدمات الاجتماعية والتأمين الوطني التي يحصلون عليها » . وهذا يعني ان اسرائيل تعتزم استصدار تشريعات لتحل محل

التشريعات الاردنية .

يمكن تلخيص تحركات ديان الذي استمد اندفاعا وايمانا بصحة وجهة نظره القائلة ان احتمالات السلام بعيدة المنال : نشاط بين الجمهور الاسرائيلي لفكرة الدمج الاقتصادي والتخلص من سياسة العمل العبري ، نشاط بين وجهاء المناطق المحتلة يتمثل في محاولة خلق صيغة تعايش مشترك من خلال تصور بأن الاوضاع الراهنة ستستمر عشرات السنين ، ونشاط موجه لتقليص النفوذ الاردني في الضفة الغربية ، كل ذلك من اجل تكريس الاحتلال واستدامته .

مشروع بيرس وخرائط « السلام » الاسرائيلية :

في مقابل نشاط ديان وتحركاته تحرك وزير اسرائيلي آخر من فئة الصقور الاسرائيلية ، شمعون بيرس وزير المواصلات وقدم اقتراحا يدعو الى اقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية مرتبطة باتحاد فدرالي مع اسرائيل . وقد أتى هذا الاقتراح بعد مرور خمسة اعوام على الاحتلال وفي اعقاب مشروع الملك حسين الداعي الى اقامة اتحاد فدرالي بين الضفة الغربية والضفة الشرقية . وهنالك اوجه شبه كبيرة بين مشروعي الملك وبيرس ، ويبدو ان بيرس قد استلهم فكرته من المشروع الملكي واحدث عليه تعديلات ليقدمه باسمه ولصالح سلطات الاحتلال ، اما وجه الاختلاف في المشروعين فيكمن في ان المشروع الملكي أريد به التخلي عن ما أخذ بالقوة ، بينما مشروع بيرس يراد به تكريس ما أخذ بالقوة لصالح الاحتلال .

يعتمد مشروع بيرس على اقامة اتحاد فدرالي يتشكل من دولة يهودية ودولة فلسطينية في الضفة الغربية يكون لكل منهما هيئة تشريعية وحكومية خاصة بها تعالجان الشؤون الداخلية ، بالاضافة الى ذلك تتولى هيئة فدرالية عليا الشؤون الخارجية والامن والمالية . وقد أوضح بيرس ان الاتحاد الفدرالي ينبغي ان يقوم على مبدأين اساسيين : المساواة بين كافة المواطنين ، والسماح لكل دولة في الحفاظ على خاصيتها ، وأورد بيرس خلال طرحه لمشروعه ملاحظتين : (١) ان الاتحاد الفدرالي مثل الزواج يبدأ دائما بالحب ، ثم تبدأ المشاكل في وقت لاحق ، (٢) انه يكون أمرا ديمقراطيا اذا ما وافقت الاكثرية اليهودية على قرار الاتحاد الفدرالي في المنطقة المقترحة .

وهنا لا بد من تسجيل ملاحظتين : (١) ان الاتحاد الفدرالي الذي وصفه بيرس بغطرسة كالزواج ، يبدأ بالحب وينتهي بالمشاكل ، هو اتحاد مبني اصلا على الاغتصاب ويراد به تخفيف حدة الاغتصاب بشكل او بآخر . (٢) ان بيرس يعلم جيدا ان اقتراحه يتعارض مع الوقائع الجديدة التي خلقتها السلطات الاسرائيلية في منطقة الاغوار وأماكن اخرى من الضفة الغربية ، فضلا عن انه يتناقض مع خرائط « السلام » المقترحة في اسرائيل ، والتي خلقت في نفوس الاكثرية من الجمهور الاسرائيلي حالة ذهنية توسعية من الصعب ازالتها « انه يكون امرا ديمقراطيا اذا ... » اللهم اذا كانت لدى بيرس مفاهيم اخرى حول « المساواة بين المواطنين » وحول مفهوم « الدولة » .

ومن الجدير بالذكر ان المتربعين على مقاليد الامور في اسرائيل يعارضون فكرة اقامة دولةمزدوجة ، فقد ذكر يجآل الون نائب رئيسة الحكومة في نفس اليوم الذي قدم فيه شمعون بيرس مشروعه ان على اسرائيل ان تبقى دولة يهودية في الشرق الاوسط تعيش فيها أقلية عربية تتمتع بكافة الحقوق ، واعرب عن معارضته لكل مشروع يتحدث عن امكانية اقامة دولة مزدوجة للشعبين الاسرائيلي والفلسطيني .

والسؤال الذي يطرح نفسه هو ، ماذا تريد اسرائيل ، ووفق اية طريقة تعمل ؟ للاجابة على الشق الاول من السؤال يمكن القول انها تريد ترسيخ الاحتلال واستدامته في معظم المناطق العربية المحتلة ، اما طريقة العمل والتنفيذ فانها خاضعة لما يعرف بخرائط « السلام » الاسرائيلية التي جسدتها الاحزاب ومراكز القوى الاسرائيلية خلال الاعوام الخمس الماضية. ويمكن تلخيصها بالتالي :

خريطة الاتفاق الشفهي : تعتبر هذه الخريطة من أهم الخرائط لكونها قد تقررت بواسطة الحزب الحاكم (كتلة التجمع العمالي) . وقد اشترك في اعدادها شخصيات مرموقة مثل ابا ايبن ، جليلي ، ديان ، كرمل وبيرس ... ويمكن تلخيص هذه الخريطة في التالي : نهر الاردن يشكل الحد الامني لاسرائيل ، تبقى هضبة الجولان وقطاع غزة تحت السيطرة الاسرائيلية ، كما يبقى شرم الشيخ مع طريق بري بينه وبين ايلات تحت الحكم الاسرائيلي ، اما عمق الطريق البري فسيتقرر وفق المتطلبات الامنية . وقد سميت هذه الخريطة بخريطة الاتفاق الشفهي لعدم توصل فرقاء التجمع

العمالي الى اتفاق مكتوب حول مفهــوم الحدود الاستراتيجية .

خريطة ألون : لم تحظ هذه الخريطة بموافقة او معارضة الحكومة ، الا انه يمكن القول انها تلاقي استحسانا من قبل معظـم اعضاء الحكومة ، وملخصها : يضم الى اسرائيل شريط على امتداد نهر الاردن يتراوح عمقه بين ١٥ ــ ٢٥ كيلومترا . ويمكن لهذا الشريط ان يتوسع ليشمل كل جبل الخليل ، وهنالك امكانية ثانية ، ان يشمل فقط صحراء الخليل ويكون الحد ملاصقا للمدينة دون ان يشملها . فيما يتعلق بالقطاع وهضبة الجولان فانهما ستبقيان وفق اضافات الون على خريطة تحت السيطرة الاسرائيلية .

خريطة جاحال (كتلة حيروت الاحرار) : هنالك وضوح في خريطة جاحال تجاه الاراضي الفلسطينية وهضبة الجولان ، فوفق هذه الخريطة ستبقى الضفة الغربيــة وقطاع غــزة تحت السيطــرة الاسرائيلية « ان السيادة الرسمية لدولة اليهود الجديدة تشمل كافة أجزاء ارض اسرائيل » وفيما يتعلق بالهضبة فانها ستبقى ايضا تحت الحكم الاسرائيلي ، اما بالنسبة لسيناء فالغموض يكتنف الحدود ، الا ان هنالك شبه اجماع بأن يبقى شرم الشيخ والنصف الشمالي من سيناء تحت السيطرة الاسرائيلية ، مع الاحتفاظ بقواعد جوية في النصف الاخر الذي ستنسحب منه اسرائيل .

خريطة ديان : ان خريطة ديان شبيهة الى حد ما بخريطة الاتفاق الشفهي بيد انها تتفوق عليها في توسعيتها ، فبالنسبة لسيناء يرى ديان ان اسرائيل يجب ان تبقى ضمن اطار خط يمتد من العريش وحتى رأس محمد مع الاحتفاظ بشرم الشيخ . وفيما يتعلق بالضفة ، يتفق مع الون على ان تبقى منطقة الاغوار تحت السيطرة الاسرائيلية الا انه يختلف عنه في الدعوة لاقامة اربع مدن على مرتفعات الضفة لبتر التواصل الاقليمي العــربي هناك وخلق تمركز سكاني يهودي فيها . وفيما يتعلق بالهضبة فانها ستبقى تحت السيطرة الاسرائيلية .

خريطة ميام : يكتنف الغموض هذه الخريطة الا انه يمكن تلخيصها كالتالي : القدس القديمة وهضبة الجولان ستبقيان تحت السيطرة الاسرائيلية ، اما قطاع غزة فمسألة فيها نظر ! وفيما يتعلق بسيناء والضفة الغربية ستكونان منطقتين مجردتين مــن السلاح مع احداث تعديلات طفيفة على الحدود ، واعتبار نهر الاردن الحد الامني لاسرائيل .

خريطة الانسحاب على مراحل : يقف وراء هــذه الخريطة التي تتطرق فقط حول مصير سيناء نفر من الشخصيات العسكريــة وعلــى رأسها الزعيــم (احتياطي) يشعياهو جانيش قائد المنطقة الجنوبية في حــرب حزيران . ويعتقد هؤلاء ان الانسحـــاب على مراحل من اجــزاء من سيناء سيجري على مراحل وفق العلاقات بين اسرائيل ومصر ، ويتحكم في مدى عمق الانسحاب تقدم مساعي السلام بين البلدين . ويــرى هؤلاء انه لا ضير في ان يقــوم المصريون بادارة شؤون البدو والنفط في سيناء في الوقت الذي ترابط فيه قوات اسرائيلية على امتداد ضفة القنال .

ان طريقة العمل لتكريس الاحتلال تجري من خــلال محصلة مجموعة خــرائط الاغتصــاب والسلــب والنهب ، وقد بلغ مجموع ما افرزته هذه المحصلة حتى الان ٣٩ نقطة استيطانية (باستثناء الاستيطان المدني في القدس والخليل وشرم الشيخ) تتجسد وتتبلور في اماكــن مختلفــة من المناطق المحتلة . وسنورد هنا اسماء المستوطنات الاسرائيلية موزعة على كل منطقة على حدة حسب ما اوردته صحيفة دافار (٧٢/٦/٢) .

هضبــة الجولان

اسم المستوطنة	نوع المستوطنة	الحركة التابعة لها
١ ــ شنير	كيبوتس	الكيبوتس القطري
٢ ــ الروم	كيبوتس	الكيبوتس الموحــد
٣ ــ ماروم جولان	كيبوتس	الكيبوتس الموحــد
٤ ــ عين زيوان	كيبوتس	الكيبوتس القطري
٥ ــ ناحال جيشور	ناحال	الكيبوتس القطري
٦ ــ رمات مجشيميم	موشاف تعاوني	موشافات العامل الزراحي

اسم المستوطنة	نوع المستوطنة	الحركة التابعة لها
٧ — افيق	كيبوتس	ايحود
٨ — ناحال عـال	ناحال	حركة الموشافيم
٩ — نؤوت جولان	موشاف تعاوني	العامل الصهيوني
١٠ — مفو حمه	كيبوتس	ايحود
١١ — جبعات يوآب	موشاف	حركة الموشافيم
١٢ — مركز بني يهودا	———	
١٣ — جنات	تعاونية صناعية	العامل المزراحي
١٤ — نفيه اتيف	موشاف تعاوني	العامل الصهيوني
١٥ — رحوت	موشاف	حركة الموشافيم

الضفة الغربية

١ — محولاه	موشاف تعاوني	العامل المزراحي
٢ — ارجمان	موشاف تعاوني	حيروت — بيتار
٣ — حمرا (عطاروت)	ناحال	الاتحاد الزراعي
٤ — ناحال مسوآه	ناحال	الكيبوتس الديني
٥ — معاليه افرايم	موشاف	حركة الموشافيم
٦ — ناحال جلجال	ناحال	الكيبوتس الموحد
٧ — ناحال نعران	ناحال	الكيبوتس الموحد
٨ — ناحال كاليـا	ناحال	ايحود
٩ — ناحال متسبيه شاليم	ناحال	ايحود
١٠ — كفار عتسيون	كيبوتس	الكيبوتس الديني
١١ — مركز الون شابوت	———	———
١٢ — روش تسوريم	كيبوتس	الكيبوتس الديني
١٣ — مفو حورون	كيبوتس	عمال اغودات يسرائيل
١٤ — بوكعاه	موشاف	الاتحاد الزراعي

قطـاع غزة

١ — ناحال كفار داروم	ناحال	الكيبوتس الديني
٢ — ناحال نيشريم	ناحال	بيتار
٣ — ناحال مورج	ناحال	ايحود

سـيناء

١ — سدوت	موشاف	حركة الموشافيم
٢ — ديكلاه	موشاف تعاوني	بيتار
٣ — ناحال سيناي	ناحال	ايحود
٤ — ناحال يام	ناحال	الكيبوتس الموحد
٥ — نبيعوت	موشاف	حركة الموشافيم
٦ — دي زهاف	موشاف	العامل الصهيوني
٧ — فاران	موشاف	حركة الموشافيم

تعويضات القدس : كانت اسرائيل قد اتخذت في اواخر شهر حزيران من العام الماضي خطوة نحو تكريس ضم مدينة القدس اليها تمثلت في طرح وزير العدل يعقوب شبيرا مسودة مشروع قانون امام الحكومة الاسرائيلية حول تعويض السكان العرب في القدس القديمة عن ممتلكاتهم الموجودة داخل اسرائيل . وقد تعثرت هذه الخطوة لسببين رئيسيين : ضآلة حجم التعويضات ، وطريقة دفعها ، فقد بلغت قيمة التعويضات حوالي ١٠٠ مليون ليرة اسرائيلية ، وهذا الرقم اقل بكثير من القيمة الحقيقية للممتلكات ، اما طريقة الدفع فانها ستتم حسب مسودة مشروع القانون على امتداد ٢٠ عاما ابتداء من عام ١٩٧٥ .

وكانت الصحافة الاسرائيلية قد انتقدت مشروع القانون في حينه ، ودعت الى رفع حجم التعويضات والى الاسراع في عملية الدفع ، وقد واجه المشروع في ذلك الوقت معارضة من قبل سكان مدينة القدس لانهم رأوا فيه خطوة في تكريس ضم المدينة لاسرائيل ، ولم يجرؤ اي واحد من الملاكين على مباركة مشروع القانون ، وكان على رأس الرافضين له وزير الدفاع الاردني الاسبق انور نسيبه لانه « يعطي صيغة قانونية لضم القدس ... ان القدس اعز من مئة مليون دولار » . اما ابلغ رد عليه فقد ورد على لسان شخصية عربية في القدس : « بدل ان تدفعوا لي ٨٠ جنيها استرلينيا مقابل دونم بيارة فانني على استعداد ان ادفع لكم ٨٠ جنيها لكي استعيد مرة اخرى ممتلكاتي » (دافار ٧١/٧/٦) .

وبعد تعثر استمر حوالي العام ، اخذ مشروع القانون يبرز من جديد ، واخذت الصحافة الاسرائيلية تتحدث عن مشروع القانون المعدل بخصوص تعويض عرب القدس القديمة عن ممتلكاتهم ... ويمكن تلخيص التعديلات التي طرأت على مشروع القانون بالتالي : ١ — زيادة حجم التعويضات ، حيث اصبحت تتراوح ما بين ٣٠٠ — ٤٠٠ ليرة اسرائيلية . ٢ — يحصل اصحاب الممتلكات الصغيرة على تعويضات دفعة واحدة ، اما اصحاب الممتلكات الكبيرة فعلى دفعات على امتداد ١٠ — ١٢ عاما . ٣ — باستطاعة المالك الحصول على تعويضات كاملة له ولافراد عائلته الموجودين خارج الضفة شرط ابراز تفويض من افراد العائلة .

وقد ذكرت الصحف الاسرائيلية انه من المنتظر ان يزداد عدد طلبات التعويض بعد ان توافق الحكومة على المشروع وتعرضه على الكنيست لاقراره ، واضافت انه من المتوقع ان يصل عدد طلبات التعويض ما بين ستة الاف وثمانية الاف طلب . وهذا يعني ان هنالك تصدعا في موقف اصحاب الممتلكات ، فقد كان الموقف قبل عام يتسم بالمعارضة التامة والمطلقة ، اما الان فانه يتسم بالمعارضة من قبل السياسيين وبعض الشخصيات الوطنية وبالموافقة المخجلة المشفوعة بالتكتم والتستر والخوف من قبل بعض اصحاب الاملاك .

ان مشروع القانون الاصلي ، والمعدل بخصوص تعويضات سكان القدس العربية من ممتلكاتهم في اسرائيل ينطوي على خطورة بالغة ، ووجه الخطورة يكمن في موافقة البعض من سكان المدينة على مبدأ فكرة التعويض عن الممتلكات ، ذلك لان تقرير مصير هذه « الممتلكات » لا يأتي وفق جشع وطمع « الملاكين » بل من خلال نضال اصحابها الحقيقيين الذين يبذلون الدماء في سبيل استرجاعها.

تعويضات رفح : في الوقت الذي انهمكت فيه سلطات الاحتلال لاحداث تعديل على مشروع القانون بخصوص تعويضات السكان العرب في القدس ، انهمكت ايضا في تعديل حجم التعويضات المقترحة لسكان مشارف رفح ، لنفس الغرض ، تكريس ضم المدينة وتكريس احتمال مشارف رفح . لقد سارت محاولة دفع تعويضات لسكان مشارف رفح الذين اجلوا عن مناطقهم بالقوة بطريقتين ، الاول : دفع تعويضات مالية زهيدة حوالي ٢٠٠ الف ليرة لشيوخ القبائل والثانية : دفع تعويضات عينية شهريا ، ٦ — ١٠ كغم من الحنطة لكل عائلة . وقد سخرت بعض وسائل الاعلام الاسرائيلية من ضآلة هذه التعويضات وطالبت برفع حجمها ، بيد انه اتضح ان معظم السكان البدو بزعامة بعض الشيوخ الوطنيين وبمساعدة الهيئات السياسية اليسارية في اسرائيل المعارضة لعملية « السلب والنهب » قد اخذوا يعارضون مبدأ التعويضات مما دفع وزير الدفاع موشيه ديان الى القيام بنشاط محموم لاقناع الذين اجلوا من اراضيهم قبول التعويضات بواسطة زيادتها من ٢٠٠ الف ليرة الى ١٥ مليون ليرة . ومن الجدير بالذكر هنا ان عملية التعويضات قد كشفت عن الرقم الحقيقي للسكان الذين طردوا من اراضيهم ، فقد

كانت السلطات الاسرائيلية تقدر العدد سابقا بستة الاف ، اما الان فقد ارتفع الى ١٥ الفا .

والامر اللافت للنظر في تعويضات مشارف رفح ان الحكومة الاسرائيلية لا ترى فيها تعويضات عن الاراضي ، بل عن الاضرار التي الحقت بالمزارع وابار المياه والبيوت بحجة ان ملكية الاراضي لا تعود الى السكان الاصليين باعتبار انها « أرض ميري » .

الصراع بين الزعامات التقليدية : انعكاسا للتناقضات القائمة بين مطامح وتطلعات السلطتين الاسرائيلية والاردنية ، برز صراع في صفوف الزعامة التقليدية ، بين مؤيدي النظام الاردني ومؤيدي سلطات الاحتلال . لم يكن هذا الصراع جديدا ، وانما الجديد فيه دخول عناصر من الزعامة التقليدية في المنطقة المحتلة منذ عام ١٩٤٨ حلبة الصراع .

أخذ صراع الاطراف يظهر على اثر الانتهاء من مهزلة الانتخابات البلدية ، وفي اعقاب سعي رئيس بلدية الخليل محمد الجعبري للحصول على مزيد من الصلاحيات لرؤساء البلديات الجدد ، ودعوته الى عقد مؤتمر يحضره زعماء الضفة الغربية وقطاع غزة للبت في مصير المناطق المحتلة ، وبحث امكانية خلق دولة فلسطينية ، الى جانب ذلك كان الجعبري قد دعا الى اقامة اذاعة تنطق باسم سكان الضفة والقطاع ، والى انشاء هيئة اسلامية عليا تمثل المسلمين في المناطق المحتلة واسرائيل ، الامر الذي حدا بالحكومة الاردنية الى الطلب من رؤساء البلديات الامتناع عن خوض اية مواضيع سياسية ، والاكتفاء بمعالجة الشؤون البلدية . وهنا بدأ مؤيدو النظام الاردني بشن حملة ضد الجعبري على صفحات مجلة « البشير » التي تصدر في بيت لحم ، متهمة اياه بالسعي لاقامة دولة فلسطينية ، فما كان من الجعبري الا ان اصدر نفيا للتهم الموجهة اليه ، واخذ يزايد على خصومه بقوله « انني عملت وساعمل للوحدة العربية الشاملة ، كما وارجو ان تنوهوا الى انه سبق لي فقط المطالبة بمنح رؤساء المجالس البلدية، صلاحيات المحافظ او المتصرف او القائمقام ، ليتمكنوا من تقديم الخدمات الجلى لاهالي محافظتهم، وهذه المطالبة لا تعني اقامة دولة فلسطينية » .

ويبدو ان تراجع الجعبري جاء على اثر فشله في استقطاب عدد من الوجهاء ، خاصة وان السلطات الاردنية ، قد بذلت في الاونة الاخيرة نشاطا ملموسا ، مشفوعا باصدار التوجيهات ، بين صفوف الزعامة التقليدية .

اما الجانب الجديد الذي دخل حلبة الصراع للمرة الاولى ، فهو رئيس بلدية الناصرة سيف الدين الزعبي المعروف بولائه الشديد لسلطات الاحتلال، فقد رأى الزعبي في دعوة الجعبري لاقامة هيئة اسلامية عليا تدير شؤون المسلمين في المناطق المحتلة واسرائيل ، فرصة مناسبة لتصفية الحساب مع خصومه الذين ظهروا بعد الاحتلال وسلبوا منه اهتمام ورعاية السلطات الاسرائيلية له ، او كما جاء على لسان صحيفة عل همشمار « بسبب تفضيل الدوائر الاسرائيلية الجعبري على الزعامة العربية في اسرائيل » . ومن الجدير بالذكر ان رئيس بلدية الناصرة كان قد عبر عن استيائه وغضبه بسبب تقديم دعوة للجعبري للاشتراك في حفل تنصيب رئيس هيئة اركان جديد عند مطلع هذا العام دون ان توجه اليه دعوة مماثلة . لهذه الاسباب اخذ رئيس بلدية الناصرة يجمع حوله بعض الشخصيات الاسلامية في اسرائيل ، وبدأ بشن حملة على زعامة الجعبري بشكل خاص والزعامة الفلسطينية في الضفة الغربية بشكل عام، متهما اياها بانها تحاول ان تجعل من نفسها وصية على المسلمين في اسرائيل ، وانها بمثابة زعامة قد « أكل الدهر عليها وشرب » .

عبدالحفيظ محارب

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ٦/١ — ١٩٧٢/٧/١١

الرقم	التنظيم	تاريخ العملية: اليوم	تاريخ العملية: الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل	خسائر العدو البشرية: جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	خسائر المقاومة: جريح	خسائر المقاومة: مفقود	المصدر	تاريخه
١	ج٠ش٠ت٠ف	٥/١١	٢٠٠	عسقلان	هجوم	غير محدود	غير محدود		سيارة جيب	—	—	—	هـ. العدد ١٥٥	٦/١٠
٢	ج٠ش٠ت٠ف٠	٥/١٥		تل ابيب	هجوم	اسلحة رشاشة	غير محدود(١)		استولى الثوار على عشرين الف ليرة اسرائيلية	—	—	—	هـ. العدد ١٥٥	٦/١٠
٣	ج٠ش٠ت٠ف٠	٥/٢١	٢١٠٠	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدود		تدمير معمل انابيب الغاز واشتعال النيران فيه وتدمير محطة الوقود وامتداد النيران الى الابنية المجاورة	—	—	—	هـ. العدد ١٥٥	٦/١٠
٤	ج٠ش٠ت٠ف٠(٢)	٥/٢٣	٥٠٠	ديمونة	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدود		تدمير عشر عربات وستة امتار من الخط الحديدي	—	—	—	هـ. العدد ١٥٥	٦/١٠
٥	ق٠ع٠ق٠ث٠	٦/ ١		سفوح جبل الشيخ	كمين	اسلحة مختلفة وقذائف صاروخية	غير محدود		تدمير آليتين	—	—	—	وفا(٣)	٦/ ٦
٦	ق٠ع٠ق٠ث٠	٦/ ١		دير البلح	اشتباك	اسلحة رشاشة وقنابل يدوية	٣	—	——	١	—	—	وفا	٦/١٠
٧	ق٠ع٠ق٠ث٠	٦/ ١		مستعمرة زرعيت/العلولة	تفجير	مواد متفجرة حارقة	غير محدود		تدمير آليات واحراق مزارع الحبوب	—	—	—	ط. العدد ١٢٤	٦/١٩
٨	ط٠ح٠ت٠ش٠	٦/ ٢	٢٠٢٠	عين هشلوشا/الجنوب	كمين	اسلحة مختلفة	٣	—	اعطاب سيارةعسكرية	١	—	—	ط. العدد ١٢٤	٦/١٩
٩	ق٠ع٠ق٠ث٠	٦/ ٤	٢٠١٥	بين القنيطرة والخشنية	قصف	صواريخ مسيطر عليها فنيا	غير محدود		تدمير آلية	—	—	—	وفا	٦/ ٧
١٠	ق٠ع٠ق٠ث٠	٦/١٠	١٠٠	ايلات	تفجير	عبوات ناسفة	٢	—	تدمير سيارة عسكرية	—	—	—	وفا	٦/١٠
١١	ج٠ش٠ت٠ف٠	٦/١٠	٨٠٠	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدود		تدمير سيارة بعد الاستيلاء عليها ووضع المتفجرات بداخلها	—	—	—	هـ. العدد ١٥٧	٦/٢٤

الرقم	التنظيم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر	تاريخه
١٢	ق.ع.ق.ث.	٦/١٤		اشدود	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدود		تدمير اجزاء من محطة توليد الكهرباء (د)	—	—	—	وفا	٦/٢٠
١٣	ق.ع.ق.ث.	٦/١٥		تل العدس/الناصرة	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تدمير مضخة المياه الرئيسية	—	—	—	وفا	٦/١٧
١٤	ج.ش.ت.ف.	٦/١٥	١١٤٥	حولون/يافا	هجوم	اسلحة رشاشة	٣ وعدد آخر(٤)		—	—	—	—	ه. العدد ١٥٨	٧/ ١
١٥	ج.ش.ت.ف.	٦/١٥	١٥٠٠	بيت شيمش	تفجير	عبوات ناسفة		١٢ اصابة	نشوب حرائق واضرار في مصنع للمطبات ومطاعم الكيبوتس	—	—	—	ه. العدد ١٥٨	٧/ ١
١٦	ج.ش.ت.ف.	٦/١٥	١٢٠٠	كرمين/العفولة	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدود		نشوب حرائق	—	—	—	ه. العدد ١٥٩	٧/ ٨
١٧	ق.ع.ق.ث.	٦/١٦		بئر السبع	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدود		تدمير برج الكهرباء	—	—	—	وفا	٦/١٧
١٨	ق.ع.ق.ث.	٦/١٦	٩٠٠	الخضيرة/حيفا	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدود		تدمير غرفة الكوابل التلفزيونية	—	—	—	وفا	٦/١٧
١٩	ج.ش.ت.ف.	٦/١٦	١٧٠٠	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدود		تدمير جزء من بناية واشعال النار فيها	—	—	—	ه. العدد ١٥٨	٧/ ١
٢٠	ق.ع.ق.ث.	٦/١٨		ايلات	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدود		اشعال النيران في ملهى ليلي وتدمير جزء من بناية يسكنها ضباط البحرية الاسرائيلية	—	—	—	وفا	٦/٢٠
٢١	ق.ع.ق.ث.	٦/١٨		بيت شيمش	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدود		تدمير سيارة بريد وحرق ٢٥٠ كيسا بريديا	—	—	—	وفا	٦/٢٠
٢٢	ج.ش.ت.ف.	٦/١٨	٧٠٠	الهادار	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدود		حرق معامل بيت زكوك لتكرير النفط واشعال النار فيه لمدة ساعتين	—	—	—	ه. العدد ١٥٨	٧/ ١
٢٣	ج.ش.ت.ف.	٦/١٩	١٩٠٠	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	٣وعددآخر		اشعال النار في مبنى مكتبة جامعة بار ايلات ولمدة عشر ساعات	—	—	—	ه. العدد ١٥٩	٧/ ٨
٢٤	ج.ش.ت.ف.	٦/١٩	٨٠٠	ايلات	تفجير	عبوات ناسفة		٦ اصابات	حرق مطعم ايلات كليا واشعال النيران في ثلاث مبان اخرى	—	—	—	ه. العدد ١٥٨	٧/ ١
٢٥	ج.ش.ق.ع.	٦/١٩	١١٠٠	جبل الشيخ	كمين وهجوم	اسلحةمختلفة		١٠ــ٢٠اصابة	تدمير كمين رئيسي واسكات كمائن مجاورة	—	—	—	بيان عمليات رقم ٢٠٥	حزيران ٧٢
٢٦	ق.ع.ق.ث.	٦/٢٠	٢١٣٠	الرملة	اطلاق رصاص	مسدس	١	—	—	—	—	—	وفا	٦/٢١
٢٧	ج.ش.ت.ف.	٦/٢٠	٢٢٠٠	تل ابيب	تفجير واشتباك	عبوات ناسفة واسلحة مختلفة	غير محدود		تدمير محلات تجارية في شارع رامات	—	—	—	ه. العدد ١٥٩	٧/ ٨
٢٨	ج.ش.ق.ع.	٦/٢٠	١٤٠٠	جبل الشيخ	كمين	قنابل يدوية وصاروخ	٢وعدد آخر		تدمير باص عسكري وآلية مدرعة	—	—	—	بيان عمليات رقم ٢٠٦	حزيران ٧٢
٢٩	ج.ش.ت.ف.	٦/٢١		تل ابيب	تفجير	عبوة ناسفة	غير محدود		اشعال النيران في جامعة بار ايــلات على اثر انفجار عبوة وضعها الثوار في ٦/١٩ ولم تنفجر في ذلك الوقت	—	—	—	وفا	٦/٢١
٣٠	ق.ع.ق.ث.	٦/٢١		تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدود		تدمير نادي مين هيرش الليلي	—	—	—	وفا	٦/٢١
٣١	ج.ش.ت.ف.	٦/٢١	٨٠٠	اللد	هجوم	اسلحةرشاشة		١٥اصابة	—	—	—	—	ه. العدد ١٥٩	٧/ ٨
٣٢	ق.ع.ق.ث.	٦/٢٢		تل ابيب	تفجير	عبواتناسفة	غير محدود		تدمير سيارة بيك آب وتدمير زجاج نوافذ البنايات المجاورة	—	—	—	وفا	٦/٢٢
٣٣	ق.ع.ق.ث.	٦/٢٢		حيفا	تفجير	عبواتناسفة	غير محدود		تدمير مقهى باريس داخل محطة باريس للقطارات الارضية وتدمير جهاز الدخول الالكتروني	—	—	—	وفا	٦/٢٣

الرقم	التنظيم	تاريخ العملية: اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	جريح	مفقود	المصدر	تاريخه
٣٤	ق·ع·ق·ث·	٦/٢٢		الجولان/رامات	هجوم	تذائف صاروخية وقنابل يدوية وأسلحة رشاشة	غير محدود	—	—	—	—	وفا	٦/٢٣
٣٥	ج·ش·ت·ف·	٦/٢٢	٨٠٠	يافا	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	١١ اصابة	—	—	—	—	هـ. العدد ١٥٩	٧/ ٨
٣٦	ج·ش·ت·ف·	٦/٢٢	٨٠٠	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	١٨ اصابة	تدمير واجهة المحلات التجارية في شارع موريز هسيراه	—	—	—	هـ. العدد ١٥٩	٧/ ٨
٣٧	ج·ش·ت·ف·	٦/٢٢	١٩٠٠	كفار سابا	اشتباك	أسلحة رشاشة	٣ وعدد آخر	—	—	٢	—	هـ. العدد ١٥٩	٧/ ٨
٣٨	ق·ع·ق·ث·	٦/٢٣	٢٣٠٠	صور/شمال الرشيدية	اشتباك بحري	أسلحة مختلفة	غير محدود	اصابة زورق واشتعال النار فيه	—	—	—	وفا	٦/٢٤
٣٩	ق·ع·ق·ث·	٦/٢٣	٢٣٠٠	الجولان/خسفين	قصف	مدفعية الهاون الثقيلة	غير محدود	اصابة عدد من المنشآت	—	—	—	وفا	٦/٢٤
٤٠	ج·ش·ق·ع·	٦/٢٣	١٥٣٠	جبل الشيخ	كمين	شبكة الغام	٣ اصابات	تدمير آلية نصف مجنزرة وتدمير رشاش ٥٠٠	—	—	—	بيان عمليات ٢٠٧	
٤١	ق·ع·ق·ث·	٦/٢٤		نهاريا	اشتباك بحري	تذائف صاروخية وأسلحة متوسطة	غير محدود	—	—	—	—	وفا	٦/٢٥
٤٢	ق·ع·ق·ث·	٦/٢٤	٢٢٠٠	الجولان/القنيطرة	قصف	صواريخ ثقيلة	غير محدود	اصابة عدد من المنشآت	—	—	—	وفا	٦/٢٥
٤٣	ق·ع·ق·ث·	٦/٢٦	١٤٥ و ٦٠٠	الجولان/الخشنية	قصف	صواريخ ثقيلة	غير محدود	تدمير سيارة ومنشآت أخرى	—	—	—	وفا	٦/٢٧
٤٤	ق·ع·ق·ث·	٦/٢٦	٨١٥	الجولان/الدبوسية	قصف	البي سفن والاسلحة الرشاشة والصواريخ	غير محدود	تدمير بلدوزر	—	—	—	وفا	٦/٢٨
٤٥	ق·ع·ق·ث·	٦/٣٠	٢٠٠	الجولان/معسكر الياقوصة	قصف	تذائف صاروخية	غير محدود	غير محدود	—	—	—	وفا	٧/ ٢
٤٦	ق·ع·ق·ث·	٦/٣٠	١١٠٠	الجولان/بانياس	قصف	صواريخ	غير محدود	غير محدود	—	—	—	وفا	٧/ ٣
٤٧	ق·ع·ق·ث·	٧/ ٢	٢٢٠٠	الخليل	كمين	أسلحة رشاشة	غير محدود	اصابة ناقلة جنود	—	—	—	ف.ث. العدد ٣(٥)	٧/١٢
٤٨	ق·ع·ق·ث·	٧/ ٣	٢٣٠	الجولان/بانياس	قصف	صواريخ ثقيلة	غير محدود	غير محدود	—	—	—	ف.ث. العدد ٣	٧/١٢
٤٩	ق·ع·ق·ث·	٧/ ٣	٢٣٠٠	الجولان/الدبوسية	قصف	تذائف صاروخية	غير محدود	غير محدود	—	—	—	ف.ث. العدد ٣	٧/١٢
٥٠	ق·ع·ق·ث·	٧/ ٣	٢٢٠٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدود	اشتعال النيران في مصنع للخمور في حي « بيت اسرائيل »	—	—	—	ف.ث. العدد ٣	٧/١٢
٥١	ق·ع·ق·ث·	٧/ ٤	١٩٠٠	ناثانيا	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدود	غير محدود	—	—	—	وفا	٧/ ٥
٥٢	ق·ع·ق·ث·	٧/ ٥	١٢٠٠	حيفا	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدود	تدمير جزء من بناية	—	—	—	وفا	٧/ ٧
٥٣	ج·ش·ق·ع·	٧/ ٥	٢١٠٠	الجليل الاعلى/كفربرعم	اشتباك	أسلحة مختلفة	غير محدود	اصابة ناقلة جنود	١	١	—	بيان عمليات ٢٠٨	تموز ٧٢
٥٤	ق·ع·ق·ث·	٧/ ٨	٢١٣٠	الخليل/زهاريا	كمين	تذائف صاروخية وأسلحة مختلفة	غير محدود	غير محدود	—	—	—	وفا	٧/١٠
٥٥	ق·ع·ق·ث·	٧/١٠	٣٠٠	الجولان/مسعد البقاع	قصف	تذائف صاروخية	غير محدود	غير محدود	—	—	—	وفا	٧/١٠
٥٦	ق·ع·ق·ث·	٧/١٠		حيفا	اتلاف جزء من خط سكة الحديد	——	غير محدود	تدهور قطار يجر صهاريج نفط	—	—	—	وفا	٧/١٠
٥٧	ق·ع·ق·ث·	٧/١١		تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	(٦)٩	تدمير جزء من مبنى محطة الباصات المركزية	—	—	—	وفا	٧/١١

(١) اعترف العدو بجرح مدير البنك شلومو شابير ومساعده وامين الصندوق افراهام مردخاي .

(٢) وردت هذه العمليات بعد صدور الجدول الماضي ولذلك رأينا ادخالها في مطلع هذا الجدول .

(٣) وفا نشرة يومية تصدر عن دائـرة الاعلام والتوجيه القومـي بمنظمة التحرير الفلسطينية صدر العدد الاول منها في ١٩٧٢/٦/٥ .

(٤) اعترف العدو بـ ١٤ اصابة .

(٥) ف.ث. : فلسطين الثورة : صحيفة اسبوعية تصدر عن دائرة الاعلام والتوجيه القومي بمنظمة التحرير الفلسطينية صدر العدد الاول منها في ١٩٧٢/٦/٢٨ .

(٦) اعترف العدو باصابة تسعة اشخاص في الانفجار وهم : حاييم منتسا ، ميشال كوهين ، راحيل نعمان ، موشيه مونيسار ، ليه سترنبونيم ، حانا سترنبونيم ، يوسف جليل ، مندلينا ملير ، يوسف ملير .

تعريف بالمصطلحات والنشرات الوارد ذكرها

١ — ج·ش·ت·ف· : الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين .
٢ — ق·ع·ق·ث· : القيادة العامة لقوات الثورة .
٣ — ط·ح·ت·ش· : طلائع حرب التحرير الشعبية — قوات الصاعقة .
٤ — ج·ش·ق·ع· : الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين — القيادة العامة .
٥ — هـ. : الهدف : مجلة اسبوعية تصدر عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في بيروت .
٦ — ط. : الطلائع : مجلة اسبوعية ناطقة بلسان اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية تصدر في دمشق .

غازي خورشيد

اسرائيليـــات

[١]
الزواج المدني هدد الحكومة بالطلاق

لم تنته المناقشات الاسرائيلية حول مشروع قانون الزواج المدنـــي الذي تقـــدم به عضو الكنيست جدعون هاوزنر ، والذي شغل الحياة السياسية في اسرائيل طيلة الشهر الفائت ، ووضع الحكومة الائتلافية أمام أزمة وزارية هددتها بالانفجار .

وعلى الرغم من ان العاصفة هدأت قليلا ، الان ، بانتهاء الدورة الحالية للكنيست ، الا ان بعض الاطراف الحزبية « الليبراليين المستقلين والمبام » في الازمة قد وقعت في مأزق حرج ، باندفاعها في البداية لتأييد المشروع ثم تراجعها المهين امـــام تهديدات رئيسة الحكومة غولدا مئير . والصيغة التي اوجدها هذان الحزبان لتبرير تراجعهما ليست تفلا للمناقشة والورطة ، وانما هي تأجيل لها الى الدورة المقبلة للكنيست .

ما هي الحكاية ؟

عضو الكنيست جدعون هاوزنر أحـــد قادة حزب « الليبراليين المستقلين » الشريـــك في الائتلاف الحكومي . وهو حزب صغير يفقد نفوذه ، تدريجيا، في الحياة السياسية الاسرائيلية ، اذ لم يحصل في الانتخابات الاخيرة الا على ٣٫٢ ٪ من أصوات الناخبين . وتشير الدلائل الى أن هذا الحزب آخذ في التدهور انتخابات بعد انتخابات . ومن هنا ، يرى بعض المراقبين في اسرائيل ان مبادرة أحد قادة هذا الحزب الى تفجير قنبلة سياسيـــة « الزواج المدني » قد يكسبه بعض العطف والتأييد في الانتخابات المقبلة وهي قريبة ، خاصة ان هذا الحزب كان يصوت في الماضي ضد مشروع قانون الزواج المدني الذي تقدمت به بعض الكتل البرلمانية ورفضه الكنيست . وقد تكون المسألة عادية لولا ان هذا الحزب شريك في الحكومة مع حزب المتدينين القوميين الذي يعتبر الزواج المدني جريمة تتنافى مع كل الشرائع اليهوديـــة ، ومع جوهر قيـــام اسرائيل ومن شأنه أن يهدد بتفجير قنبلته الموقوتة دائما « من هو اليهودي ؟ » فيشغل الحكومة الاسرائيلية والمجتمع الاسرائيلي بقضايا تعتبر من اخطر قضايا الدولة . أما الحزب الاكبر .. حزب العمل ورئيسة الوزارة غولده مئير ، فمن مصلحتهما المحافظة على حالة الهدوء بين شركائها في السلطة .

وعندما تقدم هاوزنر بمشروع الزواج المدني .. قامت القيامة . والغـــريب في الامر ان صيغة المشروع لا تتضمن حلا جذريا لهذه المسألة التي تعتبر واحدة من اخطر القضايا الاسرائيلية . انها تجد حلا ما لليهود الذين لا يتمكنون من الزواج في اسرائيل وفقا للشريعة اليهودية . ولكنها لا تجد حلا للزواج المختلط ، ولا تحرر اليهود الراغبين في الزواج من سيطرة السلطة الدينية . ومع ذلك ، فان مجرد الاقتراب من فكرة الزواج المدني ، أثار أزمة متصلة منذ اكثر من شهر ، وربما ستطول .

كان رد كتلة « التجمع » في الكنيست مطالبـــة « الليبراليين المستقلين » اصحاب المشروع بالامتناع عن تقديم مشروعهم ، وأوصت الحكومة بالتصرف طبقا لقانون المسؤوليـــة الجماعية ، واخـــراج الليبراليين المستقلين من الحكومة ، اذا اتضح انهم قد انتهكوا الاتفاق الائتلافي الذي يلزمهـــم بالطاعة . وقررت كذلك اتاحـــة الفرصة للمبام — المشترك في الحكومة ايضا — بالامتناع عن التصويت .

وأشارت غولده مئير الى خطورة المسألة بقولها انها ترى ان قضية الدين والدولة هي القضية الاكثر خطورة بالنسبة للشعب اليهودي بعد القضية الامنية . وقالت ان هذه القضية تؤرقها ولا تتيح لها امكانية الراحة . ولكن القضية اخطر من أن تجد لها حلا بتصويت عابر في الكنيست !

وقالت غولده مئير ان الحكومة التي تسمح بتفجير هذه القضية تقضي على نفسها ، وعلى الحكومات التي ستأتي بعدها .

وأعلنت رئيسة الحكومة الاسرائيلية انها ستطرد حزب الليبراليين المستقلين من الحكومة اذا أصر على تقديم مشروع الزواج المدني للكنيست .

ثم ، حذرت المبام من أن تصويته مع الليبراليين المستقلين سيؤدي الى حل الحكومة والتجمع . وأبلغت قادة مبام : اذا صوت اعضاء مبام مع الليبراليين المستقلين ، ضد موقف الحكومة ، فسأمضي الى رئيس الدولة فور انتهاء جلسة الكنيست وأقدم له استقالتي . فأجابها زعماء المبام بأنهم ملتزمون بقرار المكتب السياسي للحزب الذي يلزم أعضاء المبام في البرلمان بالتصويت على مشروع الزواج المدني .

وجرى اجتماع بين ممثلي المبام والليبراليين المستقلين لتنسيق مواقفهما في الكنيست من مشروع القرار . وقد ضغط مندوبو الليبراليين على مندوبي المبام ألا يهربوا من المعركة ، وأن يكونوا على استعداد لدفع الثمن السياسي اسوة بهم . وحاول مندوبو المبام جس نبض الطرف الاخر حول احتمال تأجيل طرح الموضوع على الكنيست الى موعد آخر ، للحيلولة دون نشوب أزمة سياسية . وأوضح الليبراليون بأنه ليس بوسعهم التراجع بعد الان ، وخاصة بعد الحملة الاعلامية الضخمة التي حظي بها مشروعهم حول الزواج المدني ، وبأنهم مستعدون للسير في المعركة حتى آخر الشوط. والجدير بالذكر ان قاعدة المبام ، وخاصة شباب الكيبوتسات ، قد استخدموا ضغطا هائلا على قيادتهم لدفعهم الى التصويت مع مشروع الزواج المدني . ومن ناحية أخرى ، أوضحت غولده مئير لهم بأنه اذا صوت الليبراليون المستقلون، وحدهم، على مشروع قرارهم، فانهم سيطردون من الحكومة، ولكن الحكومة لن تحل . اما اذا صوت المبام معهم ، فانها لا تملك طريقا آخر عدا حل الحكومة والائتلاف والتجمع ، يضاف الى ذلك نزول الاحزاب المتدينة الى ساحة المعركة ، فقد نشرت أغودات يسرائيل بيانا قالت فيه ان المحاولات المتكررة لتشريع الزواج المدني في اسرائيل قد تزعزع وحدة وسلامة الشعب اليهودي . وأعاد البيان الى الاذهان أنه عشية قيام الدولة قد التزم زعماء الوكالة اليهودية واللجنة القومية بأن يجري الزواج والطلاق في دولة اسرائيل وفقا لقانون التوراة ، وبعد قيام اسرائيل سن الكنيست قانون « محاكم الربانيم » الذي شكل الصيغة القانونية لمسألة الزواج والطلاق . وينص هذا القانون على أن زواج اليهود وطلاقهم في اسرائيل يجري وفقا لشريعة التوراة . وقالت أغودات يسرائيل ان محاولة تفريغ هذا القانون من محتواه او المس به ستؤدي الى انقسام الشعب اليهودي .

اما كتلة المتدينين القوميين فقد قررت أنه اذا لم يطرد الليبراليون المستقلون من الحكومة بسبب تقديم مشروع القرار الذي يشكل انتهاكا للاتفاق الائتلافي ، فسترى نفسها حرة في القيام بمبادرة لتقديم مشروع قرار بشأن « من هو اليهودي » الامر الذي يستدعي اجراء تعديل على قانون العودة وتسجيل السكان بما يتلاءم وروح الشريعة الدينية. وقالت الكتلة انها ستتمنع عن خلق هذه الازمة في حالة واحدة فقط هي : طرد الليبراليين المستقلين من الحكومة .

ولكن الليبراليين المستقلين أعلنوا أنهم سيخوضون المعركة . وأوضح عضو الكنيست هاوزنر — وهو صاحب المشروع — أوضح لمؤسسات حزبه ان أي تراجع أمام التهديد سيتحول الى هزيمة، وسيعرض الحزب الى الخطر في الانتخابات القادمة . ويبدو ان الحزب لم يحسن تقدير جدية تهديدات غولده مئير ، ولا سرعة المبام في التراجع . واعتقد ان المسألة ستكون في أسوأ الاحوال : اسقاط مشروع القرار عن جدول اعمال الكنيست .

وكان عناد غولده مئير قائما على اعتقادها بأن اتاحة الفرصة لليبراليين المستقلين بالخروج عن الاتفاق الائتلافي وتقديم مشروع القرار لن تجعلها قادرة على منع كتلة أخرى هي كتلة المتدينين القوميين من القيام بعمل مماثل. فكما ان الليبراليين المستقلين سيكسبون عطف الجمهور غير المتدين ، بتقديمهم مشروع قرار الزواج المدني ، كذلك ، فان المتدينين القوميين سيكسبون عطف الجمهور المتدين بتقديم مشروع قرار تعديل قانون العودة في اتجاه الشريعة الدينية .

خطورة ذلك كله — في حسابات غولده مئير — ناشئة عن اقتراب موعد الانتخابات البرلمانية ، فانها ستواجه سلسلة من الازمات الداخلية التي تؤذي هيبتها كرئيسة وزراء . ومن هنا ، قررت التصرف بحزم وشدة ، حتى لو أدى الامر الى حل

الحكومة واجراء انتخابات جديدة .

وهكذا ، كانت صورة الاطراف الثلاثة صباح تقديم المشروع على النحو التالي : (١) الليبراليون المستقلون لا يستطيعون التراجع . ولا يستطيعون مواجهة الازمة . (٢) المبام تائه بين ضغط القاعدة وقرار سكرتارية الحزب من جهة ، وبين ولعه الشديد بمقاعد الحكومة . (٣) وغولده مئير مصرة على الرفض .

فماذا حدث ؟

وقف هاوزنر — صاحب مشروع القرار — ودافع عن مشروعه بخطاب طويل . ردت عليه غولده مئير متجاهلة مشروعه . وركزت كلامها على الاتفاق الائتلافي . ثم قام ممثل المبام ، واقترح ألا يجري تصويت على مشروع قانون الزواج المدني . وافق هاوزنر. وجرى التصويت على ألا يجري التصويت. وهكذا ، انتهى كل شيء . وخرج الليبراليون المستقلون والمبام بهزيمة سياسية مهينة . فسر الحزب الاول تراجعه بأنه لم يتصور أن غولده مئير ستجعل من المسألة قضية كبيرة . وقال انه يحتاج الى وقت لتجنيد تأييد أكبر للمشروع . اما المبام — المعروف بفلسفة التبرير — فانه يرى — على لسان زعيمه مابر يعري — ان حل الحكومة سيؤدي الى حل التجمع ، وحل التجمع سيؤدي الى خلق الفوضى في البلاد . واذا خرج المبام من الحكومة « فان المجتمع الاسرائيلي سينحرف الى اليمين وسينشأ ائتلاف حكومي مع مناحم بيغن » .

هل انتهت الازمة ؟ من الصعب الاجابة على هذا السؤال الان . ان جذورها باقية لانها تمس صلب تناقضات المجتمع الاسرائيلي . ولكن موعد انفجارها أو احتدامها قد أرجىء الى موعد آخر . وقد يصعب على المرء ادراك الخطورة التي تنظر بها السلطة الاسرائيلية الى مسألة علاقة الدين بالدولة ، والى عجزها عن حل اسئلة قد تبدو بالنسبة الينا عادية مثل : من هو اليهودي ؟ ، وقانون الاحوال الشخصية . منشأ هذه الصعوبة هو أن القضية أبعد واعمق من قانون الاحوال الشخصية ، وأبعد من مسألة التدين أو عدمه . وقد اعترفت غولدا مئير بأن قضية الدين والدولة هي أخطر قضية اسرائيلية بعد قضية الامن . فالزعامة الاسرائيلية ليست متدينة في حقيقة الامر . وصرح موشه ديان ، ذات مرة ، بأنه ليس متدينا ، ولكنه يهودي وكفى . وهنا ، تختلط العقيدة الدينية مع القومية . وربما كانت المسألة اقل خطورة قبل نشوء دولة اسرائيل التي يريدها حكامها ان تكون يهودية ، الامر الذي يستدعي المحافظة على اطار ديني لهذا المبنى . فاذا سنت اسرائيل قانون الزواج المدني ، فان ذلك يعني ان اسرائيل تفقد ميزتها الاساسية ، ولا تبقى دولة خاصة تختلف عن سائر الدول . ان اسرائيل تسعى الى الاحتفاظ بهدفين : الدين اليهودي والعنصر اليهودي . وعندما تتخلى اسرائيل عن الاحتفاظ التام بالدين اليهودي ، فانها بذلك تعلن بطلان واحد من أهم دعاويها ، وتلغي ارتباطها بيهود العالم الذين لا يجمعهم بها شيء مشترك سوى الدين اليهودي . هنا — يكون الدين حاجة سياسية ، لا عقيدة دينية لدى السلطة ، وهذا هو أساس القول الصهيوني بوجود أمة يهودية عالمية . وفي هذه التربة نشأت قوة الاحزاب الدينية المتطرفة في اسرائيل التي تمارس ما يسمى بالاكراه الديني . ولكن قضية الزواج والطلاق كانت تخلق خللا دائما في معادلة الانسجام اليهودي ، فان طبيعة المجتمع الاسرائيلي وبنيته المؤلفة من يهود جاءوا من شتى الجنسيات بزواج مختلط او ابناء زواج مختلط تطرح هذا السؤال المزمن : من هو اليهودي ؟ .. لكي يمنح الجنسية . تكون المسألة سهلة الحل لو أن اسرائيل استبدلت القومية اليهودية بالقومية الاسرائيلية . ولكن ذلك يقلل من الخصوصية التي تدعيها ، اذ ليس كل اسرائيلي يهوديا . وليس كل يهودي اسرائيليا . واليهودي هو الذي تكون أمه يهودية — هكذا تقول تعاليم الدين . وهذا ما يجعل القانون الاسرائيلي معترضا على زواج اليهودي من غير اليهودية ، لان الابناء لا يكونون شرعيين . واليهودي ايضا هو من اعتنق الديانة اليهودية بناء على اجراءات خاصة أمام الحاخامية في اسرائيل .

ومن ناحية أخرى ، فان حالات الزواج المدني التي تتم خارج اسرائيل تعترف بها السلطات الاسرائيليه. وهكذا ، تكون المحافظة على معادلة « اسرائيل اليهودية » و« اسرائيل العلمانية » مسألة بالغة الصعوبة على المستوى النظري وعلى مستوى الممارسة السياسية ، وتهدد دائما بتفجير ازمات مستمرة في الحكومة الاسرائيلية ، وهي حكومة ائتلافية تتألف من احزاب دينية متطرفة ، كالمتدينين القوميين وأغودات يسرائيل ومن أحزاب غير متدينة كالعمل والمبام والليبراليين المستقلين .

في الوقت ذاته الذي هدأت فيه العاصفة حول الزواج المدني ثارت عاصفة أخرى في أعقاب الاولى حول مشروع القانون الذي تقدم به عضو الكنيست لورانس من أغودات يسرائيل بشأن اعتناق الديانة اليهودية بموجب تعاليم الشريعة « الهلخا » (الطقوس الدينية) وفسر لورانس مشروع القانون بقوله : « ان المشكلة الخطيرة في هذه الفترة هي وباء الذوبان ، وهي كارثة قومية . ان الذي يرفض الاعتراف باعتناق اليهودية حسب الطقوس الدينية انه كمن يصب الزيت على نار عملية ذوبان الشعب اليهودي » .

قالت غولده مئير : « من الاشياء التي لا جدال حولها هي انقاذ اليهودي من الذوبان ومن الزواج المختلط الذي يؤدي الى الانفصال عن الشعب اليهودي . ولكن ، أعتقد ان هناك خطأ كبيرا قد وقع وهو ما هي الطريق لانقاذ اكبر عدد ممكن من اليهود اصحاب الزواج المختلط ؟ ان نسلك الان كما كنا نسلك قبل ألف عام مثلا وكان العالم لم يتطور وكأن الشعب اليهودي غير مشتت بين الملحدين !! هل نتشدد ؟ هل نعقد الامور ؟ . لقد عارضت وما زلت أعارض الزواج المدني ، ولكن الذي أريده والذي يريده كل يهودي متدين لا يتعامى عن الامر الواقع هو أن نعمل على ألا يكون الحل عن طريق قانون مدني بل عن طريق رجال الدين ، صادر عن مجمع الحاخاميين نفسه . هذا ، ولن يتمكن رجال الدين من ايجاد اي حل اذا لم يأخذوا بعين الاعتبار الامر الواقع » .

وهكذا ، يتضح ان الازمة ليست طارئة ، لانها تمس جوهر الكيان الاسرائيلي القائم على العنصرية.

[٢]

موقف « راكاح » .. من قضيةالشرق الاوسط .. والمقاومة

.. وانعقد المؤتمر السابع عشر للحزب الشيوعي الاسرائيلي الاخر الذي يطلقون عليه اسم راكاح . وراكاح معناها « القائمة الشيوعية الجديدة » ، وهي ليست جديدة ، وليست قائمة . انها الحزب الشيوعي الذي سلبته مجموعة ميكونيس — سنيه اسمه القديم المعروف بعد عملية الانشقاق الشهيرة عام ١٩٦٥ . وبلغ الخصام بين المجموعتين حول الاحتفاظ بالاسم حدا قربهما من قاعات المحاكم لتبت في مسألة خطيرة : أيهما هو الحزب الشيوعي ؟ لولا أن مجموعة فلنر — طوبي — حبيبي تداركت الامر ورأت أنه من اللامعقول ان تعطى محكمة اسرائيلية فرصة البت في قضايا الشيوعية . ولكن غرام السلطة الاسرائيلية وهيئات الكنيست بمجموعة ميكونيس — سنيه جعلها لا تعترف باسم « الحزب الشيوعي الاسرائيلي » ككتلة في البرلمان الا لمجموعة ميكونيس — سنيه . وهكذا لم يبق أمام المجموعة الثانية الاكبر الا اسم القائمة الشيوعية الجديدة . وهي الحزب الشيوعي الذي تقول انه يواصل خط وتقاليد الحزب الذي انحرفت عنه كتلة سنيه — ميكونيس في اتجاه الصهيونية ، ووجد هذا الانحراف تعبيرا جديدا عنه في مؤتمرها الاخير الذي عالجناه في العدد الماضي من « شؤون فلسطينية » .

ومن المعترف به لدى الاوساط التقدمية في المنطقة وفي العالم ، أن راكاح هي القوة السياسية المنظمة الوحيدة التي تشكل اليسار الرافض للايديولوجية الصهيونية — نظرية وتطبيقا — في اسرائيل . ويتعرض هذا الحزب لملاحقات السلطة الاسرائيلية ومطاردتها ، خاصة بعد حرب الخامس من حزيران ١٩٦٧ . ويخضع أعضاؤه العرب — وهم الاكثرية في الحزب — لاوامر تحديد التنقل والمضايقات الشديدة وشتى انواع الاعتقالات . وقد بلغ عداء الاسرائيليين للحزب حدا عنيفا جعل زعيمه ماير فلنر يتعرض لمحاولة اغتيال . وبينما قطعت الحركة الشيوعية العالمية خطوط الاتصال والتعامل مع مجموعة ميكونيس — سنيه باستثناء رومانيا ، فان راكاح تعمقت صلاته مع الاحزاب الشيوعية العالمية التي عبرت في مناسبات عديدة عن التقدير البالغ الذي تكنه لنضال الشيوعيين في اسرائيل ضد سياسة الحكومة الاسرائيلية في جميع الميادين والممارسات ، وعن دورهم التقدمي في منطقة الشرق الاوسط .

ولقد تعرض المؤتمر السابع عشر للحزب الى اعتداء مئات العنصريين الاسرائيليين الذي هجموا على القاعة في تل ابيب ، وكسروا أبوابها وزجاجها وحاصروها طيلة ايام انعقاد المؤتمر ، مما جعل مندوبي المؤتمر يدخلون من باب جانبي . واشتركت في المؤتمر وفود عالمية كثيرة تمثل فصائل الحركة

الشيوعية ، منها : وفد عـن اللجنة المركزية للحزب الشيوعـي السوفييتي وتشيكوسلوفاكيـا وبلغاريا وفرنسا وايطاليا وغيرها .

وقد أشاد كونسطنطين غيشين عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي في كلمته التي القاها في مؤتمر راكاح بعلاقات الصداقة بين الحـزب الشيوعي السوفييتي وبين راكاح وأعرب عـن تقدير حزبه لنشاط راكاح .

وعن الوضع في الشرق الاوسط قال : « ان التوتر في المنطقة ينطوي على نتائج خطرة علـى مصير شعوب المنطقة وعلى السلام والامن في العالم كله. وقال ان الاتحاد السوفييتي يقف بحزم من أجل تسوية سياسية للازمة في الشرق الاوسط ولاحلال سلام عادل وثابت على اساس التنفيذ الكامـل لقرار مجلس الامن بما في ذلك انسحاب القوات الاسرائيلية من جميع المناطق العربية المحتلة ، واحترام الحقوق المشروعة لكل الدول والشعوب في المنطقة ، بما في ذلك حقوق الشعب العربي الفلسطيني وشعب اسرائيل » .

وأكد مؤتمر راكاح — كما ورد في رؤوس الاقلام التي أقرها المؤتمر — أن الطريق الى سلام عادل وثابت بين اسرائيل والدول العربية هو التنفيذ الكامل لقرار مجلس الامن . « فالسلام الذي سيتحقق بتنفيذ قرار مجلس الامن سيكون سلاما دائما قائما على اتفاق يوقع عليـه الطرفان . سيكون سلاما بضمانات أمن ملموسة لكل الاطراف، مثل اعلان مناطق منزوعة السلاح ، قوات دولية وضمانات من الدول الكبرى او مجلس الامن » . ويرى راكاح ان هذا الاجراء سيكون « خطـوة كبيرة الى الامام نحو علاقات طبيعية وتعاون في المستقبل . وسيكون تقدما ضخما بعد سنوات من العلاقات العدائية والحروب » .

ويرى الحزب الشيوعي ان قرار مجلس الامن هو قرار تسوية « يأخذ بعين الاعتبار الجانب المبدئي من المشكلة وهو حقوق الشعوب ، وكذلك توازن القوى العالمي » . وتعدد رؤوس اقلام المؤتمر الجوانب الايجابية لهذا القرار على النحو التالي : « ان قرار مجلس الامن قرار ايجابي ، من ناحية السلام والامن في الشرق الاوسط والعالم ، وكذلك من ناحية ضمان حقوق الشعوب ، بما فيها حقوق الشعب العربي الفلسطيني . من ناحية الشعب العربي الفلسطيني ، فان تنفيذ القرار سيعيد الى هذا الشعب اراضيه التي احتلتها اسرائيل في حرب حزيران ١٩٦٧ ، ويمكن من ان يحل — بشكل عادل — مشكلة اللاجئين العرب الفلسطينيين اي اعطاؤهم حق الاختيار بين العودة الى وطنهم وبين قبول تعويضات وفقا لقرارات الامم المتحدة » .

وعن حقوق الشعب العربي الفلسطيني جاء في رؤوس الاقلام : « ان الحزب الشيوعي الاسرائيلي يناضل طيلة الوقت من أجل أن تعترف اسرائيل بالحقوق القومية للشعب العربي الفلسطيني . لا يمكن ان يحل سلام عادل في منطقتنا ، ولا يمكن ان يقوم أمن لشعب اسرائيل ، بدون ضمان الحقوق القومية للشعب العربي الفلسطيني الى جانب الحقوق القومية للشعب الاسرائيلي.ويناضل الحزب باستمرار من أجل احترام حقـوق الشعب العربي الفلسطيني العادلة الى جانب الحقوق العادلة للشعب اليهودي في البلاد ، كشرط لاحلال سلام عادل ووطيد » .

ويحدد الحزب الاساس الذي يقوم عليه الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني وشعب اسرائيل على النحو التالي : « لقد خلق قرار الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة من ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ الاساس الدولي القانوني لتجسيد حـق تقرير المصير لكلا الشعبين . في عام ١٩٤٨ جسد شعب اسرائيل حقوقه القومية بينما حرم الشعب العربي الفلسطيني من ذلك . ولذلك ، رأى حزبنا ان الطريق المؤدية الى السلام ، والتي تتضمن اعتراف الدول العربية بحق قيام دولة اسرائيل ، هي طـريق اعتراف اسرائيل بالحقـوق القوميـة للشعب العـربي الفلسطيني ، وقبل كل شيء — حق اللاجئين العرب في الاختيار بين العودة الى وطنهم وبين قبـول التعويضات ، طبقا لقرارات الامم المتحدة . لقد طالبنا بحل المسألة القومية ، بما فيها المسألة الاقليمية ، على اساس حق تقرير المصير للشعوب ووفقا للمصلحة العامة للسلام والنضال ضـد الامبريالية ومن اجل التقدم الاجتماعي » .

وتضيف رؤوس الاقلام : « ان الاوساط الحاكمة في اسرائيل ، والقيادة الصهيونية ، والاستعمار الامريكي قد وضعوا نصب اعينهم هذا الهدف من أهداف حرب حزيران : تصفيـة حقوق الشعب العربي الفلسطيني — بالحسم العسكري — مرة واحدة والى الابد . وقد فشلوا في تحقيق هذا

الهدف ، فالشعب العربي الفلسطيني لم يمح من الخارطة السياسية في الشرق الاوسط ، وانما تحول الى عامل كبير الوزن في منطقتنا ، بشكل لم يتوفر قبل الحرب . فان حرب حزيران ، والاحتلال ، وتأزم قضية اللاجئين قد أدت الى تطور حركة عربية فلسطينية جماهيرية . واخذت المنظمات الفلسطينية طابعا جديدا . وتحولت الى حركة جماهيرية وطنية معادية للاستعمار ، تناضل ضد الاحتلال ومن أجل الحقوق القومية للشعب العربي الفلسطيني » .

ما هو رأي الحزب الشيوعي « راكاح » بهذه الحركة .. حركة المقاومة ؟

تقول رؤوس الاقلام :

« ان النضال الناجح ضد التوسع الصهيوني ولاحباط المؤامرات الاستعمارية في منطقتنا لا يتم الا على أساس برنامج ديموقراطي ، يأخذ بعين الاعتبار الحقوق العادلة لكل الشعوب ، والذي من شأنه أن يدفع كل الشعوب للنضال المعادي للاستعمار ، وان يكسب تأييد العالم الاشتراكي وتأييد سائر القوى المناهضة للاستعمار . ان نقطة الانطلاق اللينينية لاي حل اساسي للقضية الفلسطينية ، ككل قضية قومية اخرى هي : حقوق الشعوب واستقلالها ، ومصلحة النضال ضد الامبريالية ، والتقدم الاجتماعي ، وقضية السلام والامن الدوليين . والمسألة القومية يكون شكل حلها دائما عينيا ، وفقا للزمان والمكان . ففي هذه البلاد أمتان ، وكل حل يأخذ بالحسبان حق تقرير المصير لواحدة منهما فقط — لا يكون صحيحا مبدئيا ولا يكون واقعيا . ولذلك ، فان البنود الواردة في برنامج منظمات المقاومة الفلسطينية ، التي تنفي حق قيام دولة اسرائيل — تستغل كسلاح سياسي هام بأيدي حكام اسرائيل والمنظمات الصهيونية والدعاية الامبريالية » .

هذا اولا . وعن مشروع الدولة الديموقراطية ثانيا ، تقول رؤوس الاقلام :

« بحث بين مختلف اوساط منظمات المقاومة برنامج اقامة دولة فلسطينية ديموقراطية . مثل هذا البرنامج ليس صحيحا . فليس السؤال المطروح على بساط البحث الان هو : هل تقام دولة اسرائيل ام لا تقام . ان قيامها أمر واقع تعترف به الامم المتحدة ودول العالم في الشرق والغرب على السواء . وان اي برنامج يقوم على تصفية دولة اسرائيل هو ليس برنامجا غير عادل وغير واقعي فحسب ، ولكن معناه أيضا هو الحل عن طريق الحرب ، وذلك ما يتعارض مع مصالح كلا الشعبين ، وكل شعوب المنطقة وسلام العالم . ان طرح برنامج دولة فلسطينية ديموقراطية ، تمنح فيها حقوق متساوية للمواطنين العرب واليهود على السواء ، .مع الغاء الدولة الاسرائيلية ذات السيادة كشرط لحل القضية الفلسطينية — ليس صحيحا مبدئيا ويسهل على الاعداء المشتركين للشعب العربي الفلسطيني وشعب اسرائيل — الاستعمار واعوانه فياسرائيل وفي الدول العربية».

وتضيف رؤوس الاقلام : « في المستقبل البعيد ، قد يؤدي التطور الى امكانية نشوء اتحاد لدول المنطقة . ولكن ، مهما كان التطور فان الاتصال بين الدول بهذا الشكل أو ذاك لا يتم الا نتيجة الارادة الحرة للشعوب . وحزبنا الشيوعي أكد دائما على الطريق الصحيح الذي ينبغي السير عليه لكي تصل دولة اسرائيل الى السلام والتعاون مع الشعوب العربية ، والشعب العربي الفلسطيني، يتجسد هذا الطريق بشعار : « مع الشعوب العربية ضد الاستعمار ، وليس مع الاستعمار ضد الشعوب العربية » .

ويلخص الحزب الشيوعي موقفه من حركة المقاومة بالصيغة التالية : « ان حزبنا الشيوعي الاسرائيلي يرى في نضال الشعب العربي الفلسطيني نضالا معاديا للاستعمار . ونحن متضامنون مع هذا النضال ضد الاحتلال ، ومن اجل الحقوق القومية المشروعة العادلة » .

ويرى الحزب ان المهمة الحالية لكل القوى التقدمية تستدعي تضافر الشعوب في المنطقة في نضال مشترك منأجل تنفيذ قرار مجلس الامن«الذي سينزل ضربة جادة بالامبريالية الامريكية وأعوانها الصهيونيين، ويحل قضايا أساسية للشعب العربي الفلسطيني ، ويحرر الدول العربية المجاورة من الاحتلال ، ويخلق ظروفا أفضل لتطورات اجتماعية تقدمية في بلدان المنطقة » .

ويعترض الحزب الشيوعي على الدعوات الصادرة من اسرائيل بانشاء « كيان فلسطيني » أو « اعطاء حق تقرير المصير للشعب العربي الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة » . وجاء في رؤوس الاقلام : « ان الهدف من هذه المشاريع هو تخليد

الاحتلال وتحويل المناطق المحتلة الى مستعمرة اسرائيلية ، فطالما الاحتلال الاسرائيلي مستمر — لا تكون هذه المشاريع غير شعارات خداع . عندما يوضع حد للاحتلال ، تخلق الظروف لتجسيد حق تقرير المصير للشعب العربي الفلسطيني ، بالغاء الاحتلال فقط توجد الظروف التي تمكن الشعب الفلسطيني من التقرير حول طابع استخدام حقه في تقرير المصير » .

● وسد المؤتمر السابع عشر للحزب الشيوعي « راكاح » ثغرة في نضاله الايديولوجي كما فعل في مؤتمره السابق وهي النضال ضد الايديولوجية الصهيونية ، فقد قرر المؤتمر « مضاعفة وتعميق النضال الايديولوجي ضد الصهيونية ، مع مضاعفة الجهود لتضافر كل القوى في جبهة عمالية موحدة وفي جبهة سلام اوسع » .

وحددت رؤوس الاقلام أن « الايديولوجية والممارسة الصهيونية رجعيتان للاسباب التالية : لان منطلقها قومي وعنصري ، فهي تدعي ان حل المسألة اليهودية وتحرر اليهود من الملاحقة واللاسامية لا تتم الا بمغادرة اليهود البلدان التي يعيشون فيها والهجرة الى اسرائيل . وهنا ، تلتقي الصهيونية واللاسامية في مصدر واحد : العنصرية . وفي هدف واحد : التفرقة بين الكادحين أبناء الشعوب المختلفة .

● الايديولوجية الصهيونية تدعو الكادحين اليهود الى الانفصال عن سائر الكادحين ابناء الشعوب الاخرى ، والى تشكيل جبهة واحدة ومنظمة واحدة مع البرجوازية اليهودية ومع العدو الطبقي من أجل تحقيق الاغراض الصهيونية . وهكذا تؤدي الى تقسيم العاملين الى يهود وغير يهود .

● تقول الايديولوجية الصهيونية بوجود امة يهودية عالمية ، ومصالح فوق — طبقية مشتركة لكل اليهود في العالم . وتحاول أن تخلق ، بشكل مصطنع ، أمة واحدة من ناس لا يعيشون على أرض مشتركة وفي ظروف اقتصادية مشتركة ولغة مشتركة وثقافة مشتركة ، وفي الواقع ليست هنالك أمة يهودية عالمية ، بل توجد حركة صهيونية عالمية.

● الحركة الصهيونية تتآمر على النظام الاشتراكي منذ ثورة اكتوبر . انها تخدم الامبريالية ضد الانظمة الاشتراكية .

● الصهيونية تعمل ، طيلة تاريخها ، في خدمة الامبريالية ، والزعماء الصهيونيون تعاونوا ويتعاونون مع الدول الامبريالية ضد قوى الاشتراكية والتحرر الوطني .

● الصهيونية في الشرق الاوسط تستخدم أداة عسكرية وسياسية في أيدي الامبريالية ضد الحركة القومية العربية ، وضد القوى والدول المعادية للاستعمار في المنطقة . وان ما يميز السياسة الصهيونية في البلاد قبل اقامة اسرائيل وبعدها هي ، الشوفينية المعادية للعرب ، سلب أراضي الفلاحين العرب ، احتلال الارض واحتلال العمل، والتطلع الى الحد الاقصى من التوسع الاقليمي مع الحد الادنى من العرب .

● الايديولوجية والتطبيق الصهيونيان يتناقضان مع مصالح الكادحين اليهود في كل بلد . ومع المصالح القومية لشعب اسرائيل .

وقد أقر مؤتمر « راكاح » برنامج الحزب في المرحلة الراهنة . وقال ان « هذا البرنامج ديموقراطي ومعاد للاستعمار يؤدي تنفيذه الى تغيير أساسي في السياسة الاسرائيلية ، والى قطع ارتباط اسرائيل بالامبريالية والاحتكارات الاجنبية ، والى ضمان سلام وتعاون مع الدول العربية ، وعلاقات صداقة وتفاهم مع الشعب العربي الفلسطيني على أساس الاحترام المتبادل للحقوق » . ويتألف البرنامج من النقاط التالية : قطع الارتباط بالاحتكارات الاجنبية والدول الاستعمارية . السعي لاحلال سلام عادل ومقيم بين اسرائيل والدول العربية (على أساس التنفيذ الكامل لقرار مجلس الامن الذي يستدعي الانسحاب الاسرائيلي من كل المناطق المحتلة) . انتهاج سياسة استقلال اقتصادي وتطوير الاقتصاد القومي . الدفاع عن حقوق ومصالح الطبقة العاملة والفئات الشعبية . ضمان المساواة في الحقوق للمواطنين العرب في اسرائيل . صيانة الحقوق الديموقراطية وتوسيعها من أجل الثقافة والتعليم الديمقراطي .

م ٥ د ٥

نعواس سوبر ماركت

(للرحلات الجوية)

اسم الرحلة	التاريخ ١٩٧٢	أماكن الزيارة	ل. ل.
FLAMENCO	٣ ــ ١٨ ايلول	اسبانيا ــ الاندلس ــ البرتغال (مع جولة بالاوتوبيس الفخم)	١٤٧٥
PANORAMA	٢ آب ــ ٣ أيلول	ميلانو ــ لوزان ــ باريس ــ لندن ــ أوسلو ــ اوربــيرو ــ ستوكهــولم ــ جونكوبينغ ــ كوبنهاغن ــ هامبورغ ــ برلين ــ نورنبرغ ــ سالزبورغ ــ بولزانو ــ فنيس (البندقية) ــ فلورنسا ــ روما (الرحلة بالطائــرة والاوتوبيس الفخــم والبواخر السياحية)	٢٤٠٠
SOPHISTICATED	٥ ــ ٢٢ آب	فيينا ــ هامبورغ ــ امستردام ــ لندن ــ باريس ــ نيس	١٨٠٠
SUPERSONIC	٩ ــ ٣١ آب	كوبنهاغن ــ ستوكهولم ــ هامبــورغ ــ امستردام ــ لندن ــ باريس ــ فيينا	٢٢٩٠
PLAY GROUND	١٢ ــ ٢٧ آب	روما ــ زوريخ ــ امستردام ــ باريس ــ لندن	١٧٣٠
GAY	١٩ ــ ٣١ آب	باريس ــ أمستردام ــ كوبنهاغن ــ لندن	١٥٧٥
CADILLAC	٢٥ آب ــ ١٤ ايلول	رومــا ــ نيس ــ باريس ــ لندن ــ بروكسل ــ برلين ــ فيينا	٢٠٥٠
ARTISTICO	٢ ــ ١٦ أيلول	اثينا ــ زوريخ ــ فرنكفورت ــ كوبنهاغن ــ لندن	١٦٧٥
SHOPPING	٩ ــ ٢٠ أيلول	روما ــ باريس ــ لندن	١٣٩٠
FINALE	١٦ ــ ٢٨ أيلول	فرنكفورت ــ باريس ــ امستردام ــ لندن	١٥٠٠
PELERINAGE	٣ ــ ١٣ آب	لزيارة الاماكن المقدسة : روما ــ لورد ــ باريس	١٢٩٠
ROMANTICO	٣ ــ ٢٤ آب	روما ــ لورد ــ باريس ــ لندن ــ جنيف ــ زوريخ ــ فنيس ــ ميلانو	١٩٥٠
FANTASTICO	٢٤ آب ــ ٩ أيلول	روما ــ لورد ــ برشلــونه ــ مدريد ــ غرناطة ــ قرطبة ــ اشبيلية ــ لشبونة ــ فاتيما ــ (بالاوتوبيس الفخم)	١٦٥٠

وكالة نعواس للسياحة :

بيروت : شارع السادات ــ تلفون ٣٤٦٠٦٠ ● شارع رياض الصلح ــ تلفون ٢٤٠٢٨٥
عمان : شارع السلط ــ تلفون : ٢٢١٨٤ ــ بالاشتراك مع طيران الشرق الاوسط
الخطوط الجوية اللبنانية M E A .


AL-JAMHOUR
الجمهور

Palestine Affairs

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor*, Dr. Anis Sayegh; *Annual Subscription* (airmail): LL. 30 in Lebanon and the Arab World, LL. 50 ($ 16) in Asia, Africa and Europe; LL. 80 ($ 26) in the Americas and Australia; *Annual Subscription* (Surface mail): LL. 40 ($ 13) in countries outside the Arab World. *Address :* P. O. Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351260; Cables: MARABHATH.

السعر ٢١/٢ ل.ل. في الوطن العربي او ما يعادلها

شؤون فلسطينية

١٣

ايلول (سبتمبر) ١٩٧٢



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ١٣ — ايلول (سبتمبر) ١٩٧٢

دورية فكرية لمعالجة احداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر شهريا عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني
(متفرع من السادات) ، راس بيروت ، بيروت — لبنان ،
ص. ب ١٦٩١ ، تلفون ٣٥١٢٦٠ ، برقيا مرأبحاث ، بيروت .

ثمن العدد (بريد جوي) : ٢/١ ٢ ل.ل. في لبنان وسائر الوطن العربي، ٤ ل.ل. في آسية وافريقية واوروبة ، ٦ ل.ل. في الاميركتين واوسترالية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٣٠ ل.ل. في لبنان والوطن العربي، ٥٠ ل.ل. (١٦ دولارا اميركيا) في آسية وافريقية واوروبة، ٨٠ ل.ل. (٢٦ دولارا اميركيا) في الاميركتين واوسترالية . (بريد عادي) ٤٠ ل.ل. (١٣ دولارا اميركيا) في سائر الدول الاجنبية .

يعطى حسم ٥٠٪ (عدا البريد) على الاشتراكات للمقاتلين والعمال اذا جاءت الطلبات من خلال التنظيمات او النقابات او الاتحادات .

صورة الغلاف : يافا في القرن التاسع عشر

المحتويات

شؤون فلسـطينية

الدكتور أنيس صايغ

يعز علي أن يصدر هذا العدد الثالث عشر من شؤون فلسطينية دون أن التقي بالقراء ولو على صفحة واحدة لاحدثهم عن شؤون المجلة وشجونها كما كنت افعل منذ ان صدر العدد الاول قبل سنة ونصف السنة . وليعذرني الذين أرادوا أن أبتعد عن المجلة وعن مركز الابحاث (وربما ارادوا ايضا ان يوقفوا المجلة وأن يغلقوا مركز الابحاث) عندما أرسلوا الي رسالتهم المتفجرة، وليعذرني أيضا الاطباء الذين يعالجوني بكفاءاتهم وبقلوبهم اذا عصيت اوامرهم، بخصوص عدم تعاطي الكتابة ولا حتى الاملاء قبل مضي عدة أشهر، لاول مرة منذ الحادثة قبل شهر وأمليت هذه الاسطر القليلة لالتقي بالقراء الاعزاء لقاء سريعا ولاحدثهم هذه المرة عن شؤوني وشجوني أنا شخصيا .

والواقع انها مجرد كلمة شكر .

كلمة شكر للآلاف من المستفسرين والمستنكرين والمحبين والاصدقاء (دون معرفة سابقة بعدد كبير منهم) الذين أبدوا ، بزياراتهم ورسائلهم وبرقياتهم ، عطفا كبيرا واهتماما زائدا ، سواء أكانوا أفرادا أو مؤسسات . ولم يكن يخطر لي ان لشؤون فلسطينيـة ولمركز الابحاث ولي هذا العدد الضخم من الاخوان الذين غمروا المجلة والمركز وغمروني شخصيا بعواطف سأعتز بها وأعيش على ذكراها ما حييت .

وكلمة شكر للاطباء والجراحين في مستشفى الجامعة الاميركية الذين عهد اليهم بأمري منذ ان نقلت اليهم بين الحياة والموت ، الذين تمكنوا من الاحتفاظ لي بجزء من بصري وجزء من سمعي والذين عالجوا الجروح والحروق بمهارة شديدة . واقدم الشكر أيضا الى ادارة مستشفى الجامعة والى المرضين والمرضات الذين يوفرون لي افضل أنواع الخدمة الطبية والراحة النفسية .

وكلمة شكر لزملائي وزميلاتي في مركز الابحاث ، من باحثين واداريين ، الذين اثبتوا من جديد ان العاملين في المركز انما هم أسرة واحدة يتفانى أفرادها في خدمة بعضهم بعضا ، واخص بالذكر الاخوان والاخوات الذين سهروا الليالي الطويلة على حمايتي وحماية المركز من غدر جديد من العدو وبالوقت نفسه استمر العمل والانتاج في مركز الابحاث على ما عهده المواطنون في هذه المؤسسة الفكرية الفلسطينية .

كلمة الشكر الكبرى انما أوجهها الى الذين أرسلوا الي تلك الرسالة المتفجرة — سواء أكانوا جهازا اسرائيليا اصيلا أو جهازا اسرائيليا بالعمالة والتبعية . فقد اتاحوا لي ان اخوض شرف النضال الحقيقي في سبيل فلسطين الذي لا ينحصر بكتابة المقالات واصدار البحوث والمساهمة ببناء الفكر الفلسطيني الجديد بل يتعداه كثيرا ليصل الى درجة بذل الدماء . وليعلم هؤلاء الاسرائيليون الاصيلون والاسرائيليون بالعمالة اننا في سبيـل فلسطين نعيش وفي سبيل فلسطين نموت ، وان فلسطين ستبقى ولو زال بعض ثوارها . وعلى العكس ، أن فلسطين تتغذى بأجساد ثوارها وتنتعش بدمائهم . وكلما ازداد ضحايا الغدر الصهيوني ، الصهيوني بالاصالة او بالعمـالة ، ازدادت قدرة الشعب الفلسطيني وآماله بتحرير الوطن واستعادة الارض واعادة بناء فلسطين الخالدة من النهر الى البحر .

هكذا خطفت طائرة البوينغ

ليلى خالد

خصت ليلى خالد « شؤون فلسطينية » بهذا الجزء من الفصل الخامس من الكتاب الذي سيصدر لها قريبا ، بالانكليزية ، عن Bantam Books بعنوان My People Shall Live وتروي ليلى ، في هذا الفصل ، قصة خطف طائرة البوينغ الاميركية في التاسع والعشرين من آب ١٩٦٩ .

ينهم خصوم العرب واحيانا اصدقاؤهم العرب بالعاطفية وحب التظاهر واستعمال الكلام المنمق . ومن حقي كامرأة عربية فلسطينية ان أكون عاطفية نحو قضية فقدان وطني ، وانكار حاضري ومستقبلي علي وحرماني من العيش وشعبي . ولكني لن اخضع للعاطفية ولن اسمح لمشاعري ان تعمي بصيرتي وتنسف ثقتي في قدرة شعبي على تحرير ارضه . وبالرغم من قوة العدو المهيمنة فانني اميل الى الاعتماد على الايديولوجية والستراتيجية الثورية والتعبئة الجماهيرية الثورية أيضا في تحقيق اهدافنا . ولذلك اخترت ان اكون في عملي حليفة للعقل ، لا العاطفة . ان الحزب الذي انتمي اليه وهو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين يفكر ويحلل اولا ثم يقدم بعد ذلك على العمل . اننا في الجبهة الشعبية لا نرغب مجرد رغبة ثم نترجمها الى عمل . اننــا نوجز اولا بوضـــوح العمل المقترح والخيارات القائمة امامنا وندرس مضامينها وتأثير كل منها على الصورة الشاملة ثم نختار أكثر السبل فعالية في تنفيذه . اننا نحدد العدو ونفكر ونحسب ثم نعمل . اننا، وفقا لنمط تفكيرنا ، نحدد العدو ونتعرف على مكامن قوته وضعفه ، وقدرته على العيش وامكانية ضربه واختراقه ، ومناطق دعمه ، وارتباطاته ومعارضته على الصعيد الدولي. ونجد في معالجتنا المسألة الصهيونية ان هناك علاقة عضوية بين اسرائيل والمنظمـــة الصهيونية العالمية والامبريالية الغربية . واحيانا نرى فروقات صغيرة بين هذه القوى. الا ان تلك القوى هي بصورة أساسية شيء واحد لا يتجزأ طالما يتعلق الامر بالعـــالم العربي عموما والشعب الفلسطيني خصوصا . وعلى سبيل الايجاز نقول : اننا نرى ان التناقض الرئيسي هو بيننا وبين قوى التقدم والاستنارة من جهة وبين الامبريالية وقوى الرجعية من جهة اخرى . ومعنى ذلك ان اسرائيل تجسد المثال الامبريالي — الصهيوني والقوة المحتلة في فلسطين وانها تلعب دورا مركزيا في العالم هو دور الحارس الامبريالي أو « القوة المحلية » على حد تعبير روبرت مكنمارا عندما صور دور الدول الطيبة التابعة لاميركه في خطابه الذي القاه في مونتريال بكندا في العام ١٩٦٤ . وبمـــا ان الامبريالية ظاهرة عالمية تمتد مصالحها على اتساع العالم ولها فيه مصالح استراتيجية حيوية فانه يغدو طبيعيا في عصر مبدأ « الرد المرن » العسكري ان يكون رد المستغلين متناسبا مع مقتضيات الحرب ومتطلبات الساعة . ولذلك نرى ضرورة مقاتلة قوة العدو المهيمنة في نقاط الضعف في جهازه القمعي العالمي . بمعنى اخر ، اننا نعمل ما تمليه طبيعة العدو

وبدافع الفجوات القابلة للاختراق التي نحددها في جهازه . وبايجاز اكثر ، اننا لا نقوم بأعمال فردية مغامرة ورومنطيقية لتحقيق « حاجات فردية » او « نعمل بدافع مرارات وعداوات » كما يحلو لعلماء النفس الغربيين « العلميين » ان يفترضوا . اننا نعمل بشكل جماعي ووفق خطة مدروسة لتحييد صديق متوقع للعدو او لكشف عصب حيوي من أعصاب العدو لتمزيقه وارهابه وقبل كل شيء لعرض حالتنا نحن وللتعبير عن عزمنا الاكيد على تغيير « الوقائع الجديدة » التي خلقها جيش موشه دايان . وبناء على ذلك فاننا نعمل عموما ليس لشل وتعطيل العدو لاننا عاجزون عن القيام بذلك ، بل نعمل من اجل نشر الدعاية الثورية ، ومن اجل بذر الارهاب في قلب العدو ، وتعبئة الجماهير ، وتعميم قضيتنا على الصعيد العالمي ، وحشد قوى التقدم الى جانبنا ، والتأكيد على مظالمنا امام الرأي العام الغربي الذي لا يستجيب وذلك بوحي من الصهيونية وبناء على المعلومات التي يحصل عليها عن طريق الصهيونيين . وعلى حد قول احد الرفاق : اننا نعمل ببطولة في عالم جبان لنثبت بطلان القول بأن العدو لا يقهر . اننا نعمل بعنف من اجل ازالة الصمغ من آذان الليبراليين الغربيين الصم ومن اجل ازالة القذى من عيونهم . اننا نعمل كنماذج ثورية لنوحي للجماهير ونفجر الجيشان الثوري في عهد الثورة المضادة .

ان الامر بصورة اكثر وضوحا هو انني لا ارى كيف يستطيع مضطهدي أن يحكم على ردي على أعماله القمعية . انه لا يستطيع ان يصدر حكما غير متحيز ولا أن يتهمني بالقرصنة الجوية والاختطاف بعد أن سرق هو نفسه وطني والقى بي وبشعبي خارج ارضنا . واذا كان العدو يحدد اخلاقيته وقانونيته وفقا لمنظوره الخاص ويقرر تنفيذ مبادئه الاخلاقية والقانونية ضدي لانه يملك القوة ووسيلة الاتصال لتبرير وحشيته فانني لست ملزمة بأن أصغي اليه . دع عنك طاعة ما يمليه . والواقع أنني ملزمة ادبيا بمقاومة ومقاتلة غطرسة العدو وفساده الاخلاقي حتى الموت . أضف الى ذلك انني أجرؤ على القول بأن اولئك الذين يصغون الى العدو ويرددون بقوة حديثه المزيف والمتحايل عن « المسافرين الابرياء » وكلامه التافه عن حياتهم وما يملكون هم مذنبون بسبب عجزهم اذا لم اقل فسادهم الاخلاقي . وهكذا فانه يجب ان يكون واضحا ان عملي لا يمكن تقييمه بمعزل عن الواقع وبدون تفحص الاسباب الكامنة وراءه ، او على أساس المبادىء الاخلاقية الغربية المطلقة والمجردة التي تحل العدو من جرائمه والغرب من اخطائه والتي تعتبرني خارجة على القانون . انني اقول اننا موجودون وسنبقى في الوقت الذي يقول الغرب واسرائيل اننا غير موجودين ولن نوجد . ذلك بصورة جوهرية هو معنى العمل الثوري الذي نفذته في التاسع والعشرين من آب ١٩٦٩ ، والذي كان انكارا لانكاري وتأكيدا على انسانيتي المهانة واعلانا لانسانية الفلسطيني . انني في المسرحية التي تتكشف فصولها في الشرق العربي عبارة عن ردة الفعل لمخططات المنطقة ولست صاحبة تلك المخططات . اننا نواجه عدوا عنيدا حقودا تصل اطرافه الى كل محكمة غربية واحيانا الى محاكم بلدان كنت اظن ان مصيرها مرتبط بمصيرنا . لذلك ابدا بالمسألة الحقيقية وهي ان الامبريالية الغربية هي العدو . ليس ذلك تلفيقا من نسج خيالي او اختراعا تم في بكين او موسكو . ان لعالمنا تاريخا مستمرا من التفاعل مع الغرب منذ غزا نابليون مصر في العام ١٧٩٨ . لقد اتصل الفلسطينيون مباشرة بالصهيونية السياسية منذ بدايتها في العام ١٨٩٧ ، وعاشوا تحت الاحتلال والانتداب البريطانيين من ١٩١٨ الى ١٩٤٨ . ومنذ العام ١٩٤٨ شرد شعبي وصرت لاجئة في لبنان والكويت . وبايجاز انني أعرف الغرب من خلال التاريخ ومن خلال الخبرة الشخصية ولست بحاجة الى ان ابالغ في عرض قضيتي كي تبدو مثل رواية علمية خيالية للذين يجهلونها ولا علم لهم بها . انها قصة لا تصدق لدرجة انها تبدو خيالية . دعني اوجز أعمال الغرب وأبين لا اخلاقيته

ونفاقه وتشابكه المادي والعضوي مع اسرائيل ، تلك الاعمال التي تجعل من الغرب عدوي وصديق الصهيونية التي هي عبارة عن نفي انسانيتي .

اولا : لقد كفرت المانيه بالنسبة للصهيونية عن احراقها ستة ملايين يهودي بدفعها مبلغ تسعة ملايين بليون مارك على شكل تعويضات الى دولة اسرائيل ، ملجـأ اليهود الصهيونيين . ومنذ العام ١٩٦٥ ايدت المانيه كليا تقريبا اسرائيل وخاصـة قبل حرب حزيران واثناءها عندما قدم مستشار المانيه النازي السابق « اقنعة واقية من الغازات » الى الاسرائيليين لحمايتهم من « الحرب الجرثومية العربية » . وقامت اسرائيل من جهتها باستقبال جوزف شتراوس وباعت المانيه رشاشات اسرائيلية من نوع عوزي .

ثانيا : لم تكتف فرنسه بتزويد اسرائيل بطائرات المستير والسوبر مستير والميراج فقط بل ذهبت ابعد من ذلك فسمحت للاسرائيليين « بسرقة » الزوارق الحربية من شيربورغ ، الامر الذي يتعارض ورغبات الجنرال شارل ديغول الذي قام بدوره بمجرد « اعفـاء » الجنرال الذي سلم الزوارق الى اسرائيل . وكان غاي موليه ، رئيس وزراء فـرنسه الاشتراكي السابق ، قد تواطأ مع بن غوريون وانطوني ايدن في غزو مصر عسكريا في العام ١٩٥٦ . وقامت فرنسه بتزويد اسرائيل بالمعرفة والمواد العلمية لتقوم بصناعة القنبلة الذرية في ديمونة واطلقت على مصنع انتاج البلاتينيوم اسم «مصنع نسيج» .

ثالثا : اما سويسرة البلد المحايد منذ مؤتمر فيينه في العام ١٨١٥ فلم تقم فقط باعتقـال الثوريين العرب واطلاق سراح المجرمين قتلة الفلسطينيين بل اغمضت عينيها ايضا عن الخاطفين الصهيونيين الذين قتلوا العلماء الذين كانوا يعملون مع شعبي . ولم تعـاقب سويسره عمليا الصهيونيين الذين سرقوا اسرارها هي واخذوا تصاميم المستير .

رابعا : ان بريطانيه مدانة بكل جريمة يمكن تصورها ارتكبت بحق شعبي . ان جريمتها التاريخية البارزة هي قضاؤها على شخصيتي وسلبها ارضي ومحوها تاريخي .

خامسا: والولايات المتحدة الاميركية تابعت الجريمة التيارتكبتها بريطانيه ضدنا واكسبتها ديمومتها . فقد زودت الولايات المتحدة الاميركية اسرائيل بصواريخ هوك وبالطائرات القاذفة ــ المقاتلة من طراز سكاي هوك وفانتوم . ان اميركه هي المدافعة عن اسرائيل وحاملة قضيتها وداعيتها وممولتها على كل منابر العالم ، وفي كل مؤتمرات اصحـاب البنوك . ان اميركه هي اسرائيل ، واسرائيل هي اميركه واوروبه مجتمعتين في فلسطين .

انني لا اريد ان اثقل القارىء بادانة الغرب بسبب جرائمه التي ارتكبهـا ضدي وضد شعبي لان ذلك وحده يحتاج مجلدا بحد ذاته . انني اريد فقط ان اقدم بعض الاشارات الى سياسات زعيمة الامبريالية الولايات المتحدة الاميركية كـي اوضح توقيت عملـي الثوري وابين الى جانب ذلك المرارة والعداوة اللتين نكنهما للامبريالية الاميركية .

كان من المقرر ان يلقي الرئيس الاميركي ريتشارد نيكسون خطابا امام المؤتمر الصهيوني السنوي الثاني والسبعين لمنظمة الصهيونية الاميركية في التاسع والعشرين مـن آب ١٩٦٩ . وكانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تعلم ما سيقوله ريتشارد نيكسون لانه كان قد قاله قبل ذلك بصورة قوية جدا اثناء قيامه بزيارة اسرائيل « الظافرة » في آب ١٩٦٧ بعد حرب حزيران . لقد قال للاسرائيليين آنئذ انهم يكونون « اغبياء اذا تخلوا عن اي من المناطق التي احتلوها اثناء الحرب دون تلقي ضمانات من اجل سلام عادل » ، ذلك السلام الذي كان الزعماء الاسرائيليون يطالبون به . اضف الى ذلك ان ريتشـارد نيكسون ظهر مع هيوبرت همفري مرشح الحزب الديمقراطي لرئاسة الجمهورية امـام جمعية بناي بريت اليهودية في الثامن من شهر ايلول في العام ١٩٦٨ ، عندما انتهز همفري الفرصة لالقاء اول خطاب رسمي في حملته الانتخابية اوضح فيه ولاءه وصداقته نحـو

« صهيون المعاصر » . وبما أن همفري فشل في انتخابات الرئاسة في تشرين الثاني فان ما قاله أقل قيمة مما صرح به الفائز في تلك الانتخابات ريتشارد نيكسون . وفيما يلي ما قاله نيكسون المدافع « غير المتحيز » عن اسرائيل في العام ١٩٦٨ ومزود اسرائيل بطائرات الفانتوم المقاتلة — القاذفة في كانون الثاني ١٩٦٩ أمام جمعية بناي بريت ، المنظمة الصهيونية ذات « النزعة الانسانية » التي لها فروع في ثلاثة وخمسين بلدا : « يجب ان تمتلك اسرائيل قوة عسكرية كافية تمكنها من ردع أي هجوم . وطالما يبقى خطر الهجوم العربي مباشرا ومرتقبا تعني القوة الكافية ان يكون الميزان في صالح اسرائيل . من أجل ذلك — أي تزويد اسرائيل بالقدرة الدفاعية الذاتية — اؤيد السياسة التي تعطي اسرائيل درجة من القدرة العسكرية التكنولوجية ينقلب معها التفوق العددي لدى جيرانها . واذا تطلب الحفاظ على تلك الدرجة تزويد الولايات المتحدة اسرائيل بالطائرات النفاثة من طراز ف — ٤ فانه يتوجب علينا القيام بذلك » .

وبما أن ريتشارد نيكسون كان جادا في كلماته التي عبرت عن التزامه نحو اسرائيل ، وبما ان اعماله اللاحقة كانت تجسيداً ماديا لتلك الكلمات ، فانه يغدو حريا بنا أن نقدم مقتطفتين أخريين من الخطاب الشهير ذاته الذي القاه امام جمعية بناي بريت . قال نيكسون « ان خطر الحرب يزداد باطراد مباشر مع ازدياد ثقة بعض الزعماء العرب بقدرتهم على كسب الحرب » . ان ما يولد تلك الثقة ويحمل العرب على التفكير بالحرب هو طبعا الاتحاد السوفياتي الذي « صعد دعايته المعادية للسامية وقام بتلفيق «مؤامرة صهيونية » في براغ من أجل كسب التأييد في الشرق الاوسط » . ولقد أكد نيكسون لاسرائيل على كيفية التفاوض مع العرب والتحدث عن مكانة اسرائيل القريبة جدا من الكمال بحماسة مفرطة : « انني أرى أنه من الخطأ الخطير ان تقوم اسرائيل بتملك المناطق المحتلة بصورة رسمية ونهائية . الا انه ليس واقعيا ان نتوقع من اسرائيل ان تتنازل عن وسائل حيوية للمساومة دون سلام حقيقي وضمانات فعالة بالمقابل . ان اعداء اسرائيل يستطيعون القتال وخسارة القتال ثم العودة اليه ثانية ، اما اسرائيل فلا تستطيع ان تخسر مرة واحدة . ان اميركه تعرف ذلك وهي مصممة على ان اسرائيل قائمة بين الامم لتبقى . واميركه تؤيد اسرائيل لاننا نؤمن بحق الامم في تقرير مصيرها . واميركه تؤيد اسرائيل لاننا نعارض العدوان بكل أشكاله . انها تؤيد اسرائيل لان مثال هذه يعطي أملا بعيد المدى للشرق الاوسط » .

لقد وعد همفري وروبرت كنيدي ويوجين مكارثي باستمرار العون العسكري الى اسرائيل بما في ذلك الطائرات النفاثة الى ان يتحقق السلام في الشرق الاوسط . الا ان نيكسون كان أشد توكيدا بكثير عندما صرح في هوستون بتكساس في السادس من أيلول ١٩٦٨ : « انني آخذ بالمبدأ العام وهو أن الحفاظ على السلام المضطرب في الشرق الاوسط يجعل الحفاظ على تفوق اسرائيل على جيرانها أمرا حيويا . واذا تطلب ذلك طائرات نفاثة من نوع فانتوم فانهم سيحصلون عليها » .

وعلى الرغم من أننا كنا نتوقع ان يحضر نيكسون المؤتمر الصهيوني في لوس انجيليس بنفسه في الوقت الذي تقلع فيه طائرة الخطوط الجوية العالمية في رحلتها رقم ٨٤٠ من المدينة نفسها ، الا انه لم يفعل ذلك وأرسل رسالة الى رئيس المؤتمر جاك تورشنر الذي قرأ الرسالة على الصهيونيين بالنيابة عن ريتشارد نيكسون. وذكرت الرسالة ان اميركه ملزمة « بعلاقات الصداقة مع اسرائيل » وأوردت اسم المنظمة كوسيلة « لتعزيز اسس اسرائيل الاجتماعية والاقتصادية، والروابط الحضارية بين شعبها واصدقائه في اميركه». واعتبر نيكسون في رسالته « هذه الجهود » بأنها « في التقليد الاميركي الاسمى » وأكد للصهيونيين بأن حكومته تسعى لتحقيق « توازن تسلح في الشرق الاوسط » وتؤيد « تفوق [اسرائيل] العسكري المستمر » .

وعندما كان الصهيونيون يتجمعون في لوس انجيليس ويلتفون حول رونالد ريغان حاكم ولاية كاليفورنيه والممثل المعجب بغولدا مئير ، كنت اتحدث حديثا عذبا مع وكيل شركة سنجر في الشرق الاوسط وانا في طريقي الى رومه لتغيير وجهة طائرة الخطوط الجوية العالمية في رحلتها رقم ٨٤٠ من طراز بوينغ ٧٠٧ الى دمشق .

واثناء التخطيط للاختطاف تدربت على كل احتمال طارىء يمكن تصوره ، وتعلمت جيدا التفصيلات العملية المتعلقة بطائرة البوينغ . الا ان هناك شيئا بقي لم اتدرب عليه في رحلتي الاولى الى الغرب وهو الوضع الانساني مثل فضول المحدثين ، وكيف لا اثير شكوك الشخص الذي يجلس بقربي ولا اكون فظة معه . وفي وضع كهذا ترتب علي ان ارتجل واشعر بشيء من القلق . لقد انتابني شعور غريب نوعا ما بحيث تصورت ان جميع الغربيين الذين التقيتهم كانوا يعرفون بالامر . وعلى أي حال فقد كان الشخص الذي جلس بقربي في الطائرة من بيروت الى رومه اميركيا أنيسا حسن الهندام متوجها الى نيويورك . وكنت أعلم من قبل بأن السياح الاميركيين ، مثل غيرهم من السياح ، يتحدثون على أي شيء وبصورة سطحية جدا . ولم أكن أعرف أنهم يطرحون أسئلة شخصية بصورة مباشرة ودون مبالاة . الا أنه لا بد أن السيد هولدن كان ضجرا واحب ان يتحدث الي . وجاء سؤاله الاول بالطبع : « الى أين انت ذاهبة ؟ » فأجبت : « الى رومه » . ثم سألني : « ولماذا انت ذاهبة الى رومه ؟ » توقفت قليلا لاحيك جوابا وقلت بخجل : « انني ذاهبة لالاقي خطيبي القادم من لندن الى رومه خلال أيام قلائل » . وهنا شعرت ان لساني زل لانني لم اعرف بعد بالضبط الى أين كان الاميركي متجها وخفت أن يدعوني الى الطعام او اي شيء آخر اثناء انتظاري « خطيبي » . واستدركت بسرعة قائلة له : « من الممكن جداً ان يفاجئني ويكون بانتظاري في المطار » . وسألته بعد ذلك : « الى اين انت ذاهب ؟ » قال : « الى نيويورك » . وخلصني من طيشي . وقال ايضا : « انني لا افهم كيف تذهب فتاة عربية للقاء خطيبها بمفردها كي يتزوجا » . وهنا قلت وكلي شعور بالثقة في النفس : « لقد تعارفنا منذ طفولتنا وجرى عقد القران بيننا قبل بضع سنوات . اضف الى ذلك اننا عرب عصريون ولسنا من التقليديين المحافظين » . فأجاب : « جيد ! » واخذ يخبرني كيف فر وزوجته لان والديها لم يقبلوا به زوجا لابنتهما . وما ان قلت له انني لم اكن فارة حتى أعلنت المضيفة والبهجة تملأ وجهها ان على متن الطائرة زوجين جديدين يرغبان أن يشاركهما المسافرون في تناول طبق من الكاتو . « من يريد ان يشاركهما ؟ » وأعلن كل من في الطائرة بما فيما ذلك انا والسيد هولدن رغبته في ذلك . وفي هذا الجو البهيج سألني السيد هولدن : كيف تتزوجين في وقت لا يزال فيه خطيبك طالبا ولا عمل لديه ؟ » وهنا ابتسمت وقلت : « اننا لسنا ملوك نفط أغنياء ، ولكننا قادران على الزواج في سن مبكرة . » وقال هولدن : « هل لي اذن أن اقترح أن تقضيا شهر العسل على يخت بمفردكما في البحر المتوسط ؟ » فأجبته : « انني افضل ان اكون بين الناس » . ورد هولدن معلقا : « وهل ستتزوجين الناس ؟ » قلت : « لا ، ولكنني أحب أن أكون بينهم . » واستمر الحديث عن الزواج والحب والبيت والاطفال الى أن حطت الطائرة في مطار رومه حيث افترقنا وودع أحدنا الآخر ، واخذت امتعتي بعد أن انتهيت من المعاملات الجمركية وركبت الباص الى مدينة رومه . وعلى الطريق التقيت رجلا آخر في الباص كان يجلس الى جانبي ويقترب مني ويحاول أن يمسكني بذراعيه ولم أكن قد تحدثت اليه قط ، فأوشكت ان أفقد صبري وطلبت منه ان يبتعد عني : « انك تكاد تلقي بي خارج الباص وأنت تدفع بي وتقترب مني » . وهكذا لم يجرؤ ان يقوم بحركة اخرى حتى نهاية الطريق . وصلت الفندق أخيراً، حيث قضيت يومين محاولة تجنب الذهاب في رحلات جماعية في رومه . وخلال هذين اليومين مشيت وحيدة في شوارع رومه وكنت أعرف مكاني في كل لحظة . ومن الغريب انني لم أكن أرغب

في شراء اي شيء أو حتى في الذهاب الى السينما أو في التفرج على أمجاد رومه القديمة. لقد مشيت ومشيت وحدي وكنت افكر تفكيرا عميقا بمهمتي واستعيد الى الذاكرة تفاصيلها .

غادرت الفندق في الصباح الباكر من التاسع والعشرين من شهر آب الى مطار فيوميسينو في ضواحي رومه . ومما يبعث على السرور انه لم تحصل أي عقبات عدا تأجيل الرحلة نصف ساعة . أما رفيقي الذي لم أكن أعرفه الا بالاسم والصورة فقد ظهر حسب الخطة وقام بالاشارات المناسبة ليؤكد هويته ، انه سليم عيساوي ، فلسطيني من حيفا نشأ في سوريه . وجلس سليم بالقرب مني بهدوء وتصرف وكأن أحدنا لم يكن يعي وجود الآخر. وهنا برز الوضع الانساني مرة ثانية : هذه المرة ظهرت طفلة صغيرة وعلى صدرها اشارة تقول « اكسب الاصدقاء » ، الامر الذي ذكرني وأنا أرقب تلك الطفلة بفرح وسرور وهي تداعب اختها الصغرى ، ان هذه الطفلة لم ترتكب أي جريمة بحقي أو بحق شعبي وان من الحماقة أن أعرض حياتها للخطر باختطافي الطائرة وهي لا تفهم المعنى والقيمة الرمزية لعملي . وكان من الممكن أن تنفجر الطائرة أثناء محاولتنا السيطرة عليها أو تتحطم وتهوي بنيران اسرائيل المضادة للطائرات عندما ندخل « أجواءها » . وبينما كان وخز الضمير يعذبني ارتسم أمام ناظري تاريخ فلسطين وأطفالها بأسره : رأيت كل شيء منذ اليوم الاول لطردنا من أرضنا ومرورا بسنوات الحرمان والجوع وسوء التغذية والحفاء التي عانى منها شعبي وشهدت كل شيء آخر حتى اللحظة التي وقعت عيناي فيها على شارة الصداقة على صدر تلك الطفلة البريئة . وفجأة ارتسمت أمامي صورة شاملة لمئات مخيمات « اللاجئين » الفلسطينيين من أبناء شعبي وتذكرت كل صفحة من صفحات كتاب الرفيقة منى السعودي « شهادة الاطفال في زمن الحرب » . وبدا لي وكأن أطفال مخيم البقعة قرب عمان الذين شردوا مرتين يقفون أمامي مثل حشود ذليلة صارخين : « ونحن أيضا أطفال ونحن جزء من البشرية » . وعزز هذا المشهد عزيمتي بصورة هائلة ، قلت بعدها لنفسي : « أي جريمة ارتكبت انا وشعبي ضد أي انسان كي نستحق المصير الذي نعاني ؟ » وأجبت نفسي بنفسي : « لم نرتكب اية جريمة بحق اي انسان » . يجب ان تنفذ العملية ولن يكون هناك شك أو تراجع . لقد تكلم أطفالنا .

وفي الطريق الى الطائرة وقعت حادثة أخرى . لقد كنت في الباص الثاني عندما اقترب مني شاب وسيم في أوائل الثلاثينات من العمر وحياني بطريقة مضطربة جدا . فرددت التحية بهدوء وأنا أقرأ كتاب « صديقي تشي » الذي كتبه ريكاردو روجو . وبدا وكأن الشاب كان راغبا جدا في التحدث الي . سألني من انا والى أين ذاهبة . لكنني لم أستطع هذه المرة أن أكرر رواية الزواج كما لم أستطع أن أرتجل شيئا بسرعة . ثم قلت له « احزر » . فقال : « يونانية ، اسبانية ، ايطالية ؟ » وأجبته بالنفي وتابعت الكلام بالسؤال : « من أين أنت » . أجاب : « من شيكاجو » . واستأنف الشاب أسئلته : « لا اعتقد انك من اميركه الجنوبية ؟ » وبعد أن عرفت من أين هو ارتأيت ان أقول له انني من أميركه الجنوبية لان ذلك قد يجنبني أي اسئلة اضافية محرجة . فقلت انني من اميركه الجنوبية . وهنا سألني وهو يغمرني بنظرات الاعجاب والتطلعات الغرامية : « أانت من البرازيل ؟ » قلت : « انك تقترب من المكان الحقيقي » . « بوليفيه ؟ » قلت : « نعم ، ولكن كيف عرفت ؟ » اجاب : « كتابك هو الذي دل عليك » . وسألته رايه في تشي فأجاب : « انه رجل طيب » . ثم انتقلت الى موضوع آخر : « الى اين انت ذاهب؟» قال : « الى اثينا كي أرى أمي . لم أرها منذ خمس عشرة سنة . انني أراهن انها هناك الان تنتظرني في المطار . انني سعيد جدا بالعودة الى اثينا » . لقد أدهشني ذلك وكدت اقول له : من الافضل لك أيها الغبي أن تغادر هذه الطائرة لانها ليست ذاهبة الى اثينا . وحاولت أن أتجاهله واقفل أذني لأحول دون وصول صوته الى ضميري . وألقيت ببصري

بين دفتي الكتاب ورحت اقرأ بصورة عصبية دون أن اظهر اي ردة فعل عاطفية للمأزق الشخصي الذي وقع فيه وصدمني . وجعلتني هذه المواجهة اتوقف متأملة لانني أدرك معنى الحرمان والتوق الى الوطن . الا أنني حاولت أن أنظر الى حالته بصورة عقلانية محاولة التميز بين « منفاه » الارادي ومنفاي القسري . ولكن تلك الحوادث أجبرتني أن اكون حذرة فوق العادة كي لا أوقع ضررا بحياة الركاب بصورة غير ضرورية : لقد ذكرتني تلك الحوادث بالانسانية . الا ان رفاهية المسافرين لم تحل دون بل لم تقدر ان تحول دون تنفيذ العملية التي كان من الواجب تنفيذهـــا . وارتأيت ان الرد المقصود على ريتشارد نيكسون وضيوفه في لوس انجيليس لا يمكن أن يخرج عن خطه المرسوم بل يجب أن يأتي « ملائما ومطابقا » . وارتأيت أن يأتي ردي على « بيعه » طائرات الفانتوم الى اسرائيل « مدروسا ومحسوبا جيدا » حسب تعابير محللي الاستراتيجية الاميركية .

أقلعت الطائرة في رحلتها رقم ٨٤٠ بعد ساعة ونصف من الوقت المقرر أصلا لاقلاعها . وكان سليم عيساوي وانا من مسافري الدرجة الاولى . وأعلنا انسانيتنا الفلسطينية الى اميركه والعالم . وما ان انقضت العشرون دقيقة الاولى حتى حان وقت الغداء وانشغلت المضيفات محاولات بكل لطف وتهذيب خدمة المسافرين الخمسة في الدرجة الاولى . ولم تكن عند سليم وعندي رغبة في الطعام. الا أن المضيفات كن يرحن ويجئن من أجل خدمتنا متوسلات الينا كي نطلب شيئا . قدمن لنا المشروبات والفستق بل كل شيء نريد. واخيرا طلبت فنجانا من القهوة وطلب سليم كأسا مـــن الجعة . ولكنهـــن استمرين في المجيء والذهاب يسألننا ان كنا نريد اي شيء آخر . واخيرا زعمت انني شعرت بألم في المعدة وطلبت بطانية كي استطيع اخراج القنبلة اليدوية مـــن جيبي واستلال مسدسي دون ملاحظة الآخرين . ولكن سليم طلب حبة اسبرو . وهنا خفت أن تشك المضيفات بأمرنا : مسافران يجلسان الواحد مقابل الآخر في الصف الاول ويشعران بالمرض . وعلى أية حال خفت أن يكون زميلي يعاني من الصداع في اللحظة الحرجة ولكنني مـــا لبثت ان شعرت بالارتياح عندما رأيته يضع حبة الاسبرو في جيبه بعد أن ذهبت المضيفة . وفي هذه اللحظة الحت لسليم أن يتقدم الى غرفة القيادة بعد مضي ثوان على عودة الرجل الآخر والوحيد في قسم الدرجة الاولى من الطائرة من الاستراحة المقابلة . واثناء ذلك انفتح باب غرفة القيادة لتدخل احدى المضيفات ومعها طعام الغداء للملاحين ، فانتهز سليم الفرصة وقفز داخل غرفة القيادة قبل المضيفة التي تطايرت الصحون من يديها وهي تصرخ : « لا » ، مما احدث ضجة كبيرة دون أن يصاب احد بأذى . وكنت أقف خلف سليم . وأمرت المضيفة أن تهدأ وتخلي الطريق ، ففعلت وهي ترتجف وتنظر الينا خلفها. وكان سليم ضخم الجثة بحيث لم اتمكن من رؤية ردة فعل الملاحين . الا أنني سمعته يقول ان الطائرة اصبحت تحت سيطرة وحدة تشي غيفارا الفدائية التابعة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين . واعلن ان قائدة الطائرة الجديدة هي شادية ابو غزالة . وفي خضم ذلك سقط المسدس وانزلق داخل رجل البنطلون الذي كنت أرتديه فالتقطته والملاحون ينظرون الي مرتبكين متذهلين . واعتقد انهم لم يروا الا جزءا من قبعتي الكبيرة الانيقة . ولكنني شعرت بالسخف في تلك اللحظة وضحكت من عدم كفاءة القائد الجديد للطائرة ودخلت مكان القيادة بجدية وانا الوح مهددة بالقنبلة اليدوية في قبضتي واعلن أنني القائد الجديد . واصيب الملاحون بصدمة تامة لرؤيتي هناك . وعم جو من التوتر والاستهجان والاستغراب ولكن دون خوف . وفورا قدمت للقائد السابق كارتر صمام القنبلة اليدوية لاثبت صدقي وجديتي وكتذكار اعتذر عن قبوله باحترام . والقيت بالصمام بين قدميه لاظهر عزمي وتصميمي له وقلت : « اذا أطعت أوامري فسيكون كل شيء على ما يرام ، والا فانك سوف تكون مسؤولا عن سلامة الركاب والطائرة » . ثم قلت له : « اذهب الى اللد » . فرد مستفسرا : « الى اللد ؟ » مستخدما الاسم الاسرائيلي لتلك المدينة

الفلسطينية . واجبته : « أنت تفهم الانكليزية . أليس كذلك ؟ استمع فقط ولا تسأل أسئلة سخيفة » .

وبما أنني كنت أعلم ان الطائرة فيها من الوقود ما يكفي لمـدة ثلاث ساعات وخمس واربعين دقيقة قررت أن أثبت صلاحيتي وطرحت على مهندس الرحلة سؤالا حـول الوقود : « كم من الوقود لديك ؟ » أجاب فورا : « ما يكفي لمدة ساعتين » ، دون ان ينظر الى الجهاز الذي يدل على ذلك . وصرخت به : « كذاب ! » وقلت له انني اعرف عن البوينغ قدر ما يعرف هو وانه ان كذب مرة أخرى فسأضرب عنقه . وحاول الطيار تهدئتي اعتقادا منه ان ثائرتي ثارت في الوقت الذي كنت فيه سعيدة جدا ، وحذر الملاحين من التصلب والعناد في معاملة القائدة الجديدة . وهنا بدا لي ان الكابتن كارتر كان على استعداد للتعاون معنا ، فطلبت منه أن يتصل برومه كي أشرح مهمتي للشعب الايطالي . قال ان رومه بعيدة جدا . ولكنني اكدت على ذلك ، فحاول دون جدوى . وطلبت بعد ذلك من أحد المضيفين ان يحضر حقائبنا وأمرته ومسافري الدرجة الاولى بالانتقال الى الدرجة السياحية وطلبت فتح جهاز الاتصال . وجرى تنفيذ كل ذلك . وعلى الفور قرأت الرسالة التالية على المسافرين :

« أيها السيدات والسادة ، أرجو الانتباه . لطفا شدوا أحزمتكم . ان قائد الطائرة الجديد يتحدث اليكم . ان وحدة تشي غيفارا الفدائية التابعة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي سيطرت على قيادة هذه الرحلة تطلب من كافة المسافرين على متن هذه الطائرة الالتزام بالتعليمات التالية : ابقوا جالسين وحافظوا على هدوئكم ، ضعوا أيديكم وراء رؤوسكم من أجل سلامتكم ، لا تأتوا بأية حركة قد تعرض حياة المسافرين الاخرين للخطر ، سننظر في كافة طلباتكم ضمن حدود الامان في خطتنا . ان بينكم مسافرا مسؤولا عن موت وبؤس عدد من الفلسطينيين رجالا ونساء وأطفالا والذين من أجلهم نقوم بتنفيذ هذه العملية لمحاكمة هذا القاتل أمام محكمة فلسطينية ثورية . أما الباقون منكم فسيكونون ضيوفا مكرمين لدى الشعب الفلسطيني في بلد كريم وصديق . ان حرية كل واحد منكم ، بغض النظر عن دينه أو جنسيته ، مضمونة من اجل الذهاب الى حيث يحب سرعان ما تحط الطائرة بسلام . ان وجهتنا بلد صديق وسيقوم باستقبالكم شعب صديق . »

وما أن انتهيت من قراءة الرسالة حتى لاحظت ان الطائرة انحرفت عن خطها المرسوم . وأمرت الكابتن بعدم الاحتيال اذا كان يريد الوصول بسلام ، فعاد الى الخط الصحيح . وهنا ذكرني سليم بأن خمس عشرة دقيقة انقضت وأيدي المسافرين فـوق رؤوسهم . فطلبت اليهم بسرعة ان يسترخوا ويشربوا الشمبانيا اذا رغبوا في ذلك ، واعتذرت على ازعاجهم . وبعد ذلك بقليل دخلت مضيفة وقالت ان معظم المسافرين لا يفهمون الانكليزية ولم يفهموا ما قلنا ويودون سماع الرسالة مرة اخرى . وقالت انها عـلى استعداد لترجمتها الى الفرنسية . ولكنني أعدت قراءة الرسالة وأكدت لهم ان كل شيء طبيعي وان شخصا واحدا فقط على متن الطائرة هو هدفنا . وفسرت الصحافة ذلك بأننا كنا نقصد سفير اسرائيل لدى الولايات المتحدة الجنرال اسحق رابين الذي اشتهر في حرب حزيران ١٩٦٧ . لكن ذلك غير صحيح ، ولو كان كذلك لما صعدنا الى الطائرة في رومه لانني رأيت كافة المسافرين ولم أر رابين بينهم . ولا بد ، على اية حال ، من ان يكون صالح المعلم ، وهو عربي من اسرائيل كان على متن الطائرة ، قد ظن انه الشخص المقصود وانتابه الخوف واصبح في حالة عصبية . وهكذا نجح تكتيك الارهاب الانتقائي وقل فزع المسافرين وتعاونوا معنا جميعا طوال الطريق . واثناء تفسيري الرسـالـة للمسافرين اخبرتهم اننا نكره ونمج أعمال الحكومة الاميركية بالنسبة للشرق الاوسط واننا لا نكره ولا نحقد على اي فرد شخصيا . الا ان الخوف والفزع انتابهم عندما اعلنت اننا ننوي نسف الطائرة لدى وصولها الى بلد صديق . ولكنني لم أعلن ذلك الا قبل ساعة من وصولنا الى دمشق . وفي هذه الاثناء واصلت الاتصال مع الارض مرسلة رسائل تضامن الى الثوريين اليونانيين والى شعوب جنوبي اوروبـه . وطالبت حكام اليونان

العسكريين باطلاق سراح ثوارنا المسجونين في اليونـــان وقلت ان الشعب اليوناني سيسقط متآمري وكالة الاستخبارات المركزية . وسكت كل شيء وخيم جو من الوجوم الى ان اتصلنا ببرج المراقبة المصري وعرفت نفسي وطلبت منـــه نقل تحيات الثـــورة الفلسطينية الى الشعب المصري وقلت انني ذاهبة الى اللد . وجاء صوت متهدج : « الله ! عاللده ، تعملي ايه هناك ؟ » اجبت : « أزور ارض الاباء » . ثم قال : « أآنت متأكدة من ذلك ؟ » قلت : « بكل تأكيد » . وحاول ان يقول لي ان ذلك عمل تحف به المخاطر ، فقطعت الاتصال به . ثم عدت فسمعته يصرخ : « يا جبهة ! يا شعبية ! يا فلسطين العربية » ، أما بقية كلامه فلم افهمها او بالاحرى لم تكن مسموعة . وبعد دقائق رأيت الساحل الفلسطيني من فوق السديم . وعندما اقتربنا من ارض ميلادي بدا لي انني وحبي نتسابق الى عناق ابدي . لقد رأيت فلسطين للمرة الاولى منذ ان نفيت منها بالقوة في العام ١٩٤٨ . انظر الى الارض ، انها أرضي ، ورحت غارقة في لحظة مـــن العاطفة والتأمل في آن معا . وتذكرت المهمة وطلبت من الطيار ان يخفض ارتفاعـــه ١٢٠٠٠ قدم ، ثم وجهت رسالة باللغة العربية الى اخواني في فلسطين المحتلة قائلة لهم اننا سنعود وسنسترد فلسطين ، ونصحتهم ان يبقوا صامدين ويحافظوا على قدرتهم ووعدتهم بتحطيم معقل الغرور الصهيوني . وقلت لبرج المراقبة في مطار اللد بالعربية اننا آتون الى أرض الوطن لنحط عليها ولكنه لم يفهم ما قلت له وقال ان علينا ان نطلب اذنا للنزول وننتظر . فقلت له : « هذه بلادي ولست بحاجة الى اذن من الوحوش الصهيونيين كي أحط » . وقلت بالانكليزية : « اننا هنا مرة أخرى . لقد عادت شادية ابو غزالة الى الحياة . هناك ملايين الشاديات اللواتي سيأتين مرارا وتكرارا لاسترداد الارض . » وسيطرت الرهبة لحظة من الزمن على برج مطار اللد عندما أعلنت أننـــا ننوي تفجير الطائرة في قلب المطار . وما هي الا ثوان حتى ظهرت في الافق ثلاث طائرات ميراج اسرائيلية وحاولت منعنا من الهبوط . وهنا فتحت جهاز الاتصال الداخلي كـــي يسمع المسافرون ما يدور من حديث ويروا ما يريده الاسرائيليون . واعلنت من جديد ان الطيار والاسرائيليين مسؤولون عن سلامة المسافرين والطائرة وأننا لا ننوي ايذاء اي شخص اذا اطيعت أوامرنا. وطلب الطيار المساعد التحدث مع الاسرائيليين فسمعت له . قال : « الجبهة الشعبية ، فلسطين العربية الحرة ، اناس مسلحون هددوا بتفجير الطائرة بواسطة القنابل اليدوية اذا لم تغادر طائرات الميراج الاجواء » . وحتى هـــذه اللحظة بقي برج المراقبة الاسرائيلي يخاطبنا باسم الخطوط الجوية العالميـــة ٨٤٠ . ولكنني فقدت صبري وقلت للمتحدث من البرج « اخرس ! » وقطعت الاتصال قائلة انه لن تكون هناك اتصالات اخرى الا بعد مخاطبتنا باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين . وما هي الا ثوان حتى فعل ذلك اثناء طيراننا فوق حيفا الحبيبة . وسأل الطيار : « ماذا أفعل الان ؟ » قلت : « دعنا نطير فترة سبع دقائق فوق ارض الوطن » . وفي هـــذه اللحظة برزت صورة والدي أمام عيني وكدت اسمعه يقول : « متى نعود الى الوطن ؟ » لم أدر ما أقول . سكت وهدأت ونظرت الى بساتين فلسطين وجبالها . ورأيت تل ابيب تحتي . وانفجرت بالبكاء عاطفة وشوقا وقلت : « يا والدي ، سنعود . سنسترد شرفك ونستعيد كرامتك . سنصبح أسياد الارض يوما ما ! » وتذكرت المهمة مرة اخرى . وقلت للطيار : « اذهب الى لبنان حيث يعيش شعبي لاجئا » . ولاحقتنـــا الطائرات الاسرائيلية حتى الحدود اللبنانية ثم ارتدت عائدة الى الوراء . واتصلت بقبرص وبعثت بالتحيات الى ابطالها الذين يقاتلون ضد الامبريالية كما بعثت بالتحيات الى شعبي في جنوبي لبنان . وهنا قاطعني الطيار وقال انه يجب طلب السماح من لبنان فقلت له اننا لسنا بحاجة الى ذلك ، لبنان بلد عربي . حلقنا فوق بيروت بعض الوقت وأمرت الطيار بالتوجه الى دمشق . قال : « ان مطار دمشق لا يستطيع استقبال طائرات البوينغ ٧٠٧ » . وبعد مواجهة بالنظرات بيني وبينه قلت : « أتظن اننا متأخرون الى حد عدم

القدرة على ادارة وتشغيل طائرتك اللعينة ؟ » لم ينبس ببنت شفة . وتناولت مكبر الصوت وخاطبت المسافرين للمرة الاخيرة من على متن الطائرة : « اخلوا الطائرة بسرعة ، وتمتعوا بعطلة سعيدة في دمشق . انني واثقة من أننا سنهبط بسهولة » .

أوشك الوقود ان ينتهي . وطلب الطيار اذنا بالهبوط . وأمرته بالهبوط فورا والوقوف في أبعد نقطة عن مبنى المطار . وقلت : « ليكن هبوطنا سهلا وهادئا لانني اذا سقطت انفجرت القنبلة وانتهت الرحلة السعيدة بصورة رهيبة . » وحطت الطائرة بهدوء واخليت في اقل من ثلاث دقائق . حاولت وسليم ان نقول للركاب ان يأخذوا امتعتهم الشخصية معهم ويسيروا بهدوء . ولكن معظمهم لم يفعل ذلك وفر حافي القدمين . وحتى الملاحون تركوا جاكيتاتهم في الطائرة . وما أن خرج الكابتن كارتر من الطائرة حتى حييته وشكرته لتعاونه . فنظر الي مندهشا ومذهولا . الا ان الطيار المساعد قال : « أهلا وسهلا بك » . ثم فتشت الطائرة ورأيت ان جميع ركابها قد خرجوا . فمد سليم الاشرطة وثبتها في غرفة القيادة ثم اشعل الفتيل . وقفزت بعد ذلك مباشرة من مخرج الطوارىء وسقطت ارضا على مؤخرتي ، وتبعني سليم وحط على كتفي . وقلت في نفسي انه انقلاب غريب في الادوار . واعتقدت ان بنيتي تكسرت الا أنها كانت أقوى وأشد مما توقعت . ولم تنفجر الطائرة حسب المقرر . فعاد سليم ، يساعده في ذلك طوله وشجاعته الشخصية ، وصعد الى الطائرة من جديد ورتب كل شيء حسب الخطة . ووصل الجنود السوريون فحاولت تضليلهم قائلة ان الجنود الاسرائيليين ذهبوا في ذاك الاتجاه فاتبعوهم . وكان سليم لا يزال في الطائرة . وانتابني شعور بالخوف على سلامته ووقفت اعجابا ببطولته وتفانيه واخلاصه البعيدين عن الذات . وحاولت الصعود الى الطائرة دون جدوى . وبرز سليم فجأة ملوحا بيديه ثقة وقفز خارج الطائرة ، الا ان البوينغ لم تنفجر بعد ، فأطلق بعض الطلقات على جناح الطائرة . لم نستطع احراق الطائرة بسرعة لانه لم يبق فيها وقود . وانبعثت الشرارات منتشرة فابتعدنا مسافة عشرين مترا تقريبا عن الطائرة . اما المسافرون فكانوا في هذا الوقت في مبنى المطار الذي يبعد حوالي نصف ميل عن الطائرة. وظهرت النار وانفجرت الطائرة . ورجع الجنود السوريون ولم يدروا ما حدث على الارض . ولكنهم دهشوا عندما استسلمنا لهم وسلمناهم أسلحتنا . وكان مصور مجلة « الهدف » يصور فيلما عن عملية الهبوط والتفجير الا ان فرحته وابتهاجه جعلاه ينسى انتزاع غطاء عدسة الكاميرا السينمائية فجاء الفيلم فارغا . واخذنا مضيفونا السوريون الى مبنى المطار حيث القيت كلمة موجزة في المسافرين :

« ايها السيدات والسادة ، شكرا لحسن انتباهكم واصغائكم وتعاونكم اثناء الرحلة . انا الكابتن شادية ابو غزالة ، وهذا ليس اسمي . ان اسمي هو خالدة . أما شادية فهي الفتاة الخالدة التي قالت : الابطال ينسون عادة ولكن اساطيرهم وذكرياتهم تبقى ملك الشعب وميراثه ، وهذا شيء لا يفهمه المؤرخون والمحللون. ان الجبهة الشعبية لن تنسى شادية ابو غزالة كما لن ينساها جيل الثوريين الذي لقي مساعدتها في رسم طريق الثورة . انني أحب أن أحيطكم علما ان شادية امرأة عربية فلسطينية من نابلس وانها كانت مدرسة وعضوا في الجهاز السري للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وأنها ماتت اثر انفجار حصل في بيتها وهي في الحادية والعشرين في ٢١ تشرين الثاني ١٩٦٨ عندما كانت تصنع قنابل يدوية للجبهة . كانت اول شهيدة في ثورتنا . وأنا اتخذت اسمها اثناء الرحلة ٨٤٠ لابين للعالم جرائم الاسرائيليين التي نزلت بشعبنا ولاظهر لكم انهم لا يميزون بين الرجال والنساء والاطفال وأنهم من اجل تحقيق اهداف دعاياتهم يكررون القول في صحافتكم اننا وحوش ونهاجم النساء والاطفال « الابرياء » . انني أريدكم ان تعلموا اننا نحب الاطفال ايضا واننا بكل تأكيد لا نوجه بنادقنا اليهم . لقد غيرنا وجهة الرحلة ٨٤٠ لان الخطوط الجوية العالمية هي احد اكبر الخطوط الجوية الاميركية التي تخدم الطرق الجوية الاسرائيلية وأهم من ذلك لانها طائرة اميركية . ان الحكومة الاميركية هي أشد مؤيدي اسرائيل ، فهي تزودها بالسلاح من اجل تدميرنا . وهي تعطي الصهيونيين دولارات اميركية بدون ضريبة . وهي تدعم اسرائيل في جميع منابر العالم وتساعدها بكل طريقة ممكنة . اننا ضد اميركا لانها بلد

اميريالي . ولقد اطلقنا اسم تشي غيفارا على وحدتنا الفدائية لاننا كرهنا اغتيال اميركه لتشي ولاننا جزء من العالم الثالث ومن الثورة العالمية . وكان تشي رسولا من رسل تلك الثورة . لقد اخذنا الطائرة الى حيفا لانها مدينتي ومدينة سليم ، وكلانا طرد منها في العام ١٩٤٨ . واخذناكم الى تل ابيب تحديا لاسرائيل واظهارا لعجزها عندما يلجأ العرب الى الاستراتيجية الهجومية لا الدفاعية . وجئنا بكم الى دمشق لان سوريه هي قلب الوطن العربي النابض ولان السوريين شعب طيب وكريم . اننا نأمل ان تتمتعوا باقامتكم في دمشق . ونأمل ان تعودوا الى بلادكم وتقولوا لاصدقائكم ألا يذهبوا الى اسرائيل ، منطقة الحرب في الشرق الاوسط . نرجو ان تقولوا لجيرانكم اننا شعب مثلكم نرغب في العيش بسلام وأمان في بلادنا ونحكم انفسنا بأنفسنا . نرجو ان تقولوا للاميركيين اننا نكره الحرب والاستغلال وانه يجب عليهم ايقاف حكومتهم عن خوض الحرب ضدنا ومساعدة الاسرائيليين في حرماننا من ارضنا . قولوا لشعوبكم ان المجيء الى اسرائيل هو مساعدة لها على انكار حقوقنا علينا . ثورة وسلام . تحياتنا الى جميع محبي المضطهدين . »

وقاربت الساعة السابعة من مساء التاسع والعشرين من آب ١٩٦٩ . وما ان انتهيت من القاء خطابي حتى رأيت صديقي اليوناني يجهش بالبكاء وامرأة اميركية تحاول تهدئته. ولا اظن انه عرف انني انا التي تحدثت معه في الباص قبيل صعود الطائرة . وسرت انا وسليم ووزعنا الحلوى على الاطفال .

ومر المسافرون في الجمارك السورية ثم وزعتهم السلطات على فنادق دمشق ، واطلقت سراحهم جميعا باستثناء ستة اسرائيليين . وقد نقلت احدى السيدات الى المستشفى لمعالجة كسر حدث في رسغها . وفي الثالث من أيلول أطلق سراح أربعة من الاسرائيليين. أما الشخصان الباقيان فقد جرى تبادلهما فيما بعد بطيارين سوريين وحفنة من المقاتلين كانوا في المعتقلات الاسرائيلية . اما انا وسليم فقد أخذونا الى مركز الشرطة واحتجزنا مدة خمسة واربعين يوما .

عدوان حزيران وخرافة الابادة

الدكتور اسعد رزوق

قبل عدة شهور من مجيء الذكرى الخامسة لعدوان الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ اخذت تلوح على الافق الاسرائيلي تباشير نظرة « مستهجنة » لحقيقة العدوان الذي درج البعض على تسميته بـ « حرب الايام الستة » أو معاركها التي توقفت عند توسيع رقعة الاحتلال الصهيوني للارض العربية . وتجلت طلائع تلك النظرة في مشادة داخلية نشبت بين لفيف من كبار الجنرالات و القادة البارزين في الدولة الصهيونية . أما المناسبة التي شهدت بداية المشادة فقد تصادفت مع انعقاد ندوة للتناقش حول كتاب أصدره عاموس ايلون تحت العنوان التالي : « الاسرائيليون : المؤسسون والابناء »*. كان ذلك حوالي منتصف شهر اذار (مارس) الفائت من هــذا العام . ولدى حلــول يوم الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٧٢ ، كانت وسائل الاعلام الاسرائيلية تخوض في نقاش مثير للغاية بين مختلف الاطراف التي شاركت في التخطيط للعدوان وقامت بدور رئيسي على صعيد التنفيذ العملي . فراح نفر من كبار الضباط العسكريين الذين شغلوا المناصب الحساسة ابان شن العدوان ، ثم تسرحوا من الخدمة في المدة الاخيرة لكي يتعاطوا العمل السياسي ويتابعوا نشاطهــم في ميدان الحياة المدنية ، يتسابقون عــلى الادلاء بالرأي وتوضيح الموقف . بينما سارعت الصحف وأجهزة الاعلام الى استصراح جميع القادة الذين قبعوا في مراكز المسؤولية واسهموا بقسط فعال في التدبير للعدوان والاعداد له ؛ كما شاركوا في تنفيذ عملياته ومخططاته على المستويات كافة .

ولكي نحيط بالملابسات التي رافقت المشادة الاسرائيلية منذ بروزها الى ميدان النقاش العلني وعلى صفحات الجرائد الصادرة في اسرائيل ، ومن ثم انتقال اخبارها الى أعمدة الصحف العالمية ، يجدر بنا التوقف قليلاً عند الاراء والمعلومات التي أفضى بها العميد (احتياط) متتياهو بيليد(١) ابان المناقشة الدائرة حول كتاب ايلون المشار اليه أعلاه ، والاطلاع على وجهات النظر الاخرى من حيث مجاراتها لاراء بيليد أو محاولاتها في الرد عليه ودحض اقواله وتفسيراته .

الخدعة تتحول الى خرافة

انطلق بيليد في عرض آرائه حول الاسباب التي دفعت اسرائيل نحو شن عدوانها صبيحة الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ من موقع القول ببطــلان الاعتقاد الذي اختلقته

---

* ــ صدر كتاب ايلون بالانجليزية ايضا ، وتحت العنوان التالي :
Amos Elon, *The Israelis: Founders and Sons*

وتضمن هذا الكتاب بعض الاراء والتحليلات التي تخالف الموقف الصهيوني ــ الاسرائيلي الرسمي وتفضح الكثير من الضلالات التي درجت اسرائيل على « تلقينها » لوسائل الاعلام واجهزة الدعاية ، في الداخل والخــارج على السواء . حتى ان هذا الصحافي الشاب آثر البوح بما يريد له الاسرائيليون البقاء طي الكتمان ، فلــم تنقصه الجرأة او يخنه الصدق عندما كتب يقول : « ان معاقبة العرب على الاخطاء التي اقترفتها أوروبــا ينبغي لها ان تثقل ضمير الاسرائيليين على امتداد فترة طويلة من الزمن الاتي » .

اسرائيل عن تعرضها لخطر الابادة عشية افتعال العدوان . فالادعاء القائل بأن وجود الدولة الصهيونية كان عرضة للخطر ، وان هذا الخطر المزعوم بات يتهدد سكان اسرائيل بالفناء ويستهدف ابادتهم والقضاء عليهم ، لا يعـدو كونه « خدعة » تفتقت عنها مخيلة الاوساط الحاكمة في اسرائيل قبل توقف القتال وبعده بقصد تبريرها لشن العدوان وتهيئة الجو الملائم للاحتفاظ بالمكـاسب وتحقيق الاطمـاع التوسعية . ومما قاله بيليد خلال المناقشة : « ان النظرية التي تعتبر ان اسرائيل كانت عرضة لخطر الابادة في حزيران ١٩٦٧ ، وانها حاربت في سبيل كيانها المادي آنذاك ، ليست سوى خدعة (bluff) ولدت ونمت بعد الحرب » (هآرتس ، ١٩/٣/٧٢)(٣).

فالحكومة الاسرائيلية درجت على التمسك بوجهة النظر القائلة ان « خطر الابادة وحده يبرر شن الحرب » . بينما يرفض بيليد هذا الادعاء ويجرده من كـل أساس للصحة . والمعروف عن هذا العسكري في الاحتياط انه لا ينتمي الى الفئات الاسرائيلية التي تحسب نفسها على اليسار ، بل يشتهر عنه اتخاذ المواقف المتمادية في موالاة اميركا ومعـاداة الاتحاد السوفياتي(٣). فـلا عجب ، اذن ، ان يـأتي تفسيره للعدوان الاسرائيلي على النحو الاتي : « كان سبب الحرب محاولة الاتحاد السوفياتي تغيـير الوضع الراهن في المنطقة ، بأن تحل تسوية سوفياتية محل التسوية الاميركية القائمة منذ ١٩٥٧ . والعرب كان لهم دور ثانوي بهذا الشأن »(٤).

وفيما يتعلق بالسؤال « المحوري » عن تعرض اسرائيل للابادة سنة ١٩٦٧ نجد بيليد على استعداد تام للاعتراف ببطلان هذا الادعاء وفضح الدوافع الكامنة وراء التذرع بخرافة الافناء والابادة . فهو يتساءل خـلال المناقشة التي تطرقت الى موضوع يحتـل منزلة المحرمات التي تستنزل تهمة الخيانة على كل من تحدثه نفسه بالخوض فيها ، بقوله : « ما هي اخر مرة كانت اسرائيـل فيها مكشوفة لهجوم عـربي ؟ » . لكي يجيب على تساؤله مؤكدا : « كان ذلك سنة ١٩٤٨ ، كما اقرأ التاريخ »(٥).

بيد ان العميد بيليد وجد من يشاركه هذه القراءة « الجديدة » للتاريـخ المعاصر . فقد أعرب زميله في الاحتياط ، عيزر وايزمان ، وشريكه في النقاش — « عن قدر من الموافقة على القول ان دولة اسرائيل لم تتعرض لخطر الدمار عشية حرب الايام الستة » (عال همشمار ، ٢٠/٣/٧٢)(٦). ولا حاجة بنا الى تذكير القارىء بأن وايزمان شغل منصب رئيس شعبة العمليات في القيادة العامة للجيش الاسرائيلي خلال عدوان الخامس من حزيران ١٩٦٧ . فهو — كما بيليد — أحد الجنرالات الاثني عشر الذين كانت تتألف منهم هيئة الاركان العامة للجيش الاسرائيلي في ذلك الحين . ومما اثار استغراب الكثيرين ان يبادر نفر من القادة الذين أحيطوا بهالة تعظيمية في اعقـاب الانتصار الاسرائيلي الى الاقدام على التشكيك في صدق الدوافع التي أعلنتها حكومتهم لتبرير عدوانها ، ثم رفعتها الى سدة العقيدة المنزهة عن كل نقاش أو تساؤل حول مضمونها ومقوماتها . فالاقوال التي وردت على لسان بيليد ووايزمان لم تذهب عبثا هـذه المرة . بل أدت بدورها الى اثارة اهتمام الصحافة ، فشجعتها على الخوض في موضوعـات تتناول عملية التضليل الاعـلامي والنفسي الذي تمارسه اسرائيـل منذ عدوانها ، في المجـالين : الداخلي والخارجي .

ومهما تكن البواعث الكامنة لدى العميد في الاحتياط بيليد حتى تجعله يمضي في محاولته الرامية الى تحطيم الاسطورة القائمة على الزعم بوجود خطـر يتهدد اسرائيل بالابادة — على الصعيدين : الفردي والجماعي — فان القضية تحولت بين عشية وضحاها الى موضوع الساعة ، وانتقلت من قاعة الندوة الى ميدان الصحافة والاعلام والراي العام . ففي ٢٤ اذار (مارس) ١٩٧٢ نشر بيليد دراسة طويلة في صحيفة « معاريف » — وهي

اقوى الصحف الاسرائيلية توزيعا — حيث تابع شرح آرائه في معرض التصدي لخرافة الابادة المزعومة . ومما كتبه بالحرف الواحد : « ليس هناك من سبب يدعو الى اخفاء الحقيقة القائلة انه منذ سنة ١٩٤٩ لم يتجرأ احد — والاصح هو القول انه لم يكن أحد في وضع يسمح له بذلك — على تهديد وجود اسرائيل بالـذات . وبرغم هذا فقد تابعنا تغذية الشعور بالنقص ، كما لو كنا شعبا ضعيفا ، وصغيرا ، يعيش على القلق لضمان وجوده ، وهو عرضة لخطر الابادة في كل لحظة »(٧).

فالتهديـدات المنسوبة الى القادة والحكـام العرب ربمـا تركت بعض الاثر في نفوس المسؤولين الاسرائيليين . لكن بيليد يؤكد لنا ان مطلقي هذه التهديدات العربية انفسهم كانوا يدركون قصورهم تمام الادراك فلـم يحملوها على محمل الجدية ابدا . ومعظم التبريرات والمزاعم التي صدرت عن المعتدين الاسرائيليين وتلقفتها الصحافة العالمية لكي تبادر الى الاخذ بها وتبنيها — يقول بيليد — « جرى تقديمها بعد انتهاء الحرب ، ولم تؤخذ بعين الاعتبار في حساباتنا قبل نشوب القتال »(٨).

لكن الجنرال بيليد يعترف علنا في الوقت ذاته بأنه كان من انصار بدء العمليات العسكرية ضد مصر في أيار (مايو) ١٩٦٧ . والتبرير الذي يقدمه ليس عـلى سبيل « الدفاع عن وجود » اسرائيل ، بل فقط لاجل « اقناع » الطرف العربي بقوة الردع الاسرائيلي . لذا نجده يعتبر اغلاق خليج العقبة أمام الملاحة الاسرائيلية بمثابة ذريعة للحرب Casus belli تستوجب القيام بعمل عسكري للحيلولة دون اقدام عبد الناصر والسوفيات على تغيير الوضع الراهن في المنطقة . فيعود الى اطلاق التأكيد التالي : « عندما مضينا الى تعبئة قوانا كلها ، لم يوجد أي شخص عاقل لكي يعتقد بأن هذه القدرة كلها كانت لا غنى عنها لاجل « الدفاع » ضد الخطر المصري الذي يتهددنا . هذه القدرة كانت ضرورية لسحق المصريين بشكل حاسم على الصعيد العسكري ولاحراج حماتهم السوفيات على المستوى السياسي . والادعاء بان القوات المصريـة التي احتشدت على حدودنـا كانت بمثابة التهديد لوجود اسرائيل لا يشكل اهانة لكل شخص ذكي يمتلك القدرة على تحليل هذا النوع من الاوضاع فحسب ، بل هو قبل أي شيء اهانة للجيش الاسرائيلي »(٩).

ان هذه الاراء والاعترافـات الصادرة عن متتياهو بيليد تتعارض مـع الموقف الرسمي لحكومة اسرائيل وتدحضه بشكل صارخ . ففي الثاني عشر من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ — وبعد مضي يومين على « الانتصار » الذي أحرزته القوات الاسرائيلية المعتديـة — كان رئيس الوزراء ، ليفي اشكول ، يعلن امام الكنيست ما يلي : « لقد تعلق وجود دولة اسرائيل بخيط رفيع، لكن آمال الزعماء العرب في ابادة اسرائيل منيت بخيبة مريرة »(١٠). ولم يتجرأ أحد من المأخوذين بسحر هذه الحجة وزيف المنطق الاسرائيلي على التصدي لتلك المزاعم وتفنيدها ، سواء من داخل اسرائيل ام خارجها في المجال العالمي . بل عمد المسؤولون الاسرائيليون بدورهم الى ترسيخ هذا الاعتقاد في الاقوال والتصريحات التي صدرت عنهم كافة . وتابعتهم معظم الصحف العالمية في الترويج لهذه الخدعـة طيلة السنوات الخمس التي انقضت على العدوان .

فالسؤال الذي طرحه بيليد عما اذا كانت اسرائيل بالفعل مهددة آنذاك بخطر الابـادة جر الى سلسلة من الاعترافات والتفسيرات التي أدت الى التشكيك في صحة الموقـف الاسرائيلي المعلـن بصورة رسمية* . ولا بـد لنا من الاطلاع على نمـاذج اخرى من

---

* حاول أحد الشبان الاسرائيليين ، جيعورا نويمان ، ان يدافع عن نفسه أمام محكمة عسكرية اسرائيلية يوم الحادي عشر من تموز (يوليو) ١٩٧٢ ، بتهمة الامتناع عن تادية الخدمة العسكرية ورفض اقسام يمين الولاء للجيش الاسرائيلي . فاستشهد باقوال الجنرالات الذين اكدوا ان اسرائيل لم تكن معرضة لخطر الابادة ، مثلما

الاجتهادات التي طلع بها كبار القادة العسكريين في معرض الرد على آراء بيليد ونظرياته. كما ان الزعماء السياسيين لم يتخلفوا عن الاسهام بقسطهم في النقاش الذي تحول الى مشادة .

تنويعات وتبريرات

كان العميد احتياط عيزر وايزمان في طليعة الـذين هبوا للرد عـلى آراء بيليد دون ان يتمكنوا من دحض مقولتها الاساسية . فقد أجرى معه دوف غولدشتاين مقابلة نشرتها صحيفة معاريف (٧٢/٤/٤) واعلن فيها وايزمان انه « لم يكن هناك خطر ابادة علـى الاطلاق » وان هذه « الفرضية » لم يعتنقها ابدا أي « اجتماع جدي » . وادعى الرئيس السابق لشعبة العمليات في القيادة العامة للجيش الاسرائيلي خلال حرب حزيران ١٩٦٧ بأن الدول لا تحتاج الى خطر ابادة يتهددها أو حتى الى حجـة عرضية لكي تأخذ زمام المبادرة في شن حرب(١١). ثم عاد الرئيس الحالي لادارة حزب « حيروت » (وايزمان) الى ابراز « جانب خفي » من حرب حزيران ١٩٦٧ في مقالة نشرتها صحيفة « يديعوت احرونوت » غداة الذكرى الخامسة لتلـك الحرب (٧٢/٦/٦) ، فاعترف بأن اسرائيل اعدت لشن الحرب منذ ١٩٥٦ ، ولم تنتظر حلول شهري ايار وحزيران من سنة ١٩٦٧. ومما جاء في مقالة وايزمان : « شغلتنا ، حرب المستقبل، كثيرا ــ مثل كل رئاسة أركان تجد نفسها في وضعنا ــ خلال كل الفترة الممتدة من عملية «قادش» (أي : حرب سيناء ١٩٥٦) الى حرب الايام الستة ، وليس فقط خلال ايار ــ حزيران ١٩٦٧ » . (ن. م. د. ف. ١٩٧٢/٧/١ ، ص ٣٩٣) .

غـير ان صحيفة « يديعوت أحرونوت » استصرحت الجنرال دافيـد اليعازر ، رئيس الاركان العامة ، ما يلي : « الحدود السابقة لم تكن آمنة . ومن الصعب القيام بالدفاع عن البلاد ضمن حدود من ذلك القبيل . فلو سمحنـا للقوات المسلحة العربية بتنظيـم حشودها والمبادأة بالهجوم ، لكنا قد عرضنا دولة اسرائيل للخطر »(١٢).

بينما اعلن الجنرال حاييم بارليف ، وهو رئيس سابق للاركان يشغل حاليا منصب وزير التجارة والصناعة ، في مقابلة نشرتها صحيفة « معاريف » (٧٢/٤/١٩) الرأي التالي : « نحن لم نكن مهددين بخطر الابادة عشية حرب الايـام الستة ، ولم نقل ابدا او نفكر بوجود احتمال من هذا القبيل . ومن الصحيـح ان هذه الفرضية جرى تصورها ابان حرب ١٩٤٨ ، لكنها تكشفت عن ضآلة في الجدية منذ ذلك الحين »(١٣).

وتعرض موردخـاى بنتوف ، الوزير السابق عن المابام خـلال عدوان الخـامس من حزيران ، لهجوم عنيف على صفحات الجرائد الاسرائيلية في أعقاب ما كتبه ونشرته عال همشمار (٧٢/٤/١٤) من أن « هذه القصة كلها عن خطر الابادة جرى اختراعها بجميع فصولها وتضخيمها في وقت لاحق لتبرير مسألة ضم مناطق عربية جديدة »(١٤). فالقراء الذين هاجموه تحدثوا عن وجوب « الاستمـرار في تربية الشعب وتثقيفه في ضوء خطر الابادة » . بينما رد عليهم بقوله : يجب تغليب الحقيقة على تربية « قوامها الاوهـام الخادعة »(١٥). ومن المعروف أن الوزيرين عن المبام في حكومة اشكول التي قررت بدء

استند في دفاعه الى الاسباب الوجدانية التي تجعله يتمنع من الخدمة في جيش يمارس الاحتلال والاضطهاد ، والاقتلاع والتشريد والنفي .

ومما أثار غضب غولدا مئير هو ان الجنرال بيليد اعلن في حديث اذاعي بان محاكمة هذا الشاب ، البالغ الثامنة عشر من العمر ، هي غلطة ــ ويجب اعفاء المعترضين لاسباب ضميرية من تأدية الخدمة . فقد اغتنمت مئير مناسبة انعقاد مجلس الوزراء لتوجيه نقدها الشديد الى آراء الجنرال ، وكذلك الى المسؤولين عن الاذاعـة والتلفزيون متهمة اياهم باعطاء الكلمة لملقـين « لا يعربون دائما عن وجهـات نظر موزونـة » . (لوموند ١٨ ــ ٧٢/٦/١٩) .

العمليات العسكرية ـ وهما بنتوف واسرائيل بارزيلاي ، الذي توفي لاحقا ـ لم يصوتا الى جـانب القرار الحكومي في مجلس الوزراء يوم ٤ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ والداعي الى شن الهجوم ضد الدول العربية . اما السبب المعطى لامتناعهما عن التصويت فهو اقتناعهما بانه لم تستخدم جميع الوسـائـل الديبلوماسية والسياسية لتفريق الحشود المصرية على حدود اسرائيل والتوصل الى اعادة فتح خليج العقبة امام الملاحة .

ان نظرية بيليد سرعـان ما حظيت بتأييد نفر من كبـار القادة العسكريين والزعمـاء السياسيين . وفي السابع من حزيران (يونيو) ١٩٧٢ كان مناحيم بيغين يتناول الموضوع أمام حشد من الطلاب في الجامعة العبرية بالقدس ، مشيرا الى وجود أخطار اخرى كانت تتهدد اسرائيل . حتى أن صحيفة « أوت » الناطقة بلسان حزب العمل بادرت في الاسبوع الثاني من حزيران (يونيو) ١٩٧٢ الى نشر حوار دار بين الجنرالات وايزمان وغافيش وبيليد وهرتزوغ يؤكدون فيه بلا استثناء ودون التباس ان اسرائيل لم تتعرض الى خطر الابادة عشية حرب الايام الستة(١٦). ويقول مراسل صحيفـة « لوموند » ان الجنرال بيليد لجأ الى تذكير الزملاء بالتقديرات التي توصلت اليها اجهزة المخابرات العسكريـة الاسرائيلية ومؤداها ان مصر لم تكن مستعدة للحرب في أيار ـ حزيران (مايو ـ يونيو)، ١٩٦٧ . بينما اعترف بيليد منذ البداية بطبيعة المناقشات التي كانت تدور داخـل هيئة الاركان العامة ، على النحو الاتي : « عندما كنا نتحدث عن الحرب في الاركان العامة ، كان حديثنا يدور عن المضاعفات السياسية التي سوف تترتب عن عدم خوضنا الحرب ـ ماذا سيحل باسرائيل خلال خمس وعشرين السنة القادمة . ولم نتحدث أبدا عن البقاء على قيد الحياة اليوم »(١٧).

فالنقاش الذي بدأ في اواسط شهر اذار (مارس) ١٩٧٢ ، تحول الى مشادة داخلية مع اقتراب الذكرى الخامسة لعدوان الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ . ومما تجدر ملاحظته ان الصحافة العالمية لم تأخذ علما بالامر الا عشية الخامس مـن حزيران ، ١٩٧٢ . فقد نشرت صحيفة « لوموند » يوم السبت الواقع في ٣ حزيران (يونيو) ١٩٧٢ مقالا للكاتب الاسرائيلي المشرف على تحرير مجلة « نيو أوتلوك » ـ أمنون كابيلوك ـ وعنوانه : « عشية اندلاع النزاع ، هل كانت اسرائيل حقا مهددة بخطر الابادة ؟ » . ويبدو ان الحكومة الاسرائيلية استهدفت وضع حد للنقاش الذي وصفته افتتاحية لصحيفة « دافار » الرسمية بـ « النقاش المزعج والعقيم » . لذا اغتنمت مناسبة الـذكرى الخامسة للعدوان ، ونشرت نص القرار الذي تبناه مجلس الوزراء الاسرائيلي قبـل خمس سنوات بالضبط ، وذلك يوم الرابع من حزيران (يونيو) ، ١٩٦٧ . وصـدرت الصحف الاسرائيلية صبيحة يوم الاثنين الواقع في ٥ حزيران (يونيو) ١٩٧٢ حاملة نص القرار الرسمي في صدر صفحاتها الاولى . بينما كان وزير الدولة وأحد المقربين من غولدا مئير ـ اسرائيل غاليلي ـ قد بادر يوم السبت (٣/٦/٧٢) الى دحض التصريحـات القائلة بأن اسرائيل لم تكن معرضة لخطر الابادة . فقال : « انه لمن السهل جدا بعـد الحين اعادة التاريخ ، لكن الواقعة الحقيقية هي ان اسرائيل كانت مهددة بالافناء » . ثم أضاف غاليلي : « اسرائيل قادرة ، وسوف تبقى كذلك ، على الحاق الهزيمة بجميع الدول العربية مجتمعة »(١٨).

قرار العدوان ومضاعفاته

اقدمت الحكومة الاسرائيلية على سابقة لا مثيل لها ، عندما افرجت يوم الاحد الموافق للرابع من حزيران (يونيو) ١٩٧٢ ، عن نص القرار الذي اتخذتـه قبل خمس سنوات بالضبط وعشية البدء في عدوانها العسكري والقيام بشن العمليات الهجومية ضـد الدول العربية. وجاء في النص الذي تناقلته وكالات الانباء والصحف العالمية ما يلي :« ان الحكومة ، بعد استماعها الى التقارير التي رفعها كل من رئيس الوزراء ووزير الخارجية

ووزير الدفاع ، ورئيس الاركان العامة ورئيس شعبة المخابرات العسكرية حول الوضع العسكري والسياسي، توصلت الى قناعة مفادها ان الجيوش المصرية والسورية والاردنية قد تحركت واحتشدت في مواقعها بغية شن هجوم مباشر على امتداد أربع جبهات ، بحيث صارت تتهدد وجود دولتنا . تقرر الحكومة اتخاذ الخطوات والاجراءات العسكرية اللازمة لتحرير اسرائيل من ربقة العدوان الذي يتابع احكام طوقه حولنا . وتفوض الحكومة الى كل من رئيسها ووزير الدفاع وهيئة الاركان العامة للقوات الاسرائيلية صلاحية تعيين موعد البدء في العمليات العسكرية . كما يجري اطلاع اعضاء الوزارة في أسرع وقت ممكن على سير العمليات العسكرية المنوي تنفيذها . وتعهد الحكومة الى وزير الخارجية باستنفاد جميع الامكانيات السياسية بغية توضيح موقف اسرائيل واكتساب تأييد الدول الكبرى »(١٩).

مما لا ريب فيه ان الذين عمدوا الى نشر نص القرار كانوا يهدفون من ورائه الى تحقيق عدة أمور . هذا مع العلم بأن الصحافة الاجنبية رات في بادرة الاقدام على نشر قرار العدوان دليلا رسميا على ان الاسرائيليين كانوا البادئين في اطلاق النار صبيحة الخامس من حزيران ١٩٦٧ . فالوثيقة الرسمية تؤكد على خرافة التهديد بالابادة ، وتنظر الى مسألة الحشود العربية من الزاوية الملائمة للابقاء على الهاجس المصطنع بوجود خطر يتهدد كيان الدولة ويجعل أهلها عرضة للابادة والافناء . كما أن القائلين بفائدة نشرها توسموا فيها افحاما للاصوات التي تعتبر خرافة الابادة جزءا من الخدعة التي يجري توسلها للاحتفاظ بالمناطق المحتلة . فالاشارة الى « الخطر العربي » الذي بات يتهدد وجود اسرائيل ترمي الى الرد على بيليد ومؤيدي نظريته في « الخدعة » التي جرى استنباطها لاحقا واحلالها في منزلة الاسطورة التي لا تقبل النقاش .

ان الجنرال بيليد — كما يقول كابليوك — أراد البرهان علىحقيقةقائمة ويصعب نكرانها. فالحكومة الاسرائيلية تتعمد استغلال مشاعر القلق لدى السكان بقصد الوصول الى غاياتها وبلوغ مآربها . وفي طليعة الغايات والمآرب تأتي مسألة « تكبير رقعة اسرائيل »، بضم المناطق العربية المحتلة . فالمسؤولون، بنظر الجنرال في الاحتياط، لجأوا عن سابق تصور وتصميم الى تشويه الهدف الذي من اجله قامت حرب الايام الستة بغية احداث التشويش والبلبلة في مسألة أمن الدولة وسلامتها . والنتيجة التي يمكن استخلاصها من هذا التضليل المدروس تنطوي على امرين : **اولا** — ان الحكومة الاسرائيلية ، في محاولتها الرامية الى تزييف الاسباب المؤدية للحرب والقاء دوافعها الحقيقية في غياهب التعتيم ، تسعى لحمل الشعب على القبول بمبدأ الضم الجزئي او الكلي — متى أمكن ذلك — للمناطق العربية المحتلة. **ثانيا** — تقوم حكومة اسرائيل على اذكاء خوف لا اساس له في نفوس السكان ، بحيث تجعلهم في حالة من القلق او الفزع الدائم على وجودهم بالذات(٢٠).

اي أن المؤسسة الحاكمة وسلطات الاحتلال الاسرائيلي تمضي في تمسكها بالخرافة التي اطلقتها عن تعرض كيان الدولة لخطر الابادة ، طمعا في استغلال مخاوف القلق التي تزرعها هي في النفوس لكي تعود فتحصدها لحاجاتها واطماعها التوسعية .

ومما تجدر ملاحظته ان الخطوة الحكومية بنشر القرار لم تنجح في وضع حد للنقاش الذي بات يسبب لها الازعاج والاحراج . لقد بادر نفر من الصحافيين الاسرائيليين عند بداية النقاش الى مناشدة الجنرالات تغليب « حسهم الوطني » على المضي في التعرض لامور خطيرة . وطلب هؤلاء الى كبار العسكريين السابقين « الامتناع عن استخدام حقهم الاساسي في التعبير عن آرائهم » . اما الحجة التي أرفقوا بها دعوتهم الى عدم الخوض في مسائل حساسة من هذا القبيل فقد تذرعت بما يلي : لئلا يلحق الضرر باسرائيل في مجالين — على صعيد الراي العام العالمي وبين يهود الشتات(٢١).

لكن الجنرال وايزمان فاجأ دعاة التريث والاقلاع عن التصدي لمثل هذه التلفيقات بقوله: « يرغب يهود الشتات ان يروا فينا ، لاسباب خاصة بهم ، ابطالا ينتصبون بقدم ثابتة عند أسفل الحائط . لكن هذه الرغبة لا يسعها ابدا تغيير شيء من الحقائق الواقعة »(٢٢) .

ومن الثابت ان لجوء الحكومة الى اذاعة نص القرار الذي اتخذته الوزارة الاسرائيلية عشية شن العدوان ينم عن محاولة ترمي الى اقفال باب المشادة العلنية حول موضوع « خطر الابادة » . فقد أصبح الموقف حرجا بالنسبة لوضعها أمام الراي العام داخل اسرائيل ، وازدادت المخاوف من ردود الفعل في أوساط الراي العالمي . بينما سارع أنصارها الى تكتيل جبهة تتصدى لحملة الجنرالات وتستصرخ مجموعة من القادة العسكريين الذين لا يشاطرونهم الراي . فانضم كل من اسحق رابين واريك شارون (قائد القطاع الجنوبي في اسرائيل حاليا) ويغئال يادين ودافيد اليعازر الى غاليلي وموشيه كارميل وابا ايبان في الدفاع عن وجهة النظر الرسمية . واذاع راديو اسرائيل بمناسبة الذكرى الخامسة للعدوان حوارا جرى بين الجنرال متتياهو بليد والجنرال حاييم هرتزوغ ــ المعلق العسكري الرسمي ، والرئيس السابق لشعبة المخابرات العسكرية . فذهب الاول الى حد القول صراحة بأنه لا توجد براهين للدلالة على كون المصريين كانوا بالفعل ينوون مهاجمة اسرائيل حينذاك . بينما اعترف هرتزوغ ، وهو العضو في حزب العمل الحاكم ، بأن « خطر الابادة » لم يكن قائما : « فلا هيئة الاركان الاسرائيلية ، ولا قيادة البنتاغون ــ كما تبرهن مذكرات الرئيس الاميركي ليندون جونسون ــ اعتقدت بوجود مثل هذا الخطر » . ثم عاد الجنرال هرتزوغ الى متابعة الحديث في الموضوع اياه من اذاعة اسرائيل يوم ٧ حزيران (يونيو) ١٩٧٢ ، فاقترح « وضع حد لهذا النقاش ، لانه يجدر بنا الا نثير الشكوك حول هذه القصة التي خلقناها نحن »(٢٣) . واتاحت الاذاعة الاسرائيلية (٧٢/٦/٦) امام الجنرال في الخدمة ، اريك شارون ، مجالا واسعا للرد على المشككين من خلال اعلانه في اجتماع عام بأن اسرائيل شنت الحرب سنة ١٩٦٧ بقصد ازالة خطر الابادة الذي كان يتهدد وجودها(٢٤) .

حتى ان القائد السابق للاركان العامة ، حاييم بارليف ، الذي يشغل حاليا منصب وزير التجارة والصناعة ، وجد من المناسب توضيح موقفه مجددا في اجتماع الوزارة الاسرائيلية يوم الاحد الموافق ٢ تموز (يوليو) ، ١٩٧٢ . فقد أدلى بارليف ببيان امام الحكومة « لانه جيء على ذكر اسمي في معرض تصريحات واقوال ترمي الى التقليل من فداحة الخطر الذي تربص بدولة اسرائيل على عتبة حرب حزيران » . ومما تضمنه بيان بارليف « التصحيحي » هو « ان حرب حزيران كانت حربا لم ترغب فيها اسرائيل ولا هي بدأتها . فقد نشبت هذه الحرب بمبادرة من الدول العربية التي أقدمت على اتخاذ خطوات اجبرتنا فيها على خوض الحرب : اغلاق مضائق تيران وحشد الجيوش العربية على حدود اسرائيل ، وما رافق هذه الحشود العسكرية من اعلانات صريحة بالحرب »(٢٥) . الى هنا يكون بارليف قد أرضى الموقف الرسمي بوضع نقاطه على الحروف . وفي الوقت نفسه جاء بيانه حاملا التأكيد التالي : « أنا من جهتي لا استعمل التعريف عن تدمير اسرائيل ، لان مغزى هذه الكلمات في معناها المألوف هو الافناء الجسدي لمليون من اليهود او الغزو الفعلي لاراضي دولة اسرائيل ، او الامران معا . ومثل هذا الخطر لم يكن قائما »(٢٦) .

أصداء في صحف العالم ؟

اذا كانت المؤسسة الحاكمة في اسرائيل لم تقابل بادرة كبار الجنرالات السابقين بارتياح تام ، فانها اعترفت بدورها ــ وللمرة الاولى بهذه الصورة الرسمية ــ ان قواتها العسكرية كانت البادئة في شن الهجوم العدواني . وسرت شائعات مفادها ان الجنرال

بيليد ومؤيديه في الراي يحاولون تحقيق بعض المكاسب السياسية على الصعيد الداخلي وطمعا بخوض الانتخابات العامة القادمة في اسرائيل . فهل تبقى هذه المشادة محصورة ضمن اطارها الداخلي — الاسرائيلي ؟ ان الاراء التي صدرت عن الجنرالات تدل على ظاهرة تتخوف منها الحكومة . اذ تعني هذه الظاهرة وجود عناصر مسؤولة وغير مترددة عن دحض التفسير الحكومي الرسمي لاحداث العدوان .

ولكن ، ما هو الصدى الذي أحدثته هذه المشادة والاعترافات التي أسفرت عنها ، بالنسبة للصحافة العالمية . فالمعروف ان الصحف الاجنبية دابت منذ عدوان الخامس من حزيران ١٩٦٧ على ترديد الرواية الاسرائيلية والاخذ بها دون اي تمحيص او تدقيق . والسؤال الذي يقفز الى الذهن على الفور يشير الى موقف الصحف الغربية من الاعترافات الاسرائيلية ، الصريحة والرسمية ، بالبدء في شن العدوان .

فقد كتبت صحيفة « نوي زوريخر تزايتونغ » (١٩٧٢/٦/١٧) تحت عنوان « الخطر الذي تهدد اسرائيل قبل حرب الايام الستة » لكي تنوه بالمقاصد السياسية التي يرمي اليها الجنرال بيليد . وقالت بأن أصحاب النظرية التي تنفي تعرض اسرائيل لخطر الابادة، وهم من الجنرالات ورجال السياسة ، يقومون بمحاولة تهدف الى ازالة الشكوك وانعدام الثقة بين اسرائيل والدول العربية . وهؤلاء يريدون بالتالي افهام العرب بأن اسرائيل لا تنوي ضم جميع المناطق المحتلة ، بل هي مستعدة للالتقاء معهم في منتصف الطريق . فالمناطق المحتلة — كما تؤكد الصحيفة السويسرية — سوف تظل اداة للمساومة ، انما في اطار معنى متغير الان . والمشادة الدائرة في اسرائيل توحي بانطباع مفاده « تحذير مصر من مغبة الاقدام على بدء حرب جديدة »(٢٧).

ومما تجدر ملاحظته ان مراسل الصحيفة المذكورة في اسرائيل لم يشأ اخفاء دهشته من اقبال الاسرائيليين على التصدي لمسائل من هذا النوع بصورة علنية ودون اية تحفظات — علما بأن الحل السلمي للنزاع ما زال بعيد المنال. فهو ينتهي الى الاشادة « بسعيهم نحو بلوغ الحقيقة — هذا السعي الذي لا يقف عند اية حدود ». ويقترح ان الاسرائيليين يشعرون بالقوة الكافية والثقة بالنفس الى درجة تسمح لهم بتوضيح هذه المسائل ومناقشتها .

بينما تساءلت مجلة « تايم » الامريكية (٧٢/٦/١٩) عما اذا كانت حرب حزيران ضرورية . واعتبرت النقاش الدائر في اسرائيل بمثابة «علامة تشير الى كون الاسرائيليين باتوا يشعرون الان بقدر كاف من الامان لكي يجازفوا باثارة مثل هذه القضية الحساسة في العلن » . فالسيدة غولدا مائير — على حد قول المجلة — تبدي اهتماما للتدليل على خطأ النقاد وللتشديد على ذريعة الحرب بصورة تجعل مسألة البقاء أكثر اتصالا بالحس الوطني والامتناع عن الخوض في قضايا من هذا النوع . والحكومة الاسرائيلية لم تبادر الى نشر القرار المتخذ عشية العدوان الا بعد ان تنبهت لامر النقاش وخطورة الاراء والاعترافات بالنسبة للرأي العالمي .

حتى أن سفارة اسرائيل في باريس قامت عند اواخر حزيران الفائت بتوزيع كراس اعدته وزارة الشؤون الخارجية بالقدس . وهذا الكراس يحمل العنوان التالي : « التهديد ، والاحداث التي ادت الى حرب الايام الستة » فهو يتضمن النصوص والرسوم البيانية ، الى جانب الرسوم الكاريكاتورية المأخوذة عن الصحف العربية . كل ذلك بقصد التدليل على « رغبة الزعماء العرب منذ ١٩٤٨ في تدمير اسرائيل » . ولقد اعترف ابا ايبان في معرض الرد على سؤال تلقاه خلال اجتماع مجلس الوزراء الاسرائيلي يوم الثاني من تموز (يوليو) الحالي بأن سفارة اسرائيل في باريس هي التي قامت بنشر الكراس المذكور(٢٨).

اما « الامثولات » او « العبر » التي يستخلصها الكراس المعد لتدارك الموقف الاعلامي والحيلولة دون انهيار الخرافة المنسوجة حول « خطر الابادة » ، فهي على النحو التالي : « العداء والكراهية يشجعان على العدوان ، وضيق المسافات الاقليمية يضاعف من اغراء العدوان . وهيئة الامم المتحدة ، كما قوى الامن ، اظهرت عجزها في وضع حد للازمات . وفي ابان الازمات تفتقد الضمانات والتأكيدات المعطاة من جانب الدول الكبرى في الماضي الى التصديق »(٢٩).

بيد أن كراس وزارة الخارجية الاسرائيلية لا يكتفي بالقاء هذه الدروس على مسامع الرأي العام الاوروبي ، بل يجد من المناسب ابلاغ من يهمه الامر شيئا عن طبيعة الاطماع التوسعية لدولة اسرائيل . ففي خاتمة النص المرصود في الكراس نقرأ ما يلي : « ان ذلك الجزء من سيناء ، الذي سيعود الى مصر ضمن اطار اتفاقية سلام بينها وبين اسرائيل ، ينبغي جعله مجردا من السلاح . مثلما ينبغي بقاء شرم الشيخ في أيدي اسرائيل . ويجب ان تبقى اسرائيل في مرتفعات الجولان . واخيرا ، يجب أن تظل القدس موحدة وكجزء من اسرائيل وعاصمة لها »(٣٠).

ان الاصداء التي ترددت في بعض الصحف الاوروبية والعالمية عن انهيار الاسطورة التي نسجتها مخيلة القيادة السياسية الاسرائيلية حول خطر الابادة المزعوم ، لم تأت على المستوى ذاته من اسهام تلك الصحف في الترويج للاسطورة منذ خمس سنوات. ورغم هذا ، فان اسرائيل الرسمية بادرت على جناح السرعة الى الهاء الرأي العام بصيغة جديدة ــ قديمة لروايتها المعهودة عن عدوان حزيران وخرافة الخطر الذي ما فتىء يتهددها بالابادة والدمار . فهل تكون الذريعة التي تتوسلها الصحف الكبرى للتهرب من تهجئة الحقيقة حرفا حرفا كامنة في اكتفائها بالقول ان المشادة الجارية في اسرائيل لا تعدو كونها مسألة داخلية ؟ ومتى يتهيأ لها الادراك السليم بأن الرجوع عن الخطأ ــ حتى في مثل هذه الحالات المصيرية ــ هو ايضا فضيلة ، وعلى سبيل التكفير عن رذائلها الماضية ! .

---

١ ــ متتياهو بيليد (عميد احتياط) ، كان رئيسا لشعبة الامدادات والتموين في القيادة العامة للجيش الاسرائيلي خلال حرب ١٩٦٧ . وأصبح استاذا لتاريخ الشرق الاوسط في جامعة تل ابيب ، بالاضافة الى انتسابه كباحث لمعهد شيلواح . دخل معترك السياسة بعد تسريحه من الخدمة العسكرية ، وأخذ يعد العدة لخوض الانتخابات العامة في اسرائيل . كما عكف على كتابة المقالات والتعليقات في الصحف الاسرائيلية ، وشارك في التوقيع على عريضة الاساتذة المرفوعة الى غولدا مئير بتاريخ ٢٦/ ٧١/١٢ . ينتمي الى تلك الفئة من ضباط الاحتياط الذين قالت عنهم صحيفة « يديعوت » (٧٢/٢/٢) بأن ميولهم « الحمائمية » لم تصبح معروفة علانية الا بعد دخولهم ميدان الحياة المدنية . والمعروف ان بيليد اختار موضوعا لاطروحة الدكتوراه التي أعدها في احدى الجامعات الامريكية عن الاديب والروائي المصري « نجيب محفوظ وآثاره » . وسعى عبثا في العام ١٩٦٩ الى حمل محفوظ على مراسلته ، بعد أن بعث اليه بنسخة من الاطروحة عن طريق عميد الجامعة (هذا ما أدلى به بيليد خلال محاضرة القاها باللغة العربية في مدينة الناصرة يوم الخامس من شباط (فبراير) ، ١٩٧٢ ــ نقلا عن صحيفة **عال همشمار** ٧٢/٢/٦) .

٢ ــ انظر صحيفة **لوموند** ، السبت ٧٢/٦/٣ ، حيث المقال التالي :

Amnon Kapeliouk : "Israël était-il réellement menacé d'extermination ?".

وسوف نشير الى هذا المقال باسم كاتبه « كابليوك » . ومما تجدر ملاحظته ان « نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية » دأبت منذ العدد السابع (السنة الثانية) في ٧٢/٤/١ على متابعة اخبار النقاش الدائر في اسرائيل حول موضوع «التعرض المزعوم لخطر الابادة». راجع الاعداد التالية من ن. م. د. ف. : العدد ٩ (٧٢/٥/١) ، ص ٢٤٤ ، العدد ١٢

(٧٢/٦/١٦) ، ص ٣٥٣ — ٣٥٧ ، والعدد ١٣
(٧٢/٧/١) ، ص ٣٩٣ — ٣٩٦ .

٣ — كابليوك ، **المصدر السابق** .

٤ — ن. م. د. ف. ، العدد ٧ (٧٢/٤/١) ، ص ١٧٨ .

٥ — **المصدر نفسه** .

٦ — **المصدر نفسه** ، العدد ٩ (٧٢/٥/١) ، ص ٢٤٤ .

٧ — كابليوك في « لوموند » ، **المصدر السابق** .

٨ — **المصدر نفسه** .

٩ — **المصدر نفسه** (نقلا عن « معاريف » ، ٧٢/٣/٢٩) .

١٠ — **المصدر نفسه** .

١١ — **المصدر نفسه** (نقلا عن « معاريف » ، ٧٢/٤/٤) . وانظر أيضا ن. م. د. ف. العدد ٩ (٧٢/٥/١) ، ص ٢٤٤ .

١٢ — كابليوك ، **المصدر السابق** .

١٣ — **المصدر نفسه** .

١٤ — **المصدر نفسه** .

١٥ — انظر **لوموند** ، ٧٢/٦/١٠ ، ص ٣ :

"Plusieurs généraux affirment qu'Israël n'était pas menacé d'éxtermination en 1967".

١٦ — **المصدر نفسه** .

١٧ — انظر مجلة **تايم** الاميركية .

"Was the War Necessary ?," June 19, 1972, pp. 18-19.

١٨ — راجع **لوموند** ، الثلاثاء ٧٢/٦/٦ :

"Jérusalem affirme que l'Etat hébreu était menacé d'anéantissement en 1967".

١٩ — **المصدر نفسه** . انظر كذلك ما يلي :

Suddeutsche Zeitung, 6/6/72 (Nr. 127): Israel Veröffentlicht Angriffsbeschlups (Amtliches Dokument beweist : Die Israelis schössen am 5 Juni 1967 zuerst).

New Zurcher Zeitung, Samstag, 17 Juni 1972 (Nr. 164): "Israels Bedrohung vor dem Sechstogekrieg: Eine innenpolitische Kontroverse".

٢٠ — كابليوك ، **المصدر السابق** .

٢١ — **المصدر نفسه** .

٢٢ — **المصدر نفسه** .

٢٣ — انظر **لوموند** ٧٢/٦/١٠ .

٢٤ — **المصدر نفسه** .

٢٥ — **الدايلي ستار** ، ٧٢/٧/٣ .

٢٦ — **المصدر نفسه** .

٢٧ — **نوي زوريخر تزايتونغ** (العدد ١٦٤) ، ٧٢/٦/١٧ .

٢٨ — **الدايلي ستار** ، **المصدر السابق** .

٢٩ — انظر **لوموند** ، الجمعة في ٣٠ حـزيران (يونيو) ، ١٩٧٢ .

٣٠ — **المصدر نفسه** .

أبعاد التحرك الاسرائيلي في افريقيا

الدكتور غسان العطية

تتناول هذه الدراسة علاقة اسرائيل بأفريقيا بعيدا عن نطاق السببية الاحادية الجانب ، كما يحاول البعض ان يطرحها(١) . وهناك ارتباط عضوي بين افريقيا كما هي اليوم بقيادتها السياسية التي يرتبط معظمها بعواصم الدول الاستعمارية السابقة ، وافريقيا كما تصبو شعوبها ان تصير . ولا يتم الانتقال من افريقيا الحكام الى افريقيا الشعب في فراغ بل لا بد ان يرتبط من جهة بتحول البنية الاجتماعية والاقتصادية لافريقيا من بنية تحكمها علاقات اجتماعية استغلالية وخضوع اقتصادها للدول الغنية ، الى بنية اجتماعية واقتصادية متحررة من الاستغلال والعبودية للاقتصاد الاستعماري . يرتبط التحول الافريقي من جهة اخرى بحركة التحرر العالمية المعادية للاستعمار ، اذ ان اي انتصار لحركة التحرر العالمية هو انتصار للتحول التقدمي في افريقيا والعكس صحيح ، وتطور افريقيا لا يتم بمعزل عن الصراع العالمي الدائر في الساحة العالمية بين المعسكر الاشتراكي بزعامة الاتحاد السوفياتي والمعسكر الرأسمالي بزعامة الولايات المتحدة .

ان علاقة اسرائيل بأفريقيا تحدد على ضوء التحول الافريقي الذي ستنشط اسرائيل في دعمه او عرقلته على ضوء اثره في الصراع العربي — الاسرائيلي الذي بات مرتبطا بحركة التحرر العالمية والصراع الامريكي — السوفييتي . من هنا ينبغي مراجعة الوضع العربي المعاصر لتحديد الامكانية العربية للرد على اسرائيل والكشف عن الامكانات الكامنة التي يمكن ان تجعل من اللقاء العربي الافريقي ضرورة مصلحية لكلا الطرفين . ان العلاقة الموضوعية والواقعية والجدلية بين الوجود السياسي الافريقي والاستراتيجية السياسية الاسرائيلية ، والوضع العربي المعاصر تحدد ابعاد التحرك الاسرائيلي في افريقيا والرد العربي عليه .

معالم الوجود السياسي الافريقي

١ — تبلور الواقع السياسي الدولي المعاصر لافريقيا في فترة وجيزة في ستينات القرن الحالي بالتحديد . فاذا نظرنا اليوم الى خارطة افريقيا السياسية سنشاهد ٤٢ دولة مستقلة تغطي ما يزيد على ٨٠ ٪ من مساحة افريقيا ، منها ست دول عربية هي مصر والسودان وليبيا وتونس والجزائر والمغرب . وهناك الكيان العنصري في جنوب افريقيا ، اما حكومة ايان سمث في روديسيا فلا تزال المجموعة الدولية باستثناء البرتغال وجنوب افريقيا غير معترفة بها ، وعليه لا يمكننا ان نصنفها ضمن الدول الافريقية المستقلة . وتضم القارة الافريقية اقاليم لا تزال خاضعة للسيطرة الاستعمارية المباشرة كأنغولا وموزامبيق وناميبيا (جنوب غرب افريقيا) وغينيا البرتغالية . واذا ما قارنا هذه الصورة بواقع افريقيا السياسي في أواخر الخمسينات سوف نلاحظ ان الدول الافريقية المستقلة من غير الدول العربية هي اربع فقط : الحبشة وليبريا وغانا وغينيا . وفي عام ١٩٦٠ نالت ست عشرة دولة افريقية استقلالها(٢) ، وارتفع في عام ١٩٦٨ عدد الدول

الافريقية المستقلة الى ٣٥ دولة . وعليه يمكننا القول ان معظم دول افريقيا هي حديثة الاستقلال وتجربتها في الحكم المستقل قصيرة العمر .

٢ ـ تركت الدول الاستعمارية افريقيا بعد سيطرة استمرت عشرات من السنين واحيانا قرونا ، دون ان تخلف وراءها اثرا ملموسا للتقدم الاجتماعي أو العلمي أو الاقتصادي(٣)، مما جعل صفة التخلف في الميادين المذكورة هي الصفة الغالبة لهذه الدول . واذا ما أضفنا مشكلة ندرة الكوادر الفنية والاستثمارات والراسمال الوطني تتجسم أمامنا فداحة العبء المترتب على الانظمة الافريقية الحديثة الاستقلال ، واصبحت هذه الظاهرة بمثابة تدم اخيلوس بالنسبة لدول افريقيا الحديثة الاستقلال .

٣ ـ تكون المجموعة الافريقية اليوم ثقلا سياسيا مهما على الصعيد الدولي ، فالدول الافريقية تشكل الثلث من مجموع العضوية في الامم المتحدة . وتعتبر القارة الافريقية بمثابة خزان للطاقات الطبيعية التي لم تستغل بعد ، فكمية الحديد الموجودة في افريقيا هي ضعف ما هو موجود في امريكا وثلثا ما هو موجود في الاتحاد السوفياتي ، ويكفي الاحتياطي الافريقي من الفحم للاستغلال لفترة ثلاثمئة عام ، وتبلغ حصة افريقيا من قوى العالم المائية حوالي ٤٠ ٪ ولكن لم يستغل منها سوى ٥ ٪ ، وتملك القارة الافريقية ٥٣ معدنا من أهم المعادن التي تدخل في الصناعة الاساسية في العالم ، بالاضافة الى الارض الشاسعة التي لم تستغل زراعيا بعد(٤). وانطلاقا من الشعور بضرورة الوحدة والتعاون سعت دول افريقيا الى تنسيق سياستها فعملت على اقامة منظمة الوحدة الافريقية في عام ١٩٦٣ والتي انضمت اليها جميع الدول الافريقية باستثناء الكيان العنصري في جنوب افريقيا .

٤ ـ ان الاستقلال السياسي الذي حققته معظم الدول الافريقية يبقى استقلالا شكليا ما دام معظم هذه الدول خاضعا للنفوذ الاقتصادي والمالي للدول الاستعمارية التي حكمت البلاد سابقا .

تعتبر هذه الظاهرة بحق وجها من أوجه الاستعمار الجديد في افريقيا . فمن (٢٠،٠٠٠) مليون دولار التي تمثل مجموع الاستثمارات الاجنبية والمحلية في افريقيا ، تبلغ حصة بريطانيا وفرنسا وبلجيكا (١٦،٠٠٠) مليون دولار(٥). وان معدل المساعدات الامريكية لافريقيا خلال السنوات الاخيرة هو حوالي ٣٥٠ مليون دولار في السنة وتشكل هذه المساعدات حوالي ٢٠ ٪ من مجموع المساعدات الخارجية لافريقيا .

وبلغت الاستثمارات الخاصة الامريكية في عام ١٩٦٨ مبلغا قدره حوالي بليوني دولار وقد كان معدل ارتفاع الاستثمارات الخاصة الامريكية في افريقيا بين ١٩٦٣ ـ ١٩٦٨ حوالي ١٤ ٪ سنويا(٦). هذا وعملت بعض الدول الاستعمارية تحت وطأة اشتداد حركات التحرر الوطني على اجهاض المضمون الحقيقي للاستقلال من خلال اقامة كيانات سياسية مستقلة شكلا ومرتبطة فعلا بالدوائر الاستعمارية السابقة ، وساعدت هذه الخطوة الاستعمارية على قطع الطريق أمام نمو الحركات التحررية الوطنية المحلية . وقد قررت فرنسا في عام ١٩٦٠ تحت ضغط الثورة الجزائرية اعطاء الاستقلال الشكلي الى ١٣ دولة كان معظمها جزءا من اتحاد غرب افريقيا الفرنسي واتحاد افريقيا الاستوائية الفرنسي .

ان تجزئة هذه الاقاليم واقامة كيانات سياسية هزيلة لا تملك المقومات المادية للاستقلال الفعلي ومن ثم ربط اقتصاد هذه الدول بفرنسا ، اضافة الى مرابطة قوات عسكرية فرنسية في البلاد افرغ استقلال هذه الدول من اي محتوى حقيقي . وتنعكس تبعية هذه الدول الثلاث عشرة في مواقفها في الامم المتحدة تجاه قضايا التحرر ومعاداة الاستعمار ، فعندما طرح في الجمعية العمومية في عام ١٩٦١ مشروع باعطاء الجزائر

حق تقرير المصير والاستقلال صوت معظم الدول المذكورة سابقا ضد القرار وامتنع البعض الاخر ، ولنا في موقف هذه الدول السلبي من القضية الفلسطينية دليل آخر على تبعية هذه الدول واثر النفوذ الاجنبي فيها .

٥ ـ تزايد نفوذ العسكريين في دول افريقيا في مرحلة ما بعد الاستقلال ، فقد كان مجموع القوات المسلحة للدول الافريقية غير العربية عام ١٩٦٤ ـ حيث نالت معظم دول افريقيا استقلالها ـ يقرب من ١٤٥،٠٠٠ رجل ونصف هذا العدد متكون من قوات اثيوبيا وكونغو ـ كينشاسا فقط . وارتفع الرقم في ١٩٧٠ الى حوالي ٤٠٠،٠٠٠ (باستثناء قوات الدول الافريقية العربية التي تقدر بـ ٣٠٠،٠٠٠ رجل)(٧). وفي الوقت الذي كان تأثير هذه الزيادة على الصعيد الدولي والخارجي محدودا فان لتصاعد القوات العسكرية الافريقية اثرا كبيرا على الصعيد الداخلي لدول افريقيا .

وينعكس ذلك في سلسلة الانقلابات العسكرية التي قامت في عدد متزايد من دول افريقيا، اذ ان اتجاه دول افريقيا نحو فكرة الحزب الواحد ساعد في دفع المؤسسة العسكرية التي تملك عناصر القوة المسلحة والتنظيم أن تصبح اداة فعالة بيد المعارضة السياسية . وبمقدار فشل الانظمة السياسية التي قامت بعد الاستقلال في تحقيق أهدافها تمكن العسكريون من فرض ارادتهم . وفي افريقيا اليوم اثنتا عشرة حكومة عسكرية ، ثلاث منها عربية .

٦ ـ ارتبطت اليقظة الافريقية بنمو الحركة الوطنية التحررية التي ظهرت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بشكل تنظيمات سياسية حزبية ومؤتمرات . ومن السمات البارزة لهذه التنظيمات السياسية خضوعها لقيادة « الطبقة الوسطى » واقصد بذلك تلك العناصر التي نالت من الناحية الثقافية قسطا معينا من التعليم كالدراسة المتوسطة ، والتي تحتل من الناحية الوظيفية مناصب اجتماعية « محترمة » كالمحامين ، والاطباء والموظفين والمعلمين ، والتي تمارس من الناحية الاقتصادية دور التاجر المحلي ، والمالك، وصاحب المزرعة ، والتي تبرز من الناحية الاجتماعية بمظهر الطبقة التي تطبعت بمظاهر حضارية أوربية حديثة في الملبس والمأكل والمسكن . وقد حلت هذه الطبقة بعد الاستقلال محل القيادة القبلية التقليدية المتمثلة برؤساء القبائل الذين كانوا متعاونين مع السلطات الاستعمارية السابقة . وبالرغم من تبني قيادات الاحزاب الوطنية شعارات الاستقلال والحكم الذاتي ومعاداة الاستعمار تأثرت في الوقت نفسه فكريا وحضاريا بأوروبا والغرب عموما ، ويعود ذلك للعوامل الآتية : أ ـ عودة الكثير من الافريقيين الذين خدموا في ادارات الدول الاستعمارية واجهزتها وجيوشها خلال الحرب العالمية الثانية الى بلادهم حاملين معهم تجاربهم الجديدة المتأثرة بالواقع والفكر الغربي(٨). ب ـ هناك اعداد متزايدة من الطلبة الافارقة الذين أتموا دراستهم في أوربا والولايات المتحدة وعادوا الى بلادهم ليحتلوا مراكز سياسية وادارية واجتماعية أكثر مسؤولية بل أن البعض منهم توصل الى سدة الحكم أمثال دكتور نكروما والدكتور كاوندا . جـ ـ وقد أقامت قيادات بعض التنظيمات السياسية الافريقية الوطنية ـ خاصة في المستعمرات الفرنسية ـ علاقات ودية مع احزاب المتربول اليسارية والحزب الشيوعي بالذات . وكان لـ Groupe d'Etude Communistes التي تأسست في أواخر ١٩٤٣ في داكار وابيجان وكوناكري وباماكو ، دور مهم في تهيئة وتنمية عدد لا بأس به من قياديي الاحزاب الافريقية التي قامت فيما بعد في المستعمرات الافرنسية ـ الافريقية كحزب Rassemblement Démocratique African في منطقة افريقيا الاستوائية والغربية الفرنسية .

تحولت السلطة بعد استقلال المستعمرات الافريقية الى الاحزاب السياسية التي قادت حركة الاستقلال الوطني ولكن دور هذه الاحزاب واسلوبها في نيل الاستقلال اختلفا من

اقليم الى آخر ، عمدت بعض الاحزاب الى الاسلوب السياسي السلمي ولجأ البعض الاخر الى العنف والثورة المسلحة الامر الذي ترك أثره على طبيعة الانظمة الافريقية التي قامت بعد الاستقلال . وكان لظروف مقاومة الاستعمار دور مهم في تنظيم الحركة الوطنية في جبهة او حزب سياسي واحد واتجهت معظم الدول الافريقية بعد الاستقلال الى تبني نظام الحزب الواحد ، فمن مجموع ٤٢ دولة ، هناك ٢٦ دولة افريقية تطبق نظام الحزب الواحد .

الاستراتيجية السياسية الاسرائيلية

ان المعيار الرئيسي في تقدير اهمية افريقيا بالنسبة لاسرائيل هو مقدار اثر افريقيا المباشر وغير المباشر بالفعل وبالامكان ، على الصراع العربي ــ الاسرائيلي . وكل ما من شأنه تدعيم الكيان الاسرائيلي بشكل مباشر او غير مباشر هو بدون شك هدف تسعى او ستسعى اليه السياسة الاسرائيلية ، ويصبح حرمان العرب من أي كسب معنوي ، سياسي او مادي ضمن هذه المقولة بمثابة هدف ضمني للسياسة الاسرائيلية . فلأفريقيا وانطلاقا من هذه القاعدة اهمية بارزة بالنسبة للسياسة الاسرائيلية، وما اصرار اسرائيل على فتح مضايق تيران وخليج العقبة بوجه الملاحة الاسرائيلية الا انعكاس لمدى الاهمية التي تعلقها اسرائيل على الاتصال السريع والمباشر مع القارة السوداء . وان مراجعة قصيرة لمعطيات الاستراتيجية السياسية الاسرائيلية ستساعدنا علـــى تفهم التحرك الاسرائيلي في افريقيا .

ظهر الوجود الاسرائيلي في الشرق العربي بعد حرب ١٩٤٨ ، كوجود مفروض بالقوة ورغما عن ارادة ابناء المنطقة . وما دامت البلاد المحيطة بهذا الكيان ترفض التسليم والتعايش مع الوجود الاسرائيلي لا بل مصرة وساعية من اجل استعادة حقوق الشعب الفلسطيني ، فالسياسة الاسرائيلية ستنطلق من العمل على انهاء عزلة الكيان وتثبيت وجوده في المنطقة مستخدمة الاداة العسكرية والسياسية لقهر ارادة البلاد المحيطة بها والرافضة لوجودها . والترجمة العملية لهذه القاعدة هي :

أولا : بناء جيش قوي مسلح بأحدث الاسلحة كفيل بردع اي محاولة عربية مسلحة لاسترداد الحق الفلسطيني ثم دحرها . وقد حدد ايجال الون نائب رئيسة وزراء اسرائيل الحالي هذه السياسة بقوله : « الامل الوحيد لردع العرب ومنعهم مـــن فرض حرب جديدة ، يرتبط بقوة جيش الدفاع وبطريقة استخدامها .. وطالما ان الجيش قادر على حسم المعركة والانتصار فيها ، فان ذلك يؤدي الى ردع العرب من الدخول في حرب جديدة . وارتداع العرب لفترة زمنية طويلة من شأنه ان يؤدي الى تسليم بالامر الواقع، والتسليم يؤدي الى السلام »(٩).

وما دام الغرب هو المصدر الوحيد للسلاح فان اسرائيل مطمئنة على بقاء ميزان التسلح لصالحها ، ومن هنا تأتي اهمية صفقة الاسلحة الروسية المعروفة بالتشيكية عام ١٩٥٥ مع مصر كخطوة في انهاء احتكار الغرب للاسلحة اذ فتحت ابواب التسابق على التسلح بين اسرائيل وبعض الدول العربية . هذا وان المعدات الحربية وحدها لا تخلق جيشا قويا ولذا عملت اسرائيل على عسكرة الاقتصاد والمجتمع كشرط واجب لقيام جيش رادع .

ثانيا : العمل على كسب الدعم والاعتراف الدولي باسرائيل كدولة شرعيـــة ، وتقوية علاقات اسرائيل بدول العالم. كان تأييد الدول الكبرى للوجود الاسرائيلي عاملا اساسيا في حماية اسرائيل خلال المرحلة الاولى من وجودها وهي مدينة في استقلالها ــ لحد بعيد ــ لهذه الدول التي تبنت قرار التقسيم عام ١٩٤٧ . وما دامت الدول الكبرى مجمعة على تأييد اسرائيل فلا مجال لخوف من تهديد عربي حقيقي ، ولذا بادرت اسرائيل عندما

أخذ هذا الاجماع يتبدد تحت وطأة الحرب الباردة لايجاد اتفاق بين الدول الكبرى حول الوجود الاسرائيلي وكرر بن غوريون رئيس الوزراء آنذاك بأن التفاهم المسبق بين هذه الدول شرط ضروري للسلام في الشرق الاوسط واقترح بأن يقدم الاتحاد السوفياتي والغرب تعهدا مشتركا بضمان الحدود القائمة في الشرق الاوسط(١٠). أطلقت اسرائيل هذه الدعوة عن قناعة بأن الاتفاق بين الدول الكبرى سيكون لمصلحتها ، ولكن تطورات ما بعد حرب ١٩٦٧ غيرت من موقف اسرائيل وباتت تخاف من اتفاق الدول الكبرى على تسوية تفرض عليها . وتطالب اسرائيل اليوم بتسوية لمشكلة الشرق الاوسط تتم باللقاء المباشر بين العرب واسرائيل الامر الذي يعني انفراد اسرائيل بالعرب وهم في مواقع ضعف مما يساعد اسرائيل على فرض الامر الواقع وبالتالي الاستسلام على العرب . اما بالنسبة لعلاقات اسرائيل بدول العالم فلا تزال تسعى الى تطويق العرب دوليا براي عام عالمي يؤيد الوجود الاسرائيلي ، وعلى حد قول ابا ايبان وزير الخارجية الاسرائيلية بعد عودته من جولة في بعض الاقطار الافريقية : « نحن قلنا ان الوضع الطبيعي بالنسبة لاسرائيل هو الانسجام الاقليمي Regional Harmony ولكن اذا تعذر تحقيق ذلك فسنعمل على زرع العلم الاسرائيلي في مئات العواصم ونعمل على خلق وجود دولي لاسرائيل يمتد عبر جميع قارات العالم »(١١).

وتسعى اسرائيل ، وبشكل أكثر تحديدا ، الى تطويق الدول العربية بحزام من الدول المتعاطفة مع اسرائيل يمتد من تركيا وايران في الشمال والشرق ، وتركيا في الغرب ، وافريقيا في الجنوب. وقد وصف احد الكتاب هذا الهدف قائلا انه « الحصار الكامل للعرب بواسطة حزام من الدول لا تجد اسرائيل بهم الشركاء فحسب بل الحلفاء والاصدقاء أيضا » (انظر مجلة World Today عدد ١٤ (في يناير ١٩٥٨) صفحات ٣٧ — ٤٦ مقال بعنوان «اسرائيل تتجه نحو افريقيه وآسيه : تفسير للسياسة التجارية الجديدة».)

ثالثا : للغرب والراي العام العالمي دور مهم في دعم الكيان الاسرائيلي . ولكن التطورات العالمية والاقليمية عبر عشرين السنة الماضية دفعت اسرائيل — من اجل تكريس وجودها — الى العمل على بناء دولة قوية ليس عسكريا فحسب بل اقتصاديا وصناعيا واجتماعيا . ولم تبق منطقة الشرق الاوسط بعيدة عن رياح الحرب الباردة التي أنهت مرحلة اللقاء السوفياتي — الغربي بشأن خلق اسرائيل كما تجلى في الاتفاق على قرار التقسيم عام ١٩٤٧ . وكان لقيام أنظمة تقدمية في بعض الاقطار العربية دور مهم في تفهم الاتحاد السوفياتي للقضية الفلسطينية وبالتالي تأييده لقضايا التحرر الوطني في البلاد العربية ، وبمقدار تزايد التقارب العربي السوفياتي ازداد التصاق اسرائيل بالغرب وبأمريكا بالذات . ولكن اذا كانت اسرائيل تعول على دعم عسكري غربي مباشر في حالة نشوب حرب مع العرب فان دخول الاتحاد السوفياتي كحليف للعرب سيؤدي على الاقل الى منع التدخل العسكري المباشر للغرب لصالح اسرائيل وذلك انسجاما مع منطق الحرب الباردة الذي يرفض اي مجابهة مباشرة بين العملاقين . وعليه عملت اسرائيل على تنمية قدراتها العسكرية بالشكل الذي يمكنها من خوض حرب ناجحة مع العرب دون مساعدة مباشرة من الخارج .

نلمس هذا التغير النوعي في الاستراتيجية الاسرائيلية في الفرق بين حرب ١٩٥٦ وحرب ١٩٦٧ حيث توصلت اسرائيل في الحرب الثانية الى كسب الحرب دون تدخل عسكري امريكي او غربي مباشر .

من الخطأ تصور اسرائيل مجرد أداة لا حياة ولا ارادة لها بيد الاستعمار او الغرب . صحيح ان هناك ارتباطا عضويا بين الوجود الاسرائيلي والاستعمار ولكن كما نجد بين الدول الاستعمارية تناقضات يمكن وصفها بتناقضات ثانوية هي من قبيل التنافس الذي ينتهي عند الاصطدام بخطر خارجي فان علاقة اسرائيل بالغرب وامريكا تحمل ضمنا

امكانية مثل هذه التناقضات . وكانت تجربة الحركة الصهيونية مع بريطانيا في عام ١٩٣٩ — عندما صدر الكتاب الابيض الداعي لتحديد الهجرة اليهوديـــة لفلسطين — درسا لاسرائيل في ضرورة الاعتماد على النفس . ومن الممكن ان تبرز التناقضات الثانوية بين اسرائيل والغرب وامريكا نتيجة ظروف الحرب الباردة او لضرورات المصلحة الاستعمارية الخاصة للدول الاستعمارية الكبرى ، ولنا من مقارنة علاقة اسرائيل بفرنسا في عام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٧ خير مثال . ولذا عملت اسرائيل على توفير اكبر قدر من الاستقلال والتقليل من الاعتماد على الخارج . يقول آلون في هذا الصدد : « للاقتصاد السليم اهمية سياسية وعسكرية لان هناك علاقة وطيدة بين المصادر الاقتصادية وبين درجـــة الاستقلال القومي وبين هذين الاثنين معا وبين القدرة العسكرية للدولة وقدراتها على الاختبار النسبي للاستراتيجية المطلوب الدفاع عنها » . وان هناك « ضرورة لبنـــاء الاقتصاد وتعميق الانتاج المحلي من المنتجات الحيوية ووسائل القتال . . وليس ذلك ضروريا لضمان مستوى معيشة مرتفع فحسب وانما هو ضروري ايضا لتخفيض ارتباط اسرائيل قدر الامكان بالدوائر الاجنبية كي لا تتأثر بالتغييرات المرتبطة بها وكي لا تقع تحت تهديد بالخطر مع تجاهل ضرورات تسليحها . ولهذا فان جهودا خطيرة تنتظرنا في المجال الاقتصادي ، اذ يجب ان لا نستبعد احتمال ظهور اختلاف في وجهات النظر وسوء تفاهم مع دول صديقة تريد استخدام نفوذها الاقتصادي في الجدل الدائر حول تخطيط حدود اسرائيل »(١٢).

وفي نجاح اسرائيل — في تحويل البلاد الى دولة صناعية تعتمد في ميزانها التجاري على التصدير الصناعي قبل كل شيء — دلالة على السعي نحو الاستقلال الاقتصادي . وتدل الخطوات التي انجزتها السلطات الاسرائيلية في بناء صناعة محلية للاسلحة بشكل واضح على رغبة اسرائيل في تحقيق اقصى درجة من الاكتفاء الذاتي في ميدان التسلح(١٣). والنقاش الذي دار في اواخر عام ١٩٧١ عن احتمال تنازل اسرائيلي مقابل اتمام صفقة شراء الفانتوم من الولايات المتحدة وما لحق ذلك من اصرار اسرائيلي على رفض اي تنازل مقابل الفانتوم(١٤) ما هو الا اشارة اخرى للاهمية المتزايدة لاحتمالات الاختلاف التكتيكي بين اسرائيل وحليفاتها .

ولكن يجب ألا يدفعنا هذا الى الاعتقاد بوجود تناقض استراتيجي بين الولايات المتحدة واسرائيل وحتى الحملة الاسرائيلية للضغط على امريكا لغرض عدم « بيع » مصالح اسرائيل من اجل تفاهم مع موسكو خاصة خلال زيارة نيكسون للاتحاد السوفياتي في ايار ١٩٧٢ — هي من قبيل المناورة والتهويل ضمن التكتيك . فقد كتب أ. شفيستر في هآرتس بتاريخ ١٣/١/١٩٧٢ : « على الاسرائيلي القلق ان يثق بأن جميع الخطوات الامريكية ، حتى تلك التي اعدت للضغط على القدس ، ترتكز على اساس أن اســـرائيل مصلحـــة وطنية للولايات المتحـــدة » واضاف « هذا لا يعني ان هنــــاك وفاقا تاما بيننا وبينهم (الامريكيين) ، ولكن عدم الاتفاق ناتج عن الخلاف في الراي بالنسبة الى السؤال : ماذا يقوي اسرائيل ، الاراضي أم التسويات ؟ امتيازات استراتيجية اساسها جغرافي ام اخرى يكون مصدرها افضليات تقنية واقتصادية وسياسية وثقافية ؟. . . »(١٥).

والوجه الاخر للنتائج المترتبة عن احتمال ظهور تناقض او اختلاف نسبي بين اسرائيل وحليفاتها من الدول الكبرى هو سعي اسرائيل لتصبح عنصرا ايجابيا ذا فائدة للغرب ، لا مجرد عالة انسانية تستدر الحنان والعطف . سيكون بيد اسرائيل في مثل هذه الحالة ورقة رابحة في معاملاتها مع حليفاتها في اي عملية مساومة سياسية كانت أم اقتصادية. ان العنصر الايجابي او الورقة الرابحة التي تلعبها اسرائيل هي في قيامها بدور الرديف او الوسيط للمصالح الاقتصادية والسياسية للغرب في العالم الثالث وتقدم اسرائيل نفسها في وجه ازدياد النفوذ السوفياتي كموقع متقدم في خدمة الغرب . قال ابا ايبان بتاريخ

١٨/٤/١٩٧١ في معرض حديثه عن العلاقة بين اسرائيل وامريكا : « لن تتخلى الولايات المتحدة عن اسرائيل ، لانها توصلت هذا العام الى استنتاج هو انها تدعم اسرائيل ليس لمجرد العطف عليها ، بل كما ذكر نيكسون للحيلولة دون خرق ميزان التسلح لان ذلك ضروري للمصالح الاميركية ، ولان أمن الولايات المتحدة قائم على الثقة بقدرتها على الردع في العالم فليست هناك دولة في اية قارة ، تثق بان الولايات المتحدة ستهب لمساعدتها ، اذا تخلت هذه عن أمن اسرائيل » . وقال : « ان اهمال اسرائيل معناه انهيار تام للثقة بالردع الاميركي في العالم . لذلك فان الولايات المتحدة ستعمل على مساعدة اسرائيل بناء على اعتبارات مصلحتها، وليس لاعتبارات العطف فقط، رغم الخلافات القائمة»(١٦). وقال ايجال آلون ومن المنطلق نفسه : « ان وجود دولة اسرائيل مستقلة قوية في قلب الشرق الاوسط وعلى شاطىء البحر المتوسط اصبح في صالح اميركة »(١٧).

وبازدياد الخدمات التي تقدمها او يمكن ان تقدمها اسرائيل لحليفاتها يزداد الدعم المقدم من هذه الدول لاسرائيل وتضيق شقة الخلافات المحتملة بالطبع .

رابعا : ضآلة نفوس سكان اسرائيل بالمقارنة مع عشرات الملايين العرب جعل اسرائيل بأمس الحاجة لمزيد من الهجرة لسد حاجة قواتها العسكرية من جهة وتوفير الايدي العاملة الاقتصادية من جهة اخرى . اضافة الى اعتبار تجميع يهود العالم في ارض اسرائيل هدفا ايديولوجيا(١٨). ولكن الدعوة لمزيد من الهجرة لاسرائيل ينطوي على تناقض يجسد الدوامة التي يعيشها الكيان الاسرائيلي . يقول المنطق الصهيوني ان ضرورات الامن تتطلب الهجرة ، ولكننا نلاحظ ان رقعة اسرائيل الجغرافية ومواردها الاقتصادية لا تسمح بهجرة واسعة ولاجل استيعابهم لا بد من مزيد من الارض وهذا يعني مزيدا من التوسع وبالتالي استمرار الحرب .

التحرك الاسرائيلي في افريقيا

يتم تحديد ابعاد التحرك الاسرائيلي في افريقيا على ضوء العلاقة الموضوعية بين الواقع الافريقي والاستراتيجية السياسية الاسرائيلية ، وكيف يمكن بعبارة اخرى لافريقيا ان تخدم أهداف الاستراتيجية الاسرائيلية ؟ وما هي الخطوات التي اتخذتها فعلا او يمكن ان تتخذها اسرائيل لتحقيق ذلك ؟

اولا : **اسرائيل في دور الدولة الصغيرة المتحررة** : توجهت اسرائيل في اواخر الخمسينات وبالتحديد عام ١٩٥٧ نحو افريقيا . ولهذا التوقيت علاقة بعاملين اساسيين ، فمن ناحية ، فتحت مضايق تيران وخليج العقبة بوجه الملاحة الاسرائيلية بعد حرب سيناء ١٩٥٦ ، الامر الذي يسر الاتصال البحري بين اسرائيل وشرق وجنوب افريقيا . وكانت هذه الفترة ــ من ناحية اخرى ــ تمهيدا لاستقلال معظم القارة الافريقية . وهكذا ــ ــ وبدون اضاعة الوقت ــ تحركت اسرائيل نحو افريقيا مستهدفة كسب صداقة القارة لها وبالتالي اعترافها ودعمها وقطع الطريق على اية محاولة عربية معاكسة . (راجع الجدول رقم (١)) .

استفادت اسرائيل في سعيها لكسب اعتراف الدول الافريقية وصداقتها من جملة عوامل ذاتية وخارجية : أ ــ سخر التأثير السياسي للدول الاستعمارية السابقة في بعض الدول الافريقية الفتية لمصلحة اسرائيل . فقد اعترفت مجموعة المستعمرات الفرنسية الثلاث عشرة المستقلة في ١٩٦٠ بدولة اسرائيل تحت تأثير فرنسا التي كانت تخوض انذاك حربا استعمارية ضد عرب الجزائر . وتعتبر ليسوتو وبوتسوانا الخاضعتان لنفوذ جنوب افريقيا والبرتغال من خيرة اصدقاء اسرائيل في افريقيا . ب ــ مبادرة اسرائيل السريعة لخطب ود الدول الافريقية حديثة الاستقلال وذلك بالاسراع في الاعتراف بهذه الدول بمجرد اعلان استقلالها مما ترك اطيب الاثر في نفوس ابناء هذه الدول المتعطشين للانتماء

الجدول رقم (١)

النمو والتوزيع الجغرافي للبعثات الدبلوماسية والقنصلية الاسرائيلية

المكان	١٩٤٩	١٩٥٠	١٩٥٤	١٩٥٩	١٩٦٥	١٩٦٧	١٩٦٨
افريقيا	١	١	٢	٨	٢٧	٢٩	٢٩
امريكا الشمالية	٤	٣	٥	٧	١١	١٣	١٣
امريكا اللاتينية	٢	٨	١٣	٢٢	١٤	١٥	١٦
استراليا ونيوزيلانده	١	٢	٢	٢	٢	٢	٢
اوروبا الغربية	٩	١١	١٩	٢١	٢١	٢١	٢٣
اوروبا الشرقية	٦	٦	٧	٧	٧	٧	١
آسيا	—	١	٥	٧	٨	٩	٩
غيره	—	٥	٦	٦	—	—	—
المجموع	٢٣	٣٧	٥٩	٨٠	٩٠	٩٦	٩٣

المصدر: **Michael Brecher,*The Foreign Policy System of Israel,Setting, Images, Process,* London, Oxford University Press, 1972, p. 518.**

لنادي الراشدين في عالم الدول المستقلة . ثم ان هذه الدول الفتية كانت بعيدة فكريا وعمليا عن ظروف نشأة اسرائيل وغالبا ما نظرت اليها كحقيقة واقعة وكعضو متساو في هيئة الامم . ان غياب مبادرة عربية سابقة له قد أثر بدون شك في تعزيز الموقف الاسرائيلي . ج ـ تعتبر اسرائيل اقامة تمثيل دبلوماسي بينها وبين افريقيا بمثابة بداية لعمل دؤوب ومستمر لكسب افريقيا ، وتسعى الحكومة الاسرائيلية الى تعيين عناصر كفوءة سياسيا واداريا في بعثاتها الدبلوماسية(١٩). وساعد ارتفاع المستوى الثقافي في اسرائيل وتوفر الكفاءات الثقافية المستوردة من الدياسبورا الى ملء البعثات الدبلوماسية بالعناصر المناسبة التي لا تنظر الى عملها بعقلية بيروقراطية استعلائية(٢٠). واعطيت البعثات الدبلوماسية الكثير من الصلاحيات التي تساعدها على التحرك السريع والمبادرة والبت بالقرارات دون ضياع الوقت في اجراءات روتينية تقلل ان لم تقتل مثل هذه الروحية في العمل(٢١).

وقد عملت اسرائيل على تهيئة مناخ نفسي مناسب في القارة السوداء يتقبل نشاطها السياسي والاقتصادي . فقد طرحت اسرائيل نفسها كبلد له ماض ومصالح متماثلة مع شعوب افريقيا السوداء ، فمعاناة الزنوج من الاضطهاد تشابه ما قاساه اليهود من نزعة اللاسامية والاضطهاد . خاطب وزير خارجية اسرائيل وفدا من جمهورية افريقيا الوسطى يزور اسرائيل قائلا : « كل منا قطع شوطا طويلا في طريق التمييز والحزن والالم ـ البعض بسبب اللون والبعض الاخر بسبب الدين »(٢٢)، وبذات الوقت تصور الدعاية الاسرائيلية العرب كتجار عبيد ومضطهدين(٢٣)، وتشبه صراع افريقيا السوداء مع الاستعمار بصراع الصهيونية ضد الاستعمار البريطاني في فلسطين ، وكما انتصرت الاولى على بريطانيا انتصرت الصهيونية على الاستعمار البريطاني ، متناسية وجود الشعب الفلسطيني والعلاقة العضوية بين نشأة الكيان الصهيوني والدعم البريطاني ابتداء من وعد بلفور حتى التقسيم . وترغب اسرائيل في اعطاء الانطباع بأنها دولة صغيرة متقدمة محبة للسلام وليس لها أطماع استعمارية، وتقدم نفسها كنموذج جديد للتقدم في العالم الثالث ، وان التعاون معها لا ينطوي على سلبيات التعاون مع الدول الكبرى ، واقدمت اسرائيل في عام ١٩٧٠ على تقديم مساعدة رمزية بشكل تبرعات غذائية

وبطانيات وادوية الى منظمة الوحدة الافريقية ، الى جانب برامج التعاون والمساعدات الفنية والاقتصادية الاسرائيلية ـ الافريقية ، والتي سأتناولها بالبحث في فصل مستقل. وقد حققت السياسة الاعلامية الاسرائيلية نجاحا ملموسا في بعض الاوساط الحاكمة في افريقيا . فعندما انتقد مندوب احدى الدول العربية مندوب ساحل العاج في الامم المتحدة ببيع القضية الفلسطينية ، رد عليه مندوب ساحل العاج قائلا : « لعل مندوب العربية السعودية معتاد على شراء الزنوج ولكن لا يمكنه ابدا شراءنا »(٢٤). وصرح ليوبولد سنغور رئيس السنغال وعضو اللجنة الرباعية لتقصي الحقائق عند زيارته لاسرائيل في اواخر ١٩٧١ بأن الحركة الصهيونية تشابه نضال الزنوج وحركة القومية العربية وذلك باعتبارها حركة تحرر وطني(٢٥)، علما بأن ما يقرب من ٤٥٪ من سكان ساحل العاج و ٨٥٪ من سكان السنغال هم من المسلمين .

ثانيا : **اسرائيل في دور المساند للرجعية الافريقية** : وفي الوقت الذي تحاول اسرائيل استنفاد امكانية التحرك تحت ستار التقدمية والتحرر ، تعمل بشكل فعال ـ ولكن بهدوء ـ على ممارسة دور المساند والمدافع عن الانظمة الرجعية والعنصرية والخاضعة للنفوذ الغربي مثل اثيوبيا وجنوب افريقيا والكونغو (كينشاسا) ـ زئير ـ .

اسرائيل واثيوبيا : كرست اسرائيل الجزء الاكبر من تحركها السياسي والاقتصادي في افريقيا نحو اثيوبيا ، لا لقربها ولا لكونها الدولة الوحيدة المطلة على البحر الاحمر ولا لان لها علاقة ايجابية مع اسرائيل فحسب بل لوجود قاسم سياسي مشترك يتمثل في محاربة « الخطر السوفيتي » ومعاداة حركات التحرر الوطني في اريتريا والصومال .

تقول الدكتورة سوزان جتلسن استاذة الدراسات الافريقية في الجامعة العبرية : ان للبلدين هدفا استراتيجيا واحدا وهو ابعاد الاتحاد السوفياتي عن البحر الاحمر وكلا البلدين متعاطف ومتفهم لمشاكل البلد الاخر مع جيرانه ـ مشاكل اسرائيل مع الدول العربية ومشاكل اثيوبيا مع الصومال والسودان وجبهة التحرير الاريترية(٢٦). وفي هذه الاستراتيجية تلتقي كل من اسرائيل واثيوبيا بالمصالح الامريكية ، وتعتبر اثيوبيا على حد تعبير الياهو سلفطر مبعوث صحيفة هآرتس الى اديس ابابا ، ان التخريب السوفياتي يتم بواسطة العرب . لهذا السبب يهتم الاثيوبيون بالتغلغل الروسي في البحر الاحمر ويقلقهم ذلك ... وفي هذا المجال لا تلتقي المصالح الاثيوبية بالمصالح الاسرائيلية فقط ، بل تلتقي ايضا بمصالح الولايات المتحدة(٢٧). ولقد عبر عن اللقاء الاستراتيجي بين اسرائيل وحكام اثيوبيا عمليا بتغلغل اسرائيل عسكريا واقتصاديا في اثيوبيا . فصادرات اسرائيل الى اثيوبيا في ارتفاع مستمر والميزان التجاري بين البلدان هو لصالح اسرائيل.

الجدول رقم (٢)

صادرات وواردات اسرائيل الى اثيوبيا (آلاف الدولارات)(٢٨)و(٢٩)

السنة	الصادرات	الواردات
١٩٦٧	٣،٣٧٤	١،٤٥٦
١٩٦٨	٤،٩٥٣	٢،٠٧٥
١٩٧٠	٤،٣٦٤	١،٩٧٣
١٩٧١	٣،٥٧٤	٢،٠٩٠

ويغطي النشاط الاقتصادي لاسرائيل في اثيوبيا ميدان الزراعة والصناعة وارسال الخبراء . اذ ان شركتين اسرائيليتين متفرعتين عن شركة اميران الاسرائيلية تشاركان على اساس المناصفة بأضخم مشروعين اقتصاديين في اثيوبيا وهما في افارم ، مصنع الادوية في اديس ابابا ، ومزرعة القطن ومساحتها ٢٥،٠٠٠ دونم . وقامت شركة

سوليل بونيه الاسرائيلية باعمال بناء مطار اديس ابابا ، والجامعة ، ووزارة الخارجية والملعب الوطني ، كما تقوم حاليا بانشاء طريق رئيسية بين اثيوبيا وكينيا . وتسهم اسرائيل في عدد من المصانع المحلية كمصنع للجلود ، ومصنع للمعاطف ، ومصنع لانتاج اطارات النوافذ والابواب من الالمنيوم . كما تهيمن شركة انكودا الاسرائيلية على تصنيع اللحوم في اريتريا .

ويمثل الدعم الاسرائيلي العسكري لاثيوبيا الوجه الاخر للعلاقة الاسرائيلية ــ الاثيوبية. فالخبراء الاسرائيليون العسكريون يقومون بتدريب الجيش الاثيوبي علـى الحرب ضد العصابات وكذلك تدريب القوة البحرية الاثيوبية الحديثة النشأة ، ولعب المستشارون الاسرائيليون دورا بارزا في اعداد قوات الامن الاثيوبية . ويعلق ديـك رسل على دور المستشارين الاسرائيليين في الجيش الاثيوبي قائلا : « نادرا ما يدخل هؤلاء في اشتباك فعلي . . . كان مثل هذا الاحتمال امرا بعيدا قبل خمس سنوات ولكنه اصبح الان امرا تحتمه الضرورة(٣٠)».

وتحاول كل من اسرائيل واثيوبيا عدم الاعلان عن التعاون الاسرائيلي ــ الاثيوبي خاصة في الميدان العسكري . وما الزيارة السرية للجنرال حاييم بارليف رئيس اركان الجيش الاسرائيلي السابق لاثيوبيا في ايلول ١٩٧١ التي كشفت عنها جريدة الاهرام الا نموذجا بسيطا للطابع السري للتعاون بين البلدين(٣١).

اسرائيل وجنوب افريقيا : يعود التقاء اسرائيـل بجنوب افريقيا الى اكثر من عامـل . فهناك الجالية اليهودية التي يبلغ عددها (١١٥) الف يهودي ، وهؤلاء يتمتعون بجميع الحقـوق السياسية والمدنية ولهم مكانتهـم البارزة في الاقتصاد المحلي . وقد ساهمت الجالية اليهوديـة في جنوب افريقيا بدعم اسرائيـل ماديا على شكل تبرعات بلغت عام ١٩٦٧ مقدار ٩٨ مليون ليرة اسرائيلية وتوقـع د. يسرائيـل غولد شتاين رئيس كيرن هايسود ــ الصندوق التأسيسي ــ ان ترتفع تبرعات يهود جنوب افريقيا في عام ١٩٧١ الى مبلغ ١٤٠ مليون ليرة اسرائيلية ، وبذلك تصبح الجالية اليهودية في جنوب افريقيـا بالنسبة لعددهم اهم جالية يهودية في العالم (ما عدا اسرائيل طبعا) من حيث تقديـم التبرعات لاسرائيل(٣٢). ويلتقي البلدان في معاداة المنظومة الاشتراكية وعلى رأسهـا الاتحاد السوفييتي . وتعتبر جنوب افريقيا اسرائيل بمثابة خط الدفاع الاول ضد النفوذ السوفييتي . يقول س. د. سلزبرغر ، من كبار محرري النيويورك تايمز : « تعتقـد جنوب افريقيا ان اسرائيل تعيق التقدم السوفييتي نحو الجنوب ، وان للتعاون المشترك بين البلـدين ، اولا وقبل كل شيء ، اهمية نفسية من وجهـة النظر اليمينية لجنـوب افريقيا . وتعتقد جنوب افريقيـا ان عطف اسرائيل يساعدهـا على الصعيد الدولي ، وخصوصا في اوساط منتقديها من يهود الولايات المتحدة وبريطانيا »(٣٣). وكان لاغلاق قناة السويس نتيجة عدوان حزيران ١٩٦٧ فائدة خاصة لجنوب افريقيا وذلـك لتحول السفن من المرور بالقناة الى المرور في كيب تاون وفعلا ارتفع عدد السفن المارة بالميناء المذكور من ٨،٠٠٠ سفينة قبل اغلاق القناة الى ٢٠،٠٠٠ سفينة في عام ١٩٧٠ . وتحتل جنوب افريقيا على صعيد التعاون الاقتصادي والتجاري المكانة الاولى بـين الـدول الافريقية في مجال التبادل التجاري ، فقد بلغت صادرات اسرائيل لجنوب افريقيا في عام ١٩٦٨ ما قيمته ٥،٦٦٠،٠٠٠ دولار ، ووارداتها ٥،٢٣٩،٠٠٠ دولار وبلغت صادرات اسرائيل عام ١٩٧١ مبلغ ٩،٣٩٨،٠٠٠ دولار مقابل ٨،١٥٠،٠٠٠ دولار(٣٤). واشارت معاريف الى مجالات التعاون الاقتصادي : « ١ ــ ان تطويـر ميناء ايلات لا يؤدي الى توسيع علاقات اسرائيل بجنوب افريقيا فحسب ، وانما الى توازن الصادرات والواردات ايضا . ففي جنوب افريقيا وحدها نستطيع ان نجـد مواد استيراد دون عودة السفن الى ايلات فارغة . ٢ ــ ان الوضع الصناعي في جنوب افريقيا وفي اسرائيل متشابهان

جدا وهذه الصناعات ليست متضاربة ، بل يكمل بعضها بعضا »(٢٥).

ويبدو ان اسرائيل قد وضعت خبراتها العسكرية في خدمة حكومة جنوب افريقيا ، فقد زارت اسرائيل بعد حرب حزيران ١٩٦٧ بعثة عسكرية من جنوب افريقيا لغرض دراسة التجربة الاسرائيلية في الحرب مع البلاد العربية كما وان حرب سيناء عام ١٩٥٦ وحرب حزيران ١٩٦٧ تدرسان في الكلية العسكرية في جنوب افريقيا . اضافة الى تزويد جنوب افريقيا بطائرات (عربا) الاسرائيلية الصنع . وتنتج جنوب افريقيا مدافع رشاشة حسب مواصفات الرشاش الاسرائيلي (عوزي) ، وهناك انباء عن تسليم اسرائيل لجنوب افريقيا مخططات محرك طائرة الميراج(٢٦) . ولكن اسرائيل وجنوب افريقيا يلتزمان الصمت بشأن التعاون العسكري والسياسي فيما بينهما . ويبدو ان الطرفين متفهمان للمواقف العلنية التي قد تتخذانها لا سيما موقف اسرائيل من جنوب افريقيا على صعيد الامم المتحدة حيث يتجه الموقف الاسرائيلي نحو الامتناع عن التصويت في قضايا التمييز وبعض الامور السياسية الاخرى المتعلقة بجنوب افريقيا وذلك سعيا نحو عدم اثارة دول افريقيا السوداء . وعملت اسرائيل على تسوية قضية تبرعها بهدية رمزية لمنظمة الوحدة الافريقية مع جنوب افريقيا بشكل لا يدع مجالا لغضب الاخيرة(٢٧) .

الكونغو ــ كينشاسا واسرائيل : علاقة اسرائيل بالكونغو (كينشاسا) ــ وتعرف اليوم بزائير ــ نموذج للدعم الاسرائيلي للانظمة المرتبطة بالغرب ، التي تتخذ شكل تدريب القوات الكونغولية ، وقد اصبحت وحدة الكومندوس التي يتم تدريبها على ايدي المستشارين الاسرائيليين العمود الفقري لجيش الكونغو والدعامة الرئيسية لرئاسة جوزيف موبوتو الذي تم تدريبه هو ايضاً في اسرائيل . ويعود تاريخ التعاون الاسرائيلي ــ الكونغولي الى ١٩٦٣ ولا يزال مستمراً ، واخر حلقة في هذه السلسلة هي زيارة وفد عسكري برئاسة بريجيدير اونوره انكولونه رئيس اركان جيش الكونغو (كينشاسا) الى اسرائيل في آذار ١٩٧١ وذلك للبحث في اقامة كلية عسكرية في الكونغو يسهم الاسرائيليون في الاشراف عليها(٢٨)، هذا الى جانب المعونة الاسرائيلية الفنية والاقتصادية لنظام حكم موبوتو .

ان افريقيا مجتمع غير مستقر سياسيا وهذا امر طبيعي بالنسبة لمجتمع يمر بتحولات اجتماعية واقتصادية اساسية ، ثم ان القوى السياسية الدولية والمحلية تضغط باتجاهات مختلفة على الاوضاع السياسية المحلية معرضة الانظمة الافريقية الى تغيرات مفاجئة وتناقضات داخلية تصل الى حد الحرب الاهلية . وتعمل اسرائيل تجاه هذه الاحداث من منطلق معاداة العرب ، وعليه تسعى لكبح القوى التي يمكن ان تؤازر العرب . وتكون مواقف اسرائيل معارضة او مؤيدة لاي تحرك افريقي بناء على تقييم اسرائيل للنتائج والاثار المحتملة لهذا التغير على الصراع العربي ــ الاسرائيلي ، ومن تلك التناقضات الافريقية التي طفت الى السطح احداث الكونغو بعد الاستقلال ، والثورة الارترية ، والحرب الاهلية في نيجيريا ، وحركة جنوب السودان ، وثورة انغولا . ولقد التزمت اسرائيل تجاه هذه الاحداث موقفا معاديا للثورة الوطنية في انغولا . وقد ذكرت الجيروزليم بوست في ١٩٧١/١/٢٧ ان الحركة الشعبية لتحرير انغولا ادانت اسرائيل لمساعدتها البرتغال في الحرب ضد المقاتلين الانغوليين الاحرار . واضافت الجيروزاليم بوست « ان مقالا نشر في صحيفة الحركة أكد ان القوات الوطنية استولت على اسلحة اسرائيلية عند احتلالها ثكنة برتغالية في ١٩٧١/١/١٩ قرب مدينة كواندو »(٣٩) .

وقد تبنت اسرائيل تشومبي رائد الحركة الانفصالية في كاتنجا المدعوم من قبل المصالح الراسمالية الغربية ضد لومومبا ، وان المساعدات العسكرية الاسرائيلية لاثيوبيا يعاد توجيهها الى محاربة حركة التحرر الوطني الاريتري والصومالي(٤٠) وتعاطفت اسرائيل

مع الجنرال اجوكو زعيم الاقليم الشرقي ذي الاغلبية المسيحية ضد حكومة نايجيريا . اما على صعيد الامم المتحدة فالموقف الاسرائيلي اتسم بالمعارضة لحركات التحرر الوطني . فقد صوتت مرة واحدة فقط في سنة ١٩٦٣ لتدين السياسة العنصرية لحكومة جنوب افريقيا ولكنها صوتت ضد مبدأ حق تقرير المصير للشعوب ، ومبدأ الصوت الواحد للرجل الواحد وامتنعت عن التصويت على مشاريع القرارات الافرو — اسيوية الداعية لحظر استعمال الاسلحة النووية والتوقف عن التجارب النووية واعتبار افريقيا منطقة حرة من الاسلحة النووية ، وصوتت اسرائيل ضد منح تونس والمغرب والجزائر الاستقلال(٤١) .

ان هذه السياسة المعادية لحركة التحرر الوطني الافريقي تضع اسرائيل في موقف المراهن على حصان النفوذ الاستعماري في افريقيا ضد حركة الشعوب الافريقية للتحرر وهذا لا يعود الى اختيار اعتباطي بقدر ما تحتمه طبيعة الاستراتيجية السياسية الاسرائيلية فما دامت الحركة القومية العربية رافدا من روافد الحركة العالمية للتحرر من الاستعمار ولها مصلحة في انتصار الثورة الاشتراكية العالمية ، فان مصلحة اسرائيل تكمن في عرقلة اي رافد يصب في تيار التحرر الوطني والثورة الاشتراكية او حرفه .

اخرج من هذا التحليل الى المعادلة التالية : ان اي انتكاسة او ردة يمينية في افريقيا هي كسب — وبالتالي — دعم لاسرائيل والعكس الصحيح . والجدير بالملاحظة ان السياسة الاسرائيلية في افريقيا اتسمت بالمرونة وطول النفس فهي تسعى لاستنفاد الممكن ضمن الواقع الافريقي . فاسرائيل لا تعتبر الموقف العلني لبعض الدول الافريقية دليلا قاطعا على نية الحكومات الافريقية فبعض هذه الحكومات تطلق التصريحات العلنية المؤيدة للعرب للاستهلاك السياسي الخارجي دون الالتزام العملي بهذه البيانات كموقف نكروما على الصعيد الدولي والمؤتمرات التي لا ينعكس عمليا على علاقات غانا واسرائيل الثنائية .

وتتمتع اسرائيل بعلاقات ثنائية طيبة مع عدد من الحكومات الافريقية المحسوبة على الخط الاشتراكي كحكومة زامبيا وغانا . وقد رفض ابا ايبان طلب البعض بقطع المساعدات الاسرائيلية للدول الافريقية التي تعلن عن مواقف غير مؤيدة لاسرائيل(٤٢) كما ان اسرائيل تعمل من خلال ابقاء اتصالها بدول افريقيا بغض النظر عن اتجاهاتها الآنية وذلك بشكل بعثات وخبراء ومشاريع مشتركة ، وذلك كقواعد تمهيدية للوثوب في حالة اي تغيير نسبي لصالح اسرائيل .

ان وجود مثل هذه القواعد ساعد اسرائيل على القفز للصدارة في اوغندا بعد سقوط ابوتو الذي كان على وشك قطع علاقات بلاده باسرائيل ، واسرائيل واصلت مساعداتها لمالي بالرغم من توقيع مالي على مقررات كازبلانكا عام ١٩٦١ المعادية لاسرائيل وعلق ناطق بلسان وزارة الخارجية الاسرائيلية عقب صدور البيان المشترك لناصر — كيتا المعادي لاسرائيل ، بأن اسرائيل لا تنوي قطع مساعداتها لمالي وان البيان لا يعكس فعلا العلاقات بين اسرائيل ومالي التي تستمر طيبة(٤٣) .

ثالثا — **افريقيا ميدان لابراز فوائد اسرائيل للغرب** : تخدم الساحة الافريقية الاستراتيجية السياسية الاسرائيلية كميدان عملي يتيح لاسرائيل فرصة اثبات منفعتها للغرب وبالذات الولايات المتحدة الامريكية وذلك بالاساليب التالية :

١ — انهاك مصر — القطر العربي الافريقي ، الذي يعتبر اكبر واقوى كيان افريقي من الناحية العسكرية والحضارية والسكانية الذي جعل محاربة الاستعمار القديم والجديد باشكاله المختلفة هدفا استراتيجيا في صلب سياسته الخارجية بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ . ويقول جاك بولن في هذا الصدد « مهما تكن نوايا ناصر الحقيقية فان اثره في التطورات

الاخيرة في افريقيا ، ومساعدته للحركات الوطنية ودوره في اضعاف النفوذ الغربي عبر القارة يبقى حقيقة لا نقاش فيها(٤٤). وعليه يصبح انهاك مصر او اشغالها عن القيام بدورها التقدمي في افريقيا خطوة في صد التيار المعادي للاستعمار الغربي .

ويشرح ابا ايبان هذا الدور بقوله ان مصر تملك قوة عسكرية كبيرة لا تملكها اية دولـــة افريقية اخرى ، ولولا قيام اسرائيل بصد هذه القوة واضعافها لتعرضت افريقيا لتأثير اكبر من شماليها(٤٥). واذا كان هذا التعليق قد صدر بعد حرب حزيران فان اسرائيل قدمت الخدمة ذاتها لفرنسا وبريطانيا عام ١٩٥٦ ، فقد كان العدوان الاسرائيلي الثلاثي بمثابة رد فرنسا على مساعدة مصر للثورة الجزائرية ورد انجلترا على ما تصورته عن دور مصر في اقالة كلوب باشا من قيادة الجيش الاردني واثارة العداء ضدها في آسيا وافريقيا ، وقد سبق ان اعلن سلوين لويد وزير خارجية بريطانيا آنذاك استياءه مـــن الحملة الدعائية المعادية لبريطانيا التي تبثها اجهزة الاعلام المصرية في افريقيا(٤٦).

٢ ــ الوقوف دعائيا وسياسيا ضد ما يسمى بالخطر السوفييتي في افريقيا . كما تبين لنا من طبيعة العلاقة الاسرائيلية بكل من اثيوبيا وجنوب افريقيا ، كان في اغلاق قناة السويس نتيجة حرب حزيران خدمة لامريكا وذلك بابعاد الاسطول السوفييتي المتزايد القوة من مياه البحر الاحمر . وتطرح اسرائيل نفسهـــا كنموذج ثالث وبديل للراسمالية التي ترفضها شعوب افريقيا ، والاشتراكية ، كما تتجسد في المنظومة الاشتراكية بزعامة الاتحاد السوفييتي. وميزة النموذج الاسرائيلي بالنسبة للمصالح الامريكية هي في محاولة اقناع شعوب افريقيا بامكان ايجاد طريق للنمو غير الاشتراكية السوفييتية ، وان اتباع الاشتراكية ــ كما هو الحال في اسرائيل ــ لا يعني الصدام مع الغرب بل العكس تماما. يقول و. روستو مستشار وزارة الخارجية الامريكية سابقا ما معناه لا تقوم مصلحـــة الولايات المتحدة في حماية اراضيها فحسب ، بل تشمل حماية قيم المجتمع الامريكي في العالم وافكاره ومنع اندحار هذه الانماط والقيم على أيدي دعاة الشيوعية ، وان التزام اسرائيل بالقيم التي تنادي بها امريكا يجعل من بقاء اسرائيل ونموها خدمة للمصالح الامريكية(٤٧).

وقد قدمت الولايات المتحدة الدعم الكبير لمساعدة اسرائيل للقيام بدور الواجهة البديلة للشيوعية والاشتراكية ، فالى جانب المعونات الاقتصادية والفنية والعسكرية الضخمة فان الولايات المتحدة ساعدت المؤسسات الاسرائيلية المختصة بالعمل في العالم الثالث . فقد بدأ المعهد الافرو ــ اسيوي لشئون العمل والتعاون التابـــع للهستدروت عمله في سنة ١٩٦٠ بمنحة مالية قدرها ٦٠،٠٠٠ دولار قدمها اتحاد النقابات الامريكية ومجموع ما تلقى المعهد الافرو اسيوي من مساعدات ومنح من اتحاد النقابات الامريكية والنقابات الدولية الخاضعة للهيمنة الغربية كمؤتمر الاتحادات النقابية البريطاني «تي. يو. سي» للفترة ٦٠/١٩٦٣ ، ٣٠٠،٠٠٠ دولار(٤٨). ويبدو ان قسما من رؤوس الاموال الامريكية المقدمة الى اسرائيل يعاد استثمارهـــا في افريقيا ، ويساعـــد تزايد عدد المستشارين والخبراء الاسرائيليين في افريقيا في غلق الابواب امـــام طلب الخبرة من المعســـكر الاشتراكي والاتحاد السوفييتي بالذات مما يرضي الولايات المتحدة بدون شك .

يقول ارنولد رفكن الوثيق الصلة بالمسئولين الامريكيين في كتابه « افريقيا والغرب » ان اسرائيل بامكانها توفير النموذج الاقتصادي الثالث الذي يختلف عن النمط الغربي ولكن الاكثر تعايشا بالتأكيد مع مصالح العالم الحر من النموذج الشيوعي وبالامكان تمتين دور اسرائيل كقوة ثالثة باستخدامها كطرف ثالث في تقديم المساعـــدات ، فالدولة الغربية التي تريد توسيع مساعداتها لافريقيا بامكانها توجيه بعض مساعداتها بواسطة اسرائيل التي لها خصائص خاصة . أبدت معظم دول افريقيـــا قبولها ، ويقترح رفكن ان تقـــدم المانيا الغربية او الولايات المتحـــدة لاسرائيل اعتمادات بالمـــارك او الدولار تخصصها

اسرائيل للمساعدات والقروض لافريقيا والمبالغ المسترجعة يعـاد وضعها في بنوك اسرائيل لتوجيهها مرة ثانية في برامج مساعدات اسرائيلية لافريقيا . وبذلك يقول رفكن تكون المـانيا الغربية والولايات المتحـدة قد ساعدت على تحسين ميزان المدفوعـات الاسرائيلي كما تكون قد وفرت مزيدا من المساعدات الى افريقيا(٤٩) .

رابعا ـ **علاقات اسرائيل التجارية والاقتصادية بافريقيـا** : ساعدت ظروف التخلـف الاجتماعي والاقتصادي في افريقيا ، اسرائيل على تقديم نفسها كطرف ثالث مستعد ضمن امكاناته لتقديم المساعدة الفنية والاقتصادية لدول افريقيا الحديثة الاسـتقلال . وقد تعرض عدد من الكتاب الاجانب والعرب لبحث اوجه النشاط الاقتصادي الاسرائيلي في افريقيا(٥٠) ولـذا ساقتصر على ذكـر الخطوط الرئيسيـة للنشاط الاقتصادي والفني الاسرائيلي في افريقيا وذلك كمقدمة لا بد منها لتحليـل معنى هذا التحرك . وقد اتخذت علاقة اسرائيل الفنية والاقتصادية بافريقيا اوجها مختلفة منها :

اولا : برنامج المساعدات الفنية الاسرائيلية الذي يقوم على استقبال الطلبة والاداريين والموظفين والشباب من ابناء الدول الافريقية للدراسة والتدريب في اسرائيل ضمن برامج تدريبية وتعليمية لا تخلو من دعاية لفترات محـدودة وفي ميادين اجتمـاعية وصناعية وزراعية مختلفة . وتكون بعض البرامـج معدة سلفا ويهيـأ البعض الاخر بناء على احتياجات الدول الافريقية وغالبا ما تكون هذه البرامج قصيرة ومكثفة وفعالة . وقد برز المعهد الافرو ـ اسيوي للدراسات التعاونية والعمالية التابع للهستدروت مـن بين المؤسسات الاسرائيليـة المعنيـة بهذا النشـاط ، فقـد قـام المعهد منذ تأسيسـه عـام ١٩٥٨ الى عـام ١٩٦٨ بقبول ١،٥١٥ طالبـا من ٧٩ دولة ، ونحـو ثلثي هذا العـدد من دول افريقيـا فقـط(٥١)، ولوزارة الزراعـة مركز دولي للتعـاونيـات في رحوفوت وقـد درس فيه لغـاية ١٩٧١ مـا يقـرب من ١٢،٠٠٠ طـالب مـن غـرب افريقيـا(٥٢) تـدربوا جميعهم عـلى اسـاليب الزراعة الحـديثة في اسرائيل لا سـيما تجربـة الكيبوتز والموشاف التي تعتبرهـا اسرائيل نماذج صالحة للتصدير والتدريب للمدرسات في حقل الخدمة الاجتماعية المحلية ومركز التدريب للمدرسين في حقل الارشاد والمهن ومعهد ونجيت للمدرسين في حقل التربية الوطنية ، وتلعب الجـامعات والمعاهد العليا الاسرائيلية دورا مهما في تعليم ابناء الدول الافريقية ، ويقدر عدد الطلاب الاجانب ومعظمهم من ابناء الدول النامية الذين انهوا دراساتهم العليا في اسرائيل لغاية عام ١٩٧١ بـ ١٥،٠٠٠(٥٣). هذا وان الجامعة العبرية وجامعة تل ابيب اخذتا توليان اهتمامـا خاصا للدراسات الافريقية وذلـك كجزء من التوجـه الاسرائيلي نحو القارة الافريقية(٥٤) .

يتمثل الوجه الثاني للمساعدات الفنية الاسرائيلية لافريقيا بارسال خبراء ومستشارين اسرائيليين للعمل في الدول الافريقية ، ويقدر عدد هؤلاء الخبراء الاسرائيليين المرسلين لافريقيا في مختلف المجالات باستثناء العسكرية خلال الفترة ١٩٦٦/٥٨ بـ ١٢٦١ خبيـرا ومستشارا موزعين بالشكل التالي(٥٥): الزراعـة : ٢٦١ من ٥٢٣ ، تنظيم الشباب : ٢٣٤ من ٢٥٦ ، مهندسون : ٤٢ من ٦٤ ، الطب والصحة العامة : ١٧٣ من ٢٠٢ ، التربية : ١٠٢ من ١٠٦ ، التعاون : ٢١ من ٢٤ ، الادارة : ٤٦ من ٦٣ ، البناء : ٤٩ من ٦٥ ، العمل الاجتماعي : ٢٢ من ٢٣ ، متنوع : ٣١١ من ٤٨٩ ، والمجموع : ١٢٦١ من ١٩١٥ .

ويلاحظ بشكل واضح تركيز اسرائيل على افريقيا حيث يعمل نحو ثلثي خبراء اسرائيل في الخارج في افريقيا . وعدد خبراء اسرائيل في افريقيا اليوم اكثر من الرقم المذكور خاصة اذا ما اضفنا الخبراء العسكريين الاسرائيليين(٥٦). والامر الذي يـزيد من اهمية عدد الخبراء والمستشارين الاسرائيليين في افريقيا كونهـم عناصر كفوءة في اغلب الاحيان .

يقول ج. هـ. جانسن الصحفي الهندي : « يقدم الخبراء الاسرائيليون خدمات في حقول مختلفة في الدول الافرو — اسيوية وهم فعلا خبيرون في حقولهم ، ونشيطون يعملون ويعيشون مع السكان المحليين بعكس خبراء الدول الاخرى ، وباستثناء فيلق السلاح الامريكي ، الذين كانوا يبقون بعيدين مترفعين عن السكان المحليين . ومع ان خدمات هؤلاء الخبراء لا تعطى بدون مقابل ، الا ان مرتباتهم تسير مع معدل المرتبات المحلية . ولذا فان الافريقيين والاسيويين ينظرون الى الخبير الاسرائيلي كصديق وهو يكسب بلاده سمعة حسنة »(٥٧).

ثانيا : اسهام الحكومة الاسرائيلية ورأس المال الخاص الاسرائيلي في المشاريع الاقتصادية في افريقيا وذلك على اساس المشاركة بنسبة لا تزيد عن ٥٠٪ من رأس المال وادارة المشروع لفترة قصيرة يحق بعدها للدولة الافريقية الشريكة شراء الحصة الاسرائيلية بتعويض عادل . القصد من وراء هذا الاسلوب بدون شك هو عدم اثارة مشاعر الحساسية عند الدول الافريقية من عودة النفوذ الاستعماري بزي جديد .

كان تأسيس خط النجمة السوداء في غانا عام ١٩٥٧ اول نموذج للاسهام الاسرائيلي في المشاريع الافريقية ، فقد أسهمت شركة تسيم للملاحة الاسرائيلية بنسبة ٤٠٪ من رأس مال الشركة و ٦٠٪ للحكومة الغانية وتركت الادارة بيد الاسرائيليين . وقد حقق المشروع نجاحا كبيرا وبقيت الادارة بيد الاسرائيليين حتى بعد ان اشترت غانا حصة اسرائيل بعد ثلاث سنوات ، وقد أسهم ذلك في تسهيل التجارة بين اسرائيل وغانا . وتأسست في غانا في عام ١٩٥٨ شركة غانا الوطنية للانشاءات براسمال قدره ٥٦٠،٠٠٠ دولار ، حصة الحكومة الغانية ٦٠٪ وحصة شركة سوليل بونيه الاسرائيلية ٤٠٪ وقد ازداد عدد مثل هذه المشاريع المشتركة في افريقيا في عام ١٩٦٣ الى ٤٣ مؤسسة(٥٨) وكانت سوليل بونيه عنصرا فعالا في هذه المشاريع فقد اقامت شركات براسمال مختلط اسرائيلي — محلي في كل من غرب نيجيريا وشرق نيجيريا وسيراليون واثيوبيا وتنجانيقا وكينيا ، وفولتا العليا وجمهورية افريقيا الوسطى ، وقد بلغ مجموع رؤوس الاموال لجميع الشركات الانشائية ذات العلاقة بسوليل بونيه في افريقيا في نهاية عام ١٩٦٢ مبلغا قدره ٤٠ مليون دولار ، وتستخدم هذه الشركات نحو ٣٢،٠٠٠ عامل محلي و ٣٥٠ مهندسا واداريا اسرائيليا(٥٩).

ثالثا : العناية بالتبادل التجاري مع افريقيا ، وهناك اكثر من سبب تجاري يدفع اسرائيل نحو افريقيا ، فمن ناحية ، تلقى البضائع الاسرائيلية — المقاطعة عربيا — منافسة شديدة في اسواق اوروبا الغربية التي تعتبر اهم سوق تجاري بالنسبة لاسرائيل ، اضافة الى كلفة الشحن العالية التي تتكبدها البضاعة الاسرائيلية المصدرة الى اوربا بينما توفر افريقيا — خاصة بعد فتح خليج العقبة ومضيق تيران بوجه الملاحة الاسرائيلية في عام ١٩٥٦ — ميدانا رحبا للبضاعة الاسرائيلية ، ويمكن في الوقت ذاته سد حاجة اسرائيل من المواد الاولية المتوفرة في افريقيا وغالبا ما تكون بسعر وكلفة اقل . وقد حققت اسرائيل نجاحا باهرا في تنمية تجارتها مع افريقيا ، فقد ارتفعت نسبة صادرات اسرائيل الى افريقيا وآسيا من ٤،١ ٪ في عام ١٩٤٩ الى ١٧،٢ ٪ عام ١٩٦٧(٦٠) وبلغت ٢٥ ٪ عام ١٩٧٠(٦١). وان حجم الصادرات الاسرائيلية الى افريقيا في ارتفاع مستمر حتى بلغ ٤١،٥٦ مليون دولار في عام ١٩٧٠ بينما بلغت واردات اسرائيل من افريقيا في العام نفسه ٣٠،٠٨ مليون دولار .

وقد صرح بلوهتال المسئول المالي في شركة كور الاسرائيلية ورئيس مجلس غرفة التجارة الاسرائيلية الافريقية في حزيران ١٩٧١ بأن الصادرات الاسرائيلية الى افريقيا تزداد بنسبة ٢٢٪ سنويا وان افريقيا تستورد نحو ٤ — ٥٪ من مجموع صادرات اسرائيل و ١٠٪ من صادراتها الصناعية التي توزع بالنسب التالية : المنسوجات ١٧٪ ، مواد

الجدول رقم (٣)

تطور الصادرات والمستوردات الاسرائيلية مع افريقيا (ملايين الدولارات)(٦٢)

السنة	صادرات اسرائيل الى افريقيا	واردات اسرائيل من افريقيا
١٩٦٣	١٣،١١	٢١،٤٢
١٩٦٤	١٣،٦٣	٢٤،٧٠
١٩٦٥	٢١،٦٠	٢٧،٠٠
١٩٦٦	١٩،٨٠	٢٨،١٠
١٩٦٧	٢٤،٠٠	٢٧،٤٠
١٩٦٨	٢٧،٩٤	٣٠،٩٣
١٩٦٩	٣٤،٢٤	٣١،٢٢
١٩٧٠	٤١،٥٦	٣٠،٠٨
١٩٧١	٤٧،٩٣	٢٥،٠٥

بناء ١٥ ٪ ، مواد كيماوية ١٨ ٪ ، بلاستيك ومطاط ١٠ ٪ ، مواد للطرق ٦ ٪(٦٣).

والجدير بالملاحظة ان نسبة صادرات اسرائيل الى افريقيا وان كانت ضئيلة بالمقارنة الى مجموع صادرات اسرائيل ، الا ان صاموئيل ديكالو رئيس قسم السياسة في جامعة رود ايلاند في الولايات المتحدة يقول بالرغم من ان بعض صادرات اسرائيل الى افريقيا (كالاثاث ، والسمنت ، وزيت فول السويه) هي ضئيلة بالقياس المطلق ، الا انها تشكل اكثر من ٥٠٪ من مجموع صادرات اسرائيل من هذه المواد ، وبعض المواد (مثل الادوية والسجاد والانابيب العازلة) تصدر اسرائيل ٢٥ ٪ من انتاجها الى افريقيا(٦٤) مما يجعل افريقيا سوقا رئيسيا لبعض المنتجات الاسرائيلية ، كما ان واردات اسرائيل من افريقيا تتركز على المواد الخام (حوالي ٩٦٪) كالماس الخام والاخشاب والجلود والصوف واللحوم والزيوت النباتية والقطن(٦٥).

وتسعى اسرائيل كما يبدو من نشاطها الاقتصادي في اثيوبيا وكينيا الى تنمية انتاجية هذه البلاد لمواد اساسية وخام تحتاجها اسرائيل (كمزرعة القطن الكبرى في اثيوبيا ومزارع الابقار وتعليب اللحوم في اريتريا) والتي تعوض اسرائيل عن الاعتماد على الاسواق الاوربية . وقد توقعت الجيروزاليم بوست في عددها الصادر في ٢٨/٥/١٩٧١ ان يرتفع حجم التجارة بين اسرائيل وافريقيا خلال عام ١٩٧١ ليصل ١٠٠ مليون دولار ، وان يفوق التصدير الى افريقيا الاستيراد بـ ٥ مرات . وبات هذا الفارق بين صادرات اسرائيل واستيراداتها من افريقيا يثير مخاوف اسرائيل من حدوث ردود افعال سلبية بين الدول الافريقية . واقترح يهوشوا اربل ـ المدير في شركة الدا التجارية وعضو البعثة التجارية التي زارت ثلاث دول في افريقيا الوسطى خلال منتصف عام ١٩٧١ ـ ان تستثمر اسرائيل قسطا اكبر من رساميلها في افريقيا وتساعد على تسويق صادرات افريقيا الى دول اخرى(٦٦)، علما ان غلق قناة السويس له اثر كبير في عرقلة صادرات دول شرق افريقيا .

ومن العوامل التي ساعدت على نمو حجم التبادل التجاري بين اسرائيل وافريقيا الامور التالية :

١ ـ كان يجب ان تملك اسرائيل ما يمكن ان تصدره قبل ان تبدأ بالتصدير وهذا ما حققته اسرائيل فعلا في بناء صناعة متقدمة وزراعة متطورة يفيض انتاجها عن حاجة البلاد ساعد في ذلك بدون شك توفر الخبرات الفنية العالية المستوردة من يهود

العالم المتقدم ، الى جانب تدفق رؤوس الاموال والمساعدات المالية من اوروبا وامريكا.

٢ ــ اقامت اسرائيل شركة ملاحة تعرف بأسم شركة ديزنغوف غرب افريقية تملك الحكومة الاسرائيلية نصف أسهمها ويملك النصف الاخر القطاع الخـــاص الإسرائيلي وذلك لتنشيط التجارة مع افريقيا . ونجحت هذه الشركة في انشاء اربعة عشر فرعـــا في نيجيريا وغانا وسيراليون . كما ان اسرائيل دخلت كشريك في شركات ملاحة افريقية كخط ملاحة النجمة السوداء الغانية مما سهل تصدير البضائع الاسرائيلية الى غـــانا وغرب افريقيا واسهمت اسرائيل في انشاء خط ملاحة النجمة الذهبية في هونك كونـــك الذي يعمل بين موانيء الشرق الاقصى والولايات المتحدة وغرب افريقيا وبذلك ربطت اسرائيل تجارتها الخارجية بشبكة مواصلات بحرية متداخلة(٦٧).

٣ ــ الاتصال المباشر عن طريق ارسال البعثات الاقتصادية والتجارية الى العواصم الافريقية لتقصي امكانية تطوير التبادل التجاري بين اسرائيل وافريقيا ، هذا الى جانب انتشار البعثات الدبلوماسية الاسرائيلية في افريقيا وتمكين موظفيها من اتخاذ القرارات والحسم بالكثير من الامور دون الخضوع للروتين(٦٨).

٤ ــ ساعد برنامج التعاون الفني ووجود المستشارين والخبراء الاسرائيليين في افريقيا على زيادة التبادل التجاري بين اسرائيل وافريقيا . ويقول لوفر : « ان كون أكبر نمو في الصادرات الاسرائيلية هو نمو تلك الصادرات التي تتجه الى الاقطار التي لها برامج تعاون فني مع اسرائيل ، ليس طبعا من قبيل المصدفة(٦٩). مثال ذلـــك اقطار كينيـــا والحبشة وأوغندا . سبب اصرار الخبراء الاسرائيليين احيانا على استيراد الادوات والبضائع الاسرائيلية بالرغم من وجود مثيلتها عند دول اخرى وبسعر او وجودة افضل استنكار بعض المسئولين الافريقيين(٧٠).

٥ ــ اســـتفادت اســـرائيل مـــن الرســـاميل الاجنبيـــة خاصـــة الامريكيـــة في توسيع نشاطها الاقتصادي ومما يجلب الانتباه ان بعض المساعدات الغذائية الامريكية الى اسرائيل يعاد تحويلها الى مادة اسرائيلية للتصدير ، فمثلا لا تنتج اسرائيل فـــول السويا ومع ذلك تصدر زيت فول السويا الذي تعتبر امريكا منطقة غنية به .

ان دور اسرائيل الاقتصادي والفني في افريقيا يخدم الاستراتيجية السياسية الاسرائيلية من الجوانب الاتية :

١ ــ كسب دعم او على الاقل حياد الدول الافريقية المستفيدة من الخبرات والمساعدات الاسرائيلية وتحاول اسرائيل ان تجعل من طريقة تصرف خبرائها في افريقية نقطة توضح جدية هؤلاء تجاه افريقيا وصداقتهم . هذا وان ازدياد الاعتماد على الخبرة الاسرائيلية يضع الطرف المستفيد في حرج مـــادي فيما أراد اتخـــاذ مـــوقف سياســـي معـــاد لاسرائيل .

٢ ــ توفر افريقيا ميدانا واسعا لتشغيل عدد كبير مـــن الايدي الفنية الفائضة عـــن حاجتها وسبب هذه الظاهرة هي استفادة اسرائيل من الهجرة اليهودية الواسعة مـــن دول متقدمة حضاريا وصناعيا(٧١).

٣ ــ يقول مردخاي كرنين : « يؤمل في الامـــد البعيد ان تمهـــد المســـاعدات الفنية الاسرائيلية الطريق لتوسيع الاسواق للصادرات الاسرائيلية(٧٢). واذا قارنـــا ميـــزان التبـــادل التجاري في اوائل الستينات بنهاية الستينات نلاحظ صحة توقعات كرنين . سيساعد هذا الامر بدون شك على تدعيم الاقتصاد الاسرائيلي ودفعه نحو الاستقلال . وهذا هدف استراتيجي بالنسبة لاسرائيل . وقد قال بن غوريون في المؤتمر الصهيوني الذي عقد في القدس بتاريخ ٢٨ ديسمبر ١٩٦٠ : « ان الاستقلال الاقتصادي لاسرائيل

يعتمد على الروابط الاقتصادية الوثيقة مع افريقيا واسيا » .

٤ ــ توفر افريقيا الخامات التي تعد اسرائيل بأمس الحاجة اليها في صناعاتها لا سيما الماس الخام الذي اصبح مادة رئيسية في الصناعة الاسرائيلية وتخدم بعض المشـــاريع الاقتصادية الاسرائيلية الافريقية المشتركة الاقتصاد الاسرائيلي بتوفير المـــواد الاولية والمنتجات الزراعية كالقطن والاغذية والحبوب التي تحتاجها اسرائيل بأسعار ارخص بدلا من استيرادها من اوربا كما هو الحال عمليا . ومثال ذلك المشاريع الاسرائيلية ــ الافريقية في كينيا واثيوبيا لانتاج اللحوم ومزارع القطن والكاكاو . وتحتاج اسرائيل من ناحية اخرى في حالة استمرارها في بناء صناعة متطورة ، لا بد من ان تعتمد على الانتاج الواسع ، الى اسواق جديدة كي تحقق ربحا معقولا . وافريقيا توفر سوقا مربحة بسبب القرب الجغرافي وافضلية المنافسة .

٥ ــ واخيرا يعني اي نجاح اقتصادي لاسرائيل خطوة في كسر طوق المقاطعة الاقتصادية العربية المفروضة على اسرائيل وبالتالي خطوة نحو فرض الوجود الاسرائيلي في الارض العربية .

---

١ ــ Mordechai E. Kreinin, *Israel and Africa, A Study in Technical Cooperation,* New York, Praeger, 1964.

٢ ــ وهي : الكامرون ، جمهورية افريقيا الوسطى ، تشاد ، كونغو (برازافيل) ، داهومي ، الغابون ، ساحل العاج ، مدغشقر ، مالي ، النايجر ، السنغال ، توغو ، فولتا العليا (وجميعها من المستعمرات الفرنسية) ، الكونغو (ليوبولدفيل) وهي مستعمرة بلجيكية سابقا ، نايجيريا ، الصومال .

٣ ــ عندما اعلنت غينيا في أيلول ١٩٥٨ طلبها بالاستقلال التام عن فرنسا ، انسحبت الاخيرة عن البلاد وغادرت معها جميع الاجهزة الادارية ومعظم المؤسسات التجارية والمهنيين من اساتذة مدارس واطبـــاء وموظفي مرفأ كوناكري وقامت دولة غينيا وخزينة البلاد اقرب الى الافلاس .

٤ ــ **دراسات عربية** ، العدد ٤ ، شباط ١٩٧٢ ، مقالة « الثورة في افريقيا » لنصر الدين البحرة ص ١٧ــ١٨ نقلا عن كتاب ، كوامي نكروما ، الاستعمار الجديد آخر مراحل الامبريالية .

٥ ــ M. Braginshy, *Africa Wins Freedom,* Progress Publisher, Moscow (no date), p. 168.

٦ ــ Inn Brownlie (ed.) *Basic Documents on African Affairs,* Oxford, 1971, p. 483, 7. "Policy Statement on Africa which was submitted to the President by Secretary Rogers, March 26, 1970".

٧ ــ William Gutterridge, "The Military in Africa," *African Affairs,* Vol. 69, No. 277, October 1970, p. 366-367.

٨ ــ Thomas Hodgkin, *African Political Parties,* Penguin African Series, London 1961, p. 41.

مثال ذلك ان اكثر من ١٠٠،٠٠٠ نايجيري خدموا بالقوات المسلحة البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية .

٩ ــ ايجال الون ــ الستار الرملي ، وذلك كما وردت في كتاب ابراهيم العابد ، **مدخل الى الاستراتيجية الاسرائيلية** ــ مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ١٩٧١ ، ص ١١ ــ ١٢ .

١٠ ــ *Middle East Record,* Vol. II, 1961, Tel Aviv University, The Reuven Shiloah Research Center, Jerusalem, Israel, 1961, p. 184, 300.

١١ ــ *Jewish Observer and Middle East Review,* July 11, 1969.

نشرة م. د. ف. بيروت عدد ٢ تاريخ ١٩٧٢/١/١٦ نقلا عن هآرتس ١٩٧٢/١/٦ من مقالة للكاتب الياهو سلفطر .

وقد تباين اهتمام الاعلام الاسرائيلي بالقارات الثلاث التي تشكل العالم الثالث في الستينات كانت افريقيا على رأس قائمة النشاط الاسرائيلي ولكن الاتجاه الاعلامي الاسرائيلي الجديد يتجه نحو وضع امريكا اللاتينية وبعدها آسيا ، ثم افريقيا كهدف اعلامي .

١٢ — ابراهيم العابد — **مدخل الى الاستراتيجية الاسرائيلية** — مركز الابحاث ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص
١٠ — ١١ . نقلا عن سلسلة مقالات لايجال الون ظهرت في صحيفة معاريف في ٩/٢٢ ، ٩/٢٧ ، ١٠/١ ،
١٩٦٨/١٠/٦ .

١٣ — **الاهرام** ، نقلا عن النشاط الصهيوني في العالم — وزارة الاعلام — بغداد السنة ٢ — عدد ٤ —
١٩٧٢/٣/١ .
لاسرائيل اليوم مجمع صناعات حربية يعمل به حوالي ٩٠ الف فرد ويعمل بشكل خاص في انتاج الطائرات وقطع الغيار اللازمة لمختلف الاسلحة والمعدات المصنوعة محليا والمستوردة وبالذات قطع غيار الطائرات ومعدات الرادار والاتصال الالكتروني . وتنتج اسرائيل حوالي ٩٠ ٪ من حاجة قواتها من الذخائر والمفرقعات . وقد ارتفع قيمة ما تنتجه اسرائيل من الاسلحة والمعدات والذخائر من ٣٠ مليونا في ١٩٦٧ الى ٢٠٠ مليون عام ١٩٧١ ، وتبلغ صادرات اسرائيل من الاسلحة والمعدات والذخائر حوالي ١٩ مليون جنيه استرليني عام ١٩٧٠ و٢٤ مليون جنيه استرليني عام ١٩٧١ .

١٤ — اذاع راديو اسرائيل مساء ١٩٧٢/١/١٢ ، صرحت رئيسة وزراء اسرائيل حول موضوع طائرات الفانتوم وتجهيزها بمعدات امنية من الولايات المتحدة « اننا لم نوافق على قبولها مقابل تنازلات سياسية ».

١٥ — **نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية** ، بيروت ، السنة ٢ ، عدد ٥ ، تاريخ ١٩٧٢/١/١٦ .
وان نتائج زيارة نكسون لموسكو لم تقدم اي جديد بالنسبة للشرق الاوسط ولم يقدم الطرف الامريكي اي تنازل على حساب اسرائيل .

١٦ — العابد ، **مدخل الى الاستراتيجية الاسرائيلية** ، مركز الابحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ص ١٦ ، مقابلة اذاعها راديو اسرائيل ونقلتها صحيفة دافار بتاريخ ١٩٧١/٤/١٨ .

١٧ — **المصدر السابق** ، ص ١٥ .

١٨ — David Ben Gorion, "Israel's Security and her International Position, before and after the Sinai Campaign." *Israel Government Year-Book,* 1959/60, p. 22.
« ان العودة ليست مجرد تحرير اليهود من خطر الابادة المادية او الروحية في الشتات ولا مجرد الرسالة التاريخية الاسمى لدولة اسرائيل ، بل لها ايضا أهمية فائقة لضمان سلامتنا » .

١٩ — في فترة نمو العلاقات بين اسرائيل واثيوبيا لعب سفير اسرائيل حنان اينور سابقا رئيس قسم افريقيا في وزارة الخارجية ومؤلف كتاب Notes on Africa دورا بارزا ، ج. هـ. جانسن ، **اسرائيل والدول الافرو اسيوية** ، مركز الابحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٣٩ .

٢٠ — تقرير خاص غير منشور ١٩٧٠/٣/٥ — يشكو العرب القاطنون في السنغال من السفارات العربية في داكار بسبب الروح البيروقراطية والاستعلائية التي يتصف بها اعضاء البعثات الدبلوماسية العربية .

٢١ — Mordechai E. Kreinin, *Israel and Africa,* A Study in Technical Cooperation, New York, Praeger, 1964, p. 4.

٢٢ — **المصدر نفسه** ، ص ٤ .

٢٣ — تقرير خاص ، ١٩٧٠/٣/٥ في تنزانيا استطاعت اسرائيل ان تشوه سمعة العرب كثيرا من خلال الطعن بتاريخهم وتصويرهم كمستعمرين والاشارة الى انهم اوجدوا تجارة العبيد .

٢٤ — *Newsweek,* August 20, 1962.

٢٥ — دافار ١٩٧١/١١/٧ نقلا عن **نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية** ، عدد ١٦ تاريخ ١٩٧١/١١/١٦ .

٢٦ — *Jerusalem Post,* Sept. 1, 1971.

٢٧ — **نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية** ، عدد ١٣ تاريخ ١٩٧١/١٠/١ نقلا عن تقرير كتبه الياهو سلفطر مبعوث هآرتس الى اديس ابابا في هآرتس بتاريخ ١٩٧١/٩/١٥ .

٢٨ و٢٩ — *Statistical Abstract of Israel,* 1969, p. 208 years 1967, 1968.
وجامعة الدول العربية — المكتب الرئيسي لمقاطعة اسرائيل ، دمشق ، **تقرير عن التجارة الخارجية الاسرائيلية** ، حزيران ١٩٧٢ ، ص ١٤ ، وذلك بالنسبة لارقام ١٩٧٠ و١٩٧١ .

٣٠ — *Jerusalem Post,* Oct. 31, 1971 — An Article by Dick Russel.

٣١ — **الاهرام** ١٩٧١/٩/١٥ .

٣٢ ـــ **نشرة م. د. ف.** ، عدد ٤ ، تاريخ ١٩٧١/٥/١٦ ، نقلا عن الجيروزاليم بوست بتاريخ ١٩٧١/٣/٢٣ .
٣٣ ـــ **المصدر السابق** ، نقلا عن هآرتس ، ١٩٧١/٤/٣٠ .
٣٤ ـــ جامعة الدول العربية : المكتب الرئيسي لمقاطعة اسرائيل ، دمشق . **تقرير عن التجارة الخارجية الاسرائيلية عام ١٩٧١** ، حزيران ١٩٧٢ ، ص ١٤ .
٣٥ ـــ **نشرة م. د. ف.** ، بيروت ، عدد ٤ في ١٩٧١/٥/١٦ .
٣٦ ـــ ورد هذا النبأ في مقالة س. د. سولزبرغر في **النيويورك تايمز** بتاريخ ١٩٧١/٤/٣٠ وأدى الامر الى اثارة الموضوع في الكنيست الاسرائيلي في جلسته المنعقدة بين ١٦ ـــ ١٩ ايار ١٩٧١ وحاول وزير الخارجية نفي الخبر .
٣٧ ـــ **محاضر الكنيست الاسرائيلي** ، الجلسة السابعة ، ٥ ـــ ٧ تموز ١٩٧١ . من قرارات لجنة الامن التابعة للكنيست حول تأييد حكومة اسرائيل لمنظمة الوحدة الافريقية : « ان اللجنة تؤيد خطوات الحكومة الهادفة الى ازالة سوء التفاهم الذي حدث بينها وبين حكومة افريقيا نتيجة التبرعات المذكورة » .
٣٨ ـــ **نشرة م. د. ف.** ، عدد ٢ ـــ ١٩٧١/٤/١٦ نقلا عن معاريف ١٩٧١/٣/٣١ .
٣٩ ـــ **نشرة م. د. ف.** ، عدد ٢ ـــ تاريخ ١٩٧١/٤/١٦ نقلا عن الجيروزاليم بوست .
٤٠ ـــ **هآرتس** ، ١٩٧١/٩/١٦ ، مقالة لمبعوث هآرتس الى اريتريا أ. سلفطر .
٤١ ـــ ج. هـ. جانسن ، **اسرائيل والدول الافرو اسيوية** ، مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية ، ١٩٧٠ ، ص ٢١ و٢٢ .
٤٢ ـــ **وكالة الانباء العراقية ـــ الانصات** ١٩٧١/٩/٨ نقلا عن اذاعة اسرائيل مساء ١٩٧١/٩/٨ تصريح ابا ايبان .

٤٣ ـــ ***Middle East Record*, Volume Two, 1961, Tel Aviv University, The Reuven Shiloah Research Center, Jerusalem, Israel, p. 339.**

٤٤ ـــ **Jacques Baulin, *The Arab Role in Africa*, Penguin African Library, London, 1962, p. 544.**

٤٥ ـــ ***Jewish Observer and Middle East Review*, July, 11, 1969.**

٤٦ ـــ **Jacques Baulin, *The Arab Role in Africa*, p. 49.**

٤٧ ـــ **W. W. Rostow, *The United States in the World Arena*, New York, 1960 Appendix A.**

٤٨ ـــ **الهدف** ـــ عدد ٣٢ ـــ ٧ آذار ١٩٧٠ نقلا عن دراسة نشرتها مجلة تريكوكنتيننتال .

٤٩ ـــ **Arnold Rivkin, *Africa and the West*, New York, 1962,pp. 84-85.**

٥٠ ـــ **Mordechai Kreinin, *Israel and Africa, A Study in Technical Cooperation*, New York, 1964.**
Lanfer, *Israel and the Developing Countries*, New York 1966.
رياض القنطار ، **التغلغل الاسرائيلي في افريقيا وطرق مجابهته** ، مركز الابحاث ، سلسلة دراسات فلسطينية، عدد ٤٣ ، بيروت ، ١٩٦٨ .
د. عبد الملك عودة ، **اسرائيل وافريقيا** ، القارة ، ١٩٦٤ .

٥١ ـــ ***Jewish Observer & Middle East Review*, November 22, 1968.**

٥٢ ـــ **نشرة م. د. ف.** ، بيروت ، عدد ٤ ، تاريخ ١٩٧١/٥/١٦ ، نقلا عن نفتالي هرتس احد مسؤولي العلاقات الدولية في الهستدروت ـــ الجيروزاليم بوست تاريخ ١٩٧١/٣/٢٦ .
٥٣ ـــ **نشرة م. د. ف.** ، عدد ٤ تاريخ ١٩٦٧/٥/١٦ ، نقلا عن الوكالة التلغرافية اليهودية في ١٩٧١/٥/٧ .

٥٤ ـــ ***The Jerusalem Post* - Week & Magazine, Oct. 15, 1971.**
ومن احدث الكتب العبرية المتعلقة بأفريقيا كتاب لماريون موشكات ، **افريقيا : نضال من اجل التحرر والتنمية** ، تل ابيب ، ١٩٧١ .

٥٥ ـــ مجلة **الهدف** البيروتية ، عدد ٣٢ ـــ ٧ آذار ١٩٧٠ ، اذاعة اسرائيل مساء ١٩٧١/٩/٨ صرح شمعون امير نائب المدير العام لوزارة الخارجية الاسرائيلية للشؤون الاقتصادية والتعاون الدولي بوجود نحو ألف خبير اسرائيلي يعملون في الخارج في سبعين دولة نامية في العام الماضي .
٥٦ ـــ يقدر عدد الاسرائيليين المقيمين في اوغندا والذي طلب عيدي امين مغادرتهم البلاد حوالي ٧٠٠ فرد .

٥٧ — ج.ه. جانسن ، **اسرائيل والدول الافرو — اسيوية** ، مركز الابحاث ، سلسلة ابحاث فلسطينية ، رقم ١٤ ، بيروت ، ١٩٧٠ — ص ٤٠ .

٥٨ — **الهدف** البيروتية عدد ٣٢ تاريخ ٧ آذار ١٩٧٠ نقلا عن بحث نشر في مجلة القارات الثلاث الكويتية .

٥٩ — M. E. Kreinin, ***Israel and Africa,*** p. 134.

٦٠ — يوسف شبل ، **تجارة اسرائيل الخارجية** ، مركز الابحاث ، سلسلة دراسات فلسطينية ، عدد ٦٠ ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٢٦ .

٦١ — **نشرة م. د. ف.** ، بيروت ، عدد ١٣ في ١٩٧١/١٠/١ نقلا عن « الاتحاد » الاسرائيلية في عددها ١٩٧١/٩/١٠ ، وذلك من تصريح لشمعون امير ، نائب المدير العام في وزارة الخارجية الاسرائيلية للشؤون الاقتصادية والتعاون الدولي ، كما ان الاذاعة الاسرائيلية بالعربية نقلت التصريح بتاريخ ١٩٧١/٩/٨ وذلك فيما يتعلق بنسبة صادرات اسرائيل عام ١٩٧٠ الى افريقيا واسيا وهذه النسبة تشمل كما جاء في التصريح الدول النامية ككل .

٦٢ — يحيى عرودكي : **العلاقات الاقتصادية الخارجية لاسرائيل** ، مركز الابحاث ، سلسلة دراسات فلسطينية عدد ٨١ ، بيروت ١٩٧١ ، جدول رقم ٣ ص ٦١ . وذلك لارقام السنوات ١٩٦٣ الى غاية ١٩٦٧ ، فؤاد حمدي بسيسو ، تأثير المقاطعة الاقتصادية العربية على الاقتصاد الاسرائيلي ، منشورات دائرة الابحاث والدراسات ، البنك المركزي الاردني ، عمان ١٩٧١ ، ص ٥٨ ، جدول رقم ١٨ . وذلك لارقام عام ١٩٦٨ .

Israel, Central Bureau of Statistics, ***Monthly Foreign Trade Statistics,*** January-Dec. 1970, Jerusalem, Feb. 1971, p. 30-32.

وذلك بالنسبة لارقام عام ١٩٦٩ و١٩٧٠ ، جامعة الدول العربية ، المكتب الرئيسي لمقاطعة اسرائيل ، دمشق ، **تقرير عن التجارة الخارجية الاسرائيلية عام ١٩٧١** . حزيران ١٩٧٢ ، ص ١٤ ، وذلك بالنسبة لارقام عام ١٩٧١ .

٦٣ — **نشرة م. د. ف.** بيروت ، عدد ١٣ بتاريخ ١٩٧١/١٠/١ .

٦٤ — ***International Affairs,*** Moscow, Feb. 1972, p. 63.
نقلا عن مجلة : Tricontinental, No. 15, 1969, p. 46.

٦٥ — فؤاد حمدي بسيسو ، **تأثير المقاطعة الاقتصادية العربية على الاقتصاد الاسرائيلي** ، ص ٥٩ ، نقلا عن بحوث غير منشورة للدكتور محمد صقر ، التجارة الخارجية لاسرائيل للفترة ١٩٤٩ — ١٩٦٨ ، عمان ، ١٩٧٠ ، ص ١٢١ .

٦٦ — **نشرة م. د. ف.** بيروت ، عدد ١٣ ، تاريخ ١٩٧١/١٠/١ ، نقلا عن الجيروزاليم بوست ١٩٧١/٨/١٢ .

٦٧ — Arnold Rivkin, ***Africa and the West,*** New York 1962, p. 81.

٦٨ — Kreinin, p. 4.

٦٩ — **الهدف** ، ٧ آذار ١٩٧٠ .

٧٠ — Kreinin.

٧١ — Kreinin, p. 12.

٧٢ — **المصدر نفسه** ، ص ١٢ .

يوميـــات الحزن العـــادي !

محمود درويش

فصل آخر من كتاب تجربة محمود درويش الاسرائيلية ، ينشر تباعا في « شؤون فلسطينية ».

[١]

● انحني ، يا حبيبتي ، ريثما تمر العاصفة .
— من شدة الانحناء صار ظهري قوسا ، فمتى تطلق سهمك ؟
[تمد يدك الى يدك ، فتجد حفنة طحين]

. . . .

● انحني ، يا حبيبتي ، ريثما تمر العاصفة .
— من شدة الانحناء صار ظهري قنطرة ، فمتى تعبر ؟
[تحاول أن تحرك رجلك ، فلا يتحرك الحديد]

. . . .

● انحني ، يا حبيبتي ، ريثما تمر العاصفة .
— من شدة الانحناء صار ظهري علامة استفهام ، فمتى تجيب ؟
[المحقق يدير اسطوانة عليها تصفيق كثير] .

. . . .

حين شتتتهما العاصفة ، كان الحاضر يصرخ بالماضي : أنت السبب . وكان الماضي يحول جريمته الى قانون . أما المستقبل فقد كان شاهدا محايدا .

وحين هدأت العاصفة ، كانت الانحناءة قد اكتملت ، وتحولت الى دائرة لا تعرف بدايتها من نهايتها .

[٢]

● ضع فاصلة وراء كل تنهيدة ، وقل لنا : من أنت ؟

وحين أفاق من الغيبوبة كان دمه قد جف .

— أنا من الضفة الغربية .
— ولماذا عذبوك ؟
— وقع انفجار في تل ابيب ، فاعتقلوني .

ـــ وماذا تفعل في تل ابيب ؟
ـــ أعمل في البنـــاء .

لم تكن حالة عمل العمال العرب من الضفة الغربية او قطاع غزة في المدن الاسرائيلية قد تحولت الى ظاهرة عامة . ولعل الرأي العام العربي ، بعد الهزيمة الاخيرة مباشرة ، كان يطالب العمال العرب بالمجاعة تعبيرا عن الصمود ورفض الاحتلال ، دون ان يفكر أحد من المسؤولين بالاهتمام بمسألة تأمين سبل المعيشة للسكان الواقعين تحت الاحتلال من أجل ضمان استمرارهم في الصمود وعدم التعاون مع الغزاة .

ـــ عندما تسكت المدافع ، من حقي ان أشعر بالجوع .

ماذا تقول لمن يطرح السؤال بهذا الشكل ؟ . ليس بوسعنا ان نطحن الاناشيد الحماسية والخطب الحماسية ونعجنها ونحولها الى خبز .

ان اخطر شيء هو أن يتحول الوطن ، تحت الاحتلال الاجنبي ، الى رغيف خبز . ولكن السيء ايضا هو ان يدفع المواطنون الواقعون تحت الاحتلال الى المجاعة في حالة الصمت العسكري والسياسي السائدة .

ـــ في حالة الحرب والمعارك لا نفكر كثيرا بمستوى المعيشة . أعلنوها معركة أو حربا وخذوا منا كل التضحيات . ولكن حين تسكت المدافع ، فمن حقنا ان نشعر بالجوع .

ولماذا تنسى او تتناسى ان اسرائيل بنيت بسواعد عربية .

يا للمفارقة . . ويا للعار !

[٣]

● يقدمون لك تفاحة حمراء ، ويسألون : هل ذقت التفاح السوري .

ما أجمل التفاح في السجون . هو الشيء الوحيد الذي يحول لون الرماد الى لون النار .

تقول لهم : ان التفاح السوري يملأ الاسواق الاسرائيلية . وان التفاح السوري يهزم التفاح الاسرائيلي . . اكبر ، واجمل ، وأرخص . يشتريه اليهود بلا حرج ، على الرغم من احتجاج الكيبوتسات التي هبطت قيمة تفاحها ، لانه أكبر . . وأجمل . . وأرخص !

ـــ وماذا جاء بكم هنا أيها الاصدقاء السوريون . كنا نعد العدة لاستقبالكم في بيوتنا لا في السجون .
ـــ لقد ألقوا علينا القبض بتهمة التسلل من دمشق الى القنيطرة .
ـــ كل عودة تسلل . هذا هو حظ العرب .
ـــ . . وقالوا اننا جئنا للتجسس .
ـــ تجسس على المنازل والكروم ؟!
ـــ شيء كهذا .
ـــ وهل اتهموكم بأنكم تسرقون تفاحكم .
ـــ لم يقدموا لائحة الاتهام بعد .
ـــ كم قضيتم في الاعتقال ؟
ـــ أحد عشر شهرا وأسبوعا وثلاثة أيام .
ويسألونك فجأة :
أنت تعرفهم ، فهل تظن أنهم سيتهموننا بأننا سوريون ؟

— الستم كذلك ؟
— نعم . نحن سوريون .
— وهل هي تهمة ؟
— لا نعرف ...

[٤]

● من أين اخي ؟
— من غزة .
— ماذا فعلت ؟
— القيت قنبلة على سيارة الغزاة ، فانفجرت بي .
— و
— القوا علي القبض ، واتهموني بالانتحار .
— اعترفت طبعا ؟
— ليس تماما . قلت لهم ان محاولة الانتحار لم تنجح . ولذلك حرروني من الرحمة وحكموا علي بالسجن المؤبد .
— ولكنك كنت تنوي القتل لا الانتحار ؟
— يبدو انك لا تعرف غزة . المسافة هناك شيء وهمي .
— لا افهمك جيدا .
— يبدو انك لا تعرف غزة ، فمن أين اخي ؟
— من حيفا .
— ماذا فعلت ؟
— القيت قصيدة على سيارة الغزاة ، فانفجرت بهم .
— و
— القوا علي القبض ، واتهموني بالقتل الجماعي .
— اعترفت طبعا ؟
— ليس تماما . قلت لهم بأن محاولة القتل نجحت . ولذلك اعطوني الرحمة ، فاستجابوا الى طلبي ، وحكموا علي بالسجن لمدة شهرين .
— لا أفهمك جيدا .
— يبدو انك لا تعرف حيفا . فالمسافة هناك شيء وهمي .
جاء الحارس . وضعه في زنزانة . واطلق سراحي !..

[٥]

● اذهبي .. وتعالي ، ريثما أصحو من اللذة .
وابتعدي عني قليلا ، لكي ينفصل الحلم عن عظامي .
وانا علمتك التدخين . وانت علمتني مرافقة الدخان .
اذهبي .. وتعالي !
— وماذا قلت لها أيضا ؟

لم احدثها عن الحب . كان كلامي غامضا ولا افهمه الا حين تنام . وكانت تغني كثيرا ، ولا افهم غناءها الا في الحلم . وهي جميلة .. جميلة . يوم رأيتها سقط الغيم على دماغي ، فخطفتها الى البيت ، وقلت لها : اعتبري ذلك حبا .

تضحك .. تضحك في أحلك الساعات .

وكنت أناديها باسم مستعار لان ذلك اجمل . اقبلها ، وبين القبلة والقبلة أشتهيها واشعر انها ستضيع مني لو توقفت عن القبل .

بين الرمل والماء ، قالت : احبك

وبين الشهوة والعذاب ، قلت : أحبك

وحين سألها الضابط عما تفعله هنا اجابت : من أنت ؟ فأجابها : ومن انت ؟

قالت : أنا حبيبته ، وجئت أودعه حتى باب السجن أيها المجرم . ماذا تريدون منه ؟

قال : اعلمي أنني ضابط .

قالت : وأنا سأصبح ضابطة في العام القادم أيها المجرم .

.. وابرزت شهادة الاستدعاء الى الخدمة العسكرية . فحياها الضابط بابتسامة ، وسحبني من ذراعي الى زنزانتي .

وفي العام القادم كانت الحرب . وعدت الى الزنزانة من جديد . وفكرت بها : ماذا تفعل الآن ؟ كانت في مدينة نابلس أو في مدينة أخرى واحدة من الفاتحين .. تحمل بندقية خفيفة . ولعلها تلك اللحظة كانت تأمر الرجال برفع ايديهم أو بالركوع على الارض . أو لعلها كانت تشرف على استجواب أو تعذيب فتاة عربية في مثل سنها .. وفي مثل جمالها السابق .

لم تقل وداعا

ولم تقل لها : اذهبي وتعالي .

لقد علمتها التدخين ، وعلمتك مرافقة الدخان .

[٦]

● نكتب مسرحية مشتركة ؟
— نكتب .
— نبحث عن نقطة التقاء ؟
— نبحث
— نطرح القضية بكل حدتها ؟
— نطرح
— ليكن بيت متنازع عليه هو عقدة المسرحية .
— ليكن .
— نلتقي بعد شهر ؟
— نلتقي .

في تلك اللحظة ، كانت خديجة تودع ابنها في المخيم ، وتسلمه مفتاح البيت الذي اشتهر في حيفا باسم « البيت الاحمر » .

وفي تلك اللحظة ، كانت ساره ، المقيمة في « البيت الاحمر » ، تودع ابنها الذي لبى اشارة في الراديو تأمره بالالتحاق بوحدته العسكرية .

التقى الشابان القادمان من اتجاهين متعاكسين في نقطة ما من الغابة ، واشتبكا . وليس مهما أن نعرف أيهما قتل الآخر .

ــ هل اكملت الفصل ؟

ــ اكملت .

« في المهجر ، لم يعلمني أبي الانتحار او اليأس ، ولم يعلمني التخلي عن يهوديتي . لقد رباني على انني خلقت لاكون مطاردا ، ومع ذلك فقد علمني الحياة » .

ــ وأنت ماذا كتبت ؟

ــ « في المهجر ، لم يعلمني أبي الانتحار أو اليأس ، ولم يعلمني التخلي عن فلسطينيتي. لقد رباني على انني خلقت لاكون مطاردا ، ومع ذلك ، فقد علمني الحياة » .

ــ هذه نقطة التقاء هامة .

ــ والبيت الذي يستقطب مصيرينا ، هل هو نقطة لقاء أم نقطة وداع ؟

ــ انه نقطة صراع .

ــ كيف تحله المسرحية ؟

ــ لنقل : ان الحق لا ينبع من الارث ، بل من الحاجة والجدارة . وعلى أساس ذلك ، لا يكون الرجل الذي بنى هذا البيت منذ خمسين سنة صاحب الحق فيه الان ، لان رحيله عنه ــ تحت أي ظرف من الظروف ــ هو بمثابة تخل عن حق لا يحتاجه . أما المالك الحالي ، فقد بذل جهدا في السيطرة على هذا البيت الذي لا يملك سواه .

ــ واين العدل في المسرحية ؟

ــ العدل .. العدل . لنبحث عن العدل معا في اللحظة الراهنة . لنجعل حالة تأنيب الضمير مناخا سائدا في البيت ريثما يفعل الزمن مفعوله . ليكن التعبير عن الشعور بالاثم لدى اليهودي تعويضا عن ضياع البيت بالنسبة للعربي .

ــ نلتقي بعد شهر لاضع صيغة أخرى لعدل اكثر عدالة ؟

ــ نلتقي .

وفي تلك اللحظة ، كانت بيوت أخرى في مدن أخرى ، تستبدل سكانها . وكانت مفاتيح جديدة تتكدس فوق المفاتيح القديمة في المهاجر العربية التي تضيق مساحتها حربا بعد حرب . وفي الليل ، يحمل شبان مفاتيحهم ولا يعودون !.

[٧]

● لماذا هذه الغطرسة ؟ لقد ورثت ديني وقوميتي ، ولم أواجه لحظة اختيار واحدة . والان أسألكم : من اختار منكم أن يكون يهوديا .. من ؟..

ــ هذا هو الفرق بيني وبينك : أنا لست يهوديــــا فحسب ، ولكنني اخترت أن أكون يهوديا.

ــ كيف ؟

ــ تلك مسألة غير قابلة للشرح . اليهودية لا يفهمها الا اليهودي . وهذا هو مصدر اعتزازي الذي تسميه غطرسة .

ــ انني افهم أن تقول انك اخترت أن تكون صهيونيا .. أن تكون اسرائيليا . فهل تعني ذلك ؟

ـــ لا أعني ذلك تماما . أعني أنني اخترت يهوديتي والتزمت بها .
ـــ وكيف يتجلى هذا الالتزام ؟
ـــ بالوطن التاريخي
ـــ وما هو هذا الوطن التاريخي ، هل هو غامض كانتمائك . هل اخترنه أم ورثته ؟
ـــ غامض وواضح معا . اخترته وورثته معا .

كان المتحدث كاتبا . وكان يتمرد على الفواصل التي يضعها البعض بين اليهودية والصهيونية والاسرائيلية . ويعتقد ان اليهودية لا تتجلى الا بالصهيونية ، والصهيونية لا تكرس الا بالاسرائيلية . ومن هنا ، يكون التخلي عن الصهيونية تخليا عن اليهودية .

وحين تسأله عن التحديد العملي لمصطلح الوطن التاريخي ، يذكرك بالحوار الشهير الذي دار بين بن غوريون ومفكر عربي سنة ١٩٣٦ ، أيام كانت فلسطين حلما صهيونيا . سئل بن غوريون عن ذلك الوطن التاريخي فأجاب انه المنطقة المفتوحة للاستيطان اليهودي .
ـــ وما هي تلك المنطقة ؟
ـــ أرض اسرائيل .
ـــ وما هي حدودها ؟
ـــ حدود أرض اسرائيل معروفة في التاريخ .
ـــ ولكن الحدود أمر مصطنع . تكون اليوم هنا ، وتكون غدا هناك .
ـــ أرض اسرائيل هي تلك الأرض الواقعة بين البحر الابيض المتوسط غربا ، والصحراء شرقا ، بين سيناء جنوبا ، ومنابع الاردن شمالا .
ـــ انك تضم عبر الاردن أيضا
ـــ بالطبع ، فالاردن ليس حدا لارض اسرائيل . انه نهر في أرض اسرائيل .
ـــ انها أرض عربية ولنا حق السيادة الكاملة عليها .
ـــ كنا قبلكم في أرض اسرائيل . ونحن نعود الى بلادنا .

وكان حاييم وايزمن يقول : « انني أعرف أن الله وعد بني اسرائيل بأرض اسرائيل ، ولكنني لا أعرف الحدود التي عينها الرب » .

في ذلك الوقت ، كانت ملايين العرب تضحك ساخرة من أحلام وايزمن وبن غوريون . وحين تنظر اليوم الى الحدود السرية « التي عينها الرب » والتي تجاوزت فلسطين الى ما هو أبعد ترى ان « الواقع الاسرائيلي » أوسع من « الحلم الصهيوني » ومن التاريخ اليهودي ، وتذكر ذلك الكاتب الذي قال لك : « هذا هو الفرق بيننا وبينكم . أنا لست يهوديا فحسب ، ولكنني اخترت يهوديتي » .

فهل تضحك مرة أخرى ، كما ضحك العرب قبل خمسين سنة ، أم تورث أحلامك الى الاطفال الذين يولدون على حراب الاحتلال !.

[٨]

● تريد أن تستمتع بالشارع ؟

« ـــ يا حبيبي ، في عيد ميلادي ، أرجو أن تكون هديتك لي دبابة ، أو مدفعا ، أو اي سلاح من صنع روسي .
ـــ سأهديك دبابة ننام فيها معا يا عزيزتي . لنجرب وضعا آخر .
ـــ لا . سأنام معك في الهواء الطلق ، على ضفة قناة السويس .
ـــ ها .. ها .. ها
ـــ ها .. ها .. ها

تمشي في الشارع . تجلس في مقهى . تسافر في أوتوبيس ، وتسكت . لست مدعوا للاعلان عن هويتك . ان صمتك يقول كل شيء . هو الموقف الوحيد الذي يتاح لك ان تتخذه حين تستمع الى هذا الغزل الاسرائيلي . انتهى عصر الكلمات العذبة . سأهديك غزالا وقمرا . لا . ما أبعد الفارق بين الخيال السابح في الصحراء والخيال المصنوع من التكنولوجيا والنصر . كلمات الحب الان منسجمة مع آخـــر أحداث الساعة واحدث مبتكرات السلاح . واللذة لا تتناغم مع أشياء الطبيعة .

هكذا أصبح العربي في اسرائيل متخلفا حتى في ممارسة الحب . لقد احتاج الـــى وقت طويل لكي يعرف كيف يخاطب صديقته بالورد . فكم من العصور يحتاجها هذا المخلوق لكي يتدرب على هذا الغزل : يا عزيزتي .. سأهديك دبابة .

وبماذا تفكر ؟ كيف ينامون في الدبابات ! وكيف ينجبون أطفالا في الدبابات ! وكيف ينتزهون في الدبابات ! على رسلك .. هذا هو البيت الاسرائيلي المأمون . هذا هو عش الحب . وهذا هو المستقبل !

[٩]

● وفي عيد رأس السنة . ماذا تفعل ؟

تنزل الى الشارع لتبحث عن بطاقة جميلة ترسلها الى صديق . فماذا تجد ؟ لا صورة لوردة واحدة ، ولا رسما لشاطىء أو عصفور أو امرأة . لقد اختفت كلها لتعطي المكان للدبابة والمدفع والطائرة وحائط المبكى والمدن المحتلة ومياه قناة السويس المنقولة الى هذه البطاقات . وحين تلمح غصن زيتون تجده مرسوما على جناح طائرة مقاتلة من صنع فرنسي .

وحين ترى فتاة جميلة تجدها مدججة بالسلاح . وحين تقع عيناك على مدينة تجد خلفيتها حذاء جندي . فيقع قلبك على الارض . ولا يبقى لك الا أن تنكمش في زاوية الشارع المزدحم ، لتفسح المجال أمام آلاف الايدي الممتدة نحو بطاقات العيد الملونة .. ترسلها الى يهود العالم تعبيرا عن فرحة البعث التاريخي ، وعودة الاسطورة . وأنت لا تبعث الى أصدقائك الا صمت القلب الذي لا يصل .

ويفاجئك الكرنفال في الشارع . ينقض عليك الضوء كما كان ينقض عليك وأنت خارج من زنزانة مظلمة . وأسراب من الاطفال — الحمائم مدججة بالسلاح . اللعبة سلاح . والمتعة سلاح .

وأنت ؟ ليس في طفولتك وشبابك غير حصان خشبي ..

[١٠]

● تريد أن تنام ؟

في الساعة الرابعة صباحا . يوقظك جرس الباب . تعرف الزائر . ولكن النعاس اقوى من الشرطة . وفي التاسعة صباحا تذهب الى مكتبك لتعمل . تستمتع بنصف فنجان القهوة قبل قراءة الاخبار . يأتيك الزائر المعتاد ويقول : تعال معي ! . تسأله : اعتقال .. أم تحقيق ؟ . يقول : لا اعرف . تسأله أن تأخذ فرشاة أسنانك وأدوات الحلاقة وملابس داخلية ، فيرد عليك : لا وقت !

تجلس أمام الضابط .

يقول لك بأدب ، من تحت صورة هرتسل : يشرفني أن اعتقلك .
تجامله : ويشرفني أن أمنحك هذا الشرف . ولكن ، هل تتفضل وتقول لي ما هي تهمتي ؟
يقول لك : أنت متهم بتفجير بطيخة عند مدخل السيرك ، وبالمس بأمن الدولة .

البطيخة ، والدولة ، والسيرك ـــ انسجام نادر .

تنتهي مدة التوقيف القانونية . كل شيء هناك قانوني . تتوقع ان يأخذوك الى المحكمة ، فتستمتع برؤية مدينتك المفتونة بنفسها ، من خلال قضبان سيارة البوليس . او تتطرف بالامل ، كعادتك ، وتتوقع ان يطلقوا سراحك .

ـــ انتظر قليلا .

تحتج على حافة القانون فيقولون لك : لن نحتفظ بك ساعة واحدة بعد انتهـــاء مدة التوقيف .. ماذا تظن ؟ هنا قانون . هنا اسرائيل ، وليس العالم العربي .

تفكر بالعالم العربي ، فتختلط الغصة بالحلم .. وتنتظر . ماذا تنتظر .. ضابط التحقيق أم العالم العربي ؟!

ثم يدخلونك الى غرفة أخرى . تجد ضباطا وامرأة عجوز . يسألك أحد الضباط ان كنت تتقن اللغة العبرية ، ثم يتلو لائحة الاتهام : أنت متهم بالعمل على تدمير دولة اسرائيل . تسأل : تقصد الدولة أم البطيخة ؟. تقول لك المرأة القبيحة : احترم المحكمة . تعلن دهشتك : أية محكمة ؟ فيأتيك صوت قادم من مستنقع : هذه محكمة ، وأنا قاضية . عندها ، تفهم أنهم احترموك ونقلوا المحكمة الى السجن مـــن أجلك . ولكنك ترفض تكريمهم : كلا يا سيدتي . لا هذا المكان محكمة ، ولا أنت قاضية . هذا سجن . وأنت سجانة .

تنتهي الجلسة بتجديد مدة التوقيف .

[١١]

● تعود الى البيت بسيارة اجرة ؟

تتكلم مع السائق بلغة عبرية سليمة ، وشكلك لا يعلن هويتك . يسألك السائق : الى اين يا سيدي ؟ تقول : الى شارع المتنبي .

تشعل سيجارة لك وسيجارة للسائق لانه مهذب . يقول فجأة : قل لي ، الى متى هذا القرف .. لقد سئمنا .

تظن انه سئم حالة الحرب وارتفاع الضرائب وسعر الحليب . فتقول : الحق معك .. لقد سئمنا . يتابع : الى متى تحافظ دولتنا على هذه الاسماء العربية القذرة !. يجب أن نمحوهم ونمحو أسماءهم من الوجود . تسأله : من هم ؟ يقول باستنكار : العرب طبعا. تسأله عن السبب ، فيقول : لانهم قذرون .

تعرف من لهجته انه مهاجر من مراكش . تسأله : هل انا قذر الى هذا الحد ؟ وهل انت اكثر نظافة مني مثلا ؟ يندهش لسؤالك : ماذا تقصد ؟. تسأله أن يكون ذكيا ، فيدرك ولكنه لا يصدق : أرجوك .. كف عن المزاح !

عندما يرى بطاقتك يصدق أنك عربي . يقول : لا أقصد المسيحيين ـــ أقصد المسلمين . تقول له انك مسلم ، فيقول : لا اقصد كل المسلمين .. أقصد القرويين . تقول له انك من قرية متخلفة هدمتها دولته كما يشاء ومحتها من الوجود كما يشاء . يقول : كـل الاحترام للدولة !.

تنزل من السيارة ، وتقرر العودة الى البيت مشياً . تصيبك نوبة قراءة أسماء الشوارع. فعلا ، محوا أسماءها . صار صلاح الدين شلومو . وتتساءل : لماذا حافظوا على اسم المتنبي !.

وعندما تصل الى شارع المتنبي تقرأ الاسم ، لاول مرة ، باللغة العبرية ، فتجد أنه « المونت نفي » وليس المتنبي كما كنت تتصور !

[١٢]

● تريد أن تسافر الى القدس ؟

ترفع سماعة التيلفون ، وتطلب ضابط المهمات الخاصة في دائرة الشرطة . تعرفه جيداً فتسأله عن أحواله وتمازحه . ثم ترجوه ان يعطيك تصريحا للسفر ليوم واحد بدون نوم. يقول لك : قدم طلبا خطيا . تترك عملك وتقدم الطلب الخطي على ورق صقيل . . وتنتظر الجواب ، يوما . . يومين . . ثلاثة أيام . ثمة أمل لانهم لم يقولوا « لا » كالعادة . ولكنك تنتظر ، وميعادك في القدس يقترب . تسألهم . . ترجوهم . . تتوسل اليهم ان يقولوا اي شيء . ان يقولوا « لا » لتصبح في حل من الميعاد . لا يقولون . تخبرهم ان امامك ساعات معدودة ، يقولون : تعال الينا بعد ساعة لتتسلم الجواب .

تذهب ، فتجد المكتب مغلقا . تتساءل ببراءة : لماذا يخجلون مني ؟ لماذا لم يقولوا « لا » كعادتهم دائما . تغضب وتقرر — بغباء — ان تنتقم من « أمن الدولة » . . وتسافر .

في اليوم التالي يستدعونك للمثول أمام محكمة عسكرية عاجلة . تنتظر دورك وتسمع حكايات : امرأة عربية تعمل في كيبوتس . ينص التصريح على منعها من النزول في أية محطة على الطريق . لسبب ما اضطرت للنزول ، فاعتقلوها . وشباب انحرفوا عن الشارع الرئيسي فاعتقلوهم . والمحكمة لا تبرىء أحدا . سجن وغرامات . وتتذكر حكاية الشيخ والحمار والتصريح : كان الشيخ يحرث في الحقل . علق عباءته على شجرة . والتصريح في جيب العباءة . اكتشف ان حماره قد ابتعد عن ارضه ودخل أرضا أخرى . خف للحاق بالحمار ، فاعترضته الشرطة العسكرية واعتقلته ، لانه دخل أرض الدولة بلا تصريح . قال لهم : معي تصريح . . في جيب العباءة المعلقة على الشجرة هناك . اعتقلوه وحاكموه .

وتذكر تصاريح الموت ، حيث كان الفلاحون يوقعون على نص يحملهم المسؤولية عن موتهم لو انفجرت الغام في منطقة كان الجيش يستخدمها للمناورات . هذا النص يعفي الدولة من تحمل المسؤولية . ولكن الفلاحين كانوا يفكرون بلقمة العيش ولا يفكرون بالموت . وفعلا ، مات منهم من مات وعاش منهم من عاش . ويئست الدولة من الاحياء والاموات فصادرت الارض .

وتذكر أيضا الطفلة التي ماتت في حضن والدها أمام مكتب الحاكم العسكري ، حيث كان الاب ينتظر تصريحا للسفر من قريته الى المدينة لمعالجة طفلته المريضة .

وتشعر بالسعادة لانهم حكموا عليك بالسجن لمدة شهرين فقط . وفي السجن ، تغني للوطن . . وتكتب رسائل الى حبيبتك ، وتقرأ مقالات عن الديموقراطية . وتقرأ رواية « الحرية او الموت » ، فلا تحرر نفسك . . ولا تموت .

[١٣]

● تريد أن تسافر الى اليونان ؟

تطلب جواز سفر ، فتكتشف انك لست مواطنا ، لان أباك او احد اقاربك قد هرب بك اثناء

حرب فلسطين ، وقد كنت طفلا . وتكتشف أن اي عربي ترك بلاده في تلك الفترة ، وعاد اليها متسللا ، قد فقد حقه في الجنسية .

تيأس من جواز سفر ، وتطلب جواز مرور . تكتشف أنك لست مقيما في اسرائيل ، لانك لا تحمل شهادة اقامة . تحسب الامر نكتة فتسرع لترويها لصديقك المحامي : « لا أنا مواطن هنا — ولا أنا مقيم . اذن ، أين أنا ومن أنا » . تفاجأ بأن القانون معهم ، وبأنه يترتب عليك أن تبرهن وجودك . تقول لوزارة الداخلية : أنا موجود أم غائب ؟ اعطوني خبيرا في الفلسفة لاثبت له أنني موجود .

ثم تدرك انك موجود فلسفيا ، وغائب قانونيا .

تفكر بالقانون . ما أشد براعتنا حين نظن ان القانون وعاء للعدل والحق . القانون هنا وعاء لرغبة الحاكم ، أو بدلة يفصلها على قياسه . وأنا موجود في هذه البلاد قبل وجود الدولة التي تنفي وجودي . وترى مرة اخرى ان الحق أمنية تقترب من الوهم اذا ابتعد عن ســند القوة ، وان القوة تحول الوهم الى واقع . وتبتسم للقانون الذي يمنح كل يهودي في العالم حق الجنسية الاسرائيلية .

وتسعى من جديد . امرك لله وللقانون . تحصل على شهادة تثبت انك موجود ، وتحصل على جواز مرور . ولكن من اين تمر ؟ أنت مقيم في حيفا ، والمطار قرب تل أبيب . وتسأل الشرطة تصريحا للسفر من حيفا الى المطار فترفض . يتدخل المحامي واعضاء برلمان ، ولكن الشرطة ترفض . ثم تظن انك أكثر خبثا منهم ودهاء ، فتغير طريق مرورك ، وتقرر السفر عن طريق ميناء حيفا على اعتبار أنك تملك حق الوصول الى الميناء . تبتهج لذكائك . تشتري تذكرة ، وتعبر قسم مراقبة الجوازات والصحة والجمارك ولا يعترضك احد . وقرب السفينة يلقون القبض عليك ، ويقدمونك الى المحاكمة . وما زلت مصرا على ان القانون معك هذه المرة .

وتكتشف في المحكمة ان ميناء حيفا جزء من دولة اسرائيل وليس جزءا من مدينة حيفا ، ويذكرونك بأنك محظور من الوجود في اية منطقة من دولة اسرائيل خارج حيفا . والميناء — في القانون — خارج حيفا . وتدان . . .

تقول لهم : اريد أن ادلي باعتراف خطير ما دمت قد فهمت القانون : يا سادة ! انا استحم في البحر كل يوم ، والبحر تابع لدولة اسرائيل وليس تابعا لمدينة حيفا ، وأنا لا احمل تصريحا لدخول البحر .

وعندي اعتراف آخر : انا استمتع بالطقس في مدينة حيفا . والطقس تابع لدولة اسرائيل وليس تابعا لحيفا . وانا لا احمل تصريحا لدخول الطقس . والسماء التي اراها فوق حيفا ليست تابعة لحيفا . وانا لا احمل تصريحا للجلوس تحت السماء .

ثم تطلب منهم تصريحا للاقامة في الريح ، فيبتسمون !

[١٤]

● تحتفل بعيد ميلادك ؟

آه من الاحتفالات . يهجم عليك التاريخ بشراسة . هزيمة تلو هزيمة تلو هزيمة ، والعرب يحتفلون بكل ايامهم . وتتساءل : ايامنا تمحو ايامنا من فرط المناسبات والاعياد . لم يبق في الروزنامة يوم واحد للنصر . كل الايام محجوزة للانقلابات والانقلابات المضادة ، وكلها أعياد مقررة . عندها تجد سببا لاستمرار هزيمتك : حين يخلو أحد مقاعد السنة من يوم واحد . . سننتصر .

والليلة عيد ميلادك — الثالث عشر من ايار — وانت تريد مناسبة لانتزاع المرح الكاذب من جهة الايام الصادقة . تدعو أصدقاءك .. تتآمرون على الكآبة بالكأس والموسيقى والنكات الجارحة . يرتفع صوت الموسيقى وترقصون . تصل ضحكات الفتيات الى نوافذ الجيران . وفي منتصف الليل يأتي البوليس . يتحقق مــن هويات الحاضرين ويهددك بالاعتقال : كونوا مهذبين . كفى بربرية ! تسأل عن السبب فيقول لك ان الجيران قد استدعوه ليحافظ على هدوء البناية من مرحنا . تقول له : عيد ميلاد . يقول : لا يعنيني.

ويا أيها الجيران الطيبون ! لماذا لم تنبهوني الى أن فرحي يؤلمكم ؟ لماذا تنهمر موسيقاكم المأخوذة من لحمي على نوافذي كل ليلة ، ولا أحتج . متى تخرجون مــن حلقي أيها الجيران ، متى ؟.

وحين تأوي الى الفراش لتنام ، تقتنع بأن الجيران كانوا على حق . في الصباح تعتذر لهم قائلا : لا يحق لي أن أحتفل ما دمت جاركم . سامحوني أيها الجيران ، فقد تبت عن الاحتفال .

[١٥]

● تريد أن نستأجر شقة ؟

تقرأ ابواب الاعلانات في الجرائد . وتقفز الى التليفون : سيدتي .. قرات اعــلانا عن شقتك ، هل لي أن اراها ؟

تصل اليك ضحكتها وسعادتها فتمتلىء بالامل : الشقة ممتازة يا سيدي ، على الكرمل . تعال واحجزها فورا .

تنسى أن تدفع ثمن المكالمة التليفونية ، وتسرع اليها . تعجب بك السيدة ، وتتفق معها على شروط الدفع وميعاد تسلم المفتاح . وحين تجلس لتوقع على العقد تنزل الصاعقة على رأس السيدة : ماذا عربي ؟. عفوا يا سيد .. اتصل غدا !

تكرر القصة عدة أسابيع . وفي كل مرة تعود خائبا تقرأ شرفات المنازل ، تقرأ تــاريخ المنازل ، وتسأل عن اصحابها الغائبين في رياح الهجرة والمنافي . كم من بيت بناه صاحبه ولم يسكنه . ان أصحاب هذه المنازل ما زالوا يحتفظون بمفاتيحها في جيوبهم وقلوبهم في انتظار العودة . العودة الى اين ؟ لو عاد احدهم الى منزله فهل يسمح لــه باستعمال مفتاحه ؟ أو هل بوسعه ان يستأجر غرفة واحدة في بيته . ويقولون لك : « ان الصهيونية لم ترتكب اثما . كل ما في الامر انها أحضرت شعبا بلا وطن الى وطــن بلا شعب » . وتسألهم عمن بنى هذه البيوت . اية شياطين بنتها للاساطير !. عندها ينصرفون عنك وينجبون مزيدا من الاطفال في بيوت مسروقة .

[١٦]

● تريد أن تزور امك في العيد ؟

من شهور طويلة لم تزر امك وأباك واخوتك في قرية لا تبعد عنــك اكثر من ساعة . تجتهد في اختيار الكلمات التي تتضمنها رسالتك الى البوليس هذه المرة . تكتب : « اتمنى أن تأخذوا بعين الاعتبار المشاعر الانسانية الخالصة التي آمل الا تروا فيها ، هذه المرة، تصادما مع حرصكم الشديد على صيانة متطلبات أمن الــدولة ومقتضيات الدفاع عن سلامة الجمهور . وارجو ، بموافقتكــم المنشودة على اصـــدار تصريح لزيارة أهلي في

العيد ، أن تبرهنوا على أن امن الدولة ليس نقيضا للحد الادنى من فهم مشاعر الناس ».

يغادر اصدقاؤك المدينة ، وتبقى وحدك . تشرب القهوة وحدك وتحزن وحدك . كل العائلات يلتئم شملها غدا ، وليس من حقك ان تقتحم بيت أحد . وتبقى وحدك .

الحل في البحر . في الصباح الباكر تذهب الى الشاطىء وحدك وتطفىء نارك في الماء الازرق . تأخذك الموجة ولا تعيدك . عليك ان تعود وحدك . تتمدد على الرمل الساخن في الشمس والهواء والوحدة . لماذا تبذر الشمس نفسها الى هذا الحد . ولماذا ينكسر الموج ؟. الشمس كثيرة والرمال كثيرة والماء كثير . ويتكلمون حولك بلغة تفهمها فتشتد حزنا ووحدة واغترابا . تنتابك رغبة في وصف البحر لصديقتك ، ولكنك وحدك . بمناسبة .. وبدون مناسبة يشتمون شعبك ويستمتعون بآثار شعبك . وحتى وهم يسبحون وهم يمزحون وهم يتبادلون القبل يشتمون شعبك . اليس بوسع البحر أن يمنحهم لحظة صفاء وحب ، فينسونك قليلا ؟. كيف يملك المرء القدرة على الكراهية وهو متمدد على رمال الشاطىء ! كيف ! تذهب طافحا بالملح والحنين والشمس الى مقهى الشاطىء . تشرب البيرة وتصفر لحنا حزينا فتنهال عليك النظرات . تشغل نفسك باشعال سيجارة لا طعم لها ، ثم تشتري ذرة صفراء وتأكل وحدك . تتمنى لو تقضي اليوم كله على الشاطىء لتنسى ان اليوم عيد وأن اهلك ينتظرونك . ولكن ، حان موعدك اليومي في محطة الشرطة فتتذكر كل شيء . وتشتعل زرقة البحر والسماء في ومضة مفاجئة لها لون الظهيرة في عينيك . وتسير ..

عند مدخل دائرة الشرطة ينتظرك اخوك الصغير ، ويقول لك : اسرع . اثبت وجودك بسرعة . أمك تنتظرك في غرفتك . تنسى قلمك وروايتك وتعود لاهثا . رفضت أمك أن تأكل طعام العيد بدونك ، فجاءت واحضرت لك كل شيء .. حتى الخبز والاطباق والقهوة احضرتها معها من القرية .. حتى زيت الزيتون والملح والتوابل .

تودعك امك في المساء . تقبلها وتغلق الباب خلفها . لا تستطيع مرافقتها حتى الشارع لان الشمس قد غربت . ودولة اسرائيل لا تسمح لك بمغادرة المنزل بعد غروب الشمس حتى لو كان السبب وداع امك . تجد نفسك وحيدا في العيد من جديد . تجلس على كرسي قديم ، تستمع الى كونشرتو رقم ١ لتشايكوفسكي ، فتبكي فجأة كما لم تبك طفلا . من سنين طويلة تحمل هذا البكاء الذي ينهمر الان . يا امي ! ما زلت طفلا . أريد ان أحمل احزاني واركض بها نحوك كي اصبها في حضنك . اريد ان اقطع المسافات لابكي في حضنك .

فجأة تناديك الجارة لتقول لك ان امك ما زالت مسمرة خلف الباب . تخرج اليها ، وتحقق امنيتك في البكاء بين يديها !

[١٧]

● احيانا ، يلقون عليك القبض وانت ترتكب الحلم .

ولو فكرت مليا ، لما وجدت تهمة أخرى . فهذه الكتابة وهذه الخطابة ليست الا مظهرا من مظاهر تجلي الحلم في لغة . ما الفرق ، اذن ، في نظر القانون بين الحلم الصامت والحلم الصاخب .

ــ كنت تنوي أن تقول كلاما اخر .
ــ كنت تنوي ان تفعل شيئا اخر .

ويدهشك ايضا انك مستعد دائما للاجابة عن تهمة لا تعرفها . واذا لم يتهمك احد بادرت الى اتهام نفسك .

ــ ماذا فعلت من اجل اي شيء ؟

ــ ماذا بوسعك ان تفعل من أجل اي شيء ؟.

تصعد ، يوم السبت ، الى الجبل ولا تدرك الفجر ابــدا . تدهشك العلاقة النادرة بين الشمس والسجون . هذه الشمس ــ متى رايت ولادتها لاول مرة ! لا تكذب ولا تقل انك بحثت عنها في نزهة او معركة . ايقظوك في ساعة مبكرة ووضعوا زنديك في حديد جديد، واخرجوك الى ساحة السجن . وهناك شاهدت ولادة الشمس لاول مرة . لا تكذب ولا تقل انها لم تكن جميلة ، وانك لم تشعر بالحياء .

تصعد ، يوم السبت ، الى الجبل . لا ليس هذا جبلا ، فالكرمل مئذنة الله . تطل منها أشجار تغطي مدافع مضادة للطائرات والجمال . لو وقف هنا مؤذن وهمس : حي على الصلاة ، لامتلأت مساجد دمشق بالمصلين . ويمر عنــك العشاق والجنود « هل كان البيت ، والقرية ، والحياة التي نخلقها هنا .. هل كانت عزيزة وحقيقية وعادلة الى هذا الحد قبل الان » ــ هكذا يقولون بعد الحرب والانتصار . وهكذا تقول أنت أيضا بعد الحرب والهزيمة . ويقولون : « مع كل خطوة على هذه الطبيعة تتراجع الظلال وتحتلك الخضرة والامل » . وهكذا تقول : « مع كل خطوة على هذه الطبيعة يسقط قلبي وتحتلني الخضرة والامل والغزاة » .

ويلقون عليك القبض وانت ترتكب الحلم .

ــ ماذا كنت ستفعل لو انتصرتم في الحرب .

تجيبهم : اصعد الى الجبل . اختار اية صنوبرة . أجلس . أمد قدمي في البحر الابيض المتوسط . اضع يدي على شعر السماء . وأتابع الحلم كما افعل الان تماما .

ــ ما هكذا يفعل المنتصرون .

ــ لم انتصر مرة واحدة في حياتي لاعرف كيف يسلك المنتصرون .

وتشعر انك لم تعد مواطنا . تاريخك أحلام تتمزق كأوراق الجرائد . وكل حلم فجيعة . ماذا تنفعك اليرموك والقادسية والمعارك السابقة ؟. ولماذا أنت لماذا أنت ! جميل هو الكرمل .. وقريبة هي السماء ، والنصر بعيد . ومــاذا فعلت من اجــل اي شيء ؟ لا شيء . تجد نفسك خارج الحرب وخارج الانتصار وخارج الهزيمة وخارج انسانيتك .

هكذا تصبح شجرة او حجرا أو اي شيء في الطبيعة !.

مناقشة مع الحزب الشيوعي الاردني

منير شفيق

نشرت مجلة « الوقت » في عددها الخامس — ايار ١٩٧٢ — السنة الخامسة عشرة مقالا للاستاذ نعيم الاشهب تحت عنوان « في سبيل التغلب على الازمة في حركة المقاومة الفلسطينية » اعلن فيه الكاتب منذ البداية : « ونحن نقدم هنا راي الحزب الشيوعي الاردني حول الموقف الراهن داخل حركة المقاومة » ، فالمقال ، اذن ، لا يعبر عن رأي كاتبه ، وانما هو رأي رسمي للحزب الشيوعي الاردني ، ومن هنا فان مناقشة المقال تتناول اتجاها متواجدا في الساحة الاردنية — الفلسطينية .

« ان حركة المقاومة الفلسطينية بشكلها الحالي هي رد الفعل الطبيعي والشرعي للعدوان الاسرائيلي — الامبريالي على البلدان العربية ، باعتبارها جزءا لا يتجزأ من حركة التحرر العربي والعالمي» ، بهذه الكلمات يفتتح الاستاذ نعيم الاشهب مقالته مرتكبا خطأ اساسيا ، اعني اعتباره حركة المقاومة رد فعل للعدوان الاسرائيلي — الامبريالي . حقا لو كان القصد وراء عبارة العدوان الاسرائيلي — الامبريالي الوجود الصهيوني — الامبريالي على ارض فلسطين ، لقبلت هذه المقدمة مع التحفظ على استخدام عبارة « رد فعل » ، ولكن ما يفهم من سياق المقال كله يشير الى ان المقصود هو العدوان الذي تم في حزيران ١٩٦٧ . وهنا جذر الخطأ الاساسي في النظر الى المقاومة . هذه المقاومة التي رفعت راية الكفاح المسلح ونفذته منذ الاول من كانون الثاني (يناير) ١٩٦٥ ، اي قبل العدوان بأكثر من سنتين . فالقضية اذن ، ابعد من مجرد رد فعل لعدوان ١٩٦٧ ، بل اكثر من ذلك انها تمثل ارادة الشعب العربي الفلسطيني والجماهير العربية ومصالحهما وآمالهما في تحرير فلسطين من الوجود الصهيوني — الامبريالي من اساسه ، وهي بهذا تكون حلقة موصولة بسلسلة الثورات والنضالات التي خاضها شعب فلسطين وجماهير الامة العربية منذ نهاية الحرب العالمية الاولى ضد اقامة الوطن القومي الصهيوني والسيطرة الامبريالية — الرجعية .

ان التأكيد على أن المقاومة الفلسطينية هي مجرد رد فعل لعدوان ١٩٦٧ او انها مجرد مقاومة فحسب ، اي لا تحمل سمات الثورة الشعبية التحررية الوطنية الديمقراطية ، يترتب عليه التهيئة المسبقة لتصفية المقاومة وانهاء مهمتها مع تصعيد اثار عدوان ١٩٦٧ ، وهنا مصدر الخطورة في اعتبار المقاومة « رد فعل » لعدوان ١٩٦٧ . كما أن التشديد في الرد على أن المقاومة الفلسطينية ليست رد فعل لعدوان ١٩٦٧ ، وليست مجرد مقاومة فقط ، وانما هي اساسا ثورة شعبية تحررية وطنية ديمقراطية ، يترتب عليه التهيئة المسبقة لاستمرار الثورة حتى نهاية الشوط اي حتى التحرير الكامل . وهنا مصدر الاهمية في رفض نقطة انطلاق المقال المذكور .

ولكن اذا كان موضوع المقال هو « في سبيل التغلب على الازمة في حركة المقاومة الفلسطينية » ، فبماذا تتمثل الازمة ؟ يقول الكاتب :

« تتمثل هذه الازمة في الاساس ، بتصفية قواعد العمل الفدائي في الاردن اثر سلسلة من

الحملات العسكرية ، نظمتها السلطات الرجعية الاردنية ، بالتواطؤ والدعم الكاملين من الامبريالية الاميركية ، وبهذا تحرم حركة المقاومة من قاعدة نشاطها الاساسية ، باعتبار الاردن يضم العدد الاكبر من الفلسطينيين الذين يعيشون خارج المناطق المحتلة ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان للاردن اطول حدود مع الاراضي المحتلة .

وتتمثل هذه الازمة من جانب اخر في استمرار وتعمق الانقسامات وتعارض المواقف ولا سيما بين المنظمات الفدائية الكبيرة وذلك حول طرائق معالجة الازمة الناشئة مع السلطات الاردنية ومسؤولية نشوء هذه الازمة . هذا بشكل خاص وحول بعض اساليب العمل ضد الاحتلال الاسرائيلي بشكل عام ، ولو ان الخلاف هنا تكتيكي في اساسه ، وفي الحقيقة فان عدم وحدة فصائل هذه الحركة تشكل اساس جميع الاخفاقات والنكسات التي عانتها وتعانيها حركة المقاومة .

ولا يمكن النظر الى هذه الازمة التي تمر بها حركة المقاومة الفلسطينية اليوم بمعزل عن المصاعب التي تعانيها حركة التحرر العربي بمجموعها، والناجمة في الاساس عن الهجمة الامبريالية ــ الصهيونية الشرسة ومضاعفاتها ، فقد ادت الهزيمة التي نزلت بعدد من الجيوش العربية في حرب حزيران ١٩٦٧ من جهة ، والعجز حتى اليوم ، عن تصفية اثار هذه الهزيمة بتحرير الاراضي العربية التي احتلتها الجيوش الاسرائيلية ، سواء بالوسائل العسكرية او الدبلوماسية من الجهة الاخرى ، ادى ذلك الى نشوء انقسامات وتيارات مختلفة داخل حركة التحرر العربي ، تتبلور حول وسائل تحقيق هذا الهدف . »

اذن ، تتمثل الازمة ب : (آ) تصفية قواعد العمل الفدائي في الاردن، (ب) استمرار الانقسامات وتعمقها وتعارض المواقف ولا سيما بين المنظمات الفدائية الكبيرة ، (ج) المصاعب التي تعانيها حركة التحرر العربي بمجموعها . ان تلخيص الازمة بهذه العوامل الثلاثة تفتقر الى الشمول والتعمق في تحليل الازمة ، فلو تناولنا مسألة تصفية قواعد العمل الفدائي في الاردن لوجدناها نتاج ازمة أبعد ، بدأت قبل تصفية قواعد العمل الفدائي في الاردن ، بل لقد بدأت والعمل الفدائي في مجد تواجد قواعده في الاردن . أعني الازمة التي جاءت نتيجة قبول مشروع روجرز وما ادى اليه من وقف لاطلاق النار على خطوط المواجهة الامر الذي ترك المقاومة وحيدة في مواقع القتال المباشر ضد جبهة من الاعداء تضاعفت قوتهم نتيجة ذلك ايضا . ان هذا الوضع الذي لعب دورا حاسما في تغيير موازين القوى في الاردن ضد مصلحة المقاومة ، ومن ثم سهل تصفية قواعدها فيه ، وما زال هو نفسه لاعب الدور الحاسم في استمرار اغلاق الاردن بوجه الثورة الفلسطينية ، وفي استمرار تعمق الازمة في حركة المقاومة الفلسطينية ، وفي حركة التحرر العربي عموما . على ان هذا لا يعني ان تصفية قواعد العمل الفدائي في الاردن لا تشكل أزمة ، او على الاصح صعوبة حقيقية ، بحد ذاتها بالنسبة للمقاومة الفلسطينية ، كما لا يعني هذا تسويغا للمقاومة في عدم التغلب على ذلك الدور الحاسم السلبي الذي لعبه الوضع المشار اليه ، سواء أيام تواجد المقاومة في الاردن ، او بعد ذلك ، او الان ومستقبلا .

ان ازمة المقاومة لا يمكن ان ترى بمعزل عن مؤامرات الحلول السياسية ، وعن هجر القتال بحثا عن حل للقضية من خلال العمل الدبلوماسي وطرح المشاريع ، وممارسة الضغوط المعنوية والدولية ، خاصة مع وجود السلبيات الذاتية في المقاومة وعلى رأسها مسألة فقدان التنظيم الطليعي والعمل والتنظيم الجماهيريين المستندين الى الخط الجماهيري . لقد لعبت المناورات الامبريالية ــ الصهيونية ــ الرجعية ، مثلا مشروع روجرز وما شابه ، دورا حاسما بسبب وجود نقاط ضعف اساسية في حركة المقاومة وحركة التحرر العربي ،وليس لان من المفروض بها أن تلعب مثل ذلك الدور ، فهي لا تستطيع ان تلعب مثل هذا الدور مع ثورة فياتنام . ولهذا فان الحديث عن الدور الذي

لعبته ، وتلعبه ، تلك المناورات ، يأخذ حجمه المشار اليه اعلاه ، في ظل الظروف المعطاة في منطقتنا ، ومن هنا كان لا بد من نقد محاولة وضع مسألة تصفية قواعد العمل الفدائي في الاردن على رأس العوامل التي تتمثل فيها الازمة .

أما اذا دققنا بالمظهر الثاني للازمة الذي يشير اليه الاستاذ نعيم الاشهب وهو «استمرار وتعمق الانقسامات وتعارض المواقف ولا سيما بين المنظمات الفدائية الكبيرة » فسنجد ان هذا الجانب : (١) قد تواجد مع المقاومة الفلسطينية منذ بدايتها ، (٢) انه الان اقل منه في اي يوم مضى ، (٣) من الخطأ ان يقـال عنه انه « يشكل اساس جميع الاخفاقات والنكسات التي عانتها وتعانيها حركة المقاومة لانه هو ايضا نتيجة وليس سببا ، اذ يكفي ان نسأل لماذا لم تتحقق وحدة المقاومة حتى تنهال الاسباب العديدة ، وعلى رأسها فقدان التنظيم الطليعي والخط الاستراتيجي والتكتيكي الصحيح عسكريا وسياسيا وجماهيريا ، فلسطينيا وعربيا » لو فرضنا جدلا ان الانقسامات وتعارض المواقف قد دخلت تحت مظلة وحدة وطنية ، ولكن لم تكتشف القوانين الخاصة لاستراتيجية حرب الشعب طويلة الامد في بلادنا وتكتيكها ، ولم تكتشف نظرية الثورة العربية ، فان تلك الوحدة، في أحسن الحالات ، قد تخفف من بعض المظاهر السلبية ، او بالاصح ستساعد على حرمان القوى المترددة والمستسلمة او المعادية للثورة الفلسطينية من اتخاذ الانقسامات قميص عثمان تسوغ بها كل ما جرى ويجري . يجب لا يفهم من هذا الرد ان الوحدة الوطنية بـين منظمات المقاومة وبين اوسع جماهير الشعب العربي الفلسطيني والجماهير العربية ، ليست ذات اهمية حاسمة استراتيجيا وتكتيكيا ، وانما يجب ان يفهـم كنقد للتأولات السطحية حول مسألة الانقسامات في الساحة الفلسطينية ، انه نقد باتجاه التعميق ، وليس باتجاه الرفض .

وحين يعالج الكاتب ازمة المقاومة باعتبار عدم امكانية النظر اليها « بمعزل عن المصاعب التي تعانيها حركة التحرر العربي بمجموعها » لا بد من ان يصطدم القـارىء بالتمييز المقصود في وصف حالة كل من المقاومة وحركة التحرر العربي ، فهنا ــ المقاومة ــ تعيش **« أزمة »** وهناك ــ حركة التحرر العربي بمجموعها ــ تعاني **« مصاعب »** . السـؤال الان ، هل حالة حركة التحرر العربي أفضل من حالة حركة المقاومة ؟ الجواب بالتأكيد لا ، فوضع حركة المقاومة ان لم يكن افضل فهو ليس أسوأ قطعا ، فالمقاومة ما زالت مشرعة السلاح ، وما زالت متواجدة بين الجماهير ، وما زالت قادرة على الفعل والتأثير ، أو على الاقل ، ما زالت في مواقع رفض الاستسلام ، ومقاومة التراجع عن اهدافها في التحرر الكامل او القاء السلاح رغم ما تعانيه من أزمة ومصاعب ، وما تتعرض له من اخطار ، ورغم ما الم بها من نكسات ، ونفذ فيها من جراح . واذا تذكرنا ان المقاومة جزء عضوي حاسم الاهمية في حركة التحرر العربي ، ادركنا ان محاولة التفريق فـي ظروفنا المعطاة غير واردة فهنا أزمة وهناك أزمة ، وهنا مصاعب وهناك مصاعب . ولا مجال لمثل هذا التمييز الا اذا اعتبر رفض المقاومة لقرار ٢٤٢ هو أزمة المقاومة ، في حين قبول « حركة التحرر العربي » لهذا القرار نزع عنها صفة مواجهة ازمة ، وقصر مـا تعانيه على صفة « مصاعب » . ومن هنا يكون الاختلاف مع الاستاذ نعيم الاشهب عميقا وواضح التخوم ، اذ أن المسألة من وجهة نظرنا معكوسة تماما . فموقفه من مسألـة قرار نوفمبر(٢٤٢) عام١٩٦٧، في حالة تبنيه من قبل حركة التحرر العربي هو الذي يشكل مخاطر حقيقية تؤدي الى الهاوية ، وستثبت الايام ان حركة التحرر العربي المقاتلة هي، فقط ، التي تستطيع ان تخرج من ازماتها وصعوباتها في حين ينتظر الذين يبحثون عن حلول « سلمية » تدهور مستمر ، لان الامبريالية الامريكية والعدو الصهيوني لا يفهمان غير لغة القتال بالتنظيم الطليعي المقاتل ، وبالجبهة العريضة المقاتلة والجماهير المنظمة المقاتلة ، أما ما عدا ذلك فخلق التربة الخصبة لتمكين عملاء الامبريالية الامريكية للتسلل

الى قلب مواقع حركة التحرر العربي ، ومن ثم سحقها . ان مسألة تحديد الشكل النضالي الرئيسي ي ـر ـبهة العدو مسألة مركزية ، وهذا بدوره ما يجعل الخلاف مع الاستاذ نعيم يصل حتى الجذور ، (ملحوظة : ان الخلاف يستمر حين نأتي الى تحديد القوى التي يمكن أن يطلق عليها اسم حركة التحرر العربي ، خاصة ، عند تحديد اهداف حركة التحرر العربي واستراتيجية الثورة العربية وتكتيكها . حيث سنجد ان القوى الوطنية التي تؤيد قرار نوفمبر ١٩٦٧ ، تقع على هامش حركة التحرر العربي من وجهة النظر التاريخية والثورية والمستقبلية ، ولا يمكن ان تكون ممثلة لها . لان القوى التي تمثل حركة التحرر العربي هي القوى التي تحمل اهداف حركة التحرر العربي وتطبق استراتيجية الثورة العربية خاصة وتكتيكها ، في ميدان الصراع ضد العدو الصهيوني ، حيث سنجد انفسنا حيال استراتيجية حرب الشعب طويلة الامة وتكتيكها بوصفها الطريق الوحيدة التي يمكن ان تحل التناقض العدائي بيننا وبين العدو الصهيوني والامبريالية الامريكية .

لكي يتضح كل ما ذهب اليه هذا الرد لنتابع المقالة المذكورة وهي تعدد العوامل التي ادت الى وقوع المقاومة في الازمة . يقول الاستاذ نعيم :

« **اولا** : الموقف من امكانية الحل السياسي ومن قرار مجلس الامن .

لقد عارضت جميع المنظمات الفدائية ــ عدا منظمة الانصار التي يقودها الحزب الشيوعي الاردني بالتعاون مع الاحزاب الشيوعية الشقيقة في العراق وسوريا ولبنان ــ كل تسوية سياسية ورفضت القبول بقرار مجلس الامن الصادر في ١٩٦٧/١١/٢٢ بشأن ازمة الشرق الاوسط .

واذا كان هذا الموقف هو من الناحية التاريخية ، استطرادا واستمرارا للنهج التقليدي الذي ظل ساريا منذ وعد بلفور عام ١٩١٧ في معالجة القضية الفلسطينية ، والذي غذته المؤامرات المتصلة على هذا الشعب وفي اتخاذ موقف سلبي من كل ما يعرض سواء كان ملائما او غير ملائم ، في هذه الحقبة أو تلك ، لمستقبل عمل حركة التحرر الفلسطينية بشكل خاص وحركة التحرر العربي بشكل عام ، حتى تحجر هذا النهج وتعمق بحيث لم يعد التحرر منه سهلا ، فان هذا الموقف السلبي من امكانية الحل السلمي ومن قرار مجلس الامن ، انما هو الانعكاس العفوي ورد الفعل العاطفي في اذهان الفئات المختلفة من البورجوازية الصغيرة التي تشكل غالبية الشعب العربي الفلسطيني ــ كما هو الحال ايضا في العالم العربي ــ لهول الهزيمة من جهة ، وللاضطهادات الوحشية التي ترتكبها السلطات الصهيونية في المناطق المحتلة ، وقبل كل ذلك رد الفعل لمشاريعها التوسعية في هذه المناطق من جهة اخرى . »

يلاحظ هنا ما يلي : (١) ربط معارضة المنظمات الفدائية ــ عدا منظمة الانصار « بكل فخر » ــ لامكانية الحل السياسي ، وقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ، بالنهج التقليدي الذي ظل ساريا منذ وعد بلفور عام ١٩١٧ ، اي ابتداء من رفض وعد بلفور ، ومعارضة اقامة الوطن القومي اليهودي والهجرة الصهيونية وانتهاء بمقاومة مختلف المشاريع الاستعمارية التي كانت تهدف دائما الى تمييع النضال الجماهيري واجبار شعبنا على القبول بالحلول الاستعمارية والصهيونية وعلى رأسها اقامة دولة اسرائيل الخ الخ . . ان هذا الربط فيه اساءة صارخة لتاريخ النضال الوطني الفلسطيني والعربي كله ، فهو يجير ، اولا ، شرف رفض المشاريع الاستعمارية والصهيونية لمصلحة القيادة التقليدية القديمة ، في حين كانت تلك القيادة تأخذ تلك المواقف تحت ضغط الجماهير الشعبية التي هي صاحبة الفضل في رفض تلك المشاريع ، وهي التي قررت الرفض وستظل مصدره ومحركه . واذا كان هنالك من درس يجب ان نتعلمه من تاريخ حركتنا الوطنية في الماضي والحاضر فهو ليس

خطأ الرفض للمشاريع الاستعمارية والتصفوية ، فهذا الرفض كان صحيحـــا وسيظل كذلك ما دامت هنالك مشاريع استعمارية وصهيونية ، وانما الخطأ هو ان ذلك الرفض لم يكن اكثر حرصا ، ولم يكن اكثر اصرارا على القتال بالجماهير المسلحة المنظمة حتى تحقيق الانتصار . ان وقفات التردد امام المشاريع الاستعمارية ــ الصهيونية هي التي كانت تجهض الحركة الوطنية والثورية ، وتخذل ارادة جماهيرنا . ومن هنا ، ثانيا ، فان ربط معارضة المنظمات الفدائية للحلول التصفوية بالموقف « التقليدي » للقيـــادات المتهرئة ، احتقار لارادة الجماهير الشعبية العربية الفلسطينية والعربية وقواها الوطنية، اي أن فخر تاريخنا كله وهو رفض المشاريع الاستعمارية والصهيونية ومقاومتها يصبحان من وجهة النظر هذه مذمة ومسبة وموقفا « سلبيا متحجرا » . (٢) اذا كـــان رفض المشاريع الاستعمارية ــ الصهيونية في الماضي ورفض المشاريع الامبريالية ــ الصهيونية في الحاضر ، « انما هو الانعكاس العفوي ورد الفعل العاطفي في اذهان الفئات المختلفة من البرجوازية الصغيرة » أفلا يعني هذا ان موقف لينين في فضح اقامة الوطن القومـــي اليهودي في فلسطين وسائر بنود اتفاقيات سايكس بيكو ومختلف المشاريع الاستعمارية، وكذلك موقف الكومنترن والاتحاد السوفياتي والاحزاب الشيوعية العربية حتى عـــام ١٩٤٧ هو من « الانعكاس العفوي ورد الفعل العاطفي في اذهان الفئات المختلفة من البورجوازية الصغيرة » ؟ (٣) اين هي الارقام التي يستطيع ان يثبت بهـــا الاستاذ نعيم الاشهب ان غالبية الشعب العربي الفلسطيني وكذلك العالم العربي من البرجوازيـــة الصغيرة ؟ واذا كان كذلك فما معنى حزب البروليتارية والنضال مـــن اجل الاشتراكية ما دامت غالبية الامة العربية من البرجوازية الصغيرة ؟ (٤) لنتذكر انه كان هنالك دائما في تاريخ الشعب الفلسطيني والشعب العربي ، قوى تدعو الى التعامل الايجابي مـــع المشاريع التي تطرحها الامبريالية والصهيونية ، وهنالك قوى مثلها موجودة حتى الان ، ابتداء من حزب الدفاع وانتهاء بالجعبري ومحمد ابو شلباية فهـــل هذه تمثـــل فكـــر البروليتارية غير السلبي وغير المتحجر ، والذي يستطيع « بفهلويـــة » التقاط ما هـــو ملائم من تلك المشاريع ، و« نبذ » ما هو غير ملائم . طبعا لكي نكون منطقيين مـــع أنفسنا لن نستخدم المنطق نفسه الذي استخدمه الاستاذ نعيم الاشهب فنعتبر موقفه استمرارا للموقف التقليدي للقوى التي كانت تهاجم ، وما زالت تهـــاجم ، المواقـــف السلبية ، وتدعو للمواقف « الايجابية » ، لان من الضروري وضع كل موقف ضمن اطاره ومحتواه ، فلا نسحب موقفا على اخر سحبا تعسفيا .

ثم تنتقل المقالة لتصف موقف المنظمات من الحل السياسي وقـــرار مجلس الامن فتقول : « ان هذا الموقف غير الواقعي لا يأخذ في الحسبان وضـــع حركة التحـــرر العربي في هذا الظرف الدقيق ، لا سيما بعد الضربة التي تلقتها في حرب حزيران (يونيو) ، ولا الوضع الدولي ، ولا سيما ميزان القوى في المنطقة حاليا . وهنا ، لا بد من التوضيح ، اولا وقبل كل شيء ، ان لا خلاف على تقييم ميزان القوى عموما ، او على الاصح لا خلاف على أن توازن القوى الحالي في غير مصلحتنا . ولكن الخلاف الحاد والمبدئي هو في المنهج الـــذي يعالج السؤال : ما العمـــل في ظل معادلة ميزان القوى تلـــك ؟ لاننا سنواجه على الفور بمنهجين يتعارضان .٥١٨٠ ، **المنهج الاول** : ان عدم التوازن القائم حاليا يقضي بقبول الامر الواقع ، او البحث عن حلول وسطية ، او عـــلى الاصح « اصلاح » الواقـــع دون تغيير كيفه . **المنهج الثاني** : ان عدم التوازن هذا يقضي بعدم الاستسلام ، لا كليا ولا جزئيـــا ، امام هذه المعادلة ، وانما النضال من اجل تغييرها وهذا يقتضي دراسة التناقض في طرفي تلك المعادلة وتحديد طبيعته ثم كيفية حله حلا جذريا . وهكذا يؤدي هذان المنهجان الى خطين سياسيين مختلفين ، الى موقفين طبقيين ، فالاول يقود الى السعي لحل « سلمي » وتطبيق قرار مجلس الامن ــ بكل ما يحمله القرار من شروط ونتائج تؤدي الى تصفيـــة الحركة التحررية والثورية وتكريس الوجود الصهيوني الخ ــ بينما يقود المنهاج الثاني

الى رؤية الطبيعة العدائية للتناقض بيننا وبين العدو ، والخــروج بالموضوعية القائلة ان حــرب الشعب طويلة الامد هي الطريق الوحيد لحــل هذا التناقض من جانبنا ، اي هي الطريق الوحيد لقلب ميزان القوى لمصلحتنا .

ثم ان الحديث عن تــوازن القوى لا علاقة له بتحديد الاهــداف الاستراتيجية فهو يتعلق بتحديد استراتيجية العمل وتكتيكه . يعني عندما طرح لينين هدف اسقاط الحكم القيصري وانجاز الثورة الديمقراطية ومن ثم تحقيق الثورة الاشتراكية في كــل الروسيا ، كان غير واقعي لان توازن القوى في اواخر القرن التاسع عشر لم يكن لمصلحته . وكذلــك عندما تطرح قوى ثورية ، في فرنسا مثلا ، الاشتراكية هدفا لنضالها تكون غير واقعية لان توازن القوى الحالي في فرنسا لا يؤدي الى انجاز هذا الهدف . ان طرح الاهداف الاستراتيجية لحركة ثورية لا يأخذ بعين الاعتبار توازن القوى في مرحلــة محددة ، وفي لحظة راهنة ، والا لم يبق امام أية حركة ثورية غير طريق الاصلاحية والتخلي عن النضال الثوري . لان كل حركة ثورية حتى لحظة انتصارها النهائي تكون ضمن معادلة تواجه فيها توازنا للقوى في غير مصلحتها . ان مسألة توازن القوى تناقش من زاويتين رئيسيتين وهي كيف نعمل لتغير ميزان القوى لمصلحتنا ؟ ثم تناقش من زاوية كيف نواجه العدو في هذه اللحظة او تلك اي هل تكون في الدفاع الاستراتيجي والهجــوم التكتيكي ام ننتقــل الى الهجــوم الاستراتيجي الخ الخ .

ان هذه الملحوظات لا بد من ان تسحب وبكل قوة في الرد على هجوم السيد نعيم الاشهب على شعار دولة فلسطينية ديمقراطية حيث يصفه بأنه « سلبي بقدر طوباويته ، وعدم قابليته للتطبيق العملي في ايامنا ، وخاصة بعد حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ » . لاحظ لماذا هو سلبي وطوباوي ؟ بسبب عدم قابليته للتطبيــق العملي في ايامنا . لو قبل هذا المنهج في التفكير فلن يكون ثمة من شعار ترفعه حركة التحرر الوطني او الطبقة العاملة الا ويسقط عليه وصف السلبية والطوباوية ما دام غير قابل التحقيق في الظرف الراهن في الفترة الزمنية المعطاة ، وهكذا بجرة قلم يجب ان تشطب شعارات التحرر والاشتراكية والشيوعية من قاموس اغلب بلدان العالم لانها غير قابلة للتحقيق ، في كثير من الحالات، بأقل من عشرين ، او اربعين عاما ، او اكثر . وهكــذا بجرة قلم لا تبقى غير شعارات « الاصلاحية » والبرنشتاينية والكاوتسكية قابلة للتحقيق وغير طوباوية .

ويتابع الاستاذ نعيم بعد ان يسقط هــدف تحرير فلسطين واقــامة الدولة الديمقراطية ويستبدله بهدف تنفيذ قرار مجلس الامن ، ليقول : « اما اشكال العلاقة اللاحقة بــين الشعبين : العربي الفلسطيني والاسرائيلي ، فهي رهينة بنتائج النضال الذي تخوضه شعوب المنطقة لتصفية مصالح ونفوذ الامبريالية والاستعمار الجديد في المنطقة ، وضد الطابع العدواني التوسعي لدولة اسرائيل ، وفي سبيل التقدم الاجتماعي » . تثير هــذه الفقرة المختصرة عدة ملحوظات تحدد اتجاه المقالة كلها كما تظهر ان هذا الاتجاه يتعارض ٥١٨٠ مع الخط السياسي للثورة الفلسطينية والثورة العربية . انها تحدد ان الكــاتب ينطلق من : (١) « مسلمة » الشعبين العربي والاسرائيلي اي مسلمة القومية الاسرائيلية ويضعها على المستوى نفسه ، وبالحقوق نفسها ، مــع القومية العربية . اي الاقرار بحقها باقامة وطن قومي يهودي على ارض فلسطــين . (٢) حل القضية مرتبط بنتائج النضال الذي تخوضه شعوب المنطقة اي المسألة متروكة لعلم الغيب ، فاذا كان صحيحا ان حل القضية مرتبط بالنضال الثوري فلا يجوز عدم رؤية نتائــج هذا النضال سلفا . ان شعوبنــا تناضل وتريــد ان تعرف الى أين هي ماضية ومــا هي نتائــج نضالاتها وتضحياتها . (٣) لا بد من ان يلاحظ تمييز الكاتب بين النضال « لتصفية مصالح ونفوذ الامبريالية والاستعمار الجديد في المنطقة » وبين عبارة « ضد الطابع العدواني التوسعي لدولة اسرائيل » . وهنا يبرز السؤال اليست دولة اسرائيل والمؤسسات الاقتصاديــة

والسياسية والثقافية الخ في اسرائيل ، تحتاج الى تصفية كذلك ؟ ام لا تدخل ضمن موضوعة « تصفية مصالح ونفوذ الامبريالية والاستعمار الجديد في المنطقة » ؟ . كيف لو سحبنا عبارة النضال ضد **الطابع** العدواني التوسعي لدولة اسرائيل على العبارة السابقة الخاصة بالموقف من المصالح الامبريالية بحيث تصبح : « النضال الذي تخوضه شعوب المنطقة ضد **الطابع العدواني والتوسعي** لمصالح ونفوذ الامبريالية والاستعمار الجديد في المنطقة ؟؟ » (٤) اما الهدف الثالث فهو « في سبيل التقدم الاجتماعي » . وهنا نجد انفسنا امام ضباب هدف لا يعني شيئا محددا ، بمعنى تقدم اجتماعي في ظل اي نظام ؟ وتحت قيادة اية طبقة ؟ ومن أجل تحقيق أية اهداف ؟ ان فهم هذا الهدف يجب ان يرتبط بالمنهج « الاصلاحي » الذي عولج به الموقف من مسألة الحل السياسي وقرار مجلس الامن . اليس هذا هو شعار احدى شرائح البرجوازية الصغيرة ؟؟

الان ، اذا وضعنا امام اعيننا منهج التفكير الذي يحكم الاستاذ نعيم الاشهب والاهداف التي يحصر بها نضال الثورة الفلسطينية ، نستطيع ان نضع النقاط الاخرى التي يثيرها حول ازمة المقاومة ضمن اطار ذلك المنهج وتلك الاهداف ، او بكلمات اخرى نستطيع ان نبقي خلفية تفكيره حول كل نقطة حاضرة في الاذهان ، وبهذا لا نضل في تحديد ابعاد ملحوظاته . يقول الاستاذ نعيم « ثانيا : كان الخطأ السياسي الاخر ، الذي وقعت فيه حركة المقاومة ، وعلى وجه الدقة اكبر منظماتها وهي « فتح » هو شعار عدم التدخل في الشؤون الداخلية للبلدان العربية التي توجد فيها قواعد حركة المقاومة ، بما في ذلك الاردن .

« فماذا كان يعني هذا الشعار بالنسبة لبلد كالاردن يشكل الفلسطينيون غالبية سكانه ؟ من المعلوم انه عقب حرب حزيران (يونيو) ونشوء حركة المقاومة ، راحت هذه الحركة تمارس نفوذا متزايدا على الجماهير وعلى الحياة العامة في الضفة الشرقية للاردن ، بلغ ذروته قبل مذابح ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ التي كانت موجهة ضد حركة المقاومة الفلسطينية خاصة والحركة الوطنية في الاردن عامة .

قبل هذه المذابح ، كانت حركة المقاومة تشكل سلطة حقيقية بكل معنى الكلمة الى جانب السلطة الرسمية في الاردن . اذ كانت لها مؤسساتها واجهزتها في انحاء البلاد ، وكانت لها قوات مسلحة وجهاز أمن ومخابرات ومؤسسات مالية وادارية الخ ... هذا الى جانب تمتعها بنفوذ كبير بين الجماهير ، وبخاصة الجماهير الفلسطينية .

وبمعنى اخر : كانت حركة المقاومة تتدخل فعليا ، بقدر ما يتعلق الامر بمباشرة سلطاتها ونفوذها على الحياة العامة وعلى المواطنين في الضفة الشرقية ، ومن الجانب الاخر ، كانت **لا تتدخل** بقدر ما يتعلق الامر بالعمل للاستعاضة عن الحكم الرجعي الذي يواصل البقاء الى جانب سلطة المقاومة ، بحكم وطني في الاردن .

وقد بلغ الامر حدا اصبح محتوما بعده حسم التناقض بين شعار « عدم التدخل في الشؤون الداخلية للاردن » وبين الممارسة الفعلية لحركة المقاومة ، وبالتالي : حسم التناقض الناجم عن وجود سلطتين في البلاد ، لصالح احداهما . وقد حسمته السلطة الرجعية لصالحها حتى الان ، اذ كانت اقدر على اخذ زمام المبادرة .

ولكن اذا كان هذا الموقف خاطئا ، لانه قد اثر على فعالية النضال لايجاد حكم وطني في الاردن في فترة معينة ، فان الشعار المتهور الذي ينادي بالمباشرة بتصفية انظمة الحكم المختلفة في العالم العربي باعتبار ذلك المقدمة الضرورية لدحر اسرائيل ، هو الاخر خاطىء ايضا » .

ان معالجة الاستاذ نعيم لشعار عدم التدخل تخلو من اي تحليل فضلا عن افتقارها الى الوضوح فيما يتعلق بالشطر الذي يتعلق بالبلدان العربية ، عدا الاردن ، اذ لم يقل كيف

كان يجب ان يطبق ما دام يعتبر الشعار الذي ينادي بتصفية انظمة الحكم المختلفة في العالم العربي شعارا « متهورا » . على الرغم من ان هذا الشعار قتل بحثا ، ولا حاجة لمناقشته من جديد ، ولكن لا بد من ان نلاحظ الخلفية التي ينقده بها الاستاذ نعيم ، في الاردن، حيث ان خطأه يكمن في ان حركة المقاومة كانت **لا تتدخل** بقدر ما يتعلق الامر بالعمل للاستعاضة عن الحكم الرجعي الذي يواصل البقاء الى جانب سلطة المقاومة بحكم وطني في الاردن » . وهنا لا بد من ان يعود للذاكرة المحتوى الذي كان يطرح به شعار الحكم الوطني في الاردن هذا الشعار الذي يجب ان يفهم محتواه محصورا باستبدال الحكومة الرجعية دون المساس بالنظام الرجعي من حيث أتى ؛ وبهذا يبدو النقد بعيدا تماما عن ادراك الواقع في الاردن حيث كان امام المقاومة اسقاط النظام من اساسه اذا كان لها ان تتدخل للاستعاضة عن الحكم الرجعي بحكم وطني . اما الطلب من المقاومة التدخل من اجل تغيير قشرة الحكم لحساب بضعة وزراء في حين يبقى النظام وجهازه بأيدي الطبقة الرجعية العملية ، فسيؤدي الى اخطاء واخطاء حقيقية ؛ وما كان سيعفي المقاومة من معركة ايلول ومجزرة جرش . ويكفي تذكر تجربة الحكومة الوطنية في الاردن ١٩٥٦/ ١٩٥٧ ، لتصبح الصورة واضحة تماما .

مرة اخرى ، المطلوب من المقاومة اتخاذ موقف « اصلاحي » بدل التأكيد على ان خطأ المقاومة في الاردن كان انها لم تمض حتى النهاية في تثبيت سلطانها ونفوذها وقوتها ، مع اغتنام اللحظة المناسبة لحسم الصراع لمصلحة الجماهير الاردنية ــ الفلسطينية ، وانزال الضربة القاضية بالرجعية . او على اقل تعديل المضي في تركيز قوتها واضعاف السلطة الرجعية الى حد يجعل الاخيرة عاجزة عن ضرب المقاومة واعادة الاردن الى سيطرتها المطلقة . اما التغيير الشكلي للحكم بمعنى اقامة حكومة وطنية في ظل الدولة الرجعية فهذا المطلب ما زال متدنيا جدا بالنسبة لما حققته الثورة الفلسطينية في الاردن من تدخل فعلي باتجاه تسليح الجماهير وتنظيمها واشاعة سلطة جماهيرية مقابل السلطة الرجعية .

ويتابع الاستاذ نعيم : « ثالثا : التقليل من دور النضال السياسي .

ان الموقف الخاطىء يرفض امكانية التسوية السياسية لازمة الشرق الاوسط ، والموقف من قضية السلطة في الاردن ، قادا بالمنطق والضرورة ، الى تقليل المنظمات من دور العمل السياسي بين الجماهير ليس في الضفة الشرقية للاردن فحسب ، بل والى حد كبير في المناطق المحتلة .

ويتجسد هذا الموقف في المقولة التي كان يرددها بعض قادة هذه المنظمات « كل شيء تقرره فوهة البندقية » . وفي الحقيقة ، لم يكن هناك من واصل القيام بهذا الدور ولا سيما في الضفة الغربية غير الحزب الشيوعي الاردني ، منذ الاحتلال وحتى اليوم ، وبشكل مستمر ومنظم » .

على الرغم من ان حركة المقاومة لم تعط النضال السياسي الاهمية الكافية الضرورية الا ان من الضروري الانتباه الى ان هنالك اختلافا جوهريا بين الحديث عن اهمية النضال السياسي في حرب الشعب وبين حديث الاستاذ نعيم عن « التقليل من دور النضال السياسي » ، لانه يربط التقليل من دور النضال السياسي بمسألة الموقف من التسوية السياسية ، وقرار مجلس الامن ، اي انه يفهم النضال السياسي في الثورة الفلسطينية انه نضال باتجاه قرار مجلس الامن ، في حين ان النضال السياسي ليس وقفا على شعارات التسوية وقرار مجلس الامن ، **لان اهمية النضال السياسي قانون موضوعي لكل ثورة شعبية وعمل مسلح جماهيري** . ومن هنا فان نقد الاستاذ نعيم حول تقليل المقاومة من دور النضال السياسي ينطلق من ارضية مرفوضة تماما . كما لا يمكن اعتبار

النضال السياسي الـــذي اقتصر عليه نشاط بعض الشيوعيين في الاراضي المحتلة هو الذي عوض عن هذا النقص لان اي نضال سياسي في ظل ثورة مسلحة لا يعمل باتجـــاه فوهة البندقية ولا يقيم الترابط العضوي بينه وبين البندقية هـــو نضال قد ضل سواء السبيل تماما . ثم ما معنى الغمز من شعار « كل شيء تقرره فوهة البندقية » اوليست هذه الموضوعة من الموضوعات المـــاركسية اللينينية الاساسية ؟ نعم « كل شيء تقرره فوهة البندقية » هـــذه موضوعة صحيحة وهي لا تتعارض مطلقا مـــع اهمية النضال السياسي بل هي تحتم النضال السياسي من أجل جعل فوهة البندقية ملايين الفوهات ومن اجل جعل بندقية الشعب هي التي تقرر كل شيء لا بندقية الاعـــداء . كما انها لا تتعارض مطلقا بل توجب ان تكون فوهة البندقية تحت قيادة السياسة التي لا تستطيع ان تعبر عن نفسها ، في نهاية المطاف ، بغير فوهة البندقية ، أو ليست الحرب استمرارا للسياسة بوسائل أخرى ؟

اما الخطأ الرابع الذي يسجله الاستاذ نعيم على حـــركة المقاومة فهو : « موقف التمييز الذي اتخذته قيادة حركة المقاومة من الحزب الشيوعي الاردني ، وخاصة قبل ايلـــول (سبتمبر) ١٩٧٠ ، بدعوى قبول هذا الحزب لقـــرار مجلس الامن لعام ١٩٦٧ ، وعدم استبعاده احتمال التسوية السياسية للازمـــة ، وتخلفه بعض الوقت عن الانضمام الى العمل المسلح . وقد ادى موقف التمييز الشاذ هذا ضد الحزب الشيوعي الاردني الى : (١) حرمان حركة المقاومة من قدرات وخبرات هذا الحزب الفنية »... (٢) « ان موقف التمييز هذا من الحزب الشيوعي الاردني قد شجع الرجعية الضالعة مـــع الاستعمار الامريكي للاستفادة من هذا الموقف ... »

يلاحظ هنا : (١) ان مسألة الاختلاف الجوهري ، او عـــلى الاصح ، الاختـــلاف حول الاهداف وحول الاستراتيجية والتكتيك ، يجب الا يعكس نفسه على العلاقة بين المقاومة والحزب الشيوعي . (٢) ان مسألـــة التمييز ، اذا صح التعبير ، تبدو كأنها عبارة عن مزاج وليست نابعة من اختـــلاف في المواقف ، او تبدو كأنهـــا منطلقة من عـــداء ضد الشيوعية ، وهذه مسألة لم تكن واردة لدى المقاومة ، بل عندما تشكلت قوات الانصار عرضت المقاومة قبولها كأية منظمة اخرى شريطة ان توافق على ميثاق منظمة التحرير ، او قل على قضية تحرير فلسطين وتصفية الكيان الصهيوني واستراتيجية وتكتيك حرب الشعب طويلة الامد . ثم (٣) يبدو كأن الذي يتحمـــل مسؤولية عزلة الحزب الشيوعي الاردني عن حركة المقاومة هو حركة المقاومة وليس العكس . أما بالنسبة لقضية حرمان حركة المقاومة من قدرات وخبرات هـــذا الحزب الفنية ، فهذا صحيح تماما لو ان هذا الحزب كـــان سيضع تلـــك الخبرات والقدرات باتجـــاه اهـــداف الثورة الفلسطينية واستراتيجيتها وتكتيكها . ولكن لا قيمة لاية قدرة وخبرة اذا كانت تتبنـــى خطا سياسيا خاطئا . وهنا ايضا ان مسؤولية حرمان المقاومة من قـــدرات كوادر الحزب الشيوعي وخبراته تقع على عاتق قيادة الحزب وليس على المقاومة .

يتبقى حول هذه النقطة القسم المتعلق بتشجيع الرجعية الضالعة مع الاستعمار الامريكي فهذه قضية لا علاقة للمقاومة بها، ما دام الحزب قد وضع نفسه في موقف تفيد منه القوى الرجعية الضالعة مع الاستعمار الامريكي . مع ان مثل هذه الموجة من العداء ، لم تثرها الرجعية الاردنية ــ للاسف ــ ضد الشيوعية في فترة وجود المقاومة بل حرمت هـــذا الحزب من مثل هذا الشرف . اما اذا كان المقصود حوادث وقعت في الخفاء داخل جيش التحرير ، فان اجراءات التقتيل والتعذيب مرفوضة ومدانة من قبـــل المقاومة ، على ان نتذكر ان بعض قيادات جيش التحرير كانت ايضا ، في المقابل ، وفي كثير من الحالات ، تقدم كل التسهيلات للحزب الشيوعي ، ومن وراء ظهر المقاومة ، وتضطهـــد عناصر من المنظمات الاخرى في المقاومة .

ثمة قضية اخرى يقع فيها الاستاذ نعيم الاشهب بتناقض شديد فهو من ناحية يعتبر خط الحزب الشيوعي صحيحا ومواقفه صحيحة وهو من ناحية ثانية يقول « حقا ، لقد تأخر حزبنا،بعض الوقت، في الانضمام الى حركة المقاومة المسلحة، وكان ذلك تحت تأثير بعض العوامل ، اهمها وجود كتلة يمينية في قيادة الحزب ، كانت برغم اقرارها في جميع وثائق الحزب ومطبوعاته التي صدرت منذ حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، بشرعية ممارسة جميع اشكال النضال ، بما فيها النضال المسلح ، لتصفية آثار العدوان ، فانها من الناحية العملية ، وكما اكد سير الاحداث اللاحق ، لا تؤمن بامكانية ممارسة هذا الشكل من النضال ضد الاحتلال وبالتالي تعلق آمالها ، عمليا ، على مساومات وتنازلات تجريها السلطات الاردنية مع الاستعمار الاميركي واسرائيل » . الان ، اذا تذكرنا ان هذه الكتلة كانت قائدة الحزب والمسيطرة تماما على كل كبيرة وصغيرة فيه ، الا يعني هذا ان الاستاذ نعيم الاشهب قد وضع ، بنفسه ، النقاط على الحروف حول خط الحزب بالفترة الممتدة من يونيو ١٩٦٧ حتى قبيل أيلول ١٩٧٠ . فما معنى كل التغني بصحة خط الحزب وباتهام المقاومة بالتمييز ضده ؟!. كان يجب على الاستاذ نعيم ان يتحدث عن تلك القيادة ودورها في الانحراف بالحزب وخطه السياسي والعملي . ولكن يبدو ان النقد الموجه الى تلك القيادة لا ينبع من نقاط اختلاف جذرية ؛ ما دام الطرف الاخر مسلما بتسعين بالمئة من الموضوعات التي ربت تلك القيادة الحزب عليها ابتداء من الموقف من الموضوعات الاساسية المختلف عليها في الحركة الشيوعية ، ومرورا بالموقف من مسائل الثورة العربية ، والوضع في الاردن ، وانتهاء بقضية فلسطين . ويبدو ان الخلاف محصور بمسألة هل يستخدم شكل الكفاح المسلح كأحد الاشكال في ازالة اثار العدوان أم لا يستخدم ، وهذه قضية تظل فرعية وغير مبدئية اذا كان هنالك اتفاق حول جميع القضايا الاساسية الاخرى وحول الخط السياسي الرئيسي . وهذا ما يجعل الانقسام الذي حدث في داخل الحزب الشيوعي الاردني غير مفهوم ما دام لم يمس القضايا المبدئية الرئيسية سواء على النطاق العالمي ، او النطاق المحلي الاردني ، او على النطاق الفلسطيني . ولعل هذا هو السبب الذي يجعل الاستاذ نعيم ينتقد الكتلة اليمينية ويدافع في الوقت نفسه عن خط الحزب خلال قيادتها ، ويتبنى جوهر موضوعاتها بل ربما كانت تلك القيادة اكثر « منطقية » مع نفسها وجوهر موضوعاتها حين ترفض التكتكة في مسائل حمل السلاح ، وتربط تكتيكها باستراتيجيتها القائمة على عقد الامال ، عمليا ، « على مساومات وتنازلات تجريها السلطات الاردنية مع الاستعمار الاميركي واسرائيل » .

اذا كان كل ما تقدم قد حدد لماذا نرفض الموضوعات التي طرحها الاستاذ نعيم الاشهب في مقالته « في سبيل التغلب على الازمة في حركة المقاومة الفلسطينية » ، فان الاطالة لا تعود ضرورية لمناقشة النقاط التي يثيرها حول « بعض الاخطاء والنواقص في التنظيم والنشاط العملي » لانها نقاط لا جديد فيها ، عولجت منذ زمن في مناقشات دارت داخل صفوف المقاومة ، ولكن ضمن وضعها في اطار مختلف عن الاطار الذي يضعها به الاستاذ نعيم الاشهب ، الاختلاف نابع من الاختلاف حول الخط السياسي .. حول الاهداف حول الاستراتيجية والتكتيك . هذا الاختلاف الذي لا بد من ان ينتقل الى مسائل التنظيم والنشاط العملي وطريقة معالجة سائر الاخطاء والنواقص . اي ان مناقشة قضايا التنظيم والنشاط العملي لا بد من ان ترتبط ارتباطا عضويا بالخط السياسي ، بالهدف الاستراتيجي ، بالاستراتيجية والتكتيك . ومن هنا فان نقد « بعض الاخطاء والنواقص في التنظيم والنشاط العملي » لا يجوز ان يعالج الا ضمن اطار التحرير الكامل لارض فلسطين واستراتيجية حرب الشعب طويلة الامد وتكتيكها ، وهذا عكس ما فعله الاستاذ نعيم الاشهب .

العبرانيون الســـود

عبد الحفيظ محارب

من بين ظواهر التمييز التي أخذت تتكشف وسط المجتمع الاسرائيلي وتبرز بشكل حاد ظاهرة « العبرانيين السود » التي تعبر بشكل واضح عن التمييز العنصري في اسرائيل. ولعل هذه الظاهرة قد فاقت برائحتها العنصرية كافة ظواهر التمييز العرقي والطائفي التي تبرز بين الفينة والاخرى بين الفئات المختلفة التي تشكل لبنة المجتمع الاسرائيلي. فهي تمتاز عن ظواهر التمييز العنصري التي تلف بعض فئـــات المجتمـــع الاسرائيلـــي وشرائحه بعامل رئيسي يتمثل في لون بشرة « العبرانيين الســـود » ، بينمـــا أسبـــاب الظواهر الاخرى تكمن في عدة عوامل من أهمها العامل الحضاري والاقتصادي والاثني والتاريخي. كمـــا وتختلف ذيول وانعكاسات ظاهـــرة العبرانيين السود عـــن ذيول وانعكاسات ظواهر التمييز التي تعاني منها بعض الفئات في اسرائيل. ففي حين نرى ان ظاهرة التمييز التي يعاني منها أبناء الطوائف الشرقية تنعكس على المجتمع الاسرائيلي وعلى مجمل العلاقات بين الاشكناز والاسفارادیم ضمن الاطار اليهودي في العالم ، نرى ان ظاهرة التمييز الموجهة ضد العبرانيين السود تنعكس بشكل رئيسي علـــى العلاقات الاسرائيلية الافريقية وبشكل أعم على العلاقات الاسرائيلية مع الملونين في أنحاء العالم. وهنالك شيء آخر لا بد من الاشارة اليه قبل التعمق في دراسة العبرانيين السود ، وهو وجه الشبه الكبير بين طلائع المهاجرين اليهود البيض في الربع الاخير من القرن التاسع عشر الذين قدموا الى فلسطين بحجة ان الرب قد منحها لهم ، وبين العبرانيين السود الذين قدموا الى فلسطين عند بداية الربع الاخير من القرن العشرين بحجة ان الاله قد منحها لهم أيضا !

من هم العبرانيون السود ؟

قدمت الى اسرائيل خلال الاعوام الثلاثـــة الماضية بضعـــة مجموعات من اليهـــود الافروامیرکان حسب قانون العودة لعام ١٩٥٠ الذي يمنح كل يهودي الحق في الهجرة و « العودة » الى اسرائيل. وقد تشكلت المجموعة الاولى من ٢٨ شخصا مـــن مواليد شيكاغو في الولايات المتحدة وصلت الى مطار اللد في النصف الثاني من شهر ديسمبر ١٩٦٩ ، بعد أن مكثت في ليبريا ثلاث سنوات. وكان قد سبق مجيء هذه المجموعة قدوم بضعة أفراد من أبناء الطائفة بموجب قانون العودة ، واستوعبوا في كيبوتس ديني. ثم أعقبت الموجة الاولى من هؤلاء المهاجرين موجة ثانيـــة وثالثة ، الا أن دائرة الهجـــرة والاستيعاب الاسرائيلية وضعت العراقيل امامهم ولم تعتن بهم ، ومن هنا بدأت تبرز قضية « العبرانيين السود » التي بلغت ذروتها عندما اتخذت السلطات الاسرائيلية قرارا بطرد بعض المجموعات العبرية السوداء ، ومنع مجموعات أخرى مـــن الوصول الى اسرائيل. وكان الدافع وراء هذا القرار تخوف السلطات الاسرائيلية من تزايد عـــدد العبرانيين السود ، الامر الذي من شأنه أن يخلق مشاكل عنصرية في المجتمع الجديد المليء بالتناقضات الطائفية والاجتماعية ، ويؤدي بالتالي الى ترجيح كفة السلبيات على

كفة الايجابيات التي كانت تتوخاها اسرائيل من استقبال عدد ضئيل من اليهود الملونين لخدمة أغراضها الدعاوية .

استوطن العبرانيون السود مدينة ديموناه ومتسبيه ريمون وعــراد في النقب الا ان تجمعهم الرئيسي يقع في « ضاحية النصر » في ديموناه ، كما وتوجهت عائلات عبرانية سوداء الى مدينة أريحا وسكنت بين اهلها العرب ، ومـــن خلال المقارنة بين معاملة الملونين في ديموناه اليهودية ومعاملتهم في أريحا العربية يتسنى لنـــا الوقوف على مدى التعصب العنصري أو التسامح الانساني لدى المجتمعين الاسرائيلي والعربي ، وسنقف على هذا الموضوع في مكان آخر من هذا المقال .

يعود تاريخ العبرانيين السود الى عام ١٩١٥ عندما بدأت فئات قليلة من زنوج اميركا المتحدرين من أصل أفريقي يعتنقون الديانة اليهودية ، حيث انضم المتهودون منهم تحت زعامة بحار أسود من الولايات الجنوبية في أميركا ، كان قـــد ادعى ان الله ظهر له في الحلم اثناء رحلاته الى أرض الوطن وبشره بالنبوة ثم عاد الى أميركا وأسس « كنيسة الله » مثلما عرفت في فيلادلفيا . واستطاع مـــن خلال اطلاعه على اللغتين العبـــرية والييدشية اقتطاف فقرات من التلمود مما كان له وقع كبير على نفوس اتباعه(١)، الذين يعتقدون بأنهم في الحقيقة يتحدرون من اليهود الاثيوبيين أو الفلاشا . ويبلغ عدد أفراد هذه الطائفة بضعة آلاف يتركزون في ضاحيتي هــــارلم وبروكلين في نيويورك وكذلك في مدينة شيكاغو . ومن الجدير بالذكر ان أبناء طائفة العبرانيين السود يعرفون في الولايات المتحدة بهذا الاسم او باسم « اليهود السود » اما في اسرائيل فقد تعددت الاسماء التي تلصق بهم ، فبالاضافة الى الاسمين آنفي الذكر يعرفون أيضا بـــ «الاسرائيليين السود»، مع تحاشي المصادر الاسرائيلية في بعض الاحيان من ذكر اسم « اليهود السود » . أما أبناء الطائفة فقد أصبحوا في اسرائيل يتمسكـــون بشكل ملحوظ باسم « العبرانيـــين الاسرائيليين » دون ذكر كلمة اليهود بقدر الامكان كرد فعل على ما يلاقونه من « اليهود البيض » .

أخذ وضع « العبرانيين السود » في ديموناه يسير من سيء الى اسوأ بعد وصول اعداد من أبناء الطائفة لم تعترف سلطات الهجرة والاستيعاب الاسرائيلية بهـــم ولم تزودهم ببطاقة مهاجر ، كما وأغلقت مجالات العمل والسكن امامهم ، ولم يبق أمامهم الا الالتجاء الى ابناء جلدتهم في ضاحية النصر في ديموناه ليتقاسموا معهم منازلهم وطعامهم . ومن الجدير بالذكر ان مجموعة ديموناه الاولى استقبلت « اخوتهم العائدين الى أرض الآباء والاجداد بالقرع على الطبول والرقص على أنغام القيثارة » . بيد أن القيود التي فرضت عليهم من قبل السلطات الاسرائيلية ، وشبه المقاطعة التي واجهوها مـــن قبل سكان ديموناه ، بالاضافة الى الوضع السكني حيث حشر ما ينوف على المئتي شخص في ١٢ شقة فقط ، قد جعل حياة ابناء هذه الطائفة لا تطاق الامر الذي دفعهم للقيام « بعملية غزو » في وضح النهار لحانوت كبير في ديموناه حين دخلت مجموعات من النساء والرجال السود الى الحانوت وتناولت منه الاغراض التي تحتاجها دون ان تقوم بدفع ثمنها ، بغرض دفع السلطات الاسرائيلية الى ايجاد حل لقضيتهم ، الا أن قوات الشرطة هرعت الى الحانوت ، وانسحب اليهود السود من الدكان . وقد ارتأى قسم مـــن العبرانيين السود أن خير طريقة للخروج من الطوق العنصري المفروض عليهم في ضاحية النصر بديموناه الخروج من المدينة ، وأقامة مستوطنة لهم في النقب ، وبالفعل توجهت مجموعة الى أحد الاماكن في النقب وانهمكت في بنـــاء براكيات ، الا أن قوات الامن كانت لهم بالمرصاد ، وحالت دون بروز مستوطنتهم العتيدة .

عند ذلك أخذت روح العنصرية تفوح وتشتد في ديموناه ، فقد توجـــه أهالي « ضاحية

النصر » بعريضة الى السلطات الاسرائيلية يطالبون فيها « بايجاد حل فوري للمشكلة التي برزت في الضاحية في أعقاب اسكان السود مهاجري ليبريا بين ظهرانينا » . وبعد أن تطرقت العريضة الى حالة الضوضاء والصخب التي يحدثها الجيران السود « طيلة الليل » وانعكاسات هذه الحالة على السكان البيض تطرقت الى حالة الخوف التي تعتري قسما كبيرا من النساء « اللواتي يتخوفن من البقاء وحدهن . وتأخذ المشكلة بالاشتداد مع خروج الزوج للالتحاق في سلك الخدمة الاحتياطية » واختتمت العريضة بقولها « في ضوء ما تقدم نتوجه في هذه العريضة ونطالب كل مؤسسة مسؤولة عن هذا الوضع ، بتمكيننا من العيش في بيوتنا دونما خوف او شغب ، وأن لا نرغم على العيش في حياة شبيهة بالحي اليهودي في نيويورك ، حيث لا يخرج الانسان من بيته ابتداء من ساعات المساء وحتى ساعات الصباح خوفا على حياته »(٢).

ومع تصاعد الكراهية للسود ، المشفوعة بنمو العنصرية ، تحرك رئيس بلدية ديمونا مطالبا السلطات المختصة بايجاد حل لحالة الخوف الناجمة عن قدوم العبرانيين السود « الذين عكروا صفو المدينة » اما بطردهم من البلاد أو على الاقل بنقلهم من ديمونا . وقد احتاط رئيس البلدية ، نتيجة الخوف على نفسه ، ووضع حارسا على باب منزله ، تحسبا من وقوع حادث له على يد اليهود السود . ومن الجدير بالذكر ان كلمة الخوف أو الرعب تتردد كثيرا على السنة اليهود البيض عندما يتحدثون عن اليهود السود بالرغم من أن اليهود السود لم يرتكبوا جريمة ضد أحد من البيض . والحقيقة أن حالة الخوف هذه حالة ذهنية مبنية على أفكار سابقة مشوشة تغذيها وتلهبها روح العنصرية ، وهي شبيهة الى حد كبير بحالة الخوف من الظلام او الليل ، فرئيس البلدية « يخاف منهم » كما ان قسما كبيرا من النساء يخفن منهم وهنالك مهاجر جديد من الارجنتين يخاف منهم : « انني أخاف منهم . لقد نقلت أختي من المدرسة التي يتعلم بها أبناؤهم . انها على قسط وافر من الجمال وأخاف عليها . لقد سبق لي أن عرفتهم خارج البلاد »(٣). ووصفت احدى النساء حالة الخوف بقولها : « انهم يخيفون أطفالنا ويصرخون على الجميع ... كل الجيران يغلقون أبواب منازلهم بشكل جيد ، لدرجة ان أحد الجيران احاط منزله بسياج قوي ... » ، ثم قدمت اقتراحا فريدا من نوعه ؛ يبعد عنها شبح الخوف من اليهود السود ، ويزيل عنها حالة الخوف من الفدائيين العرب في آن واحد « انني لا أريد طردهم من البلاد ، بل منحهم مكانا يستوطنون فيه . انني اقترح توطينهم بالقرب من الحدود لانني على ثقة بأن العرب سيخافون منهم ، ولن يجرأوا على اجتياز الحدود ولو لمرة واحدة »(٤). اما سكرتير مجلس عمال ديمونا « يهودا يافث » ، ضابط سابق في الجيش الاسرائيلي ، فقد عبر عن خوفه منهم بانكاره بأنه يخاف : « انني لا أخاف منهم ولم أخف حتى من العرب عندما قاتلتهم . لقد كنت ضابطا في الجيش الاسرائيلي ، انني لست خائفا لكي أطلب حراسة الشرطة (مثل رئيس البلدية) بيد ان الوضع على جانب كبير من الخطورة . ستحدث هنا عملية قتل أو كارثة أخرى . ان هؤلاء السود يتضورون جوعا وعندما يشعر الانسان بالجوع عند ذلك ... »(٥).

بالاضافة الى حالة الخوف الناجمة عن افكار سابقة تجاه الانسان الملون ، أخذت تبرز في ديمونا اتهامات وادعاءات ضد الجالية السوداء ، وقد وجدت مكانا بارزا لها في وسائل الاعلام الاسرائيلية سواء في الصحافة او الاذاعة والتلفزيون . وتدور الادعاءات حول أعمال الشغب والضوضاء التي يحدثها العبرانيون السود طيلة النهار والليل ، وحول « أصوات الطبول وانغام القيثارة التي لا تعرف النوم » الامر الذي يؤثر على راحة الجيران . وتتطرق الادعاءات ايضا وبأسفاف الى اعمال السرقة والسطو التي يقوم بها أبناء الجالية السوداء في ديمونا ، فهنالك صاحب حانوت يشكو من انهم سرقوا بعض المأكولات ، وثمة حلاق يشكو من ان الاطفال السود القوا بالحجارة على واجهة محله

وحطموها ، وهنالك كثير من النسوة يدعين بأن « الثياب التي تنشر في الهواء ، وتسقط ، لا تعود » . غير ان أي واحد من هؤلاء لم يتقدم دعوى الى الشرطة ضد « اللصوص السود » خوفا من الانتقام ! ويصف ضابط اسرائيلي يسكن في « ضاحية النصر » أعمال السرقة والجو السائد في ديموناه بقوله: «انهم يذهبون الى الحانوت على شكل جماعات، يقوم واحد منهم بمشاغلة صاحب الحانوت ، وينهمك الآخرون بالسرقة . ان الجو في الضاحية على جانب كبير من التوتر . لقد هجرت بعض العائلات الضاحية بسببهم ، وأصبح من المستحيل تأهيل الشقق الخالية لانه لا يوجد هنالك من يريد ان يسكن معهم في الضاحية . يوجد بينهم نساء مع أولاد وبدون أزواج . ان أولادهم يشكلون قدوة سيئة لأولادنا »(٦).

ومن الجدير بالذكر ـــ بمناسبة الحديث عن القدوة السيئة لاولادنا (اي أولاد البيض) ـــ انه لم يرد ذكر اية حادثة اعتداء من قبل أطفال السود ضد أطفال البيض وكان سببها السود ، فالحوادث التي تقع عادة بين الاطفال يكون وراءها أطفـــال البيض ، فخلال عشية عيد المساخر عند اليهود ، أخذ أطفال البيض يلاحقون الاطفال السود ويصرخون في وجوههم « أسود قذر » مما أدى الى وقوع شجار بين الطرفين . وكافة الحوادث التي تقع بين الاطفال تعقب عادة صرخة « زنجي قذر » . ومع ذلك فقد أبرزت وسائل الاعلام الاسرائيلية الجانب السلبي الذي ينعكس على أطفال البيض من جراء معاشرتهم للسود بشكل آخر ذكي ، كما جاء على لسان الطفل دادو حداد الذي يلعب في بعض الاحيان مع الاطفال السود في الملعب المشترك : « صحيح انهم يتسببون في صخب فظيع خلال الليل ، يغنون ويرقصون ، الا أن ذلك يجذبني للتطلع اليهم من خلال النافذة ، وبعد ذلك وخلال النهار لا استطيع تركيز أفكاري في المدرسة ، الامر الذي يجعـــل المعلمة تغضب علي »(٧).

الى جانب الادعاءات من قبل البيض ضد السود التي تلصق بهم اعمال سطو وسرقة وأحداث شغب وصخب ، أخذ البعض من سكان ديموناه يفكر بالرحيل من المدينة ، بعيدا عن السود وعن مشاكل المستقبل للمدينة اذا لم تقم الحكومة بايجاد حل . يقول احـــد السكان بعد ان رفض أن يفصح عن اسمه خوفا من الانتقام ! « لا يهمني اذا كان هؤلاء يهودا أم لا . ان هذه المسألة تهم الدولة ، بيد أن الذي يهمني مستقبل الضاحية وهـــذا المكان ، وخاصة كيف تتطور الامور . انني اريد ان أعيش في هدوء وأمن . لـــدي امرأة وأطفال وأخشى أن يصيبهم مكروه . لقد دفعت مقابل حصولي على الشقة ٤٠ ألف ليرة وأريد أن تحافظ على قيمتها ، فاذا لم يطرأ تغيير على الوضع الراهن سيكون مـــن المشكوك فيه أن أنجح في بيعها او انجح في البقاء هنا . انني لا أرى آمالا كثيرة »(٨).

وازاء هؤلاء المتذمرين الذين يشكون استعطافا ، هنالك من يتحدثون بعنف ، ويهددون باستخدام القوة ضد القادمين السود ، وخاصة من بين عناصر الشباب مثل دافيد ابو طبول البالغ من العمر ٢٦ عاما من سكان الضاحية : « لقد ابلغنا هذا الاسبوع البلدية بأنها اذا لم تعالج هؤلاء السود القذرين فاننا سنأخذ القانون بأيدينا »(٩).

وخلال ذلك ، ووسط رائحة العنصرية والطائفية أخذ البعض يهجر المدينة مثل « يحزقيل كوهين » يعمل في سلك التعليم ، الذي مس كبد الحقيقة عندما تحدث عن الوضع السائد في ديموناه ، والناجم عن اللبنة الطائفية المجبول بها مجتمع المهاجرين والمستوطنين في اسرائيل : « باستطاعتكم نشر اسمي لان الامر لا يهمني الآن ، لقد كنت مديرا لاحدى المدارس هنا ، كما وكانت امرأتي معلمة . وقد اضطررنا للهجرة من ديموناه بســـبب التمييز الطائفي. لماذا ؟ لانني (فوزفوز) اشكنازي. نعم هكذا هو الواقع، ٦٠ ٪ من سكان المدينة من مهاجري شمال افريقيا و ٢٠ ٪ من مهاجري الهند، ويمثل النسبة الباقية أبناء

الطوائف الاخرى. ويحس المرء هنا بالتوتر الطائفي الذي يملأ الجو، فليس من المستغرب ان انغلق السود في جيتو خاص بهم . **انهم لا يريدونهم لانهم سود** ، كما انهم لا يريدونني لانني اشكنازي . لماذا لا يسلمونهم منازل ؟ لماذا يؤدون بهم الى حالة الجوع ؟ هنالك مساكن كثيرة في ديموناه تكفي الجميع »(١٠).

قبل التطرق الى الجانب الاخر من مشكلة « العبرانيين السود » والى الوقوف على وجهة نظرهم تجاه القضايا التي تهمهم ، لا بد من الوقوف قليلا حول اوضاع اخوانهم في متسبيه ريمون ، المكان الثاني لتجمعهم ، لاستكمال صورة نظرة اليهود البيض تجاههم .

ان المعلومات حول ابناء الطائفة العبرانية في متسبيه ريمون وعراد قليلة وغير كاملة ، بسبب قلة عددهم في هذين المكانين ، واشتداد أزمة ابنـــاء الطائفة في ديموناه لدرجة أصبحت معها قضايا الملونين في متسبيه ريمون وعراد ثانوية . ويستدل من المعلومات المتناثرة والمبتورة حولهم ان الادعاءات نفسها التي وجهت ضد أبناء جلدتهم في ديموناه قد وجهت ضدهم ولو بشكل مخفف . يقول رئيس مجلس متسبيه « تسفي حزان » : « قبل نصف عام توجه الي موظف كبير يعمل في وزارة الاسكان واقترح استيعاب ١١ عائلة سوداء بسبب افتقار معاملنا الى الايدي العاملة . لقد كانت تلك بمثابة المرحلة الاولى والاخيرة . ان هذه المجموعة منغلقة على نفسها ، قسم من افرادها يعمل ، وقسم آخر منهمك بأعمال مختلفة مثل صناعة ادوات الزينة والاحزمة الجلدية . ويشكو السكان من الصخب والضوضاء كما ويشكون من ان كل شيء ينشر في الهواء على الحبال ، ويسقط في الساحة ، لا يعود أبدا . ان ذلك أمر غير مستحب . بالاضافة الى ذلك ، لا يدفعون الضرائب بشكل منتظم ، كما ويتأخرون في دفع اقساط اجرة المنازل »(١١).

مع وصول المجموعة الاولى الى ديموناه ، فوجيء أفرادها عندمـــا أرسلت السلطات الاسرائيلية اليهم الحاخام « درعي » من اجل تهويدهم ، ذلك انهم اعتقدوا ان لا حاجة الى تهويدهم ، باعتبار انهم من ابناء طائفة « اليهود السود » او « العبرانيين السود » في الولايات المتحدة ، وقد قدموا الى اسرائيل بموجب قانون العودة عام ١٩٥٠ ، ولذا رفضوا الفكرة من اساسها ، وعاد الحاخام درعي صفر اليديـــن . الا ان السلطات الاسرائيلية عادت وأرسلت اليهم المدير العام لوزارة الاستيعاب في ذلك الوقت الزعيم (احتياطي) يوسف جبيع في محاولة لتهويدهم ، وعندما رفض هؤلاء الفكرة هددهم جبيع بأنهم اذا لم يتهودوا سيحرمون من الحقوق التي يتمتع بها المهاجرون الجدد، كما وستغلق ابواب العمل أمامهم . قد يبدو للوهلة الاولى انه من الغريب ان تأتي محاولات التهويد بعد مدة من وصول ابناء الجالية الى ديموناه ووفق قانون العودة الاسرائيلي ، الا ان وجه الغرابة يزول اذا علمنا ان السلطات الاسرائيلية كانت تتصور ان الهجرة ستقتصر على هذه المجموعة الصغيرة التي يمكن استخدامها لاغراض دعائية ، فضلا عـــن انه أتضح لها ان المجتمع الاسرائيلي يرفض ان يكون بين صفوفه عناصر اثنية غريبة عنه خاصة اذا كانت هذه العناصر سوداء اللون .

ومن الجدير بالذكر هنا ان مجيء العبرانيين السود الى اسرائيل رافق الضجة الحادة التي حدثت بسبب القضية المشهورة للرائد بنيامين شليط حول من هو اليهودي ؟ وعندما عرضت قضية اليهود السود على حاييم شبيرا (من الحزب الوطني المتـــدين) وزير الداخلية في ذلك الوقت قال بتهكم « هذا ما ينقصني الان ! » .

عند تمسك العبرانيين السود بموقفهم اخذت وسائل الاعـــلام الاسرائيلية تشكك في يهوديتهم مدعية ان قسما منهم غير مختون ، وانهم بعيدون كل البعد عن الدين اليهودي ، ولا يصلون في كنيس ، وزادت على ذلك بأن ذكرت ان احد زعمائهم ويدعى « بن عامي

كارتر » شوهد وهو يخرج من احد مساجد القدس ، وعندما سئل عـن سبب دخوله المسجد أجاب بتلعثم بأنه يتاجر بالبسط .

وقبل التطرق الى معتقدات العبرانيين السود لا بد من الاشارة الى أن مفاهيمهم الدينية، وخاصة الزعماء منهم ، قد تطورت على اثر اصطدامهم بالواقـع العنصري للمجتمع الاسرائيلي ، ففي حين كان أفراد الطائفة يعتبرون في الولايات المتحدة فئة يهودية بالرغم من مفاهيمهم الخاصة والمشوشة عن اليهودية ، أصبح قسم كبير منهم يبتعدون عـن المفاهيم اليهودية الارثوذكسية، وينكرون بأنهم يهود، ويبلورون مفاهيم جديدة «للعبرانيين الاسرائيليين » كردة فعل للتمييز الذي لاقوه . ومع ذلك يجمع كافة افراد الطائفة على ان التوراة هي كتابهم المقدس وما عدا ذلك فهو بمثابة بدع . كما ان لهم مفاهيم خاصة تجاه انبياء اليهود مثل ابراهيم واسحاق ويعقوب ، فجميع هؤلاء سود وليسوا بيضا ، كما ان الله نفسه أسود وليس أبيض .

ويحدثنا احد زعمائهم في ديموناه « جبرائيل كتان » عن معتقداتهم قائـلا : « اننا لسنـا يهودا ، ولسنا على أستعداد لان نصبح يهودا . نحن عبرانيون اسرائيليون نؤمن باننـا من ذرية ابراهيم واسحاق ويعقوب . انتم تسمون باليهود لانكم من سبط يهودا ، بينما نحن واثقون اننا نتحدر من بقية اسباط اسرائيل ، ولذلك فان هـذه الارض لنا ، وليس هنالك داع لنصبح يهودا . اننا اسرائيليون اكثر من عدد كبير من اليهود الذين هاجـروا الى هنا وتلقوا كل شيء من الحكومة . ان الحكومة لا تريدنا لاننا لا نريد ان نتهود ، وقد اوضحنا للحاخام درعي ان لا حاجة لتهويدنا لكوننا عبرانيين اسرائيليين ، واذا لم نتلـق المساعدة من الحكومة فان الرب لن ينسانا وسيمدنا بيد المعونة »(١٢). ومن الملاحظ هنا ان جبرائيل كتان حاول ان يفرغ كلمة « يهود » من المعنى الديني ، الكامن بها ، ويضفي عليها معنى السبط او الامـة ، لكي يماثلها بالمعنى الكامـن وراء كلمـة « العبرانيين الاسرائيليين » التي أضفى عليها معنى الامة .

اما زميله « يحزقيل بن يسرائيل » من سكان ديموناه فيعترف بالمعنى الديني الكامن وراء كلمة يهود ، الا انه لا يتقبله : « ان مفهوم يهودي غير مقبول لدينا ، فكلمة يهودي مفهوم ديني ، اما العبرانيون الاسرائيليون فانه اسم امتنا . لقد كان العبرانيون الاوائل سودا . اننا نطالب بالحصول على قطعة ارض لكي نعبد الخالق عليها » ويضيف بتحد كرد فعل على الادعاءات التي تنشر ضدهم : انتم اليهود لن تقولوا لنا من نحن . لقد قالها لنا الرجل الابيض في الولايات المتـحدة . . . هنالك توتر وكبت في الجو ، وسـيأتي الكثـيرون في اعقابنا »(١٣). ومع ذلك فهنالك قسم منهم يعتبر نفسه يهوديا وخاصة من بين الاشخاص العاديين من ابناء الطائفة مثل المدعو « ايوان » . « طبعا انا يهودي ، ولدت في اميركـا كيهودي ، وهكذا . كنت دائما مثل أبوي واخوتي الاربعة » .

ويمكن القول ان طائفة العبرانيين الاسرائيليين تعتبر من الناحية الدينية طائفة يهودية ، الا انها ازاء واقع التمييز الجديد في المجتمع الجديد ، حاولت ان تضفي مفاهيم جديدة على معتقداتها اليهودية .

وفيما يتعلق باداء الطقوس الدينية لافراد الطائفة ، فانهم يؤدونها بقلوبهم وفي اي مكان يرتأونه مناسبا ، فهـم لا يذهبون الى الكنيس (في اسرائيل) لاعتقـادهم بانه بمثابة حجارة ولا يمكن للانسان المؤمن ان يتشبه بعبدة الاصنام الذين يخشعون امام التماثيل المصنوعة من الحجر . يقول احد رجالهم في ديموناه ويدعى « يسـسخـار » : « اننا لا نصلي مثلكم في الكنيس لاننا نحن اليهود الحقيقيون . ان الكنيس بمثابة مبنى . ان داوود الملك اراد أن يبني بيتا للرب بيد ان الرب لم يسمح له بذلك . . . ليس هنالك داع لاثبت لاولئك الذين يصلون امام حائط من حجر بأنني يهودي ، انهم لا يستطيعون ان يقولوا لي

من أنا ، ان الذي يصلي امام حائط يعتبر من عبدة الاصنام ، كما انه من غير المستحسن ان يراك شخص ما وانت تصلي ، ان الامر الوحيد الذي نعمله سوية هو ان نتجمع ونتناول اطراف الحديث عن الدين ... »(١٤). ويستكمل « ميخائيل يسرائيل » احد رجال الطائفة في ديموناه توضيح الصورة متهما اليهود (ربما يكون كردة فعل على تهكمات الاسرائيليين عليهم) بأنهم عبدة اصنام : « انتم اليهود تصلون للحجارة ، تصلون لحجارة حائط المبكى في القدس كأنها قوة عليا . ان ذلك محرم ، والتوراة تحرمه . اننا نصلي في قلوبنا » . أما جبرائيل كتان فقد اوضح بأن الصلاة تعتبر مسألة شخصية : « ان هذه مسألة شخصية وانا لا اسألك كيف تصلي وهل انت تصلي . كل انسان يصلي في قلبه وهذا هو المهم »(١٥).

من الملاحظ في اقوال وتصريحات العبرانيين الاسرائيليين تشددهم على انهم من اسباط بني اسرائيل ، وتمسكهم « بأرض الميعاد » التي « وعد الله بمنحها لبني اسرائيل » ، وهذا الامر يغيظ الاسرائيليين ويجعل البعض منهم يوشك على « التفجر » من شدة الغيظ . وسنورد هنا حديثا بين صحفي اسرائيلي واحد العبرانيين السود ، مع الملاحظة بأن طبيعة الاسئلة والرد عليها تتسم بنوع من التحدي الناجم عن التمييز العنصري .

« س : من انت ؟

ج : بعد خمس سنوات سأقوم انا بتقديم الاسئلة وانت بدور الاجابة .

س : ماذا يحدث حينئذ ؟

ج : عند ذاك سنقيم مملكة داوود الجديدة بمشيئة الله ، اننا ملايين كثيرة ، وهذه بلدنا ، لقد كان ابراهيم واسحاق ويعقوب سودا مثلنا ، ونحن اليهود الحقيقيون .

س : من اين لك بانك يهودي حقيقي ؟

ج : ومن اين لكم الثقة باتكم يهود حقيقيون ؟ اننا يهود مثل ابائنا ابراهيم واسحاق ويعقوب . لقد باعونا للعبودية ، والان نعود الى بلادنا ولن نتحرك منها ابدا »(١٦).

اما البعض الذي يوشك على « التفجر » والاختناق من رائحة « الصهيونية الجديدة » المنبعثة من اقوال العبرانيين ، فيمثلهم يهودا يافت سكرتير مجلس عمال ديموناه الذي يطالب بترحيلهم قبل ان يستشري خطرهم : « انني اقول لك بأنني اردت ان اصفع احدهم عندما زرت بيته . لقد شعرت بانني اكاد ان انفجر تماما . لقد قال لي : خلال ستة اعوام سيتراوح عددنا في اسرائيل من مليونين الى ثلاثة ملايين ، وعند ذلك سنأتي نحن وندرس احوالكم ! لماذا لا نصدقهم ؟ انهم يفصحون عما يجول في خاطرهم . انهم يعلنون بانهم ضد قوانين الدولة ... انهم يهددوننا بأنهم سيصفون الحساب معنا مع مجيء الوقت »(١٧).

ومن المعروف ان العبرانيين السود يناضلون من اجل هجرة اخوانهم من المنفى (الولايات المتحدة) الى اسرائيل ، اسوة بهجرة يهود الشتات ، وعندما تأتي مجموعة يستقبلون « العائدين من المنفى » بالرقص على اصوات الطبول وانغام القيثارة ، وعندما تقوم اسرائيل بطرد مجموعة منهم او تحول دون وصول مجموعات اخرى يحتجون ويهددون « بأن ذلك لن يساعد سلطات اسرائيل لان جماهير غفيرة ستقتفي اثرنا ، ولن يكون بوسعكم الوقوف امامهم ... اننا سنأتي امواجا امواجا الى ارضنا » او كما يقول جبرائيل كتان : « انه من غير المستحب ان تقوم حكومتكم بمنع اخوتنا من الهجرة الى اسرائيل . ستقع هنا حرب كبيرة ، ليست حربا بالسلاح ، فنحن لا نملك السلاح ... ولكن الحرب ستقع اذا لم يقرر الرب في اللحظة الاخيرة اعادتكم الى طريق الصواب لكي تتفهموا قضيتنا »(١٨).

هنالك قضية تحاول وسائل الاعلام الاسرائيلية التركيز عليها ، وهي هجرة المجموعة

الاولى الى ليبريا ومكوثها هناك بعض الوقت قبل مجيئها الى اسرائيل اي عدم هجرتهم من الولايات المتحدة الى اسرائيل مباشرة اسوة بسائـــر اليهود ، بغرض الايحاء بـــان هجرتهم الى اسرائيل لم تأت من خلال ايمــــان مطلق او تصميـــم مسبق ، بل بفضـــل الصعوبات التي واجهتهم في ليبريا . الا ان العبرانيين السود يردون على هذا الايحــــاء وذاك التشكيك بردود تتسم في بعض الاحيان بالتحدي لما فيهـــا من وخزات للمجتمـــع الاسرائيلي مثل قولهم : « اننا عشنا في ليبريا عيشة الصحـــراء ، لكي نتعلم كيف نعاني هنا » . ويفلسف « منشيه بن يسرائيل » احد افراد الجالية قدومهم الى ليبريا ومـــن ثـــم مجيئهم الى اسرائيل بقوله : « لقد انتظرنا اكثر من ٤٠٠ عـــام لكي نصبح احرارا . اننا لا نحتاج فقط الى تحرير مادي ، بل ايضا الى تحرير روحي ، ولذا قررنا قبل المجيء الى اسرائيل المكوث في ليبريا وافريقيا في المكان الذي جلبنا منه كعبيـــد . وبعد ان طهرنـــا انفسنا هناك سمح لنا بالقدوم الى ارض الاباء »(١٩) .

يمتنـــع العبرانيون وبشكـــل ذكي عن خوض المواضيـــع السياسية التي تشغـــل بال الاسرائيليين ، ويحصرون حديثهم السياسي حول التمييز العنصري الـــذي يواجهونه سواء من قبل السلطات الاسرائيلية او المجتمع الاسرائيلي ، ويتهربون من الافصاح عن رأيهم حول القضايا السياسية الهامة او البت فيها ، ويغلفون تهربهم في بعض الاحيـــان بأمور دينية . ونلاحظ ذلك من خلال الاسئلة التي توجه اليهم واجوبتهم عليهـــا ، فحول مدى استعدادهم للانخراط في سلك الخدمـــة العسكرية في اسرائيل ، يردون بالشكـــل التالي : « لماذا هذه الاسئلة ، كيف يمكن لك ان تتفهمنا . اننـــا جوعى وانت شبعان » او « اننا لم نعد الى بلادنا لكي نطلق النار ونقاتل » وكذلك الحال بالنسبة لمصير المناطق المحتلة فانهم يتهربون من الافصاح عن رأيهم تجاهها باعتبارها قضية سياسية ، اما اذا جوبهوا باسئلة حرجة — وكثيرا ما توجه اليهم — حول مـــدى استعدادهم للـــدفاع عن « أرض الاباء » فيتهربون ويغلفون اجابتهم بأمور دينية ، ونورد هنا نموذجا من الاسئلة الحرجة والاجوبة عليها .

« س : هل انتم على استعداد للدفاع عنها (أرض الاباء) ؟

ج : نحن ضد الحروب . ان الله هو الحامي .

س : واذا ما قام العدو بهجوم واراد احداث دمار وخراب ؟

ج : انه لن يمس اناسا مثلنا . فالله يقوم بحمايتنا »(٢٠).

ذكرنا سابقا ان السلطات الاسرائيلية اخـــذت تضع العراقيل امـــام العبرانيين السود وتحول دون حصولهم على عمل يقيهم غائلة الجوع ، وتطرد البعض منهم ، وتحول دون البعض الاخر من المجيء الى اسرائيل ، كما ان المجتمـــع الاسرائيلي سواء في ديموناه او خارجها ينظر نحوهم نظرة احتقار وازدراء مشفوعة بروح عنصرية . وفي مقابل ذلـــك تشبث العبرانيون بحقهم في المجيء الى البلاد بموجب قانون العودة ، وبلوروا مفاهيـــم جديدة على معتقداتهم وطعموها بمفاهيم الامة والشعب ، والسؤال الـــذي يتبادر الى الذهن كم يبلغ عدد افراد هذه الجالية في اسرائيل ؟ وهل باستطاعة هذا العدد ان يحدث هذه الضجة ؟

للوهلة الاولى يبدو ان الشق الاول من السؤال اسهل للاجـــابة ، الا ان العكـــس هو الصحيح ، فالمعلومات الواردة في المصادر الاسرائيلية حول عددهـــم متناقضة وليست دقيقة ، ففي حين تقدر بلدية ديموناه العدد بأنه يقـــارب الـــ ٢٥٠ نجد بعض المصـــادر الاسرائيلية التي تتخوف من تكاثرهم وتطالب الحكومة بطردهم ، تبالغ في العدد وتدعي بأنه يناهـــز الالف ، وبعض المصادر الاخرى تـــدعي بتهكم انه يعـــادل الالفين من حيث الصخب والضوضاء ! بينما يدعي بعض الاسرائيليين المتذمرين منهم ومن تعذر وجود حل جذري وسريع لطردهم بأن الله فقط هو الذي يعرف عددهم ! امـــا العبرانيون السود

انفسهم فيذكرون ارقاما متناقضة ومبالغا بها بعض الشيء عندما يسألون عن عددهم ، فأحيانا نجد العدد ٥٠٠ واحيانا اخرى الف ، ومن الجدير بالذكر انهم يقرنون هذه الارقام اثناء الحديث عن عددهم « بالالاف من اخوتنا الذين يعيشون في المنفى ويعتزمون المجيء الى ارض الاباء » وفي بعض الاحيان « الملايين من اخوتنا . . . » . ومع ذلك يمكن القول ان عدد افراد هذه الجالية يناهز المئتين ولا يتعدى الثلاثمائة . ولكن هل باستطاعة هذا العدد البسيط ان يحدث هذه الضجة ؟. الحقيقة ان الضجة التي رافقت مجيء العبرانيين لا تعود اليهم او الى معتقداتهم بقدر ما تعود الى الطبيعة العنصرية للمجتمع الاسرائيلي. فبالاضافة الى سياسة المحاصرة والتجويع التي مارستها السلطات الاسرائيلية ضدهم ، والمقاطعة المشفوعة بافتراءات وتهم من قبل اليهود البيض ، حرم معظم اطفال الجالية « العبرية الاسرائيلية » من الالتحاق بالمدارس ، لامتناع المؤسسات الثقافية عن استيعابهم بحجة انهم لا يحملون بطاقة مهاجر . ويعي العبرانيون السود السياسة العنصرية التي تمارسها اسرائيل ضدهم . ويكشف « جبرائيل كتان » هذه السياسة بقوله : « الحقيقة انهم لا يريدوننا ، ان اسرائيل تمارس سياسة عنصرية وتنجح في التستر على كراهيتها للسود ، بيد اننا كشفنا القناع عن وجهها الحقيقي ، لذلك فنحن نعرف كيف ندافع وكيف نعمل للحصول على حقوقنا »(٢١).

ويعترف بعض الاسرائيليين (البيض) مثل موشيه لايفشتس من سكان ديموناه ـ بالرغم من انه طالب بطرد العبرانيين السود ـ بالتعصب العنصري الذي اخذ ينمو بين صفوف الاسرائيليين مع قدوم الجالية اليهودية السوداء بقوله : « يؤلمني مصير هؤلاء السود . . . ويؤلمني بشكل أشد العنصرية التي اخذت تنمو في اوساطنا والتي من شأنها ان تشوه شكل دولتنا وطابعها » .

لم تقتصر سياسة التمييز الموجهة ضد ابناء العبرانيين السود ، والنابعة من الطابع العنصري للمجتمع الاسرائيلي ، على الاحياء منهم فقط ، بل تشمل ايضا الاموات . فقد حدث ان توفي طفلان من ابناء الطائفة العبرانية ، ووقف المسؤولون عن الدفن حيارى من امرهم ، هل يوارونهما التراب في المقبرة اليهودية او في مقبرة جديدة ؟ واستقر الرأي على احاطة المقبرة اليهودية بسور وان يوارى جثمان الطفلين الاسودين خارج السور .

قبل ان نتطرق الى وضع العبرانيين السود في اريحا والى معاملة العرب لهم تجدر بنا الاشارة الى ان قضية ابناء الطائفة قد شغلت معظم المؤسسات الرسمية العليا في اسرائيل ، بما في ذلك محكمة العدل العليا والكنيست ، وبعثت من جديد قضية من هو يهودي ؟ وأثارت الجدل حول قانون العودة لعام ١٩٥٠ الا ان أهم شيء في قضية العبرانيين السود يتمثل في الطريقة التي عالجتها المؤسسات الرسمية والتي تفوح بالرائحة العنصرية . وسنورد هنا الحديث الذي جرى اثناء طلب قدمه المحامي « بن منشيه » الى محكمة العدل العليا لايقاف الامر الذي صدر بحق ٨ من ابناء الطائفة بمغادرة البلاد ، وقد اشترك في الحوار المحامي والقاضيان « ميني » و « كيستر » .

« القاضي ميني : هل لديكم اثبات بانكم من نسل الاسباط العشرة ؟ هل توجد لكم شجرة عائلة ؟

المحامي : من المعترف به ان اليهودي هو ابن ام يهودية ، ومن هي الام اليهودية ؟ هي ابنة ام يهودية وهلمجرا . ان موكلي يدعون بانهم من نسل الامة العبرية .

القاضي ميني (بتهكم) : العبرانيون هم اولئك الذين عبروا النهر ، وكذلك هؤلاء عبروا النهر ، ولكن نهر المسيسيبي » .

المحامي : يواجه موكلي مأزقين : انهم يهود وايضا سود .

القاضي ميني : ليست هنالك ولو ذرة تمييز بسبب اللون .

المحامي : انهم يقولون بانهم عبرانيون بيد ان الجميع يلقبونهم بالسود .

القاضي كيستر : ان الفلاش ليسوا بيضا ومع ذلك لم يطردوا من البلاد .

المحامي : المشكلة مع الفلاش لم تثر بسبب قلة عددهم في البلاد »(٢٣).

وفيما يتعلق بمعالجة الموضوع في الكنيست فقد دلت « المعالجة » بشكل واضح جلي على مدى العنصرية الكامنة والتي تستيقظ بين الفينة والاخرى بين اجنحة البرلمان الاسرائيلي . فقد استغلت كتلة جاحال « حيروت الاحرار » مقتل احد افراد الطائفة على يد احد ابنائها بسبب خلاف عادي ، وطلبت طرح الموضوع امام الكنيست تحت عنوان « التوتر الاجتماعي في ديموناه » ووصف عضو الكنيست « مناحيم يديد » من كتلة جاحال في الجلسة وضع مدينة ديموناه بعد مجيء العبرانيين الاسرائيليين اليها بقوله : « يلقي سود شيكاغو ظلالا من الارهاب والرعب والخوف (على المدينة) ولا يترددون في سلب حقنا على ارض اسرائيل . من يعرف اين ستؤدي عملية القتل النكراء . ينبغي اتخاذ الحيطة والحذر من قوى العنف هذه . ان السكان يطالبون بوضع حد لمعاناتهم . من الصعب وصف المشاعر التي تعتمل في صدور سكان ديموناه الذين المت بهم مصيبة كبيرة وفظيعة من الصعب مواجهتها . ان قانون العودة لا يسري عليهم ، وليس باستطاعتهم في اي حال من الاحوال طلب حق الدخول الى ارض اسرائيل . انني اعتقد بضرورة قيام الحكومة باجراء دراسة جذرية لمعرفة اذا ما كانت هنالك عناصر معادية تقف وراء هؤلاء الاشخاص ، او اذا كانوا يعملون او يستغلون بايحاء من قبل عناصر تسللت بين صفوفهم »(٢٤).

لقد اثار مجيء عدد قليل من اليهود السود الى اسرائيل ، العنصرية الكامنة في المجتمع الاسرائيلي ، سواء على صعيد الافراد او الهيئات المحلية ، ام على صعيد وسائل الاعلام والمؤسسات الرسمية العليا . والحقيقة ان هذا الامر غير مستغرب في مجتمع كالمجتمع الاسرائيلي الذي يعمل دائبا على نقاء العنصر اليهودي في الدولة اليهودية ، واذا علمنا ان هذا المجتمع — وهو لا يزال يعتبر مجتمع مهاجرين ومستوطنين — يحمل بين ثناياه مجموعة من الصراعات المتفاعلة ، مثل الصراع حول من هو يهودي ، والصراع بين الطوائف الغربية والطوائف الشرقية التي تئن من واقع التمييز في كافة المجالات والتي تلصق بابنائها كنية « السود » من قبل ابناء الطبقة الفوقية (الاشكناز) مع ان لونهم ابيض ، يسهل علينا تصور النظرة تجاه اليهودي الاسود فعلا .

تحدثنا في السابق حول مجمل القضايا التي واجهها العبرانيون السود في ديموناه وننتقل الان للحديث حول اوضاعهم في مدينة اريحا العربية . لم ينج اليهود السود في اريحا من مطاردة السلطات الاسرائيلية لهم ، فقد طردت ثمانية منهم الى خارج البلاد .

كيف كانت معاملة العرب لهم ؟ هل اتسمت نظرة السكان العرب بالعنصرية او التعصب ؟ للرد على هذين السؤالين نورد هنا حديث يهودي اسود (منشيه بن يسرائيل) اجراه معه صحفي اسرائيلي :

« س : الا تواجه صعوبة في العيش في محيط عربي ؟

ج : انني اعيش على ما يرام مع عائلتي .

س : من يوجد معك .

ج : فقط زوجتي .

س : ما هو شعورك وانت تسكن وحيدا بين العرب ؟

ج : حسن للغاية ، عندما جئت سألوني هل انت مسلم او مسيحي . قلت بفخر : انا يهودي .

س : كيف كانت نظرتهم اليك بعد ان اعلنت باتك يهودي ؟

ج : ان نظرتهم كنظرتهم الى كل غريب . ليس فقط اصحاب هذا البيت بل كافة سكان اريحا ذوو قلوب طيبة . ولذلك لا اواجه مشاكل ... ان الناس هنا وديون بشكل ايجابي ، وهذا يعني انهم لا يضعون العراقيل أمامك ، ولا يحشرون انوفهم في شؤونك ، انني لا اشعر نفسي غريبا بين العرب .. »

من خلال الجملة العفوية البسيطة التي تفوه بها « منشيه بن يسرائيل » يمكن للقـارىء تصور مدى الهوة القائمة بين النظرتين المتناقضتين ، النظرة العنصرية الشوفينية التي تمثلها ديموناه **الاسرائيلية** والنظرة الانسانية التسامحية التي تمثلهـا اريحا **العربية** . ثم انتقل الصحفي الاسرائيلي الى توجيه اسئلة حرجة تمس الصراع العربي الاسرائيلي:

« س : هل تعتبر نفسك « مستوطنا » ؟

جـ : (بتحفظ) انني لم أكن في البلاد خلال حرب الايـام الستة ، ولا انتمي الى الحرب ، انني لا اتدخـل في السياسة بل اعبد الرب . ان حقنا في الوجود هنا حق منحه لنا الرب .

س : ماذا تعني بـ « لنا » لليهود او العرب ؟

جـ : انني لا اريد ان اخوض في هذا الموضوع ، لا اريد ان اتطرق الى السياسة او الى الجدل القائم حول لمن تعود هذه الارض . انني على ثقة بان الله هو الذي سيقرر مصير هذه البلاد . ان ذلك فوق طاقتي » .

ولاستكمال الصورة حول نظرة سكان اريحا العرب تجاههم نورد هنا الحديث الذي أدلت به مواطنة عربية من سكان اريحا تدعى امينة زكريا ابراهيم :

« س : اتعرفين معتقدات الشخص الذي استأجر منزلكم ؟

جـ : لقد قال لي فور وصوله الى هنا بانه يهودي .

س : بالرغم من ذلك اعطيته المنزل ؟

جـ : **لماذا لا ؟ أليس هو انسانا ؟** »(٢٥).

ذكرنا في السابق ان التمييز العنصري الذي واجهـه العبرانيون السود في ديموناه لـم يقتصر على الاحياء منهم فقط بل شمل ايضا الموتى ، وتمثل ذلك في قضية دفن طفلين من ابناء الطائفة ، التي وجدت حلا لها بمواراتهما التراب بالقرب من المقبرة اليهودية وبناء سور بين الموتى البيض والموتى السود .

والسؤال الذي يتبادر الى الذهن هل ستبنى الاسوار حول المقبرة العربية في اريحـا في حال وفاة احد اليهود السود ؟ لقد حدث فعلا ان توفي طفل من ابناء الطائفة ، ولم تحدث قضية دفن ، بل تمت عملية دفنه بهدوء ، بواسطة العـرب انفسهم بالقـرب من مقبرة البلدة دون ان يكون هنالك سور او حائط .

نعود الان الى الحديث حول جانب اخر من قضية العبرانيين السود ، وهو وجه الشبه الكبير بين طلائع المهاجرين اليهود البيض في الربع الاخير من القرن التاسـع عشر الذين قدموا الى فلسطين بحجة ان الرب قد منحها لهم ؛ وبين طلائع المهاجرين اليهود السود الذين قدموا الى فلسطين عند بداية الربع الاخير من القرن العشرين بحجة ان الاله قـد منحها لهم ايضا .

لقد مر معنا كيف ان اليهود السود قد بلوروا اثناء وجودهم في ديمونـاه مفاهيم جديـدة وطعموا معتقداتهم الدينية بمفاهيم الامة المميزة التي وعد الله انبياءها في المـاضي بمنح ذريتهم « أرض الميعـاد » ، وكيف انهم يتحـدرون من نسل هؤلاء الاباء ، ولذا فـان هذه الارض تخصهم وحدهم . ومن اجل الشروع في امتلاك الارض حاول اليهود السود بناء اول مستوطنة تابعة لهم في النقب الا ان السلطات الاسرائيلية حالت دون ذلك .

والسؤال الذي يتبادر الى الذهن : هـل العبرانيون السود يعتبرون حركـة صهيونية جديدة تحاول أن تظهر على انقاض الصهيونية القائمة ؟ كثيرا ما تلمح المصادر الاسرائيلية باستغراب ودهشة الى اوجه الشبه بين الحركة الصهيونية ومطالب العبرانيين السود، الا انها لم تتطرق الى اسباب ولادة « الحركة الصهيونية السوداء » ، وهنـالك من بين الاسرائيليين من يخرج عن اطار التلميحات ، ويدخل اطار الحلم ، ليروي لنا ولادة الحركة الصهيونية السوداء وولادة الدولة العبرية السوداء عـلى انقاض الحركـة الصهيونية

البيضاء والدولة اليهودية البيضاء . وصاحب هـذا الحلم هو أوري افنيري ممثل كتلـة هعولام هزيه المعارضة في الكنيست .

هنالك ثلاث ملاحظات لا بد منها قبل التمعن في اللوحة الرمزية الرائعة الكامنة في « حلم » أوري أفنيري : ١ — ان المفـاهيم الجديدة لطائفة اليهود السود قد نجمت أصلا عـن واقع المجتمع الاسرائيلي ، كما وان ولادة ما يسمى ولو تهكما « بالحركـة الصهيونية السوداء » ناجمة بالاصل عن الواقع العنصري للحركة الصهيونيـة البيضـاء . ٢ — ان عدد افراد الجالية اليهودية السوداء (بضعة آلاف في اسرائيل والولايات المتحدة) يجعل الحديث حول احتمال ولادة حركة صهيونية جديدة على انقاض الصهيونية القائمة مجرد هراء . ٣ — ان « حلم » أوري أفنيري الذي « راوده في المنام » وظهر عـلى صفحات « هعولام هزيه ٢٠ /٧١/١٠ » والذي سـنقوم بايجازه . يعتبر تصويرا رمزيا رائعا للصراع العربي الصهيوني ، ولقيام الحركة الصهيونية بسلب فلسطين العربية .

يقول اوري افنيري في حلمه : استمرت الهجرة الاولى حـوالي ١٢ عامـا من ١٩٧٠ — ١٩٨٢ ، وبدت في ذلك الوقت كظاهرة ثانوية . ففي أعقاب تمركز المجموعـة الاولى في ديموناه ، تدفقت موجات أخرى من المهاجرين السود وقفت حيالها السلطات الاسرائيلية حائرة دون ان تتخذ موقفا حاسما . وقد اتسمت هـذه الفترة بطرد بعض المجموعـات وقبول مجموعات اخرى ، وبذلك بقيت الهجرة مقلصة ، بيد ان المستوطنـات العبرية السوداء برزت هنا وهناك في اماكن مختلفة من البلاد ، وتعلم المستوطنون السود اللغة العبرية وادعوا بأنهم يعتزمون تحسين احوال البلاد . وفي الفترة نفسها ظهرت كتب في اميركا وافريقيا اثرت تأثيرا كبيرا على جيل كامل من السود تحمل اسماء مثل « التحرير الذاتي للعبري الاسود » الى ان ظهر كتاب لصحفي اسود يـدعى « تايلور هـاريس » يحمل اسم « دولة العبريين » يدعو الى ايجاد حل لقضية العبرانيـين السود ، وتطرق الكتاب الى سكان البلاد الاصليين بقوله : « اليهود هم خداعون ، والشعب اليهودي غير موجود ... » . وكان لكتاب هاريس تاثير كبير على النفوس ، واخذ الصحفي هاريس الذي تحول بين ليلة وضحاها الى سياسي كبير ، يجتمع مع زعماء العالم في محـاولة يائسة للحصول على وعد لمنح البلاد الى العبرانيين السود .

وفي عام ١٩٨٢ عقد في « مونروفيا » عاصمة ليبريا المؤتمر العبري الاول ، وبعد الخطاب التاريخي لهاريس الذي قال فيه « هل يقلب الاسود جلـده ، والنمر جلـده » وافـق المؤتمرون على مشروع منروفيا الذي دعا الى « اقامـة وطن قومي للشعب العبـري الاسرائيلي » . وفي اعقاب المؤتمر حدثت الهجرة الثانية حيث قدمت مجموعـات مثالية سوداء من الولايات المتحدة وبلدان افريقية ، وقد ارغمت الحكومة الاسرائيلية على اتخاذ موقف ليبرالي تجاه الهجرة بسبب الرأي العام العالمي . وقد بلغ مجموع اليهود السود عند نشوب الحرب العالمية الثالثة حوالي مئتي الف عبري اسود .

كان من نتيجة الحرب العالمية الثالثة (١٩٩٧ — ٢٠٠٤) ان تغير مصير اسرائيـل مثلما تغيرت مصائر بلدان اخرى كثيرة . وقـد ادى التوازن الصاروخي الرهيب الى وقـف الحرب بين الولايات المتحدة والصين من جهة وبين دول الحلـف الاتحـاد السوفييتي واليابان من جهة اخرى ، وفي نهاية الحرب فاجـأ وزير خارجية اليابـان « بلفشيري » العالم بتصريحه المشهور بـ « وعد بلفشيري لعام ٢٠٠٩ » وجـاء في التصريح الـذي ارسله الى رئيس ليبريا : « يسرني ان ابلغكم باسم حكومة صاحب الجلالة القيصر ... ان حكومة جـلالته تنظر بعين العطف لاقـامة وطن قومي للشعب العبري الاسود في اسرائيل ... شريطة ان لا يمس ذلك حقوق الطوائف غير السوداء في اسرائيل ... » وجاء هذا الوعد لكسب عطف دول البلدان الافريقية .

وفي ظل « الوصاية » على الشرق الاوسط من قبل اليابان على اثر انتصار دول الحلف ازداد بشكل ملموس عدد السود في البلاد ، بواسطة المبالغ الكبيرة التي دفعتها اليابان للسود والاراضي التي منحتها لهم . كما وتعزز التعاون بين اليابانيين و « الوكالة السوداء لاسرائيل » التي اقامتها الهستدروت العبرية . وواجه اليهود هذا الغزو بثورات كثيرة (مثل ثورات ٢٠٠٧ — ٢٠٠٩) . وكان السود في هذه الفترة يقدمون شكاوي كثيرة الى الامم المتحدة مدعين بأن سلطات الانتداب اليابانية تتعاون مع اليهود ضدهم !!

وفي هذه الفترة اشتدت حدة الصراع بين العبرانيين السود واليهود اصحاب البلاد ، وادعى الطرف الاول استنادا الى التوراة ان هذه البلاد لهم وحدهم . . . وفي تلك الفترة تسلم مقاليد الحكم في الولايات المتحدة شخص عنصري ، وجه جام غضبه على العبرانيين السود ، ووضع ٣٠ مليونا منهم في معسكرات الاعتقال وبدأ عند اندلاع الحرب العالمية الرابعة بحملة تصفية جسدية ضدهم ، وعند انتهاء الحرب وانتصار الديمقراطية على الفاشية ، اخذت مأساة السود تستحوذ على الرأي العام العالمي ، واخذ السود ينشطون في الهجرة الى اسرائيل بطرق شرعية وغير شرعية ، وفي عام ٢٠٢٨ اتخذت الامم المتحدة قرارا بتقسيم اسرائيل الى دولتين ، دولة يهودية في المنطقة الشمالية من البلاد ، ودولة عبرية في المنطقة الجنوبية ، اما القدس فمدينة دولية مفتوحة . وقد تابل السود القرار بابتهاج لا مثيل له ، بيد ان اليهود وقفوا ضد القرار ، ولهذا وقعت حرب خاطفة بين الطرفين وقفت فيها الدول الكبرى الى جانب السود . وفي شهر مايو اعلن بن جورج في ديموناه اقامة الدولة العبرية السوداء ، التي حظيت باعتراف دولي ، واخذت مكانها اللائق بها بين الشعوب ، بالرغم من الغبن الذي لحق باليهود : ومن البديهي ان اليهود لم يقبلوا بالتقسيم ، كما وانهم عقدوا العزم بعد عقد الهدنة (في اذار ٢٠٣٠) على العودة وتحرير بلادهم ، وفي عام ٢٠٣٧ . . . » وعند هذا العام (الذي يرمز الى ١٩٦٧) يصحو اوري افنيري من «حلمه المزعج» ويتخلص من الكابوس ، ليجد نفسه لا يزال في دولة اسرائيل وفي عام ١٩٧١ ويقول « كفى من هذا الحلم . . . ان ذلك لا يمكن ان يحدث لنا ، ربما يحدث في اية بقعة اخرى من العالم ، ولكن لا يحدث عندنا ، **لاننا لسنا اغبياء مثل شعوب اخرى** » .

---

١ — Theodor Draper, *The Rediscovery of Black Nationalism*, p. 72.
٢ — عل همشمار ٧١/١٠/٨ .
٣ — هعولام هزيه ٧١/١٠/١٣ .
٤ — ملحق هآرتس ٧١/١٠/١٥ .
٥ — هعولام هزيه ٧١/١٠/١٣ .
٦ — هآرتس ٧١/١٠/٨ .
٧ — معاريف ٧١/١٠/٧ .
٨ — عل همشمار ٧١/١٠/٨ .
٩ — هآرتس ٧١/١٠/٨ .
١٠ — هعولام هزيه ٧١/١٠/١٣ .
١١ — دافار ٧١/١٠/٨ .
١٢ — معاريف ٧١/١٠/٧ .
١٣ — معاريف ٧١/١٠/٨ .
١٤ — ملحق دافار ٧١/١٠/١٥ .
١٥ — هعولام هزيه ٧١/١٠/١٣ .
١٦ — دافار ٧١/١٠/٨ .
١٧ — هعولام هزيه ٧١/١٠/١٣ .
١٨ — معاريف ٧١/١٠/٧ .
١٩ — ملحق معاريف ٧١/٩/٣ .
٢٠ — دافار ٧١/١٠/٨ .
٢١ — يديعوت احرونوت ٧١/١٠/٦ .
٢٢ — عل همشمار ٧١/١٠/٧ .
٢٣ — معاريف ٧١/١٠/٢٢ .
٢٤ — يديعوت احرونوت ٧٢/١/٢٧ .
٢٥ — ملحق معاريف ٧١/٩/٣ .

الوحدة الوطنية الفلسطينية
واقعها وكيفية اجتراحها

الدكتور سعيد حمود

مدخل : لا عجب اطلاقا ان تكون قضية الوحدة الوطنية ، اكثر القضايا هيمنة والحاحا على الحوار الفلسطيني ، في مختلف اصعدته واجوائه . ولا عجب ايضا أن تكون ساحات بحث الوحدة الوطنية مرتعا للمزايدات والتخريجات ربما يعجب في حالها من كان بعيدا عن واقع منظمات العمل الفلسطيني ، وعن العقد ذات الاثر العميق المدى ، الذي تراكم فيه عبر السنوات المريرة الماضية . ربما يستغرب من عجز عن قراءة الواقع ، قرائنه ومدلولاته ، ومن تعلق بأهداب أمل يكاد ان يكون سرابا . فالوحدة الوطنية الفلسطينية هي ام القضايا في العمل الفلسطيني ، وهي مفتاح المخرج من المأزق ، اذ ان الشرذمة ، والضياع الناجم عنها ، ما هما الا صورتين خطيرتين من صور المأزق الخانق والقائم حاليا في اطار حركة المقاومة الفلسطينية . على أننا لا نقول ذلك في ظل وهم ، ولو للحظة واحدة ، بأن تحقيق الوحدة الوطنية ما هو الا الحل السحري لكافة معضلات العمل الفلسطيني . نقول فقط ان عملية ولوج المحطة الاولى على طريقها الطويل قد تعني انعتاق عقلية منظمات العمل الفلسطيني ، من شوائب ومعيقات عديدة كبلتها بل وشلتها ردحا طويلا من الزمن . كذلك فان تخطي العقدة الاولى (المؤلفة من عقد يصعب حصرها) ولو بخطوة واحدة قد تكون مؤشرا عميقا الى بداية تغيير جذري والى بداية حل ، تتحلل بعده العقد واحدة تلو الاخرى . لماذا تصعب ، اذن ، الخطوة الاولى ؟ ولماذا يبدو العمل الفلسطيني وكأنه قد كتب عليه ان يظل مراوحا في مكانه ، عاجزا عن اداء مهامه التاريخية ، مترددا في خوض نضاله الطويل المضني والشاق ، الذي تبدو شروط خوضه الموضوعية والتاريخية متوفرة وجاهزة ؟ هذا ما نحاول الاطلال عليه ، واستشفاف حقائقه في البحث التالي . واكثر من ذلك وحتى تقترب هذه المحاولة من جدواها ولنقل ، مردودها الكامل ، فانها بعد سبر اغوار مواقف المنظمات قدر الامكان، ستعمد الى تلمس بعض الجوانب والقضايا التي قد تعين العمل الفلسطيني على اجتراح معجزة الخطوة الاولى .

اولا : استعراض موجز للتطورات الاخيرة في قضية الوحدة الوطنية

١ ــ قبل انعقاد المؤتمر الشعبي والمجلس الوطني الفلسطيني الاخيرين (من ٦ ــ ١٠ نيسان ١٩٧٢) بأيام التقى قادة المنظمات الخمس الممثلة في اللجنة التنفيذية، في سلسلة اجتماعات طويلة ومركزة للبحث في شؤون الوحدة الوطنية الفلسطينية او بكلام أدق للخوض مرة اخرى (بعد مرات ومرات عديدة وطويلة ومضنية) في حقيقة مواقف المنظمات وحقيقة استعداداتها للولوج عمليا في خطوات محددة تؤدي الى صيغة يمكن اعتبارها بداية وحدة فعلية بين المنظمات تكون أساسا لوحدة وطنية حقيقية . وبرغم ان هذه اللقاءات تمت تحت ضغط اقتراب موعد انعقاد المؤتمرين ــ الشعبي والوطني ــ ، مما دفع احد الاطراف الى التساؤل ، في بداية الاجتماعات ، فيما اذا كانت هذه من نوع « حمى

المواسم » التي تصيب العمل الفلسطيني قبل انعقاد المجالس الوطنية وما تلبث ان تزول وتندحر بعد انتهاء انعقادها ؛ وبرغم ان هذه اللقاءات تمت ايضا تحت ضغط ، يكاد أن يكون موسميا ايضا ، مارسته «فتح» في اتجاه انها « في حينه » سوف تعلن موقفا محددا بل مشروعا محددا يلزم المنظمات بالوحدة الوطنية ومن لا يلتزم فسوف يعامل بالعقاب ؟ برغم هذه الضغوطات وغيرها (وهي الاخرى عديدة) فان اللقـــاءات تميـــزت بالامور التـــالية :

أ ــ جرى طرح جدي لخطوط برنامج سياسي موحد ، بدا أن كافة المنظمات متفقة عليه . وقد اشتمل على تحديد دقيق لنظرة حركة المقاومة الى مهامهـــــا على الساحـــات : الفلسطينية ، والاردنية ــ الفلسطينية ، والعربية والدولية . وقد تميزت هذه النظرة ، وربما لاول مرة ، بوضوح كامل ومشترك فيما يتعلق :

ــ بضرورة اقامة الجبهة التقدمية الفلسطينية . ــ وبالنظام العميل في الاردن وضرورة التصدي له واسقاطه عبر برنامج محدد لجبهة اردنية ــ فلسطينية تقدمية . وبضرورة اقامة جبهة عربية عريضة ، تضم القوى التقدمية العربية ، لتكون قوة مساندة ومشاركة مع الثورة الفلسطينية في نضالها ضد الامبريالية والصهيونية . ــ وبالتوجه لاقامة العلاقات الثورية المتينة مع قوى التحرر على الصعيد العالمي .

ب ــ كما جرى استعراض بنود مشروع برنامج تنظيمي مقترح للعلاقات داخل الجبهـــة التقدمية الفلسطينية ، اي داخل منظمة التحرير الفلسطينية . وان كان البحث لم يتوغل عمليا في المشروع ، فقد تمحورت الاراء حول ضرورة دراسته وضرورة ارساء العلاقات على قواعد واضحة وعملية .

جـ ــ طرحت المنظمات جملة ارائها في صدد الوحدة الوطنية ، بصراحة وتفصيل ، ظهـــر من خلالهما ان هناك حيزا مشتركا تقف عليه جميعها ، مع التأكيد الجاد على امكانية بقاء الابواب مفتوحة للحوار من اجل توسيع الحيز المشترك وصولا الى جعلـــه قادرا على استيعاب خطوة جدية اساسية على طريق وحدة المنظمات .

٢ ــ انعقد المؤتمر الشعبي الفلسطيني يوم ٧٢/٤/٦ في اطار الدراسات التي قدمت له : مشروع البرنامج التنظيمي ، مشروع البرنامج السياسي ، مهام النضال علـــى الساحة الاردنية (بما في ذلك الرد على مشروع المملكة العربية المتحدة) ، مهام النضال الحر على ساحة الوطن المحتل (مع تحديد الموقف من الانتخابات البلدية) ، ومهام النضال الموحد على الساحة العربية . وقد كان واضحا ، منذ اللحظة الاولى لانعقاد المؤتمر ، أن قضيته الاساسية ما هي الا قضية الوحدة الوطنية الفلسطينية . وعلى امتداد الجلسات العامة ومناقشات اللجان التي تفرعت عن المؤتمر هيمنت الابحاث والمناقشات المنصبة في اتجاه الوحدة الوطنية . ودونما حاجة الى اية تفصيلات في هذا المجال فقد توصل المؤتمر الى ادخال بعض التعديلات على المشاريع ثم اقرها كتوصيات رفعت الى المجلس الوطني الذي أحالها بدوره كقرارات الى اللجنة التنفيذية . وتأكيدا لحرص المؤتمر والمجلس على ان لا تتجمد هذه القرارات داخل « اسوار » اللجنة التنفيذية ، قاما بتشكيل لجنة لمتابعة خطوات تنفيذ الوحدة الوطنية التي عمقتها المناقشات واضفت عليهـــا طبيعة المؤتمرين صفة الشرعية والالزام .

٣ ــ عقدت لجنة المتابعة اول اجتماع لها يوم ١٩٧٢/٥/٥ (أي بعد حوالي ٢٤ يوما على انتهاء المؤتمر الشعبي) استمع خلاله اعضاء اللجنة الى استعراض لما « أنجزته » اللجنة التنفيذية من خطوات حتى ذلك التاريخ ؛ ويمكن تلخيص ما استعرضته اللجنة التنفيذية كما يلي : أ ــ الاتفاق على تشكيل مجلس اعلام مركزي موحد يشرف على اصدار صحيفة واحدة ناطقة باسم الثورة الفلسطينية . وتتوحد ضمن اطاره جميع الاذاعات النـــاطقة

باسم الثورة (صوت فلسطين ــ صوت الثورة) ويشرف على وكالة انباء فلسطينية واحدة ذات نشرة يومية . وقد تضمن الاتفاق بين المنظمات ان يكون يوم ٥ حزيران ١٩٧٢ موعدا لبدء عملية التوحيد الاعلامي ضمن الخطوط المذكورة . ب ــ تشكيل لجنة عسكرية عليا تشرف على وضع البرنامج العسكري او خطة التوحيد العسكري موضع التنفيذ ، وقد حدد لهذا الامر مهلة لا تتعدى الشهر الواحد بعد الاتفاق . جـ ــ تشكيل اللجنة التنفيذية للجنة فرعية منها لدراسة البرنامج السياسي الذي رفع اليها من قبل المؤتمر الشعبي ، ولاقراره نهائيا فيما بعد وبأسرع وقت ممكن . د ــ تشكيل لجنة ثلاثية لوضع خطة من اجل الوحدة المالية لتعرض على اللجنة التنفيذية من اجل اقرارها ، وذلك في موعد اقصاه يوم ١٢/٥/١٩٧٢ .

وبعد أن استمعت لجنة المتابعة الى هذه الامور ، طالبت اللجنة التنفيذية بالاسراع في تطبيقها، اذ أن الوضع لم يعد يتحمل الاتفاقات والصيغ التي لا يتعدى اثرها حدود الورق الذي توضع عليه . كما قامت لجنة المتابعة بانتخاب أمانة سر مؤلفة من خمسة من اعضائها من اجل المتابعة اليومية ولاطلاع لجنة المتابعه على كافة ما يتم .

٤ ــ عقدت أمانة سر لجنة المتابعة اول اجتماع لها في بيروت بتاريخ ٢٦/٥/١٩٧٢ . وعبر استعراضها لجدية السير على الخطوات التي اتفق عليها ، تبين لها انه ما تزال هناك أشواط وأشواط لا بد من اجتيازها قبل الاقتراب من الصورة التي زينت لها . وقررت أمانة السر عقد اجتماع آخر في وقت قريب لتتمكن من الاطلال بشكل تفصيلي على الخطوات التي حددت لتنفيذها مواعيد ثابتة . (في ذلك الحين كان قد تقرر تأجيل موعد اجتماع لجنة المتابعة نفسها الى يوم ١٥/٦/١٩٧٢) .

٥ ــ عقدت امانة السر اجتماعها الثاني ايضا في بيروت بتاريخ ٦/٦/١٩٧٢ ، وبعد تداول موجز ظهر من خلاله ان القضايا ما زالت متحجرة تراوح في مكانها ، طلبت أمانة السر حضور رئيس مجلس الاعلام المركزي عضو اللجنة التنفيذية لتكون على بينة من حقيقة ما يجري على صعيد الواقع . قدم الاستاذ كمال ناصر تقريرا بين فيه سبب التأخر في تطبيق القضايا التي سبق الاتفاق عليها (خاصة فيما يتعلق بالجانب الاعلامي) مشيرا الى أنه سبب فني في الدرجة الاولى . أما الجوانب الاخرى ، المالية والعسكرية. فتبين انه ما زال يعتريها الارتباك والتعثر ، وان قضية جيش التحرير انما تمثل عقبة حقيقية واساسية في هذا المجال . وكذلك برزت في ذلك الحين قضية ، اصرت بعض المنظمات على اهميتها ، ملخصها انه بالرغم من الاتفاق على صيغة نهائية للبرنامج السياسي . فلا بد من اقرار صيغة لبرنامج تنظيمي تحدد العلاقات بين الفصائل والمؤسسات المقبلة على التوحيد ، وذلك قبل التوغل عميقا في الخطوات التنفيذية . وحرصا على عدم ارتباك العلاقات وتعرضها للتعثر وبالتالي للفشل . امام هذه الصورة المشوشة قامت أمانة السر بتوزيع مسؤوليات الاتصال بكافة الفصائل على اعضائها من اجل الوقوف وبشكل نهائي وواضح على حقيقة الاراء والمواقف تجاه القضايا التي ما زالت معلقة . على ان تتم الاتصالات لغاية مساء يوم ١٤/٦/١٩٧٢ ، الموعد المحدد لاجتماع امانة السر للمرة الثالثة قبل موعد اجتماع لجنة المتابعة بكامل اعضائها .

٦ ــ اجتمعت امانة السر للمرة الثالثة مساء يوم ١٤/٦/١٩٧٢ ، عرض الاعضاء حصيلة اتصالاتهم بالمنظمات ، وكان ملخصها انه فيما يتعلق بالجانب الاعلامي فان الخطوات التي اتفق عليها قد وضعت موضوع التنفيذ وان الصحيفة الناطقة بأسم المقاومة ككل سيصدر عددها الاول بتاريخ ٢٨/٦/١٩٧٢ . أما القضايا الاخرى ، العسكرية والمالية بالذات . فانها ما زالت تراوح مكانها ولم يحدث حيالها اي تطور او تقدم جديد . وقد استعرض في هذا الاجتماع موقف « فتح » كاملا ، حيث اتضح استعداد « فتح » للالتزام بكافة الخطوات التي اعلنتها والتي اتفق عليها ، مع ابداء الملاحظات حول صيغة العلاقات

داخل مؤسسات المنظمة الوظيفية وفيما يتعلق بالمكاتب والدوائر . كما استعرض موقف الصاعقة ، الذي بدت فيه بعض التحفظات والشكوك ، ولكن المحصلة النهائية كانت الاستعداد للالتزام . وبنتيجة استعراض موقف قيادة جيش التحرير برزت بعض العقد التي يصعب حل جزء كبير منها بصدد النواحي الاعلامية والعسكرية خاصة والتي تنم عن وجود قضية مستعصية ، اساسها لا يمت بصلة الى القضايا المطروحة وانما تعود الى الوضع غير الطبيعي السائد بين قيادة جيش التحرير واللجنة التنفيذية للمنظمة (ومن الواضح ، في هذا المجال ، انه لا يجوز ان تستمر هذه المعضلة ولا بد ان تبادر قيادة المنظمة الى التصدي السريع والجذري لها بهدف وضع حل نهائي وواضح) . وكان واضحا انه لا توجد اية معيقات من قبل جبهة التحرير العربية . اما بالنسبة للمواقف الاخرى (الجبهة الشعبية والجبهة الديموقراطية) فقد رأت امانة السر ضرورة الاستماع الى مزيد من التوضيح من قبل ممثلي الجبهتين . على اثر هذا الاستعراض قررت امانة السر ضرورة وضع تقرير مفصل امام لجنة المتابعة حول كافة المسائل في الاجتماع المزمع عقده في اليوم التالي :

٧ ــ عقدت لجنة المتابعة اجتماعها الموسع الثاني صباح يوم ٧٢/٦/١٥ في بيروت أيضا. وبناء على قرار امانة السر في اجتماعها يوم ٧٢/٦/٦ حضر الاجتماع رئيس اللجنة التنفيذية وغالبية اعضائها . وعلى اثر الاستماع الى تقرير أمانة السر ، الذي تضمن كافة الملاحظات حول تعثر الخطوات وعدم وضوح بعض المواقف ، قام رئيس اللجنة التنفيذية بعرض وجهة نظره كاملة مبينا الصعوبات والعقبات ، مشيرا الى العقدة التي يمثلها وضع جيش التحرير غير الطبيعي في العلاقات مع القيادة السياسية والى ان « فتح » قدمت كل ما تقدر عليه ، بينما ظلت المنظمات الاخرى دون تحديد مواقف حاسمة وفي حالة من التردد والتخوف . وتساءل رئيس اللجنة التنفيذية عن الاسباب وراء هذا الوضع . مؤكدا على ان « فتح » انما توجهت بكل ما قدمته عن ايمان عميق بضرورة الوحدة الوطنية وضرورة بذل كافة الجهود الممكنة من أجل تحقيقها . ثم قام ممثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في اللجنة التنفيذية بعرض موقف الجبهة مؤكدا استعدادها الكامل للسير في الخطوات المتفق عليها والدفع بها الى الامام (وكان هذا الموقف قد تأكد عمليا بالرسالة التي قدمتها الجبهة الشعبية الى رئيس مجلس الاعلام المركزي في اليوم السابق) ، الا انه أثار تركيز ملاحظات الجبهة الشعبية حول ضرورة ارساء قواعد صريحة وواضحة للعلاقات التنظيمية بين الاطراف المقدمة على دخول خطوات موحدة في النضال المشترك نحو اهداف مصيرية أصبحت متبلورة لدى كافة القوى ، وقال انه دون هذا الوضوح في العلاقات ستظل خطوات الوحدة متعثرة وفوقية وموسمية ودون اثر فعلي في المدى القريب والمتوسط والبعيد ، مؤكدا على ان الجبهة انما تبدي هذه الملاحظات من أجل انضاج الوحدة الوطنية وليس بأي حال من الاحوال بهدف عرقلتها وتأخيرها ، ومشيرا الى أن المرحلة الراهنة انما هي المحطة المناسبة لمثل هذه الوقفة من اجل ارساء قواعد مشتركة للنضال الواحد ، وعلينا ان لا نفوت هذه الفرصة مهما كان الثمن . ثم تكلم ممثل الجبهة الديمقراطية في الاتجاه نفسه تقريبا . وعلى اثر الاستماع الى بقية آراء اعضاء اللجنة التنفيذية ، تابعت لجنة المتابعة اجتماعها منفردة لبحث المهمات المطلوبة من أمانة سرها لحين موعد الاجتماع القادم . (الذي حدد بيوم ٧/٢٠/ ١٩٧٢) ويمكننا تلخيص المهمات بالامور التالية :

أ ــ المطالبة بضرورة انعقاد مجلس الاعلام المركزي لمتابعة تركيز الخطوات المتفق عليها من ناحية ، ومن ناحية اخرى لبحث القضايا المثارة من قبل جهات مختلفة في مجال التوحيد الاعلامي .

ب ــ ممارسة كافة الضغوط على اللجنة التنفيذية لحسم قضية جيش التحرير الفلسطيني

وكذلك وضع المنظمات غير الممثلة في اللجنة التنفيذية .

جـ ــ الاصرار على انعقاد اللجنة العسكرية العليا لاكمال الاتفاق على برنامج الوحدة العسكرية ووضعه موضع التنفيذ .

د ــ متابعة اللجنة المكلفة باعداد البرنامج التنظيمي والمساهمة معها في انجاز هذا البرنامج .

هـ ــ التأكد من طرح المشروع المعد من اجل الوحدة المالية على اللجنة التنفيذية والبدء في اتخاذ الخطوات العملية في صدده .

٨ ــ كان من المفترض ان تعقد لجنة المتابعة اجتماعها الثالث يوم ٧٢/٧/٢٠ ، غير ان سفر وفد المقاومة الى الاتحاد السوفييتي حال دون ذلك ، ولم تتم منذ يوم ١٩٧٢/٦/١٥ أية تطورات تذكر في اعمال لجنة المتابعة .

٩ ــ تم في وقت لاحق تحديد موعد لاجتماع لجنة المتابعة ، وذلك يوم ١٩٧٢/٨/٢٤ . توخينا في هذا الاستعراض تبيان حجم الجهود التي بذلت وطبيعة الاساليب التي اعتمدت وحقيقة القضايا التي اثيرت . كما توخينا اعطاء النتائج حجمها الفعلي بعيدا عن متاهات الشتائم وتجنبا لمجالات الامل الواهم لنصل الى حقيقة مؤداها : انه بعد مضي فترة اربعة شهور كاملة على انتهاء المؤتمر الشعبي والمجلس الوطني ، لم يتحرك العمل الفلسطيني في اتجاه الوحدة الوطنية بخطوات واثقة وفعلية تنسجم مع حجم الامال التي عبر عنها المؤتمر او حجم الجهود التي بذلت في صددها . (هذا اذا اكتفينا بتركيز جهود المرحلة الاخيرة ، مع العلم ان السنوات الماضية شهدت جهودا ومحاولات مضنية من اجل التوحيد) ولنصل أيضا الى جملة اسئلة رئيسية تطرح نفسها بالحاح مشوب بالتعقيد في هذه المرحلة : لماذا تتعثر مسيرة الوحدة الوطنية ؟ ما هي العوامل والمعضلات التي تحول دون تحقيقها ؟ أهي لعنة أبدية كتبت على العمل الفلسطيني ، كما يقول البعض ؟ أم هي نتائج التخلف الحضاري السحيق ، كما يقول آخرون ؟ أم ان جوهر الاسباب يعود الى عوامل وكوامن اخرى ؟ هذا ما نحاول الاجابة عليه في القسم الثاني من هذا البحث .

ثانيا : **معضلات الوحدة الوطنية : حقيقتها ، حجمها ، اسبابها وأشكالها**

يقول لي ذوان ، السكرتير الاول للجنة المركزية في حزب العمال الفيتنامي ، في كتابه « الثورة الفيتنامية ــ المشاكل الرئيسية والمهمات الرئيسية » ، وفي تحليله لقضية الجبهة الوطنية : « ان الجبهة الوطنية تجمع في وحدة متناقضة عديدا من الطبقات الاجتماعية تختلف الواحدة منها عن الاخرى، وتتوحد كلها على أساس برنامج نضال مشترك ومحدد . على ذلك فانه لا يمكن للمرء ان يتصور جبهة وطنية بدون طبقات مختلفة ، والخط المبدئي يتطلب من المرء ان ينطلق من وجهة نظر طبقية في دراسة كل المشاكل المتعلقة بسياسة الجبهة الوطنية وحلها » . ويقول لي ذوان ايضا : « وبالنسبة للطبقة العاملة ، وبحكم مركزها التاريخي ، فان مصلحتها الطبقية والمصلحة الوطنية تتطابقان تماما . اما بالنسبة للطبقات الاخرى ، فانه بينما يوجد اتفاق بين المصلحة الخاصة والمصلحة العامة ، الا ان هناك ايضا نقاط اختلاف بينهما . ولهذا السبب ، ومن اجل تحقيق الوحدة ودعمها ، فان هناك بالضرورة صراعا بين مختلف وجهات النظر الخاصة لاعضاء الجبهة الممثلين لمختلف الطبقات الاجتماعية . ان وحدة من جانب واحد ، وبدون صراع ستنتهي في الواقع بتدمير الوحدة ، وبتصفية الجبهة الوطنية . ومعرفة كيفية ادارة صراع مؤسس على المبادىء ، اي على اساس برنامج سياسي مشترك وبهدف تحقيق هذا البرنامج لن يؤدي الى تحطيم الوحدة او الى اضعاف الجبهة ، على العكس ، ذلك هو الشرط الوحيد لتعزيز الوحدة ولدعم الجبهة » . وبعد أن يؤكد لي ذوان على دور الحزب

في بناء الجبهة وفي داخلها يصل الى القول : « ان حزبنا . وهو يعتمد على القوى الاساسية للعمال والفلاحين ويقوم في كل مرحلة بتقدير دقيق للتغييرات التي تطرأ على مواقع الطبقات ، ويحدد بشكل سليم العدو الاكثر خطورة ، ذلك الذي يجب الاطاحة به. كان يطبق تاكتيكات مرنة للغاية ، ويوسع الجبهة الوطنية بدون توقف ، ويجذب كل يوم قوى جديدة الى صفوف الجبهة ، ويقودها لكي تتبنى أشكالا من العمل المشترك من أجل هدف ثوري محدد ومباشر » .

تنبع القيمة الحقيقية في هذه الكلمات البسيطة الواضحة من ناحيتين : ١ — ان لي ذوان يصف هنا تجربة حدثت ولا يطلق نظريات فيما يجب ان يكون ، وهو يحدد طبيعة القوى والفئات التي ناضلت وخاضت التجربة في اطار الجبهة الوطنية في فيتنام ، ولا يناشد قوى لا يعرف طبيعتها وحقيقة قوتها . ٢ — ان التجربة التي يصفها لي ذوان قد اعطت نتائجها الايجابية كاملة ، وما نشهده الان على ساحة الصراع الفيتنامية ، لهو انصع دليل على نجاح تصور وممارسة القيادة الثورية هناك . (ومن الخطأ الفادح تصور ان الانجازات التي شهدتها مسيرة الجبهة الوطنية الفيتنامية قد تمت دون معضلات وعقد وعقبات ، تمكنت القيادة والحزب والقوى الاساسية الاخرى من تفهمها والتصدي لها والتعامل معها تعاملا ثوريا اصيلا) . من هنا ، ونحن ننطلق في مناقشة تجربتنا (محاكمتها) من أجل ارسائها على مسار سليم وواضح وفاعل، فمن الضروري أن نتساءل عن حقيقة المعضلات وعن الكيفية التي تعاملت القوى داخل حركة المقاومة الفلسطينية بواسطتها تجاهها ، كيف فهمت وكيف مارست .

١ — معضلات تحقيق الوحدة الوطنية

تنقسم المعضلات في مسيرة الوحدة الوطنية الفلسطينية ، من حيث طبيعتها ، الى فئتين:

أ — المعضلات الموضوعية ، وهذه قد اخذت ملامحها منذ نشأة فصائل حركة المقاومة ، من التباين في المنطلقات وتصورات العمل ومن اختلاف الرؤى وكذلك من تباعد الخلفيات التنظيمية ، بمعنى ان كل فصيل تقريبا ، وان كان يلتقي مع الاخرين في الاهداف (تحرير كامل التراب الفلسطيني) والاساليب (الكفاح المسلح) ، كان يرتكز في بناء نفسه تنظيميا وعسكريا وسياسيا وكذلك في توجهه الجماهيري الى خلفياته الفكرية الخاصة وتصوراته التي كونها عبر سنوات طويلة من التشرذم والصراع الخفي . هذه الخلفيات والتصورات ، مضافا اليها ان الجهد الكامل (تقريبا) للمنظمات لم يتوجه الى تجنيد وحدة الهدف والاسلوب في صالح تنمية علاقات وحدوية تدريجية ، وانما الى التركيز على ذاته والتحجر عندها ، حتى كادت وحدة الهدف والاسلوب تمسي قضايا بلا مدلول عملي فاعل ، هذه الخلفيات والتصورات المتباينة ما زالت حتى هذه اللحظة تعكس نفسها ، بشكل او بآخر ، على طبيعة العلاقات . كل هذا من ناحية ، أما من ناحية اخرى ، فان طبيعة التطورات السياسية في اطار الهزيمة ، وطبيعة تفوق العدو عسكريا وتماسكا ، في ظل العجز أحيانا والتباين أحيانا أخرى ، قد اسهمت اسهاما بالغا في تهيئة المناخات غير المناسبة لعملية التوحيد . لا داعي هنا الى تعداد الافرازات الخطيرة التي تولدت عن هذه الحالة ، لانها (أي الافرازات) باتت واضحة أمام المطلع وغير المطلع على مشاكل العمل الفلسطيني .

ب — المعضلات الذاتية ، ومن الواضح انه لو أمكن التغلب على هذه المعضلات وتقليص حجومها ، لاصبح متاحا التصدي للمعضلات الموضوعية . على رأس قائمة المعضلات الذاتية تأتي قضية العقلية التي تهيمن على قيادات العمل الفلسطيني والتي أفرزت عجزا تنظيميا وعسكريا وكذلك سياسيا . ثم تأتي قضية عدم القدرة على تخطي جدار أزمة الثقة التي ظلت تتفاقم حتى بلغت في كثير من الاحيان ذروات صدامية غير مبررة ولا مقبولة . ثم يأتي الاسلوب ، الناتج عن هذا كله ، الذي اعتمد لمجابهة المعضلات ، والذي

يعتبر انعكاسا أمينا لطبيعة العقلية . تميز الاسلوب بصفة الهـروب في اتجاهين :

أ ــ نحو الذات في محاولات دؤوبة للتركيز عليها وابرازها ومناطحة كل شيء من اجلها .

ب ــ ونحو المجهول ، اي نحو قضايا غير مضمونة الطريق ولا النتائج ، بعـدا عن المعضلات الحقيقية وعن جوهر الازمة . ولا مجال هنا لفتح ملف هذه المظاهر ، اذ انه من الصعب جدا فيما بعد اغلاقه .

٢ ــ الفهم والتعامل

برغم كل ما تقدم فان التطورات والضغوطات العديدة قد اجبرت وما تزال فصائل حركة المقاومة على اتخاذ المواقف المباشرة في اطار الوحدة الوطنية الفلسطينيـة . وفي ظل غياب الفهم والقناعة الاستراتجيين (لدى غالبية الفصائل) بموضوعة الجبهة الوطنية ودورها في مرحلة التحرر الوطني الديموقراطـي ، وكذلك في ظل غياب الفهم العلمي لكيفية بنائها ، من حيث القوى والبرامج ، فان التعامل قد تميز بصفتين رئيسيتين : الموسمية والفوقية . وهكذا كانت تنتهي المحاولات دائما الى مزيد من التعقيد . كنا نريد الوحدة !! ولكننا دائما كنا نخشاها . هنا يكمن سر الفشل ، رغم الجهود ورغم اللقاءات والاجتماعات المضنية والمكثفة .

ثالثا : **الشروط الموضوعية لاجتراح معجزة الوحدة الوطنية**

(لعلنا نكتفي هنا بتعداد الشروط والمداخل دون التوغل في تفاصيلها ، حتى نتيح الفرصة أمام انفسنا لمحاكمة غنية وواعية ، تجنبنـا شر الهروب في قوالب الصيـغ العملية وتفاصيلها) .

مع التقدير الشديد للجهود المبذولة الان من اجـل تنمية الخطوات التي أمكن التوصل اليها ، ومع القناعة بأنها افضل من لا شيء ، ومع كـل الوضوح في حقيقة النوايـا والتصرفات ، ومهما بدا قاسيا القول ، فان الوحدة الوطنية الفلسطينيـة كما نقاربها اليوم ، لن تتحقق . ولا أمل اطلاقا بأن تفرض ، لا من قبل لجنة المتابعة ولا المجلس الوطني ولا اية منابر غيرها . نقول هذا بمرارة ، اذا نظرنا الى الامور من زاوية الوضع المنهار الذي نعيشه ، ومن زاوية اولئك الذين يعتبرونهـا خشبة الخلاص من الغرق المحيق الذي يتهددنا . ونقول هذا بثقة ، اذا استندنا الى فهم استراتيجي وقناعة مطلقة باصالة وضرورة هذا الفهم . كيف نجترحها اذن ؟ نعدد هنا بعض الشروط والمداخل الاساسية :

١ ــ التخلي نهائيا عن الصيغ والقوالب الفوقية الموضوعة لتحقيق الوحدة الوطنية .

٢ ــ التركيز على البرنامج السياسي المقر ، ومحاولة اغناء تعبيراته وبرامجه العملية .

٣ ــ البحث عن صيغ متواضعة للعمل المشترك في برامج صغـيرة وعملية ، وتنميتها خطوة وراء خطوة ، يوما بعد يوم . ٤ ــ ارساء التحالفات على اساس الفهم العلمي لطبيعة المرحلة (مرحلة تحرر وطنـي ديموقراطي) ولطبيعة الهجمة الشرسة التي تستهدف الوجود الفلسطيني برمته (هجمة من اجل التصفية الجسدية والفكرية) .

٥ ــ القتال بلا هوادة لاختراق الجدار العربي (جماهيريا) . يتم هذا بالفعل المتحرك ضد العدو وأركان معسكره ، وبالتعبير العملي عـن فهم احتياجات المرحلة سياسيا وعسكريا .

ولتبدأ اية محطة في العمل الفلسطيني ، مهما كانت ، بالتسلح بهذه الدروع وبغيرها وعلى رأسها صمود جماهيرنا ، عندها نجترح المعجزة .

الفلسطينيون في العراق

عصام سخنيني

أعد هذا البحث في مطلع العام ١٩٧١ في وقت كان الحكم الحالي يعد لخطة جديدة في معالجته لشؤون الفلسطينيين في العراق . وقد بدأت بوادر هذه الخطة تظهر في الآونة الاخيرة في بعض مشاريع السكن للاجئين في العراق . لذا فان النتائج التي توصل اليها هذا البحث يتحمل جزءا كبيرا من مسؤوليتها بعض العهود السابقة .

في العام ١٩٤٨ وبسقوط المدن والقرى الفلسطينية بيد الاغتصاب الصهيوني اخذت افواج الفلسطينيين تولي وجوهها شطر الاقطار العربية المجاورة طلبا للنجدة وانتظارا لدخول الجيوش العربية. والعراق بحكم بعده الجغرافي عن الوطن الفلسطيني ما كان له ان يمثل دور « الملجأ » للفلسطينيين ، فهو جغرافيا تفصله عن فلسطين دول عربية اخرى امتصت افواج المهاجرين ، خاصة وان حلم العودة السريعة ما كان ليعتوره شك لدى الفلسطينيين الذين فضلوا البقاء قريبا من ارضهم انتظارا للرجوع . بيد ان الظروف الجغرافية لم تكن هي العامل الوحيد في توزع الفلسطينيين في الاقطار العربية ومعظم اقطار العالم . وبقدر ما يتعلق الامر ببحثنا فقد لعب الجيش العراقي الذي خاض حرب ٤٨ الى جانب الجيوش العربية الاخرى ، لعب دورا في انتقال قسم من الشعب الفلسطيني الى القطر العراقي . فقد حدث ، او اريد له ان يحدث ، ان المنطقة الوسطى من فلسطين كانت مسرح عمليات هذا الجيش ، الامر الذي جعله يساعد على تفريغ عدد من القرى العربية الفلسطينية — وعلى الاخص المثلث القروي جبع — اجزم — عين غزال من سكانها العرب ونقلهم وباشراف الجيش نفسه الى القطر العراقي . وقد قدر عدد اللاجئين الفلسطينيين الذين دخلوا العراق في النصف الثاني من العام ١٩٤٨ ولغاية مطلع العام ١٩٤٩ على شكل قوافل نظمتها السلطة العسكرية العراقية بثلاثة آلاف شخص جلهم من القرى الثلاث السابقة الذكر . وبالاضافة الى هؤلاء فقد قدمت الى العراق افواج اخرى من الفلسطينيين من مختلف المدن والقرى الفلسطينية بعد سنوات قليلة من النكبة قادمين اليه من الاردن وقطاع غزة. وقد كان الدافع من وراء تلك الهجرات التي لم تكن جماعية بقدر ما هي فردية البحث عن العمل حيث كان العراق يمثل امام الفلسطينيين — كامارات الخليج وان كان بمستوى اقل اغراء — قطرا جاذبا للهجرة . وقد كان ما يغري فلسطينيي غزة على وجه التخصيص بالهجرة الى العراق ان الحكومة العراقية عاملتهم في وظائفها معاملة الاجانب من حيث الرواتب المزدوجة .

يبلغ عدد الفلسطينيين المسجلين لاجئين في العراق اقل من اربعة عشر الف نسمة بقليل . وفي « مديرية شؤون الفلسطينيين » في بغداد احصائية تبين عددهم كما هو واقع الحال في ١٩٦٩/٤/١٠ وهي كما يلي : ١٣٢٠٨ نسمة في بغداد و٣٣٥ نسمة في الموصل(١) و ٢٠٠ نسمة في البصرة : والمجموع ١٣٧٤٣ نسمة . وهذا العدد لا يشمل الفلسطينيين الذين دخلوا العراق بعد العام ١٩٥٨ والذين لا يعتبرون لاجئين كما لا يشمل عدد الذين نزحوا اثر عدوان ١٩٦٧(٢).

لا يتم الاشراف على شؤون اللاجئين الفلسطينيين في العراق من قبل وكالة غوث اللاجئين بل تولت هذه المهمة في البدء وزارة الدفاع العراقية . وقد اسكن الفلسطينيون في الاشهر الاولى لقدومهم في المدارس مثل دار المعلمين

الريفية ودار المعلمين العالية وكلية الهندسة وبعض الدور الاخرى . وبانقضاء العطلة الصيفية نقل قسم كبير منهم الى البصرة حيث اعيد اسكانهم في معسكر الشعيبة كما نقل قسم اخر الى الموصل واعيد اسكان الباقين في بنايات كانت متخذة كنوادٍ ، منها نادي الرافدين ونادي العلوية ونادي الزوراء والرشيد وغيرها . وعندما كانت وزارة الدفاع تتولى مهمة الاشراف على الفلسطينيين كان هؤلاء يتقاضون مساعدات عينية حيث توزع عليهم وجبات الاطعمة في مناطق تجمعاتهم . وقد ظل الحال كذلك حتى عام ١٩٥٠ عندما انتقلت « ملكية » الفلسطينيين الى وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل التي اسست شعبة لرعايتهم اصبحت فيما بعد تعرف « بمديرية شؤون اللاجئين الفلسطينيين في العراق » .

وليس لهذه المديرية علاقة اشراف على شؤون جميع الفلسطينيين المقيمين في العراق بل هي تتعامل مع « اللاجئين » منهم بصفة خاصة . واللاجيء كي يكتسب هذا اللقب وامتيازاته ينبغي ان يتوفر فيه شرطان : الاول ان يكون من بلد محتل منذ العام ١٩٤٨ ، والثاني ان يكون قد دخل العراق واقام فيه قبل ١٩٥٨/٩/٢٥ . واثبات الشرط الاول يتأتى بتأييد من منظمة التحرير الفلسطينية ، اما الشرط الثاني فيتأكد عن طريق مديرية الاقامة .

ولغرض جمع الشمل اجيز ضم الزوجة الى زوجها الفلسطيني المسجل قبل عام ١٩٦١ ولا يجوز ضم الزوج الى الزوجة . ولنفس الغرض ايضا اعطت وزارة الشؤون الاجتماعية لنفسها الحق في ان تمنح صفة اللجوء للفلسطينيين ممن لهم اقرباء لاجئون في العراق قبل ٦١/١/١ ومن الدرجة الرابعة(٣). ويحمل اللاجيء المسجل بطاقة خاصة به كما تصرف له تذكرة مرور صالحة للسفر الى الاقطار العربية وبعض الاقطار الاجنبية بموافقة منظمة التحرير الفلسطينية(٤). اما المواطنون الفلسطينيون الاخرون والذين يحملون جوازات سفر عربية غير عراقية أو تذاكر سفر خاصة باللاجئين الفلسطينيين كالتي تصرف في سوريا ولبنان وغزة ، فيقيمون في العراق بموجب اقامة سنوية تتجدد بتجدد اجازات العمل وتسري عليهم القوانين النافذة المفعول بالنسبة لغير العراقيين .

وفي اعقاب حرب حزيران ١٩٦٧ نجمت مشكلة لم تحل حتى الان نتيجة تدفق اعداد غفيرة من النازحين الفلسطينيين قادمين من الضفة الغربية وقطاع غزة عبر الضفة الشرقية الى العراق . ولم يستطع هؤلاء النازحون الجدد الحصول على اذن اقامة في العراق لاستناد السلطات العراقية الى قرار كان قد اتخذه مجلس جامعة الدول العربية بعدم السماح للنازحين الفلسطينيين من الضفة الغربية وقطاع غزة بالاقامة في الاقطار العربية بقصد وضع حد لحركة النزوح . وهكذا يضطر هؤلاء الى الاقامة في العراق اقامة غير شرعية مما يعرضهم الى متاعب جمة . فبالاضافة الى مخالفتهم القوانين العراقية المتعلقة بشروط الاقامة وطرق الحصول عليها مما يجعلهم في خوف دائم من الطرد خارج العراق ، بالاضافة الى هذا يعانون مشاكل مستعصية في اعمالهم وكسب معيشتهم خاصة اذا اخذنا بعين الاعتبار ان جميع هؤلاء النازحين الجدد هم من الكسبة الكادحين . وقد أخذ مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في بغداد على عاتقه في احدى الفترات ، مسؤولية ايجاد حل لهذه المأساة كذلك فعل اتحاد عمال فلسطين (فرع العراق). واجرى مكتب المنظمة وفرع الاتحاد عدة اتصالات مع الجهات العراقية المختصة غير ان قرار مجلس جامعة الدول العربية لم يكن يسمح بمواصلة البحث . وقد تولت فيما بعد اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية مهمة الخروج بحل لمثل هؤلاء الا ان احداث أيلول — المجزرة حالت دون الوصول الى نتيجة .

تبلغ ميزانية مديرية شؤون الفلسطينيين في وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل ٢٠٠ ألف دينار عراقي في السنة . وهي ميزانية ثابتة منذ تأسيس المديرية عام ١٩٥٠ حتى اليوم رغم ان عدد اللاجئين المسجلين فيها قد تضاعف عدة مرات خلال السنوات الماضية — في العام ١٩٥٢ كان عدد اللاجئين المسجلين والذين تتولى المديرية رعايتهم ٢٠٠٠ مواطن ويزيد الرقم الان عن ١٤٠٠٠ . ويصرف هذا المبلغ على نوعين من الخدمات : المخصصات النقدية والسكن :

المخصصات النقدية : عوضا عن التموين الذي تقوم بتوزيعه وكالة الغوث على اللاجئين الفلسطينيين في مطلع كل شهر في الاقطار العربية الاخرى ، يتقاضى اللاجيء الفلسطيني في العراق مخصصات نقدية نظمتها التعليمات الخاصة بالفلسطينيين رقم

«١» لسنة ٦٨ على الشكل التالي : ١ — تدفع اعانة ولادية نقدية قدرها خمسة دنانير لكل لاجئة تستحق المخصصات . ٢ — تدفع اعانة وفاة نقدية قدرها خمسة دنانير عن كل فلسطيني يتوفى يزيد عمره عن الست سنوات . ٣ — يدفع لكل طفل تجاوز عمره السنة الواحدة لحد ست سنوات «٥٠» فلسا يوميا بعد التأكد من دخل العائلة . ٤ — يدفع لكل شخص اكمل السنة السادسة من عمره ولم يتجاوز الثامنة عشرة «١٠٠» فلس يوميا. ٥ — يدفع لكل شخص يتراوح عمره بين الثامنة عشرة والخامسة والستين «١٠٠» فلس يوميا اذا توفر فيه احد الشروط التالية : أ — اذا كان مصابا بعاهة أو مرض يمنعانه من الكسب على ان يكون ذلك مؤيدا بقرار لجنة طبية رسمية . ب — اذا كان طالبا في مدرسة صباحية ولم يكن موظفا أو مستخدما في دائرة رسمية أو شبه رسمية او شركة ولم يكن له مورد آخر للرزق على الا يزيد عمره عن العشرين عاما في المدارس المتوسطة والاعدادية (الثانوية) والستة والعشرين عاما في الكليات . جـ — اذا كانت انثى غير موظفه او مستخدمة في دائرة رسمية أو شبه رسمية أو شركة ولم يكن لها مورد آخر للرزق. ٦ — يدفع لكل شخص تجاوز عمره الخامسة والستين سنة ١٠٠ فلس يوميا . ٧ — تقطع المخصصات اذا : أ — كان طالبا وتبل في البعثة أو كلية الاحتياط . ب — غادر العراق اعتبارا من تاريخ صدور الامر الاداري بذلك . ٨ — يستمر صرف المخصصات للنزلاء بالمستشفيات من الفلسطينيين. ٩ — للوزير بتوصية من مدير الخدمات الاجتماعية العام بناء على الضرورة صرف المخصصات الى الفلسطينيين المقبولين بدون صرف في الحالات التالية : أ — للعاجز اذا ثبت عجزه بتقدير من لجنة طبية رسمية او عجزه عن العمل لكبر سنه . ب — الارملة المقطوعة اذا ثبت عدم وجود اي معيل لها أو أي دخل خارجي . جـ — في حالة توقيف أو سجن رب الاسرة وعدم وجود مورد لها أو دخل خارجي . ١٠ — يقسم دخل العائلة — من غير المخصصات التي تدفعها مديرية الخدمات الاجتماعية العامة — على خمسة ويكون خارج القسمة عدد الافراد الذين تقطع عنهم المخصصات. « وتطبيق هذه المادة يتم بأن تقطع مخصصات شخص واحد من العائلة مقابل كل خمسة دنانير من الدخل الذي تحصل عليه الاسرة من غير المخصصات . وقد اعتبرت الاسرة مؤلفة من الزوجين وخمسة اولاد غير متزوجين كحد اعلى لدفع المخصصات .

وفي رأينا ان هذه الطريقة المتبعة في العراق افضل بدرجات مما تتبعه وكالة الغوث في الاقطار العربية الاخرى بأسلوب صرف المؤن المعهود وذلك من جانبين : الاول انها اخف وقعا على نفس الفلسطيني واحفظ لكرامته ، والثاني انها لا تحتاج الى كل ذلك الجيش من الموظفين والخبراء والى كل تلك المصروفات التي تتكبدها الوكالة والتي تستقطع بالتالي من نصيب المواطن الفلسطيني المستحق .

ويفهم من التعليمات المذكورة انفا ان اللاجئين في العراق لا يتقاضون جميعا مخصصات نقدية . وكما نظهر سجلات مديرية شؤون الفلسطينيين فان : ٣٨٧٢ شخصا يتقاضون مخصصات كاملة — ١٠٠ فلس يوميا ، و ٥٤١ شخصا يتقاضون نصف مخصصات — ٥٠ فلسا يوميا ، وذلك من بين ١٢٧٤٣ شخصا مسجلا في شهر نيسان ١٩٦٩ . أي ان نسبة الذين يتقاضون مخصصات (كاملة او نصف) هي ٣٢ ٪ من مجموع اللاجئين الفلسطينيين في العراق . اما الاخرون فأما ان مخصصاتهم مقطوعة أو انهم مسجلون بدون صرف أصلا . وهذه النسبة قد انخفضت عن تلك التي كانت عام ١٩٦٤ ففي ٦٤/١/١ كان عدد الذين يتقاضون مخصصات ٥٠١٥ مواطنا من جملة ١٠٩٧٨ فلسطينيا مسجلا اي ان نسبة الذين كانوا يتقاضون مخصصات في ذلك العام كانت ٤٥٪ من المجموع الكلي . وعلينا ان نلاحظ من وجهة نظر أخرى ان ٥١٪ من الاسر الفلسطينيه اللاجئة في العراق يصيبها نصيب من المخصصات . فمن جملة ٢٣٣٥ أسرة لاجئة (نيسان ١٩٦٩) تتقاضى ١٢٠٩ أسر مخصصات نقدية بينما ٥١٧ أسرة مقطوعة مخصصاتها كليا و ٦٠٩ أسر مسجلة بدون صرف . وربما يفيد قليلا في توضيح كيفية دفع المخصصات وطريقة الاستفادة منها الجدول المستقى من جداول لشعبة الفلسطينيين في كل من البصرة والموصل في تشرين الثاني ١٩٧٠ (جدول رقم ١) .

ورغم ان هذه التعليمات المتعلقة بالمخصصات ظلت سارية المفعول منذ صدورها حتى اليوم الا انه طرأ عليها تعديل طفيف لا يمس جوهرها . وقد جاء هذا التعديل بالقرار رقم ٣٦٦ الصادر عن

جـــدول رقم (١)
المخصصات النقدية للاجئي الموصل والبصرة

	مجموع الأسر	عدد المسجلين	(١) تجاوز ٦٥	(٢) ١٨ــ٦٥	(٣) ٦ــ١٨	(٤) ١ــ٦	(٥) أقل من سنة	(٦) المخصصات كاملة	نصف	مخصصات مقطوعة	بدون صرف
البصرة	٥١	٢٤٩	٥	١٢٣	٨٩	٢٧	٤	٤٧	٤	١٠١	٨٢
الموصل	٥٢	٣١٢	٥	١٤٠	١١٠	٤٨	٩	١١٢	٨	٤٣	١٤٩
المجموع	**١٠٤**	**٥٦١**	**١٠**	**٢٦٣**	**١٩٩**	**٧٥**	**١٣**	**١٥٩**	**١٢**	**١٤٤**	**٢٣١**

(١) مئة فلس في اليوم
(٢) مئة فلس بشرط ــ طالب ، مصاب بعاهة ، انثى غير موظفة .
(٣) مئة فلس في اليوم .
(٤) خمسون فلسا في اليوم .
(٥) لا يتقاضى مخصصات .
(٦) ٣٠،٥٪ نسبة الذين يتقاضون مخصصات الى المجموع العام .

مجلس قيادة الثورة بجلسته المنعقدة بتاريخ ١٧/٨/٦٩([٥]). وقد جاء في بند ٦ « المخصصات » من هذا القرار ما يلي : أ ــ يستمر على صرف المخصصات للفلسطينيين في الحالات التالية : اولا ادا سافر احد افراد العائلة للدراسة على حسابه الخاص . ثانيا اذا سافر احد افراد العائلة للالتحاق بالفدائيين . ب ــ يتوقف صرف المخصصات للاسباب التالية : اولا ان كان سفر احد افراد العائلة للدراسة على نفقة الحكومة . ثانيا سفر احد افراد العائلة الى دولة أخرى لغرض الاشتغال وبعد التأكد من كونه وجد عملا هناك . جـ ــ في حالة توظيف أو استخدام أحد افراد العائلة في دوائر الدولة الرسمية أو شبه الرسمية في العراق يلاحظ مقدار راتبه ومدى تناسبه مع افراد عائلته فان كان متناسبا مع المستوى المعاشي للعائلة تقطع المخصصات عن العائلة باكملها . اما اذا كانت الاجور التي يتقاضاها ضئيلة فيجب موازنة ذلك والابقاء على قسم من المخصصات التي تدفع لبقية افراد العائلة بما يتناسب والمستوى المعيشي للاسرة .

غير ان هذه المخصصات التي تدفع للاجىء في العراق تستعمل احيانا سلاحا حادا بيد الوزارة تهدد بقطعها وتنفذ غالبا لدى ارتكاب من يتقاضونها اية مخالفة لا تنال رضى مديرية الفلسطينيين . «فلمدير الخدمات الاجتماعية العام قطع المخصصات عن الفلسطينيين الذين يخالفون هذه التعليمات أو الاوامر التحريرية التي يصدرها او الذين يقدمون معلومات مضللة أو كاذبة عن حالتهم المعاشية أو اجورهم للمدة التي يراها مناسبة على ان لا تزيد عن ثلاثة اشهر عن كل مخالفة ولا يعاد اليه المبلغ المستقطع([٦])» فانه « لا يترتب للفلسطينيين حق قبل مديرية الخدمات الاجتماعية العامة بصدد استحقاقهم للمخصصات وللمديرية المذكورة منحها حسبما يتراءى لها من ظروف كل فلسطيني وفقا لهذه التعليمات([٧])». وكمثال على ذلك ما حدث عندما طالب سكان ملجأ سنجار في الموصل بتحسين أوضاعهم السكنية وذلك في شهر أيار ١٩٦٩ فهددت شعبة الفلسطينيين في الموصل بقطع المخصصات ثم نفذت تهديدها بالفعل واردفته بقطع الماء والكهرباء عن الملجأ حتى « اقتنع » السكان بوجهة نظر الشعبة . وقد تدخل مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في الموضوع وتوصل مع المديرية في بغداد الى تسوية عادلة لوضعهم .

السكن : تعتبر مشكلة السكن من اعصى المشكلات المعيشية التي يعاني منها اللاجئون الفلسطينيون في العراق . وسنلقي نظرة على بعض اوجه هذه المشكلة وابعادها : يتوزع الفلسطينيون في العراق بين ثلاث مدن : بغداد بشكل رئيسي (نحو ٢٥٠٠ أسرة) والبصرة والموصل بشكل ثانوي (نحو ٥٠ أسرة في كل منهما) بالاضافة الى اعداد قليلة جدا في بعض المدن الاخرى . وكما المحت سابقا أسكن الفلسطينيون في أول عهدهم بالعراق في المدارس

والنوادي غير ان ذلك لم يكن الا حلا مؤقتا خرجت منه الحكومة العراقية « بنظام الملاجىء » وهو طراز فريد من السكن الجماعي ما أظن ان مجتمعا من المجتمعات وفي الثلث الاخير من القرن العشريــن يضم بين جنباته ما هو ادنى منه درجة .

والملجأ بيت كبير يضم احيانا ٨٠ غرفة واكثر كان في الاصل مدرسة او ربما بني قديما ليكون فندقا هجره نزلاؤه لقدمه ، تستأجره مديرية الفلسطينيين وتتكدس فيه الاسر الفقيرة بشكـــل لا انساني : أ ــ الملجأ يضم ٢٤ أسرة كحد ادنى و ٦١ أسرة كحد اعلى . ب ــ اكوام القاذورات تتكدس على ابواب الملاجىء حيث تتحول في حر بغداد اللافح الى موطن للمرض قل له نظير ، والمياه القذرة تعيق عابر السبيل وهي لا تجد لها مصبا سوى الشارع العام ومدخل الملجأ نفسه لعدم توفر الحفر الامتصاصية أو المجاري . جـ ــ داخل الجدران المتهدمة والسقوف المهترئة تنحشر الاسر اللاجئة بواقع غرفة واحدة لكل اسرة مكونة من ستة افراد واذا زاد الرقم عن هذا يفرد لها قانونا غرفتان ، غير ان الواقع في اغلب الاحيان لا يتمشى مـــع القانون ، مما يضطر الاسرة في معظـــم الحالات (والتي كنت شاهدا عليها) ، الـــى ان تقسم الغرفة الواحدة التي لا تتجاوز كثيرا اثني عشر مترا مربعا الى قسمين بواسطة بطانية أو ملاءة . د ــ معظم هذه الملاجىء آيل للسقوط فهي بنايات قديمة جدا لم يلحقها الهدم الا لان اللاجئـــين « يعمرونها » فقط[٨]. هـ ــ المنافع الصحيـــة شحيحة غير متوفرة فالملجأ الذي يتسع احيانا لاكثر من ثلاثين اسرة لا يتوفر فيه اكثر من دورتي مياه أو ثلاثة ان كان سكانه من المحظوظين . و ــ ممرات الملجأ والتي هي مظلمة رطبــة ضيقــة تصبح ملاعب للاطفال تعج بهم وتزدحـــم بصرخاتهم . ز ــ نتيجة للحر الخانق في بغداد يضطر المواطنون فيها للنوم فوق اسطحــة منازلهم ، والملجأ ذو السطح الواحد يحوى الاسر كلها في الصيف ليلا . والمأساة تتجلى عندما يقسم السطح ببطانية تعبث بها الريح ينام على جانب منها النساء وعلى الجانب الاخر يستلقي الرجال .

وفي جدول (٢) قائمة بأسماء هذه الملاجىء وعدد الاشخاص الذين يسكنونها كما يبين الجدول مجموع نفقات كل ملجأ (الايجار السنوي ونفقات الكهرباء والماء والتنظيف) .

وبالاضافة الى هذه الملاجىء هناك في بغداد دور مستأجرة اصغر منها حجما ويبيـــن جدول (٣) عددها وعدد ساكنيها وايجارها السنوي .

اما النوع الثالث من السكن فهو الدور الحكومية وتتركز بشكل اساسي في حيين من احياء بغداد : مدينة السلام ومدينة الحرية وهي شكل من اشكال

جدول رقم (٢) ــ الملاجىء في بغداد

اسم الملجا	الموقع	عدد الاسر	عدد الافراد	مجموع النفقات بالدينار
الصفار	باب الاغا	٣٩	٢٢٢	٣٠٨٠
السبـــاع	قره شعبان	٢٨	١٥٠	١٨٣٠
المشـــغل	ش المستنصر	٢٤	١١٢	١٢٩٠
راحيل شحمون	تحت التكية	٥٨	٢٨٥	١٧٨٧
منشى صالح	تورات	٥٨	٣٨٦	١٨٩٥
العاقوليـــة	عاقولية	٣٦	١٧١	١٢٠٧
مأوى الاحداث سابقا	الحريـــة	٢٧	١٦٨	٤٣٨
دار الفلسطينيين	ش الشيخ عمر	٦١	٣٨٤	١٣١٢
معهد المكفوفين سابقا	الزعفرانيـــة	٥٨	٣٠٥	لم يبت فيها حتى الان
دار رعاية الاحداث	الزعفرانيـــة	٤٧	٣١٣	لم يبت فيها حتى الان
المجموع العام		٤٢٦	٢٤٩٦	

جدول رقم (٣) ـ الدور المستأجرة للفلسطينيين في بغداد

العائدية	عدد الدور	موقعها	عدد الاسر	الافراد	الايجار السنوي بالدينار فلس دينار
١ ـ الدور المجمدة(٩)	٢٦	مركز بغداد	١١٨	٦٦٨	١٠٥٤٤، ٦٨٢
	٢٨	الكرادة الشرقية	١٤٧	٩٠٤	٢٩٧٢٢،٣١١
	١	الاعظمية	٥	٢٣	٤١،٧٨١
٢ ـ اوقاف بغداد	١	عيواضية	١١	٧٠	٦٠٠
٣ ـ امانة العاصمة	١	راس القرية	٩	٧٢	٣٦٠
٤ ـ دور أهليـة	٣	الكرادة الشرقية	١٥	٨٠	٣٠٧،٧٧٩
	١	القادسـية	٦	٤٥	٣٥٠
	٨	بغداد الجديدة	٧٠	٣٩٠	٢٣٠١،٢٥٠
	٣١	السـلام	١٦٨	١٠١٧	٧٨٨٢
	٥	الحريـة	٢٢	١٤٤	١٤٢٠
المجموع العام	١٠٥		٥٧١	٣٤٤٣	١٧٢٨٩

جدول رقم (٤) ـ الدور الحكومية

عدد الدور	الموقع	عدد الاسر	عدد الاشخاص
١٣٠	الحريـة	١٦٣	١١٠٧
١٣٧	السـلام	٢٥٧	١٥٦٥
٢٤	تل محمد	٣٦	٢٢٨
٨	الزعفرانية	١٢	٨٤
١	مشتمل السلام	١	١١
المجموع ٣٠٠		٤٦٩	٢٠٠٥

المساكن الشعبية ، المفرقة في الشعبية وان كان هذا النوع من السكن اكرم من سابقيه اذ البيت الواحد يضم احيانا اسرة او اسرتين .

ان الحكومـة العراقية تقـدم خدمـات السكن المجانية في بغداد الى ٨٩٤٤ لاجئا فلسطينيا موزعين على ١٤٦٦ اسرة بمعنى ان نسبة الذين يستفيدون من السكن المجاني في بغداد هي ٦٣ ٪ من مجموع اللاجئين الفلسطينيين تقريبا .

والصورة في البصرة أو الموصل ليست بافضل منها في بغداد . ومثال على ذلك وهو ما اشرت اليه سابقا ما حدث بالنسبة لملجأ سنجار الذي سمي باسم الحي الذي يقع فيه (باب سنجار في الموصل). وقد سكن هذا الملجأ خمس عشرة اسرة فلسطينية الى ان طلبت مديرية شؤون الفلسطينيين منهـم اخلاءه والا تعرضوا لخطر الموت تحت الانقـاض .

وقد اختارت المديرية ملجأ اخر لهم (ملجأ الشيخ فتحي) وهو مكون من ١٢ غرفة فقط مما دفـع بالسكان الى العصيان واستعانوا في ذلك بلجنـة انتدبوها مكونة من رئيس بلدية الموصل وممثل عن الاتحاد الوطني لطلبة العراق وممثل عن القطاع الشعبي ، واستشهد « العصاة » بقرار هذه اللجنة بأن الملجأ الجديد لا يتسع لاكثر من ست اسر نظرا لضيق غرفه . وقد لجأت المديرية الى اسلوب قطع المخصصات والماء والكهرباء عن اللاجئين لاقناعهم بضرورة الامتثال لاوامرها وهو ما سلف ذكره .

ان ازمة السكن في العراق بل مأساتها دفعـت المهتمين بها فلسطينيين وعراقيين الى دراستها اكثر من مرة . وسكان الملاجىء يحفظون عن ظهر قلب جميع المشاريع التي قدمت بتواريخها وارقامهـا وبنودها المفصلة لحل مشكلتهم ، كما ان ذاكرتهم

لا تنسى عدد الزيارات التي قام بها المسؤولون للاجئهم ولا وعودهم المتتالية التي قطعوها على انفسهم للتخفيف من بلوى هؤلاء السكان . ومن جملة هذه الوعود ما جاء في القرار رقم ٣٦٦ الذي اتخذه مجلس قيادة الثورة بجلسته المنعقدة بتاريخ ٦٩/٨/١٧ والذي جاء في مقدمته ما يلي : « ايمانا من حزب البعث العربي الاشتراكي بوحدة الشعب العربي ووحدة مصيره وانطلاقا من شعوره بخطورة المرحلة التي تعيشها امتنا العربية في معركتها الحاسمة مع العدو الصهيوني — الامبريالي ، وبأهمية ان يكون للعنصر الفلسطيني الدور الطليعي في معركة التحرير قامت قيادة الحزب بدراسة اوضاع الفلسطينيين الموجودين في القطر العراقي وقدمت مقترحاتها الى مجلس قيادة الثورة فقرر معالجتها كما يلي : ١ — ازمة السكن : انشاء مجموعات سكنية شعبية على غرار مدينة السلام تتوفر فيها كافة الشروط الصحية (كمجموعات سكنية متكاملة الخدمات) وتبقى هذه الدور ملك الدولة يتمتع الفلسطيني بمنفعتها ما دام موجودا في العراق ولا يحق له شراء الاراضي والبناء وطلب السلف التعاونية والعقارية (١٠)» .

غير ان تلك الوعود جميعا والدراسات ومحاولات تحسين شروط السكن كانت دائما وفي كل مرة تصل الى طريق مسدود لاكثر من سبب :

١ — ان سرعة تغير الحكومات في القطر العراقي وبالتالي تغير السياسة المتبعة لم تكن تعطي الفرصة لمشروع واحد لان يأخذ مداه الكامل فيبصر النور. والامثلة على ذلك كثيرة منها : منذ اكثر من سنة ونصف قامت منظمة التحرير الفلسطينية (مكتب بغداد) بدراسة الموضوع مع عدد من المسؤولين العراقيين . وقد توصلت الدراسة انذاك الى ان وزير الشؤون الاجتماعية والعمل (السيد انور عبد القادر الحديثي) قد طلب الى وزارة التخطيط تخصيص ربع مليون دينار عراقي لنفقات تنفيذ مشروع اسكان للاجئين حيث كان من المقرر ان يضم هذا المشروع ١٥٠٠ وحدة سكنية في القطعة ٩/١ من المقاطعة رقم ١٩ غزالية . وكان الرأي ان ينفذ هذا المشروع من قبل وزارة الاشغال والاسكان للاقتصاد في النفقات . وقد دخل هذا الطلب دوامة مفرغة دون ان يصل الى نتيجة الى ان عهد بوزارة الشؤون الاجتماعية الى وزير اخر (السيد مرتضى الحديثي) فغض الطرف عن المشروع .

٢ — ان السياسة المتبعة في قضية سكن الفلسطينيين في العراق كانت في رأينا سياسة خاطئة : أ — ليس هناك تفكير يتصف بالجذرية في محاولات حل هذه المشكلة وانما هو في جميع الاحوال ومختلف الظروف والعهود يرمي الى حلها حلا جزئيا مبتورا سرعان ما يظهر فشله وعقمه . فالسياسة العراقية المتعلقة بشؤون الفلسطينيين لم تتخل قط منذ كانت مأساة اللجوء عن فكرة تأمين «الملاجىء» للاجئين اليها رغم كل ما يرافق هذا النظام من السكن من اخطار اجتماعية وخلقية وصحية . وظلت هذه السياسة منذ العام ١٩٥٠ تدور ضمن هذه الحلقة لا تتخطاها ولا تخرج عنها . كما ظلت تتناول مشكلة كل ملجأ على انفراد دون ان تفكر مرة ، وان فكرت لا تنفذ ، بالغاء هذا الاسلوب السكني الكئيب . فعندما اصبح ملجأ «مترو»(١١) مثلا غير صالح للسكن في منتصف العام ١٩٧٠ استعيض عنه بملجأ اخر في الزعفرانية لتظل مشكلة التكدس السكاني هي هي لم تتغير . ب — ان ما ينفق على سكن الفلسطينيين في العراق ينفق بصورة عشوائية لا تدبر فيها . وتتحدث بالارقام : ان مجموع ما ينفق على سبعة ملاجىء في بغداد معروفة لدينا ايجاراتها يبلغ ١٢٤٠١ دينار عراقي سنويا . وهذه الملاجىء (الصفار ، السباع ، المشغل ، راحيل شحمون ، منشى صالح ، العاقولية ، دار الفلسطينيين) تضم ٢٩٤ أسرة حسب الجداول المذكورة سابقا . أي أن نصيب الاسرة الواحدة يبلغ نحو ٤٢ دينارا في السنة وسطيا . ورغم ان المبلغ زهيد نسبيا الا انه اذا أخذنا بعين الاعتبار الظروف السكنية القاسية التي يعانيها سكان هذه الملاجىء وهي ما اتينا على وصفها سابقا نجد ان مثل هذا المبلغ لو انفق بطريقة أخرى يمكن ان يوفر سكنا اكرم واكثر لياقة .

٣ — ان جزءا من مسؤولية مشكلة السكن يقع على الفلسطينيين انفسهم : أ — لقد جرى في عام ١٩٦٥ اتفاق بين منظمة التحرير الفلسطينية — مكتب بغداد — والحكومة العراقية — عهد المشير عبد السلام محمد عارف — على بناء مساكن شعبية للفلسطينيين في منطقة ابي غريب وهي احدى ضواحي بغداد القريبة ، وكاد الاتفاق يأخذ صيغة التنفيذ لولا ان الفلسطينيين اعتبروا ذلك المشروع جزءا من مؤامرة توطينهم خارج وطنهم فثاروا

وهددوا بالامتناع عن السكن وداهموا مكتب المنظمة مما جعل المنظمة تتراجع وتتخلى عن مثل هـذا الاتفاق . وقد اعتبر المخلصون ان ذلك الهياج لا مبرر له لان العودة الى الوطن والديار في حـال تحققها لن يمنعها سقف يضم عائلة وينشىء جيلا خاليا من الامراض التي تحتضنـه بها الملاجـىء .

ب — ان عددا من سكان الملاجىء (واقولها عن تجربة واختبار) ، غير محتاج للسكن فيها ولديه من الدخل ما يمكنه من السكن خارجها بأجر[١٢]. وبالتأكيد فان نسبة هؤلاء منخفضة بين الاغلبيـة الفقيرة المحتاجة الا ان خروج القادر على اعالة نفسه من الملاجىء يترك مجالا لعيش اكرم بحياة الانسان لشخص لا يمكنه مورده المالي من السكن خارجها .

وقد فطنت وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل لهذا الموضوع فأصدرت أمرا رقم ٥١١ بتاريخ ٦٩/٩/٤ بتشكيل لجنة لجرد حالات اللاجئين وقد تشكلت اللجنة من مدير الخدمات الاجتماعية العام ومدير الحسابات والحقوق والعقود في المديرية المذكورة ومدير ادارة اللاجئين الفلسطينيين واضيف للجنة بقرار آخر ممثل عن منظمة التحرير الفلسطينية (مكتب بغداد) اثر طلب منها . غير ان هـذه اللجنة لم تباشر عملها لتخوفها من الصعوبات التي ستنجم عن مثل هذا الجرد وللعقبات المتوقعة التي ستعترض طريقها .

ان حلا جذريا وحاسما مطلوب من وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل في العراق لمواجهة مشكلة اسكان اللاجئين الفلسطينيين . ولو اجيز لنا الاقتراح فاننا نضع النقاط التالية موضع بحث : ١ — ضرورة ان تتوفر لدى السلطات العراقية النية الكاملة على استبدال اسلوب العيش في الملاجىء بأسلوب آخر افضل منه واكرم . ٢ — ان عملية الاستبدال هذه اذا حسبت بمنطق الربح والخسارة قـد تكلف الخزينة العراقية مبلغا من المال في البداية ولكن في المدى البعيد ستتسـاوى نفقات اي مشروع مع الايجارات الباهظة التي تتكبدها الخزينة الان ان لم تقل عنها . ٣ — ان عملية الاستبدال هـذه ستكون على حساب نسبة ضئيلة من الفلسطينيين الذين يتمتعون بسكـن مجـاني حاليا ، ولكـن « التضحية » بهذه النسبة الضئيلة انما هـي لمصلحة المجموع . ٤ — ضرورة ان يشترك المواطن الفلسطيني نفسـه في حل مشكلته دون ان ينتظر الحل يأتيه من السماء .

ونترجم هذه النقاط الى لغـة الارقام والواقع موجهين اهتمامنا بالدرجة الاولى الى « الملاجىء » دون التطرق الى الدور المستأجرة او الحكومية لان الاولى هي محور المشكلة وهي الاشد تماسة : ان مجموع الاسر المعنية هنا يبلغ ٤٢٦ اسـرة (٢٤٩٦) حسب الجدول رقم (٢) ، موزعين حاليا في عشرة ملاجىء تبلغ نفقاتها الكلية نحو ١٦٠٠٠ دينار سنويا . (١٢٨٣٩ دينارا لثمانية ملاجىء معروفـة الايجار لدينا والباقـي نقدره للجأين استؤجرا حديثا ولم يبت بأجرتهما حتـى الان — معهد المكفوفين سابقا ٥٨ أسرة ودار رعاية الاحداث سابقا ٥٨ أسرة (جدول رقم ٢) . ولو فرضنا جدلا ان جميع هذه الاسر دون استثناء بحاجة حقيقية الى ان يتوفر لها سكن مجاني لعدم تمكنها من السكن على نفقتها الخاصة ، مع اننا نشك في ذلك ، فان ٤٢٦ وحدة سكنية مطلوب توفرها لحل مشكلتهم . واذا افترضنا ان الوحدة السكنية الشعبية لن تتجاوز تكلفتها بأي حال من الاحوال ٢٠٠ دينار عراقي[١٣]، فان نفقات المشروع بأكمله ستبلغ ٨٥٢٠٠ دينار آخذين بعين الاعتبار ان وزارة الاشغال والاسكان هي التي ستتولى تنفيذ المشروع للاقتصاد في النفقات ولمنع هـدر الاموال المخصصة وان المشروع سيقام على أرض أميرية . وبعملية حسابية بسيطة نجد ان هـذا المبلغ المقترح يعادل تماما بدلات الايجار التي تدفع للملاجىء العشرة لمدة خمس سنوات .

لا بل اننا نذهب في مشروعنا المقترح الى ابعد من ذلك فنضيف اليه ان بعض الاسر التي تسكن هذه الملاجىء قادرة في حال انتقالها الى هذه المساكن الجديدة على دفع بدلات ايجار سنوية زهيدة يمكن ان ترصد لاضافة وحدات سكنية مستحدثة الى المشروع يستفيد منها حسب الاولوية الفلسطينيون الذين يسكنون في الدور المستأجرة (جدول رقم ٣) والذين يعانون ايضا من مشكلات لا تقل كثيرا عن تلك التي يعانيها اخوانهم سكان الملاجىء . ونؤكد هذا الاقتراح ايمانا من المبدأ الذي اثبتنـاه وهو ضرورة ان يسهم الفلسطينيون في حل مشكلاتهم .

ولكي يأخذ هذا الموضوع صيغته العملية فاننا نقترح ان تستوفي مديريـة شؤون الفلسطينيـين ايجارا سنويا بمعدل ٣٠ دينارا (٢٠ ، ٣٠ ، ٤٠ دينارا سنويـا حسب دخـل الاسرة ووضعهـا

الاجتماعي والاقتصادي) من ٣٠٠ اسرة فلسطينية من سكان الملاجيء البالغ عددهم كما ذكرنا ٤٢٦ أسرة . وبذلك يتوفر لدينا سنويا ٩٠٠٠ دينار اي ما يكفي لاضافة ٤٥ وحدة سكنية في العام الاول وتزداد بنسبة مطردة في الاعوام اللاحقة .

وهناك ملاحظتان : الاولى اننا لا نعتبر ان مشروعا كهذا « مؤامرة » لاسكان الفلسطينيين وتوطينهم خارج وطنهم فان مثل هذه المزايدات السياسية مرفوضة اذا اخذنا بعين الاعتبار ان نسبة لا يستهان بها من الشعب الفلسطيني في مهاجره المختلفة تتمتع بوضع اقتصادي ، وبالتالي سكني، جيد ، ومع هذا فلم يمنعها جودة هذا الوضع من العمل للعودة . ومشروعنا المقترح لا يوفر مثل ذلك الوضع الجيد المذكور بل هو يؤمن الحد الادنى من ضرورات بناء المواطن اجتماعيا ونفسيا وصحيا بل ونضاليا . والثانية ان هذه المساكن المقترحة بحكم انها ملك للدولة العراقية سوف تستفيد منها هذه الاخيرة ، في حال تحقق العودة المرتقبة ، لمواطنيها المحتاجين وبذلك فانها ستكون من المشاريع الاجتماعية دائمة النفع .

مديرية شؤون الفلسطينيين : أسست المديرية كما ذكرت عام ١٩٥٠ بميزانية سنوية ثابتة قدرها ٢٠٠٠٠٠ دينار وهي توزع على الخدمات : بنسبة ٧٥ ٪ تقريبا للمخصصات النقدية ونحو ١٣ ٪ لاجور السكن والباقي بدل الكهرباء والماء والتنظيف والمجاري . وترتبط المديرية اداريا بالمديرية العامة للخدمات الاجتماعية في وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل وهي تضم ٢٢ موظفا ومستخدما يرئسهم مدير ادارة شؤون اللاجئين الفلسطينيين(١٤) وينقسم العمل اداريا الى الاقسام التالية :

١ — قسم البحث الاجتماعي ومهماته : أ — دراسة المشاكل والمنازعات بين الفلسطينيين. ب — دراسة الحالة السكنية وتقديم التوصيات بشأنها . جـ — دراسة الحالة المعيشية وتطبيق التعليمات المرعية . د — الاشتراك في لجان المخصصات والسكن وجمع الشمل . هـ — تنظيم قرارات اللجان وتنفيذها . و — الاحصاء وتدقيق الجداول الاجتماعية لملجأي الموصل والبصرة .

٢ — قسم الادارة ومهماته : أ — استئجار واخلاء وترميم الدور المشغولة بالفلسطينيين . ب — اشتغال الفلسطينيين . جـ — ايقاف وصرف المخصصات . د — تدقيق الوثائق المدرسية وانجاز مخابرات طلبة البعثات . هـ — ضبط قيود الاسر وتأشير المخابرات والهويات في السجلات . و — المخابرات السرية وذاتية الموظفين .

٣ — قسم الحسابات ومهماته : أ — صرف مخصصات اعاشة الفلسطينيين . — ب — اجراء التسوية القيدية للسلف . جـ — تجديد عقود الايجار ودفع بدلاتها . د — دفع اجور الكهرباء والماء والتنظيفات والنفقات الاخرى . هـ — دفع رواتب الموظفين والمستخدمين والاجراء .

٤ — قسم الاحوال المدنية ومهماته : أ — منح وثائق السفر وتمديدها وتبديلها والاضافات عليها . ب — منح بطاقات الهوية . جـ — الاحالة الى اللجان الطبية ومخابرات المستشفيات . د — اخبار دوائر أمناء السجل المدني المختصة بالولادات . هـ — تسجيل المواليد وصرف اعانات الولادة . و — اخبار دوائر الصحة والمستشفيات بالوفيات. ز — ترقين قيد المتوفين وصرف اعانات الوفاة . ح — اصدار كتب التأييد الى المحاكم الشرعية المختصة. ط — تنظيم وكالات المخصصات وتجديدها والغاؤها . ي — انجاز مخابرات سفر الفلسطينيين وعودتهم. ك — تأييد الجنسية والعمر وفقر الحال.

٥ — قسم الاوراق : وتشمل مهماته تسجيل المخابرات الصادرة والواردة وحفظها .

٦ — قسم الطباعة .

٧ — ادارة ملجأ راحيل شحمون ومهماته : أ — استلام اعلامات الولادة وارسالها الى هذه المديرية . ب — الاخبار عن حوادث الوفيات . جـ — الاخبار عن كافة المخالفات والمنازعات في الملاجيء . د — ابلاغ الفلسطينيين بالاوامر والتعليمات الصادرة من المديرية .

كما تضم المديرية سبع لجان متخصصة كالاتي : ١ — لجنة المخصصات وتقوم بصرف او قطع او التوصية بصرف المخصصات حسب التعليمات المرعية . ٢ — لجنة السكن ومهماتها : أ — الكشف عن الدور وتقديم التوصية باستئجارها. ب — تخصيص المساكن كلما توفرت للاسر المحتاجة. جـ — اجراء التبادل بالمساكن . هـ — فصل المنازعات المتعلقة بالسكن . ٣ — لجنة جمع الشمل . ٤ — لجنة تسجيل الفلسطينيين . ٥ — لجنة ترميم المساكن . ٦ — لجنة المشتريات . ٧ — لجنة ترشيح البعثات .

ان أي دراسة ديموغرافية للسكان تحتاج الى توفر احصاءات دقيقة عن عدد هؤلاء السكان خلال سنوات مختلفة ، عدد المواليد ، عدد الوفيات ، حوادث الزواج والطلاق ، حركة الهجرة ، تركيب السكان العمري والجنسي . غير ان مثل هذه الاحصاءات تشح بالنسبة لفلسطينيي العراق : ١ ـ المعلومات المتوافرة ، على قلتها ، تتعلق باللاجئين منهم فقط ولا تتناول الفلسطينيين غير المسجلين لاجئين . ٢ ـ لا تحتفظ مديرية شؤون الفلسطينيين بسجلات تتعلق بحركة السكان ، وانما يضطر الباحث كي ينال بغيته الى اللجوء الى كثير من الملفات المكدسة بما يرافق هذه الطريقة من احتمال ضياع كثير من المعلومات ان فاته البحث في ملف او اكثر[١٥]. ٣ ـ لا توجد ارقام جاهزة عن عدد اللاجئين وكل ما استطعت الحصول عليه رقمان يبينان عددهم في عامي ١٩٦٤ و١٩٦٩ فقط. غير انه من خلال المعلومات التي توافرت لدينا والتي استقيناها من ملفات مديرية الفلسطينيين نحاول القاء نظرة سريعة على الوضع الديموغرافي للفلسطينيين المسجلين لاجئين .

الولادات : كما أشرت لا توجد احصائية جاهزة تبين عدد الولادات كي يتمكن الباحث من استخلاص النتائج المتوخاة . غير اننا من خلال تجولنا في ملفات شهادات الولادة المحفوظة لدى مديرية شؤون الفلسطينيين استطعنا ان نحصي ٣٩٨ ولادة خلال عام ١٩٦٩ ولدى نسبتها الى عدد اللاجئين المسجلين ذلك العام (١٣٧٤٣ مواطنا) نجد ان نسبة المواليد تبلغ ٢٨،٩ بالالف .

ولنا ملاحظات على هذه النسبة : ١ ـ يجب ان يؤخذ بعين الاعتبار احتمال الخطأ لدى احصاء شهادات الولادة الموزعة على أكثر من ملف . ٢ ـ كما ان علينا ان نلاحظ انه معروف ان عددا من الولادات لا تسجل بسبب : أ ـ عدم التشدد في تطبيق القوانين الملزمة بتسجيل اية ولادة جديدة . ب ـ ارتفاع نسبة الوفيات بين الاطفال الرضع (دون السنة الواحدة) مما يضعف فرصة التسجيل باعتبار ان موت الوليد يلغي حاجة تسجيله اساسا . وهذا يجعلنا نجزم بأن نسبة المواليد اكثر مما ذكرنا . ٣ ـ سجلت هذه النسبة زيادة ملحوظة على مثيلتها لدى سكان العراق فمعدل الولادات في مدن بغداد والموصل والبصرة خلال السنوات ٤٧ـ٥٧ بلغ ٢٢ بالالف[١٦]. ٤ ـ لمقارنة هذه النسبة بغيرها من معدلات المواليد في اقطار أخرى تثبت معدل المواليد[١٧] لكل ألف من السكان في : العراق : ٢٠،٧ ، سوريا : ٢٥ ، ج. ع. م. : ٤٢،٨ ، فرنسا : ١٩،٥ ، النمسا : ١٤،٩ ، ايطاليا : ١٨،٣ .

الوفيات : ما ذكرناه عن الولادات من حيث عدم توفر الاحصائيات ينطبق على الوفيات ايضا . وبالطريقة نفسها استطعنا ان نحصي للعام ١٩٦٩ (٧٤) شهادة وفاة. وبذلك تكون نسبة الوفيات ٥،٣ بالالف . غير اننا نتحفظ على هذه النسبة اذا قارناها بما هي عليه في الاقطار المتقدمة حضاريا فلا يخفى « ان العراق يصنف ضمن مجموعة الاقطار التي تسجل فيها حركة الوفيات أعلى المعدلات العالمية »[١٨] وتبلغ اعلى نسبة وفيات في العالم ما بين ٢٠ ـ ٣٠ في الالف : ٢٣ في الهند، ٢٤،٧ في سيلان ، واقل نسبة وفيات حوالي ١٠ في الالف : ٨،٩ في هولندة ، ١٠ ـ ١٢ في اسكندنافية[١٩].

ونتناول موضوع الوفيات من جانب آخر فنلقي نظرة على اسباب الوفيات لدى البالغين ثم لدى الاطفال: من دراسة ١٠٠ شهادة وفاة بالغ معروفة الاسباب اختيرت اختيارا عشوائيا من بين نحو ٤٠٠ شهادة وفاة لعدد من السنين كانت اسباب الوفيات كما يلي : ٣١ وفاة بأمراض القلب و١٧ بالشيخوخة و١٤ بالسرطان و٧ بالسل و٧ بتسمم الدم بالبول و٥ بارتفاع ضغط الدم و٥ نزيف دماغي و٢ تشمع الكبد و٢ لكل من : التهاب المعدة ، الروماتزم ، الجلطة الدموية ، الحروق، ووفاة واحدة لكل من: الشلل ، اليرقان ، السكر .

ومن اطلاعنا على ٤٥ شهادة وفاة اطفال اختيرت بالطريقة السابقة وجدنا ان اسباب الوفيات كما يلي : ١٨ ذات الرئة و٩ الاسهال و٧ النقص الولادي و٣ الهزال و٢ القلب ووفاة لكل من جفاف الانسجة ، السعال الديكي ، الحروق ، اليرقان ، الورم الدماغي ، شلل الحنجرة . ويلاحظ بالنسبة لوفيات الاطفال ان الامراض التي يمكن ان نطلق عليها اجتماعية مثل ذات الرئة والاسهال والهزال تعد مرتفعة (تشكل ٦٦،٦ ٪ من مجموع الاسباب) ومثل هذه الامراض تكون نتيجة الظروف الاجتماعية والاقتصادية المتدنية مما يستتبع سوء التغذية

والمسكن والجهل بأصول رعاية الطفل وبمبادىء الصحة العامة .

نمو السكان : لتحفظنا على نسبة الوفيات لدى لاجئي العراق لا نستطيع ان نستخرج الزيادة الطبيعية لديهم[٢٠]. لذا نلجأ الى احتساب النسبة المئوية للزيادة السنوية وهي التي توفرها لنا سجلات مديرية شؤون الفلسطينيين لسنتين فقط : عام ١٩٦٤ وعام ١٩٦٩ . فقد كان عدد اللاجئين في العراق عام ١٩٦٤ يبلغ ١٠٩٦٤ بينما بلغ عددهم في عام ١٩٦٩ ١٣٧٤٣ وبذلك تسجل الزيادة السنوية نسبة مئوية قدرها ٥٫٤ ٪ . الا اننا لا نستطيع ان نسلم باطلاق بصحة هذه النسبة : ١ — هي مرتفعة جدا اذا قورنت بغيرها من النسب في العالم ، وللمقارنة نثبت الجدول التالي للاعوام ٥٠ — ١٩٥٥[٢١]: فان النسبة المئوية للزيادة السنوية في جنوب شرق آسيا ١٫٧ وفي جنوب غرب آسيا ٢٫٥ وفي شمال وغرب اوروبا ٠٫٦ وفي جنوب اوروبا ٠٫٩. كما ان نسبة نمو السكان في العراق نفسه للسنوات ١٩٥٧ — ١٩٦٧ كان معدلها ٣٫٢٦٤ ٪[٢٢]. ٢ — في ظننا ان هذه النسبة المرتفعة كانت نتيجة لتسجيل لاجئين جدد في مديرية شؤون الفلسطينيين اكثر منها مؤشرا الى زيادة طبيعية في السكان .

التركيب العمري والنوعي للسكان : ان تكوين السكان حسب فئات السن يعتبر من أهم وأخطر العوامل الديموغرافية في دلالتها على قوة السكان الانتاجية ومقدار حيويتهم . كما ان هذا التكوين تنسحب اهميته على مجالات اخرى خلاف المجال الديموغرافي ، « فهيئات العمل لا بد ان تعرف حركة العاملين فيها وعدد السكان في سن العمل ، كما ان المهتمين بالشؤون الاجتماعية لا بد لهم من الالمام بنسب السكان في سن التلمذة وبحركة الاعمار نحو الشيخوخة .. كما ان الدولة تحرص على تحليل هذه التراكيب لضرورات الامن القومي والدفاع عن الوطن »[٢٣].

جدول رقم (٥) التركيب العمري للاجئي العراق[٢٤]
(كانون الثاني ١٩٧١)

فئة العمر	الذكور ٪	الاناث ٪
٠ — ٩	٣٠	٢٩
١٠ — ١٩	٢٩	٣٠
٢٠ — ٢٩	١٦	١٥
٣٠ — ٣٩	١٠	١٠
٤٠ — ٤٩	٦	٦
٥٠ — ٥٩	٣	٥
٦٠ +	٦	٥
المجموع	٪١٠٠	٪١٠٠

يتضح لنا من دراسة الجدول ما يلي :

١ — يلاحظ ان فئة العمر (٠ — ٩) تتساوى مع الفئة (١٠ — ١٩) وهو امر غير مقبول ديموغرافيا لشعب فتي كثير المواليد مثل الشعب العربي ، اذ من المفروض ان تزيد الفئة الاولى على الثانية . غير اننا نعزو هذه الظاهرة الى أمرين : أ — اثناء اخذنا العينة من سجلات الاسر (كانون الثاني ١٩٧١) لاحظنا ان مواليد عام ١٩٧٠ لم يسجلوا جميعا بدليل ان تواريخ ميلاد هذا العام لم تكن تتجاوز شهر حزيران الا نادرا ، ويعود هذا الى ان بيانات الولادة لم تكن قد وصلت بعد الى مديرية شؤون الفلسطينيين ، ويؤكد هذا الامر انه لا يوجد حافز لدى الاباء لتسجيل اطفالهم الجدد الا بعد بلوغهم السنة الاولى من اعمارهم كي يتقاضوا عنهم المخصصات المالية . ب — من المعروف ديموغرافيا ان نسبة الولادات تميل الى الانخفاض في السنوات التي تعقب الحروب والاضطرابات والثورات . والشعب الفلسطيني ، وبضمنه فلسطينيو العراق ، يخوض منذ عام ١٩٦٧ حربا وثورة على اكثر من جبهة ، فهل حدث انكماش في نسبة المواليد نتيجة ذلك ؟ نرانا نميل الى هذا الرأي . ولترجيح ذلك نذكر ان نسبة المواليد من الجنسين الى مجموع السكان في عامي ١٩٦٨ و١٩٦٩ مجتمعين هي ٥٫٤ ٪ بينما النسبة ذاتها في عامي ١٩٦٥ — ١٩٦٦ هي ٦٫٣ ٪ وهذا يجعلنا نرجح حدوث انكماش في نسبة المواليد في السنوات التي أعقبت ١٩٦٧ .

٢ — مع اخذ ما اتضح لنا في الفقرة السابقة بعين الاعتبار واذا رسمنا هرما سكانيا مبنيا على الارقام السابقة يظهر لنا ان اللاجئين الفلسطينيين في العراق في دور الشباب الديموغرافي . فقاعدة الهرم ستكون عريضة وجوانبه تتقوس تقوسا طفيفا نحو الداخل وتنحدر تدريجيا . والسكان في مثل هذا الدور يمتازون بالحيوية وبالقدرة على الانجاب فهم يسيرون نحو الازدياد .

٣ — السكان في سن العمل : في حالة دور الشباب الديموغرافي يتركز ٤٠ ٪ من السكان او اكثر في

فئات السن الصغيرة (أي أقل من ١٥ سنة) ، وبوجود ٥٠ ٪ من السكان في فئات السن المتوسطة (١٥ — ٦٤) والباقي وهي نسبة ضئيلة لفئات السن الكبيرة (+ ٦٥ سنة) . وبالنسبة لموضوع بحثنا فان : ٤٥ ٪ من السكان هم من فئات السن الصغيرة و٥٠ ٪ منهم يتركزون في الفئة المتوسطة و٥ ٪ منهم في الفئة الكبيرة . اي ان السكان في سن العمل (١٥ — ٦٤) هم ٥٠ ٪ من مجموع السكان ، وهذا يعني ان عبئا كبيرا يقع على السكان العاملين اذ يعولون نصف السكان اذا افترضنا ان الرجال والنساء يعملون معا وهذا غير متوفر لدى الشعب العربي قاطبة بما فيه الفلسطينيون ، الامر الذي يلقي تبعات اكثر على العاملين فربما تصل النسبة الى ان اكثر من ٧٠٪ من السكان يظلون عالة على العاملين .

ونقارن هذه النسب التي ذكرناها بمثيلاتها في اقطار أخرى كي تتضح الصورة أكثر .

القطر وسنة التعداد		تحت١٥	١٥—٦٤	+٦٥
ج٠ع٠م	١٩٦٠	٤٢٫٨	٥٣٫٧	٣٫٥
العراق	١٩٥٧	٤٤٫٥	٥٠٫٤	٥٫١
المملكة المتحدة	١٩٥١	٢٢٫٣	٦٦٫٨	١١٫٠
الولايات المتحدة	١٩٥٠	٢٦٫٩	٦٤٫٩	٨٫٢
لاجئو العراق	١٩٧٠	٤٥	٥٠	٥

٤ — ان ارتفاع نسبة السكان في سن العمل (١٥ — ٦٤) يعتبر قرينة لمقدار التطور الحضاري اذا رافق هذا الارتفاع ارتفاع آخر في حجم غير القادرين على العمل من كبار السن (فوق ٦٥ سنة) . وللتدليل على ذلك نذكر هذه الارقام : نسبة السكان في سن العمل مرتفعة في السويد ٦٦٫٨ ٪ وفي النمسا ٦٦٫٥ ٪ وهما من الدول المتقدمة حضاريا ونسبة كبار السن فيهما ٩٫٦ ٪ و١٠٫٦ ٪ على التوالي . بينما النسبة الاولى في تركيا والمكسيك ٥٩٫٣ ٪ و٥٤٫١ ٪ والنسبة الثانية ١٫٢ ٪ و٢٫٩ ٪ على التوالي والدولتان من الدول النامية . اما بالنسبة لفلسطينيي العراق فهي ٥٠ ٪ و٥ ٪ .

٥ — ربما يكون من المفيد في مثل هذا البحث ان نذكر ان نسبة الذكور الذين في سن الجندية (١٨ — ٣٩) بين لاجئي العراق هي ١٦ ٪ من مجموع السكان . (هذه النسبة هي ١٢٫٦ ٪ لدى المواطنين العراقيين عام ١٩٥٧) .

٦ — ان نسبة النوع او الجنس لدى لاجئي العراق هي ٩٣٤٪[٢٥] (عام ١٩٧٠) . وهي نسبة تتقارب مع مثيلاتها في الاقطار العربية ، المغرب ٩٩٦ (عام ١٩٥١) ؛ الاردن ٩٦٨ (١٩٥٢) ، سوريا ٩٦٧ (عام ١٩٥٦) ، العراق ٩٩١ (عام ١٩٥٧) .

٧ — ان نسبة الذين ولدوا منذ عام ١٩٤٩ فصاعدا هي ٥٨٫٣ ٪ من مجموع السكان .

وقبل الانتقال الى موضوع آخر في هذا الفصل أود أن أشير الى أن مديرية شؤون الفلسطينيين كانت تقوم (مطلع عام ١٩٧١) بمسح اجتماعي/سكاني ميداني للاجئين المسجلين لديها . وحين تنشر نتائج هذا المسح فستكون لها فوائد دراسية جمة .

الدخل والمستوى الاقتصادي : لدى حديثنا عن مثل هذا الموضوع ينبغي ان نميز مبدئيا بين قطاعين من الفلسطينيين في العراق : الاول الفلسطينيون الذين يسكنون الملاجىء والدور الحكومية المجانية، والثاني أولئك الذين يسكنون خارجها . فلكل من هذين القطاعين مستواه الاقتصادي الذي يختلف عن الاخر. والتمييز يجب ان يلحظ ايضا بين «اللاجئين» وما يمكن ان نطلق عليهم منهجيا اصطلاح « الوافدين » وهم الذين قدموا العراق لا طلبا للجوء وانما بحثا عن عمل باعتبار ان العراق ، والى حد ما ، يمثل قطرا جاذبا للهجرة .

ان نظرة عامة الى واقع سكان الملاجىء تظهر بوضوح ان غالبيتهم يعانون من وضع اقتصادي متدن اذا قورن بوضع اقرانهم الذين يسكنون على نفقتهم الخاصة. ويكفي برهانا على صحة هذه النظرة انهم ما زالوا يعيشون في بؤس الملاجىء التي أتينا على وصفها في الفصل السابق . وسكان الملاجىء والدور الحكومية المجانية في العراق يشكلون نسبة ٦٣ ٪ من اللاجئين .

وكي لا يظل ما طرحناه مجرد « رأي » قابل للنقاش قمنا بدراسة ميدانية للجأين من هذه الملاجىء[٢٦]: ملجأ راحيل شحمون وهو من اكبر ملاجىء بغداد وملجأ السباع وهو من المتوسطة فيها . وخرجنا بهذه الحقائق كما هي في كانون الثاني ١٩٧١ : عدد سكان الملجأين معا ٣٨٤ وعدد الذين يعملون منهم ٥٣ . وبذلك تكون درجة المعيلين ١٣٫٨٪ [٢٧]. وهذا يعني ان كل ١٣٫٨ من السكان يقع عليهم عبء اعالة ١٠٠ منهم . ولدى مقارنة هذه الدرجة بمثيلاتها في بعض الاقطار العربية تظهر لنا الهوة

المنخفضة التي تصل اليها الاولى . فهي في العراق مثلا عام ١٩٥٧ ٢٨٫٢ ٪(٢٨)، وهي في العام نفسه في سوريا ٣٢٫٥ ٪ وفي ج ع م ٣٤٫١ ٪ وفي تونس ٣٥٫٨ ٪ ومن المفروض ان تكون هذه الدرجات عام ١٩٧١ قد ارتفعت الى اكثر من ذلك نتيجة للتطور الاقتصادي .

غير ان هذا المؤشر يعضده آخر لا يقل عنه اهمية. فمعدل الاجور للعاملين الفلسطينيين في هذين الملجأين موضوعي البحث هو ٣٢٠ دينارا في السنة بينما نستطيع ان نفترض مستندين الى بعض الاحصاءات المتوفرة ان معدل دخل العامل العراقي في بغداد في عام ١٩٧١ يزيد عن ٣٢٥ دينارا في السنة(٢٩).

وهذا يعني ما يلي : اولا ان معدل أجر العمال العراقيين يزيد عن معدل دخل « المشتغلين » الفلسطينيين في الملاجىء . وهؤلاء « المشتغلون » لا يضمون عمالا فحسب وانما بينهم عدد من الموظفين (معلمين وموظفين في الدوائر الرسمية) واصحاب محلات (تجارية ومطاعم) وحرفيين . وهذا يعني ضمنا ان معدل أجر « العمال » الفلسطينيين ينخفض بنسبة لا بد ان تكون ملحوظة عن معدل اجر امثالهم من العمال العراقيين . وثانيا ، من زاوية اخرى يبدو ان الفروق بين اجر العامل العراقي و« المشتغل » الفلسطيني طفيفة او تكاد تكون متساوية . ولكن لو وضعنا في الاعتبار درجة المعيلين الفلسطينيين وقارناها بدرجة المعيلين العراقيين لتأكدنا ان دخل المواطن الفلسطيني في الملجأ يظل ادنى بدرجات من دخل زميله المواطن العراقي . والمعادلة التالية تظهر هذه الحقيقة : ان كل ١٠٠ مواطن فلسطيني في الملجأ يعيشون على عمل ١٣ مشتغلا ، دخل الفرد السنوي منهم ٣٢٠ دينارا . وان كل ١٠٠ مواطن عراقي يعيشون على عمل ٣٥ — ٣٨ عاملا ، أجر العامل السنوي منهم ٣٢٥ دينارا .

ان هذا التحليل المبسط المبني على دراسة نموذجية للملجأين في بغداد يقطع باليقين بأن غالبية سكان الملاجىء يعانون من هبوط في الدخل مما يستتبع هبوطا مشابها في المستوى المعيشي لديهم . ولتفسير هذا الواقع لا بد من الاشارة الى أن اللاجئين الفلسطينيين قدموا في عام ١٩٤٨ من مجتمع زراعي (اجزم ، جبع ، عين غزال) فاصطدموا بمجتمع متطور نسبيا في بغداد في وقت لم يكونوا يملكون فيه سلاح علم او حرفة مما اضطرهم ، وهم الذين فقدوا كل شيء ، الى كسب معيشتهم عن طريق اللجوء الى الحرف الصغيرة التي لا تحتاج الى مهارة خاصة — بائعين متجولين، عمالا في المحلات التجارية ، بائعي خضروات ، عمال بناء مبتدئين . يؤكد هذه الحقيقة ان من جملة ٣٨ شخصا يشتغلون من سكان ملجأ راحيل شحمون يوجد : ١٥ عاملا غير ماهر ، ١٣ عاملا في مهن مختلفة ، موظفان ، مستخدمان ، فراشان ، خياطان ، بائع اقمشة ، ومدرس . يضاف الى ذلك ان ما تدفعه الحكومة العراقية من مخصصات الى جانب توفير السكن المجاني قد خلق حالة من الركود في كسب العيش وتحسين وسائله ، وربما كانت هذه الحالة سببا في قتل روح الطموح والمبادرة .

ولكن ماذا عن الفلسطينيين خارج الملاجىء ؟ في الحقيقة لا تتوفر لدينا احصاءات وافية نستطيع الاعتماد عليها باطلاق . ولكن لعل الجدول رقم ٦ لسلم الدخل المستقى من تقديرات منظمة التحرير الفلسطينية في بغداد لدخول المواطنين الفلسطينيين لفرض ضريبة التحرير ، لعله يعطي بصورة تقريبية فكرة عن سلم الدخل للفلسطينيين جميعا من ذوي المهن والحرف الحرة (غير الموظفين او المستخدمين في المؤسسات الحكومية او الشركات) . وقد كانت طريقة المنظمة في تقدير الدخل ان تركت للمواطن نفسه حق التقدير ثم قامت لجنة اختصاصية بفحص هذا التقدير في ضوء معلوماتها وبدراسة كل حالة على انفراد بفحص السجلات والمقارنة بين اصحاب المهنة الواحدة واعطي المكلف الحق في الطعن والاعتراض لدى لجنة شكلت لهذا الغرض . وحتى كانون الثاني عام ١٩٧١ كان الذين شملهم التقدير ٣٧٩ مكلفا موزعين كما يلي : ١٦٨ عاملا، ٧٤ حرفيا ، ٣٣ بقالا ، ٣٢ تاجرا ، ٣٠ صاحب مطعم ، ٢٤ بائع اقمشة متجول ، ١٨ مهن أخرى. وقد اخترنا ان نبدأ سلم الدخل بـ ٣٠٠ دينار سنويا لاعتقادنا ان مثل هذا الدخل يعتبر الحد الادنى المتقشف لما يمكن ان تعتاش به اسرة متواضعة في بغداد ، لا بل ان هذا الدخل ان لم ترفده مساعدات نقدية او ترافقه مجانية السكن يظل أقل من أن يوفر معظم ضرورات الحياة(٣٠). وربما يكون من المفيد ان نثبت هنا تقسيما آخر للدرجة الاولى من سلم الدخل (فئة أقل من ٣٠٠ دينار) فنحصل على الجدول التالي :

الدخل السنوي بالدينار	العدد	النسبة المئوية في الدرجة نفسها	النسبة المئوية للمجموع العام
— ١٠٠	١٣	٧ ٪	٣ ٪
١٠١ — ٢٠٠	٨٣	٤٦ ٪	٢١ ٪
٢٠١ — ٣٠٠	٨٥	٤٧ ٪	٢٢ ٪

جدول رقم (٦)

دخول الفلسطينيين غير الموظفين او المستخدمين

الدخل السنوي بالدينار	العدد	النسبة المئوية
— ٣٠٠	١٨١	٤٧،٧٥ ٪
٣٠١ — ٦٠٠	١١٩	٣١،٤٠ ٪
٦٠١ — ٩٠٠	٣٩	١٠،٣٠ ٪
٩٠١ — ١٢٠٠	٢٣	٦،٠٧ ٪
١٢٠١ — ١٥٠٠	٢	٠،٥٣ ٪
١٥٠١ — ١٨٠٠	٧	١،٨٤ ٪
١٨٠١	٨	٢،١١ ٪
المجموع	٣٧٩	١٠٠٪

كما ذكرنا في الحاشية رقم (٢٩) فـــان الدخل المفترض لاسرة متوسطة صغيرة هو ٦٠٠ دينار سنويا لذا فاننا نستطيع ايضا ان نصنف مواطني الدرجة الثانية من سلم الدخل (فئة ٣٠١ — ٦٠٠ دينار) ضمن الاسر ذات الدخل المنخفض .

واذا صحت تقديرات منظمة التحرير الفلسطينية ، ونراها اقرب ما تكون الى الصواب نتيجة الجهد الكبير الذي بذل في تقدير الدخول ، وصدق تمثيل العينة على مجموع الفلسطينيين في العراق فاننا نستنتج ان نحو ٨٠ ٪ من الاسر الفلسطينية في العراق تعاني من دخل منخفض نسبيا وان نحو ١٦ ٪ (اصحاب الدخول من ٦٠١ — ١٢٠٠) يتمتعون بدخل متوسط وان نحو ٤ ٪ منهم فقط تتيح لهم مواردهم المالية مستوى افضل من سابقيه .

اما بالنسبة للموظفين والمستخدمين في الدوائـــر والمؤسسات الحكومية فان الجدول رقم ٧ يبين سلم الدخل لديهم بدرجات مئوية مماثلة لتلك التي في جدول سلم الدخل لغير الموظفين .

جدول رقم (٧)

سلم الدخل للموظفين والمستخدمين الفلسطينيين
في الوزارات والدوائر الرسمية في العراق عام ١٩٧٠[٣١]

الدخل السنوي بالدينار	العدد	النسبة المئوية
— ٣٠٠	٣٨	١٨،٦٦ ٪
٣٠١ — ٦٠٠	١٢٢	٥٩،٨٠ ٪
٦٠١ — ٩٠٠	٣١	١٥،١٨ ٪
٩٠١ — ١٢٠٠	٩	٤،٤٠ ٪
١٢٠١ — ١٥٠٠	١	٠،٤٩ ٪
١٥٠١ — ١٨٠٠	٢	٠،٩٨ ٪
+ ١٨٠٠	١	٠،٤٩ ٪
المجموع	٢٠٤	١٠٠ ٪

وينبغي ان يؤخذ بعين الاعتبار عند دراسة هذا الجدول ما يلي : ١ — انه يشمل الفلسطينيين بفئتيهم اللاجئين منهم والوافدين . ٢ — كما أشرت سابقا ان الحصول على أي معلومات من ملفات مديرية شؤون الفلسطينيين تضطر الباحث كي ينال ما يطلب الى ان يتجول في كثير من الملفات المكدسة مما يجعل ضياع بعض المعلومات محتملا .

وهناك ملاحظات اخيرة على سلمي الدخل مجتمعين : ١ — ان اقل دخل عرف لدينا بالنسبة لغير الموظفين هو ٦٠ دينارا في السنة واعلى هذه الدخول هو ٦٠٠٠ دينار . وان ادنى دخل بالنسبة للموظفين والمستخدمين هو ١٢٠ دينارا في السنة واعلى دخل هو ٢٧٧٤ دينارا في السنة . ٢ — ان معدل الدخل لغير الموظفين هو ٤٩٩ دينارا في السنة وللموظفين والمستخدمين ٥٣٥ دينارا . ٣ — يظهر الجدولان مجتمعين ان ٧٩ ٪ من المجموع الكلي دخلـه اقل من ٦٠٠ دينار وان ١٧٪ منهم يقع دخل الواحد بين ٦٠١ — ١٢٠٠ وان ٤٪ من الجميع تتجاوز دخولهم ١٢٠١ دينار في السنة .

التوزع المهني وفرص العمل : يمتهن عدد كبير من اللاجئين الفلسطينيين في العراق الحرف الصغيرة ذات الدخل المتواضع ومن هؤلاء تعاني نسبة كبيرة من البطالة التي تلمح مؤشراتها في اكتظاظ المقاهي القريبة من اماكن تجمعات اللاجئين بهم . وكما اشرت في الفصل الاول فقد زادت نسبة هؤلاء الذين يعملون في الحرف الصغيرة (خاصة اجراء في المطاعم) بقدوم اعداد من النازحين الجدد ، من الضفة الغربية خاصة ، في اعقاب حرب ١٩٦٧ . ويوجد فوق هذه القاعدة العريضة من الهرم الحرفي عدد كبير من الفلسطينيين الذين يعملون في الشركات والبنوك اداريين ومحاسبين وكتبة . ويقل عن هؤلاء عددا أولئك الذين يعملون في الدوائر والمصالح الحكومية . ونعتقد ان مرد ذلك يعود الى ان الشركات تدفع رواتب اعلى من الرواتب الحكومية، يضاف الى ذلك ان المواطن الفلسطيني لم يكن يتمتع وحتى وقت قريب ، بنفس حقوق الموظف العراقي في الاجر والتعيين والتقاعد . وتبين القائمة التالية توزع ٢٠٤ موظف ومستخدم فلسطيني في الوزارات والدوائر والمصالح الحكومية والشركات المؤممة : ٢٦ في مصلحة نقل الركاب / سائقين ، ١٧ في وزارة النفط ومؤسساتها ، ١٧ في المؤسسة العامة للتجارة ، ١٨ في مصلحة الكهرباء ، ١٠ في شركات الغزل والنسيج ، ٩ في المؤسسة العامة للصحافة والطباعة / كتاب وطابعون ، ٩ في شركات صنع الدخان ، ٨ في مصلحة السينما والمسرح العامة ، ٨ في شركة السمنت ، ٧ في شركات التأمين ، ٦ في شركات صناعة الادوية ، ٦ في البنوك المؤممة ، ٥ في مصلحة الموانىء ، ٥ في البريد والبرق والهاتف ، ٥ في مديرية التصميم والانشاء الصناعي العام ، ٥ في وزارة الري ، ٥ في رئاسة مجلس الخدمة العامة ، ٤ في مديرية المباني العامة ، ٣ في وزارة الاصلاح الزراعي ، ٣ في وزارة العمل — مديرية التخطيط ، ٣ في وزارة الزراعة ، ٣ في شركة استخراج الزيوت النباتية ، ٢ في وكالة الانباء العراقية ، ٢ في وزارة التخطيط، ٢ في مصلحة الخياطة العامة ، ٢ في مصلحة المزارع الحكومية العامة ، ١ في الشركة العامة للكيماويات والمعدات الزراعية ، ١ في مديرية الخدمات الاجتماعية العامة ، ١ في الشركة العامة للصناعات الهندسية ، ١ في محافظة بغداد .

يضاف الى هؤلاء الموظفين والمستخدمين في المصالح الحكومية ، المدرسون والمعلمون[٣٢] الذين يبلغ عددهم ١٠٥ موزعين كما يلي : ٤٦ مدرسا من قطاع غزة و ١٢ معلما من قطاع غزة و مدرسا واحدا من الضفة الغربية و ٤٢ مدرسا من فلسطينيي العراق و ٤ معلمين من فلسطينيي العراق . اي ان اكثر من نصف المعلمين والمدرسين هم من « الوافدين » . ويعامل المدرس « الوافد » معاملة تختلف عن المدرس « اللاجىء » ، فالاول يمنح ضعف الراتب الاساسي (الراتب الاساسي لحامل الشهادة الجامعية هو ٢٨ دينارا) ، بالاضافة الى غلاء المعيشة المقرر للموظفين العراقيين (١٣ دينارا) بجانب بدل سكن (١٨ دينارا عراقيا في الشهر) يختص به « الوافد » . وهو يعمل بعقد يتجدد سنويا . اما المعلمون (الوافدون منهم واللاجئون) والمدرسون اللاجئون فيتساوون بالموظف العراقي . والى جانب هؤلاء المعلمين والمدرسين يوجد عدد قليل ممن التحقوا بملاك التدريس الجامعي (نحو ١٢ بين مدرس ومعيد نصفهم من قطاع غزة) .

اما بالنسبة للمهن الاخرى كالطب والمحاماة والهندسة والصيدلة فالفلسطينيون فيها قلة (طبيبان وصيدلي واحد ومحام واحد وعدد قليل

جدا من المهندسين معظمهم من قطاع غزة) . غير انه علينا ان نلاحظ ان قطاع الزراعة ظل مجالا لم يلجه الفلسطينيون مع ان معظم اللاجئين الى العراق كانوا فلاحين ومزارعين في وطنهم ويعود ذلك الى السببين التاليين : الاول ان الحكومة العراقية لم تسمح للفلسطينيين بتملك الاراضي والعقارات كي تمنع استيطانهم(٢٣). الثاني ان الفلسطينيين جميعا تجمعوا عند لجوئهم في المدن الكبيرة : بغداد والموصل والبصرة وندر اولئك الذين سكنوا القرى باستثناء المعلمين .

القوانين الخاصة بعمل الفلسطينيين : ظل الفلسطينيون الموظفون في الدوائر الرسمية والمؤسسات الحكومية لفترة طويلة يعاملون معاملة خاصة كالاجانب . وقد نظمت هذه المعاملة في عام ١٩٦٤ بنص المنشور العام (عدد ١٥١٠٨ المؤرخ ٦٤/٧/٢٩) الصادر عن وزير المالية كما يلي : « قرر مجلس الوزراء بجلسته المنعقدة بتاريخ ٦٤/٥/١١ بشأن اللاجئين الفلسطينيين في وظائف الحكومة ما يلي : معاملتهم معاملة الموظف العراقي من حيث نوال الراتب والعلاوات السنوية ومخصصات غلاء المعيشة والاجازات بتطبيق قوانين وانظمة الخدمة عليهم باستثناء ما يلي : أ — عدم اعتبار خدماتهم تقاعدية لانه في حالة اعتبارها لهذا الغرض قد تدفع اللاجيء بالتشبث بالبقاء وعدم العودة هو وافراد اسرته في حالة استرداد الجزء السليب على ان يمنحوا عند انهاء خدماتهم ما يعادل راتب شهر واحد عن كل سنة بمعدل اخر راتب عند ترك الخدمة . ب — ان ينظم نموذج عقد يجدد كل ثلاث سنوات او خمس سنوات مع استمرار اعتبار الخدمة لغرض العلاوة والترفيع ومدة الخدمة لغرض المكافأة . على ان تكون المعاملة شاملة لكافة من يحملون شهادة مدرسية مقبولة حسب احكام القانون .

يرجى اتخاذ ما يلزم بهذا الشأن بعد مراعاة ما يلي : ١ — ان القرار هذا يشمل اللاجئين الفلسطينيين فقط ولا يشمل الفسطينيين على ان يقدم اللاجيء الفلسطيني وثيقة من الجهات المختصة تؤيد كونه لاجئا فلسطينيا . ٢ — تحتسب رواتبهم على ملاكات المستخدمين الاجانب » .

وقد ظل هذا القرار ساري المفعول الى عام ١٩٦٩ عندما عدل بقرار رقم ٣٣٦ صادر عن مجلس قيادة الثورة . فقد قرر المجلس بجلسته المنعقدة بتاريخ ١٩٦٩/٨/١٧ ما يلي : « التعيين : مساواة الفلسطينيين بالعراقيين عند التعيين والترفيع والتقاعد على ان يبقى التعيين مشروطا بالانهاء في حالة عودة الفلسطينيين الى ديارهم ... مساواة الفلسطينيين (الموظفين) بالعراقيين في حصولهم على الاجازات الدراسية وعند استلافهم من مصرف الرهون حسب الشروط المرعية»(٢٤).

التعليم : لقد اتاحت الحكومة العراقية للفلسطينيين اللاجئين اليها فرصة التعلم ، وقد تأكد هذا الامر بمجانية التعليم في العراق لجميع المواطنين بمختلف مراحله الابتدائية والثانوية والجامعية . غير انه لا تتوفر لدينا ولا لدى اية جهة اخرى في العراق احصائية تبين عدد الطلبة الفلسطينيين في مختلف مراحل التعليم وعلى مدى السنوات الماضية . وزارة التربية والتعليم العراقية تفتقر الى مثل هذه الاحصائية وكذلك مديرية شؤون الفلسطينيين. وقد قدرت الاخيرة تقديرا تخمينيا عدد الطلبة الفلسطينيين في اواخر عام ١٩٧٠ بنحو ٤٠٠٠ طالب في مختلف مراحل التعليم .

واذا جاز لنا ان نلجأ الى العينة في مثل هذا المجال الحيوي والبالغ الاهمية فاننا نذكر ان ملجأي راحيل شحمون والسباع(٢٥)في بغداد يمكن ان يقدما بعض المعلومات عن مثل هذا الموضوع : عدد الاسر في الملجأين معا ٨٦ اسرة ، مجموع السكان ٤٣٥ شخصا ، عدد الطلاب في مختلف مراحل التعليم ٧٥ طالبا ، عدد الطالبات ٦١ طالبة والمجموع ١٣٦ طالبا وطالبة . اي ان نسبة عدد الطلاب الى مجموع السكان تعادل ٣١٫٢٪ . وفي ملجأ راحيل شحمون (عدد سكانه ٢٤٩ موزعين على ٥١ اسرة) يبين الجدول رقم ٨ توزع الطلبة في مختلف مراحل التعليم .

وتخصص الحكومة العراقية سنويا عشرين منحة دراسية للدراسة في جامعاتها للطلبة اللاجئين في العراق . وقد بلغ عدد الذين استفادوا من هذه المنح ١٣٠ طالبا وطالبة . ويتم اختيار هؤلاء الطلبة عن طريق لجنة تتمثل فيها وزارة التربية والتعليم ومديرية الفلسطينيين ومنظمة التحرير الفلسطينية، وفي العام الدراسي ٧٠ — ٧١ توقفت هذه المنح دون ابداء الاسباب . بيد ان ما يثير التساؤل في موضوع الطلبة الفلسطينيين في العراق ، وهو ما لفت نظرنا اثناء مقابلاتنا للطلبة الذين كانوا يتقدمون بطلبات للحصول على بعثات دراسية ، ان

جدول رقم ٨

الطلاب في ملجـا راحيل شحمون

المرحـلة	طلاب	طالبات	المجموع	النسبة المئوية
الابتدائية	٢٤	٢٣	٤٧	٥٧ ٪
المتوسطة	١١	١٣	٢٤	٢٩ ٪
الثانوية	٠٢	٠٥	٠٧	٨ ٪
الجامعية	٠٤	٠١	٠٥	٦ ٪
المجموع	٤١	٤٢	٨٣	١٠٠ ٪

المعدلات التي كانوا ينالونها في شهاداتهم الثانوية كانت منخفضة اجمالا بشكل يدعو الى الاستغراب. كما ان هناك نسبة غير ضئيلة منهم فازوا بشهاداتهم الثانوية اثر اربع او خمس محاولات فاشلة . وهو امر يلفت النظر اذا قارنا هذه الحالة بتفوق الطلبة الفلسطينيين في مختلف اماكن تجمعاتهم . كمـا ان الطلبة « الوافدين » يسجلون نجاحات ملحوظة . ان الطالب اللاجـىء في العراق وبسبب اوضاعه الاقتصادية غير الملائمة مضطر الى الجمع بين العمل والدراسة علـى حساب الدراسة نفسهـا[٣٦]. يضاف الى ذلك ان الظروف السكنية البائسة التي يحياها الفلسطيني في الملاجىء تحمل في طياتها الف مشكلة ومشكلة ولا توفر ادنى شروط الدراسـة للطالب .

الوجه الثقافي : لـو استعرضنا الوجـه الثقافي لفلسطينيي العراق لتبين لنا ان الحركة الثقافية لديهـم لا تتماشى مطلقا مـع شبيهاتهـا لـدى الفلسطينيين في الاقطار العربية الاخرى . ونقر بأن نسبة فلسطينيي العراق الى اخوانهم في سائـر مهاجرهم قليلة ، كما ان الفلسطينيـين يمثلون في العراق اقلية مقارنة بمجموع الشعب العراقـي ، ومع هذا الاقرار تظل الحقيقة ملاحظة وهـي ان نسبة المثقفـين البارزين الى جملـة المواطنـين الفلسطينيين في القطر العراقي تظـل هزيلـة لا تستحق ذكرا . كما ان المؤسسات الثقافية لديهم او المؤسسات التي كان من الممكن ان ينشئوهـا او يشرفوا عليها معدومة كليا[٣٧].

واستعراض سريع لمختلف اوجه النشاط الثقافي يوصلنا الى هذه النتيجة التي اثبتناها . في الادب والتأليف : ان عدد الادباء والكتاب الفلسطينيين في العراق لا يتجاوز اصابع اليد الواحد . وقد حاول مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في بغداد تشكيل فرع لاتحاد الكتاب الفلسطينيـين فلم يتمكن لعدم توفر النصاب القانوني المطلوب (ثمانية اشخاص كحد ادنى) . ومن الاسماء التي تـذكر في هـذا المجـال : جبرا ابراهيـم جبرا — في الشعـر والرواية — ، سلافة حجاوي وخالد علي مصطفى في الشعر والاولان معروفان على مستوى عربي . اما في مجالات الادب والتأليف الاخرى فلن نجهـد الذاكرة في البحث عن غائب . وفي الفنون : في مجال الموسيقى يذكر اسما جميل قشطة وروحي الخماش وهما معروفان محليا الا ان شهرتهما قد خفت اخيرا واظن ان الاول منهما قد غادر العراق الى ج٠ع٠م ولم تسمع العراق قط بمطرب من فلسطينييها . اما الفنون التشكيلية (الرسم والنحت والتصوير) فلم يمارسها فلسطيني واحد . وكذلـك الحـال بالنسبة للفنون الشعبية باستثناء راقص فلسطيني في فرقة الرشيد للفنون الشعبية . وفي المسرح ، حاول بعض الشباب الفلسطيني ان يدخل ميدانه ولكن التجارب جميعا كانـت فاشلة لعـدم توفـر الكفـاءات المطلوبـة . وقد تخرج في السنـة ٦٩/٧٠ طالب فلسطيني من اكادمية الفنون الجميلة قسم التمثيل والاخراج (عباس علـي مصطفى) حاول مكتب المنظمة في بغداد اعطاءه فرصة ابراز كفاءته الا ان ظروفا عديدة تتعلق بالمكتب نفسـه حالت دون ذلك . وفي الصحافة والاعلام : ظلت هذه المجالات بعيدة عن متناول الفلسطينيين فلـم يلجوها باستثناء نادر لا يشكـل قاعـدة . ففي الصحافة نذكر اسم خالد علي مصطفى الذي شغل منصب سكرتير تحرير مجلة الف باء الاسبوعية . ومحمود عبدالله اليعقوبي الذي ظهرت له ولفترات متقطعة وقليلة بعض المقالات الصحفية في احـدى الجرائد اليومية . كما ان هناك محررا فلسطينيا في جريدة بغداد اوبزرفر اليومية . ولم يلج الاذاعة

والتلفزيون فلسطيني من العراق . اما في وكالة الانباء العراقية فنذكر اسم محمد محمود ابو زمق. وكي تكتمل الصورة نتطرق الى المجال الرياضي رغم انه لا يدخل في هذا الباب . ونلاحظ انه لم يلمع نجم رياضي فلسطيني واحد . والذي يستحق الذكر من الرياضيين حامي الهدف مروان غالب الذي يعتبر من لاعبي الدرجة الاولى في بغداد . وقد حاولت المنظمة ايلاء النشاط الرياضي جانبا من اهتمامها فشكلت فريقا لكرة القدم غير ان معظم لاعبي هذا الفريق كانوا من الفلسطينيين الوافدين.

الحياة السياسية

لم يحمل الفلسطينيون معهم في هجرتهم الاولى العام ١٩٤٨ ايا من مؤسساتهم السياسية والحزبية الى مهاجرهم الجديدة ، بعد ان فشلت تلك المؤسسات فكرا وممارسة في قيادة الشعب الفلسطيني وتنظيمه واعداده . غير اننا نستطيع ان نؤكد ان الفلسطينيين حملوا معهم شيئا حافظوا عليه هو فلسطينيتهم التي ما تخلوا عنها قط في احرج الظروف واقساها . ولم يشكل فلسطينيو العراق استثناء من هذه القاعدة ، بل ربما لا نجانب الصواب اذا ذكرنا ان « الفلسطينية » في العراق تأكدت اكثر منها في اي قطر عربي اخر ، اذ لم يذب الفلسطيني في المجتمع العراقي بل ظل محتفظا بجميع خصائص شخصيته بايجابياتها وسلبياتها ، وهو يتحسس هذه الشخصية ، تعيش معه في الوعي وفي اللاوعي . ولسنا هنا في صدد تقييم هذا الامر شجبا او موافقة ولكنها حقيقة يتلمسها كل من عاش في العراق وعايش فلسطينييه .

ولكن ما هي الظروف التي منعت الفلسطينيين من الاندماج في المجتمع الذي احاط بهم وابقتهم متفردين في فلسطينيتهم ؟ سأضرب صفحا عن « العام » الذي ينتظم الفلسطينيين جميعا في مختلف الاقطار التي لجأوا اليها ، واتناول « الخاص » الذي ربما تفرد به وضع الفلسطينيين في العراق .

لقد قدم اللاجئون الاوائل ، كما قلت في موضع سابق ، من مجتمع زراعي (قرى اجزم وجبع وعين غزال) واستقروا في العاصمة بغداد التي هي بالمقارنة مع مجتمع الاصول متطورة حضاريا . وكان هؤلاء اللاجئون بحكم فقرهم الشديد غير قادرين على تنمية انفسهم اقتصاديا ، وبحكم افتقارهم المهارات الفنية عاجزين عن الدخول في حلبة المنافسة مع العمال المهرة العراقيين . بمعنى انهم لم يستطيعوا ان يتكيفوا مع الحياة الاقتصادية الجديدة التي انفتحت امامهم بغتة وبدون سابق اعداد وتهيئة ، فاضطروا الى الانعزال في ملاجئهم ذات الجدران الفلسطينية والمحتوى الفلسطيني ، الامر الذي جعل منهم شبه طبقة ذات خصائص منفردة : فقيرة — فلسطينية ، وجعل اندماجها فيما حولها امرا متعذرا . وقد ساعد على ذلك جملة من العوامل ندرجها كما يلي :

١ — لم يعمل اي من اللاجئين في العراق في القطاع الزراعي بسبب ان الحكومات العراقية ، في مختلف عهودها ، منعت الفلسطينيين من تملك الاراضي من جهة ، ولان اللاجئين استقروا في المدن الكبيرة [بغداد ، البصرة ، الموصل] من جهة اخرى . وبذلك لم تتهيأ للفلسطينيين فرصة الاسهام في عملية الانتاج والالتصاق بالارض وهما عاملان رئيسيان من عوامل الاندماج .

٢ — لقد عززت القوانين والانظمة العراقية المتعلقة باوضاع الفلسطينيين عدم الاندماج : فقد ظلت معاملة الفلسطينيين معاملة متميزة في الوظائف والاقامة والسفر بالاضافة الى التملك . فقد كانوا حتى فترة قريبة يعاملون في الوظائف معاملة الاجانب ، وهم يمنحون تذاكر سفر خاصة بهم . ولدى سفرهم خارج العراق يطلب منهم ان يستحصلوا على موافقة مديرية شؤون الفلسطينيين، وفي اعقاب حرب ١٩٦٧ ، وخشية الهجرة خارج الوطن العربي ، اصبح الفلسطيني مضطرا عند السفر الى الحصول على موافقة منظمة التحرير الفلسطينية .

٣ — لا بد ان نشير كذلك الى التركيب الخاص للمجتمع العراقي والذي يتميز بتعدد قومياته وديانانه التي ترتصف على ارضيته متكاثرة دون شبهة من اعتراض. وهذه القوميات تحتفظ بجميع مقوماتها من عادات ولغة وغير ذلك . و « الفلسطينية » عندما دخلت العراق كاقلية اتخذت لها موقعا على هذه الخارطة البشرية دون ان تكون محتاجة لتبرير الاحتفاظ بشخصيتها او للتخلي عنها ازاء هذا التعدد المبرر والمقبول .

٤ — رغم ان العراق قد رحب بمقدم اللاجئين اليه ، الا ان كثرة من العراقيين ، وبسبب ما اتهم به الفلسطينيون باطلا بأنهم باعوا ارضهم ،

نظرت الى هؤلاء اللاجئين نظرة غير عادلة تخفض من قيمتهم . واذا كانت هذه النظرة ، ولفترة طويلة ، عامة في كثير من المجتمعات العربية ، الا انها كانت في العراق عنيفة قاسية وربما يعود ذلك الى الطبع الحدي الذي تتميز به السيكولوجية العراقية مما يؤدي الى الاحكام القطعية القاسية. وقد استتبعت تلك النظرة انكماشا في المجتمع الفلسطيني وحدت من انفلاشه فيما حوله .

هذه العوامل التي ذكرنا ، بالاضافة الى العوامل العامة التي تنطبق على الفلسطينيين في كل مكان مثل ضرورة الحفاظ على الشخصية الفلسطينية باعتبار ذلك مصلحة وطنية وموقف الرأي العام العربي من الفلسطينيين عزز « عدم الذوبان » الفلسطيني في العراق . ولكن هل يعني هذا ان فلسطينيي العراق معزولون عن الحياة السياسية فيه ؟ ثم ما مدى مساهمتهم في هذه الحياة وما هي مواقعهم السياسية والوطنية ؟ ذلك ما سنجيب عنه فيما يلي شاطرين البحث الى مرحلتين : ما قبل الثورة الفلسطينية ، وما بعدها واثناءها .

الفلسطينيون قبل الثورة الفلسطينية : لم تكن الساحات العربية التي لجأ اليها الفلسطينيون عام ١٩٤٨ لتخلو من اوجه النشاط السياسي ، ومع النكبة اضيف بعد جديد للعمل السياسي والوطني في العالم العربي تجلى في الشعارات و «البرامج» الجديدة التي تدعو لعودة الفلسطينيين الى ديارهم وتحرير ارضهم . وكان من الطبيعي والمنطقي ان ينخرط الفلسطينيون في مثل هذه النشاطات ويتوزعوا بين الاحزاب العربية المتواجدة واحيانا ليسهموا في ايجاد اخرى جديدة متخذين من تلك الاحزاب وبرامجها وسيلة لتحقيق هدفهم الكبير في عودتهم الى وطنهم ما دامت جميعها تضع هذا الهدف في صميم برامجها وتجعل له الصدارة في جملة شعاراتها .

وفي العراق بحث الفلسطينيون عن موضع قدم لهم في خضم هذه التيارات والمذاهب السياسية المتعددة التي كانت ولا تزال تجتاح العالم العربي والعراق في جملته . غير ان الدور الذي مثله الفلسطينيون على مسرح السياسة العراقية ظل دورا هامشيا عديم التأثير مسلوب الارادة[٢٨]. ويعود ذلك في رأينا الى عدم اندماجهم في المجتمع العراقي من جهة ومن جهة اخرى وهو السبب الاهم الى قلة عددهم مقارنا بمجموع الشعب العراقي مما جعل نصيبهم في المؤسسات السياسية والحزبية نادرا نسبيا ولا يكاد يذكر .

غير ان هذا لا يعني ان فلسطينيي العراق لم يتأثروا بالتيارات السياسية والوطنية التي رأوها تصطرع امامهم . هم لم يقفوا منها موقف المتفرج بل انفعلوا بها وانجرفوا في مدها . وكان ايمانهم بالثورة العربية ، باهدافها التي طرحتها ، ايمانا لا يرقى اليه شك . وقد وجدوا في « الناصرية » علامة بارزة من علائم هذه الثورة عندما كانت الناصرية لا تزال في اوج مجدها وعنفوانها ووجدوا فيها طريقهم الى وطنهم فدان معظم فلسطينيي العراق بمبادئها وحملوا شعاراتها وآمنوا بصاحبها منقذا ومحررا . وقد عانى الفلسطينيون كثيرا من جراء ذلك خاصة في العهود التي كانت على خلاف مستحكم مع « الناصرية » . والى جانب الناصرية بل دونها بدرجات اجتذبت الاحزاب عددا من الشباب الفلسطيني في العراق الذين ظلوا في حدود الكم المعدود ودون ان يكون لهم دور يستحق التسجيل في القيادة او المسيرة[٢٩]. ومن نافل القول ان نؤكد ان الاحزاب التي استأثرت بانتباه الفلسطينيين هي الاحزاب ذات البرامج القومية بالدرجة الاولى وان كانت الاحزاب الاممية والدينية لم تخل من بعض الفلسطينيين بخلاف الاحزاب ذات البعد الاقليمي (كالحزب الوطني الديموقراطي) التي لم تحظ بانتباه الفلسطينيين ولم تشغل بالهم. وربما يكون تقديرنا صحيحا الى حد بعيد اذا صنفنا ان حركة القوميين العرب وحزب البعث العربي الاشتراكي هما اللذان كان لهما النصيب الاكبر من اقبال الحزبيين الفلسطينيين ويندرج بعدهما في الاهمية الحزب الشيوعي ثم جماعة الاخوان المسلمين . ولكن نؤكد مرة اخرى ان الاعداد التي انخرطت في النشاط الحزبي ظلت اعدادا محدودة جدا ولا تشكل ظاهرة كما ظلت غير متنامية امام الانتماء الناصري لفلسطينيي العراق الذي ، وان كان اصحابه لم ينتظمهم تكتل ما ، فقد ظل يحرم الاحزاب من كسب المؤيدين .

والى جانب تأثير الناصرية على الاتجاهات السياسية الوطنية لدى فلسطينيي العراق فان خصوصية التجربة الحزبية في العراق بالاضافة الى وضع الفلسطينيين هناك كان لها نتائج لا تقلل من قيمتها في موقف الفلسطينيين السلبي ازاء الاحزاب ونشير الى هذا الامر اشارة سريعة :

١ — رغم ان الاحزاب في العراق وضعت القضايا القومية بما فيهــا القضية الفلسطينية في صلــب برامجها ، الا ان اهتماماتها العملية انصرفت في الدرجــة الاولى الى القضايا الــوطنية المحليــة [النضال ضد الحكم ، قضايا النفط ، الاصـــلاح الزراعي الخ] وهي قضايا ، رغم خطورتها ، لم تستطع ان تجذب الفلسطينيين جذبا محكما وتربطهم بالنضال من اجل انجازها .

٢ — ان عدد الفلسطينيين ، كما اشرنا ، قليــل بالمقارنة الى مجموع الشعب العراقي ، وهكــذا لم يكن هناك مجال واسع لظهور التيارات الحزبية في صفوفهم .

٣ — لقد تميزت التجربة الحزبية في العراق بطابع دموي عنيف ، ووصل الخلاف فيما بين اطرافها الى مستوى التناقض العــدائي ، يضاف الى ذلــك الانقسامات العديدة التي شقت كل حزب الى عدد من الفرق المتناحرة ، ولا شك ان تجربة هذه بعض خصائصهــا ما كــان لها ان تستهوي الفلسطيني فيخوض غمارها في وقت كان فيه في اشد الحاجة الى ان تلتفت هذه الاطراف المتصارعة الى قضيته القومية فتوليها جزءا من اهتمامها .

قبل ان انتقل الى الفترة التالية ، اجد من الضروري ان اشير الى تجربتين فلسطينيتين مرتا في العراق: الاولى **فوج التحرير الفلسطيني** : في شهر حزيران من العام ١٩٥٩ اعلن الزعيم الراحل عبد الكريم قاسم عن تشكيــل فوج عسكري مــن فلسطينيي العراق اطلق عليه اسم فوج التحرير . وخــلال الاشهر الاربعة الاولى من تشكيل الفوج انضم اليه نحو ٣٠٠ جندي و ٥٠ ضابطــا من الفلسطينيين (نسبة كبيرة من هؤلاء الضباط كانوا من غــزة) . وكان دافع المتطوعين الى هــذا الفوج ظنهم انــه سيكون نواة لحركة مسلحة فلسطينية تأخذ دورا طليعيا في معركة التحرير . غير ان الايام القادمة خيبت ظنهم . ففي عهد قاسم لم تزد مهمات الفوج عن اثنتين : الاستعراضات اثناء زيارات الوفود العربية الى العراق . والتدريب المتكرر المعــاد في معسكر الرشيد القريب من بغداد . لذا فلا عجب اذا توقف سيل المتطوعــين من الجنــود واخذوا ينسلخون منه تدريجيا ، على الرغم من تكاثر عدد الضباط الذي وصل عام ١٩٦٣ الى ١٥٠ ضابطــا مع ان الملاك الاعتيادي للفوج هو ٣٢ ضابطا فقط. وقد عهد بقيادة الفوج الى ضابط عراقي ، وكذلك حال مساعد القائد وامراء السرايا . ولم يصــل ضابط فلسطيني في الفوج الى رتبة اعلى من رتبة ملازم .

وبانقلاب ١٤ رمضان (عام ١٩٦٣) الذي اطــاح بحكم عبد الكريم قاسم وضعــت وزارة الدفــاع العراقيــة ثلاثة خيارات امــام ضباط الفــوج : التسريح ، النقل الى الوحدات العراقية ، البقاء في الفوج . ثم في عام ١٩٦٤ الحق الفوج بالوحدات العسكرية العراقية العاملة في شمال العراق حيث كانت الحركة الكردية المسلحة بقيادة الملا مصطفى البرازاني مستعرة واعطي مهمات قتالية في تلــك المنطقة وابدل اسمه من فوج التحرير الى « الفوج الاول — اللواء ٦٥ المستقل » وعلى اثر ذلك طلب قسم كبير من الجنود تسريحهم وتم ذلك بالفعل . وقد استمر ضباط الفوج في الجيش العراقي حتى تشكيل جيش التحرير الفلسطيني اذ التحق عــدد كبير منهم بالعمل فيه . وهكذا لم يحسن عبد الكريم قاسم لعبته الاعلامية .

والثانية **رابطة ابناء فلسطــين في العــراق** : في ١٩٦٠/٣/١٤ اعلن اربعة عشر عضوا مؤسسا في بغداد انه « لما كانت الجمهورية العراقية الخالدة بزعامة زعيمها الامــين اللواء الركن عبد الكريــم قاسم ترعانا اليوم وترعى قضيتنا بالذات كما صرح سيادة الزعيم الامين بذلك مرارا ، لذلك عملنا على تكوين جمعية باسم رابطة ابناء فلسطين المقيمين في العراق ترعى شؤونهم وتعرف الرأي العــربي والعالمي — ان امكن — بقضيتهم ورائدنا الوحيــد هو خدمة قضيتنا التي تعتبر قضية الامة العــربية باجمعها وقضية كل عربي مخلص»(٤٠).

وقد جاءت المواد التالية في النظام الداخلي تعبر عن طبيعة هذه الجمعية :

المادة (٣) اغراض الجمعية : أ — رفع المستوى الثقافي بين ابناء فلسطين واللاجئين بصورة خاصة وذلك بالتعاون مع السلطات المختصة في الجمهورية العراقية او بفتح مدارس او مراكز تثقيفية بعد تأييد وزارة المعارف او الجهات المختصة في الجمهورية العراقية او مساندة الطلبة المعوزين والقاصريــن منهم لاتمام دراستهم . ب — رفع مستواهم الصحي بالتعاون مع السلطات العراقية ايضا او ايجــاد اطباء على ان توافق عليهم وزارة الصحة والجهات المسؤولة في الجمهورية العراقية اذا كانوا من غير العراقيين تتعاون معهم الرابطــة في حدود هــذا

الهدف . ج ـ رفع مستواهم الاجتماعي وذلك بالتعاون مع السلطات العراقية ومساعدة الفقراء والمعوزين وحل مشاكلهم الاجتماعية التي قد تنجم، وفقا للقوانين المرعية في الجمهورية العراقية . د ـ تعريف الرأي العام العربي والعالمي بظروف وملابسات القضية الفلسطينية في مختلف وسائل النشر والطرق القانونية . هـ ـ بعث الروح الرياضية والمعنوية في صفوف ابناء فلسطين وذلك بفتح نواد لهم .

المادة (١٠) يكون شعار الرابطة «اننا عائدون» .

المادة (١٣) ان الصفة التي تتصف بها الرابطة هي (اجتماعية ـ ثقافية ـ صحية) كما هو منصوص عليه في المادة الثالثة وهي ليست حزبية ولا تتدخل في شؤون الدولة الداخلية والخارجية .

المادة (١٤) تحل الرابطة فيما اذا لم تقم بالاغراض التي انشئت من اجلها ، وطلب اكثرية اعضاء الهيئة العامة ذلك ، او انسحبوا منها ، او اذا خالفت القوانين المرعية في الجمهورية العراقية وارتأت الحكومة حلها .

وقد استمرت هذه الرابطة في الوجود سنة وثمانية أشهر ففي ١٩٦١/١١/١٤ وجهت الهيئة الادارية للرابطة كتابا الى الحاكم العسكري العام ذكرت فيه : « بناء على ما تقتضيه المصلحة الوطنية التي نضعها فوق كل اعتبار وبالنظر لعدم تحقيق جمعية رابطة ابناء فلسطين في العراق للاغراض التي انشئت من اجلها ونظرا لوجود الهيئة العربية العليا لفلسطين في العراق والتي تمثل عرب فلسطين من جميع الوجوه وفي كافة المجالات ، لذلك قررت الهيئة العامة حل جمعية (رابطة ابناء فلسطين في العراق) وتحويل اموالها المنقولة وغير المنقولة الى مكتب الهيئة العربية العليا لفلسطين في العراق ». وجاء هذا القرار ليس فقط للاسباب التي ذكرت وانما كان بطلب من الهيئة العربية العليا التي كانت تتمتع ببعض عطف عبد الكريم قاسم في العراق .

وقد ادرجت هذه التجربة عمدا في هذا الفصل عن الحياة السياسية وان كانت اهداف الرابطة كما ذكر نظامها الداخلي (اجتماعية ـ ثقافية ـ صحية) آخذا بعين الاعتبار ان مرامي المؤسسين كانت سياسية ، كما فهمت من بعضهم ، تهدف الى ممارسة نشاط سياسي وطني . غير انها كانت تجربة ساذجة لم يكتب لها النجاح كما هو متوقع ولم تترك اثرا في حياة الفلسطينيين لا سياسيا ولا اجتماعيا ... حتى ولا صحيا .

الفلسطينيون بعد ومع الثورة : كانت تلك صورة سريعة للحياة السياسية لفلسطينيي العراق قبل نشوء منظمات المقاومة وممارستها عملها الثوري . وبقيام الثورة النسطينية وتصاعد مدها خاصة بعد العام ١٩٦٧ اهتزت تلك الصورة القديمة وتلاشت لتفسح المكان لصورة اكثر اشراقا . فالحياة السياسية لدى فلسطينيي العراق كما هي الحال تماما لدى الفلسطينيين عموما اصبحت معطاء واضحة الرؤية فعالة . فعندما طرحت الثورة الفلسطينية تصورها الجديد ومارست هذا التصور عملا عمده الدم وجدت لدى الفلسطينيين استجابة كاملة اذ كانت التجسيد الحي لارادة كل فلسطيني شريف . وكان اول انقلاب حقيقي في نفسية المواطن الفلسطيني ومن ثم في ممارسته ان استعاض عن تلك الولاءات القديمة التي سبق وان اتينا على ذكرها ، والتي هي في رأينا ولاءات وسيطة لتحقيق هدفه في العودة والتحرير ، استعاض عنها بانتماء مباشر الى عمل يجعله قابضا على زمام قضيته بنفسه . لقد اصبح ولاؤه ولاول مرة منذ نكبة عام ١٩٤٨ ، اصيلا ، مباشرا وبدون توسط ، فاعطى هذا الولاء المستجد كل جهده وكل طاقته .

ومن هنا لم تجد التنظيمات الفلسطينية على اختلافها عائقا دون الوصول الى كل فلسطيني في العراق فخاطبته مباشرة ووصلت به ومعه الى ضرورة بذل الجهد والتضحية ان بالوقت او المال او النفس . وقد استطاعت المنظمات ان تكتل من حولها وفي داخلها معظم الشباب الفلسطيني في العراق في تنظيمات سياسية وشعبية تشكل ظهيرا للثورة المسلحة واذرعا اعلامية ومالية لها . حتى انه لنستطيع ان نجزم انه ندر وجود الذين لا يجهرون بانتمائهم للثورة ولا يمارسون من خلالها عملا . ومن جملة هؤلاء التحقت اعداد غفيرة بالكفاح المسلح مع من تركوا الملاجيء والمخيمات وحملوا السلاح دفاعا عن وطنهم . وقد نال عدد من هؤلاء المقاتلين شرف الشهادة(٤١).

الانتماء التنظيمي : لا نريد ان ندخل في دراسة اسباب التشرذم الفلسطيني وانقسام الثورة الفلسطينية الى فصائل وتنظيمات ، كما لا نريد ان نتطرق الى نتائج هذا الانقسام على حركة

المقاومة نفسها او بالنسبة لعلاقاتها مع الجماهير العربية ، غير ان وصفنا لاوضاع الفلسطينيين في العراق والسياسية منها ، لا بد وان يدفعنا الى الحديث عن التعبئة التنظيمية لديهم مما دمنا قد تطرقنا في الحديث الى ولاءاتهم السياسية قبل قيام الثورة الفلسطينية .

وانه لمن الصعوبة القصوى ان نعطي ارقاما عن عدد الاشخاص المنتمين الى التنظيمات الفلسطينية في القطر العراقي ، وهذه الصعوبة ايضا تعترضنا عند الحديث عن توزع هؤلاء المنتمين بين مختلف التنظيمات وتصنيفهم الى نسب : (١) الصعوبة مفهومة في الحالة الاولى لان ضرورات امن الثورة تقتضي التكتم (٢) وهي مبررة في الحالة الثانية نظرا للحساسية والاحراج الناشئين عن اثارة مثل هذا الموضوع .

غير ان هناك مؤشرات تدل على التسلسل النسبي بين المنتمين اذكر منها اثنين : ١ — الانتخابات التي يتم بها اختيار هيئات ادارية جديدة للاتحادات الفلسطينية . وقد جرت العادة ان تكون قوائم المرشحين المتنافسة ذات ولاء تنظيمي يدعمها فيمنحها النجاح او تمنى بالفشل نتيجة قوة التنظيم او ضعفه النسبي . ٢ — المهرجانات والاحتفالات العامة التي تقيمها التنظيمات والمسيرات الجماهيرية التي تشترك فيها مما يعطي انطباعا عاما عن نسبة المؤيدين لهذا التنظيم او ذاك .

وفي ضوء هذين المؤشرين ومن خلال تجربة شخصية استطيع ان ازعم ان فتح تستأثر باوسع ولاء تنظيمي في مختلف اماكن تجمعات الفلسطينيين ونشاتهم المهنية والحرفية والطلابية في العراق . ويليها وان كان بفارق الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، كما تتمتع الجبهة الشعبية الديموقراطية بعدد محدود من الانصار في القطاع الطلابي على وجه التخصيص . بينما تتساوى وربما بفوارق ضئيلة باقي فصائل المقاومة في اكتساب اعداد قليلة جدا من فلسطينيي العراق . وفيما يتعلق بطلائع حرب التحرير الشعبية (قوات الصاعقة) فقد حظر نشاطها في العراق منذ اكثر من سنة ونصف مما يجعل ادراجها في السلم النسبي امرا غير عادل . اما بالنسبة لقوات التحرير الشعبية فقد اخرجتها عمدا من التصنيف لان هذه القوات لم تعن اصلا بأن تمد لها جذورا تنظيمية شعبية في القطر العراقي اذ تعتبر تنظيما عسكريا بحتا فهي جزء من جيش التحرير الفلسطيني وذراع فدائية لمنظمة التحرير الفلسطينية . وقبل مجزرة ايلول اجرت قيادة جيش التحرير الفلسطيني اتصالات مع السلطات العراقية لسن قانون التجنيد الاجباري لفلسطينيي العراق ، وكانت القيادة تأمل ان يخرج هذا القانون الى حيز التنفيذ .

بيد ان الولاء التنظيمي لفلسطينيي العراق لا يحجب حقيقة ان الولاء الاول بل الوحيد للجميع هو للثورة الفلسطينية . والشيء الذي نود ان نؤكده هنا ان روحا من التفاهم والاخوة الحقيقية تسود قواعد التنظيمات جميعا وان العمل المشترك ينتظم عموما فصائل المقاومة في معظم الاحيان دون عصبية او تحيز .

منظمة التحرير الفلسطينية : مارست منظمة التحرير الفلسطينية عملها في العراق منذ العام ١٩٦٤ ويهمنا في هذه الفترة ان نلقي نظرة على مدى تقبل الفلسطينيين في العراق لوجود المنظمة بينهم والى اي مدى يريدون ان يكون مكتبها في بغداد مشرفا على امورهم . ونشير منذ البداية الى ان مثل هذا الموضوع يحكمه عدة عوامل : أ — مقدار تمثيل منظمة التحرير الفلسطينية لقوى الثورة وتمسك هذه القوى بميثاق المنظمة وقرارات مجالسها الوطنية والتي تنص صراحة على ان منظمة التحرير الفلسطينية تمثل جبهة وطنية لهذه القوى . ومن جهة اخرى قدرة مكتب المنظمة على ترجمة مثل هذه القرارات الى واقع عملي معاش . ب — مدى التجاوب الذي يبديه مكتب المنظمة في القطر تجاه قضايا الفلسطينيين ومشكلاتهم وهذا العامل محكوم بدوره باخرين : كفاءة الجهاز العامل وجديته ، وتوفر الامكانات لمواجهة هذه القضايا . ج — التسهيلات التي تقدمها السلطة في القطر لمكتب المنظمة او المعوقات التي تضعها امامه .

وفي ضوء هذه العوامل ، مر مكتب المنظمة في بغداد منذ عام ١٩٦٤ بفترات مد وانحسار متعاقبة انعكاسا للتطورات التي كانت تحدث في الساحة الفلسطينية وعلى الاخص ترتيب الخارطة التنظيمية للقوى الفلسطينية خارج او داخل اطار المنظمة . فعندما كان مكتب المنظمة يعمل منفردا في العراق كان يستأثر باهتمام الفلسطينيين نضاليا ويبادر الى تحمل مسؤولياته تجاه القضايا الحياتية للمواطن الفلسطيني . غير انه بتعدد مكاتب المنظمات في بغداد توزعت هاتان المهمتان بينها ، الامر الذي

افتقد مكتب المنظمة كثيرا من مبادراته وقدرته على التحرك . ثم مع دخول فصائل المقاومة (فتح والصاعقة ثم الجبهة الشعبية الديموقراطية فيما بعد) اطار المنظمة ومع الحماس الشعبي الذي قوبلت به هذه الخطوة بالاضافة الى توفر جهاز عامل فعال في مكتب المنظمة ، تمكن هذا المكتب من ان يستعيد كثيرا من مواقعه التي فقدت .

ومن يعايش فلسطينيي العراق يتلمس اتجاها صادقا عند المواطن الفلسطيني الى ان يشرك مكتب المنظمة في حل كثير من مشاكله حتى الخاصة منها . وعندما كان المواطن يجد استجابة من المكتب ، خاصة اذا وفق المكتب بايجاد حل مرض ، يزداد التصاق المواطنين بالمنظمة ويزداد يقينهم بضرورة وجودها. ويجد الفسطينيون في العراق انه من الطبيعي ومن صلب عمل المنظمة ان تتولى رعاية شؤونهم ما دامت المنظمة تمثل الكيان السياسي والوطني للفلسطينيين جميعا بدون استثناء . حتى ان مثل هذا التصور قد انطبع في اذهان المواطنين العراقيين ، فكثيرا ما يلجأ المواطن العراقي الى مكتب المنظمة لحل مشكلة له مع مواطن فلسطيني، والاثنان يرتضيان بالمكتب حكما . ومهما اختلفت الاراء في مهمات منظمة التحرير الفلسطينية ودورها ، وما هي مؤهلة له ، وهل من المفروض فيها ان تشغل اجهزتها بحل « مشاكل الناس » ، أم ان دورها يجب ان يكون نضاليا تعبويا فحسب ، فالواقع هو ان المواطن الفلسطيني في العراق يلجأ الى « منظمتنا » كما يدعوها ، ان حزبه امر او الم به شدة او عجز عن حل مشكلة .

اما مدى استجابة اجهزة الحكم في العراق لهذا التوجه فقد مرت هي الاخرى بمراحل غير متساوية. وبعيدا عن ذكر الاسباب ، فان الموقف الرسمي في العراق تجاه المنظمة ومكتبها في بغداد كانت تتناوبه فترات ايجابية حارة وأخرى سلبية باردة . وكلما كثرت التسهيلات التي تمنحها الدولة لمكتب المنظمة، ازدادت فاعلية المكتب في تبنيه لقضايا الفلسطينيين ومبادرته الى ايجاد الحلول المناسبة لها . ومنذ مطلع عام ١٩٧٠ انشأت الحكومة العراقية ما سمي بالمكتب القومي لفلسطين ومنعت أي اتصال لمكتب المنظمة (وسائر فصائل المقاومة) بأية جهة مسؤولة في الحكم الا عن طريق هذا المكتب ، ولا شك ان مثل هذا الحصر اعاق من امكانية تحرك مكتب المنظمة وعطل كثيرا من مبادراته الايجابية .

الفلسطينيون مورد مالي دائم للثورة : يتأكد لدى الفلسطينيين جميعا يوما بعد يوم ان الثورة ثورتهم وان استمرارها وتصاعدها مرهونان بارادة الجماهير الفلسطينية نفسها وبقدرتها على الحفاظ عليها . ومن هنا يتأكد استمرار الدعم المادي للثورة الذي يقدمه الفلسطينيون انفسهم في مختلف اماكن تجمعاتهم . وهم بدعمهم ذلك لا يفعلون اكثر من أن ينموا ارادتهم في العودة ويحافظوا على كرامتهم التي استعيدت بعد امتهان طويل .

وفلسطينيو العراق ليسوا استثناء من هذا كله . وهم ينمون الموارد المالية لثورتهم بطرق مختلفة : ١ — الاشتراكات الشهرية التي يلتزم بها الاعضاء لتنظيماتهم . ٢ — التبرعات والهبات والاسواق الخيرية التي يقيمونها في كل مناسبة . ٣ — الجهود التي يقوم بها اعضاء التنظيمات في جمع التبرعات من المواطنين العراقيين(٤٢). ٤ — ضريبة التحرير وهي مورد مالي دائم للثورة ينمو باستمرار ويصب في الصندوق القومي الفلسطيني، يدفعها كل مواطن فلسطيني في العراق بنسبة ٣٪ من دخله . وتشمل هذه الضريبة الفلسطينيين في معظم الاقطار العربية غير انها في العراق اتخذت شكلا اكثر انتظاما . اذ كانت الحكومة العراقية ، بطلب من رئيس منظمة التحرير الفلسطينية الاسبق ، قد اصدرت بتاريخ ١٩٦٥/٨/٢٢ قانونا وزاريا يحمل الرقم ١٣٠ لسنة ١٩٦٥ باسم قانون استقطاع مبالغ للصندوق القومي الفلسطيني نصت المادة الاولى منه على ما يلي : « يخصم ٣٪ من رواتب واجور الموظفين والمستخدمين والعمال الفلسطينيين الذين يعملون في الدوائر الرسمية وشبه الرسمية والشركات الحكومية وغير الحكومية ويعتبر ايرادا للصندوق القومي الفلسطيني » . وقد طبق هذا القانون بأثر رجعي اعتبارا من ١٩٦٤/١٠/١ . غير ان مكتب المنظمة في بغداد رأى في هذا القانون نقصا يتمثل في انه لا يشمل باحكامه اصحاب المهن الحرة. وقد سعى المكتب طويلا وفي عهود مختلفة لتعديل القانون نزولا على الحاح عدد كبير من المواطنين الفلسطينيين انفسهم غير المشمولين في القانون لمساواتهم في شرف دفع هذه الضريبة حتى استطاع تعديله في اواخر عام ١٩٦٦ بما يتفق مع هذه الرغبة . وفيما يلي نص القانون المعدل : «استنادا الى احكام المادة خمسين من الدستور المؤقت وبناء على ما عرضه وزير المالية ووافق عليه مجلس الوزراء واقره مجلس قيادة الثورة صدر القانون

التالي : **المادة الاولى** : ١ ـ يخصص ٣٪ من رواتب واجور الموظفين والمستخدمين والعمال الفلسطينيين والمتجنسين بجنسية أخرى وهم من أصل فلسطيني الذين يعملون في الدوائر الرسمية وشبه الرسمية والشركات الحكومية وغير الحكومية ويقيد ايرادا للصندوق القومي الفلسطيني . ٢ ـ يستوفى ٣٪ من الدخل السنوي ويستقطع باقساط شهرية من اصحاب المهن الحرة الفلسطينيين والمتجنسين بجنسية أخرى وهم من اصل فلسطيني لحساب الصندوق القومي الفلسطيني وتقوم لجنة أو لجان لا يقل عدد اعضاء كل منها عن ثلاثة اعضاء تشكلها منظمة التحرير الفلسطينية في بغداد بتقدير الدخل للمكلفين المذكورين لهذا الغرض . ٣ ـ للمكلف المذكور في الفقرة (٢) من هذه المادة ان يعترض على التقدير المذكور خلال خمسة عشر يوما من تاريخ تبلغه به لدى لجنة استئنافية تؤلف من مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في بغداد واربعة اعضاء من اعضائها على ان يكونوا من غير المشتركين في التقدير الابتدائي ويكون قرار اللجنة الاستئنافية نهائيا . **المادة الثانية** : تعتبر المبالغ المتحققة في ذمة المكلف الممتنع عن ادائها دينا للصندوق القومي الفلسطيني تستوفى منه بطرق التنفيذ القانونية من قبل دوائر التنفيذ وفق قانون التنفيذ مع اعتبار ذلك من الامور المستعجلة. **المادة الثالثة** : ينفذ هذا القانون من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية . **المادة الرابعة** : على الوزراء تنفيذ هذا القانون » . وقد بوشر بتنفيذ هذا القانون من ١٩٧٠/١/١ ليعطي الثورة الفلسطينية موردا ثابتا ناميا باستمرار دون ان يكون خاضعا لاي تقلبات سياسية .

النشاط النقابي الفلسطيني : لقد آثرنا ان يندرج هذا البند تحت عنوان « الحياة السياسية » لان عمل الاتحادات الفلسطينية هو عمل سياسي في الدرجة الاولى مهني في الدرجة الثانية. فالمؤسسات النقابية والاتحادات الفلسطينية ليست الا جزءا من اجهزة الثورة الفلسطينية تسير ضمن خطها السياسي العام وتشكل قاعدة من قواعدها الشعبية(٤٢). وبقيام الاتحادات الفلسطينية التي كانت تتخذ مركزا عاما لها في القاهرة على الاغلب نشأت فروع لها في معظم الاقطار العربية ومن جملتها العراق . وكان اسبق هذه الاتحادات الى الوجود في القطر العراقي **الاتحاد العام لطلبة فلسطين** عام ١٩٦٣ . وبانقلاب تشرين في العام نفسه حل الاتحاد ثم أعيد تشكيله في ١٩٦٥ . وبقيام جامعتين بالاضافة الى جامعة بغداد ، احداهما في الموصل والاخرى في البصرة ، انشىء فرعان جديدان للاتحاد في هاتين المدينتين وفي عام ١٩٦٩ ارتبطت هذه الفروع الثلاثة بكونفدرالية تنظم شؤون الاتحادات الطلابية الفلسطينية في العراق وتشرف على سياستها العامة وتنسق من اعمالها . وقد مارس الاتحاد العام لطلبة فلسطين في العراق دورا بارزا في العمل الوطني الطلابي الامر الذي دفعه الى مركز الصدارة بين الاتحادات الطلابية العربية ففاز بمركز رئاسة مكتب التنسيق لهذه الاتحادات الذي شكل في العام الماضي . وبالاضافة الى العمل السياسي والتعبوي الواسع الذي يمارسه اتحاد طلبة فلسطين فهو يقدم خدمات طلابية متعددة ومختلفة لجميع الطلبة الفلسطينيين وخاصة منهم الوافدين الجدد .

وكان **الاتحاد العام لعمال فلسطين** في العراق هو الثاني في الوجود بعد اتحاد الطلبة ، فقد تأسس عام ١٩٦٥ ليمارس دوره السياسي والنقابي بين ابناء فلسطين في العراق . ومن ابرز نشاطات وانجازات هذا الاتحاد في الفترة الاخيرة ما يلي : ١ ـ اشراف الاتحاد على اسبوع دعم الصمود في الفترة من ٥ ـ ١٢ حزيران ١٩٧٠ وكانت الحصيلة المالية لهذا الاسبوع بالاضافة الى نتائجه الاعلامية الفائقة نحو عشرة الاف دينار عراقي تم رصدها لدعم صمود شعبنا في الارض المحتلة . ٢ ـ اثناء مجزرة ايلول ١٩٧٠ نشط الاتحاد في جمع التبرعات المالية باسم اللجنة المركزية وكان اسهامه في الجمع نحو عشرة الاف دينار عراقي أخرى . كما قام بجهود واسعة في تقديم الهدايا المالية والعينية للمصابين الذين نقلوا الى العراق للمعالجة . ٣ ـ لعل ابرز مشاريع الاتحاد مشروع الضمان الصحي للعمال الفلسطينيين . فقد جرى اتفاق بين الاتحاد وعدد من الاطباء المتبرعين في بغداد بأن يعالج هؤلاء العمال المنتسبين الى المشروع . واشتراك الضمان بالنسبة للعامل ١٠٠ فلس عراقي يدفعها شهريا للاتحاد وقد بلغ عدد المنتسبين للمشروع (كانون الثاني ١٩٧١) ٦٠٠ مشترك استفاد منهم خلال سنة ٣٠٠ عامل عولجوا في بغداد . ولم يكتف الاتحاد بذلك بل أوفد عددا من المرضى للمعالجة خارج العراق (٥ اطفال من ابناء العمال الى بلغاريا) . ٤ ـ البعثات التدريبية والتثقيفية : اهتم الاتحاد بالاستفادة من المنح

الدراسية التي تخصصها الدول الصديقة للعمال الفلسطينيين وفي عام ١٩٧٠ أرسل الاتحاد خمسة من عماله الى بلغاريا واربعة الى المانيا لزيادة خبراتهم في ميكانيك الديزل كما قام بايفاد آخر الى الاتحاد السوفييتي للدراسة العليا . وقد استفاد من دورات المؤسسة الثقافية العمالية في العراق ثمانية عمال خلال عام ١٩٧٠ حققوا نجاحا ملحوظا . ومن الجدير بالذكر ان اربعا من النساء الفلسطينيات العاملات في بغداد قد انتسبن الى الاتحاد مؤخرا وهي خطوة جديدة في العراق .

الاتحاد الثالث حسب التسلسل الزمني كان **الاتحاد العام للمراة الفلسطينية** في العراق عام ١٩٦٦ « فيما بعد لجنة المراة الفلسطينية عام ١٩٦٩ ثم رابطة المرأة الفلسطينية عام ١٩٧٠ » ، وقد اخذ هذا الاتحاد على عاتقه مهمة اشراك المرأة الفلسطينية في العمل الوطني كما أمد الثورة من خلال مشاريعه « الاسواق الخيرية ، جمع التبرعات ، لجان كنزة المناضل » بكثير من الدعم المادي . وكان آخر الاتحادات الفلسطينية في الظهور **الاتحاد العام للمعلمين الفلسطينيين** — رابطة العراق (عام ١٩٧٠) وقد ابدى هذا الاتحاد الناشىء نشاطا ملحوظا بعد ان ضم الى عضويته معظم المعلمين والمدرسين الفلسطينيين العاملين في مختلف ألوية العراق (٩٨ منتسبا من جملة ١٠٥) . وفي عام ١٩٧٠ وباشراف من منظمة التحرير الفلسطينية ، مكتب بغداد ، شكلت هذه الاتحادات الاربعة ما أطلق عليه اسم **المجلس القطري للاتحادات الفلسطينية في العراق** بقصد تنسيق نشاطاتها والتخطيط لاعمالها في مختلف المجالات . ويجب ألا يغيب عن بالنا في هذا المجال ان نذكر ان **الهلال الاحمر الفلسطيني** قد شكل له فرعا في العراق اثناء مجزرة ايلول ١٩٧٠ وقد بدأ أعماله بأن أسهم في استقبال المصابين الذين قدموا الى العراق (معالجة ١٥٩ جريحا من الاردن) وبارسال سبع سيارات شاحنة محملة بالادوية والمواد العينية الى المصابين في الاردن .

وكما ألمحت سابقا فان الاتحادات الفلسطينية جميعا في العراق تعتبر نفسها ، كما هو منصوص عليه في دساتيرها وانظمتها الداخلية بالفعل ، فروعا للاتحادات الفلسطينية المركزية . وهي تشارك في مؤتمراتها العامة بممثلين تنتدبهم وتسهم في لجانها التنفيذية وفي مجالسها العليا . اما وضعها الرسمي والقانوني في العراق فان الانظمة العراقية المتعلقة بتشكيل الجمعيات تتطلب الحصول على موافقة من وزارة الداخلية قبل تأسيس اي اتحاد او نقابة باعتبارهما يندرجان تحت اسم « جمعية » . واتحادا الطلاب والعمال يخضعان لهذه الانظمة . غير ان منظمة التحرير الفلسطينية في بغداد ، وبموافقة ضمنية من قبل السلطات العراقية ، اخذت على عاتقها ومسؤوليتها في الاونة الاخيرة مهمة تشكيل الاتحادات الفلسطينية باعتبار ان الاتحادات الفلسطينية جزء منها وقاعدة من قواعدها الشعبية . وقد نفذت المنظمة هذه التصور منذ عام ١٩٦٩ بتأسيس الاتحادين الاخيرين (المراة والمعلمين) .

---

١ — هناك احصائية حديثة (تشرين الثاني ١٩٧٠ عن عدد الفلسطينيين في كل من البصرة والموصل تبين انهم بلغوا ٢٤٩ و٣١٢ نسمة على التوالي .

٢ — حاولت ان احصل على عدد الفلسطينيين الذين ينضوون تحت هاتين الفئتين ففشلت . ويعود الفشل الى أن مديرية الاقامة في العراق لا تحتفظ لديها ببيانات احصائية دقيقة عن عدد الذين يدخلون ويخرجون الى ومن العراق من جهة والى أن معظم الفلسطينيين الذين يدخلون العراق يحملون جوازات سفر اردنية فيسجلون « مواطنين عربا » دون الاشارة الى اصولهم من جهة ثانية . وسبب آخر ان أولئك الذين نزحوا في اعقاب هزيمة حزيران فأموا العراق يقيمون فيه اقامة غير شرعية مما يجعل عملية حصرهم وتعدادهم مستحيلة . وقد حصلت بعد جهد على رقمين من مديرية الاقامة في بغداد فقد أبلغت ان عدد الفلسطينيين الذين دخلوا العراق ولم يخرجوا منه في العام ١٩٦٩ بلغ ١٥٠ مواطنا وهؤلاء في العام ١٩٧٠ بلغوا ٥٠٠٠ مواطن وهذه ارقام غريبة يصعب الاخذ بها .

٣ — **تعليمات خاصة بالفلسطينيين** رقم ١ للسنة ١٩٦٨ .

٤ — اكتسبت المنظمة هذا الحق في اعقاب حرب ١٩٦٧ للحيلولة دون بعض الفلسطينيين والهجرة خارج الوطن العربي .

٥ — نشر في **الوقائع العراقية** عدد ١٧٧٢ تاريخ ٢٨ آب ١٩٦٩ .

٦ — المادة ١٥ من التعليمات رقم ١ للسنة ٦٨ .
٧ — المادة ١٢ من التعليمات نفسها .
٨ — في زيارة لاحد هذه الملاجيء وهو المرقم ١٤٠/١٤١ شارع الكفاح رأيت الجدران تسند بأعمدة من الخشب خوف السقوط والغرفة التي دخلتها تقع في الطابق العلوي وكانت أرضيتها تهتز بشدة .
٩ — كانت ملكا لليهود العراقيين الذين هاجروا من العراق الى فلسطين المحتلة .
١٠ — **الوقائع العراقية** عدد ١٧٧٢ تاريخ ٢٨/ ٦٩/٧ .
١١ — كان يسكنه ٦٩ أسرة مكونة من ٣٥٥ شخصا .
١٢ — التعليمات رقم ١ للسنة ١٩٦٨ تنص : «اذا ثبت بصورة قطعية ان دخل الفلسطيني لا يقل عن ستين دينارا شهريا فيكلف بالسكنى على حسابه الخاص » .
١٣ — في المشروع الذي تقدم به وزير الشؤون الاجتماعية الى مجلس قيادة الثورة والذي أشرت اليه من قبل يبلغ معدل تكلفة الوحدة السكنية ١٦٦ دينارا فقد طلب تخصيص ربع مليون دينار عراقي لانشاء ١٥٠٠ وحدة سكنية .
١٤ — تعاقب على شغل هذه الوظيفة ثلاثة مديرين أولهم السيد فائق الاورفلي والمدير الحالي هو السيد عبدالعزيز عبدالله العزاوي .
١٥ — كمثال على ما أقول ، عندما كنت أبحث عن عدد الولادات والوفيات كنت مضطرا الى تصفح عدد كبير من الملفات المخصصة لحفظ شهادات الولادة او شهادات الوفاة .
١٦ — فاضل الانصاري : **سكان العراق** ، جدول رقم ٨ ص ٧٠ .
١٧ — الاحصاءات العالمية سجلت نسبة مواليد ٥٠ في الالف كحد اعلى ، وأدنى حد وصلت اليه هو ١٠ بالالف .
١٨ — فاضل الانصاري ، **المصدر السابق** ، ص ٧٣ .
١٩ — الدكتور محمد السيد غلاب والدكتور محمد صبحي عبدالحكيم ، **السكان ديموغرافيا وجغرافيا** ، ص ٦٦ .
٢٠ — الزيادة الطبيعية هي الفرق بين المواليد والوفيات ، وتحسب معدلات الزيادة الطبيعية اي هذا الفرق بالنسبة لكل ألف من السكان .
٢١ — دكتور غلاب ودكتور عبدالحكيم ، **المصدر السابق** ، جدول رقم ٣٠ .
٢٢ — **كتاب الجيب السنوي للاحصاءات العامة في الجمهورية العراقية للسنوات ٥٧ — ٦٧** (الجهاز المركزي للاحصاء) ، ص ٦ .
٢٣ — فاضل الانصاري ، **المصدر السابق** ، ص ١٦٥ .
٢٤ — عمل هذا الجدول من خلال دراسة ٧٣٢ أسرة تضم ٤٠٠٧ أشخاص [٢٠٧١ ذكرا و١٩٣٦ انثى] اختيرت عشوائيا من سجلات مديرية شؤون الفلسطينيين في شهر كانون الثاني ١٩٧١ . ولان هذه العينة كبيرة نسبيا [ثلث عدد اللاجئين المسجلين تقريبا] فاننا نستطيع ان نسلم بأن النتائج التي نحصل عليها منها صحيحة الى حد بعيد .
٢٥ — تمثل هذه النسبة عدد الاناث الى ١٠٠٠ من الذكور .
٢٦ — ساعد في جمع المعلومات ميدانيا عن الملجأين الاخ محمود موسى حمدان احد اعضاء مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في بغداد وهو نفسه كان يسكن احدهما اثناء جمعه المعلومات .
٢٧ — تستخرج درجة المعيلين كالتالي : درجة المعيلين = عدد المعيلين/عدد السكان x ١٠٠ .
٢٨ — صححها فاضل الانصاري (**المصدر السابق** ص ٢١٩) استنادا الى بعض المتغيرات الاجتماعية — الاقتصادية والديموغرافية الى ٣٥ ٪ — ٣٨ ٪ .
٢٩ — توصلنا الى هذا الافتراض كما يلي : يشير الجدول رقم ٤١ من **كتاب الجيب السنوي** (**المصدر السابق**) الى ان مجموع الاجور المدفوعة للعمال في المؤسسات الصناعية في بغداد كانت عام ١٩٦٦ « ١٦٦،٠٦٤،٠٠٠ دينار » ومعدل العمال هو ٥٥٣٠٩ أي ان معدل الاجر للعامل هو ٢٦٠ دينارا في السنة . ونستطيع أن نستخرج من الجدول نفسه ان هناك زيادة في معدلات الاجور بين عامي ١٩٦١ و١٩٦٦ بنسبة ١٢ ٪ فاذا افترضنا ان هذه النسبة في الزيادة ظلت كما هي خلال ١٩٦٦ — ١٩٧١ فنستنتج ان معدل الدخل السنوي للعامل العراقي في عام ١٩٧١ هو ما ذكرنا في المتن اي ٣٢٥ دينارا .
٣٠ — ليس بين أيدينا أرقام جاهزة تبين تكاليف المعيشة في بغداد ، ولكن بحكم الملاحظة والتجربة نستطيع ان نفترض الارقام التالية لاسرة مكونة من خمسة أفراد ينتمي عائلها الى الطبقة

المتوسطة الصغيرة (حرفي صغير ، موظف عادي ، عامل ماهر) : ٤٥٠ دينارا سنويا بين مأكل ومسكن و١٥٠ دينارا للملبس والمواصلات والطوارىء والمصروفات الاخرى . أي ان المجموع ٦٠٠ دينار سنويا .

٣١ — كانت مديرية شؤون الفلسطينيين في بغداد قد طلبت من مختلف الوزارات والدوائر تزويدها باعداد واجور الموظفين والمستخدمين لديها . وقد أعد هذا الجدول من اجابات الوزارات والدوائر الى المديرية المذكورة والمحفوظة في ملفات المديرية .

٣٢ — في العراق الفرق بين المدرس والمعلم ان الاول يخدم في الملاك الثانوي والثاني في الابتدائي.

٣٣ — عدد قليل جدا من الفلسطينيين تملكوا دورا لسكناهم في العراق محتالين على القانون بأن سجلوا هذه الدور باسم اصدقاء لهم عراقيين مقابل صكوك بأثمانها تستحق عند الطلب .

٣٤ — **الوقائع العراقية** العدد ١٧٧٢ تاريخ ٢٨ آب ١٩٦٩ .

٣٥ — تراجع الحاشية رقم (٢٦) بخصوص جمع المعلومات عن هذين الملجأين .

٣٦ — اعرف طالبا يعمل اسكافيا وهو في السنة الثالثة الجامعية وآخر انهى دراسته الثانوية وهو يعمل بائع ملابس قديمة .

٣٧ — رابطة ابناء فلسطين التي سوف يمر ذكرها لا تمثل استثناء من هذا الحكم لانها لم تنجز ايا من الاهداف التي انشئت من اجلها .

٣٨ — بطبيعة الحال حديثنا عن تأثير الفلسطينيين لا عن اثر القضية الفلسطينية .

٣٩ — أعلى مرتبة حزبية وصلها فلسطيني في العراق فيما نعلم هي عضوية قيادة منطقة بغداد في حزب البعث الحاكم حاليا وقد تمتع بها السيد حسن محمود طه .

٤٠ — تمهيد ، **النظام الداخلي للجمعية** المحفوظ في وزارة الداخلية العراقية — قسم الجمعيات.

٤١ — نذكر من هؤلاء : من حركة فتح الشهداء عبدالمنان عبدالقادر وعبدالحنان عبدالقادر وهما شقيقان ، مصطفى محمد عويس ، فالح ابو الشعر ، احمد نافع المافي ، جمعه احمد سلامة ابو حديد ، سامي مصطفى الطريقي ، عبدالله مرشد الاسعد ، حمزة شعبان ابو الهيجاء ، سعيد عبدالحفيظ ، علي لطف التايه ، احمد محمد رشيد مصطفى . ومن جيش التحرير الفلسطيني وقواته الشعبية الشهداء الدكتور الملازم عبدالوهاب القنة ، وهو أول طبيب فلسطيني شهيد في الثورة ، الملازم اول زكريا حسين العواجا ، الملازم سميح احمد المرعي ، عبدالفتاح محمد المرعي ، احمد عبدالباقي . ومن الجبهة الشعبية الديموقراطية الشهيد محمد ابو الفوز .

٤٢ — منذ نحو سنتين منعت الحكومة العراقية جمع التبرعات من قبل المنظمات وحصرتها في مؤسسة اقامتها لهذا الغرض عرفت باسم « اللجنة العليا لجمع التبرعات للمجاهدين الفلسطينيين » .

٤٣ — في دساتير الاتحادات الفلسطينية جميعا مواد تؤكد ان هذه الاتحادات قاعدة من قواعد الثورة الفلسطينية بصيغة وقاعدة من قواعد منظمة التحرير الفلسطينية بصيغة اخرى .

صحف اليسار المصري وقضية فلسطين

عبد القادر ياسين

في اعقاب ثورة ١٩١٩ المصرية ، تجمعت الحلقات الماركسية المصرية والاجنبية ، مكونة « الحزب الاشتراكي المصري » الذي أعلن برنامجه الاول في ١٨ أغسطس (آب) ١٩٢١ . وفي يناير (كانون الثاني) ١٩٢٣ تقرر تغيير اسم الحزب الى «الحزب الشيوعي المصري » . وفي عام ١٩٢٤ — وتحت ضغط اصحاب رؤوس الاموال الاجانب وتهديد سلطات الاحتلال البريطاني التي ارسلت بوارجها الى الاسكندرية — صفي بالقوة اعتصام عمالي كان يقوده الحزب ، ثم سرعان ما اصدرت حكومة سعد زغلول قرارا بحل الحزب واتحاد العمال معا ، واصدرت احكاما قاسية على قادة الحزب. وفي عام ١٩٢٨ القي القبض على مجموعة اخرى من قادة الحزب . واستمرت الحكومة المصرية في مطاردة اعضاء الحزب . وابتداء من عام ١٩٣٩ ، بدأت تتكون حلقات ماركسية جديدة ، خاصة بين الاجانب . فكانت «الحركة المصرية للتحرر الوطني» و « الايسكرا » و « الطليعة الشعبية للتحرر » و « الخبز والحرية » . وفي عام ١٩٤٦ تأسست « حدتو » نتيجة لاتحاد « الحركة المصرية » و « ايسكرا » . كما تغير اسم منظمة الطليعة الشعبية للتحرر حيث اصبح « طليعة العمال » « فحزب العمال والفلاحين » ، والذي كان يعرف — اختصارا — باسم « ع. ف. » . وفي اواخر ١٩٤٩ تكون « الحزب الشيوعي المصري » والذي كان يعرف في الاوساط السياسية المصرية باسم « الراية » نسبة الى صحيفته السرية « راية الشعب » . ثم تتابعت الانسلاخات في « حدتو » ، حتى بلغ عدد المنظمات الشيوعية في مصر عامي ١٩٥٤ و ١٩٥٥ ، ١٣ منظمة سرية . وفي الثامن من يناير (كانون الثاني) ١٩٥٨ اتحدت كل المنظمات المصرية ، فيما عرف بالحزب الشيوعي المصري ، ثم عادت حدتو ، بعد اربعة اشهر من الوحدة ، الى الانسلاخ عن الحزب . وفي ربيع عام ١٩٦٥ ، اعلن كل من الحزب وحدتو حل تنظيميهما .

وفي الفترة التي كانت فيها المنظمات الشيوعية تشارك في النشاط السياسي ، اصدرت واشترت امتياز العديد من الصحف ، التي لم يكتب لهما الدوام ، وتميزت بقصر العمر ، نتيجة الملاحقة المستمرة من اجهزة الامن ، ومحاربتها لها بسلاحي الاغلاق والمصادرة .

ولم ترد في مقالي هذا بعض الصحف والمجلات ، التي عرف عنها صدورها عن منظمات شيوعية ، ويعود ذلك الى اسباب مختلفة . ١ — بعض هذه الصحف لم يعالج ولم يتطرق للقضية الفلسطينية . كمجلة « التطور » التي كانت تصدرها جماعة « الخبز والحرية » التروتسكية في الاربعينات . و« الغد » ، التي صدر منها ثلاثة اعداد في الاشهر الثلاثة الاولى من عام ١٩٥٣ ، ثم عادت الى الظهور عام ١٩٥٩ ، ليصدر منها ثلاثة اعداد أخرى ، ومن المعروف انه كان لحدتو نفوذ كبير عليها . وسبب عدم تطرق المجلتين المذكورتين

* المقصود هنا هي الصحف العلنية التي كانت تصدرها المنظمات الشيوعية السرية في مصر . وتأتي ضرورة (مقال المعلومات) هذا ، بعد محاولات تشويه وتسويد مواقف الاحزاب الشيوعية العربية من قضية فلسطين ، والتي وصلت ذروتها ابان الصدام بين الاتجاهين ، القومي والشيوعي ، في وطننا العربي ، فيما بين عامي ١٩٥٩ — ١٩٦٤ . ويلاحظ ان الطرف الاخر ، أي الاحزاب الشيوعية العربية ، كان قد عمد — في رده — الى التبسيط والانفعال دون التأصيل والتوثيق .

للقضية الفلسطينية هو تخصصهما ببحث المسائل الايديولوجية والادبية . اما المجلة الثالثة فهي « دراسات سوفيتية » التي اصدرتها دار الفكر ، التعبير العلني لحدتو ، وكانت دراسات سوفيتية تصدر بصفة غير دورية ، وقد تخصصت في نشر مقالات سوفيتية فقط . ٢ — ان البعض الاخر من هذه الصحف ، وان كان الشيوعيون هم الذين يحررونها ، الا ان منظماتهم لم تكن هي التي اصدرتها . كصحيفة « المساء » ، والتي كان اغلب كتابها ومحرريها ، فيما بين اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٥٦ — مارس (اذار) ١٩٥٩ ، من الشيوعيين . الا أن رخصة الصحيفة كانت باسم الرئيس الراحل جمال عبد الناصر شخصيا ، شأنها شأن صحف دار التحرير (الجمهورية ، التحرير ، اجبشيان جازيت ، وكرنفال) وشأن صحيفة الشعب التي كان يرأس تحريرها المرحوم صلاح سالم ، عضو مجلس قيادة الثورة المصري . اما مجلة الطليعة القاهرية والتي اخذت في الصدور منذ يناير (كانون الثاني) عام ١٩٦٥ ، فقد صدرت عن مؤسسة الاهرام . كما أن مجلة الكاتب كانت قد صدرت عن دار التحرير ، ثم انتقلت ملكيتها الى وزارة الثقافة ، ومنذ نوفمبر ١٩٧١ ، تخلت وزارة الثقافة عنها وبذا اصبحت المجلة الوحيدة في مصر ، التي لا تصدر عن مؤسسة حكومية او الاتحاد الاشتراكي .

١) **الحساب** : صحيفة اسبوعية ، اصدرها الحزب الشيوعي المصري ، وكان العدد الاول منها قد صدر يوم الثلاثاء الموافق ٢١ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٢٤ . وكان ابراهيم الصيحي هو صاحبها ورئيس تحريرها . وظلت « الحساب » تصدر حتى العدد السابع عشر منها ، والمؤرخ في الثامن من مايو (أيار) ١٩٢٥ .

وبالرغم من أن القضية الفلسطينية لم تكن ، عند صدور هذه الصحيفة ، قد طرحت بالعمق الذي بدا بعد ثلاثينات القرن الحالي ، وبالرغم من ان الحساب كانت قد أثبتت في صدر صفحتها الاولى انها « تعنى بنوع اخص بالشئون الداخلية » ، وبالرغم من ضعف الفكرة العربية في مصر آنذاك ، وبالرغم من قصر عمر الصحيفة المذكورة ، الا اننا نلاحظ انها قد اهتمت بالمسألة الفلسطينية والصهيونية بشكل لم نجده في أية صحيفة مصرية في ذلك الوقت . فقد تصدت الحساب لزيارة اللورد بلفور الى فلسطين وسوريا، فنشرت عنها ريبورتاجا شيقا ، وقالت « كأن لم يكفه ما فعلته زيارته لاهالي فلسطين ، وأي تذكار مؤلم تركه في أنفسهم، فأراد أن يتسلى بتعذيب اهل سوريا ، ويتلهى بأن يتفرج على عذابهم والمهم عندما يزور بائع شقيقة بلادهم للمستعمرين من اليهود » . ثم تستعرض الصحيفة وقائع المطاردة العنيفة التي قامت بها الجماهير السورية واللبنانية في دمشق وبيروت للورد بلفور . مما اضطر اللورد الى الفرار من المدينتين المذكورتين ، طلبا للنجاة[١].

وفي حديثها عن الاحتفال بعيد العمال في أول مايو في فلسطين، تحدثت «الحساب» عن اتحاد العمال العرب واليهود « رغم الخلاف الحيوي الشديد بين سكان فلسطين من العرب الوطنيين وبين اليهود الصهيونيين المستعمرين ... وذلك لان العمال الوطنيين يعلمون حق العلم أن لا شأن للعمال اليهود بالحركة الاستعمارية الصهيونية ، لانهم ضد كل استعباد واستعمار ». وتحدثت «الحساب» عن انقطاع جميع عمال فلسطين عن العمل في هذا اليوم وقيامهم بتظاهرات كبرى في معظم مدن فلسطين وخاصة في القدس وحيفا . كما أشارت الى الصدام الذي وقع بين رجال الشرطة والمتظاهرين . وقالت « الحساب » ، على لسان مندوبها في فلسطين ، ان المتظاهرين من العمال كانوا « يهتفون بسقوط وعد بلفور ، وبسقوط الانتداب الانجليزي ، وسقوط الصهيونية والاستعمار . وهتفوا اليوم ثمان ساعات ، وبحياة العامل ، وغير ذلك من النداءات »[٢].

٢) **الاسبوع** : مجلة اسبوعية ، صدر العدد الاول منها في أول يناير (كانون الثاني) ١٩٣٤ . ولم يكن للصحيفة عند صدورها اي صلة بالمنظمات اليسارية . ومنذ العدد ذي الرقم ٤٧٤ ، المؤرخ في ١٥ يوليو (تموز) ١٩٤٣ ، قامت « لجنة نشر الثقافة الحديثة » بتحرير عدد من الاسبوع وترك اخر لهيئة التحرير القديمة . ومن المعروف ان لجنة نشر الثقافة الحديثة كانت منظمة علنية لتنظيم « الطليعة الشعبية للتحرر » السري . وقد ضمت العديد من العناصر الشيوعية البارزة ، منهم يوسف درويش ، سعيد خيال ، واحمد رشدي صالح . وكان العدد ٥١٢ ، الصادر في ٤/١٩/ ١٩٤٤ ، هو اخر الاعداد التي اشرفت لجنة نشر الثقافة على اصدارها .

وفي مقال لها تحت عنوان « مشكلة فلسطين » ، أشادت الاسبوع باحتجاج مصطفى النحاس باشا ، رئيس الوزراء المصري آنذاك ، الذي قدمه الى الكونجرس الامريكي ، بشأن موقف امريكا من مسالة فلسطين ، ورأت المجلة المصرية ان مذكرة النحاس « تعبر عن موقف كل تقدمي ازاء هذه المشكلة » . ويرى كاتب المقال ان قضية « عرب فلسطين لا تعارض مبدأ تحرير الاقليات . وكما قالت المذكرة المصرية ، لا فائدة في ترحيل الاسرائيليين من البلاد الفاشية الى فلسطين ، لجعله اضطهادا جديدا هناك ، يدفع ثمنه العرب سواء كانوا مسلمين ام مسيحيين ام اسرائيليين » . وأكدت المجلة « ان ميثاق التحرير نفسه هو الذي سيسمح أيضا ، للاسرائيليين أن يقضوا في بلادهم ، التي هي تحت نفوذ النازية ، حياة سعيدة طليقة اسوة بمواطنيهم الاوربيين » وشددت الصحيفة على كون « شؤون فلسطينية تخص الفلسطينيين وحدهم » . وأشاد المقال بتضامن الشعوب العربية ، وأعرب كاتب المقال عن أمله في أن تمنع الهجرة منعا باتا الى فلسطين « ويرد للفلسطينيين حقهم المسلوب فيدبرون شؤونهم بلا تدخل سواء كان شرقيا أم غربيا »(٣).

وتعرضت الاسبوع في العدد نفسه لكتاب الدكتور يوسف هيكل ، « نحو الوحدة العربية » وانتقدت فيه عدم تضمنه « أية اشارة الى الاغراض المشروعة الحقيقية التي تنشدها الشعوب العربية من وراء وحدتها . ثم هو في الوقت ذاته يعالج الموضوع معالجة مائعة سطحية غير صحيحة ، قوامها الخضوع امام العراقيل القائمة والتسليم بالمظالم الموجودة »(٤).

وعندما تأسست « رابطة المثقفين العرب » في فلسطين ، منبثقة عن عصبة التحرر الوطني الفلسطينية ، رحبت « الاسبوع » بها ، ونشرت جزءا كبيرا من مبادئها الاساسية (٥).

٣) **الفجر الجديد** : وفي مايو (أيار) ١٩٤٥ ، أصدرت منظمة « الطليعة الشعبية للتحرر » مجلة علنية باسم « الفجر الجديد » . وقد صدر العدد الاول منها في السادس عشر من مايو (أيار) ١٩٤٥ . وظلت تصدر كل نصف شهر مرة ، حتى العدد السادس عشر منها ، الصادر في الرابع من يناير (كانون الثاني) ١٩٤٦ ، حيث أخذت في الصدور اسبوعيا . وكان احمد رشدي صالح هو صاحب امتيازها ورئيس تحريرها . ومنذ العدد السادس والعشرين ، الصادر في العشرين من مارس (اذار) ١٩٤٦ ، دون اسم ابو سيف يوسف سكرتيرا لتحرير المجلة . وأخذت المجلة تصدر صباح كل اربعاء . وكان العدد الثاني والاربعين هو اخر اعداد المجلة ، وهو الصادر في العاشر من يونيو (حزيران) ١٩٤٦ .

ومن المعروف ان مخلص عمرو وبولس فرح — مندوبي مؤتمر العمال العرب بفلسطين — كانا قد مرا بالقاهرة لدى ذهابهما وعند عودتهما من « مؤتمر نقابات العمال العالمي » الذي انعقد في باريس في اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٤٥ . وقد اتصل عمرو وفرح اثناء وجودهما بالقاهرة ببعض الشيوعيين المصريين ، ومن ضمنهم مجموعة « الفجر الجديد » . وكان لهذا الاتصال اثره الكبير في تعريف الشيوعيين بحقيقة قضيتنا الوطنية وابعادها ، وقد انعكس ذلك في كتابات الشيوعيين المصريين ، فاتسمت مقالاتهم عن القضية الفلسطينية ، بعدئذ ، بالعمق والدقة ، كما كان من نتيجتها كبر حجم المادة المنشورة عن فلسطين في صحف اليسار الشيوعي المصري .

ويكتب صادق سعد مقالا ، بدون توقيع ، اشار فيه الى المطالب والشعارات التي ترفعها عصبة التحرر الوطني الفلسطينية ، وهي « السعي لايجاد مجلس نيابي في البلاد يمثل الشعب تمثيلا ديمقراطيا ، ويمكن جميع السكان من الاشتراك في ادارة شئونه كخطوة تقربه اكثر فأكثر من هدفه النهائي : الاستقلال والسيادة الوطنية » ويؤكد صادق سعد في مقاله ان كفاح فلسطين الوطني الديمقراطي يتجه « الى الحصول على الاستقلال، والتخلص من الطغيان الصهيوني » ويشير الى مطالب الحركة الوطنية في مجال انشاء النقابات العمالية ، والمدارس ، ويؤكد ان الحركة الوطنية الفلسطينية « لا تطالب فقط بهذه المطالب المادية لتحسين حالة الشعب ، بل تطالب ، بالدرجة الاولى ، بحكم ديمقراطي تمثيلي » . وفي المقال نفسه يقدم صادق سعد تقييما دقيقا للصهيونية باعتبارها « حركة استعمارية ليست في الواقع سوى شكل قديم جديد لتصدير الرأسمال والاستيلاء على الاسواق واحتكار اكثر ما يمكن من منابع المواد الاولية لحساب الشركات الاستعمارية الضخمة ، والصهيونية بطبيعتها ، التي اشرنا اليها ،

معارضة حركة العرب الديمقراطية ... وهي تستثمر عشرة ملايين من الجنيهات في فلسطين لحساب امثال شركة البوتاس وشركة الكهرباء وروتشيلد ، وغيرها من المؤسسات الرأسمالية التي تعتصر الشعب الفلسطيني كلما استطاعت الى ذلك سبيلا ... والصهيونية تجد سندا قانونيا في تصريح بلفور وغيره من الرسميين البريطانيين ويربطها هذا بالانتداب »(٦).

وعندما تصدر « رابطة المثقفين العرب » الفلسطينية مجلة « الغد » ، ترحب الفجر الجديد بصدور زميلتها ، وتصفها بأنها « صوت جديد مخلص يرفعه الكتاب الاحرار هناك مدافعا عن أسمى ما في حياة البشر : الحرية السليمة ، والعدالة الاصيلة ، والديمقراطية الحقيقية »(٧). ويزور د. ن. بريث ، عضو مجلس العموم عن حزب العمال البريطاني ، الاسكندرية في خريف ١٩٤٥ ، فيلتقي به مندوب الفجر الجديد ، ويوجه اليه عدة اسئلة ، يتضح لنا ، من خلال سؤاله الخاص بالصهيونية مدى الفهم العميق الذي يتمتع به مندوب المجلة للمسألة الصهيونية ، اذ نجده يسأل بريث « يعتبر المصريون الاحرار ان الصهيونية ، بأشكالها السياسية والاقتصادية ، ونشاطها المناهض للحرية ، تقوم حجر عثرة في سبيل استقلال البلاد العربية ، وأن القضاء عليها ضرورة يفرضها قيام سلام عالمي وتحتمها سلامة الديمقراطية والحرية في الشرق الاوسط . يرى المصريون الاحرار هذا الرأي ، ويراه معهم العرب المخلصون في جميع بلاد العالم ، بينما يستغل الرجعيون تردد العمال من الصهيونية ، فيذيعون أنهم يؤيدونها بأعمق مما يؤيدها المحافظون ، فهل يحس الرأي العام البريطاني خطورة هذه المسألة عامة وعلى نمو الديمقراطية والحركات الشعبية على وجه الخصوص ؟ » وجاءت اجابة المفكر التقدمي البريطاني واقعية وصريحة وواضحة ، اذ أجاب « لا اظن أن الرأي العام البريطاني متنبه الى خطورة الصهيونية او الشر الذي يمكن أن تحدثه ، وأما الرأي العام اليساري فيعادي الاستعمار ولا يثق بالصهيونية ، ولكنه قد تأثر بآلام اليهود في اوروبا . لا شك ان هناك عملا كبيرا يجب ان يؤدى قبل أن يتضح الموقف للرأي العام »(٨).

ولدى عودته من باريس كتب مخلص عمرو مقالا في الفجر الجديد اشار فيه الى ان « الطبقة العاملة في العالم اصبحت لا ترى انها طبقات مختلفة متباعدة . ولا كتلا مناضلة منعزلة ... وأن وحدة وفود العمال العربية في هذه المؤتمرات أدت الى انتخاب رئيس الوفد اللبناني عضوا في اللجنة المركزية ، والى محاربة الصهيونية بين صفوف العمال وفضحها كحركة استعمارية رأسمالية ، مما ألغى ونفى مساعدة العمال العالميين لها »(٩).

وفي العدد نفسه نشرت « الفجر الجديد » (برنامج مندوبي نقابات مصر في مؤتمر النقابات العالمية المنعقد في باريس) ، وقد تضمن البرنامج تسع مواد ، وجاء في مادته السابعة « ٧ — مناصرة فلسطين العربية في كفاحها ضد الاستعمار والصهيونية باعتبار هذه الاخيرة نوع من انواع الفاشية »(١٠).

وتنشر المجلة تصريحا لمخلص عمرو وبولس فرح ، كان قد ادليا به لوكالة الانباء الفرنسية في باريس ، وجاء فيه أن مسألة فلسطين ليست « مسألة جنسية بل مسألة سياسية . وان كان اليهود ديمقراطيين فلا يجب ان يكافحوا من اجل دولة يهودية ، بل من اجل استقلال الدولة الوطنية الديمقراطية الفلسطينية » . وعلقت الفجر الجديد على هذا التصريح بقولها « ... والواقع اننا لا نرى من جانب الصهيونيين ، على اختلاف احزابهم، أي نداء لجلاء قوات الاحتلال عن فلسطين ، بل أن الاستعمار نتيجة لهذا الموقف في أمان بفلسطين ، الى درجة تسمح له بأن يشرع ، كما جاء اخيرا ، في تحويل فلسطين الى معقل استعمار رئيسي في الشرق الاوسط ... وقد زاد نشاط الرأسماليين الامريكيين في تأييد الصهيونية ، ليسربوا عن طريقها سيطرتهم على الشرق العربي »(١١).

وفي مقال « احتضار الصهيونية » وصف صادق سعد الصهيونية بأنها «حركة رأسمالية استعمارية، يقوم بها كبار الرأسماليين الاحتكاريين ، ليستغلوا موارد فلسطين وشعبها وموقعها الاستراتيجي ... فالوطن (القومي) الذي تسعى الصهيونية الى تأسيسه في فلسطين لم يبن الا عن طريق رؤوس أموال ضخمة تبلغ ١٠٥ ملايين جنيه ... حجم التبرعات منها ٢٠ مليون جنيه فقط . اما الباقي — وهو الجزء الاكبر — فجاء عن طريق المؤسسات المالية الانجليزية ، التي أتت بعشرين مليونا من الجنيهات ، والامريكية ، التي (ساهمت) بعشرة

ملايين ، والالمانية الخ . ولم تكن هذه المنشآت المالية يهودية جميعا ، كما لم تكن ايضا اموالها يهودية صرفة : فلورد هيرست ، رئيس الشركة الكهربائية جنرال اليكتريك ، عضو مجلس ادارة شركة الكهرباء الفلسطينية . ولورد ملتشت ، رئيس شركة الصناعات الكيماوية البريطانية (اي. سي. اي) ، عضو مجلس ادارة شركة البوتاس الفلسطينية ، يجلس بجانب مستر هـ. ساش ، وهو مدير شركة ماركس وسبنسر ليمتد الانجليزية . وبنك باركليز الانجليزي هو الذي يقدم القروض الى شركات الاراضي الصهيونية ، في حين ان شركة برودينشيال للتأمين الامريكية استثمرت مليونا وسبعماية وخمسين الف جنيه في قروض البناء سنة ١٩٣٥ » . ويصل الكاتب الى نتيجة مؤداها ان « ليس جميع الصهيونيين يهودا ». ثم يشير الى مخاوف الصهيونية التي اثارها سقوط الفاشية ، ويستشهد باحد مشاهير الصهيونية « روبين » ، الذي عبر عن هذه المخاوف في كتابه « يهود العصر الحاضر » ، حين قال « ان تلاشي اضطهاد اليهود بسبب تلاشي الصهيونية ... فاضطهاد اليهود احسن مثير لمصلحة الصهيونية ». ويسخر كاتب المقال من زيارات عبد الرحمن عزام بك ، امين الجامعة العربية آنذاك ، المتعددة الى عواصم العالم ، والتي تمخضت عن تصريح عزام بك الذي ادلى به في لندن ، والذي أكد فيه بأن « الجامعة العربية ترغب في وضع مسألة فلسطين على الرف لسنة واحدة » . ثم يعدد صادق سعد الضربات التي وجهت للصهيونية من اليهود الشرقيين والطبقة العاملة العربية واليهودية . ويشير كاتب المقال الى ان « الطبقات الكادحة اليهودية قد بدأت تيأس من سياسة (تعاون الطبقات) ... وهذا ألمر بيرجر ، مدير جمعية يهودية امريكية ، يقول أن (حل المسألة اليهودية لا يكون بأنشاء ارض يهودية في فلسطين ، ولكن بواسطة الاعتراف لليهود بحقوق ومسؤوليات في أي بلد هبطوا اليه أو عاشوا فيه) . وهؤلاء يهود الاتحاد السوفيتي يستنكرون الصهيونية ويقطعون علاقاتهم مع جمعية النصر التابعة لها . بل ونرى الشعب الهندي يؤيد قضية العرب في مؤتمر نقابات العمال الدولي ، الذي انعقد في لندن منذ اشهر قليلة »(١٢).

وتقتطف الفجر الجديد عن زميلتها البيروتية « الطريق » جزءا من مقال لها بعنوان « الشعوب العربية والخطر الصهيوني » ، اشارت فيه « الى الخطر الكامن في الحركة الصهيونية ، والى ضرورة حل المشكلة الفلسطينية حلا سريعا عادلا ... وان على الشعوب العربية كلها أن تتحد لوقف مناورات الاستعماريين الانجليز والامريكيين ، وهي المناورات التي تتخذ فلسطين مسرحا لها حتى تثبت اقدامها فيه وفي الشرق العربي من بعد . وهذه المطامع الاستعمارية يحاول أن يخفيها الاستعماريون الانجليز والامريكيون تحت ستار ما يسمونه الوطن القومي لليهود . وبذلك يخرجون المشكلة من نطاقها الاقتصادي الى نطاق عنصري وديني في حين ان الصهيونية ، قبل كل شيء ، حركة اقتصادية تحاول ان تبسط على الشرق العربي نفوذ الرأسمال الاجنبي » . وبينت الطريق ، في مقالها ، ان مشروع سوريا الكبرى « لم يكن في جوهره سوى مناورة رجعية خطرة ترمي الى بناء دولة صهيونية تهدد جميع الاقطار العربية ، وجر سوريا ولبنان الى منطقة نفوذ استعماري معين الخط » . ونددت الفجر ، في تعليقها على ما جاء في الطريق ، بالمسؤولين العرب الذين اجتمعوا في الجامعة العربية « ولم يطالبوا بحل قضية فلسطين في حين أنها أهم قضية تواجه البلاد العربية في المرحلة الحاضرة ، واول امتحان جدي يبين حقيقة الجامعة ومدى قوتها » . وتنتهي الفجر الى مناشدة الشعوب العربية الى التنبه ، في كفاحها ضد الصهيونية « الى حيل الاستعمار وصنائعه ، وان تقاوم تلك المشاريع التي تهدد مستقبل بعض البلاد العربية وان تصر على حل واحد للقضية الفلسطينية ، وهذا الحل يتمثل في أن فلسطين بلد عربي ، اكثريته عربية ، ولن يتم اتفاق بين اليهود والعرب ما لم يلغ الانتداب البريطاني الغاء تاما »(١٣).

وفي منتصف نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٥ ، نشرت الفجر النص الكامل لبيان عصبة مكافحة الصهيونية، الصادر في بغداد بمناسبة يوم وعد بلفور ، والذي ندد بالوعد المذكور(١٤). وفي العدد نفسه كتب جهاد ، وهو الاسم الرمزي لصادق سعد ، مقالا بعنوان « حوادث ٢ نوفمبر » وصف فيه مكافحة الصهيونية بأنها « عمل وطني مجيد يجب ان نقوم به في حزم وقوة » ويعود جهاد الى وصف الصهيونية بأنها « حركة استعمارية رأسمالية يستخدمها الاستعماران الامريكي والبريطاني الآن لتثبيت دعائمهما في بلادنا العربية » ويؤكد « ان عدونا الاول هو الاستعمار البريطاني » ويتهم المقال

الاستعمار البريطاني « وصنائعه من الرأسماليين الصهيونيين » بأنهم خالقو وعد بلفور . ثم انتقل جهاد الى انتقاد الاحداث التي وقعت في مصر أثناء الاضراب العام احتجاجا على وعد بلفور ، وما قامت به بعض العناصر الفاشية — من اخوان مسلمين وعناصر مصر الفتاة — من مهاجمة لمحلات سكن اليهود ومتاجرهم ، متهما هذه العناصر بتحويل « حركتنا الوطنية عن مجراها الحالي ضد الاستعمار البريطاني والاستبداد الرجعي ، الى حركة عنصرية »(١٥).

وعندما قررت الحكومتان البريطانية والامريكية ايفاد لجنة انجلو امريكية الى فلسطين ، تصدت الفجر لهذه اللجنة ، واكدت « ان تعيين هذه اللجنة مخالفة صريحة لحق الشعب العربي الفلسطيني في تقرير مصيره ، بل أنها مخالفة للمنطق البديهي ، اذ أن العرب يشكون أولا وقبل كل شيء ، الاستعمار البريطاني الذي قدم فلسطين لقمة سائغة للصهيونية ، والاستعمار الامريكي الذي يعتبر أهم عضد للصهيونية الان » . وعادت المجلة الى التساؤل مستنكرة « ... فكيف يمكن بعد ذلك للجنة عينتها الحكومة الاستعمارية البريطانية وزودتها بممثلين للحكومة الامريكية ، كيف يمكن للجنة هذا تشكيلها أن تحل مسألة فلسطين ! » وانتهى كاتب المقال الى ان « لا حل للقضية الفلسطينية الا بالاستقلال »(١٦).

وفي العدد نفسه نشرت الفجر الجديد ، تحت عنوان « يقاومون الهجرة الى فلسطين » ، النص الكامل لمقال كانت قد نشرته «الاتحاد» الصحيفة الاسبوعية لعصبة التحرر الوطني الفلسطينية . ويتهم فيه كاتب المقال السلطات البريطانية والامريكية بأنها « لم تتخذ اجراءات سريعة لتأمين عودتهم [يقصد عودة اليهود الموجودين في معسكرات اوروبا] الى اوطانهم الاصلية » ويرى كاتب المقال « أن يؤيد اليهود بكل قواهم الدمقراطية الحقيقية التي بدأت تنتشر في أوروبا الوسطى والشرقية ، وهكذا يصبح في مقدورهم ان يتفهموا امكانيات عيشهم الواسعة في ظلال هذه الدمقراطية الجديدة » . ويؤكد مقال الاتحاد « ان قضية اللاجئين اليهود تنفصل تمام الانفصال عن قضية فلسطين ومستقبلها » وينتهي الى ان حل قضيتي فلسطين والمهاجرين اليهود « يكون على أساس الخطوط العريضة الاتية : ١ — تسليم المسئولية في معاملة هؤلاء اليهود اللاجئين ... الى ممثلين عن منظمات اليهود ... من الاقطار الديمقراطية ... ٢ — ان يسمح للرعايا البريطانيين ... بدعوة اقاربهم الى بريطانيا ... ٣ — تثقيف هؤلاء اليهود بضرورة عودتهم الى اوطانهم الاصلية ... ٤ — وبعد ذلك ، اذا بقي من لا يرغب في العودة الى وطنه الاصلي ، من الواجب تأمين الملجأ له في الاقطار الديمقراطية المتعددة ... ويجب الا يسمح بالهجرة الى فلسطين الا بعد اخذ موافقة سكان فلسطين ، موافقة ديمقراطية غير اجبارية . ٥ — ... من واجب بريطانيا ان تضع خطة لمستقبل فلسطين . خطة تقودها الى حريتها ورخائها »(١٧).

وعندما ألقى مستر ارنست بيفن ، وزير الخارجية البريطانية آنذاك ، بيانه عن قضية فلسطين ، والذي طالب فيه امريكا بالمشاركة في (حل) المشكلة الفلسطينية !! عقدت الجامعة العربية اجتماعا لها ، وردت على بيفن بأنها « واثقة ان الحق لا يتجزأ ، وان المبادىء الدمقراطية التي قام عليها نظام الامم المتحدة الذي تشترك فيه الدول العربية لا يدع مجالا لاي شك في حق عرب فلسطين في توجيه حياتهم الوجهة التي يريدونها ، وهي استقلال فلسطين الذي ينتظر العرب تحقيقه بأسرع ما يمكن » . وتنتقد الفجر « الروح الرخو المستخذي» لرد الجامعة ، وتشير الى انها كانت ترجو « أن تظهر الجامعة في صراحة وعزم مسئولية الانتداب في أزمة فلسطين الحاضرة . وأن تطالب بقوة بمنح الشعب الفلسطيني حرياته التي تتمشى مع كفاحه المجيد وتتلاءم مع مقررات المؤتمرات الدولية » . ويشير المقال ، الى دلالة (استدعاء) امريكا « للمعاونة في حل قضية فلسطين ، فأمريكا الاستعمارية تأتي لتظاهر بريطانيا الاستعمارية في الشرق الاوسط ضد خطر المعسكر السلافي الذي تفترض وجوده . وبريطانيا تكتل القوى الرجعية في الشرق العربي ليكون نطاقا صحيا آخر حول النفوذ السوفييتي . ويأخذ هذا التكتل احد أشكاله في جامعة الدول العربية » . وتورد الفجر بقية خطاب الجامعة الى بيفن ، والذي تشير فيه الى تأكيد مجلسها « رغبته في أن يسود العلاقات العربية البريطانية ، دائما ، أحسن التفاهم ، وأن يكون تناول المشاكل وحلها على ضوء المبادىء السامية الانسانية » . وتهزأ الفجر من مجلس الجامعة الذي « يريد ان يتفاهم مع الاستعمار » و« يمثل حكومات ولا يمثل شعوبها ... ويقف حائلا بين

الشعوب العربية وبين التحرر ... وهو غير جاد في محاربة الاستعمار كله ومتراخ في محاربة عميله وصنيعه الا وهو الصهيونية » . ويرى كاتب المقال « ان الصهيونية لا يكافحها مجلس من حكومات عربية متهادنة مع الاستعمار ، او غير جادة في محاربته ، بل يحاربها نشر ومساعدة الوعي في الشعوب العربية ، وذلك بتعميق الديمقراطية فيها واطلاق حرية الصحافة والرأي والاجتماع والخطابة » ثم يشير المقال الى تكتيل الجامعة العربية للاحزاب العربية في فلسطين فيما عرف بـ « الهيئة العربية العليا » فيرى ان « تجاهل القوة الوحيدة التي بح صوتها بالدعاء الى تكوين جبهة وطنية ، ونعني بها عصبة التحرر الوطني ، فتكتيل آخر في صالح الاستعمار ، للقوى الرجعية المتهادنة معه ، واضعاف من جهة اخرى للقوى الشعبية التي هي القوى الوحيدة القادرة على مكافحة الصهيونية ». وينتهي علي الراعي ، كاتب المقال والمتستر تحت اسم « علي الكاتب »، الى « ان حل قضية فلسطين ومكافحة الصهيونية لن يتم الا بمكافحة الاستعمار اولا وقبل كل شيء ، والنهوض بالشعوب العربية واطلاق حريتها الى آخر مدى »(١٨).

وكتبت « الاتحاد » الفلسطينية مقالا بقلم فؤاد نصار، نددت فيه بالاعتقالات التي قام بها اسماعيل صدقي ، رئيس وزراء مصر آنذاك ، في ديسمبر ١٩٤٥ ضد الشيوعيين والديمقراطيين المصريين ، وقد نشرت الفجر هذا المقال(١٩). كما كتبت الغد ، مجلة رابطة المثقفين العرب الفلسطينيين ، مقالا بعنوان « الاشتراكية جريمة في مصر » ، نقلته عنها الفجر الجديد رأت فيه « ان ليس أغرب على السمع ان تكون الاشتراكية تهمة في هذه الايام ، ولا أوغل في خيانة الوطن من منع الطبقة العاملة من التنظيم والتكاتف ولا أرخص ضميرا أو أحط نفسا ممن يبيع نفسه وقلمه لمستعمريه » . وينتهي كاتب المقال الى « أن سمعة مصر ، وان الحق قبل سمعتها، يقتضيان اطلاق حرية الاحرار، اشتراكيين كانوا أو ديمقراطيين »(٢٠).

وندين الفجر الجديد مندوب مصر في مؤتمر سان فرانسيسكو ، لانه « لم يؤد لفلسطين العربية حقها على مصر بوصفها عضوا في الجامعة العربية ، ودولة شقيقة تقع صريعة الاستعمار » وتشيد المجلة اليسارية المصرية ، في الوقت نفسه، بموقف المندوب السوري في المؤتمر المذكور ، الذي تمنى « رؤية فلسطين تتحرر وفقا لرغبات أهلها من أي انتداب او وصاية »(٢١). وفي العدد نفسه نشرت الفجر بيان المكتب السياسي لعصبة التحرر الوطني بفلسطين ، والخاص بلجنة التحقيق الانجلو – امريكية ، والذي أكد فيه ان في « اثارة موضوع الهجرة مؤامرة لابعاد الشعب العربي عن نضاله الحقيقي في سبيل الغاء الانتداب واستقلال فلسطين » . كما رفض البيان تحمل الجامعة العربية مسؤوليات القضية الفلسطينية ، مصرا على « أن تكون قيادة النضال الوطني في فلسطين بأيدي الشعب العربي المجاهد ، وان تكون الجامعة العربية مؤيدا ومؤازرا » ووصف المكتب السياسي ، لجنة التحقيق الجديدة بأنها مجرد « هيئة استعمارية تريد ان تفرض سياسة (جديدة) بعد ان نقضت جميع السياسات » . ورفض البيان الاعتراف « بقانونية أية هيئة او لجنة تحقق في مصيرنا »(٢٢).

ويساند ابراهيم الكاشف ، وهو الاسم الرمزي لريمون دويك ، موقف عصبة التحرر هذا ، فيؤكد ان « الاوساط الرجعية في لندن وواشنطن تبذل قصارى جهدها لجعل هيئة الامم المتحدة هيئة قاصرة ولهذا تعجلت في تعيين لجنة انجليزية امريكية للفصل في مشكلة فلسطين قبل اجتماع هيئة الامم المتحدة ، حتى لا تفسح المجال أمام الرأي العام العربي لبسط قضيته أمام الرأي العام الدولي لا أمام هيئة تحكيم هي في الواقع أحد الطرفين المتخاصمين »(٢٣).

وتورد الفجر خبرا عن أن « اينشتاين يتهم الاستعمار » قالت فيه « ان الدكتور ألبرت اينشتاين ، العالم اليهودي وصاحب نظرية النسبية، قرر أمام لجنة التحقق [الانجلوأمريكية] (انه لا يوافق مطلقا على انشاء دولة يهودية لانها فكرة قديمة بالية ، والحق أن أوروبا مريضة بالشعور الوطني) وقد اتهم بريطانيا بتحريك اسباب الاضطراب بين العرب واليهود ، وان الاستعمار البريطاني يسير على مبدأ « فرق تسد »، واقترح اسناد ادارة هذه الارض المقدسة الى هيئة الامم المتحدة »(٢٤).

وعندما دست الجامعة العربية انفها في القضية الفلسطينية ، نددت بها جريدة الاتحاد اليسارية الفلسطينية ، ونقلت عنها الفجر مقالا كاملا بعنوان « الى اين تسير الجامعة العربية ؟ » أشارت فيه الاتحاد الى « وقوف الجامعة العربية موقفا

تعاونيا مهادنا للاستعمار البريطاني ... ولم تطالب بالغاء الانتداب البريطاني عن اهل فلسطين» ووصف مقال الاتحاد ، الجامعة العربية بأنها « لينة ، مهادنة ، مترددة ، قلقة ... وان نضال الشعوب العربية ، وحده ، هو الكفيل بتحقيق اهداف الشعوب العربية ، وهو الذي سيجعل من الجامعة العربية منظمة للنضال ضد الاستعمار واعوانه الرجعيين »(٢٥).

وفي العدد نفسه نشرت الفجر الجديد برقية لمخلص عمرو ، سكرتير اللجنة التنفيذية لمؤتمر العمال العرب في فلسطين ، الى اسماعيل صدقي باشا ، يستنكر فيها اعتقال القادة النقابيين المصريين(٢٦). واستنكرت الفجر الجديد موقف ممدوح بك رياض ، مبعوث الحكومة المصرية امام لجنة التحقيق الانجلو أمريكية ، حيث قال أمام هذه اللجنة « ان الكتاب الابيض قد حل مشكلة فلسطين بعد أن قبلة العرب » . واعتبرت المجلة المصرية « ان ممثل الحكومة أيد الاستعمار »(٢٧).

وعادت الفجر الى « موقف الجامعة العربية من لجنة التحقيق » ، وتحت هذا العنوان كتب ل. ع. ، وهذه هي الاحرف الاولى لاسم لبيب عزوز ، مقالا استنكر فيه خلو جدول اعمال مجلس الجامعة العربية من اي بند « يمس الصراع الدامي الذي يدور بين شعوب بلادنا العربية والاستعمار البريطاني !! » ورجح الكاتب المصري ان لا يعرض المجلس « في جد وحزم للقضية التي سوف تعرض عليه : قضية فلسطين » . ووصف الجامعة العربية بأنها « كانت في الواقع مسرحية من بدايتها » . وأشار الى « سياسة التهدئة التي يقود دفتها رجال الجامعة العربية » الذين « طرحوا جانبا مسألة الاستعمار البريطاني في فلسطين وعجزوا عن معالجة مشكلة اللاجئين باعتبارها مشكلة منفصلة عن مشكلة اليهود » . وأكد عزوز « ان المسألة ليست تأييد او مناهضة الكتاب الابيض ، وليست تقسيما لفلسطين، وليست لجانا استعمارية مفروضة ، ففلسطين جزء من العالم العربي ، وتطورها السلمي لا ينفصل عن التطور السلمي لجيرانها من البلاد العربية وهذا لن يتحقق عن طريق اتفاقات ثنائية بريطانية امريكية » . وأكد لبيب عزوز ان الحل يكمن فيما أقره المؤتمر الثامن عشر للحزب الشيوعي البريطاني ، والمتضمن « انهاء الانتداب والاعتراف بالاستقلال الوطني لفلسطين في ظل نظام ديمقراطي يكفل الحرية والحقوق المتساوية للعرب واليهود » . كما ايد كاتب المقال ما كان قد صرح به مخلص عمرو ، في وقت سابق ، من ان الحل يتلخص « في المطالبة بالاستقلال والحكم الديمقراطي ومنح اليهود والاقليات الاخرى حقوق المواطنين وواجباتهم ووقف الهجرة اليهودية ومعالجة مشكلة اللاجئين باعتبارها مشكلة منفصلة عن مشكلة فلسطين واحالة قضيتها على هيئة الامم المتحدة »(٢٨).

ونقلت الفجر الجديد أجزاء من خطاب نقولا شاوي، رئيس تحرير « صوت الشعب » جريدة الحزب الشيوعي السوري اللبناني ، والذي كان قد ألقاه في المؤتمر الثامن عشر للحزب الشيوعي البريطاني، والذي جاء فيه « ... وفلسطين تطلب الغاء الانتداب ووقف الهجرة ، والغاء الوطن القومي ، واقامة حكم وطني دستوري قائم على الاستقلال والديمقراطية »(٢٩).

وفي اعقاب الصدام الدامي بين الطلبة والعمال المصريين من جانب والشرطة من جانب آخر ، والذي ذهب ضحيته عشرات العمال والطلبة الثائرين ، نقلت الفجر الجديد عن الغد الفلسطينية كلمة لها بعنوان « لتعش مصر المناضلة » حيث فيها نضال الطلبة المصريين وترحمت على شهدائهم وأدانت الحكام المصريين الخونة(٣٠).

وتحت عنوان « ماذا في البلاد العربية ؟ » قالت الفجر الجديد « ... والسياسة البريطانية ، بعد المساومة مع المصالح الامريكية اخذت توجه نشاطها لترسيخ اقدامها الامبراطورية ، بجعل فلسطين وطنا قوميا للصهيونية . واخذت تضغط لمنع الحكومات العربية المناهضة لنفوذها من اتخاذ اية سياسة جدية نحو قضية فلسطين »(٣١).

وبعد وصول لجنة التحقيق الانجلو امريكية الى فلسطين ، نشرت الفجر البيان الذي أصدره في حينه مكتب الرئاسة في عصبة التحرر الوطني ، في أوائل مارس (آذار) ١٩٤٦ ، والذي طالب فيه « برفض التعاون مع لجنة التحقيق واحباط مهمتها » ويسمي البيان اللجنة « بلجنة التضليل ! » وتنبأ مكتب رئاسة العصبة ، في بيانه ، بأن اللجنة سوف تقترح تقسيم فلسطين . وناشد البيان « اللجنة العربية العليا » بمقاطعة اللجنة المذكورة(٣٢).

وتعود الفجر فتنشر برقية ، كان قد أرسلها فريق من طلاب عكا وشبابها وعمالها الى اللجنة العربية العليا في القدس ، يحتجون فيها على قرارها بعدم الاضراب في فلسطين تضامنا مع الشعب المصري في حداده على شهدائه الاحرار(٣٣).

وتنشر الفجر بيانا كان قد وصلها من الهيئة المؤسسة لحزب الشعب العراقي (وهو حزب يساري تأسس ١٩٤٦ برئاسة عزيز شريف) ، بشأن اللجنة الانجلو — امريكية ، تشير فيه الى ان « مسألة فلسطين هي عين مسألة البلاد العربية كلها » والى مطالب الشعب الفلسطيني « بالتحرر من الاستعمار البريطاني وبتحقيق نظام نيابي ديمقراطي » ووصف البيان مصدر تأليف اللجنة الانجلو امريكية بأنه « لا صفة له دوليا ويناقض ميثاق الامم المتحدة » . وان هذه اللجنة « تمثل الانجليز — وهم مستعمرو فلسطين — والامريكان — وهم الذين يريدون اخضاع فلسطين للاستعمار الصهيوني » . ويصف حزب الشعب ، في بيانه ، الصهيونية بأنها « حركة استعمارية بحتة لا تريد — في حقيقتها — الا استغلال اليهود كأداة لمقاومة الحركة الوطنية العربية » وكمصدر ارباح لكبار الاحتكاريين من اليهود وغير اليهود . وانتهى البيان الى وجوب « مقاطعة اللجنة ، وان تحول قضية فلسطين الى مسألة دولية تعرض امام مجلس الامن »(٣٤).

وعندما بدأ موظفو فلسطين ، العرب واليهود ، اضرابهم العام ، كتب أنور عبد الملك مؤكدا « ان الكفاح المشترك للجماهير اليهودية والعربية ضد المستعمر البريطاني لهو الحجر الاساسي لحل مشكلة فلسطين »(٣٥). وفي وقت لاحق نشرت الفجر الجديد نبأ اجتماع اللجنة التنفيذية لمؤتمر العمال العرب بالقدس في منتصف ابريل (نيسان) ١٩٤٦ ، واتخاذها قرارات وطنية ، منها : تحية الموظفين المضربين والمطالبة بالافراج عن المعتقلين السياسيين ، وتحية قادة العمال المعتقلين في مصر(٣٦) .

وتستغل الفجر صدور بيان اللجنة الانجلو امريكية المالىء للصهيونية ، فتندد بالجامعة العربية التي سبق ومجدت اللجنة . ورأت الفجر أن تقرير اللجنة جاء بهذا الشكل « **اولا** : لان لجنة التحقيق كانت موفدة من أكبر البلدان الاستعمارية ، وأن هذين البلدين يؤيدان الصهيونية تأييدا قويا فعالا ، ويعارضان استقلال فلسطين معارضة قوية ... **وثانيا** : لان الاستعمار في حاجة جوهرية للمحافظة على فلسطين حتى يجعل منها محورا لمناوراته ، ومؤامراته ضد الحركات الوطنية التحررية في الشرق العربي ، وضد الاتحاد السوفييتي ، ثم ان لفلسطين مركزا استراتيجيا ممتازا في سلسلة المواصلات الامبراطورية ... وأما السبب الثالث، فهو محاولة الاستعمار ان يظهر الحركة الوطنية كحركة عنصرية دينية موجهة ضد اليهود» . ويرى كاتب المقال ان « امريكا وبريطانيا يريدان أن يفتكا بالشعب العربي في فلسطين » . ثم يعيد المقال الىالاذهان معارضة الشيوعيين العرب والشيوعيين الفلسطينيين لهذه اللجنة عند تشكيلها(٣٧).وتواصل الفجر حملتها على اللجنة الانجلو امريكية ، فتنشر بيانا للجنة المركزية لرابطة المثقفين العرب ، والذي ترفض فيه الرابطة قرار اللجنة المذكورة(٣٨).

وتنقل الفجر عن زميلتها اللبنانية «صوت الشعب» مقالا لمصطفى العريس، بعنوان «الحركة النقابية في الاقطار العربية » استعرض فيه الحركة النقابية العمالية في كل من مصر والعراق وفلسطين، مشيرا الى ان حركة الطبقة العاملة في الاخيرة قد انبثقت من صميم النضال الوطني الشعبي ضد الاستعمار والصهيونية ، ويستعرض بعد ذلك مراحل تطور هذه الحركة ونموها(٣٩).

وفي ركن « قالت الصحف والمجلات » نشرت الفجر جزءا من مقال لجريدة الاتحاد الفلسطينية ، وفيه يؤكد كاتبه ، « ان علينا ان نقود شعبنا وان نضع قضيتنا في مجلس الامن ، فذلك طريقنا ، وهو طريقنا نحو توحيد التعاون ما بين الشعوب الساعية لاستقلالها والتخلص من الاستعمار»(٤٠). وتزيد الاتحاد القضية وضوحا حين تنشر مقالا اخر ، تنقله عنها الفجر ، وفيه تقول « ... لقد رأينا سياسة بريطانيا وأمريكا ، وخبرنا عمليا اهدافهما الاستعمارية في بلادنا ، فهل ستتغير الوضعية ان ذهبنا الى مجلس الامن حتى ان كانت بريطانيا وأمريكا فيه سائدة ... وعلى كل حال يكفينا ان تفضح سياسة بريطانيافي مجلس الشعوب وامام الشعوب »(٤١).

ثم تنشر المجلة المصرية بيان مكتب الرئاسة لعصبة التحرير الوطني ، الصادر في ٨ يونيو (حزيران) ١٩٤٦ ، ردا على هجوم كان قد شنه جمال الحسيني ، رئيس الحزب العربي الفلسطيني ،

ضد العصبة ومؤتمر العمال . وحدد البيان اهداف العصبة ودورها في«النضال في سبيل الغاء الانتداب، وانشاء حكومة وطنية ديمقراطية مستقلة » وأشار البيان الى ان العصبة« تفصل عمليا بين الصهيونية صنيعة الاستعمار وبين السكان اليهود المضللين ، الذين يسيرون وراء الصهيونية ... وترى من واجبها ان تضع سياسة ايجابية امام السكان اليهود الذين يختلفون بالاهداف والمصالح مع الصهيونية »(٤٢). ثم عادت الفجر الجديد ونشرت خبرا عبرت فيه عن « أسف زعماء عصبة التحرر الوطني بفلسطين للموقف الذي اتخذه جمال الحسيني » وقد نقلت الخبر عن الاتحاد الفلسطينية التي كانت قد أضافت أنه « ما كان ينبغي ان يورط جمال الحسيني نفسه في امور يجهل حقيقتها »(٤٣).

وفي مقال « على البلاد العربية ان ترفض الاستعمار » الذي نقلت الفجر اجزاء منه عن الاتحاد حثت الصحيفة الفلسطينية البلاد العربية لاقامة « السلم المنشود ، وان تقيمه بالتعاون مع جميع القوى الوطنية الصادقة في داخل بلادها وخارجها ، لا مع العناصر الاستعمارية التي تعمل على احباط محاولات الشعوب السلمية »(٤٤).

ويدلي خالد بكداش ، سكرتير الحزب الشيوعي السوري ، بحديث الى جريدة صوت الشعب ، تنقل عنه الفجر ، حيث يقول عن فلسطين ، أن حزبه يدعو الى « العمل لتقوية التضامن العربي للنضال من أجل تحقيق الجلاء عن جميع الاقطار العربية وانقاذ فلسطين من الانتداب والصهيونية والاحتلال العسكري الاجنبي وانتزاع استقلالها »(٤٥).

ويكتب احمد رشدي صالح مقالا يوضح فيه أن الوطن العربي قد أصبح أهم منطقة احتكاك في العالم ، وينبه الا اننا يجب « الا ننسى ان الصهيونية تتسرب الى جسم بلادنا العربية بعدما نمت في قلب فلسطين . فجمعياتها ونشاطها في مصر وسوريا ولبنان والعراق ، ناهضة تماما » . ويشير ، في مرارة ، الى انه « في آخر اجتماعات الجامعة العربية تقرر ان لا تعرض قضية فلسطين على مجلس الامن باعتبارها نزاعا بين بريطانيا وفلسطين ، والنتيجة ان الجامعة العربية ساعدت الاستعمار في عزل فلسطين عن المعترك الدولي »(٤٦).

ومن العراق تطالعنا جريدة « الوطن » الناطقة بلسان حزب الشعب العراقي ، بمقال عن « المطامع الاستعمارية » ، تنشر الفجر اجزاء منه في ركن « قالت الصحف والمجلات » ، وعن فلسطين تتحدث الصحيفة العراقية ، فتؤكد ان الشعوب تعرف « من يحاول اخراج الشعب الفلسطيني العربي من بلاده ، لاحلال الصهاينة محلهم »(٤٧).

وفي الركن نفسه تقتطف الفجر اجزاء من مقال للغد الفلسطينية ، تقول فيه « ان سياسة الصهيونية قطعة من السياسة الرأسمالية الاستعمارية ، وجزء لا يتجزأ منها،وكتيبة من المعسكر الرأسمالي. وان اليساريين في جميع الاقطار العربية اعداء للاستعمار والصهيونية » وتنتهي المجلة الفلسطينية الى « ان مصلحة وطننا في اليسارية ويجب ان نكون كلنا يساريين »(٤٨). وفي الركن نفسه تنشر الفجر اجزاء من مقال « اهدافنا تتحقق بالتنظيم الديمقراطي الصحيح » عن الاتحاد ، وفيه تطالب الصحيفة الفلسطينية بضرورة « تنمية التنظيم الحزبي الصحيح وافساح المجال امام جميع التيارات الفكرية الديمقراطية لتقوم بدورها وتؤدي واجبها دون ارهاب او ارهاق ... ليتيسر للشعب رؤية السياسة الصحيحة التي تلائم اوضاعه فيؤيدها ويسير في ركابها الى ان ينال أهدافه ويصل الى امانيه ... »(٤٩).

وتحت عنوان « الى مجلس الامن » نشرت الفجر الجديد فقرات من كتاب مفتوح كانت قد وجهته اسرة تحرير الغد الفلسطينية الى الاحزاب والهيئات الديمقراطية في مصر والعراق وسوريا ولبنان طالبت فيه بعرض قضية فلسطين على مجلس الامن ، بغرض افشال قرار مجلس الجامعة العربية القاضي بتشكيل لجنة للتفاوض مع انجلترا(٤٩).

وتحت عنوان « في شرقنا العربي موجات اضطهاد » كتبت الفجر مقالا غفلا من اسم صاحبه ، اشارت فيه الى ان « موقف الوطنيين العرب من مسألة فلسطين اصبحت مقياسا لسلامةكيانهم واستعدادهم لمقاومة الاستعمار كل في بلده» واكدت ان «الحركات التقدمية في مختلف البلاد العربية كانت في طليعة المدافعين عن فلسطين ضد الاستعمار والصهيونية». وينتقد المقال لين دول الجامعة العربية وترددها « اياما وشهورا قبل أن تتقدم لمفاوضة الاستعمار ، وتقرر الجامعة العربية بجانب القرارات السرية

الخطيرة الوهمية مساومة الاستعمار البريطاني على حساب فلسطين » ويشير الكاتب الى « تحويل فلسطين الى معتقل للعرب » ويختتم مقاله بنشر برقية من سجون العراق بتوقيع يوسف زلخة — رئيس عصبة مكافحة الصهيونية — ومحمد حسن ابو العيس — عضو هيئتها الادارية ، وكان المذكوران ينويان ارسالها الى امين الجامعة العربية والى مختلف الصحف والهيئات التقدمية في الاقطار العربية وفيها يحتج ، زلخة وابو العيس ، على تعطيل جريدة « العصبة » الناطقة بلسان عصبة مكافحة الصهيونية ، وعلى اعتقالهما « ومهاجمة المطبعة واعتقال سكرتير ومحاسب العصبة لمجرد اصدارنا كراسا يفضح الصهيونية وسيدها الاستعمار ، وعلى اعتقال اربعة اعضاء من جمعيتنا لمجرد تقديمهم عريضة احتجاج على اعتقالنا » وتستعرض البرقية انجازات العصبة في مجال مكافحة الصهيونية والاستعمار ، ومؤازرة فلسطين(٥٠).

وعندما تمنع حكومة اسماعيل صدقي المجموعات الماركسية العلنية المصرية ، من عقد اجتماع لنصرة شعب فلسطين ، تعمد هذه المجموعات الى جمع الكلمات التي كانت ستتلى في الاجتماع ، في كراس أصدرته « دار القرن العشرين للنشر بالقاهرة » وهي التعبير العلني الثاني للطليعة الشعبية للتحرر ، بعد مجلة الفجر الجديد . والمجموعات الماركسية التي شاركت هي « دار الابحاث العلمية» ومن ابرز شخصياتها شهدي عطية الشافعي وعبد المعبود الجبيلي و « رابطة فتيات الجامعة والمعاهد » ومن اشهر عناصرها الدكتورة لطيفة الزيات و« اسرة تحرير الفجر الجديد » و« لجنة نشر الثقافة الحديثة » و« جماعة ام درمان » وهي المجموعة الماركسية السودانية ، التي كانت تصدر ، انذاك ، مجلة ام درمان ، في القاهرة . وكانت جريدة الاتحاد الفلسطينية قد اشارت الى ان منع الحكومة الصدقية احتفال الهيئات الديمقراطية في مصر يعد تحطيما لروابط التضامن بين مصر وفلسطين(٥١).

وفي مقال عن « الارهاب في شرقنا العربي » فضحت الفجر الجديد الاستعمار الذي « ينشط ليؤيد الارهاب الصهيوني ويعززه مستهدفا ابقاء سيطرته بمعاونة الصهيونية ومحاولا ابراز الوضع في فلسطين كما أظهرته في لجنة التحقيق ، من انها لن تصل الى الحكم الذاتي الذي يقضي على جميع المناورات الاستعمارية »(٥٢).

وبمصادرة حكومة صدقي للفجر الجديد ، خسرت القضية الفلسطينية نصيرا كبيرا ومنبرا هاما مؤازرا لها في القطر المصري .

٤) **الضمير** : في الثامن من اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٤٥ ، بادرت مجموعة من النقابيين الشيوعيين المصريين ، المرتبطين بالطليعة الشعبية للتحرر ، الى تأسيس « لجنة العمال للتحرير القومي » ، وقد استمر نشاط هذه اللجنة حتى ٣١ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٤٥ . واتسع نشاط هذه اللجنة حتى انضوى تحت لوائها ما بين ٧٠ — ٨٠ عضوا ، يؤازرهم نحو اربعة الاف عامل ، معظمهم من عمال النسيج ، واكثر من ربعهم شيوعيون(٥٣). وفي يوم تأسيس اللجنة ، قام محمد يوسف احمد المدرك بطبع برنامج اللجنة ، الذي حمل اسماء المدرك ، ومحمود محمد العسكري ، وطه سعد عثمان ، ومحمود محمد قطب ، ومحمد مدبولي ، ومحمود حمزة . وقد تضمن برنامج اللجنة فقرتين، تحت بند « علاقات مصر الدولية » المندرج تحت فصل « التحرير من الاستعمار » ، اشارة لموقف لجنة العمال للتحرير القومي من قضية فلسطين ، اذ نصت الفقرتان المذكورتان على « ج — تحويل الجامعة العربية الى أداة ديمقراطية ضد الاستعمار ، وذلك باشراك البلاد الغير مستعمرة والمستعمرة ، لمساعدتها في كفاحها الوطني الديمقراطي . د — مكافحة الصهيونية ، وتأييد الشعب الفلسطيني في نضاله الوطني الديمقراطي »(٥٤).

وقد اشترت لجنة العمال للتحرير القومي امتياز مجلة الضمير ، واخذت في اصدارها في القاهرة بدلا من بني سويف حيث كانت تصدر ، وواظبت على اصدارها بشكل دوري ، اسبوعيا ، الا ما تعرض منها لمصادرة البوليس السياسي . وكان العدد الاول الذي أشرفت اللجنة على تحريره ، هو العدد ٢٧٠ الصادر بتاريخ ١٩٤٥/٩/١٩ . وكان العدد الاخير الذي اشرفت عليه اللجنة هو ذو الرقم ١١ والصادر في الثامن من يوليو (تموز) ١٩٤٦ . وكان محمود محمد العسكري مديرا للمجلة ، في حين كان عبدالكريم احمد السكري هو صاحب الامتياز ورئيس التحرير ، وطه سعد عثمان سكرتيرا للتحرير . وقد تصدت الضمير

للصهيونية ، وقالت ان « لن تمروا ... هي الكلمة التي تصيح بها اليوم شعوب البلاد العربية في وجه الصهيونية ... وان الفاشية والصهيونية من طينة واحدة — الاستعمار ، الاستغلال ، الجشع ... والصهيونية والفاشية مرتبطان ارتباطا وثيقا لا يحله الا النضال ضد اسباب الاضطهاد والتعسف ، والدفاع عن الحريات الديمقراطية ». ثم يستعرض كاتب المقال تضامن الشعوب العربية مع شعب فلسطين ، ويكشف مدى تخاذل الجامعة العربية(٥٥).

ونشرت الضمير على صفحتين منها حديثا كانت قد أجرته مع بولس فرح ، اثناء مروره بالقاهرة عائدا من باريس الى فلسطين ، وقد تحدث بولس في حديثه عن التضامن بين الوفود العمالية العربية ، واشار الى الانتصار الكبير على الصهيونية بانتخاب مصطفى العريس عضوا في اللجنة المركزية لمؤتمر النقابات العالمي . كما أشاد بولس فرح بالتأييد الذي حصلت عليه القضية الفلسطينية من وفود الاتحاد السوفييتي وفرنسا وبلدان امريكا اللاتينية والهند واستراليا ودول البلقان ونيوزلندا(٥٦). وفي العدد نفسه ، نشرت الضمير بيانا لعصبة التحرر الوطني الفلسطينية نبهت فيه الى ان الاستعمار يروج انباء عن تفجر الموقف في فلسطين، ليتخذ من هذه الانباء مبررا لضرب الصحافة والحركة العمالية والوطنية والصناعة والتجارة العربية في فلسطين . ويطالب البيان بوحدة « قوى كل وطني مخلص في فلسطين »(٥٧).

وقد ادلى محمد المدرّك عقب عودته من باريس ، حيث كان يرئس وفد مصر الى مؤتمر نقابات العمال العالمي ، بحديث الى الضمير ، قال فيه ان « مصر وسوريا ولبنان وفلسطين وايران وكل منظماتها العمالية تشك في ان منظمة الهستادروت ليست منظمة عمالية بالمعنى المفهوم ... لانها منظمة رأسمالية تملك كثيرا من المؤسسات الصناعية ، التي تستغل جهود المنتسبين اليها تحت تأثير فكرة الصهيونية » . ثم أوضح كيف فضحت الوفود العربية الى المؤتمر حقيقة الهستدروت والصهيونية(٥٨).

وكتب محمود محمد العسكري يشيد بحسن تنظيم وتدبير الطبقة العاملة المصرية « وفهمها الصحيح للقضايا الوطنية » مستشهدا بيوم ٢ نوفمبر (تشرين الثاني) ، حيث قررت فيه الهيئات العمالية والنقابية الاحتجاج « الى الجهات ذات الشأن » . واوضح العسكري ، ان الطبقة العاملة المصرية أقدمت على ذلك لانها تعي « ان الصهيونية هي الخطر المباشر الذي يهدد الشعب الكادح في شقيقتنا فلسطين العربية الحرة ، بل تهدد حياة الشعوب الكادحة في الشرق الاوسط بصفة خاصة وشعوب العالم بصفة عامة » . ويرى العسكري ان الصهيونية هي « الرأسمالية اليهودية الاستعمارية المتعفنة ، التي تضلل الشعب الاسرائيلي الكادح ... لمصلحة حفنة من الرأسماليين الصهيونيين المستبدين »(٥٩).

وتذيع عصبة التحرر الوطني بيانا الى الشعب بعنوان « لا حل غير الاستقلال !! » نشرته الضمير، وندد فيه العصبة ببيان بيفن سابق الذكر ، وطالبت باستقلال فلسطين وانشاء حكومة ديمقراطية مستقلة ، واشاعة الحريات وايقاف الهجرة اليهودية الى فلسطين ، وفصل قضية اللاجئين اليهود عن قضية فلسطين . وانتهى البيان الى الدعوة للوحدة الوطنية(٦٠).

ه) **الجماهير** : اصدرت « حدتو » ، جريدة اسبوعية تحمل اسم « الجماهير » . وقد صدر العدد الاول منها في السابع من ابريل (نيسان) عام ١٩٤٧ . وقد قال لي زكي مراد ، احد قادة المنظمة المذكورة وأحد الذين تولوا اصدار الصحيفة ، ان توزيع الصحيفة قد وصل الى ١١٠٠٠ نسخة اسبوعيا ، وهو رقم مرتفع اذا ما قسناه بمعدلات توزيع الصحف آنذاك . وقد كان محمود النبوي المحامي هو صاحب الامتياز ورئيس التحرير في وقت واحد .

وقد فضحت الجماهير « المؤامرة الانجلو سكسونية بخصوص فلسطين ... عندما عارض المندوبان الانجليزي والامريكي طلب الدول العربية بادراج اقتراح باستقلال فلسطين في جدول اعمال الامم المتحدة » وأشارت الصحيفة الى ان انجلترا كانت قد أرسلت عشر لجان تحقيق الى فلسطين « ولم تقترح واحدة منها ان تستقل فلسطين ، بل كانت كل اقتراحاتها تهدف الى تثبيت اقدام الاستعمار في فلسطين والشرق الاوسط بأجمعه » . ونوهت الصحيفة الى ان « الشعب الفلسطيني يريد استقلاله وحريته ... وان استقلال فلسطين يستلزم جهادا متصلا من سكان فلسطين واتحاد صفوفهم وتخلصهم من النفوذ الصهيوني أداة

الاستعمار من جانب والرجعية المصرية ذنب الاستعمار من جانب آخر »(٦١).

وعندما يشكل اليهود التقدميون في مصر الرابطة الاسرائيلية لمكافحة الصهيونية ، تنشر الجماهير حديثا لعزرا هراري ، سكرتير الرابطة ، اشار فيه الى « ان أهداف الرابطة هي مكافحة الصهيونية ودعايتها المضللة بين كافة الاسرائيليين القاطنين في مصر » . وفضح هراري في حديثه طبيعة الصهيونية(٦٢).

وكشفت الجماهير الستار عن تعهد الحكومات العربية تأخير تقديم مشروعها الى الامم المتحدة ، والقاضي بالغاء الانتداب البريطاني على فلسطين ، مما أفسح المجال لنجاح الاقتراح البريطاني بتشكيل لجنة تحقيق دولية ، واتهمت الصحيفة الحكومة المصرية « بتفويت الفرصة ، بتعمدها التغافل عن السير في طريق الاجراءات الصحيح !! » ونوهت الجماهير بوقوف الاتحاد السوفيتي ودول شرق اوروبا مع الاقتراح العربي ، ووقوف الدول الاستعمارية مع الاقتراح البريطاني ، وفوز الاخير بأغلبية ٢٤ صوتا ضد ١٥ صوتا . كما أشادت الصحيفة المصرية بموقف جروميكو ، المندوب السوفييتي في الامم المتحدة آنذاك ، والذي وقف صائحا مطالبا بضرورة « مناقشة موضوع استقلال فلسطين في هذه الدورة !! »(٦٣).

وبعد اقرار الامم المتحدة للمشروع البريطاني ، نشرت الجماهير صورة كاريكاتورية كبيرة في صفحتها الاولى ، وفيها نرى فلسطين مربوطة الى خشبة ، وقد صعد ترومان على سلم الى أعلى الخشبة ليوثق رباط فلسطين ، في حين تشدد الصهيونية رباطها من وسطها ، بينما يتفرج بيفن على عمليات التوثيق والتقييد(٦٤).

وفضحت الجماهير موقف الاستعمار الامريكي وعملائه في الامم المتحدة الذين رفضوا « ان يكون استقلال فلسطين المهمة الرئيسية للجنة التحقيق ، معللين هذا بعذر رخيص هو انهم لا يريدون ان يفرضوا على اللجنة حلا من الحلول » . ثم تشير الى رفض « الاستعمار الامريكي منح جواز سفر مرور لاحد اعضاء الهيئة العربية العليا ، وهو الدكتور بديري [تقصد دكتور جليل البديري] بحجة انه (شيوعي) ، حتى لا يكشف موقف الاستعمار » . وتستهجن الجماهير موقف الوفود العربية المشكك في موقف الاتحاد السوفييتي « فيمتنعون عن التصويت لاقتراح الاتحاد السوفييتي بأن تكون الدول الخمس من بين اعضاء لجنة التحقيق » . وتتساءل الصحيفة اليسارية المصرية باستنكار « اوتظن الوفود العربية ان لجنة التحقيق الحالية احرص على استقلال فلسطين من لجنة يشترك فيها الاتحاد السوفييتي ؟ أهم راضون عن لجنة تحقيق مركبة معظمها ، تحت ستار الحياد ، من ذيول الاستعمار ومن دول تأتمر بأوامر المستعمرين ؟؟ » وتتهم الجماهير الحكام العرب بتوجيه « كفاح الشعوب وجهة خاطئة ، ويحاولون في فلسطين ان يثيروا الشعب العربي على اليهود — دون الاستعمار — ويحاولون تحويل الانظار الى مشكلة فرعية ، كمشكلة الهجرة . فيصورون له ان الهجرة هي اصل الداء ، كي ينسى ان المستعمر هو أصل البلاء » . وينتهي كاتب المقال الى ان حل مشكلة فلسطين « هو جلاء الجنود البريطانيين عن فلسطين ، هو قيام فلسطين الحرة الديمقراطية ... »(٦٥).

وتعود صحيفة الجماهير الى سلاح الكاريكاتير ، فتنشر في صفحتها الاولى صورة كاريكاتيرية كبيرة ، تصور فيها الاستعمار البريطاني في شكل ذئب وبجانبه أربع فتيات صغيرات يمثلن فلسطين ومصر والسودان واليونان . وتحت الصورة كتبت الصحيفة « صرح مستر بيفن ، وزير خارجية بريطانيا ، بأن بقاء بريطانيا في الشرق الاوسط ضروري لرفاهية شعوبها » . وعلقت الصحيفة بقولها « يذكرنا هذا بقصة الذئب الذي ادعى لفتاة صغيرة انه حاميها ، ثم التهمها !! »(٦٦).

وفي ركن « القاموس السياسي » كتبت الصحيفة الشيوعية المصرية عن « الصهيونية » باعتبارها « الحركة التي ترمي الى تكوين دولة يهودية في فلسطين على اعتبار انها الوطن الاصلي لهم » . ثم استعرضت نشأة الحركة الصهيونية ، وعلاقتها بالاستعمار . وانتهت الى ان الحل يتمثل في : **أولا** : أن على اليهود أن يشتركوا في الكفاح مع شعوبهم ، لضمان حقوقهم . **ثانيا** : عودة اليهود الموجودين في المعسكرات الى أوطانهم الاصلية . « ويجب ان نوضح ان فلسطين لا يمكن ان تحل القضية اليهودية » . **ثالثا** : حل مشكلة فلسطين « ينحصر في الكفاح المشترك بين جماهير اليهود والعرب معا ، للتخلص من الاستعمار الانجلو امريكي وانشاء دولة حرة ديمقراطية مستقلة »(٦٧).

وعندما قررت الهيئة العربية العليا في فلسطين مقاطعة لجنة التحقيق التي أوفدتها الامم المتحدة ، استنكرت صحيفة الجماهير المصرية هذا القرار ، وأبدت دهشتها من موقف « الهيئة العربية التي أبدت استعدادها الدائم للتعاون مع لجان التحقيق الاستعمارية ، التي طالما اوفدها المستعمرون مرة بعد مرة ، لتعبث بأهل فلسطين ولتضلل الرأي العام العالمي » وانتهى المقال الى اتهام الهيئة العربية العليا بأنها « لم تخدم ، في موقفها الاخير ، سوى مصالح الاستعمار والصهيونية »(٦٨).

وتعتبر الجماهير حل محمود النقراشي — رئيس وزراء مصر آنذاك — للرابطة الإسرائيلية لمكافحة الصهيونية « فضيحة نقراشية جديدة » وتهزأ من المبرر الذي ساقته الحكومة لحل الرابطة وهو : « المحافظة على الامن » قائلة « اذن ، فمكافحة الصهيونية مخلة بالامن يا دولة الباشا ! » وتعرب الصحيفة عن دهشتها لتــرك الحكومة النوادي والهيئات والاتحادات الصهيونية تنتشر وتزدهر(٦٩). وفي العدد نفسه تنشر الجماهير برقية من الرابطة الى رئيس الوزراء ، احتجت فيها على حظــر نشاط الرابطة .

وبعد أن يدلي مندوبو الحزب الشيوعي الفلسطيني (اليهودي) بشهاداتهم أمام لجنة التحقيق الدولية، تنشر الجماهير مضمون شهاداتهم ، والمطالب التي تقدموا بها الى اللجنة المذكورة ، وهي : الغاء الانتداب ، وضمان حرية الشعبين العربي واليهودي لتكوين دولة مستقلة ديمقراطية(٧٠).

وتأخذ الجماهير على حميد فرنجية — وزير خارجية لبنان والذي تحدث امام اللجنة الدولية باســم الدول العربية — تأخذ عليه اكتفاءه بالمطالبة بوقف الهجرة اليهودية ومنع بيع الاراضي وتكوين دولــة عربية مستقلة ، واهمالــه المطالبة باستقــلال فلسطين(٧١).

وتنشر الجماهير صورة كاريكاتورية ، يراقص فيها عبدالرحمن عزام المستر بيفن ، الذي بدا في صورة سيدة بدينة ، وعلى بعــد وقف ترومان يتطلع اليهما . وعزام يقول له « لا تظن ان غرامي الجديد ينسيني الحبيب الاول ! »(٧٢).

وتندد الجماهير بالتقــرير الذي اصدرته اللجنــة الدولية ، لانه عامل مشكلة فلسطين « على أنها مشكلة تسوية علاقات العرب باليهود » فأغفلت جلاء الجيوش الاستعمارية عــن فلسطين . كما انتقدت « الجماهير » الهيئة العربية العليا التي « أسهبت في اظهار (عدم عدالة) التقرير »(٧٣).

ويصدر الحزبان الشيوعيان السوري واللبناني ، بيانا ، نشرته الجماهير ، استنكرا فيه مناورات الاستعمار الانجلو امريكي ، واعربا فيه عن تأييدهما المطلق لحق فلسطين « في الجلاء والغاء الانتداب واقامة حكم ديمقراطي ، ووقف الهجرة الصهيونية، ورفض كل مشروع يرمي الى التقسيم او اقامة دولة يهودية في فلسطين »(٧٤).

ونشرت الجماهير اخبـــار التظاهرات التي عمت القاهرة والاسكندرية تأييدا لفلسطــين ، والتي فرقتها الشرطة بالقوة(٧٥). وهزأت الجماهير من اجتماع مجلس الجامعة العربية في « ربوع لبنان »، وحذرت من « بوادر تدل على اتجاهات خطيرة غير سليمة » بالنسبة لقضية فلسطين(٧٦). وعندمــا ترسل الحكومة المصرية جيشها الى العريش ، تمهيدا لدخوله فلسطين ، تتساءل صحيفة الجماهير « أذهب جيشنا المصري الى العريش ، دون ان يمر على فايد وقنال السويس ! » ألم ير في طريقه جنودا بريطانية تحتل ارضنا المقدسة ؟... لم تعلن الحكومة الكفاح المسلح والحرب المقدسة — كما طلب الشعب ونادي يوم عودة النقراشي من امريكا — ضد (الاصدقاء البريطانيين) !! » وتؤكد الجماهير ان الحكومة المصرية تستغــل « مشكلة فلسطين لتحويل انظار الشعب عن قضيته الوطنية وتشغل اذهانه عن الداء الحقيقي ، فأس الداء هنا في مصر ، وهناك في فلسطين وشرق الاردن والعراق ، ما هو الا الاستعمار !... ان تحرير وادي النيل وتوجيه ضربة قاصمة للاستعمار البريطاني في مصر هو خير مساعدة نقدمها لفلسطين والشعوب العربية ... »(٧٧).

ثم تنشر الجماهير صورة كاريكاتورية يبــدو فيها الاستعمار الانجلو امريكي يدير بيده طاحونة كبيرة ، وعزام باشا يلقي بالجاروف بالجنود العرب الى داخل الطاحون ، في حين تقف الصهيونية في الطرف الاخر من الطاحون ، تحمل جاروفا آخر وقد ملأته جنودا تقذف بهم الى الطاحون نفسه من فتحــة اخرى . والجزء الاسفل للطاحون يخرج العديد من القتلى . وتحت الصورة علق الرسام « يوقدون نيران حرب دينية . لن تحترق فيها سوى الشعوب. ولن يستفيد منها سوى الاستعمار »(٧٨).

وكشفت الصحيفة اليسارية المصرية استغلال الاستعمار لقضية فلسطين ، لبعث مشروع الدفاع المشترك«ظاهره الدفاع عن مصالح عرب فلسطين، وجوهره الخضوع التام لسيطرة وقيادة الاستعماريين البريطاني والامريكي » ، ثم تشير الجماهير الى تطوع قبائل العراق : وفتح الاخوان المسلمين باب التطوع في مصر ، وغض الملك عبدالله الطرف عن مشروع سوريا الكبرى ، واستعداد بن سعود لان « يضع يده في يد أخيه الملك عبدالله ، وينسى مطالب الحجاز الاقليمية ... وهكذا تلعب الدول العربية المحتلة ، في الجامعة العربية ، لعبة الاستعمار ، وتمهد له الطريق — لا لتكوين الكتلة الشرقية فحسب ، بل لتوجد له المبرر للبقاء في فلسطين » . ثم كشفت الجماهير الستار عن وصول بعثات أمريكية الى دمشق والقاهرة . ورفض مجلس الجامعة العربية توصية اللجنة السياسية التابعة له ، والتي طالبت بمقاطعة انجلترا والولايات المتحدة ، والغاء اتفاقيات البترول والطيران ... »(٧٩).

وتحت عنوان « استقلال وديمقراطية او استعمار وعبودية ، هذه هي مشكلة فلسطين » أدانت صحيفة الجماهير تشويهات الصحافة المصرية لصورة القضية الفلسطينية ، وأكدت ان جميع « الحلول التي قدمتها انجلترا وامريكا والدول العربية — مهما اختلفت أشكالها واساليبها ... ترمي في جوهرها الى بقاء الاوضاع الحالية بفلسطين ، لا تؤدي الا الى بقاء السيطرة الاستعمارية » . ثم اشارت الصحيفة اليسارية الى المشروع الامريكي ، والى قول جروميكو من أنه « لا يمكن حماية مصالح الشعوب العربية واليهودية الا بتكوين دولة عربية مستقلة ديمقراطية » . وترجع الصحيفة تأييد الاتحاد السوفييتي المفاجيء لتقسيم فلسطين ، الى سوء علاقات العرب واليهود الذي يحول دون امكانية التعاون السلمي بينهما . واتهمت الصحيفة زعماء الجامعة العربية وزعماء الصهيونيين بتأجيج نار الفتنة وايصال الوضع بين الطرفين الى ما وصلت اليه ، بحيث استحال معه قيام دولة موحدة مستقلة ، مما وضع الاتحاد السوفييتي امام خيارين : فاما قبول التقسيم كأساس لاستقلال فلسطين ، واما القبول بالسيطرة الاستعمارية على فلسطين(٨٠).

وأكدت الجماهير « ان استقلالنا سيكون مهددا طالما وجدت قوات استعمارية مرابطة في هذا القطر الشقيق » ونددت بالدعاية الاستفزازية والتصريحات والنداءات الحماسية ، وكشفت جهود بريطانيا لحمل الامم المتحدة للاخذ بأحد امرين « أما الاخذ بمشروع يبقى الاستعمار البريطاني في فلسطين ... واما تأجيل القضية » . ودعت الجماهير الى التعجيل بايجاد « حل عملي لمشكلة فلسطين »(٨١).

وتؤكد الجماهير ان موقفها من قضية فلسطين ينطلق من زاوية الاستقلال والديمقراطية ، وانها تؤيد « قيام دولة عربية يهودية بفلسطين ... وان تتحرر فلسطين من ربقة الاستعمار ، وان تتمتع بالاستقلال التام والديمقراطية الحقيقية » . وتتهم الصحيفة زعماء العرب وزعماء اليهود بوضع العراقيل للحيلولة دون حصول فلسطين على استقلالها . ويؤكد كاتب المقال « أننا لا نوافق على مشروع التقسيم الا مضطرين، كأساس لاستقلال فلسطين». وتردف « وأمامنا بعد ذلك كفاح ، وكفاح طويل للتقريب بين وجهات نظر الدولتين العربية واليهودية المستقلتين ، وتوحيدهما في دولة واحدة مستقلة ديمقراطية »(٨٢).

وتوجز الجماهير مقالا كانت قد نشرته « نيو تايمز » السوفيتية عن « الشرق العربي ومسألة فلسطين » أكدت فيه الصحيفة السوفيتية صداقة السوفييت للعرب ، واوضحت ان الاتحاد السوفييتي قد وافق على التقسيم باعتباره « المشروع الوحيد الذي يمكن تنفيذه في الظروف الحاضرة »وهو الكلام نفسه الذي كان قد قاله المندوب السوفييتي في الامم المتحدة ، واوضحت المجلة السوفييتية ان هذه الموافقة ترمي الى هدف واحد وهو « تسليم فلسطين في اسرع وقت ممكن الى سكانها »(٨٣).

وتنفجر التظاهرات في القطر المصري ، وتهاجم صحيفة الجماهير محاولات الفاشيين والمضللين لتحويل « هذا الكفاح الى كفاح عنصري ضد اليهود »(٨٤). وتورد « الجماهير » ، في مكان اخر من العدد نفسه ، نماذج من مواقف الرجعية العربية ، فتسجل تصريحا لجميل مردم بك — رئيس وزراء سوريا — عن « المعارك الدامية المقبلة » ، وتصريح اخر للشيخ يوسف ياسين — مستشار الملك السعودي — يهدد فيه « بطرد اليهود من فلسطين » . واخيرا اعلان مجلس

الجامعة العربية « بالحرب على اليهود اذا جلا الانجليز » . وقد حذرت الصحيفة الشيوعية المصرية من أن الحرب « بين العرب واليهود يثيرها الاستعمار ليبقى في فلسطين »(٨٥).

وغداة حل الحكومة السورية للحزب الشيوعي السوري ، نشرت « الجماهير » حديثا لخالد بكداش سكرتير عام الحزب ، جاء فيه عن مشكلة فلسطين « نحن الشيوعيين نعتقد ان اهم شيء في هذه المشكلة الشائكة ، هو جلاء الجيوش الاجنبية عنها ، والغاء الانتداب ، واعلان استقلال فلسطين ، وتحرير فلسطين من الاستعمار والاستغلال هو همنا الاول والاخير »(٨٦).

وتذكر « الجماهير » بموقف الاتحاد السوفييتي المؤيد لاستقلال الشعوب العربية ، كما تندد الصحيفة بهتافات رجال البوليس السياسي المصري: (تسقط روسيا !)(٨٧). وفي كلمتها ، أكدت الصحيفة المصرية « ان مشكلة فلسطين هي مشكلة وادي النيل » كما اشارت الى اساليب الاستعمار الوحدة في جميع المستعمرات والىمحاولات الفاشيين والاخوان المسلمين لتحويل القضية الى صراع عنصري(٨٨). وتنشر الجماهير صورة كاريكاتورية، تبدو فيها الحرب الدينية في صورة وحش مقيد ، في حين يمسك الاستعمار الانجلو امريكي بطرف منشار وتمسك الرجعية العربية ، ممثلة في عزام باشا الطرف الاخر ، والاستعمار والرجعية يعملان على قطع الحبل بالمنشار . وفي مواجهة الوحش تقف « شعوب الشرق المستعبدة » والوحش يتوثب للانقضاض عليها(٨٩). وفي العدد نفسه دعت الجماهير الى تحويل التظاهرة التي دعت الى اقامتها « هيئة وادي النيل » من اجل فلسطين، الى تظاهرة ضد الاستعمار(٩٠). وتؤكد الجماهير ان الحكومة المصرية رأت في قضية فلسطين ، كما سبق ورأت في الكوليرا التي انتشرت قبل عام في مصر ، وسيلة « لتلهية الشعب عن مطالبه التي يكافح من أجلها ... وستارا تستأنف تحته المفاوضة مع المستعمر »(٩١).

وتتهم صحيفة منظمة حدتو ، الجامعة العربية بالعمل على تقسيم فلسطين وابقاء الاحتلال البريطاني فيها . كما تنتقد مقاطعة الجامعة للجنة الدولية التي أوكل اليها تنفيذ التقسيم ، فهذه المقاطعة ، في رأي الصحيفة « لن تمنع الزعماء اليهود من التفاهم معها ، اي لن يمنع تكوين الدولة اليهودية . ولكن مقاطعة العرب للجنة يعرقل تكوين الدولة العربية المستقلة »(٩٢). وفي مقال اخر ، تساءلت الجماهير « أيمكن ان نسمي حربا تؤدي الى تثبيت اقدام المستعمر واعوانه بحرب عادلة مقدسة ؟ »(٩٣).

وباللون الاحمر ، وفي صدر صفحتها الاولى ، نشرت الجماهير جزءا من تعليق لراديو موسكو ، يرى فيه الراديو ان الرجعيين الفاشيين في البلاد العربية قد وجدوا « في مسألة فلسطين الفرصة لاستغلال التعصب الديني لحرف الجماهير العربية عن الهدف الحقيقي ... ويوجهون الجماهير ضد (الخطر الشيوعي) الوهمي »(٩٤).

وتهزأ الجماهير من اخر اجتماع كانت قد عقدته الجامعة العربية ، والذي ادلى اثناءه زعماؤها بتصريحات عديدة عن « القرارات الخطيرة » التي سيتخذونها !! وكيف أن الاجتماع قد تمخض عن قرار « عائم » . وتستبعد الصحيفة قيام الدول العربية بالهجوم على فلسطين بينما الجنود البريطانيون مرابطون فيها . وتهاجم الصحيفة اليسارية المصرية ، السرية التي احاطت الجامعة بها قراراتها الاخيرة ، مؤكدة ان « التاريخ يشهد ان كل قرارات — ما عدا الاسرار الحربية — تتخذ بصفة سرية ما دامت تعادي المصالح الشعبية ويخشى الزعماء اذاعتها »(٩٥).

وينتقد بيان لحدتو ، نشرته الجماهير ، بيان الجامعة العربية الذي « يتجاهل وجود الاستعمار في شرقنا العربي » ويؤكد بيان المنظمة المصرية « أن سياسة الاستعمار التي سار عليها رؤساء الحكومات العربية هي المسئول الاساسي عن تقسيم فلسطين » ببذلهم اقصى جهودهم للحيلولة دون « ايجاد جو من الالفة والثقة المتبادلة بين الجماهير الكادحة العربية واليهودية » . وترى حدتو ، في بيانها ، أنه حيال ذلك لم يكن امام الاتحاد السوفييتي الا ان يوافق على التقسيم « باعتباره الحل العملي الوحيد في الظروف الحاضرة ، الذي يحقق الغاء الانتداب البريطاني وجلاء القوات الاستعمارية عن الاراضي المقدسة ». ويشير بيان المنظمة اليسارية المصرية الى الازمة السياسية والاقتصادية التي يعانيها الاستعمار والرجعية ، ويرى البيان أنهما رأيا في اشعال حرب عنصرية مخرجا لهما من ازمتهما(٩٦).

ونقلت صحيفة الجماهير عن نيو تايمز مقالا ، أكدت

فيه المجلة السوفييتية ان الاستعمار الانجليزي قد استغل مشكلة فلسطين لحرف أنظار الشعوب العربية عن مشاكلها الحيوية ، واثارة العرب ضد اليهود ، وتعكير صفو علاقات الدول العربية بالاتحاد السوفييتي . وتكرر نيو تايمز نفس التفسير الذي كانت قد رددته صحيفة الجماهير لتأييد الاتحاد السوفييتي لتقسيم فلسطين(٩٧).

وتفضح صحيفة الجماهير سر زيارة نوري السعيد باشا المفاجئة للقاهرة ، وتبين انه حمل معه الى مجلس الجامعة العربية مشروع موريسون ، وان المجلس وافق على عرض مشكلة فلسطين على مجلس الامن على أساس مشروع موريسون ، الذي يقضي بتقسيم فلسطين ، بحيث يخص العرب ٣٨ ٪ منها وتشغل منطقة يهودية ١٧ ٪ منها ، في حين يظل الباقي تحت الادارة المباشرة لبريطانيا . وتهاجم الجماهير المشروع لانه يحول فلسطين الى «مستعمرة بريطانية»(٩٨).

وتفضح الجماهير أساليب الاستعمار البريطاني للتشبث بفلسطين(٩٩) بأيعازه « للرجعية العربية والرجعية اليهودية ان يعرقلا هذا التقسيم » وتندد الجماهير باستفزازات عصابة الارجون الصهيونية الارهابية(١٠٠). ثم تشير صحيفة الجماهير الى تهديدات فوزي القاوقجي — قائد جيش الانقاذ في فلسطين — بابادة اخر يهودي.وتصريحات وايزمن التي تدعو الى « انماء الصداقة بين الصهيونيين والانجليز »(١٠١).

وعندما سحبت حكومة الانتداب رخصتي جريدتي « الاتحاد » و « الشعب » الفلسطينيتين ، نددت زميلتهما الجماهير بهذا الاجراء التعسفي(١٠٢).

وتلقي الجماهير الضوء على موقف امريكا المتردد الغامض « فهي توافق على تقسيم فلسطين ولكن بشرط أن تبقى فلسطين مستعمرة بشكل او بآخر(١٠٣).

وفي الحادي عشر من مارس (اذار) ١٩٤٧ ، ارسل فهمي السلفيتي — بأسم مؤتمر العمال العرب في فلسطين — الى جريدة الجماهير، مستنكرا اطلاق الرصاص على عمال مصانع سباهي المصرية، والذين كان قد سقط منهم ثلاثة قتلى برصاص الشرطة(١٠٤).

وتعود الجماهير لتكرار ما نادت به من قبل ، لحل المسألة الفلسطينية ، وتندد بمحاولات « الرجعية العالمية ، بقيادة امريكا الاستعمارية، وضع المشكلة على أساس انها نزاع بين العرب واليهود ، لا على أنها مشكلة فشل الانتداب البريطاني ، وتحرير سكان فلسطين »(١٠٥). ونددت الصحيفة بمشروع أمريكا في الامم المتحدة والرامي الى استبدال التقسيم بوصاية الامم المتحدة على فلسطين(١٠٦).

وقبل دخول جيوشها فلسطين ، أعلنت حكومة النقراشي الاحكام العرفية في البلاد المصرية ، وضربت الحركة الوطنية ، مما كان من نتيجته اغلاق « الجماهير » .

٦) الملايين : أتت انتخابات ١٩٥٠ المصرية بحزب الوفد الى الحكم ، الذي ألغى بدوره الاحكام العرفية ، وعاشت مصر انفراجة نسبية . وفي الثاني والعشرين من ابريل (نيسان) ١٩٥١ ، أصدر أحمد صادق عزام ، المحامي وعضو الحزب الوطني ، جريدة سياسية اسبوعية هي «الملايين» وكانت « حدتو » تقف وراء تلك الصحيفة . التي صدر منها ثلاثون عددا كان اخرها في١٩٥١/١٢/٢٦.

ونشرت الملايين خبرا عن نهب اسرائيل لاملاك العرب فيها(١٠٧). وخبرا اخر فضحت فيه ما كان قد صرح به حسين الجندي بك ، وكيل مجلس الشيوخ المصري ، من أن « القضية المصرية لا تحل الا اذا عقدنا صلحا مع اسرائيل ... وسأنادي بابقاء معاهدة ١٩٣٦ لانها خير الف مرة من أية معاهدة تبرم »(١٠٨).

وقد أولت الملايين موقف السوفييت من تقسيم فلسطين اهتمامها ، فنشرت ردا لجاكوب مالك على محمد صلاح الدين بك — وزير خارجية مصر انذاك — والذي كان قد اتهم الاتحاد السوفييتي بأن موقفه من اسرائيل هو موقف امريكا نفسه . وقد جاء فيرد مالك ، ان الاتحاد السوفييتي قد وافق على التقسيم نظرا لتعذر قيام تعاون بين اليهود وعرب فلسطين ، بفعل دعايات الاستعمار وزعماء العرب وزعماء الصهيونيين ، وان الاتحاد السوفييتي كان يتطلع الى تحقيق الحل المنشود للقضية الفلسطينية ، وهو « وحدة فلسطين المستقلة الديمقراطية » على مر الزمن . واشارت الملايين الى موقف المندوب السوفييتي في الامم المتحدة — يوم ٣ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٧ — الذي رفض المشروع الامريكي القاضي بتنفيذ تقسيم فلسطين في يوليو (تموز) ١٩٤٨ . وعرض

المندوب السوفييتي « مشروعا اخر يقضي بانسحاب جيش الاحتلال البريطاني في موعد اقصاه أول يناير (كانون الثاني) ١٩٤٨ ، واشراف مجلس الامن لمدة عام على شئون فلسطين » . وادان مالك مشروع برنادوت ، واعتبره قد جاء نتيجة لتنسيق أمريكا « مصالحها الاستعمارية مع مصالح بريطانيا الاستعمارية » . ويتحدث المندوب السوفييتي عن الملك عبدالله الذي « يصول ويجول ويختم المأساة ختاما شكسبيريا ، فيلتهم الدولة العربية المستقلة الديمقراطية ... وبذلك يعود الجيش البريطاني الى فلسطين ، كامتداد لاقامته في الاردن »(١٠٩).

٧) **الواجب** : بمصادرة الملايين انتقلت هيئة تحريرها الى صحيفة الواجب ، حيث اشترى صادق عزام امتيازها من اصحابها ، واثبت اسم عزام كرئيس لتحرير الواجب جنبا الى جنب مع اسم الامير حامد المليجي ، رئيس التحرير القديم. وكان العدد الرابع عشر الصادر في ١٢/٢٥/ ١٩٥٢ هو اخر الاعداد التي أشرفت « حدتو » على اصدارها .

وفي العاشر من اغسطس (آب) ١٩٥٢ القي القبض على اكثر من ستين شيوعيا في قطاع غزة لانتمائهم الى عصبة التحرر الوطني المحظورة ، وعند تقديمهم للمحاكمة ، كتبت الواجب تحت عنوان « الاحرار الفلسطينيين امام المحاكم العسكرية » مقالا أشادت فيه بمواقف ونضال « الشعب الفلسطيني وقيادته الشعبية الواعية التي تقف الان خلف القضبان ، أمام المحكمة العسكرية ... والتي تحاكم على تأييدها لكفاح الشعب المصري المسلح ، لتحاكم على نضالها من أجل السلام وعودة المشردين . لتحاكم على اصرارها المستميت في سبيل وطن حر وشعب سعيد » . وأيدت الصحيفة اليسارية دهشتها من هذا الموقف الذي أتدمت عليه الادارة المصرية في غزة ، وانتهت الى المطالبة « باطلاق سراح هؤلاء الابطال فورا »(١١٠).

---

١ — صحيفة **الحساب** القاهرية ، العدد الخامس عشر ، ١٩٢٥/٤/١٧ .
٢ — **المصدر السابق** ، العدد السابع عشر ، ١٩٢٥/٥/٨ .
٣ — مجلة **الاسبوع** القاهرية ، العدد ٤٧٨ ، ١٩٤٣/٨/١٢ ، ص ١٣ .
٤ — **المصدر السابق** .
٥ — **المصدر السابق** ، العدد ٥١٠ ، ٤/٨/ ١٩٤٤ ، ص ١٣ .
٦ — مجلة **الفجر الجديد**، العدد الثالث ، السنة الاولى ، ١٩٤٥/٦/١٦ ، من مقال (كفاح فلسطين الوطني الديمقراطي) ، ص ١٨ .
٧ — **المصدر السابق** ، العدد السابع ، ٨/١٦/ ١٩٤٥ .
٨ — **المصدر السابق** ، العدد التاسع ، ٩/١٦/ ١٩٤٥ .
٩ — **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، ص ١٣ .
١٠ — **المصدر السابق** ، العدد نفسه .
١١ — **المصدر السابق** ، العدد العاشر ١٠/١/ ١٩٤٥ ، ص ١٣ .
١٢ — **المصدر السابق** ، العدد الحادي عشر ، ١٩٤٥/١٠/١٥ ، ص ٢ و١٥ .
١٣ — **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، ص ٢٣ .
١٤ — **المصدر السابق** ، العدد الثالث عشر ، ١٩٤٥/١١/١٥ ، ص ٨ .
١٥ — **المصدر السابق** ، العدد الثالث عشر ، ص ٩ .
١٦ — **المصدر السابق** ، العدد الرابع عشر ، ١٩٤٥/١٢/٦ ، ص ١٣ .
١٧ — **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، ص ١٤ .
١٨ — **المصدر السابق** ، العدد الخامس عشر ، ١٩٤٥/١٢/١٦ ، ص ٣ و١٨ .
١٩ — **المصدر السابق** ، العدد السابع عشر ، ١٩٤٦/١/١٩ ، ص ٦ — ٧ .
٢٠ — **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، ص ٧ .
٢١ — **المصدر السابق** ، العدد الثامن عشر ، ١٩٤٦/١/٢٣ ، ص ٣ — ٤ .
٢٢ — **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، ص ٧ .
٢٣ — **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، ص ١٢ .
٢٤ — **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، ص ١٦ .
٢٥ — **المصدر السابق** ، العدد التاسع عشر ، ١٩٤٦/١/٣٠ ، ص ٤ — ٥ .
٢٦ — **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، ص ٦ .
٢٧ — **المصدر السابق** ، العدد ٢١ ، ٢/١٣/ ١٩٤٦ ، ص ١٥ .
٢٨ — **المصدر السابق** ، العدد ٢٣ ، ٢/٢٧/

١٩٤٦ ، ص ٦ — ٧ .
٢٩ — **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، ص ١٣ .
٣٠ — **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، ص ٢٠ .
٣١ — **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، ص ١١ .
٣٢ — **المصدر السابق** ، العدد ٢٤ ، ١٩٤٦/٣/٦ ، ص ١٧ .
٣٣ — **المصدر السابق** ، العدد ٢٥ ، ٣/١٣/ ١٩٤٦ .
٣٤ — **الفجر الجديد** ، العدد ٢٨ ، ١٩٤٦/٤/٣ ، ص ١٥ .
٣٥ — **المصدر السابق** ، العدد ٣١ ، ٤/٢٤/ ١٩٤٦ ، ص ١٧ .
٣٦ — **المصدر السابق** ، العدد ٣٢ ، ٥/١/ ١٩٤٦ ، ص ٦ .
٣٧ — **المصدر السابق** ، العدد ٣٣ ، ٥/٨/ ١٩٤٦ ، ص ١٨ — ١٩ .
٣٨ — **المصدر السابق** ، العدد ٣٤ ، ٥/١٥/ ١٩٤٦ ، ص ٧ .
٣٩ — **المصدر السابق** ، العدد ٣٥ ، ٥/٢٢/ ١٩٤٦ ، ص ١٠ .
٤٠ — **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، ص ١٩ .
٤١ — **المصدر السابق** ، المصدر ٣٨ ، ٦/١٢/ ١٩٤٦ ، ص ٩ .
٤٢ — **المصدر السابق** ، العدد ٤٠ ، ٦/٢٦/ ١٩٤٦ ، ص ٢ .
٤٣ — **المصدر السابق** ، العدد ٣٩ ، ص ٢ .
٤٤ — **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، ٦/١٩/ ١٩٤٦ ، ص ٨ .
٤٥ — **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، ص ١٢ .
٤٦ — **المصدر السابق** ، العدد ٤٠ ، ٦/٢٦/ ١٩٤٦ ، مقال (سياسة مترنيخ في شرقنا العربي) بقلم احمد رشدي صالح ، ص ٢ .
٤٧ — **المصدر السابق** ، العدد ٤١ ، ٧/٣/ ١٩٤٦ ، ص ٢ .
٤٨ — **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، ص ٢ .
٤٩ — **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، ص ٤ .
٥٠ — **المصدر السابق** ، العدد ٤٢ ، ٧/١٠/ ١٩٤٦ ، ص ٧ و١٨ .
٥١ — **المصدر السابق** ، العدد ٤٠ ، ٦/٢٦/ ١٩٤٦ ، ص ٢ .
٥٢ — **المصدر السابق** ، العدد ٤١ ، ٧/٣/ ١٩٤٦ ، ص ٢١ .
٥٣ — جلسة مع محمد يوسف احمد المدرّك ، أجراها الصديق الدكتور رؤوف عباس ، في ١٩٦٥/١/٢ ، بمنزل الاول . وقد تفضل الدكتور رؤوف ، مشكورا ، باطلاعي على محضر الجلسة ، بالاضافة لمجلة (الضمير) و(برنامج لجنة العمال للتحرير القومي) ، وكلها غير موجودة في دار الكتب والوثائق بالقاهرة .
٥٤ — « **برنامج لجنة العمال للتحرير القومي** » ، ١٩٤٥/١٠/٨ ، ص ٦ .
٥٥ — خيري محمود (لن تمروا) مقال بمجلة **الضمير** ، العدد ٢٧٤ ، ١٩٤٥/١٠/١٧ ، ص ١ .
٥٦ — **الضمير** ، العدد ٢٧٥ ، ١٩٤٥/١٠/٢٤ ، ص ٦ — ٧ .
٥٧ — **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، ص ٩ — ١٢ .
٥٨ — **المصدر السابق** ، العدد ٢٧٦ ، ١١/٧/ ١٩٤٥ .
٥٩ — **المصدر السابق** ، العدد ٢٧٨ ، ١١/٢٨/ ١٩٤٥ ، من مقال (لا عنصرية بين العمال) بقلم محمود العسكري ، ص ٤ و٨ .
٦٠ — **المصدر السابق** ، العدد نفسه، ص ٤ و٥.
٦١ — صحيفة **الجماهير** القاهرية ، العدد ٥ ، ١٩٤٧/٥/٥ ، من مقال (الاستعمار يريد تحطيم التعاون الدولي واستعباد الشعوب ويريد تكبيل فلسطين بالاغلال . ونحن نكافح من اجل فلسطين مستقلة ديمقراطية) ، ص ٢ و١١ .
٦٢ — **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، ص ٤ و١١ .
٦٣ — **المصدر السابق** ، العدد ٦ ، ٥/١٢/ ١٩٤٧ ، من مقال (حول قضية فلسطين . الصحافة الصفراء تضلل الرأي العام ، والاستعمار يمضي في مؤامراته !!) ص ٢ و٣ .
٦٤ — **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، ٥/١٢/ ١٩٤٧ ، ص ١ .
٦٥ — **المصدر السابق** ، العدد ٧، ١٩٤٧/٥/١٩، من مقال (ان اصدقاء فلسطين في هيئة الامم هم اصدقاء مصر وان اعداءها هم اعداء شعوب العالم) ، ص ٣ .
٦٦ — **المصدر السابق** ، العدد ٨ ، ٥/٢٦/ ١٩٤٧ .
٦٧ — **المصدر السابق** ، العدد ٩ ، ١٩٤٧/٦/٢، ص ٩ .
٦٨ — **المصدر السابق** ، العدد ١١ ، ٦/١٦/

١٩٤٧ ، ص ٢ .

٦٩ ــ **المصدر السابق** ، العدد ١٢ ، ٦/٢٣/ ١٩٤٧ ، ص ٥ .

٧٠ ــ **المصدر السابق** ، العدد ١٦ ، ٧/٢١/ ١٩٤٧ ، ص ٤ .

٧١ ــ **المصدر السابق** ، العدد السابع عشر ، ١٩٤٧/٧/٢٨ ، ص ٤ .

٧٢ ــ **المصدر السابق** ، العدد الثامن عشر ، ١٩٤٧/٨/٤ ، ص ١ .

٧٣ ــ **المصدر السابق** ، العدد ٢٢ ، ٩/٦/ ١٩٤٧ ، ص ٤ .

٧٤ ــ **المصدر السابق** ، العدد ٢٤ ، ٩/٢١/ ١٩٤٧ ، ص ٣ .

٧٥ ــ **المصدر السابق** ، العدد ٢٦ ، ١٠/٥/ ١٩٤٧ ، ص ١ .

٧٦ ــ **المصدر السابق** ، العدد ٢٧ ، ١٠/٥/ ١٩٤٧ ، ص ٥ .

٧٧ ــ **المصدر السابق** ، العدد ٢٨ ، ١٠/١٩/ ١٩٤٧ ، ص ١ .

٧٨ ــ **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، ص ١ .

٧٩ ــ **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، ص ٣ .

٨٠ ــ **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، ص ٣ و٤ و٩ .

٨١ ــ **المصدر السابق** ، العدد ٢٩ ، ١٠/١٦/ ١٩٤٧ ، **مقال** (ماذا تم في قضية فلسطين) ، ص ٦ .

٨٢ ــ **المصدر السابق** ، العدد ٣٠ ، ١١/٢٣/ ١٩٤٧ ، **مقال** (نحن وفلسطين) ، ص ٦ .

٨٣ ــ **المصدر السابق** ، العدد ٣١ ، ١١/٣٠/ ١٩٤٧ ، **مقال** (الاتحاد السوفياتي والشعوب العربية) ص ٦ .

٨٤ ــ **المصدر السابق** ، العدد ٣٢ ، ١٢/٧/ ١٩٤٧ ، **مقال** (السلاح ... السلاح ! فلنكون كتائب وطنية مسلحة ضد الاستعمار) ، ص ١ .

٨٥ ــ **المصدر السابق** ، العدد نفسه (حول قضية فلسطين) ، ص ٢ .

٨٦ ــ **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، ص ٣ .

٨٧ ــ **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، ص ٣ .

٨٨ ــ **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، ص ٣ .

٨٩ ــ **المصدر السابق** ، العدد ٣٣ ، ١٢/١٤/ ١٩٤٧ ، ص ١ .

٩٠ ــ **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، الصفحة نفسها .

٩١ ــ **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، الصفحة نفسها مقال (استئناف المفاوضات تحت ستار مأساة فلسطين) بقلم محمد كمال .

٩٢ ــ **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، (الجامعة العربية تعمل على تقسيم فلسطين) ، ص ٣ .

٩٣ ــ **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، مقال (أهي حرب عادلة ؟) ، ص ٦ .

٩٤ ــ **المصدر السابق** ، العدد ٣٤ ، ١٢/٢١/ ١٩٤٧ ، ص ١ .

٩٥ ــ **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، ص ٢ .

٩٦ ــ **المصدر السابق**، العدد نفسه، ص ٣ و٨.

٩٧ ــ **المصدر السابق** ، العدد ٣٥ ، ١٢/٢٨/ ١٩٤٧ ، ص ٢ .

٩٨ ــ **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، ص ٢و٨.

٩٩ ــ **المصدر السابق** ، العدد ٣٦ ، ١/٤/ ١٩٤٨ .

١٠٠ ــ **المصدر السابق** ، العدد ٣٨ ، ١/١٨/ ١٩٤٨، مقال (الطريق الوحيد لاستقلال فلسطين هو الكفاح ضد الرجعية العربية واليهودية) بقلم ن. و. ، ص ٢ .

١٠١ ــ **المصدر السابق** ، العدد ٤١ ، ٢/٨/ ١٩٤٨ ، **مقال** (نحن نكافح في سبيل سلام دائم وديمقراطية شعبية ــ مناورات الاستعمار حول قضية فلسطين) ، ص ٦ .

١٠٢ ــ **المصدر السابق** ، العدد ٤٢ ، ٢/١٥/ ١٩٤٨ ، ص ٢ .

١٠٣ ــ **المصدر السابق** ، العدد ٤٤ ، ٢/٢٩/ ١٩٤٨ (حول قضية فلسطين) ، ص ٢ .

١٠٤ ــ **المصدر السابق** ، العدد ٤٧ ، ٣/٢١/ ١٩٤٧ ، ص ٢ .

١٠٥ ــ **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، من مقال (حول قضية فلسطين) ، ص ٢ .

١٠٦ ــ **المصدر السابق** ، العدد ٤٨ ، ٣/٢٨/ ١٩٤٨ .

١٠٧ ــ صحيفة **الملايين** ، العدد الثالث ، ٥/٦/ ١٩٥١ ، القاهرة ، ص ٨ .

١٠٨ ــ **المصدر السابق** ، العدد الرابع ، ٥/١٣/ ١٩٥١ ، ص ١ .

١٠٩ ــ **المصدر السابق** ، العدد ٦ ، ٥/٢٧/ ١٩٥١ ، ص ١ و١١ .

١١٠ ــ جريدة **الواجب** القاهرية ، العدد ١١ ، ١٩٥٢/١٢/٣ ، ص ١ .

غســـان كنفاني
حاضر أبدا

● غياب غسان كنفاني ليس الا حضورا من نوع جديد .

وما تقدمه « شؤون فلسطينية » من دراسة لتراث شهيدنا الكبير ليس الا محاولة لتاكيد هذا الحضور .

وليس بحثنا عن المعاني الثمينة في كتابة غسان كنفاني وفي حياته مجرد تكريم تقتضيه مناسبة أو اخلاص لصديق ، ولكنه تمسك بصداقة الحياة وانتماء العمر . ولم يكن الموت مجدا وغاية ، ولكنه حين يأتي ليفصلنا عن صداقة الحياة وانتماء العمر ، فلا منـاص من الاختيار . وقد اختار غسان كنفاني وغاب ليحضر .. ليحضر دائما ، فينا وفي الاشياء، وفي الرموز ، وفي كل لفظة او خطوة تؤدي الى فلسطين .

لم يسجن غسان نفسه في فلسطين ، الا بمدى ما تكون الحياة نفسها سجنا . ان التحرر من هذا الانتماء هو السجن الحقيقي ، والتشبث به .. حتى العظم هو الحرية الحقيقية.

وليس غسان كنفاني موضوعا للرثاء ، لانه حاضر ومبدع . حاضر وملهم . حاضر وثائر. والنظر اليه كما ننظر الى ماض يشبه النظر الى فلسطين وكأنها شيء ماض . ان فلسطين وغسان حاضران . حاضران فينا وفي العالم . لانهما قادمان من المستقبل .

وما تقدمه « شؤون فلسطينية » من دراسة لكتابة غسان وحياته ليس الا محاولة لتاكيد هذا الحضور .

● يضم هذا القسم الخاص بالشهيد غسان دراسات للدكتور احسان عباس والاستاذ لطفي الخولي والياس خوري وف. المنصور ، كما يضم ثلاث دراسات وقصة للاعضاء الاربعة الذين اسسوا « رابطة الادب والحياة » في دمشق . الدراسات لفضل النقيب وأحمد خليفة وبلال الحسن اصدقاء غسان في صباه وشبابه ، والقصة بقلم العضو الرابع في الرابطة ، بقلم الشهيد غسان نفسه وهي قصة لم تنشر وكان غسان كنفاني وعد بها المجلة ، ولكن حال استشهاده دون اتمامها . قصته كحياته توقفت فجاة في لحظة الاوج .

غسان كنفاني ... رجل تحت الشمس

لطفي الخولي

لانه فلسطيني من عكا ، اقتلعوه من العتمة من منبته طفلا أخضرا ، حمل فلسطينيته — كما حمل المسيح صليبه — وراح يزرعها شجرا وشمسا ورجالا .. في الشتات . في القلب . في فتات الخبز اليومي . في التعبير عن هموم انسان العصر .

ولانه فلسطيني ، نفوه في فلسطين المشردة ، قاوم النفي جسدا وروحا وعقلا وحركة .. صار المنفى والوطن . وغدا الكلمة — الرصاصة في ثورة يحاولون ان ينفوها . ولكنها تقاوم وتقدم الضحايا بلا توقف قربانا لحياة كل يوم ، حتى لحظة العودة .

ولانه فلسطيني ، صمم مع رفاقه على العودة الى عكا ، اصبح جزءا من كل ، يضع أقدامه على الطريق ويخطط . نسفوه بخمسة كيلوجرامات من الديناميت وكانهم ينسفون جيشا .

كان غسان كنفاني ، الشاب النحيل المسلول ذو القلب العليل والستة والثلاثين ربيعا والوجه الباسم ، جيشا . الانسان اذا أذاب بارادته حياته في حياة شعبه ، وامتزج بوعيه في كيان حركة ثورية ، اكتشف نفسه مع الاخرين وتأكد من موقع ذاته في التاريخ الذي لا يموت . يظل هو هو ، بفرديته ، انسانا . ويغدو في الوقت نفسه الحركة بجماع قوتها وهديرها .

الموت ، يطوي الفرد . لكنه يقف مشلولا ، بلا حول ولا قوة ، أمام جماعية الحركة . هذا هو سر الثورة ورجل الثورة ، الذي ما برحت الحياة ، مذ كانت الحياة ، تؤكده للانسان وتعيد تأكيده بلا ملل . الثورة لا تموت . والرجل يموت حياة .. حتى ولو مزق جسده الى ألف قطعة ، وطارت كفه الدامية الى سطح جدار ، في الحازمية ، تنتفض بالالم الاخرس .. ترفرف كالعلم .

أقل من خمس كيلوجرام كان كافيا ليدمر حياة الانسان في جسد غسان . لكنهم ضاعفوا جرعة الموت خمسا وعشرين مرة ، بأمل ان يقتلوا مع غسان الفرد ، غسان الحركة والثورة . لكن غسان كان قد قال قبل ان ينسف جسده بسنوات ، نبوءته في كتاب حياته « رجال في الشمس » .. الرجال ذاهبون الى الظل ، ليبقى دائما تحت الشمس الدافئة الملتهبة مكان لرجال جدد . في يوم السبت ذهب غسان الى الظل .. وبقيت الشمس ساطعة .

من كان .. من يكون .. من سيكون غسان ؟

كان ويكون وسيكون ، المناضل الفلسطيني الذي ظل يرفع مرارة مرحلة ما بين هزيمة ٤٨ وهزيمة ٦٧ ، واحد من الملايين الذين وهبوا — ويعلمون منذ اللحظة الاولى أنهم يهبون — العرق والوجدان والكلمة والحياة.

كان ويكون وسيكون ، وفير العطاء لانه وفير الالام والامال . وبقدر عطائه بقدر بربرية قتلته . حتى الحقد الوحشي لم يقدر ان يخفي قيمة المقتول .

من قاتل غسان ؟

ليس المهم الاداة التي نفذت الجريمة ، كما يقول بيان الجبهة الشعبية . المهم الرأس المدبر المستفيد من الجريمة : المعسكر الامبريالي — الصهيوني — الرجعي . هذا هو العدو . عدو غسان الانسان وغسان الحركة الثورة . فأمر طبيعي ومحتمل دائما ان يلجأ العدو الى ضرب الثورة وتصفية رجالها جسديا . المواجهة بين الثورة وبين عدوها، ليست لعبة رياضية ، بل صراع الحياة والموت .

لماذا غسان ؟

اكثر من سبب .

سبب عام : بنوته للثورة الفلسطينية ببعدها القومي التحرري التقدمي .

أسباب خاصة كثيرة : عضويته القيادية للجبهة الشعبية ، المتحدث الرسمي باسمها ووجهها العالمي ، رئيس تحرير مجلة الهدف الفلسطينية العربية التقدمية ، الصائغ للبيان التاريخي عن عملية مطار اللد . وكانت الصحف الاجنبية وخاصة الامريكية منها قد ركزت في الآونة الاخيرة على انه أحد الرسل الاساسيين بين الثورة الفلسطينية والحركات الثورية في العالم . واخيرا هو نموذج المثقف الثوري العربي الجديد الذي لا يكتفي بموقف المتفرج المعلق والمحلل من فوق الرصيف وانما يخوض غمار شارع الاحداث يشارك في صنعها وصياغتها والتعبير عنها .

ما الهدف من قتل غسان ؟

هناك من يركز على دافع الانتقام من عملية الهجوم على مطار اللد، خاصة وان المؤسسة العسكرية والصحف الاسرائيلية راحت تصرخ ، اثر العملية ، بصيحات الانتقام من الفدائيين الفلسطينيين المسئولين . ويبقى دافع الانتقام واردا ، لكنه ليس بالهدف الرئيسي والا كنا نتعامى عن طبيعة العدو العنصرية العدوانية وطبيعة اهدافه الاستراتيجية . يأتي اغتيال غسان بعد أن فشل عدوان اسرائيل الوحشي الاخير على جنوب لبنان ، في تصفية الوجود الفلسطيني الثوري في لبنان تصفية جذرية . وتسميم آبار الشعب اللبناني في وجه الفدائيين . وذلك نتيجة وعي الجماهير اللبنانية عامة وحركة القوى الوطنية والتقدمية خاصة . واذا كان العدوان الجماعي المتكرر على الشعب اللبناني لم يحقق الخطة الامبريالية — الصهيونية — الرجعية ، فليجرب اسلوب الارهاب الفردي الدموي ضد عناصر قيادية وذات وزن محلي وعربي ودولي في الحركة الفدائية . لماذا ؟ ليبذروا في نفوس الفدائيين انه لم يعد لهم أمان في لبنان . واختير ((**غسان كنفاني**)) أول هدف في عملية الارهاب الصهيوني الجديدة ، ذلك انه مكشوف الموقع بحكم عمله الصحفي والسياسي ، حركته اليومية معروفة ومنتظمة يمكن رصدها بسهولة ، لا يعبأ بتأمين حياته . وفوق هذا وذلك ، هو واحد من القادة المسئولين ونموذج للمثقف الفلسطيني العربي الثوري الجديد الذي يمثل تعدده وتكاثره خطرا مباشرا على العدو في الوطن العربي وداخل الارض المحتلة معا . ومن أجل هذا أيضا روعي في تنفيذ العملية أن تتسم بأقصى درجة من الوحشية لترجف قلوب المترددين وتسرع بهم بعيدا عن حركة الثورة .

هل تنجح الجريمة ؟

ان الصهيونية — وليس هذا بحديث حماسي — تخطىء الحساب كما اخطأت من قبل حسابات كل قوى العدوان والفاشية والاحتلال في مواجهة ثورات الشعوب من أجل التحرر . هذه ظاهرة تاريخية عامة . فالمحتل العدواني ، يعتقد بصلف — وهذا من حسن حظ الشعوب وثوراتها — أنه بقوته الارهابية الدموية قادر على ان يبث الرعب

والخوف في قلوب الثوار ويدفعهم الى الهرب من جماعية الحركة الى الذاتية الفردية المغلقة . ومن الطبيعي انسانيا ان يحدث ذلك بالفعل لعدد من المترددين . ولكن في هذا قوة اكيدة للثورة وللروح الجماعية لانها تطهرهما من العناصر الضعيفة والانهزامية . وتفتح أعينهما بوعي أعمق على النواقص والسلبيات في العمل ويتحدانها موضوعيا .

والثورة الفلسطينية ــ بالذات ــ هي جماع شعب مشرد فقد بالفعل كــل شيء . هو بروليتاريا شعوب العالم ــ ان جاز التعبير ــ ارتخصت حياته ودمه ووطنه وواقعه ولم يعد يملك شيئا سوى مستقبله الذي يقبض عليه وتكاد تخنقــه القوى الامبريالية ــ الصهيونية ــ الرجعية . الخوف على شيء يفقده غير وارد . من لا يسقط برصاص اسرائيل ، تجندله رشاشات الخونة العرب ، يذبل ويجف جوعا . لم يعد يربطه بالحياة الا هذا المستقبل الذي تمثله الثورة الفلسطينية . وفي الثورة الفلسطينية آلاف مــن الشباب : مثقفين وعمالا وفلاحين وحرفيين ، هجروا حياة المنفى الرتيبة ، وضحــوا بالمناصب والرواتب العالية ، وتركوا الاسرة والحبيبة والمسكن المريح وقاعات الجامعة ليتصوفوا في بحر الثورة وعلى اكفهم يحملون دائما رؤوسهم وبنادقهم .. وكان غسان كنفاني واحدا .. واحدا فقط منهم .

ومن قبل غسان ، جربت الصهيونية أبشع أساليبها الارهابية في مذابح كفر قاسم ودير ياسين والمعتقلات والسجون الاسرائيلية .. ومع ذلك قام الشعب الفلسطيني وتفجرت ثورته المعاصرة وظلت بين الانتصارات والهزائم .. بين النجاحات والنكسات ، ككل ظاهرة صحية ، حية متجددة الحيوية . والمناضل الذي يسقط تخسره الثورة انسانا ، ولكن دمه يغذيها بزاد جديد . هذه هي دراما الثورة .. حقيقتها .

دم غسان زيت مصباح جديد من مصابيح الثورة يضيء ويصرخ .

بماذا يصرخ دم غسان ؟

يصرخ في فصائل الثورة الفلسطينية جميعا وبلا استثناء ، أن واصلوا بلا كلل بناء جبهتكم الوطنية المتحدة . ارتفعوا عن العقد والحساسيات ، وغلبوا تناقضكم الرئيسي مع العدو الامبريالي ــ الصهيوني ــ الرجعي على التناقضات الفرعية التي لا مفر منها في كل حركة وطنية ثورية تتعدد ــ بالضرورة ــ منابعها الاجتماعية والفكرية . كثفوا مــن نشاطكم السياسي الثوري وتعبئة الجماهير في الارض المحتلة جنبا الى جنب مع العمل العسكري ، وشددوا على قاعدة الثورة الجوهرية : الوعي السياسي يقود البندقية الى هدفها . وفي الوطن العربي يصرخ دم غسان في جماهيرها وتنظيماتها وأحزابها الوطنية والتقدمية أن تراصوا من حول حركة التحرير بشقيها السياسي والعسكري ضد العدو الامبريالي ــ الصهيوني ــ الرجعي . ولا تقنعوا بموقف المتفرج او النائح من الثورة الفلسطينية ، ومؤامرات تصفيتها بأساليب مباشرة أو غير مباشرة . المتفرج او النائح شريك في الجريمة . والجريمة هنا عامة شاملة للجميع .

وبعد ..

في الساعة الرابعة والنصف من مساء الاثنين ومسيرة غسان ، الانسان الممزق الجسد في كفنه ، بدأت خطواتها من مخيم شاتيلا في بيروت ، فجلست خاشعا أتلو صلاة مــن كتابه « رجال في الشمس ».. الرجال ذاهبون الى الظل ، ليبقى دائما تحت الشمس الدافئة الملتهبة مكان لرجال جدد ..

احسست بشيء من الحياء العنيف يغور في جوفي وبشيء من دموع التمرد تغلي في عيني . أغلقت باجلال الكتاب الذي كان « غسان » قد أهداني اياه . حولت الاهداء الى ابنتي ذات الاحد عشر ربيعا . يوما ما ستقف تحت الشمس الدافئة الملتهبة ، عندما تكون لنا شجاعة غسان .. ونذهب الى الظل ، كما ذهب .

الجسور والعلاقات في قصص غسان
دراسة في فكره القصصي

الدكتور احسان عباس

« كانت هناك قطة بيضاء صغيرة تحاول اجتياز الشارع ، الا ان بركة من المـاء كانت تحول بينها وبين الوصول الى الرصيف .... فرشت ساعديها وطوت ساقيها فمس بطنها الارض ، وأخذت نهز جسدها بارتقاب مهتاج ، وتضرب الارض المبتلة بذيلها ، وفي اللحظة التالية قامت بقفزة واسعة ، الا انها لم تستطع ان تجتاز البركة فسقطت في ربعها الاخير ، واخذت تضرب الماء بأطرافها محاولة الخلاص » .

(عالم ليس لنا : ١٠٤ ، ١٠٩)

قبل اكثر من تسع سنوات اهداني غسان قصته « رجال في الشمس » وكتب في الاهداء: « الى الدكتور .... بالرغم من أن هذه الرواية لا تتعلق بالاندلس » ، وقد كانت هذه الصيغة واحدة من تلك الدعابات التي كنا نتبادلها كلما التقينا ، وان كنت نسيت الجو الذي استدعاها حينئذ . ولم اشأ ان احمل الفكاهة العابرة اكثر مما تحتمـل فأقـول لغسان : ان الاندلس على المستوى الشخصي جسر يسلكه السائر ذاهبا الى الماضي او عائدا الى الحاضر ، وانها على المستوى العام « قضية » في ذاتها و« قضية » بطريـق المماثلة ، ولعل هذا المعنى الذي استقر في نفسي منذ عهد بعيد هو الذي جعلني أختـار هذه الزاوية عينها حين اتحدث اليوم عن الفن القصصي عند غسان . على ان هنـاك عاملا اخر حفزني الى اختيار هذه الزاوية ـــ دون سائر النواحي والزوايا في قصصه، وهي كثيرة ـــ وذلك أن هذا المنطق كفيل بابراز المتكأ الفكري في قصصه ، وبالكشف عن الاسس النظرية الكامنة تحت تلك القصص . وقد كان من الممكن أن تكون هذه المحاولة سهلة لو كان أبطال غسان من المثقفين ، او من الذين يجعلون « الايديولوجيات » خشبة تقفز الى حومة العمل ، او من الـذين يرتدون بالاعمال الى محكمة فكرية تقدر مـا لها وما عليها . ولكن من يقرأ قصص غسان يدرك دون عناء ان اشخاصه من ابناء الشعب البسطاء ، وكثير منهم أطفال او شبان يعملون بدافع من صدق الفطرة ، دون ان يبلغوا سن « الحكمة » ، وليس فيهم من يحاول ان يفلسف الدور الذي يؤديه او الغاية التـي يسعى اليها . فمنهم من يضحي بحياته دون أن تمر بخاطره « لم » ؟ ومنهم من يتحمل عبء العائلة الكبيرة التي خلفها له ابوه والتشرد معا دون أن يتذمر ، ومع ذلك فانهم في مثل هذه المواقف ليسوا سلبيين ، كما أنهم ليسوا اطهارا كالملائكة ، فهم يتقاتلون على احتياز بندقية ، او يدفعهم الفقر الى الشجار على تفاحة تعفن معظمها. واحدهم يعيش على سلب ما يمكنه ان يسلبه من معسكرات جيش المستعمر ، وآخر يعتمد على تقلب أسعار التبغ ولا يستنكف ان يستغل عرق الفلاحين وهو يقوم بدور الوسيط بينهم وبين الشركة . بل ازيد فأقول أن اطمئنان غسان الى قدرته على تصوير هذا العالم الواقعي الذي يعج بالكادحين البؤساء جعله يشيح بنظره عن عالم المثقفين او ينظر اليه في ريبة .

ولهذا بعث بقاسم الطبيب ابن قرية مجد الكروم (وهو من الامثلة القليلة التي تصور المثقفين في قصصه) الى احضان اليهوديات في حيفا ، متخليا عن انتمائه الى القرية وعن مساعدة اهلها ، وصوره يأكل شريحة الخبز مغطاة بالزبدة والمربى مع صديقته ايفا ، بينما كان أخوه الصغير منصور يحمل بندقيته المستعارة ويحاول ان يؤدي واجبه الوطني في الدفاع عن صفد ، وهو « يرش حفنة من الزعتر الجاف في نصف رغيف أسمر شديد الذ ...ـه . ويعيد النصف الاخر الى جيب سرواله الكبير » (عن الرجال والبنادق : ٣٤)
لقد اكتشف غسان ، او اكتشفت شخصياته ، بدافع من الفطرة السليمة او الواقع الانساني او الفهم الاجتماعي البسيط ان الحياة لا يمكن ان تعاش وتكون ذات معنى الا اذا ربط الفرد وجوده بعلاقة او جسر ، وحين تنفصم العلاقة دون أن تحل محلها علاقة جديدة او يتحطم الجسر دون أن يكون في الامكان ترميمه او انشاؤه من جديد تفقد الحياة كل معنى لها ويصبح الموت هو البديل الطبيعي لها . ولكن قبل أن يتم استكشاف هذه الحقيقة البسيطة مرت شخصيات غسان — او قصصه — في مرحلتين :

المرحلة الاولى يمكن أن تسمى مرحلة الفزع من الموت ، او تركيز الانظار في الموت ، ومن أجل ان نفهم هذه المرحلة علينا ان نستحضر فكرة غسان عن الموت في دور متأخر ، فقد عبر عن هذه الفكرة مرتين تعبيرا مقاربا ، فقال في قصة له في مجموعة « أرض البرتقال الحزين » (ص ٧٧) : « لم تكن عنده مقدرة شم الموت كما كانت عنده قدرة احساس الحياة ... وقالوا له مرة أن هذا خطأ مهلك ، وان الحياة لا قيمة لها قط ان لم تكن دائما ، واقفة قبالة الموت » . وقال في مسرحية « الباب » (ص ٦٢) على لسان الاله هبا مخاطبا شدادا : « ثم انني تعبت من هذه القصة ... قصة الموت ! أنت تعرف ان الموت يحدث ، بل أن الحياة لا تعني ما هي ، لا تعني ما تعرفه عنها وما تحسه معها ، الا اذا وضعتها جنبا الى جنب مع الموت ، فكيف تريد أن تفسر الموت دون أن تكلف نفسك عناء تفسير الحياة دونه ؟ انهم يموتون منذ تكورت الارض ، وحتى الان تنظرون الى الموت على أنه شيء غامض وعجيب » . فاذا تأملنا هذين القولين وجدنا غسان يلح على التوازن في النظرة الى كلتا الحقيقتين : الحياة والموت ، او بعبارة اخرى : على اقامة جسر يصل بينهما . غير أن هذه النظرة لم تكن واضحة لدى شخصياته في المرحلة الاولى ، بل كانت تلك الشخصيات تركز نظراتها في الموت بقوة ، ومن جراء ذلك كانت تستحيل الحياة لديها الى نوع من العبث، وذلك هو ما يتضح في مجموعة « موت سرير رقم ١٢ » (دون ان يكون ذلك مبنيا على دراسة القصص حسب التسلسل التاريخي)، ولعل القصة التي تحمل اسم المجموعة خير مثال على ما اقوله ، فانها رغم احتفالها بزخم قصصي وتكثيف للحدث لا تعدو ان تكون مرثية للعامل العماني « محمد علي اكبر » الذي مات دون ثمن او مجد ، موتا يتيح للكاتب ان يتفنن في اختراع بناء قصصي متدرج للاحداث التي سبقت الخاتمة ، وان يقول بعد ذلك مخاطبا صديقه أحمد : «فهمت من رسالتك انك لست في حاجة لترى صوت محمد علي أكبر كي تعرف ما هو الموت .. ولقد كتبت تقول ان حادثة الموت لا تحتاج الى المقدمات المأسوية التي وضعتها لحياة محمد علي أكبر ، وان الناس يموتون ببساطة أشد ، ذلك الذي وقع عن الرصيف فانطلق مسدسه المحشو ومزقت الرصاصة عنقه : كان ذاهبا مع فتاة رائعة الجمال ، والذي قتلته نوبة قلبية في الطريق مساء يوم نيساني ، كان قد عقد قرانه قبل اسبوع ، ... انني اريد ان أقول لك من كل ما كتبت في رسالتي الماضية ان علينا ان ننقل تفكيرنا من نقطة البدء الى نقطة النهاية .. يجب ان ينطلق كل تفكير من نقطة الموت » (ص ٩٧ — ٩٨) . كان مثل هذه الفلسفة « ان ينطلق كل تفكير من نقطة الموت » هو الذي يوجه رؤية القاص ، ولهذا غلب عليه في هذه المرحلة التلذذ بالموت او الفزع منه ، فهما في النهاية سيان . وبمثل هذه الروح كتبت قصة (منتصف أيار) التي تصور موت الصديق،

وقصة « القط » التي تصور مبلغ الفزع من رؤية قط ميت ، ثم ما تلا ذلك من قتل للرغبة المتوقدة .

اما المرحلة الثانية فلا بأس في أن اسميها مرحلة فصم العلاقات وتحطيم الجسور ، وهي غاية توحي باليأس وبالوقوف عند عتبة الموت ، نقطة الارتكاز في المرحلة الاولى ، ولكن اذا نظرنا اليها في سياقها الطبيعي وجدناها مرحلة ضرورية ، لانها تمثل البحث عن « الشاطىء الاخر » الذي يستحق ان يمتد اليه الجسر . وتبدأ هذه المرحلة اما بعدم القدرة على فهم علاقة قائمة ، كما في قصة « الخراف المصلوبة » التي تمثل انغلاقا تاما يحول دون ادراك السر في ذلك التلاحم القائم بين الراعي وقطيعه ، واما بالتشكيك في قيمة تلك العلاقة وذلك ما تمثله قصة « أكتاف الاخرين » ، ففي هذه القصة يعيش ابو سليم خادم المطعم العجوز ويجد للحياة طعما لانه منذ عشرين سنة يرمي بفتات الخبز من نافذة المطعم الى البحر معتقدا انه يقدم بذلك « معروفا » الى السمك ، ولكن بطل القصة ، الذي كان قد فصم العلاقة بينه وبين الحزب ، يرى في حياة ابي سليم نوعا من العبث ، حتى ليسائل نفسه « دعك من كل هذا .. اتريد أن تعيش حياة فارغة ؟ مثل أبي سليم ؟ عبث بلا مبرر ؟ » كان قد حطم الجسر القائم بينه وبين الانتماء ، فعز عليه ان يرى انسانا بسيطا طيبا يجد حلاوة الحياة في ذلك الواجب الصغير الذي يؤديه نحو السمك ، ولذلك عمد الى تشكيك الرجل الساذج في جدوى ما يصنعه ، واخترع كذبة انطلت عليه حين قال له : « أنت لاتعرف أن الخبز يقتل السمك » ، ودهش الرجل ولكنه ازاء ما يقوله رجل مثقف (هذا شيء لا يعرفه الا طلاب الجامعة) وجد نفسه يقول في حزن ، وهو ينظر الى زاده من الرضى في مدى عشرين عاما : « كنت اعتقد أن السمك يحب الخبز ... ويحبني» وبذلك تحطم الجسر الذي كان يعبر عليه ابو سليم كل يوم الى منطقة الرضى النفسي .

هاتان القصتان تنتميان الى مجموعة « موت سرير رقم ١٢ » ، ولكن هذه المرحلة الثانية استغرقت ايضا معظم القصص في « عـالم ليس لنا » ، والعنوان نفسه يوحي برفض انشاء صلة بهذا العالم ، او العزوف العامد — مسوغا كان او غير مسوغ — عن بناء الجسور والعلاقات . واكثر الشخصيات في هذه القصص قد اصيبت بصدمة نفسية ، كما يقف بعضها عند حافة الالتياث او الانهيار ، فهناك البدوي الذي فجع في صقره وحبه فاختار زاوية مهملة يموت فيها ، وهناك الطالب الذي رسب ، وغاب في عالم مذهب بالحلم والجنون معا ، وثمة أب تخلى عنه ابنه ، فهو ينقل قطا صغيرا من حضن امه ، ويضعه الى جانب قطه الكبير في البيت ليشهد تعذب الصغير ، ولكن عطف الكبير على الصغير سمح لهذا الثاني أن يرتضع من دمه بديلا عن لبن امه ، ومن الشخصيات الغريبة شخصية عبد الرحمن في قصة « نصف العالم » فانه استغنى عن احدى عينيه حتى أصبح يشاهد نصف الاشياء ، ويرى العالم بهذا النحو مرتبا لا تداخل فيه ولا تكاثر ، وكأنما هذه القصة محاولة للتساؤل : هل تكفي الانسان في هذه الحياة نصف علاقة او نصف جسر ؟ ويعتمد غسان في هذه القصص اعتمادا كبيرا على رسم المفارقة بين موقفين : الموقف الانساني والموقف الحيواني ، ويستمد من هذه المفارقة عنصرا هاما في تعميق ما تحمله هذه القصص من تأثير ، وفي هذه المرحلة يبدو اهتمامه بالبناء الفني للقصة اكثر من اهتمامه بالسلامة الغائية فيها ، ولذلك جعل عنصر المفارقة شيئا محوريا في تطورها . وتتعدد النماذج المزدوجة : فهناك البدوي — الصقر ، والاب — القط ، والابن — الحصان ، والمراة — القطة ، والطفل — الحسون .

وتتأتى هذه القصص لابراز فكرة العلاقات والجسور من زوايا مختلفة ، هنالك حالات يصبح فيها رفض انشاء الجسور نوعا من المحافظة على ما يتمتع به الفرد من شعور انساني ، ففي قصة « عشرة امتار » تصبح تلك الامتار العشرة أداة الفصل الطبيعية

التي تحول بين المرء والانحشار في مشكلات اناس من ذوي الشذوذ ، وفي « علبة زجاج واحدة » حاجز يحول بين المرء والتورط في هوة سوق اللحوم البشرية ، حتى ليقول بطل القصة قريبا من نهايتها : « جررت ساقي موهنا في شوارع المدينه ، وكنت أحس العار يزحف داخل عظامي ، بدت لي الحياة كلها حقيرة واضيق من أن تتسع للانسان ولجوعه معا » . وهنالك حالات يتمخض فيها انقطاع العلاقة عن شعبه من الالتياث او الوقوع تحت وطأة خوف مرضي . ففي قصته « عطش الافعى » كان الاب يكسب عيشه عن طريق اتقانه النقر على الطبلة بمهارة وهو يزف العريس الى بيت العروس ، ولكن ما لبث تطور الزمن أن جعل الناس يستغنون عن ذلك بالزفة في السيارات ، كانت علاقة الاب بالحياة « علاقة صنعة » ولهذا كان يعبر عن نقمته على البدعة الجديدة بقوله : « قالوا أن السيارات افضل . . . تصوري !منذ ان تزوج عبد المحسن ، قبل خمسة شهور ، حتى اليوم ، وهم يقولون كل يوم في المقهى ان السيارات افضل من الزفة . . . هل تسمعين السيارات كيف تنعق كالضفادع وهي محملة بالبشر كالسردين ؟ انه عار ! عار كبير ! تصوري ! متزوجون بلا زفة . . . » وذات يوم خرج الاب ولم يعد ، لقد اخذ يلقي — في نوبة هستيريه — بالحجارة فوق سيارة عرس ، وكاد يقتل السائق بخيزرانته التي كان يستعملها في النقر على الطبلة . ومثله ، الرجل الذي حيل بينه وبين الحصول على مرتينة ، فقد أصيب بما يشبه اللوثة وأصبح « رجلا غريبا ينتابه احساس ثقيل بأنه ما زال يبحث عن بندقية ضائعة ليلتحق بالرفاق الذين كانوا ينتظرونه في القرية المهدمة » ولهذا كانت كلمته الوحيدة كلما قابل انسانا : هل رأيت العروس ؟ كانت البندقية امله الوحيد ، طريقه الى الحياة ، او جسره عبر شاطئها ، فلما فقدها أصبحت حياته استمرارا للبحث عن شيء ضائع .

وثمة حالة الاب الذي كان مغرما بالخيول ، وكان جواده « برق » من أحبها الى نفسه ، ولكن صديقه كان ينصحه ان يقتل ذلك الجواد لانه يحمل بقعة دم تشير الى أنه سيكون السبب في قتل انسان عزيز ، وابى الوالد ان يصيخ الى هذه الاسطورة ولكن الحصان قتل ذات يوم زوجته ، فلما فقدها تخلى عن تربية الخيل ، الا انه ظل طوال ما تبقى من عمره يخاف ابنه ، لان ذلك الابن كان يحمل على جسده مثل تلك البقعة ، ولما مرض الاب واحتاج ان تجرى له عملية ، رفض باصرار ان يقوم ابنه — وهو طبيب — بذلك ، واخذ يصيح : « اي طبيب اخر ولكن ليس ابني . . . اي جزار اخر ولكن ليس ابني . . . سوف يقتلني . . . سوف يقتلني » ، ان فقدان العلاقة الحميمة قد اوقع الاب في خوف مرضي جعله يصدق الاسطورة ، ولم يستطع لذلك ان يعود الى انشاء علاقة سليمة بينه وبين ابنه . وقد يعمى المرء تحت الالم الناشىء عن فقد العلاقة عن الاتجاه نحو علاقة صحيحة كما حدث في قصة « رسالة من مسعود » فانها تصور رجلا فقد صديقه ، وبما أنه لم يستطع ان يتحمل « انعدام الجسور » أقام علاقة بينه وبين صديقه الذي مات ولم يمت ، . . . لم يمت في تصوره ، واخذ يتلقى منه رسالة يحدثه فيها عما يجد من احواله بعد ذلك الغياب ، ومرة اخرى نرى كيف يصبح انعدام الجسور في الواقع سببا للوثة تخلق عناصر الرضى في تصورات محمومة ، وكل من يحاول ان يتجاوز العوائق دون جسر ، معتقدا انه يستطيع القيام بطفرة عريضة يتجاهل فيها الزمان والمكان ، فان مصيره هو مصير القطة التي ادرجت وصف محاولتها في صدر هذا المقال .

وبين هذه المنطقة من العلاقات الحميمة التي يسبب انبتارها صدمة عنيفة تقضي على الاتزان ، وبين منطقة اللا علاقات او الجسور التي لا يمكن مدها ، تقع منطقة ثالثة تسمى « شبه علاقة » أو كما يدعوها غسان نفسه « **العلاقات العادية** » او « **العلاقات الواسعة** » وفي عموميتها وسعتها امتداد وانبساط يفقدانها ميزة العمق في العلاقات الحميمة . ولكن « شبه العلاقة » امر اضطراري تمليه الظروف ، وهو على اي حال

" تجمع » لا يخلو من شعور بالاغتراب ، وان كان اخف وطأة من اللاعلاقة ، او حتى من الانقطاع الذي يصيب العلاقة الحميمة . ان «شبه العلاقة» صلة اجتماعية مؤقتة تجمع الناس تحت سقف واحد او الى مائدة واحدة، وتخفف عنهم عبء الفوضى في لجج الوحدة النفسية ، « ودون ان ندري تماما استطعنا ان نشكل بعفوية دوائر واسعة من العلاقات العادية ، كانت الحياة هناك جافة يابسة ، ولم تستطع العلاقات الواسعة تلك ان تدخل الى حياتنا الا شيئا بسيطا وتافها من النكهة والمذاق . . . وسنة بعد سنة اعتدنا ذلـك النوع من الحياة ، **واعتدنا خشونة العلاقات ورضيناها ثمنا للعلاقة نفسها . . . كانت أغلى شيء يمكن للمرء ان يحصل عليه في ذلك المنفى** » (عالم ليس لنا : ٤٣) حتى على هذا المستوى يفرق المرء ان يضحي بهذه الخيوط الرفيعة ، فيتلافى العبور الى تناقضات الاخر ، حفاظا على تلـك الخيوط من ان ترتخي او تنقطع ، وهذا مـا حدث بين عامر وصديقه في قصة « رأس الاسد الحجري » فقد مشى الزمن بكل من الصديقين الى نقطة احسا فيه بالتغير الذي طرأ على علاقتهما ، وكان ان اقترح عامر « ان نظل بعيدين عما يمكن ان يفصل بيننا ، **فكل منا يحتاج الاخر احتياج الزوجين العجوزين لمجموعة صور حبهما المبكر** » (ص : ١٣٣ ــ ١٣٤) .

وقد يقال ان معظم شخصيات غسان في هذا الدور كانت هشة لا تثبت لادنى هبة مـن ريح ، ولكن كان لا بد من أن يتمرس بهذا اللون من الشخصيات ، لكي يصفي الحساب معها عن طريق امتحان هذه العلاقات في مستوياتها المختلفة ، وليخرج بعد ذلك الى تمثل الشخصيةالصلبة القوية وليزداد يقينا بطبيعة العلاقاتالتي ستبنيها شخصياته الجديدة . وما اشفاقه على « شبه العلاقة » الا مقدمة لذلك التشبث العنيد بالبيت القديم في القصة نفسها ، أعني قصة « رأس الاسد الحجري » ، وليس كل ذلك الا توطئة عامة لمرحلة جديدة ، هي مرحلة « تكيف العلاقات » ــ وهي ما يمكن ايجـازه بالمضي في استمداد الحياة طوعا او كرها ثم التقبل للموت ، او مواجهته ، دون ادنى تردد او فـزع . اي ان هذه المرحلة تمثل مبدأ التوازن ــ الـذي استكشفه غسان ــ بين الحياة والموت . صحيح ظلت بعض العلاقات تنتمي الى المرحلتين السابقتين كما هي الحال لدى علي في قصة « الافق وراء البوابة » فانه حين فقد اخته « أحس بأنه فقد كل شيء : ارضه واهله وماله ، ولم يعد يهمه ان يفقد حياته ذاتها،ومن هنا مضى يضرب في الجبال تاركا ارضه، هاربا من القدر الذي لاحقه كالسوط » (ارض البرتقال الحزين : ٢٥)، ولكن هذا التصور لم يكن الا اصداء من المرحلتين السابقتين ، بل أن هذه القصة نفسها كتبت في تـاريخ ينتمي الى احدى تينك المرحلتين . ولكن ذلك شيء قد فات ، فقد اصبحت العلاقـات خاضعة لقانون التكيف ، أصبحت عرضة للتغير والتطور ، فكم من علاقة ظنت حميمة ثم تكشفت عن وهم فانتقل بذلك صاحبها الى زاوية جديدة من ممارسة الحياة . منتصف ايار مثلا : أية علاقة كان يعنيها لكل فلسطيني ؟ ولكنه لم يعد كما كان ذات يوم : « ان منتصف أيار مثله مثل منتصف أي شهر اخر ، مثل اي يوم اخر من أيام السنة ، بل من أيام السنوات العشرين التي مرت، لا يعني شيئا على التحديد . **لقد كان جسرا ليوم اخر، ولا يمكن لاي جسر ان يكون ان لم يكن طرفاه مربوطين الى شيء هنـا وشيء هنـاك** » (أرض البرتقال : ١٠٨) . واللهفة الواعدة التي كانت تهيب بابن غزة ليلحق بصديقه مصطفى الى سكرمنتو ، ماذا حدث لها ؟ ما كاد ذلـك الفتى الغزي يزور بنت اخيه في المستشفى ويرى انها فقدت رجلها من أعلى الفخذ حتى أحس بانتماء جديد وعلاقة جديدة بالمدينة التي كان ينوي الابتعاد عنها : « غزة هذه التي عشنا فيها ومع رجالها الطيبين سبع سنوات في النكبة ، كانت شيئا جديدا ، كانت تلوح لي أنها . . أنها بداية فقط ، لا ادري لماذا كنت اشعر انها بداية فقط ، كنت اتخيل ان الشـارع الرئيسي ، وانا اسير فيه عائدا الى داري ، لم يكن الا بداية صغيرة لشارع طويل طويـل يصل الى صفد . . . » (أرض البرتقال : ٧٢) . لم تعد الفاجعة عاملا محطما ، بل أصبحت قوة تقف عـلى

التماسك والصلابة والبدء من جديد ، ولم يعد من المهم ان تكون العلاقة كبيرة في حجمها الاجتماعي او صغيرة ، بل اصبحت لها قوة الرمز : وهذا ما تمثله قصة « الصغير يكتشف ان المفتاح يشبه الفاس » خير تمثيل ، فذلك المفتاح الذي رأى فيه الجد وابنه وحفيده صورة فاس صغيرة اصبح بالنسبة لهم « مجموعه فضائل » دخلت حياتهم في بطء ولكن بثبات ، وكل امرىء في القرية كان يعرف أنه مفتاح دار جابر ، ولما ذهب الحفيد يطلب العلم في القدس كان ابوه يزوره : « وكنت ارى المفتاح في حزامه وعندذاك فقط كانت القرية كلها تنبعث في راسي كنسمة ريح غامضة » (عن الرجال والبنادق : ١٠٣) ولما فقد الحفيد الارض ظل المفتاح يرافقه ، وقد دقت له اخته مسمارين وعلقته نائما على الحائط ، وكم كانت فرحة الحفيد قوية عندما وجد ابنه حسان يهتف ذات يوم وقد تدلى المفتاح لسقوط احد المسمارين : « انظر ، انه يشبه الفأس » — كان ذلك هو اكتمال الانتماء ، وكان الرمز قد ادى رسالته لاخر جيل ولد بعد النكبة .

ولما خضعت العلاقات لقانون التكيف اصبحت نسبية ، وقد عبرت ام سعد عن تلك النسبية بقولتها البسيطة العميقة : «خيمة عن خيمة تفرق» أي أن خيمة الانسان المشرد لا شبه لها بخيمة الفدائي الا من حيث الشكل الظاهري ، والامور انما تقاس بحقيقة اخرى غير الشبه الظاهري ، وهذه النسبية تفرض وجودها في زمن الاشتباك ، وكلمة « الاشتباك » هنا لا تعني الحرب ، وانما تعني أن يكون الجوع هو الهم اليومي « كنا نقاتل من أجل الاكل ثم نتقاتل لنوزعه فيما بيننا ، ثم نتقاتل بعد ذلك » . في مثل هذه الظروف يصبح للفضيلة مقياس جديد : « حين يموت المرء تموت الفضيلة أيضا . أليس كذلك ؟ اذن دعنا نتفق بأنه في زمن الاشتباك يكون من مهمتك ان تحقق الفضيلة الاولى ، اي ان تحتفظ بنفسك حيا ، وفيما عدا ذلك يأتي ثانيا » وهذا الثاني لا يأتي لانك لا تنتهي من « أولا » . ولعل هذه القصة التي اقتبست منها فلسفتها — وهي بعنوان « الصغير يذهب الى المخيم » ليست وحسب من أبرع ما كتبه غسان من الزاوية الفنية بل انها اشد قصصه طواعية لابراز فكرة النسبية في العلاقات : ففيها الجد الذي لا يتورع عن أن يسرق خمسة قروش من أية جيب ليشتري بها جريدة كي يقرأها له واحد ممن يعرفون القراءة ، وفيها الصغير وزميله عاصم وهما يذهبان معا يلمان بقايا الفواكه والخضروات في سوق الخضار ، ويجري بينهما الشجار أو كما يقول القاص نفسه : « وكنا نعمل طوال العصر نتشاجر ، عصام وأنا ، من جهة مع بقية الاطفال أو أصحاب الدكاكين أو السائقين أو رجال الشرطة أحيانا ، ثم أتشاجر مع عصام فيما تبقى من الوقت » . وذات يوم رأى « الصغير » وهما عائدان من السوق ورقة نقدية تلتمع الى جانب حذاء شرطي ، فنسي كل شيء حتى التفاحة التي كان يقضمها وتحفز لالقاء القبض على ذلك « المعدن النادر » وفيما هو يهم بذلك شاهدها عصام أيضا ، ولكن الصغير كان أسبق منه الى احتيازها ، وهنا أمعن في الهرب وهو يظن أن جميع الناس والاشياء يلاحقونه ، ماذا فعلت هذه العلاقة الجديدة ؟ وقفت العائلتان احداهما ضد الاخرى ، ثم لما أصر الصغير على ان ورقة النقد له لا لغيره « ضاع رابط الدم » فوقفوا جميعا ضده ؟ ووجد الجد انه يستطيع ان يؤمن ثمن جريدته اليومية فحكم بالورقة النقدية للصغير ، شرط ان ينفقها الصغير على بقية الاطفال ، ولكن الصغير كان يهمه الاحتفاظ بالورقة عارفا انه يستطيع ان يماطل الاطفال يوما بعد يوم ، فظلت الورقة في جيبه ترسم صورا لعلاقات جديدة . ظل يرحل مع عصام كل يوم الى السوق ولكن شجارهما قل كثيرا « يبدو ان شيئا ما — جدارا مجهولا — ارتفع فجأة بينه (وبيني) » ، كان يريد أن يجد وسيلة مقنعة يفيد فيها من ورقته الغالية : « **الا أن كل شيء حين يقترب من التنفيذ كان يبدو وكأنه جسر للعودة الى زمن الاشتباك وليس للخروج منه** » كان انفاق ورقة الخمس ليرات عودة الى ازالة الجدار الذي أسكت الاهل والجد وقلل مناظر الشجار مع عصام ، كانت الليرات الخمس في جيب الصغير مفتاحا لباب يفضي الى الزمن الذي سماه زمن الاشتباك ، ولم يكن

يجرؤ أن يفتحه ، كانت عاملا في تغيير « موقف اجتماعي » كأنها ثروة كبيرة هبطت على صاحبها فجأة . وحين دخل الصغير المستشفى بعيد ذلك وصحا من اغماءته تفقد جيبه فلم يجد الورقة النقدية ، حزن لفقدها ، ولكنه كان يعلم أن « عصام » هو الذي أخذها ، فلم يغضب ، اذ جاء دور عصام ليحس بالعلاقة الجديدة كما أحس بها الصغير .

في هـــذه القصة المكثفة استطـــاع غسان ان يبرز من خـــلال النفسيات المتفاوتة تكيف العلاقات وخضوعها لقانون النسبية ، ويبـــدو أن الفكرة راقته كثيرا ، فكتب « ما تبقى لكم » ليدرس فيها العلاقات بين المتصارعين الثلاثة منذ الابـــد ، ولكن على نحو جديد متداخل ، فرسم تشابك العلاقات بين الانسان والارض والزمن ، ليخرج بتلك العلاقات عن قانون النسبية المتأرجح الى المستوى الفكري الفلسفي ، ولكن بمـــا أن الزمن شيء نسبي ، وكذلـــك الاوضاع الانسانية ، فان الحقيقة التي اكتسبت الثبات في القصة هي العلاقة بين الانسان والارض ، لا لان الارض لا يمكن أن تكون نسبية أيضا ، بل لان كلمة الارض بالنسبة لغسان ولكل فلسطيني أصبحت تعني حقيقة ثابتة . ولذلك تجد انه حتى الصحراء تصبـــح في قصة « ما تبقى لكم » أمـــا أو حبيبة ، « لقد وقف فجأة ، نظر الى السماء اولا ثم الى ساعته ، وعرفت انه يفكر مثلهم كلهم : ان عليه قطع أطول مسافة تستطيعها ساقاه الفتيتان قبل ان يبزغ الضوء المبكر ، **وكنت مبسوطة أمامه ، مستسلمة لشبابه بلا تردد ولخطواته وهي تدق في لحمي** ، ولكنه مثلهم كلهم خاف من الانبساط الذي لا نهاية له ، حيث لا تلة ولا علامة ولا طريق » . كانت الصحراء تتعاطف مع حامد وهو يقطع المسافـــة من غزة الى الاردن فلماذا لم تكن متعاطفة مع الفلسطينيين : ابو قيس وأسعد ومروان عندما حاولوا دخول الكويت خلسة سعيـــا وراء الرزق ؟ هنا تبدو لفتة من لفتات قاص ملهم ــ فيما أقدر ــ فان هؤلاء الاشخاص لم يطمئنوا الى عطف الارض ، وانما اطمأنوا الى جوف صهريج حديـــدي يسمى شاحنة ، فماتوا فيه خنقا . ان حامدا ربما لم يصل في النهاية ، شأنه شأن هؤلاء الثلاثة ، ولكنه مات في حضن الارض ، حين قدر له أن يصبح قطعة من الموت .

العلاقة بين الانسان والارض ، علاقة لا تعترف بقانون النسبية ، قد يتغير جزء فيها هنا أو هنالك ، وقد يتطور معنى من معانيها في موقف دون اخر ، ولكنهـــا في حقيقتها تبقى رمزا للثبوت والدوام ، انها تتأتى للمرء عند كل منعطف وفي كل لحظة ، ذلك هو ما يؤمن به أبو قيس أحد أبطال قصة « رجـــال في الشمس » : « كلما تنفس رائحة الارض وهو مستلق فوقها خيل اليه انه يتنسم شعر زوجه حين تخرج من الحمام وقد اغتسلت بالماء البارد . الرائحة اياها ، رائحة امـــرأة اغتسلت بالمـــاء البارد ، وفرشت شعرها فوق وجهه وهو لم يزل رطيبا . . . » (رجال في الشمس : ٨)

وتكتسب العلاقة قيمتها أحيانا من وجهة امتدادها ، فالعلاقـــة بالارض ــ وهي أسمى العلاقات ــ اذا ظلت تتجه نحو الماضي ، استحالت الى رومنطيقية خائرة مع الزمن ، لانها لم تكتسب اتجاهـــا يحملها نحو المستقبل . واذا تعينت ناحية الامتـــداد ، لم يعد الانسان انسانا وانما اصبح احد شيئين : فهو أما « **حالة** » واما « **قضية** » . حين امتد اتجاه الفلسطيني نحو استيطان البلاد العربية لاجئا او نازحا ، أصبح « حالة » في بعض المواقف ، أو صورا من حـــالات : حالة تجارية مثلا لانها تحمـــل قيمة سياحية وقيمة زعامية . . . الخ : « لقد حاولتم تذويبي يا سيدي ! حاولتم ذلك بجهد متواصل لا يكل ولا يمل يا سيدي . هل اكون مغرورا فأقول بأنكم لـــم تفلحوا ؟ بلى ! أفلحتم الى حد بعيد وخارق ، **ألست ترى أنكم استطعتم نقلي ، بقدرة قادرة من انسان الى حالة ؟ انـــا اذن** حالة ، لست أعلى من ذلـــك قط ، وقد أكون أدنى ، ولانني حـــالة ، لاننا حالة ، فنحن نستوي بشكل مذهل ! انه عمل رائع يا سيدي ، عمل رائع جدا رغم انه احتاج الى فترة طويلة ، ولكن يا سيدي ان تذويب مليون انسان معـــا ، ثم جعلهم شيئا واحدا متوحدا

ليس عملا سهلا ولذلك أعتقد انك تسمح له ان احتاج ذلك الوقت الطويل ، لقد افقدتم أولئك المليون صفاتهم الفردية المميزة ولستم في حاجة الان الى تمييز وتصنيف ، انتم الان أمام حالة ، فاذا خطر لكم ان تسموها لصوصية فانهم لصوص . . . خيانة ؟ كلهم اذن خونة » (ارض البرتقال الحزين : ١٥ — ١٦) .

أما اذا كان الامتداد نحو الارض المحتلة فان الانسان يصبح « قضية » ، ولعل هذه الفكرة هي التي سيطرت على غسان حين كتب قصته « عائد الى حيفا » ، فهي قصة محـــاكمة للعلاقات والروابط ، واقعية الاطار ، رومنسية العقدة : أب وأم هربا من حيفا مخلفين طفلهما الوحيد « خلدون » حينئذ ، وبعــد أن أصبح دخول الارض المحتلــة ميسرا بعد احداث عام ١٩٦٧ عادا في الظاهر ليريا حيفا وبيتهما فيها ، ولكنهما في الواقع كانا يبحثان عن ابنهما ، فوجداه باسم دوف ، ينتمي الى امرأة يهودية تبنته وربته حتى أصبح جنديا في الجيش الاسرائيلي ، وقد حاولت السيدة التي تبنته أن تتفهم موقف الوالدين الحقيقيين فعرضت عليهما أن يترك « دوف » حرا يختار الانتماء ، وهنا يتجلى لعيني الوالد واسمه « سعيد » أن رابطة الدم ليست الا حقيقة عارضة : « أي خلدون يا صفية ؟ أي خلدون ؟ أي لحم ودم تتحدثين عنهما ؟. . . لقد علموه عشرين سنة كيف يكون ، يوما يوما ، ساعة ساعة ، مع الاكل والشرب والفراش . . . » (عائد الى حيفا : ٥٦) . وهنا أيضا يكتشف سعيد أن ترك الابن لا يختلف عن ترك البيت وترك المدينة ، فهو قد كان يشعر أن حيفا أنكرته وتجهمت في وجهه وهو يدخل اليها ، كما أنكره بيته حين دخله ، رغم انسياقه وراء الدقائق الصغيرة التي كانت تربطه بذلك البيت ، وقياسا على ذلــك فان « خلدون » أو « دوف » سينكره أيضا ، وهكذا كان ، ولكن بعد أن ألقى « دوف » على أبيه العــربي « أن الانسان في نهاية الامر قضية » ، وتجد هذه المقولة صداها لدى سعيد : ولكن اذا كان الانسان قضية فلم جـــاء سعيد يبحث عن ابنه ؟ ويكون جوابه على ذلــك « لست ادري ، ربما لانني لم اكن أعرف ذلك » . وقد استغرب « دوف » كيف يترك أبوان ابنهما ويهربان ثم يجد هذا الابن من هو ليس أمه وليس أباه ليحتضناه ويربياه عشرين سنة ، ويقرر أنه لا يشعر ازاء أبويه الحقيقيين بأي شعور خاص . ولكن سعيدا الذي أحس أن رابطة الدم قد اذلته الى هذا الحد ، زعم لدوف أن ابنه خالدا قد التحق بالفدائيين وأن جولته قد تكون ضده في معركة قادمة . كذب على نفسه ، اذ أن خالدا لم يكن قد التحق بالفدائيين بعد ، ولكنها كانت كذبة مريحة ، كانت العلاقة بالماضي عاره ، فكان يريد أن يمد خيوط علاقة نحو المستقبل . ولاول مرة نجد أن الصدمة القوية قد هزت أحد أبطال غسان من الاعماق وردته الى ان يتساءل : ما معنى الابوة ؟ الانسان قضية : أية قضية ؟ ما معنى الوطن ؟ « أهو هذان المقعدان اللذان ظلا في هذه الغرفة عشرين سنة ؟ الطاولة؟ ريش الطاووس ؟ صورة القدس المعلقة على الجدار ؟. . . » (نفسه : ٨٣) .

وكأن قصة سعيد وزوجه وابنهما لم تكف غسان في محاكمة الروابط والعلاقات ، وخاصة رابطة الدم ، فعرضها ازاء قصة أخرى عن فارس اللبدة الذي عاد ليرى بيته في يافا ، فوجد عربيا اخر يسكنه من يافا نفسها ، ولما تفحص البيت وجد كل شيء فيه على حاله ، وخاصة صورة أخيه بدر الذي سقط شهيدا في معارك ١٩٤٨ ، وكان الساكن الجديد قد احتفظ بها ، بل لعله استأجر البيت ، كما يقول ، من أجلهـــا : « وحين شهدت الصورة وجدت فيها سلوى ، وجدت فيها رفيقا يخاطبني ويتحـــادث الي ويذكرني بأمور أعتز بها وأعتبرها أروع ما في حياتنا » (نفسه : ٦٥) ولما رزق أول طفل سماه « بــدر » باسم صاحب الصورة ؟ وفي لحظة شعور برابطة الدم طلب فارس اللبدة أن يأخذ صورة أخيه معه ، فأذن له بذلك الساكن الجديد ، ولكنه ما كاد يجتاز القدس ذاهبا الى رام الله حتى انتابه شعور مفاجيء بأن لا حق له في تلــك الصورة ، فعاد أدراجه الى يافا ، وأرجعها الى من هو أحق بها ، كانت الصورة رابطة اقوى من رابطة الدم للناس الذين عايشوها

ونعودوا النظر اليها ، ووصلوا صباحهم ومساءهم بها ، ولهذا قال الرجل لفارس : « شعرت بفراغ مروع حين نظرت الى ذلك المستطيل الذي خلفته على الحائط ، وقد بكت زوجتي ، وأصيب طفلاي بذهول ادهشني ، لقد ندمت لاني سمحت لك باسترداد الصورة ، ففي نهاية المطاف هذا الرجل لنا نحن ، عشنا معه وعاش معنا وصار جزءا منا » (نفسه : ٦٧) .

في « عائد الى حيفا » بلغت مشكلة الروابط والعلائق قمتها ، أو نهايتها ، لدى غسان ، على المستويين النظري والتطبيقي ، ومن ثم تحولت بأجزاء كثيرة من القصة فجعلتها حوارا أو دفاعا عن موقف ، وختمت على نحو سافر ، ما كان تمرسا مواربا بالمشكلة من قبل . وقد يخطر لمن يقرأ قصصه أن يتساءل : ترى لماذا لم يلتفت كثيرا الى علاقات أخرى كثيرة مثل العلاقات الزوجية ، والعلاقات الجنسية عامة ، والعلاقات المذهبية ... الخ ، فان تعليل هذا الازورار أو المجافاة يحدد العالم الذي كان يروده ، ومن ثم يحدد الغايات التي كانت تشغل ذهنه من حيث هو فنان ملتزم . ولا ريب في أن انشغاله بالانسان كان يصرف ذهنه الى جوانب النشاط الانساني ، على ظهر الارض ، من خلال متطلبات القوة أو العجز الانسانية ، أتراه لهذا وحده لم يحاول ان ينشيء جسرا يصل بين الارض والسماء ؟ ان الاجابة على هذا السؤال قد تتضح بعض جوانبها بالرجوع الى موقفين : أولهما ورد في « أرض البرتقال الحزين » حيث يصور شعور طفل يحس بالتشرد وضياع الوطن لاول مرة : « بل انني انا ايضا الطفل الذي نشأ في مدرسة دينية متعصبة ، كنت ساعتذاك أشك في أن هذا الله يريد ان يسعد البشر حقيقة ، وكنت أشك في أن هذا الله يسمع كل شيء ويرى كل شيء ... ان الصور الملونة التي كانت توزع علينا في كنيسة المدرسة ، والتي كانت تمثل الرب يشفق على الاطفال ويبتسم في وجوههم ، بدت هذه الصور كأنما هي الاخرى أكذوبة من اكاذيب الذين يفتحون مدارس محافظة كي يقبضوا اقساطا اكثر ... لم أعد أشك في أن الله الذي عرفناه في فلسطين قد خرج منها هو الاخر ، وانه لاجيء في حيث لا أدري ، غير قادر على حل مشاكل نفسه ... » (أرض البرتقال : ٩١ — ٩٢) من هنا اذن تبدأ المشكلة ، ويأخذ الجسر القائم بين الارض والسماء بالاهتزاز ، وأما الموقف الثاني فقد ورد في « رجال في الشمس » حيث نسمع أبا الخيزران الذي قام بتهريب الجماعة في سيارته يصرخ بمثل هذه الاقوال : « يا الهي العلي الذي لم تكن معي ابدا ، الذي لا أؤمن بك أبدا ، أيمكن أن تكون هنا هذه المرة ؟ هذه المرة فقط ؟ » (ص : ٧٩) « يا لعنة الاله العلي القدير عليك ، يا لعنة الاله الذي لا يوجد قط في أي مكان تنصب عليك يا أبا باقر ... » (ص : ٩٦) ، وقد كان من الممكن أن نعد مثل هذه الصيحات وليدة أزمة عابرة ، أو نلصقها بأبي الخيزران نفسه ونعدها ملائمة لحاله ، لولا أن القاص عاد الى مشكلة العلاقة بين الله والانسان وخصص لها مسرحية كاملة هي « الباب » ، ولكن انتزاع الامثلة من هذه المسرحية قد يسيء الى فكرة غسان في لبها ، وهي بحاجة الى دراسة مستقلة ، تضعها تحت ضوء صحيح . ولهذا — فيما ارجوه — موضع اخر .

غسان والموت

بلال الحسن

لم يكن سهلا علي أن أرثي غسان ، ولذلك لم افعل .

كنت لسنوات قريبا منه الى حد تبدو معه فرقة الموت بعيدة عن مستوى الادراك . ومنذ اللحظة الاولى التي سمعت فيها نبأ مصرعه تجسد أمامي عالم الموت كما كان يعيشه غسان متغذيا من نبعين متناقضين :
نبع الحب الجارف للحياة الذي كان يسيطر على كل خلية فيه . ونبع أحاسيس الموت الرتيبة التي كان ايقاعها متداخلا في كل ثانية من حياته .

كان حبه الجارف للحياة يسلط على ايقاعات مرضه عيونا ذات قوة ابصار لا تحد ، فيرى في تلك الايقاعات ما لا يراه غيره . وربما لذلك كان يرتد الى نفسه محملا بمزيد من الحب للحياة ، بدلا من راحة الاستسلام المدمرة تلك . وباستمرار كان النبعان يتغذيان من بعضهما البعض ، يتجاذب خطاهما المتوازيان كالايحاء .

اذكره في نهاية عام دراسي في الكويت ، مع بدايات القيظ المحرق وهو يستعد للرحيل الى دمشق . كان دائما نحيل الجسم ، ولكنه في تلك الفترة بالذات أخذ يهزل بصورة متواصلة . كنا نغيب عنه يوما او يومين ، ثم نفاجأ أنه قد هزل فيهما بصورة ملحوظة . وبروح حادة من النكتة ، كان يقبل على الطعام بنهم ليعوض هزاله . يأكل في كل ساعة من النهار ، ويبقى منهمكا باحساس الجوع . وحين قرر الذهاب الى الطبيب عاد ليقول انه مريض بالسكر ، وأن كل الطعام الذي كان يتناوله كان يقربه من الموت . وبدت روح النكتة التي كان يحيط وجبات طعامه المتلاحقة بها كأنها جرس الموت يقرع فوق رأسه . وكان يسمع صوت ذلك الجرس يدوي حتى عظامه ، ثم يندفع الى الملعب يشارك تلاميذه العابهم المنهكة بحماس لا حدود له .

واقترب من الموت مرة أخرى في بيروت . كان يعمل في مجلة الحرية . وكعادته دائما ، كان يغرق في العمل حتى آخر لحظاته . كان الغرق في العمل احدى السمات البارزة في حبه الجارف للحياة . وفي حمى العمل نسي أن يحقن نفسه ابرة الانسولين . ولم تكد تمضي ساعات قليلة ، حتى سقط فوق أرض المطبعة . ونقله أصدقاؤه الى المستشفى ، حيث تناول علاجه ، وخرج ليعمل في اليوم التالي مباشرة ، بالحماس نفسه وبالعجلة نفسها التي اقترب فيها من الموت .

ومرة ثالثة في القاهرة ، كنا نحضر المؤتمر الثاني لاتحاد الصحفيين العرب . خرجنا من الفندق على عجل لنحضر اجتماع عمل للوفد الفلسطيني ، وطال الاجتماع أكثر مما كان غسان يتوقع . لم يتناول افطاره ، وفات موعد طعام الغداء . وحين انتهى الاجتماع امسك بيدي ونحن ننزل الدرج وقال : أشعر بدوخة ، يجب أن اتناول طعاما بسرعة . ولم يستطع الصمود . جاءته الصدمة وهو في الشارع ، ونقلته مغمى عليه الى المستشفى . ومن قلب عالم الاغماء كانت شفاهه الواهنة تتكلم . تحدد نوع الابرة

المطلوبة وكميتها . وحين عولج واستيقظ سألني ان كان تكلم أي شيء . فأخبرته . حين تكلم لم يكن يعي أي شيء على الاطلاق . كان حب الحياة الكثيف في اعماقه يعبر عن نفسه من خارج عالم الوعي .

لقد دفعت هذه المعاناة بغسان الى معايشة احساسات الموت بشكل دائم . لذلك لم يكن الموت بالنسبة له قلقا انسانيا فحسب . لم يكن عذابا فكريا يحل اشكالاته بالعقل البارد ، كما أنه بسبب اقترابه الشديد منه كف عن أن يصبح تساؤلا وجوديا . كان الموت قريبا باستمرار . يعيشه .. يكتب عنه ... واخيرا يمارسه .

لقد عاش حياته .. تماما كما أراد . الحياة والموت فيهما خطان متوازيان التقيا اكثر من مرة ثم افترقا ، وحين التقيا مرة أخيرة ، لم يدفع أمامنا موته ، انما دفع أمامنا زخم حياته نفسها .

. . . .

هذا العالم الشخصي للكاتب ، المشبع برؤى الموت ، هل يمكن فصله عن عالمه الفني ؟ الفصل دائما ، خاصة أمام عالم الموت الذي يطرح نفسه على التجربة الانسانية بكثافة ، أمر يبدو مستحيلا . ثمة أدباء دفعوا أنفسهم دفعا أمام تجربة الموت ليكتبوا عنها . وحين يتداخل العالم الشخصي للكاتب مع عالمه الفني ، تبرز أولى المشكلات ، مشكلة الاغراق في « الذاتية » هذه المشكلة القادرة على افساد أي عمل فني مهما كان صاحبه موهوبا . وبمقدار ما يستطيع الكاتب أن يتفلت من هذه الذاتية ، طارحا تجاربه بمنظار يخص الآخرين اكثر مما يخصه ، بمقدار ما يستطيع أن يلج آفاق الفن الرهيبة . وهنا كان غسان الاديب ، قادرا على ذلك ، في هذه القضية بالذات ، قضية الموت ، لا بسبب موهبته الفنية ، (ونحن هنا لا نناقش هذه الموهبة) ، بل لان الموت لم يكن بالنسبة له مغامرة تعاش ، أو أحاسيس نادرة تقتنص ، بقدر ما كان معششا في نسيج حياته الشخصي ، بصورة جعلت منه شيئا اليفا ، حتى ولو كان مرعبا ، وهذه الالفة هي التي مكنت غسان ان يتخطى الذاتية الى حد كبير في معالجته لقضية الموت ، وأن يطرحها جزءا من نسيج العمل الفني ، دون ان تفرض عليه من الخارج على الاطلاق .

كيف يتم تخطي الذاتية ؟ حين يصبح العالم الفني للكاتب تكميلا واعيا للتجربة الشخصية . يتخطى في هذا التكميل عملية النسخ ، والتصوير الفوتوغرافي ، والانعكاس المباشر للتجارب ، مخضعا الاستفادة من التجربة الشخصية ، لمقتضيات البناء الفني نفسه . فكيف بلور غسان ذلك في كتاباته ؟

الموت ذكريات

لقد شكلت القضية الفلسطينية النسيج الاساسي لكتابات غسان ، وكان عالم الموت متداخلا بكتاباته عن هذه القضية بشكل متواصل . وحسب نوع المرحلة التي كان يكتب فيها عن القضية الفلسطينية ، كان نوع من الموت ينبثق منها ، نوع يعبر عن طبيعة رؤيته لتلك المرحلة وينسجم معها .

ففي عدد من قصصه القصيرة ، كتب غسان عن فلسطين الماضي ، فلسطين كما عرفها في ذكرياته ، وكما التقطها من ذكريات الآخرين ، فلسطين النضال والهزيمة . وهنا جاء عالم الموت في هذه القصص التي تخص الماضي ، عالم ذكريات . ولان هذا الماضي مشبع بالهزيمة ، كان موته جامدا باردا يملأ النفس بالقشعريرة .

وقد كتب غسان قصصه عن ماضي فلسطين وهو يضع دائما حاجز الزمن بينهما ولم يحاول مرة واحدة أن يتخطى هذا الحاجز الزمني فيكتب مستعملا فعل الحاضر ليروي معاناة معاشة ، بل هو يكتب دوما عن معاناة انتهت ، يكتب عن جيل آخر قاتل وضحى

وانهزم . ولا زال يرمي من خلف السنين ظله علينا . والصورة التي يثبتهـا عن جيل الاغتراب هي صورة الاحساس بالخجل أمام تضحية الآخرين ، ثم صورة المعاناة من أجل أن نكون أوفياء لذكراهم ، لينتهي الى تثبيت فكرة التضحية بالحياة مـن أجل اسعاد الآخرين .

ونحن نلمس هذه المظاهر التي ذكرناها في مجموعته القصصية الاولى « موت سرير رقم ١٢ » ففي « البومة في غرفة بعيدة » ينبثق الماضي من صورة البومة المعلقـة على حائط الشاب الاعزب في الكويت . تكلمه وتقول « لقد تقابلنا مرة قبل الآن . . . أتذكر ؟ » . وهو اذ يتذكر يتذكر « وجه البومة المتحدي لضغط لحظة ليس فيها سوى الاختيار بين الموت والفرار » . وهذه الذكرى تأتيه بعيداً عن قريته التي « كانت تعبق برائحة البطولة والموت » . بدون اي انتصار ، وبعيدا عن الانتصار يصبح الموت صنو البطولة ، دون اي وسيط بينهما .

وفي جانب آخر من تذكر عالم الموت في بلاد الاغتراب ، ينبثق احساس الخجل . ففي « شيء لا يذهب » يتذكر ليلى التي ماتت وهي تسهم في الدفاع عن حيفا قائلا « لم اكن قط أستحق ليلى . . كانت أحسن مني بكثير ، كنت جبانا اخاف من الموت . . ورفضت أن أحمل سلاحا كي أدافع عن حيفا » . وتزداد كثافة هذا الخجل أمام ايمان ليلى العميق بالتضحية فقد « كانت تتعذب في سبيل أن تفهمني أن حياتنا ليست شيئا ، وانها تبلغ ذروة قيمتها لو قدمت من أجل سعادة آلاف غيرنا » . وفي ظل هـذا الاحساس بالخجل تبرز شواهد القبور « مغروسة في التـراب كالقدر . . باردة ، قاسية ، ولا تذبل » .

وفي عالم الذكريات هذا تبدأ المعاناة . تبدأ اولا من خلال الذكريات . فبعد اثنتي عشرة سنة من موت صديقه ابراهيم يكتب قائلا « لقد كان عهدي لك أن أحمل الى قبرك في كل منتصف أيار بعض أزهار الحنون فأنثرها فوقه . . وها قد وصل أيار دون أن أجد ولو زهرة حنون واحدة . . ولو وجدتها . . فكيف لي أن أصل الى قبرك كي أعطيكها ؟ » . وهذا العجز عن الوصول الى القبر بعد اثني عشر عاما من الوعد يجعل من منتصف أيار شيئا كالكابوس « يضغط على صدري وكأنه قدر مجنون ، اخطأ ذات مرة ، فقتلك بدل أن يقتلني » .

هذا الصديق المقتول كيف يبدو موته من عالم الذكريات المهزومة ؟ انه يتفتت ويتلاشى ويكاد يضيع « فكما أنت تغور الى أعماق الارض وتتفتت ، فأنت أيضا تغور في ذاكرتنا ، وتتلاشى . ملامحك ، حتى ملامحك ، لم أعد أذكرها جيدا . . أما صوتك فلست أعرف كيف كان . . عيونك ، لم أعد أذكر كيف كان بريقها . . ويصعب علي طويلا أن أتصور حركتك . . كل الذي بقي منك في ذهني : جسد جامد » .

الموت هزيمة

بعد عالم الذكريات تأتي الحقيقة المرة ، حقيقة الهزيمة المعاشة بكل الذل الذي يرافقها . ومع عالم الهزيمة يتبدل عالم الموت . ومنذ اللحظة الاولى يزول حاجز الزمن ، ويتحول الموت الى قضية معاشة ، تأخذ الوانا وانماطا مختلفة ومتعددة كالحياة نفسها . وبدلا من أن يكون الموت صنوا للبطولة ، يصبح تعبيرا عن اليأس ، أو عن خطأ الاتجاه . وهو في النهاية أمر لا بد من تخطيه بعد أن كان تجسيدا للتضحية .

قصة « كعك على الرصيف » تتحدث عن أطفال يلفقون قصص الموت ، من أجل اخفاء خجل حياتهم وذلها . فالاب — يقول الصغير — مات ، حتى لا يضطـر الى القول انه مجنون يضرب في الشوارع على غير هدى . والام — يقول الصغير — لم تمت ، حتى لا يعرف السر أحد فيضطر أبوه الى دفع رسوم الدفن وهو لا يملكها . وخلف هذا العالم

من الموت الملفق ، يختفي الموت الحقيقي الذي لا يستطيع الصغير أن يتكلم عنه قبل ان يتخلص من اكاذيبه. وحين يبرز هذا الموت الحقيقي تزول عنه البرودة والجمود المرتبطان بذكريات الماضي ، ليتبلور موت مأساوي .. حزيـن .. ومجاني . فشقيقه — يقول الصغير — قطع المصعد رأسه فمات .

ويبلغ هذا الموت المجاني ذروته في قصة قصيرة أخرى بعنوان « لؤلؤ في الطريق » ، حيث « الذين أتوا من بعيد كي يعيشوا ، فماتوا من فرط ما تاقوا الى العيش » ، وسعد الذي يبحث عبثا عن عمل في الكويت ، كان واحدا من هؤلاء . وقبل أن يقرر الاستسلام نهائيا ويتخذ قرارا بالعودة الى حيث يقيم ، يجرب مغامرته الاخيرة ، ولا تكون هذه المغامرة سوى ضربة حظ ، يجلس فيها أمام بائع المحار عله يعثر على لؤلؤة فيه « وفجأة التمع في العينين الملهوفتين بريق راعب ... كان يحدق في المحارة ، وكنت أحدق في وجهه ، ثم وقبل أن أدرك شيئا ، سقط سعدالدين على وجهه في الوحل ، وعندما حاولت رفعه ، وجدته ميتا » . وهكذا يقود عالم الهزيمة دائما الى الموت ، وهو لا يكتمل الا بها . وهو يأتي سواء كان باب الامل مفتوحا أم مغلقا ، فلا أحد يدري لماذا مات سعد . « هل كانت ، ثمة ، لؤلؤة داخل تلك المحارة الاخيرة الملعونة فمات فرحا ، أم كانت فارغة كاخواتها العاقرات ، فمات غما ؟ » .

ويقف الموت حاجزا نفسيا أمـــام الاتصال الانساني بين الفلسطينيين ، فالشاب الذي يخفي في قصة « الافق وراء البوابة » موت اخته عن امه المقيمة في الارض المحتلة ، لا يستطيع أن يذهب لرؤيتها عبر بوابة مندلبوم في القدس . وحتى حين يصل الى المدينة يتردد في البقاء ثم يعود دون أن يقابلها ، وهو لا يستطيع أن ينجز هذه المهمة الا حين يتخذ قرارا حاسما بأن يصارحها الحقيقة .

ولكن ذروة معالجة غسان لقضية الموت في ظل عالم الهزيمة ، انما يصل اليها في روايته الاولى « رجال في الشمس » . فهو اذ يصور هنا عالم الفلسطيني اللاجىء المليء بالذل والمرارة والجوع ، والمحاولات المبذولة من أجل تخطيه ، يضعنا وجها لوجه أمام الموت الفاجع ، ليبرز لنا بوضوح مفهومه لخلاص الفلسطيني ، هذا الخلاص الذي لا يمكن ان يأتي عن طريق الوصول الى لقمة العيش عبر الصحراء التي تنتهي بالكويت . وما دام السعي يتم في هذا الاتجاه ، فان الموت يضع حدا لهذا الامل ، وما دام هذا الامل ينتهي بالموت فهو أمل كاذب ، لانه يستحيل ايجاد مخرج مـــن خلال القبول بواقع الهزيمة والتسليم به ، ولذلك تنتهي الرواية بذلـــك التساؤل البسيط الذي يضج في رأس أبي الخيزران « لماذا لم يقرعوا جدران الخزان ؟ » . واذا كان الخزان رمزا للسجن الكبير الذي يعيش فيه الفلسطيني في عالم التشرد ، فان الخروج من هذا السجن لن يتم الا بقرع جدرانه في محاولة للخروج منها . ولو أن هذه الجدران قد قرعت ، لكان من الممكن تخطي الموت والوصول الى الخلاص . أما حين يبقى الصمت مخيمـــا فان الموت هو النتيجة المحتومة . وبهذا يكون المطلوب عملا في الاتجاه الصحيح من اجل تخطي الموت ، بينما كان العمل في الاتجاه الصحيح في عالم التذكر لفلسطين الماضي ينتهي بالموت كتتويج لارادة التحدي . الموت هنا يعني الفناء ، والموت هناك « أن تبلغ الحياة ذروة قيمتها » .

من قلب عالم الهزيمة تبدأ قضية الفلسطيني تتمخض عن ولادة جديدة ، ونجد في قصص غسان تصويرا دقيقا لعملية المخاض هذه . وصورته لعالم الموت في عمليـــة المخاض تتخطى كونها نهاية او تتويجا للحياة نفسها ليصبحا مفهومين متداخلـــين ينموان مع بعضهما البعض . أحيانا تنبع الحياة من الموت . وفي أحيان أخرى لا تنطلق الحيـــاة في وجهتها الصحيحة ما لم تقض بالموت على كل ما هو رمز للاستسلام ، حتى يمكن ان يولد في النهاية مستقبل افضل . وهنا يكف الموت عن تقديم نفسه ببرود ، كما أن الموت الحزين والمجاني لا يعود له وجود ، فالموت الذي يهيمن هنا هو جزء من الحياة نفسها .

وتشكل قصة « الاخضر والاحمر » تعبيرا حيا عن مفهوم الموت في عالم المخاض هذا . وهي تروى بضمير المجهول لانها لا تخص أحدا بالذات ، بل تخصنا نحن جميعا . ومنذ بدايتها تسيطر الحياة على كل شيء « كل الطريق كانت تطبق بحياة بكر كأنها خلقت لتوها ، كأن الله صنعها فحسب ليتنشقها ، وليتركها تغسل صدره مثل شلال من الريش » . ولكن هذا العالم المشبع بأحاسيس الحياة عالم ناقص ، والموت هو المعادل الاساسي له « قالوا له مرة ... أن الحياة لا قيمة لها قط ان لم تكن ، دائما ، واقفة قبالة الموت » . ولكن موت المخاض حين يأتي ، يأتي مفعما بالامل ، فقد « أحس دبيب الموت ، الا أن أيار كان ضخما وكان كبيرا ، وكان قد صبغ الطريق بالخضرة » . ثم يموت في النهاية ، ويأتي الموت كأنما هو شيء أسطوري بعيد عن تفاصيل الموت وأساليبه المعروفة . ثم تستمر الاسطورة كعادتها الى ما بعد الموت « ذلك انه في المكان الذي سقط فوقه الجبين ، في الحفرة المدورة التي صنعتها السقطة ، ولد طفل صغير » . ويحوم حول الاسطورة عالم التنبؤات ، اذ الكل يتساءل عن هذا الطفل الصغير وكيف ولد . فهناك من يقول « انبثق من الجبين بعد أن انضجه التراب الساخن الرطيب » . وهناك من يقول « كان موجودا في التراب أصلا فأيقظته السقطة » . ثم هناك من يقول « أن الطفل انبثق من العينين ، لفظته العينان مثلما يلفظ الرحم المترع الوليد .. وأن في عين كل رجل يقتل ظلما ، يوجد طفل يولد في نفس لحظة الموت » .

وقد عاش هذا الطفل الوليد سنوات غائصا في التراب مسحوقا تحت الاقدام ولم يكن يشعر بوجوده احد سوى الموت « الموت الذي ذبح أباه بأظافره عند منعطف أيار قبل سنوات وسنوات كان يعلم ان الوليد الاسود موجود في مكان ما تحت تلك الارض » . وأنه يكبر باستمرار ، يكبر من أجل أن يكون « ندا قبل أن يموت » . وهكذا تولد الحياة من رحم الموت . ويصبح للحياة هدف قبل أن تنتهي ، حيث الموت خاتمة طبيعية ، يأتي بعد أن يكون الانسان قد أصبح ندا .

وتمثل رواية غسان الثانية « ما تبقى لكم » تجسيدا أوضح لعالم المخاض الفلسطيني ، ينطلق فيها حامد ، في محاولته لان يصبح ندا ، ليقطع الصحراء ويتصل بأمه . ومنذ تلك اللحظة يكون في مواجهة دائمة مع الموت ، يتنفسه مع هواء الصحراء ، ويشمه مع ترابها ، ثم يصطدم به وجها لوجه ، حين يفاجأ بجندي اسرائيلي تائه يفتش عن رفاقه . وتكون مواجهة حامد للموت الطريقة الوحيدة للنجاة بحياته . أما زوج أخته زكريا الذي ارشد جنود الاحتلال الى سالم قائد المقاومة لينجو بجلده من القتل ، فقد واجه موقفين حرجين . الموقف الاول حين خرج سالم من الصف وسار مع الجنود ، بعد ان « التفت الى زكريا وشيعه بنظرات رجل ميت باردة وقاسية وتعلن عن ولادة شبح » . والموقف الثاني ، حين طعنته زوجته ، اخت حامد ، بالسكين بينما كانت خطوات حامد « تدق فوقه مكوما هناك قطعة من الموت » . وهكذا تتبلور ثلاثة عناصر وتتشابك مقدمة عالم المخاض الفلسطيني بكل أبعاده : حامد الذي قرر أن يصبح ندا وعاش في مواجهة الموت. وسالم الذي مات أمام الناس ومن أجلهم ، وكان موته ايذانا بولادة شبح . وزكريا رمز الاستسلام الذي يشكل موته ضرورة حتى يولد شبح سالم ، وينجح حامد في مهمته . وفي داخل هذه العناصر الثلاثة ، يكف الموت عن ان يكون راحة المقاتل قبل ان يهزم ، كما يكف عن ان يكون موتا راعبا مجانيا . وهو اذ يأتي ، يأتي محملا بالولادة ، يأتي كجزء من الحياة ، يحمل في أحشائه امكانية تكميلها وتفجيرها. وحين لا يكون كذلك ، يزيل العقبات من أمامها .

وحين تكتمل عملية المخاض الفلسطيني وتبدأ الانطلاقة ، ينتهي حديث غسان عن الموت وكأنه قد تلاشى . وبدلا من عالم الموت بكل تنوعاته يطل عالم آخر يشكل العطاء قيمته الاساسية . ومن خلال هذا العطاء يتعمق التعاضد الانساني ، وتمتلىء ذات كل فرد

بشعور من الاحترام الداخلي الذي احتل مكان احاسيس الذل والمرارة ، وللمرة الاولى تعود العلاقات الانسانية الى دفء حنانها القديم ، ورواية « ام سعد » هي التي تحكي عن ذلك كله .

وام سعد راوية مفعمة بالتفاؤل ، ولكنها تبقى مع ذلك مشدودة الى تشنجات الحياة في المخيمات بشكل يحمي هذا التفاؤل من أن يقع في هوة السذاجة . ولذلك ، فحين يختفي حديث الموت ، ويبرز عالم التفاؤل ، تبقى المعاناة بكل أشكالها قائمة ، وهي التي تجعل من التفاؤل ارادة العمل للمستقبل ، وليس مجرد الحلم به .

في قصته القصيرة « أبعد من الحدود » يقول غسان « اية حياة هذه ! الموت افضل منها ، ثم مع الايام يبدأ بالصراخ : أية حياة هذه ، الموت افضل منها . والصراخ يـا سيدي عدوى ، فاذا الجميع يصرخ دفعة واحدة : اية حياة هذه ، الموت أفضل منها . ولان الناس عادة لا يحبون الموت كثيرا فلا بد ان يفكروا بأمر آخر » . وقد فكروا بالثورة ، حيث يغيب الموت المجاني ، وحيث الموت الوحيد الباقي هو موت سالم ، الموت الذي يؤذن بولادة شبح .

لقد تحدثنا عن الموت حتى الآن ، من حيث ارتباطه بالقضية النضالية باعتبار ان هذه القضية شكلت المحور الاساسي لكتابات غسان . ولكن لقضية الموت اضافة الى ذلك مفهومها النظري لدى الكاتب ، ومع ان هذا المفهوم النظري لا يمكن فصله عما سبق ، الا أنه يبقى بالرغم من ذلك محتفظا بخصوصية لا يمكن تجاهلها .

وفي هذا الميدان ، فان ما يمكن ملاحظته بوضوح ، أنه بالرغم من أن فكرة الموت تتغلغل في كتابات غسان كافة ، الا انها كانت دائما جزءا من مأساة الحياة نفسها ، ولم تمكن الا نادرا قضية تطرح نفسها بصورة فكرية . ففي « موت سرير رقم ١٢ » يكتب الى صديقه الذي كان يستعمل كلمة الموت للتدليل على التطرف قائلا « انني أريد أن أتكلم عن الموت ، عن موت يحدث أمامك لا عن موت تسمع عنه . ان الفرق بين هذين الطرازين مـن الموت فرق شاسع لا يستطيع ان يدركه الا من يشاهد انسانا يتكمش بغطاء سريره بكل ما في اصابعه الراجفة من قوة ، كي يقاوم انزلاقا رهيبا الى الفناء » ، فهو هنا يعطي الاولوية بوضوح لتجربة الموت المعاشة ، وليس لمعانيها وتشعباتها الفكرية . ويؤكد ذلك بوضوح أكبر في القسم الاخير من القصة نفسها حين يقول « ان قضية الموت ليست على الاطلاق قضية الميت ، انها قضية الباقين ، المنتظرين بمرارة دورهم لكي يكونوا درسا صغيرا للعيون الحية » ، فما يهم من الموت هو الدرس الذي يتعلمه الاحياء من الميت نفسه . وحتى حين يقول « ان علينا ان ننقل تفكيرنا من نقطة البدء الى نقطة النهاية . . . يجب أن ينطلق كل تفكير من نقطة الموت » يتوقف بسرعة ليقول « دعنا من صب الماء في كيس مثقوب » ، ويعود ليتابع الحديث عن « حياة » محمد علي أكبر ، الرجل الذي مات . أما لحظة الموت نفسها ، فهي محاطة عند غسان باستمرار بجو احتفالي مهيب ، كأنما هي طقس كنسي . ففي احدى المعارك يسمع غناء الرجال « كأنه يتصاعد مـن عالم آخر ، عالم يموت فيه الانسان وهو يعض على بقية الاغنية الحلوة ، ثم يتمها هناك . . في السماء » . وحين يكون ابراهيم أبو ديه على فراش الموت يطلب من رفاقه ان يسمعوه نشيد موطني « ووقف الرجال الثلاثة ينشدون له النشيد ، وهم يبكون ، بينما كان هو يموت » . وحين تنتهي لحظة النزال يكون الموت « قد وصل ، وسمعه يمشي فتخفق خطواته بالاناشيد البعيدة » . وهذا المفهوم الاحتفالي للموت ، يربطه مرة أخرى بمفهوم الانسان الحي عنه ، حيث يحيطه بنوع من التقديس ، كي لا يجعلـه عرضة للبحث والتنقيب وفضول المتطفلين .

وهكذا نجد في النهاية ان مفهوم غسان النظري للموت ، لا يختلف في بنيته عن عالم الموت المرتبط بالقضية النضالية التي يكتب عنها ، فهو في الحالتين يغرف من نبع نفسي واحد .

عالم القضية الفلسطينية
في أدب غسان كنفاني

أحمد خليفة

في نهاية مجموعة قصص « عالم ليس لنا » (دار الطليعة ١٩٦٥) قصة قصيرة بعنوان « العروس » مكتوبة في عام ١٩٦٥ كان غسان كنفاني يعتز بها بصورة خاصة ، كما يؤكد التعريف بالمؤلف الوارد في نهاية رواية « ما تبقى لكم » (دار الطليعة، ١٩٦٦ ، ص ٧٧). ان التعريف لا يذكر لماذا كان المؤلف يعتز بها بصورة خاصة ، ولكن الدارس لادب غسان كنفاني ، الباحث عن انعكاس القضية الفلسطينية فيه، يستطيع أن يغامر قليلا — ان القصة ، فضلا عن مستواها الفني الجيد ، كانت تحتضن في الحقيقة البشارة بولادة الانسان الفلسطيني المقاتل من جديد . ولكي ندرك جيدا قيمة هذه البشارة بالنسبة لكاتب مثل غسان كنفاني ، وتأثيراتها في ادبه ، لا بد لنا أولا من تقديم عالمه الفني الفلسطيني قبل عام « العروس » ، ١٩٦٥ . ان عالم غسان كنفاني الفني الفلسطيني لم يكن طوال الوقت ، منذ ان بدأ يبنيه لبنة فلبنة حتى استشهاده في تموز الماضي ، عالما ساكنا . ان ثمة انقلابا كبيرا يحدث في هذا العالم ، موازٍ في الحقيقة للانقلاب الذي كان يحدث داخل عالم الشعب الفلسطيني ذاته على أرض الواقع ، بحيث يمكن القول أن أدب غسان كنفاني كان دائما بمثابة المرآة الامينة التي عكست صورة وحركة الشعب الذي كان منه وله طوال حياته ، واستشهد في النهاية من أجله .

عالم غسان الفلسطيني قبل عام البشارة

عالم غسان كنفاني الفني الفلسطيني قبل عام ١٩٦٥ قائم على خمس عشرة قصة قصيرة موزعة في المجموعتين « أرض البرتقال الحزين » (الاتحاد العام لطلبة فلسطين ، ١٩٦٣) و« موت سرير رقم ١٢ » (مكتبة منيمنة ، بيروت، ١٩٦١) ، ورواية «رجال في الشمس» التي صدرت عن دار الطليعة في بيروت في عام ١٩٦٣ . وأول ما يلفت النظر في هذا العالم انه مشدود الى الماضي بشكل مخيف ، وانه عالم بلا تفاؤل أو فرح . ان الحاضر ليس فقط لا يقدم لابطال هذا العالم أي تعويض وانما أيضا يفترسهم ، وباستمرار . أما المستقبل فانه اكثر من ثقب اسود كبير في نفسيتهم . انه استحالة نفسية . انهم يعيشون على مشاعر الندم والمرارة والغضب العاجز ، ولا يبقيهم أحياء الا ارادة البقاء العمياء وتحد هائل مطبق العينين . والاحتفال الوحيد في هذا العالم هو الاحتفال بالشهداء ، الذين سقطوا في معارك الدفاع عن الوطن في عام ١٩٤٨ . وتبدو مشاعر الندم أوضح ما تكون في قصص « البومة في غرفة بعيدة » (١٩٥٩) و « شيء لا يذهب » (١٩٥٨) و « منتصف ايار » (١٩٦٠) ، وجميعها في مجموعة « موت سرير رقم ١٢ » . في أحد أعداد مجلة هندية يعثر بطل قصة « البومة في غرفة بعيدة » على صورة ملونة لبومة مبتلة بماء المطر اروع ما فيها « اصطياد النظرة الحقيقية للبومة في ظلمة ليل بلا قمر »

؛ ص ١١) . ويقص البطل صورة البومة ويعلقها على حائط غرفته . ولكنه عندما يأوي الى الفراش في منتصف الليــل « تفاجئه » الصورة ، ويلتقط في عيني البومة « نظــرة تحتوي خوفا يائسا مشوبا بتحفز بطولي وتشبه الى حد بعيد نظرة انسان خضع فجأة للحظة ما ، عليه ان يختار فيها بين أن يموت ، او ان يهرب » (ص ١٤) . وتطرح عليه عينا البومة ، بصرير حاد يخترق جمجمته ، السؤال : أتذكر ، لقد التقينا مرة قبل الان ؟. ويطفيء بطل القصة النور ، ويــدفن راسه في الغطــاء الموسخ ، ولكن وجه البومة لا يختفي ، بل يستمر في التحديــق فيه « ملحاحــا ، غضوبا ، يتمسح باشمئزاز ساخر » (ص ١٤) . ويتيقن البطل ان لا غائدة من النوم ، فيقوم ويضيء المصباح ، ويقف أمام البومة ، وتسقط الذكرى .. كان طفلا صغيرا في قرية فلسطينية تقاتل معركتها الاخيرة في منتصف ليل ما في عام ١٩٤٨ ، وكان ابوه بين المقاتلين ، وكــان يدفن صندوقا مليئا بالقنابل في حفرة حفرها تحت شجرة تين في اخر حديقة بيته أعطاه اياه الجــار العجوز بعد أن تأكد سقوط القرية ــ وفجأة « سمعت صيحة حادة في أعلى الشجرة .. وتملكني خوف اسقط ركبتي الى الارض واخذت احدق مرتجفا عبر الاغصان .. ثم شاهدتها ، على ضوء اللهب المتصاعد في سمــاء قريتنا ، (بومة) تقف هنــاك وتحدق الي بعينين واسعتين غاضبتين » (ص ١٩) . وهدأ الرعب في قلبه ، ودفن الصندوق في الحفرة ، وعاد الى البيت . ولكنه قبل ان يصل التفت الى البومة وعاود النظر اليها : « كــانت ما تزال تحرك رأسها المفلطح بتحذير انساني عميق، وعلى ايماضة قنبلة بعيدة، شاهدت في عينيها ذلك التحدي الباسل ، الخائف بعض الشيء، ولكن **الصامد** لضغط لحظة اختيار واحدة بين الفرار والموت » (ص ٢٠) . ويرتــد بطل القصة من ذكراه الى غــرفته ، ليجد البومة امامه ثانية على الجدار هذه المرة « تحدق في ، عبر زمن متباعد وينحدر من منقارها المعقوف صرير حاد : ايه أيها المسكين ... هل تذكرتني الان ؟؟! » (ص ٢٠) . ان مشاعر الندم هذه ، الناجمة عن شعور بطل القصة بأنه انهار تحت ضغــط لحظة اختيار واحدة بين الفرار والموت ، وفضل الفرار عــلى البقاء في الوطن ، هي مشاعر مارسها عشرات الالوف من الفلسطينيين الذين وجدوا انفسهم فجأة يعيشـون تحت وطأة الظروف البالغة القسوة في مخيمات البؤس ومغتربات لقمة العيش . ان الطفل لا يمكن ان يكون قد التقط في ليلة الرعب تلك في القرية ذلك « التحذير الانساني » الحكيم الــذي يلتقطه بعد سنوات عشر في الصورة بعد ان أصبح رجلا ، وهو يسقط بدون شك على المشهد الغابر احساسه الآني . ولكن هذا لا يقلل من حقيقية الاحساس ووطأته . ان الاحساس بالندم ، الناتج عن الشعور بــ « التخلي » عن الوطن ، مهما كانت المسؤولية الذاتية أو الموضوعية كبيرة او صغيرة ، هو احساس يتملك الكثيرين من ابطال قصص عالم غسان كنفاني الباكر . ويكون الندم احيانا ناجما عن شعور بطل القصة بانه لــم يقاتل جيدا ، ومرافقا بشعور لا يقــل عنه حدة بالعار . وتقــدم « قصة منتصف أيار » نموذجا لهذا النوع من الاحساس . ان البطل في منتصف ايار بعد اثنتي عشرة سنة من عام الهزيمة ١٩٤٨ يكتب رسالة الى رفيق قتل اثناء معارك ١٩٤٨ . انه يستهل القصة بالقول له انه أخذ عهدا على نفسه بان يحمل الى قبره في كل منتصف أيار بعض ازهار الحنون . و« ها قد وصل منتصف ايار دون ان اجد ولو زهرة حنون... ولو وجدتها .. فكيف لي أن أصل الى قبرك كي اعطيكها ؟ » (ص ٣١) . ويتضح من الرسالة أن كاتبها كان ورفيقه في معركــة واحدة ، وعلــق رصاص مشط رفيقه ، وصوب كاتب الرسالة بندقيته الى يهودي كان يهم بقذف قنبلة على رفيقه ولكنه لم يستطع اطلاق نيرانها ، ورمى اليهودي القنبلة فانفجرت وقتل الرفيق وافلت الرامي . انه الان بعد اثنتي عشرة سنة يتذكر الرفيق ويجأر السؤال في راسه : « لماذا اذكرك الان .. واكتب لك .. أما كان الاجدر بي أن استمر في صمتي ؟ كلا ، اني لا استطيع أن انسى ، رغم كل العذاب الذي يحمله التذكر .. فقد يستطيع هذا العذاب ان يجعلني احس يوما بمدى مــا هو

ضروري ان اعود الى قبرك فانثر فوقه بعض ازهار الحنون ... هل استطيع أن أقتل يهوديا دون ان ارتجف ؟ لقد كبرت ، وجعلتني الخيمة اشد خشونة ، ولكن كل هــذا لا يعطيني يقينا . يقيني الوحيد هو اني اشعر بالعار ملتصقا بي حتى عظمي » (ص ٣٧) .
أما بطل قصة « شيء لا يذهب » فهو انســان لم يقاتل ، ولم يكن من النوع الذي يقاتل ، ولكنه بعد ثماني سنوات من الاغتراب يحس هو ايضا بالخجــل والندم يتأكلانه . انه مسافر في القصة الى ايران ليضع باقة ورد على ضريح عمر الخيــام ، الشاعر الذي احبته ليلى حبيبته المناضلة التي أصرت على البقاء في حيفا عندما سقطت المدينة لانها لا تريد « أن تفقد ماضيها الجميل في حيفا وتريد ان يبقى لها شيء لا يذهب » (ص ٢٨) .
انه يستعيد جملة قالها له بعض رفاقه عندما اخبرهم انه مسافر الى ايران ليضع باقة ورد على الضريح ، وتسطع الحقيقة فجــأة في ذهنه : « شعرت بانني انسان لا يعيش على أرضه ... وبدا لي في لحظة ان ماضي شيء مخجل في الحقيقة .. ثماني سنوات اجتر ذكرى ليلى كأنها انسانة صنعتها فقط لأذكرها ... وشعرت ان ليلى لا يهمها مطلقا ان أضع باقة ورد سخيفة على قبر عمر الخيام .. باقة ورد على ضريح انسان ميت .. شيء لا يذهب » (ص ٢٩) .

وتنضاف الى الندم في افتراس الكيان الداخلي لابطال عالم قصص غسان كنفاني في فترة ما قبل عام ١٩٦٥ المرارة . وتبدو هذه المرارة أوضح ما تكون في مجموعة قصص « أرض البرتقال الحزين » . واذا كان منبع الاحساس بالندم الشعور بـــ « التخلي » عن الوطن فان منابع المرارة لا حصر لها ، ولكن تتفرد بينها ثلاثة : خسارة الوطــن ، ووضعية الانسحاق الطاحن تحت وطأة البؤس والاذلال اللذين يفككان الاسرة بعد ان ضاع الوطن، والتعامل « العربي » مع قضية فلسطين والانسان الفلسطيني . ان بطل قصة « ابعد من الحدود » (١٩٦٢) في مجموعة « ارض البرتقال الحزين » يسكب في لحظة « جنون او عقل » كل محتويات وعاء الحليب فوق رأس الموظف ويقول له انــه لا يريد ان يبيع الوطن . وعندما يمثل امام « الرجل الهام » لا يتكلم بل يقفز من النافذة ويهرب وفي اذنيه كلمتان ناشفتان صدرتا عن الرجل الهام : « الخنزير .. امسكوه » . وبينما الرجل الهام في بيته المترف الدافىء أمام صحن الحساء يمثل بطل القصة في ذهنه ويتحدث : « تريد ان تعرف شيئا عني ؟ هل يهمك ذلك ؟ احسب على اصابعك اذن : لي أم ماتت تحت انقاض بيت بناه لها أبي في صفد . ابي يقيم في قطر اخر وليس بوسعي الالتحاق به ولا رؤيته ولا زيارته . لي أخ ، يا سيدي ، يتعلم الذل في مدارس الوكالة . لي اخت تزوجت في قطر ثالث وليس بوسعها ان تراني أو ترى اخي . لي أخ اخر ، يا سيدي ، في مكان لم يتيسر لي ان اهتدي اليه . تريد ان تعرف جريمتي ؟... سكبت دون أن أعي كل محتويات وعاء الحليب فوق رأس الموظف (ص ١٢) . ويستأنف الصوت راشحا بالمرارة وهو يشرح لماذا قفز من النافذة هاربا : « أنا لست صوتا انتخابيا ، وأنا لست مواطنا ، باي شكل من الاشكال ، وانا لست متحدرا من صلب دولة تسأل بين الفينة والاخرى عن رعاياها .. وأنا ممنوع من حق الاحتجاج ومن حق الصراخ فماذا ستربح (اذا اطلقت سراحي من السجن) ؟ » (ص ١٣) . وتنضاف الى لائحة المرارة : « لقــد حاولتم تذويبي يـــا سيدي !... الست ترى انكم استطعتم نقلي بقدرة قادر من انسان الى حاله ؟ انني اذن حالة .. لست اعلى من ذلك قط ، وقد أكون ادنى ... اننا من ناحية اخرى حالة تجارية .. اننا ، اولا ، قيمة سياحية ، فكل زائر يجب ان يذهب الى المخيمات ، وعلى اللاجئين ان يقفوا بالصف وان يطلوا وجوههم بكل الاسى الممكن ، زيادة عن الاصل ، فيمر عليهم السائح ويلتقط الصور ... ثم اننا ، ثانيا ، قيمة زعامية ، فنحن مادة الخطابات الوطنية واللفتات الانسانية والمزايدات الشعبية ... أنا كفرد ، مجرد خنزير ، وأنا ، كجماعة حالة ذات قيمة تجارية وسياحية وزعامية ... (ثم) ان مؤسستنا تقدم خدمات أخرى لا يحصيها العد .. نحن مثلا اكثر جماعة ملائمة من اجل ان تكون مادة درس للبقية ..

الاحوال السياسية مستعصية صعبة ؟ اذن اضرب المخيمات ، اسجن بعض اللاجئين ، بل كلهم ان استطعت ! اعط مواطنيك درسا دون ان تؤذيهم » (ص ص ١٣ — ١٧) .

لقد أطلنا الاقتباس من هذه القصة لانها تحتوي في الحقيقة على تصوير محكم ودقيق لوضعية الانسان الفلسطيني في فترة كتابة القصة وتعري بصورة واضحة منابع المرارة في أعماق ابطال قصص عالم غسان كنفاني في الفترة التي نتحدث عنها . وينضاف الى هذه المنابع الاتهام بـ « الخيانة » الذي كان يحسه الانسان الفلسطيني معلقا احيانا كثيرة على شفاه الكثير من افراد الاطارات السياسية والاجتماعية المحيطة به . وهناك شيء اكبر من الحزن العميق في احساس بائع العجوة في قصة « ورقة من الطيرة » (١٩٥٧ — في مجموعة « أرض البرتقال الحزين ») بأنه يريد ان يروي للشرطي الذي يهدده بوضع طبق العجوة على رأسه مقلوبا حكاية عبد القادر الحسيني وابراهيم أبو ديه وحمد الحنيطي والاخرين .

ولكن اقوى من الندم والمرارة في تحطيم كيان الانسان الفلسطيني في عالم غسان كنفاني الفني الفلسطيني قبل عام ١٩٦٥ هو العجز — هذا الشعور الخانق المدمر الذي كان يحول حياة الانسان الفلسطيني الى عذاب مستمر ، ويجعله يحس بالاختناق والحصار الدائم . ويتخذ التعبير عن هذا العجز شكلا ضاريا في واحدة من اروع قصص غسان كنفاني القصيرة ، وهي قصة « الاخضر والاحمر » الرمزية (مجموعة « أرض البرتقال الحزين ») المكتوبة في عام ١٩٦٢ . ان هذه القصة التي لا تتجاوز الصفحات السبع تختصر في كينونتها الضئيلة كل تاريخ ومأساة الوضع الفلسطيني قبل عام ١٩٦٥ . انها مقسمة الى ثلاثة مقاطع تحمل العناوين التالية : النزال ، جدول الدم ، والموت للند . مقطع « النزال » يصور بشكل رمزي الشعب الفلسطيني في أيار ١٩٤٨ — شهر البطولة والخيانة والهزيمة . يتكلم المقطع عن الشعب الفلسطيني بصيغة الفرد فيقول انه كان ماضيا الى الزوج والولد وجدران اللحم والحب التي كانت دائما هناك ، دون ان يدري ان بينه وبين هؤلاء « لحظة موت واحدة » . ويحدث النزال ونترك للمقطع تصوير الحدث والنتيجة : « انهالت الاظافر عليه فاعملت به تمزيقا ، تجمعت حواليه فافترست جلده وانغرزت في خاصرتيه ورئتيه فأخذ يلهث دماءه ، كلما استدار سدت عليه الاظافر منافذ الحياة ومنافذ أيار وتشابكت كالسيوف أمام عينيه وانفه فمنعت عنه الرؤيا ومنعت عنه الحياة . . ومثل من كان على وشك ان يستيقظ أو ينام تعرف الى بعض تلك الاظافر ولكن حنجرته كانت قد تجرحت وسدتها الدماء فحشرج : حتى انت ؟ وفي لحظة تالية أحس دبيب الموت ، الا ان أيار كان ضخما وكان كبيرا وكان قد صبغ الطريق بالخضرة . . أحس بالاصابع تغوص الى قلبه فتبقره ، وانهالت خيوط الدم فوق صدره مثل أفاع حمراء رفيعة وتجمعت عند قدميه وسالت جدولا قانيا في الطريق » (ص ٧٩) . وبعد لحظات « وصل الموت باناشيده الى خاصرتيه فوقع ، حفر جبينه حفرة مدورة في التراب .. صمت الموت : الشهيد يصلي » . بهذه الكلمات ينتهي المقطع الاول ليبدأ المقطع الثاني . ليس ثمة مقطع في الادب الفلسطيني او العربي يصور فظاعة الجريمة مثل هذا المقطع ، وليس ثمة ادانة للخيانة ابلغ من الكلمتين المحشرجتين : حتى انت ؟ وليس ثمة جلال اوقع من جملة الختام : صمت الموت ، الشهيد يصلي . أما « جدول الدم » فهو يصور عن طريق الرمز أيضا انطلاقة الشعب الفلسطيني الى المنفى . يقول المقطع انه في اللحظة التي كان الشهيد يصلي فيها وقع حدث لم يلحظه اي انسان — ولد طفل صغير في الحفرة المدورة التي صنعتها سقطة جبين الشهيد . ولم تدس الاقدام ذلك الطفل لانه غاص في الرمل . ويصف المقطع المخلوق فيقول : «كان مخلوقا ضئيلا له ملامح رجل . . . كان فمه مطبقا باحكام فهو لا يتكلم ، وكانت جفونه ملتصقة ببعضها فهو لا يرى ، وكان ضئيلا ضئيلا مثل عقدة الاصبع ، أسود اللون قاتما كالليل ، الا ان قلبه كان شديد البياض . . . (كان) تماما مثل الانسان . . . وكانت له احلامه وآماله وأوجاعه ومطامحه . . .

كل الفرق هو انه كان صغيرا جدا ، وكانت عيناه مغلقتين وشفتاه ملتصقتين » (ص ٨١). ويمضي المقطع فيقول ان الاسود الصغير ، عندما خفت فوقه وطأة الاقدام ، اكتشف انه « وحيد وتائه ، الا انه لم يستطع أن يحـول بين ساقيه وبين رغبة المسير . . . فمضى يشق طريقه كالدودة يوما اثر يوم على غير هدى وعلى غير ضياء ، لا يلتفت الى الوراء ولا يتطلع الى فوق ولا يحول رأسه الى الجوانب . . ووراءه كان يجري جدول الدم كأنه يلاحقه ، كأنه قدره » (ص ٨٢) . ومن هذا التصوير البليغ لانطلاقة الشعب الفلسطيني الى المنفى حاملا عذاب وضعه وعذاب قدره المتمثل في جدول دم الشهداء اللاحق به الى مقطع « الموت للند » الـذي يمثل ذروة احساس الانسان الفلسطيني قبل عام ١٩٦٥ بالسخط والعجز ، ولكن معهما ارادة البقاء ، وان كانت بعد ارادة عمياء لا تبصر . ان الاحساس بالسخط والعجز يتفجر صاخبا في النداء المذبوح الـذي يصدر عن المقطع : « أيها العملاق الممسوخ ، يا عين ابيك المذبوح بالاظافر ، لمـاذا لا تموت ؟ كبرت أيهـا الاسود الصغير ! صار عمرك اربع عشرة سنة . . . وانت ماض كالدود تبحث عن ماذا ؟ اي خلاص ترتجي ؟ أين سينتهي بك الطريق ايها التعس ؟ » (ص ٨٤) ان المقطع يلاحظ القوى التي تسد المنافذ امام الاسود الصغـير ، وهي ذات القوى التي ذبحت والده . انه يقول ان احدا لم يحس بالصغير ، او يعطه اسما ، او يضعه في حسابه ليتعرف اليه، باستثناء واحد فقط : « الموت الـذي ذبح أباه باظافره عنـد منعطف أيار قبل سنوات وسنوات كان يعلم ان الوليد الاسود موجود في مكان ما تحت تلك الارض فحشد الاقدام لتدوس منافذ الخروج » (ص ٨٤) . ولكن ارادة البقاء تتحرك فينادي المقطع الاسود الصغير : « ايها الذي يعيش تحت اكداس الاقدام . . . اكبر . . . اكبر . . . لقد نزفت من العرق ما يصنع الف رجل كبير . . . لا تمت قبل ان تكون ندا . . لا تمت » (ص ص ٨٤ — ٨٥) .

لا تمت ، لا تمت . ولكن كيف ، ولماذا ، والى اين ومن أين البداية ؟ عبثا نفتش في عـالم غسان كنفاني الفلسطيني قبل عام١٩٦٥ عن اجابة لهذا السؤال على شفاه بطل من ابطال قصصه . ان هؤلاء الابطال يتحركون في عالم يلفه البؤس والعذاب والضياع والعجز ، تتأكلهم مشاعر الندم والمرارة ، ويبدون دوما مشدودين الى الماضي، ولكن بدون فرح او ارادة . ان بطل « البومة في غرفة بعيدة » يفترسه الندم لانه ترك وطنه ، ولكنه ينتهي قبيل الفجر أمام صورة البومة على الجدار وفي مخيلته صرير منقارها المعقوف يقول : « أيه ايها المسكين » . ويكتب بطل قصة « منتصف ايار » رسالة خجل الى رفيقه الشهيد المدفون في فلسطين ولكن اليقين الوحيد الذي يصل اليه هو « الشعور بالعار الملتصق حتى العظم » . ويحس بطل قصة « شيء لا يـذهب » بأن ماضيه « شيء مخجـل في الحقيقة » ولكن كل ما يصل هو الاحساس بانه بسفره لوضع باقة ورد على ضريح الخيام يقوم بـ « عمل سخيف لا معنى له » . ويصور بطل « أبعد من الحدود » وضع الاذلال والمرارة والاضطهاد الذي يعيشه ولكن كل ما يفعله هو قذف محتويات وعاء الحليب على راس الموظف . وردا على اهانة الشرطي لا يشعر بطـل « ورقة من الطيرة » بأكثر من رغبة في الحديث عن قادة محاربي فلسطين الشهداء . أما الاسود الصغير فانه يضرب تائها معمي البصيرة في باطن الارض تحت الاقدام . ان عالما من هـذا النوع لا يمكن ان يقدم في النهاية لابطاله الا الموت السخيف والمجاني ، ولذلك لم يكن غريبا ان يكون مثل هذا الموت نصيب أبطال رواية « رجال في الشمس » ، اروع اعمال غسان كنفاني الادبية من ناحية تكاملها الفني .

الا ان عالم غسان كنفاني الفني الفلسطيني قبل عام ١٩٦٥ لم يكن في صورته النهائية ، رغم هذه الخصائص ، عالم هزيمة مطلقة . ان شعورا بالازمة يغلف هذا العالم ويتسلل الى كل مناحيه ويكمن في كل ذرة من ذرات كيان أبطاله . ويكسب هذا الشعور بالازمة

احاسيس الندم والسخط والعجز والمرارة بعد؟ ايجابيا متفجرا ، يفتديها من السقوط في هوة الانهيار والعدمية . ان ابو الخيزران ، سائق سيارة الصهريج في « رجال تحت الشمس » ، يبدأ بالشعور بالازمة مباشرة بعد رميه جثث المسافرين الثلاثة في خلاء القمامة ، وتتفجر في رأسه « فكرة داوية ضخمة لا تتزعزع ولا تتوارى : لماذا لم يدقوا جدران الخيزران ؟ » . ولا تنتهي الرواية بصمت مطبق في الصحراء فوق الجثث ، وانما تردد الصحراء كلها الصدى : « لماذا لم تقرعوا جدران الخيزران ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ » (ص ١٠٦) . واذا كانت عينا الاسود الصغير ظلتا مغلقتين وفمه ظل مطبقا وخطواته تائهة في باطن الارض ، فان نداء المؤلف له كان : لا تمت قبل ان تكون نـدا . ان غسان كنفاني كان يعكس بصورة أمينة وصادقة واقع الشعب الفلسطيني كما كان قائما في فترة ما قبل عام ١٩٦٥ ، ولم يكن صدقه الفني يسمح له ان يجترح بشكل تعسفي « معجزة » تشق امام ابطال قصصه طريقا وهميا الى الامام لم يكن موجودا بعد في العالم الواقعي . ان عالم الشعب الفلسطيني الواقعي في تلك الفترة كان عالما قاتما ، وهكذا كان عالم غسان كنفاني الفني . وعندما اجترح هذا العالم الواقعي المعجزة في عام ١٩٦٥ ، وولد الانسان الفلسطيني المقاتل من جديد، لم يتأخر ظهوره كثيرا في عالم غسان كنفاني الفني. ولكنه كان ظهورا خافتا وعاتما ، شبيها بظهور المقاتل نفسه على أرض الواقع . وكانت القصة الاولى التي سجلت هذا « الحضور » قصة « العروس » المكتوبة في عام ١٩٦٥ ، والتي أشرنا اليها في البداية. ان فترة انتقالية سوف تمر قبل ان يظهر المقاتل الفلسطيني، الفدائي ، صانع الثورة بكامل قامته في عالم أدب غسان كنفاني ويغير ملامح هذا العالم. ان الاعمال التي سوف تمثل الفترة الانتقالية هي قصة « العروس » ورواية « ما تبقى لكم » (دار الطليعة ١٩٦٦) وقصة « الصغير يكتشف ان المفتاح يشبه الفأس » (١٩٦٧) في مجموعة « عن الرجال والبنادق » (دار الطليعة ، ١٩٦٨) . أما فترة العالم الجديد في أدب غسان كنفاني الفلسطيني ، فسوف تبزغ في روايتي « ام سعد » (دار العودة ، ١٩٦٩) و « عائد الى حيفا » (دار العودة ، ١٩٧٠) .

العروس وفترة الانتقال

« العروس » قصة رمزية في قالب رسالة موجهة من فلسطيني الى صديق له يطلب منه ان يبحث حيث هو عن رجل طويل جدا ، يلبس بذلة خاكية عتيقة ، ويلوح لاول وهلة وكأنه مجنون . انه محاط بشيء يشبه الغبار المضيء ، ويطرح على الناس السؤال الغريب : هل رأيت العروس ؟ ويصيب سؤاله الناس بالعدوى ، ويجدون انفسهم — ومن بينهم كاتب الرسالة — يطرحون على بعضهم البعض السؤال الذي لا اجابة له . وعن طريق الناس يتعرف كاتب الرسالة الى قصة الرجل . انه مقاتل من قرية شعب في فلسطين ، استطاع ان ينتزع في معركة في عام ١٩٤٨ بعد حرمان طويل من السلاح بندقية تشيكية جديدة من عدو يهودي قتيل . ولكن البندقية ما تلبث ان تسرق منه حيلة من قبل ضابط يبيعها بعد فترة الى شيخ في قرية اخرى قبل انسحابه من فلسطين . وفي الوقت الذي كانت فيه شعب تسقط في أيدي اليهود ورفاقه يستشهدون دفاعا عن القرية ، كان الرجل يبحث عن بندقيته المسروقة بعيدا عن القرية . ويجد البندقية ، ولكن الشيخ يخبره انه دفع ثمنها مهر ابنته الوحيدة التي زوجها لرجل عجوز كي يستطيع شراء البندقية . ويضيع الوطن ، ويهيم الرجل في المنفى يسأل عن العروس وقد أصبحت هي والبندقية في مخيلته شيئا واحدا . ويصيب السؤال الملحاح عن العروس (البندقية) الناس بالعدوى . وها هو كاتب الرسالة يتوجه الى صديقه اخيرا قائلا : ابحث معي عنه ، حيث انت ، فلدي اخبار جديدة عن العروس . ان صاحب الرسالة اذن يريد من صديقه ان يبحث عن الرجل **لان لديه اخبار جديدة عن العروس** .

اخبار جديدة — ولكنها غير مسماه . رجل يرتدي بذلة خاكية عتيقة يسير محاطا بشيء يشبه الغبار المضيء — ولكنه غير موصوف الملامح . الا أن القصة مع ذلك تحمل طابع البشارة ، ويتخللها عرق من الفرح غريب عن عالم غسان كنفاني السابق ، ينبض مرارا وتكرارا في العبارة : ابحث معي عنه ، حيث انت ، فلدي اخبار جديدة عن العروس . ان الفدائي الوليد ما زال بعد صغيرا ، مجهول الامكانيات والقدرات ، ولم يصبح مضيئا كالشمس . ومن هنا الاحتراس . انه يظهر في أدب غسان احساسا بالفرح والانفراج اكثر منه تصويرا مكتمل الملامح . ولكن الهزة التي احدثها ظهوره كافية لخلخلة اليأس القاتم في عالم غسان كنفاني الفني . وهكـذا لاول مرة نجد في رواية « مـا تبقى لكم » المكتوبة في عالم ١٩٦٦ بطلا منفلتا من الماضي ومشدودا بشكل ما نحو المستقبل ، وأهم من ذلك مرشحا لموت ذي معنى ، بعيد عن السخف والمجانية .

يكتشف حامد بطل الرواية اللاجيء الى غزة ان اخته مريم حامل سفاحا من احقر رجل في اطار معارفه — زكريا الخائن ، الذي دفع بواحد من قادة الفدائيين الى الموت على يد الاسرائيليين اثناء عدوان ١٩٥٦ . ويضطر حامد لتزويج اخته من زكريا « النتن » خشية الفضيحة . ولكن الصدمة تكون اقوى من احتماله ، فيقرر التسلل عبر صحراء النقب الى الاردن ، للحاق بأمه التي انفصل هو واخته عنها في عام ١٩٤٨ ولم يرها منذ ذلك الوقت . ويغادر حامد المدينة ويدخل الصحراء ، وبعد ساعات من المسير يقرر التخلص من ساعته فينزعها ويطوح بها الى الرمال . وينتابه في البداية « شعور بانه بتر جزءا من معصمه » ولكنه سرعان ما يتيقن ان ما حدث لم يكن بترا وانما « حككت من فوق معصمي قشرة ناشفة لدمل قديم ، حمل الي اللذة الاليمة التي تغمر جسد الانسان حين يقشر من فوق الندب الغطاء الدموي الجاف بتمهل وتصلب ، فتسقط معه ذكـرى الجرح ذاته » (ص ٣٥) . ان الساعة ترمز هنا الى الماضي الذي خلفه حـامد وراءه ، والى الزمن الذي كان يفترس كيانه ، وكأنه ، بالخلاص منها ، يريد ان ينفلت من هذا الزمن الى زمن جديد لا علاقة له البتة بالزمن الماضي وهمومه . وبعد أن يوغل حامد اكثر في الصحراء يوغل اكثر نفسيا في فك ارتباطه بالماضي . لقد كانت امه دائما وطوال الستة عشر عاما التي امضاها في المنفى رفيقة احزانه وأفراحه ، وعندما كان يكتئب او يبتهج كان دائما يقول لاخته : لو كانت امك هنا ، وعندما أوصله الوضع في غزة الى ابتئـاس لم يعد في امكانه احتماله كانت امه هي الملجأ الذي فكر بالارتحال اليـه . ولكنه هنا في الصحراء يتمرد على ذاته : « تريد ان تضع أمك بينـك وبين مريم ؟ تريد أن تجعلهـا جدارا من النسيان ؟ ارتدادا الى كارثة اخرى ؟ لقد كانت امك بالنسبة لك دائما فارسا غائبا على استعداد ليشرع سيفه في وجه اي عقبة تقف أمامك . وعشت كـل عمرك متكئا عليها ، فما الذي تريده الان من هذا الفارس الوهمي ؟ . . . اجلس هنا تحت السماء المرتدة الى اعماقها وفكر بروية : غزة راحت الان وامحت وراءك في الليـل . خيوط الصوف كرت كلها ، ولم تعد انت مجرد كره لفوا عليها خيطـان الصوف ستة عشر عاما ، ولكن من انت ؟ » (ص ٤١) . ان بطل الرواية اذن يرفض الهروب الى الماضي العاطفي ويتمرد عليه بمقدار ما يرفض حاضر المنفى التعيس ويغادره ، ولكن السؤال : « من انت ؟ » ما يزال قائما . وينحرف خط مساره في الصحراء ، ويقوده المساء لا الى امـه ، وانما الى الارتطام بالعدو ، اذ يجد نفسه على غير توقع في مواجهة جندي اسرائيلي انفصل عن دوريته ، فينقض عليه ويجرده من سلاحه ، ويحتفظ بالسكين الطويـل المثبتة في طرف السلاح . ويجلس الاثنان وجها لوجه ، وبينهما نصـل السكين في قبضة حامد . ان الجندي ينتظر بمزيج من الامل والخوف عثور الدورية عليهما لعله ينجو ، ولكن حـامد يقلب الامر في ذهنه من خلال منظور مختلف : « اننا ندور في حلقـة مفرغة ، والوقت لا يمكن ان يكون ضدنا نحن الاثنين معا ، بصورة متساوية . فقد يكونون اقرب اليك مما اتصور ولكنك اقرب الي مما يتصورون ، والقصة كما ترى ، قصة مسافة ليس غـير ،

وربما زمن أيضا . حسنا ، ولكني لا اكترث كثيرا بالزمن كما ترى ، والمسافة لصالحي فانت اقرب الى نصل سلاحي مما انا الى فوهات بنادقهم . وهناك قضية اخرى لها قيمتها : ان تقتل انت هنا على بعد خطوات منهم ، على بعد خطوات من معسكرك ، ربما ، هو عمل اخطر عن ان اقتل انا ، مجرد عدو اقتحم عليكم قلعتكم وكان وحده تماما، بلا سلاح . الامور هنا نسبية تماما ، وهي لصالحي ايضا ، وهذا شيء غريب ، فقبل دقائق فقط كان كل شيء في هذا الكون ضدي تماما ، وكانت الامور كلها في غزة وفي الاردن تعمل في غير صالحي . وكنت اقف هنا ، هنا بالضبط ، في رقعة محاطة بالخسائر من كل جانب . فتعال اقول لك شيئا مهما : ليس لدي ما اخسره الان ، ولذلك فانت عليك فرصة ان تجعلني ربحا » (ص ٥٤) . وتنتهي الرواية وحامد جالس في مواجهة الجندي وبينهما نصل السكين ، بينما تقتل اخته في غزة زوجها « النتن » ـــ كما كان يسميه حامد ـــ لانه يحاول ارغامها على اجهاض الطفل .

ان فارقا كبيرا يقوم في الاحساس العام لابطال قصص غسان كنفاني قبل عام ١٩٦٥ وبطل رواية « ما تبقى لكم » . انه لا يحس بنفسه أسير الماضي مثل ابطال « البومة في غرفة بعيدة » و « منتصف أيار » و « شيء لا يذهب » . كما لا يحس بانه محاصر من كل مكان وخاسر باستمرار مثل بطل « ابعد من الحدود » ، او يحس بأنه مسحوق تحت الاقدام مثل الاسود الصغير في « الاخضر والاحمر » . ان الماضي يتساقط عنه مثل قشرة جرح جافة ويكر مثل خيطان من صوف كانت ملفوفة على كره . ولاول مرة يحس بطل هام من ابطال عالم غسان كنفاني بان حاضره لا يضغطه ضمن رقعة محاطة بالخسائر من كل جانب . ان المستقبل القريب قد يحمل له موتا وشيكا ، وهو مشدود الى هذا المستقبل بكل جوارحه ، ولكن موته ان وقع لن يكون موتا عبثيا وفاقد المعنى مثل موت ابطال « رجال في الشمس » . انه موت في سبيل « القضية » ، ليس منارا تماما ولكنه واضح كفاية ليبعث في ذات بطل الرواية شعورا خافتا بالرضى . ان العمل الفدائي ما زال بعد صغيرا ومعزولا ومنفردا ، والثورة لم تضرب بجذورها في المخيمات وتبدأ بتحويلها ، والموازين في معادلة الصراع بين المقاتل الفلسطيني وجيش العدو راجحة بشكل فاضح لصالح العدو ، والوعي الثوري كاشف المستقبل وصانعه لم ينتشر بعد . ومن هنا فان ما يحدث في عالم غسان كنفاني الفني الفلسطيني في هذه المرحلة من تطوره مواز تماما لما يحدث للشعب الفلسطيني في ارض الواقع . ان انفلات حامد من وضعية الذل التي كان يعيشها انما كانت بفعل قوة الحنين الى الماضي (أمه) اكثر مما بفعل قوة التوجه المبصرة الى المستقبل . وتنتهي الرواية دون حسم ـــ الدورية الاسرائيلية لم تصل بعد ، وجو الترقب يلف العدوين الجالسين في مواجهة بعضهما يفصل بينهما نصل السكين .

وفي أيار من عام ١٩٦٧ تحدث نقلة اخرى في عالم غسان كنفاني الفني الى الامام ، وتسجل قصة رمزية قصيرة استيقاظ ارادة القتال العامة وارادة العودة في صفوف الشعب الفلسطيني . ان قصة « الصغير يكتشف ان المفتاح يشبه الفأس » (ايار ١٩٦٧) في مجموعة « عن الرجال والبنادق » (دار الطليعة ، ١٩٦٨) تروي حكاية مفتاح « يشبه فأسا صغيرة ، لو لم تكن مؤخرته متوجة بحلقة لحسبت انه نموذج مصغر لفأس حقيقية » (ص ١٠١) . ان المفتاح هو مفتاح دار ابو جابر في قرية فلسطينية ما ، وقد ورثه ابو جابر من ابيه الذي ورثه بدوره عن جده ، وعندما استشهد دفاعا عن القرية في عام ١٩٤٨ عني قبل موته بارساله الى ابنه الذي كان يدرس في القدس . وهاجر الابن عن الوطن حاملا المفتاح معه ، وعلقه على مسمارين في حائط غرفة من غرف بيت الغربة . لقد كان المفتاح في القرية الفلسطينية معروفا بانه مفتاح ابو جابر ، وكان الشبه القريب بينه وبين الفأس معروفا ايضا لدى الجميع . اما على

حائط غرفة المنفى فقد صار « يوما بعد يوم مفتاحا فقط ، بالنسبة للكثيرين - وربما أحيانا بالنسبة لي أنا ايضا ، هل اقول أننا نسيناه ؟ لا ، بالطبع ، ولكنه لم يعد يذكرني بالفأس . احيانا كنت أجلس وانظر اليه مليا واتساءل : كيف كنت اراه ذات يوم فأسا صغيرة ؟ كيف كان جدي يعتقد انها فأس مسختها قوة جبارة الى مفتاح ؟ وكان ابني حسان قد ولد هناك فرآه وأغلب الظن انه كان يراه مثل صورة معلقة على الجدار وكنت انتظر ذات يوم ان يقول لي انه يشبه الفأس ، مثلما انتظر مني والدي ان افعل ، ولكن ذلك لم يخطر على باله كما يبدو » (ص ١٠٧) . ان المفتاح في الوطن كان بالطبع رمز الحق بالوطن والتمسك به وأهم من ذلك الجدارة به ـــ الجدارة المكتسبة من القدرة على الدفاع عنه . اما هنا في المنفى فانه معلق على الجدار ، يعلوه الصدأ والغبار ، وينسى صاحبه انه يشبه الفأس . ان الوطن يخفت في الذاكرة ، وارادة العودة والقتال لا تعود ماثلة . ويجيء ايار ١٩٦٧ ، وتفتح شقيقة الراوي الراديو ، فيدوي الصوت فجأة عاليا كالرعد ويهز الغرفة ، ويسقط أحد المسمارين من تحت المفتاح فيسقط جسد المفتاح ويروح ينوس جيئة وذهابا على المسمار المثبت في حلقته : « وتلاقت انظارنا شقيقتي وأنا فيما شعرت برجفة منعتني عن الكلام ، ويبدو انها احست بالرجفة ذاتها فيما مضى المفتاح ينوس مصدرا صوتا كانه الريح ، وصاح حسان مشيرا باصبعه الى المفتاح : انظر ، انه يشبه الفأس » . (ص ١٠٩) . ان الوطن يستيقظ في الاعماق ، وفي صميم اليقظة هذه المرة اهتزازة السلاح ، ويسجل وعي الصغير بسرعة تحول المفتاح الى صورة الفأس . ان الصغير ايضا يلتقط حركة الفأس . ان الوعي الثوري قد انتشر ، والقضية الفلسطينية قد تحركت .

ان هذه القصة هي المعلم الاخير من معالم الممر الواصل بين العالمين : عالم غسان كنفاني الفني الفلسطيني قبل عام ١٩٦٥ ، والعالم الجديد الذي نطل عليه مكتملا بعد عام ١٩٦٨ في روايتي « أم سعد » و « عائد الى حيفا » .

العالم الجديد

لشد ما يبدو عالم غسان كنفاني الفني الجديد واضحا وساطعا في رواية « ام سعد » المكتوبة ، كما ذكرنا ، في عام ١٩٦٩ . ان اللغة بسيطة والتعبير مباشر وليس ثمة لجوء الى الرمز او الى اي تكنيك معقد . انه يبدو نسخة طبق الاصل تقريبا عن عالم المخيمات في عام ١٩٦٩ من زاوية الموضوع المتناول : القضية الفلسطينية . ان الثورة قد ضربت بجذورها في المخيمات وبدأت بتحويلها الى طاقة ثورية، والفدائي الفلسطيني كبير وساطع كالشمس ، والمستقبل يبدو أخضر وطافحا بالامل ، والماضي درس وعبرة وليس سوطا يجلد به الانسان الفلسطيني نفسه . أما اعداء الانسان الفلسطيني فانهم صغار وهامشيون ولا حول لهم . ان رواية « أم سعد » ليست رواية بالمعنى المألوف لهذه الكلمة ، ولكنها لوحات تسع تصور بمجموعها ملامح العالم الذي تتحدث عنه . أم سعد امراة كادحة تقطن أحد المخيمات ، وتنتمي الى تلك الطبقة التي « تقف الآن تحت سقف البؤس الواطىء في الصف العالي من المعركة ، وتدفع ، وتظل تدفع أكثر من الجميع » (ص ٨) . انها تأتي الى بيت الراوي كل يوم ثلاثاء ، وتتحدث عن مشاعرها وعن حياتها وحياة الآخرين في المخيم . في اللوحة الاولى التي تحمل عنوان « أم سعد والحرب التي انتهت » تخبر أم سعد الراوي ان ابنها فدائي ، وانها علمت بعد الحرب والهزيمة في حزيران ان ابنها لم يكن في المعركة وانما كان في سجن من سجون السلطة . انها تشعر بالعار لذلك ، ولكنها تشعر ايضا بالكبرياء لانها عرفت ان ابنها رفض ان يوقع على ورقة يتعهد فيها بأن يكون « آدمي » ثمنا لاطلاق سراحه . وتنتظر عودته ليخرج ويقاتل . في اللوحة الثانية التي تحمل عنوان « خيمة عن خيمة تفرق » تخبر ام سعد الراوي ان ابنها قد خرج والتحق بالفدائيين . وعندما يسألها الراوي فيما اذا لم تكن حزينة او غاضبة

لذلك تجيبه ببساطة : « انا متعبة يا ابن عمي . اهنرأ عمري في ذلك المخيم . كل مساء اقول يا رب ! وكل صباح اقول يا رب !. . . وها قد مرت عشرون سنة ، واذا لم يذهب سعد فمن سيذهب ؟ » (ص ٢٨) . وبعد فترة تضيف انه لو لم يكن لها طفلان للحقت به وسكنت معه في خيمته تخدمه وتخدم رفاقه الفدائيين بعينيها . وتصدر عنها الجملة القصيرة الرائعة : خيمة عن خيمة تفرق . في اللوحة الثالثة « المطر والرجل والوحل » تنفجر أم سعد بالبكاء وتخبر الراوي ان السماء أمطرت في الليلة السابقة وأمضى أهل المخيم ليلهم في الوحل والطين يجرفون الماء وان سعدا ذهب ليقاتل لانه لم يرد ان يعيش حياته في الوحل . انها ايضا لا تريد ذلك : « لا أريد أن أموت هنا ، في الوحـــل ووسخ المطابخ . . هل تفهم ذلك يا ابن عمي ؟ انت تعرف كيف تكتب الاشياء ، انا لم اذهب الى مدرسة في عمري ، ولكننا نحس مثل بعضنا . . . أنت تكتب رأيك ، انا لا اعرف الكتابة ، ولكنني أرسلت ابني الى هناك . . قلت بذلك ما تقوله انت » (ص ٣٥) . ثم تخبره ان ابنها أرسل اليها خبرا بأنه سيهديها الليلة سيارة . وفي المساء يسمع الراوي من المذياع نبأ سقوط سيارة اسرائيلية في كمين مقاتلين. في اللوحة الرابعة «في قلب الدرع» ام سعد مبتهجة لان ابنها عندها بعد غيبةطويلة ليرتاح ويشفى منجرح رصاصة في ساعده.وتخبر الراوي ان ابنها قابلها في فلسطين وهو محاصر مع رفاقه من قبل الجنود الاسرائيليين — أنهكهم الجوع ، ومرت قروية عربية عجوز ، وقال سعد لرفاقه انها أمه ، وناداها : « يما ، ردي علي . . . أنا سعد يا يما ، جوعان » (ص ٤٦) ، وردت القروية وعانقته ، وأطعمته ورفاقه خمسة أيام حتى انفك الحصار . ووجد الراوي ينادي أم سعد بعد أن استدارت لتذهب : « يا يما » ووقفت . في اللوحة الخامسة « الذين هربوا والذين نقدموا » في كفي أم سعد المهترئتين من التعب والعذاب أثار جروح لم تلتئم تماما ، وتخبر الراوي انها ناتجة عن اشتراكها ونساء المخيم وأطفاله في تنقية الشارع القريب من المخيم من شظايا القنابل والرصاص الساخن التي صبتها طائرات اسرائيلية في غارة لها على مكان قريب من المخيم . في اللوحة السادسة « الرسالة التي وصلت بعد ٣٦ سنة » تخبر أم سعد الراوي بقصة صاحب الارزاق زعيم الحمولة عبدالمولى الذي اصبح نائبا في البرلمان عند الاسرائيليين وقصة فضل الفلاح الذي طلع الى الجبل في ثورة عام ١٩٣٦ . لقد نزل فضل من الجبل بعد « ان جاء المكتوب من ملوك العرب » ، ووصل الى قريته اثناء احتفال كان يخطب فيه عبد المولى وهو واقف على طاولة والناس تصفق له . وجلس فضل حافيا على عتبة دار في آخر الساحة ، وسمعته ام سعد التي اقتربت منه يحدث نفسه قائلا : « ولكو ، اسا أنا الذي تمزعت قدماه وهذا الذي تصفقون له ؟ » (ص ٦٤). وتضيف ام سعد سائلة الراوي وهي تفكر بمشكلة معينة تشغل ذهنها لها علاقة بعبد المولى : « آه يا ابن العم ! لو يومها قام فضل عن العتبة وطخ عبد المولى ، أما كانت هذه المشكلة قد انتهت ؟ » (ص ٦٦) ، ويكاد يقول لها الراوي انه لو حدث ذلك لما حدثت أشياء كثيرة . في اللوحة السابعة « الناطور . . وليرتان فقط » تمسك أم سعد بزند الراوي وتسحبه الى الشرفة وتشير الى رجل يقف قرب الدار وتطلب منه أن يبعده عنها. وعندما يسألها الراوي عن القصة تخبره ان الرجل ناطور بناية اشتغلت في تنظيفها حوالي الشهر ثلاث مرات في الاسبوع وكانت تأخذ كل مرة خمس ليرات . وذات يوم مرت عليها امرأة لبنانية من ريف الجنوب وأخبرتها وهي تبكي انها كانت تشتغل في العمارة قبلها مقابل سبع ليرات لكل مرة وانها طردت من عملها لان أم سعد قبلت أجرة أرخص . وتركت ام سعد العمل ، ولكن الناطور ما زال يلاحقها لتعود للعمل . ويرافقها الراوي في الطريق وتشير الى الناطور : « انظر ماذا بفعل . . . طول النهار يكرج على البسكليت ليوفر لهم ليرتين ! يا حرام » . ثم يخطر لها خاطر : « لو انا والناطـــور والحرمة قلنا للخواجا » (ص ٧٦) . في اللوحة الثامنة « أم سعد تحصل على حجاب جديد » تخبر أم سعد الراوي عن مخبر جاء الى المخيم يسأل عن سعد ، وتقول له بأنها قالت « للافندي »

أن يذهب الى الاغوار ويمسكه . ثم تخبره كيف أرته حجابها الجديد ـ سلسلة من المعدن ، تنتهي برصاصة مدفع رشاش ، مثقوبة قرب قاعدتها النحاسية ومفرغة من بارودها ، تركها لها سعد حين زارها آخر مرة . أما في اللوحة التاسعة والاخيرة « البنادق في المخيم » فتخبر ام سعد الراوي كيف تغير ابو سعد تغيرا كاملا ، فكف عن الذهاب للقهوة ، وصار حديثه لام سعد اكثر ليونة ، وصار اذ يسمع خطوات تمر امام شباك كوخه الواطيء يطل برأسه ويشرع بالحديث مع الرجل العابر متحدثا عن « الكلاشن » كما يسمي سعد الكلاشنكوف . كما تخبره عن الكبرياء التي أحس بها ابو سعد عندما شاهد ابنه في حلقة العرض ينتزع البندقية بلمح البصر من يد غريمه الطفل ويرفعها عاليا تحت العلم .

لقطات انتقائية من رواية « ام سعد » مقدمة حرفيا كما وردت تقريبا في لوحات الرواية التسع ، بدون تعليقات او شروحات . ذكرنا اعلاه ان عالم غسان كنفاني الفني الجديد واضح وساطع كالشمس ، واضح وساطع كما كان يبدو في عام ١٩٦٩ ، وليس بحاجة الى أي شرح أو اضافة بعد .

قلنا « واضح وساطع كما كان يبدو في عام ١٩٦٩ » ـ وأنت الآن راحل ، راحل ايها الرفيق الشهيد .

البطل الفلسطيني في قصص غسان كنفاني

الياس خوري

لقد شكلت القضية الفلسطينية منذ اكثر من ربع قرن ، العقدة التي فيها تتجمع التناقضات التي يواجهها المجتمع العربي . وبعد هزيمة ١٩٤٨ شكلت عاملا حاسما في انتفاضات سياسية وعسكرية هامة ، لا يزال الوطن العربي الى اليوم يواجه آثارها . ثم جاءت هزيمة ١٩٦٧ لتلقي مزيدا من الضوء على الواقع العربي المعاصر وتقوم بعملية فرز وطنية وطبقية واسعة لا تزال تجري الى اليوم . اما النتيجة الرئيسية لهذه الهزيمة فقد كانت بلا شك المقاومة الفلسطينية . وقضية فلسطين هي بالدرجة الاولى قضية نضال وطني لكنها قضية نضال وطني من نوع خاص . فالشعب شرد وطرد من ارضه وتحول الى شعب من اللاجئين . والقضية ، وان مست المجتمع العربي مباشرة ، فانها في المقابل ممسكة بخناق الشعب الفلسطيني داخل الارض المحتلة وخارجها ، مهددة اياه يوميا بالفناء .

اذا كانت قضية النضال الوطني الفلسطيني هي قضية من نوع خاص ، فان مقاومة هذا الشعب لها خصائصها المميزة . كما ان صوته الادبي ونبرته الفنية لهما جوهما وطابعهما الخاص والمختلف فهما محاولة لتأكيد الذات واثبات الوجود في مواجهة واقع التشرد والمنفى كما انهما دعوة الى رفض الواقع السائد ، والخروج منه . والعودة الى الارض. ان دراسة البطل الفلسطيني في قصص كنفاني تفرض علينا ان نضع لها اربعة أطر تتداخل لكنها في الوقت نفسه تتمايز .

أ ــ **المستويات المختلفة للقضية الفلسطينية** : تطرح القضية على الفلسطيني المشرد واقعا يوميا فهو يوميا في المخيم الموحل . يعتاش من فتات الامم المتحدة ووكالتها . هو يوميا انسان بلا هوية . هذا الواقع الدامي لم يعكس على كل الفلسطينيين بنسبة واحدة . فالبرجوازية الفلسطينية اندمجت بسهولة كبيرة بشقيقاتها البورجوازيات العربية . والمثقف الفلسطيني بدوره كانت امامه فرص الاندماج مفتوحة . ان هذا الواقع ليس واقعا جامدا . انه واقع ديناميكي . فالجماهير العربية في حركة مستمرة والتفاعل اليومي معها ومع الايديولوجية القومية (البعث والناصرية) التي سادت وسطها . هذه الايديولوجيا التي كانت ترفع في راس مهماتها تحرير فلسطين (لا سيما حركة القوميين العرب) دفعت الى تمايز فلسطيني ، الى فصل المثقفين الفلسطينيين الى اندماجيين في الواقع العربي السائد والى ثوريين . طبعا هذه المعادلة ليست وحيدة الجانب . فالقضية الفلسطينية هي التي غذت هذه الحركات بل ربما كانت مبررها المعلن للوصول الى السلطة .

القضية الوطنية كانت هي القضية الاساسية . حتى لا نقول الوحيدة والتناقض كان واضح المعالم . تناقض مع الطبقات العربية الحاكمة ، مع الصهيونية ومع الامبريالية . غير أن معرفة هذا المثلث ليست كافية . فالصوت الفلسطيني في الخارج كان يبحث عن الطريق . والمثقف الخارج من صفوف الشعب لا يجد طريقه للدخول مجددا الى هذه

الصفوف . فطريقه واحدة : ان يساهم في البحث عن طريق الخروج من الوضع الساكن ومن الركود . ان يطرح السؤال . ويبحث عن الجواب . اما الفلسطيني اللاجىء داخل وطنه ، كما يقول محمود درويش ، فانه في المقابل كان يبحث عن صوته ، عن تأكيده اليومي لوجوده « سجل انا عربي » عند درويش ، او المواويل الشعبية البسيطة القريبة من الناس عند القاسم . الفلسطيني في المنفى يؤكد نفسه ويبحث عن طريق خلاصه في الجسد العربي والفلسطيني في الداخل يؤكد ذاته يوميا في مواجهة ادب الدجل العربي الذي تروجه سلطات الاحتلال(١) وفي مواجهة خطر الانسحاق اليومي .

ان التمحور الاساسي يحصل حول القضية الوطنية وكيفية ربطها بعمقها العربي . وحول نقطة التمحور هذه ، حول آلام ونضالات كبيرة ، كان لا بد ان تفرز القضية مثقفيها ولو بصعوبة بالغة وان تفرز صوتها الفني الثوري ، صوت اللاجئين في الخيام واللاجئين داخل اوطانهم .

ب ـ **حول مفهوم البطل** : حين نكتب عن البطل الفلسطيني في قصة ما فعن اي شيء نكتب وماذا نريد ؟ نريد ان نتعرف الى عدة حقائق :

ـ البطل هو انسان او أرض . انه فعل في الدرجة الاولى . فعل تاريخي ومحدد . حوله نأخذ الاشياء حجمها . أي ان بينه وبين الاشياء علاقة متبادلة . ـ نحاول ان نستكشف ابعاد القضية وحجمها في ذاته . كيف يتعامل معها . كيف تؤثر عليه ويؤثر فيها . ـ نحاول أن نتفهم صوت الكاتب . ما ذا يريد ان يقول . ما هو موقفه الطبقي على المستوى الادبي . وكيف تتجسد قضايا أدبه في الممارسات اليومية . في الحياة العادية لهذه الطبقات . ـ نريد اخيرا أن نستكشف كيف تتطور القضية الفلسطينية وكيف يفهم الكاتب تطور القضية عبر نفسيات ابطاله .

ج ـ **البطل الصهيوني والبطل الفلسطيني** : العدو المباشر للمناضل الفلسطيني هو الاسرائيلي المحارب هو الصهيوني . فالادب الصهيوني يصور أبطاله معصومين عن الخطأ . يصورهم أبطالا أسطوريين وشجعانا في مقابل صورة العربي القذر الذي يبيع شقيقته لاول عابر سبيل . أو العربي الجبان الذي يركع أمام أول صفعة كف تأتي على خده(٢). هذه الصورة انعكست بشكل مباشر على الادب الفلسطيني داخل الارض المحتلة . أدب البحث عن الكرامة الضائعة . التشبث بالوجود وبالقيم . تمثل الوطن العربي وقضاياه الكبرى . في المقابل كان الادب خارج الارض المحتلة لا يعير هذه النقطة كبير اهتمام . الاساسي هو الارض والعودة اليها ، الاساسي هو طريق هذه العودة التي تخلص الفلسطيني من عار التشرد .

د ـ **الصوت الفلسطيني والصوت العربي** : لا يمكننا الحديث عن الادب الفلسطيني عبر عزله عن الادب العربي . لا قبل احتلال ١٩٤٨ ولا بعده . انما يمكننا ان نميز بينهما عبر الحاح القضايا المباشرة عليهما . وهذا تعبير عن ظاهرة صحية . اما من حيث الشكل والاخراج الفني ، فان الادب الفلسطيني وان ركز كثيرا على الشعر ـ لفعاليته الخطابية والنضالية ـ فانه يساهم في البحث الشكلي الادبي على المستوى العربي العام اي البحث عن وعاء جديد يجاوب على متطلبات مضامين جديدة .

أين يقع غسان كنفاني ؟

لا يمكننا الحديث عن غسان كنفاني ككاتب قصة فقط . لايمكننا ان نختصره الى حمد الحنيطي الشهيد الذي تمزع جسده الى درجة انهم لم يستطيعوا ان يجدوا اي شيء منه كي يدفنوه(٣). ولا يمكننا ان نقول انه صوت الصحراء التي تصرخ في **رجال في الشمس** « لماذا لم يدقوا جدار الخزان »(٤). انه كذلك صديق أم سعد وصديق الرجال والبنادق .

جميع قصص كنفاني ليست كافية لتعطينا صورة كاملة عنه . فالرجل كان قصاصا وناقدا ادبيا وكاتبا مسرحيا ومحللا سياسيا وكان قبل كل شيء مناضلا . من هنا فحين نحاول ان نعزل انتاجه القصصي باحثين في هذا الانتاج عن البطل الفلسطيني ، فاننا نقوم بهذا العمل لسبب منهجي . وعملية عزل هذا الجانب من نتاج كنفاني تسمح لنا بالمقابل بادراجه في سياق الفن القصصي العربي المعاصر وبالذات في سياق القصص التي تتحدث عن القضية الفلسطينية . قصص كنفاني تواكب القضية عبر تطوراتها المختلفة . لكن العين التي تواكب تنتقل من مستوى الى آخر . تبعا لتطور القضية نفسها وللتطور السياسي والفكري الذي عاشه الكاتب عبر تفاعله اليومي المستمر مع قضية شعبه . ان المراحل الاربع في رحلة كنفاني الى فلسطين تسجل بصدق مذهل وبرؤية نافذة ، كيف تتطور القضية في الواقع وكيف يندرج المثقفون فيها حتى يفقدوا في النهاية أصواتهم الخاصة .

أ ـ **الذهول والصراخ** : في المرحلة الاولى كتب كنفاني ثلاث مجموعات قصصية : **موت سرير رقم ١٢** ، **ارض البرتقال الحزين** و**عالم ليس لنا** . كتبت هذه القصص القصيرة جميعها بين اعوام ١٩٥٦ و ١٩٦٣ ما عدا واحدة **العروس** كتبت عام ١٩٦٥ . المجموعات الثلاث هي مجموعات قصص قصيرة . والقصة القصيرة لا تستطيع ان تعبر عن واقع متكامل . انها تعبر عن ظاهرة ، عن حالة ، عن صرخة . والواقع أن قصص هذه المجموعات الثلاث لا تريد سوى ان تصرخ في وجوهنا . ان تنزف قضيتها دون ان يكون بوسعها ان تعطي حلولا ، او حتى أن ترسم سؤالا . نستطيع ان نسمي هذه المرحلة مرحلة الذهول والصراخ . الذهول امام الذي حصل . المفاجأة المرعبة . الهرب السريع . المقاومة التي انطفأت . ثم الواقع المستجد بكل تعاسته وآلامه .

في هذه القصص نستطيع ان نلاحظ ثلاث حركات متداخلة لكنها تحتفظ بوحدتها على تمايزها النسبي ، بوصفها تمثل حالات مختلفة وتأتي على مراحل .

الحركة الاولى : هي الاحساس الشديد المتوتر ، والقلق بالهزيمة . لكنه في النهاية احساس بالعار والذل وهو الجواب الاول على الهزيمة . جاء مذهولا . منذ القصة الاولى في **موت سرير رقم ١٢** (٥) . يبدأ هذا التوتر . القنابل تدفن في الحديقة وقت الهجوم الاسرائيلي . ثم يتابع كنفاني هذا الشعور في **شيء لا يذهب** . الذكريات تمر في رأسه . كيف هرب من حيفا وترك ليلى التي اغتصبها اليهود هناك كي تقاوم « لم أكن قط استحق ليلى ، كانت احسن مني بكثير . كنت جبانا ، اخاف من الموت ، ورفضت ان احمل سلاحا كي ادافع عن حيفا . كنت في راس الناقورة عندما قالوا ان حيفا سقطت في يد اليهود » .

يتابع هذا التوتر طريقه . الاحساس بالعار والذل يظهر من جديد في قصة **منتصف ايار** . البطل هنا ، يخاف من الماضي ، الماضي هو عاره . كان جبانا . لكنه في المقابل يلح على الذكرى والذكرى تلح عليه . فاعادة رسم صورة ما حدث يبدو وكأنه المطهر الذي لا بد من عبوره . فهو يخاف من النسيان : « ان خيوط القصة بدأت تنحل في رأسي واخشى ان انساها . هل تصدق . ثم حين يتذكر كيف قتل صديقه ابراهيم دون ان يطلق هو رصاصة على العدو كانت كافية لانقاذ صديقه ، يصرخ : « انني اشعر بالعار ملتصقا بي حتى عظمي » . هنا يصل الماضي الى ذروته . العار يلاحقنا ونحن امامه . في هذه الحركة الاشخاص هم مجرد شهود . الاصابع ترتفع باتجاه الجميع كي تتهم ، كنفاني هنا هو كل مثقف فلسطيني وعربي . بعد الكارثة ، الخطوة الاولى هي عملية نقد ذاتي صارمة . صرخة نقد على الاصح . الابطال الثلاثة هنا مواجهون بالحقيقة . اللحظة التاريخية ليست ملكهم ، لان غيرهم ، لان عدوهم قد صنعها . والقضية تنعكس عليهم مباشرة .

تصطدم بهم وتصدمهم دون أن تترك لهم مجالا للهاث . والصوت الذي يأتي من بين السطور هو صوت المثقف المجوع ، الجبان . ابطال هذه القصص هم مجرد لحظات . لا يمثلون انفسهم . هم حنجرة تأتي بسرعة لتصرخ بسرعة . على الرغم من أن كنفاني يستعمل اسلوبا قصصيا كلاسيكيا . يتحدث عن البطل او يتركه يتحدث عن نفسه . وعن مشاكله الصغيرة . كما في قصة **شيء لا يذهب** . لكن المقصود ليس البطل او حياته او مشاكله الصغيرة كما في قصة **شيء لا يذهب** . المقصود هو الموقف . هو اللحظة التي تسربت من اصابع اليد ولم يبق سوى العار .

الحركة الثانية : هذا الذهول المفاجىء هذا الاحساس بالعار المبدئي ، اذا شئنا ، لا يلبث ان يتلاشى امام الحياة اليومية . الواقع الجديد ، واقع الخيام والتشرد ، يفرض الان مشاكله اليومية . يفرض الان ضرورة التأقلم مع هذا الواقع . ففي **موت سرير رقم ١٢** يرتفع الواقع الجديد ، ويدخل في دورة العاديات . حميد الصغير في قصة **كعك على الرصيف** ، يمثل هذا الواقع . اولاد المخيم هم مجرد «صغار ينتظرون بفارغ الصبر صوت الجرس الاخير كي يشدوا أنفسهم الى ازقة مترامية في مجاهل دمشق الكبيرة يصارعون الغروب من اجل ان يكسبوا العشاء . » المدرسة أصبحت فرصة انتظار لجرس كبير في سبيل الذهاب الى العمل . الاطفال يفقدون بسرعة براءتهم ، وطفولتهم ، ليصبحوا رجالا يتعاركون مع الرغيف . في الوقت الذي تتابع فيه المآسي سيرها . فوالد حميد يجن عندما يشاهد رأس ابنه الكبير يقطعه المصعد . والام تموت .

هذا البؤس يتابع سيره مع ابناء المخيمات المهاجرين بحثا عن لقمة العيش . ففي قصة **لؤلؤ في الطريق** تنتهي عملية البحث عن الثروة بالموت امام الاصداف بحثا عن اللؤلؤ . وفي قصة **ثماني دقائق** ترتسم امامنا صورة العلاقة الرهيبة بين الراسمال والعمل رجل يخاطر بحياته في سبيل عشر ليرات او اقل والرأسمالي يتغامز مع صديقته فيما العامل يواجه خطر الموت .

في مجموعة **ارض البرتقال الحزين** : يصل هذا التوتر الى ذروته . في قصة **أبعد من الحدود** يعرض كنفاني وبشكل واضح مأساة التشرد . يجمع الواقع البائس مثل لكمة في قبضته ويضربها « انا لست منحدرا من صلب دولة تسأل بين الفينة والفينة عن رعاياها . وانا ممنوع من حق الاحتجاج ومن حق الصراخ » . هذا التوتر يستمر متصاعدا : « لقد حاولتم تذويبي يا سيدي ! . . . ألست ترى أنكم استطعتم نقلي من انسان الى حالة » . « انا كفرد مجرد خنزير ، أنا كجماعة **حالة** ذات قيمة تجارية وسياحية وزعامية » . الواقع يتكشف بسرعة . الفلسطيني مسحوق . تحول الى مجرد حالة . حالة للفرجة وللسياح ووسيلة لتزعم المتزعمين .

وفي قصة **الافق وراء البوابة** : يتكشف لنا البعد الانساني من المأساة . لقد ماتت شقيقته بعد ان « قاءت بندقيته القصيرة كل ما في جوفها ثم تحولت الى عصا ، مجرد عصا ناشفة لا تصلح لشيء » وامه في الارض المحتلة ماتت هي الاخرى . وامام بوابة مندلبوم يتواجد هو وخالته . لا هو يعرف بموت امه ولا هي تعرف بموت شقيقته . الاحساس المأساوي يدوس الناس .

اما قصة **البرتقال الحزين** : فانها في تصويرها للمأساة ، تصور كيف يتساقط الرجال تحت عبء الهزيمة والتشرد . حتى يصل الامر بوالده الى الصراخ « اريد ان اقتلهم وان اقتل نفسي » اليأس يصل الى حافة الانتحار والقضاء على العائلة بأسرها بعد ان كان «يركض وراء السيارات كطفل صغير » عندما علم بدخول الجيوش العربية لتحارب في فلسطين سنة ١٩٤٨ . انعكاس الهزيمة باتجاه الدمار الذاتي . الفشل في مواجهة نتائجها الصعبة، فمحاولة انهائها عبر الارتداد على الذات . امام هذا الواقع يأتي الجواب السهل :

الانزلاق في دوامة اليأس ثم الانزلاق والسقوط الى الهاوية .

في **موت سرير رقم ١٢** يبدأ هذا السقوط حتى يصل الى القاع في **عالم ليس لنا**(٦) . ففي قصص موت سرير رقم ١٢ تبرز الصورة . في قصة **العطش** نلحظ مظاهر الكآبة والوحدة . المثقف يذهب الى الكويت بحثا عن لقمة الخبز . فيجد امامه الكآبة والوحدة القاتلة . يعطش طوال الليل ولا يجد الى جانبه من يقول له انه عطشان . « غدا ايها الانسان الكئيب لن تكون سعيدا . الانسان الذي سوف تجلس معه لن تسمع كلمة من كلماته . أنت تبحث عنه فقط كي تقول له كأنك تحكي شيئا عابرا أمس انقطع الماء عن منزلي » . وفي قصة **اكتشاف الاخرين** يتدلى حبل اليأس والعزلة . فها هو يترك الحزب ويحس نفسه متحررا ولا بديل امامه سوى العبث .

وفي كتاب **عالم ليس لنا** يتصاعد هذا الشعور عبر قصة **عشرة امتار فقط** . هنا تبدأ القيم تتهاوى أمام بؤس الحياة وحيث ترتفع الكلا . « كلا ان هذا لن يصلح الانسان قط » . وفي **علبة زجاج واحدة** ، يتابع الواقع البائس سحقه للانسان امام بيوت الدعارة المترفة . أن هذه الحركة التي تصور البؤس اليومي في المخيمات من جهة والعجز التام عند المثقفين وتساقطهم أمام مطالبهم اليومية الملحة وامام واقعهم المعاش يوميا تفتح عبر ثلاث قصص قصيرة الباب امام **الحركة الثالثة** .

الخراف المصلوبة في مجموعة موت سرير رقم ١٢ ، حيث الراعي يطلب الماء لقطيعه والذاهبون الى الحج عبر الصحراء يعرضون الماء عليه هو دون ان ينتبهوا الى قطيعه **المنزلق** في مجموعة عالم ليس لنا . حيث يظهر التناقض التناحري بين الطبقات ، فالغني الذي يملك قصرا ينتعل في حذائه « أطرافا من لحم ابي ، بل ربما تجد عينيه وانفه في نعل حذاء ماء » كما يقول الطفل الصغير في المدرسة مخبرا حكاية والده . **كفر المنجم** : حيث لا تأتي الثروة التي تنز من الحيطان الا ممزوجة مع البصاق « انه سائل البصاق ، تنزه الجدران كل مساء ولكنك لا تلبث ان تعتاده » ثم تبدأ عملية التخلي عن مواقع الجمود . كي تبدأ حركة جديدة .

الصوت هنا لا يزال محتفظا بنبرته الحادة كما في الحركة الاولى . لكنه يواجه النتائج الان ويغوص فيها . القضية لم تعد تنعكس انعكاسا مباشرا او غير مباشر على اصحابها . انها تنحل فيهم انحلالا تاما . وهم يئنون من تحتها وهم عاجزون عن متابعة الشوط . اما الذين يهربون الى الثروة وينتعلون انف والد الطفل او عينيه فانهم يعيشون مع البصاق . يعتادونه . لكن هذا لا يغير من طبيعة حياتهم . البطل هنا لا يزال صرخة . لا يزال موقفا . لكن الاشياء الصغيرة التي يتحرك من ضمنها تفرض عليه جوها القاتم المليء بمرارة شمس لاهبة . ولا مفر .

الحركة الثالثة : تظهر الحركة الثالثة في المجموعات الثلاث . ففي موت سرير رقم ١٢ تأتي قصة **الرجل الذي لم يمت** . كنفاني يعيدنا هنا الى أجواء المقاومة . السيد علي صاحب الارض يبيعها لليهود . جميع اهل القرية يحنقون منه . السيدة زينب تطلب منه ان لا يبيع الارض . لكنه يبيعها . فيقوم نجلها حمدان وشقيقته ووالده بمحاولة قتله . لكن الذي يقتل هو حمدان اذ تنفجر البندقية فيه . اما السيد علي فانه يصاب في صدغه ورقبته . وبعد اعوام طويلة تشاهد السيدة زينب السيد علي في السيارة « ولاول مرة منذ غادرت ارضها احست بشيء من الراحة لان السيد علي لم يمت . . . وانه ما زال حيا يحدق كل صباح بالجرح الطويل المحفور في صدغه وعنقه ويتذكر الارض التي باعها » .

وفي **أرض البرتقال الحزين** . . تروي لنا **ثلاث اوراق من فلسطين** قصة المقاومة ولو الفردية في **الرملة** على يد ابو عثمان المسالم . وفي **ورقة من الطيرة** يضع بائع العجوة

يده على الجرح ويدل على الخونة : « الذنب ليس ذنب الشرطي انه ذنب الذي أضاع فلسطين . . . » « الخطأ لم يكن مني انما كان من فوق . من هؤلاء الذين يقرأون ويكتبون ويرسمون خطوطا ملتوية ينظرون اليها باهتمام » . وفي **ورقة من غزة** يرفض الهجرة ، يرفض اغراء المال والراحة امام آثار العدوان على غزة ، التي تنعكس على ساق ناديا ابنة شقيقه . عليه أن يلتحم بالمأساة تمهيدا للخروج منها ويدعو صديقه الى العودة « عد لتتعلم من ساق ناديا المبتورة من أعلى الفخذ ما هي الحياة وما قيمة الوجود » .

هذه العودة الى الماضي ، والدعوة الى الالتزام تأخذ شكلا متحـديا في قصة **الاخضر والاحمر** : « لا تمت قبل ان تكون ندا » وفي قصة **لا شيء** حيث يتهم الجندي الذي أطلق الرصاص عبر الحدود بأنه مصاب بانهيار عصبي . فيتعجب الجندي قائلا « وهم ليسوا مصابين بذلك الشيء الخطير لانهم يتعمدون أن لا يطلقوا الرصاص» . وفي **قتيل في الموصل** يحاول كنفاني أن يصور الطريق العربي الى فلسطين طريقا مارة بالمدن العربية قبـل الوصول الى مدن فلسطين . وفي مجموعة عالم ليس لنا يخبرنا قصة **الصقر** كيف ان « الغزلان تحب أن تموت عند أهلها ... الصقور لا يهمها اين تموت » .

هذه الحركة الثالثة هي مؤشر ما قبل طرح الاسئلة . انها فقط تحاول ، وتحت تأثير الذهول والصدمة ، أن تسترجع من الماضي بعض صفحاته الناصعة . الهزيمة لا تزال ماثلة في الاذهان . لكن البطل هنـا يكتسي مزيدا من اللحم والعظم . انـه ليس حالة وليس ذهولا . انه الآن صرخـة تحـاول ان تـدل على الجرح ونحـاول ان تمسه . غسان كنفاني يحافظ هنا على الثنائية . فبينما يدل بائع العجوة بكل بساطة على مصدر الجرح « الخطأ كان من فوق » يجيب هو وبصوت حاد الملامح « لا تمت قبل ان تكون ندا » . وبينما الحس الشعبي البسيط عند السيدة زينب يدفعها الى الفرح لان السيد علي لم يمت . يكون هو داعيا الى ترك الهجرة الى الخارج ـــ نبذ نزيف المثقفين ، من اجل أن يتعلم من ساق ناديا معنى الحياة .

هذه الحركات الثلاث تلتحم فيما بينها لتؤلف لحنا متماسكا هو لحن الذهول والصرخة . أمام الفجيعة تأتي هذه المجموعات الثلاث محاولة لاستيعاب أبعادها لهضمها . وقصة **العروس** في مجموعة عالم ليس لنا تعطي دليلا صحيا على هذا الهضم . فالقصة هذه كتبت سنة ١٩٦٥ ، حيث كان يلزم الجنون بحثا عن بندقية . البطل الفلسطيني في هذه القصص القصيرة بطل ثنائي : هو الحس الشعبي والاديب في آن معا . الحس الشعبي ينساب انسيابا في الحركتين الاولى والثانية . ثم يأتي الاديب بصوته الحاد ليلجم هـذا الانسياب . ليعلمه على الاقل ان هناك امكانية لطرح سؤال جذري . والبدء في عملية الاجابة عليه . البطل في هذه الحركات الثلاث ، لا يزال خارج الفعل التاريخي . الواقع يرتطم به ، وهو حين يحـاول ان يناضل ، لا يترك سوى جـروح على وجوه الخونة . مرحلة رد الفعل لا تزال هي السائدة . والبطل لا يقوم بعملية كشف جذرية عـن مأساته . يحاول فقط ان لا يغرق فيها ويبدأ عملية تلمسه لها . كنفاني يعبر عن الطبقة المسحوقة ، عن ابناء المخيمات . حتى مثقفوه هم ابناء المخيمات الذين يكدحون في سبيل العيش . الفعـل الطليعي لم يدخل بعد . والبطل لا تزال ملامحه تتكون في قلب المأساة نفسها . كنفاني لا يستطيع الخروج من المأساة وتحليلها من الخارج . لا يزال الصوت مجرد صراخ . والابطال ونفسياتهم لا تزال تغلي عـلى مقلاة العدو . والعدو نفسه لا يظهر مباشرة انه اليهود فقط . ليس شخصا او مجموعة اشخاص انه قضية . والطريق لم تتضح بعد .

ب ـــ السؤال وبداية الفعل : الخروج من مرحلة الذهول والدهشة والانزلاق ، التي أعقبت الهزيمـة الاولى ، يتم على مراحـل . ففي المرحلة السابقة كـان كنفاني يضع

اللمسات الاولى للخروج . أما الآن فالصوت يبدو أكثر وضوحا والصدمة تنحل لتأتي معها محاولة لوضـــع الامور في نصابها ، محاولة للبـــدء في المسيرة الطويلة . الان يبرز السؤال : يجب أن نفعـــل شيئا فلماذا لم نفعل هذا الشيء ؟ ثـــم يلوح وجه الام البعيد يجب الذهاب اليها والاشتباك بالجندي الاسرائيلي وقطع الصحراء وصولا اليها .

هذه المرحلة تسجلها بكل صدق روايتا **رجال في الشمس** و **ما تبقى لكـــم**(٧) . المرحلـــة برمتها تتأرجح بين نقطتين : السؤال وبداية الفعل . السؤال هو نتاج للمرحلة الماضية وبداية الفعل هي بداية مرحلة جديدة . وبين السؤال والفعـــل تتبلور شخصية البطل الفلسطيني بشكل أوضح ويصبح للاديب دوره الحـــاسم وتأخذ القضية مداها التاريخي الواقعي .

١ ـــ في **رجال في الشمس** يطرح كنفاني السؤال منطلقا من الواقـــع اليومي المعاش . ركض الفلسطيني وراء الرغيف الهارب عبر الصحراء الى الكويت . وتتحرك القصة عبر أربع شخصيات رئيسية تمثل الاجيال الفلسطينية المختلفة ، والهموم اليومية التي تشدها الى بعضها ، هموم المخيم والتوق الى سقف الباطون والى الحياة .

أبو قيس . رجل عجوز ، الارض لا تزال تحت جسده ترتعش مثل امرأة ، ورائحتهـــا تجعله « يتنسم شعر زوجه حين تخرج من الحمام وقد اغتسلت بالماء البارد . . . الرائحة اياها ، رائحة امرأة اغتسلت بالماء البارد وفرشت شعرها فوق وجهه وهو لم يزل رطبا » . لكن الحياة شيء مختلف . فالموت افضل من حياته . لا بد من بعض المال .

وحين تأتيه فكرة السفر الى الكويت لجمع الثروة يدور بينه وبين زوجته الحوار التالي :
« ماذا ترين يا أم قيس ؟

حدقت اليه وهمست :

ـــ . كما ترى أنت
ـــ سيكون بوسعنا أن نعلم قيس
ـــ نعم
ـــ وقد نشتري عرق زيتون أو اثنين
ـــ طبعا
ـــ وربما نبني غرفة في مكان ما . .
ـــ أجل
ـــ اذا وصلت . . اذا وصلت . . . »

أسعد : أسعد هو الآخر يحلم بالدنانير في الكـــويت . اقترض خمسين دينارا من رجـــل يريد تزويجه ابنته . وهو في هذه الصفقة لا حول له . فندى قدره كما يعتبرها عمه لمجرد أن أباه قرأ الفاتحة مع عمه حين ولد هو وولدت هي في يوم واحد . واسعد له تجاربه مع المهربين . فقد دفع عشرين دينارا ليهربه ابو العبد من عمان الى بغداد . فأخذ الدراهم وتركه وحيدا في منتصف الطريق .

مروان : مروان لا يزال صغيرا . شقيقه الذي في الكويت تركهم بدون معيل لانه تزوج . ووالده هو الآخر ترك أمه ليتزوج بشفيقة التي فقدت ساقها اثناء قصف يافا والتي تملك بيتا في طرف البلدة . اذن عليه هو أن يعيل العائلة .

امام أبواب المهربين في البصرة كان الثمن غاليا ١٥ دينارا . لكن ابـــا الخيزران يعرض على مروان تهريبهم الى الكويت بخمسة دنانير . اما الطريقة فهي بواسطة ناقلة ماء . يبقون في الخزان ست دقائق عند عبور الحدود العراقية الكويتية . لم يكن الامـــر سهلا فعند الوصول الى نقطة الحدود يبدأ ابو باقر وبقية موظفي الحدود بممازحة السائق .

تنقضي نصف ساعة . ثم في عرض الصحراء يفتح ابو الخيزران باب الخزان ليجد الثلاثة جثثا في داخله .

الشخصيات الثلاث التي تتحرك داخل هذه القصة لا يمكن فهمها دون فهم البؤس اليومي الذي يعيشه سكان المخيمات . انها شخصيات **واقعية** تريد الخلاص بسرعة . اما ابو الخيزران الـــذي فقد رجولته في الحرب ، فانه يريد هو الآخر تجميـــع الثروة بواسطة التهريب . فقد « ضاعت رجولته وضاع الوطن وتبا لكل شيء في هذا الكون الملعون » . وحين يتلاقى بمروان ويعرض عليه تهريبه يقبل منه خمسة دنانير فقط بينما المهربون المحترفون يطلبون خمسة عشر دينارا سلفا . لكن المفاجأة كانت على الحدود . حين يبدأ الموظفون بممازحته حول علاقاته الجنسية بالراقصات في البصرة . في غمرة الممازحة يموت الثلاثة . فيرميهم أمام المزبلة في الكويت بعد أن يسرق دراهمهم . ثم « انزلقت الفكرة من رأسه ثم تدحرجت على لسانه : لماذا لم يدقوا جدران الخزان ؟ دار حول نفسه دورة ولكنه خشي ان يقع فصعد الدرجة الى مقعده وأسند رأسه فوق المقود : لماذا لم تدقوا جدران الخزان ؟ وفجأة بدأت الصحراء كلها ترد الصدى : لماذا لم تدقوا جـــدران الخزان ؟ لماذا لم تقرعوا جدران الخزان ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ » قصة كنفاني هذه تمثل قفزة نوعية على المستوى الفني . الشخصيات تتحرك بحرية . انهـــا من اجيال مختلفة وأمامها هدف واحد . القضية تبدو للوهلة الاولى بعيدة . انهـــم فقط يعانون النتائج . تماما مثل أبي الخيزران . ثم فجأة نكتشف في نهاية القصة أن الجميع يعانون من فقدان الرجولة . وأن الصحـــراء تئن من تحت اقدامهم تسألهم لمـــاذا الصمت . هذه القصة الرمزية تتحاشى جميع مشاكل وتعقيـــدات الادب الرمزي . رمزهـــا واضح وجلي . الشعب الفلسطيني يموت كل يـــوم في الخزان دون ان يصرخ ، فعلى الارض أن تصرخ الآن .

البطل في هذه القصة هو الكادح الفلسطيني . لكن الفنان يمسك جيدا بمقود عربته . ان النتيجة التي وصلوا اليها تكمن في كونهم لم يدقوا الجدار . ويطرح كنفاني السؤال اللافح لماذا ؟ القضية بدأت تأخذ حجما جديدا . انها مرحلة جديدة في الوعي . التفاعل مع الحياة الرتيبة المرهقة بدأ ينتج أسئلته . والسؤال الرئيسي بحاجة الى جواب . الكاتب يتمسك جيدا بمقوده فالغرق في مجانية المـــوت يجب ان يصحبه سؤال . وسؤال جارح تردده الصحراء حتى تتبدى معالم الطريق .

٢ ــ في رواية **ما تبقى لكم** تأخذ القضية حجما جديدا فتتجه نحو بداية الفعل التاريخي . الساعة والانسان والصحراء تختلط بصورة رهيبة . الانسان يصبح امتدادا للارض . والفعل يصبح بداية نحو الطريق الطويل . حامد يزوج أخته لزكريا النتن الذي باع سالم وباع الشعب . زوجه اخته مكرها وصفق الباب وراءه مغادرا غزة الى الاردن الى أمه . « لـــو كانت أمك هنا » . الابطال الخمسة في هذه الرواية حامد ومريم وزكريا والساعة والصحراء يتداخلون . الهزيمة تتداخل مع أسبابها ومع أسباب نهايتها .

الارض ترتعش كالعذراء وتخاطب حامد . « كان وحيداً تماما ، بلا سلاح وربما بلا أمل ايضا ، ورغم ذلك فعند لحظة الرعب الاولى ، قال انه يطلب حبي لانه ليس باستطاعته ان يكرهني » . حامد يخرج الى أمه . ومريم أمام قدرها زكريا . والجنين يخبط في بطنها . والمسافة بين غزة والاردن طويلة وحامد بلا دليل . ترك الساعة تدق فوق رأس مريم وذهب . وزكريا لا يريد الطفل . مريم تخاف من ضرتها فتحية التـــي أنجبت له خمسة أطفال . وأم حامد في الاردن . والصحراء منبسطة أمامه . يرمي ساعته عليها . ويشتبك مع **جندي اسرائيلي** ينتصر عليه دون ان يستطيعا الكلام أو التفاهم . وهو يستطيع أن يحز عنقه دون رجفة واحدة . لا شيء بقي له . صداق أخته مؤجل ، كل شيء مؤجل « ما تبقى لها . ما تبقى لكم . ما تبقى لي . حساب البقايا . حساب الخسارة . حساب

الموت . ما تبقى لي في العالم كله : ممر من الرمال السوداء ، عبارة بين خسارتين . نفق مسدود من طرفيه . كله مؤجل كله مؤجل » . فيما حامد يطبق على الاسرائيلي ، كانت مريم تمسك السكين وتطعن زكريا في عانته فوق فخذيه مباشرة . « واضاء شعاع الشمس الضيق المتسرب من النافذة خطا رفيعا من الدم » .

استطاع كنفاني في هذه القصة ان يتوغل أكثر نحو المستقبل. بينما أبطاله الثلاثة في **رجال في الشمس** يموتون دون صراخ . دون محاولة . فان الابطال في **ما تبقى لكم** يتمازجون جميعا حتى لتخالهم بطلا واحدا هو **الموت** . الموت من حيث هو فعل وتحد . أمراض الشعب الفلسطيني تتكشف . الوقت يمر مسرعا . ومريم تنام مع زكريا . وزكريا يخون جميع أهل غزة بتسليمه سالم . وحامد يضرب في الصحراء . وامامه جندي اسرائيلي . الاعداء جميعهم . الامراض كلها هنا . والمستقبل هو في ولوج طريق الموت .

مع هذه الرواية يدخل البطل الفلسطيني مرحلة ولوج الموت . انه داخل الفعل التاريخي. بدأت تتكشف له امكانية صنع اللحظة . تتكشف عبر ضباب كثيف وضياع شديد . لكنها تظهر الابطال مسكونين بالقضية ، علاقتهم بها علاقة حياة او موت . هي التي صنعتهم على هذه الشاكلة وهي التي ستفتح لهم من جديد أبواب العبور . كنفاني لا يعظ . يأتي صوته ممتزجا بصوت الصحراء. القضية تلد ابناءها. هكذا يتبدى لي. حامد ومريم وزكريا يعبرون مجتمعين عن العديد من جوانب الشخصية الفلسطينية . شخصية ابناء المخيمات . مريم تحرر نفسها بالسكين . وحامد يحرر نفسه بالهرب الى أمه عبر الصحراء . لكن الصحراء تكشف له عن عدوه الحقيقي ، عن الاسرائيلي الذي عبر قتاله ستعود أمه وتولد من جديد . الموت بشارة للجديد الذي يتمخض عنه الانسان الفلسطيني .

الاسرائيلي في **رجال في الشمس** لا يعترض الطريق . ليس موجودا بعد . الشعب الفلسطيني ينهزم دون أن يرى عدوه. اما في **ما تبقى لكم** فان المسير نحو الموت والتحدي عبر جسد الصحراء يتكشف لنا عن العدو الرئيسي . الاسرائيلي هناك . ويمكن الانتصار عليه . **اما الحوار معه فهو مستحيل** . الحوار الوحيد الممكن هو حوار القتال .

في هاتين الروايتين يكشف كنفاني عن ابعاد جديدة في القضية . يمتزج مصيره بمصير الشعب . القضية لم تعد قضية فردية . اي لم تعد الهزيمة تنعكس على أفراد يعانون المصاعب والذل . صار الذل جماعيا ، وضرورة القتال والخروج نحو الام صارت ضرورة جماعية .

اذا حاولنا ان نقارن بين كنفاني ، الذي ينطلق من مواقع المخيم وبين أديبين عربيين آخرين ، ينطلقان من مواقع طبقية أخرى ومواقع ايديولوجية مرتبطة بالثقافة المستلبة فماذا نجد :

في الوقت الذي كان كنفاني يكتشف جدلية السؤال وتلمس الجواب ، كانت سميره عزام تطرح حلا سهلا . ازدواجية المثقف ــ الجماهير يمكن حلها بواسطة الارهاب الفردي . ففي قصة **لانه يحبهم** المنشورة في مجموعة **الساعة والانسان**(٨). البطل هو موظف في الوكالة . يرى بعينيه كيف يموت شعبه يوميا . وكيف تذلهم الاعاشة . تتكشف له حقيقة المأساة التي تنزع عن الناس انسانيتهم لتحيلهم الى لصوص ولتدمر حياتهم العائلية . « لقد فقدوا الكرامة حين فقدوا الارض » لكن ما هو الحل ؟ الحل هو حل فردي ، حل ارهابي . يحرق مخازن الوكالة لانه يريد أن « يعرف كل الناس ، كل اللاجئين ، كل من في الوكالة ، وسيعرف المحقق بالذات ، انه شيء اكبر من لص ، وأرفع من وغد ، وان قومه لن يلعنوه اذا جاعوا . . . فما حرق قوتهم ، وما سلط ناره على غنائم اللصوص والفئران الا لانه . . . يحبهم ! » .

أما حليم بركات فانه في روايته **ستة أيام**(٩) يعطي صورة المثقف الفلسطيني غير القادر على الاندماج في حركة تطور شعبه . يثور على الاهتراء ، على الفساد ، وعلى الكبت الجنسي بوصفه تعبيرا عن السلفية الاجتماعية . يريد التحرر بسرعة . وبعد حين تسقط دير البحر بعد ستة أيام ، وينكشف الجواسيس ، وتتهاوى المقاومة . يظهر لنا جليا كيف ان بركات يكتب بوصفه مثقفا . يعبر عن شريحة اجتماعية شاركت في القتال . لكنها أبقت على مسافة ما بينها وبين حقل المعركة . المثقف هنا عاجز . رجلاه في دير البحر ورأسه في لندن . يخطب في الجماهير ويحتقرها في آن معا . يهرب من المظاهرة لان « الانسان يشعر انه قشة في التيار » . بركات لا يستطيع ان يفهم حركة الجدل الجماهيرية . حركة الجماهير الواقعية . لذلك فهو حين يبقى خارجها لا يعبر عن نفسه فقط ، بل عن شريحة اجتماعية هي ضحية علاقة التبعية وبالتالي ضحية عجزها .

ج ــ **الثورة هي الطريق** : لقد حولت هزيمة ١٩٦٧ القضية الفلسطينية من قضية الى ثورة . هذا التحول العنيف والسريع لم يجد مقدماته في الحرب ، انما وجد من خلال الهزيمة طريقه . فالمقدمات صنعتها مقاومة غزة والطلائع المسلحة . اما الطريق الموضوعي فقد فتحته هزيمة الانظمة . تراجعت الانظمة لتدخل الشعوب . بمقدار ما كانت البداية الجديدة غنية بالتجارب النضالية ، فانها كانت غنية بالعطاء الادبي والفني . وفي الواقع فان كنفاني يبدو وكانه يتجاوز الهزيمة بسرعة واضعا يده على الجرح ، رافعا اصبعه مشيرا الى الطريق الى الكفاح المسلح .

يقدم لنا كنفاني وحليم بركات صورتين مختلفتين عن الهزيمة . فبينما بركات لا يزال غارقا في روايته « **عودة الطائر الى البحر** »(١٠). في ذاتيته المثقفة . فانه هنا يعطي وجهين للواقع . **الوجه الشعبي** . محاولات المقاومة الفاشلة لدخول الاسرائيليين الضفة الغربية خلال أيام حرب ١٩٦٧ . والوجه الآخر . وجه المثقف الذي يرى بعض مظاهر امراض مجتمعه . المثقفون معزولون عن الحياة العامة . « أين المؤسسات التي تعرف كيف تستفيد من خبرتهم » ونقدا للحركة الثورية العربية : « انا لا أقلل من شأن الحركات الثورية انا لا اعتبرها موجودة . هناك انقلابات لا ثورات اجتماعية . لا تؤاخذني اذا كنت صريحا . أنت ثوري سياسيا ورجعي اجتماعيا. لا أحد منا يتمرد على التقاليد . . . » هذا المثقف المعزول تنكشف له الحقيقة بسرعة على انقاض حزيران : « لم يكن يخطر في باله أن في لبنان فئة كبيرة محرومة » . والحل يتبدى على وجه الفدائي الذي هو « رمز لانسان يتمكن من أن يرفض كل مغريات العالم التي نتكالب عليها ونتصادم من اجلها ونبيعها حياتنا » . ثم يقرر رمزي صفدي بطل روايته الدخول الى عاصفة التاريخ . حليم بركات يظل خارج الحركة الواقعية . عاجزا . مثقفه رمزي صفدي لا يستطيع أن يخرج من ذاتيته لذلك فهو يفهم العمل الفدائي بشكل مثالي . لا يفهم أن الجماهير حين تدخل النضال المسلح ، فانها تدخله لانها لا تخسر شيئا . فهي لا تملك شيئا . ولا يفهم ان الحاضر لا تغيره الكلمات بل العملية الثورية نفسها هي التي تسحق وتمحي العادات والتقاليد القديمة التي لم تعد صالحة لنمط الحياة الجديد . النمط الجديد هو الذي يخلق طريقته في الحياة .

في المقابل ، فان كنفاني بعد **ما تبقى لكم** ، يستكشف الطريق . الطريق هي في الغوص عمقا نحو الشعب . وهو على ثقة كاملة بقدرة الجماهير على التعلم من تجاربها وتجاوز اخطائها .

في هذه المرحلة كتب كنفاني كتابين : **عن الرجال والبنادق**(١١) و **أم سعد**(١٢). تعبر **عن الرجال والبنادق** عن واقعين :

١ ـــ لوحات تأتي عن **الثورة** قبل الهزيمة الاولى . فالصغير منصور يستعير مرتينة خاله ويحارب في صفد . بينما أخوه الطبيب غارق مع النساء اليهوديات . نسي الوطن . وترك والده يموت دون أن يدري به بعد معركة قلعة جدين : صور متلاحقة عـــن الثورية الشعبية فيها الكثير من البساطة والكثير من الصدق والعمق . فبعـــد تدمير سيارة عسكرية انكليزية يلتفت ابو العبد صوب ابو الحسن ويدور بينهما الحوار التالي :

« ــــ اتعرف يجب ان نعود الى ذلك الجندي فنضربه . لقد نسينا ان نفعل ذلك .

ــــ ماذا .

ــــ لقد كنت كل عمري اشتهي ان اصفع جنديا انكليزيا على وجهه ، ورغم ذلك فقـــد نسيت أن افعل . »

ثم تأتي لوحة **الصغير يذهب الى المخيم** او زمن الاشتباك . في هذه اللوحة يعطي كنفاني اصدق صورة ممكنة عن واقع المخيم بعد الهزيمة . الرجال الذين حملوا البنادق وحاربوا ، صاروا الان زوايا مهملة في المخيم ينتظرون الخمسة قروش ليشتروا الجريدة يتابعون فيها ماذا يحدث لقضيتهم . والزمن هو زمن اشتباك . « العالم وقتئذ كان يقف على رأسه . لا أحد يطالبه بالفضيلة . سيبدو مضحكا من يفعل . . . أن تعيش كيفما كان وبأية وسيلة هو انتصار مرموق للفضيلة . حسنا . حين يموت المرء تموت الفضيلة . » اللوحات التي تعبر عن الواقع الاول تعود بنا الى الماضي . تصوره . لا تطرح حوله التساؤلات . كاميرا سينمائية تنتقل من موقع الى آخر حتى نصل الى المخيم الى زمن الاشتباك . ابطال هذه المرحلة عاديون ، بسطاء . يعرفون ان الحرب طريق الخلاص . يواجهون عباس المرابي الذي يؤجر بندقيته لقاء رهن حقل الزيتون . لكنهم لا يهتمون به يتوجهون صوب المعركة . ثم تأتي **زمن الاشتباك** لتسلط الضوء على حياة المخيم . حيث المهم ان تجد لقمة تأكلها . لا بأس ان سرقتها من فم آخر . المهم ان تأكل .

٢ ـــ ولوحات **المقاومة** . تبدأ بقصة الفأس . المفتاح المعلق على الحائط . طول عمره كان يعتقد انه يشبه الفأس . لكن ابنه الآن لم يلاحظ . . . ثم فجأة ومع دوي طبول الحرب في أيار ١٩٦٧ يتحول المفتاح في عين الصغير الى فأس . يعود الوطن ليأخذ شكله ، شكل المقاتل . ثم تبدأ المقاومة عبر لوحتين : ففي **اشياء كثيرة في ليلة واحدة** الواقع يفرض نمط المقاومة وضرورتها . فكما ان اصوات الحرب في أيار اعادت المفتاح الى حجمه التاريخي كذلك فان الطبيعة الموضوعية للعدو الاسرائيلي تفرض المقاومة :

« ـــ وما الذي سيفعلونه الآن ؟

ـــ سينسفون البيوت .

ـــ بيوتنا

ـــ لماذا

ـــ لانني

ـــ لانك

ـــ لانني بريء » .

وفي اللوحة الاخيرة تأخذ المقاومة حجمها . فحامد أصابه الطرش وهو يقاتل . ولا يريد بعد الآن ان يسمع العويل والكلمات . ماضي البكاء يجب دفنه أمام الرجال والبنادق الذين يتقدمون نحو الارض . الابطال هنا يقذفهم الواقع الموضوعي الى القتال . الهزيمة وواقع الاحتلال والوطن الذي أصبح أكثر بعدا . هذه الاشياء مجتمعة تدفع الناس الى القتال . وعندما يقاتلون فانهم يطرشـون . يطرشـون عن الماضي وايديولوجيته ليفتحوا صفحة جديدة .

في **أم سعد** المقاومة تأخذ شكلها الواضح . « اننا نتعلم من الجماهير ونعلمها . ومع ذلك فانه يبدو لي يقينا اننا لم نتخرج بعد من مدارس الجماهير المعلم الحقيقي الدائم ».كنفاني في هذا الكتاب يتقمص شخصية ابن المخيم كاملة . الواقع الرهيب ، الذي يدفعه دفعا الى القتال . « بدأت الحرب بالراديو وانتهت بالراديو . وحين انتهت قمت لأكسره » هكذا ابتدأت أم سعد تخبر . ثم تبدأ المقاومة فتكتشف ام سعد بعد التحاق ابنها بالفدائيين « أن خيمة عن خيمة تفرق » وانه « اذا لم يذهب سعد فمن سيذهب » . ثم في **قلب الدرع** في ارض العدو سعد يعتقد أن أمه تلاحقه ، وانها تأتيه بالطعام . ثم نرى **الذين هربوا والذين تقدموا** عبر العدوان الاسرائيلي على مطار بيروت . لكن قضية أم سعد تأخذ حجمها الكبير في لوحة **رسالة بعد ٣٢ سنة** . في هذه اللوحة محاولة جادة للتعلم من الماضي. من علاقة فضل وعبد المولى فضل الذي ذهب الى الجبال كي يحارب، ثم رجع فوجد عبد المولى الجبان والخائن يصبح زعيما . ونسمع الحوار التالي :

« ـــ لو ظل في الجبل يا أم سعد ما استطاع عبد المولى أن يقيم حفلة

ـــ صحيح لو ظلوا كلهم . ولكن ماذا حدث . المسكين فضل ركبوا على ظهره في المعصرة وفي الجبل ثم في المعصرة . ولو جاء الى المخيم لركبوا ايضا على ظهره » .
الأصرار على البقاء في الجبل . على عدم المهادنة والقبول بالخداع .

يسجل كنفاني التغير الكبير الذي حصل في المخيم . نفسية الناس تغيرت مع العمل الفدائي . ام سعد تنزع حجابها القديم . وتضع رصاصة فارغة حجابا لها . وتتحدى العسكري. لم تقل له ان سعد قد جاء لا لانها تخاف على سعد بل لانها تخاف من سعد على العسكري . وابو سعد حين تأتي البنادق الى المخيم ويتدرب سعيد عليها يصبح رجلا آخر . « الآن يمشي مثل الديك » والدالية تبرعم . في أم سعد كنفاني يخرج الى الجماهير ليتعلم منها بكل اخلاص . الام الفلسطينية تعود ووجهها الملىء بالخيام ينزف رجالا وثورة . غير ان رحلة كنفاني الادبية ، التي يبدو للحظة انها شارفت على الاجابة على السؤال الذي طرحته منذ البداية تتكشف لنا ناقصة . كنفاني ينسى نفسه ودوره. يغرق في الجماهير . ولا يرتفع صوته الا ليذكر بدروس الماضي دروس فضل وعبد المولى وضرورة البقاء في الجبال . يقدس العفوية الجماهيرية وينساق اليها . لا يبقي على المسافة التي تسمح له بالمساهمة في جدلية المثقف ـــ الجماهير . انها عودة الى الحكمة الشعبية . لكن الحكمة الشعبية تصقلها المأساة وتصقلها الثورة . هل يكفي هذا ؟ الخيوط التي تتشابك حول المخيمات وحول الجبال من يفكها على المستوى الفني . ام ان على الفن ان يتنازل عن دوره الجزئي ليقتنع بدور اكثر تواضعا .

ام سعد تذكرنا كثيرا بأم غوركي ، بالبطل الواقعي الاشتراكي ، بالمثال الشعبي الذي يجب ان يحتذى . في مقابل ام سعد تبرز مسرحية الام لبرشت(١٢). يطرح برشت شخصية أم غوركي . لكنه يعطي قدرا أكبر للمسار التاريخي ، للعوامل الموضوعية والذاتية التي تحولها من مجرد ام عادية الى مناضلة ثورية . وصوت المؤلف لا يختفي . يبعد عن شخصياته ويرفع صوته ويعظ . ويدعو . يرينا كيف ان جدلية المثقف ـــ الجماهير وجدلية المثقف الجماهير ـــ الظروف الموضوعية ، تنتج عملا ثوريا . ارادة ثورية .

ابطال كنفاني في هذه المرحلة هم الجماهير . الجماهير البسيطة ، التي تصنع منها الثورة قوة مادية هائلة . العلاقات القديمة تتفكك وتتساقط . والثورة تضع ايديولوجيتها الخاصة .

العودة الى الماضي في **عن الرجال والبنادق** . والحاضر المتحرك في **أم سعد**. هما صورتان

لواقع متصل . الانقطاع الذي حدث عام ١٩٤٨ جاءت الثورة الان لتطمره وتمد جسداً يصلها بماضيها النضالي . الاحساس القديم بالفجيعة وبالعجز يتلاشى . التحسر على الماضي يسقط . البطل الفلسطيني يسترجع صوته القديم . والثورة تصنع نفسها .

القضية تأخذ اليوم حجم الرجال الذين يصنعونها . والصوت يأتي حادا وقويا . انه صوت الذين لا يخسرون شيئا لانهم لا يملكون اي شيء . وعلى رؤوس بنادقهم يأتي مستقبلهم .

د. **القطيعة** : في **عائد الى حيفا**(١٤). يعلن كنفاني قطيعته مع الماضي الذليل . العشرون سنة التي مضت في الخيام ، في احلام العودة دون قتال . وفي سبيل ذلك يروي حكاية سعيد س. الذي يعود الى بيته في حيفا بعد حرب ١٩٦٧ ليجد ان ابنه خلدون الذي تركه خطأ ــ وهو لم يزل في السرير ــ يجده تحول الى دوف الجندي الاسرائيلي وان « الانسان هو في نهاية الامر قضية » . وعبر الحوار الذي يجري بين سعيد س. ودوف يكتشف سعيد الواقع . فالوطن ليس البيت ولا ريش الطاووس . انه قضية هو ان « لا يحدث ذلك كله » . ويكتشف سعيد س. استحالة الحوار وضرورة القتال فاذا به عندما يهم بمغادرة البيت يقول : « تستطيعان البقاء مؤقتا في بيتنا . فذلك شيء تحتاج تسويته الى حرب » . ويتمنى ان يكون ابنه خالد قد ذهب الى الفدائيين اثناء غيابهم عنه . يتمنى ذهابه وهو بنفسه كان قد منعه قبل قليل .

في **عائد الى حيفا** ، ليس هناك ابطال بالمعنى الحقيقي . الابطال هم مجرد حالات تسمح لكنفاني ان يعلن القطيعة والالتحام بالثورة . الماضي القريب يجب رفضه عمليا . والرفض العملي يبدأ مع الطريق الثوري . لاول مرة يظهر الاسرائيلي واضحا . وعنده مشاكله . فميريام الهاربة من « اوشفيتز » الانسانة الطيبة التي تتقزز من تصرفات الهاغاناه ولا تريد البقاء في فلسطين، ميريام هذه تتحول الى مجرد حالة . الصراع ينهي انسانيتها . الانسان هو مسار تاريخي في نهاية الامر . صوت كنفاني الحاد يغطي على الطابع الفني **لعائد الى حيفا** . لكن في صوته تتحد معالم القضية كحد السكين . والاحلام القديمة تتحطم . والزمن هو زمن الفدائي خالد . وليس زمان سعيد س.

بهذه الرواية تنتهي رحلة كنفاني القصصية الى فلسطين(١٥). هذه الرحلة تسجل عبر ابطال قصصه المأساة . ايقاعها ، واقعها ، وطريقة الخروج منها . انها تتواكب مع القضية حتى ليصعب التمييز بينهما بشكل حاد . كنفاني الاديب والفنان يتخلى عن ذاتيته ويذوب في نهاية المطاف في بحر الجماهير . وعندما يموت يتناثر على ارض الوطن . مثل جميع ابطاله . فالارض تضم الجميع . والوطن هو طريق الوصول اليه .

حين يطرح جبرا ابراهيم جبرا تمسكه الشديد بالفردية . ورفضه للالتزام مخافة ان يصبح الفرد « مجرد حنجرة اخرى تردد ما يردده المجموع » اذ « أي أمل يرجى للانسان، للخلق ، للحضارة(١٦)؟ ». في هذه الحالة فانه يزيل عن الانسان حضوره التاريخي . الفرد خارج الجماعة هو خارج نفسه ، هو لا شيء . والفعل التاريخي لا يصنعه الفرد الا بمقدار ما يكون جزءا من جماعة ، من شعب ، من طبقة . ان طريق الفن الثوري صعبة ومليئة بالاشواك . ان عليه ان يزيل ركاما ايديولوجيا كبيرا . ركام الطبقات السائدة التي حولت الفن من اداة جماعية ، من ضرورة جماعية ، الى مجرد لهو وترف. يتخذ وظيفة طمس الحقائق . هذا الطريق ليس سهلا . على الفنان ان يحافظ على معادلة متوازنة ، معادلة الحاضر والمستقبل . معادلة الاستيعاب والتجاوز . استيعاب الماضي وتجاوزه في آن معا .

لقد رسم كنفاني في رحلته القصصية هذه معالم كثيرة مضيئة على الطريق الطويل . ثنائية المثقف ــ الجماهير تنحل عنده نحو ارتباط شديد الوثوق بحركة الجماهير

الواقعية . وأم سعد هي الصوت الذي يأتي من قلب المخيمات ليدل على الطريق . لكن كنفاني في اندفاعه الثوري أخل بشروط هذه المعادلة الصعبة . اخلاله بحد ذاته هو علامة مضيئة . فالاخلال كان دائما يجري لمصلحة المثقف العاجز والمغترب . عنده الاخلال يأتي لمصلحة الجماهير التي تتحرك . من هنا فان غسان كنفاني علامة مضيئة على طريق صعب وطويل ومعقد . طريق بناء فن ثوري وثقافة ثورية تصبح سلاحا فعالا الى جانب الاسلحة الاخرى في معركة الثورة والتحرير.

---

١ — كنفاني غسان ، **أدب المقاومة في فلسطين المحتلة** ، دار الاداب، بيروت ، ص ٢١ .

٢ — **المرجع السابق** ، ص ٥٣ وما يليها .

٣ — كنفاني غسان ، **ارض البرتقال الحزين** ، الاتحاد العام لطلبة فلسطين ، حزيران ١٩٦٣ ، ص ٦١ .

٤ — كنفاني غسان ، **رجال في الشمس** ، دار الطليعة ، بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٦٣ .

٥ — كنفاني غسان ، **موت سرير رقم ١٢ وقصص اخرى** ، منشورات مكتبة منيمنة ، بيروت .

٦ — كنفاني غسان، **عالم ليس لنا**، دار الطليعة، بيروت ، الطبعة الاولى شباط ١٩٦٥ .

٧ — كنفاني غسان ، **ما تبقى لكم** ، دار الطليعة، بيروت ، الطبعة الاولى ايلول ١٩٦٦ .

٨ — عزام سميرة ، **الساعة والانسان**، المؤسسة الاهلية للطباعة والنشر ، بيروت .

٩ — حليم بركات ، **ستة ايام** ، دار مجلة شعر ، بيروت ١٩٦١ .

١٠ — بركات حليم ، **عودة الطائر الى البحر** ، دار النهار للنشر ، بيروت ١٩٦٩ .

١١ — كنفاني غسان ، **عن الرجال والبنادق** ، دار الاداب ، بيروت ، الطبعة الاولى تشرين اول ١٩٦٨ .

١٢ — كنفاني غسان ، **أم سعد** ، دار العودة ، بيروت ١٩٦٩ .

١٣ — Brecht Bertolt, Théatre complet, Tome III, Edition l'Arche, Paris.

١٤ — كنفاني غسان، **عائد الى حيفا**، دار العودة، بيروت .

١٥ — هناك رواية مخطوطة بعنوان **الشيء الاخر** ، لم نستطع الحصول عليها .

١٦ — جبرا ابراهيم جبرا في مقدمة مجموعة **الصمت والمطر** لحليم بركات ، دار مجلة شعر ، بيروت ١٩٥٨ ، ص ١٦ .

برقوق نيســـان

غسان كنفاني

عندما جاء نيسان اخذت الارض تتضرج بزهر البرقوق الاحمر وكأنها بدن رجل شاسع ، مثقب بالرصاص . كان الحزن ، وكان الفرح المختبىء فيه مثلمـــا تكون الولادة ويكون الالم ، هكذا مات قاسم(١) قبل سنة ، وقد دفن حيث لا يعرف أحد ، دون اسم(٢)، ويبدو الان بعيدا كأنه لم يكن طوال العمر الا واحدا من هذه الاحلام العظيمة التي تظل مع المرء وكأنها جزء منه ، وترافقه الى الفناء دون أن توجد حقا ، ومع ذلك فانها قادرة على ان تكون مثل حقيقة ما ، يفتقدها المرء من حين الى آخر ، ويشعر في لحظة او اخرى ملمسها وكأنها فرت للتو من بين راحتيه .

---

١ ـــ كان قاسم خليل قد ولد في طيرة دندن قرب يافا في الخامس من ايلول من عام ١٩٤٠ ، واصبح بعد سنة واحدة الابن الاوحد في العائلة بعد أن مات شقيقه الذي يكبره سنتين اثر اصابته بالحصبة ، ولم يتمكن قاسم من ان يدرس في مدرسة القرية الا حوالي سنتين ، وقد اصبح لاجئا في نيسان من عام ١٩٤٨ ، قبل ان يكمل العام الثامن من عمره ، وبعد ذلك سكن في احد بيوت الصفيح في مخيم عقبة جبر قرب أريحا مع ابويه ، وفي غضون ذلك كان يعمل اجيرا في كراج للسيارات في أريحا ، وتمكن ـــ حين صار في العشرين ـــ من ان يطلق على نفسه لقب ميكانيكي ، وكانت آماله تنحصر في ان يتمكن ذات يوم من ان يصبح ميكانيكي طائرات، أو على الاقل مالكا لكراجه الخاص ، الا أنه في الخامسة والعشرين تخلى عن هذه المطامح . كانت الاحزاب الوطنية في تلك الفترة قد تخلخلت تحت الضربات المتلاحقة التي وجهتها السلطات الاردنية ، وهكذا ضاع أمله في الالتحاق بالحزب الشيوعي الذي كان أحد رفقائه في الكراج يمتدحه أمامه ، فقد ضاعت اخبار ذلك الرفيق فجأة ، وهكذا فكر في ان ينشىء حزبا فدائيا بنفسه ، والتحق بدورة تدريب للحرس الوطني لذلك الغرض ، وحين شرع يرسم خططا صغيرة ليبدأ اتصالاته تفجرت حرب ١٩٦٧ ، وسمع وسط الفوضى ان الفدائيين يحشدون صفوفهم وراء النهر ، فترك والده ومخيم عقبة جبر واتجه الى السلط في الثاني عشر من حزيران ١٩٦٧ .

٢ ـــ في نيسان من عام ١٩٧٠ نشرت الصحف ان دورية اسرائيلية اصطدمت بمجموعة من الفدائيين جنوبي البحر الميت ، وقد استمرت المعركة عدة ساعات استشهد فيها من اصل سبعة فدائيين كانوا هناك ستة ، وتمكن السابع من الفرار ، وقد ظلت اسماء جميع الشهداء مجهولة حيث دفنت بمعرفة السلطات فحسب . الا أن حادثا صغيرا وقع عند ذاك يجدر تذكره : فقد عرضت الجثث على بعض الفدائيين الاسرى في محاولة للتعرف عليها ، وكانت اربع جثث مشوهة بحيث استحال التعرف على أي منها ، وأبدى احد الاسرى شكه في أن تكون احدى الجثتين الباقيتين لشاب يدعى قاسم ، كان يعمل ميكانيكيا في أريحـــا ، وفي اليوم التالي أحضرت الشرطة والد قاسم الذي اعترف بأن ولده يعيش شرقي النهر ولكنه بعدما تفحص الجثة انكر ان تكون لولده ، وكان التشويه يمنع من الوصول الى قرار ، وحين ووجه الفدائي الاسير الذي تعرف على الجثة بوالد قاسم نفى ان تكون شكوكه مبنية على معرفة حميمة بالشاب المجهول ، وما لبث ان تراجع عن شهادته ، وهكذا أخلي سبيل الرجل العجوز بعدما سجل توقيعه وتعهداته على أوراق عديدة تنص على انه سيتحمل بنفسه مسؤولية أي عمل يمكن لابنه قاسم الذي يعيش شرقي النهر ان يرتكبه ضد سلطات الاحتلال.

وكانت نابلس ، ذلك الصباح ، منكفئة على نفسها وكأنها ما تزال نائمـــة ، وقال ابو القاسم(٣) لنفسه ان المدن مثل الرجال ، تشعر بالحزن وتشعر بالوحدة . تفرح وتنام ، وتعبر عن نفسها بصورة فريدة تكاد لا تصدق، وتتعاطف بغموض مع الغرباء او تركلهم . . بل أن الاحياء في المدينة مثل الاولاد في العائلة ، لكل منهم شخصيته ومنزلته ومزاجه ، فثمة شوارع محببة ، وأخرى تتقاذف العابرين فيها بفظاظة ، وشوارع خبيثة ، واخرى صريحة ، ولكن ابا القاسم كان الآن منشغلا بتلك الصورة الغريبة التي اقتحمته كأنهـــا تذفت على راسه بحجر : بدن الارض مثل بدن رجل مثقب بالرصاص ، يتضرج بزهـــر البرقوق ، ويكاد المرء يسمع نزيز الدم يتدفق من تحته ، ولا ريب ان قاسم بدا كذلك بعد هنيهات من سقوطه ، ثم ذبلت بقع الدم على سترته الخاكية مثلما تجفف شمس الصيف المتوقدة اوراق البرقوق الهشة . استدار ابو القاسم ، واخذ يتأمل من جديد تلك البقع الحمراء الممتدة امام عينيه فوق تلة صغيرة، ودون ان يعرف بالضبط ما الذي يريده. خطا نحو التلة ، واخذ يجمع باقة من الزهر المخضب بالاحمرار القاني ، وقال لنفسه وهو ينحني : « منذ سنة وانا آتي لسعاد(٤) بكفين فارغتين كل شهر ، ولا ريب ان منظر هذه الزهور سيبدو على الطاولة البيضاء جميلا ، ثم أن . . . » وقد شعر بالتعب وهو يستل الزهور الغضة ، وبدت له أشد تمسكا بالارض مما خيل اليه حين كان ينظر اليها من بعيد ، وما لبثت الافكار التي كانت تحوم على غير هدى في رأسه ان اخذت تترابط بصورة تبعث على الدهشة ، فقد تذكر انه حين رأى سعاد لاول مرة في أريحا لفت نظره قرص احمر من زهر البرقوق يتوقد وسط شعرها الفاحم السواد ، وأن ذلك بعث فيه السعادة

---

٣ ــ في الواقع انه يشعر الان بأنه اكبر سنا مما هو حقا ، ويردد لنفسه ان الكوارث الثلاث التي نزلت به ينوء تحتها جبل : فقدان قريته ونزوحه عام ١٩٤٨ ، وموت ام القاسم بالسل عام ١٩٥٣ ، واستشهاد قاسم قبل سنة .

٤ ــ ولدت سعاد وقاد في نابلس عام ١٩٤٥ ، وكان والدها موظفا صغيرا في دائرة النفوس التــي كانت آنذاك تابعة لحكومة الانتداب ، وقد ظل موظفا في نفس المرتبة والدائرة خلال هيمنة النظام الاردني على الضفة الغربية ، وهكذا تمكن من ارسال ابنته سعاد الى جامعة دمشق عام ١٩٦٢ ، وقد درست لمدة سنة في كلية الاداب ، الا أنها عادت والتحقت بقسم العلوم السياسية ، وهنـــاك تعرفت على أحد الشبان المتحمسين لحــزب البعث ، وما لبث أن ألحقها بالحزب ولكنها لم تستطــع أن تكون عضوا منظم الولاء والنشاط ، وكانت هذه المشكلة بالذات هي التي فتحت عينيها على رغبة عميقة في دراسة المسائل التنظيمية في العمل السياسي ، وساقتها هذه الدراسة الى القاء نظرة دراسية على الحزب الشيوعي ، وعلى بنية حركة القوميين العرب التي شعرت آنذاك انها آخذة بالتمزق تحت وطأة صراع سياسي حاد في صفوفها لم يكن من الممكن الحفاظ مع حدته على الوحدة التنظيمية للحركة لو لم تكن مشدودة الى قانون صارم للعلاقات الداخلية ، ولم يكن من الممكن معرفة ماذا كان سيحدث لسعاد ولحماسها السياسي لو لم يصعد حزب البعث في تلك الآونة الى مرتبة السلطة ، وقد كان لسعاد آراء غامضة ، ولكنها بالغة التأثير ، بالتغير الذي يطرأ على الاحزاب السياسية عموما ، وذات البرامج الفضفاضة والغامضة خصوصا ، حين تهيمن على دفة السلطة ، وهكذا فقد شهدت تلك الفترة من حياة سعاد وقاد خمولا سياسيا وحيرة بالغة الحدة ، ولكنها مع ذلك أبدت اهتماما خاصا بمجموعة من الشبان ابدوا تصميمهم على احداث تغيير نحو اليسار في حركة القوميين العرب ، وكان سبب هذا الاهتمام بالدرجة الاولى دراسة تعدها سعاد عن مكانة الناصرية في المسيرة الوطنية العربية في تلك الفترة ، الا أن الارتباط مضى أبعد من ذلك ، فقد التحقت سعاد بالذراع الفلسطيني للحركة الذي كان قد بنى تنظيما فدائيا صغيرا أطلق عليه اسم « شباب الثأر » ، وكانت تشعر بشيء من الاعتزاز حين كلفت بالقيام باتصال صغير في نابلس ابان عطلتها الصيفية ، والعمل على بناء خلية هناك ، الا أن الحرب فجأتها فقررت البقاء ، وكانت القدرات التي أظهرتها في الاتصال وفي العمل هي التي أوصلتها في فترة وجيزة الى مرتبة قيادية في نابلس .

لان طلال قال له بأن سيدة تحمل وردة حمراء ستزوره في اريحا(٥)، وتحدثه عن قاسم ، وقد دقت هذه السيدة الباب في اليوم التالي ، وطلبت منه ان يحدثها بالتفصيل عما حدث له حين استدعي الى المخفر الاسرائيلي قبل اسبوع لتعرض عليه جثة احد الفدائيين القتلى(٦)وحين كان يروي لها قصته اخذت عيناها السوداوان تنضحان دمعا من تلقائهما، وقالت له : « يا ابا القاسم ، ليس بوسع أحد ان يملأ مكان أحد ، وقد كان قاسم بطلا ، وعليك ان تكون فخورا به ، وقد فعلت شيئا حسنا حين أنكرته لانك انقذت الكثيرين من رفاقه . لا تقل الحقيقة لاحد ، وخذني انا مكان قاسم » . ومنذ ذلك اليوم وهو يزورها في نابلس ويقيم في بيتها يوما او يومين ، ويأخذ الدنانير الخمسة ويعود الى اريحا(٧)، وقد قال لها ذات يوم : « الختيار . . هل ما زال حيا ؟ » وحين قالت له « لا » ، اجابها: « هل تقبلينني أبا ؟ » وقالت سعاد : « يا ابا القاسم ، انت والدنا كلنا ، لان الشهيد كان اخانا كلنا » وعندها سألها عما اذا كان يستطيع ان يفعل شيئا مفيدا ، واجابته سعاد بنبرتها الحاسمة : « ذات يوم ، ربما » .

وقف ابو القاسم مستشعرا الالم في خاصرته من طول الانحناء ، وكانت باقة الزهر الاحمر قد اصبحت كبيرة وبدت في يده الخشنة شعلة من اللهب ، ووراء التلة كان بيت سعاد بشبابيكه الصغيرة في الطابق الثاني ، وقال لنفسه : « ربما كانت تنظر الي الآن » ، وقرر أن يبادرها بالجملة ذاتها التي بادرته بها حين زارته لاول مرة(٨) في اريحا ، ومن ثم انطلق نازلا التلة الى الطريق ، ومضى نحو منزل سعاد .

آخر شيء يذكره ابو القاسم من عالمه القديم كان ذلك السلم الطويل الخشن الذي يوصل الى بيت سعاد ، الا ان الباقة الحمراء التي كانت تتوقد في كفه ظلت اكثر رسوخا في ذاكرته ، منذ هذه اللحظة ، اكثر من اي شيء آخر : لقد صعد درجات السلم ذلك الصباح دون ان يراوده اي شك بأنه سيعود فينزلها كما صعدها ، ويعود الى عالمه

---

٥ — كان طلال شابا قصير القامة لم يبلغ العشرين بعد ، ويبدو انه كان يتقن عبور النهر ونقل الرسائل ، وفي الماضي كان يزور ابو القاسم مرة في الشهر ويعطيه ثلاثة دنانير ويقول له : « قاسم يسلم عليك » ، ولا يزيد كلمة واحدة . وفي آخر مرة رآه قال له ان سيدة تحمل وردة حمراء ستزوره ، وانه لن يراه بعد . وكانت تلك السيدة هي سعاد ذاتها ، ومنذ ذلك الوقت تولت سعاد اعالته ، وكانت تعطيه خمسة دنانير في كل مطلع شهر .

٦ — توجس خيفة منذ الصباح ، وكان يشعر بثقل غامض يجثم على صدوره ، وعند الظهر جاء شرطيان وأخذاه الى المخفر ، وأخذ رجل أبرص ، يلمع كأنه مدهون ، يسأله عن قاسم ، وبعد وهلة عرف في قرارة نفسه ان ولده قد قتل ، ولكن الابرص لم يكن قد اشار الى ذلك بعد . « أتعرفين كيف يتصارع الرجل مع دموعه ؟ مثلما يحاول فلاح أن يسد ثقوب الساقية بكفيه . وظل الابرص يسأل ولم اكن اعرف بماذا كنت اجيب » وأخيرا أدخلوه الى غرفة مترعة برائحة الموت « وكان قاسم هناك ، ممددا على طاولة ، وقد نظرت اليه لحظة واحدة فحسب ، ثم اخذت انظر الى راحة يده ورأيت فيها ارادة رجل بطل ظل ممسكا بسلاحه حتى اللحظة الاخيرة ، ولم تنفرد اصابعه الا بالقوة ، وبعد ان مات » وسألوه ان كان يعرفه ، فنفى ذلك بشدة « ان قاسم شاب اطول قامة وأشد سمرة ، ثم انه سافر الى الكويت وهو يعمل في كراج للسيارات هناك » وشعر بالعار لانه يكذب ، ولم يكن يعرف لماذا كان خائفا الى هذا الحد . « لقد انكرته ، ولكنه سيغفر لي ، فأنا رجل عجوز لا أتحمل السجن ولا الضرب ، وأريد أن أموت هنا ، وليس شرقي النهر . انت تفهمين ذلك ايتها السيدة . . اليس كذلك ؟ »

٧ — كانت وكالة الغوث قد قطعت اعاشته ، وسحبت منه الدفتر الاحمر الذي كان يخوله تناول المؤن ، وذلك لان تقارير شعبة التحري في الوكالة قد اثبتت بأن ابنه يحصل مدخولا شهريا يزيد عن عشرة دنانير .

٨ — دخلت البيت ، وانتزعت الزهرة الحمراء من شعرها وهي تقول له : « البرقوق ورد الفقراء يا ابا القاسم » ، وبعد هنيهة قالت له : « أهل القسطل كانوا يقولون : هذه دماء الشهداء تطل علينا » .

القديم الذي يبدو له الان انه غادره تماما . ان للرجال أقدارهم المكتوبة منذ الازل ، والتي هي مثل أسمائهم ، تلتصق بهم في لحظة لا يدركون كيف جاءت . لقد قرع الباب متوقعا وجه سعاد بملامحه القاسية ، ولكن الجميلة ، الا انه فوجيء بقبضة قوية تعض كتفه ، وتجذبه بعنف الى الداخل ، ثم سمع اصطفاق الباب وراءه مثل انفجار .

وحين استرد توازنه على المقعد الذي قذف اليه ، أطلت عليه ثلاثة رشيشات ، ووراءها وقف جنديان وضابط . وفتح ابو القاسم فمه دون ان ينوي قول شيء معين ، الا ان الضابط نهره : « هش » .

وأخذ احد الجنديين يفتشه ، باحثا في جيوب قنبازه عن شيء ما ، وعندها تنبه ابو القاسم الى وجود ثلاثة أشخاص آخرين في الغرفة ، واقفين ووجوههم الى الجدار ، وفي الزاوية كان ثمة طفل في العاشرة يبكي بما يشبه الهمس ، ولم تكن سعاد هناك ، وبدت صورة والدها المعلقة على الجدار ، بشاربيه العظيمين(٩) أكثر غرابة مما كانت في اي وقت مضى ، وكان ما يزال مشوشا ، غير قادر على اعادة ترتيب ما حدث ، حين قبضت يد الجندي بشدة على زنده ورفع يده بعنف الى فوق : عندها فقط شهد باقة الزهر الاحمر مرة اخرى، وتعجب لهنيهة كيف لم تسقط من يده، ولم تتمزق ، وسط ذلك العراك الاحمق الذي يجري دون هدف معين . ودفعه الجندي الى الحائط ، وساعده الجندي الآخر في صلبه امام الجدار بذراعيه المفتوحتين الى اقصى ما يستطيع ، وبهدوء أرغمه الضابط على فتح كفه ببطء ، وتناول الباقة بحذر مبالغ به ، وسحبها بما يشبه الاحتفال المنظم على الطاولة الرخامية(١٠)، ووقف يتأملها لحظة ، ثم استدار فجأة وسأله بعنف :

— ما هذا ؟

— هذا ؟

— أجل ، ما هذا ؟

— كما ترى . زهر يا سيدي . برقوق نيسان .

— هه !

وابتسم ابتسامة خبيثة ونظر من طرف عينيه الى الجنديين ، وعاد يسأل وكان فترة المزاح التي اتاحها قد انتهت :

— ما هذا ؟

— ورد ، زهر ، برقوق ، يا سيدي .

— انني أسألك المرة الاخيرة : ما هذا ؟

ولم يستطع ابو القاسم ان يعرف ان كان الضابط يحاول ان يجعل منه اضحوكة ام انه جاد حقا . واكتسحته موجة من حيرة حزينة ، واخذ ينظر حواليه محاولا الاستنجاد بشيء ما . كان الطفل قد كف عن البكاء ، واخذ ينظر بفضول الى باقة الزهر الاحمر فيما كان وجهه يكتسي بملامح تشبه الدهشة ، وتذكر سعاد فيما كانت الافكار تعود الى التراكب في رأسه ، وتساءل ان كان يتعين عليه الآن مرة اخرى ان يدخل الى الغرفة الثانية وينظر اليها ممددة على السرير وراحة يدها مفرودة الاصابع بالقوة وملطخة بالدم .

---

٩ — حين قال لسعاد مرة ان شاربي والدها في الصورة يبدوان مخيفين ، ضحكت برهة ، ثم انصرفت الى التفكير ، وأخيرا سألته : « ماذا يحدث للشوارب ، يا ابا القاسم ، حين يأكل الدود جسد الرجل الميت ؟ » ومنذ ذلك الحين وهو غير قادر على صرف هذا السؤال من ذهنه كلما رأى صورة الاب ، بشاربيه الكبيرين.

١٠ — مرة قالت له سعاد وهي تشير الى الطاولة ، وكانت مغطاة بشرشف سكري اللون مشغولة حواشيه بالصنارة : « انظر ماذا كانت تفعل أمي طوال عمرها ، تشتغل بالصنارة وتفني عينيها كي تبدو طاولة أبي طاولة محترمة أمام ضيوفه ! »

— ماذا يمكن ان يكون هذا يا سيدي غير زهر البرقوق الذي تفتح هذا الصباح على قارعة الطريق ؟

— انا الذي أسألك .

وهز ابو القاسم كتفيه وسكت . لقد ادرك ان الكلام لم يعد يفيد احدا ، وان ثمة شيئا لا يفهمه يحدث بغموض ، وأمام مثل هذه الحيرة لا يسعه في الواقع الا ان يصمت وينتظر ، الا ان الضابط نهره :

— تهز كتفيك وكأنك بريء ! اتريد أن اساعدك قليلا ؟ من الذي أعطاك هذه الباقة ولماذا ؟

— قطفتها عن الطريق ، وكنت . . .

— أأنت عشيقها ؟

وضحك الجندي ، فيما تساءل ابو القاسم :

— استغفر الله ، عشيق من ؟

— عشيق العفريتة التي تسكن هنا ؟ . .

— انا رجل عجوز يا سيدي ، ايمكن ان يحدث هذا ؟

— اذن لماذا أحضرت الزهر ؟ من الذي أرسلك ؟

— جئت . . .

الا ان صورة قاسم جاءت عاصفة مثل الارتطام . ووراءها جاءت صورة سعاد ، ولم يعد يعرف ماذا يتعين عليه ان يقول ، فيما اخذ ينظر حواليه وهو شديد الارتباك ، محتارا تحت النظرات التي كان يسلطها الضابط عليه ، ثم سأل بصوت ادهشه كيف انفلت من صدره مليئا بالاستجداء :

— ماذا حدث لسعاد يا سيدي ؟ هل هي بخير ؟

— كفى تمثيلا ايها الشائب ، وقل لي ما معنى هذا ؟

ونظر ابو القاسم الى حيث اشار الضابط ، كانت باقة الزهر الاحمر ملقاة فوق الطاولة، وبدت أقل جمالا مما كانت ، واجاب :

— ماذا يمكن للزهر ان يعني يا سيدي غير الود ؟

— هه !

— اسأل هؤلاء كلهم . . أيعني الزهر غير الود والاحترام ؟

— من الذي بعثك بالباقة ؟

— أنا الذي قطفتها . .

— من الذي طلب منك أن تقطفها ؟

— لا أحد . .

— ما هي علاقتك بسعاد اذن ؟ هل أنت عشيقها ؟

واخذ الجندي(١١) الواقف قرب الطاولة يضحك بصوت مكتوم ، وقال شيئا ما لم يسمعه

---

١١ — كان يهوديا مغربيا اسمه ابراهيم ، ولد في الدار البيضاء عام ١٩٤٥ ، وكان ابوه يمتلك دكانا صغيرا في حي شعبي لبيع الاقمشة وبعض الالبسة الجاهزة ، اما شقيقه الاكبر فقد كان عاملا في مصنع للنسيج يقع على بعد يسير من المدينة . كان الوالدان تقيين ، الا ان الاخ الاكبر ، يعقوب ، التحق بتنظيمات الشغيلة وأخذ يظهر ميولا شيوعية ، ولا شك ان ذلك سبب ارتباكا كبيرا في المنزل ، فقد كان الاب يربط بشدة بين الشيوعية وبين العلاقات السوفياتية المصرية وبالنتيجة بين الشيوعية وبين الحرب الاسرائيلية العربية . وفي أحيان كثيرة كان الجدل العنيف بين الاب وبين يعقوب يوشك ان ينتهي الى انفصام في العائلة التي لم تعتد على هذا النوع من التناقض ، وقد وصلت الامور في توترها الى الذروة حين ألقى البوليس المغربي القبض

احد بوضوح ، وعاد فضحك من جديد لفترة قصيرة وصمت حين رمقه الضابط(١٢) بشدة .. أما أبو القاسم فقد شعر بأنه قد اصطيد ، وبأن أكفا جبارة تطبق على صدره ، وانه بحاجة الى سعاد الان أكثر من أي وقت مضى .. أترى انتهى الصمت ؟ أصار بوسعه ان يقول لهم بأن ذلك الفتى المضرج ، الممدد على الطاولة في مخفر اريحا ، هو أبنه قاسم ؟ ام ان ذلك كله قد اضحى الآن سرا أكثر حاجة للكتمان مما كان في اي وقت مضى ؟ لقد احس فجأة بأنه مؤتمن على شيء خطير لا يعرف ما هو بالضبط ، وربما كانت حياة سعاد نفسها ، بل حياة هؤلاء الشبان الثلاثة الواقفين ووجوههم الى الحائط ، بل ربما حياة ذلك الطفل الصغير ايضا ، معلقة في كلمة واحدة قد يلفظها في اية لحظة دون ان يدري ، أيمكن لذلك كله ان يكون حقيقيا ؟

— انها باقة زهر يا سيدي ، وهي لا تعني شيئا خطيرا على الاطلاق . قلت لنفسي وأنا أمر من هنا : هذا بيت صديقي القديم ، وابنته وحيدة فيه ، ولا بأس لو حملت لها باقة زهر ..

— لا فائدة من الكذب أيها الشيخ الخبيث . سوف ترى بعد برهة ان الصدق هو اقصر الطرق الى السلامة .. اتقول الحقيقة الآن أم ماذا ؟

— زهر يا سيدي ، زهر .

— هش ..

وفي الخارج جاء الصوت خافتا في البدء ، ثم اخذ يعلو شيئا فشيئا : كانت ثمة خطوات تصعد الدرج ، وشعر ابو القاسم بأن الامر آخذ في التعقد ، وان الفخ المنصوب في الغرفة انما يتعلق بقضية أكثر خطرا مما يعتقد ، وبعد برهة دقت يد ما خشب الباب ، وفي اللحظة التالية انقض الجنديان ، وقد فتح الضابط الباب فجأة ، على الرجل الواقف هناك وتذفاه الى الداخل .

وامتلأت الغرفة فجأة بجلبة غريبة ، واخذ الطفل الذي كان قد اركن الى الصمت قبل برهة يبكي من جديد ، بنشيج اكثر مرارة ، فيما مضى الجنديان يفتشان الرجل بعنف وشراسة ثم ساقاه الى الحائط وارغماه على رفع ذراعيه الى الاعلى ووجهه نحو الجدار ، وعاد الجنديان فوضعا الاوراق التي انتزعاها من جيوبه على الطاولة ، ووقفا وراء الضابط الذي قال بصوت يملؤه رنين الانتصار :

على يعقوب في الاضطرابات العمالية التي وقعت في عام ١٩٦٣ ، وذاقت العائلة كلها من نتائج هذا الحادث ، وتعرضت مثل عوائل العمال جميعا في تلك الفترة ، الى تشديد مبالغ فيه من قبل السلطات التي واجهت النشاط النضالي المتزايد لاتحاد الشغيلة المغربي وللتحالف الذي اشتد آنذاك بين الاتحاد هذا وبين الاتحاد الوطني لطلبة المغرب وبين عدة احزاب سياسية تقدمية ، بالمزيد من العمل القمعي . وفي تلك الفترة وجد الاب في اتصال أجراه معه رجل فرنسي فرصة للخلاص من كل تلك الشدة ، وقد انتظر على مضض خروج يعقوب من السجن فرحل مع العائلة على متن زورق صغير ، مع عدد آخر من الاشخاص الى الساحل الاسباني ، ومن هناك بدأت الرحلة الاكبر الى اسرائيل ، الا ان يعقوب قرر معاندا ان يبقى في فرنسا . فلم تكن خطط الوكالة اليهودية ودوائر الهجرة لتروقه ، وهكذا مضى الى الاحياء الباريسية التي يتواجد فيها العمال المغاربة حيث وجد الكثيرين من رفاقه القدامى . اما ابراهيم ، الذي صار منذ تلك اللحظة ابراهام ، فقد وصل في اواخر ١٩٦٥ مع عائلته الى ميناء حيفا ، وكان الاب محظوظا اذ أسكن في ضاحية قريبة من تل أبيب ، وقد تمكن في اقل من عام أن يشارك رجلا آخر في ملكية دكان صغيرة لبيع الاقمشة والملابس الجاهزة . اما ابراهام فقد اصبح عاملا في معمل للنسيج يقع على غير بعيد من حيث يسكن ، الا انه ، منذ حرب ١٩٦٧ ، فضل ان يظل جنديا في الجيش .

١٢ — برتبة كابتن ، وكان جنديا محترفا مع الفرقة اليهودية في الجيش البريطاني منذ الحرب العالمية الثانية ، وقد نال اوسمة عدة لخدماته في المخابرات .

ــ صيد ثمين اليوم ، هذه الملعونة سعاد كانت تعيش تحت بصرنا ونحن لا نعرف ، وها هم أفراد العصابة يتقاطرون الى بيتها واحدا اثر الآخر ، انت ! ما اسمك ؟
واجاب الرجل الجديد ووجهه ما يزال الى الحائط :
ــ انني زياد حسين ، والد الطفل الجالس هنا ، يا سيدي ، جئت افتش عنه بعد ان تأخر ..
قال الضابط :
ــ اذن أنت الذي أرسلته ..
ــ نعم يا سيدي ، خبزنا صباح اليوم صدرا من الكنافة ، وكعادتنا في الحي بعثنا مع وليد صحنا لسعاد ، وعندما تأخر وليد جئت أبحث عنه ..
ولاول مرة منذ ان دخل الغرفة شهد ابو القاسم صحن الكنافة على الطاولة ، وكانت القشرة الشقراء تلمع من فرط ما اشبعت قطرا ، وتساءل بينه وبين نفسه : « أتراها قصة حقيقية ؟ أيمكن ان يكون زياد هذا والد او شقيق فتى ما ، استشهد ذات يوم ، وهو يأتي كل شهر لسعاد كي يأخذ خمسة دنانير ؟ »
وقال الضابط فجأة :
ــ استدر وانظر هنا ..
واستدار زياد ، فبدا وجهه شديد الصفرة . كانت عيناه كبيرتين ، وربما بسبب حجمهما بدا خائفا أكثر مما كان صوته يوحي ، وكان اول ما فعله ان نظر الى حيث كان الطفل جالسا ينشج بهدوء ، وهز رأسه هزة خفيفة جعلت الطفل يصمت ، ثم اخذ ينظر حواليه متفحصا الموجودين باعتناء ، وسأله الضابط :
ــ هل تعرف أيا من هؤلاء ؟
ــ لست أعرف أحدا ، بل انني اكاد لا أعرف سعاد نفسها ، ولكن العادات يا سيدي تقتضي منا ان نرسل مثل هذه الهدايا الصغيرة الى جيراننا .
واشار نحو الصحن ، وافتعل ابتسامة سمجة :
ــ انني غالبا ما افشل في صنع الكنافة ، واخشى ان يكون طعم هذا الصحن هو الجريمة الوحيدة التي ارتكبتها ..
وضحك وحده ضحكة صغيرة ، ثم صمت دون ان يخفي حرجه ، وعاد يتودد بعد لحظة :
ــ هل استطيع أن آخذ وليد يا سيدي واذهب الى البيت ؟ ان امه ستشعر بالقلق ؟
ــ هش ..
ــ هل حدث شيء لسعاد يا سيدي ؟ هل امسكتموها ؟
ــ لماذا تسأل ؟
ــ لانها جارتنا ..
ــ ماذا تعرف عنها ؟
ــ انها طالبة ، تقيم هنا في الصيف ، ونادرا ما يزورها أحد ، وقد اعطت هذه السنة بعض الدروس في « الاونروا » ..
ــ واين هي الآن ؟
ــ لست أدري يا سيدي ، كنت اعتقد انها هنا ، ولذلك أرسلت لها صحن الكنافة .. ماذا فعلت يا ترى ؟
ونهره الضابط بحركة من يده ، واخذ يتجول في الغرفة وهو يفكر ، ثم سأل فجأة :
ــ اتعتقد انها ستعود الى هنا ؟

ــ من ؟
ــ سعاد طبعا ايها الغبي ..
ــ لست أدري . هذا بيتها على أي حال ، وكل انسان يعود الى بيته ..
وقاطعه الضابط بحدة :
ــ الا اذا استطاع الهرب قبل ذلك .

وخيم الصمت من جديد ، فيما ظل زياد(١٣) واقفا ينظر الى طفله بحيرة ، وفجأة حدث شيء غريب ، لم يلحظه الا ابو القاسم ، فقد التقت عيناه بعيني زياد ، ولمح فيهما بومضة تشبه البرق رسالة قصيرة ، تشبه ان يقول المرء للآخر : « ايها الرجل ، اننا نعرف بعضها ، فاطمئن »(١٤)، وأحس ابو القاسم بكنز غامض يملأ صدره ، وان عليه الان ان يكون اكثر حذرا ، فثمة امور كبيرة تجري ، وهو بلا ريب يلعب فيهـــا دورا كبيرا دون ان يعرف على وجه التحديد ما هو دوره هذا ، على انه تيقن الان من ان هذا الرجل ، الباحث بقلق عن ابنه ، هو الذي ينبغي ان يقود خطواته منذ هذه اللحظة ، واستجمع ابو القاسم أطراف شجاعته وقال :

ــ الا تستطيع ان تقول لهم يا سيدي انني رجل بريء ، وان عليهم اطلاق سراحي ؟

---

١٣ ــ لم يكن زياد حسين يعرف سعاد معرفة حقيقية ، كان يعرف اهلها بصورة غامضة ، وكان معجبا بها من بعيد لكونها أظهرت عدة مرات خلافا مع والدها الذي كان يحتقره بصورة ما . كان زياد عضوا قديما في الحزب الشيوعي ، ثم ترك الحزب منذ ان بدأت المصاعب تشتد في اوائل الستينات ولكنه لم يترك حماسه له ، كان استاذا في المدرسة الثانوية ، وكان يعتبر من المثقفين الاكثر اطلاعا في نابلس ، وربما كان هذا بالذات ما جعل كراهيته لوالد سعاد تقليدا قديما لا يعرف كيف نشأ ، وقد ظلت هذه الكراهية حتى بعد موته ، وقبل ذلك كان قد سماه « أكاكي اكايفنش » وكان بالفعل يرى فيه تجسيدا حقيقيا لبطل « غوغول » في قصة « المعطف » . ويشاهد في تصرفاته نموذجا لذلك البيروقراطي ضحية البيروقراطية المضحك الذي لا يكف عن النسخ ، ولهذا بالذات اعجب بسعاد بالرغم من ان سعاد في تلك الفترة لم تكن لتخفي ، شأنها شأن أعضاء حزب البعث واعضاء حركة القوميين العرب ، كراهيتها للشيوعيين وحملاتها الدائمة عليهم .

١٤ ــ الصحيح ان تلك النظرة لم تكن رسالة بالمعنى الحقيقي ، والصحيح اكثر انها كانت تشبه ان يقول المرء للآخر : « ها ! هذا هو انت اذن ! » وسببها لا ينفصل عما حدث ليلة امس ، فعند منتصف الليل قرع باب بيته بشدة ، واذا بسعاد ، التي لا يذكر انها زارتهم قبل ذلك ، تقف هناك مضطربة ، وقد ادخلها وأيقظ زوجته ولم يشعل الضوء ، وقالت له سعاد بسرعة : « اريد مساعدتك ايها الرفيق زياد » ، ولاحظ هو كلمة « رفيق » التي هزت فيه مشاعر قديمة وحارة . ومع ذلك قال لنفسه : « الله الله يا زمان .. الحركيون يقولون رفيق ! » واخذ سعاد ، دون ان يتكلم ، وأجلسها في الصالون . ومضت تقول : « لقد قبض الاسرائيليون على احدى الرفيقات ، واخشى ان تعترف بعلاقتها بي ، لا استطيع الذهاب الى المنزل » وأحس بشيء من الخوف ، الا انها استطردت : « القصة هي انني لا اريد ان اثير شكهم في حال عدم اعتراف الرفيقة ، ولذلك فانني لن أركن الى الفرار الا اذا تأكدت من انهم اكتشفـــوا كل شيء ... هل تستطيع غدا صباحا ان تستكشف لي البيت ؟ هل جاؤوا ام انهم ... » واخذت نفسا عميقا واكملت : « اريد مساعدتك . ان المسألة معقدة ... أسلوبهم هو ان يتسللوا الى البيت كي يقبضوا على اكبر عدد ممكن من المتصلين بي ، لا أريدهم ان يقبضوا على طلال ... » وبعد ذلك أمضى زياد وسعاد طيلة الليل وهم يرسمون الخطة ، وقد اهتدوا الى النقطة التي يكتشفون فيها تفاصيل ما سيحدث في بيت سعاد عن طريق ارسال وليد بصحن الكنافة منذ الصباح ، وفي حال تأخره تنطلق سعاد شرقا ، ويصبح على زياد ان يتدبر باقي المهمات : « سيأتي رجل عجوز اسمه ابو القاسم ، اذا ادركته قبل الوصول الى البيت دعه يأخذك الى طلال ، انه وحده الذي يعرف اين يجده ... » وقد مضت سعاد متنكرة باتجاه النهر بعد ربع ساعة من غياب وليد ، الذي لم يكن يعرف شيئا عن دوره .

وحدث شيء غريب في الغرفة ، اذ اخذ الجميع يضحك ، بما في ذلك الاستاذ زياد والضابط ، وقال زياد :

ــ ماذا تحسبني ايها العجوز ؟ انني في وضع اكثر سوءا من وضعك ..

وقال ابو القاسم مصرا :

ــ انها باقة زهر يا سيدي ، باقة زهر فقط ..

ــ ولماذا تكون باقة الزهر اكثر براءة من صحن الكنافة ؟

وصاح الضابط :

ــ هش !

وقال زياد بلهجة ضارعة ، متجها نحو الضابط :

ــ ألا أستطيع يا سيدي ان آخذ ابني وليد وامضي ؟ ان صديقه طلال ينتظره ..

ــ هش ..

ولمح ابو القاسم مرة اخرى تلك الرسالة الغامضة تومض كالبرق في عيني زياد وهما تطلان عليه وكأنهما تعبران به ، ولكنهما كانتا تحملان رسالة ، وابو القاسم يعرف اكيدا انهما كانتا كذلك ، الا انه لم يكن قادرا على فهمهما ، ثمة علاقة ما بين باقة الزهر وصحن الكنافة ، وربما كان الطفل الذي اسمه طلال هو جزء من تلك الرسالة الغامضة ، ولكن ابا القاسم لم يكن ليستطيع ان يفهم اولئك الاساتذة أو يتجاوب مع اشاراتهم ، حتى في مواقف أكثر طلاقة من هذا الموقف ، وأورثه هذا الشعور غضبا مهيض الجناح ، فضرب راحتيه على ركبتيه وقال :

ــ لست افهم شيئا .. لست افهم شيئا ..

ونظر الى زياد ، آملا ان تستطيع عيناه الشائختان ان ترسلا شيئا الى الرجل الواقف هناك ، فيما اخذ الضابط والجنديان ينظران بفضول الى الرجل العجوز وهو يواصل ضرب راحتيه على ركبتيه ، واخيرا قال الضابط :

ــ « ان قصتك لم تنته ايها الشيخ الخبيث ، بل انها لم تكد تبدأ ، فاحسن لك ان تلتزم الصمت ، اما انت فسوف تظل معهم . ان كل من يأتي الى هذا البيت ، طوال اليوم والايام القادمة ، هو متهم بالضرورة ، التحقيق سينظر في امر اطلاق سراحكم او اعتقالكم ، والآن لا اريد ان اسمع صوتا .. »

وصاح زياد :

ــ الا نستطيع ان نرسل كلمة الى اهالينا ؟

ــ قلت لكم ان تصمتوا ..

ــ الا تستطيع ان تقول لنا لماذا نحن هنا ؟ ماذا فعلت سعاد ؟

ــ هذا ليس من شأني ، ستعرفون كل شيء في التحقيق ...

ــ ما ذنب هذا الشيخ ؟ انه يبدو أكثر براءة منا جميعا ، الا تسمحون له بالذهاب الى بيتي ليطمئن زوجتي ، ويطمئن طلال ؟

ــ قلت لك اغلق فمك ، والا اغلقته بالقوة ..

واخذ ابو القاسم ينظر مجددا الى زياد ، غير قادر على فهم ما يجري على وجه التحديد ، وقد استطاع ان يلتقط للمرة الثانية اسم « طلال » ، ولكنه لم يكن ليستطيع ان يفهم ماذا يعني هذا كله ، وماذا يتعين عليه ان يفعل ، ومضى يتململ في مقعده ، مستعيدا في ذاكرته صورة طلال القديمة ، الذي صار يراه لماما منذ ان تسلمته سعاد ، انه يدرك أن زيادا يريد ان يقول شيئا عن طلال ، ولكن اي طلال ؟ وما علاقته هو بالامر . لقد

تذكر الآن انه ، مرة ، سأل سعاد ان كان طلال يعمل معهم ، فضحكت وقالت : « لولا طلال لكانت حالتنا حالة .. طلال يا أبا القاسم رجل ، رجل قادم من تحت .. » أيمكن ان يكون الامر على هذهالخطورة ؟ ان المفتاح في يد الاستاذ زياد ، وهو وحده الذي يجيب على هذه الاسئلة ، ولكن لماذا لا يفعل ؟ اذا كان الامر خطيرا على هذه الصورة ، فلماذا لا يقدم الاستاذ زياد على التصرف ؟ وفجأة سأل ابو القاسم نفسه : لو كان قاسم هنا ، مكان الاستاذ زياد ، كيف كان سيتصرف ؟ ثم عاد فسأل نفسه مرة اخرى : لو كان مكاني ، ماذا كان يفعل ؟

وقاطعه صوت مكتوم يشبه خطوة خائفة ، وكان يمكن لهذا الصوت ان يعبر دون انتباه لو لم يتحرك الضابط بهدوء ، ويرفع سلاحه عن ركبتيه وهو ينظر نحو الجنديين اللذين اتجها نحو الباب دون ان يصدرا أي صوت . ومضت فترة من الوقت خيم فيها صمت عميق ، ثم صدر ذلك الصوت المكتوم لخطوة خائفة مرة اخرى ، وبدت وكأنها في اول السلم ، وعاد الصوت يخطو ، وكأنه يصعد بحذر .

ودون ان يتخذ قراره بصورة مسبقة ، انتصب ابو القاسم وصاح :

ـــ لماذا تقبضون علينا ؟ ماذا فعلنا ؟ اننا ابرياء ..

وانقض عليه الضابط وصفعه بقفا كفه على وجهه فالقاه على الارض ، واندفع الجنديان نحوه وجراه بعيدا الى الداخل ، فيما ركض الضابط باتجاه الباب ، والصق اذنه هنيهة على الخشب ، ثم فتحه بعنف واتجه الى الخارج .

وضع احد الجنديين ركبته على صدر ابي القاسم ، وصوب فوهة الرشاش الى رأسه ، فيما اخذ ابراهام يراقب بقية المحتجزين بحذر ، وما لبث الضابط ان عاد ، وأغلق الباب وراءه باحكام وهدوء ، ثم اشار للجنديين فأجلسا أبـــا القاسم على المقعد ، كـــان فمه ينزف خيطا رفيعا من الدم يتسرب في شعر لحيته الشائب ، ولكنه بدا في حالة غير خطرة ، وقال له الضابط بهدوء مبالغ به :

ـــ لقد تعمدت ذلك ايها الثعلب العجوز ..

وقال ابو القاسم بوهن :

ـــ تعمدت ماذا يا سيدي ؟..
ـــ لقد صرخت كي يهرب ..
ـــ من ؟
ـــ انت الذي ستقول لنا من .. يا الهي ! كنت على وشك ان اعتقد انك عجوز بريء..
اما الآن فقد تيقنت من كل شيء ، لم أكن على خطأ حين شككت بهذه الباقة اللعينة ..
ـــ انها باقة زهر يا سيدي . برقوق نيسان ..
ـــ ها !

وتناول الضابط عصا قصيرة عن الطاولة ، دقيقة كأنها من الخيزران ، وأشار بها نحو زياد ، ثم اخذ ينقلها كمؤشر ، بين زياد وبين أبي القاسم ، وأخيرا اتجه نحو زياد :

ـــ أرايت ايها الثرثار ؟ ارايت ؟ كنت انت الذي اقترحت ان نطلق سراح هذا الشيخ الخبيث لانه يبدو بريئا ! ها ! هذا الشغل شغلنا .. انه يعتقد الآن انه اتاح فرصة الفرار لاحدكم . كم هو مخطىء هذا العجوز المسكين !. سننتزع اسمه مثلما ينتزع الضرس النتن ..

وتنحنح زياد ، وهو ما يزال واقفا مكانه ، وقال للضابط :

ـــ هذا الشغل شغلكم يا سيدي ، ولكن اذا سمحت لي ارجو الا تقلق كثيرا ، فقد يكون

الشخص الذي مر امام السلم هو الطفل طلال ، صديق وليد ، جاء يسأل عنه وخاف عندما سمع الجلبة فهرب .. الم اقل لك يا سيدي قبل ذلك ان طلال ينتظر وليد ليلعب معـــه ؟.

وهز الضابط رأسه مرتابا وهو يبتسم ابتسامة العارف الذي لا يسهل خداعه ، وقال بصوت لا يكاد يسمع :

ــ لم تكن الخطوة خطوة طفل ..

ومرة أخرى ، بمثل لمح البرق ، شهد ابو القاسم في عيني زياد ، وهما تعبران به ، ومضة تشبه الرسالة .

عالم غسـان كنفاني

فضل النقيب

Take him, all in all, as a man
I shall never see his like again.
Shakespeare

في عام ١٩٤٩ كان صبيا في الثالثة عشر من عمره ، يتجول في شوارع دمشق وأزقتها بعيون كبيرة تلاحق اللون والحركة ، وبقلب ينبض بغريزة مغامرة الحياة بشكل غير عادي . ولم يفشل كل الذين عرفوه ايامها في ان يلاحظوا ان الصبي يبدو على عجلة من امره . لم يكن وقتها يدرك تماما معنى فقدان فلسطين ، فلقد كانت تعيش معه بشكل متناقض، من ناحية هي برودة الفقر الذي يعيشه كلاجىء، ومن ناحية اخرى هي «عكا» الساخنة بقلبه والتي تشحن وجدانه بأحاسيس جميلة تحرك بين اصابعه الريشة لتأخذ على الورق صورا ملونة تشيع الدفء من حوله . مع مرور الايام والسنين يزداد تحديق العينين الكبيرتين باللون والناس ، وتوتر القلب بالحياة ، ونمو « فلسطين » بالتناقض . فلسطين تنمو معه من الاحساس الذاتي بالجمال ، الذي يتطور لحس المعرفة والثقافة ، ويقود اخيرا لحس الحرية ومصير الانسان . وتنمو معه ايضا من واقع الفقر لواقع الغربة والمرض والعار . لسنوات طويلة يظل نمو « فلسطين » المتناقض متطورا بدفء الصور ، الكلمات والقصص . وعندما ينتهي التناقض ، ويعيش غسان كنفاني « فلسطين » واحدة ، جديدة ، نامية يصبح وجوده خطرا يوميا على قوى الارهاب في المنطقة فيتحركوا في الظلام ويقتلوه .

— ١ —

« عـالم ليس لنا »

في اوائل الخمسينات كان المثقف الفلسطيني* يحاول فهم العالم دون جدوى . فالثقافة تنقل غربته عن فلسطين لغربة عن العالم . لقد قامت اسرائيل وحلت النكبة في فترة صعبة مضطربة من فترات التاريخ . الفترة التي أخذت فيها رياح الحرب البـاردة تفك « التحالف العظيم » بين الدول المنتصرة في الحرب العالمية وتثير عند كل القوى انتهازية قومية تغطي على كل ملامح الصراع الطبقي في العالم . كان اتفاق القوى المتناقضة ، قوى الاستعمار ، وقوى الاشتراكية ، على تأييد اسرائيل يصدم العربي بشكل يلغي عنده كل امكانية لفهم الظروف التاريخية والموضوعية التي قادت للنكبة . عنف الصدمة، بظروف التأخر السياسي والحضاري ، أسدل ستارا امام عين الفلسطيني منعه من رؤية مكانه الطبيعي في العالم وفي التاريخ لمقاومة الاضطهاد والارهاب ، فأخذ يتصور قوى الامر الواقع المعادية والغريبة وكأنها المثلة الشرعية لكل قوى التاريخ ، ولا يجد وجودا له الا خارج عالمها ، فينطوي على نفسه ويحلم بعالم آخر . في السنوات الاولى من النكبة انقطعت كل صلة للفلسطيني بالعالم ولم يبق له الا صلة الارض . الذين بقوا عليها

* كلمة فلسطيني كما هي مستعملة هنا وفي كل المقال تعني الانسان العربي بعد ١٩٤٨ .

تحت حكم اسرائيل تمسكوا بها ، وعبر بعضهم عن هذا التمسك « بمنظمة الارض » ، والذين أصبحوا خارجها مشردين عاشوا يحنون اليها ، وعبر بعضهم عن هذا الحنين بالفداء الشخصي في « منظمة كتائب الفداء العربي » .

في تلك الفترة أصبحت السياسة — بحكم طبائع الامور — مفروضة على صغـــار الفلسطينيين ، وأصبح التعليم وسيلة وحيدة لتأمين وسيلة للعيش ولاكتشاف طريق الخلاص من النكبة . كان تطلعهم المسحوق بالفقر والذل لفلسطين لا يشدهم لاي تفكير سياسي في المنطقة . فكر اليمين يقول لهم : « انسوا واقعكم الطبقي حتى نعيد لكم لكم فلسطين »، وفكر الاحزاب الشيوعية يقول : « انسوا فلسطين حتى تغيروا واقعكم الطبقي » . لهذا راحوا يؤلفون بأنفسهم الجمعيات السرية التي تعيش بواقعهم السيء وتشدهم لفلسطين . كلما هزت اسرائيل الارض العربية من حولهم خرجوا للشوارع يصرخون باسم فلسطين ، وعندما تعود الامور لما هي عليه يعودون « بفلسطين » لانفسهم وللواقع الصامت .

كانت الحياة تمتد امامهم بطيئة سمجة رتيبة تذيبهم على الهامش ، ولم يكن صعبا عليهم ان يكتشفوا ان الغد سيقود لعالم بلا فلسطين .

كان غسان كنفاني يومها في الرابعة عشر والخامسة عشر من عمره يشعر بوعي وغير وعي بوطأة الحياة في عالم غريب ويزداد غرابة مع الايام . كان يشعر بالعالم يزداد غرابة من حوله لانه في الايام والاسابيع الاولى للنكبة لم يكن يشعر بهذه الغربة . كان الكبار من حوله أيامها يؤكدون لبعضهم : سنعود بعد اسبوع ، بعد شهر ، بعد سنة . في تلك الايام كانت مشاق الحياة الجديدة تبدو مقبولة ومفهومة له . كانت فترة لا بد منها لانتظار اليوم الكبير . تماما كما كان صيام آخر ايام رمضان في فلسطين محببـــا وضروريا للصغار حتى يحصلوا على شعور العيد كاملا . في الايام الاولى والشـــهور الاولى لم يكن أهله فقراء ومشردين ، كانوا فقط ينتظرون اليوم العظيم بشغف ولوعة تصل حد الحرمان . ولقد سمع بنفسه طفلا فلسطينيا بثياب رثة بالية يتحدث بالقرب من أطفال لبنانيين فقراء في « النبطية » ويقول عنهم : « مساكين ليس لهم فلسطين ليعودوا اليها . . . » . ولكن عندما أخذت الايام والاسابيع والشهور تمر ببطء ثقيل ، وأحاديث الكبار — بعد نشرة الاخبار — تخفت وتنحسر ، وبعد أن أصبح يذهب للمدرسة ويعمل في المطعم وفي المطبعة ، وكل شيء يبدو عاديا رتيبا ، كان لا يصدق انهم اصبحوا من المساكين ، فيتحرك بنزق ذلك العمر المبكر للريشة والالوان ليكوّن عالما خاصا به غير عالم المساكين الباهت . صورة الوجه الشجاع الجسور ، من ورائه الشفق الاحمر ، وامامه عكا ويافا وحيفا . الذراعان الكبيرتان تطوقان الافق وتصلان للشمـــــس وفلسطين . الالوان الصارخة المتفجرة التي تمسح من عينيه الالوان الباهتة للاشياء الصامتة من حوله . يتطلع أصدقاؤه للرسوم فيعجب البعض بها ويغار البعض الاخر فيقلدها برسوم عن طبريا وصفد والقدس . يراها الكبار فيشجعه بعضهم : « انت يا غسان فنان صغير » ، وينهره البعض الآخر : « اترك الرسم واهتم بدروسك ، الرسوم لن تطعمك خبزا » ، وغسان لا يفهم معنى القولين ، الفن ؟ الخبز ؟ كل ما يفهمه ان هذه الرسومات تعطيه شيئا لا يجده عندما يقرأ كتب المدرسة ، ولا عندما يلعب مع اصدقائه . تعطيه شيئا له علاقة بالعالم الذي يحن اليه . ثم كيف تكون حياته بدون هذه الرسوم ؟ ومع الايام راح يبحث في الكتب عن العالم الذي يحن اليه ، كان يقبل على قراءة كتب الفلسفة والتاريخ فيمل بعد قراءة الصفحات الاولى من اي كتاب ، يلقيه جانبا ويعود للريشة والالوان ، في تلك الكتب كان يشعر بالوحشة وهي تحدثه عن عالم آخر بعيد عن العالم الذي يعيش به والعالم الذي يحلم به ، ثم يجد في القصص الرومانسية والكلاسيكية المشهورة صلة رائعة باحلامه . في « بؤساء » فكتور هوغو

يلتقي بصديقه الاول ، طفل باريس المتشرد . يقرأ عنه بشغف ويتحدث لكل من يعرفه عن « غافروش » الطفل الذي وجد نفسه في باريس متشردا بلا أهل ، بلا بيت ، بلا اصدقاء ، فأقام في قلب تمثال الفيل الحجري الضخم الذي شيده نابليون تمجيدا للامبراطورية ، بيتا يتسلل له كل مساء عندما تغفو عيون البوليس والحرس . كان غسان يتحدث عن الطفل المتشرد ، « عصفور الغابة الدوري » وكأنه يعرفه معرفة شخصية ، يتكلم باعجاب ولهفة عن قطع الاثاث التي استطاع غافروش الحصول عليها بطريقته الخاصة ، كيف رتبها في بيته الرائع ، كيف أصبح له اصدقاء من المشردين ، يستضيفهم ليقضوا الليل عنده في قلب الامبراطورية . ويلتقي باصدقاء آخرين في قصص دوستوفسكي ، ديكنز ، بلزاك ، غوركي ، وغيرهم ، ويستطيع بغريزة الفن وصغر سنه ان يجرد كل اولئك الابطال من ظروفهم الموضوعية والتاريخية ليعيشوا معه حياة واحدة ، حياة الذين يثورون على الظروف المحيطة بهم ويوجدون لهم عالما خاصا . عالم التحدي . ويتساءل في ذات نفسه : لماذا تعطيه قصص المشردين والفقراء في الكتب دفئا يغمر قلبه ، ولا تعطيه نفس الدفء حياة المشردين الحقيقية في الخيام ؟ ما الذي تفعله الكتب بالقارىء ؟ في احدى الامسيات وغسان يتمشى مع بعض الاصدقاء يصادف حادثا يحرك في قلبه وضميره احاسيس وانفعالات شتى ! يقترب طفل فقير من احد المارين يطلب حسنة ، فيعطيه الرجل خمسة قروش ، يركض الطفل فورا لميزان على باب صيدلية قريبة ليزن نفسه بالقروش الخمسة . يضحك غسان طويلا ، وتستحوذ الحادثة على كل احساسه ، هل هو « غافروش » فلسطيني ؟ هل هناك مشردون لهم عالم خاص يعيشون بيننا ولا نعرف عنهم . في تلك الليلة يهرع للقلم والورق ليكتب ، يكتب بسرعة قصة الطفل الفقير ، ويأتي في اليوم التالي لاصدقائه بالقصة كاملة ، يضحكون طويلا ويقول احدهم : ليس في القصة شيء حقيقي الا الطفل ، القروش الخمسة ، والميزان ، والباقي من خيال غسان . ويسأله آخر : من قال لك ان الطفل كان يتحدى الناس ! يناقش غسان مدافعا عن قصته مطولا ، وفي الايام التالية يغير من كتابتها ، ويقرأها للذي يبدي استعدادا للسماع . دوما يناقش قبل قراءة القصة ليقدم لها وما هي الفكرة التي يبغي عرضها من خلالها ، ثم يناقش بعد قراءة القصة الآراء التي يسمعها ، ومن النقاش والصراخ تتضح الفكرة في رأسه : لقد غيَّرته الكتب ، ويريد ان يغير الآخرين . يريد ان يكتب شيئا يفعل بالقارىء ما فعلته به « البؤساء » او « الأم » ولكن بشكل فلسطيني . ويعكف على القلم والورق ساعات طويلة . منذ البداية كان « محترفا » يقضي النهار كله ، او الليل كله مع القلم دون ملل أو ضجر . يأتي للاصدقاء بقصة ، وبعد يومين يغيرها ، ويغيب فترة اسبوع أو اسبوعين ليأتي بدفتر فيه مجموعة قصص جديدة . بعد كل نقاش وشجار يغير في القصص ، يأخذ موقفا من واحدة ويدمجه بواحدة أخرى ، يتخلى عن بعض القصص ويتحدث عن واحدة او اثنتين ، ثم ينسى كل شيء ويبدأ بكتابة قصة جديدة ، وفجأة تسيطر عليه فكرة واحدة ، يريد ان يكتب قصة تغير من شعور كل قارىء ، قصة انسان فلسطيني بسيط ، عادي ، يتملكه فجأة احساس لا يقهر ، هو احساس العودة . لا يستطيع البقاء بعده ليوم واحد آخر كلاجىء. غسان يتعب مع هذه القصة ، يتحدث عنها ولكن لا يكتبها . ويقول : صعوبة القصة اني اريدها واقعية مئة بالمئة ، وبنفس الوقت تعطي شعورا هو غير موجود . يجد عنوانا للقصة « أول عائد » يكتب بدايتها ، يكتب مقاطع اخرى متفرقة ، ولكن لا يحصل عليها كاملة . ذات مساء دخل على الاصحاب بابتسامته التي تخبىء شيئا ، وجلس كالعادة يتحدث احاديث شتى ، فجأة فتح الدفتر وقال : « هذا هو وجه أول عائد » وبين يديه صورة مرسومة لوجه بتقاطيع حادة ، ونظرة ثاقبة .

* * *

بعد عشر سنوات من التشرد ، تعلم الفلسطيني ان يكون « فلسطينيا » و « شخصا آخر » بنفس الوقت . « الفلسطيني » يعيش داخل النفس ولا يظهر الا في المناسبات المسموح بها ليحرج صاحبه ويحرج الآخرين ، و « الشخص الاخر » يظهر امام الناس كعامل ، كمعلم ، كأجير ، كمهندس ، وكقومي ، واسلامي ، واشتراكي . الفلسطينيون فقط في المخيمات ، والذي يريد ان يخرج عليه ان يصبح « شخصا آخر » يهربه معــه للمدن وللمبادىء . العالم لا يعترف الا « بالشخص الآخر » والفلسطيني يبقى سجينا في النفس مشردا كما كان عام ١٩٤٨ .

غسان يجد نفسه في الكويت معلما وفي حــركة القوميين العرب وذا نشاط واسع في الاندية الثقافية والمجالات الصحفية . في البداية ، لا يأخذ الصراع بين الفلســـــطيني و « الشخص الآخر » في غسان وضعا متأزما . الكتابة في الصحافة والقصة تــرضي كليهما ، « الفلسطيني » يجد في الكتابة نافذة يطل بها على العالم ، وبها ايضا يحصل « الشخص الآخر » في عيون الآخرين على وضع « الكاتب » بالاضافة الى « المعلم » . كذلك يكون الوضع في حــركة القوميين العرب ، « الفلسطيني » يتنفس سياسيا ، و« الشخص الآخر » يحصل على الانتساب الحزبي . ويحتــاط « الشخص الآخر » للمستقبل فينتسب لجامعة دمشق ويسرق من وقت كتابة القصة ووقت « حركة القوميين العرب » ما يستطيع لدراسة الكتب الجامعية والتحضير لامتحانات الصيف . الوقت المسروق لم يكن كافيا في السنة الثانية الجامعية فيفشل غسان في الامتحان . وبانتظار الطائرة التي تقله للكويت من مطار دمشق يلتف حوله الاصدقاء مودعين ومشجعين ، القضية بسيطة ، سينجح حتما في السنة القادمة ، عليه ان لا ينسى انه طالب منتسب لا يأخذ الافادة الضرورية من المحاضرات ، ومع كل هذا فلقد اجتاز الامتحان التحريري، وفشل فقط في الامتحان الشفهي ، يبتسم غسان ابتسامة ما ، ويهز برأسه كالموافق ، وعندما يتوجه نحو الطائرة يبتسم ابتسامة حزينة وساخرة : « لا لقد انتهت حياتي الجامعية » كان الحزن من نصيب « الشخص الآخر » .

* * *

يعود للكويت لتصبح الكتابة همه الاول . كانت الالوان الصارخة للوجوه الكبيرة التي رسمها ، وصلبت على جدران المدارس والاندية قد اخذت تبهت ، حجومها تتضاءل ، ويحس غسان بها تهاجر الجدران وتتسلل الى نفسه صغيرة تريد دفئا يعطيها حركة مقاومة الموت ، يضمها غسان اليه ليعطيها حياة اخرى في قصصه القصيرة . منذ البداية كانت قصصه القصيرة جيدة . فيها رائحة جديدة لامور قديمة . احساس متميز يفرض نفسه على احساس القراء . وكانت قراءتها سهلة ومفيدة ، ولكنها كانت في أكثر الاحيان غير ناجحة فنيا . أكثرها يفتقر لشروط القصة القصيرة الفنية ، أكثرها يبدو كرواية كبيرة مضغوطة او مختصرة . ومع هذا كان القارىء يشعر بتجربة جديدة عندما يقرأ قصة لغسان للمرة الاولى . في البداية يتضايق من الاسلوب ، الكلمات الاولى تبدو مصطنعة ، مع القراءة يتخلى هذا الشعور عن القارىء ويفرض الاسلوب نفسه بدرجة توتر مرتفعة جدا . في البداية يتضايق القارىء ايضا من الوجود المستمر للكاتب ، فهو يخاطب أبطاله ويحركهم ليتكلموا بعده ، وفي النهاية ينسى القارىء هذا الضيق ويشترك في الكلام مع غسان ومع أبطاله .

في تلك القصص لم يصل غسان للمستوى الفني الذي وصلته سميرة عزام في قصصها الفلسطينية القصيرة ، لكن قصصه كانت تعطي حسا فلسطينيا متوترا يتمرد على الاطر الفنية للقصة .

ثم يأتي المرض .

بلا مقدمات ، بلا انذار ، يصاب غسان بالدوخة والاغماء واعراض « سكري » حادة ، بشعة . لا يستطيع التصديق ولا يريده . يستمع لنصائح الاطباء وشكل الحياة الجديدة التي يريدونها له ، فيتمادى بعدم التصديق ، ويرفض كليا ان يكون مريضا . فجـأة نتحول كل القضية الكبيرة الى قضية شخصية . الغربة ، التشرد ، اسرائيل ، هي المرض . وهي وجود مادي في جسمه . وعندما تزوره نوبات المرض حادة عنيفة يراوده التفكير بالموت . الموت في أوائل العشرينات . التشرد غول لا يشبع ، اعطاه حرمان البيت ، فقدان الدفء ولم يشبع . الآن يريده هو بلحمه ودمه . ويكتب لاحد الاصدقاء خارج الوطن : « أيها العزيز (...) عندما تعود للوطن لن تراني . وهذا يبعث في نفسي أعمق الاحزان ... » يتوقف عن كتابة القصة ويعيش في ذهول . يقرأ الشعر ، ويفكر في المطلق ، ويكتب رسائل شخصية ، في احداها يقول : « سوف تكون الحياة سخيفة لحد القرف ، وسمجة بلا حدود ، اذا كان كل ما تعنيه هو ان تخبطني على رأسي كلما أردت ان اتحرك الى الامام . في الثانية عشر من عمري عندما بدأت اتحسس معنى الحياة والطبيعة من حولي ، قذفتني لاجئا مشردا خارج وطني . والآن ، الآن عندما أخذت اتحسس طريقي ، أصبحت أقضي أكثر ساعات اليوم بشكل مجدي ، يأتي « السيد مرض السكري » ويريد بكل بساطة ، بكل وقاحة ، ان يقتلني ،... هل علي ان أسلم مع سارتر وأقول « الانسان عاطفة غير مجدية » متى ؟ الان عندما بدأت اقتنع بأنه من الممكن ان تكون الحياة مجدية ... » .

يصمت « الفلسطيني » في غسان ، ويتحرك « الشخص الآخر » برومانسية حالمة وحزينة ومتحركة .

في صيف دمشق لذلك العام كان مرض غسان حديث قطاع كبير من الشباب . كل عمال المقاهي والاندية يعرفون عن مرضه الشيء الكثير . في كل ليلـة كان يستعيد للذين حوله كل لمحات الادب الرومانسي والقلق وأدب العدم : « القدر الشخصي » « الموت في النفس » « اذا كنا نموت جميعا في المستقبل ، فليس هناك اذن مستقبل » ... « ولكننا يا غسان لا نموت دفعة واحدة » ... « اذا كان الموت في النفس ، فسأموت دون ان ادري » .

في الكويت تشتد عليه نصائح الاصدقاء بترك الكتابة ، والاهتمام بصحته ، الاهتمام بالمستقبل وتأمين دخل معقول يستطيع به ان يؤمن ثمن الدواء الدائم والراحة المطلوبة. يأخذ العلاج بشكل منتظم ، ويعود للكتابة ، ليكتشف انه لا يستطيع اعطاء نفسـه لها كليا كالسابق ، يكتب ويمـزق ، ويثور ، ويضجـر ، ويعـود لرومانسيـة المـرض ، وكتابة الرسائل الشخصية ويتسائل : « هل غيرني المرض ؟ » « هل أصبحت انسانـا آخر ؟ » « لماذا لا استمع للاصدقاء ، وانتسب مجددا للجامعة ، واحاول ان اتلاءم مع ظروفي ... » « ولكن لماذا اضع اللوم على المرض ؟ ، هل أصبحت كاتبا حقيقيا قبـل المرض ؟ ماذا فعلت حتى الان ؟ كل ما قمت به ان نشرت بضعة قصص ، بضعـة مقالات صحفية ، هذا هو كل ما في الامر ... يا الهي انها تبدو وكأنها عمر كامل ... »

تصدر حركة القوميين العرب مجلة « الحرية » في بيروت وتعرض على غسان الانضمام لهيئة التحرير ، يترك كل شيء ويلتحق « بالحرية » ببيروت . وتبدو خطوته هذه لكـل اصدقائه ومعارفه مغامرة مجنونة . ترك دخلا ثابتا وهو المريض المحتاج للعلاج الدائم ، والتحق للعمل بمجلة حزبية يبدو العمل بها تطوعا اكثر منه مهنة . لكن غسان يقتنـع نفسه انه مع تغيير الجو سيستعيد نفسه ويعاود الكتابة كالسابق ، ويكتب لصديق له: « في البداية اعترف اني خفت من المرض وحتى الموت ، خصوصا لحظات الاغماء، فقدت كل قدرة على التصرف بشكل منطقي . ولكن يبدو لي الان انه من المفروض على الذين يهتمون بالكتابة ان يتعاملوا مع المنطق اخيرا . لقد حاولت ان اكتب عن مرضي، فلم اجد

شيئا اكتبه ، لذلك تبدو لي القضية أبسط من بسيطة . ان اقوى شكل يأخذه المرض هو عندما يسبب الموت ، وهذا يحدث مع الانسان مرة واحدة ، لذلك مـــا دمت لست ميتا فسأتصرف وكأني لست مريضا ، منذ الان وحتى النهاية لن أسمح للمرض ان يتدخل في حياتي الا مرة واحدة ، مرة واحدة فقط » . طبعا لقد تدخل المرض في حياته أكثر مـــن مرة واحدة . ولكن الذين عرفوه عن كثب كانوا يعجبون بالطريقة التي يتصرف بهـــا . كان يصاب بالتعب والاغماء وعندما يشعر بأقل تحسن يشعل سيكارة ويبـــدأ بحديث جديد . كان يقطع حديثه احيانا ويطلب من المستمع الذهاب معه لغرفة اخرى ، هناك يحضر ابرة « الانسولين » ويحقنها لنفسه ، وهو يتحدث وكأنه يحقنها لانسان آخر .

في بيروت يقبل غسان على العمل الصحفي ، كتابة القصة ، وعلى كـــل اجواء الثقافة بكل وجوده . في نفسه الان شعور خفي بأن الايام ليست بلا عدد ولا حساب . تجربة العمل الحزبي ، تركيز حركة القوميين العرب المستمر على القضية الفلسطينية ، اجواء الحركة الوطنية العربية بالافق الناصري ، كل ذلك اعطاه مفهوما معينا عن مكـــانة الفلسطيني. في العمل لم يعد يشعر بالغربة الاولى ، ومع التمرين الدائم أصبحت كلماته مادة تتحرك بأسلوب أخاذ يتدفق من بين يديه حتى لتشعر انه يستعـــين بالفواصل والنقاط لكبح جماح الكلمات .

يكتب عن كل شيء ، وعندما يظهر اسمه أكثر من مرة بصحيفة واحدة يوقع بالاحـــرف الاولى من اسمه او باسم مستعار . بالنسبة له المشكلة ليست قدرته على الكتابة، ولكن قدرة الصحف على الاستيعاب .

في المقالات السياسية يكون متفائلا ، ويتحدث عن موقف محدد وملتزم . في المقـــالات الادبية يكون متأملا متحديا وضاحكا ، ولكن كل ذلك يختفي في القصة ، فالقصة دوما تصور عالما آخر . اذا قرأنا له مقالا سياسيا ، وآخر أدبيا وقصة قصيرة نشرت بمـــدة شهر فاننا ندهش ونشعر كأن الكاتب يعيش في عالمين . عـــالم السياسة والادب ، وعالم فلسطين . في العالم الاول يعيش غسان متفائلا باسما ليكتشف ان ذلك ليس من حقه فيعيش في العالم الثاني حزينا متحفـــزا . « الفلسطيني » فيه يتنفس مـــن كل الاتجاهات ، ولكنه في القصة يتنفس من جهة واحدة ، وبهواء خاص. هو ما زال يخشى ان يذيبه العالم على الهامش ، وما زال يخشى ان يعامل كرقم ، كأي رقـــم ، ١٣ . وبالخشية والخوف يصرخ « عالم ليس لنا » . بعد « رجال في الشمس » يتكرس وجود غسان في أعين الاخرين ككاتب معترف به . في الصحافة يصبح رئيس تحـــرير جريدة يومية ، يخاطب الناس من منبر يومي ، وتزداد خبرته بأجـــواء السياسة العـــربية والدولية ، حركات الثقافة العربية والعالمية ، وبذلك تبتدىء غربة « الفلسطيني » عن العالم تتحول لغربة عن الامر الواقع ، فبالثقافة ، وبالناس ، يزداد انتماء الفلسطيني لقوى تاريخية تعمل بشكل ظاهر وشكل خفي باتجاه التقدم وتحرير الانســـان فيزداد فهمه للعالم وكشفه لتشويش الامر الواقع ، ويزداد قرفه من « التفاؤل السياسي » خصوصا وان الكتابة السياسية المتفائلة قد أصبحت في منتصف الستينات عملا شاقا . المراهنات التي بدأت تعقد على مصائر الناس ، ابتعاد الحركة الوطنية عن حركـــــة الجماهير الفقيرة ، جو الجمود العام ، كل ذلك جعل من التفاؤل السياسي دعوة لانتظار « الذي يأتي ولا يأتي » والحياة مع الاشياء « التي تصدق ولا تصدق » . في تلك الفترة يكتب غسان في احدى رسائله الشخصية : « اشعر بالملل ، شطحاتي « الرومانسية في الصفحات الخلفية » لا تقلقني بالشكل الذي تحدثت عنه ، مـــا يقلقني الان هـــو شعوري بأني قد أجد نفسي في يوم من الايام اكتب اشياء غير مقتنع بها . . . » .

هل هذه هي اذن نهاية الرحلة ، انتصار « الشخص الاخر » . الانتهاء كرئيس تحرير

يردد على مسامع الناس ما سمعوه بنشرة الاخبار ، . . . ومقالات، واصدقاء ، وشلل، ومعجبين ومعجبات ، وكلام ، وكلام . . . !

لا ، لم تكن تلك نهاية القصة ، فغسان كان قد دخل مرحلة اللارجوع منذ مدة ، اين « رجال في الشمس » ؟؟

— ٢ —

« رجال في الشمس »

فجأة تظهر « رجال في الشمس » وتستقبل بشكل غير عادي ، يكتب عنها النقاد ، يتحدث عنها القراء ، باعجاب متزايد . الكل يؤكد على انها عمل ادبي ممتاز ما ان نبدأ بقراءة كلماتها الاولى حتى تملك عليك نفسك وأحاسيسك ولا تتركك الا مع كلمتها الاخيرة . بنفس الوقت اذا سألت واحداً من المعجبين بها عن سر اعجابه ، فانه بطريقة او باخرى سيغير الحديث .

بالطبع لم يكن سر الاعجاب بالقصة انها صورت مأساة فلسطينية اثارت مشاعر القراء ، فأي عربي يسمع قصصا فلسطينية تثير مشاعره بشكل يومي ، وهو ليس بحاجة للادب والفن ليحصل على اثارة اخرى ، ولم يكن سرها ان فيها رمزية تلخص القضية كلها ، وان سائق السيارة الذي كان متهما بالمغامرات الجنسية وهو عاجز جنسيا يرمز للجيوش العربية التي كانت متهمة بشهوة الحرب وافتراس اسرائيل وهي عاجزة حربيا. هذه رمزية مبتذلة لا تعجب احدا . الحقائق التي يعرفها كل الناس لا تثير اهتمامهم عندما تطل عليهم من جديد بقناع الرمزية ، كل ما تثيره فيهم هو حس الملل . كتبت « رجال في الشمس » في اوائل الستينات ، وهي تصور حياة اربعة لاجئين في امكنة مختلفة في الوطن العربي ، جمعتهم البصرة رغبة في تغيير واقعهم السيء والبحث عن حياة جديدة في الكويت . لانهم لا يستطيعون دخول الكويت بطريق «شرعي» تعاملوا مع مهرب . عملية التهريب تصادف حظا سيئا . المهربون ، بقلب خزان ناقلة المياه الفارغ والمكتوي بشمس الصحراء ، يموتون اختناقا وهم ينتظرون السائق الذي لا يستطيع انهاء عملية التصديق على اوراقه والرد على مداعبات موظفي الجمارك السمجة بالسرعة المطلوبة . هذا الفشل في الانتقال للحياة الجديدة هو نفس الفشل الذي تعنى به بعض قصص نجيب محفوظ المشهورة . ففي «فضيحة في القاهرة» و« بداية ونهاية » يفشل دوما ابن الطبقة المتوسطة الفقيرة بتسلق السلم للطبقة الاعلى ، باتباع الاسلوب الفردي وغير الشرعي . لهذا لا بد من التساؤل : هل « رجال في الشمس » بداية ونهاية فلسطينية ؟

بشكل ظاهري ، يجمع بين القصتين خيط واحد ، هو تأكيدهما على لا جدوى الحل الشخصي المغامر لقضية هي اصلا عامة . ولكن من هذه الزاوية يبدو نجيب محفوظ منطقيا مع نفسه ومع العالم الذي يعيش فيه ويبدو غسان بعيدا عن منطق عالمه . في « بداية ونهاية » يعيش نجيب محفوظ مع بطله يوما بيوم ، كل درجة يصعدها البطل على السلم تكون على حساب نزول فرد او افراد من عائلته وطبقته درجات على نفس السلم ، وعندما يصل البطل لاعلى السلم يكون لصوت ارتطام الآخرين بالحضيض دوي الفضيحة التي تهز السلم وتهوي بالبطل للحضيض ايضا . بالطبع هناك من يستطيعوا الوصول دون فضيحة ، فهناك دوما اناس يصادفون حظا سعيدا ، ولكن نجيب محفوظ لا يهتم بهم لانه يهتم بحظ ومصير الغالبية التي لا تصل . في « رجال في الشمس » يكون الفشل منذ البداية ، غير مفسر وغير مبرر غير تفسير الصدفة والحظ السيء . ومن ناحية اخرى نحن نعرف ان الذين وصلوا للكويت ولامكنة اخرى ، من الفلسطينيين

وحصلوا على حياة جديدة اكثر بكثير من الذين ماتوا علـــى الطريق . لماذا يهتم غسان بالاقلية ويهمل الغالبية ؟

من ناحية موضوعية ، هناك اختلاف جوهري بين القصتين . لجوء ابن الطبقة الفقيرة للاسلوب الشخصي في قصص نجيب محفوظ هو اختيار ممكن موضوعيا . ولكن تبقى أمامه طرقا أخرى. باستطاعته ان يبقى راضيا بواقعه السيء ، باستطاعته ان يعمل مع الاخرين للتغير الجماعي . والكاتب يدعو دوما للاختيار الثالث عن طريق تصوير فشل الاختيار الاول ولا معقولية الثاني . « الفلسطيني » في « رجال في الشمس » لا يملـــك الاختيار ، « الشخص الاخر » يختار . لو كان « شخصا اخر مقبولا » لاجتاز الحدود بالطريقة القانونية كما فعل الاخرون المقبولون ، لانه غير مقبول ، فعليه ان يختفي عند نقطة الحدود ليصبح « كله فلسطينيا » ، عندها يقتلوه . فهذه هي الطريقة التي يتعامل بها العالم مع الذين « كلهم فلسطينيين » خارج الخيام . لذلك اهتم غسان بالعدد القليل الذي مات ولم يصل لان افراده كانوا « فلسطينيين فقط » واهمل العدد الكبير الذي وصل لان افراده يعيشون حياة « الموت المؤجل » ومقدار التأجيل يخضع لمقـــدار فـــائدة « الشخص الاخر » للعالم .

الحدود ، الصحراء ، والشمس كانت اختيارا فنيا فقط . عندما قرأنا القصة بعيدا عن الصحراء والشمس شعرنا مع الكلمات الاولى بنبض قلوبنا يرتفع كصوت طبول تأتي من بعيد ، تشتد مع كل مقطع ، مع كل صفحة ، وتعلو في النهاية كصوت طبول الموت ، فتضيق انفاسنا ونحن نرى القبر يلتهم اربعة منا ، ونجبـــر على ان نتساءل : متى يأتي الدور ؟

بمرور الايام تقترب « بداية ونهاية » من « رجال في الشمس » وفي منتصف الستينات يكون الخلاف بينهما قد زال نهائيا . فتأتي صرخة الاولى ، من عوامة في النيل فيهـــا بعض الذين وصلوا والذين لم يصلوا : ايها الشيء اظهر لنا ان كنت موجودا فلقد طحننا اللاشيء*» وتأتي صرخة الثانية من القبر المفتوح : « ما تبقى لكم » !

كان سر اعجاب القراء « برجال في الشمس » انها فضحت سر كل واحد فيهم . ولهـــذا كانت رواية اصيلة وحقيقية . ولكن هل هي حقا « رواية » ؟؟

لا ، انها اصيلة وحقيقية ولكنها ليست رواية بالمعنى الفني للكلمة ، ايام كتابتها لم يكن باستطاعته أن يكون روائيا .

الروائي هو الذي يعيد « ترتيب العالم » بالشكل الذي يقتنع به . فاذا كانت مهمة العالم الاجتماعي دراسة الظواهر الاجتماعية من حوله ، ليكتشف بقوة التجريد ومن بين الاف الظواهر والعوامل المتشابكة بالحياة ، العوامل القليلة الهامـــة ، والعلاقات الاساسية بينها ، ليخرج بنظرية قادرة على تفسير العالم والتنبؤ بالمستقبل ، كذلك فان مهمـــة الروائي دراسة تصرفات الناس من حوله وبقوة حدسه الانساني يكتشف جذور ارادة الحرية في هذه التصرفات ، حتى تكون الرواية فهما مكثفا للوضع الانساني ، يتنبأ بمصير الانسان . مادة الرواية الانسانية دوما واحدة ، العلاقة بين الانسان وقوى الاضطهاد . كيف يقاوم الضعيف قوى الارهاب التي تريد الغاء انسانيته . الضعف يأخذ اشكـــال عديدة ، والارهاب يأخذ اشكالا اكثر ، ولكن يظل الصراع بينهما هو ما يشكل معنـــى الرواية . الفلسطينيون بعد ١٩٤٨ وقبل المقاومة لم يقولوا لا للارهاب ، كانوا يتعايشون معه ، يتحايلون عليه ، بواسطة « الشخص الاخر » في كل منهم . لذلك فعندما نقرأ اي قصة فلسطينية مكتوبة عن تلك الفترة فنحن نستطيع التنبؤ بكل مـــا يحدث بعد قراءة

* من كتاب ثرثرة فوق النيل تاليف نجيب محفوظ .

الصفحة الاولى . الفلسطيني لا يفاجىء احدا . نبدأ في الصفحات الاولى من « رجال في الشمس » نتعرف على « الاربعة » وندرك فورا ان عملية التهريب ستفشل ، الاربعة لا يستطيعون مفاجأتنا بأي شيء اخر . والمؤلف لا يستطيع ان يفاجئنا . لكنه يستطيع ان يحتفظ بنا معه حتى نهاية الرواية ، وفي النهاية ننسى « الاربعة » ولكننا لا نستطيع ان ننسى غسان كنفاني ، والاهم لا نستطيع ان ننسى انفسنا . قيمة الكتاب الاصيلة هي ان الكاتب استطاع ان يبقينا معه حتى النهاية ليرينا ان فشل الكتاب بأن يكون « رواية » هو في نهاية المطاف فشلنا نحن القراء لان نكون مادة الروايـــة الانسانية ، لان نكون الناس الذين يقولون للارهاب : لا .

نقول عن « رجال في الشمس » بأنها ليست رواية ، هي قصيدة آسرة ، ملحمة اثيرة ، ولكن ذلك يبقى تلاعبا بالالفاظ ، المهم انها موجودة ، وهي معنا ، نعجب بها لانها تعطينا لحظة صدق مع انفسنا ، ثم نتعلم بمرور الايام أن ننساها ، وننسى ، حتى يأتي ذلك الاسبوع الثاني من حزيران ١٩٦٧ ويشتد قرع الطبول مرة اخرى وحول الراديو نتنفس بصعوبة ونشعر بالاختناق ، وقد اختفى « الشخص الاخر » من كل واحد منـــا ، وتأخر السائق !

كان غسان يدرك انه لا يستطيع كتابة رواية فلسطينية ولقد كتب لاحد الاصدقاء بعد شهور من صدور « رجال في الشمس » ليقول : « الان تشتد علي نصائح الاصدقاء بأن لا أولي الصحافة كل هذا الاهتمام . فهـــي بالنهاية — كما يقولون — ستقضي على امكانياتي الفنية بكتابة القصة . انا بصراحة لا افهم هذا المنطق ، فهو نفس منطـــق النصائح التي كنت اسمعها وانا في المدرسة الثانوية : اترك السياسة واهتم لدروسك ، والنصائح التي سمعتها بعد ذلك في الكويت : اترك الكتابة واهتم بصحتك ! هل كان عندي حقا خيار بين المدرسة والسياسة ، الكتابة والصحة ، حتى يكون الان عنـــدي خيار بين الصحافة والقصة . انا اريد ان اقول شيئا . احيانا استطيع قوله بكتابـــة الخبر الرئيسي في صحيفة الغد ، واحيانا بصياغة الافتتاحية و... او صياغة خبـــر صغير في صفحة المجتمع . بعض المرات لا استطيع ان اقول الذي اريد الا بقصة . الاختيار الذي يتحدثون عنه ليس له وجود . وهو يذكرني بأحد الزملاء مـــن معلمـــي اللغة العربية الذي يطلب مع بداية كل عام من تلامذته كتابة موضوعه الانشائي المفضل: أيهما تفضل « حياة القرية أو حياة المدينـــة » ومعظـــم التلامـــذة يعيشـــون فـــي المخيمات ... ! » .

ويومها يرد عليه الصديق مؤيدا نصائح الاصدقاء وأن على غسان الاهتمام بالقصة اكثر من الصحافة . طبعا كانت تلك النصائح مخلصة ، وترديدا لما يكتبه الادباء الكبـــار من نصائح للادباء الناشئين . وغسان لا يتجاهل هذه النصائح رغبة بالتحدي ولكن لانه كان يعيش التجربة ويشعر شعورا يفرض عليه تجاهلها .

كثير من الروائيين الذين كتبوا عن حياتهم أجمعوا على ان الروائي هو « الانسان الذي يعيش في ذاته اكثر من رجل واحد » . الروائي يتضامن مع الوضع الانساني الـــذي يعيشه بشفافية تجعل ابطال هذا الوضع يعيشون في ذاته . هـــؤلاء « الرجـــال » المتصارعون داخل الذات الواحدة لا يعطون هذه الذات الحـــرية والسلام الا عندما تحررهم بوسط يعبرون فيه عن انفسهم بحرية ، بالرواية . اذا صدقنا هـــذا الوصف (وليس هناك وصف آخر) فان غسان كنفاني يبدو وكأنه الروائي بشكل عكسي . في ذاته لا يعيش رجال عدة ، في ذاته رجل واحد لا يعبر عن تناقضه مع العالم بوسط واحد بل بكل وسط ممكن ، بالقصـــة ، بالمقالة ، بالخبر ، بالمظاهـــرة ، بالحزب ، بالحب ، بالكراهية ، بالغضب . وعندما يعبر عن نفسه بوسط ما فغسان لا يشعر بالراحة التي يشعرها الفنان ، بل على العكس ينتقل لوسط اخر ، ولهذا يكتب بغزارة مئة انســـان

لانه انسان واحد ، ويستعمل كل ادوات التعبير لانه يريد ان يعبر عن قضية واحدة ، ويتمكن من ذلك لا لانه يملك امكانية نادرة ، ولكن لانه يملك حس الضرورة التاريخية . لقد تمكن من أن يصبح « فلسطينيا فقط » ولم يتمكنوا من القبض عليه لانه يدافع عن نفسه بأكثر من طريقة واسلوب .

في عام ١٩٦٩ سأله صديق وقد رآى بيده قطعة سلاح للمرة الاولى ــ « يا غســـان ، رأيتك تحمل الريشة ، ثم القلم ، والان السلاح ، ماذا ستحمل في المستقبل ؟ » ويجيب غسان على الفور : « أي شيء استطيع به الدفاع عن النفس، الريشة، القلم، السلاح، ادوات أدافع بها عن نفسي . . » .

ــ ٤ ــ

« في قلب الدرع »

في المقاومة يخرج الفلسطينيون من المخيمات ، في الجبهة الشعبية تنتهي غربة الفلسطيني عن العالم . عشرون سنة من الضنى والعذاب أعادت الفلسطيني للتاريخ . لم يعد ذلك الغريب الذي يقف مشدوها امام الدنيا وكأنه من عالم آخر ، لم يعد منطق الاحـــداث يستعصي على فهمه وعقله . الان هو يعرف موقفه في العالم ويحدد مواقف كل القوى الاخرى تجاه حركة التاريخ وبالتالي تجاهه .

اصبح الفلسطيني يفهم «الحاضر كتاريخ» ويتعامل مع الامر الواقع « كمشكلة تاريخية»، الان هو يعرف القوى التي تريد تجميد العالم على صورة مصالحها وبؤس الاخـــرين ، والقوى التي تريد تغيير العالم وانهاء البؤس الانساني ، الان هو يقاتل مع الشعـــوب المضطهدة كامناء على قضية التقدم الانساني .

اخيرا ، امتطى غسان كنفاني صهوة الجواد ، لم يعد بحاجة للكلام بألف طريقة ليصل للفلسطينيين ، انهم الان في الشارع . وهو يكتب الان بطريقة واحدة « ليس لهم » ولكن « عنهم » . لقد اصبحوا أخيرا مادة الرواية الانسانية ، روايات المستقبل ستكتب عنهم، انهم يفاجئون العالم .

من أين سيبتدىء روائي المستقبل مع الفلسطيني ؟ كيف سيعرفنـــا عليه في الصفحة الاولى ؟ وهو في المخيم ؟ وهو في نقطة الحدود بين بلدين ؟ وهو في طائرة ما على ارتفاع ٢٠ ألف قدم ؟ وهو يحمل حقائب الآخرين في شارع مدينة ما ، وهو في الليل أمام النهر ؟ وهو يغسل الصحون القذرة في غرفة خلفية لمطعم ما ؟ من أي مكان ، ليس هذا هو المهم. ليبدأ الروائي مع الفلسطيني من أي مكان يريده ، المهم انه لا يوجد انسان في العالم يستطيع ان يتنبأ بالخطوة التالية للفلسطيني. هل يستطيع احد ان يتنبأ بقصة «أم سعد» يوم الثلاثاء القادم ؟ الفلسطيني يفاجىء الجميع ، الفلسطيني هو الحر الوحيد في العالم. ولكن كلمة « فلسطيني » لم تعد ذلك الاسم المعروف تاريخيا ، أصبح الان « أصطلاحا متفقا عليه » ولو غيرنا كلمة فلسطين وقرانا الجملة بالشكل التالي : الفيتنامي هو الحر الوحيد في العالم ، لما تغير المعنى على الاطلاق . لذلك فنحن نرى الان فلسطينيين بوجوه يابانيين ، وآخرين بوجوه اميركا اللاتينية . كما ان كثيرين مـــن الذين كانوا يسمون فلسطينيين اصبحوا الآن شيئا آخر . « الفلسطينيون » الآن في كل مكان ، ولكنهم ما زالوا قلة ، ولذلك ما زالت قوى الارهاب تعتقد انها تستطيع ضربهم بأسلوب الاغتيال الفردي .

ما زالوا اقلية ، الاقلية التي كفت عن أن تكون من المقهورين دوما ، المقهورين في كل اجتماع لهيئة الامم المتحدة ، المقهورين في كل نقطة حدود بين بلدين ، المقهورين في كل حزيران .

لقد كفوا عن ان يكونوا من المقهورين دوما ، وسطوة الامر الواقع لم تعد تجدي معهم ، [... عندما يبتدىء ركاب الطائرة الكبيرة بتبادل الابتسامات ، وقد تخلى عنهم خوف دقائق الصعود الاولى ، عندما يبدأون بفك الاحزمة ، وتناول المشروبات الروحية ، ويبدأ الاميركان المرحون يبدون الاعجاب بحديث رجال الاعمال الشرقيين ، وتأكيداتهم بأن كل شيء يسير بشكل مرضي ، وان صفقات المستقبل تحمل ربحا أكيدا للجانبين ، عندما يشعر البعض بالنشوة والقوة والفخر على ارتفاع ٢٠ الف قدم فوق السحاب ، فكل شيء يسير على ما يرام ، عندما ... فجأة يظهر « الفلسطيني » فيتعطل قانون الامر الواقع، تموت الابتسامات ، وتصرع الدهشة قلوب اصدقاء الامر الواقع ، وخدم الامر الواقع ، واغبياء الامر الواقع . ويهمس الجميع : الارهاب !!...؟ أصبحت الدهشة من نصيب الآخرين . اخذ الارهابيون يتذمرون من الارهاب ...]

* * *

« ام سعد » لا تدهش بالذي يحدث اطلاقا . فعندما تموت الابتسامات في وجوه البعض تولد في وجوه أخرى . ولكن ، ماذا يحدث مع « ام سعد » ؟

هذه المرأة التي تملك كل بساطة « الام » الرائعة ، لماذا يترك ابنها كل حنانها ليعبر النهر الى فلسطين ؟

ماذا يجد في فلسطين ؟ هذه الام التي يحلم كل متعب ، كل يتيم بأن يريح قلبه على صدرها الطيب ، لماذا يتركها « سعد » ليموت في فلسطين ؟ ما هو « الموت الفلسطيني »؟ يقول غسان ان سعد ومجموعته حوصروا بالقوات الاسرائيلية ، لنقرأ عنهم من صفحات « في قلب الدرع » : « جاءوا ، واخذت السماء تزخ . حين يسقى فولاذ الرشاشات تضحى له رائحة الخبز ، هكذا قال سعد . كانوا قد حوصروا . الا انهم احتفظوا بمكمنهم هادئين . وقدروا ان الحصار سينفك بعد ساعات . امتد الحصار اياما حتى انهكهم الجوع ، وصلوا الى باب خيارين : أن يظلوا كامنين ، طاوين انفسهم على عذاب آخر يشتد ولا يعرفون متى يمضي ، او ان يتركوا لاحدهم ان يجرب مغامرة الذهاب الى القرية ، كان الخيار صعبا ، قال سعد ، وقرروا الانتظار حتى المساء قبل أن يعقدوا العزم على قرار .

وعند الظهر قال سعد لرفاقه : ها قد جاءت أمي ! »*

اذن في المخيم يفشل « سعد » بالحصول على حنان الام ، في فلسطين فقط يوجد حنان الام . في المخيم تكون الام للفلسطيني العبء والخوف ، فلقد استطاع الارهاب عبر السنوات الطويلة أن يثقل كل العلاقات الانسانية بهموم غير انسانية . في فلسطين وحدها تصبح « الام » « للفلسطيني » حنانا انسانيا خالصا ، لهذا يعبر « سعد » النهر ويموت ليس لانه يحن لارض ما ولكن لانه يحن للارض ، للام ، لحياة انسانية ليس فيها ارهاب ، لحنان لا يجود به الا عالم المعقول . الفلسطيني يموت لانه يريد ان يكون انسانا محررا من الارهاب .

الحقيقة الفلسطينية ، الحقيقة العربية ، محاصرة في قلب الدرع .

* * *

نبدأ بقراءة « ام سعد » وبعد صفحة او صفحتين ننسى غسان كنفاني كليا ونعيش بعالم « ام سعد » ، « سعد » ، « فضل » و« عبد المولى » . غسان لا يحاول تذكيرنا بوجوده فأسلوبه الذي نعرفه في الكتابات السابقة غائب في « ام سعد » . اسلوب الكتاب هو

---

* « ام سعد » في قلب الدرع ، ص ٤٤ .

اسلوب الناس المتحركين فيه . لم تعد مهمة الكلمات اعطاء المعنى للاشياء كما كانت في السابق ، أصبحت الاشياء المتحركة تستخدم الكلمات وفق معناها الخاص . لم تعد « الثقافة » متناقضة مع العالم وتحاول اعطاءه معنـــى جديدا ، أصبحت « الثقافة » موظفة لفهم العالم ، التعلم من الناس ، وربط هذه المعركة بحـــركة التاريخ وحركة المستقبل . ولكن أين غسان ؟

* * *

في بداية صيف ١٩٧٠ يتحدث غسان مع صديق حديثا طويلا ، ويتذكر الصديق النتف التالية :

ــ هل أنت متفائل يا غسان ؟

ــ حتما ، للمرة الاولى في حياتنا نحن متفائلون ، كما يقول « الحكيم » نحن نشعر بتفاؤل استراتيجي تاريخي ، في الماضي كان تفاؤلنا نوعا من الرهان على قضايا ليست بيدينا ، كانت نشرة الاخبار تبعث فينا حس التفاؤل او التشاؤم ، الان نعرف ماذا ستقول نشرة الاخبار بشكل مسبق ، أتعرف ، في الماضي ، في الاحزاب القومية ، كان النضال يبدو وكأنه محاولة للوصول للمثل الاعلى ، كنا نشعر اننا نسير وهذا « المثل الاعلى » يبتعد عنا . الآن اصبحت الصورة مختلفة جدا ، الآن نحن نتحرك ونغير العالم معنا . ولكن عفوا ، لا تسيء فهمي ، كلامي عن أيام الاحزاب القومية ليس كالكلام الذي تسمعه الان من البعض ، انا غير مصاب بمرض شتم الماضي ، والشتم الذاتي ، اللذين أصبحا موضة هذه الايام ، أنا متفائل الان لا لاني اطمئن للمستقبل ، ولكن لاني افهـــم الماضي فهما موضوعيا . لولا نضال الاحزاب الوطنية لما كانت المقاومة ، المقاومة خطوة متقدمة للنضال الماضي ، انا متفائل لاني على استعداد لان أموت غدا دون أن أكون نادما على شيء ، ودون ان اعتذر عن شيء ، في كل حياتي ، من « كتائب الفداء العربي » حتى « الجبهة الشعبية » من « الرأي » حتى « الهدف » من « موت سرير رقم ١٢ » حتى « ام سعد » من دمشق حتى بيروت .

ــ هذا شعور جيد ، ولكن انت يا غسان لم تشترك في « كتائب الفداء العربي » أنت ابتدأت « بحركة القوميين العرب » .

ــ لم اشترك لاني لم أكن وقتها بالعمر الذي يسمح لي ، لو كنت لاشتركت حتما . انا لا أستطيع ان اصمت ، كل شيء الا جريمة الصمت ، انت ، انت تعرف ماذا يعني الصمت بالنسبة للاجيء . حتى ما تنتقده دوما ، ما تسميه (الشطحات الرومانسية في الصفحات الخلفية) ، هذه الشطحات كنت أكتبها لان البديل لها كان الصمت .

ــ تذكرني بما قاله برنارد شو لصحفي سأله في عيد ميلاده التسعين عن شعوره ، فقال له : اشعر بالسعادة الغامرة لاني !عتبر البديل .

يضحك غسان ضحكة طويلة ، كلما انتهت عادت لتنهدر من جديد حتى تسيل الدموع على وجنتيه واخيرا يقول :

ــ ليس اليوم هو عيد ميلادي ، ولكن اذا سألتني كيف اشعر فلن اتردد ان اقول اني اشعر بالسعادة ليس لاني اعتبر البديل ، ولكن لاني أعرف اننا نسير بطريق لا بديل له.

* * *

ننتهي من قراءة « ام سعد » وننسى غسان كنفاني ، نذكر « سعد » « فضل » و« عبد المولى » نذكر الناس الذين فاجأونا ، وغيرونا واخذونا لـــ ١٩٣٦ ليعرفونا على تاريخنا وحركته المستمرة أبدا ، ويمسحوا عن قلوبنا شعور الغربة وليعيدونا لعالم ١٩٧٠ لنفهم أنفسنا ومكاننا في العالم ، ونسير بطريق معالجة الامر الواقع « كمشكلة تاريخية » ، ولكن ، ولكن أين غسان ؟

* * *

ـــ غسان شعورك بالسعادة ، يظل شعورا شخصيا ، ماذا عن القضية ؟

ـــ لا يا عزيزي ، ليس هناك سعادة شخصية في النضال السياسي ، سؤالك عن القضية هو السؤال الشخصي . نحن متفائلون لاننا نرجع قضيتنا مع اسرائيـــل للتاريخ حتى نحصل على الحكم التاريخي . لماذا ؟ لاننا الان نفهم حركة التاريخ ، نعرف ماذا تعني اسرائيل ، ما الذي تريده اسرائيل ؟ تريد ان نقيم دولة عنصرية ودينية ، هذا اساس رجعي محكوم عليه بالفشل التاريخي ، هذا بالطبع كلام مجرد ، متى يصبح هذا الكلام بحدود الامكان ؟ عندما نصبح قوة تقدمية تاريخية . عندما يصبح الصراع مع اسرائيل صراع بين قومية واحدة تقدمية والاخرى رجعية . في السابق ، في كل مراحل الصراع كانت الصورة بشكل آخر . القوى التي تصدت لاسرائيل ، طبعا نحن نعرف ان التصدي كان اسميا ، ولكن على أفق تاريخي ، تلك القوى لم تكن خالية من التعصب والعنصرية، ولم تكن خارج دائرة الامبريالية ، لذلك كان الصراع يأخذ شكلا مضحكا ، ولكنه الشكل الطبيعي جدا ، عندما تتصادم قوتان تمثلان ظاهرة تاريخية متشابهة فالحكم بينهما هي حتما التكنلوجيا وليس غيرها ، ولكن عندما تتصادم قوتان تمثل كل واحدة منهم ظاهرة تاريخية مختلفة فالحكم الاخير هو التقدم التاريخي . ولهذا فهزيمة اسرائيل لن تكون انتصارا عربيا ، ستكون انتصارا للتقدم الانسانية . وستكون بالطبع هزيمة لاكثر مظاهر وتكوين الحياة العربية الحاضرة .

دعني أحدثك بدون فلسفة عما اقصده ، مرة قبل اشهر كنت في احد الاجتماعات ، كنت متعبا وبنفسية قلقة ، وبعد نهاية الاجتماع جـــاءني (أبو ...) ، اولا دعني اعرفك بـــ (ابو ...) . هو في السابعة والخمسين من عمره وعندما يمزح مع المقاتلين يقول لهم (فدائيو آخر الزمان) فلقد قاتل في ٣٦ ، ٤٨ ، ٥٦ ، ٦٧ ، واستضافته أكثر سجون المنطقة في الفترات التي انقضت بين هذه التواريخ ، جاءني وشد على ذراعي وهمس « غسان ، طول بالك ، الوضع الان أفضل من السابق ، مررنا بالماضي بأيام مثل الزفت، طول بالك ، المهم أن نستمر أن نستمر .. » . تريد قصة أخرى ، ام سعد ، عندمـــا استشهد ابنها ، علق « ابو سعد » صورة سعد على الجدار وتحتهـــا علق رشاشه (الكلاشينكوف) فخرا واعتزازا ، اتعرف ماذا فعلت « ام سعد » بعد يومين ، اخذت « الكلاشينكوف » وأعطته لمقاتل من اصدقاء « سعد » لا يملك واحدا . آه فقط لو يوجد الوقت الكافي ، الان يمكن كتابة قصص فلسطينية .

* * *

هل سيكتب غسان قصصا اخرى ؟ الواقع انه في صيف ١٩٧٠ لم يكن مهتما بالموضوع ، قد يكتب وقد لا يكتب . فخلال بحثه الطويل عن مادة الرواية الانسانية ، كان يتطور يوما بعد يوم ليصبح من نسج المادة التي يبحث عنها ، عندما وجدها وجد نفسه . اخيرا وجد نفسه في تنظيم متضامن وأمين على قيم العصر ، قيم العقل ، قيم المنطق ، قيم الصراع الطبقي ، قيم حرية الانسان .

اين هو الآن ؟

في الرسالة الاخيرة كتب يقول :

« المرض يشتد علي ، واشعر دائما بالاعياء والتعب ، ولكني لا اذهب للفراش ، هناك شعور خفي ، بأن الذين يقعدون الآن لن يقوموا أبدا ... »

اين غسان ؟

« هو والرفاق محاصرون في قلب الدرع » .

غسان كنفاني في كتبه الاحد عشر

ف. المنصور

في ١٩٦١ نشرت في بيروت مجموعة قصص قصيرة لاديب ناشىء اسمه غسان كنفاني ، قدم كتابه بالكلمات التالية :

« جرت العادة ان يحصل الانتاج الاول لاي كاتب على « جواز مرور » للقارىء ... كلمة لقلم مشهور تتصدر الكتاب .. او جمل موجزة على ظهر الغلاف ، او حملة دعاية واسعة يشترك فيها الكاتب والناشر واصدقاء الطرفين ، يحكون فيها كيف خلقت القصص ، وكيف نزفها القلم المجروح ، وكيف .. وكيف .. انا أؤمن ان الكتاب يجب ان يقدم نفسه ، واذا عجز عن احراز جزء من طموح كاتبه ، فعلى الكاتب ان يقبل ذلك ببساطة ، كما قبل — مرات ومرات — ان يمزق قصصا ليعيد كتابتها .. او يكتب سواها .. وهكذا « فموت سرير رقم ١٢ » ادفعها لتشق طريقها ان استطاعت ان تهتدي الى اول الطريق ، بنفسها ، دون « شفاعة » ودون « وساطة » ودون « جواز مرور » .. »

هذه السطور تحكي قصة غسان كنفاني ، وترسم معالم شخصيته . انها لا تقدم كتابه فحسب ، وانما تقدمه هو ، او بالاحرى تقدم تلك الظاهرة التي اسمها غسان كنفاني . فغسان كنفاني هو ظاهرة قبل أن يكون مجرد أديب شاب ، وظاهرة فلسطينية على وجه التحديد . انه باقتحامه مجال الكتابة ليقدم نفسه بجرأة واعتداد للقارىء يستجيب بذلك للتحدي ، تحدي النشأة المحرومة في المخيمات ، تحدي التشرد في سوريا والعراق ولبنان والكويت . انه مثال حي على نظرية التحدي والاستجابة للمؤرخ ارنولد توينبي . ففي مجتمع الحرمان في المخيمات ، حيث الانسحاق والقهر هو التحدي الكبير ، لم يستكن كنفاني لضغوط الضياع والتشرد والفقر ، بل قاومها بثبات وحطم اغلالها.

واذا كانت المقدمة القصيرة التي استشهدنا بها اعلاه ، تعطي مجرد لمحة عن شخصيته ، فمضمون قصصه في هذه المجموعة الاولى التي تضم باكورة انتاجه ، تتولى توضيح هويته ، ليس بشكل عابر، وانما باصرار : فلسطيني لاجىء يذكر بالوطن المفقود .. اديب يستوحي عالمه من مأساة قومه المستمرة .

تشتمل المجموعة على سبع عشرة قصة ، مقسمة الى ثلاثة اقسام ، فسر المؤلف تقسيمها على هذا النحو بقوله في المقدمة : « الهدف من هذا التقسيم هو الفصل بين ثلاثة انواع من القصص ، اذا عجزت هي نفسها عن توضيح الفرق بينها ، فلن تستطيع هذه الكلمة الموجزة ان تفعل » . تضم المجموعة الاولى ست قصص ، كلها عن فلسطين . اولها : « البومة في غرفة بعيدة » تعين الهاجس في عقل هذا الكاتب الشاب الناشىء ، وتحتوي على عناصر النكبة التي لم تبارح ذهنه طيلة حياته. فبطل القصة يقص صورة ملونة مبتلة بماء المطر ، من مجلة هندية ، ويعلقها على جدار غرفته التي تكاد تكون عارية من الاثاث . وعندما يأوي الى فراشه في منتصف الليل ، تفاجئه الصورة وقد تحولت في ضوء الغرفة الخفيف الى شيء في غاية البشاعة . ولكن بالرغم من هذه البشاعة ، تبدو له نظرة البومة ، وكأنها « تحتوي خوفا يائسا مشوبا بتحفز بطولي وتشبه الى حد بعيد نظرة انسان خضع فجأة للحظة ما ، عليه ان يختار فيها بين ان يموت ، او ان يهرب » . هذه النظرة تفجر في ذهن بطل القصة شلالا من الذكريات ، وتدفع بشريط من صور الماضي لان يمر أمام عيني عقله : « كان ذلك قبل عشر سنوات على وجه التقريب ، كنت في قريتي الصغيرة التي تتساند دورها كتفا الى كتف فوق حاراتها الموحلة ، اذكرها

الآن أشباحا تتلامح منذ زمن بعيد ، كنت طفلا آنذاك ، وكنا نشهد ، دون ان نقدر على الاختيار، كيف كانت تتساقط فلسطين شبرا شبرا وكيف كنا نتراجع شبرا شبرا » . في هذه الفترة تكمن الفكرة الثابتة الملحة التي تجتاح اعمال غسان كنفاني الادبية المكتوبة قبل عام ١٩٦٨ .. فكرة السقوط والتراجع والهزيمة . فبطل هذه القصة شاهد وهو صبي صغيرة ، وفي ليلة ملتهبة بنيران الحرب ، بومة قابعة على غصن شجرة ، وفي وميض النيران الذي أضاء ذلك الجانب من القرية ، لمح في عينيها « ذلك التحدي الباسل ، الخائف بعض الشيء ، **ولكن الصامد لضغط لحظة اختيار واحدة بين الفرار والموت** » . هذه الصورة تظل عالقة بذهن الشاب الذي يعيش الان في المنفى ، بعيدا عن الوطن الذي ضاع في لحظة اختيار سيئة يدفع هو وابناء جيله ثمنها المرير .

هذه القصة كتبها غسان كنفاني في الكويت عام ١٩٥٩ . وفي قصة اخرى كتبها قبل ذلك بعام في دمشق ، نواجه الموقف نفسه . ففي « شيء لا يذهب » يتذكر شاب مسافر بالقطار من عبدان الى طهران (وهي رحلة الاستجمام المعهودة لكل مقيم بالكويت) تلك الفتاة التي احبها في حيفا وكلماتها الاخيرة له : « باستطاعتك ان تغادر حيفا ، ان تهرب من حيفا .. ولكنك في يوم سيأتي لا بد لك من ان تصحو .. وتكتشف .. وتندم .. ليلى الحزينة .. البائسة .. بقيت في حيفا ورفضت ان تخرج منها .. وقالت لجيرانها عندما أتوا ليجروها معهم انها فقدت كل شيء ولا تريد ان تفقد ماضيها الجميل في حيفا الجميلة .. تريد ان يبقى لها شيء لا يذهب ... » ويقول بطل القصة لنفسه : « لم تستطع ليلى ان تغيرني .. شعرت هذا بوضوح الان .. انسان لا فائدة منه . هذا كل شيء ... باقة ورد على ضريح انسان ميت .. شيء يذهب ، لقد قالت لهم انها تريد ان يبقى لها **شيء لا يذهب** .. » ليلى صمدت وبقيت وماتت ، وهو اختار الفرار ، فأساء الاختيار ، وحصد ثمرات النـــدم عارا لا تغسله عن روحه كل مياه البحر .

وفي « منتصف ايار » القصة التي تلي « شيء لا يذهب » ، لا يتغير جوهر الموقف ، بل يتخذ رداء جديدا فقط . اذ بعد اللحظة الحرجة التي يفشل بطل القصة في اجتياز امتحانها بنجاح ، نجده يسجل هذا الاعتراف : « لقد مر اثنا عشر عاما على ذلك اليوم ... وانا ملاحق من عاري .. **كل ايار** يثقل صدري ككابوس لا يرحم .. (...) لست اعرف مبلغ تطوري الان .. هل استطيع ان اقتل يهوديا دون ان ارتجف ؟ لقد كبرت .. وجعلتني الخيمة أشد خشونة .. ولكن هذا لا يعطيني يقينا .. يقيني الوحيد .. هو اني أشعر بالعار ملتصقا بي حتى عظمي .. » نعم ، العار ، فأي شيء غير العار والاحساس بنتانته العالقة بالنفس يثمر الرفض والتمرد ؟ حياة غسان كنفاني كلها كانت رحلة قطار اجتاز محطات الاختيار المشؤوم والفرار والعار مؤديا الى الرفض البات القاطع ومن ذلك الى الثورة والنضال . وهو اذا كان قد أرخ العار منذ بدايته ، وشاهده منعكسا في عيني البومة في ذلك اليوم الرهيب ، فانه ايضا واكبه في أعوام التشرد . ففي قصته «كعك على الرصيف» يكتب غسان كنفاني عن الصراع في سبيل لقمـــة العيش ، واجدا نموذجه في شخص الصبي ماسح الاحذية . فيما يلي الحوار الذي يدور بين معلم المدرسة الابتدائية والصبي الذي يمسح له حذاءه :

« — كم عمرك ؟

— احدى عشر سنة ..

— فلسطيني ؟

هز رأسه فوق الحذاء ، دون أن يجيب ، وأحسست بأنه يخفي شعورا بخجل صغير

— أين تسكن ؟

— في المخيم .

— مع أبيك ؟

— لا ، مع أمي ..

— انت طالب ، أليس كذلك ؟

— نعم .

ونقر بابهامه على النعل » .

القصة كلها عن العار ، العار الثاني الذي ولد عن العار الاول . قبل كنفاني كتب بيرت بريخت : اشبعوا البطون أولا ، وبعد ذلك تحدثوا ، ان شئتم ، عن الاخلاق . وهنا في عـــالم اللاجئين الجياع ، لا مجال للحديث عن الاخلاق . ان الصبي الصغير ، ماسح الاحذية بالليل ، وتلميذ المدرسة بالنهار ، يحترف الكذب بالضرورة ، لان ذلك هو ما تحتمه عليه الظروف . انه بلا خيار في الامر ،

مكتوب عليه أن يكذب ويلفق بدون انقطاع لان العالم المحيط به لا يقبل حقائقه .

القصة الاخيرة في القسم الاول من المجموعة ، « الارجوحة » لا يرد بها ذكر لفلسطين ، فهي ظاهريا قصة شاب له علاقة بفتاتين . اما في الواقع ، فموضوعها هو استمرار لواقع الحال في « كعك على الرصيف » ، أي الكذب وعدم التصديق . فالشاب يكذب على الفتاتين ، والفتاتان لا تصدقانه ، والثلاثة يغرقون في حمأة التفاهة والعبث . ففي مجتمع العار لا يقتصر الكذب على الجياع والعراة ، فهو اذا كان احتراف الفقراء بالضرورة ، فانه ايضا هواية المتنعمين الذين تسمح لهم حياتهم السهلة بالتسلي بعلاقات الحب السطحية . كذب في كذب والجميع يتمرغون في مستنقع العار . « موت سرير رقم ١٢ » هي القصة التي تتوج بعنوانها المجموعة كلها . انها القصة الاولى في القسم الثانيمن الكتاب،وهي بلا ريب انضج انتاج لكنفاني في المرحلةالاولى من حياته الادبية . هنا نجد الخيط الفاصل بين الواقع والخيال ، بين الرومانسية والحقيقة المجردة . هنا يضع كنفاني قدمه على العتبة ، متعلما كأديب خلاق كيف يكبح جماح خياله ويسيطر عليه . وباستثناء نغمة المنفى المتكررة في معظم كتابات كنفاني ، فهذه القصة لا علاقة لها بفلسطين . الا انه ما يلبث ان يعود الى فلسطين في قصته « الرجل الذي لم يمت » ساردا حكاية الشخص الذي باع ارضه لليهود ، وتعرضه لمحاولة اغتيال نتيجة لذلك . وعندما تراه بعد عشر سنوات المرأة التي مات ابنها وهو يحاول قتله ، وتشاهد اثر الجرح العميق في وجهه الذي خلفته محاولة الاغتيال ، تقول لنفسها : « سوف يتيسر (له) ان يرانا نعود الى الارض التي باعها .. سوف يشعر يومها — وهو يحدق بالجرح الطويل المحفور في صدغه وعنقه — ان هنالك شيئا اقسى من الموت ... اقسى بكثير .. »

اما في القسم الثالث والاخير من الكتاب ، فالمؤلف يقف على ارض اقل استقرارا بالنسبة اليه كأديب شاب ناشىء . انه هنا يدلف الى عالم الرمز والاسطورة ، محاولا سكب تجربته في قالب أدبي جديد . لكنه في هذا التولج الى القضية — قضية فلسطين بالطبع — يفوز بحظ أقل من التوفيق . فالقصص في هذا الجزء من الكتاب لا تترك انطباعا باقيا في نفس القارىء ، بل تبدو مفتعلة وغير ناضجة . ومع ذلك ، فان نقاط الضعف هذه لا تنتقص من قيمة المجموعة ككل ، ولا تقلل من موهبة المؤلف الذي لم يكن قد بلغ الخامسة والعشرين عندما ألف هذه القصص . ـ ـ ـ ـ بعض القصص كتب بأسلوب ميلودرامي ، وان الفرق بين اقسام الكتاب الثلاثة ليس بالوضوح الذي تصوره هو ، لكن القارىء لا يملك الا ان يعجب بالعنفوان الذي يسري في القصص كلها ، وبالجدية البالغة التي تشير الى موهبة واعدة .

وفعلا في كتابه الثاني ، « رجال في الشمس » الصادر في مطلع ١٩٦٣ ، حقق غسان كنفاني الامال التي عقدت عليه . ففي هذه القصة الطويلة (١٠٦ صفحات) نلاحظ لمسات المحترف الذي اتقن الصنعة وتعلم كيف ينحت من الكلمات عالما يحمل بصمات اصابعه ، ونجد ايضا الشخصيات المتكاملة الحية التي تقنع ، والموقف المأساوي المنبثق عن احداث وقعت فعلا . هنا لا خطابيات ، ولا ميلودراما ، بل الحدث الدرامي المجرد الذي لا يحتاج الى صياغة ديداكتيكية من اجل استخلاص الدروس منه : ثلاثة فلسطينيين يريدون الرحيل الى الكويت ، حيث لقمة العيش ، لهم ولعوائلهم، وحيث الفرصة لبدء حياة جديدة بعيدا عن بؤس المخيمات . ابو قيس العجوز ، هذه قصته : ابنه لا يستطيع الذهاب الى المدرسة ، والابن الثاني ماذا سيفعل عندما يكبر ؟ يقولون له : اذا وصلت الى شط العرب بوسعك ان تصل الى الكويت بسهولة . البصرة مليئة بالادلاء الذين يتولون تهريبك الى هناك عبر الصحراء .. لماذا لا تذهب ؟ أتعجبك هذه الحياة هنا ؟ لقد مرت عشر سنوات وانت تعيش كالشحاذ .. ويجيبهم ابو قيس : الطريق طويلة ، وانا رجل عجوز ليس بوسعي ان اسير كما سرتم انتم .. قد أموت .. ولكنه في نفسه يقول : تموت ؟ هيه ! من قال ان ذلك ليس افضل من حياتك الان ؟ منذ عشر سنوات وأنت تأمل ان تعود الى شجرات الزيتون العشر التي امتلكتها مرة في قريتك .. قريتك ! هيه ! » ويذهب ابو قيس .

وهذه قصة الرجل الثاني ، اسعد ، عمه يقول له : « لا تتفاءل كثيرا ، قبلك ذهب العشرات (الى الكويت) ثم عادوا دون ان يحضروا قرشا .. ورغم ذلك سأعطيك الخمسين دينارا

التي طلبتها ، وعليك ان تعرف انها جنى العمر .. اسعد : اذن لماذا تعطيني النقود اذا كنت متأكدا من انني لن اعيدها لك ؟ العم : انت تعرف لماذا .. ألست تعرف ؟ انني اريدك ان تبدأ .. ان تبد ... ي انجحيم حتى يصير بوسعك ان تتزوج ندى .. اني لا استطيع ان اتصور ابنتي المسكينة تنتظر اكثر .. هل تفهمني ؟ ويتمنى اسعد لو استطاع ان يقذف المال في وجه عمه . يزوجه ندى ! من الذي قال له انه يريد ان يتزوج ندى ؟ لمجرد ان اباه قرأ معه الفاتحة حين ولد هو وولدت هي في يوم واحد ؟ ان عمه يعتبر ذلك قدرا ، بل انه رفض مئة خاطب قدموا ليتزوجوا ابنته وقال لهم انها مخطوبة ! يا اله الشياطين ! من الذي قال له انه يريد ان يتزوجها ؟ من قال له انه يريد ان يتزوج ابدا ؟ وها هو الان يذكره مرة اخرى ! يريد ان يشتريه لابنته مثلما يشرى كيس الروث للحقل . »

ثم هناك مروان ، ابن الستة عشر عاما . ابوه طلق امه ليتزوج امرأة اخرى ، واخوه زكريا الذي كان قد ذهب الى الكويت قبل مدة، انقطع — لسبب مجهول — عن ارسال المال ، مما جعل من الصعب اطعام نصف دستة من الافواه المفتوحة . ابوه رجل معدم « كل طموحه هو ان يتحرك من بيت الطين الذي يشغله في المخيم منذ عشر سنوات ويسكن تحت سقف من السمنت (..) لقد عرض عليه صديقه القديم والد شفيقة ان يتزوجها .. قال له انها تمتلك بيتا من ثلاث غرف في طرف البلد ، دفعت ثمنه من تلك النقود التي جمعتها لها منظمة خيرية .. وابو شفيقة يريد شيئا واحدا : ان يلقي حمل ابنته التي فقدت ساقها اليمنى اثناء قصف يافا — على كاهل زوج ! انه على عتبة قبره ويريد ان يهبطه مطمئنا على مصير ابنته التي رفضها الجميع بسبب تلك الساق المبتورة من أعلى الفخذ .. (...) ورغم ذلك ، فانه (أي مروان) لا يكره أباه الى هذا الحد ، لسبب بسيط هو ان اباه ما زال يحبهم جميعا .. لقد تأكد من ذلك تماما حين ذهب اليه يودعه قبل ان يسافر ، لم يقل لامه انه يذهب الى بيت شفيقة والا لكانت جنت .. قال له ابوه هناك : انت تعرف يا مروان بأن لا يد لي في الامر ، هذا شيء مكتوب لنا منذ بدء الخليقة . قالت شفيقة : قلنا لامك ان تأتي وتسكن هنا لكنها لم تقبل .. ماذا تريدنا ان نفعل اكثر من ذلك ؟ كانت جالسة فوق بساط من جلد ماعز ، وكان العكاز ملقى الى جانبها ، وفكر هو : ترى اين ينتهي فخذها ؟ كان وجهها جميلا ولكنه حاد الملامح مثل وجوه كل اولئك المرضى الذين لا يرجى لهم الشفاء ، وكانت شفتها السفلى مقوسة وكأنهـا على وشك ان تبكي . قال ابوه : خذ ، هذه عشرة دنانير .. قد تنفعك .. واكتب لنا دائما . حين قام رفعت شفيقة ذراعيها في الهواء ودعت له بالتوفيق . كان صوتها فاجعا . وحين التفت اليها قبل ان يجتاز الباب بدأت تشهق بالبكاء . وقال له ابوه : وفقك الله يا مروان يا سبع . وحاول ان يضحك الا انه لم يستطع فأخذ يربت بكفه الكبيرة الخشنة على ظهره ، بينما تناولت شفيقة عكازها واستوت واقفة بحركة سريعة . كانت قد كفت عن البكاء . صفق الباب وراءه وسار . كان ما زال يسمع صوت عكاز شفيقة يقرع البلاط برتابة ، وعند المنعطف تلاشى الصوت . »

ابو قيس وأسعد ومروان يلتقون صدفة في البصرة، قاعدة التهريب الى الكويت ، بعد رحلة شاقة بدون جوازات عبر الصحراء بين فلسطين وبغداد. اسعد ، مثلا ، كاد يتيه في تلك الصحراء ، بعد ان خدعه الدليل وتخلى عنه . القاسم المشترك الذي يجمع بين الثلاثة ، الكهل والشاب والصبي ، هو أبو الخيزران : « منظره يوحي حقا بالخيزران ، فهو رجل طويل القامة جدا ، نحيل جدا ، ولكن عنقه وكفيه تعطي الشعور بالقوة والمتانة . وكان يبدو لسبب ما ، انه بوسعه ان يقوس نفسه ، فيضع رأسه بين قدميه دون ان يسبب ذلك اي ازعاج لعموده الفقري او بقية عظامه . » انه هو الاخر من فلسطين ، خدم في الجيش البريطاني قبل ١٩٤٨ ، وحين ترك الجيش انضم الى فرق المجاهدين . ولما كان معروفا عنه انه احسن سائق للسيارات الكبيرة يمكن ان يعثر عليه ، فقد استدعاه مجاهدو الطيرة ليقود مصفحة عتيقة كان رجال القرية قد استولوا عليها اثر هجوم يهودي. وحين قدم الى الكويت ، تمكن من كسب ثقة ثري كويتي ، فاستخدمه عنده كسائق سيارة الماء الكبيرة التي كانت ترافق هذا الثري في رحلات القنص التي يقوم بها .

وكان الفلسطينيون الثلاثة قد فشلوا في مفاوضاتهم مع المهرب في البصرة . فأجرته مرتفعة ، ثم انه مصر على تحصيلها منهم سلفا ، بالرغم من

الحوادث الكثيرة التي وقعت في حـالات تهريب سابقة ، عندما هرب الدليل قبل ان يصل بجماعته الى الكويت ، فأدى ذلك الى ان يضلوا طريقهم في الصحراء ويموتوا عطشا ، او انه اشار الى قرية عراقية نائية وقال لهم انها الكويت ، ثم اختفى . وكان ابو الخيزران قد تعرف على مروان خارج مكتب المهرب ، فأخبره انه عائد بسيارة الماء الكبيرة الى الكويت ، بعد ان كان قد تخلف في البصرة ليصلح عطبا اصيبت به اثر رحلة قنص قام بها الثري الكويتي في جنوب العراق ، ثم قال له مقترحا : « سأخبرك الامر بكل صراحة .. انا رجل مضطر للذهاب الى الكويت . قلت لنفسي : لا بأس من ان ارتزق فأحمل معي بعض من يريد الذهاب الى هناك .. كم بوسعك ان تدفع ؟ » وبعد ان يتفق معه على السعر ، يقول له : « انا مبسوط انك ستذهب الى الكويت لانك ستتعلم هناك اشياء عديدة .. اول شيء ستتعلمه ان القرش يأتي أولا ، ثم الاخلاق ».

ثم يفسر خطته للثلاثة : « ستنزلون الى الخزان قبل نقطة الحدود في صفوان بخمسين مترا . سأقف على الحدود أقل من خمس دقائق . بعد الحدود بخمسين مترا ستصعدون الى فوق .. وفي المطلاع على حدود الكويت ، ستكرر المسرحية لخمس دقائق اخرى ، ثم هوب ! ستجدون انفسكم في الكويت ! »

وتبدأ الرحلة .. ويتجاذب ابو الخيزران وهو يسوق السيارة ، اطراف الحديث مع المسافر الذي سمحت له القرعة بأن يجلس بجانبه (بينما ركب الاثنان الاخران فوق ظهر السيارة) ولكنه عندما يسمع السؤال : لم لم تتزوج حتى الان ، يختفي الطريق من امامه ، وتتلاشى صورة الصحـراء المحيطة به ، وتعود به ذاكرته الـى الكابوس القديم .. « كان الضوء ساطعا بحدة حتى انه لم يستطع ، بادىء الامر ، ان يرى شيئا .. الا انه أحس بألم فظيع يتلولب بين فخذيه ، ثم استطاع ان يتبين ، بعد لأي ، ان ساقيه مربوطتان الى حمالتين ، ترفعانهما الى فوق ، وان عددا من الرجال يدور حوله .. اغمض عينيـه برهة ثم فتحهما ، مرة اخرى ، علـى وسعيهما . كان الضوء المستدير الموضوع فوق رأسه يحجب عنه السقف ويعشي بصره .. ولم يستطع ان يتذكر ، وهو مقيد هناك على ذلك الشكل المحكم والغريب، اكثر من شيء واحد حدث له منذ برهة ، ليس غير .. كان يركض مع عدد من الرجال المسلحين حين تفجرت جهنم امامه فسقط على وجهه .. هذا كل شيء ، والان ، الالم الفظيع ما زال يغوص بين فخذيه والضوء المستدير الضخم معلق فوق عينيه وهو يحاول ان يرى الى الامور والاشخاص مضيقا جفنيه قدر ما يستطيع .. وفجأة خطر له خاطر أسود فبدأ يصيح بجنون ، ليس يذكر ما الذي قاله حينذاك ، ولكنه أحس بيد تطبق فوق فمه بعنف ، كانت تلبس قفازا لزجا .. ووصله الصوت ، كأنما عبر قطن : كن عاقلا .. كن عاقلا .. ان ذلك على أي حال افضل من ان تموت !.. ليس يدري هل استطاعوا ان يسمعوه وهو يصيح من بين اسنانه واليد اللزجة مطبقة فوق فمه ؟ ام ان صوته ضاع في حلقه ؟ انه ، على أي حال ، ما زال يسمع الصوت نفسه كأن انسانا آخر كان يصيح في اذنيه : لا .. الموت افضل . والان مرت عشر سنوات على ذلك المشهد الكريه . مرت عشر سنوات عـلى اليوم الذي اقتلعوا فيه رجولته منه ، ولقد عاش هذا الذل يوما وراء يوم وساعة اثر ساعة ، مضغه مع كبريائه ، وافتقده كل لحظة من لحظات هـذه السنوات العشر ، ورغم ذلك فانه لم يعتده قط ، لم يقبله قط .. عشر سنوات طوال وهو يحاول ان يقبل الامور ، ولكن أية امور ؟ ان يعتـرف ببساطة بانه قد ضيع رجولته في سبيل الوطن ؟ وما النفع ؟ **لقد ضاعت رجولته وضاع الوطـن** وتبا لكل شيء في هذا الكون الملعون .. كلا انه لم يقبل ، بعد عشر سنوات ، ان ينسى مأساته ويعتادها (...) كلما سئل بشكل عابر : لماذا لا تتزوج ؟ عاد اليه الاحساس الكريه بألم يغوص بين فخذيه كأنه ما زال ملقى تحت الضوء المستدير الساطع وساقاه مرفوعتان الى فوق . »

هـذه هي نكبة ابي الخيزران الخاصة ، ولكنـه ينتشل نفسه من ذكـريات الماضي القاسية الذي اثاره سؤال بسيط واحد ، عندما تصل السيارة نقطة الحدود ، فيطفأ المحرك ، ثم يفتح الباب وهو يصيح : « لقد بدأ الجد ، هيا .. سأفتح لكم باب الخزان .. هاها ! سيكون الطقس كالاخرة ، هناك في الداخل .. (...) انصحكم ان تنزعوا قمصانكم .. الحر خانق ومخيف هنا وسوف تعرقون كأنكم في المقلى .. ولكن .. لخمس دقائق او سبع ، وسوف اقود باقصى ما استطيع من السرعة .. توجد في

الداخل عوارض حديدية .. في كل زاوية عارضة .. انني افضل ان تتمسكوا بها جيدا والا تدحرجتم كالكرات (...) اننا ما زلنا في مطلع النهار ، وبعد قليل سيصبح الخزان من الداخل فرنا حقيقيا » . وتندفع السيارة باقصى سرعتها لتتوقف اخيرا امام نقطة التفتيش على الحدود ، فينجز ابو الخيزران المعاملة في دقائق ثم ينطلق بالسيارة من جديد . وبعد ان يجتاز مسافة ، يوقف السيارة ويفتح باب الخزان . فيخرج الثلاثة منه وهم في حالة يرثى لها ، ويلومه أسعد بعنف لانه ابقاهم في الداخل مدة طويلة ، حتى كادوا ان يختنقوا من الحر والهواء الفاسد ، بينما يقسم ابو الخيزران ان الامر كله لم يستغرق اكثر من ست دقائق . وبعد فترة استراحة قصيرة ، يعود الثلاثة الى داخل الخزان ، وينطلق ابو الخيزران بسيارته نحو النقطة الثانية . ولكن في هذه النقطة ، لا تنتهي المعاملة في دقائق معدودة كما في المرة السابقة ، فالموظفون الذين يعرفون ابا الخيزران جيدا بسبب كثرة اسفاره بين الكويت والبصرة ، يأخذون في ممازحته . ويقول له احدهم — ابو باقر — : « تذهب الى البصرة وتدعي ان السيارة قد تعطلت .. ثم تمضي مع كوكب اسعد ليالي العمر ! يا سلام يا ابو خيزرانة .. يا سلام يا ملعون .. ولكن قل لنا كيف احبتك ! الحاج رضا يقول انها من فرط حبها لك تصرف نقودها عليك وتعطيك شيكات .. اه يا ابو خيزرانة يا ملعون ! وانحنى فوقه وهمس بصوت مبحوح : اتراها فحولتك ! أم قلة الرجال ! في المرة القادمة سأذهب معك الى البصرة.. أتوافق ! تعرفني على كوكب هذه، الحاج رضا يقول انها جميلة حقا ».ويدعوه ابو باقر للبقاء بعض الوقت للسمر وشرب الشاي والاستمتاع بتكييف الهواء ، ولكن ابو الخيزران يصر على انه في غاية الاستعجال ويتوسل اليه ان ينجز المعاملة بسرعة . واخيرا يسترد جوازه ، فيطلق العنان لسيارته وهو يلعن ويكثر : « أكان من الضروري ان تتفلسف يا أبا باقر ! أكان من الضروري ان تتيء كل تاذوراتك على وجهي وعلى وجوههم ! يا لعنة الاله العلي القدير عليك — يا لعنة الاله الذي لا يوجد قط في اي مكان تنصب عليك يا أبا باقر ! وعليك يا حاج رضا يا كذاب ! راقصة ! كوكب ! يا لعنة الله عليكم كلكم .. »

وبعد ان يصبح بعيدا عن نقطة التفتيش ، يوقف السيارة ، ثم ينزل ليفتح باب الخزان ، هاتفا باسماء الرجال الثلاثة ، ولكنه لا يسمع جوابا . وعندما يدخل ليستطلع الامر ، يجد الثلاثة جثثا هامدة . اذ بينما كان موظفو الجوازات يمزحون معه حول الراقصة كوكب .. معه هو الذي فقد فحولته منذ عشر سنوات ، كان الثلاثة قد اختنقوا داخل جحيم الخزان .

ويستأنف رحلته الى الكويت . وعندما يصلها ، يقود السيارة الى الموقع الذي تكوم فيه البلدية القمامة ، قائلا لنفسه : « لو القيت الاجساد هنا لاكتشفت في الصباح ، ولدفنت باشراف الحكومة (...) تقفز الى الخارج واغلق الفوهة ببطء ، ثم هبط السلم الى الارض . كان الظلام كثيفا مطبقا وأحس بالارتياح لان ذلك سوف يوفر عليه رؤية الوجوه . جر الجثث — واحدة واحدة — من اقدامها والقاها على رأس الطريق . صعد الى مقعده ودور المحرك ثم كر عائدا الى الوراء ببطء محاولا قدر الامكان ان يخلط اثار عجلات سيارته بالاثار الاخرى (...) ولكنه ما لبث ان تنبه الى امر ما بعد ان قطع شوطا فاطفأ محرك سيارته من جديد وعاد يسير الى حيث ترك الجثث فاخرج النقود من جيوبها ، وانتزع ساعة مروان وعاد ادراجه الى السيارة ماشيا على حافتي حذائه . حين وصل الى باب السيارة ورفع ساقا الى فوق تفجرت فكرة مفاجئة في رأسه .. بقي واقفا متشنجا في مكانه محاولا ان يفعل شيئا ، او يقول شيئا .. فكر ان يصيح ، الا انه ما لبث ان احس بعناء الفكرة . حاول ان يكمل صعوده الى السيارة الا انه لم يشعر بالقوة الكافية ليفعل .. لقد شعر بأن رأسه على وشك ان ينفجر ، وصعد كل التعب الذي كان يحسه فجأة الى رأسه واخذ يطن فيه حتى انه احتواه بين كفيه وبدأ يشد شعره ليزيح الفكرة .. ولكنها كانت ما تزال هناك : كبيرة داوية ضخمة لا تتزعزع ولا تتوارى . التفت الى الوراء ، حيث القى الجثث ، الا انه لم ير شيئا، ولم تجد النظرة تلك الا بأن اوقدت الفكرة ضراما فبدأت تشتعل في رأسه .. وفجأة لم يعد بوسعه ان يكبحها داخل رأسه اكثر فاسقط يديه الى جنبيه وحدق في العتمة وسع حدقتيه .

انزلقت الفكرة من رأسه ثم تدحرجت على لسانه :

— لماذا لم يدقوا جدران الخزان !

دار حول نفسه دورة ولكنه خشي ان يقع فصعد الدرجة الى مقعده واسند رأسه فوق المقود :

ـ لماذا لم تدقوا جدران الخزان ؟ لماذا لم تقولوا ؟ لماذا ؟

وفجأة بدأت الصحراء كلها ترد الصدى :

ــ لماذا لم تدقوا جدران الخزان ؟ لماذا لم تقرعوا جدران الخزان ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ »

لا شك ان « رجال في الشمس » هي من أفضل ما كتب غسان كنفاني . فهي من ناحية المضمون اول محاولة جدية ناضجة لابراز مأساة اللاجئين في قصة ترتكز على احداث وقعت فعلا : اربعة رجال من فلسطين تتداخل مصائرهم وتترابط في يوم محرق الحرارة وتتجه معا الى ذروة الفاجعة . تكبتهم الشخصية هي افراز ، مجرد افراز جزئي واحد ، للنكبة الكبرى بعد مرور عشرة اعوام عليها . رجال يبحثون عن مكان لهم تحت الشمس ، فيلاقي ثلاثة منهم الموت ، بينما الرابع يضيف فاجعتهم الى فاجعته الخاصة . في احداث اقل من نهار واحد تتجمع عناصر الدراما في سياق عنيف كأنه سمفونية في حركة واحدة . ومن خلال رحلة الرعب والموت داخل الخزان الخانق ، تبرز لنا صور لا تنسى من حياة الرجال الاربعة . هناك مثلا منظر مروان مع ابيه وزوجته الثانية ، شفيقة ، ذات الساق المبتورة . انه مشهد مؤثر لا يتلاشى من الذاكرة بسرعة ، رسمه المؤلف بلمسات انطباعية خفيفة . أما الرحلة في الصحراء فهي أساس القصة كلها ، وما المشاهد الاخرى من حياة الرجال الاربعة التي تتداخل في نسيج واحد متكامل مع احداث ذلك اليوم الرهيب ، الا الدروب الممهدة الى الذروة النهائية . انه شريط سينمائي ، تتراوح فيه المشاهد بين صور الماضي في مخيمات اللاجئين حيث البؤس واليأس ، وبين الرحلة في الصحراء الى حيث الامل والخلاص . هذا التحرق المستميت للخلاص يجعل الثلاثة يتشبثون بالامل حتى وهم يجودون باخر انفاسهم . ان ابو الخيزران عندما كان يصرخ بسؤاله : لماذا لم تدقوا جدران الخزان؟ كان يعرف الجواب سلفا عليه ، اذ حتى الرمق الاخير ظل الثلاثة متعلقين بقشة الامل لا يملكون التخلي عنها .

بعد « رجال في الشمس » نشر غسان كنفاني مجموعة ثانية من القصص بعنوان « أرض البرتقال الحزين » . في القصة الاولى ، «ابعد من الحدود» يعود « الرجل الهام » الى بيته بعد يوم عمل مرهق . فيلقي نظرة على طفله النائم في الحرير الأزرق ويساعده الخادم على خلع حذائه ، وتقدم اليه زوجته العشاء . ثم يجد نفسه مدفوعا لان يسمع مرافعة الشاب الذي قفز من النافذة اثناء التحقيق : « لا يا سيدي ، لا تحاول ان تستدعي كاتبك ليحمل لك الملف الذي يحتوي على كل التفاصيل الهامة وغير الهامة لحياتي .. تريد ان تعرف شيئا عني ؟ هل يهمك ذلك ؟ احسب على اصابعك اذن .: لي ام ماتت تحت انقاض بيت بناه لها ابي في صفد ، ابي يقيم في قطر اخر وليس بوسعي الالتحاق به ولا رؤيته ولا زيارته . لي أخ ، يا سيدي ، يتعلم الذل في مدارس الوكالة ، لي اخت تزوجت في قطر ثالث وليس بوسعها ان تراني او ترى والدي ، لي اخ اخر يا سيدي ، في مكان ما لم يتيسر لي ان اهتدي اليه بعد .. » ثم يحدثه بعد ذلك عن مخيمات اللاجئين : « .. انهم ، اولا ، قيمة سياحية ، فكل زائر يجب ان يذهب الى المخيمات ، وعلى اللاجئين ان يقفوا بالصف وان يطلوا وجوههم بكل الاسى الممكن ، زيادة عن الاصل، فيمر عليهم السائح ويلتقط الصور ويحزن قليلا .. ثم يذهب الى بلده ويقول : زوروا مخيمات الفلسطينيين قبل ان ينقرضوا . ثم انهم ، ثانيا ، قيمة زعامية ، فهم مادة الخطابات الوطنية واللفتات الانسانية والمزايدات الشعبية .. وانت ترى ، يا سيدي ، لقد اصبحوا مؤسسة من مؤسسات الحياة السياسية التي تدر الريح يمينا ويسارا ! (..) سيدي .. اخشى ان يكون حساؤك قد برد ، فاسمح لي ان انصرف » .

وفي قصة اخرى ، « السلاح المحرم » ، تختلط عناصر التراجيديا والملهاة . فبطل القصة يتمكن في مشهد مضحك من خطف بندقية جندي بريطاني ويهرب بها ، الا انه لا يصل الى داره . وتنتهي القصة نهاية غامضة ، تبدو وكأنها مبتورة. وفي قصة اخرى ، تقع في ثلاثة اجزاء ، بعنوان « ثلاث اوراق من فلسطين » ، يعود المؤلف الى حرب ١٩٤٨ ، فيروي بعض الوقائع التاريخية على لسان محارب قديم : لقد تيسر لي ان ادخل معركتين مع ابراهيم ابو ديه ، رحمه الله لم يكن يحارب الا وهو واقف على قدميه كأنه يلقي خطابا ، وكنا كلنا نندفع الى الامام كأننا ذاهبون الى عرس .. رحمه الله .. انا اعرف شيئا كثيرا عن حياته ، لقد بدأ صغيرا مع عبد القادر الحسيني يأخذ الرسائل عبر الجبال الى الرفاق ، ثم كبر ابراهيم،

وحمل البارودة ، ونزل الى المعركة ، كان عبد القادر الحسيني يقول ان ابراهيم هو اشجع رجل رآه في حياته ، كان ذكيا جدا .. وفي ١٩٤٨ خاض مع رجاله معركة في ميكور حاييم وخرج منها بست عشرة رصاصة في ظهره كانت سبب شلله ، ثم امضى اربع سنوات بعدها يتعذب .. انت تستطيع ان تتصور كيف يكون شعور رجل مشلول امضى حياته يحارب واقفا على قدميه .. لقد كان ينظر ، فقط ، ثم يبتسم . ويعود الى التفكير بخمس وعشرين ليرة يحتاجها يوميا ثمن حقن المورفين تهدىء من عذابه بعض الشيء ... كان يتعذب .. الى ان فكرت بعض الدول العربية في ان تساعده وبعد مشاورات قررت له راتبا شهريا لمدى الحياة، وسافر مندوب عن هذه الدول الى بيروت ليزف البشرى .. وعندما دخل الغرفة ، كان ابراهيم ابو ديه يحتضر ، وكان ثلاثة رجال يقفون الى جانب سريره يبكونه .. وطلب ابراهيم منهم بصوت خفيض ان ينشدوا له نشيد موطني .. ووقف الرجال الثلاثة ينشدون له النشيد وهم يبكون » .

اين يتوقف التاريخ ويبدأ الادب ؟ في كتابات غسان كنفاني لا يوجد خيط فاصل بينهما . ففي الوقت الذي كان به يكتب هذه القصص (هذه القصة بالذات كتبت في ١٩٥٧) ويسجل بطولات المجاهدين، لم تحتو المكتبة العربية الا على بعض الكتب القليلة التي تبحث القضية . وكانت هذه الكتب تنقسم عادة الى قسمين : قسم لا يحتوي الا على التاريخ الجاف للمفاوضات والمباحثات والكتب السوداء والبيضاء الصادرة عن اللجان المختصة ، والقسم الاخر غارق في الحماسة الصبيانية والانشائيات المجوجة . ولذا فقد ترك لغسان كنفاني ، الاديب الناشيء الشاب ، ان يؤرخ القضية ادبيا وان يسجل البطولات باسلوب صادق بسيط بعيد عن النهج الخطابي .

في كتابه الثالث ، اتجه كنفاني شطر المسرح ، عندما ألف «الباب» ، مسرحيته الوحيدة، الصادرة في كانون الثاني ١٩٦٤ . وقد قدم مسرحيته هذه بالكلمات التالية : « تعتمد هذه المسرحية على اسطورة عربية عتيقة .. بشيء قليل من التصرف في الاصل . عاد هو ملك لقبيلة تسكن الاحقاف ، كما يذكر ياقوت ، وكانت لها الهة هي في رأي الطبري : صدا ــ صمود ــ هبا . وعاد هو الحفيد الثاني لنوح (..) ولقد اصاب قبيلة عاد القحط الشديد بسبب الحادها فارسل عاد الى مكة وفدا فيه قيل ولقمان ليستسقوا الماء للاحقاف . الا ان الوفد الذي نزل ضيفا على معاوية بن بكر في ظاهر مكة ، نسي مهمته طربا في غناء جاريتين اكرمه بهما معاوية ، وكانتا تسميان : الجرادتين .. وكان ان دفع معاوية جاريتيه ليذكر الوفد ، غناء ، بمهمته .. فلما خرج الوفد واستسقى قدمت في السماء ثلاث غيمات ، حمراء وسوداء وصفراء .. الخ . ويرث عاد ولده شديد الذي ما يلبث ان يموت فيرثه اخوه شداد الذي يقوم ببناء مدينة هي « ارم ذات العماد » ولكنه لا يستطيع دخولها بسبب من غضب الالهة ــ وحين يصر على ذلك تأخذه اصوات من السماء فيموت وتتهاوى ارم » .

هذه المسرحية التاريخية الاسطورية تقع خارج التيار الرئيسي لكتابات غسان كنفاني . وكي لا يستخلص منها القارىء الذي يعرف ارتباط المؤلف ادبيا وسياسيا بالقضية الفلسطينية دروسا ليست موجودة فيها ، اضاف كنفاني في نهاية الكتاب الملاحظة التالية : « عصر المسرحية هو الزاوية التي ينظر الابطال منها الى الاحداث وهم خاضعون لافكار ذلك العصر دون اي اعتبار لما عرفته واكتشفته العصور الاخرى . ولذلك فان اية محاولة لتطبيق افكار لاحقة وحقائق تاريخية حدثت فيما بعد على وجهات نظر ابطال ذلك العصر لن ينتج عنه سوى تشويش المسرحية وتحميلها ما لا تحمله . ان ما سيبدو للقارىء وكأنه تصرف في الحقائق التاريخية والخروج عن مسلمات معروفة الان هو واحد من الاخطاء التي يمكن ان تنتج عن قياس الاحداث والافكار بمقاييس زمنية خارجة عن المقاييس التي آمن بها وعاش لها عصر المسرحية ». ان « الباب » مسرحية فلسفية تعالج قضايا الايمان ومصير الانسان وعلاقته بالالهة . فالملوك الثلاثة يتمردون على القدر ويقفون بوجه الالهة ، الى ان تحل بهم نقمة السماء ، ولكن حتى في مملكة الموت يقف الملك المتوفى ، شداد ، في وجه الاله هبا ، يحاججه ويتحداه فيقول له الاخير : « انتم اعطيتموني السلطة لاحكم عليكم بالكذب ، ولتكون لي كل الكلمات النهائية .. ورغم ذلك فانني سأقول لك شيئا هاما .. ليس ثمة سلطة في الامر ، وليس ثمة كلمة نهائية ، اذا كنت انت لا تريد ان تعطيني تلك السلطة وتلك الكلمة » . ويحتدم الجدل بين الاثنين ، فيقول شداد لهبا : « لان العالم الذي وهبتنا اياه مقابل وعد مجهول كان عالما قميئا وسخيفا .. عالما لا جدوى منه ولا غاية ، لان المرء

يعيش فيه ، يتعذب ، يذوب .. لماذا ؟ لانه على موعد مع كلمة اسمها الجنة .. وما هو الثمن ؟ » ثم يصيح شداد في وجهه هبا : « الموت ! انه الاختيار الحقيقي الباقي لنا جميعا ، انت لا تستطيع ان تختار الحياة لانها معطاة لك اصلا .. والمعطى لا اختيار فيه .. اختيار الموت هو الاختيار الحقيقي ، ان تختاره في الوقت المناسب قبل ان يفرض عليك في الوقت غير المناسب .. قبل ان تدفع اليه بسبب من الاسباب التي لا تستطيع ان تختارها كالمرض او الهزيمة او الخوف او الفقر . انه المكان الوحيد الباقي للحرية الوحيدة والاخيرة والحقيقية » . هنا نجد اصداء من فلسفة العبث لالبير كامو الذي كتب يقول : ان الانتحار هو المعضلة الفلسفية الوحيدة التي يواجهها الانسان بالحاح . وغسان كنفاني لا يفعل اكثر من ان يضع هذه الفكرة الفلسفية في قالب مختلف بعض الشيء، عندما يكتب : « اختيار الموت هو الاختيار الحقيقي، ان مختاره في الوقت المناسب قبل ان يفرض عليك في الوقت غير المناسب » .

ان « الباب » هي مسرحية الحوار الغاضب بين الانسان المتمرد ، سليل بروميثيوس .. الانسان الذي يغور في اعماق نفسه باحثا عن الحقيقة ، وبين الالهة. الا ان « الباب » كلعبة على الخشبة، تفتقر الى عناصر الدراما الاساسية التي لا تنجح مسرحية بدونها ، اذ هنا لا نجد اشخاصا من دم ولحم ، وانما نماذج فلسفية يطرح المؤلف خواطره وتساؤلاته عبرها دون ان يضمنها الجديد المستحدث ، او ينفخ فيها بعض الحياة .

بعد « الباب » ، صدرت مجموعة اقاصيص ثالثة لغسان بعنوان « عالم ليس لنا » ، نشرت في شباط ١٩٦٥ ، الا انها ابداعيا لم تضف شيئا جديدا الى شهرته النامية كقصاص موهوب ، وان اشارت الى تأثره بعض الشيء بمؤلف غربي هو فرانتز كافكا . وهذا التأثير يبدو واضحا في القصة المسماة « جحش » ، وفيها يدهس رجل مرموق المكانة جحشا ، مما يؤدي الى احتجازه في مركز الشرطة ، ثم سوقه بعد ذلك الى المحاكمة . ويقترن اسم الرجل بالجحش فيما بعد ، الى ان يسأم هذه الشهرة المشؤومة ويضع حدا لحياته . انها قصة ساخرة ، الا انها لا ترتفع الى مستوى افضل ما كتبه غسان كنفاني من قصص . وهناك قصص رمزية اخرى في المجموعة ، هي وان كانت ظاهريا ليست عن فلسطين ، الا ان الجو الذي يسودها يذكر بالنكبة بشكل مبهم ليس من السهل وضع الاصبع عليه وتعيينه بالضبط . الا ان كنفاني يعود الى فلسطين ، في اخر قصة له بالمجموعة ، والى حرب ١٩٤٨ بالذات ، فيروي قصة بسيطة ، تبدو وكأنها نادرة من النوادر ، وذلك باسلوب مباشر وسياق لا ابهام فيه .

وفي ايلول ١٩٦٦ ، صدرت للمؤلف ثاني قصة طويلة له بعد « رجال في الشمس » ، هي « ما تبقى لكم » (٧٥ صفحة) وفي هذه القصة نجد تطورا جديدا في اسلوب غسان كنفاني وتقنيته الادبية ، قدمه بهذه الكلمات التوضيحية : « الابطال الخمسة في هذه الرواية ، حامد ومريم وزكريا والساعة والصحراء لا يتحركون في خطوط متوازية او متعاكسة ، كما سيبدو للوهلة الاولى ، ولكن في خطوط متقاطعة تلتحم احيانا الى حد تبدو وكأنها تكون في مجموعها خطين فحسب . وهذا الالتحام يشمل ايضا الزمان والمكان بحيث لا يبدو هناك اي فارق محدد بين الامكنة المتباعدة او بين الازمنة المتباينة ، واحيانا بين الازمنة والامكنة في وقت واحد . ان الصعوبة الكامنة في ملاحقة عالم مختلط بهذا الشكل ، هي صعوبة معترف بها ، ولكن لا مناص منها ايضا اذا كان لا بد ان تقول الرواية ما اعتزمت قوله دفعة واحدة . ولذلك السبب لجأت الى اقتراح مطروق لتعيين لحظات التقاطع والتمازج والانتقال ، والتي تحدث عادة دون تمهيد ، وذلك عن طريق تغيير حجم الحروف عند النقطة المعنية . انه شيء لا بد من الاعتراف به. ان تغيير حجم الحروف ذاك يعرقل جزءا هاما من عملية الانتقال التي كان لا بد ان تحدث دون وعي ودون اشارة ، وستبدو كأنها ترتيب مقصود لعالم غير مرتب في الحقيقة ، ولكن تجارب سابقة من هذا النوع اثبتت ان مثل هذا العمل هو شيء لا مفر منه » .

ان « ما تبقى لكم » هو ليس بالعمل الادبي الذي يمكن فهمه بسهولة ، حتى لو درسنا الكلمة التوضيحية بامعان ، ففي هذه القصة اقتبس كنفاني تقنية مؤلفين شهيرين ، هما : جيمس جويس الارلندي ووليم فوكنر الامريكي . فالسرد يعتمد على سيل الافكار الداخلية المتدفقة عبر حدود الزمان والمكان التي يرافقها ايقاع دقات ساعة الجدار وكأنه القلب البشري لجسد مشلول

يضبط ايقاع الزمن دون ان يشعر به . انها قصة تحوم على حدود التعبيرية ، مليئة بالصور التي تنحفر في الذهن ، تاركة فيه اثر الكي ، كالعبارة التالية : « وابتسمت فبدا فمها الملطخ بالحمرة جرحا داميا انفتح فجأة تحت انفها .. » او « .. كنت واقفا وكان مكوما تحت قدمي مباشرة ، وفجأة خيل الي ان كل شيء في هذه الصحراء الصامتة ، كل ذرة رمل ، كل خفقة هواء ، كل نجمة ، كل نقطة ظلام تحدق الينا معا مثلما كنا نحدق الى زكريا ملقى تحت قدمي الضابط بانتظار لحظة الموت الرهيبة » .

مجمل القصة : شاب يسكن مع اخته في غزة التي لجئا اليها بعد سقوط يافا بيد اليهود ، وبعد ان قتل اباهما في المعركة ، وانفصلت امهما عنهما ، مضطرة للعيش في الاردن . الاخت تدخل الثلاثين دون أمل في الزواج ، فتمنح نفسها لرجل اسمه زكريا وتحبل منه ، مما يضطر شقيقها حامد الى الموافقة على زواجها منه ، مع انه يحتقر زكريا لانه كان قد وشى باحد زملائه الى اليهود ، ومع انه متزوج من احدى صديقات اخته مريم ، وله عدة اطفال منها . ويقرر حامد ان يترك شقيقته مع زوجها الجديد في غزة ويعبر الحدود خلسة الى الاردن حيث تسكن امه . ولكنه في الطريق عبر الاراضي المحتلة يلتقي باسرائيلي ، فيجرده من سلاحه ، ويوثق يديه ، ثم يجلس بمواجهته طوال تلك الليلة الى ان تشرق الشمس . « ومن بعيد صفرت ريح صغيرة ، ومضت تكنس الرمل قادمة ، كانما في سباق ، نحونا . وحين وصلتنا غسلتنا بموجة مبكرة من القيظ ، فاخذ (الاسير اليهودي) يتحرك في مكانه قلقا . وقفت (حامد) واستكشفت الافاق الاربعة التي كانت تحيطنا ، رغم المسافات، كانما بالجدران . الا ان المدى وحده كان مبسوطا هناك ، مترامبا وصامتا . ويغتسل بالشمس والوحشة . وأمامنا مباشرة التصقت الشمس قرصا ملتهبا في جدار اشهب شديد العلو ، فجلست مرة اخرى الى جانبه ، وفرشت امامه كفي ، لاتول له ان ليس ثمة ما بوسعنا فعله . ولكنه ، بدل ان ينظر الى كفي ، مضى يراقب السكين التي اخذ نصلها الفولاذي يتوهج في الضوء ملقاة بين قدمي ، فتناولتها وسحبت نصلها من جديد فوق حافة حذائي ، فانطلق الصرير المحذر كانه عويل اخير . وعندها فقط نظر الى عيني . ولمحت في وجهه من جديد ، تلك المسحة الخرساء من الرعب العاجز ، فادركت انه سيكون بوسعي ذات لحظة ان اجز عنقه دون رجفة واحدة ، وان هذه اللحظة ستأتي لا محالة ، تحت وقع البريق المرعوب في عينيه ، وصرير نصل السكين فوق حذائي ، والشمس اللاهبة التي كانت تجلد مؤخرة عنقي بلا هوادة . ووراءه تماما كان افق من الرمال تحت سماء بيضاء عالية يبدو وكأنه مسرح ستندفع فيه ، حين يدق جرس ما ، سيارات وكلاب ورجال ، يسوقون امامهم رشاشات سوداء ، ذات فوهات دقيقة . ولكنهم جميعا سيظلون ملتصقين قرب مؤخرة المسرح ، امام تلك الخلفية الفارغة ، اذ يكتشفون فجأة ان القصة انما تجري هنا ، وانهم هم المتفرجون » .

ان الصحراء هي احد الابطال الخمسة في القصة، لكنها البطل الصامت المراقب دوما وابدا . وهي ايضا العنصر المحايد وان كانت المعبودة التي يرتمي حامد على صدرها : « ودون ان ينتابه خوف او تردد استلقى على الارض واحس بها تحته ترتعش كعذراء (...) شد نفسه الى التراب واحسه دافئا ناعما (...) فغرس اصابعه في لحم الارض وذاق حرارته تسيل الى جسده » .

جو الكابوس يعم القصة كلها المتجمعة داخل لحظة واحدة من الزمن ، يكشف احداثها ضوء كشاف يدور على محوره باسطا نوره الرمادي الباهت في حلقة كاملة . في هذا النور الضعيف نشاهد شخصيات القصة الثلاث : حامد وشقيقته مريم وزوجها زكريا يتصارعون في مستنقع من الوحل ، تغوص اقدامهم فيه ، وتتلوث اجسادهم به . انها معركة يائسة لكل من الثلاثة . حامد يرتبط مصيره بأسيره . مريم ترفض طلب زوجها الجديد ان تجهض نفسها ، وتتناول سكينا تطعنه بها في عانته : « واندفعنا مرة واحدة ونحن ننظر في عيني بعضنا مباشرة . كان النصل مندفعا من بين كفي المحكمتي الاغلاق . واحسست به حين ارتطمنا يغوص فيه . فأن انينا طويلا ، وحاول ان يرتد ، الا ان النصل جذبه من جديد ، فانزل كفيه ووضعهما فوق يدي المتشنجتين فوق المقبض واغمض عينيه . عندها تركت المقبض وارتددت الى الوراء، كان النصل يغوص في عانته . فوق فخذيه مباشرة. وحاول ان ينتزعه ، الا ان كفيه اللتين اخذتا تزرقان وترتجفان عجزتا عن الامساك بالمقبض ، فانحنى واستند بذراعيه الى الطاولة ، فيما اخذ

الدم يبلل سرواله ، وينتشر قانيا لامعا فوق ساقيه . وفي اللحظة التالية ، فتح عينيه بوهن ونظر الي ، فاستدرت وامسكته من كتفيه ودفعته نحو الحائط ، فالتصق جسده هناك محنيا بعض الشيء ، وقد سقط ذراعاه على جنبيه ، فيما الصق جبينه على الحائط محاولا ان يبعد المقبض عن الوصول الى الجدار ، ولكنني ثبت كتفيه بكفي، ووضعت ركبتي على ظهره ، ودفعته نحو الحائط بكل ما في من قوة . وسمعت صوت النصل يغوص في لحمه بطيئا ولكن ثابتا ، مرتفقا بصوت خشب المقبض وهو يحك الجدار بضراوة . فشخر كأنه يصحو من نومه ، وتناهى الي صوت نزيز الدم يتدافع حول النصل ، ثم انتفض وتساقط وتكوم بين قدمي الطاولة . واضاء شعاع الشمس الضيق المتسرب من النافذة خطا رفيعا من الدم كان يزحف برأس مدبب ، وسط بلاط المطبخ الناصع البياض».

انها قصة مريعة ، قد تختلف الاراء في تقييمها ، الا ان مشاهدها التعبيرية ورموزها الجنسية تمنحها قوة لا تنكر ، وتعيد الى الاذهان رواية فوكنر الشهيرة : « العنف والصخب » . وعاد كنفاني في عمله الادبي الذي تلى هذه القصة الى طريقة السرد التقليدية في مجموعته الرابعة من الاقاصيص التي صدرت في تشرين الاول ١٩٦٨ بعنوان « عن الرجال والبنادق » والتي قدمها بثلاثة اسطر فقط: « هذه تسع لوحات ، اردت منها ان ارسم الافق الذي اشرق فيه الرجال والبنادق والذين — معا — سيرسمون اللوحة الناقصة في هذه المجموعة » . ومع ان « لوحتين » فقط من هذه المجموعة الفتا عام ١٩٦٨ ، فالقصص الاخرى كتبت قبل حرب حزيران ، الا انه من الممكن ان تؤرخ المرحلة الثانية في أدب غسان كنفاني ، مرحلة المقاومة ، بهذه المجموعة .

مدخل المجموعة لوحة من ذكريات الماضي في حياة المؤلف يرجع تاريخها الى عام ١٩٤٩ . « قالوا لنا يومئذ » : سيوزع الصليب الاحمر عليكم هدايا العيد . كنت طفلا ، امتلك سروالا قصيرا وقميصا من الكتان الرمادي ، وحذاء مقطعا دون جوارب . كان اقسى شتاء شهدته المنطقة في عمرها ، وحين اخذت امشي ذلك الصباح تجمدت اصابع قدمي وكساها ما يشبه الزجاج الرقيق . جلست على الرصيف واخذت ابكي . وعندئذ جاء رجل وحملني الى دكان قريب . كانوا يشعلون النار في خشب يضعونه في علبة « صفيح » وقربوني منها . دفعت قدمي الى اللهب وغطست فيه. ثم اكملت مشواري الى مركز الصليب الاحمر راكضا ووقفت مع مئات من الاطفال ننتظر دورنا » .

القسم الاول من الكتاب مكرس « للمرتينة » ، او البندقية ، كما يسميها اهل فلسطين . والمتتبع لكتابات كنفاني لا يملك الا ان يلاحظ سريان نغمة البندقية في جزء كبير من انتاجه . ففي قصته « السلاح المخرم » المأخوذة من مجموعته « أرض البرتقال الحزين » يختطف بطل القصة بندقية من رجل بريطاني ويهرب بها الى بيته من اجل ان يكافح بها الضباع التي تحوم حول بيته بالليل . وفي « العروس » من « عالم ليس لنا » يذهب المبلغ المخصص لصداق العروس لشراء بندقية . وهنا في « عن الرجال والبنادق » مشكلة منصور كلها ، انه لا يمتلك بندقية للاشتراك في القتال دفاعا عن صفد ، ولذا فالقصة هي سجل لبحثه المحموم عن بندقية . يذهب الى خاله ويدور بينهما الحوار التالي : « — الشباب في صفد يحاصرون القلعة . جئت استعير بندقيتك لاذهب الى هناك . اتعطينيها؟ الخال : الطريق بين مجد الكروم وصفد وعر يستعصي على الماعز ، ان ولدا مثلك سوف يموت في الشول قبل ان يقطع نصف المسافة .

ودون ان يلتفت اليه رد ، للمرة العاشرة منذ الصباح ، على كلمة « ولد » التي لا ينفك خاله يوجهها اليه :

— انا لست ولدا .

— عمرك سبعة عشر عاما ، والبندقية التي تحملها تزن اكثر من نصف وزنك ، والطريق طويلة شرسة.

— اذا كنت خائفا على بندقيتك فقل ذلك بصراحة.

— انا خائف عليك . انت مجنون صغير ولكنني لا اريد أن افشلك . لماذا لا تقف على الطريق وتركب السيارة فتصل الى صفد ؟ لماذا ، اصلا ، تريد الذهاب الى صفد ؟ قلة رجال هناك ؟

(..) ومن اين ستحصل على الفشك ؟

— اشتريته .

— كم فشكة ؟

— حوالي العشرين .

— وبعشرين فشكة تغزو قلعة صفد ؟

— هل تعيرني بندقيتك ؟ سأعيدها لك بعد يومين .

— واذا مت ؟

قالها خاله باسما كأنه لا يصدق الحكاية ، ولكنه لم يبتسم ولم يتردد ، كان قد أعد جوابا لكل هذه الاسئلة :

— اذا مت سيعيدها لـك حسام ، انه هنـاك وسأوصيه بذلك » .

ويحصل منصور على البندقية العتيقة التي تكـاد تكون غير صالحة للاستعمال ويتوجه بها الى صفد، حيث يشترك في القتال ، وفي نهايته يعود الى بيت خاله ويسلم البندقية « صاغ وسليمة » . الا ان القتال المستمر في انحاء البلاد يستدعي استملاك السلاح بشكل دائم ، ولذلك يواصل منصور وابوه البحث عن بندقية الى ان يتمكن الاخير من تأجير مرتينة مقابل جنيه كل يوم . وفي خاتمة القصـة ، يسقط الاب قتيلا ويحملـه منصور عائدا به الى داره .

هذه اللوحة من عام ١٩٤٨ تذكـر بلوحات اخرى رسمها كنفاني في قصص سابقة وأرخ بها تلـك الحرب ، الا انها الاكثر اتقانا ونضوجا ، كما ان بطلها ، منصور ، الفلاح الصغير ، هو شخصية آسرة بجديته البالغة وبتحرقه لان يشترك في المعركة بسلاحه المضحك العتيق . هناك لمحات مؤثرة في هذه القصة تجعلها من افضل ما كتب عن حـرب ١٩٤٨ ، لا سيمـا وانها خاليـة من البطـولات الميلودرامية ، فالمقاتلون هنا هم اناس بسطاء من عامة الشعب يحاربون بدون قيادة او خطة ثـم يستشهدون ويدفنون بدون قرع طبول لتخلد ذكراهم. وبعد ان يسجل المؤلف تاريخ الحرب ، يبدأ في تدوين تاريخ حرب تختلف : تاريخ الجوع والحرمـان في مخيمات اللاجئين . ففي قصة ، « زمن الاشتباك » يرسم لنا لوحته بالكلمـات التالية : « في ذلـك الزمن — دعني اقول لك انه لم يكن زمن اشتباك بالمعنى الذي يخيل اليك ، كلا لم تكن ثمة حـرب حقيقية . لم تكن ثمة اي حرب على الاطلاق . كل ما في الامر اننا كنا ثمانية عشر شخصا في بيـت واحد من جميع الاجيال التي يمكن ان تتوفر في وقت واحد . لم يكن اي واحد منا قد نجح في الحصول على عمل ، وكان الجوع — الذي تسمع عنه — همنا اليومي . ذلك اسمه زمن الاشتباك . انت تعلم . لا فرق على الاطلاق . كنـا نقاتل من أجل الاكل . ثم نتقاتل لنوزعه فيما بيننا ، ثم نتقاتـل بعد ذلك » .

ولكن حتى في حمأة اليأس يبزغ شعاع من الامل . ففي القصة التي تأتي بعدها ، « الصغير يكتشف ان المفتاح يشبه الفأس » يتحدث المؤلف عن مفتـاح البيت القديم ، الذي كان ضخما ويشبه الفـأس . « بالنسبة لنا كان المفتاح مجموعة فضائل دخلت حياتنا ببطء ولكن بثبات ، فهو المفتاح الوحيد الذي لم يستطع الزمن ان يضيعه . لقد كان كل رجل في القرية ، كل طفل ، كل امرأة ، يعرفون ان هـذا المفتاح هو مفتاح دار جابر ، بل كان ثمة اناس في القرى المجاورة يعرفون ذلك ايضا فاذا مـا ضاع او سقط يعود الى الدار كأنما من تلقاء نفسه .. وكان المفتاح ، ايضا ، يستعمل لعدة اغـراض لان شفرته كانت حادة » . اذن المفتاح هـو رمز العودة ، فالفأس يستعمل لشق الارض ، كما يمكن استعماله كسلاح ، والمفتاح صاحب الاغـراض المتعددة لا يمكـن ان يظل بـدون باب ليفتحه . وانها ليست مصادفة ان غسان انتهى من كتابة هذه القصة في ايار ١٩٦٧ .

ولا توجد في المجموعة قصة مستوحاة من هزيمـة حرب حزيران ، فالقصة التي تلي حكاية المفتـاح كتبـت في شباط ١٩٦٨ ، ومن عنوانهـا الرمزي « حامد يكف عن سماع قصص الاعمام » . نكاد نحس كيف توقف سمـع حامد وما هـي قصص اعمامه .

تدور القصة (تسع صفحات) في الضفة الغربية المحتلة ، حيث يشترك ثلاثة شبان في نسف دبابة صهيونية . الا ان حامد ، احد هؤلاء الشبـان ، يقترب كثيرا من الدبابة ، فيمزق صوت الانفجـار الهائل طبلة اذنيه ولا يعود يسمع شيئا . ثم يعود الثلاثة الى البيت .

« نظر عمي الينا بحذر ، ثم نظر الى احذيتنا فلم يلحظ شيئا ، واخيرا قال :

— في هذه الايام ، من الحكمة ان ينام المرء باكرا. ان يلجأ الى بيته قبل حلول الظلام » .

ولكن حامد لا يسمع ذلك . ويقول العم :

« — من الافضل — اريد ان اقول من الامان — ان يتجنب المرء المشاكل . انتم تعرفون » . ولا يسمع حامد شيئا .

« — قد نخرج ذات يوم من المقهى فيلقون القبض عليـك لان انفجارا وقـع في القرية المجـاورة . الشياطين لن تخلصك من بين ايديهم .. »

ولا يسمع حامد شيئا .

« — انا اريد مصلحتكم ، هذه القضايا تحتاج الى حكمة . (..) انتم ما زلتم صغارا لا تعرفون كيف يجب ان تتصرفوا . ولو كنت مكانكم لمشيت .

— مشيت الى اين ؟ يسأله احد الشبان ، فيجيب العم : الى اي مكان خارج هذا الجحيم (..) واعتقد ان السيد حامد يوافقني لانه لم يحمر مثلما احمر وجهك ووجه صديقك . أليس كذلك يا سيد حامد ؟

ولكن حامد ، بالطبع ، لم يسمع ، ويقول احد الشبان للعم : ان حامد لا يسمعك .

— لا يسمعني ؟

— لا ، وهذا من حسن حظه ، فقد اصيب بمرض مفاجىء في اذنيه وفر عليه الاستماع .

اتعرف ؟ انه الان لا يسمع ما تقول ، ولا يسمع ما يقولون ، انه يسمع فقط لنفسه ولذلك فمن المستحيل ، بعد ، ان يضيع وقته ، غدا ستسمع في الراديو ان هجوما شنه اشقياء مجهولون على معسكر ، ولكنه هجوم فاشل لم يسبب اي ضرر . انت وانا واسعد ولمياء سنسمع ذلك ، ولكنه هو، حامد ، لن يسمعه . ذلك شيء حسن . لقد سمع صوتا واحدا واخيرا ، وهو الصوت الوحيد الذي سيظل بذاكرته » .

هذا الصوت هو طبعا صوت انفجار الدبابة ، الشيء الوحيد الذي يستحق السماع .

بعد هذه المجموعة ، صدر لغسان كنفاني كتاب بعنوان « أدب المقاومة في فلسطين المحتلة » تحدث فيه عن شعراء الارض المحتلة ، وعن الشعر الشعبي ، وعن المشاكل التي يجابهها الادباء هناك ، كالرقابة والاعتقال والاقامة الجبرية ، وعن لجوء العرب الى اقامة امسيات شعرية في القرى تنقلب الى مظاهرات وطنية بسبب شدة الاقبال والحماس . وضمن الكتاب مختارات من شعراء الارض المحتلة : محمود درويش وتوفيق زياد وسميح القاسم وسالم جبران .

وفي تشرين الثاني ١٩٦٧ اصدر مركز الابحاث كتابه « في الادب الصهيوني » الذي وصفه الدكتور انيس صايغ في التمهيد بانه اول دراسة بقلم عربي وباللغة العربية في الادب الصهيوني . وفي الواقع ان هذا الكتاب هو افضل ما الف عن الموضوع في اية لغة ، اذ استعرض الادب الصهيوني منذ جورج اليوت وبنجامن دزرائيلي عبرا بليون اوريس وآرثر كيستلر ، مع مقدمة وجيزة عن جذور هذا الادب في القرون الوسطى . ويبرز كنفاني في هذه الدراسة ناقدا عميق النظرة واسع الاطلاع ، محيطا بانتاج الكتاب الاسرائيليين المعاصرين مثل عجنون ويائيل ديان . كما أنه يكشف بوضوح الخيوط التي تربط بين هذا الادب والدعاية للحركة الصهيونية ، ويبين القاعدة العنصرية التي يرتكز عليها .

وفي ١٩٦٩ اصدر غسان مجموعته القصصية الخامسة ، وكانت بعنوان « ام سعد — قصص فلسطينية » قدمها بالمدخل التالي : ام سعد امرأة حقيقية ، اعرفها جيدا ، وما زلت اراها دائما ، واحادثها ، واتعلم منها ، وتربطني بها قرابة ما ، ومع ذلك فلم يكن هذا بالضبط ما جعلها مدرسة يومية ، فالقرابة التي تربطني بها واهية اذا ما قيست بالقرابة التي تربطني الى تلك الطبقة الباسلة ، المسحوقة والفقيرة والمرمية في مخيمات البؤس ، والتي عشت فيها ومعها ، ولست ادري كم عشت بها . اننا نتعلم من الجماهير ، ونعلمها، ومع ذلك فانه يبدو لي يقينا أننا لم نتخرج بعد من مدارس الجماهير ، المعلم الحقيقي الدائم ، والذي في صفاء رؤيته تكون الثورة جزءا لا ينفصم عن الخبز والماء واكف الكدح ونبض القلب . لقد علمتني ام سعد كثيرا ، واكاد اقول ان كل حرف جاء في السطور التالية انما هو مقتنص من بين شفتيها اللتين ظلتا فلسطينيتين رغم كل شيء ، ومن كفيها الصلبتين اللتين ظلتا ، رغم كل شيء ، تنتظران السلاح عشرين سنة . ومع ذلك فام سعد ليست امرأة واحدة ، ولولا أنها ظلت جسدا وعقلا وكدحا ، في قلب الجماهير وفي محور همومها وجزءا لا ينسلخ عن يومياتها ، لما كان بوسعها ان تكون ما هي ، ولذلك فقد كان صوتها دائما بالنسبة لي صوت تلك الطبقة الفلسطينية التي دفعت غاليا ثمن الهزيمة . والتي تقف الان تحت سقف البؤس الواطىء في الصف العالي من المعركة ، وتدفع ، وتظل تدفع اكثر من الجميع . »

هذه المقدمة هي اشارة هامة في الطريق الذي مرت عبره حياة غسان كنفاني . انه بيان يعبر فيه عن التزامه المطلق ، ادبيا وسياسيا ، بالجماهير . هنا نجد ذروة الاندماج والالتحام وقمة النضوج الادبي والسياسي . في هذه المقدمة تصب

جميع الروافد التي تتكون منها شخصية غسان كنفاني في نهر واحد كبير يشق طريقه بثبات بين الصخور والغابات، من الجماهير والى الجماهير، انطلاقا من الشعب الى السير نحوه للالتحام بصفوفه . في قصصه الاولى كان الابطال مجرد افراد ، واما في « ام سعد » فالابطال هو الجماهير نفسها ممثلة في هذه المراة الفقيرة الباسلة الصامدة .

في اللوحة الاولى من المجموعة ، ينتظر المؤلف قدوم ام سعد الى داره . وتقول له زوجته : « لقد اختفت ام سعد منذ تفجر القتال . وها هي تعود وكأنما على ايقاع الهزيمة .. لقد قاتلوا من اجلها وحين خسروا خسرت هي مرتين ، تراها ماذا ستقول الان . » وتأتي ام سعد لتقول : « بدأت الحرب بالراديو وانتهت بالراديو ، وحين انتهت قمت لاكسره . » ثم تتحدث عن ابنها سعد الذي ذهب ليحارب ، لكنه اوقف في الطريق واعتقل ، وكيف انه عندما ذهب اليه مختار الحي ليساعد على اطلاق سراحه وطلب منه ان يكون«ولدا عاقلا»، رد عليه سعد باستهزاء ، رافضا شفاعته لدى السلطات . فجاء المختار ليشكو « وقاحة » ابنها ، لكنها فاجأته عندما التزمت جانب سعد في موقفه. واخيرا تقدم الى المؤلف ما يبدو انه عود ناشف ، الا انه في الواقع دالية « قد تصبح في يوم ما شجرة عطاءة » على حد قولها .

وفي لوحة اخرى ، تزور المؤلف لتخبره ان ابنها التحق بوحدات المقاومة . وهي كلها في قلق عليه، وتريد من المؤلف ان يوصي به قائد الوحدة . وهي في الوقت نفسه تبدي استعدادها للالتحاق بمعسكر التدريب لتعتني بالفتيان وتعد لهم طعامهم، قائلة : **خيمة عن خيمة تفرق** . وعندما يخبرها المؤلف باستحالة التوصية بابنها ، باعتبار انه مقاتل ، والمقاتل يمتهن مواجهة الخطر ، تقول له فورا : « اقول لك ، لتكن توصيتك به، الى رئيسه ان لا يغضبه . قل له ام سعد تستحلفك بامك أن تحقق لسعد ما يريد . انه شاب طيب . وحين يريد شيئا لا يتحقق يصاب بحزن كبير . قل له دخيلك ، ان يحقق له ما يريد .. يريد أن يذهب الى الحرب، لماذا لا يرسله ؟ » ان ام سعد هي الام المناضلة الصابرة المضحية ، ذات السذاجة المستحبة الطيبة ، والحكمة العفوية . انها الام — المدرسة التي تعلم عنها غسان كنفاني ، واستوحى منها ايمانه بالجماهير .

بعد « ام سعد » ، صدر آخر كتاب لغسان كنفاني نشر في حياته : قصة في ٩١ صفحة عنوانها « عائد الى حيفا » . انها قصة العودة الى فلسطين في ظل هزيمة حزيران ، قصة العودة لمشاهدة الديار من الخارج ، وليس لدخولها واستئناف العيش فيها بعد عشرين عاما من التشرد . ويمكن اعتبار « عائد الى حيفا » على انها القصة الحتمية في سيرة غسان كنفاني الادبية ، ورد فعله المتوقع على الاندحار في الايام الستة . يقول بطل القصة لزوجته وهما في طريقهما الى حيفا في ٣٠ حزيران ١٩٦٧ : « اتعرفين ؟ طوال عشرين سنة كنت اتصور ان بوابة مندلبوم ستفتح ذات يوم ...ولكن ابدا ابدا لم اتصور انها ستفتح من الناحية الاخرى. لم يكن ذلك يخطر لي على بال ، ولذلك فحين فتحوها هم بدا لي الامر مرعبا وسخيفا والى حد كبير مهينا تماما .. قد أكون مجنونا لو قلت لك ان كل الابواب يجب ألا تفتح الا من جهة واحدة ، وانها اذا فتحت من الجهة الاخرى فيجب اعتبارها مغلقة لا تزال ، ولكن تلك هي الحقيقة » .

يعود سعيد س. مع زوجته صفية الى حيفا .. الى الماضي . آخر مرة قاد بها سيارته في تلك المدينة كانت صباح الاربعاء ٢١ نيسان ١٩٤٨ ، اليوم الذي سلم فيه الجيش البريطاني حيفا الى اليهود. في ذلك اليوم المرعب ، تركت صفيه طفلها الرضيع في البيت لتبحث كالمحمومة عن زوجها الذي كادت الاضطرابات في المدينة تبتلعه . ولكنها عندما تعثر عليه ، تصبح العودة الى دارها مستحيلة ، فالطريق الوحيد الذي بقي مفتوحا امام الزوجين هو المؤدي الى الهجرة ، فينضمان الى جموع اللاجئين المدفوعين قسرا لمغادرة المنطقة . ويبقى طفلهما الرضيع ، خلدون ، وحده في الدار .

والان بعد عشرين عاما ، يعود الاثنان الى حيفا، الى منزلهما القديم . انها رحلة الحج المعتادة التي قام بها كل فلسطيني من الضفة الغربية او قطاع غزة في وقت من الاوقات بعد نهاية حرب حزيران . الا ان دافع سعيد وصفيه هو ليس تفقد الديار القديمة فحسب . وانما الاستعلام عن مصير ابنهما المفقود الذي لم تصلهما معلومات عنه منذ غادرا حيفا في ذلك اليوم الرهيب قبل عشرين عاما . ويدقان على جرس بيتهما السابق ، فتفتح لهما الباب امرأة كهلة ، وتدعوهما الى الدخول . « منذ زمن طويل وانا اتوقعكما » تقول للزوجين .

الشقة تبدو كما تركاها فيما عدا بعض التغييرات الجزئية . « صاحبة » الدار الحالية بولندية الاصل ، كما تخبرهما ، قدمت الى فلسطين مع زوجها في ١٩٤٨ ، فأعطتهما الوكالة اليهودية هذا البيت ، ومعه طفلا عمره خمسة شهور اسمياه دوف . وتقول المرأة لسعيد : « اريد ان اقول لك شيئا مهما ولذلك اردتك ان تنتظر دوف أو خلدون ان شئت ، كي تتحدثا . وكي ينتهي الامر كما تريد له الطبيعة ان ينتهي . اتعتقد ان الامر لم يكن مشكلة لي كما كان مشكلة لك ؟ طوال السنوات العشرين الماضية وانا محتارة . والان دعنا ننتهي من كل شيء . انا اعرف انك ابوه ، واعرف ايضا انه ابننا . ومع ذلك لندعه يقرر بنفسه ، لندعه يختار . لقد أصبح شابا راشدا ، وعلينا نحن الاثنين ان نعترف بأنه هو وحده صاحب الحق في أن يختار .. اتوافق ؟ » وتجيب زوجة سعيد : « ذلك خيار عادل ... وانا واثقة ان خلدون سيختار والديه الحقيقيين .. لا يمكن ان يتنكر لنداء الدم واللحم . » فيضحك سعيد بمرارة وهو يقول لها : « أي خلدون يا صفيه ؟ اي خلدون ؟ اي لحم ودم تتحدثين عنهما ؟ وانت تقولين انه خيار عادل ! لقد علموه عشرين سنة كيف يكون ، يوما يوما ، ساعة ساعة ، مع الاكل والشرب والفراش .. ثم تقولين : خيار عادل ! ان خلدون ، او دوف ، او الشيطان ان شئت لا يعرفنا ! أتريدين رأيي ؟ لنخرج من هنا ولنعد الى الماضي . انتهى الامر . سرقوه . »

وفي هذه الاثناء يعود دوف الى المنزل . انه شاب طويل القامة ، يرتدي البزة العسكرية ، فتتقدم العجوز « الضيفين » قائلة : « اريد ان اقدم لك والديك ... والديك الاصليين . » ولكن الشاب يرفض الاعتراف بهما : « انا لم اعرف ان ميريام وايفرات ليسا والدي الا قبل ثلاث او اربع سنوات . منذ صغري وانا يهودي . اذهب الى الكنيس والى المدرسة اليهودية وآكل الكوشير وادرس العبرية . وحين قالا لي اني لست من صلبهما لم يتغير اي شيء . وكذلك حين قالوا لي — بعد ذلك — ان والدي الاصليين هما عربيان ، لم يتغير اي شيء . لا ، لم يتغير . ذلك شيء مؤكد . ان الانسان هو في نهاية الامر قضية . (...) بعد أن عرفت انكما عربيان كنت دائما اتساءل بيني وبين نفسي : كيف يستطيع الاب والام ان يتركا ابنهما وهو في شهره الخامس ويهربان ؟ كيف يستطيع من هو ليس امه وليس اباه ان يحتضناه ويربياه عشرين سنة ؟ » .

ثم يواصل اتهامه لهما بعنف : « كان عليكم الا تخرجوا من حيفا . واذا لم يكن ذلك ممكنا فقد كان عليكم بأي ثمن الا تتركوا طفلا رضيعا في السرير . واذا كان هذا ايضا مستحيلا فقد كان الا تكفوا عن محاولة العودة .. انقولون ان ذلك ايضا كان مستحيلا ؟ لقد مضت عشرون سنة يا سيدي ! عشرون سنة ! ماذا فعلت خلالها كي تسترد ابنك ؟ لو كنت مكانك لحملت السلاح من اجل هذا . ايوجد سبب اكثر قوة ؟ عاجزون ! عاجزون ! مقيدون بتلك السلاسل الثقيلة من التخلف والشلل ! لا تقل لي انكم امضيتم عشرين سنة تبكون . الدموع لا تسترد المفقودين ولا الضائعين ولا تجترح المعجزات ! كل دموع الارض لا تستطيع ان تحمل زورقا صغيرا يتسع لابوين يبحثان عن طفلهما المفقود .. ولقد امضيت عشرين سنة تبكي ... اهذا ما تقوله لي الان ؟ اهذا هو سلاحك التافه المفلول ؟ » .

وتسأل صفية زوجها سعيد ماذا قال « ابنهما » (لانه كان يتحدث بالانكليزية) فيجيبها : « لا شيء . بلى .. قال اننا جبناء » . فتعود تسأله : ولاننا جبناء يصير هو كذلك ؟ وعند ذلك يقول سعيد للشاب : « زوجتي تسأل ان كان جبننا يعطيك الحق في أن تكون هكذا ، وهي ، كما ترى ، تعترف ببراءة بأننا كنا جبناء ، ومن هنا فأنت على حق ، ولكن ذلك لا يبرر لك شيئا . ان خطأ زائد خطأ لا يساويان صحا ، ولو كان الامر كذلك لكان ما حدث (...) في اوشفنتز صوابا ، ولكن متى تكفون عن اعتبار ضعف الاخرين واخطائهم مجيرة لحساب ميزاتكم ؟ لقد اهترأت هذه الاقوال العتيقة ، هذه المعادلات الحسابية المترعة بالاخاديع .. مرة تقول ان اخطاءنا تبرر اخطاءكم ، ومرة تقولون ان الظلم لا يصحح بظلم آخر .. تستخدمون المنطق الاول لتبرير وجودكم هنا ، وتستخدمون المنطق الثاني لتتجنبوا العقاب الذي تستحقونه ، ويخيل الي انكم تتمتعون الى اقصى حد بهذه اللعبة الطريفة ، وها أنت تحاول مرة جديدة ان تجعل من ضعفنا حصان الطراد الذي تعتلي صهوته ... لا ، أنا لن اتحدث اليك مفترضا ، انك عربي ، والان انا أكثر من يعرف أن الانسان هو قضية ، وليس لحما ودما يتوارثه جيل وراء جيل

مثلما يتناول البائع والزبون معلبات اللحم المقدد» ، انما اتحدث اليك مفترضا انك في نهاية الامر انسان يهودي . او فلتكن ما تشاء . ولكن عليك ان تدرك الاشياء كما ينبغي .. وانا اعرف انك ذات يوم ستدرك هذه الاشياء ، وتدرك ان اكبر جريمة يمكن لاي انسان ان يرتكبها ، كائنا من كان ، هي أن يعتقد ولو للحظة ان ضعف الاخرين واخطاءهم هي التي تشكل حقه في الوجود على حسابهم ، وهي التي تبرر له اخطاءه وجرائمه ... » .

ثم ينظر في عيني الشاب مباشرة ويضيف : وانت، اتعتقد اننا سنظل نخطىء ؟ **واذا كففنا ذات يوم عن الخطأ ، فما الذي يتبقى لديك ؟** (ثم يقول سعيد لزوجته وهما على وشك مغادرة الدار : « لقد اخطأنا حين اعتبرنا ان الوطن هو الماضي فقط . اما خالد (ابنهما الثاني الذي التحق بالمقاومة) فالوطن عنده هو المستقبل (...) ان دوف هو عارنا ، ولكن خالد هو شرفنا الباقي ». واخيرا يلتفت الى البولندية قائلا : « تستطيعان البقاء مؤقتا في بيتنا ، فذلك شيء تحتاج تسويته الى حرب . »

ان « عائد الى حيفا » هو اول كتاب لغسان كنفاني يرسم فيه شخصيات اسرائيلية محددة ، بينما كان في قصصه السابقة يكتفي بتقديمها في شكل تجريدي سريع ، بلا وجوه او أسماء . كما انها اول مرة في أدبه يلتقي بها الفلسطيني والصهيوني ، **ليس** في ساحة القتال ، وانما في غرفة عادية ، حيث يطرح كل منهما وجهة نظره ، ويناقش وجهة نظر الاخر . الا ان كنفاني يبين بوضوح ان مثل هذا الحوار سيظل بلا نتيجة ، وان تسوية الامر كله تحتاج الى حرب ، لا الى حوار . فما قاله كل من الرجلين هو مجرد ابداء الموقف قبل الالتحام في صراع حاسم . والمواجهة تستمد قوتها الادبية الفائقة من ارتكازها على اسطورة قديمة ترجع الى عهد سليمان الحكيم ، وقد سبق أن صاغها في عمل ادبي ضخم كل من الشاعر البريطاني — الامريكي ت. س. اليوت ، والشاعر الالماني بيرت بريخت . ففي مسرحيته « كاتم السر » يناقش اليوت قضية الانسان الذي يريد أن يكون له الخيار في الانتماء الى الابوين اللذين يريدهما . وكذلك تدور مسرحية بريخت « دائرة الطباشير القوقازية » (المبنية على قصته القصيرة « دائرة الطباشير الاوغسبرغية ») حول هذا الموضوع . أما غسان كنفاني فان تولجه الديداكتيكي والدرس الذي يستخلصه يختلف عن درس كل من اليوت وبريخت. فبالنسبة اليه ، لا يمكن اعتبار خيار الانسان الذي تصبح بنوته موضع النزاع ، خيارا موضوعيا عادلا ، فالانسان هو ابن ظروفه وصنيعة بيئته . واذا كان دوف قد اختار ابويه الزائفين ، فلأنه في الواقع بدون خيار حقيقي في الموضوع . ان دوف قد يرمز في الوقت نفسه الى الارض الفلسطينية التي اغتصبها الصهيوني بقوة السلاح وجعلها أرضه . فهل حقا أصبح مالكها الحقيقي لانه بالاموال التي استجداها من كل ركن من اركان الارض قد ضاعف ثمراتها ووسع رقعة المناطق الخضراء فيها ؟

ان « عائد الى حيفا » هي بلا شك تحفة غسان كنفاني ، وانضج اعماله الادبية على الاطلاق . فهو قد صاغ ما يمكن اعتباره وثيقة سياسية تاريخية هامة في اطار قصة سلسة الاسلوب ، تعتمد على السرد المباشر ، بينما صادف في انتاجه المبكر حظا أقل من النجاح عندما حاول ان يقدم القضية في قالب اسطوري رمزي .

بعد « عائد الى حيفا » لم يبق ثمة مجال في انه عندما تكتب الرواية الفلسطينية الكبرى ، فان مؤلفها سيكون غسان كنفاني . ولكنه استشهد وهو في السادسة والثلاثين . أي فاجعة ان يموت كاتب موهوب مثله في هذا العمر ! ففي هذه السن تبدأ المرحلة الرئيسية ذات العطاء السخي في حياة كل أديب لامع ، باعتبار ان ما كتبه حتى ذلك الحين هو بمثابة المقدمات والاشارات الى انتاج في المستقبل سيكون أروع وأعظم .

لنلق نظرة على سيرته الادبية : من اول كتاب له ، مثل غسان كنفاني الجيل الغاضب الرافض المتمرد. الجيل الذي لم يستكن للتحدي ، بل استجاب له بعنف وضراوة . اقتحم عالم الكتابة بجرأة ، دون وساطة وشفاعة وجواز مرور . جواز مرور ؟ كم فلسطيني يمتلك هذه الوثيقة ؟

كنفاني احترف فلسطين بالمعنى الايجابي للكلمة . عاش القضية وكتب عن القضية ومات بسبب القضية . فلسطين كانت العذاب والهاجس والالم المقيم . فلسطين استفزته الى الغضب ، كما استفزت ارلنده شاعرها الكبير بيتس ليقرض أروع قصائده فيها . لقد سجل كنفاني غضبه ادبا مرير اللهجة كان من شأنه ان يصل الى مشارف النبوغ لولا الموت المبكر الفاجع . الا ان تمرده لم يكن

على التشرد والعار فحسب ، بل كان بالعنف نفسه ضد التقاليد البالية والتراث العتيق المهلهل . لنفحص نماذج من هذا التمرد في قصته « رجال في الشمس » : عم أسعد يريد أن يزوجه من ابنته . لماذا ؟ لانه كان قد قرأ الفاتحة مع أب أسعد يوم ولد ابناهما . ابو مروان يتزوج امرأة ثانية على زوجته ، ام مروان ، ثم يبرر عمله هذا بقوله لابنه : أنت تعرف يا مروان بأن لا بد لي في الامر . **هذا شيء مكتوب لنا منذ الخليقة .**

هذه العقلية الاثرية ناضل غسان كنفاني ضدها طيلة حياته ، وحتى في آخر مقال كتبه (شؤون فلسطينية — عدد آب ١٩٧٢) عندما ناقش قضية الفدائي « ابو حميدو » من ناحية التقاليد والاخلاق . ثم ان مثاليته الثورية لم تحجب عنه واقع الحال في عالم المساومات والمناورات والمداهنات في سبيل لقمة العيش . فأبو الخيزران مثلا يقول لمروان البالغ من العمر ستة عشر عاما : « أنا مبسوط انك ستذهب الى الكويت لانك ستتعلم هناك اشياء عديدة .. اول شيء ستتعلمه ان القرش يأتي اولا ، ثم الاخلاق . » وابو الخيزران نفسه ، الذي تعلم من كارثته الخاصة دروسا كثيرة ، لا يبلغ به حزنه على موت الثلاثة حدا يمنعه من سلبهم وهم جثث هامدة . ولكن جميع هذه الاوجه المتعددة في أدب غسان كنفاني تتضاءل في الاهمية امام الخط الرئيسي الصلب الذي التزم به في كتاباته وفي حياته ، منذ البداية حتى ذلك اليوم من تموز ١٩٧٢ والذي ظلت نغمته الطاغية تسري في انتاجه الصحفي والادبي : الرفض .. الرفض .. الرفض . لم يستكن يوما للتحدي ، بل استجاب له أدبا وموقفا وحياة .

رســـائل

مراسلو « شؤون فلسطينية »

رسالة من واشنطن

حديث مع الشاعـــر الفلسطيني فوزي الاسمر

قام الشاعر الفلسطيني فوزي الاسمر بجولة في الولايات المتحدة الامريكية خلال أشهر ابريل ومايو ويونيه ، وقدم صورة حية لنضال الشعب الفلسطيني في الارض المحتلة وصموده في وجه سياسة القمع الاسرائيلي . والقى الشاعـــر محاضرات عديدة كما اشترك في ندوات في عـــدد من المدن الامريكية ومنها نيويـــورك وبوسطن وواشنطون العاصمة وشيكاغو وسان فرانسسكو ، وقدم في هذه الندوات نموذجا لشعره الذي يصور صمود الانسان العربي في اسرائيل وتصميمه عـــلى النضال من أجل الحريـــة والكرامة . ومعظم هذه القصائد كتبها فوزي الاسمر فـــي سجن الدامـــون (وقـــد نشرهـــا في ديـــوان « دامونيـــات ») . وهي تشرح العذاب الـــذي يلقـــاه المناضلون العرب في سجون اسرائيل ، وتؤكـــد تصميمهم على متابعـــة النضال رغم العذاب والاضطهاد . واثارت هذه القصائد مشاعر الجاليات العربية والامريكيين لانها جاءت صوتا قويا من وراء قضبان السجون ، من الارض المحتلة ، معبرا عن مشاعر المناضلين العرب . ونقـــدم هنا حديثا جرى مـــع الشاعر فوزي الاسمر في واشنطن العاصمة يلقي بعض الضوء على حيـــاة الشعب الفلسطيني ونضالـــه داخل الارض المحتلة .

ح. ح.

هل بالامكان تقديم صورة سريعة لوضع العرب داخل الاراضي المحتلة منذ عـــام ١٩٤٨ ، خاصة شرح نضالهـــم السياسي في مواجهـــة سياسة القمـــع الاسرائيلي ؟

هناك حقيقة يجب ان تقال قبل الخوض في هـــذا المجال وهي : ان العـــرب في اسرائيل يعيشـــون كمواطنين من الـــدرجة الثانية وربما من الدرجة الثالثة بعد ان « احتل » اليهود الشرقيون (الفهود الســود) مكانهم . ولقد دفع هذا الواقع العرب في اسرائيل الى خوض غمار معارك عنيفة ، وصراعات لا حد لها مع السلطات الصهيونية في البلاد . وقد تمثلت هذه الصراعات في النضال ضد ظاهرة الحكم العسكري الذي رزح على كواهلنا طيلة ثمانية عشر عاما (بعدها نقلت صلاحياته الى السلطة المدنية) . وضـــد مصادرة الاراضي العربية ، واستعمـــال قوانين الطوارىء (من عام ١٩٤٥) وغيرهـــا . ولقد استعمـــل العرب سبلا عديدة في مواجهـــة الطغيان الصهيوني ، منهـــا : التظاهـــرات ، الاضرابات ، الاحتجاجات الدولية . واحيانا اشد عنفا مثل النوم امام التركتور الذي ارسل لحرث اراضيهـــم المصادرة وامام البلدوزر الذي بعثتـــه السلطات لهدم القرى والبيوت . كذلك فقد قامت بعض الحركات السياسية والطلابية العربيـــة ، كحركة الارض ، والحـــزب الشيوعي الاسرائيلي (راكح) والذي يمثل العرب فيه حوالي ٩٠٪ من اعضائه ، ومنظمة الطلاب العرب في الجـــامعة العبرية في القدس (وبعدها في تل ابيب) وكذلك المثقفين العرب ، قاموا بشن حرب سياسية ضد السلطات الصهيونية . ولعـــل مذكرة « جماعـــة الارض » الى السكرتـــير العام للامم المتحـــدة في

أوائل الستينات ، كانت من ابرز الاعمال . ولا بد من الاشارة الى ان هذا النضال كان يدعم من جانب منظمات وشخصيات يهودية .

ولقد استعملت السلطات الاسرائيلية اساليب عديدة ومتنوعة لمواجهة العرب في اسرائيل . فمنذ عام ١٩٤٨ وهي تستعمل « قوانين الطوارىء » والتي ورثتها عن حكومة الانتداب البريطاني . ولقد صادرت حسب هذه القوانين حوالي ٩٠٪ من الاراضي العربية التابعة للعرب الذين بقوا في ديارهم في اعقاب حرب ١٩٤٨ ، وحسبها ايضا يعتقل المئات من العرب اعتقالا اداريا ، تحدد اقاماتهم ، وتفرض عليهم الاقامات الجبرية . وحسب قوانين الطوارىء ايضا هدمت قرى بكاملها وشرد الالاف من العرب وقسم منهم لا يزال حتى اليوم بعد ٢٥ سنة من قيام دولة اسرائيل ، يعيش كلاجئين في القرى المجاورة ، مثل سكان كفر برعم واقرط وغيرهما .

الطريقة الثانية ، والتي تعتمد السلطات الاسرائيلية كثيرا عليها ، هي سياسة التجهيل . فحتى العام الماضي كانت نسبة النجاح في امتحانات « البجروت » (والتي تخول الطالب دخول الجامعات) بين العرب تتراوح بين ٦ و ١٥ بالمئة في العام (بينما النسبة بين اليهود تتراوح بين ٧٠ و ٩٠ بالمئة) والسنة الماضية فقط تجاوز عددهم الـ ٢٥ ٪ . ولهذه الظاهرة ، في رأيي اسباب عديدة اهمها : عدم استيعاب اساتذة اكفاء،وكل مدرس عربييقبل حسب آرائه السياسية بالاضافة الى استخدام الواسطات ، عدم توافر الكتب الدراسية ، واستعمال « الدوسيهات » والكتب المطبوعة بواسطة الستانسل ، عدم توافر المختبرات ، الابنية المناسبة وغيرها ، بالاضافة الى فقر البرنامج العربي للثقافة العامة (بعكس البرنامج في المدارس العبرية) .

ومن الاساليب المهمة الاخرى ايضا ، عدم اعطاء المجال لاقامة اي تنظيم عربي مستقل ، بغض النظر عما اذا كان هذا التنظيم سياسيا ، رياضيا، ثقافيا او ادبيا . انه لا يوجد في اسرائيل اي قانون يمنع ذلك ، فالسلطات اذكى من ان توقع نفسها في هذا الشرك . ولكنها تستعمل الضغوط، واساليب القمع الاخرى بمنعها . انها على استعداد للتسامح اذا ما كانت هذه التنظيمات تابعة لاحدى المنظمات او الاحزاب الصهيونية ، اما اذا كانت المنظمة لا صهيونية فانها تحاول الحد من نشاطها في الوسط العربي ، كما هو الواقع مع « المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية » (متسبين) حيث ان السلطات لم توافق على اعطائها رخصة اصدار جريدة او مجلة باللغة العربية، وبالرغم من انها ، اي السلطات ، منحتها رخصة لاصدار مجلة باللغة العبرية (اود هنا ان استثني الحزب الشيوعي الاسرائيلي « راكح » فهو حزب غير صهيوني مخضرم وله نشرات عديدة) .

ومن جملة الاساليب ايضا فرض الرقابة على الانتاج الادبي في اسرائيل (والمقصود العربي منه فقط) فمعظم الدواوين الشعرية ، والكتب الادبية التي صدرت حتى الان ، قد مرت تحت مشرط التشريح للرقابة ، فمثلا ديواني « ارض الميعاد » روقب ، حذفت منه بعض القصائد ، شطبت اسطر من قصائد وحتى كلمة واحدة من قصيدة . واود ان اضيف ان بعض القصائد التي منعت الرقابة نشرها كانت قد سبق ونشرتها في الصحف والمجلات . ولعل السطور التالية تعطي القارىء صورة اكثر وضوحا بالنسبة للرقابة في اسرائيل : بعد ان انتهيت من اعداد ديواني « ارض الميعاد » توجهت الى صديق لي وهو يهودي يعمل مصمما فنيا وطلبت منه ان يضع تصميما لغلاف الديوان ، وبدوره طلب مني ان اطبع له على الالة الكاتبة صفحة كاملة ، يحتوي كل سطر فيها على اسم الكتاب مكررا ، وان ابقي فراغا في الوسط لعنوان الكتاب باحرف كبيرة ، ثم قال انه سيضع بعد كل اسم مرة علامة سؤال ، ومرة علامة تعجب حيث يصبح الغلاف بهذا الشكل : ارض الميعاد ..؟ ارض الميعاد ..! ارض الميعاد ..؟ ارض الميعاد ..!

وهكذا على كل الغلاف الامامي ، قدمت هذا الرأي للرقابة ، وكان الرد بعد اسبوع ، انهم وافقوا على تصميم الغلاف بشرط ان احذف علامة التعجب واستعمل علامة السؤال فقط . لقد قيل ان السلطات الاسرائيلية قد الفت الان الرقابة على الادب العربي ، وسوف نرى ما يخبئه لنا الدهر من مفاجآت .

ما هي اهم الحركات التي قاومت الطغيان الاسرائيلي وما هو دوركم في هذه الحركات ؟

اذا كنت تقصد الحركات العربية ، فانها قليلة واهمها حركة « الارض » والتي تأسست عام ١٩٥٨ ثم أخرجت خارج القانون بتهمة « العمل ضد امن

الدولة » . لقد كانت والدتي ، وكذلك انـا من الاشخاص الذين اشتركوا في تأسيسها ، وهنـاك ايضا المنظمات الطلابية العربية . ولكن هناك حركة عربية واسعة جـدا وهي « اغلبية العـرب في اسرائيل » فقد اشتركوا ، وما زالوا ، في نضال عنيف ومستمر ضد الطغيان الصهيوني .

اما اذا كان السؤال يقصد الحركات الاسرائيلية عامة ، فان هناك حركات وشخصيات عديدة قاومت وتقاوم الطغيان الصهيوني ، خصوصا ضد العرب، وفي طليعتها الحزب الشيوعي الاسرائيلي (راكح) والمنظمة الاشتراكية الاسرائيلية (متسبين) وكذلك مجموعة القوة الثالثة والتي كان يترأسها المحامي مردخاي شتايـن ، ولجنة حقـوق الانسان التي يترأسها الدكتور يسرائيل شاحك . وهناك حركات متأرجحة امثال « حركة هعولام هزه » و « سيح » (اليسـار الاسرائيلي الجديد وهذا اسمها وليـس صفتها) وغيرهما .

ما هو تقييمكم للشباب المناضل من عرب اسرائيل ، خاصة مجموعة الشعراء والكتاب العرب وما هو دورهم في مرحلة مواجهة الاحتلال الصهيوني ؟

بعد عام ١٩٤٨ كنا ، نحن العرب الذين بقينا في وطننا ، كفرع مقطوع من شجرة ، عندنا القليل جدا من الادباء والمثقفين ، فمعظم الذين بقوا كانوا من الفلاحين المتمسكين بأرضهم . وكان علينا ان نختار اما الاضمحلال ، وتذويب الشخصيـة العربية في المجتمع اليهودي الاسرائيلي (واعني بالتذويب اذابة سياسية ، اجتماعية ، ثقافية وادبية) ذي الثقافة والامكانات الكبيرة او المحافظـة على شخصيتنـا المستقلة . ولقد اختـار ابناء شعبـي الطـريق الاخرى ، اي المحافظة على الشخصية العـربية المستقلة . (لا استطيع ان انكر وجود تأثير مـن المجتمع الثاني بسبب الاحتكاكات اليومية) كـان الطريق أمامنا صعبا وشاقا ، ولـم تكن عندنـا الامكانات الادبيـة لتثقيف انفسنـا ، الكتب غير متوافرة ، وكذلك المجلات الادبية والثقافية ، وذلك حتى عام ١٩٥٨ حيث بدأت «شركة الكتاب العربي» باصدار كتب منقولة . ولكن نتيجة للضغوط التي استعملت ، وما زالت تستعمل ضدنا ولدت عندنا طبقة مثقفة كانت جامعتها التجربة اليومية والصراع المستمر. ولا بد من الاشارة ان كلمة مثقف عندنا، واعني بين العرب ، لا تعني في معظم الحالات ، ان الشخص قد انهى دراسته الجامعية ، كما هو متفق عليه في العالم ، بل ان اغلبية المثقفين ، وخصوصا الاسمـاء المعروفة في العالـم العربي قد انهوا دراستهم الثانوية فقط ، وبعدها خاضوا معتـرك الحياة ، وكونوا شخصياتهم المستقلة .

لقد اطلق على ادبنا صفة « ادب المقاومة » ، وفي رأيي ان هذا التعبير ثقيل علىكواهلنا الغضة واكبر من طاقتنا وواقعنا . فكلمة « مقاومة » لها ابعاد اكثر بكثير من المعارك اليومية التي نخوضها ، اننا نخوض نضالا عنيفا ، نستعمل فيه في معظم الاحيان الطرق الشرعية . فاذا ما اردت ان اطلق اسمـا على ادبنا ، فانني لن اعطيه اكثر من اسم « الادب المناضل » وهو في رأيي جدير به بكل ما في الكلمة من معنى .

ما هو وضع العرب في سجون اسرائيل ؟ وما هي تجربتك الخاصة في هذا الموضوع ؟

لقد مررت بتجربة خمسة عشر شهرا من الاعتقال الاداري ، دون ان اقدم للمحكمة . ولقد ضربت واهنت وتعذبت نفسانيا اثناء التحقيق معي . لقد حاولت السلطات الاسرائيلية الصاق تهمة الانتماء الى احدى المنظمات الفلسطينية ، وفشلت . ثم كانت هناك محاولة لارغامي على مغادرة وطنـي وفشلت هذه ايضا . ولقد كان واضحا ان اسباب اعتقالي هي اسباب سياسية ، حيث انني اعتقلت بعد اسبوعين من صدور ديواني « ارض الميعاد » ولقد حقق معي عن كتاباتي الشعرية والنثرية ، وخصوصا المقالات التي سبق ونشرتها في مجلـة « هذا العالم » عندما كنت رئيسا لتحريرها. وكذلك المقالات التي نشرتها باللغة العبرية في صحف البلاد المختلفة . كما حقق معي عن الرسـالة التي ارسلتها (بالبريد) للشاعرة فدوى طوقان والتي انتقـدت فيها زيارتها لموشه ديان في منزله . وكذلك عـن اصدقائي اليهود وعن علاقاتي بهم . ومن ثم حولت الى السجن الاداري . لقد لعب اصدقائي اليهود دورا رئيسيا في الكفاح من اجل اطلاق سراحـي وفضح اساليب السلطات الصهيونية في استعمالها لقوانين الطوارىء .

وضـع العرب في السجون الاسرائيلية ، يختلـف باختلاف السجن ، ولكن بالاجمال سيء.ان سلطات السجن تقوم بعملية تمييز بين العرب من الاراضي المحتلة وبين المساجين الاسرائيليين . فالعرب من الاراضي المحتلة محتجزون في قسم خاص بهم ، ساعات بقائهم خارج الغرف اقصر بكثير من ساعات

الاسرائيليين . لهم حق زيارة مرة واحدة بالشهر ، بينما الاسرائيليين مرتين . وكذلك فهم محرومون من الفلم السينمائي الذي يعرض مرتين في الشهر ، ومن مشاهدة التلفزيون وممارسة الالعاب الرياضية ومن الكتب الدراسية والثقافية. يسكن كل ١٥ الى ٢٠ شخصا في غرفة (بينما الاسرائيليون من ٥ — ٧ اشخاص في الغرفة الواحدة) .

ان كل ما ذكرت ينطبق على السجون داخل اسرائيل (قبل عام ١٩٦٧) باستثناء سجن عسقلان حيث المعاملة فيه فظة جدا ، فبالاضافة الى كل ما ذكرت هناك اذلال للانسان ، ومحاولة لتحطيم النفس ، ففي ذلك السجن يقبع المسجونون داخل غرفهم طيلة ثلاث وعشرين ساعة في اليوم ، وعندما يخرجون للساحة يسيرون في صف واحد ، والحديد بايديهم ، وعليهم ان يخفضوا رؤوسهم وعيونهم للارض ، وان يتوجهوا للسجان بكلمة سيدي ، وهذه المعاملة شبيهة للمعاملة في سجون الاراضي المحتلة .

ما هو تقييمك للحركات الاسرائيلية التي تؤيد حق الفلسطينيين ؟

هناك اكثر من تفسير لمعنى « الحق الفلسطيني » في المنظمات والحركات ، والاحزاب الاسرائيلية . وكل يفسره حسب مفهومه . فالاحزاب الصهيونية اليمينية لا تعترف بهذا الحق مطلقا ، بينما المنظمات والاحزاب الصهيونية « اليسارية » تعترف بحق جزء من الفلسطينيين بالعودة لوطنهم ، ولقد تبنى هذه الفكرة حزب مبام الصهيوني ، والاغلبية في حركة « سيح » والتي تمثل موقف حزب مبام قبل عشر سنوات . اما اليسار غير الصهيوني فموقفه يعتمد على مفهومه الثوري لحل القضية . فالحزب الشيوعي الاسرائيلي مثلا ، بقي متمسكا حتى عام ١٩٦٧ بقرار الامم المتحدة من عام ١٩٤٨، اي بقرار التقسيم ، ثم تبنى بعد حرب حزيران قرار مجلس الامن ٢٤٢ والذي لا يعطي ، في رأيي ، الحق الكامل للشعب الفلسطيني ، ويحل المشكلة حلا جزئيا ومؤقتا . اما حزب هعولام هزه ، والذي يترأسه اوري افنري ، فموقفه متأرجح وغير ثابت. والاعتراف بالحق الفلسطيني عنده يعتمد على الموقف العام في اسرائيل وفي العالم .

اما موقف المنظمات اليسارية الثورية مثل « المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية » (متسبين) والحزب الشيوعي الثوري (جماعة النضال) والتروتسكيين وغيرهم ، فيعتمدون في الاساس على حل جذري للقضية ، حل ثوري يعطي للفلسطينيين جميع حقوقهم . فلقد رفضت هذه المنظمات قرار مجلس الامن ٢٤٢ لانه يعطي حلا استعماريا للقضية ، وفيه تصفية للقضية الفلسطينية ، خصوصا وان هذا الحل يدعم الكيان الصهيوني ويحافظ على الانظمة الرجعية واللاثورية في العالم العربي .

ما هو تقييمك للدور الذي تقوم به القيادة الفلسطينية تجاه الحركات المناهضة للصهيونية في اسرائيل ؟

ان استراتيجية تطور عمل اليسار الصهيوني (اليهودي والعربي) في اسرائيل تعتمد على البديل الذي تطرحه المنظمات الفلسطينية ، والتي تمثل الند في الصراع القائم ، فاذا كان البديل حلا اشتراكيا ثوريا ، ساعد هذه المنظمات والحركات على السير قدما في محاربة الصهيونية ، اما اذا كانت النظرية دينية وقومية ، فان سبيلها سيكون صعبا وشاقا ، ولغاية الان ، فان معظم المنظمات الفلسطينية لم تطرح البديل الاشتراكي الثوري الصحيح .

وكما ان قوة اليسار اللاصهيوني في اسرائيل ، وضعفه يعتمدان على البديل الذي تطرحه المنظمات الفلسطينية ، فان قوة الصهيونية وضعفها يعتمدان على نفس المصدر ايضا (في اسرائيل على الاقل) ان طرح شعار الدولة الديمقراطية ذات الاديان الثلاثة تعطي للصهيونية قوة العمل والاقناع ، بأن المنظمات الفلسطينية تهدف الى محو الشخصية القومية الاسرائيلية (وهناك مثل هذه الشخصية) وتحويلها الى اقلية دينية ، الشيء الذي يرفضه حتى اليسار اللاصهيوني في اسرائيل .

ما هو تقييمك للعمل الفلسطيني في المرحلة الماضية والمرحلة الحالية ؟ وما هي بعض الاقتراحات التي تقدمها حتى يستطيع العمل الفلسطيني السير الى الامام من اجل التحرير والحرية ؟

أهم ما قام به العمل الفلسطيني في جميع مراحله هو اعادة تكوين الشخصية الفلسطينية . ففي اسرائيل مثلا ، شطب الاسم فلسطين او الفلسطينيين من قاموس معظم الصحف والمجلات لسنين عديدة في اعقاب عام ١٩٤٨ ، مما حدا ببعض قادة اسرائيل وعلى رأسهم دافيد بن جوريون وجولدا مائير وغيرهما ان يتساءلوا « فلسطينيون

...أ ما هذا ...؟ » في مقابـلاتهم الصحفية . وكما اتهمت جولدا مائير بعض اليهود في اسرائيل بانهم هم الذين خلقوا الشخصيـة الفلسطينيـة بتحدثهم عنها . لقد كان اندلاع الكفاح المسلح حجر الزاوية باعادة تكوين هذا الكيان .

انني اعتقد انه لن تكون هناك قيمة عملية للعمـل الفلسطيني ما لم يتبن ايديولوجية اشتراكية ثورية وموقفا واضحا وصريحا خصوصا بالنسبة لليهـود الموجودين في اسرائيل .

ما هو برأيك الحل للقضية ؟ وما هو تقييمك لفكرة الدولـة الديمقراطيـة التي تطرحهـا الحركـة الفلسطينية ؟

الحل في رأيي يجب ان يكون حلا اشتراكيا بحيث يتجاوز الدائـرة الفلسطينية الاسرائيلية ويصبـح شرق اوسطي . فكل المنطقة ما هـي الا جسم متكامل الاعضاء ، ولكل عضو فيه فعاليته وقيمته. فعندما نحول الصراع القائـم اليوم ، من صراع قومي الى صراع طبقي ، نكون قد حددنا طريقنـا واعداءنا . ففي رأيي ان ليس هناك فرق بـين حسين وديان ، فكلاهما ينتمي للطبقـة نفسها ، ويخدم السيد نفسه بالرغم من اختلاف قوميتهما . النظرة الشرق اوسطية تحتم على كل ثوري اينما كان ، بغض النظر عن هويته وجنسيته وقوميته ، ان ينضم الى صفوف الثورة بعد ان تحدد اعداءها، فانتصار الثورة في اي جـزء في الشرق الاوسـط يساعد على حل القضية .

لقد كان احد الاخطاء الرئيسية ، في رأيي ، الذي وقعت فيه معظم المنظمات الفلسطينية هو الفصل بـين الفلسطيني واللافلسطيني ، وماذا كـانت النتيجة ؟ لقد وقف الفلاح الاردني يدعم حسـين في الحرب القذرة ضـد الفلسطينيـين ، فلو ان المنظمـات الفلسطينية اعطت البديل لهذا الفلاح او القروي الاردني ، وجندته ضد العدو المشترك، لما كانت هناك نكسة ايلـول ١٩٧٠ وهي ، اي المنظمات تمر بالوضع نفسه اليوم في جنوب لبنان . ان العمل على اقامة دولة اشتراكية ، تكون فيها الحقوق السياسية والقومية كافة متساوية لجميع الشعوب التي تسكن المنطقة ، هو في رأيي الحل السليم .

رسالة من بيروت
الجامعة الفلسطينية المقترحة ... الى اين وصلت ؟

في اواخر عهـد الانتداب البريطاني على فلسطين اذيـع خبر فحواه أن « الحكومة » تنوي تحويل الكلية العربية في القدس الى جامعة . وشاعت فرحة بين الطلبة والمثقفين في فلسطين لـم تنتقص منها الا الظروف السائدة في ذلك الوقت والتي كانت تلقي ظلالا قوية من الشك حول الخبر . اذ كيف يعلن الانتداب عزمه على انشاء جامعة في الوقـت الذي يعلن عن عزمه على الانسحاب من البلاد . فهو اما انه لا يريد ان ينسحب او انه لا ينـوي انشاء جامعة . وبات الامر مجالا كبيرا لمختلـف التأويلات . وكان مما قيل في التأويل ان بريطانيا تقوم احيانا بعمل « كفارة » لذنوبها في حق شعب من الشعوب ، لا حبا في ذلك الشعب او في الخير ذاته وانما لازالة شيء من ألم الضمير البريطاني تجاه ذلك الشعب . وهكذا فأن بريطانيا هي اول من يتبرع لاغاثة اللاجئين الذين تكون هي اول من تسبب في كونهم لاجئـين . وينسحب ذلـك على فلسطـين مثلمـا ينسحب عـلى الهند وباكستان ونيجيريا وغيرها . ولعـل بريطانيا في اواخر عهد الانتداب قد ارادت أن تكفر عما ارتكبته من سياسة تعليمية تجاه الشعب العربي الفلسطيني الـذي حرمته من حق توجيه ثقافية القومية وتربية ابنائه بالطريقة التي تخدم اهدافه فقررت في النهاية ان تسلمه المفتاح ليصنع ما يشاء ضمن النطاق الذي لم يعد فيه لمشيئته خيار كبير . ولعلها كانت موقنة بأن « التقسيم » كائن لا محالة فلا بد للشعـب العربي الفلسطيني من كلية جامعية على غرار كلية الخرطوم الجامعية . والمهم ان مبلغا لا بأس بـه من المال ، كما علمنا آنذاك ، قد وضع في عهدة بعض الشخصيات الفلسطينية لكي يتابعوا تنفيذ المشروع . (هذه المعلومات في حاجة الى تحقيق وتأكيد من كل من لديهم علم او المام بالموضوع) .

وفي خضم الاحداث التي توالت سارعت الامم المتحدة الى وضع يدها على مبنى الكلية العربية ذات الموقع الاستراتيجي وعلى قصر الحكومة القريب منها والذي اتخذت منه مقرا رئيسيا لهيئة الرقابة الدولية على الهدنة . وقد تم في خلال ذلك نقل مكتبة الكلية العربية الى البلدة القديمة في القدس ووضعت الكتب في اماكن امينة ريثما يأتي اليوم الذي ينفض فيه الغبار عن المشروع «النائم». غير أنه في خلال عشرين سنة من الهدوء النسبي بعد ذلك ، لم يجد مشروع جامعة القدس طريقه الى النور او الى مجرد البحث والنقاش الجديين . فكل سؤال كان يطرح حول الموضوع لم يكن ليجد من يجيب عليه او من يريد بحث ذلك الموضوع « الشائك » . واصبح موضوع جامعة القدس مسألة سياسية من اختصاص السياسيين لا من اختصاص رجال الفكر والتربية . لم تكن المسألة مسألة مال او كتب او مبان او اساتذة . بل ان هذه الامور كانت اسهل ما في الموضوع . وسؤال لماذا لم تقم جامعة فلسطينية خلال السنوات العشرين التي تلت عام ١٩٤٨ هو شبيه بسؤال لماذا لم يقم كيان فلسطيني في تلك الفترة ؟ وسؤال لماذا لم تقم جامعة في القدس ، سواء اكانت فلسطينية او اردنية هو ايضا قريب من السؤال الاول . فالدول العربية الغنية وكذلك المتمولون والاثرياء من ابناء فلسطين لم يبخلوا على المشروع. بل واعربوا عن كامل استعدادهم للانفاق عليه . وفي وجه العراقيل السياسية كانت هنالك محاولات ذكية من ابناء المدينة ورجالاتها للالتفاف حول تلك العراقيل بانشاء معاهد عاليه يمكن ان تتطور بسرعة الى جامعة . وكان ابرز تلك المحاولات هو المعهد العربي الكويتي في القدس والذي برز الى حيز التنفيذ قبيل الاحتلال عام ١٩٦٧ .

ماذا حدث لمكتبة الكلية العربية وأين استقرت في النهاية تلك الكتب ؟ وماذا حدث لاموال المشروع المودعة باسمه من قبل حكومة الانتداب ؟ وماذا حدث لجميع المحاولات العربية والفلسطينية لانشاء جامعة في القدس ؟ جميع هذه الاسئلة تتفرع من السؤال الكبير : ماذا حدث للشعب الفلسطيني ذاته ؟ وكيف تعاون الاقربون والاعداء على محاولة طمس كيانه ووجوده حتى لا يكون له ادب قومي ومؤسسات قومية . تلك أسئلة يمر بها هذا البحث مر الكرام ، على اهميتها ، نظرا لانه مهتم بالواقع والمستقبل اكثر من الاهتمام بالماضي — ولعل من مهمة المؤرخ ان يقف عند هذه الاسئلة ويحقق ويدقق . ولكن غايتنا هنا ليست التأريخ ، وانما هي تتعلق بالحاضر والمستقبل .

لا مجال هنا للخوض طويلا في اثر الجامعة العبرية على تكوين شعب «اسرائيلي» في فلسطين واحياء اللغة والثقافة العبرية البائدة وبلورة الاهداف والوسائل والمؤسسات الصهيونية في فلسطين . ولكن يمكن مقارنة ذلك مع الوضع العربي حيث لم تكن هنالك جامعة عربية وكان التعليم تحت الاشراف المباشر لحكومة الانتداب البريطاني . وفي الوقت الذي انصرفت فيه المؤسسات الثقافية الصهيونية الى تخطيط التعليم اليهودي حسب متطلبات الاهداف الصهيونية كان هم الانتداب البريطاني حصر التعليم الثانوي في القلة العربية الممتازة وتحويلها الى طبقة من الموظفين والمدرسين .

يكشف لنا موشه مينوهين الكاتب اليهودي المناهض للصهيونية كيف ادخل الى مدرسة جيمنازيا هرتسليا في مطلع هذا القرن في مرحلة اعداده لكي يكون زعيما من زعماء الصهيونيين في فلسطين . وقد تخرج من تلك المدرسة مع موشه شرتوك الذي اصبح فيما بعد وزيرا للخارجية الاسرائيلية . وارسل موشه مينوهين الى جامعة كولومبيا في نيويورك لاستكمال اعداده للمستقبل . ولكنه انقلب هناك على الفكرة الصهيونية بعد ان تكشفت له حقيقتها اللا انسانية . هذه الحادثة تكشف لنا كيف كان الصهيونيون يختارون النجباء من اطفالهم ويعدونهم لكي يكونوا زعماء المستقبل كل في مجاله. وفي المقابل كانت سياسة حكومة الانتداب التعليمية تعمل على امتصاص الطلبة العرب النجباء لتحولهم الى موظفين في خدمة حكومة الانتداب . والقلائل الذين كانوا يرسلون في بعثات للدراسة في بريطانيا لم يكونوا احرارا في اختيار ما يناسبهم من دراسات بل كانوا في معظمهم يرسلون على أساس أن يعودوا للعمل في جهاز المعارف كمدرسين او اداريين .

وهكذا حرم الشعب العربي الفلسطيني من امكانية ان يصبح خيرة ابنائه زعماء له في المستقبل . فقد تم تدجين اصحاب المواهب وتحويلهم الى طبقة ممتازة من الموظفين . وقد توزع افراد هذه الطبقة بعد انتهاء الانتداب البريطاني واستخدمتهم الادارات البريطانية والشركات والمؤسسات الاجنبية في مناطق البترول مستفيدة من خبراتهم واخلاصهم

الوظيفي . كما ورثت الادارة الاردنية الجزء الباقي من هذه الطبقة التي خرج منها الوزراء ورؤساء الدوائر وغير ذلك من الفعاليات الادارية . وربما أن هذا يجيب الى حد ما على السؤال المحير الذي كان دائما يقول : لماذا رزىء هذا الشعب النشيط الذكي دائما بزعماء من غير مستواه ؟! ولربما أنه لا مفر امامنـا من الاعتقـاد بأن حرمان الشعب العربي الفلسطيني من مؤسسات قومية ومن جامعة على الاخص لم يكن وليد الصدفة بل نتيجة تخطيط مدروس لبعثرته والقضاء عليه حتى لا يستطيع ان يطالب بحقوقه المسلوبة او ينافح دونها .

وبالرغم من جميع المخططات المدروسة لطمس كيان هذا الشعب وبعثرته ، فقد استطاع ان ينتج ادبا متميزا وفكرا وان ينهض في ثورة مسلحة في الوقت الذي ظـن فيه الكثيرون انه قـد انتهى وتبعثـر وتلاشى . ولم يعـد الان بيان دولي يخلو مـن الاعتراف بالشعب الفلسطيني ووجوده . ولعل ذلك ما يدفع هذا الكـاتب الى الاعتقاد بأن العقبـة السياسية التي كانت تحول دون انشاء جـامعة فلسطينية قد باتت اخف وطئا الان عن ذي قبل وأن كانت ما تزال عقبة كبيرة . ومثلما ان المال والكتب والاساتذة لم تكن العقبة الرئيسية في الماضي فأن الامر لا يزال كذلك الان . ولكن العقبة الرئيسية الان هي اتفاق الرأي الفلسطيني ذاته حول هذه الجامعة المقترحة : فكرتها ، غايتها ، تكوينهـا ، وموقعها .

لقد طرحت فكرة الجامعة الفلسطينية في السنوات الاخيرة وعلى عدة مستويات . طرحت داخل صفوف الشعب الفلسطيني وخارج صفوفه . وقد تبلورت الافكار خلال الاشهر القليلة الماضية الى عدد من الدراسات . وكل تلك الدراسات مهمة ومفيدة . غير أن الافكار تتباين . فمنها ما يرى انشاء جامعة تكنولوجية للدراسات العليا . ومنها ما يرى انشاء كلية جامعية او معهد عال للمعلمين . ومنها ما يلح على انشاء جامعة متكاملة علـى غرار احسـن الجامعات وارقاها . وفي رأي هـذا الكاتب ان الافكار لا حد لها . ولا قدرة لاحد سوى الكومبيوتر على اعطاء الاشكال والاحجام والانواع التي يمكن ان تكون عليها الجامعات والمعاهد العليا . فاذا كان من يريد انشاء الجامعة فردا من الافراد ، فان شكلها ومضمونها وحجمها يتحدد بامكانات ذلك الفرد وغاياته ومزاجه . ولو ان طائفة من الطوائف تريد انشاء جامعة فان نوع تلك الجامعة وحجمها يتحددان ايضا بحاجات تلك الطائفة وامكاناتهـا وغاياتها . ولكن جامعة لشعب كالشعب الفلسطيني وفي مثل ظروفـه فان احـدا بمفرده أو حتى فئة بمفردها لا تستطيع ان تقرر نوع تلك الجامعة وانما تقررها احتياجات الشعب وظروفه وامكاناته . هذا مبدأ لا بد من الاحتكام اليه لتوفير الكثير من الجدل وعـدم اهدار الطاقـات الفكرية في التمرينـات الخيالية . ولربما ينحصر النقـاش بعد ذلـك في محاولة استكشاف احتياجـات شعبنا في الحاضر والمستقبل على ضوء ظروفه وامكاناته .

ان حاجات شعبنا ليست حاجات مادية ووظيفية فقط وانما هنالك حاجات معنوية لا تقل اهمية عن كل احتياجـاته . وتلـك هي حاجتـه الى الحريـة لاستكشاف مصيره وممارسة تقرير ذلك المصير . ويبدو لي ان أية جامعة فلسطينية ، محسوبة على الشعب الفلسطيني ، يجب الا تكون محصورة في تفريخ نمط واحد من الناس سواء اكانوا معلمـين او مهندسـين او تكنوقراطيين . وان اية محاولة من هذا القبيل انما تصدر عن احكام مسبقة على هذا الشعب . فاذا كان البعـض يرون انشاء كليـة للتربية مثلا على اعتبار ان هنالك حاجة ماسـة في البلدان العربية للمدرسين وان بامكان الفلسطينيين ان يسدوا هذه الحاجة او قسما منها فانني ارى في ذلك حكما مسبقا على شعبنا يحدد له القيـام بوظيفة معينة . وينسحب هذا القول نفسه على أية فكرة من هذا القبيـل سواء اكانت الجامعـة المقصودة كلية للتربية او كلية متخصصة للعلـوم التكنولوجية . وليس الاعتراض على انشاء كلية للتربية او اية كلية متخصصة ولكن الاعتراض على أن تكون الجـامعة التي تحمل اسـم الشعـب الفلسطيني محصورة ومقيدة بدور وظيفي معين .

ان من واجب الجامعة الفلسطينية ومن مبـررات وجودها هو أن تكون قادرة علـى كسر الانماط والقوالب الفكرية التي خططت وفرضت علـى الشعب حينما لم يكن واعيا لابعادهـا . ولـقد أصبحت هذه القوالب جزءا منا على مر الزمن وآن الاوان لان نعيد النظر فيها بوعي وان نستعيـد اصالتنا الفكرية . ولربما ان طريقة نظرة بعضنا الى الجامعة ووظيفتها هـو مـن آثار هـذه القوالب .

الجامعة الفلسطينية يجب أن تكون جامعة حرة،

والعلم فيها حرا وتتميز بأقصى درجات الحرية الاكاديمية . وعلى ذلك فيجب الا تقتصر على فرع من فروع التخصص وانما تخوض في كل فرع من فروع العلوم والمعرفة الانسانية . والشرط الثاني هو أن تكون مرتبطة ارتباطا وثيقا بتاريخ الشعب الفلسطيني وواقعه ومستقبله . وبهذين الشرطين تستحق مثل هذه الجامعة أن تدعى فلسطينية .

ان تحقيق الشرط الاول كفيل بأن يجعل دور مثل هذه الجامعة متناسقا مع دور الشعب الفلسطيني كما يراه الاخرون . فاذا كان هذا الشعب قد قدر له أن يقوم بدور طليعي في تحرير الارض العربية والانسان العربي فلا بد لجامعته المقترحة من أن تقوم بدور طليعي في تحرير العقل العربي وتمكينه من أصالته وتخليصه من الزيف الثقافي المتراكم عليه . والشرط الثاني هو الارتباط الوثيق بين الجامعة والشعب انما يعطي الشرط الاول شكله ومحتواه . فالشرط الاول بدون الشرط الثاني يبقى كلاما نظريا جميلا ولكنه دون تحديد وتطبيق . ولترجمة الشرط الثاني الى واقع عملي أرى أن يكون مجلس ادارة الجامعة مقسما بالتساوي بين ممثلين عن الاساتذة والطلبة والمواطنين . وبذلك تكون هذه الجامعة قد حققت خطوة متقدمة على معظم الجامعات حيث يحتدم التناقض بين الجامعة والطلبة .

بالاضافة الى الحرية والارتباط الوثيق بين الجامعة والشعب هنالك شرط ثالث مكمل لهذين الشرطين لا ينفصل عنهما الا وهو ديمقراطية التعليم في الجامعة الفلسطينية المقترحة . وديمقراطية التعليم في هذه الجامعة يعني ان يكون التعليم فيها متاحا وميسورا لكل فلسطيني سواء بالاقامة او بالانتساب بما يتناسب وامكانياتها المتاحة في كل مرحلة من مراحل تطورها . ولا نعني اتاحة التعليم للفلسطينيين اقتصاره عليهم . ولعل هذا يقتضي أن تكون الجامعة نظرية وتطبيقية وانتاجية بحيث يتمكن الطالب المقيم فيها من العمل لقاء تكاليف دراسته او جزء منها اذا كان غير قادر على الانفاق على تعليمه . وقد يقتضي ذلك عدم تحديد مدة الدراسة بسنين معينة وانما باتمام برامج مقررة على نمط الجامعات الشعبية في الدانمارك او نظام التعليم في بعض الجامعات الامريكية وذلك حتى يتاح للطالب التوفيق ما بين العمل والدراسة . ان ظروف شعبنا واحتياجاته المادية والمعنوية تفرض مثل هذه الشروط الاساسية على أية جامعة تحمل اسمه . ولا أظن الا ان شعبنا قادر على القيام بما تتطلبه مثل هذه الجامعة من تضحيات وعمل .

ومن اجل الا يبقى هذا المشروع مجرد كلام نظري اقترح أن تتألف لجنة تأسيسية للمشروع مكونة من احد عشر شخصا بصفاتهم الشخصية لا بانتماءاتهم المهنية او السياسية على أن يكون هؤلاء من البارزين والمؤمنين بمشروع الجامعة على هذا الاساس . وتقوم هذه اللجنة بالاعلام للمشروع وتنشىء سكرتارية عامة لها للمتابعة . وتقوم اللجنة التأسيسية بتأليف لجان من داخلها وخارجها لدراسة ووضع مختلف البرامج التنفيذية . ويمكن أن تكون هذه اللجان ما يلي : أ ـ لجنة الاتصال والعلاقات . ب ـ لجنة البرامج الجامعية . جـ ـ اللجنة المالية . د ـ اللجنة الهندسية . وتجتمع اللجنة التأسيسية بصورة دورية لمتابعة اعمال مختلف اللجان على أن يظل النشاط الاعلامي حيا في مختلف المراحل . وتضع اللجنة التأسيسية النظام الداخلي لعملها كما تضع مشروع نظام داخلي للجامعة في انتظار الموافقة عليه من قبل اول مجلس ادارة منتخب يمثل الاساتذة والطلبة والمواطنين .

لقد مرت فترة الان منذ أن قدمت دراسات مختلفة لمشروع الجامعة الفلسطينية وأظن أن الوقت قد حان لتجاوز النقاش الى مرحلة العمل . وارجو ألا يمر وقت طويل قبل ان نسمع ببروز لجنة تأسيسية لمشروع الجامعة الفلسطينية .

ابراهيم ابو ناب

رسالة من الارض المحتلة
تقرير عن معاهد التعليم العالي في الضفة الغربية

المعهد الزراعي — طولكرم

تأسس هذا المعهد سنة ١٩٦١ تحت اسم كلية الحسين الزراعية . وجعلت مدة الدراسة فيها سنتين جامعيتين بعد المرحلة الثانوية على ان ترتفع في المستقبل الى اربع سنوات وتؤدي الى شهادة البكالوريوس في الزراعة او التعليم الزراعي . وكان التفكير المبدئي لدى الحكومة الاردنية ان تكون هذه الكلية قسما من الجامعة الاردنية ، الا انه في سنة ١٩٦٢ صرف النظر مؤقتا عن تأسيس هذه الكلية وحولت الى كلية الحسين الزراعية في طولكرم وجعلت مدة الدراسة فيها سنتين نهائيتين يكون الهدف منهما تخريج فنيين زراعيين . وفي سنة ١٩٦٤ اصدرت وزارة التربية والتعليم الاردنية قرارا اصبح اسم الكلية بموجبه (معهد الحسين الزراعي — طولكرم) ورفعت مدة الدراسة في قسم الزراعة والعلوم الى ثلاث سنوات بعد المرحلة الثانوية لافساح المجال لادخال مساقات التربية وعلم النفس والاساليب الخاصة والعامة في التدريس والوسائل المعينة وغيرها من المواد . كما انشىء عام ٦٤/٦٥ قسم لاعداد معلمي العلوم والرياضيات للمرحلة الاعدادية . وفي عام ١٩٦٥ طالب عميد المعهد بالحاقه بالجامعة الاردنية ليكون اساسا لكلية الزراعة . وقد رحبت الحكومة الاردنية بهذا الطلب ولكنها اشترطت دفع مبلغ مليون دينار اردني لتأسيس معهد اخر مماثل لمعهد الحسين الزراعي في وزارة التربية والتعليم . وكان هذا الطلب حجر عثرة في سبيل تأسيس كلية الزراعة في طولكرم . وفي بداية العام الدراسي ٦٨/٦٩ اضيفت ثلاثة فروع تخصص اخرى الى المعهد لاعداد معلمي اللغة العربية والتربية الدينية ، اللغة الانكليزية ، الاجتماعيات ، مدة الدراسة في كل منها سنتان بعد الدراسة الثانوية. وبذلك اصبح المعهد معهدا عاليا لاعداد المعلمين في التخصصات المختلفة للتدريس في المرحلتين الابتدائية والاعدادية .

ويضم المعهد الزراعي في طولكرم حاليا نحو ٣٠٠ طالب في السنوات الثلاث ، ويشرف على تدريسهم هيئة مكونة من ٢٠ مدرسا يحملون المؤهلات الجامعية . وفي المعهد مكتبة تحتوي على ٢١ الف كتاب وترصد ميزانية سنوية لتطوير المكتبة قدرها ١٥٠٠ دينار . كما يحتوي المعهد على مختبرات علوم حديثة مجهزة تجهيزا حسنا ، ويرصد سنويا مبلغ ١٠٠٠ دينار لتحسين هذه المختبرات . (لا يوجد دليل رسمي للمعهد) .

معهد المعلمين — العروب

تأسس هذا المعهد سنة ١٩٥٨ ليكون معهدا لتخريج معلمين للمرحلة الابتدائية والاعدادية في مدارس التربية والتعليم . وفي سنة ١٩٦٤ الغي معهد المعلمين لعدم حاجة الاردن في ذلك الوقت الى المزيد من خريجي دور المعلمين . وتحول المعهد بعد ذلك الى معهد زراعي للمعلمين لتخريج معلمين زراعيين فنيين . وفي سنة ١٩٦٩ اعيد افتتاح معهد المعلمين مرة ثانية وتحول المعهد الزراعي الى مرحلة زراعية ثانوية . ويقبل في هذه المرحلة الطلاب الذين انهوا المرحلة الاعدادية حيث يقضون ثلاث سنوات في الدراسة الزراعية يتقدمون في نهايتها امتحان شهادة الدراسة الثانوية الزراعية . اما معهد المعلمين فيقوم على تخريج معلمين للتدريس في مدارس التربية والتعليم في الضفة الغربية ، ويقتصر التخصص في المعهد على الفرع الادبي فقط حيث يتخصص الطالب في الاجتماعيات او اللغة الانكليزية او اللغة العربية والدين . ويبلغ عدد طلاب المعهد للعام الدراسي ٧١/٧٢ في السنة الاولى ٣٨ طالبا وفي السنة الثانية ٣٨ طالبا ايضا . وقد تخرجت عام ١٩٧١ الدفعة الاولى من المعهد بعد افتتاحه للمرة الثانية وعددهم ٤٥ طالبا . وقد تم استيعاب العدد الاكبر منهم في مدارس الضفة الغربية .

ويشترط في قبول الطالب في هذا المعهد حصوله على شهادة الدراسة الثانوية العامة . ويتبع المعهد نفس مناهج دور المعلمين التابعة لوزارة التربية والتعليم . ويقوم بالتدريس في المعهد خمسة معلمين يحملون مؤهلات جامعية ويشرف على الادارة السيد ابراهيم القادري وهو يحمل شهادة بكالوريوس في العلوم .

وفي المعهد مكتبة تحتوي على ٧ الاف كتاب ويضاف سنويا بعض الكتب من ميزانية خاصة يتبرع بها طلاب المعهد . وفي المعهد مختبر صغير للعلوم العامة ينقصه الكثير من الاجهزة اللازمة لطلاب معهد المعلمين . ويستعمل فقط لتدريس طلبة القسم الادبي .

ويتبع المعهد مباشرة لاشراف ضابط قيادة التربية والتعليم في الضفة الغربية . وتوضع ميزانية المعهد بموافقة هذه القيادة . ويقدر مصروف الطالب بـ ٢٥ قرشا في اليوم وعلى هذا الاساس تحسب الميزانية السنوية . ويذهب القسم الاكبر من الميزانية لاعاشة الطلاب في القسم الداخلي ثم لمصاريف زراعية في الحقل . وتتبع رواتب المعلمين لضابط القيادة رأسا ولا تدخل في ميزانية المعهد . ويدفع كل طالب لدى التحاقه بالمعهد خمسة دنانير رسوم مصاريف ونشاطات خارج الصفوف وتبرعات للمكتبة . (لا يوجد دليل رسمي للمعهد) .

مركز تدريب الفتيات والمعلمات — رام الله

يتبع هذا المركز مباشرة لوكالة هيئة الامم المتحدة لاغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين . ويضم المركز معهدا لتدريب المعلمات وقسما للتدريب المهني للفتيات ويتسع لـ ٦٤٠ طالبة . وقد تأسس سنة ١٩٦٢ ، وقبل حرب حزيران سنة ١٩٦٧ كان المركز يقبل طالبات من اربع دول مضيفة للاجئين الفلسطينيين هي الاردن ، قطاع غزة ، لبنان وسوريا . وبعد الحرب اقتصر القبول على قطاع غزة والضفة الغربية فقط ، حيث يتم قبول الطالبات من هاتين المنطقتين بنسبة متساوية لمدة سنتين . يهدف هذا المركز الى تدريب الفتيات للحصول على مهنة في احد الحقول التالية : أ — تدريب المعلمات. ب — التدريب المهني — ويشمل الدورات التالية : التحليل المخبري ، دورة مساعدي الصيادلة ، الحضانة ورياض الاطفال ، ادارة المنازل والمؤسسات ، اعمال المكاتب والسكرتارية ، خياطة الملابس ، التجميل وتصنيف الشعر .

ويشترط في قبول الطالبة ان تكون فلسطينية لاجئة تحمل بطاقة تموين سارية المفعول وان تكون ناجحة في امتحان شهادة الدراسة الثانوية العامة (او امتحان القبول الذي يعقده المركز للمتقدمات لاحدى الدورات المهنية) . ويبلغ عدد الطالبات الملتحقات بمعهد تدريب المعلمات للعام الدراسي ٧٢/٧١ ٢٧١ طالبة وفي قسم التدريب المهني ٣١٣ طالبة . ويبلغ عدد خريجات هذا المركز منذ تأسيسه حتى الان نحو ٢٠٠٠ خريجة . ومعظم هؤلاء الخريجات حصلن على وظائف في مناطق مختلفة من العالم العربي . وبعد حرب حزيران اقتصرت امكانات العمل على الضفة الغربية وقطاع غزة . وتعطى الاولوية في توظيف خريجات المركز في شواغر وكالة الاغاثة . وفي عام ١٩٧١ تخرج من المركز ٩٨ طالبة من قطاع غزة استطاعت ٣٦ منهن الحصول على وظائف ، كما تخرجت من الضفة الغربية ٨٩ طالبة استطاعت ٧١ طالبة منهن الحصول على وظائف .

ويقوم بالتدريس في قسم تدريب المعلمات هيئة تدريس عددها ٢٣ معلما ومعلمة يحملون مؤهلات جامعية . وقد وضعت مناهج تدريس خاصة للمركز باشراف خبراء منتدبين من هيئة اليونسكو . وقد تم تطوير هذه المناهج فيما بعد بمساعدة الهيئة التدريسية لتتمشى مع احتياجات المنطقة . وتخصص وكالة الاغاثة ميزانية سنوية للمركز على اساس ٥٥٠ دولارا مقابل كل طالبة تلتحق بالمركز كما تخصص دولارين مقابل كل طالبة لتحسين وتطوير مكتبة المركز . وتصل الى المركز مساعدات مالية وفنية سنوية من مؤسسات عالمية مختلفة . وتشرف على ادارة المركز السيدة انعام المفتي وهي تحمل شهادة البكالوريوس في الاداب . (لا يوجد دليل رسمي للمعهد) .

مركز تدريب المعلمين — رام الله

يتبع هذا المركز مباشرة لوكالة هيئة الامم المتحدة لاغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين، ويضم المركز معهدا لتدريب المعلمين لمدة سنتين . وقد افتتح المعهد هذا العام سنة ثالثة كمشروع تجريبي يهدف الى زيادة تخصص الطالب في العلوم والرياضيات واللغة الانكليزية كما يهدف الى فتح مجالات عمل افضل امام الخريجين . ويبلغ عدد الطلاب في السنة الاولى ١٢٤ طالبا ، وفي السنة الثانية ١٢١ طالبا ، وفي السنة الثالثة ٤٤ طالبا بالاضافة الى ١٣ طالبة من مركز تدريب الفتيات والمعلمات في رام الله . ولا يوجد اي تفكير لتطوير المركز الى اربع سنوات . ويشترط في قبول الطالب في هذا المركز ان يكون حاصلا على شهادة الدراسة الثانوية العامة بمعدل لا يقل عن ٦٧٪ بالاضافة الى مقابلة شخصية امام لجنة خاصة . وتسير المناهج حسب برنامج خاص باشراف خبراء من هيئة اليونسكو . ويقوم بالتدريس في المركز ٢٣ مدرسا يحملون مؤهلات جامعية وتتراوح سنوات الخبرة بين ٢ — ١٣ سنة . وتقتصر مجالات العمل لخريجي المعهد على الضفة الغربية وقطاع غزة . وقد استوعبت مدارس وكالة الغوث من خريجي العام الماضي ١٥ طالبا بينما استوعبت المدارس التابعة للتربية والتعليم ثلاثة خريجين فقط ، وذهب

الباقون الى الضفة الشرقية بحثا عن عمل ، وسافر البعض الى الخارج لاتمام الدراسة في الجامعات .

وفي المعهد مكتبة تحتوي على ١٦ الف مجلد باللغتين العربية والانكليزيـــة والقسم الاكبر منها مخصص للعلوم والرياضيات . كما يضم المركز ٣ مختبرات للفيزياء والكيمياء والاحياء وتبلغ الميزانية العامـــة للمركز ١٩٠ الف دولار يخصص معظمها لمصاريف القسم الداخلي . كما يرصد مبلغ ٢٠٠ دولار في السنة لتطوير المختبرات وثمانية دولارات عن كل طالب لتطوير المكتبة . ويصرف لكـل طالب ١١٧ قرشا في الشهر كمصاريف خاصة . ويقوم بالاشراف على ادارة المركز السيد عطية محمود وهو يحمل شهادة البكالوريوس في العلوم . (لا يوجد دليل رسمي للمعهد) .

معهد معلمات رام الله

يتبع هذا المعهد لوزارة التربية والتعليم الاردنية وبعد حرب حزيران انتقل الاشراف عليه الى ضابط التربية والتعليم في قيادة الضفة الغربية . وتأسس هذا المعهد سنة ١٩٥٢ وهـــدفه تخريج معلمـــات للمرحلـــة الالزامية . ويشتـــرط في قبول الطالبة حصولها على شهادة الدراسة الثانوية العامة . والدراسة في هذا المعهد تتبع مناهج دور المعلمين التابعة لوزارة التعليم الاردنية .

عدد الطالبات في السنـــة الاولى ١٢٠ طالبه وفي السنـــة الثانية ١٢٤ طالبة معظمهـــن من الضفة الغربية وشعبة واحدة فقط من قطاع غزة . وتقوم بالتدريس في هـــذا المعهـــد ١٧ مدرسة منهن ١٢ مدرسة متفرغة . وجميعهن يحملن شهادات جامعية وتتـــراوح سنوات الخبرة لديهـــن من ٤ — ١٠ سنوات . اما مجالات العمل لخريجات المعهد فهي افضل من اي معهد اخر ، اذ تقوم مدارس التربية والتعليم باستيعاب جميع الخريجات في مـــدارس الضفـــة الغربية . ويحـــافظ المعهد علـــى عدد الخريجات كل عام بحيث لا يزيد على ١٢٠ حتى تتوفر لهن الشواغر بعد التخرج .

وفي المعهد مكتبة تحتوي على ١٦ الف مجلد بالعربية والانكليزية وتبلغ ميزانية المكتبـــة السنوية ٣٦٠ دينارا . اما المختبرات فهي ضعيفة نسبيا وتحتاج الى المزيد من التطوير ، ويرصد سنويا مبلغ ٢٠٠ دينار بقصد تحسين المختبرات .

وتبلغ مصاريف الطالبة الواحدة في المعهد نحو ٢٨ دينارا في الشهر الواحد (نحو ٢٢٤ دينارا للسنة الدراسية) . وعلى هذا الاساس تحسب الميزانية العامة للمعهد . ومن شروط الالتحاق بهذا المعهد ان تقيم الطالبة في القسم الداخلي — وقد الحقت بالمعهد في العام الماضي شعبة خاصة لطالبات غزة ويتخصصن الان في الفرع العلمي لضمان استيعابهن في مدارس غزة بعد التخرج .

وفي سنة ١٩٥٦ الحقت بهذا المعهد مدرسة نموذجية تحتوي على ستة صفوف ابتدائية — والهدف من هذه المدرسة تدريب الطالبات على التطبيق العلمي. وتضم هـــذه المدرسة ١٥٠ طالبة مـــن المتفوقات اللواتي يأتين من وسط علمي وثقافي ممتاز . وتقوم بالاشراف على ادارة المعهد الانسة ندى بركـات وهي تحمل شهادة البكالوريوس في اللغة العربية . (لا يوجد دليل رسمي للمعهد) .

معهد الروضة الوطني للمعلمين — نابلس

مؤسسة وطنية خاصة تأسست سنة ١٩٧٠ . تهدف الى تخريج معلمين مؤهلـين للتدريس في المرحلـــة الالزامية . مدة الدراسة فيها سنتان بعد المرحلة الثانوية ويشترط في قبول الطالب حصوله علـــى شهادة الدراسة الثانوية العامة. وتقتصر الدراسة في هذا المعهد على الفرع الادبي فقط حيث يتخصص الطالب في احد المجالات التالية : اللغة العربية والدين او الاجتماعيات او اللغة الانكليزية . وتسير الدراسة حسب مناهج دور المعلمين التابعة لوزارة التربية والتعليم الاردنية . ويبلغ عدد طلاب السنة الاولى ٢٥ طالبا وطالبة وفي السنة الثانية ٤٤ طالبا وطالبة ، ويقوم بتدريس هؤلاء الطلاب هيئة تدريس مكونـــة من ٢٠ مدرسا معظمهم يحملون مؤهـــلات جامعية . ويقوم هؤلاء المعلمون بالتدريس في القسم الثانوي التابع لنفس المعهـــد . وتتخرج الدفعة الاولى من هذا المعهـــد في نهاية العام الدراسي ٧٢/٧١ ، وما زالت مجالات العمل امامهم غـــير معلومـــة . ويعتقد المشرفون على المعهد بضرورة تحديد عدد الطلاب عند القبول حتى يضمنوا ايجاد عمل بعد التخرج نظرا لامكانات العمل المحدودة في الضفة الغربية .

تبلـــغ رسوم التعليم للطالـــب الواحـــد في العام الدراسي ٤٠ دينـــارا اردنيـــا بما فيهـــا اللازم المدرسية . ويشرف على المعهد اربعة اشقاء من آل عبد الهادي . وهم لا يعتمدون على اي مصدر للمساعدات المالية من الخـــارج ويكتفون بجهدهم

الفردي والدخل العائلي من الاسهم والشركات والاراضي . ويقوم بالاشراف الاداري على المعهد السيد مروان عبد الهادي وبالاشراف الفني السيد صالح عبد الهادي وهو يحمل شهادة البكالوريوس في الاداب . (لا يوجد دليل رسمي للمعهد) .

معهد النجاح الوطني للمعلمين — نابلس

مؤسسة وطنية خيرية هدفها اعداد المعلمين المؤهلين للتدريس في المدارس الابتدائية والاعدادية والثانوية . ومدة الدراسة فيها سنتان بعد المرحلة الثانوية ، ويشترط في الطالب عند القبول ان يكون ناجحا في امتحان الدراسة الثانوية العامة . ويبلغ عدد طلبة هذا المعهد في العام الدراسي ٧١/٧٢ ٥٥٤ طالبا وطالبة منهم ٣٠٠ في السنة الاولى و ٢٥٤ في السنة الثانية وتبلغ نسبة البنات حوالي ٨٠٪ . ويقوم بتدريس هؤلاء الطلاب هيئة تدريس عددها ٢٩ مدرسا ، من بينهم ١٢ مدرسا متفرغا و ١٧ مدرسا غير متفرغ، وجميعهم يحملون مؤهلات جامعية وتتراوح سنوات الخبرة لديهم بين ٢ — ٢٠ سنة .

وتتبع الدراسة في هذا المعهد نفس مناهج معاهد المعلمين التابعة لوزارة التربية والتعليم الاردنية . والدراسة في المعهد مسائية تبدأ في الساعة الثانية حتى السابعة مساء . ويعطى الطلاب في الفصل الاول مواد مقررة ثم يبدأ التخصص في الفصل الثاني . ويقوم كل طالب في نهاية المرحلة بالتطبيق العملي المكثف لمدة شهر باشراف الموجهين التربويين التابعين لمكتب التربية والتعليم . وعند تخرج الطالب يمنح شهادة المعهد التي تؤهله للعمل كمدرس في مدارس الضفة الغربية . وتتوقف مجالات العمل لخريجي هذا المعهد على الشواغر المتوفرة في مدارس الضفة الغربية ، وتعطى اولوية التوظيف عادة لخريجي المعاهد التابعة لوزارة التربية والتعليم وبناء عليه اصبحت مجالات العمل امام خريجي هذا المعهد محدودة مما اضطر العديد منهم الى البحث عن مجالات جديدة للعمل في البلاد العربية مثل المملكة العربية السعودية وليبيا .

تبلغ رسوم التعليم في المعهد ٤٥ دينارا اردنيا في العام الواحد . ونظرا لضعف الموارد المالية لعدد كبير من الطلاب فقد بلغ مجموع الاعفاءات من الرسوم هذا العام ثلاثة الاف دينار .

وتحتوي مكتبة المعهد على ثمانية الاف مجلد باللغتين العربية والانكليزية ، وتخصص الادارة سنويا ٤٠٠ دينار لتطوير المكتبة واضافة اعداد جديدة من الكتب . كذلك يحتوي المعهد على ٣ مختبرات صغيرة للفيزياء والكيمياء والاحياء وترصد الادارة مبلغ ٤٠٠ دينار في السنة لتطوير هذه المختبرات وتوسيعها . والمدير المسؤول عن المعهد هو الاستاذ محمد العمد (بكالوريوس اداب) ويشرف على سياسة الكلية العامة والمالية مجلس عمدة مكون من ستة اشخاص هم : الدكتور احمد سروري ، الدكتور جودت تفاحه ، السيد ابراهيم صنوبر ، السيد حكمت المصري ، السيد تحسين كمال والدكتور مصطفى بشناق . (لا يوجد دليل رسمي للمعهد) .

كلية بير زيت

كلية بيرزيت مؤسسة اهلية للتعليم العالي تقع على بعد ٢٦ كيلو مترا شمالي مدينة القدس . ويشرف على الكلية مجلس امناء يقرر سياسة الكلية ويتحمل جميع مسؤولياتها . وتحتوي الكلية على صفين بعد المرحلة الثانوية : الصف الجامعي الاول والصف الجامعي الثاني بفرعيهما الادبي والعلمي . وتدرس جميع المواد باللغة الانكليزية فيما عدا مادة اللغة العربية . ويوجد في الكلية ايضا برنامج تحضيري خاص يعطى للطلبة الذين يحتاجون الى تقوية لغتهم الانكليزية قبل التحاقهم بالصف الجامعي الاول .

تتبع الكلية نظام التعليم الحر الذي يتيح للطالب فرصة اختيار المواد التي تناسبه دون التقيد بفترة زمنية محددة اذ تحسب له جميع المواد التي يدرسها بغض النظر عن الفترة التي اخذت فيها . ويتيح هذا النظام كذلك للطالب فرصة دراسة مواد متنوعة خارج اختصاصه يختارها حسب ميوله . ويمنح الطالب الذي ينهي البرامج المقررة بنجاح الشهادة الجامعية المتوسطة في الاداب او العلوم. وتؤهل هذه الشهادة حاملها للانتقال الى السنة الجامعية الثالثة في عدد من الجامعات في البلاد العربية وخارجها من ضمنها الجامعة الاردنية ، الجامعات العراقية ، الجامعة الامريكية في بيروت، كلية بيروت للبنات ، الجامعة الامريكية في القاهرة وعدد من جامعات بريطانيا والولايات المتحدة . ولكي يقبل الطالب في الصف الجامعي الاول « ادبي او علمي » عليه ان يكون قد اجتاز امتحان الدخول للغة الانكليزية وان يحمل شهادة الدراسة الثانوية

العامة الاردنية او ما يعادلها من الشهادات الثانوية العامة .

تحتوي مكتبة الكلية على ١٨،٠٠٠ مجلدا « منهـا ١٢،٠٠٠ باللغـة الانكليزيـة و ٦،٠٠٠ باللغـة العربية » وتشمل هـذه الارقام ايضا نحو ٧٠٠ مرجع . وتشترك المكتبة في ما يقرب من مائة مجلة دورية . وتوجد في المكتبة قاعة للمطالعة تتسع لمائة طالب كما تحتوي على قسم خاص للمجلات المجلدة التي تستعمل كمراجـع في الابحاث . في الكليـة مختبرات مجهزة تجهيزا حسنـا للفيزياء والكيمياء والاحيـاء وتعطى الفرص الكافية للطـلاب لاجراء الاختبارات الفردية باشراف المدرس المختص .

وتبلغ رسوم التعليم السنوية ١٤٠ دينارا للطالب الواحـد بينما تبلـغ رسوم القسم الداخلي ١٨٠ دينارا في العام الواحد . وتقدم الكلية عددا من المنح الدراسية للطلبة المتفوقين والمحتاجين وتغطي هذه المنح رسوم التعليم ورسوم القسم الداخلي او جزءا منهـا . وكذلـك يوجد امكانية لحصول الطالب على قرض بدون فائدة وتدفع هذه القروض عادة بعد انتهاء الطالب من دراسته الجامعية .

ويبلغ عدد طلبة الكلية للعام الدراسي الحالي ١٨٠ من بينهم ٧٠ طالبة و ١١٠ طلاب . ويقوم بالتدريس في الكلية ٢٠ مدرسا جامعيا يحمل اثنان منهم شهادة الدكتوراه وثمانية شهادة الماجستير . وتتألف الهيئة الادارية في الكلية من : رئيس الكلية الدكتور حنا ناصر ، عميد الكلية الدكتور جابي برامكي ، مدير التسجيل منير ناصر . (وللكلية دليل عام سنوي).

ح. ن.

رسالة من امستردام
عملية مطار اللد والاعلام العربي

الهجوم على مطار اللد كان علامة فارقة في مسيرة حركة التحرير الفلسطينية ، وفي مجال سمعتها على النطاق العالمي ، كحركة تحريرية مشروعة . ذلك ان الهجوم على مطار اللد كان أول تحد سافر للعدو في رقعة من الارض يعتبرها بمثابة القلب في جسم الدولة الصهيونية الغاصبة . والهجوم ، بعد ذلك ، لم يكن بقنابل موقوتة اختفى زارعوها عن الانظار ، بل كان بالرجال يحملون عتادهم الحربي بأيديهم ويموتون مع الذين قدر لهم الموت في تلك اللحظات التي تفجر فيها غضب الثائريـن على البطش والظلم كما لم يتفجر من قبل . وايضا فان الهجوم نفذ على أيدي شباب اجانب يحملـون رسالة رجال المقاومة الشرفاء في كـل مكان ، ومضمونها ان معركة التحرر من الامبريالية والظلم ميدانها الكرة الارضية بأكملها وليس وطنا بعينه .

ان المتطوعين الاجانب في حركات التحرير ، يعملون في اكثر من أرض تتطلع الى التحرر ، لكن التاريخ لم يسجل لهم بعد اندفاع هؤلاء الشبان اليابانيين وحماسهم الذين قاموا بالهجوم على مطار اللد . معنى هذا ان حركات التحرير في العالم متجهة نحو مزيد من التضامن والعمل المشترك ومزيد مـن تصعيد العنف . ومعناه انها صارت تأخذ ابعادا جديدة لم تكن الى الان ضمن تقديرات استخبارات الامبريالية في العالم وحساباتها . وهناك ملاحظة مهمة اخرى ، هي أن ادانة الهجوم مـن طرف صحف غربية كثيرة ضالعة مع الصهيونية ، بأقسى عبارات الادانة ، لم تعزز الاثر المقصود منها في الغرب . بخلاف احداث سابقة اقل عنفا كـانت تتخذ وسيلة لتشويه سمعة المقاومة الفلسطينية وكانت في الوقت نفسه تكم أفواه اعداء الصهيونية من الغربيين ولو موقتا . وهذه ظاهرة تستحـق التفحص . والمتفحص لا يستطيع اهمال عـامل التوقيت . توقيت العملية كان متقنا . فقد جاء في اعقاب حادث الغدر بخاطفي طائرة سابينا . لقد طرب انصار اسرائيل وعشاقها ساعة انتشر خبر السيطرة على طائرة سابينا وقتل اثنين من شبان وشابات المقاومة الذين قاموا بالعملية . الا ان اصدقاء العرب الذين شيدوا صداقتهم علـى اسس من التفهم العميق للقضية الفلسطينية ، لم يطربوا . كذلك لم يطرب غالبية الذين قدروا بحسهم السليم ان ما قامت به عصابة القادة العسكريين الاسرائيليين للاستيلاء على طائرة سابينـا وافشال خطط خاطفيها ، عمل جنوني مغامر مجرد من كل احساس بالمسؤولية . والمتفحص لذيول حـادث

مطار اللد ، في الغرب ، يرى ولاول مرة كيف ان الصحف الصفراء التي حاولت ان تلصق بالمقاومة الفلسطينية صفات الجبن والنذالة والشر ، لم تجد ميدان الكلام وقفا عليها فقط تصول وتجول فيه كما تشاء وتعبث فيه بعقول الناس كما تريد . ذلك ان صحفا ومجلات كثيرة سواها حاولت من فرط رهبتها واشفاقها على اسرائيل ان تنظر قليلا الى الامام . هذه ، اذ ادانت الهجوم وبكلام قاس ايضا ، فقد حاولت في الوقت نفسه ان تغمز من طرف خفي داعية اسرائيل الى التخلي عن تعنتها وصلفها وغرورها ، والاسهام في المساعي الرامية الى احلال السلام في الشرق الاوسط قبل فوات الوقت . بل ان بعضا منها لم يتردد في الاشارة بصراحة الى أثر العنف والبطش الصهيوني في خلق حالة من اليأس لدى الفلسطينيين تفرض عليهم تصعيد مقاومتهم الى مراتب اعلى من العنف . وفي هذا الدليل القاطع على ان الحادث، وان كان غريبا وداعيا الى التساؤل ، فانه خلف وراءه آثارا ايجابية . ولقد لاحظ كل هذا في حينه ، قراء الصحف الكبيرةالغربية ، مثل الواشنطن بوست والنيويورك تايمز والتريبيون والغارديان والتايمز ومجلات كالتايم والنيوزويك .

والواقع ان اصدقاء العرب في الغرب ، بعد سماعهم اخبار مطار اللد والهجوم عليه ، وضعوا أيديهم على قلوبهم . والسبب هو أن الحادث جديد في نوعيه ، اتصف بمرتبة عالية من العنف لم تأخذ بها حركات المقاومة بعد . كان هؤلاء الاصدقاء يعللون ما حدث بانه خطأ فرضته ظروف آنية خاصة . كانوا يقولون لانفسهم ، ان الشبان اليابانيين اغلب الظن كانوا يستهدفون اصلا تدمير عدد من الطيارات على أرض مطار اللد ، او الهجوم على مفرزة عسكرية من حراسه ، او أي شيء من هذا القبيل ، لكنهم فعلوا ما فعلوه تحت ضغط الظروف . فالمنطق يرفض اطلاق النار على ابرياء . وحدث ما خافه هؤلاء الاصدقاء . اذ طلعت الصحف الاستعمارية الصفراء على قرائها بأشنع حملة تشهير بالفلسطينيين ، وبلغة واحدة انظف كلماتها كانت الذبح والبربرية والهمجية والقبح . وكان هؤلاء الاصدقاء يخشون ايضا ان تنقلب موجة العطف على الفلسطينيين التي سادت اوساطا مثقفة كثيرة في السنوات الخمس الاخيرة ، الى موجة معاكسة . غير ان شيئا من هذا لم يحدث . بل ان صحفا كثيرة اخرى كما بينت راحت تشير الى ضرورة العثور بسرعة على حل لقضية الشرق الاوسط وضرورة اسهام اسرائيل في ذلك بموقف جديد ، غير موقف التصلب والتحدي والتوسع . وتفسير ذلك بدون شك ، هو أن الناس الذين كسبهم الاعلام الفلسطيني والعربي في السنوات الماضية ، تم كسبهم بالتثقيف وبالنشر باللغات الاجنبية ، وكذلك بتبادل الوفود الرسمية والشعبيـة والصحفية . والصحف التي اخذت تدعو اسرائيل الى ضرورة التكيف مع الواقع ، ذلك خوفا عليها ورهبة مما هو قادم . ثم ان غطرسة اسرائيل وصلت حدودا لم يعد يقبل بها الذين يحكمون العقل . فلم يحدث في التاريخ ان بقيت دولة صغيرة سنين طويلة تتحدى كل الدول من حولها ومعظم دول العالم ، بينما كل ما تفعله وتنفذه لا يشير الا الى طريق واحد ، هو طريق الاحتلال والتوسع والغزو .

وهذه بعض الادلة الناطقة الاخرى . في نفس اسبوع الهجوم على مطار اللد ، كانت بعض السفارات العربية في لاهاي ، قد نظمت لبعض رجال الصحافة والتلفزيون الهولنديين رحلة استطلاع لبعض الاقطار العربية يتعرفون خلالها على اوضاع الفلسطينيين . وعاد هؤلاء من رحلتهم والصحف الصفراء غارقة في حمى الهجوم على الفلسطينيين ، وقلنا : الان اما ان يغلق هؤلاء أفواههم ، او يهاجموا الثورة الفلسطينية . الا ان ما صدر عنهم كان مغايرا لكل تلك التوقعات . الريبورتاجات التلفزيونية التي قدموها كانت من امتع وافضل ما قدمه التلفزيون الهولندي عن القضية الفلسطينية . والمقالات التي نشروها كانت عرضا صريحا لمأساة الشعب الفلسطيني بدون رتوش من ناحية وبدون « الغام » من ناحية اخرى . واغرب من ذلك ان وفدا تلفزيونيا اخر عاد في تلك اللحظات من زيارة لاسرائيل واستولى على العارفين اعتقاد بأنه سيقدم مواد معاكسة للاولى . وحتى هذا لم يحدث ، لان ذلك الوفد اكتفى من كل ما جمعه في اسرائيل بقصة النازحين من البدو والفلاحين الفلسطينيين ، وقدم افلاما تصور مأساتهم احسن تصوير ، بكل ما فيها من بطش الجيش الاسرائيلي، وتدمير البيوت بالديناميت والقاء هؤلاء التعساء في اراض صحراوية بعد اخراجهم بالقوة من أراضيهم التي حولوها الىجنان.

الاحلام التي ترعرعت فيالصدور على يد «الكرامة»، واندثرت في ايلول ، وانتعشت من جديد ايام وضع

الاتحاد الثلاثي موضع التنفيذ ، وانكفأت على وجهها بعد استسلام طائرة سابينا ، الاحلام في استمرار صعود المقاومة رغم ما تتعرض له من تضييق وتطويق ، يجب ان تظل ملء الصدور والعقول . ولكي تتحقق هذه الاحلام ، على المقاومة ان تعرف كيف تفلت من اسار الحصار المفروض عليها من الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية . ولعل من الافضل لها ان تشغل نفسها بعمليات جريئة داخل الارض الفلسطينية بدل عمليات الحدود التي لا تغني من جوع . ثم ان المعركة بين العرب جميعا واسرائيل قادمة لا محالة، وعندئذ ستلعب المقاومة دورها المطلوب منها . فالى أن يحين الوقت ، يجدر بها ان تثبت وجودها، ولا يكون ذلك الا بالعمل داخل اسرائيل . وما عدا ذلك فهو ضياع للجهد والسمعة والارواح . عن هذا الطريق فقط ، يظل صوت الثورة الفلسطينية مسموعا وتصبح جزءا صميما من الثورة العالمية ضد الامبريالية والاستعمار .

واما في مجال الاعلام للقضية الفلسطينية ، فعندي في هذه الرسالة ملاحظة واحدة مع انها تكرار لنداءات مماثلة اوردتها اقلام كثيرة في السابق . من واجب منظمة التحرير ان تدعو الوفود الغربية للبلاد العربية ، ليشاهدوا احوال الفلسطينيين على الطبيعة وليتحدثوا مع الفلسطينيين في مخيماتهم وليناقشوا قادة العمل الفلسطيني . وليس المقصود ، الوفود الصحفية فقط ، وانما الوفود الحزبية والنقابية والطلابية ايضا . معظم الذين اطلعوا على القضية الفلسطينية في ارضها، سواء في الاقطار العربية او في اسرائيل ، تحولوا الى أصدقاء للقضية الفلسطينية . هذا ابرز طريق في مجال الاعلام . الطريق البارز الثاني ، هو الاشتراك في اللقاءات الثقافية في الغرب بأصوات فلسطينية . اذكر عملا صالحا في هذا المجال ، قام به الفلسطيني محمود رباني الذي يشغل منصب قنصل الكويت في لاهاي . فقد وصل الى علمه خبر عن تنظيم ندوة شعرية عالمية في مدينة روتردام الهولندية ، من جانب لجنة الشعر الهولندية ، دعيت اليها أسماء معروفة عالميا في ميدان الشعر. وبالاتصال باللجنة ، اعدت دعوة للشاعر الفلسطيني محمود درويش . وجاء محمود درويش الى روتردام ، والقى في الندوة قصائد من شعره في مجموعة كبيرة من المثقفين ، وتعرف شخصيا على شعراء عالميين لم يكن يعرفهم شخصيا . وشاعرنا أحق مني في تسجيل ما شاهده وحققه في هذه الندوة على صفحات « شؤون فلسطينية » . وما أكثر هذه المناسبات ، وما أجدر السفارات العربية والبعثات الدبلوماسية العربية بأن تظل على صلة بها ، ويبقى الطريق البارز الثالث ، وهو طريق النشر باللغات الاجنبية . ان مراكز البحث والدراسات الفلسطينية تبذل جهودا مشكورة جدا في مجال نشر الوثائق والكتب القيمة عن القضية الفلسطينية باللغات الاجنبية ، الا ان هذه الكتب والمنشورات بحاجة الى توزيع اوسع . اليس من سبيل لدراسة هذا الموضوع دراسة اعمق لتصل هذه الكتب والمنشورات والوثائق الى أيدي أكبر عدد من مثقفي الغرب ؟

عقيل هاشم

رسالة من لندن

فيلم ((اضبارة القدس)) الصهيوني

الحديث عن الاعلام العربي لا يقل تشاؤما عن الحديث عن التعبئة العسكرية . وكلاهما يرجعان الى معين واحد مادته السذاجة ، والسذاجة هنا هي سذاجة من ترك وراءه الايمان بالخرافات ، خرافات القرون الوسطى ولم ينتقل بعد الى خرافات القرن العشرين . وقد وقعنا في الهوة الفاصلة بين الاثنين بتوهمنا ان المنطق والعلم والارقام هي كل ما يحتاجه الانسان لاثبات الحقيقة وكسب الاخرين اليها . الحقيقة التي اثبتها المنطق والعلم والارقام هي خلاف ذلك تماما ، ويكفينا ان نلتفت الى أبسط علاقاتنا حتى في حياتنا الخاصة والعائلية .

تخدم المطبوعات العلمية اغراض الجامعيين والباحثين والخبراء ، ولكنها لن تؤدي بحد ذاتها الى ما نسميه اعتباطا وسذاجة بـ « تنوير الرأي العام » . اولا ان الابحاث العلمية قلما تقع بيد الرأي العام او قلما يعبأ الرأي العام بوجودها . واذا كان هناك شيء كشف عنه الاحصائيون والاجتماعيون فهو ان الرأي العام رهن للمؤثرات المحيطة والعاطفية والنفسية . الميكانيكية السايكولوجية للدعاية موضوع يخرج عن هذه الرسالة . بيد ان التشاؤم الذي لا بد للاعلام العربي ان يشعر به حيالها هو أن العرب مجردون من أي سلاح في هذه المعركة . فلغة الفن بمفاهيمها الغربية شيء لا سبيل للسطات العربية اليه بتاتا . ويشعر الاعلامي في لندن بهذه الهزيمة المحتمة عندما يلتفت حوله فيجد (على سبيل المثال لا الحصر) في ربيع هذا العالم ثلاث دور رئيسية للسينما في منطقة الوست اند بلندن (منطقة الملاهي) تعرض ثلاثة افلام كاملة ملونة كلها تطرق اذهان الرأي العام هنا بالدعاية الصهيونية . وكان الفلم الاول « اتبعوني » الذي يصور انتصارات اسرائيل في ١٩٦٧ والفلم الثاني « كمنجاتي فوق السقف » الذي يصور حياة اليهود في روسيا القيصرية ، والفلم الثالث « اضبارة القدس » الذي يتعرض لنشاط الفدائيين .

الفلمان الاولان قديمان وتعرض لهما غيري من الكتاب من قبل . أما « اضبارة القدس » فهو الحصيد الجديد من ترسانة الاعلام الصهيوني . والفلم هو انتاج اسرائيلي — امريكي مشترك من اعمال شركة مترو غولدين ماير ، هي شركة يملكها ويسيطر عليها الرأسمال اليهودي الامريكي . « اضبارة القدس » فلم يحاول النيل من النشاط الفدائي بتقديمه على شكل قصة بوليسية مثيرة . وبهذه الصفة لم يثر الفلم حتى الفئران التي تضاعف عددها منذ تسلم المحافظون الحكم هنا . بل ولم يثر حتى النقاد الذين يخافون خوف الفئران من ترض الافلام الصهيونية ، كل ذلك بالرغم من كل الوجوه الفاتنة والسيقان اليافعة والموسيقى الشبقية والالوان غير الطبيعية — الوان مترو غولدين — ماير — التي حشدها المخرج جون فلاين للفلم .

قصة الفلم ببساطة ، وهي بقلم تروي كندي مارتن ، تدور حول محاولة نفر من الشبان الاسرائيليين الاتصال برشيد رفعت (عرفات ؟) احد زعماء الفدائيين ، بمساعدة تلميذ امريكي يعرف رفعت ويتعاون معه . وكان الجميع يريدون هذا الاجتماع أن يتم . فضابط الاستخبارات (وقام بدوره الممثل الانكليزي البارع دونالد بلسنت) كان يريد الاجتماع ليتمكن من القبض على رفعت. والجنرال الاسرائيلي الذي شابه موشي ديان في هيئته وتفكيره ، كان أيضا يريد هذا الاجتماع ليستطيع ان يحصل على صورة ذهنية لهذه الشخصية الجديدة للمقاتل الفلسطيني . الشخص الوحيد الذي عارض الاجتماع هو الاستاذ لانغ الذي خشي على سلامة تلامذته من هذه المخاطرة .

ويستطيع التلامذة الناقمون في اخر الامر ان يفلتوا من نطاق لانغ ويلتقوا بالفدائيين . وبعد سلسلة من الرموز السلمية الواضحة — ابريق القهوة ، النار المشتعلة وسط الصحراء ، الشمس البازغة فوق الافق ، تداهم الملتقى منظمة فدائية اخرى فتبيد الجميع عربا واسرائيليين . وينتهي الفلم بهذه النهاية اليائسة . الويل لمن يبحث عن السلم على أرض السلام .

هذه خلاصة لساعتين من الكلام والغرام وازيز الرصاص وزعيق العجلات . فالفلم يبدأ بقصة

ثانوية تدور حول انشقاق الفدائيين وابادتهم بعضهم بعضا . ومن افظع الفصول مطاردة الشرطة لاحد الفدائيين من اعماق القدس القديمة الى أسوار المدينة الخارجية . وبعد ان تصبح المسافة بين مسدسات الشرطة وظهر الفدائي الهارب بضعة امتار لا غير ، يلوذ الفدائي بسيارة عربية مارة . ولكن السائق العربي يطلق الرصاص عليه ويوفر للشرطة مؤونتها . لقد كــان فدائيا من منظمــة مناوئــة .

في مثل هذا المشهد ونحوه من فصول القصة ، نجد سر فشل هذا الفلم . فللرواية البوليسية تقاليدها واصولها . ومن اول هذه الاصول ان يكون هناك اوغاد على جانب واخيار على جانب ليستطيــع المشاهد ان يشارك في مطاردة الشر ويمني نفسه بالطيبة وحسن الطوية ويتحمس في المطاردة على قدر ما تفتقر اليه نفسه من طيبة وحسن طوية . ولكن كاتب السيناريو عجز عن فصل الاوغاد عن الاخيار . فلو انه صور الفدائيين بالاجرام واكتفى بذلك ، لعجز عليه ان يفســر رغبــة الشبــان الاسرائيليين في مقابلتهم والتطلع الى التفاهم معهم. انهم اناس اصحاب قضية ، اذن ، فمن هم الاوغاد في هذه الحبكة البوليسية ؟

وحاول المخرج ان يعطي الفلم دراما واثارة مــن نوع جمس بوند ، ولكن موقفه الدعائي جعله يبخل على الفدائيين بالقدرة او الذكاء او القوة الضاربة.

فبينما تعزف الموسيقى ايقاع ضربات القلب النابضة بالهلع ، نرى ضابط الاستخبارات لا يجد ما يرويه من فعاليات الفدائيين غير أعمال صبيانية تافهة . وبدأ الفلم وانتهى دون أن يخر اسرائيلي واحــد برصاص العرب ، وباستثناء الشبــان الثوريين الاربعة الذين وقعوا ضحية سذاجتهم « السلمية » وعصوا نصائح آبائهم . رصاص الفدائيين لا يصيب غير الفدائيين ، وكلما دوت ابواق سيارات الشرطة مسرعة في الشوارع ، كلما رأيناها تهرع لانقاذ فدائي من فدائي اخر . سبحان الله !

ممولو الافلام الامريكية حريصون عادة على استعادة اموالهم ويشوهون جميع الحقائق والوقائع لضمان الاثارة الكافية لنجاح منتجاتهم . ولكنهم خرجوا عن ذلك عندما تعلق الامر باسرائيل ودعايتها . طبعا أنهم لم يقلعوا عن عادتهم في تشويه الحقائق ولكنهم شوهوها هذه المرة على حساب الاثارة الطبيعية والدراما الواقعية المنتظرة من فلم كهذا .

هذا طبعا هو تحليلنا العلمي والمنطقي للفلم . ولكن ألم نقل ان ذلك شيء وتفكير الرأي العام شيء آخر؟ الحقيقة العلمية والمنطقية الوحيدة هنا هي ان « اضبارة القدس » ما زال يعرض في سينما رتز في قلب لندن اربع مرات في اليــوم منذ شهــر ايار الماضي ، والايام سائرة على نهجها .

خالد القشطيني

رسالة من دمشق

المؤتمر الاول للاتحاد العام للمعلمين الفلسطينيين

عقد في دمشق من ٥ـ٨ آب ١٩٧٢ المؤتمر الوطني الاول للاتحاد العام للمعلمين الفلسطينيين ، وذلك بعد انقضاء ثلاث سنوات على تأسيس الاتحاد . فكان اعلن عن تشكيله في صيف عام ٦٩ واختيرت قيادة مؤقتة (امانة عامة) للاتصال بالمعلمين الفلسطينيين ، حيثما كانوا ، من اجل تأسيس فروع او روابط للاتحاد . فكانت فترة السنوات الثلاث الماضية بمثابة المرحلة التحضيرية او التأسيسية في تاريخ الاتحاد ، ولكنها كانت فترة صعبة حقا . لم تكن تلك الصعوبة ناجمة عن كون مرحلة التأسيس هي العادة من اصعب المراحل ، وانما بسبب الاوضاع الحرجة التي تعرضت لها المقاومة الفلسطينية منذ عام ٧٠ ، وبسبب الاوضاع الخاصة للمعلمين الفلسطينيين . فهم يتوزعون في عدد كبير من البلدان العربية تمتد من المغرب الى اليمن الجنوبية ، ويعملون في قطاعات مختلفة مثل الانروا ، والمدارس الرسمية ، والمدارس الخاصة، وما يعني ذلك من تباين في اوضاع العمل وفي قدرة المعلمين على التحرك . وبرغم ذلك فقد استطاع الاتحاد ان يحقق الكثير من الانجازات وعلى اكثر من مستوى . ولا بد في هذا المجال من الاشادة بجهود القيادة التي اشرفت على العمل وتحملت مسؤوليته في المرحلة السابقة . فهذه القيادة كانت عبارة عن ثلاثة عناصر متفرغة فقط ، امكانياتها المادية محدودة للغاية ، وكان عليها ان تحقق ثلاث مهمات رئيسية وضخمة — واستطاعت فعلا انجازها ، برغم ان تجربتها النقابية كانت شبه معدومة : (١) على الصعيد الذاتي كان عليها ان تقيم البنيان التنظيمي للاتحاد ، بما يتطلب ذلك من زيارة لمناطق عمل المعلمين ودراسة امكان تأسيس فروع فيها ، وان تحضر نظاما داخليا تسترشد به الفروع في عملها اليومي ، وان تشرف على الانتخابات القطرية لهذه الفروع ، وغير ذلك مما تتطلبه عملية البناء الداخلي في المراحل الاولى . (٢) وعلى الصعيد العربي كان على الامانة العامة ان تؤمن عضوية الاتحاد في اتحاد المعلمين العرب ، وتوثق علاقاتها مع نقابات المعلمين العربية ، وان تتابع عددا من قضايا المعلمين الفلسطينيين في بعض الدول العربية . (٣) وعلى الصعيد العالمي كان على الامانة العامة ان تثبت وجود الاتحاد كهيئة نقابية فلسطينية معترف بها دوليا . وبفضل النشاط الذي قامت به الامانة العامة اصبح اتحادنا عضوا في اتحاد المعلمين العرب ، وعضوا في الاتحاد العالمي للمعلمين (الفيز) ، وله علاقات وثيقة مع عدد كبير من النقابات التقدمية في العالم . لذلك يمكن القول ان الاتحاد قد تجاوز في ممارسته مستوى المرحلة التي عاشها ، اي انه حقق في هذه الفترة ما هو اكثر من مجرد التحضير .

فيما يتعلق بالمؤتمر ، بلغ عدد اعضائه ٤٨ عضوا حضر منهم ٤٠ عضوا ممثلين للفروع او الروابط التالية : المغرب ، الجزائر ، ليبيا ، مصر ، لبنان، سوريا ، العراق ، الكويت . كما حضر المؤتمر وفود تمثل منظمات ذات صفة دولية مثل اتحاد المعلمين العرب ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الاتحاد العالمي للمعلمين (الفيز) ، ووفود تمثل نقابات او اتحادات وطنية في سوريا ، مصر ، العراق ، الكويت ، لبنان ، تونس ، السودان ، الاتحاد السوفياتي ، كوريا ، كندا . وبالطبع قدمت نقابة المعلمين في الجمهورية العربية السورية جهودا خاصة لانجاح المؤتمر .

افتتح المؤتمر مساء السبت في ٨/٥ في مدرج جامعة دمشق حيث القي عدد من الكلمات مثل كلمة وزير التربية في الجمهورية السورية ، كلمة رئيس دائرة التنظيم الشعبي في منظمة التحرير ، كلمة حزب البعث ، كلمة جبهة التحرير الاريترية ، بالاضافة الى عدد من كلمات الوفود الاخرى . وفي اليوم التالي بدأت جلسات عمل المؤتمر حيث ناقش الاعضاء التقرير العام الذي قدمته الامانة العامة عن عملها في الفترة السابقة، وكذلك نوقش التقرير المالي . وبعد اقرار التقريرين توزع اعضاء المؤتمر الى خمس لجان هي : اللجنة السياسية والاعلامية ، اللجنة النقابية ، لجنة الشؤون التربوية والثقافية ، اللجنة المالية ، لجنة النظم واللوائح ، واستطاعت هذه اللجان ان تفرغ من عملها مساء الاثنين . والواقع انه لم يكن بمقدور هذه اللجان انجاز مهمتها والمتمثلة برسم سياسة ثابتة للاتحاد ، لولا توفر شعور كبير بالمسؤولية من قبل الاعضاء ، وايمان مخلص بضرورة نجاح المؤتمر ودفع الاتحاد الى الامام . وتجسد هذا الشعور في كافة جلسات المؤتمر ، اثناء مناقشة التقرير العام،

وخلال عمل اللجان ، وعند مناقشة التوصيات في الجلسة قبل الاخيرة . ولم يكن هذا النجاح في سير العمل ناتج عن قلة النقاش او حجبه او تمرير القضايا ، بقدر ما كان بفعل توفر الجدية في النقاش ، وفعالية الاعضاء ، وربما جاز القول ان رئاسة المؤتمر كانت ديمقراطية اكثر من اللازم بفسحها المجال امام جميع الاعضاء لمناقشة اية نقطة مهما طال وقتها ، حتى وان كان في ذلك بعض التكرار . وكذلك تجسد هذا الشعور بالمسؤولية اثناء عملية الانتخاب للامانة العامة الجديدةومجلس الاتحاد . فلم يشهد المؤتمر محادثات «الكواليس» ، ولم يطغ الجو الانتخابي على جو العمل ، كما هي العادة في المؤتمرات ، بل ساد الجميع جو من التفاهم والتعاون بحيث لم يكن بامكان اي مراقب ان يعرف ما اذا كان المؤتمرون ينتمون الى عدة تنظيمات سياسية ، وهو الواقع فعلا ، مما جعل نائب رئيس الاتحاد العالمي للمعلمين (الفيز) يشيد بهذه الوحدة وهذه الروح متمنيا ان تسود جميع فرق الثورة .

خرج المؤتمر بعدد من القرارات من اهمها : (١) **على الصعيد النقابي** : على المستوى الذاتي اكد المؤتمر على « ضرورة بذل اقصى الجهود من اجل تقوية البنية الذاتية في كل المجالات وعلى الاخص الناحية التنظيمية » ، كما قرر تشكيل صناديق للضمان الاجتماعي في كل الفروع ،وقرارات اخرى تتعلق بحماية المعلم الفلسطيني وتحسين وضعه ، ورفع المستوى النقابي للاتحاد . وعلى المستوى الفلسطيني اعتبر الاتحاد جزءا من الطبقة العاملة وقرر المؤتمر « مواصلة النضال من اجل اقامة التنظيم النقابي الفلسطيني الموحد في اطار منظمة التحرير » ، وعلى المستوى العربي والدولي حدد المؤتمر هوية الاتحاد بقراره « عدم التعاون مع الاتحاد العالمي الغربي ، وتوثيق صلته مع الاتحاد العالمي للمعلمين (الفيز) » الذي يضم النقابات التقدمية في العالم . (٢) **على الصعيد السياسي** : اكد المؤتمر « ان الثورة الفلسطينية ممثلة بمنظمة التحرير هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني » ، واعتبر الوحدة الوطنية « مطلبا مبدئيا واستراتيجيا ملحا » واعلن ادانته لاية منظمة لا تلتزم بتنفيذ ميثاق الوحدة الوطنية الذي اقره المؤتمر الشعبي في القاهرة بتاريخ ٧٢/٤/٦ . وعلى المستوى العربي اعلن المؤتمر تأييده لحركات التحرر العربية واستنكاره لسياسات القمع والتسلط التي تمارسها القوى الرجعية ، بدعم من الامبريالية ، ضد المناضلين العرب . وشجب بشدة مشروع حسين — سيسكو — الون المسمى بمشروع المملكة المتحدة ، وندد بسياسة القمع والارهاب التي يمارسها نظام حسين ضد جماهيرنا في الاردن وطالب المؤتمر كافة الدول العربية بفرض الحصار الشامل على هذا النظام العميل لاسقاطه، كما شجب المؤتمر كافة الحلول التصفوية والاستسلامية . وعلى المستوى الدولي اعتبر المؤتمر معركة الحرية كل لا يتجزأ ، وان الثورة الفلسطينية تقف مع حركات التحرير في خندق واحد لدحر الامبريالية بزعامة اميركا . (٣) **على الصعيد التربوي** : اكد المؤتمر على اهمية الدور الذي يمكن ان يلعبه المعلم في تنشئة الجيل تنشئة ثورية ، واعتبر نشر التربية الثورية مهمة رئيسية من مهماته ، وركز على اهمية نشاط المعلم خارج اوقات العمل لتنمية مواهب التلاميذ ، والتوسع في مشروعات رياض الاطفال ... الخ هذا الى جانب العديد من القرارات التي اذا استطاع الاتحاد انجازها فانه يحقق فعلا مبرر وجوده كاتحاد ثوري ينظم قطاعا شعبيا فلسطينيا من اجل تطوير المجتمع الفلسطيني والثورة الفلسطينية .

مرة أخرى ، لقد كان الجو الاخوى الذي ساد المؤتمر من ابرز صفاته ، مما جعل العلاقة بين الاعضاء لا تقتصر على مجال العمل وحده بل تتعداه الى اقامة علاقات شخصية جيدة ، فكان المؤتمر بذلك فعلا فرصة للقاء والحوار الايجابي وتقوية العلاقات بين المعلمين الفلسطينيين .

شحادة موسى

شــــهريات

(١) المقاومة الفلسطينية

بعد عملية مطار اللد الثانية (٣٠ أيار) وما تلاها من اعتداءات عنيفة على لبنان ، وبعد انفجار موضوع العلاقات اللبنانية الفدائية والتوصل الى اتفاقية تقضي بتجميد العمل العسكري مؤقتا ، واجهت حركة المقاومة سلسلة من الاحداث المتنوعة ذات الاهمية والدلالة ، بدت في الظاهر متباعدة جغرافيا ، ومختلفة نوعيا ، ولكنها كانت بالرغم من ذلك مشدودة الى بعضها البعض بكثير من الترابط .

وأبرز هذه الاحداث (من ١ تموز الى ١٠ آب) ، المحاكمات التي جرت في اسرائيل للفدائي الياباني كوزو اوكاموتو وللفدائيتين ريما طنوس وتيريــز هلسا ، ثم اقدام اسرائيل في نفس فترة المحاكمات على تنفيذ سلسلة من العمليات الارهابية في لبنان ضد قادة المقاومة والفكر الفلسطيني ، تلتها على الصعيد الفدائي عمليات ضرب للمصالح الامبريالية والاسرائيلية في اوربا ، ومحادثات سياسية هامة أجرتها المقاومة في موسكو . وسنحاول هنا تسجيل الملامح الاساسية لهذه الاحداث .

أ ــ المحاكمات الاسرائيلية :

بدأت صباح العاشر مــن تموز محاكمة الفدائي الياباني اوكاموتو ، وانتهت في ١٧ تموز بصدور حكم يقضي بسجنه مدى الحياة ، وتميزت هذه المحاكمة بمواصفات عديدة ملفتــة للنظر . فمنذ البداية رفض اوكاموتو الاعتراف ، وظل مصرا على رفضه محتفظا بأعصابه الهادئة ، حتى اوقعه احد المحققين (الجنرال زئيفي) بخدعة ، اعترف هو نفسه انها نجحت حيث فشلت كل وسائل التحقيق الاخرى ، مبينا قناعته بأن الاساليب التقليدية في التحقيق لا تنفع مع هذا النوع من الاشخاص . وكانت الخدعة تقوم على اساس ان يدلي اوكاموتو باعتراف كامل ، مقابل وعد بأن يسمح له بالانتحار بمسدس يقدم له . وقد حاولت الدعاية الاسرائيلية استغلال هذه الحادثة لتصور اوكاموتو بأنه مجرد رجل مهووس بالموت . ولكن مرافعته التي ألقيت في المحكمة (١٢ تموز) ابرزت تمتعه بوضوح فكري لافاق عمله ونتائجــه يتنافى مــع اتجاه الاعلام الاسرائيلي . ويظهر في هذه المرافعة ان اصرار اوكاموتو على الانتحار كان يجسد رغبته في الوصول الى مستوى عال من التضحية تجعله قادرا على تحمل كافة الضغوطات التي تعترضه . ففي مطلع مرافعته قال « كانوا يقولون لنا عندما كنا صغارا ، اننا سنتحول الى نجوم في السماء حين نموت . نحن الذين هاجمنا مطار اللد نريد ان نصبح ثلاثة نجوم في سماء الشرق . ان الثورة ستستمر وستظهر في السماء نجوم متعددة ، لكــن اذا ادركنا اننــا سنذهب الى السماء نفسها ونشع معا ، نستطيع حينذاك ان نعيش في اطمئنان وسلام » . أما في نهاية مرافعته فقد عاد وكرر قائلا « اذا نجحت الثورة العالمية فستمتلىء السماء بالنجوم » . ولا يدع هذا الكلام مجالا للشك بأن تفكير اوكاموتو بالموت ، ليس نابعا من الهوس ، بل من الاستعداد الفائق للتضحية ، ومن قناعته بأن الثورة العالمية التي يؤمن بها تستدعي تضحيات غالية .

ومن الملاحظات البارزة في المحاكمة محاولة محامي الدفاع الاسرائيلي الــذي عينته المحكمة اظهــار اوكاموتو على انه شخص مجنون لا يتمتع بكــامل قواه العقلية . فقد طلب في الجلسة الاولى (١٠ تموز) عرضه علــى اطباء اخصائيــين ، ولكن اوكاموتو رفض ذلك علنا وباصرار قائلا « لا اوافق على ان أفحص ، ولا اريد ان افحص » . وهــذا المجــرى في الدفاع عن اوكاموتــو يشوه قضيته السياسية التي كان يريدها من وراء عمله ، ويبرز تحيز محاميه الواضح ضده ، والذي تجلى بوضوح في الجلسة الختامية حين طالب بأن لا يصدر عليه

حكم بالاعدام قائلا « لا تجعلوا منه شهيداً . أن شعب اسرائيل مليء بالشفقة والرحمة . قولوا له انه برغم انك لا تستحق الحياة فانك ستمنح الحياة كهبة » .

لقد تمتع اوكاموتو منذ اعتقل بأعصاب هادئة جدا، ومثل حالة راقية من الصمود النفسي ، ودافع عن عمله في المحكمة بوضوح وحماس ، ولم يحاول في أية لحظة من اللحظات ان يستدر العطف ، أو أن يلجأ الى اساليب من شأنها تخفيف الحكم عليه .

وما ان انتهت محاكمة اوكاموتو حتى بدأت في ١ آب وفي المكان نفسه محاكمة الفدائيتين تيريز هلسا وريما طنوس اللتين شاركتا في عملية اللد الاولى التي تمت في شهر ايار الماضي . وعلى عكس موقف الفدائي الياباني ، كان موقف الفدائيتين هلسا وطنوس ، بعيدا عن الصمود النفسي اللازم لمواجهة المحاكمة . فقد اعترفت ريما طنوس بحمل الاسلحة والذخائر ، ولكنها قالت (حسب رواية رويتر) انها فعلت ذلك بضغط من الفدائيين . وذكرت صحف اسرائيل ان الدكتور حنا هلسا سيحضر من الاردن الى اسرائيل حاملا وثائق تثبت ان تيريز هلسا ايضا « اجبرت » على العمل لحساب الفدائيين .

وقد لوحظ ان المدعي العام الاسرائيلي قد استغل هذا الوضع النفسي للفدائيتين في محاولة منه لتشويه موقفهما ، وتشويه موقف العمل الفدائي بالتالي . وقد برز ذلك بوضوح كامل من خلال تركيزه على الحياة الخاصة للفدائية ريما طنوس .

ب — العمليات الارهابية :

ومع بداية المحاكمات الاسرائيلية ، كانت اجهزة المخابرات فيها تنفذ سلسلة من العمليات الارهابية ضد قادة المقاومة الفلسطينية المتواجدين في لبنان . وقد جاء تنفيذ هذه العمليات بعد الاعتداءات الاسرائيلية المتوالية على الحدود الجنوبية ، والتي كانت تهدف الى تشكيل ضغط واسع على الحكومة اللبنانية حتى تقوم من جانبها بالضغط على العمل الفدائي ومنعه من الانطلاق من الاراضي اللبنانية، وشكلت تكيملا للاعتداءات الاسرائيلية ، بحيث يمكن القول بأن المخطط الاسرائيلي يقوم على بندين هما: ١ — اعتداءات على الحدود اللبنانية للضغط على الحكومة ، ولاثارة سكان القرى ، بما يتعرضون له من مصاعب ، ضد الفدائيين . ٢ ترتيب عمليات نسف واغتيال لقادة المقاومة لخلق جو من الارهاب بين صفوفهم ، وللتخلص من عناصر فعالة يؤدي فقدانها الى ضعف البنية الداخلية للقيادات .

وقد لوحظ أن اسرائيل ركزت في عملياتها الارهابية على قادة المقاومة من جهة ، وعلى قادة الفكر والاعلام الفلسطينيين من جهة أخرى . مما يبرز اهتمامها بمواجهة الاقلام والمؤسسات التي أخذت على عاتقها مواجهة الدعاية الصهيونية ، وبلورة الاساس النظري لحركة المقاومة — وقد قامت اسرائيل تنفيذا لذلك بالعمليات الارهابية التالية :

١ — وضع المتفجرات في سيارة المناضل الشهيد غسان كنفاني الناطق الرسمي بلسان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، ورئيس تحرير مجلة « الهدف » . واستشهدت في الحادث ايضا ابنة شقيقته « لميس نجم » . (٨ تموز) . ٢ — ارسال طرد متفجر الى احد مسؤولي فتح المعروف باسم « ابو حسن » . وقد تم اكتشاف الطرد وتفجيره (١٧ تموز) . ٣ — توجيه رسالة متفجرة الى الدكتور انيس صايغ مدير عام مركز الابحاث الفلسطينية ، انفجرت به في مكتبه ، وأدت الى اصابته بجراح . (١٩ تموز) . ٤ — توجيه ثلاث رسائل متفجرة الى غسان كنفاني، وشفيق الحوت، ومروان دجاني ، تم اكتشافها واتلافها . (٢٠ تموز) . ٥ — ارسال لغم داخل كتاب الى بسام ابو شريف احد مسؤولي الجبهة الشعبية ، انفجر به في مكتب جريدة الهدف وأدى الى اصابته بجراح. وفي اليوم نفسه اكتشف طرد اخر من النوع نفسه مرسل الى صلاح صلاح ممثل الجبهة الشعبية في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير (٢٥ تموز) . ٦ — انفجار رسالة ملغومة بنائب مدير بنك الريف، مرسلة الى مسؤول فدائي لم يعرف اسمه ، بعد أن أعيدت الى عنوان البنك الذي استعمل اسمه للتضليل .

وقد تم اللجوء الى هذه الاساليب الارهابية بعد حملة مركزة في الصحافة الاسرائيلية على « الامن الشخصي لقادة المقاومة » وضرورة شعور المسؤولين الفدائيين بأنهم مهددون شخصيا ، رافقتها حملة مماثلة على مراكز البحث الفلسطينية، وعلى الدور الفكري الذي تلعبه . وكأن اسرائيل كانت تقصد من وراء هذه الحملة الاعلامية ، تهيئة الرأي العام في اسرائيل لتقبل الاعمال الارهابية التي ستنفذها . ومما يجدر ذكره انه ليست هذه

هي المرة الاولى التي تلجأ فيها اسرائيل الى تنفيذ مثل هذه الاساليب الارهابية . فقد سبق لها ان نفذت عملية مماثلة تماما ضد العلماء الالمان الذين كانوا يعملون في الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٦٣ . ولم تكن الطرود المتفجرة الاسلوب الوحيد الذي لجأت له آنذاك، بل لجأت ايضا الى أساليب الخطف والاغتيال ، لبعض العلماء ، ولابناء عائلاتهم ايضا . كما سبق لها ان أرسلت طردا متفجرا الى الضابط المسؤول عن الفدائيين الفلسطينيين في غزة عام ١٩٥٦ ادى الى استشهاده .

أما بالنسبة للتحقيق في هذه العمليات الارهابية ، فلم يتم الوصول بشأنه الى اية نتيجة حتى الان. ولكن البحث فيها أدى الى وضع اليد على عدد من شبكات التجسس الاسرائيلية ، بعكف التحقيق على معرفة مدى الارتباط بينها وبين الحوادث التي جرت . وتتوقع كافة الدوائر الفلسطينية ان تستمر اسرائيل في هذا النوع من العمليات الارهابية ، ولذلك عمدت كافة المنظمات الفدائية الى اتخاذ اجراءات أمن احتياطية مناسبة .

ج ـ العمليات الفدائية المضادة :

بعد استشهاد غسان كنفاني بثلاثة ايام ، وبعد بدء محاكمة الفدائي الياباني بيوم واحد ، قام الفدائيون الفلسطينيون بوضع عبوة ناسفة في المحطة المركزية للسيارات في قلب مدينة تل ابيب . واعلنت الشرطة الاسرائيلية ان ١١ شخصا اصيبوا بجراح ، وان أضرارا لحقت بالمحطة . وتم اعتقال ١٠٠ عربي للتحقيق معهم ، بينما اوقفت كل سيارات الركاب الكبيرة بين المدن واخضعت للتفتيش .

وفي الخامس من اب أعلنت منظمة أيلول الاسود مسؤوليتها عن نسف خزانات النفط في تريستا شمال شرقي ايطاليا . وأدت هذه العملية الى تدمير ٤ خزانات من مستودع ضخم للنفط ينقل الى المانيا الغربية . ووصفتها الشرطة الايطالية بأنها « عملية دبرت بمهارة وبعد دراسة دقيقة ووافية ». وقد قالت منظمة ايلول الاسود في بيانها ان هذه العملية استمرار لخط المنظمة « بتوجيه الضربات العنيفة الى اعداء الثورة الفلسطينية،...والمصالح الامبريالية المساعدة للصهيونية » ، بينما قالت وكالة « وفا » في نشرتها اليومية انه « لا بد من التركيز على المصالح الامبريالية وفي مقدمتها مصالح الولايات المتحدة في المنطقة العربية . فضرب المصالح لا بد أن يسير متوازيا مع تصعيد العمل القتالي الفدائي داخل الارض المحتلة » . وكانت منظمة أيلول الاسود قد نفذت قبل ذلك عمليات أخرى مماثلة منها نسف معملين للغاز الطبيعي في هولندا ، ونسف مصنع ينتج مولدات كهربائية لاسرائيل في مدينة هامبورغ بالمانيا الغربية .

وقد اتخذت على أثر ذلك اجراءات متعددة لمراقبة العرب المقيمين في اوروبا . ففي بون ذكر مسؤول في وزارة الخارجية ان تدابير اتخذت لتشديد الرقابة على العرب المقيمين في المانيا الغربية . وفي ايطاليا أخضع البوليس هويات نحو الفي طالب عربي للتدقيق . أما على الصعيد العربي فقد هاجمت كل من جريدة الرأي الاردنية وجريدة الاهرام المصرية عملية النسف . قالت جريدة الرأي « أية مصالح امبريالية ـ صهيونية تلك التي يتحدثون عنها ؟... وهل ايطاليا حقا دولة امبريالية ؟ » . وقالت جريدة الاهرام « ان على حركة المقاومة الفلسطينية ان تأخذ في الحساب ان مثل هذه الاعمال لن تؤثر على الاحتلال الاسرائيلي للاراضي العربية » .

وبعد عملية تريستا بيوم واحد (٦ آب) انفجرت سفينة شحن اسرائيلية وغرقت في البحر الادرياتيكي على بعد ٦٠ كيلومترا من تريستا . وربطت وكالة الانباء الفلسطينية بين انفجار السفينة وحرائق تريستا فقالت « لعل في نسف خزانات النفط في تريستا ، وانفجار الباخرة الاسرائيلية بات تيران الترجمة العملية لما اشرنا اليه دائما من ان الكفاح المسلح ... ينبغي ان يسير في خطوط متوازية وفي كل مكان داخل الارض المحتلة وخارجها » .

وفي الثامن من آب تم العثور على قنبلة قبل ان تنفجر أمام مكاتب شركة طيران العال الاسرائيلية في مدينة ستوكهولم .

وتبرز هذه العمليات نشاطا فدائيا ملحوظا باتجاهات ثلاثة : ١ ـ الاستمرار في العمليات الفدائية داخل اسرائيل . ٢ ـ ضرب المصالح الامبريالية ، والمصالح الاخرى التي تقدم خدمات لاسرائيل في الخارج . ٣ ـ ضرب المؤسسات الاسرائيلية في الخارج .

ويلاحظ أن هذه العمليات جاءت مباشرة بعد بدء المحاكمات في اسرائيل ، وبعد عمليات الارهاب في بيروت ، لتشكل نوعا من الرد عليها .

د ــ محادثات موسكو :

في الوقت الذي كانت فيه اسرائيل تواصل تنفيذ مخططهـا لمحاصرة حركة المقاومـة ، وصل الى موسكو في ١٧ تموز وفد فلسطيني برئاسة ياسر عرفات ، وأجرى محادثات أسفرت عن نتائج هامة سوف يكون لهـا تأثير كبير علـى مسيرة حركة المقاومـة ، اذا مـا عـرفت ان تستفيد منهـا . وعلاقـات حركة المقاومـة مـع الاتحاد السوفياتي علاقات قديمة تعود الى شباط ١٩٧٠ حين قام وفد فلسطيني لاول مرة بزيارتها بناء على دعوة من اللجنة السوفياتية للتضامن الاسيـوي الافريقي . وتمت محادثات اخـرى مماثلة في ٢٠ ت ١ ١٩٧١ . وفي كل جولة من هذه المحادثات كان موقف الاتحاد السوفياتي يرفع من درجـة دعمه لحركة المقاومة الفلسطينية . ففي المحادثات الاولى (شباط ١٩٧٠) أعلن الاتحاد السوفياتي موقـف الدعم لحركة المقاومة ، ولكن لم يصدر عن تلـك المحادثات بيان رسمي . وفي المحادثـات الثانية (ت ١ ١٩٧١) حافظ الاتحاد السوفياتي على نفس الموقف مع صدور بيان رسمي عن المحادثات أعلن فيه ان « الاوساط الاجتماعية السوفياتية تقف بحزم الى جانب حركة المقاومة الفلسطينية التي تشكل جزءا لا يتجزأ من حركة التحرر العربية » . أما في جولة المحادثات الثالثة (١٧ تموز ١٩٧٢) فقـد برزت اولا دلائل تشير الى أن الاتحاد السوفياتي أبلغ وفد حركة المقاومة انه سيرفع من مستـوى دعمه لها . كما صدر ثانيا عن المحادثات بيـان مشترك اكثر وضوحا واتصالا بمجريات الاحداث . وتم الاتفاق ثالثا على البحث في افتتاح مكتب لمنظمة التحرير الفلسطينية في موسكو . ويشكل تكامل هذه العناصر الثلاثة الروح الجديـدة للعلاقات بـين الطرفين .

ومن المفيد ان نلاحظ ان المحادثات قد تمت مباشرة بعد قـرار الرئيس السادات باخـراج الخبـراء السوفيات من مصر . ومن هنا كان هناك اهتمام واسع في اوساط المراقبين السياسيين ، لمعرفـة مدى تأثير الموقف المصري على علاقات الاتحـاد السوفيـاتي مع الحركـات الشعبية في المنطقـة العربية . ويبدو ان تأثير الخطوة المصرية علـى الموقف السوفياتي كان تأثيرا مباشرا ، وعبر عن نفسه برفع درجة التأييد لحركة المقاومة . فقد قالت المعلومات الصحفية ان رئيس الوفد السوفياتي قال في الجلسة الاولى للمحادثـات « ليس من بـاب المجاملة او المبالغة ان اقول لكم **اننـا نعتـرف بحركتكم على اعلى مستوى من الاعتراف** » ويمكن تلخيص أبرز ملامح هذه الجولـة من المحادثـات بالنقاط التالية : ١ ــ ارتفاع مستوى المشاركـة السوفياتي في المحادثات . فقد جرت المحادثـات بحضور بوناماريف وكوديانسيف عضوي اللجنـة المركزية للحزب الشيوعي ، بالرغم من ان الدعوة موجهة من قبل لجنة التضامـن . ٢ ــ اقـدام السوفيات على التحـدث بصراحة وشمول عـن موقفهم من الاحداث والمواقف العربية والفلسطينية. وهنا تقول المعلومات الصحفية ان الوفد السوفياتي طرح للنقاش مشروع الملـك حسين وأسلوب رد المقاومة عليه . كما طـرح موضوع الوضـع في الاردن ، والجهود المبذولة على صعيد الجبهـة الوطنية الفلسطينية ــ الاردنية . وبرز من خلال هذا النقاش اهتمام الاتحـاد السوفياتي بضرورة تعميق المضمون الاجتماعي لحركـة المقاومـة ، وبضرورة تحديد الفئات الاجتماعية التي تخاطبهـا المقاومة بشعاراتها في الاردن وفي الارض المحتلة ، حتى يصبح بالامكان مواجهة المخططات الاسرائيلية التي تستنـد الى اجـراءات اجتماعيـة تخـدم مصالحها . ٣ ــ ركز الاتحاد السوفياتي على انه سيبـذل جهوده للاتصال مع البلـدان الاشتراكية الشقيقة لينسق معها دعم حركة المقاومة . ٤ ــ أبدى الوفد السوفياتي اكثـر من مرة ارتياحـه لطبيعة تشكيل الوفد الفلسطيني ، الذي ضم كافة المنظمات الفدائية ، بعد ان تواجدت كلها داخـل اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير (فتح ــ الصاعقة ــ الشعبية ــ الديمقراطية ــ جبهـة التحريـر العربية) .

وحين صدر البيان المشترك برزت فيه روح هـذه النقاط التي نقلتها الاوساط الصحفية . فقد جـاء فيه اعتراف شبه رسمي بمنظمة التحرير الفلسطينية حين سجل ان الوفد الفلسطيني اعرب عن الامتنان لقاء المساعدة التي يقدمهـا الاتحاد السوفيـاتي « لمنظمة التحرير الفلسطينية المعبرة عن مصالـح الشعب العربي الفلسطيني » . وبرز فـي البيان تقارب سياسي حول مجريات الاحداث في الشرق الاوسط حين سجل البيان أن ممثلي منظمة التحرير اشاروا الى ان المحاولات التي تقوم بها الاوساط الامبريالية والرجعية للاخلال بالصداقة بين **قـوى** التحرر الوطني في العالم العربي وبين الاتحـاد

السوفيـــاتي وبقية البلـــدان الاشتراكية ، هي محاولات مناقضة لمصالــح الشعوب العربية » . اما على صعيد دعم حركة المقاومة فقد سجل البيان تأكيد ممثلي « اللجنـــة السوفياتية لتضامن بلدان اسيا وافريقيا أن **الشعب السوفياتي** سوف يواصل في المستقبل أيضا تقديم المساعدة الى حركة المقاومة الفلسطينية في نضالهـــا العـــادل ضد الامبريالية والرجعية والعدوان الاسرائيلي ، ومن اجل الحقوق الشرعيـــة للشعب الفلسطيني » . ويلاحظ هنـــا احتلاف ذو دلالة بين صيغة الدعم الواردة في هذا البيان ، وبين صيغة الدعم التي وردت في البيان المشترك الذي صدر بعد جولة المباحثات الثانية في العام الماضي . فبينما تؤكد هذه الصيغة علـــى الحديث باسم الشعب السوفياتي ، كانت الصيغة الماضية تتحدث عن الدعم باسم الاوساط الاجتماعية السوفياتية .

واذا كانت هذه الاشارات تبرز انتقالا في مستوى الدعم الذي يقدمه الاتحاد السوفياتي لحركة المقاومة الفلسطينية ، فان القدرة علـــى الاستفادة منـــه مرهونة بمقدار ما تستطيع حركة المقاومة ان تنجزه على صعيد توسيع نفوذها الجماهيري بشكل عام ، وداخل الاردن والاراضي المحتلة بشكل خـــاص ، اذ كلما تعمق نفوذ حركة المقاومـــة الجماهيري ، وكلما تعمقت نضالاتها السياسية والمسلحة، أصبحت المقاومة قادرة على الاستفادة من التأييد العالمي الذي تلقاه ، وتحويل هذا التأييد الى أسلحة فعالة في المعركة التي تخوضها . وحين يؤكد الاتحـــاد السوفياتي على المضمون الاجتماعي الذي يجب ان تتضمنه شعارات حركة المقاومة ، فهو انما يشير الى المرحلـــة الجديـــدة التي يدخلهـــا النضـــال الفلسطيني ، والتي أصبحـــت تختلف نوعيا عن المرحلة السابقة .

بلال الحسن

(٢) القضية الفلسطينية عربيا

ان التغيرات التي طرأت على مستوى العلاقة بين جمهورية مصر العربية والاتحاد السوفياتي ، وما تبع ذلك من تطورات في الساحة القومية على صعيد الاعلان عن قيام دولة الوحدة بين مصر وليبيا ، تحتم علينا ان نلقي بعض الضوء على خلفية علاقة الاتحاد السوفياتي بالقيادات الوطنيـة في العالم الثالث لما لذلك من علاقة مباشرة بالتحرك الثوري العربي بصورة اجماليـة ، وبالتحرك الثـوري الفلسطيني بصورة خاصة .

ان الاتحاد السوفياتي هو قوة الردع الاساسية تجاه التواجد الامبريالي الاميركـي . فالوجـود السوفياتي في منطقة البحر الابيض المتوسط هو تحييد للطاقة الهجومية التي يمثلها الوجود الامبريالي الاميركي في المنطقة بالنسبـة للاهداف المرحليـة المشروعة للثورة العربية المعاصرة . اي ان الاتحاد السوفياتي ، حين يتحالف مع القـوى العربية التقدمية ، يضع نفسه في موضع يتلاقى فيه مع اهداف الثورة العربية المرحلية. فالاتحاد السوفياتي ليس مجرد صديق ، بل هو بالضرورة حليف . لكن هذا التلاقي المستمر لا يعني بالضرورة التلاقي الدائم ، ولا يعني الارتباط العضوي نظرا للتباينات العقائدية القائمة أو المحتملة والتي يمكن ان تجعل المساندة في مستوى العلاقة الالية او العضوية . ومع ذلك فان التحالف مع الاتحاد السوفياتي يجب ان يكون مطلبا استراتيجيا للثورة العربية المعاصرة للاسباب الثلاثة التالية :

اولا — ان قدرة التحرك الثوري العربي على انجاز التغييرات المطلوبة في الواقع العربي وعلى ترجيح القوى العربية الذاتية عـلى الكيان الصهيوني الاسرائيلي في المنطقة ، ترتبط ارتباطا وثيقـا بالتحالف مع القوة الكبرى التي هي قادرة ، بحكم مصالحها واستراتيجيتها ، علـى احتواء قدرة الانقضاض الاميركي على اهداف الثورة العربية المرحلية والثابتة ، وبالتالي الغاء هذه القدرة .

ثانيا — ان التحالف العضوي بين الولايات المتحدة واسرائيل والقوى الرجعية العربية ، يشكل بحد ذاته قوة مادية قادرة على عرقلة مسيرة الثورة العربية المعاصرة اذا لم تتمكن هذه الثورة من ارساء معادلات جادة ومستديمة مع القوى العالمية المناهضة للامبريالية . **ثالثا** — ان هذا التحالف العربي مع الاتحاد السوفياتي ، يتمشى ويتوافق مع سياسة عدم الانحيـاز . فاللانحياز لا يعني موقفا وسطيا متساوي المسافـة بين الامبرياليـة الاميركية والمعسكر الاشتراكي المناهض للامبريالية، بل بالعكس ، ان سياسة عدم الانحيـاز تعني انحيازا للقوى التصحيحية الكامنة في كلا الكتلتين مع الادراك بأن احتمالات سلامة المنهج والسياسة العامة مرجحة بشكل حاسـم في كتلة المعسكـر الاشتراكي . وبالتالي ، وفي ظل عدم حدوث اي تعديل في المعادلة الاميركية — الاسرائيلية ، فان التعديل الذي يمكن ان يطرأ على المعادلة العربية — السوفياتية غير مبرر الا اذا كان باتجاه التماسك الاشد عضوية والاكثر كثافة .

هنا علينا ان ندرك بأن الاتحاد السوفياتي قد تخلى عن سياسة التزمت الستاليني التي اقتضتها ظروف التكوين الاشتراكي وظروف الحرب العالمية الثانية. وجد الاتحاد السوفياتي نفسه ، بنسب متفاوتة وفي مراحل مختلفة ، متجاوبا مع النظرات الاستقلالية والتطلعات التحررية التي ميزت سياسة اللانحياز في دول العالم الثالث الحديثة الاستقلال . وكان من جراء ذلك حدوث تلاق منتظـم بين الاتحـاد السوفياتي وبين الحركات التحررية الاصيلة في العالم . لكن هذا التلاقي لم يكـن بالضرورة ، وباستمرار ، خاليا من التوتر والاختلافات في وجهات النظر خاصة وان استقرار الاتحاد السوفياتي كدولة كبرى ذات مصالح استراتيجية كونية حتم عليـه سلوكا اتسم بتمازج بين المصالـح الاستراتيجية الكونية ومصالح الثورة العالمية المعاصرة . هذه الملامح المتوترة في اطار التحالف بين دول العالم الثالث المتحررة والاتحاد السوفياتي ، ادخلت الى العلاقات الدولية ، والى منطق الثورات المعاصرة تعديلات جذرية خاصة على المواقف الدوغمائية السابقة لكل من الاتحاد السوفيـاتي والحركات الثورية في العالم الثالث . هذا لا يعني ، بالطبع ، عدم استمرار المواقف المتزمتة للذين لم يتمكنوا من استيعاب وهضم التعديلات الجذرية التي طرات على المسرح العالمي وعلى موازين القـوى وعلى السلوك المذهبي للثورات المعاصرة . لقد نظـر الموقف المتزمت للاتحاد السوفياتي ايام ستالين ،

وابان حدة الاستقطاب بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة في عهد الحرب الباردة ، الى سياسة اللانحياز على انها « قوة احتياطية » للاستعمار وقطع طريق على الثورة الشيوعية . لكن سياسة اللانحياز استمرت في العالم الثالث واكدت انسلاخها التام عن اي انضواء في اطار الاحلاف العسكرية والاقتصادية التي انشأها الغرب ، فأثبتت بذلك مصداقية قدرتها على التصرف بمقدراتها بحرية كما حصل في مصر والهند وغيرهما من قوى العالم الثالث . وكان هذا مما حدا بالاتحاد السوفياتي لادراك حقيقة مفادها ان مناهضة الامبريالية الاميركية والرأسمالية الدولية ، يمكن ان تكون متعددة الاشكال والوسائل .

كان هذا الادراك انعكاسا لتطورات داخلية في الاتحاد السوفياتي تمثلت في استقرار مرحلة التأجج الثوري في مؤسسات ثورية ، وفي تحول المجتمع ، من خلال نجاح مؤسساته وزيادة قوة البنية الداخلية التي يتركب منها المجتمع السوفياتي ، نحو مزيد من الضمانات والحقوق للمواطنين السوفيات ولمطامحهم الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، ونحو مزيد من الثقة بالقدرة على مواجهة التحديات الامبريالية. لقد جعلت هذه الثقة القيادة السوفياتية تدخل مرحلة اكثر انفتاحا من مراحل التزمت التي تلازم عادة مراحل التأسيس . كان من جراء ذلك ان اخذ الحوار تدريجيا مكان البيانات المتبادلة ، ورغم ان الحوار لم يكن بالمستوى المكثف المطلوب دوما ، الا انه اخذ موقعه في العلاقات الجادة بين دول العالم الثالث والاتحاد السوفياتي . وهكذا بدأت العوامل التي تجمع ما بين دول عدم الانحياز والاتحاد السوفياتي تنشط وتكبت العوامل التي تفرق بينهما . واخذ الاتحاد السوفياتي يقدم ، بالاضافة الى دعمه الدبلوماسي المستمر ، للقضايا العربية وقضايا التحرر ، المساعدات الضخمة لتمكين المجتمعات الافريقية والاسيوية من بناء المؤسسات الصناعية ومؤسسات التمويل الاقتصادي والاجتماعي مثل سد اسوان وسد بكره ناغال في الهند .

وبينما كان الاتحاد السوفياتي يمعن في الانفتاح على العالم الثالث ، كانت الولايات المتحدة بقيادة دالاس وتوجيهه تمعن في المزيد من الانغلاق والتصلب والتشدد ازاء حركات التحرر في العالم . ومن هنا بدأت تتبلور معالم الامبريالية والاستعمار الجديد في السياسة الاميركية بالاعتراف الشكلي باستقلالات العالم الثالث ، وفي الوقت ذاته في العمل على تفريغ هذه الاستقلالات من مضامينها الاصيلة . ادى هذا الانغلاق والتشديد من جانب الولايات المتحدة ازاء مبادرات العالم الثالث ، الى مزيد من الابتعاد عن التعامل معها لانها كانت تسعى الى وراثة الاستعمار القديم والى تطويق الاتحاد السوفياتي بحزام من القواعد العسكرية ومناطق النفوذ السياسية والاستراتيجية . لهذا عمدت الى سياسة الاحلاف والى تفريغ العالم الثالث من القيادات السياسية الملتزمة بالابعاد السياسية والاقتصادية للتحرر الكامل ، بواسطة افتعال أزمات اقتصادية ، وترتيب انقلابات عسكرية ، وتشجيع القوى اليمينية والمحافظة بشتى الوسائل. كانت هذه الهجمة الامبريالية الاميركية على القيادات الوطنية المتحررة في العالم الثالث ، تدفع هذه القيادات الى المزيد من التعامل والتحالف مع الاتحاد السوفياتي ، الذي تحلل ، بدوره ، من الاجتهاد المتزمت السالف . وهكذا ، ومنذ الستينات ، وجدت قوى عدم الانحياز انها اصبحت بالضرورة اكثر انحيازا للمواقف السوفياتية لان الاتحاد السوفياتي ، بالمقابل ، وجد نفسه في موقف المتبني للمواقف المصيرية للدول غير المنحازة. هذا التوافق العام بين الاتحاد السوفياتي والقيادات الوطنية التحررية والتقدمية في دول العالم الثالث، هو الذي مكن هذه القيادات من الحفاظ على الانجازات الاستقلالية والتطورية والثورية امام الهجمات المتكررة للامبريالية الاميركية . هذا لا يعني ان الولايات المتحدة لم تتمكن من تحقيق انتصارات على المكاسب الوطنية والثورية التي حققها العالم الثالث ، بل بالعكس ، لقد شاهدنا مثلا في غانا وفي مالي وفي اندونيسيا وفي غيرها من مناطق العالم الثالث انتكاسات بل هزائم للمكاسب الوطنية والثورية فيها . ولقد تمكنت الولايات المتحدة ان تنفذ ، وأن تستعيد حيويتها في التحرك السياسي والاستراتيجي في المنطقة الاسيوية الافريقية ، والى حد اكبر في دول اميركا اللاتينية من جراء التباعد والانقسام الذي حصل داخل المعسكر الاشتراكي ، خاصة التناقض بين الاتحاد السوفياتي والصين . كان لهذا التناقض الذي برزت معالمه بحدة في منتصف الستينات أثر مباشر على علاقات الاتحاد السوفياتي مع العالم الثالث . فمن جهة لم يعد الاتحاد السوفياتي قادرا على الامعان في مساندة وتبني دول العالم الثالث الوطنية والمتحررة والتي لا يزال على رأسها قوى غير

منتسبة للاحزاب الشيوعية ، لان هذا كان يؤكد مصداقية الهجمة العقائدية الصينية على المواقف السوفياتية في العالم الثالث . ومن أبرز المآخذ الصينية على الاتحاد السوفياتي هو هذا المستوى المكثف من التعامل بينه وبين القيادات الوطنية التحررية في دول العالم الثالث لان الصين كانت تعتبر ان المساعدات الضخمة الاقتصادية والسياسية التي يقدمها الاتحاد السوفياتي لدول عدم الانحياز التي هي في احسن الاحتمالات انظمة بورجوازية وطنية ، انما هي مسحوبة من الحصة التي يجب على الاتحاد السوفياتي ان يعطيها للصين من اجل التعجيل في تقوية معالم القوة الذاتية للمجتمع الصيني الشيوعي . هذا بالاضافة الى التناقضات الجيوبولتيكية بين البلدين والتي تمثلت في الخلافات على الحدود وفي كون الصين الدولة الكبرى في الشرق الاقصى .

كان لا بد من ان تنسحب محصلة هذه التناقضات السلوكية والمذهبية بين الاتحاد السوفياتي والصين ، على العالم الثالث من حيث الدعامة الدولية لقدرة العالم الثالث على تجهيز ذاته وتقوية البنية الهيكلية في مجتمعاته لتتصدى للهجمات الامبريالية . أجل ، لقد ادخل الانقسام الذي حدث في المعسكر الاشتراكي العالم الثالث في متاهات مذهبية وسلوكية حرفته عن التوجه المكثف لمجابهة التحديات اليومية التي تطرحها قوى التخلف الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي والمؤسسي فيها . وهكذا نقصت فعالية المساعدات التي كان يقدمها الاتحاد السوفياتي رغم ازدياد كميتها بالنظر الى الانقسام داخل المعسكر الاشتراكي ، اي ان مردود المساعدات كان اقل مما كان يمكن ان يكون عليه ، لو ان الالتحام نجح في اعادة الوحدة في المعسكر المناهض للامبريالية . لذلك فان سياسة الانفتاح داخل المجتمع السوفياتي ، التي مكنته من اكتشاف فعالية القوى الوطنية المناهضة للامبريالية ادت الى اصطدامه مع القطاع الاشتراكي الاكبر في المعسكر الاشتراكي: الصين . هذا المأزق الذي وجد الاتحاد السوفياتي نفسه فيه ، كان مأزقا استراتيجيا ومأزقا مذهبيا . المأزق الاستراتيجي فرض على الاتحاد السوفياتي ان يعيد النظر في المدى الذي يمكن ان يبلور استعداده للتصادم مع الولايات المتحدة ، وبالتالي ان يكبح ويضبط اي تماد قد يؤدي الى ان يجد الاتحاد السوفياتي نفسه مجابها

التحديات على اكثر من جبهة . لذلك وجدنا الاتحاد السوفياتي في عدة مراحل يخضع مجابهاته الفرعية أو أية مجابهات فرعية الى مقتضيات المواجهة الاساسية الدائمة بينه وبين الولايات المتحدة . وكان هذا الحرص على استمرار ميزان القوى بين الدولتين العظميين ، حرصا شديد الارهاق ، حتى اعتقد الكثير من الثوريين ومن القوى المتحررة في العالم الثالث على الاخص ، بأن مقتضيات الاستراتيجية الكونية للاتحاد السوفياتي ، تغلبت بشكل نهائي وحاسم على الدور الثوري الذي كان منتظرا ان يلعبه الاتحاد السوفياتي . ولعل هذا الاستنتاج ، وان بدا منطقيا ، فانه ليس دقيقا ، لان الاتحاد السوفياتي لا يتعادل مع الولايات المتحدة بشكل آلي وفوري ، بل هناك في محصلة القوى تعادل او ما يقارب التعادل ، الا ان الاتحاد السوفياتي يتفوق في بعض الامور ، كما تتفوق الولايات المتحدة في أمور أخرى . الا أن محصلة القوة داخل الدولتين تؤدي الى ما يعتقد او اتفق عليه انه تعادل . ان احدى مكامن الضعف في المعسكر الاشتراكي هي ان الاتحاد السوفياتي في مجابهته للولايات المتحدة ، لا يجد نفسه منسقا في خطته واستراتيجيته مع القوة الثانية المجابهة للولايات المتحدة ، اي مع الصين ، وبفقدان التخطيط والتنسيق الملزمين ، بين الاتحاد السوفياتي والصين ، يدخل عنصر الضعف في مجمل اطار المواجهة السوفياتية الامريكية . هذا الاعتبار السوفياتي للعمق الاسيوي للمجابهة مع الولايات المتحدة يحتم على الاتحاد السوفياتي تكثيف قبضته على الدائرة الاوروبية لاستراتيجيته، مما يفسر موقفه من مظاهر التململ المذهبي والسياسي الذي ظهر في تشيكوسلوفاكيا بقيادة دوبتشيك وفي المجر قبلها وفي غيرها من التململات التي تجيء بين الحين والاخر في اطار اوروبا الشرقيه . من ناحية اخرى ، لم يكن الاتحاد السوفياتي قادرا باستمرار على تلبية كل ابعاد الثورة الوطنية والاجتماعية في العالم الثالث بالمستوى الذي كانت تتطلبه هذه القيادات بالنظر الى ان موازين القوى بينه وبين الولايات المتحدة فرضت على حرية حركته نوعا من تفضيل بعض البدائل على الاخرى وان كانت هذه البدائل من نفس النوعية والمعدن . لقد كشف الاتحاد السوفياتي ان له خطا استراتيجيا ثابتا وواضحا فيما يتعلق بمحالفاته مع القيادات الوطنية في العالم الثالث ولذلك فان القيادات الوطنية في العالم

الثالث مطالبة بدورها بأن تقيم بدقة المعاني والنتائج التي تتأتى وتستتبع المأزق الاستراتيجي والنظري الذي يجد الاتحاد السوفياتي نفسه فيه . اذ يجد نفسه في حالة تسابق أو تنافس على استقطاب القوى التغييرية والثورية في العالم الثالث التي هي مكريا ومذهبيا اكثر استعدادا لتقبل التفسير والاجتهاد الصينيين ، والتي هي من حيث مصالحها اليومية بحاجة ملحة ، متزايدة الالحاح الى المساندة السوفياتية .

يتراءى لنا أن هذا المأزق حقيقي ، الا انه يجب ان لا يؤدي بنا الى تقليص علاقاتنا مع المعسكر الاشتراكي بشقيه ، بل بالعكس علينا ، كما نجحت الثورة الفيتنامية ، بأن نؤكد هذا التراث الذي كوناه من جراء اتباعنا سياسة عدم الانحياز والممثل في استبقاء المبادرة الاستقلالية في ذواتنا ، حتى نكون نحن الذين نقرر حركتنا ومختلف التحركات التي نجنز لنا تعميق مفاهيم الثورة وديمومتها . سياسة اللانحياز تعني في هذا المضمار ، ان الثورة العربية والقيادات التقدمية الوطنية العربية ، منحازة الى قدرات وطاقات الالتحام بين الصين والاتحاد السوفياتي . ان الثورة العربية المعاصرة هي ساحة التقاء بين الاتحاد السوفياتي والصين ، هي احدى ادوات الالتحام بين كافة القوى المناهضة للامبريالية ، لذلك فان سياسة اللانحياز هي لا انحياز لعوامل التناقض وانحياز لقدرات الالتحام داخل المعسكر الاشتراكي . من هنا تاتي ضرورة الاقتداء بتجربة الثورة الفيتنامية وبصيغة العلاقات التي انشأتها مع قطبي المعسكر الاشتراكي ، اذا تمكنت من التحكم بقواتها الذاتية ، وأكدت وحدتها وتماسك قواها ، تمكنت من ان لا تكون في مواجهاتها مع الامبريالية ضحية من ضحايا المأزق ، بل أداة من ادوات الخروج منه . اذا ان اقرارنا بالنتائج السلبية المحتومة لهذا المأزق داخل المعسكر الاشتراكي وما يتيحه من تجديد فرص التحرك للامبريالية الامريكية ،يجب أن يدفع القوى الثورية والتقدمية في العالم الثالث نحو مزيد من التماسك والوحدة ، بدلا من التعبير عن التناقضات التي اوجدها المأزق داخل المعسكر الاشتراكي وفي المعسكر المناهض للامبريالية . اجل ان التعبئة المكثفة لهذه القوى الذاتية والتي تقوم على التركيز على ضرورة الوحدة العضوية بين القوى الثورية والوطنية والتقدمية ، تحد من فعالية النتائج السلبية من جهة وتدفع بالمحور الامريكي الاسرائيلي في مأزق ذاتي له .

من هنا تتراءى لنا اهمية التوجه الوحدوي الذي نشط في الآونة الاخيرة والذي ظهر في نمو تيار مصر على استكمال الوحدة ، على الاقل بين قطرين اي بين مصر وليبيا ، من حيث انه يشكل احدى أوجه التعبئة للقوى الذاتية في المنطقة ، يضاف الى ذلك ان مواجهة المصالح البترولية الامريكية في المنطقة العربية وتهديدها ، اذا كان مصداقا ، يشكل وجها ثانيا من أوجه التعبئة الذاتية وتقويضا للقوى المستفيدة من بقاء المصالح البترولية وأن عملية التأميم التي حصلت في بعض القطاعات البترولية في العراق والتي اثبتت صدق التهديدات المراقبة، هي وجه اخر من أوجه الاستفادة والتعبئة للقوى الذاتية العربية . أمام هذه الخطوات الايجابية نحو تعبئة القوى الذاتية لا بد من ان نحدد بعض المحاذير ، التي بدون ادراكها وتلافيها لا يمكن ان نحقق الاستفادة القصوى من هذه الخطوات :

المحذور الاول يجب ان لا تعني الخطوات الوحدوية تعويضا عن اي انتقاص من مستوى وضرورات تكثيف العلاقة بيننا وبين المعسكر الاشتراكي . بل بالعكس يجب ان تعني الخطوات الوحدوية مزيدا من هذه العلاقة والتنسيق ، لان تعبئة القوى العربية الذاتية من خلال ضرب المصالح الامريكية في المنطقة والمزيد من الخطوات الوحدوية ، يعني ان المساعدات السوفياتية والعلاقات مع الاتحاد السوفياتي تصبح اكثر جدوى واكثر فعالية .

المحذور الثاني ، أن الخطوات الوحدوية يجب ان يلازمها مشاركة فعالة على مستوى البحث الديموقراطي الثوري كي تجيء كل خطوة وحدوية، وهي مستوفية لشروط المشاركة الخلاقة للجماهير، وليست مشاركة افتعال حالات اجماعية للجماهير ، لان الجماهير العربية ملتزمة بالوحدة لكن هذا الالتزام بالوحدة لا يمكن ان يكون ملبيا لحاجات مواصلة الثورة الاجتماعية ومقتضياتها الا من خلال فهم واع بأن الوحدة تعني ثورة جذرية ، ليس فقط في معالم الحياة ، بل في نهج المشاركة، اي مشاركة الجماهير في صناعة الوحدة وليس فقط في تأييدها . نقول هذا لان معيار الالتزام صار ، في زحمة الاحداث ، معيار الولاء للسلطة . قد تكون السلطات العربية مالكة للحقائق اكثر من الكثيرين من المعلقين والملتزمين من الجماهير ، الا ان هذا لا يجعل السلطة مصدر الحقيقة . ومن هنا نعطى

السلطات ان تبيح الحقائــق وأن تأتي المشاركة الجماهيرية تبلور الحقائق الى حقيقة . فالولاء هو للثورة الوحدوية وليس للسلطات الوحدوية . من هنا لا بد أن تكون هناك مناقشات مستمرة للحقائق، لا بد ان يتحرر الجو العربي من الذعر الذي يقصي المفكرين الملتزمين عن المساهمة ، ولا بد ايضا ان ندرك أن الترديد حتى للقول الصحيح ليس بديــلا للتحليل . المشاركــة تعني انه يجب ان يسمــح للمخالفة ان تفعل فعلها في القرار ، لا ان يلجأ الى تخويف المخالفين وارهابهم والا تعطل العقل وكررنا في السبعينات اخطاء الخمسينات وانتكاساتهــا . نحن في مرحلة تقرير مصير . وتقرير المصير يعني مشاركة فعالة تجيز الخطأ في التعبير ولكنها لا تجيز الخطأ في القرار . والخطأ في القرار يمكن ان نحول دونه اذا اجزنا الخطأ في التعبير .

ان البحث في عمليــة المعادلة العربية السوفياتية اجمالا والمعادلة مع المعسكــر الاشتراكي الشامل يجب ان يأخذ بعين الاعتبار أن المعادلة الامريكية الاسرائيلية لم يطرأ عليها اي تعديل ، بالعكــس فان الولايات المتحــدة في مؤتمري القمة في بكــين وموسكو تمكنت من أن توجد لنفسها علاقات ثنائية مع هاتين الدولتــين ما يجعلها تفكــر بالتمــادي والاسترسال في تثبيت تواجدها وتقويتــه في منطقة الشرق الاوسط . هذا بدوره يحتم علينا ان نتذكر ان هذا التواجد الاميركي قد زاد من مساعداتــه العسكرية والمادية والاقتصادية لاسرائيل بمبلغ ٣٨٠ مليون دولار في الاعتمــادات الاخيرة التي كــانت مستثنــاة من التخفيض الــذي اصر عليه مجلس الشيوخ الاميركي . كما أن الولايات المتحدة قــد أوجدت لنفسها قواعد عسكرية جديدة في اليونان بتحالفها مع النظام العسكري هناك . وأن هــذه القاعدة الجديدة هناك هي من أجل تمكين حمايــة العدوانية الاسرائيلية لا فقط الكيان الاسرائيلي . يضاف الى ذلك تزايد الشراسة التركية ضد القوى اليسارية ومحاولات الضغط التي تقوم بها الولايات المتحــدة ومنظمة الحلــف الاطلسي على حكومة مكــاريوس الوطنية ، بالاضافــة الى المزيد مــن التسهيلات التي اعطتها ايطاليا للحلف الاطلسي ، والى أن ايران عززت تعاملها البترولي مع اسرائيل بالاضافة الى استيلائهــا على الجزر العــربية في الخليج العربي واقامتها قاعدة عسكرية في احداها، بالاضافة الى الاتفاق مع الحبشة ، كل هذا يشير الى ان الولايات المتحدة تعمل ، بالاضافة الى تمكين اسرائيل من تحدي الارادة الدولية ومن الاستمرار في توسعها وعدوانها على انشاء حزام لا لحماية اسرائيل وحسب ، بل لاجهاض الطاقات الثوريــة في الوطن العربي ايضا . هذا الهدف الاستراتيجي للامبرياليــة الامريكية يدفعنا الى ان نكون اشــد حرصا على عــدم التفريط بأي تواجــد للاتحــاد السوفياتي في المنطقة ، دون ان يعني هذا عــدم اخضاع استقلالية القرار العربي للارادة العربية. ولكن هذا المستوى من الارهاف والحساسية لموازين القوى في المنطقة وعلى المستوى العالمي يفــرض علينا ان يكون العامل الاساسي في تقييمنا هــو ، بالضرورة ، حــركة المحور الاسرائيلي الامريكي ومضمونه . هذا الذي يحدد ردود فعلنا مهما بلغت أوجه التناقضات الثانوية بيننا وبين حلفائنا من تحد واستفزازات . فاذا استمرينا في اضعاف مستوى العلاقات بيننا وبين المعسكر الاشتراكي ، عندئذ تتمكن الامبريالية الامريكية من أن تصيب الحركــات الثورية في احد مقاتلها . لذلك يصبح لزامــا علينا ان ندرك بأن اسرائيل قررت المزيــد من الترابط العضوي مــع الولايات المتحــدة ومع الامبريالية العالمية دون ان تتخلى عن مبادرتها الصهيونيــة التوسعية العدوانية ذاتها لان اسرائيل هي التي، بوعي لمصالحها ، ترتبط مع مراكز الثقل الامبريالي في العالم . ونحن بوعــي كامــل لمصالح الثورة العربية المعاصرة ومصلحة التحرير لا بد ان نعمق روابطنا مع معاقل ومصادر القوى للقطاع المناهض للامبريالية ، مع استبقائنا عــلى قدرة الحركــة واستقلاليتها وحرية القرار. لذا فان دراسة معمقة لسلوك العــدو بالاضافة الى اهدافــه الامنيــة والمرحلية والبعيدة المدى يجب ان تكــون دراســة تجعلها تحدد القيود التي لا يمكن لنا التفلت منها أذا نحن اردنا أن تكون مجابهاتنا فاعلة . هــذه القيود هي ليست مــن نوع الاسر على الطــاقة الاستقلالية العربية . بل هي ضوابط من شأنها ، اذا نحن مارسناهــا ، ان نفجر طاقــات القوى الذاتية في الواقع العربي . والثورة الفلسطينية هي اكثر القطاعات العربية المؤهلة في هذه المرحلة لان تكون بوصلة هذا التحرك الدولي للثورة العربية المعاصرة .

الدكتور كلوفيس مقصود

(٣) القضية الفلسطينية دوليا

بعد اشهر طويلة من الجمود الذي سيطر على النزاع العربي الاسرائيلي ، وخاصة على الصعيد الدولي ، وقع تطور دراماتيكي هام جدا وغير متوقع في العلاقات المصرية السوفياتية . لقد انفجرت الخلافات المكتومة بين البلدين مرة واحدة وظهر تدهور علاقاتهما للعيان عندما اعلن الرئيس السادات قراراته (١٨ تموز ١٩٧٢) بترحيل الخبراء والمستشارين السوفيات من مصر خلال عشرة ايام .

حتى النصف الاول من شهر تموز لم تكن هناك اية دلائل تشير الى ان ازمة من هذا النوع ستنفجر بين البلدين الصديقين على الرغم من الشعور العام لدى المراقبين بأن ثمة خلافات في وجهات النظر بين الرئيس السادات والقيادة السوفياتية . حتى الزيارة السريعة التي قام بها رئيس الوزراء المصري الى موسكو في منتصف شهر تموز حيث قابل زعيم الحزب الشيوعي السوفياتي بريجنيف (والتي تبين فيما بعد انها كانت حاسمة بالنسبة لانفجار الازمة) ، لم يظهر منها ما يشير بوضوح الى الاحداث الكبيرة اللاحقة . اذ ترددت حولها الانباء العادية التي تذكر مع كل زيارة تتم بين القيادات في القاهرة وموسكو . وكتبت عنها الصحافة السوفياتية الكلام المعهود حول « اجواء الصداقة التقليدية والتفاهم المتبادل » الذي يسود هذه الزيارات وحول انسجامها التام مع معاهدة الصداقة والتعاون بين البلدين . كانت المفاجأة الوحيدة ، التي ما كانت لتثير كبير اهتمام لولا انفجار الازمة بعد الزيارة مباشرة ، هي اختصار زيارة صدقي الى يوم واحد فقط بدلا من الايام الثلاثة التي كان متوقعا ان يمضيها في العاصمة السوفياتية . كذلك صدر بيان مشترك عن الزيارة، اعتيادي في محتواه وشدد كالعادة على علاقات الصداقة التقليدية بين البلدين والتعاون الشامل بينهما . الا ان بعض الملابسات الملفتة للانتباه رافقت صدور البيان المشترك ونشره وبما انها اكتسبت معان مهمة على ضوء الاحداث اللاحقة لا بد من الوقوف عندها بسرعة في هذا المقام .

عاد البيان المشترك في احدى فقراته الى ذكر مسألة كانت قد وردت لاول مرة في بيان عربي — سوفياتي عقب زيارة الرئيس السادات لموسكو في اواخر شهر نيسان الماضي وهي القول صراحة ان للدول العربية التي تعرضت للعدوان الحق الكامل في استخدام مختلف الوسائل لاسترداد الاراضي العربية التي اغتصبتها اسرائيل ، وهذا يعني الاقرار بحق العرب في اللجوء الى الحرب لحسم النزاع القائم مع اسرائيل . وكان المارشال غريشكو — وزير الدفاع السوفياتي — قد اكد هذا الحق في صيغة مشابهة اثناء زيارته لسوريا في شهر ايار الماضي . اما البيان المشترك الصادر عقب زيارة صدقي الاخيرة فقد اكد هذا الحق من جديد وبوضوح اكبر عندما ذكر : « ان الجانب السوفياتي يشاطر الجانب المصري والدول العربية الاخرى رأيها القائل انه في حال اصرار اسرائيل على رفض تسوية سياسية عادلة للنزاع في الشرق الاوسط على اساس قرار مجلس الامن (رقم ٢٤٢) فان للبلدان العربية الحق في استخدام كل الوسائل الموجودة تحت تصرفها لتحرير الاراضي العربية التي احتلتها اسرائيل عام ١٩٦٧ » . الا ان نص البيان المشترك الذي تم توزيعه ونشره في مصر اهمل هذه الفقرة المهمة والحيوية اهمالا كاملا ولاسباب تتعلق لا شك بالازمة التي كانت على وشك الانفجار بصورة علنية . اذ ان الاتحاد السوفياتي كان يرمي من وراء هذه الفقرة : (١) التأكيد على الحق العربي في استخدام كل الوسائل — بما فيها القتال — لتحرير الاراضي المحتلة ، (٢) القول ان القرار النهائي في ذلك هو بيد القيادة السياسية العربية وان الاتحاد السوفياتي لا يمكن ان يقف حائلا بينها وبين العمل العسكري اذا كانت تعتقد انها مستعدة له ، (٣) الرد على الاتهامات التي كثر تداولها مؤخرا حول رغبة الاتحاد السوفياتي في استمرار حالة اللاحرب واللاسلم القائمة في المنطقة وكونه هو احد الاطراف المستفيدة منها . ولا شك ان اغفال اجهزة الاعلام المصرية هذه الفقرة من البيان كانت تعبيرا عن قرب انفجار الازمة لان الرئيس السادات شدد عند اعلان قراراته الهامة وتفسير موجباتها على ان انهاء مهمة الخبراء والمستشارين السوفيات يفتح الطريق امام مصر للخروج من حالة اللاسلم واللاحرب التي لم تعد تطاق ، ملقيا بذلك المسؤولية (أو جزءا منها) في استمرار حالة الجمود في المنطقة على

القيادة السوفياتية .
خرجت الازمة المكتومة الى العلن على شكل قرارات اعلن عنها الرئيس السادات في ١٨ تموز تدعو الى وجوب مغادرة المستشارين والخبراء السوفييات الاراضي المصرية خلال عشرة ايام ، والى وضع كافة الانشاءات العسكرية السوفياتية على الاراضي المصرية تحت السيطرة المصرية واعتبارها « ملكا خالصا لجمهورية مصر العربية وتحت ادارة قواتها المسلحة » . أما المعدات العسكرية السوفياتية وغيرها من الاجهزة التابعة لهم فاما ان تباع لمصر او تنقل الى خارج البلاد ، ودعا الرئيس السادات الى اجتماع مصري سوفياتي لاجراء مشاورات حول المرحلة القادمة من العلاقات بين البلدين على ان « يعقد الاجتماع في القاهرة وليس في اي مكان اخر » . كما اعتبر ان مرحلة جديدة في تاريخ مصر قد بدأت . وفي ٦ اب اعلن الامين الاول للجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي ، سيد مرعي ، ان جميع الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات قد انسحبوا من مصر وانه لم يبق الا عدد محدود من المدربين الذين سيظلون لفترة محدودة فقط . وانعكس مستوى التدهور في العلاقات بين البلدين في النبأ الذي جاء من القاهرة ومفاده ان اسبوع الصداقة المصرية — السوفياتية الذي اقيم بمناسبة الذكرى العشرين لثورة ٢٣ يوليو قد اقتصر على المباريات الرياضية فقط . كما انعكس في قول السادات عند اجتماعه برجالات الاعلام في مصر « باننا ننتظر موسكو ، فان ردت ببادرة ايجابية فلسوف نبادلها الخطوة بعشرة ، اما ان جاء الرد سلبيا فسنكون مضطرين لمقابلة السيئة بسيئة مثلها » .

عند مراجعة التعليقات والخطابات التي القاها الرئيس السادات اثناء اعلان قراراته وبعدها ، ومراجعة مصادر المعلومات الاخرى تبرز امامنا عدة وقائع تتعلق بالعلاقات المصرية — السوفياتية وما آلت اليه وبتأثير ذلك على النزاع العربي الاسرائيلي وتوازن القوى في المنطقة .

أولا ، ان الخلافات بين القيادتين السوفياتية والمصرية كانت موجودة باستمرار خاصة منذ تسلم الرئيس السادات زمام السلطة ، ولكن كلا من الطرفين كان يتعمد اخفاءها حفاظا على المصلحة المشتركة ، كما ان البيانات المصرية — السوفياتية المشتركة الكثيرة التي صدرت في السنتين الاخيرتين (على اقل تعديل) وتصريحات الطرفين الرسمية والتعليقات الصحفية في العاصمتين كانت لا تعكس، ولو تلميحا ، واقع الحال بالنسبة لنقاط جوهرية مختلف عليها بين البلدين .

ثانيا ، ان نقطة الخلاف الجوهرية كانت تتعلق « بالتسليح ونوعيته وتوقيت وروده » . اي ان مصر كانت تشتكي من ان الاتحاد السوفياتي يماطل في تقديم الاسلحة الهجومية التي تحتاج اليها من اجل خوض معركة التحرير (طائرات ميغ ٢٣ وصواريخ ارض — ارض على ما يبدو) وانه في كثير من الاحيان كان لا يتم تسليم الاسلحة المتفق عليها في المواعيد المحددة لذلك . ويلخص الموقف المصري في هذا الموضوع بما ذكر السادات في خطابه بأنه قال للقيادة السوفياتية : « اعطونا السلاح وخليكو بعيد ... اعطونا السلاح ومالكوش دعوة » . (في حديثه مع رجال الاعلام ، ٢١ تموز ٧٢) .

اما وجهة النظر السوفياتية فيمكن استخلاصها واعادة تركيبها نسبيا من التلميحات التي قيلت ونشرت في مصر على اعلى المستويات ومن ردود الفعل الصحافية السوفياتية نفسها ومن المصادر الصحفية الموثوقة اكثر من غيرها ، ومن تعليقات الاوساط الدبلوماسية المطلعة (مثلا ، لقاء السيد كامل الاسعد ، رئيس مجلس النواب اللبناني ، مع القيادة السوفياتية مؤخرا) . ويمكننا تلخيص وجهة النظر السوفياتية على النحو التالي :
(أ) ان تجارب الاتحاد السوفياتي السابقة والحاضرة في تعامل الجيوش العربية مع السلاح السوفياتي ، وخاصة المتطور منه ، لا يمكن ان تشجع القبول ببساطة بفكرة مجرد تقديم السلاح لها وعدم متابعة الموضوع الى ابعد من ذلك . وهناك عدة تجارب تخطر في البال مثل طائرة الميغ ٢١ التي اختطفها عميل اسرائيلي من العراق قبل حرب حزيران ١٩٦٧ بفترة قصيرة ، وكانت اول طائرة من نوعها تقع بأيدي المعسكر الامبريالي ، ومعروف ان اطلاع اسرائيل وامريكا على الطائرة المسروقة قد ساعد العدو كثيرا في معارك حزيران. ومن الملاحظ بهذا الصدد ان الصحافة السوفياتية اخذت تشير الى الهزيمة التي مني بها سلاح الطيران المصري في ١٩٦٧ بينما كانت في السابق تتفادى الكلام عن هذا الموضوع . بالاضافة الى أسلحة حلف وارسو المتقدمة والمتطورة التي غنمتها اسرائيل في حرب ١٩٦٧ هناك حادثة الزعفران المشهورة حيث تمكنت قوات الكوماندوس الاسرائيلية

من الاستيلاء على جهاز كامل للرادار ونقله الى اسرائيل . ونتيجة لهذه الفضيحة العسكرية اقيل رئيس الاركان المصري يومها واعدم بعض الضباط المسؤولين . هناك ايضا تجربة حرب الاستنزاف التي لم يكن الاتحاد السوفياتي راض عنها ، بل تقبل بها مرغما باعتبارها وسيلة للضغط على اسرائيل والولايات المتحدة . الا ان نتائج هذه الحرب كانت مخيبة للامال ولم تكن بمستوى التوقعات اذ انتهت بقبول مشروع روجرز واتفاقية وقف اطلاق النار الامريكية وما اعقب ذلك من نتائج بالنسبة للحركة الوطنية عامة . واخيرا أمام الجميع تجربة الضباط الخمسة الكبار من هيئة اركان الحرب السورية الذين تمكنت اسرائيل من اختطافهم دفعة واحدة من لبنان . وبالتالي طلب سورية مساعدة الاتحاد السوفياتي لادخال التبديلات اللازمة في اوضاع القوات المسلحة بسبب ما يمكن ان تكون اسرائيل قد اكتشفته عنها من الضباط المختطفين .

(ب) اعتقاد القيادة السوفياتية بان شروط النصر غير مكتملة في مصر في الوقت الحاضر اذ ان المسألة لا تتلخص بمجرد الحصول على هذا النوع أو ذاك من الطائرات أو الصواريخ بل بما هو أهم أي متانة الجبهة الداخلية ومستوى التعبئة الشعبية المنظمة . لذلك نجد ان الصحافة السوفياتية شنت هجوما على القوى الرجعية العربية وخاصة في مصر قائلة : « لا يمكن التغاضي عن حقيقة وجود قوى رجعية يمينية في بلدان عربية عدة بينها مصر تعارض التحول الاشتراكي وتعمل على تصعيد نشاطها وتحاول تخريب الاصلاحات التقدمية وبالتالي تخريب الصداقة السوفياتية — العربية ».

ويبدو ان مسألة الجبهة الداخلية المصرية وضعفها قد أثرت كثيرا في الموقف السوفياتي الذي احتج عليه الرئيس السادات باعتبار ان القادة السوفيات يرون ان قرار الحرب لا يرتبط فقط بمدى استعداد الجنود على الجبهة فقط بل يتطلب ايضا اعادة تركيب الاوضاع الداخلية وترتيبها من جديد على اسس تتناسب تماما مع خطورة قرار الحرب وتحقيق الانتصار ، وانه ما لم تتخذ اجراءات جذرية من هذا النوع فان الحرب ستؤدي الى كارثة اخرى .

كما يرون ان تقديم الاسلحة الاكثر تطورا التي تطلبها مصر مرهون بتحولات داخلية من هذا النوع. يضاف الى ذلك ان تجربة عام الحسم ، الذي لم يعترف به السوفيات ، والاضطرابات الداخلية التي تلتها تعزز وجهة نظرهم حول الاوضاع الداخلية في البلد وترديها دون مستوى المطلوب وفقا لرأيهم . كل هذا واضح مما اصبح معروفا عن الرسالة التي وصلت السادات عن القيادة السوفياتية في الاسبوع الاول من تموز (والتي اتخذ قراراته على اثر الاطلاع عليها) والتي احتوت كلاما عن « شروط الحرب وطبيعة الاستعدادات النفسية والشعبية والاقتصادية الضرورية للنصر ».

(ج) ترى القيادة السوفياتية انه ليس هناك من فائدة في تسليم الاسلحة الاكثر تطورا قبل الاستيعاب الكامل للاسلحة التي تم تسليمها سابقا . وان الاسلحة المتوفرة للجيوش العربية هي بمستوى ، ان لم تكن افضل ، الاسلحة السوفياتية التي انتصرت بها الهند على حليفة اميركا الباكستان والتي استخدمها ثوار فيتنام في حملتهم الاخيرة ضد حكومة سايغون وقواتها علما بأن القوات الفيتنامية الثورية لا تملك اي غطاء جوي يذكر لمواجهة الطيران الامريكي الموجود بكثافة لا مثيل لها في تاريخ الحروب الحديثة .

ثالثا ، ان الاعتبارات التي ذكرت في مصر على اعلى المستويات في تفسير قرارات الرئيس السادات وتبريرها كانت تدور حول قضايا ذات طابع دولي مرتبطة جوهريا بالنزاع العربي الاسرائيلي ، وأهمها : رفض مصر لحالة اللاسلم واللاحرب المهيمنة على النزاع في المنطقة ، مؤتمر القمة الامريكي — السوفياتي الذي انعقد مؤخرا في موسكو حيث ترددت انباء ووردت تلميحات تفيد بأن اتفاقا تم بين الدولتين على عدم تصعيد ازمة الشرق الاوسط عن طريق شحن الاسلحة الى الطرفين المتنازعين ، وعدم ثقة القيادة السوفياتية بالقدرات القتالية الراهنة للجيش المصري . يضاف الى ذلك اللوم الشديد الذي وجهه الرئيس السادات الى الحكومة الامريكية في خطابه المطول الذي تلى اتخاذ القرارات حيث قال ان « موقف الولايات المتحدة هو اخطر مشكلة في ازمة الشرق الاوسط». ولخص خطورة هذا الموقف في التعهدات التي اعطتها اميركا لاسرائيل بمنع صدور اي قرار عن مجلس الامن يجبر اسرائيل على الانسحاب من الاراضي العربية المحتلة ، وبرفض كل تسوية لا تكون مستندة الى المفاوضات المباشرة بين طرفي النزاع ، وبالمحافظة دوما على التفوق العسكري الاسرائيلي . ويكون الرئيس السادات قد حمل اميركا بصورة من الصور مسؤولية استمرار حالة

اللاسلم واللاحرب والنتائج التي ترتبت عليها حتى الان . كذلك لا بد من الاشارة الى الضغوط الداخلية والخارجية المتصاعدة التي تعرض لها الرئيس السادات للقيام بعمل ما لتحريك الجمود المخيم على النزاع في المنطقة ولتهدئة قطاعات حساسة متململة في الداخل . وعلى ما يبدو كان مصدر هذه الضغوط الداخلية المستويات العليا من الجيش التي لم تكن مرتاحة لوجهة النظر السوفياتية التي مر ذكرها ، وقوى اخرى لم تكن مرتاحة للوجود السوفياتي في مصر اصلا وعبرت عن قلقها من خلال البيانات والتصريحات والعرائض مطالبة باعادة مصر الى « منطقة الامان » (اتجاه البغدادي — كمال الدين حسين) . أما الضغوط الخارجية فقد جاءت من عدة اطراف عربية معروفة بمواقفها العدائية الصريحة من الشيوعية والاتحاد السوفياتي ، يضاف الى ذلك الجو العربي العام الذي يوحي بالتقارب مع امريكا كما تم التعبير عنه في اعادة العلاقات الدبلوماسية بين الولايات المتحدة من جهة والسودان والجمهورية العربية اليمنية من جهة اخرى ، بالاضافة الى زيارة روجرز الاخيرة الى اليمن ومنطقة الخليج العربي . وهناك ضغط من نوع اخر جاء من طرف السعودية التي ترى مع امريكا بأن الوجود السوفياتي في مصر يشكل تهديدا لمصالح حكامها وللمصالح الامبريالية المرتبطة بها . ولم تكن المقابلة التي اجراها وزير الدفاع السعودي مع الرئيس السادات في الاسبوع الاول من تموز بعيدة عن هذا الواقع ، خاصة وان الوزير كان عائدا لتوه من زيارة سياسية لواشنطن وذكرت انباء موثوقة ان وزير الدفاع السعودي حمل معه رسالة امريكية الى الرئيس السادات فحواها التأكيد من جديد على ان مفتاح الحل لازمة النزاع العربي الاسرائيلي هو بيد امريكا وامريكا وحدها ، وانه ضمن الظروف الراهنة لا يمكن تقديم أي حل سوى مشروع التسوية الجزئية (اعادة فتح القناة وانسحاب اسرائيلي طفيف من على ضفتها) وان مشاغل الانتخابات لا تمنع الحكومة الامريكية من اتخاذ القرارات الملائمة بالنسبة لازمة الشرق الاوسط ووضعها موضع التنفيذ في الوقت المناسب . ومع ان الرسالة الامريكية ذكرت انه ضمن الظروف الراهنة (قبل اخراج المستشارين السوفيات) لا حل عند امريكا الا التسوية الجزئية هذا لا يعني انه سيكون لديها عروض بحلول افضل اذا تغيرت « الظروف الراهنة » باتجاه يرضي أمريكا ، (مثل خروج السوفيات) اذ المتوقع هو أن تصعد امريكا مطالبها مرة اخرى كما فعلت دوما في السابق بعد كل تنازل تقدم به الجانب العربي ظنا منه انه يقترب من تطبيق قرار مجلس الامن بتفسيره المصري — السوفياتي . وهذا يعطي اهمية لقول الرئيس السادات عن الامريكيين « أنهم اعتصروا التنازلات من رأسي واحدة بعد الاخرى دون أن يقدموا شيئا في المقابل» (في مقابلة مع « نيوزويك » شباط ١٩٧٢) رابعا، ان الانسحاب السوفياتي من مصر قد شمل بالاضافة الى المستشارين والخبراء العسكريين الملحقين بالقوات المسلحة المصرية ، الطائرات التي كان يقودها طيارون سوفيات (ميغ ٢٣) مع طياريها ، صواريخ سام — ٦ مع انشاءات الرادار التابعة لها ، فرق الصيانة، المدربون والمدرسون في الكليات الحربية، السرب الجوي التابع للاسطول السوفياتي في البحر الابيض المتوسط والذي كان يقوم بعمليات الاستطلاع فوق الاسطول السادس ، اجهزة ومعدات متنوعة . وقد ترددت انباء صحفية امريكية تقول ان مراقبة قطع الاسطول السادس في المتوسط من قبل الطائرات السوفياتية قد توقفت في الفترة الاخيرة . كما انه يبدو ان الانباء الصحفية الاولية التي ذكرت بأن الانسحاب السوفياتي لن يؤثر على مجالات التعاون القائم مع مصر في الدفاع الجوي والبحري غير صحيحة . من ناحية اخرى اكدت أعلى المراجع المصرية ان الاتحاد السوفياتي سيحتفظ بالتسهيلات البحرية المقدمة له في الموانىء المصرية ، الا ان الناطق الرسمي بأسم الحكومة المصرية (محمد حسن الزيات) اضاف في مؤتمر صحافي (٢٢ تموز) ان مثل هذه التسهيلات تقدم ايضا « لاية دولة تحتاج اليها بما فيها الولايات المتحدة » .

بعد اعلان قرارات الرئيس السادات الهامة ببضعة ايام عقد وزير الدولة للاعلام ، محمد حسن الزيات مؤتمرا صحافيا مهما (٢٢ تموز) شرح فيه الخطوط العريضة للسياسة الدولية التي ستتبعها مصر بالنسبة لمستقبل النزاع العربي الاسرائيلي بعد انهاء مهمة الخبراء السوفيات في البلاد . وتلخصت الصورة التي رسمها الزيات للسياسة المصرية المقبلة بالنقاط التالية :

(أ) اعتبار « خطوة الرئيس السادات الاخيرة وكل خطواتنا السابقة فرصا للتحرك بالشرق الاوسط نحو السلام » لان مصر ترفض استمرار حالة اللاحرب

واللاسلم و« تريد السلام فقط ، ولا تريد حلا يفرضه العسكريون في اسرائيل » كما انها لا تريد « مجرد مهلة في انتظار حرب جديدة » ، بل تريد سلاما عادلا « يحفظ الوحدة الاقليمية لدول الشرق الاوسط ويحترم حقوق شعب فلسطين » .

(ب) التعبير عن أمل مصر في « ان يستمر الاتحاد السوفياتي في تقديم الاسلحة وقطع الغيار للاسلحة الموجودة بالرغم من قرارات الرئيس السادات » .

(ج) الاعلان عن أن مصر ستحاول الحصول على ما يمكنها من الاسلحة من أية دولة والتعبير عن الرغبة المصرية « في اقامة علاقات طيبة مع كل الدول بما في ذلك الولايات المتحدة » . واضاف الزيات بهذا الصدد قائلا « اننا نود بالطبع الحصول على بعض طائرات الفانتوم نظرا الى انكم (مخاطبا المراسلين الامريكيين) سوف تعطون منها للدول « الصديقة » اي (اسرائيل) » ثم اكد « ان هذه ستكون سياستنا الدولية». وفيما يتعلق بامكانية الحصول على السلاح من فرنسا اعاد الزيات الى الاذهان ان الحظر الذي تفرضه الحكومة الفرنسية على شحن الاسلحة الى الدول المعنية مباشرة بالنزاع في الشرق الاوسط ما زال ساري المفعول . وكانت الخطوط العريضة لسياسة مصر الدولية احد المواضيع الهامة التي تطرق اليها الرئيس السادات في خطابه المطول الذي القاه بمناسبة الذكرى العشرين لثورة ٢٣ يوليو كما كانت الموضوع الرئيسي للمقابلة التي اجرتها معه مجلة « نيوزويك » الامريكية في عددها الصادر في اوائل آب بشن الرئيس السادات حملة عنيفة على الولايات المتحدة في خطابه واعتبرها مسؤولة عن استمرار أزمة الشرق الاوسط بسبب التعهدات التي قطعتها لاسرائيل بعرقلة اي اجراء دولي قد يجبرها على الانسحاب من الاراضي العربية المحتلة ، وبتزويدها بالاسلحة كي تكون دوما متفوقة على العرب وباصرارها على ضرورة المفاوضات المباشرة بين العرب واسرائيل. كذلك اتهم امريكا بتخريب محادثات الدول الاربع الكبرى لانها تريد اجبار العرب على التفاوض مباشرة مع اسرائيل . واكد الرئيس السادات انه بالرغم من الخلافات القائمة مع الاتحاد السوفياتي فان الولايات المتحدة لا تشكل البديل الذي ستتوجه اليه مصر مما يجعل معركة التحرير محتمة . وبالنسبة للاتحاد السوفياتي بين في خطابه انه طلب من القيادة السوفياتية اثناء زيارته لموسكو في شهر نيسان المنصرم (أي قبل القمة الامريكية ـ السوفياتية بحوالي شهر) بأنه يجب الا يكون هناك اي تحديد لشحن الاسلحة الى المنطقة قبل حل الازمة ، ويجب انهاء حالة اللاحرب واللاسلم ، كما ينبغي على الاتحاد السوفياتي ان يرفض اية محاولات امريكية للمساومة على الحدود العربية . كذلك ذكر السادات انه ابلغ القيادة في موسكو بأنه على الاتحاد السوفياتي الا يستمر في موقفه الحذر زيادة عن اللزوم لان مشكلة الشرق الاوسط لن تحل ابدا بهذه الطريقة . أما في مقابلته مع مجلة « نيوزويك » فقد أوضح الرئيس النقاط التالية : (أ) ان المصالح الامريكية ستصبح قريبا عاملا من عوامل المعركة من اجل استعادة اراضينا وان « خريفا حارا طويلا ينتظر هذه المصالح في الشرق الاوسط » . وتوعد السادات ، بهذا الصدد ، الرئيس نيكسون بأنه لن يكون بامكانه (أي نيكسون) « الاعتماد على فترة من الهدوء في هذه المنطقة خلال معركة الانتخابات ، لان مفاجأة جديدة تنتظره » لكن بالرغم من تهديد الرئيس السادات بمس المصالح الامريكية في الخريف المقبل فقد نفى ، في نفس المقابلة ، عزم العرب على التعرض للمصالح البترولية الغربية في منطقتنا . قال الرئيس السادات « ان المقاطعة النفطية محتملة لكنها مشكلة معقدة جدا . لسنا مستعجلين على فتح جبهة النفط ولسنا عصبيين ولا حاجة الى الهستيريا » . (ب) أكد ان مصر والاتحاد السوفياتي صديقان وليسا حليفين وان التسهيلات البحرية المقدمة للسوفييات في مصر ستستمر . (ج) كشف بأنه كان قد وعد وليم روجرز انه اذا قبل الاسرائيليون بادرته (اي السادات) لاعادة فتح قناة السويس « فان عهدا جديدا سينبثق ولا اعود في حاجة الى السوفيات في مواقع صواريخ سام » . كما اكد ان القيادة في مصر عملت « اكثر مما انتظره روجرز وجوزيف سيسكو عندما طرحت بادرتي للسلام ، حتى اننا رسمنا التفاصيل الصغرى للمشكلة كلها » . الا ان السادات أضاف ان هذه الخطوات لم تجد اية استجابة من الحكومة الامريكية التي « تراجعت عن كل كلمة قالتها » .

(د) اكد الرئيس من جديد انه عرض تنفيذ كل تعهدات حكومته بموجب قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ، « وهذا يعني الاعتراف بسلامة الاراضي الاسرائيلية واستقلالها السياسي . وهذا يعني ايضا حرية الملاحة . كما يعني كل شيء باستثناء

تبادل السفراء ، عندما يسلم الاسرائيليون للعرب الاراضي التي احتلوها في العام ١٩٦٧ » . وشدد الرئيس المصري قائــلا في المقابلــة نفسها « ان صراحتي كرجل سلام لا يمكن التشكيك بها . ليست لدينا اية اهداف عدوانية ضد اسرائيــل ... ان العالم كله يعرف انني رجل سلام وهذا ما اثبتته بادرة العام الماضي للوصول الى اتفاق سلام . الا ان الحكومة الاسرائيلية اقنعت شعبها بأني رجل حرب » .

فيما يتعلق بردود الفعل الدولية علــى قــرارات السادات لم يصدر اي تعليق رسمي عن الاتحــاد السوفياتي حتى الان ، وكانت التعليقات الصحفية هي رد الفعل الظاهر الوحيد هناك . اتصفت هذه التعليقات بالهدوء والرصانة في رغبة واضحة بعدم التهور في دفع تدهور العلاقات مع مصر الى ابعد مما وصلت اليه ، مع التشديد على اهمية الصداقة العربية السوفياتية لدعم الجهود الوطنية العربية لمواجهة العدوان الاسرائيلي والخطر الامبريالي في المنطقة ، هذا بالاضافة الى التذكير المتكرر بأهمية العون الاقتصادي والعسكــري السوفياتي لمصر وغيرها من الــدول العربية عبر العشريــن سنة الماضية وخاصة بعد حرب حزيران ١٩٦٧ . ومن الدلائل التي تشير الى الاهمية التي تعلقها القيادة السوفياتية على التطورات الاخيرة في مصر اجتماع القمة الذي عقده زعماء دول حلف فرصوفيا حيث بحثت ، بلا شك ، ازمة العلاقات الراهنة مــع مصر . وكان الاجتماع خطــوة واضحة من قبــل موسكو للتشاور مع حلفائها حول الازمة وامكانات تطورها المستقبلة وكيفية التعامل معها . اما رد الفعــل الامريكي المباشر فقــد اتصف بالارتيــاح الرسمي الواضح ، ولكن غير المعلن . وهنا علينا ان نفهم هذا الموقف من خلال كون اخراج الوجود السوفياتي من مصر مطلب امريكي رسمي قديم تم التعبير عنه في بيانات وتصريحات رسمية للرئيــس نيكسون ووليم روجرز وجوزيف سيسكو وهنــري كيسنغر . ومن اشهر هذه التصريحات المؤتمــر الصحافي الــذي طالب فيه كيسنغر « بطــرد » السوفيات من مصر (١٦ حزيران ١٩٧٠) . كذلك كشف الرئيس السادات في المقابلة المشار اليها مع « نيوزويك » ان روجرز وسيسكــو ناقشا معــه موضوع انهاء الوجود السوفياتي في مصر . وفي مطلع هذا العام قال نيكســون « ان الانتهاكــات السوفياتية في مصر كانت ذات تأثيرات خطيرة على استقرار ميزان القوى في منطقة الشرق الاوســط وفي العالم » . ومعروف ان هذا الموضوع كــان بشكل دوما مسألة هامة في اجتماعات المجلــس الوزاري للحلف الاطلسي . وفي الاجتماع الاخير للحلف المركزي الذي انعقد مع بداية هذا العــام هاجم وزير خارجية بريطانيا الوجود السوفياتي في الشرق الاوسط بشدة . بعد ذلــك ذكر البــلاغ المشترك الذي صدر عقب الاجتماع الــذي تم في برمــودا بين الرئيس نيكسون ورئيــس الــوزراء البريطــاني (ادوارد هيث) موضــوع الوجــود السوفياتي في الشرق الاوسط باعتباره عقبة في وجه التوصل الى تسوية سلمية في المنطقة . اما علــى صعيد التصريحات الرسمية الاميركية لم يقل الكثير حول قرارات السادات وما قيل وضع بصيغ متحفظة وغير استفزازية او شامتة . وعبر تصريح وزيــر الدفاع الامريكي (ميلفين ليرد) عن هذا الاتجاه بقوله ان الولايــات المتحــدة تراقب الانسحــاب السوفياتي من مصر « باهتمام شديد » وتأمل ان يستمر وقف اطلاق النار بين مصر واسرائيل كمــا انها « تأمل في ان تستطيع (اي اميركا) التحرك نحو حل في تلك المنطقة » . وبعد قرارات الرئيس السادات تكلم سيسكو امام لجنة تابعة للكونغرس الامريكي عن النزاع في الشرق الاوسط . وكــان أهم ما جاء في اقواله . اهماله الكامل لقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ وعدم الاتيان على ذكره ، تشديده على ان النزاع العربي الاسرائيلي لا يمكن تسويته الا بواسطــة مفاوضات مباشرة بــين الطرفين المعنيين ، وقولــه ان القرارات والتصريحــات الصادرة عن هيئة الامــم لا يمكن ان تؤدي الى تسوية النزاع . وعلى الصعيد غير الرسمي كتب المعلق الصحفي الامريكي سولزبرجــر معبرا عن خلاصة الموقف الامريكي من انفجار الازمة بين مصر والاتحاد السوفياتي (الهيرالد تريبيون ، ٢١ تموز ١٩٧٢) قائــلا انه اذا ما رحلت كل القــوات العسكرية السوفياتية من مصر وتبع ذلك تخفيض واضح في التسهيلات البحرية للاسطول السوفياتي فان اهمية الاجــراءات المصرية « ستكون حقــا عظيمة جدا » . كما ذكرت صحيفة « النيويورك تايمز » ان « من شأن القرار المصري ان يزيد من امكانات الوصــول الى تسوية للنزاع العــربي الاسرائيلي» . ودعت الرئيس السادات الى استئناف العلاقات الدبلوماسية مع امريكا . ولا شك ان نيكسون سيستفيد في حملته الانتخابية من الانسحاب

السوفياتي اذ سيقدم نفسه على انه صاحب السياسة المتصلبة التي ابعدت الاتحاد السوفياتي عن خطوط المواجهة مع اسرائيل .

في بريطانيا لم تصدر ايـة تعليقات رسمية على قرارات السادات الا ان الانباء ذكرت ان المسؤولين في وزارة الخارجية يراقبون بعناية بالغة تطورات الازمة مع الاتحاد السوفياتي و « المضاعفات العسكرية التي قد تترتب على قرارات السادات ». كما ذكرت ان الاوساط الدبلوماسية البريطانية تعتبر ان معاهدة الصداقة المصرية السوفياتية مجمدة حاليا وانها اصبحت الان موضع اعادة نظر خاصة بعد اعلان مشروع قيام وحدة كاملة بين مصر وليبيا . من جهة اخرى اعلنت مصادر مسؤولة في لندن ان بريطانيا مستعدة لدراسة اي طلب تتقدم به مصر لشراء الاسلحة بهدف استبدال جزء من المعدات الحربية السوفياتية ، كما عادت الى التذكير بما قاله وزير الدولة البريطاني (جوزيف غودبر) في ١٨ نيسان الماضي حول استعداد بلاده للنظر بعطف الى كل طلب جديد للحصول على السلاح من قبل الدول العربية شرط الا يؤدي ذلك الى تبديل ميزان القوى في الشرق الاوسط .

أما الاوساط السياسية الفرنسية المسؤولة فقد اعتبرت ان قرارات السادات قد « غيرت مسرح الشرق الاوسط تغييرا كبيرا وانزلت نكسة اكيدة بسياسة الاتحاد السوفياتي وقدمت نجاحا للرئيس نيكسون » . ونفت هذه الاوساط بصورة رسمية الانباء التي كانت قد ترددت حول امكانية حلول فرنسا محل الاتحاد السوفياتي في تزويد مصر بالسلاح مؤكدة ان سياسة فرنسا القائمة على حظر شحن الاسلحة الى البلدان المتورطة مباشرة في النزاع في الشرق الاوسط ما زالت سارية المفعول. وعلى الصعيد غير الرسمي علقت صحيفة «اللوموند» قائلة انه « اذا كان الرئيس السادات يتكل في الوصول الى تسوية سلمية عن طريق الولايات المتحدة فانه سيصطدم بانهماك السياسة الامريكية في الحملة الانتخابية وبعدم رغبة واشنطن في الضغط على اسرائيل » .

وكما هو متوقع نظرت الصين الى قرارات الرئيس السادات من زاوية الصراع الصيني السوفياتي فأبدت ارتياحا كبيرا لتدهور العلاقات المصرية السوفياتية . الا ان التعبير العلني عن هذا الارتياح جاء بعبارات عامة بدون ذكر الاتحاد السوفياتي بالاسم كما جاء في تعليق رئيس الوزراء شو ان لاي حيث قال بأن الصين مسرورة وهي ترى الشعوب العربية تقاوم « السيطرة والتدخل من قبل الدول الكبرى » .

على صعيد هيئة الامم المتحدة صرح فالدهايم ، اثناء زيارته لموسكو ، ان انسحاب الخبراء السوفييات من مصر لن يؤثر على مهمة السلام الدولية التي يقوم بها يارينغ لان الانسحاب هو قضية ثنائية تهم البلدين المعنيين بصورة رئيسية . وذكرت الانباء ان اوساط هيئة الامم تعتقد ان الخروج السوفياتي يقدم للولايات المتحدة فرصة لتحسين علاقاتها مع مصر وذلك عن طريق الضغط على اسرائيل للتوصل الى تسوية مع مصر تؤدي الى انسحاب جيش الاحتلال من سيناء . كما ترى هذه الاوساط ان الخروج السوفياتي قد يساعد الوسيط الدولي في انجاح مهمته ، وسيؤدي الى خفض في شحنات السلاح الامريكي الى اسرائيل وربما ادى الى قيام الولايات المتحدة بتقديم مبادرة جديدة لتسوية الازمة في الشرق الاوسط عن طريق احياء مشروع روجرز الذي قبلته مصر .

صادق جلال العظم

(٤) المناطق المحتلة

برزت على سطح الاحداث في المناطق المحتلة في الآونة الاخيرة عدة موضوعات ، تتمثل في تحرك الزعامة التقليدية التي يتذبذب ولاؤها بين السلطتين الاردنية والاسرائيلية ، وبلغ تحركها اوجه في توجه وفود منها الى البلاط الهاشمي للتعزية بوفاة الملك طلال ، وتحرك ما يعرف بالزعامة الشابة في الضفة الغربية ، وبلغ تحركها ذروته في المطالبة باقامة حزب يدعو الى كيان فلسطيني ، وتحرك سلطات الاحتلال ، وبلغ هذا التحرك حد الاعمال النازية بقيام سلطات الاحتلال بشن حرب بيولوجية ضد مزارع قرية عقربة العربية .

اتسمت هذه الفترة بتقارب اكثر بين السلطتين الاردنية والاسرائيلية ، وبين السلطة الاردنية والوجاهة التقليدية ، ويتمثل التقارب بين السلطتين في : ١ — المزيد من التعاون على جانبي الجسور المفتوحة بين الضفتين ، فقد وصل الى المناطق المحتلة حتى مطلع شهر اب ١٢٠ الف زائر من الدول العربية في نطاق برنامج زيارات الصيف الذي سينتهي عند منتصف شهر اكتوبر من هذا العام ، وتقدر سلطات الاحتلال ان يصل العدد النهائي خلال تلك الفترة الى ١٦٠ الف زائر ، ومن الجدير بالذكر ان عدد الزوار خلال العام الماضي قد بلغ حوالي مئة الف . ٢ — موافقة الحكومة الاردنية على دخول السياح الاجانب من اسرائيل الى الاردن عن طريق جسر اللنبي والعودة من الطريق نفسها ، وذلك للمرة الاولى منذ حرب عام ١٩٤٨ ، بواسطة احدى شركات السياحة والسفر الاسرائيلية التي ستقوم بتنظيم رحلات للسياح الذين سيزورون كلا من عمان وجرش والبتراء والعقبة . ٣ — قيام سكرتير اللجنة التنفيذية للاتحاد الوطني في عمان المدعو محمود سعيد بزيارة للضفة الغربية في اواخر شهر حزيران استغرقت عشرة ايام ، اجتمع خلالها بالزعامة التقليدية ومن بينها رئيس بلدية الخليل ، وصرح بانه « اعجب كثيرا بما شاهده من تطور وتقدم في المدن التي زارها » وانه سيزور الضفة في شهر اكتوبر القادم .

الى جانب ذلك اخذت وسائل الاعلام الاسرائيلية ووكالات الانباء تتناقل انباء عن توصل السلطات الاردنية والاسرائيلية الى نوع من الاتفاق الجنتلماني شبيه باتفاق الجسور المفتوحة ، يفتح بموجبه ميناء غزة امام الصادرات والواردات الاردنية دون اتفاق رسمي ، وعن توجيه النظام الاردني دعوات الى عدد من الشخصيات والصحفيين في الضفة الغربية الى زيارة الاردن . الا ان وزير الاعلام الاردني الرائد عدنان ابو عوده قد كذب هذه الانباء بالرغم من ان بعض الصحفيين من ابناء الضفة قد اكد صحتها مدعين بانهم تلقوا دعوات من السلطات الاردنية .

اما السلطات الاسرائيلية فقد انهمكت خلال الاونة الاخيرة في متابعة سياستها الرامية الى تكريس الاحتلال في محاولة منها لاضفاء صفة الشرعية عليه . ففي اعقاب مهزلة الانتخابات التي فرضتها على الضفة الغربية قامت سلطات الاحتلال بفرض الانتخابات على موظفي بلدية القدس ومستخدميها العرب ضمن الانتخابات القطرية لنقابة الموظفين العامة ولنقابة عمال البلديات في اسرائيل ، باعتبار ان سكان مدينة القدس العربية مواطنون اسرائيليون . وقد جرت الانتخابات بالفعل في ٧٢/٦/٢٧ وبلغ عدد اصحاب حق الاقتراع العرب في القدس حوالي الف شخص يعمل ٨٠٠ منهم في بلدية المدينة ، وقد بلغت نسبة الاشتراك في الانتخابات حوالي ٨٠٪ نجح فيها كل من ابراهيم الدجاني وحسن الرشيد .

وتعتزم سلطات الاحتلال الحاق هذا الاجراء باجراء اخر تفرض بموجبه الانتخابات للغرف التجارية في الضفة الغربية ، حيث اصبح من المقرر اجراء الانتخابات في شهر اب . وكانت اخر انتخابات للغرف التجارية شهدتها الضفة الغربية قد جرت عام ١٩٦٥ ، ومن الجدير بالذكر ان هذه الانتخابات ستجري وفق القانون الاردني رقم ٥٨ لعام ١٩٦١ الخاص بالغرف التجارية ، ويشترط القانون ان لا يقل عمر المرشح عن ٣٠ عاما وان يكون مقيما اقامة دائمة في المدينة التي ستجري فيها الانتخابات وان يدفع رسم ترشيح بمبلغ عشرة دنانير وان يكون منتسبا للغرفة التجارية ومسددا اشتراكاته لمدة ثلاث سنوات متتالية . اما فيما يتعلق بالشركات فلا يحق لها الادلاء بأكثر من صوت واحد ويجب على العضو الذي يدلي بصوته ان يكون حائزا على تفويض من الشركة نفسها . ومن الجدير بالذكر

ان المهيمنين على الغرف التجارية في الضفة يؤيدون دعوة سلطات الاحتلال لاجراء الانتخابات ، كما ان السلطات الاردنية التزمت الصمت حيال الموضوع، بالرغم من انه يعتبر امتدادا للاجراءات الاسرائيلية الرامية الى تكريس الاحتلال واضفاء صفة الشرعية عليه .

ومن ناحية اخرى حدثت في الاونة الاخيرة قفزة في التقارب بين الزعامة التقليدية والنظام الاردني ، ومن اوجه هذا التقارب :

١ — قيام النظام الاردني بدفع رواتب الموظفين في الضفة بعـد قطيعة استمـرت خمسة شهـور . ٢ — قيام رئيس بلدية غزة رشاد الشوا المعروف بولائه للاسرة الهاشمية بزيارة عمان واجتماعـه بالملك حسين ، وخروجه من هناك باتفاق مع الملك ينص على المساواة في المعاملة بين ابناء قطاع غزة وابناء الضفة الغربية ، وقد اصدر الملك تعليمات بهذا الشأن ، وفي مقابل ذلك ، يبدو ان الشوا قد قبل المشروع الملكي بشأن اقامة المملكة العـربية المتحدة ، ويشتم ذلك من قول الشوا في كلمة القاها في مخيم للاجئين من ابناء القطاع في الاردن : « نرى لزاما علينا ان تجتمع ارادة سكان المناطق المحتلة على **ربط قطاع غزة بالضفة الغربية** وان لا نترك لاسرائيل فرصة ابتلاع القطاع » . ٣ — دعـوة رئيس بلدية الخليل محمـد الجعبري الى تعيـين مبعوث عربي فلسطيني من ابناء الضفة للتوسـط بين اسرائيل والنظام الاردني والدول العربية ذلك « لان الشعـب في الضفـة الغربية يتطلع الـى الاستقرار ، ولا يمكن التوصل الى ذلك الا عن طريق المفاوضات المباشرة بين اسرائيل والـدول العربية » .

ومن بين الاسماء التي اقترحها الجعبري للقيام بهذه المهمة عدة شخصيات من بينها انور الخطيب محافظ القدس سابقا وحكمت المصري رئيس مجلس النواب الاردني سابقا والمحامي عزيز شحادة ، وقد رفض الاخيران دعوة الجعبري ، اما انور الخطيب فعقب قائلا ان هذه المهمة فوق طاقتي وانني اتطلع بـأن ارى النزاع العربي الاسرائيلي قـد حل « ولي الشرف الكبير بأن يكون لي نصيب في ايجاد الحل العادل لهذا النزاع بالتوسط بين الاطراف المعنية». وبالرغم من تحفظ الخطيب على دعوة الجعبري فان الدلائل تشير الى ان الخطيب قد قبـل الدعوة ، حيث علم انه قام بزيارة في الآونة الاخيرة الـى عمان ، وتعتبر هذه الزيارة الاولى للضفة الشرقية منذ حرب حزيران ، وكان في استقباله عند اجتيازه جسر اللنبي عدد من الرسميين الاردنيين !

وقد قام النظام الاردني من ناحيته بتوجيه دعـوة الى الجعبري لزيارة عمان الا ان رئيس بلديـة الخليل الذي كان في السابق قد وجه انتقـادات لاذعة للنظام الاردني من خلال ارتمائه في احضان سلطات الاحتـلال قد رفـض الدعوة « لاسباب صحية » . ٤ — توجه معظم رؤساء البلديـات ووجهاء الضفة بما يشبه مهرجانـات الولاء التي كان هؤلاء يقومون بها قبل حرب حزيران ، الـى عمان وعلى رأسهم الحاج معزوز المصري رئيس بلدية نابلس وحكمت المصري رئيس مجلس النواب الاردني سابقا وعدد من الاعيان والنواب ورؤساء الغرف التجارية الى البلاط الهاشمي في عمـان لتقديم التعازي الى الملك حسين بوفاة ابيه الملك طلال وذلك « نظـرا للخسارة الفادحة التي حلت بالامة العربية بوفاة المغفور له جلالة الملك طلال بن عبد الله » كما جاء على لسان الناطق باسـم الغرفة التجارية لمدينة نابلس .

لقد كان موت الملك طلال مناسبة للثالوث المسيطر في الضفة الغربية ، سلطات الاحتلال والنظـام الاردني والزعامة التقليدية ، للتحرك في خط واحد لتسوية النزاع اي تصفية القضية الفلسطينية ضمن اطار عام يصون الاطمـاع التوسعية الاسرائيلية ويحمي شهوات العرش الملكي في السيطرة ولـو اسميا ويذكي تطلعات الزعامة التقليدية التي تتسم مواقفها بالتذبذب الشديد والتملق المارق . لم تكن الاطراف الثلاثة منسجمة مع نفسها حيال موت الملك طلال ، ولم يكن حزنها صادقا ، فصحيفة «الانباء» الاسرائيلية التي تنطق باسم سلطات الاحتلال فتحت صفحاتها للتعزية بوفاة « المغفور له جلالة الملك » والزعامة التقليدية هرعت الى القصور الملكية في عمان للتعزية « بالمصاب الاليم » مع انها تـدرك جيدا ان الاشادة بطلال او حتى مجـرد الحديث العادي عنه وهو على قيد الحياة يعتبر من المحرمات في عمان ، والبلاط الملكي اعلن الحداد ، مع ان هذا البلاط كان محرما دخوله على « فقيد الامـة العربيـة ... » الذي طرد من الاردن في مطلع الخمسينات واودع المستشفيات العقلية خـارج الاردن الى ان وافته المنية . وفي خلال هذا التقارب انهمك رئيس بلدية نابلس معزوز المصري في مصالحه

الخاصة »، وخطا خطوة تشير الى استحالة قيام جبهة وطنية في الضفة تكون الزعامة التقليدية احد اطرافها ، وتتمثل هذه الخطوة في قيام معزوز المصري باقالة ٤٠ عاملا من بين ٢٠٠ عامل يعملون في مصنع الزيوت التابع له ، بحجة ان هؤلاء العمال بدأوا باضراب لزيادة أجورهم . ولا يحتاج المرء الى اجهاد فكره لمعرفة المكان الذي سيتوجه اليه العمال المفصولون ، لان امامهم طريقا واحدا ... المصانع الاسرائيلية .

الدعوة لاقامة حزب في الضفة : الى جانب تحركات الثالوث المسيطر في الضفة تحركت فئة صغيرة في القدس والضفة الغربية ، تطلق عليها وسائل الاعلام الاسرائيلية اسم « المثقفين الشباب » لتأسيس حزب في الضفة الغربية . وقد ولدت هذه الفئة الصغيرة في احضان الاحتلال لتكون بمثابة احتياطي يمكن ان يستخدمها في الوقت الذي يشاء، وكورقة ضغط موجهة ضد النظام الاردني من ناحية والزعامة التقليدية من ناحية اخرى .

يقف على رأس هذه الفئة الصغيرة محمد ابو شلباية صاحب كتاب « لا سلام بغير دولة فلسطينية حرة » ومن بين اعضائها محرر صحيفة « الفجر » الاسبوعية جميل حمد ويوسف ناصر وابراهيم دعيبس وسليم خوري . تدعو هذه الفئة الى فكرة اقامة دولة فلسطينية في المناطق الفلسطينية المحتلة . وقد اخذت تنشط في الآونة الاخيرة بعد التقارب الذي حدث بين الزعامة التقليدية والنظام الاردني وفي اعقاب صدور الكتاب الثاني لمحمد ابو شلباية الذي يحمل اسم « الطريق الى الخلاص والحرية والسلام » الذي طالب فيه بـ «ضرورة اقامة دولتين حرتين مستقلتين فيفلسطين، واحدة للفلسطينيين والاخرى للاسرائيليين والذي يقودنا الى ضرورة ان تكون الخطوة العملية الوحيدة لتحقيق ذلك هو وضع المناطق الفلسطينية المحتلة بعد حرب حزيران تحت اشراف الامم المتحدة لكي يتمكن الفلسطينيون من المجيء الى دولتهم والحصول على هويات فلسطينية ، واجراء استفتاء ولانتخابات برلمان ينتخب بدوره لجنة تنفيذية ، تجري مفاوضات مع اسرائيل باشراف الامم المتحدة للاتفاق على جميع القضايا التفصيلية ... ان قيام هذه الدولة يعني سلاما بين الفلسطينيين والاسرائيليين، ويعني في نفس الوقت سلاما مع الدول العربية ، لان مشكلة مصر وسوريا ولبنان والبلدان العربية الاخرى مع اسرائيل نابعة من مشكلة الفلسطينيين والاسرائيليين واذا حلت المشكلة بين الفلسطينيين والاسرائيليين حلت في نفس الوقت المشكلة بين الاسرائيليين ومصر وسوريا ولبنان وغيرها من الدول العربية » . ومن اجل تحقيق ذلك تقدمت هذه المجموعة بطلب الى وزير الدفاع موشيه ديان للسماح لها باقامة حزب في الضفة « لقد بعثنا برسالة الى ديان وطلبنا مقابلته ، اننا نريد ان نوضح له مبادىء الحزب ، اننا نريد ان يعرف باننا مجموعة مثقفين مسلمين ومسيحيين نود تنظيم حزب يسعى الى اقامة دولة فلسطينية في الضفة، يحافظ على علاقات وطيدة مع دولة اسرائيل . لقد انتظرنا بصبر خمسة اعوام ان يقوم زعماؤنا المسنون بعمل لصالح القضية الفلسطينية بيد اننا لم نر اية نتيجة لنشاطهم ، لذا قررنا استلام زمام الامور بأيدينا لاعتقادنا بان الشباب يمتلك المقدرة والقوة للعمل من اجل هذه الفكرة » (معاريف ١٧/٧/٧٢) كما جاء على لسان سليم خوري محاضر في كلية الاداب في الجامعة العبرية ومن سكان القدس العربية . ويعتقد ابو شلباية ان المرحلة الاولى من نشاط الحزب تتطلب العمل على غرس فكرة استحالة وجود حل اخر غير الحل المتعلق بالتعاون مع اسرائيل في اذهان الجماهير الفلسطينية ، وضرورة قيام اسرائيل بالاعلان عن استعدادها لحل القضية الفلسطينية .

اما سليم خوري فقد كشف النقاب عن الخطوات الرئيسية الثلاث التي يعتزم الحزب السعي من اجل تحقيقها :

١ — اجراء استفتاء في القدس والضفة الغربية « اننا سنسأل الشعب اذا كان يريد دولة فلسطينية او يرغب في حكم اردني او يوافق على الحكم الاسرائيلي » . ٢ — ارسال بعثة الى الامم المتحدة من بين صفوف الحزب لتوضيح اهداف الحزب وطلب مساعدة الامم المتحدة في اقامة الدولة الفلسطينية . ٣ — انتخاب مؤسسات الحزب بشكل ديموقراطي .

لم تحصل هذه المجموعة حتى الان على ترخيص باقامة حزب الا ان الدوائر الحكومية قد عبرت عن رأيها بانها « لا ترى اي سبب يحول دون قيام تنظيم سياسي كهذا في القدس الشرقية » بينما حصلت على ترخيص باصدار مجلة اسبوعية باسم محمد ابو شلباية تحمل اسم « صوت الشعب » .

واخر عمل سياسي قام به « المثقفون الشباب » اتخاذ قرار بارسال وفد الى الامم المتحدة ليقدم عريضة الى سكرتير الامم المتحدة « تتضمن استنكارهم لما تقوم به حكومة الاردن من اجل ضم الضفة الغربية وقطاع غزة اليها » ويطالبون فيها « بمنح حق تقرير المصير للفلسطينيين » (الاذاعة العبرية ٨٢/٨/٥) . وبذلك تكون سلطات الاحتلال قد خلقت فئة صغيرة كورقة ضغط تستخدمها عند الحاجة ضد النظام الاردني والزعامة التقليدية من اجل الحصول على مزيد من التنازلات لصالح الاحتلال .

حركة الاستيطان : نشطت سلطات الاحتلال في الاونة الاخيرة في سياستها الواضحة المتمثلة بازالة معالم قديمة واقامة معالم حديثة ، سياسة الاستيطان في المناطق العربية المحتلة ، ففي هضبة الجولان يجري العمل على قدم وساق لاقامة ثلاث مستوطنات جديدة تعتبر الان في طور البناء وهي « كفار حريف » و « ناب » و « مركز خسفين » من المقرر ان تؤهل خلال العام القادم .

ومن الجدير بالذكر ان سلطات الاحتلال وجدت في الهجرة اليهودية الاخيرة المتصاعدة من الاتحاد السوفياتي معينا لتأهيل بعض مستوطناتها. فقد اقام عدد من مهاجري الاتحاد السوفياتي نواة لتأهيل مستوطنة جديدة في الهضبة تعتمد في معيشتها على الصناعة والبناء حيث « ان معظم المستوطنين هم من حملة الشهادات الاكاديمية والصناعية ... مهندسو الات والكترونات » .

ومن ناحية اخرى وبمناسبة مرور خمسة اعوام على تأسيس اول مستوطنة في الهضبة ، كشفت وسائل الاعلام الاسرائيلية للمرة الاولى النقاب عن عدد المستوطنين في الهضبة ، فقد ذكر « يعقوب اراد » مدير الوكالة اليهودية في الجليل ان عدد المستوطنين في الهضبة السورية يناهز الـ ١٥٠٠ مستوطن ، كما وعلم ان التكاليف الاجمالية للاستيطان في الهضبة قد بلغت حتى الان مئتي مليون ليرة اسرائيلية . وفي غور الاردن احتفل في ٧٢/٧/٣ بالبدء باستيطان موشاف يحمل اسم « بوقاع » يقع شرقي مدينة نابلس بالقرب من قرية بوقاع التاريخية التي اكتشفت اثارها عند بدء الاعمال لاقامة المستوطنة . ومن المقرر ان يقوم سكان الموشاف باعمال زراعية ، وسيعتمد ايضا على المشاريع الصناعية ، وبذا يصل عدد مستوطنات الغور الى ١١ مستوطنة . وفيما يتعلق بسيناء فقد ذكر المسؤولون عن الاستيطان بان مستوطنتين جديدتين ستقامان عند مشارف رفح ، وتسعى بلدية ايلات في الوقت الحاضر الى ضم منطقة من سيناء تقع على شاطىء سيناء جنوبي ايلات . وذكرت المصادر الاسرائيلية ان عملية الضم ستتم في المستقبل القريب .

نضال المقتلعين من مشارف رفح : لا يزال سكان منطقة رفح الذين اجلوا عن اراضيهم بالقوة بغرض تهويد منطقتهم باقامة المستوطنات الاسرائيلية عليها، يشنون نضالا من اجل العودة الى اراضيهم ، فقد ارسل اربعة من شيوخ القبائل بشكوى الى «محكمة العدل العليا» الاسرائيلية تطرقوا فيها الى قصة ترحيلهم والى تدمير خيامهم وبيوتهم على أيدي وحدات من الجيش الاسرائيلي ، والى التهديدات التي رافقت العملية « اذا بقيتم حتى ظهور الشمس غدا فاننا سنحرق خيامكم » والى قيام المقدم « قزاز » بخداعهم بتعهده امامهم بتمكينهم من اخراج أمتعتهم من بيوتهم قبل عملية الهدم والنسف ، غير ان حتى هذا الوعد لم يتحقق فقد « نسفت بيوتهم وقبرت الامتعة الموجودة بداخلها » .

وذكر الشيوخ في شكواهم ان عدد ابناء عشائرهم الذين اقتلعوا من اراضيهم يبلغ عشرة آلاف ، وان المنطقة التي أجلوا عنها بالقوة تصل مساحتها الى ١٥٠كم مربع وان لديهم وثائق تثبت ملكيتهم لارضهم، كما وتقدم خمسة شيوخ آخرين يمثلون خمس قبائل اخرى أجلوا من منطقة ثانية بشكوى مماثلة ، وأوضحت الشكوى انهم أجلوا عن منطقة تصل مساحتها الى ١٠٠ كم مربع كان يقطنها عشرة آلاف من أبناء القبائل الخمس ، وأوضحوا في شكواهم ان عملية الترحيل تمت تحت وطأة التهديد والوعيد بواسطة الحاكم العسكري لقضاء خان يونس الذي أبلغهم ان عليهم ان يصلوا خلال ثلاثة ايام « ومن يبق فان بيته سيهدم على رأسه » . وطالب شيوخ القبائل في الشكويين اعادتهم بدون قيد او شرط الى اراضيهم .

لم يكتف سكان مشارف رفح بتقديم الشكاوى ، بل أخذ المزارعون منهم يتوجهون الى مزارعهم المحاطة بسياج النهب والسلب ، واخذوا يعتنون بمزروعاتهم ايمانا منهم بحقهم الذي لا ينازع في اراضيهم ، الا ان سلطات الاحتلال كانت لهم بالمرصاد « فقد شوهدت بعد ظهر امس طائرة هليكوبتر تحوم فوق

رؤوس البدو الذين يقومون باعمال الزراعة في المناطق التي اخليت ، وتشن غارات على العرش المصنوعة من القش التي اقاموها لتقيهم غائلة الحر ، وتهدمها » (دافار ٧٢/٦/٢٣). وبالرغم من ذلك فان اصرار ابناء القبائل التي أجليت وعنادهم اقوى بكثير من ارادة الطيار الاسرائيلي الذي أصبحت مهمته ملاحقة الفلاحين العرب ، فقد اكد هؤلاء بوعي نضالي « انه ينبغي على الحكومة ان تدرك انه اذا كانت تريد ارضا بدون سكان ، فعليها ان تقوم بذبحنا جميعا . وليست هنالك طريق اخرى » (عل همشمار ٧٢/٧/٤).

حرب بيولوجية ضد مزارع عقربة العربية : في الوقت الذي كانت فيه طائرة هليكوبتر تابعة لسلاح الجو الاسرائيلي تحوم فوق رؤوس مزارعي مشارف رفح وتطاردهم وتهدم عرشهم ، برزت على سطح الاحداث في الضفة الغربية مأساة اخرى لفلاحي قرية عقربة ، بقيام طائرة اسرائيلية بالاغارة على مزروعات القرية والقائها مواد سامة عليها ، وكانت حصيلة الغارة اتلاف مزروعات تمتد على مساحة خمسة آلاف دونم تخص فلاحي القرية .

كان وراء شريط السموم التي القتها الطائرة طيلة ساعات عدة على مزروعات القرية ، شريط آخر من الاحداث يبدأ من الاحتلال وينبع من أطماع العدو التوسعية المتمثلة في الاستيطان اليهودي .

تقع قرية عقربة في منطقة نابلس وعلى بعد حوالى ١٥ كم الى الشرق الجنوبي من المدينة ، وتشرف على وادي الاردن ، وتمتلك القرية حقولا واسعة تمتد حتى النهر . وقد بدأت اول عملية نهب وسلب لاراضي القرية عندما صادرت سلطات الاحتلال منطقة من الاراضي تقع غربي النهر ، بحجة انها منطقة تدريبات عسكرية ، وخسرت القرية بعض اراضيها ، ولم تكتف سلطات الاحتلال بذلك ، بل أخذت توسع دائرة السلب بحجة متطلبات الامن ، ففي « ٣٠ يناير عام ١٩٧٢ ابلغونا بأنهم يوسعون حدود المنطقة المغلقة باتجاه الغرب ، ومنعونا من التوجه الى الاراضي التي زرعناها . وبعد ان نما القمح — وقد نما بشكل جيد بسبب الامطار هذا العام — وسعوا المنطقة العسكرية بحيث أصبحت تشمل مزارعنا ، وكنا نعتقد باننا نملك الحق بالاعتناء في مزارعنا ، بيد انهم حركوا الخط ، وحالوا بيننا ودخول المنطقة » كما يقول الشيخ حسن ديب من ابناء القرية (هعولام هزيه ٧/١٢ /٧٢) . وقبل أن تفكر سلطات الاحتلال باستخدام الطائرات ضد المزروعات قررت ارسال ثلاثة جنود الى القرية ، وفي الخامس من شهر اذار من هذا العام قدم الجنود الثلاثة واخذوا جرارا زراعيا يخص احد السكان العرب « وبدأ بتخريب الحقول التي زرعناها » امعانا في الاهانة والغطرسة . وقد قدم الاهالي شكوى الى « الخصم والحكم » وكانت نتيجة هذه الشكوى قد جاءت في الثامن من ابريل على شكل طائرة ، بدأت بشن حرب بيولوجية ضد الحقول المزروعة ، ومع مرور يوم واحد يبست المزروعات ، واكتسى كل شيء في المنطقة باللون الاصفر « لقد وقع ذلك قبل الحصاد ، تبلغ مساحة المنطقة خمسة آلاف دونم وأعطت غلة طيبة .. كنا مسرورين للغاية من الغلة .. لقد هطلت الامطار هذا العام بغزارة ، وكانت السنابل عالية وجميلة ، الامر الذي ادخل الغبطة في نفوس الفلاحين الذين كانوا يستعدون للحصاد .. وعند ذلك قدموا وابادوا لهم المزروعات » كما يقول احد سكان القرية .

أخذت سلطات الاحتلال تتستر على هذا العمل المشين وتحول بقدر المستطاع دون نشره ، الا ان الاهالي اخذوا يناضلون ويحتجون ضده ، وقد بعثوا برسائل الى « الخصم والحكم » يشكون فيها تصرفات سلطات الاحتلال ، بيد ان الاجابة جاءت لاستكمال الغرض من العمل المشين ، ففي الرابع من مايو جرى في نابلس اجتماع بين مندوبين عن اهالي عقربة ومدير اراضي اسرائيل وشخص آخر رفضت المصادر الاسرائيلية الافصاح عنه ، وقد صدم المندوبون العرب عندما اوضح لهم مدير اراضي اسرائيل ان السلطات تعتزم اقامة مستوطنة يهودية في اراضيهم ، وان ذلك يتطلب ثلاثة آلاف دونم ، واقترح عليهم قبول تعويضات مالية مقابل ذلك ، بيد ان السكان العرب رفضوا الاقتراح بشدة ، واخذوا يناضلون من اجل اراضيهم ، وبالرغم من ذلك لم تيأس سلطات الاحتلال ، مستغلة عدم انتشار العمل المشين ، وعقدت اجتماعا آخر في ٢٣ مايو باشتراك الحاكم العسكري لمدينة نابلس مع سكان القرية ، وطلب من السكان في هذا الاجتماع التوقيع على «وثيقة تنازل عن الاراضي والموافقة على قبول تعويضات» بيد انهم رفضوا التوقيع « اننا لن نبيع هذه الارض، اننا نعيش من هذه الارض ، فكيف نبيعها ؟ اننا لن

نبيعها في أي حال من الاحوال » واستمروا في نضالهم من اجل شرح قضيتهم للرأي العام .. ومن خلال هذا الاصرار ، استطاع الفلاحون كسر طوق التكتم الذي فرضته سلطات الاحتلال وبايصال قضيتهم الى الرأي العام العالمي ، فقد ابلغوا حمدي كنعان رئيس بلدية نابلس السابق بقضيتهم وابلـــغ هـــذا بدوره الدكتور فان مراش احـــد قادة الحزب الاشتراكي الفرنسي عند اجتماعه به في اواخر شهر مايو بالقضية ، عند ذاك افلتت القضية من الطوق الذي فرضته سلطات الاحتلال ، الامر الذي احدث ضجة وانقسامات في الرأي بين الكتل السياسية الاسرائيلية المختلفة ، فقد قدمت القائمة الشيوعية الجديدة « راكاح » مؤيدة من قبل كتلة هعولام هزيه اقتراحا بحجب الثقة عن الحكومة بسبب العمل المشين في قرية عقربة ، الا ان الاقتراح فشل .

ومن الجدير بالذكر ان موشيه ديان قد اعترف بأن العمل الذي قامت به الطائرة الاسرائيلية باتلاف المزروعات يعتبر « عملا همجيا » خـــلال الجلسة التي عقدتها الحكومة الاسرائيليـــة في ٧٢/٧/٩ ، الا ان اعترافه « بالهمجية » يجيء بعد فشل محاولات التكتم على ما جرى في قرية عقربة ، وبغرض اظهار ان السلطات العليـــا تعارض هذه الاعمال ، واعتبر هذا العمـــل « تجاوزا » قامت به بعض العناصر العسكرية ، وأنكر ان يكون الدافع من وراء ذلك بناء مستوطنة يهودية ، بالرغم من انـــه على علم بالاجتماعين اللذين جريا في مدينة نابلس واللذين كشفا عـــن الغرض من « العمل الهمجي » ، ومع ذلك نقد كذب وزير الزراعة حاييم جباتي ديان حين اعترف في ٧٢/٧/١٨ في الكنيست ردا على استفســار وجهه اليه عضو الكنيست اوري افنيري « انه يوجد في مكتبه اقتراح لاقامة مستوطنات يهودية على اراضي قرية عقربة » . يعلق الشيخ حسن سعيد على « العمل الهمجي » بقوله : اذا كان الجيش الاسرائيلي يريد ارضنا وابادة قمحنا فهل هذا يعني بأنهم يريدوننا بأن نصبح فقراء ؟ اننا مرتبطون بهذه الارض .. نعيش منها وهي لنا .. لم نشترها بل ورثناها عن آبائنا واجدادنا .. انني رجل مسن اناهز السبعين من عمري ، لقد عايشت عهد الاتراك والعهد البريطاني والعهد الاردني .. بيد ان أية حكومة لم تفعل ما فعلته الحكومة الاسرائيلية معنا . ماذا يريدون ؟ ان نموت ؟ » هذه قصة مشارف رفح ، وقصة قرية عقربة .. صورة مصغرة عن قصة فلسطين عام ١٩٤٨ — قصة فلاحين بسطاء يقفون في وجـــه النازيين الجدد .

ع ٠ م ٠

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ٧/١٢ — ١٩٧٢/٨/١٢

الرقم	التنظيم	تاريخ العملية: اليوم	تاريخ العملية: الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية (قتيل جريح)	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	خسائر المقاومة: جريح	خسائر المقاومة: مفقود	المصدر	تاريخه
١ —	ق.ت.ش.	٦/١٤	١٠٠٠	النقب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدود	تدمير سيارة بريد	—	—	—	م.ع.ف. العدد ٢	آب ٧٢
٢ —	ق.ت.ش.(١)	٦/٢٤	١١٠٠	النقب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدود	تدمير باص لنقل الجنود	—	—	—	م.ع.ف. العدد ٢	آب ٧٢
٣ —	ج.ش.ت.ف.	٧/ ٩	١٩٠٠	حيفا	تفجير	عبوات ناسفة	٢٠ اصابة	تدمير ثلاث عربات في محطة القطارات المركزية	—	—	—	هـ. العدد ١٦١	٧/٢٢
٤ —	ج.ش.ت.ف.	٧/ ٩	٩٠٠	مكابيا/تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدود	غير محدود	—	—	—	هـ. العدد ١٦١	٧/٢٢
٥ —	ج.ش.ت.ف.	٧/ ٩	٨٠٠	اوريهودا/تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	٢٢ اصابة	حرق سبع محلات تجارية	—	—	—	هـ. العدد ١٦١	٧/٢٢
٦ —	ج.ش.ت.ف(٢)	٧/ ٩	٨٠٠	رامات غان	تفجير	عبوات ناسفة	٧ اصابات	احتراق معمل للنجارة	—	—	—	هـ. العدد ١٦١	٧/٢٢
٧ —	ق.ع.ق.ث.	٧/١٤	٢٤٠	القنيطرة/الجولان	قصف	قذائف صاروخية	غير محدود	غير محدود	—	—	—	ف.ث. العدد ٥	٧/٢٦
٨ —	ق.ع.ق.ث.	٧/١٤	٢٤٠	معسكر عين الواوسات/الجولان	هجوم	اسلحة مختلفة	غير محدود	غير محدود	—	—	—	ف.ث. العدد ٥	٧/٢٦
٩ —	ق.ع.ق.ث.	٧/١٥		الفالوجا	اقتحام بنك محاليخا	رشاشات وقنابل يدوية	غير محدود	غير محدود	—	—	—	وفا	٨/١٠
١٠ —	ق.ع.ق.ث.	٧/١٦		بني براق/تل ابيب	اشعال نيران	—	—	حرق مصنع للصوف	—	—	—	وفا	٧/١٧
١١ —	ق.ع.ق.ث.	٧/١٧		هرسيلبا/تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدود	اشعال النيران في مصنع اسبر لصناعة المواد البلاستيكية	—	—	—	وفا	٧/١٨
١٢ —	ج.ش.ت.ف.	٧/١٧		النصيرات/غزة	اشتباك	اسلحة مختلفة	غير محدود	—	١	—	—	هـ. العدد ١٦٣	٨/ ٥
١٣ —	ق.ع.ق.ث.	٧/١٧	١٢٠٠	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدود	تدمير جزء من مسرح قاعة « هيما »	—	—	—	وفا	٨/١٠
١٤ —	ق.ع.ق.ث.	٧/١٨	١٦٣٠	بين طولكرم ونانانيا	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غير محدود	اعطاب باص لشركة ايجد	—	—	—	ف.ث. العدد ٥	٧/٢٦
١٥ —	ق.ع.ق.ث.	٧/١٩		جبين/الجولان	هجوم	هاون وقذائف صاروخية وأسلحة [illegible]	غير محدود	غير محدود	—	—	—	وفا	٧/٢٠
١٦ —	ق.ع.ق.ث.	٧/٢٢		تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدود	اشعال النيران في بناية في سوق بيشكيل	—	—	—	وفا	٧/٢٢
١٧ —	ق.ع.ق.ث.	٧/٢٢	٢٢٠٠	شحونات بنيامينا/تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدود	تدمير جزء من بناية	—	—	—	وفا	٨/١٠
١٨ —	ق.ع.ق.ث.	٧/٢٣	١٢٠٠	ريشيون لتصيون/تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدود	حرق مصنع للنسيج	—	—	—	وفا	٨/١٠
١٩ —	ق.ع.ق.ث.	٧/٢٧	٢١٠٠	رامات غان	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدود	تدمير جزء من بناية في شارع يهودا	—	—	—	وفا	٨/١٠
٢٠ —	ق.ع.ق.ث.	٨/ ١	٥٠٠	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدود	اشعال النيران في مبنى الصندوق القومي	—	—	—	وفا	٨/ ٢
٢١ —	م.ا.ا.	٨/ ٤		تريستا/ايطاليا	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدود	تدمير خزانات البترول واشعال النيران فيها	—	—	—	وفا	٨/ ٥
٢٢ —	ق.ع.ق.ث.	٨/ ٥		قبلان/نابلس	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدود	تدمير جزء من مبنى دائرة العمل	—	—	—	وفا	٨/ ٦

١ — كما أعلنت قوات التحرير الشعبية عن مسؤوليتها عن العمليات التالية كما ورد ذكرها في جدول الشهر الماضي :

أ — عملية رقم ٨ بتاريخ ٢ /٦

ب — عملية رقم ١٠ بتاريخ ٦/١٠

٢ — وردت هذه العمليات بعد صدور الجدول الماضي ولذلك رأينا ادخالها في مطلع هذا الجدول .

تعريف بالمصطلحات والنشرات الوارد ذكرها

١ — ق.ت.ش. : قوات التحرير الشعبية .

٢ — ج.ش.ت.ف. : الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين .

٣ — ق.ع.ق.ث. : القيادة العامة لقوات الثورة .

٤ — م.ا.ا. : منظمة ايلول الاسـود .

٥ — م.ع.ف. : المجلة العسكرية الفلسطينية وتصدر شهريا عن ادارة الشـؤون العامة والتوجيه المعنوي لجيش التحرير الفلسطيني .

٦ — هـ. : الهدف مجلة اسبوعية تصدر عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين .

٧ — ف.ث. : فلسطين الثورة ، مجلة اسبوعية تصدر عن دائرة الاعلام والتوجيه القومي بمنظمة التحرير الفلسطينية .

٨ — وفا : نشرة يومية تصدر عن دائرة الاعلام والتوجيه القومي بمنظمة التحرير الفلسطينية .

غازي خورشيد

اسرائيليـــات

[١]

على هامش قضية كفربرعم :

« لا دولة يهودية ولا صهيونية بدون طرد العرب ومصادرة أراضيهم ! »

تأخرت اجراس الكنائس في اعلان موت العدالة في اسرائيل .. تأخرت كثيراً . ذلك ، لان الشكل الذي انشئت به اسرائيل والمضمون الذي تحمله ، منذ البداية ، يتناقض مع أصول العدالة . ان العدالة مغدور بها منذ حوالي خمسة وعشرين عاما على ارض فلسطين .

وقد تكون قضية قريتي كفر برعم واقرت دليلا طازجا ومستمرا على ان مطلب العدالة من الصهيونية ليس مطلبا عسير المنال فحسب ، ولكنه ايضا يحمل الصهيونية صفات أخلاقية غريبة عنها .

ان أهم شيء في هذه القضية هو ان طرح موضوع العدالة .. مجرد طرحه لا يتم الا بالنضال الدائب. وهذا النضال وحده هو الذي جعل أجراس الكنائس تقرع ، هذا الشهر ، احتجاجا على موت العدالة ، وان جاء متأخرا ولكنه صالح الى ان يشتد النضال ويتصاعد دفاعا عن أقدس انتماء وهو الانتماء الى الارض التي لا يكون وطن بدونها .

وليست هذه القضية — قضية كفربرعم واقرت — موضوعا طارئا . ليست قضية لاجئين في وطنهم . ليست قضية فلاحين تعرضوا للظلم . ولكنها قضية جوهرية تمس قلب الفكر والتطبيق الصهيونيين على أرض فلسطين ، وتهز هيكل الدعوى الصهيونية من اركانه الاساسية . انها قضية حق عربي لا يكون حله ممكنا الا بالغاء حق آخر يدعيه طرف آخر.

ماذا حدث في كفربرعم ؟

وما هي كفربرعم اولا ؟.

تقول لافتة منصوبة في مكان ما من ارض كفر برعم — أصدرها مكتب رئيس الحكومة : « أيام الهيكل الثاني — كانت هنا مستوطنة يهودية — واحدة من مستوطنات كثيرة في الجليل الاعلى . ان بقايا الكنيس منذ القرن الثالث تشهد على مستوى الحياة العالي للمواطنين هنا حتى بعد خراب الهيكل » . وينقطع التاريخ فجأة . وتمر عدة قرون لا تعترف بها اللافتة الاسرائيلية . وكأن كفر برعم تقفزت مرة واحدة من الهيكل الثاني الى دولة اسرائيل . وكأن التاريخ كان نائما طيلة قرون .

في نوفمبر ١٩٤٨، دخلت وحدة من الجيش الاسرائيلي قرية كفربرعم دون ان تتعرض لاية مقاومة من جانب السكان . بعد اسبوعين من الاحتلال الاسرائيلي صدر امر باخلاء القرية من سكانها العرب . وقيل لهم : ان الاخلاء مؤقت .

وفي الثالث عشر من عام ١٩٤٩ بعث مستشار رئيس الحكومة الاسرائيلية للشؤون العربية رسالة الى سكان كفر برعم جاء فيها : « بسبب الاعتبارات الامنية فليس من الممكن اليوم السماح لكم بالعودة الى القرية » . وفي الوقت ذاته كان ينشأ في القرية العربية جنين لاقامة كيبوتس يهودي .

ما هي هذه الاعتبارات الامنية ؟.

يقول يغال الون ، فيما بعد ، ان الذي جرى جرى اثناء الحرب . وكان الون يكذب بلا حياء . فلم تجر في كفربرعم اية معركة . وسكان هذه القرية لم يهربوا من بيوتهم . لقد أخرجوا منها بالقوة ، وبعد

انتهاء معارك ٤٨ . ومن هنا ، لا تكون حجة الامن الا ذريعة للاستيلاء على القرية واراضيها .

وفي عام ١٩٥١ قدم اهالي كفر برعم — الذين أصبحوا لاجئين في قرية اخرى — طلبا الى محكمة العدل العليا يطالبون فيها باصدار قرار بالعودة الى قريتهم . وأصدرت أعلى هيئة قضائية في اسرائيل قرارا يعترف بحق أهالي كفر برعم بالعودة الى قريتهم . ولكن هذا القرار غير قابل للتنفيذ بسبب صدور امر عسكري يعلن المنطقة « منطقة مغلقة ». وقد صدر هذا الامر العسكري على عجل لابطال مفعول قرار محكمة العدل العليا . وهذه طريقة متبعة في اسرائيل في كل القضايا التي لا تستطيع محكمة العدل العليا الا الاعتراف بعدالتها ، فتلجأ السلطات العسكرية الى التخلص من مسؤولية القرار باصدار امر عسكري ، لان مصطلح « الاعتبارات الامنية » شديد القدسية في اسرائيل . وقد نشرت مجلة « حوتام » (٧/٧) وثيقة غير منشورة من قبل عن قضية قرار محكمة العدل العليا في حينه « في ٥١/٨/٣٠ توجهنا الى محكمة العدل ، ويوم صدور القرار لم يكن هنالك أي منع قانوني لعودتنا الى القرية . وفي ٥١/١١/٧ ادعت الحكومة ان منطقة كفربرعم قد اعلنت منطقة امنية بناء على القانون الصادر في ٥١/١٠/٢٩ . وقد رفضت محكمة العدل العليا هذا الادعاء . فقدمت الحكومة ادعاء اخر وهو : ان منطقة كفر برعم منطقة مغلقة منذ ٥١/٨/٢ . قال السكان ان هذا القانون لم ينشر ، ولذلك لا قيمة له . وفي ٥١/١٢/٦ نشرت الحكومة هذا القانون في الوقت الذي تأجل فيه انعقاد المحكمة الى حين صدور القرار في ٥١/١٢/٣ . ولقد تأجلت المحكمة لمدة ثلاثة أيام بتدخل من الحكومة ، فسرى مفعول القانون » . وفي ١٦ ايلول ١٩٥٣ قامت وحدة من الجيش الاسرائيلي بنسف القرية ، لخلق احتمال بنسف القضية كلها من أساسها .

وفي تشرين الثاني جرى اجتماع في مدينة الناصرة بين وجهاء قرية كفر برعم وبين الحاكم العسكري ومساعد المستشار للشؤون العربية ومدير دائرة الاراضي في وزارة الزراعة . اقترحوا على الاهالي أن يأخذوا دونما مقابل دونم في اراضي قرية الجش، ولكنهم رفضوا . فاقترحوا عليهم أن يحصلوا على قروض بعيدة الامد ، فرفضوا . طالبوا باعادتهم الى قريتهم ، ولكن طلبهم رفض « الى ان يتحقق السلام » . وفي عام ١٩٦٢ بنت الحكومة ٥٠ وحدة سكنية في قرية الجش لسكان قرية كفر برعم . ولكنهم رفضوا اي حل عدا عودتهم الى قريتهم . في كانون الاول ١٩٦٦ — أعلن ليفي اشكول رئيس الحكومة آنئذ عن الغاء الحكم العسكري . ولكن منطقة كفر برعم ظلت منطقة مغلقة للحيلولة دون خلق « قاعدة قانونية » لتنفيذ قرار محكمة العدل العليا .

وفي كانون الثاني ١٩٦٨ يتقدم اهالي كفر برعم بعض التنازلات . يطلبون من رئيس الحكومة ومن وزراء اخرين طلبا بالسماح لهم ببناء بيوت قرب القرية المهدومة والحصول على جزء من اراضيهم السابقة، ذلك الجزء الذي لا يستثمره المستوطنون اليهود . وطلبوا تعويضا عن الجزء الاخر بشكل ارض بعيدة عن ارضهم . ولكن مستشار الشؤون العربية يبلغهم ، بناء على أمر من رئيس الحكومة ووزير الدفاع ، بأنه لا امكانية للاستجابة لهذا الطلب .

بعد أكثر من عشرين سنة من حرمان اهالي كفر برعم من العودة الى أرضهم التي يستثمرها مستوطنون اسرائيليون ، نشأت قضية اخرى وهي ما يدعيه هؤلاء المستوطنون من حق على الارض ذاتها . وينطوي هذا الصدام على تلخيص كل قضية اغتصاب فلسطين . الجانب الاسرائيلي يقول الان انه اكتسب « حق » الامر الواقع ، فهل يكون الصراع ، اذن ، بين حقين ؟ . بالطبع ، لا ، فليس ثمة صراع بين حقين . ان الصراع يجري بين حق وباطل . فادعاء الحق الاسرائيلي قائم على الاغتصاب . واستخدام كل احابيل القوانين العسكرية والاحتيال بشتى الاساليب لتمكين عنصر الزمن من خلق امر واقع — كما حدث في كفر برعم وغيرها — ليس مبررا شرعيا ولا اخلاقيا لطرح قضية الحق الاسرائيلي الذي انتقل من ادعاء الحق التاريخي الى ادعاء حق الامر الواقع .

من هنا ، يقول سكرتير كيبوتس « برعام » القائم على أرض كفر برعم : « عندما تقرر الحكومة العمل على حل المشكلة ، فان برعام طرف في الامر » . ويقول ملحق صحيفة « عل همشمار (٧/٧) : ان أهالي كيبوتس برعام ليسوا مسؤولين عن الظلم الذي لحق بأهل كفر برعم ، وليسوا مسؤولين عن الحل » .

فما هو الامر بالنسبة لسكان هذا الكيبوتس الذي

اقتطع جزءا كبيرا من أراضي كفر برعم ومساحتها ١١،٥٠٠ دونم (حسب الاحصاء الاسرائيلي) واقتطع كيبوتسان اخران الجزء الباقي من الارض ؟ يقول ملحق « عل همشمار » بأن محصول الفواكه من أرض هذا الكيبوتس قد بلغ هذا العام ٢٠٠٠ طن . واقام في السنوات الاخيرة منشآت ضخمة للتبريد وصيانة الفواكه « ولا يتصور أبناء كيبوتس برعام امكانية العيش بدون الفواكه » ، وهم بعيدون عن التفكير بالتنازل عن هذه الزراعة مقابل زراعة اخرى في ارض بعيدة » ! وتضيف الصحيفة « اما فيما يتعلق بالمراعي فانهم يفكرون بامكانية التنازل » ! ان هذا الكلام ذو مغزى . فسان الصحيفة الناطقة بلسان حزب الكيبوتسات تريد أن تواجه مأساة اهالي كفر برعم باحتمال وقوع « مأساة » جديدة لاولئك السكان الذين يستثمرون اراضي كفر برعم . والواقع ، ان موقف « هشومير هتسعير » أصبح شديد الحرج . وتقول مجلة « هعولام هزه » (٧/٥) ان وزراء الدفاع في اسرائيل كانوا دائما يصرون على ضرورة ابقاء مفعول انظمة الطوارىء التي تبقي كفر برعم وأقرت بموجبها مناطق مغلقة . والان ، بعدما انتقل موضوع هذه الانظمة الى لجنة الخارجية والامن لتجديدها أعلن موشه ديان فجأة انه انتهت الحاجة اليها ، ومن الممكن الغاؤها . وتقول المجلة ان السبب في ذلك يعود ، في الغالب ، الى أن ديان يريد الانتقام من « هشومير هتسعير » الذي اثار ضجة حول مداخل رفح ، في الوقت الذي يجلس فيه على أرض مغتصبة من كفر برعم . وتعلق المجلة على ذلك بقولها : « اذا كانت متطلبات الامن تتغير ، في ليلة ، وفقا لحسابات حزبية وشخصية — فما هي فائدتها .. وما هي قيمتها الاخلاقية ؟ ولكن ديان استطاع ان يضع « هشومير هتسعير » والمبام في امتحان اخلاقي صعب ، اذ لا فرق بين كفر برعم وبين مدخل رفح الا فارق الزمن فقط . فالحادثان متشابهان . فهنا وهناك تم طرد السكان بعد انتهاء المعارك وفي فترة الهدوء . وهنا وهناك تم استغلال شعارات امنية كاذبة لطرد عاملي الارض من أرضهم . وهنا وهناك ليس بوسع قوة التعويضات والاسكان في مكان اخر ان تمحو الظلم . وهنا وهناك لا طريق الا : اعادة المنفيين الى بيوتهم » .

لا يحتاج المرء الى كثير من الجهد للتدليل على مدى الكذب السافر في ادعاءات السلطات الاسرائيلية التي تبرر اغتصابها لاراضي القرية باعتبارات امنية . ولكن هذه السلطات لا تستطيع ان تخفي اعتبارات اخطر لاصرارها على المضي في عملية الاغتصاب ، وهي : ان قرية كفر برعم ليست حالة واحدة ، فهنالك أكثر من عشرين قرية تشبه حالتها حالة كفر برعم . وفي جوهر الامر ، ليست كفر برعم الا نموذجا ومثالا لكل عملية اغتصاب فلسطين . وقد صرح الجنرال حاييم بارليف (٨/٨) « قبل كل شيء هناك قضية امنية . توجد اهمية كبرى لعدد قرى الاقليات مع الحدود اللبنانية ، ويجب عدم زيادة هذا العدد . وبالاضافة الى الناحية الامنية — هناك قضية اخرى تتعلق بسكان ابعدوا هم ايضا عن قراهم مثل اهالي كفر برعم اثناء حرب ٤٨ . ان هذا الوضع يشكل مأساة بالنسبة لهؤلاء ، وقضية صعبة ومستعصية بالنسبة لدولة اسرائيل. فاذا ما قمنا باعادة أهالي كفر برعم الان فاننا نكون قد سجلنا سابقة .وهناك قرى اخرى لا اعرف بالضبط عددها ابعد اهاليها . فماذا نقول لهم ؟ هل نقول لهم اننا سمحنا لاهالي كفر برعم بالعودة لانهم موارنة ، ولن نسمح لكم لانكم مسلمون » .

وفي اجتماع حزب العمل (٨/١٠) قالت رئيسة الوزراء غولده مئير : « لم يكن سبب مجيئي الى هنا شعوري بتأنيب الضمير او الخزي للقرار الذي اتخذته الحكومة (ضد عودة اهالي كفر برعم) . لقد عاد شعب اسرائيل الى أرضه واخذ يعيد بناءها ، وان اية ضجة تحدث لن تقدر على تشويه الاساس الاخلاقي للحركة الصهيونية » .

وقد عبرت صحيفة يديعوت احرونوت (٧/١٤) بصراحة تامة عن المفهوم الاخلاقي للصهيونية الذي تباهت به غولده مئير . في مقال ليشعياهو بن نورات كتب : « من واجب القادة الاسرائيليين ان يفهموا الجمهور ، بصراحة وشجاعة ، عددا من الحقائق التي طمست بمرور الزمن . وأولها — انه ليست هنالك صهيونية ، وليس هنالك استيطان ولا دولة يهودية بدون طرد العرب وبدون مصادرة اراضي » !

واجمع كثير من المعلقين الاسرائيليين على «خطورة» الاستجابة لمطالب قريتي اقرت وكفر برعم ، اعتقادا منهم ان مثل هذه الاستجابة ستكون سابقة تقلب الوجود الاسرائيلي رأسا على عقب . فان مبادىء العدالة ، في مثل هذه الحالات ، تتنافى مع

مبادىء الصهيونية وطبيعة نشوء اسرائيل . كتبت « هآرتس » (٧/٢) : « قد تفسر عودة اهالي اقرت الى قريتهم بأنها رضوخ للضغوط من جانب الحكومة . وان رضوخا كهذا قد يشجع مزيدا من الضغوط . فماذا سيكون شأن عرب آخرين أجلوا عن قراهم سنة ١٩٤٨ ؟ ماذا سيكون شأن اولئك الذين اضطروا الى ترك أملاكهم ويريدون العودة اليها ؟ . ومن يستطيع ان يطلب تسييج المناطق في رفح سنة ١٩٧٢ اذا كانت العجلة تعود الى الوراء في اقرت ؟ » .

« ولنفرض ان الحكومة استجابت لهم ، فماذا سيحدث غدا لسكان قرى اخرى مهجورة ؟ ألن يتقدم دروز بيت جن غدا بطلب مماثل ؟ في اوائل الخمسينات صادرت الحكومة الاف الدونمات التي يملكها الدروز بالقرب من روش بينا لاسباب أمنية ، يستطيع أصحاب هذه الاراضي السابقون ان يطلبوا العودة اليها الان . وفي قرية الرامة يسكن لاجئون هجروا قراهم زمن الحرب . وليسوا بحاجة الى السفر عشرات الكيلومترات ليشاهدوا حقولهم . بوسعهم ان يشاهدوا كيف تزرع الكيبوتسات اليهودية حقولهم من الاكواخ التي يسكنونها » (دافار ٧/٤) .

وعبرت صحيفة « دافار » (٧/٥) عن المخاوف الصهيونية من مبدأ اعادة اهالي كفر برعم الى قريتهم بقولها : « ان التبرير الاكبر هو الاسبقية ، فاذا سمحنا لسكان كفر برعم واقرت بالعودة بعد ٢٥ سنة ، فسنخلق وضعا أساسيا ، قد تكون له انعكاسات على قضية اللاجئين بأكملها . ماذا سنقول عندئذ لعرب يافا ، الذين سيطالبون بالعودة الى املاكهم . أفمن الواضح كالشمس أنهم سيعتمدون ، في مطالبتهم ، على حالتي كفر برعم واقرت » .

هذا هو لب القضية كما يراه الفكر الاسرائيلي — الصهيوني ، فالقضية المطروحة تنطوي على مبدأ وليس على محاولة لاصلاح ظلم وقع بحق قريتين عربيتين ، وهذا المبدأ يتنافى مع الدعائم التي تقول عليها اسرائيل « لا صهيونية ، ولا استيطان ولا دولة يهودية بدون طرد العرب وبدون مصادرة الاراضي » كما تقول «يديعوت احرونوت». واما موافقة يغال ألون نائب رئيس الحكومة على اعادة اهالي كفر برعم واقرت فليست ناجمة عن اعتراف بمبدأ . بل هي ناجمة عن حسابات حزبية. فقد صرح ألون في حديث تلفزيوني بأنه « اذا قدمت طلبات جديدة للحكومة ، بالاضافة الى الطلب الذي تقدم به اهالي كفر برعم واقرت ، فسأصوت ضد هذه الطلبات . وانا اعتبر قضية كفر برعم واقرت قضية خاصة ووحيدة في نوعها » .

قضية كفر برعم واقرت ليست قضية خاصة ووحيدة في نوعها . انها قضية شعب فلسطين .

[٢]

اسرائيل .. وخروج السوفييت من مصر

« الروس ذاهبون ، ونحن باقون » .

بهذه الصيغة الجارحة ، عبرت رئيسة حكومة اسرائيل غولده مئير عن فرحة رد الفعل الاسرائيلي الاول على قرار انهاء مهمة الخبراء السوفييت في مصر . وبدا لغولده مئير ان الفرصة أصبحت مواتية لدعوة الرئيس المصري الى الجلوس معها « لبذل جهد مشترك من أجل التوصل الى اتفاق » في خطاب القته في الكنيست في ٧/٢٦ . وبعد مناقشة استغرقت خمس ساعات قررت الكنيست ، بأغلبية الاصوات ، الموافقة على دعوة غولده مئير الى الرئيس المصري « للدخول في مفاوضات مع اسرائيل ، بدون شروط » .

ولقد تراوحت ردود الفعل الاسرائيلية على خروج الخبراء السوفييت من مصر بين مدى الامال التي ينبغي لاسرائيل ان تعلقها على أبعاد هذا الحدث. بين المبالغة في الامال والاسراف في اليقين وبين التحذير من اغراء الامال دارت معظم تعليقات الصحف الاسرائيلية . فان صحيفة « هآرتس » تميزت في تعليقاتها بالحذر . كتبت في ٧/٢٠ : « ان الطريق لا تزال طويلة من الان حتى تصفية الوجود السوفييتي في مصر او ابتعاد مصر الكامل عن الاتحاد السوفييتي . علينا ان نتذكر ان الوجود السوفييتي في مصر مؤلف من قوس قزح واسع للغاية . ويشكل العنصر العسكري « احد مركباتها

فقط » . ولكن صحيفة « دافار » ٧/٢١ ترى « ان في خطوة السادات ايجابية مزدوجة من وجهة النظر الاسرائيلية . فحسن أن العلاقات بدأت تتأزم بين مصر والاتحاد السوفييتي . وحسن ان هـــذا التطور تدريجي ومنضبط . ان مجرد سوء العلاقات يقلل ضمنا خطر التدخل السوفييتي في حـــرب مباشرة ضد اسرائيل الى جانب مصر . وبالاضافة الى ذلك فان كون اتجاه السوء في العلاقـــات منضبطا يمنع انفجارا مصريا خطرا نحو حـــرب يائسة ضد اسرائيل ، او تحولا دراماتيكيا نحـــو الولايات المتحدة » .

وعبرت رئيسة تحرير « دافار » في العدد ذاته عن ارتياحها « لان النفوذ السوفييتي في العالم العربي عامة . وفي مصر خاصة ، هو عامل سلبي بالنسبة الى اسرائيل . فهو من ناحية عسكرية عنصر مقيد ، ومن ناحية الاقتصاد الوطني فرض علينا اعباء امنية باهظة . ومن ناحية سياسية كان مصدرا دائما لضغوط متوقعة على اسرائيل . وبالنسبة الى الولايات المتحدة ردعها من احتمـــال حصول اي مجابهة بين الدول الكبرى . ولقـــد ولد مشروع روجرز على خلفية هذا الروح ، اكثر من كونه ناشئا على خلفية أمل الولايات المتحدة في كسب نفوذ في مصر . وعلى هذا الاساس فان الخوف من ضغوط امريكية على اسرائيل نتيجـــة طرد السوفييت من المنطقة ليس له وزن يذكر . ولو كان له وزن ، لما أمكن مقارنته ابدا مـــع الفوائد المتوقعة من طرد السوفييت من المنطقة ».

كيف تواجه اسرائيل نتائج خروج السوفييت من مصر ؟ .

لقد انتهزت غولده مئير هذه الفرصة لتعلن دعوة مصر الى مفاوضات مباشرة بـــدون شروط .

واعترض المعلق السياسي يوئيل ماركوس في صحيفة « هآرتس » ٧/٢٦ على هذه الطريقة التي تتعامل بها اسرائيل على التطورات الخطيرة الاخـــيرة « ليست هذه هي الطريق التي ينبغي السير فيها. ليس المطلوب الان اطلاق البالونات ، بل المبادرة العملية من جانب اسرائيل للتسوية . لان خطوة السادات هو أمر ملموس ، تستدعي الرد بخطوة ملموسة وليس باطلاق البالونات فقط » . ويشرح المعلق السياسي ضرورة قيـــام اسرائيل بمبادرة سياسية للاقتراب من التسوية بقوله « ان خطوة السادات كانت مرحلة لا بد منها في السياق الذي بدأ منذ عام بصحوة القيادة المصرية من الامل في كسر الجمود بواسطة حرب يشترك فيها السوفييت او يساندونها على الاقل . ويقول الكاتب انـــه ليس مهما الان ان نعرف اذا كان السادات قـــد درس خطواته ، او اذا كان قراره نتيجة ضغط من قادة الجيش . المهم هو دراسة الوقائع وهي تشير الى أن السادات قد تحمل بقراره عدة مخاطر هي : أولا : بطرده المستشارين الروس من جبهة القناة قد حرر اسرائيل من كابوس المواجهة مع جنود سوفييت في حالة نشوب حرب .

ثانيا — أصبحت مصر مكشوفة أكثر أمام سلاح الطيران الاسرائيلي ، لانها أزاحت عنها الغطـــاء الجوي الذي ضمنه الاتحاد السوفييتي .

ثالثا — لقد بدأ ينتهك جزء من معاهدة الصداقة مع الاتحاد السوفييتي ، تلك المعاهدة التي تضمنت انشاء قواعد للاتحاد السوفييتي مكنته من الوجود في البحر الابيض المتوسط ضد الامريكيين . ولا يعرف رد فعل روسيا ، هل تترك هذه القواعد ؟..

رابعا — بتنفيذ قرار الابتعاد فانه يخاطر في أن الاتحاد السوفييتي سيرد على خطواته بشدة ، بشكل تحديد تزويده بالسلاح .

فماذا يترتب على اسرائيل ان تفعل الان في هذه الظروف الجديدة ؟ .

يقول كاتب « هآرتس » : « من ناحية اسرائيل يجب ان تكون هذه اللحظة ملائمة لخطوة سياسية في اتجاه التسوية ، للاسباب التالية :

١ — لان السادات قام بعمل ملموس من شأنه أن يؤدي الى ابعاد الحرب .

٢ — لانه خاطر في أن يكون الرد السوفييتي عنيفا، الامر الذي يترك فراغا في مصر من ناحية المساعدة العسكرية والسياسية .

٣ — لان هذا الفراغ قد يغري الولايات المتحدة . وقد يجر ضغطا امريكيا على اسرائيل .

٤ — لان هذه الاسباب الثلاثة تدل على أن السادات قد خطا خطوة الى الامام في اتجاه التسوية بطرق سياسية » .

واختتم الكاتب مقاله بقوله : « من الحماقة الا تستغل اسرائيل التطورات الجديدة في مصر من أجل تقريب التسوية . فعلينا أن نقدر خطـــوة السادات الشجاعة وأن نأخذ بعين الاعتبار وضعه

الحساس . ان دعوة العرب الى الدخول في مفاوضات بدون شروط مسبقة تشبه دعوة العرب الى الزحف على ركبهم . ولكن السؤال لا يدور حول التكتيك الذي ينبغي علينا اتباعه . السؤال هو : ماذا تريد اسرائيل فعلا ؟ هل هي مستعدة حقا للتنازل عن جزء من المناطق ؟ أم أنها تفضل الحديث عن السلام والبقاء في المناطق ؟ لا توجد اجابة قاطعة على هذه الاسئلة . عندنا حكومة ممتازة للحظات الحرجة في ساحة القتال ، ولكن يبدو ان هذه الحكومة غير مؤلفة للتسوية وللمفاوضات المرنة . وافضل برهان على ذلك هو أنها لا تميل الى استغلال ظروف جديدة من اجل التسوية » .

وتوقع المعلق بولس في « هآرتس » ٧/٢١ أن يؤدي قرار السادات الى تجدد المساعي الدبلوماسية في الشرق الاوسط للتوصل الى « تخفيف التوتر بين مصر واسرائيل » ويعرب عن اعتقاده في أن « الولايات المتحدة لن تضغط على السادات اكثر مما ينبغي وستفضل ان تتركه يعزز مركزه الداخلي قبل ان يتخذ خطوة اخرى ، الى ان يصبح سهلا لتأثير امريكي في اتجاه تسوية سلمية » . ويقول المعلق السياسي : « لن نفاجأ اذا زادت الاحداث الاخيرة العطف الذي تكنه واشنطن للسادات . ان بعض الشخصيات في وزارة الخارجية الامريكية الذين كانوا يقولون دائما ان بوسع الولايات المتحدة أن تعيد احتلال موقع النفوذ في القاهرة، يستطيعون القول الان انهم لم يخطئوا . وسترتفع أسهم السادات في البورصة السياسية الامريكية » . وحذر بولس من الاعتقاد القائل ان ضرب الجيش المصري الان يستطيع ان يدفع مصر للجلوس الى مائدة المفاوضات على معاهدة الصلح « لقد ابتعدت ساعة الحرب . ومبادرة عسكرية من جانب اسرائيل لاخضاع القاهرة تنقصها الظروف السياسية الملائمة » .

ويرى المعلق السياسي في « يديعوت احرونوت » ارئيل غينائي ان خطوة السادات تهدف الى تحقيق ثلاثة اهداف : « ١ — تقوية هيبة النظام ، بتحويل السادات الى الرجل الذي حرر مصر من الوصاية الروسية ، مقابل عبد الناصر الذي طرد الانجليز، ولكنه جاء بالروس . ٢ — كسب الوقت ، فالان يمكن تحميل موسكو المسؤولية عن تأجيل تحرير الارض العربية المحتلة ، وضرورة البحث عن مصدر جديد للسلاح . ٣ — شق طريق الى الغرب ، الى الولايات المتحدة والى اوروبا الغربية ، على أمل أن يأتي الخلاص من هناك ، المساعدة السياسية المطلوبة ، وربما المساعدة الاقتصادية والعسكرية ، الامر الذي يمكن مصر من عزل اسرائيل وتعريضها للضغط » .(٧/٢١).

وعن الموقف الامريكي يقول معلق « يديعوت احرونوت » : « من الواضح ان للامريكيين أسبابا غير قليلة للرضا عن الوضع . فالضربة الكبيرة التي انزلت بالسوفييت ترافقها نجاحات امريكية في أمكنة اخرى في الشرق الاوسط والعالم العربي ، ولكن ، لا يحتاج الامريكيون الى التظاهر برضاهم، فالعلاقات بين القاهرة وواشنطن لم تكن حسنة ابدا قبل حدوث التحول الكبير — اعلان السادات عن طرد الروس . ان الامريكيين ، بمحافظتهم على الصمت الحذر والتصريح بأن المسألة أمر مصري داخلي — يتيحون لمصر امكانية وفرصة السير نحوهم . ويبدو لنا ان مصر ستسير نحو الامريكيين ان عاجلا ام آجلا » .

ويضيف الكاتب : « يمكن التكهن بأن الرد الامريكي سيكون منضبطا اكثر بسبب الانتخابات ، فالبيت الابيض ليس مستعدا للقيام بأي شيء يؤدي الى عداء الصوت اليهودي لنيكسون . ولكن ماذا بعد نوفمبر ؟ من الممكن الاعتقاد ان الميل الطبيعي للامريكيين لاعادة مشروع روجرز الى مائدة المباحثات سيلجمه عاملان تحولا الى عوامل هامة في السياسة الامريكية : ١ — فكرة ان تسوية شاملة لا يمكن ان تتم دفعة واحدة ، بل يجب ان تسبقها تسوية جزئية يكون فتح قناة السويس جوهرها . ٢ — التفكير انه في الوضع الراهن للعلاقات الدولية لا يمكن تحقيق التسويات الا عن طريق المفاوضات بين أطراف النزاع » . ويستخلص الكاتب من ذلك: « ان المناورة المصرية الرامية الى تجنيد الولايات المتحدة واوروبا الغربية — وعلى رأسها فرنسا — للضغط على اسرائيل لقبول مشروع روجرز — محكومة بالفشل . ولكن اذا عرفت مصر كيف تتغلب على مخاوفها وتحفظاتها ، ووافقت على التفاوض مع اسرائيل — حول تسوية جزئية اولا وبعد ذلك حول تسوية شاملة — فعندئذ يمكن التكهن بأن واشنطن ستضغط بكل ما لها من نفوذ على اسرائيل لاظهار المرونة . ويبدو ان اسرائيل تخاطر بفقدان مكانتها كقلعة وحيدة للغرب في الشرق الاوسط » !

وكتب الجنرال عيزر وايزمن في «يديعوت احرونوت» (٧/٢١) : « ان السادات قد طرد جزءا من الروس ، وهو يتوقع تطورا امريكيا . السادات يريد تحقيق مشروع روجرز ، وسيطلب الان تسديد الشيك الامريكي . ولكن الوقت ليس مريحا للامريكيين للاستجابة الى هذا المطلب . فالانتخابات على الابواب ونيكسون يحتاج الى الصوت اليهودي . ومن هنا ، فمن المتوقع ان توحي واشنطن الى القاهرة بالانتظار بصبر حتى انتهاء انتخابات الرئاسة الامريكية » .

ويرى عيزر وايزمن ان « واجب اسرائيل هو الوقوف بالمرصاد واليقظة ، وألا يخدعها سحر خروج الروس من مصر ، وألا تغريها التلميحات الامريكية . ويجب أن نفترض بأن الامريكيين لن يشنوا حملة سياسية شاملة على اسرائيل . سيطلب الامريكيون في المرحلة الاولى التوصل الى تسوية جزئية في منطقة قناة السويس . سيقولون لنا : « من الضروري ان تمضوا نحو المصريين ، فالخطر الروسي زال ، والمصريون يبحثون عن طريقهم في عالمنا . اعطوهم فرصة » . والفرصة — من وجهة النظر الامريكية هي التسوية الجزئية على الاقل . وهنا يكمن الخطر . وعلينا ان نصمد وألا نتنازل ، لقد اثبتت التجربة ان الصبر والعناد عملا لمصلحتنا » . ويبني الجنرال وايزمن حسابه بالشكل التالي : « ان العناد الاسرائيلي قد يدفع السادات الى نفاد الصبر ، فيأمر قواته بفتح النار . وعندها يكون الفشل مضمونا اكثر من اية مرة اخرى في الماضي ، وخاصة ان المستشارين السوفييت ليسوا معه » . ويختتم مقاله : « هذه هي الفرصة التي لا تتكرر ، وعلى العالم ان يعطي اسرائيل ومصر فرصة التوصل الى مفاوضات بدون تأثير روسي ، وبدون وساطة امريكية » !.

م. د.

نشرة رصد اذاعة اسرائيل

أصدر مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية اعتبارا من ١٩٧٢/٨/١ نشرة استماع يومية للاذاعة الاسرائيلية التي تبث برامجها باللغة العبرية ، وذلك بغية تزويد الجهات المعنية والمسؤولة والمختصة في البلاد العربية (العسكريون ، السياسيون ، الاعلاميون ، الصحافيون ، الاقتصاديون ، مكاتب المقاطعة ، الباحثون الخ ...) بأخبار العدو ومواقف قادته واتجاهات سياسته والتطورات التي تطرأ عليه في مختلف الميادين ، بحيث يسهل على ذوي الشأن ، حين يطلعون على حقيقة ما يجري ويقال في اسرائيل ، اتخاذ الاجراءات اللازمة .

تتميز نشرة مركز الابحاث بأنها تتضمن تسجيلا كاملا ودقيقا للتعليقات السياسية والندوات والمقابلات وأقوال الصحف التي تبث من الاذاعة العبرية يوميا ، بالاضافة الى تسجيل جميع نشرات الاخبار . وتطبع النشرة على « الاوفست » لضمان اخراجها بشكل جيد ومريح للقارىء .

يقوم المركز بتوزيع النشرة يوميا على المشتركين في بيروت . اما المشتركون خارج بيروت فترسل لهم النشرات بالبريد الجوي ، او بأية وسائل أسرع .

يتوجه مركز الابحاث اليكم على أمل ان تشتركوا بنسخة أو أكثر من هذه النشرة . وبالنظر الى التكاليف الباهظة نسبيا للنشرة (الاستماع ، الترجمة ، السحب ، التوضيب ، التوزيع ، الورق وخلافه) فقد تقرر أن تكون قيمة الاشتراك خمسماية ليرة لبنانية للحكومات والمؤسسات العامة ، وثلاثماية ليرة للمؤسسات الخاصة والصحافة ، او ما يعادل ذلك بالعملات الاخرى ، يضاف اليها اجور البريد : في البلاد العربية ١١٠ ل. ل. ، في اوروبه ١٥٠ ل. ل. ، في الاميركتين ٤٠٠ ل. ل. ، وفي آسيه وافريقيه ٣٥٠ ل.ل.

ان مساهمتكم بالاشتراك بأكبر عدد ممكن من النسخ هو الذي سيمكن النشرة من الصدور والاستمرار والنمو (خاصة واننا ننوي أن نبدأ بعد فترة وجيزة بنقل البرامج الاذاعية الاسرائيليـة التي تبث باللغات العربية والانكليزية والفرنسية والتي سيكون لها قيمة كبيرة لدراسة الحرب النفسية التي توجهها اسرائيل للعرب ، ولدراسة التباين بين ما تذيعه اسرائيل بالعبرية لمواطنيها وما تذيعه بالعربية للعرب وما تذيعه بالانكليزية والفرنسية للرأي العام العالمي وما لذلك من فائدة كبيرة لاجهزة الاعلام العربية) .

ترسل الاشتراكات الى :

مركز الابحاث ، نشرة الاستماع

ص. ب ١٦٩١ ، بيروت .

مطبعة الغريب
بيروت

Palestine Affairs

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor,* Dr. Anis Sayegh; *Annual Subscription* (airmail): LL. 30 in Lebanon and the Arab World, LL. 50 ($ 16) in Asia, Africa and Europe; LL. 80 ($ 26) in the Americas and Australia; *Annual Subscription* (Surface mail): LL. 40 ($ 13) in countries outside the Arab World. *Address :* P. O. Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351260; Cables: MARABHATH.

السعر ٢½ ل.ل. في الوطن العربي او ما يعادلها

